مقارنة الأديان

اليهودية

تأليف
الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج
أستاذ التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

(الطبعة الثامنة) ١٩٨٨

مع زيادات واسعة وبخاصة عن الاسلام والفرق



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى
القاهرة

الطبعة الأولــى سنة ١٩٦٠

الطبعة الثانيــة سنة ١٩٦٦

الطبعة الثالثــة سنة ١٩٦٩

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٨

الطبعة السادسة سنة ١٩٨٢

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٤

(الطبعة الثامنة) سنة ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين

شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً ، والذين أوحَيْنا اليك ، وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى .

(قرآن كريم : الشورى ١٣)

كتب للمؤلف

اولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ ــ الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

ــ مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى ــ تفسير التاريخ ــ هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ ــ فائدة التاريخ ــ مراحل تدوين التاريخ ــ قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسلامى ــ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...

ــ تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر ــ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ــ السيرة النبوية المطهرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة

ــ الدعوة الاسلامية وفلسفتها ــ عصر الخلفاء الراشدين

٢ ــ الجزء الثانى : (الطبعة السابعة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ ــ الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ــ الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

ــ الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

ــ المغرب ــ الجزائر ــ تونس ــ ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .

ــ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ ــ الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

ــ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .

ــ الحروب الصليبية : دوافعها ــ ادوارها ــ نتائجها .

ــ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الثالثة)

الاســلام والدول الاســلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهــا الاســلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى :
غانة — ملى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا
الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمــد نجيب وعصر جمــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر أنور السادات . (عصر النجاح فى الشئون الخارجية والفشل فى الشئون الداخلية) . .
(ترجمت اكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١٥ — الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وامكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السادسة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)

فى الفكر الاسلامى

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المراة ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الثالثة)

وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)

فى الفكر الاسلامى

بحث علمى يبرز موقف الاسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الاسلام فى مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، واخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والاسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية المطرة :

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ الرسول فى بيته : ازواجه — أولاده واحفاده — خدمه

ج ٧ الرسول فى بيته : مشكلات الحياة فى بيت الرسول وكيف عالجها

ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم ويربى المجتمع الاسلامى

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة أو بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم أحداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة :

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها .

ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية

ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان والفتنة فى عهده

ج ٢٠ (٤) على بن ابى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجههـا

ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام

ج ٢٢ (٧) سعد بن ابى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح

ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية :

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — اسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى ادائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل فى ميدان المقارنة .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : أسراره واعجازه .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم :

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن — قصة اصحاب الكهف .

ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .

ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة اصحاب الجنة .

ج ٣٠ قصة عزير — قصة ايوب عليه السلام

ج ٣١ قصة قارون — قصة اصحاب الأخدود .

ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .

ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : **الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :**

ج ٣٤ لماذا انحرف المؤرخون بتاريخ الأمويين .
نماذج من عباقرة الأمويين .

ج ٣٥ اتجاهات حضارية من صنع الأمويين .

ج ٣٦ اتساع العالم الاسلامى يد من أيادى الأمويين .

ج ٣٧ نشاط الشيعة فى العهد الأموى ، وقصة استشهاد الأمام الحسين .

المجموعة السادسة : الاسلام والمرأة :

ج ٣٨ المرأة فى الحضارات القديمة .
المرأة فى أوربا خلال العصر الوسيط .
ماذا قدم الاسلام للمرأة ؟ .

ج ٣٩ سيدات مسلمات : السيدة زينب أخت الامام الحسين .

ج ٤٠ سيدات مسلمات : بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .

ج ٤١ سيدات مسلمات : عائشة بنت طلحة .

ج ٤٢ زيجات شهيرة فى التاريخ : بوران — قطر الندى .

ج ٤٣ سيدات مسلمات : رابعة العدوية .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل أعداد « المكتبة الاسلامية » ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

كتب للمؤلف

ثالثا : مقــــارنة الأديــــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمــد على أدق المراجــع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهــودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهــود فى التاريخ من عهــد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة الثامنة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة.

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدها .

٢٣ — الجزء الثالث : الاســلام : (الطبعة الثامنة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منــه ، السياسة والاقتصاد فى الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتــا .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجــود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثا او رسالة (الطبعة السابعة عشرة)

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals

٢٧ — History of Muslim Education

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)

٢٨ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam

٢٩ — Masjarakat Islam

٣٠ — Hukum Islam

٣١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam I

٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam II

٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam III

٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٥ — Perbandingan Agama (Masihi)

٣٦ — Perbandingan Agama (Islam)

٣٧ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)

٣٨ — Sadjarah Pendidikan Islam

٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤٠ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤١ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi

٤٢ — Perang Salib

٤٣ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٤ — Pengajian Al Quraan

٤٥ — Sedjarad Kehakiman Dalam Islam

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسّر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— اول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسة الكتابين التاليين :

٤٦ — **تعليم اللغة العربية لغير العرب :** (الطبعة الثالثة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت فى اسلوب مناسب ، مع اسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٧ — **قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها :** (الطبعة الثالثة)

عرض لجميع ابواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لاهم ابواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـاد طبعها

٤٨ — فى تصور الخلفاء العباسيين :
اكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى :

٥٢ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها
واكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة

محتويات الكتاب

البـاب الثـانى

أنبيـاء بنى اسرائيل وعقيـدتهم من القرآن الكريم (١٢٧ — ١٤٩)

البـاب الثـالث

أنبيـاء بنى اسرائيل وعقيـدتهم من غير القرآن الكريم (١٥١ — ٢٢٥)

فهـــــرس الخرائط

اليهودية

مقـدمة الطبعة الأولى

يارب ••• إنه من أجمل ساعات العمر أن يصـل الإنسان الى الغاية التى يَنْشُدُها ، وأنا بعونك قد وصـلت فى ميدان هـذه الدراسة الى الغاية التى رجوتها •

يارب ••• لقد دخلت ميدان مقارنة الأديان بين الأمل وبين الخوف ، ثم تغلَّب الأمل على الخوف ، ثم أصبح الأمل حقيقة ، فأخرجتُ أجزاء هـذه السلسلة على نحو ما أردت أو أحسن مما أردت ، وأُحِسُّ الآن — فى نشوة وتواضـع — أننى قدمت لدينى ولوطنى شيئاً أعتزُّ به ، فإن هـذه الدراسة عن مقارنة الأديان هى الأولى من نوعها فى المكتبة العربية •

يارب ••• أشكرك شكر من يعرف حقَّك ، ويعترف بأن نجاحه كان منـك ، وأن هدايتك هى التى ألهمتنى التوفيق ، وسكَبَتْ الضـوءَ أمامى •



وقـد بدأت دراستى فى مقارنة الأديان حوالى منتصف هذا القرن ، (القرن العشرين) فوجدتها دراسـة شاقة ، كثيرة المراجع ، متشـعبة الاتجاهات ، ولو أخـذنا الإسلام مثالا لكلامنا ، واستعرضنا ما كتب عنه لهالنا الموقف : لقـد كتب عنه اليهود والمسيحيون والمسلمون بطوائفهم ، وتختلف وجهات النظر اختلافاً كبيراً فى هـذه الكتابات ، بل إن ما كتبه المسيحيون يختلف من كاتب الى كاتب ، أما ما كتبه اليهود أو أكثره فهـو غالبا سلسلة من الاتهامات والعدوان •

وسرت فى مقارنة الأديان على الرغم من هـذه الصعوبات واتخذت الصبر وسيلتى ، ورحت فى بحث علمى لم تتدخل العاطفة فيه ، أقرأ ، وأستوعب ، وأناقش ، وأقارن ، وأخطِّط ، وأعرض ؛ حتى استطعت بعد

اثنتى عشرة سنة من الكدح والعمل الدائب ، أن أُخرجَ الجزء الثانى عن « المسيحية » فالجزء الثالث عن « الإسلام » فالجزء الرابع عن « أديان الهند الكبرى : الهندوسية ، والجينية ، والبوذية » وتأخر إخراج الجزء الأول عن « اليهودية » ، وكان عجيباً أن ينشر الجزء الثانى والثالث والرابع قبل الأول ، ولكن النظرة الفاحصة تدرك مدى الصعوبة التى يلاقيها باحث منصف عن اليهودية ، فاليهود كتبوا عن دينهم وتاريخهم أعداداً ضخمة من المراجع والكتب ، صوّروا فيها تاريخهم بأنه تاريخ البشرية ، وحضارتهم بأنها منبع الحضارات ، وعقيدتهم بأنها أسمى العقائد ، وهاجموا تاريخ سواهم ، وأديان سواهم ، وشوّهوا صور أبطال العالم غير اليهود . وكان لابد أن نُحقِّقَ الحق بين هذه المَوْجة الصاخبة من المراجع ، لنأخذ منها الرأى المنصف ، والفكرة العادلة ، دون تأثر بميل أو هوى .

وبجانب مشكلة المراجع والأفكار كانت هناك مشكلة العداء بيننا وبين اليهود ، وهى مشكلة عصيبة بالنسبة للبحث العلمى . ومن الواضح أن اليهود يحاربوننا بكل سلاح ، وأن سلاح القلم والفكر من أقوى أسلحتهم ، ولكنى حاولتُ ألا أنزل هذا الميدان فى مجال البحث العلمى ، وكان علىَّ أن أبحث عن الحقيقة دون تأثر بأية عوامل ، لأقدّم لقرائى أدق الحقائق من أصدق المصادر فالبحث العلمى أمانة ، أمانة فى محراب الجامعة ، وأمانة فى محيط القراء ، ومن الممكن أن يتكلم الإنسان من زاوية أو أخرى ، ولكنه عند ما يكتب يترك هذه الزاوية ويدع تلك ، ويبحث عن الحق أنىَّ يكون .

وهذا الموضوع يقودنى الى كلمة صريحة لا أجد مناصاً من الإشارة اليها ، هى أنه فى مجال الخلاف والعداء بيننا وبين اليهود ، وفى أعقاب نكبة فلسطين ، كتب العرب عشرات الكتب أو مئات الكتب عن القضية وعن فلسطين ، واضطررت لقراءتها جميعاً وأنا أُعِدُّ هذا الكتاب ، ولكنَّ كثيراً منها كان قليل الجدوى ، كان فيضاً من السِّباب

والشتائم لا تعطى فكرة ، ولا تحقق هــدفاً ، حتى وجدتنى أحياناً أقول : هل يتحتم على كل الناس أن يكونوا مؤلفين ؟ .

إننى أدرك أن استعادة فلســطين لابد أن تمر بعــدة مراحل ، وأن المرحلة الأولى هى مرحلة الكلمة المقولة والكلمة المكتوبة ، ولكن هذه المرحلة لابد أن تكون أكثر خصوبة مما هى عليه الآن حتى تقود للغاية التى ترمى إليها ، ولندرس تجربة اليهود فى هــذا المجال ، فقــد كانوا يعتقدون أن فلسطين وطنهم ، وكانوا يعملون للعودة الى هــذا الوطن ، ومروا بالمراحــل التى نمر نحن بهــا فى وقتنا الحاضر ، فكتبوا عن فلسطين كتبــاً ومقالات وأبحاثا ، ولكن دونهــا المتخصصــون والأساتذة وكبار الباحثين بمختلف اللغــات ، حتى أوهموا الكثيرين بأن الحق فى جانبهم (١) . فإذا أردنا نحن أن نكتب أو نتــكلم ، وهذا واجبنا الآن ، فلتكن كتابتنا وكلامنا فى المستوى الذى يليق بهــذه القضــية .

وعن الصراع بيننا وبين اليهود حــول فلسطين أحب أن أقول إنه على هــذه البقعة نفسها زحف الصليبيون يوماً ، واحتلوها ، وبدأت الجهــود الإسلامية العربية تعمل لطرد المحتل ، وكان من أقــوى الوســائل ، تلك الوحــدة التى جمعت العرب فى إطار واحد وقوة واحدة ، بقيادة نور الدين زنكى وصــلاح الدين الأيوبى ومن جاء بعدهما ، وقد طوقت هــذه القوة الأرض المحتلة وزحفت على العــدو فقضت عليه ، ويوم تعود الوحــدة العربية التى هى أنشــودة العرب جميعا ، ســيكون من الممكن أن نضرب اليهود ضربة قاصــمة كتلك التى أنزلها صلاح الدين بالصليبيين فى حطين .

هل نخاف تدخل دول الغرب ... ؟

---

(١) ليس الغربيون فقط هم الذين خدعهم ما كتبه اليهود ، بل ان كثيرين من العرب والمسلمين خدعوا ايضا ، وطالما سألنى طــلابى : أليست فلسطين وطن اليهود ؟ أليس من حقهم أن يعودوا لوطنهم ؟ وفى الصفحات الآتية ايضاح لزيف هــذه الأسطورة .

الإجابة الحازمة هي بالنفي ، فيجب ألا ننسى أن هذه القوى لم تكن بعيدة عن المعركة إبان عهد صلاح الدين ، وقد استطاع بطلنا أن يقف في وجه تحالف ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربا روسا إمبراطور ألمانيا ، ولم يستطيع هؤلاء أن يكسروا شوكته أو ينالوا منه .

يارب ... هيىء الظروف التي نستطيع بها أن نطهر أرضنا المقدسة مما حل بها من رجس وما نزل بها من داء .



وهناك جهود بذلت من أجل فلسطين ولا تزال الجهود تبذل ، وقد اشترك في هذه الجهود ، الجنود الأبطال ، ورجال السياسة ، والكتاب ، ورجال الصحابة ، والشعراء ، وغيرهم ، ولا تزال في حاجة الى جهود وجهود من كل هؤلاء ، فالمعركة في حاجة الى فكر ودماء وأقلام ومال ، وهذا الكتاب وسيلتي في هذا المجال ، وهو في الوقت نفسه هديتي لأرواح الشهداء الذين سقطوا أو سيسقطون في هذه المعركة الكريمة .



وليس في النية — الآن — أن أواصل الكتابة عن أديان أخرى ، كالزرادشتية والكنفوشية والأديان البدائية وغيرها ، لسببين :

اولا : أن الهدف الذي قصدتُ اليه كان الكتابة عن الأديان السماوية . فهي التي تعنينا أكثر من سواها ، ويدور بينها صراع طويل كان لابد أن نتتبع دوافعه وأن نتبين أهدافه ، ثم امتد بنا الحديث الى البوذية ، لأنها دخلت ميدان التنافس في الدعوة والانتشار وبخاصة في الشرق الأقصى ، ولم يكن من الممكن أن نتكلم عن البوذية دون الحديث عن أديان الهند ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن أفكاراً جمة تسربت من

أديان الهنـد واختلطت بعقائد الديانات السـماوية ، وسيتضح ذلك من الدراسة الآتية ، ومن هنا كانت دراسة أديان الهند ضرورية ، ولا يتحقق هـذا فى الزرادشتية والكنفوشية والأديان البدائية ، فهذه الأديان تنكمش الآن ولا تأثير لها يذكر فى عقائد الديانات السماوية واتجاهاتها .

ثانيـا : إن دراساتى فى التاريخ الإسلامى تحتاج الى جهـدى كله فى الوقت الحاضر ، رجاء أن أكمل أجزاء موسوعة التاريخ التى كان إقبال القراء عليها داعياً الى مزيد من الجهد ومزيد من العناية [١] .



يارب ... هيىء بهذا الكتاب النفع ، واجعله خالصاً لوجهك الكريم .

دكتور أحمـد شلبى

---

(١) ظهرت بفضل الله الأجزاء التسعة من موسوعة التاريخ الاسلامى ، وبقى منها الجـزء العاشر عن أنور السادات وعهـده ، وهـو الذى اعمـل فيـه الآن .

مقـدمة الطبعة السـابعة

« الله أكبر » ذلك هو الهتاف الذى دوَّى ظهر العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ (السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣) وفى ظله انطلق جنودنا يقتحمون الصـعاب ، ويهبطون كالقَدَر على العـدو الصهيونى ، فبدّدوا قوته ، ودمروا بنيانه ، واستطاعوا أن يستردوا الأرض السـليبة وأن يستعيدوا كرامة مصر ، وأثبتوا أنهم أحفاد الأبطال الذين قضوا على الهكسوس فى التاريخ القـديم ، وعلى التتار والصليبيين فى العصـور الوسطى ، والذين اقتحموا شرق البحر المتوسط وآسيا الصغرى وقلب إفريقية فى القـرن التاسع عشر حاملين القوة والحضـارة ، على أسـنة الرماح وأسـنة الأقـلام .

« الله اكبر » لقد زالت سنوات الهزائم ، وجاء عهـد النصر بعـد أن غربت شمس عبد الناصر ، فقد كان عهـد هـذا الرجل عهد حقـد فى النفوس واضطراب فى الجهاز الحاكم ، ولهـذا لم يستطع جيشنا أن يحقق اى نصر ، بل مُنِىَ بهزائم قاتلة فى عـدة أمكنة ، وفى عـدة أزمنة ؛ فى اليمن وفى سـنة ١٩٥٦ وسـنة ١٩٦٧ ، كما ازدحم عصره بأنين المقهورين وصرخات المظلومين .

وفى عهـد السادات حققنا النصر الذى رفـع رءوسنا ، وكان عـلى الرجل ان ينحنى لله شـاكرا ، وان يدرك ان النصر من الله ، وأن جهـد الشعب فى نَيْله عظيم ، ولكن الرجل اكتسى بهذا النصر ثوبا سـميكا من الغرور ، واندفع للعودة للديكتاتورية وحياة المعتقلات والتأله ، فدفع رأسه ثمنـا لهـذا الانحراف .

فاللهم نسألك الا تدفع لمكان الرياسة فينـا مَنْ يجعل بأسنا بيننـا شديداً ، ومن يفسح الطريق لانتصار أعداء الإنسانية ، ولا من يخـدعه الغرور فيرفع نفسه الى شاهق ، ثم يهوى منه فلا يجـد من يترحم عليه .

وألهم يارب كل حاكم أن يدرك أن لكل إنسان نهاية ، وأن الظلم مهما طال سينهار ، وأن التاريخ لا ينسى الذين أساءوا والذين أحسنوا ، وأن الذين يخدعون الغوغاء لا يستطيعون أن يخدعوا التاريخ ، وأن عقوبة التاريخ أطول وأقسى من كل نعيم يحرص عليه الظالمون .

* * *

يارب إن أرواح الشهداء فى الحروب الخاسرة ستمسك بتلابيب الظالمين ، فإن هزيمتهم وقتلهم لم يكونا عن ضعف ولكن عن سوء تدبير ، فارعنا يارب حتى لا تنزل بنا هزيمة مرة أخرى ، وبخاصة أن عدونا لا يعرف القيم ولا الأخلاق ، وقد وَجَد فى حكام عهد الهزائم وسيلته ليضربنا ويقسو علينا .

* * *

وكالعهد بنا يارب نشكرك أجلّ الشكر ، وننحنى لعطائك ، فقد كان التوفيق الذى منحتَه لهذه السلسلة أعظم مما تمنيتُ ، ومع هذا فأطماعنا فى عطائك تزداد ، وآمالنا فى جاهك تنمو .

والشكر للقارىء الكريم على إقباله وتشجيعه ، مع الوعد أن أبذل أقصى الجهد لأطوّر عملى وأحسّنه . ويسرنى أن **هذه الطبعة فيها زيادات ذات بال ترتبط بالماسونية وأندية الروتارى والليونز ومنظمة اليوجا ، ذلك الوباء الذى دفعت به الصهيونية الى أرضنا فى لفافات براقة ، وأوشك أن يفرخ فى هذه الأرض عند من لم يعرف أن السم يختفى بين ثنايا هذه اللفافات والمؤسسات .**

فنسألك اللهم أن تحقق بهذا الكتاب الخير ، وترشد به الناس ، وتجعله من العلم الذى ينفع صاحبه فى دنياه وآخرته ، إنك نعم المجيب .

فى الثانى من يناير سنة ١٩٨٤

دكتور أحمد شلبى

مقـــارنة الأديان

عــلم إسلامى ضــاع ثم عــاد

من مفاخر المسلمين أنهم هم الذين ابتكروا عــلم مقارنة الأديان ، وسنرى أن مفكرى الغرب يعترفون بذلك ، ومن الطبيعى أن هــذا العلم لم يظهر قبل الإسلام ؛ لأن الأديان قبل الإسلام لم يعترف أيٌّ منهـا بالأديان الأخرى ، وكان كل دين يـَعـُدّ ما سواه من الأديان والأفكار هرطقة وضلالا وحســبك أن تتذكر موقف اليهودية من المسيحية ومن المسيح ، وبالتالى موقف المســيحية من اليهودية واليهــود ، فاليهودية لم تعترف بالمسيحية ولا بالمسيح واعتُبِر المســيح ثائراً استحق عنــدهم الحــكم بالإعدام ؛ والمسيحية اعتبرت نفسها وريثة اليهودية ولم تر مع وجــودها وجوداً لليهودية . ومثل ذلك موقف الهندوســية من البوذية والبوذية من الهندوسية ، ومثله موقف المسيحية من الإسلام بالأندلس .

بل وصــل الأمر الى أكثر من ذلك ؛ إذ أنكرت كلّ طائفة دينية جميع الطوائف الأخرى المنتسبة لنفس الدين وعدّت اتجاهاتها هرطقة وضلالا ، وربما حكمت كل منها بالإعــدام على أتباع سواها ، وحسبك أن تذكر مذبحة باريس التى حــدثت فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ حيث سطا الكاثوليك على ضيوفهم البروتستانت فذبحوهم وهم نيــام ، وأصبحت شــوارع باريس تجرى بدماء الضحايا ، وراح البابا يهنىء ملك فرنسا على هذا التصرف .

وهــذا الاتجاه كان هو الاتجاه العام بين الأديان وبين المذاهب .

ومن هنــا لم يوجد عــلم مقارنة الأديان قبل الإسلام ، لأن المقارنة نتيجة للتعدد ، ولم يكن التعدد معترفاً به عند أحد ، فلم يوجد ما يترتب عليه وهو المقارنة .

وجاء الإســلام وكان موقفه بالنسبة للأديان الأخرى ينضوى تحت اتجاهين : الناحية النظرية ، والناحية الواقعية :

فمن الناحية النظرية يعلن الإسلام أنه الحلقة الأخيرة فى سلسلة الأديان ، وأنه بالتالى ورث أهم ما فى الأديان السابقة وأضاف الى ذلك ما تحتاجه البشرية فى مسيرتها الى يوم الدين ، قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) [١] وبذلك يصبح الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا دين سواه قال تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام)[٢] • وقال (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ منه) [٣] •

ويجمع المفكرون المسلمون على أن كل رسول يجىء برسالة تناسب زمانه وتحقق أغراضها فى ذلك الزمان ، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق مع الأديان السابقة فى أصل الوحدانية الكبير ويختلف فى فروعه تبعاً لحاجات الناس ، وهذا هو موقف الإسلام بالنسبة للأديان السابقة ، وبالنسبة لحاضر البشرية ومستقبلها ، ويتجه المفكرون المسلمون فى تفسير قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد) [٤] يتجهون الى أن الكفر بأى دين من الأديان التى نزلت بها الكتب المشار اليها ضلال يستحق مرتكبُه العذاب الشديد •

واذا كان هذا هو موقف الإسلام بالنسبة للأديان الأخرى من الناحيه النظرية فإنه من الناحية الواقعية يعترف بالوجود الفعلى لجماعات غير مسلمة ، ويتحدث عن أهل الكتاب وأهل الذمة ، وينظم حقوقهم وواجباتهم ، وفى ضوء هذا وُجِدَ علم مقارنة الأديان •

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥ .
(٤) سورة آل عمران الآيات ١ — ٤ .
(٥) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ٥٣ — ٥٤ .

القرآن الكريم وعـلم مقارنة الأديان :

إن القــرآن الكريم يضــع جـذور عـلم مقارنة الأديان عنـدما يقول « ولا تجادلوا أهل الكتـاب إلا بالتى هى أحسن » (١) فالمجـادلة بالحسنى هى مفهوم هذا العـلم ، بل ورد فى القرآن الكريم بعض الآيات التى تحمل اتجـاه المقارنة كقوله تعـالى (لو كان فيهما آلهـة إلا الله لفسدتا) (٢) • ففى الآية مقارنة بين التوحيد والتعـدد ، وبيان أن التعدد يسبب الفساد ، ومثل قوله تعـالى : (أفمن يخـلق كمن لا يخلق) (٣) ففى الآية نوع من المقارنة ، فالخالق الأعظم لا يمكن أن يماثله هـذا النوع من الآلهة التى لا تستطيع أن تخلق ذباباً ولو اجتمعت هذه الآلهة لخلقه •

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة أخـرى للمقارنة ، كمـا أن القرآن تحـدث عن كثير من الأديان سماوية كانت أو وضعية ، فتحدث عن اليهود واليهودية والمسيح والمسيحية ، وتحـدث عن عبدة الأصـنام والطاغوت والملائكة ، وسماهم القرآن أدياناً مع بطلانها ، قال تعالى : (لكم دينكم ولى دين) •

الحـديث الشريف وعـلم مقارنة الأديان :

واهتم الرسول صـلوات الله عليه بعـلم مقارنة الأديان كما تفيد ذلك كتب الأحاديث وكتب السيرة ، وقـد أورد ابن هشام محاورة رائعة بين الرسول عليه السلام وبين عدى بن حاتم الطائى ، الذى كان قد اعتنق المسيحية وهى تعـد دراسة جيـدة فى علم مقارنة الأديان ، وقد انتهت بأن أعـلن عـدى دخول الإسلام وتبعه قومه (٤) •

---

(١) العنـكبوت ٦ •
(٢) الانبيـاء ٢٢ •
(٣) النحـل ١٧ •
(٤) موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف جـ ١ ص ٤٢٦ وما بعـدها من الطبعة الحادية عشرة •

وجرت مناقشات بين الرسول وبين اليهود حول الكتب المقدسة وكان محسور بن سبحان هو المتحدث عن اليهود ، وقد سأل هذا رسول الله سؤالا هو : ما دليلك على أن القرآن من عند الله ؟ فجاء الجواب من الله « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » [١] .

وجرت مناقشات كثيرة بين اليهود وبين الرسول ، وكان بعضها يجرى فى « بيت المدراس » وجرت مناقشات أخرى بين الرسول وبين وفد نجران من النصارى ، وعلى إثر المقارنات والمجادلات الدينية الهادئة دخل الإسلامَ من اليهود بعض قادتهم مثل عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسد بن عبيد ، كما دخل الإسلامَ كثير من نصارى نجران .

وقد أوردنا بعض التفاصيل عن هذه المقارنات والمجادلات فى كتابنا « تاريخ المناهج الإسلامية » [٢] .

تدوين علم مقارنة الأديان عند تدوين العلوم الإسلامية :

فلما جاء عصر التدوين فى منتصف القرن الهجرى الثانى وبدأ المسلمون يكتبون الفقه والتفسير والحديث اتجهوا كذلك للكتابة فى علم مقارنة الأديان ، فهو بذلك علم إسلامى كباقى العلوم الإسلامية ومن المشاهير الذين كتبوا فى مقارنة الأديان النوبختى (٢٠٢ هـ) ويعتبر كتابه « الآراء والديانات » أول كتاب فى هذا المجال ، وبعده كتب المسعودى (٣٤٦ هـ) كتابين عن « الديانات » ثم جاء المسبحى (٤٢٠ هـ) فكتب كتابه « درك البغية فى وصف الأديان والعبادات » وهو كتاب مطول يقع فى حوالى ثلاثة آلاف ورقة . وكثر بعد ذلك التأليف فى هذا المجال ، ومن أبرز الكتب التى كتبت عن الملل والنحل واتخذت هذه التسمية عنوانا لها كتاب « الملل والنحل » لأبى منصور البغدادى (٤٢٩) وكتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم الأندلسى (٤٥٦) وكتاب

---

(١) النساء ٨٢ .
(٢) ص ٩٨ وما بعدها .

« الملل والنحـــل » للشهرستانى (٥٤٨) وهناك كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » لأبى الريحان البيرونى ، وهو — كما ينبىء اسمه — خاص بأديان الهنـــد وليس شـــاملا للأديان والعقائد المختلفة كالكتب السابقة .

ويقرر أن هـــذا العـــلم علم إسلامى ، ولكنه لا يعود به الى أصـــوله القرآنية أو المرتبطة بالأحاديث الشريفة ، ويكتفى بظهوره كعـــلم فى مرحلة التدوين ، وكلماته هى [١] :

إن تسامح المسلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى ، ذلك التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى ، كان سببا فى أن يلحق بمباحث عـــلم الكلام شىء لم يكن قط من مظاهر العصـــور الوسطى وهو عـــلم « مقارنة الأديان » ونشأة هـــذا العلم لم تكن من جانب المتكلمين ، ومعنى ذلك أن هذا العلم لم يكن وسيلة عند المسلمين للحط من الأديان الأخرى ، وإنما كان دراســـة وصفية ، لا تعصب فيها ، تؤدى الى نتائجها الطبيعية . وبواسطة هـــذا العلم دخل الآلاف والملايين فى الدين الإسلامى .

أسباب اختفاء مقارنة الأديان :

ضَعُفَ عـــلم مقارنة الأديان واختفى لأســـباب أوردناها فى كتابنا « تاريخ المناهج الإسلامية » ونورد فيما يلى خلاصة لهـــا :

١ — ازدحمت قصور الملوك والخلفاء فى عصور الضعف بزوجات من أهل الكتـــاب ، وبعدد من الأطباء والوزراء من غير المسلمين ، وبسبب نفوذ هؤلاء ضعف صـــوت مقارنة الأديان الذى كان يطعن فى عقائدهم المنحرفة ، وقـــد استطاع أصحاب النفوذ أن يسكتوا أصـــوات المتحدثين فى مقارنة الأديان ، حتى اختفت هـــذه المـــادة من الدراسة ومن المناهج .

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣٦٦ .

٢ ــ زحف الصليبيون على الشرق الإسلامى بقصــد تدمير الإسلام والمسلمين ، وقابل المسلمون القوة بالقوة ، وكان من الواضح أن الصليبيين لا يعرفون التسامح الدينى ولا الجــدال بالحسنى ، فخفت صــوت هذه المجادلة تحت صليل السيوف .

٣ ــ فى عصور الضعف التى ألمت بالمسلمين اتجه أكثر فقهاء المذاهب الى التعصــب لمذاهبهم الفقهية ، وقلّ أو انعــدم اطلاعهم على المذاهب الأخرى ومن باب أولى قلّ أو انعــدم اطلاعهم على الأديان الأخــرى وقضــاياها .

٤ ــ ومما دفع المسلمين الى إهمال علم مقارنة الأديان ــ بالإضافة الى ما سبق ــ أن بعض المسلمين تبنوا الاتجاه الذى كان سائداً لدى أتباع الأديان السابقة للإســلام ، فقــد كان هؤلاء لا يعترفون بغــير دينهم ، وبالتالى لا يعترفون بإمــكان المقارنة بين الأديان ، فلمــا اقتبس بعض المسلمين هــذا الاتجاه دانوا به ، ووجــد منهم من يهاجم مقارنة الأديان باعتبار أن الإسلام لا يُقارن بسواه ، وقــد نسى الذين ينتهجون هــذا الاتجاه ما سبق أن أوردناه من أن القرآن الكريم هو الذى وضــع جــذور هــذا العــلم ، ووجدت به بعض آيات تحمل اتجاه المقارنة .

انتقال عــلم مقارنة الأديان للغرب :

اذا كان المسلمون فى عصــور الظلام قــد أهملوا مقارنة الأديان لسبب أو لآخر ، فإن موقف المسيحيين من هــذا العــلم كان مختلفاً ، لأن اللقاءات السلمية بين المسلمين والمسيحيين فى الشام والأندلس وصــقلية عرّفت المسيحيين بمقارنة الأديان ، وأثبتت لهم قيمة هــذا العلم فراحوا يتعلمون أسسه ويحاولون الانتفاع به .

ثم جاء عصر الاستعمار ، وقرر الخبراء من المبشرين أن الإنســان به نزعة دينية فى أعماقه مهما كان مادياً أو تظاهر باللادينية ، كما قرروا

أن رباط الدين لا يقل عن رباط الدم والجنس ، ثم إن معرفة الداعى بدين المدعو واعتقاده ، يساعد كثيراً فى التأثير عليه ، وبناء على هذه الأسس زاد علم مقارنة الأديان بالغرب نشاطاً ليكون من وسائل التبشير ونشر المسيحية .

عودة مقارنة الأديان للساحة الإسلامية :

بيد أن المسلمين فى العصر الحديث أفاقوا من غفوتهم ، وراحوا يحاولون أن يستعيدوا الزمام ، وأن يُحيوا من جديد علم مقارنة الأديان ليكون فى أيديهم سلاحاً فى الحاضر كما كان سلاحاً فى الماضى ، وقد سار جيلنا فى هذا الطريق شوطاً طيباً حتى استطعنا أن نصل حاضرنا بماضينا فى مجال هذه الدراسات ، وبدأ الدعاة المسلمون يطبقون قوانين هذا العلم وهم يقومون بالدعوة للإسلام .

وهكذا عاد علم « مقارنة الأديان » للظهور فى معاهد العلم الإسلامية ، ولكنه فى الحق لم يأخذ بَعْدُ مكانه اللائق ، ونرجو أن يتجه إليه مزيد من الاهتمام ليلعب هذا العلم دوره فى التعريف بالإسلام وردّ العدوان عنه ، وليكشف عن أنواع الزيف التى ألصقها المغرضون بكثير من الأديان ، ويوم ينشط هذا العلم ستخبو ترهات الباطل ، وتتضح معالم الحق ، وليس هذا اليوم ببعيد .

ونحب أن نوضح أن بعض المفكرين يستعملون أحياناً مقارنة الأديان فى بحوثهم ربما بدون أن يقصدوا الخوض فى هذا العلم ، ولعل من ذلك ما ورد فى كتاب « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » ونصه « الدلائل الدالة على صدق محمد أعظم من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ، ومعجزات محمد أعظم من معجزات غيره ، والكتاب الذى أرسل به أشرف من الكتب التى بعث بها غيره ، والشريعة التى جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى ، وأمته أكمل فى جميع الفضائل من أمة

هـذا وذاك ، ولا يوجد فى التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو فى القرآن أو مثله أو أكمل منه ، وفى القرآن من العلم النافع والحث على العمل الصالح مالا يوجد فى التوراة والإنجيل ... » [1] .

فهذه اتجاهات مفاضلة ، ولكنها فى الحق نتائج بدون مقدمات ، وعندما يمسك بها علم مقارنة الأديان يُخْرِج منها ثروة فكرية رائعة تبرز جمال الإسلام ورجحانه على سواه ، فعلم مقارنة الأديان يمسك القضايا الدينية ويشرحها ويبرز عناصرها ، ويقارن بينها ، كما فعلنا فى قضية الألوهية حيث عرضنا اتجاهات الأديان المختلفة تجاه الله سبحانه وتعالى ، وقد وضّحت هذه الاتجاهات أن الفكر الإسلامى قمة شامخة ، وأن ما سواه حافل بالانحراف والوثنية والتعدد ، ومثل هذا ظهر عند ما تدارسنا معجزات الأنبياء ، والكتب المقدسة ، والتشريع ، وغير هذه من القضايا .

وفى كلمة مجملة نتمنى ان يعود علم مقارنة الأديان الى المعاهد الإسلامية ، وأن يأخذ قدره بين العلوم الإسلامية ، ليخدم الإسلام فى الحاضر والمستقبل كما خدمه فى الماضى .

ولكننا نحذر من شىء نخشى وقوعه ، أو قل إنه وقع فعلا ذلك أن بعض الجامعات الإسلامية اتجهت لإحياء مقارنة الأديان ، ولكنها للأسف وكلت تدريس هذه المادة لغير المتخصصين وغير المتحمسين ، وكانت النتيجة أن ظهر كائن هزيل سمى مقارنة الأديان ، وهو ليس كذلك ، ومن أجل هذا أتمنى ان تكوّن لجان دقيقة لتضع الخطة التفصيلية لهذه المادة .

---

(١) نقلا عن : الكواشف الجلية عن معانى الواسطية ص ٤٥ للاستاذ عبد العزيز المسلمان (من مطبوعات رابطة العالم الاسلامى) .

فائدة علم مقارنة الأديان :

استكمالا للحديث عن مقارنة الأديان يجدر بنا أن نلخص الفائدة العظمى التى يحصل عليها المسلمون من مدارسة « مقارنة الأديان » ، وهى بإيجاز كالآتى :

أولا : الأديان من منبع واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والإسلام خاتمتها ، ولذلك كان أشمل وأكمل ، فمن طبيعة اللاحق أن يضيف جديدا للسابق ، ومع أن الأديان من الله فإنه تعالى أعطى الدواء بقدر طاقة المريض ، فكان يعطى البشرية من الهدى والتوجيه بقدر ما تحتمله البشرية ، وما يناسب عودها الذى بدأ ضعيفاً ثم اشتدّ رويداً رويداً حتى اكتمل نموه ، وقد تحدث الإمام محمد عبده عن هذا التطور فى الأديان ، وشرحنا ذلك بإضافة فى كتابنا « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان فى موضوع خاص بعنوان « تطور الرسالات مع تطور الجنس البشرى » .

ومن الواضح تبعاً لذلك أن المسلم عندما يقرأ الكتب المقدسة سيعرف المكانة العظمى للقرآن بين هذه الكتب ، وكذلك عندما يقرأ التشريع هنا وهناك ، وعندما يدرس العقيدة وهكذا .

ثانيا : إن دراسة علم مقارنة الأديان ستلزم الدارس أن يتعرف عن تاريخ كل دين ، والى أى مدى تأثر أو انحرف فى رحلته التاريخية الطويلة ، وستقوده هذه الدراسة العلمية الى حقيقة مهمة هى أن المسيحية الحالية مثلا ليست مسيحية عيسى على الإطلاق ، وأن اليهود جعلوا تاريخهم بعض دينهم ، وإن المحاولات التى جرت للانحراف بالإسلام قد فشلت تماماً ، وحافظ ديننا على نقائه بفضل القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول الصحيحة ، وأن ما دخل عليه من إسرائيليات أو نحوها هى الآن هدف هؤلاء الباحثين المسلمين للقضاء عليها .

ثالثاً : سيدرك الباحث فى علم مقارنة الأديان أن كثيرا من المسلمين بعدوا عن الدين الصحيح ، فهم عرفوا مبادىء الإسلام ولكنهم بعدوا عن أخلاقه ؛ فمنهم مَنْ يستطيع أن يفسر آيات الحسد ولكنه يحسد ، ويفسر آيات التعاون ولكنه لا يتعاون وهكذا ، واذا انحرف هؤلاء وبخاصة ممن يُعْرَفون برجال الدين انجرَّ سواهم الى الانحراف عن الإسلام . وعلم مقارنة الأديان يدرس طبيعة الإسلام ويبحث عن أسباب بُعْد المسلمين عنه ، ويعالج هذا الأمر بعناية ليعود المسلمون للإسلام الصحيح .



أسس لدراسة « مقارنة الأديان »

أولا — فيما يتعلق بالمنهج :

لدراسة مقارنة الأديان طريقان :

١ — الطريق الأول أن تكون المباحث الكبرى بالأديان هى عناوين الكتب ؛ كأن نكتب كتاباً عن « الله » وندرس به مختلف الاتجاهات عن الإله ، ونكتب كتاباً عن « النبوة » وثالثاً عن « التشريع » ، وهكذا ... وقد سار على ذلك المنوال بعض الباحثين مثل الأستاذ العقاد فى كتابه « الله » . ومثل Max Muelle(ماكس مللر) فى كتابه « أبحاث فى الأسطورة الدينية المقارنة » .

ولكن يؤخذ على هذه الطريقة بعض مآخذ أهمها :

أولا : أن مباحث الأديان ليست متشابهة ؛ فمثلا :

— تاريخ اليهودية له أثر كبير فى عقيدتهم ، ومن ثمَّ وجب أن يكون مبحثاً هاماً عند دراسة « اليهودية » ، ولكن التاريخ الإسلامى ليس ذا أثر

فى العقيدة الإسلامية ، ومن ثم فليس ضرورياً أن يكون ضمن مباحث كتاب عن « الإســلام » .

— لم يتــكلم بوذا عن الإله ، ولكنَّ محمدا تكلم عنه وأفاض ؛

— فى البوذية موضوع النرفانا ، وفى الجينية موضوع النجاة ؛ وليس فى الأديان السماوية ما يماثل هــذه المباحث ؛

— فى أديان الهند موضوع التناسخ ، وليست كذلك الأديان السماوية . واذا لم تتشــابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة .

ثانيــاً : دراسة مقارنة الأديان على هــذا النحو لا تعطى فــكرة متكاملة عن كل دين ، إذ ستَتَرِدُ مباحث كل دين متناثرة هنا وهناك .

ثالثــاً : المباحث التى توجــد فى دين واحــد من الأديان ســيكون موضوعها قلقاً فى هــذه الدراسة ، إذ لا توجــد مقارنة بين الأديان عنيا .

على أن دراســة مقارنة الأديان على هــذا النحو ينبغى أن تجىء بعد دراسة الأديان نفســها ، فإن طبيعــة المقارنة أن تتأخر عن استيعاب الأصــل ، ففى الأدب المقارن يلزم أن ندرس الآداب المختلفة ثم نقارن بينها ، وفى الفقــه المقارن يلزم أن ندرس التشريعات المختلفة ثم نقارن بينهــا ، وفى مقارنة الأديان يلزم أن ندرس الأديان ثم نعقد المقارنة بين مباحثهــا .

٢ — الطريق الثانى هو أن يخصص كتاب لكل دين . تُدْرس فيــه مباحثه فى العقائد والتشريعات المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وُجِد لهــا مجال ، وهذا الطريق هو الذى يسير عليه أغلب الكتّاب ، وهو ما اتّبعناه فى هذه الدراسة ، وبه نتحاشى المآخــذ التى سبق أن أوردناها على الطريق الأول ، ويمكن القول إنه — بسبب هــذه المآخذ — لم يسر أحد الى آخر الشوط فى دراسة مقارنة الأديان متبعاً الطريق الأول .

* * *

ثانيــا : فيما يتعلق بالمراجــع :

من المفاخر التى أشعر بهــا وأحمد الله عليها أننى اتبعت الفــكرة الأصــلية فيما يتعلق بالمراجع فى دراســة مقارنة الأديان ، فاعتمدت — أساساً — على المراجع الرئيسية ، ودرست عقائد هــذه الديانات وعرضت أفكارها من مراجعها ، وكان هــذا سبيلى فى كل هذه الكتب ، كانت الكتب المقدســة الهندية وما كتبه الهنود يمثل أهم مراجعى وأنا أبحث أديان الهنــد ، وكان العهد الجــديد وما كتبه المسيحيون أبرز ما اعتمدت عليه وأنا أكتب المسيحية ، وكان القرآن الكريم وأحاديث الرســول وكتابات المسلمين مصادرى التى اغترفت منها ما صــورت به الإسلام ، وهنا مع اليهودية كان العهــد القديم ، والتلمود ، وبروتوكولات حــكماء صهيون ، وما دونه مشاهير اليهود ، أهم مصادرى التى سيقابلها القارىء من حين الى حين ، ومن أهم ما تلزم الإشارة إليه هنا فى هــذا العرض المراجــع التاليــة :

أسفار العهــد القديم .

التــلمود .

بروتوكولات حــكماء صــهيون .

The Jewish Encycopaedia

Arthur Hertezberg	:	Judaism
Ch. Guignebert	:	The Jewish World in the Time of Jesus
J. Hosmer	:	The Jews
Charles Foster Kent	:	A History of the Hebrew People
Margolis and Marx	:	A History of the Jewish People
Laurance Browne	:	From the Babylon to Bethlehem
J. W. D. Smith	:	God and Man in Early Israel
E. H. Weech	:	Civilization of the Near East
Berry	:	Religions of the World
J. Shotwell	:	The Religious Revolution of to day
Reinach	:	History of Religions
G. Allen	:	Evolution of the Idea of God

وسواها من المراجع التى سيقابلها القارىء من وقت لآخر مشفوعة بآرائى فقــد كنت دائماً هناك ، أخطط ، وأمهّد وأعرض ، وأعلق ، على نحو ما يلزم فى البحث العلمى .



ثالثــا : فيما يتعلق بالحيــدة :

والحــديث عن المراجع يقودنا للحديث عن الحيدة اللازمة فى دراسة « مقارنة الأديان » ومن الواضــح أن أكثر الذين كتبوا عن الأديان هم من اليهود أو من تلاميذهم ، فالمدرسة اليهودية عن الأديان سبقت كل المدارس تقريباً وأثرت فيها ، ولم يكن أكثر هؤلاء محايدين ، وقــد أدى ذلك الى كثير من الاضطراب العلمى ، فاليهود استخدموا كل وسائلهم وكل مواهبهم لا ليخدموا الحق بل ليخدموا أهــدافهم ، فتركوا للناس تراثاً حافــلا بالانحراف ، يحتاج تصــحيحه وتحقيقه الى جهــد كبير ، أرجو أن يكون هــذا البحث لَبِنَةً من لَبِناته أضيفها الى لبنــات الزملاء والباحثين الذين يشيدون صرح الحق ويدمرون بناء الباطل .

وقــد سرت فى دراسة مقارنة الأديان والحيدة طريقى ، لا أحيــد عنها ولا أنحرف ، كما اتخــذت اليسر وسيلتى ، فكنت أتتبع النصــوص لتقودنى الى الغاية ، دون أن أفرض نفسى أو فكرى عليها ، وكان هــدف أن أجعــل الدراسة موضوعية لا ذاتية .

ولا شك أن هذا هو الطريق الصــواب ، والكاتب الذى يظهر تعصبه ينفض عنــه القراء ، فلا يكون لعمله جــدوى ، ولقد حاولت جهــدى أن أكون منصفا وموضوعيا وأرجو أن أكون قــد وفقت فيما حاولت الوصول اليــه .

وفى ضوء هــذه المقدمات نخطو لنعرض أبحاثنا عن اليهودية :



الباب الأول

اليهود في التاريخ

المنطقة وسكانها :

المِنْطَقَة التى ستدور حولها دراستُنا تقع على الضفة الغربية لنهر الأردن ، وتمتدُّ جنوباً حتى قمة خليج العقبة ، وينبغى أن نتعرف على طبيعة هذه المنطقة ، ومَنْ هم سكانها فى تلك العصور السحيقة التى ستبدأ عندها أبحاثنا ، وينبغى كذلك أن يمتد بحثنا شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً حتى نكوِّن صورة واضحة عن فلسطين ، وعن الدول المحيطة بها والتى كان لها أثر فيها ، وستفيدنا هذه الدراسات طوال هذا البحث ، فتمدُّنا بعناصر خطيرة تشرح لنا كثيراً من الظواهر ذات الأثر الفعال فى مجريات الأمور :

وهذه المنطقة أشبه بشريط ضيق ينتهى من جهة الجنوب بمثلث ، رأسه الى الجنوب وقاعدته الى الشمال ، ويلتقى رأسه بطرف خليج العقبة ، وتمتد قاعدته من نهر الأردن الى البحر الأبيض المتوسط .

ومساحة هذه المنطقة ليست واسعة ، فهى حوالى ٢٧ ألف كيلو متر مربع ، أى أقل من ثلث مساحة سيناء ، فمساحة سيناء حوالى ٨٢ ألف كيلو متر .

وهذه المنطقة ليست غزيرة الغنى ، وتتركز الثروة بها فى المعادن الراسبة بقاع البحر الميت ، وأهمها كلورات البوتاسيوم وكلورات الصوديوم وكلورات المغنسيوم ، أما الثروة الزراعية فتشمل البرتقال بالسهل الساحلى ، والحبوب بمرج ابن عامر ووادى الأردن ، والزيتون بالمنطقة الجبلية ، أما منطقة النقب فترتبط الزراعة بها حتى كتابة هذه السطور بكمية الأمطار التى تسقط عليها . ومساحة النقب حوالى مساحة المنطقة كلها .

وعلى هذا فاهمية هذه المنطقه ليست لاتساعها ولا لثرائها ، ولكن لموقعها الفذّ بين مناطق الشرق الأوسط ، فهى بالنسبة لخريطة العالم حلقة

اتصـــال بين أوربا وآسيا وإفريقية ، وهى مع صغر مساحتها متصـــلة بالبحر الأبيض والبحر الأحمر ، وعن طريقهما تتصـــل بالمحيط الأطلسى والمحيط الهنـــدى وبالدول الواقعة عليهما ، وهى بالنسبة للعـــالم العربى تعتبر المنطقة الوحيـــدة التى تتصل بأكبر عـــدد من دول العالم العربى ، فهى تتصـــل بلبنـــان وسورية والأردن والســـعودية ثم بجمهورية مصر العربية ، وهـــذا ما لا يتوافر لسواها من دول هـــذه المنطقة ، ثم يمكن أن تكون حاجزا أو حلقة اتصـــال بين الدول العربية بآسيا والدول العربيـــة بإفريقية ، ومن هنـــا كانت عروبة هـــذه المنطقة وحسن صـــلتها بجيرانها ضرورة حيوية ما لها من محيـــد .



أهمية موقع فلسطين

وبعد هـذا الحديث الموجز عن المنطقة نسير خطوة جـديدة لنتحدث عن سكانها من أقـدم العصـور المعروفة ؛ فلنعد الى الألف الثالث قبل الميلاد لنرى أفواجاً من القبائل العربية تهاجر من شبه الجزيرة العربية الى الشمال تحت ضغط القحط وقسوة الصحراء ، ويقول Charles Foster Kent إن الفينيقيين كانوا أسبق هـذه الجماعات المهاجرة ، وقـد وجـدوا على شاطىء البحر المتوسط مسـتقراً لهم فأقاموا به ، وكان مقرهم شريطاً ساحلياً ضـيقاً يحدُّه البحر من الغرب وتعزله السلاسل الجبلية بالشرق عن باقى المنطقة ، ومن هنا اتجه هؤلاء الى البحر فركبوه واتصـلوا عن طريقه بدول كثيرة عن طريق التجارة ، وسرعان ما أصـبح هؤلاء جنساً شهيراً فى سيادته التجارية عبر البحار ، ثم امتـد نشاطهم فأصبحوا حملة الحضـارة بين دول العالم القـديم .

والى الجنوب من الفينيقيين نزلت قبائل عربية أخرى أشـهرها قبائل الكنعانيين حوالى سنة ٢٥٠٠ ق‌م واستقرت على ضـفة الأردن الغربية منسابة نحو البحر المتوسط وسـميت هـذه المنطقة باسمهم فأصـبحت تدْعَى « أرض كنعان » وهو الاسـم الذى يكثـر وروده فى التوراة . وحوالى سنة ١٢٠٠ ق‌م نزلت بالساحل المطل على البحر الأبيض جماعات من جزيرة كريت (اقريطش) وكانت هـذه الجماعات أو القبائل تسمى قبائل فلستين ، وقد نزلت بين يافا وغزة ، واختلط الكنعانيون بالقبائل الوافدة من كريت ، وتمَّ بين هؤلاء وأولئك مزيج غلب عليه الدم العربى واللغـة السامية من جانب ، والاسم الوافـد من كريت من جانب آخر ، فأصبحت هـذه البلاد تعرف بفلسطين (٢) .

وفى الشمال الشرقى لنهر الأردن كانت تعيش قبائل الآراميين الوافدة من حوض الفرات بعـد أن ازحمت سهول دجـلة والفرات بالوافدين من

---

(1) A. History of the Hebrew People p. 29.

(٢) Ibid ص ٣٠ وغوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضـارات الاولى ص ٢٦ .

الجزيرة العربية . وهذه القبائل هى المعروفة فى الكتب المقدسة بالسوريين . وكانت دمشق عاصـمتها ، وكانت هـذه القبائل تعمل فى الزراعة ، ولكن موقعها دفعها للعمل فى التجارة البرية ، فاذا كان الفينيقيون قد اشتهروا بركوب البحر متاجرين ، فإن السوريين ركبوا البر منافسين لهم فى النشاط التجارى ، والآراميون كانوا قريبين جداً من الكنعانيين فى لغتهم وديانتهم وعنصرهم .

والى الشرق من نهر الأردن ثم الى جنوب البحر الميت تقع الممالك الثلاثة عمون ومؤاب وإدوم ، وسكانها ينحدرون — كالآراميين — من سهل



المنطقة قبل زحف العبرانيين

الفرات وتربطهم بهم روابط نَسَب ، كما أن روابط جمة تشمل اللغة والعادات والأفكار الدينية كانت تربط هذه الممالك بعضها ببعض • وكانت لغتها لهجة من الكنعانية ، وتعتبر مؤاب أكثرها حضارة إذ كانت أسرعها فى التحول من نظام البدو الى عالم الحضارة ، ويبدو أن خصب موقعها ساعد على سرعة التحول فاستقرت واشتغلت بالزراعة وبَنَتْ المدن العظيمة • أما مملكة إدوم فكانت تمتد الى خليج العقبة ، وأهم ما كانت تشتغل به هو رعى الأغنام فى السهول الفسيحة التى تتبعها ، ومن أجل هذا كانت أقل الممالك الثلاثة حضارة ومدنية ، وكانت عمون — فى الشمال من مؤاب — تعمل فى الزراعة والرعى جميعاً فبعض بطونها استقر وبنى المدن واشتغل بالزراعة ، والبعض الآخر ظل يتجول ويرعى الغنم والماشية ، وهي لهذا تعد من جهة المدنية وسطاً بين مؤاب التى اتجهت الى الاستقرار والزراعة ، وبين إدوم التى ظلت تعيش عيشة البادية [1] •

المناطق المحيطة :

المناطق السابقة هى المناطق ذات الصلة الوثيقة بدراستنا عن اليهود ، وبقى علينا بعد ذلك أن نتكلم كلمة عن الدول المحيطة بهذه المناطق ، ونعنى بها مدين فى الجنوب الشرقى ، ومصر فى الجنوب الغربى ، وبابل وآشور فى الشمال والشمال الشرقى ، وطبيعى أن اليهود وهم فى فلسطين عرفوا هذه الدول واتصلوا بها مسالمين حيناً ، ومحاربين حيناً ، وتأثروا كثيراً بأفكار السكان ومعتقداتهم ، فتَعرُّفنا على هذه الدول هنا يُعَدّ أساساً من أسس هذه الدراسة •

تقع مدين فى الشمال من شبه الجزيرة العربية ، وكانت لها صلة وثيقة بالجزيرة العربية وبمصر وأرض كنعان ، وسنرى أن موسى لجأ إليها عقب

(1) Charles Foster Kent : A History of the Hebrew People pp. 31-32.

هربه من مصر ، وتعتبر مدين مَعْبَراً بين الصحراء العربية وبين فلسطين وما حولها •

على أن مصر وبابل كانتا أكثر تأثيراً فى أرض كنعان فإن أرض كنعان وقعت بين هاتين الدولتين الكبيرتين اللتين ازدهرت فيهما أرقى حضارة فى العصور القديمة ، وكانت هناك حروب ومنافسات لا تنقطع بين هاتين الدولتين ، وكانت أرض كنعان ميداناً لهذه الحروب كما كانت تتأثر بنتائجها ، فالغالب منهما يسيطر على كنعان وتكون له السيادة على سكانها ، ولذلك يقول ول ديورانت (١) إن موقع فلسطين جاءها بالغنى والحرب •

وتدل الآثار البابلية على أن بابل كان لها السلطان على أرض كنعان فى الألف الثالث قبل الميلاد • وكانت حضارة الكنعانيين شديدة التأثر



مناطق الساميين قديماً

(١) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٢١ •

بحضارة بابل ، وساعد على تقديم بابل تغلب الرعاة الهكسوس على مصر ، وهؤلاء الرعاة هم من أعراب الجزيرة العربية وقد اجتاحوا أرض مصر مدفوعين بالقحط الذى كان قد أصاب الجزيرة العربية وسوريا ، وقد انتهز الهكسوس فرصة انحلال الأسرة الثالثة عشرة الفرعونية بسبب الخلاف على ولاية العهد ، فاستولوا على شرق الدلتا ، واتخذوا « منف » بالقرب من القاهرة عاصمة لهم ، ثم انتقلوا الى أواريس بالقرب من الزقازيق ، وكونوا لهم أربع أسر من الأسر القديمة التى حكمت مصر ، واستمر حكمهم من حوالى ١٨٠٠ ق م الى سنة ١٥٨٧ ق م ،

أما الفراعنة فقد بقوا بجنوب مصر متخذين طيبة (الأقصر) عاصمة لهم ، ثم انتقلوا الى غرب الدلتا واتخذوا « سخا » عاصمة لهم ليكونوا مواجهين لأعدائهم الغاصبين وكانت هذه الفترة فترة نضال بين الهكسوس الذين سلبوا السلطة وبين الأمراء المصريين الذين هبوا يصارعون لاستعادة سلطانهم وطرد المعتدين ، وقد تمكن البطل أحمس فى النهاية من النصر ، فطرد الهكسوس وأسس الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، ومن أشهر الملوك المصريين الذين أكملوا انتصارات أحمس الملك تحتمس الثانى الفاتح العظيم . الذى دانت له فلسطين وامتد سلطانه لسوريا ، فتوارى أمامه سلطان بابل فى تلك البقاع ، كما خضع له الحيثيون بالشمال [1] . وسنرى أنه فى عهد الهكسوس عاش اليهود بمصر ، فلما سيطر الحكم الوطنى بها اضطرب موقف اليهود ولذلك يرى Maspero أن سيطرة الساميين على مصر أتاحت لليهود بعض الحماية [2] .

تحركات العبريين :

ونجىء الآن الى العبرين أو العبرانين لنسير معهم خطوة خطوة ، ولكن ينبغى لنا فى مطلع هذا البحث أن نقف وقفة نتساءل :

---

(1) Charles Foster Kent : A History of the Hebrew People pp. 27-28.
(2) Struggle of the Nations vol. 4, p. 70.

ما معنى كلمة عبرى ؟

فى الإجابة عن هـذا نقرر أن العلماء لا يتفقون على معنى هـذه الكلمة وإن اتفقوا جميعاً على مدلولها ، فالعبرى هو المنحـدر من ذرية إبراهيم ، ولكن لماذا سمى عبرياً أو عبـرانياً ؟ يرى بعض الباحثين أن إبراهيم سمى عبرياً لأنه عبر النهر ، ويحتمل أن يكون النهر المقصـود هو نهر الفرات كما يحتمل أن يكون نهر الأردن [١] .

ويروى الدكتور إسرائيل ولفنسون رأياً آخر هو احتمال أن يكون إبراهيم منسوباً الى جـد من أجداده الأقدمين يعرف باسم « عِبِر » . ولكن الدكتور ولفنسون لا يرضى بهـذا الرأى . ولا بالرأى الذى قبله . ويرى أن كلمة عبرى لا ترجع الى حادثة بعينها أو شخص بعينه ، وإنما ترجع الى الوطن الأصـلى لبنى إسرائيل . وذلك أن بنى إسرائيل كانوا فى الأصـل من الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان ، بل ترحل من بقعة الى أخرى بإبلها وماشيها للبحث عن المـاء والمرعى ، وكلمة عبرى فى الأصـل مشتقة من الفعل الثلاثى عبر بمعنى قطع مرحلة من الطريق أو الوادى أو النهر من عَبْرِه إلى عَبْرِه ، أو عبر السبيلَ : شقّها ، وكل هـذه المعانى موجودة فى هـذا الفعل سواء فى العربية أو العبرية ، وهى فى مجملها تدل على التحول والتنقل الذى هو من أخص ما يتصـف به سـكان الصحراء وأهل البادية ، فكلمة عبرى مثل كلمة بدوى أى ساكن الصحراء أو البادية . وقـد كان الكنعانيون والمصريون والفلسـطينيون يسمون بنى إسرائيل بالعبريين لعلاقتهم بالصحراء ، وليميزوهم عن أهل العمران ، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدنيّة والاستقرار صاروا ينفرون من كلمة عبرى التى كانت تذكرهم بحياتهم الأولى حيـاة البداوة والخشونة ، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا ببنى إسرائيل فقط [٢] .

---

(١) سليمان مظهر : قصـة العقائد ص ٢٨٤ .
(٢) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٧٧ — ٧٨ .

والعبريون ينحدرون من العرق السامى الذى ينتسب له الآشوريون والعرب ، وكانت بلاد العرب الوسطى والشمالية مهد الساميين ، وقد هاجر فريق منهم الى الشمال فى بلاد بابل حيث كانت السلطة لحضارة السومريين والأكّاديين ، فأقاموا بها من الزمن ما أُشْبِعُوا فيه من تلك الحضارة ، ثم كثر عددهم فهاجروا من جديد فى أدوار مختلفة ، فتقدموا نحو الشمال أكثر مما تقدموا قبل ذلك وانحدر بعضهم نحو الجنوب ، والساميون الذين بقوا فى بلاد العرب هم أجداد الشعب العربى ، والساميون الذين مروا من موطن الحضارة فى الفرات الأدنى ثم انتشروا فى جميع آسيا وفلسطين هم الآشوريون والإسرائيليون[1] .

ويرى J. W. D. Smith[3] أن العرب فى العصر الحديث هم الذين يمثلون ملامح الساميين القدماء الجسمانية ، أما اليهود فإن صلاتهم مع الحيثيين بآسيا الصغرى ، وتبادل الزواج معهم قد أثر فيهم ، وأخفى منهم كثيراً من الملامح السامية .

ورئيس الأرومة السامية التى دخلت فلسطين قادمة من العراق هو إبراهيم الخليل ، وهو ابن تارح ، وينتهى نسبه الى نوح ، وقد نشأ فى أور الكلدانيين ، وكان أبوه يزاول عمل الأصنام وسَخِرَ إبراهيم من عمل أبيه ومن قومه الذين يعبدون ما ينحتون ، وناقشهم مناقشة عقلية يرويها القرآن الكريم ، قال تعالى « واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين »[2] ثم تحولت السخرية الى عمل ضد

---

(١) غوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ص ٢٤ ج ٢٥

(3) God and Man in Early Israel p. 5.

(٢) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ — ٧٧ .

هذه الأصنام ، إذ انتهز إبراهيم فرصة وجوده وحده فى حانوت أبيه فأمسك فأساً وحطم هذه الأصنام ، وجعل منها كومة من الحطام ، ولم يدَعْ إلا صنما كبيراً كان أعظمها شكلا وأكبرها حجما ، فوضع الفأس فى يده ، وجلس ليرى ، فلما عاد أبوه وقومه من عيدهم الذى كانوا يحتفلون به خارج المدينة جُنَّ جنونهم لما رأوا ، وصاحوا بإبراهيم :

أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

وأجاب إبراهيم فى هدوء : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم .

قالوا فى ثورة : كيف نسألهم وهم لا ينطقون : وكيف يعمله كبيرهم وهم لا يتحركون ؟ .

قال إبراهيم : إذاً كيف تعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون .

وكان ذلك من إبراهيم مطلع ثورة على الفكر والسلطان فى بلاد الكلدان ، ولم يستطع إبراهيم أن ينشر الحق فهاجر من أور الكلدانيين هرباً من شرهم ، وهاجرت معه زوجته سارة ولوط ابن أخيه وبعض الأقارب والخدم ، وأخذوا معهم ما يملكون من أغنام وماشية وأخذوا يضربون فى الأرض ، ويبدو لى من تتبع المراجع ، ومن دراسة الآثار اللغوية والاجتماعية التى اقتبسها هذا الرهط أن خط سيرهم كان أشبه بجزء من دائرة ، فقد اتجهوا الى الشمال حتى اتصلوا بمناطق الآراميين ، ثم انحدروا الي الجنوب حتى دخلوا أرض كنعان [1] ، وأطلق أهل كنعان على إبراهيم ورفاقه « العبريين » لعبورهم نهر الفرات إذ لم يكونوا قد عبروا نهر الأردن بعد ، أو لأنهم بدو متجولون يعبرون من واد الى واد كما ذكرنا من قبل .

---

(١) قصة ابراهيم وردت فى القرآن الكريم فى سورة الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء وغيرها .

متى تَمَّت هذه الرحلة ؟ يرى أكثر الباحثين أنها تمت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق‌م . ويرجح بعضهم حدوثها حوالى سنة ١٨٥٠ ق‌م [١] .

وحط إبراهيم رحاله فى تلك البقاع ، ونعم بما فيها من رخاء وخير ، ولكن شيئاً خطيراً كان يحدث دون أن يلتفت إليه أحد ، أو ربما دون أن يدبره أحد ، ذلك هو الانعزالية التى كانت طابع الوافدين الجدد ؛ لقد رأينا الكنعانيين يختلطون بالفلسطينيين ، ورأينا الساميين الذين هاجروا الى مواقع الخصب فى الشمال يمتزجون بسكان الشمال ، أما العبرانون فقد عاشوا وحدهم وآثروا العزلة منذ هاجروا من أور الكلدانيين ، قد يكون السبب فى ذلك أنهم كانوا يرفضون عبادة الأصنام فى حين كانت الأصنام هى معبودات الكلدانيين كما سبق ، فاعتزلهم إبراهيم ومن آمن معه ، ولكن العزلة أصبحت طابع العبرانيين حتى عندما انحرفوا وعادوا أو عاد أكثرهم الى عبادة الأصنام . كانت العزلة طابعهم فى أرض كنعان ، وكانت طابعهم فى مصر بعد ذلك بسبب ارتباط العبرانيين بالحكام المستعمرين فى مصر (الهكسوس) وبالتالى نظر الشعب لهم نظرة ريبة فلم يتم اختلاط بين هؤلاء وأولئك ، ثم إن البون كان شاسعاً بين العقليتين ، فالعبرانيون كانوا قوماً بدواً لا ثقافة لهم ، نزلوا بين أقوام لهم تاريخ ولهم حضارة ، فلم يكن من السهل الاندماج بين الطائفتين [٢] . ثم أصبحت العزلة تقليداً يهودياً لا محيد عنه ، وترتب على هذه الانعزالات مجافاتهم لمن حولهم فى جميع مراحل التاريخ ، واعتبارهم مَنْ حولهم من الأمم أعداء لهم [٣] ، ويصف الدكتور وايزمان أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهودية بقوله : وكان اليهود فى موتول (مسقط رأسه) بروسيا يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن

---

(١) J. W. D. Smith : God and man in Early Israel p. 3.

(٢) دكتور فؤاد حسنين : التوراة ص ١١ .

(٣) Charles Kent : A History of the Hebrew People p. 25.

الصغيرة والكبيرة ، منعزلين منكمشين ، وفى عالم غير عـالم الناس الذين يعيشون معهم [١] . ثم اتجه الفكر اليهودى الى اعتبار العزلة أسـاس حياة اليهود ، وأدق صـورة للتحريض على العزلة والتمسك بها ، ما ذكره سلامون شختر فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا ، حيث قال : إن معنى الاندماج فى الأمم هو فقدان الذاتية ، وهـذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليـه من النتائج ، هو ما أخشـاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات [٢] .

وتسبب عن هـذه العزلة أحـداث بالغة الخطورة ، فقـد نظروا الى سواهم نظرة عـداء وحـذر ، وبالتالى لم يدينوا بولاء الى الوطن الذى يجمعهم بالآخرين ، وإنما اتجهوا بولائهم الى جماعاتهم ، فأصبحت هـذه الجماعة هى وطنهم ، وهى دينهم ، وهى موضـع تقديسهم ، وليس لهم بسواها صـلة أو ارتباط . وقد نتج عن ذلك ما ذكره Charles Kent [1] **بقوله : خلال أكثر فترات التاريخ كان العبرانيون محاطين بدائرة من الأمم المعادية التى تمثل حلقة من نار لا تدع لهم فـكاكا .**

لغـة العبريين :

ونتوقف الآن قليلا عن الاسـتمرار فى وصـف تحركات العبرانيين لنتحـدث عن لغتهم ، وينبغى عند الحـديث عن لغة العبرانيين أن نتذكر أن هؤلاء المهاجرين استغرقوا فى رحلتهم فترة طويلة لم تحـددها المراجع التاريخية ، ولكن لنا أن نتصـور أن رحـلة من أور الكلدانيين الى أرض كنعان ، يمضـيها مهاجرون معهم أنعامهم وأبقارهم ، لابد أن تكون قـد قطعت فى عـدة سنوات ، وبخاصـة إذا لاحظنا أن هؤلاء المهاجرين لم يكن

---

(١) مذكرات وايزمان ص ٣ .
(٢) عبد الرحمن سامى : الصهيونية والماسونية ص ٤٦ .
(1) Ibid. pp. 24-25.

لهم هــدف يسعون له ، وإنما كان كل هدفهم أن يهربوا من أعدائهم الذين نفروا من دعوة إبراهيم ، ومن أجل هــذا نتصــور رهط إبراهيم يحط الرحال من حين الى حين كلما وجــد مرعى للماشية أو مستراحاً للرهط ، كما نتصور أن هذا الرهط قد انضمّ اليه خلال المسيرة أو الإقامة بعض أفراد من سكان المناطق التى يمرّ بها ، ولهذا اقتبس رهط إبراهيم كلمات كثيرة من الأمم التى اخترقها الرهط المهاجر ، فلما وصلوا الى أرض كنعان كانت اللغة التى يتكلمون بها عبارة عن لهجة آرامية أقرب ما تكون الى العربية ، ولكن العبريين كانوا ينطقون هــذه اللهجة متأثرين بقواعدهم ونحوهم ومفرداتهم اللغوية وقــد اصطلح على تسمية هــذه اللهجة العبرية ، ولم يبد للغــة الجــديدة استقلال إلا حوالى سنة ١٤٠٠ قم ، وأول النصــوص المعروفة بهذه اللغــة يرجع الى سنة ١٢٠٠ قم وقــد ماتت هــذه اللغة حوالى سنة ٢٠٠ قم فعمرها لا يزيد عن ألف عام (١) .

ويلاحظ أن اللغــة العبرية عندما انقرضت كلغــة للتخاطب لدى بنى إسرائيل ، بقيت حيناً يستخدمها الكهنــة فى الكتابات الدينية ، أما لغــة التخاطب بين الاسرائيليين فقد أصبحت اللغة الآرامية ، التى انتشرت فى العراق وفى سوريا وفلسطين وغيرها . وبعد فترة حلت الآرامية محل العبرية فى الكتابة أيضاً ، ولكن اللغة اليونانية سرعان ما زاحمت الآرامية فى الحديث والكتابة ، وقــد كتبت أسفار العهــد الجــديد باليونانية إلا إنجيل متى فيرجح أنه كتب باللغة الآرامية ثم ترجم لليونانية (٢) .

الهكسوس والعبرانيون بمصر :

فى القرون الأولى للألف الثانية قبل الميلاد زحف الى مصر جماعتان ارتبط تاريخ كل منهمــا بالأخرى ، وهاتان الجماعتان هما : الهكســوس والعبرانيون . والهكسوس هم الرعاة العماليق ، وهم قوم من الأعراب الذين ذكرهم القرآن الكريم فيما بعــد بقوله (الأعراب أشــد كفــراً

---

(١) دكتور فؤاد حسنين : التوراة ص ١١ و ١٣ .
(٢) انظر الأسفار المقدسة للدكتور على عبد الواحد ص ١١ — ١٣ .

ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) [١] وعندما ادعوا الإيمان صاح فيهم القرآن الكريم . (قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) [٢] وقد اجتاح هؤلاء الرعاة أرض مصر بسبب القحط فى الجزيرة العربية . وكان ذلك وقت انحلال الأسرة الثالثة عشرة الفرعونية ، واستطاع الهكسوس أن يسقطوا هذه الأسرة ، وأن يستولوا على السلطة فى شرق الدلتا ، وكونوا أربع أسر هى الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة .

وكان ينسب الى أحمس أنه هو الذى طردهم . ولكن لوحاً أثرياً كشف سنة ١٩٥٤ يسمى « لوح كامس » وقد أبرز هذا اللوح قصة الصراع الطويل الذى خاضه المصريون ضد الهكسوس . ووضح أن هذا الصراع ينقسم فترتين :

الأولى : هى حرب التحرير التى قام بها البطل المصرى (سُقْنَنْ رع) الذى قاد معركة التحرير فى بدايتها ومات فى هذه المعركة ، وقد سَجَّلَتْ آثارُ الطعنات على مومياثه أوسمة لشرف الجهاد فى سبيل الوطن الذى آمن به كأصدق ما يكون الإيمان فى نفوس الأبطال .. فضحى بنفسه راضياً على هيكل الوطن المقدس ، وخلفه ابنه الأكبر البطل (كامس) فى قيادة حرب التحرير بشجاعة وبسالة .. إتماماً للرسالة الوطنية السامية ، وحقق النصر على أعدائه وضرب على أيدى الغزاة ومثيرى الفتن ، ولكن الموت لم يمهله أكثر من ثلاث سنوات .

والفترة الثانية من حرب التحرير كانت بقيادة الشقيق الأصغر لكامس ، وهو القائد العظيم (أحمس) .. الذى رأى فيه الأعداء شاباً لا يتجاوز الثامنة عشر .. فاستخفوا به وأرادوا أن يستردوا سيطرتهم وقوتهم .. فأعادوا بناء عاصمتهم (حت وعرت) وهى (أواريس)

---

(١) سورة التوبة الآية ٩٧ .
(٢) سورة الحجرات الآية ١٤ .

التى أطلق عليها اليونان سم (تانيس) ، ثم أطلق عليها العرب اســم (صــان الحجر) وهى قريبة من مدينة الزقازيق الحالية ، إلا أن الشاب عزر أن ينتقم للوطن •• وقــد تصــدى لهم فى إصرار •• حتى طردهم خارج حــدود مصر وحقق النصر لبلاده على الغزاة المعتدين ••

والفترة الثانية من هذا الكفاح الوطنى معروفة فى الوثائق التاريخية ، أما الفترة الأولى فكانت معلوماتنا عنها بسيطة وغامضــة ، حتى اكتشف لوح (كامس) عام ١٩٥٤ •• ولذلك فإن هــذا اللوح يعتبر وثيقة تاريخية لحرب التحرير والتخلص من المستعمرين فى عصر القائد البطل (كامس) ، وقــد قال عنه (السير ألان جاردينر) إنه أهم مستند تاريخى فى القرن العشرين •

ونعتبره كذلك قطعة أدبية معاصرة رائعة •• فإن الأســاتذة كانوا يوجهون طلبة العــلم بالمدارس فى العصور الفرعونية المختلفة الى مطالعة نصــوص هــذا اللوح لما يحويه من نصوص أدبية رائعــة تخلد أعمال الأبطال ، وبذلك يبثون الروح القومية فى نفوس الشبان من أبناء البلاد ، ومما زاد فى أهمية هــذا اللوح • أنه اللوح الكامل الوحيد الذى كتب بأمر الملك (كامس) وذكر وقائع انتصــار القائد المصرى البطل على الهكسوس أعــدائه وأعداء بلاده ، إذ أن جميع ما وصــلنا من قبل كان يتحــدث عن عهــد أخيــه أحمس •

أما من الناحية التاريخية •• فإن هــذا الكشف يؤكد لنا أن (كامس) كان أول قائد مصرى هزم الهكسوس فى حرب التحرير •• كما أنه شرح لنــا التكتيك الحربى الذى اتبعه القائد المصرى العظيم فى محاربة العــدو المستمر •• حتى كشف مؤخرة جيشه البرى ، ومن ثم استطاع أن يبدأ هجومه بتطويق العــدو برا وبحرا فأوقع به الهزيمة ، ثم هــدم عاصمة العــدو (حت وعرت) (اواريس) •• مما أثر فى العــدو تأثيرا قويا بعــد أن تحطم كيانه المعنوى لما لحقه من خوف وهلع ، فلم يصــمد أمام

عجلاته المخفرة ، واستسلمت فرقة خيالة العـدو التى كان يتفوق بهـا على الجيش المصرى .. ثم يصـف النص هـذا التأثير وصـفا رائعـا يبرز انهيار قوى العدو ، ويبيّن كيف ارتفعت القـوى المعنوية للجيش المصرى .

ويشير النص المدون على لوح (كامس) الى تنظيم قوة الأسطول الحربى المصرى فى النيل ، الذى كان أساس خطـة التكتيك الحربى التى وضـعها القائد المصرى للقضـاء على جيش العدو ، وقد تولى (كامس) قيادة الجيش بنفسـه ، وكان دائماً فى المقدمة .. باعتباره قائد الجيش الأعلى .. مدفوعاً بقوة إيمانه وثقته بجيشه .. واعتداده بنفسه ، وحبه لبلاده ، وتفانيه فى سبيل كرامتها وعزتها .. فاستولى على تموين الأعداء الذى كان يصـل اليهم من طريق النيل وبه كمية كبيرة من العتاد الحربى لحارب أعداءه بأسلحتهم .. حتى كتب له النصر عليهم ، ومما ساعده على الانتصـار أنه أحبط مؤامرات العـدو الذى كان يتبع أسلوباً ملتوياً فى بث الفرقة بين أهل البلاد بالغـدر والخيانة والقرصنة ليتمكن من استعمار البلاد واستغلال أهلها .. إلا أن هـذه الحرب نبهت المصريين ليقفوا يداً واحـدة متيقظين أمـام كل المؤامرات التى يحاول العـدو المستعمر القيام بهـا . ولذلك لم يهمل القائد المصرى اليقظ الاحتياط لما قد يلجأ إليه عـدوه من حيل ، فاكتشف تلك المؤامرة التى دبرها الهكسوس لإشعال نار الفتنة فى جنوب الوادى .. كى ينضم أمير كوش الى حكام الهكسوس ، فيقع القائد المصرى وجيشه الباسل بين فكى الكماشة ، ولكن القائد المصرى قضى على هـذه المؤامرة بصرامة .

وقد ظل الهكسوس بمصر فترة زمنية يختلف فيها المؤرخون ، ويرجح الدكتور باهور لبيب أن مدة الهكسوس بمصر كانت من سـنة ١٧٣٠ الى سنة ١٥٨٠ ق . م وكان هؤلاء يتعاونون من الغرباء ضد المواطنين [١] .

---

(١) من بحث الدكتور المهندس محمد حماد ، بتصرف .

عودة الى الحـــديث عن تحركات العبرانيين :

وفى أثناء عهد الهكسوس بمصر أصاب القحط أرض كنعان ، فاستأنف العبرانيون تحركاتهم تجاه مصر ، وهذا يدلنا على أن أرض كنعان لم تكن هدف العبرانيين ، وإنما كانت بالنسبة لهم بقاعاً ككل البقاع ، ولذلك نجـــد إبراهيم وقومه يتركونها ويواصلون تجوالهم فيصـــلون الى مصر حيث وفرة الزرع وخصب الأرض ، وقـــد كان وجـــود الهكسوس بمصر فرصـــة للعبرانيين ، لأن الهكسوس ــ كما قلنـــا من قبل ــ كانوا يميلون للتعاون مع الأجانب ضـــد المواطنين شأن كل المستعمرين فى كل زمـــان ومكان . ولذلك لقى إبراهيم من الهكسوس كثيراً من الترحيب والتقدير ، وبقى إبراهيم فترة فى مصر ، فاضت عليه خـــلالها نِـعَمُ فرعون ، فنمت ثروته وتضاعفت ماشيته ، ولكن ملك الهكسوس طمع فى سارة زوجة ابراهيم ــ كما سنذكر فيما بعـــد ــ فلم يدع هـــذا لإبراهيم وذويه فرصة ليطول مقامهم فى مصر ، ولم يستطع إبراهيم وقومه أن يواصـــلوا سيرهم الى جنـــوب مصر خـــوفاً من الفراعنة المصريين الذين كانوا يأخـــذون على العبرانيين تعاونهم مع الهكســـوس ، فقفـــل إبراهيم راجعـــا الى أرض كنعـــان ومعـــه ثراؤه الذى تضـــاعف وكذلك « هاجر » وهى جارية مصرية أهـــديت لســـارة زوجة إبراهيم ، وقـــد دخـــل إبراهيم بهاجر بناء على طلب سارة ((Sara)) وأنجب منها ابنه الأول إسماعيل الذى نشـــأ فى مـــكة [1] ، وصـــاهر إسماعيل جُرهم سادة مكة ، ومن نسله جاء العرب الذين يعرفون بالعرب المستعربة ، وهم الذين حملوا لواء الإسلام فيما بعد واقتحموا أرض الرومان واستعادوا فلسطين وما حولها منهم ، محققين وعـــد الله لإبراهيم أن يجعل هـــذه الأرض لنسله من نهر مصر الى النهـــر الكبير نهر الفرات [2] ، كما اقتحموا بلاد فارس وما بعـــدها الى الهنـــد

---

(١) أنظر تاريخه « فى موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف ج ١ ص ٨٨ من الطبعة الحادية عشرة .

(٢) تكوين الاصحاح الخامس عشر ، الفقرات ١٨ ــ ٢٠ ، وهـــذا هو رأى المسلمين فى تفسير هـــذه الفقرات وهو الرأى والصواب ، والفتح الاسلامى

وما وراء النهــر ، وسارت ألويتهم منتصرة تنشر الإســلام فى مختلف النواحى والأصــقاع . وهــذا يتمشى مع قوله تعالى « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهــذا النبى والذين آمنوا » [1] .

وبعد مولد إسماعيل بحوالى أربع عشرة سنة ولَدَتْ سارة لإبراهيم ابنه الثانى إسحق ، ثم توفى إبراهيم وترك ابنه الأكبر إسماعيل الذى استوطن الحجاز ، وابنه الأصــغر إسحق بأرض كنعان ، وأنجب إسحق ولدين هما عيسُو ويعقوب المسمى إسرائيل وإليه ينسب بنو إسرائيل ، وسنتكلم عن يعقوب فيما بعــد عند الكلام عن أنبياء بنى إسرائيل ، ولكننا هنــا ندون عنــه ما يتصــل بالسير التاريخى لبنى إسرائيل ، فنذكر أنه تزوج بنتى خاله وهما ليئة وراحيل وتزوج أيضــا من زلفة جارية ليئة ومن بلهــة جارية راحيل ، وأعقب منهن اثنى عشر ابنــاً ، هم :

من ليئة : روبين — شمعون — لاوى (من نسله موسى) — يهــوذا (من اسمه أخــذت كلمة يهود) — يسّاكر — زبولون .

من راحيل : يوسف — بَنْيامين .

من زلفــة : جــاد — أشــير .

من بلهــة : دان — نفتالى .

وكان يعقوب يمنح مزيداً من العطف والحب ليوسف وبنيامين ابنيه من راحيل الحظية عنــده ، فنفِسَ عليهما إخوتهما ، ودبروا المؤامرات ضدّ يوسف أكبر الاثنين وأحبهما عند يعقوب ، فاستأذنوا أباهم ليصحبوا يوسف معهم وهم يرعون أغنامهم ، فقبل يعقوب بعد تردد ، وهناك ألقوا

=

بهذا الوضــع كان انقاذا لشعوب المنطقة من الاستعمار وظلمه وعــدوانه ، أما اليهود فيفسرون هــذه الفقرات بالقضــاء على الشعوب الأصلية واحــلال اليهود محلهم ، وحاشا لاله ان يكون هــكذا قضاؤه فهو قضاء ظالم .

(١) سورة آل عمران الآية ٦٨ .

يوسف فى بئر عميقة وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، وقد لوثوا قميص يوسف بدم كذب ، وقالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، ثم مرت بالبئر قافلة أرسلت واردها ليأتى بالماء من البئر ، فتعلق يوسف بالدلو ، وفرحت به القافلة ، وبيع يوسف لرئيس الشرطة فى مصر ، ثم زُجَّ به فى السجن نتيجة اتهامه كذبا بمحاولة الاعتداء على شرف زوجة سيده ، وفى السجن تعرَّف على رئيس سقاة فرعون ، وبواسطته أفرج فرعون عن يوسف بعد حين ، واستخلصه لنفسه ، وفرعون هذا هو « فوتى فارغ » أو « فوطيفار » فيما تذكره التوراة ، وهو من ملوك الأسرة السادسة عشرة فى القرن السابع عشر ق م • وأصبح يوسف مديراً لخزائن الطعام بمصر ، وهو منصب يماثل منصب وزير التموين فى العهد الحاضر ، وقد هيأ هذا المنصب السبيل ليعقوب وأولاده أن يرحلوا الى مصر فراراً من الجوع الذى عم بلادهم مثلما حدث لإبراهيم من قبل [1] وكان السلطان بهذه المناطق لا يزال فى أيدى الرعاة العماليق (الهكسوس) الذين كثيراً ما خلت تصرفاتهم من الولاء لمصر وشعبها، إذ كانوا — كما قلنا — غاصبين للسلطة فيها ، وكانت حركات المواطنين لا تفتأ تعمل للإيقاع بهم ، ثم كان من تخبط العماليق أن يتعاونوا مع غير المصريين ، ويبدو ذلك مما ذكرته التوراة من أن فرعون الهكسوس أغرى إخوة يوسف أن يَحضروا لمصر ووعدهم بالغنى والثراء قائلا لهم : خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلىّ فأعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض ، خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا ؛ ولا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم [2] • وسنرى أنهم استجابوا لهذه الدعوة السخية •

اسرائيل وبنوه فى مصر :

ومرت بمصر سنون من الرخاء ، فاض خلالها الخير ، وادُّخر الكثير

---

(١) اقرأ الجزء رقم ٣٣ من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » وهو عن قصة يوسف عليه السلام .

(٢) سفر التكوين الاصحاح ٤٥ : ١٧ — ٢٠ .

منه ، ثم جاءت سنون أخرى من الجدب والقحط ، فهرع الناس الى خزائن الملك يطلبون عونه ، ويسألونه القوت ، وأخذ يوسف يمنحهم القوت نظير ما يملكون من فضـــة وذهب وماشية وأطيان ، بل اشتراهم أيضاً وجعلهم عبيــداً لفرعون من أجل الطعام [1] ، وامتدت المجاعة الى الممالك المحيطة بمصر ، وكان وقعها شــديداً على العبرانيين ، فدفع يعقوب أبناءه ليطلبوا الميرة من مصر ، وهناك عرفهم يوسف ، ولكنهم لم يعرفوه ، وجرت بينه وبينهم أحــداث انتهت بأن جلّى يوسف لهم الأمــر ، وأعــلن لهم أنه أخوهم ، وطلب إليهم أن يحضروا أباه وأهلهم أجمعين (كانت أمه قد ماتت وهــو صــغير) وبدأت بذلك الجولة الثانية لبنى إسرائيل بمصر .

ويلاحظ على بنى إسرائيل بمصر ما لاحظناه من قبل على أجدادهم بأرض كنعان ، وهو الانعزالية التامة ، وعــدم التعاون مع من يحيط بهم ، وعدم الاختلاط بأصــحاب الأرض الأصــليين ، فقــد طلبــوا من فرعون أن يسكنهم فى أرض جاسان (منطقة صفط الحنة بالشرقية) فاستجاب لهم فرعون وقال ليوسف : أبوك وإخوتك جاءوا إليك ، أرض مصر قدامك ، فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك ، ليسكنوا فى أرض جاسان ...... فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض . وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب عدد الأولاد [2] . وكان تعــداد بيت يعقوب آنذاك سبعين نسمة [3] .

وتكاثر بنو إسرائيل بمصر تكاثراً واســعاً جــداً وسريعاً جــداً ، فلقد أحصاهم موسى عند خروجهم من مصر كما تقول التوراة [4] ، فوجد حمــلة السلاح منهم أى الذكور ابتداء من سن العشرين ، يبلغون ٦٠٣٫٥٠٠ وهــذا العددمبالغ فيه جداً ، ولكن عددهم زاد على كل حال زيادة هائلة ،

---

(١) انظــر « الاقتصــــاد فى الفــــكر الاســـلامى » للمؤلف ص ١٧٧ واقرأ سفر التكوين الاصحاح ٤٢ : ٥ و ١١ — ١٢ .

(٢) تكوين ٤٢ فقرة رقم ٥ ثم ١١ — ١٢ .

(٣) تكوين ٢٦ : ٢٧ .

(٤) سفر العدد الاصحاح الأول .

وكانوا لا يزالون فى عزلتهم ، ولكن العزلة آنذاك أصبحت تستلفت نظر المصريين وتثير خوفهم ، فهى لم تعد عزلة بضع عشرات من الرجال والنساء، لكنها أصبحت عزلة قوم لهم قوة ومنعة ، فغدوا يكونون دولة داخل الدولة كما يقال فى الاصطلاح الحديث ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد نجح أمراء طيبة المصريون فى التغلب على الرعاة العماليق ، وطردهم أحمس خارج البلاد وأقام حكما وطنيا قويا فى مصر كلها ، ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة ، ولم يتعرض أحمس لبنى إسرائيل بسوء ، لأنه فيما يبدو كان مشغولا بالعدو الأكبر ، فلما قامت الأسرة التاسعة عشرة ومن ملوكها رمسيس الثانى الفاتح العظيم ظهر الشعور العدائى ضد بنى إسرائيل ، ونقم الحكم الوطنى عليهم ، لأنهم نالوا أطيب خيرات مصر على حساب المواطنين المغلوبين على أمرهم ، ثم إن الحكم الجديد كان يخشى أن يتآمر بنو إسرائيل ضده فى محاولة للانتكاس ، بل يرى بعض الباحثين أن شعب مصر اكتشف بالفعل أن بنى إسرائيل كانوا يتآمرون عليه [١] . وقد وصل التآمر الى عمل ضد سلامة الدولة ، فقد ذكر شاروبيم فى كتابه « الكافى » [٢] أن الإسرائيليين ثاروا ثورة عاتية ضد منفتاح فزحف عليهم ..... وقرئت على عمارة فى طيبة أنشأها منفتاح الأول أنشودة له ذكر فيها تنكيله ببنى إسرائيل بسبب ثورة ثاروها ضد السلطان المصرى .

ويعلل الباحثون هذه الثورات بأنها كانت نتيجة للوضع الجديد فى مصر ، فإن بنى إسرائيل تعودوا الحياة الممتازة منذ عهد يوسف ، ونالوا الكثير من رعاية الهكسوس وإيثارهم [٣] ، ثم جاء من الفراعنة من طلب من بنى إسرائيل أن يحرثوا الأرض كغيرهم من المصريين المنتجين ، وأن يشتركوا فى تشييد المبانى وإقامة العمران ، لا أن يختصوا بصياغة الذهب

---

(١) سليمان مظهر : قصة العقائد ص ٢٨٣ .

(٢) ص ٩٠ وما بعدها نقلا عن « تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم » ص ٨٠ — ٨١ .

(3) E. H. Weach : Civilization of the Near East p. 83.

والفضـة وتجارتهما ، وبتنمية المواشى بواسطة الرعى دون جهـد ، فثار بنو إسرائيل لفقدان امتيازاتهم وقاوموا الحـكم الجـديد ، وربما يكون من الاستطراد أن نذكر أن بنى إسرائيل كانوا يحرصون على حياة الامتياز والكسب السهل على مر التاريخ وفى مختلف البـلاد ، وأنهم ثاروا هنـا وهناك عند ما خافوا أن تضيع منهم هذه الامتيازات [١] .

وهناك سبب آخر نضـيفه لأسباب الخلاف بين فراعين مصر وبين بنى إسرائيل ، ذلك هو الاضطراب الصـحى الذى نتج عن التزايد المطرد فى تعـداد بنى إسرائيل ، فإن حياة الغنى كان ينعـم بهـا سـادتهم . أما الأكثرية العظمى فكانت تعيش فى فقر مدقع ، وكانت القـذارة تنتشر بينهم بشـكل واضـح ، فظهرت بينهم الأمراض ، وأصبحوا مصـدر قلق فرعون وشعب مصر [٢] .

ويقول العـالم المؤرخ الدكتور أحمد بدوى يصف عـلاقة المصريين ببنى إسرائيل [٣] :

« من الثابت فى تاريخ مصر ــ بناء على ما جاء فى كتب السماء من ناحية وما شهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى ــ أن « العبرانيين » قـد عرفوامصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل ، كانوا يجيئونها أول الأمر لاجئين يطلبون الرزق فى أرضـها ، ويلتمسون فيها وسـائل العيش الناعم والحياة السهلة الرضـية بين أهـلها الكرام ، ثم يجيئونها أسارى فى ركاب فرعون كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافراً منصـوراً ، فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء [٤] ، ويعبدون أربابهم

---

(١) انظر الصهيونية فى المجال الدولى للدكتور محمد عبد المعـز نصر ص ٤٩ ــ ٥٠ وتاريخ العرب قبل الاسـلام للدكتور جواد على ص ٢٢ .
(٢) سليمان مظهر : قصـة العقائد ص ٢٨٦ .
(٣) فى موكب الشمس ج ٢ ص ٥٨٨ واقرأ كذلك ص ٨٨٧ ــ ٨٨٨ .
(٤) جاء فى الاصحاح الأول من سفر الخروج أنهم بنو لفرعون مخـازن مدينتى « فيثوم » و « عميس » .

أحرارا لم يكرههم أحـد على قبول مذهب ، أو اعتناق دين ، وتطيب لهم الإقامة فى مصر ، وتستقيم لهم فيها أمور الحياة ، ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد ، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب ، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر ، ويعملون على إفقارهم ، وإضعاف الروح المعنوى بين طبقات الشعب ، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هـذا القطر ، ليفرضـوا عليه سلطانهم ، تارة عن طريق الضـغط الاقتصـادى ، وأخرى عن طريق الدين والعقيدة [1] .

« وهكذا تنكر بنـو إسرائيل لسادتهم المصريين ، فخانوا عهـدهم واستنزفوا أموالهم ، ورموهم بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام » .

« وكذلك كان مسلكهم فى كل زمان ومكان ، وتاريخهم يشـهد على ذلك فإنهم ما حـلّوا بأرض إلا وأكثروا فيها الفساد ، وأيقظوا بين أهلها شـياطين الفتنـة » .

وهكذا تأزمت العلاقات بين المصريين وبين بنى إسرائيل ، وأصبحت الكراهية والحـذر طابعها ، واستشار فرعون الكهنة والحـكماء ، وتدارس الجميع الأمر ، وانتهوا فيه الى أن عزلة بنى إسرائيل هى مصدر الخطر ، وأن تكاثر رجالهم يهـدد الدولة ، فاستقر الرأى على التخلص من الأطفال الذكـور واسـتبقاء الإناث ، فإذا تمّ ذلك ، وتزوجت الإسرائيليات من مصريين انتهت العزلة وتم الاندماج وزال الخطر ، وكان موسى عليه السلام من مواليد هـذه الفترة ، ولكن الله أنجـاه من الموت ، وفى القرآن الكريم تصـوير رائع لطفولة موسى ، تعال بنا نقتبس بعض آيات من الذكـر الحـكيم :

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضـعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى

---

(١) اقرأ كذلك الاصحاح السابع من سفر الخروج .

اليمّ ، ولا تخاف ، ولا تحزني ، إنا رادّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين .
فالتقطه آل فرعون [١] ..... » .

وقالت امرأة فرعون لفرعون : ألا يحتمل ألاّ يكون الطفل عبرياً ؟
لا تقتلوهّ عسى أن ينفعنا أو نتخـذه ولداً ، واستجاب لها فرعون وتربّى موسى في رعاية القصر ، ولكنه عند ما شب أدرك أنه من بني إسرائيل . فقرر أن يكون ظهيراً لهم ، وذات يوم رأى خلافاً يدور بين مصرى وعبرانى ، وتطور الخلاف الى عراك . فهتف به العبرانى أن يساعده ففعل . وسـقط المصرى قتيلا بضربة من موسى ، وثار المصريون ضـد العبرانيين . ثم اتجهت ثورة المصريين لتصبح ضد موسى عند ما اعترف عليه العبرانى الذى استغاث به بالأمس ، ولم يجـد موسى بدأ من الهرب . واتجه فى هروبه الى الجنوب الشرقى حيث قاده الطريق الى أرض مدين ، مقـر نبى الله شعيب . وهناك تزوج ابنته وكان صـداقها خدمته لأبيها ثمانى حجج ، وبعـد أن أتم موسى الميقات فكر فى الرجوع الى مصر آملا أن يكون القوم هناك قـد نسوا خطيئته ، فوهب له صهره بعض المال والأغنام ، وسار مع زوجته فى طريق العودة حتى وصل طور سيناء ، وهناك خُيّل له أنه ضل الطريق ، فوقف متردداً ، ولكنه سرعان ما أبصر ناراً تشتعل فى جانب الطور الأيمن ، فقال لأهـله « امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجـد على النار هـدى ، فلما آتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخـلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » [٢] وبدأت بذلك رسـالة موسى .

ويعطينا المؤلف اليهودى جوزيف المتوفى سـنة ١٠٠ م معلومات عن موسى لم ترد فى التوراة ، فهو يقرر أن موسى كان قائداً بالجيش المصرى

---

(١) سورة القصص الآيتان ٧ — ٨ .
(٢) سورة طـه الآيات ١٠ — ١٤ .

خلال الحملة المصرية على الحبشة ، وقد تزوج موسى من أميرة حبشية فى هذه الأثناء [١] وعرض موسى رسالته فلم يعترف فرعون برسالته ، ولم يعترف بما جاء به من معجزات ، وظل فرعون يعامل بنى إسرائيل بما كان يعاملهم به من القسوة والحذر ، وهتف بنو إسرائيل بموسى « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » [٢] واتجه موسى يطلب من فرعون أن يطلق معه شعبه « بنى إسرائيل » ليعبدوا إلهم « يهوه » فى البرية ، ولم يستجب فرعون لهذا الطلب أيضا ، إذ رأى من الخسارة أن يعفيهم من أعمالهم التى وكلها لهم ، ثم من الخطر أن يطلقهم فقد يلتقون بأعداء المصريين بالشمال ويتفقون معهم على ما يؤذى المصريين • ولهذا دبر موسى أن يخرج بهم سراً •

وهناك اتجاه آخر هو أن فرعون أذن لموسى فى الخروج ببنى إسرائيل ، بيد أن نساء بنى إسرائيل استجبن لإلههم الذى تروى التوراة قوله لهم : حينما تمضون إنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كلُّ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة » وأمتعة ذهب ، وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين [٣] • وخرج بنو إسرائيل بما سلبوه من المصريين •

وسواء كان خروج بنى إسرائيل سراً ، أو كان بموافقة فرعون ولكن نساء بنى إسرائيل سلبن ثروات المصريات ، فقد كان على فرعون أن يلحق بهم وأن يمنعهم من مواصلة السفر ، وتبعهم فرعون ومعه فريق من جنده ، فلحق بهم وقد بلغوا شاطىء خليج السويس « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود

---

(١) نقلا من God and Man in Early Israel by J. Smith p. 38.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٢٩ •
(٣) سفر الخروج ٣ : ٢١ — ٢٢ وخروج ١٢ : ٣٥ — ٣٦ •

العظيم، وأزلفنا ثَمّ الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معــه أجمعين ، ثم أغرقنا لآخرين » [(١)] ويعلق أكثر المفسرين على الآية الأخيرة بأن إغراق فرعون على هــذا النحــو كان لقوله فيما حــكاه عنــه القرآن الكريم : « يا أيهــا المــلأ ما علمت لــكم من إلــه غــيرى » [(٢)] . وقوله لموسى : « لئن اتخــذت إلهــاً غيرى لأجعلنك من المسجونين [(٣)] » وقوله « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعــلى » ولذلك جاء بعــد هــذه الآية قوله تعالى « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى [(٤)] » وهذا التعليل هــو الذى تذكره الآية الكريمة « فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين [(٥)] » .

وفرعون الاضطهاد هو رمسيس الثــانى (١٣٠١ — ١٢٣٤ ق‌م) . وفرعون الخروج هو منفتاح الذى خلف أباه رمسيس الثانى ، وكان خروج بنى إسرائيل من مصر حوالى سنة ١٢١٣ ق.م . وقــد جاء فى لوح عثر عليه فى طيبة أن منفتاح أباد بنى إسرائيل واستأصلهم [(٦)] .

وبعض المراجع القديمة والحديثة تثير الشــك حول نزوح يعقوب وأبنائه الى مصر ، وتبعاً لذلك حول خروج بنى إسرائيل منها [(٧)] ، ولكن

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٦١ — ٦٦ .
(٢) سورة القصص الآية ٣٨ .
(٣) سورة الشعراء الآية ٢٩ .
(٤) سورة النازعات الآيات ٣٣ — ٢٦ .
(٥) سورة الأعراف الآية ١٣٦ .
وقصــة خروج بنى اسرائيل على هــذا النحو وردت فى التوراة كذلك على نفس الصــورة التى وردت فى القرآن (سفر الخروج الاصحاح الرابع عشر) . ومنهج الدراسات الدينية يعترف بالمعجزات ويراها من طبيعة الرســالات ، أما منهج الدراسات التاريخية الذى يعنى بالأسباب والمسببات ، فيلجأ أتباعه الى تعليل ما حــدث تعليلا يناسب منهجهم ؛ فهم يرون أن ما حــدث كان نتيجة لهزات أرضية عنيفة وزلزال مصــادف مهــد طريقا لبنى اسرائيل فعبروا خليج العقبة . انظر : God and Man in Early Israel by J. Smith p 44.
(٦) احمد نجيب هاشم وآخران : مصر فى العصــور القديمــة ص ٩٧ والدكتور احمد بدوى : فى موكب الشمس ج ٢ ص ٨٨٦ .
(٧) اقرأ جوزيف نيوتن والدكتور احمد بدوى والدكتور سليم حسن .

هذه القصة واضحة بالكتب المقدسة وبخاصة فى القرآن الكريم ، مما يزيل هذا الشك ، ثم إن أوراق البردى المحفوظة فى متحف لايد ينطابق فحواها مع ما جاء فى الكتب المقدسة ، حيث تذكر تسخير بنى اسرائيل فى أعمال البناء والطين ، وتؤيد وجود بنى إسرائيل (العبريو) فى مصر فى عهد رمسيس الثانى ، وبالإضافة الى ذلك فإن طروءهم على شرق الأردن وغربه من ناحية حدود مصر ، يؤيد خروجهم منها ، ولا يدع سبيلا الى الشك فى القصة كما أوردناها [١] .

ويقول J. Smith **معلقاً على عدم اهتمام الآثار المصرية بحادثة خروج بنى اسرائيل ما يلى : ولا تدعو للدهشة أن الآثار الفرعونية لم تحفل بحادثة خروج بنى اسرائيل من مصر ولم تسجل خطواتها ، فإن فرار مجموعة من العبيد من سادتهم لم يمثل حدثاً يثير الاهتمام الفكرى لدى المصريين ، وبخاصة أن بنى اسرائيل بمصر عاصروا عهوداً حافلة بجلائل الأعمال ، استنفدت ــ فيما يبدو ــ نشاط المثالين ومدونى التاريخ ، وليس بعيداً أن تكشف أعمال التنقيب الجارية الآن ــ فيما تكشف ــ عن بعض الآثار التى تعين على مزيد من الإيضاح [٢] .**

وقبل أن نتتبع حركات بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، ينبغى لنا أن نقف هنا وقفة ندرس فيها الى أى مدى استطاع الدم اليهودى أن يحافظ على نقائه ، وتجمع المراجع التاريخية والأبحاث الأنتروبولوجية (علم أجناس البشر Anthropology) على أن خروج بنى إسرائيل من مصر كان حداً فاصلا بين عهد النقاء وعهد اختلاط الدم ، يقول غوستاف لوبون [٣] : ولحق ببنى إسرائيل عدد من المصريين الساخطين ، من الأسارى ، ومن العبيد ، ولما جاوز بنو إسرائيل بحر القلزم بَدَوْا

---

(١) محمد عزة دروزة : تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم جـ ١ : ص ٨٢ .
(٢) God and Man in Eraly Isrrel p. 35.
(٣) اليهود فى الحضارات الأولى ص ٢٣ .

عشيرة" أى جماعة تبدو كأنها نسل رجل واحـــد وإن كانت فى الحقيقة فاتحة صفوفها لجميع الفرّار المستعدين لانتحال اسمها وتقاليدها ومعبوداتها .

وحدث مثل ذلك الاختلاط عندما هاجرت جماعات اليهود من فلسطين ؛ يقـــول Margolis :

وقد تكوّن فى الموطن الشمالى لنهــر الراين أكبر مجموعة يهــودية بأوربا ، إذ وفـــد على ذلك المكان جماعة من أسباط العبريين الرحل الذين هجروا فلســـطين إثر إحـــدى هزائمهم ، واختلطوا فى الطريق الى أوربا بعناصر سورية وأناضولية ، وحطوا رحالهم بالحوض الشمالى لنهر الراين ، وبمرور الزمن دخل عـــدد كبير من سكان هـــذه المنطقة ديانة الوافدين العبريين ، وتفرع هؤلاء بعـــد فترة من الزمن : فاستوطن بعضهم بولندا ، واستوطن آخرون أوربا ، واتجـــه فريق منهم الى روسيا [١] .

ويقول العـــلامة « لامبروز » [٢] : إن اليهود المحـــدثين هم أدنى الى الجنس الآرى منهم الى الجنس الســـامى ، وهم عبارة عن طائفة دينية تميزت بميزات اجتماعية واقتصادية ، وانضم اليها فى جميع العصور أشخاص من شتى الأجناس ومن مختلف صـــنوف البشر ، وجاء هؤلاء المتهودون من جميع الآفاق ، فمنهم « الفلاشا » سكان الحبشة ، ومنهم الألمان ذوو السحنة الألمانية ، ومنهم « التامل » أى اليهود الســـود فى الهنـــد ، ومنهم « الحرز » وينتمون للجنس التركى ، ومن المســـتحيل أن نتصـــور أن اليهود ذوى الوجه الحسن البديع والشعر الأشقر أو

---

(١) اقرأ عن هـــذا الموضوع المراجع التالية :

أ — A History of the Jewish People by Max Margolis and Alexander Marx p. 233 f.

ب — The Outline of History by H. Wells p. 293.

جـ — اليهودية وربيبتها اسرائيل للاستاذ عمر رشدى ص ٣٧ .

(٢) نقلا عن الصهيونية العالمية وأرض الميعاد تأليف على امـــام عطية ص ١٠٠ .

الكستنائى ، وذوى العيون الصافية اللون الزرقاء ، ممن نلقاهم اليوم فى أوربا الوسطى يمتون بصلة الدم الى إسرائيل أرض الميعاد أو يهود فلسطين القدماء ، الذين يعيشون بجوار نهر الأردن والبلاد المقدسة منذ القدم [١] .

بعد الخروج :

التف بنو إسرائيل حول موسى وهم بمصر ، لا كرسول ولكن كقائد وزعيم يرجى على يده الخلاص من استعباد المصريين ، ولذلك لم يكادوا يتحققون من نجاتهم من فرعون حتى شغبوا على موسى ، وقد سبق أن قلنا إن بنى إسرائيل ثاروا على الحكم الوطنى بمصر لما أحسوا أنهم فقدوا امتيازاتهم التى كانوا ينعمون بها خلال عهد العماليق ، وقد كرر بنو إسرائيل موقفهم هذا ضد موسى نفسه لما أفقدهم حياة الرخاء بمصر وجاء بهم الى البرية ، التى فقدوا بها ما كانوا ينعمون به فى مصر من خيرات ، فالحرية عندهم لم يكن لها جزاء ، ولهذا صاحوا به وبأخيه هاورن فيما ترويه التوراة :

— ليتنا متنا فى مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع ، فإنكما أخرجتمانا الى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع [٢] .

— وفى بعض أماكن البرية لم يجدوا ماء ، فخاصم الشعب موسى وتذمروا عليه ، وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش [٣] .

---

(١) لا يتنافى هذا مع الانعزالية التى ذكرنا انها كانت طابع اليهود ، فاليهود فتحوا صفوفهم لهؤلاء الفرار وكون اليهود والمتهودون جماعة ظلت منعزلة عن سواها من الجماعات فكريا واجتماعيا ، فهم لا يلتقون بالناس فى ميولهم ، ولكن يمكن ان يفتحوا صفوفهم للآخرين ، لمزيد من القوة ولجذب عدد ينماع فيهم .
(٢) سفر الخروج ١٦ : ٢ — ٣ .
(٣) سفر الخروج : ١٧ : ٣ .

وفى الطريق الى فلسطين ترك موسى بنى إسرائيل بناء على أمر ربه ليصعد الى جبل الطور ويمكث ثلاثين ليلة صائماً ليتلقى من الله الوصايا والتعليمات التى يسير عليها هو وشعبه ، وطالت هذه الليالى فبلغت أربعين ، لأن موسى استاك فى آخرها فكلفه الله أن يزيدها عشرا ، وهنا يتناسى بنو إسرائيل كل معجزات موسى ويعودون الى طبيعتهم الوثنية الشريرة الآثمة ، تقول التوراة :

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى ، الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب وأتوا بها الى هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا ... فقال الرب لموسى اذهب لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر ، زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به ، صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا [١] .

ونزل موسى من الجبل وغضب غضباً شديداً على قومه لعودتهم للوثنية وعبادة العجل ، وكان عقابهم أن تسلط بعضهم على بعض فى معارك طويلة سقط فيها عدة آلاف .

وبدأ موسى يسير بقومه تجاه فلسطين ، ولكن فلسطين كانت عامرة بالسكان الذين سبق أن تحدثنا عنهم ، وكان قد شاع بين الناس غدر بنى إسرائيل وتآمرهم ضد البلاد التى ينزلونها ، فلم تعد فلسطين مفتوحة لهم كما كانت من قبل ، بل وقف أهلها فى وجه بنى إسرائيل يردونهم عنها ، وهكذا أصبحت محاولة دخولها معناها الحرب بين بنى

(١) خروج ٣٢ : ١ — ٨ والقرآن الكريم ينسب هذا التصرف للسامرى (سورة طه الآيات ٨٧ — ٩٦) .

افترى على الله! ليس هارون بل هو السامري

إسرائيل وبين هؤلاء السكان ، وكان بنو إسرائيل يخافون الحرب ، فقد تمكنت منهم الذلة والصغار ، فصاحوا بموسى « إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وبُذِلَت محاولات لإغرائهم بالدخول ووعود بالنصر ، ولكنهم أصروا على موقفهم « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » .
ولم يستجب لموسى أحد سوى أخيه هارون ، فشكا موسى الى ربه قائلا : « رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » فنزل عليهم حكم الله « إنها محرمة عليهم ، أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » [1] .

ويقرر أكثر الباحثين [2] أن التيه هو الذى حدد بأربعين سنة وليس التحريم ، فالتحريم مطلق أبدى ، أى لن يكون لهم بها استقرار ، ومن أجل هذا يُوقَف فى القراءة بعد قوله تعالى « محرمة عليهم » .

ومات هارون ثم موسى فى فترة التيه ، ودفن هارون فى جبل هور ، ودفن موسى فى كثيب أحمر حيث كان يرى أرض فلسطين دون أن يدخلها .

وتولى يوشع بن نون قيادة بنى إسرائيل بعد موسى ، وكان يوشع أحد أصفياء موسى ، وقد اختاره موسى قبل موته لقيادة بنى إسرائيل [3] ، فاتجه يوشع بأتباعه الى الشمال ، شرقى نهر الأردن ، ثم بدأ يوشع يعد العدة لعبور الأردن ونزل فلسطين ، فلما عبر بنو إسرائيل كانت أول المدن التى استولوا عليها مدينة أريحا ، وقد أرسل يوشع رسولين للتجسس ، فدخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب كما تقول التوراة [4] وخبأتهما المرأة عندما شاع أمرهما ، وبعد بضعة أيام

---

(١) سورة المائدة الآيات ٢٢ — ٢٦ .
(٢) انظر قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ص ٢٧٢ .
(٣) سفر العدد ٢٧ : ١٥ — ٢٠ و
J. Smith : God and Man in Early Israel p. 52.
(٤) سفر يشوع (هو يوشع بن نون) ٢ : ٢ .

اقتحم بنو إسرائيل مدينة أريحا وقتلوا كل ما بها من إنسان أو حيوان ، وحرقوا المدينة كلها ، ولم ينج من الموت من سكان المدينة إلا المرأة الزانية وأهلها [١] • وكان ذلك أول العهد ببنى إسرائيل فى فلسطين ، وامتد سلطان يوشع عقب ذلك ، ويذكر Smith [٢] أن الذين عاصروا موسى من بنى إسرائيل قد هلكوا جميعاً فى الصحراء ولم يدخل منهم فلسطين إلا اثنان كان يوشع واحداً منهما • أما باقى الجيش الذى اقتحم فلسطين فكان من الأبناء الذين ولدوا فى فترة التيه • ويصف ول ديورانت [٣] أحداث هذه الفترة أدق وصف ، استمع اليه يقول :

كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلا واضحا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين ، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم ، وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل — كما تقول نصوص الكتاب المقدس — فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى وزكاة للرب ، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من اهلها اثنى عشر الفا واحرقوا وصلبوا حاكمها [٤] ، ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به ، وقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة ، أما يوشع فلم يكن إلا جنديا فظا ، وقد حكم موسى حكما سليماً لم تسفك فيه دماء ، أما يوشع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الذى يقول إن اكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا ، وبهذه الطريقة الواقعية التى لا اثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة •

ويعلق J.W.D. Smith [١] على احتلال بنى إسرائيل لفلسطين

---

(١) اقرأ سفر يشوع وبخاصة الاصحاح السادس •
(٢) God and Man in Early Israel p. 52.
(٣) قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٢٦ — ٣٢٢ •
(٤) اقتبس ول ديورانت هذا الرقم من سفر يشوع الاصحاح الثامن •
(٥) God and Man in Early Israel p. 54.

يقول : إن هـذا الحادث كان عملية انتقال فى تاريخ بني إسرائيل ، لأنه كون أمـة من أشتات من العبيد .

وقـد قسم يوشع الأرض التى استولى عليها بين الأسباط ، وتركت ست مدن على الشاطىء الأيمن والأيسر للأردن لتكون ملجأ للمشردين من بنى إسرائيل المتهمين بالقتل خطأ .

بنـو إسرائيل فى فلسـطين

وهكذا بدأت قصـة اغتصاب اليهود لفلسطين ، ويمكن أن نقسم حياة بنى إسرائيل بفلسطين أقساما ثلاثة متميزة ، هى :

١ ـ عهـد القضـاة .
٢ ـ عهـد الملوك .
٣ ـ عهـد الانقسام فزوال ملك بنى إسرائيل من فلسطين .

وسنتكلم عن كل قسم من هـذه الأقسام على حدة بإيجاز :

١ ـ عهـد القضـاة :

لم يفتح العبرانيون فى أرض الميعاد إلا منطقة التلول الداخلية ، ولم يعدو عليها شيئاً ، أما مدن الساحل فقد استطاعت أن تصـمد لهجـوم العبرانيين ، وظل أسباط إبراهيم أجيالا عـديدة شعباً مغموراً يعيش فى منطقة التلال الخلفية مشغولا بمناوشـات لا نهاية لهـا مع الفلسطينيين وسواهم من القبائل النازلة حولهم وبخاصـة المؤابيون وأهل مدين [١] ، وسفر القضـاة سجل يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة ، وهو فى الغالب سجل للنكبات والإخفاقات التى دونت بصراحة [٢] .

---

(١) سفر يسوع الاصحاح الثالث عشر .
(٢) Wells : A Sho t History cf th Wor d p. 92.
وانظر كذلك الاصحاح الثانى والثالث من سفر القضاة .

وكان حكام اليهود فى هـذه الفترة قضاة من الكهنة ينتخبهم كبراء الشعب ، وكان بعض القضـاة نساء أحيانا ، ويتكلم سفر القضـاء عن دبورة قاضية اسرائيل [١] ، ولم يـكن فى بنى اسرائيل مـلوك فى تلك الأيام ، ولا كانت إطاعة القضاة واجبة ، وقد تسبب عن ذلك — بالإضافة الى تقسيم الأرض المفتوحة بين الأسباط — أنه لم تتألف من بنى إسرائيل أمة موحـدة متماسكة ، بل ظلوا زمناً طويلا يؤلفون اثنى عشر سبطاً ، يستقل كل منها عن الأسباط الأخرى استقلالا واسعاً أو ضـيقاً ، وكان نظام الحـكم عندهم لا يقوم على أساس الدولة بل على أساس الحـكم الأبوى فى الأسرة ، فكان شيوخ العشائر يجتمعون فى مجلس من الكبراء هو الحـكم الفصل فى شئون القبيلة ، وهو الذى يتعاون مع زعمـاء القبائل الأخـرى اذا ألجأتهم الى هـذا التعاون الظروف القاهرة التى لا مفر من التعاون فيها [٢] ، فاذا فشل التقاضى أمام هؤلاء لجأ المتقاضون الى القاضى الذى كان يمثل الرئيس فى الجماعات اليهودية . وقد استمر عهـد القضـاة حوالى أربعة قرون بناء على حساب سفر القضاة ، ولكن المحقق محمد عزة دروزة يقرر أن عهـدهم لا يزيد عن قرن واحـد ، فإن موسى خرج ببنى إسرائيل حوالى سنة ١٢١٠ ق م وتزعمهم هـو ويوشـع حوالى ثمانين عاما أى حتى سنة ١١٣٠ ق م وهى السنة التى مات بهـا يوشع ، وبدأ بذلك عهـد القضاة الذى استمر حتى سـنة ١١٣٠ قم ، ويرى هـذا المحقق أن رقم التوراة من مبالغات السِّفْر ، شأنه شأن الأسفار الأخرى فى موضوع الأرقام [٣] .

وفى هـذا العهد وُضِعَ الأساس للحياة اليهودية وللفكر اليهودى ، وقـد اشترك فى وضـع هـذا الأساس العناصر الداخلية اليهودية ، كما اشتركت فيه العناصر الخارجية والتأثيرات التى حملها اليهود معهم ، أو انفعلوا بهـا حين نزلوا بفلسطين ، وعلى هـذا بدأت حياتهم تتغير خلال

(١) الاصحاح الرابع من سفر القضاة .
(٢) ول ديورانت : قصـة الحضارة ج ٢ ص ٣٢٩ .
(٣) تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم جـ ١ ص ١٤٨ بتصرف .

عهــد القضـــاة رويداً رويداً ، فبدءوا ينتقلون من حيـــاة البدو الى حياة الاستقرار ، ومن حياة الخيام الى القرى الساذجة ، كما بدءوا يعرفون الزراعة بجانب الرعى الذى كان كل عملهم ، ومصـــدر ثرائهم الوحيد ، وكان الكنعانيون أساتذة لهم فى الاستقرار وبناء القرى والزراعة ، وتعلم العبرانيون كذلك من الكنعانيين ومن الدول المجاورة التى اتصـلوا بها عن طريق التجارة ، بعض التقــدم فى الصـناعة ، فأخــذ الحــدادون اليهود عن الكنعانيين تطوير الأسلحة وصــنع آلات الزراعة ، أما عمال الفخار فقد ترقت صناعتهم بما اكتسبوه من خبرة من الكنعانيين [1] •

وبالاضافة الى هذا التأثر فى مطالب الحياة اليومية ، فإن الإسرائيليين تأثروا بالكنعانيين فى عباداتهم تأثراً كبيراً كما سنوضح ذلك عند الحديث عن معتقدات بنى إسرائيل •

٢ ـ عهــد الملوك :

انهار عهــد القضاة أمام مطالب الحيــاة الملحة ، فقــد كان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملا هاما فى محاولة جمع الأسباط كلهم فى وحــدة شاملة بعد مانالهم من إخفاق فى عهــد القضاة ، وبعد ما شاع من فسق القضـــاة وأخــذهم الرشوة ، ويحكى لنا الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الأول قصـــة الانتقال من عهــد القضـــاة الى عهد الملوك ، وهـــاك كلماته :

لـــا شاخ صموئيل جعل ابنيه قضـــاة لبنى إسرائيل ، ولكنهما لم يســلكا طريقه ، ومالا وراء المكسب وأخــذا الرشوة ، وعوّجا القضاء ، فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل وجاءوا الى صموئيل وقالوا له : أنت قــد شخت ، وابناك لم يسيرا فى طريقك ، فالآن اجعل لنا ملكا كسائر الشعوب ، فصلى صــموئيل الى الرب فقال له الرب : اسمع لصــوتهم ، إنهم لم

(1) Charles Foster Kent : A History of the Hebrew people pp. 98 - 90.

يرفضـــوك أنت ولكنهم رفضونى أنا ، إنهم تركونى وعبدوا آلهة أخرى ، فاسمع لصـــوتهم ولكن أشـــهد عليهم • قال صموئيل لبنى إسرائيل : إن الملك الذى سيملك علـيـكم سيأخـــذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ، لمراكبـــه وفرسانه ، فيركضـــون أمام مراكبه ، ويحرثون له ويحصـــدون ، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ، ويأخـــذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم ويأخـــذ جواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ••• فأبى الشعب أن يسمع لصموئيل وقالوا : لا بل يكون علينـــا ملك ، مثـــل سائر الشعوب يخرج أمامنا ويحارب حروبنا (١) ••

واختار لهم صـــموئيل شاءول ليكون أول ملك عليهم ، ويســـميه القرآن الكريم « طالوت » (٢) • وقـــد قادهم شاءول فى المعارك بشجاعة ، وكان داود أحـــد رجاله فى هـــذه المعارك • ويحكى الإصحاح السابع عشر من سفر صـــموئيل الأول بروز « جليات » قائد الفلسطينيين الذى يســـميه القرآن الكريم « جالوت » (٣) ودعوته بنى إسرائيل للمبارزة ، وقـــد استطاع داود أن يتغلب عليه ، لسخرية جليات به وعـــدم تأهبه لمنازلته ، ومنذ ذلك الحين أخـــذ داود يملأ أعين الناس وأذهانهم وقلوبهم ، فأثار ذلك حقـــد شاءول عليه ، حتى عـــزم على قتله لئـــلا يزاحمه على الملك ، ومن ثم أخـــذ يطارده مطاردة شديدة وينصب له شباك القتـــل أمداً طويلا ، ولجأ داود الى الفلسطينيين مرتين هارباً من شـــاءول (٤) ، وانتهز الفلسطينيون فرصة هـــذا الخلاف فهاجموا بنى إسرائيل وأوقعوا بهم الهزائم العظيمة ، وسقط شاءول فى إحـــدى هـــذه المعارك بوادى بزرعيل ، وأخـــذت دروعه الى معبد عينوس الفلسطينى ، ودق جســـمه بالمسامير على أسوار بيت شـــان (٥) •

---

(١) سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن .

(٢ ، ٣) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

(٤) صموئيل الاصحاح السادس عشر والاصحاحات التالية له .

Margolis and Marx : History of the jewish people p. 40.

(٥) Wells : History of the World p. 92.

وبعد موت شاءول قام صراع بين داود وإشبوشث بن شاءول يؤيده أبنير قائد جيوش أبيه ، ولكن داود تغلب عليهما ، وذبحهما ، فاستقر له الملك بذلك ، فأصبح الملك الثانى لبنى إسرائيل وبقى الملك وراثيا فى عقبه ، ومن أبرز أعمال داود أنه استولى على أهم مدن فلسطين وهى (أورسالم) أو (أورشليم) ومعناها بالكنعانية محلة السلام أو مدينة السلام ، وكانت المنطقة التى تقع فيها هذه المدينة تحت سلطان اليبوسيين من القرن الخامس عشر ق م ، واليبوسيون بطن من بطون كنعان ، وقد سميت المدينة (يبوس) خلال مدتهم ، ولما استولى عليها داود أعاد اسمها القديم (أورشليم) واتخذها عاصمة له ، ونقل لها التابوت ، وأعد بها مساحة منبسطة فسيحة ليشيد عليها الهيكل المقدس (١) .

واستكمالا للحديث عن تسمية هذه المدينة نذكر أنه فى عهد الرومان الذى بدأ سنة ٦٣ ق م سميت هذه المدينة (إيلياء كابيتولينا) باسم المعبد الوثنى الذى شيده أدريانوس سنة ١٣٥ م على إثر حرث المدينة وإزالة معالمها ومعالم هيكل سليمان ، وفى العهد المسيحى عاش الاسمان (أورشليم وإيلياء) ، فلما جاء الإسلام سميت هذه المدينة القدس أو بيت المقدس .

ولنعد الى داود لنقتبس مزيداً من التعريف به وبعهده ، يقول Wells (٢) إن داود كان أكثر توفيقاً من شاءول ، وبتوليه أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التى قدر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مدى الدهر كله ، وهى تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية التى يلوح أن ملكها حيرام كان رجلا أوتى نصيباً كبيراً من الذكاء والقدرة على المغامرة ، وكان يبغى أن يكفل للتجارة الى البحر

---

(1) Weech : Civilization of the Near East p. 85.
History of the World pp. 92-98. واقرا كذلك :
The Outline of the History by Wells p. 283.

الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية ، وكان الأصل فى التجارة الفينيقية أن تذهب الى البحر الأحمر عن طريق مصر ولكن بعض العقبات حالت دون مرور التجارة الفينيقية فى تلك الطريق ، ومهما يكن من شيء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات ، وعند ذلك نشأت برعاية حيرام أسوار أورشليم ومقرها ومعبدها ، وفى مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيّرها فيه .

وكان عهد داود — بناء على ما جاء فى العهد القديم — غارقاً فى دماء الضحايا ، شديد القسوة ، فيروى أن داود جمع كل الشعب وذهب الى ربّة (عاصمة عمون وهى عمان اليوم) وحاربها وأخذها ، وأخذ تاج ملك عمون عن رأسه ووزنه وزنه أى (قنطار) من الذهب مع حجر كريم ، ووضعه داود على رأسه ، وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً ، وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفئوس حديد ، وأمرّهم فى اتون آخر ، وهكذا صنع بجميع مدن عمون ، ثم رجع داود وجميع الشعب الى اورشليم (١) .

ويقول Wells معلقاً على ما ورد بالكتاب المقدس عن قسوة داود ما يلى : وقصة داود بما تحوى من قتل وسفك دماء واغتيالات متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض أشبه بتاريخ أحد الرؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك متمدين (٢) .

ويعترف الكاتبان اليهوديان Margolis and Marx بقسوة داود ولكنهما يعللان لها بالثورات التى هبت ضده وبخاصة ثورة شبية وأبشالوم (٣) .

---

(١) سفر صموئيل الثانى ١٢ : ٢٩ — ٣١ واقرأ كذلك سفر الملوك الأول .
(٢) The Outline of History p 282 .
(٣) A. History of the Jewish People pp. 55-57.

وقبل أن ندع عهد داود الى عهد ابنه وخليفته سليمان نذكر أنه ينبغى ألا نبالغ فى تقدير سعة ملك داود ، ونقتبس لذلك خريطة من J.W.D. Smith [١] توضح أقصى اتساع لملكة داود :



مملكة داود فى أقصى اتساعها

ويقول Wells [٢] فى ذلك : ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد وقعت يوماً فى قبضة العبرانيين ، على أن مما وطد ملك داود وهيأ له شيئاً من الاتساع أن أمور مصر فى عهده كانت مرتبكة ، فخفت هيمنتها

(١) God and Man in E-rly Is ael p 87.
(٢) The Outline of History p. 279.

على فلسطين وبلاد الشام ، وكانت أمور الدولة الأشورية مرتبكة كذلك . وقد منح هذا لداود شيئاً من حرية الحركة والنشاط والتبسط وممارسة السيادة [١] . . وحكم داود أربعين سنة منها سبع فى حبرون والباقى فى بيت المقدس [٢] .

وينتتم Weils كلامه عن داود بقوله : وآخر ما سجل من تصرفات داود تدبيره لولده الوسيلة لقتل شيماى ((Shimei)) وآخر ما سجل من كلماته عبارات « الدم » إذ يقول لابنه « واحذر شيبته بالدم الى الهاوية » [٣] وهو بهذا يشير الى أنه وإن كان شيماى الشيخ قد حماه القسَم الذى أخذه داود على نفسه للرب مادام حياً . فما من عهد يرتبط به سليمان فى هذا الشأن [٤] .

وجاء سليمان بعد أبيه وقد بدا حكمه بقتل أخيه الأكبر أدونيا ، وقتل يؤاب رئيس جيش أبيه ، وعزل أبيانار الكاهن [٥] . وكانت حالة مصر وآشور مرتبكة فى مطلع عهد سليمان فنعم بالسلطان فترة من الزمن واستطاع أن يصاهر فرعون مصر (شيشنق) ، ويعلق Vells على هذا الزواج بقوله : كان من الجائز أن يتنازل فرعون فيقبل فى حريمه أميرة بابلية ، ولكنه كان يرفض رفضاً باتاً أن يسمح لأميرة مصرية لها مالها من قداسة أن تصبح زوجة لعاهل بابلى ، فما بالك بملك صغير كسليمان استطاع أن يتزوج أميرة مصرية ، إن هذا يدلك دلالة واضحة على انحطاط مهابة مصر وتدهورها فى هذه الأثناء [٦] ولكن حالة مصر

---

(١) انظر كذلك العقد الثمين لأحمد كمال ص ١٥٢ وتاريخ مصر من أقدم العصور لبريستيد ص ٣٥٢ وتاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم لمحمد عزة دروزة جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٢) الملوك الاول ٢ : ٢١ .
(٣) الكتاب المقدس : الملوك الاول ٢ : ١٠ .
(٤) The Outline of History p. 784.
(٥) الملوك الاول ٢ : ٢٤ — ٢٧ .
(٦) The Outline of History p. 286.

بدأت فى الانتعاش فعادت سيطرتها — الاسمية على الاقل — على فلسطين ، ونشط أعــداء مملكة سليمان فاستعادوا بعض البقاع التى كانت خاضعة لأبيه ، وانكمش ملك ســليمان فى آخـر عهــده فأصـبح غرب الأردن فقط [1] ، ويشرح Wells كيف لعب الخيال فصوّر مملكة سليمان بصورة تفوق الواقع بكثير ، قال Wells [2] :

من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور . فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجــده إلا ملكا صغيراً تابعاً يحــكم مدينة صــغيرة ، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم ، ونهب معظم ما فيها من كنوز ، ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجــد سليمان التى توردها أسفار الملوك والأيام ، وهم يقولون أن الكبرياء القومى لدى كتاب متأخرين هو الذى دعاهم الى إضافة أشياء عن القصــة والمبالغة فيها .

ويقرر Wells فى موسوعته « معالم تاريخ الإنسانية » أن قصة ملك سليمان وحــكمته التى أوردها الكتاب المقدس ، تعرضت لحشــود وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر ، وقــد استطاعت هــذه الرواية أن تحمل العالم المسيحى بل الإســلامى على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهــة ، وقد أسهب سفر الملوك الأول فى تصوير مجــد سليمان وأبهته وفخامته ، ولكن الحق أنه اذا قيســت منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث ، أو رمسيس الثانى ، أو نبو خــذ نصر .. فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهينات .. ولم يتجاوز سليمان بالنسبة لذلك الملك التاجر « حيرام » منزلة المعــاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق ، وكانت مملكة سليمان رهينــة تتجاذبها مصر وفينيقيا ، وترجع أهميتها فى معظم أمرها الى ضــعف مصر الموقوت [3] .

---

(١) محمد عزة دروزة ، تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم ج ٢ ص .

(٢) History of the World p. 93.

(٣) The Outline of History p 287.

وقسم سليمان بلاده الى اثنى عشرة قسما إداريا ، وتعمد أن تكون حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثنى عشر وكان يرجو من وراء هذا أن يضعف النزعة الانفصالية بينهم ، وأن يؤلف منهم شعباً واحدا ، ولكنه أفلس فى هذا وأفلست بلاد اليهود معه [١] .

وتصف التوراة مسألة الهيكل وقصر سليمان أبلغ وصف ، وتصورهما فى حالة رائعة من الجلال والعظمة [٢] . وقد سبق أن أوردنا عبارة Wells التى تفيد أن أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها نشأت برعاية حيرام ملك الفينيقيين ، على أن Wells يعود مرة أخرى فيتحدث عن مدى الجلال فى هيكل سليمان ، فيقول : إننا لو استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان لوجدنا أن فى الامكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى .

ويرى غوستاف لوبون [٣] أن وصف الهيكل وقصور سليمان قد بولغ فيه الى حد كبير وأن هذه الأبنية تمت على كل حال بأيدى الأجانب ، اذ جاء العمال من مصر أو من فينيقية ، ويختم غوستاف لوبون كلامه بقوله : لا ينبغى لنا أن نتحدث عن وجود شىء من فن النحت أو التصوير عند بنى اسرائيل ، وقل مثل هذا عن فن البناء عندهم ، فانظر الى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) الذى نشير حوله كثير من الأبحاث المملة تجده بناء أقيم على الطراز الآشورى المصرى من قبل بنائين من الأجانب كما تقول التوراة ، ولم تكن قصور سليمان غير نسخ رديئة للقصور المصرية أو الآشورية .

ويختم Wells كلامه عن سليمان بقوله : « وواضح مما تقصه التوراة أن سليمان بدد ما يملك فى المظاهر ، وأنه أبهظ شعبه بالعمل

---

(١) ول ديورانت . قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .
(٢) الملوك الأول الاصحاحات الخامس الى الثامن .
(٣) اليهود فى الحضارات الأولى ص ٤٠ و ٤٦ .

والغرائب (١) ولعل Wells يشير الى ما ورد فى سفر الملوك الأول من أنه بعد موت سليمان اجتمع شيوخ بنى إسرائيل وكلموا ابنه رَحُبْعَام قائلين : إن أباك قسّى نيرنا ، وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا (٢) وبموت سليمان انتهى عهد الوحدة ، وبدأ عهد الانقسام ، ويوضح Weech أن بذخ سليمان وقسوته وكثرة زوجاته والخلاف بين أولاده ، كل هذا كان السبب فى انقسام المملكة وزوالها (٣) .

٣ — عهد الانقسام وزوال ملك بنى إسرائيل :

بعد وفاة سليمان حوالى سنة ٩٣٥ ق م أعلن رَحُبْعَام نفسه ملكا على دولة اليهود ، وبايعه سبطا يهوذا وبنيامين فى أورشليم على ذلك ، ثم اتجه رحبعام الى الشمال لأخذ البيعة من باقى الأسباط ، فاجتمع حوله شيوخ بنى اسرائيل فى شكيم (نابلس الآن) ومعهم أخوه يَرُبْعام الذى كان قد ثار على أبيه وفشلت ثورته ، فهرب الى مصر ، وعاد الى فلسطين بعد وفاة سليمان ، وقالوا لرحبعام العبارة التى سقناها آنفاً عن قسوة سليمان وشدة تضييقه عليهم وطلبوا منه أن يخفف من نيره ، ونصح المستشارون الشيوخُ رحبعام بقبول ذلك الرجاء ، ولكن زملاؤه من الأحداث حذّروه من ذلك ، ونزل رحبعام على رأى الأحداث وأعلن للقوم أن خنصره أغلظ من متنى أبيه ، وأن أباه أدبهم بالسياط وهو سيؤدبهم بالعقارب . ولذلك رفض شيوخ الأسباط فى الشمال أن يبايعوه ، وبايع الأسباط العشرة يربعام ملكا ، وأراد رحبعام أن يحارب أخاه ولكن النبى شمعيا نصحه بالعدول عن الحرب ، وهكذا

---

(١) History of the World p. 93. ومعالم تاريخ الانسانية ص ٣٨٨ .

(٢) الاصحاح ١٢ الفقرة الرابعة .

(٣) Civilization of the Near-Eaat p. 85.

انقسمت المملكة الى مملكتين جنوبية اسمها يهـوذا وعاصمتها أورشليم ، وشمالية اسمها اسرائيل وعاصمتها شـكيم [١] .

ومن مطالعتنا للعهـد القـديم [٢] وللمراجع التاريخية [٣] يمكن أن نوجز تاريخ هاتين المملكتين فى العبارات الآتية :

— ضعفت مملكة سليمان آخر أيامه وبخاصـة عندما ثار عليه ابنه يربعام وأيده كثير من الشيوخ نتيجة لسياسة سليمان فى الضغط وتحصيل الضرائب ، وكان سلطان مصر شيشنق قـد بدأ يقوى ، وأصبح فى حالة تمكنـه من استعادة سلطانه على فلسطين لولا الإبقاء على صـلة النسب بينه وبين سليمان ، عن أن شيشنق مهد لاستعادة سلطانه على فلسـطين باغتيال حـيرام ملك صـور الذى هيـأت تجارته أنواعاً من الغنى لداود وسليمان ، وكذلك بحمايته ليربعام الابن الثائر على أبيه .

—لما مات سليمان بدأ شيشنق ينفـذ تخطيطه ، واستغل يربعام فى ذلك ، فلما نجح يربعـام فى تقسيم الدولة والتسلط على جزئها الشمالى كان ذلك فى الحقيقة انتصارا عمليا لفرعون مصر ، ولم يكتف شيشنق بهذا بل غزا فلسطين وصـعد على أورشليم ونهبها وبسـط سيطرته على دولة يهـوذا ثم على دولة إسرائيل وامتد سلطانه الى الجليل .

— تعرضت هاتان الدولتان أيضـا الى الضغط من جهـة الشمال ، للقضـاء على القوة اليهودية الدخيلة فى المنطقة من جهـة ، وللمنافسة بين العراق ومصر من جهـة أخرى .

---

(١) موجز من سفر الملوك الاول : الاصحاحان ١١ — ١٢ .
(٢) سفر الملوك الاول والثانى .
(٣) مثل بريستند : تاريخ مصر من اقـدم العصـور ، والعقـد الثمين لاحمـد كمـال . وتاريخ سـورية للمطران الدبس ، وتاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم لعزة دورزة و ...
A. History of the Hebrow Peaple by Margolis and Marx.

— كانت دولة إسرائيل تمثل أغلبية الأسباط ، وكانت أوسـع رقعة من دولة يهـوذا ، ولكن دولة إسرائيل كانت مضطربة كثيرة الانقلابات ، فى حين كانت دولة يهوذا أكثر استقراراً وهدوءاً . ومن أجل هذا تقلب على عرش مملكة اسرائيل ملوك من أسر متعددة ، وتغيرت عاصمتها مع الانقلابات أكثر من مرة ، أما يهوذا فقـد ظل الملك بها فى سلسلة متصلة من ذرية سليمان وظلت عاصـمتها أورشليم ، وتساوى عـدد الملوك هنا وعددهم هناك (١٩ ملـكا) .

— يتحـدث سفر الملوك الأول والثانى وسفر الأيام بإفاضـة عن المعارك التى تكاد تكون متصـلة بين دولتى اليهود من جانب ومجاوريهم من جانب آخر ، وكذلك عن الوقائع الغادرة بين دولة يهـوذا وبين دولة اسرائيل ، وطالما اسـتعانت إحـدى هاتين الدولتين على الأخرى بدولة مجاورة ، وكان وقوع دولتى اليهود بين مصر من جهة وآشـور وبابل من جهـة أخرى مثارا لحروب طويلة ، كانت فلسـطين ميـدانها ، حتى يمكن القول بأن عهـد الانقسام كان عهـد دماء تسيل ، وأرواح تزهق ، وأنين يتبعث .

— أما نهـاية الدولتين والطريق الى النهـاية فيصـفه Wells أبلغ وصـف فى قوله [١] : لم يتمتع الشـعب العبـرانى بخفض العيش إلا أمداً وجيزا ، فمات حيرام ، وانقطع عون صـور الذى كانت تقوى به أورشليم ، ثم قويت شـوكة مصر ثانيـة ، وأصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا تاريخ ولايتين صـعبتين بين شقى الرحى ، تحركهما على التوالى سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب ، وهى قصة نكبات ، وقصـة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النـكبة القاصـمة . هى قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج ، حتى اذا وافت سنة ٧٢١ ق م

---

(١) History of the World p. 93.

تحت يد الأسر الآشورى فى عهـد الملك سرجون الثانى ملك أشور مملكة اسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملـكة يهـوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق م ٠

الأسر البابلى والتدمير الأول لأورشليم :

نعود هنا لإعطاء مزيد من التفصـيل عن سقوط دولتى اليهـود ، وما تبع ذلك من نفى وأسر ، فقـد تم سـقوط مملكة اسرائيل على يـد سرجون الثانى ملك أشـور ، الذى اعتقل هوشـع بن أيله آخر ملوكها . ونفاه مع عـدد من رجاله الى مملكته ، وأقام عليها واليا يحـكم باسمه ، وفى سـنة ٦٠٨ ق‌م زحف فرعون مصر على مملكة يهـوذا ، فاحتلهـا ، واستمر فى زحفه فاحتل مملكة اسرائيل التى كانت قـد سـقطت تحت سلطة الآشـوريين كما سبق القول ، وقـد ثار لذلك ملك بابل نبو خذ نصر (بختنصر) ، الذى آل له السلطان على أشـور وزحف على فلسـطين ، فهزم فرعون مصر واستعاد مملكة اسرائيل ، ثم احتل مملكة يهـوذا ، وقتل صـدقيا بن بواقيم آخر ملوك يهوذا ونهب أورشليم ودمرها ودمر معبد سليمان وسبى أكثر السكان الى بابل ، وفـر بعضـهم الى مصر وغيرها من الأقطار ، وأقام بختنصر على فلسطين واليا من قبله ، وانتهى ذلك ملك اليهود بفلسطين ، ويعرف هـذا بالأسر البابلى ، وهـذا هو التدمير الأول للمدينة والمعبد ٠ ويذكر Guiginebert أن الأسر البابلى لم يشمل أولئك البسطاء الذين ليست لهم حماسة دينية كالفلاحين وصغار الصـناع ، فقـد ترك السيد الجـديد هؤلاء يعملون له إذ لم يتوقع منهم أية معارضـة (١) ٠

وهنا نجيب على سـؤال يروّجه اليهود ويخدعون به جماهير الناس ، وهـو : الى أى مدى يمكن أن تـعـد فلسطين وطنـا قوميا لليهود بسبب حياتهم بها هـذه الفترة ؟

---

(١) The Jewish World in the time of Jesus pp. 30-31.

والإجابة تكون بإبراز حقائق لا تحتمل التأويل سبق أن أوردناها فى هـذا البحث ، وليس دورنا هنا إلا تجميعها فى هـذا المكان بإيجاز :

فأولا : دخل بنو إسرائيل فلسطين غزاة من الخارج دون أن يكون لهم بهـا جـذور أو تاريخ ، واستعملوا القوة والوحشية ليحصلوا على الانتصـار على السكان الأصـليين ٠

وثانيا : لم يستطع اليهود أن يمدوا سلطانهم الى كل فلسـطين ، ووقفوا عنـد منطقة التلال الداخلية ، أما منطقة الساحل فقـد ظلت فى أيدى السـكان الأصـليين ٠

وثالثا : لم يعرف بنو إسرائيل بفلسـطين حيـاة الاسـتقرار على الإطـلاق ، وظل السكان الأصليون يناضلون ضدهم حتى أخرجوهم ٠

ورابعـا : كانت مدة بنى إسرائيل بفلسطين منـذ دخول يوشـع حتى سقوط مملكة يهـوذا حوالى خمسة قرون وهى أشـبه بمـدة هولنـدا بإندونيسيا ، وبريطانيا بالهنـد ، والعجيب أن هناك تشابها من نوع آخر ، فقـد أطلق العبرانيون على فلسطين أسماء يهودية هى اسرائيل ويهـوذا مثلما فعلت هولنـدا عنـدما أطلقت على إندونيسيا اسـم جـزر الهنـد الهولندية إشارة الى التملك الذى تدّعى إسرائيل مثله بفلسـطين ، ولكن الصراع الوطنى أعاد الحق الى نصـابه ٠

وخامسـا : أحس المجاورون لفلسطين من الشمال ومن الجنـوب بالعنصر الغريب الذى دخل المنطقة ، فاشترك هؤلاء المجاورون فى الصراع حتى قَضِىَ على هـذا العنصر الغريب ٠

ويقول Weech واصـفاً حياة اليهود فى فلسطين : إن اليهود لم يكن لهم منفذ يذكر على البحر ، فالموانى الشمالية كانت تحت سـلطان الفينيقيين ، وموانى الجنـوب كانت تابعة للفلسـطينيين ، ومن ناحية الزمن فإن اليهود لم تكن لهم قـوة إلا خـلال نصف قرن فقط ، وحتى فى

نلك الأثناء كانوا محاطين بممالك أكثر قوة وأرقى مدنية وحضارة [١] .

ويقول . . معلقاً على عهد بني إسرائيل بفلسطين : لقد كانت حياة العبرانيين بفلسطين — وبخاصة خلال القرون الثلاثة الأخيرة — أشبه بحياة رجل أصر على الوقوف وسط ميدان صاخب ، فكان مصيره أن دهمته السيارات [٢] وهكذا انتهت القرون التى عاشتها السلطة العبرانية ، وكانت من بدايتها الى نهايتها مجرد حدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا [٣] .

اليود بعد سقوط إسرائيل ويهوذا :

خلت فلسطين تقريباً من اليهود إثر سقوط مملكتى إسرائيل ويهوذا ، وفى سنة ٥٣٨ ق م احتل قورش ملكُ الفرسْ بلادَ بابل ، ومن ثمَّ أصبح له السلطان على أرض فلسطين ؛ وأطلق الفرس على بنى اسرائيل اسم اليهود ، وأطلقوا على عقيدتهم اسم اليهودية [٤] ، ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة « اليهود » تعنى مَنْ اعتنَقَ اليهودية ، ولو لم يكن من بنى اسرائيل [٥] ، وهذا هو الفرق بين اليهودى والإسرائيلى ، وسمح قورش لليهود بالعودة الى فلسطين واستئناف عهد الحرية بها فى ظله ، ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة البابلية وامتدت بها أعراقهم ، وعرفوا بها خصب العيش ، والتجارة الرابحة ، ومن ثمَّ فقد ترددوا طويلا فى العودة للقفار والصراع حول المدينة المقدسة ، وبعد هذا التردد استقر رأى الأغلبية الساحقة على البقاء حيث كانوا بالعراق ومصر وغيرهما من البلاد التى نزحوا اليها عقب سقوط دولتهم على يد

(١) E. H. Weech : Civilization of the Near-East p. 82.
(٢) The Outline of History p. 288.
(٣) Ibid p. 280.
(٤) سليمان مظهر : قصة المعتقد ص ٣١٨ .
(٥) دكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ص ٩٥ وصبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥٣ .

بختنصر [١] ، ولم تقبل العودة الى فلسطين إلا قلة بدأت رحلتها بعد سنتين من مجيء قورش ، وقد أعاد هؤلاء بناء المدينة المقدسة ، كما بنوا بها معبداً صغيراً مكان الهيكل بتصريح من قورش [٢] ، وكانت عودة اليهود من المنفى عودة الجموع وليست عودة الدولة ، فإن بعض بني إسرائيل عادوا ولكن دولتهم لم تَعُدْ ، فقد صاروا جماعة تابعة للحكم الفارسي وخاضعة له ، وكانت المناوشات لا تنقطع بينهم وبين حكامهم الفرس ، ومن أجل ذلك رحبوا بالاسكندر الأكبر عندما زحف على فلسطين سنة ٣٢٠ ق ٠ م ، وقد آل حكم فلسطين الى البطالسة بعد الإسكندر ٠

المكابيون :

لم يستقر اليهود فى ظلال الحكم الجديد ، كما لم يعرفوا الاستقرار قط ، ومن أبرز ثوراتهم فى هذا العهد تلك الثورة التى قاموا بها سنة ١٦٧ ق م بقيادة الكاهن ماتياس ، وقد هُزِم فيها ماتياس وهرب ومات فى العام التالى ، فتولى ابنه مكابياس قيادة الثائرين ، وقد دفع حياته سنة ١٦١ ق م ثمناً لعصيانه ، والى هذا الكاهن تنسب أسرة المكابيين التى حاولت أن تحقق — دون جدوى — أى لون من ألوان الاستقلال لليهود ، وطالما سقط القادة من هذه الأسرة قتلى بيد الأمراء السوريين ، وفى سنة ١٠٤ ق م استطاع القائد المكابى أرستبولس أن يأخذ لقب « الملك » ولكن عهده لم يُطل ، وقد أدى طول الاحتكاك بين المكابيين والسوريين الى أن يصطنع المكابيون تقاليد السوريين وعادات الأمراء المجاورين ، وكانت أسرة المكابيين ، أقرب الى القادة العسكريين ، منها الى أسر الحكام [٣] ٠

---

(١) Wecch : Civilization of Near East p 37.

(٢) Maspero :Stuggle of the Nations p. 638.

(٣) Cuigirebert : The Jewish World at the Time of jesus pp. 32-33.

الرومان والتدمير الثانى لأورشليم :

وفى هــذه الأثناء كانت الدولة الرومانية ترقب هــذا الصراع لتنتهز فرصــة للتدخل ، وحانت لهــا هــذه الفرصة عندما هب صراع داخلى بين قائدين متنافسين من اليهود فاكتسح الرومان فلسطين سنة ٦٣ ق٠م واستولوا على القــدس بقيادة القائد الرومانى بامبيوس ٠

وفى عهــد الرومان حلت أسرة هيرودوس محل المكابيين ، وقد استطاع هيرودوس الكبير (٧٢ — ٤ قوم) القضــاء على آخر ملوك المكابيين ليثأر لأبيه الذى كان ضــحية عدوانهم ، وحاول هيرودس أن يرضى اليهــود فبنى هيكلا على نسق هيــكل سليمان سنة ٢٠ ق م ، وقــد ظل هــذا الهيكل حتى سنة ٧٠ م حيث دمر الإمبراطور تيطس الرومانى مدينــة أورشليم وأحرق الهيكل على أثر ثورة قام بهــا اليهود [١] ، وهــذا هو التدمير الثانى للمدينة والمعبد بعد التدمير الأول الذى أحــدثه بختنصر ٠

واذا كان تيطس قــد اكتفى بتدمير المدينة والهيكل وأبقى الحطام مكانه فإن أدريانوس أزال معالم المدينة ومعالم الهيكل تماماً سنة ١٣٥ م ، إذ حرث الأرض وسوءاها وزرعها كما تخلص تماماً من اليهود بها بين قتل وتشريد ، فلم يبق بهــا يهودى واحد ، ورحــل من استطاع الهرب منهم الى مصر وشمالى إفريقية وأسبانيا وأوربا ٠ وأقام الإمبراطــور الرومانى أدريانوس مكان الهيــكل اليهودى هيكلا وثنياً باســم جوبيتار Jupitar رب الآلهة عند الرومان ، إذ لم تكن المسيحية قد اعترف بها بعــد ، وبقى هــذا الهيكل الى أن قامت المسيحية فى أورشــليم ، فدمره المسيحيون من أساسه فى عهــد الامبراطور قسطنطين [٢] ٠

آيات سورة الإسراء وافساد بنى اسرائيل فى الأرض :

عند ما وقعت الهزيمة ضــد مصر والأردن واحتل اليهود بيت المقدس

---

(١) James Hosmer : The Jewih p 183.

(٢) محمد على علوبة : فلسطين والضمير العالمى ص ٥٤ — ٥٦ ولواء محمد صــفوت : اسرائيل العدو المشترك ص ٢٥ ٠

سنة ١٩٦٧ ، قام جماعة من المسلمين بتوجيه بعض آيات من القرآن الكريم لتكون ملائمة لهذا الحادث الأليم ، وهذه الآيات هى الواردة فى سورة الإسراء وهى قوله تعالى : « وقضينا الى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدنَّ فى الأرض مرتين ولتعلُنَّ علواً كبيراً ، فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرَّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ، فاذا جاء وعد الآخرة ليسُوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرِّوا ما علوا تتبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » [١] .

واعتقادنا أن هذا التوجيه خاطىء وأن مرتى الإفساد المذكورتين فى هذه الآيات قد وقعتا قبل الإسلام ، وهو ما أجمع عليه كل المفسرين القدامى ، والذى نؤكده أن مرات الإفساد التى قام بها اليهود كانت كثيرة ، وأن سحقهم وتدميرهم نتيجة لذلك حصل عدة مرات ، ولكن القرآن الكريم يبرز مرتين من مرات الإفساد ، كما يبرز العقوبة عليهما ، واعتقادنا أن المرة الأولى تتمثل فى عهد الاضطراب والقلق والفوضى والظلم الذى غمر فلسطين بعد وفاة النبى سليمان وانقسام المملكة الى مملكتين يهوذا وعاصمتها أورشليم وإسرائيل وعاصمتها شكيم ، وما تلا ذلك من طغيان ودمار وقسوة ، وقد عاقبهم الله على ذلك بأن سلط عليهم سرجون ملك آشور فقضى على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق م وبختنصر ملك بابل فقضى على مملكة يهوذا سنة ٥٨٦ ق . م ، وقد أشاع بختنصر فيهم القتل والأسر ودمر المدينة والهيكل .

ثم جاءت فترة استعاد فيها اليهود كيانهم وذلك فى عهد قورش الفارسى الذى انتصر على بختنصر ملك بابل وسمح لليهود بالعودة الى

---

(١) سورة الاسراء الآيات من ٣ — ٨ .

فلسطين ، ولكن سرعان ما عتوا مرة أخرى وكثر طغيانهم فتصدى لهم الامبراطور الروماني تيطس ودمر مدينة أورشليم وأحرق الهيكل .

ذلك هو رأى المفسرين القدامى ورأى علماء التاريخ ، على أن هناك نصاً مُهِماً فى هذه الآيات الكريمة وهو قوله تعالى « وإن عدتم عدنا » وتفيد هذه الآية احتمال طغيان بنى اسرائيل مرات أخرى ، ووعيداً أن ينزل الله بهم ما يستحقون من عقاب . وما فعله اليهود فى العصر الحاضر فى فلسطين وفى بيت المقدس عود منهم الى الظلم والطغيان وندعو الله أن يساعدنا على طردهم والثأر منهم تحقيقاً لوعوده ، حتى نزيل عن أرضنا الطيبة ما نزل بها من طغيان وظلم .

المسلمون بفلسطين :

وفى سنة ٦٣٦ م فتح المسلمون فلسطين من الرومان ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت فلسطين عربية دماً ولحماً ، أو قل عادت الى فلسطين عروبتها الكاملة ، فقد كانت قبل أن يعرفها اليهود عربية من أثر الهجرات العربية المبكرة لها ، ثم دخلها اليهود على سكانها كما ذكرنا ، وأخيراً جاء الفتح الإسلامى فأعاد الحق الى نصابه ، ورفع من جديد شعار العروبة الخالصة بهذه البلاد ، وكانت آنذاك خالية من اليهود تماماً ، وكان من شروط تسليم المدينة التى اشترطها صفرونيوس بطريرك النصارى على المسلمين ألا يسكن المدينة المقدسة أحد من اليهود [١] ، وأصبحت فلسطين بذلك عربية إسلامية .

الحروب الصليبية ودور اليهود فيها :

وجاءت الحروب الصليبية فى آخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى الجولة الأولى منها ، استطاع الصليبيون أن يستولوا على بيت المقدس وعلى شريط ساحلى ضيق ، ويتضح من دراسة هذه الحروب أن اليهود كانوا من وراء الصليبيين ، وكانوا من الأسباب الخفية التى دفعت

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٥٩ .

بالصليبيين لغزو البلاد المقدسة ، فقد رأى اليهود أنهم عجزوا عن العودة البلاد المقدسة بأنفسهم فحاولوا العودة خلف المسيحيين ، وقد اتخذ اليهود المال وسيلة لهم ، فأخفوا مشاعرهم الدينية والوطنية خلف المال ؛ إذ كانوا يمثلون أغنى مراكز التجارة على الساحل الشمالى للبحر المتوسط . فساعدوا الصليبيين ليقوموا بهذه المغامرة باسم الصليب لفتح الطريق التجارى الى الشرق عبر فلسطين ، ولكن الشعار اليهودى كان في الحقيقة أقوى من الصليب وأقوى من المال [١] . وعلى كل حال فإن صلاح الدين الأيوبى سرعان ما استعاد بيت المقدس بعد موقعة حطين ، وتساقطت البلدان الأخرى فى يده ويد من جاءوا بعده [٢] ، وبقيت فلسطين عربية إسلامية حتى قيام دولة إسرائيل على ما سيجىء .

عصر التشرد وأثره :

عقب سقوط دولة اسرائيل تحت أقدام الآشوريين ، تفرق سكانها اليهود ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، ولم يعد لهم فى التاريخ ذكر أما اليهود الذين سيقوا الى بابل عقب سقوط مملكة يهوذا فهم الذين عاد بعضهم الى بيت المقدس فى عهد قورش ، ومن أعقابهم جاء اليهود الذين عاصروا الأحداث عقب ذلك ، وقد قلنا آنفاً إن هؤلاء اليهود خضعوا لمصر وبابل والفرس واليونان والبطالسة والرومان ، وكانوا يعادون الجميع وينتهزون الفرص للثورة على سادتهم ، ومن أجل ذلك أنزل بهم هؤلاء السادة ألواناً من التدمير والتعذيب ، وكانت سنة ١٣٥ م نهاية حياة اليهود بفلسطين ، وقد أدركوا ألا مقام لهم بهذه البلاد ، فساحوا فى الأرض ، وأقاموا هنا وهناك ، وبدأ لهم بذلك عصر تشرد طويل يصوره Rané Sédillo [٣] بأنه عودة باليهود الى سيرتهم

---

(١) See The Jewes by James Hosmer p 187.
See also : Medieval Europe by Ephraim Emerton p. 365-f.

(٢) اقرأ الحروب الصليبية للمؤلف فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامى .

(٣) The History of the world p. 39.

الأولى ليعيشوا فى انحــلال وتشرد ، وقــد نزلوا خــلال هــذه الفترة الطويلة أكثر دول أوربا كما نزلوا بمصر وشمالى إفريقية واليمن وغيرها من الدول ، وقد كان هذا العصر بالغ الأثر فى سلوك اليهود وتصرفاتهم .

كانوا يرون فلسطين وطناً لهم ، ولكنهم الآن فقدوا الوطن .

كانوا أمــة متجمعة ، فأصبحوا أشتاتاً هنا وهناك .

كان لهم هيــكل يتعبدون به ويقدمون بمذبحه القرابين ، ولكن الدمار نزل بالهيكل والمذابح .

كانوا يرون أنفسهم شعب الله المختار ، ولكنهم سرعان ما وجــدوا أنفسهم شعباً مضيّعا ، مكروها كسير الجناح .

وعاشوا بين الأمم تلاحقهم العزلة التى تكلمنا عنها من قبل ، والتى كانت من أبرز خصائصهم ، فأصبحوا ضــيوفاً ولكنهم ضيوفاً ثقلاء ، وما بالك بضــيف يرى نفسه أرقى عنصراً من المضيف ؟ وبغريب يفضـّل نفسه على صــاحب الدار ؟ .

ونقطة مهمة أخرى برزت فى عصر التشرد ، تلك أنهم ـــ وقد فقدوا وطنهم ـــ حقدَوا على كل من له وطن ، وكرهوا الأوطان والمواطنين .

ولست أدرى هل نستطيع ونحن فى بحث علمى أن نلجأ الى الأدب ليشرح لنا هــذه الفكرة ؟ هناك قصــيدة رقيقة للمرحوم أحمد شــوقى يصــف فيها عصفورتين هزيلتين وقفتا على غصن جاف بالجزيرة العربية ، فمرَّ عليهما نسيم عليل وَفَدَ من اليمن ، فتوقف النســيم وتحــدث للعصــفورتين ، فوصــف لهما الزرع والحب والمــاء باليمن ، وأغراهما بأن يركباه ليأخــذهما الى الرياض هناك ، ولكن العصفورتين ثارتا على النسيم ووصــفتاه بأنه ـــ لكثرة تنقله ـــ لا يعرف حلاوة الأوطان ، وأنه يغريهما بالتمرد على الوطن ليكونا مثله بدون وطن . واختتم شــوقى مقطوعته بقوله على لسان العصــفورتين :

يا ريح أنت ابن السبيل   ما عرفت ما السكن
هب جنة الخلد اليمن   لا شيء يعدل الوطن

وهكذا كان اليهود أعداء لكل الأوطان ولكل من لهم أوطان ، وكأنما كان لسان حالهم يهتف :

لماذا فقدنا — دون الناس — وطننا ؟ .

لماذا نتشرد والناس مستقرون ؟ .

وترتب على ذلك أنهم لم يعرفوا الولاء لوطن نزلوا به ، ولاحقتهم من جديد عزلتهم التى سبق أن تكلمنا عنها ، والتى كانت أبرز صفاتهم ، فاذا بهم يعيشون فى أحياء خاصة بهم ، وكان حى اليهود دائما قذراً مظلماً غير صحى يعرف باسم « الغيتو » نسبة الى اليهود فى روما ، وشاع هذا الاسم فى غير روما أيضاً ، وكانوا كذلك يعيشون فى كل بلد ، فكانت لهم فى القاهرة حارة وفى الاسكندرية حارة تحمل اسمهم .

وكان مجتمع اليهود مصدر الخيانات والمؤامرات ضد كل بلد نزلوا فيه ، وقد صور كثير من الكتاب انعزالية اليهود وانتهازيتهم وخيانتهم للبلاد التى نزلوا بها سواء فى ذلك إبان تاريخهم القديم ، أو فى التاريخ الحديث ، يقول الدكتور عبد المعز نصر (١) .

لم يكن فرعون يعد بنى اسرائيل جزءاً من قومه ، لأنهم عاشوا فى عزلة عن الشعب ، ولأنهم جاءوا الى مصر لا ليقيموا ويندمجوا ، بل ليخرجوا منها بعد أن تتجمع لهم فى مصر قوة المال والعدد ، وهذا ما رسمه لهم « يهوه » ربهم إذ قال مخاطبا اسرائيل : « أنا أنزل معك الى مصر وأنا أصعدك أيضا » وقد استشعر فرعون الريبة من ناحية بنى اسرائيل وتوجس انضمامهم الى الأعداء إن دخلت مصر فى حرب ، فعيونهم

---

(١) الصهيونية فى المجال الدولى ص ٤٠ .

متجهة الى الخارج لا الداخل ، ومن الغريب أن ما توقعه فرعون مصر القديمة كان الحقيقة الواقعة التى جرّبها الألمان مع اليهود فى الحرب العظمى الأولى خلال القرن العشرين ، وذلك حين تآمرت الصهيونية مع الحلفاء على إثارة اليهود فى ألمانيا ضد الوطن الذى آواهم . فالقى الحلفاء من الجو على مدنها وثيقة بلفور إيذاناً لهم بأن يقوموا برسالتهم التاريخية وهى رسالة الغدر الوطنى .

وقد عدّد هتلر خيانات اليهود لألمانيا فذكر منها استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح ، وإفساد التعليم ، والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية ، والسيطرة على دور النشر ، والتدخل فى سياسة الدولة لغير مصلحة الدولة ، وفى القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا الذى احترفه عدد كبير منهم (١) .

ويعدد المؤرخ الدكتور أحمد بدوى بعض ما شاهده من خيانات اليهود لألمانيا بقوله :

أنا أعلم — وأشهد الله على ما أعلم — أن أدولف هتلر لم يكن متجنياً ولا ظالماً عند ما وقف يدفع عدوان اليهود عن وطنه ، بعد أن أكلوا أرزاق هذا الوطن وحاولوا إذلاله ، فقد خرج الشعب الألمانى من الحرب العالمية الأولى مغلوباً على أمره ، كسير الجناح ، فانتهز اليهود فرصة تلك المحنة ، وعملوا على تجويعه وإذلاله والعبث بكرامته وعِرْض أهله ، فملئوا مدن البلاد بدور الفسق والدعارة ، يتجرون فيها بأخلاق الشبان من الجنسين بغية الكسب والإثراء ، ورموا هناك بذور الخلاف السياسى والاقتصادى حتى مزقوا الألمان أحزاباً مختلفة ، يتعب العدّ من حصرها (٢) .

ومثّل اليهود هذا الدور أيضاً فى روسيا أوضح تمثيل ، فقد كان

---

(١) My Struggle, Passim.

(٢) فى موكب الشمس ج ٢ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ .

فى روسيـــا فى القرن التاسع عشر أكثر من نصـــف يهود العالم ، ولكنهم عاشـــوا طفيليات قـــذرة ، وكانوا خـــونة ومردة على القوانين ؛ فالفقراء منهم فتحـــوا الحانات وتاجروا فى الخمـــر ، والأغنيـــاء عمـــلوا فى الربا الفاحش ، والتجار اصطنعوا الحيـــل لتكســـد تجـــارة الأمميين ، والعمال عملوا بأرخص الأجور حتى يوقعوا العمـــال الآخرين فى الشـــطط ، واتفق اليهود جميعاً على الهرب من التجنيد بوسائل متعددة ، وصلت الى تشـــويه الجســـم وقطع بعض الأعضـــاء ، وهـــكذا أثبت اليهود فى البـــلاد التى سكنوها أنهم فى السرّاء لهم أوفى نصـــيب ، أما فى الالتزامات والمـــكاره فدأبهم الفرار والهرب .

وهـــكذا كان اليهود فى كل بلد عاشـــوا فيه فى الشرق والغرب ، وتعدى خطرهم لدى المسيحيين المـــالَ الى الدماء ، ويصـــور « باركس » صـــورة اليهود لدى المسيحيين بقوله : لقد كان معتَقَداً أن اليهودى يطلب دم المسيحى لأغراض الطقوس الدينية ، وأنه يسرق الأطفال المسيحيين ويقتلهم لهـــذه الأغراض ، وكان معتقداً أنه يسـّمم الآبار وينشر الأمراض ، وانتشرت الإشاعات دائماً من بلد الى بلد ، بأنه فى حلف مـــع العـــرب المسلمين والتتر وجميع أعـــداء المسيحية ، وقـــد كان فى ذاكرة عامة أوربا يمثل أكثر من مجرد البلاء الاقتصـــادى ، فقـــد كان يمثل العـــدو الخبيث الخطر الذى يسـعى أبد الدهر ليحطم كلاً من بدن المسيحى وروحه .

ماذا كانت نتيجة هـــذه الخيانات ؟

كانت النتيجة أن أنزل بهم العالم ضربات قاصمة ، وعقوبات صارمة ، شـــملت التنكيل والطرد والسجن ومصـــادرة الأمـــوال (١) ، ويقـــرر Hosmer أن كل الأمم المسيحية اشتركت فى اضـــطهاد اليهود وإنزال مختلف العنت بهم ، وكانت القســـوة مع اليهـــود تعَدّ مأثرة يمتـــدح

(١) See : The History of the World, Ed. by Re.ē sédillot pp. 82. 158-159.

المسيحيون بعضهم بعضا عليها [1] . ولكن هذا ضاعف حقدهم . فارتفعت أصواتهم بالشكوى مما سموه ظلماً واضطهاداً ، ولم يكن ذلك فى الواقع إلا نتيجة لانحرافهم وخيانتهم .

وتكررت هذه الدورة فى كل مكان عاش به اليهود ، حقد ومؤامرات وخيانات من اليهود ، فانتقام منهم وعدوان عليهم ، فصياح وشكوى وأنين ، وقد نجح صراخ اليهود فى أن يبرز للعالم ما نزل بهم من ضيم ، وربما استطاعوا أن يصوروا أنفسهم فى صورة المظلوم المعتدى عليه ، وأن يستدروا بذلك أحيانا عطف الناس الذين خدعهم الأنين .

ونجح اليهود فى أن يصوّروا للعالم أن إنصافهم يكمن فى تجمعهم فى وطن قومى ، يكونون هم سادته ورعيته ، ووجد كثير من الناس فى هذا الحل وسيلة للتخلص من اليهود وشرورهم ، فأيدوهم فيه حتى ينزاحوا عن بلادهم ، فكان ذلك من أسباب مالا قوة من تأييد فى اغتصابهم فلسطين فى العصر الحديث .

ونعود لنضع فى الميزان ما نزل باليهود من عسف واضطهاد ، فنقرر أنه نزل بالعرب أضعاف هذا العدوان ، أنزله بهم ظلماً الصليبيون والمغول والعثمانيون والفرنسيون والانجليز والطليان ، ولكن العرب لم يعرفوا الصراخ ولم يتخذوه وسيلة لاستدرار العطف ، فبدا اليهود للناس منكوبين يستحقون العون ، وتُنوسى ما نزل بالعرب من نكبات وبلايا .

فى الطريق الى العودة :

أوضحنا أن وضع اليهود فى البلاد التى نزلوا بها كان وضعاً قلقاً ، إذ كانوا يكوّنون طبقة خاصة منعزلة عن باقى الطبقات ومعادية

---

(1) James Hosmer : the Jews p. 138.

لها . ومع هذا فقد أتيح للكثيرين منهم ثراء عريض بسبب تعاونهم مع بعضهم البعض وانتهازهم الفرص وبراعتهم فى الشئون الاقتصادية ؛ حتى سماهم René sédillot : ملوك المال وسادة البنوك فى العالم الذين لم يخضعوا قط للقانون فى شئون الربا وشئون التجارة[١] ، وترتب على هذا الثراء أن انصرف بعضهم عن التفكير فى فلسطين والعودة اليها . ولكن البعض الآخر وجد فى فلسطين الملجأ الذى يحميه من الاضطهاد والقلق ، فأصبحت فلسطين لهؤلاء أغنية يتغنون بها وأملا يتطلعون اليه ، ومن هؤلاء لورد بيرون الذى خلد تشريد بنى اسرائيل فى أغانيه العبرية إذ قال : إن للحمامة البيضاء عشاً صغيراً ، وللثعلب وكراً ، ولكل إنسان وطنه ، ولا وطن لليهود . وجاء دزرائيلى فحدب على قضية اليهود فى روايته دافيد أكروا . وجعل بطلها يقول : تسألينى عن أعز أمنية عندى ، وجوابى : هى أرض الميعاد ، وتسأليننى عما يداعب أحلامى . فأقول : أورشليم . وتسأليننى عما يستهوى فؤادى فأقول : إنه الكنيس[٢] .

وهناك شاعر يهودى آخر وَصَفَ فى العهود المتأخرة ذكرى القافلة البائسة التى كان نبوخذ نصر قد ساقها الى بابل فى أغنية رائعة جاء فيها :

لئن نسيتك يا أورشليم فلْتَنْسَ يمينى حِذْقها
وليلتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم تكونى لدىَّ خيراً من أفراحى[٣]

ومن أناشيد الشاعر اليهودى ن . أمير ننقل الفقرة الآتية :

مثل قصف الرعد الذى يشق لهيب السحب نصغى
يدوِّى فى آذاننا صوت صادر من صهيون

(١) The History of the World p. 175.
(٢) نقلا عن « هذه الصهيونية » لاسرائيل كوهين ص ٣٠ .
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ١ ص ٣٥٨ .

وينادينا قائلا : يجب أن تظل نفوسكم
تواقة الى الأبد لأرض آبائكم وأجدادكم
حتى ننقذ من يد الأعداء نهرنا المقدس
ونعود الى ضفاف الأردن [1]

وبينما كان اليهود يعيشون فى هذا التردد بين التشرد مع المال . أو المغامرة من جديد لاستعادة فلسطين ، ظهرت جهة أخرى يعنيها أمر فلسطين ، تلك الجهة هى الاستعمار الذى أخذ يتحالف مع اليهود لتحقيق الغرض المشترك وهو القضاء على عروبة فلسطين ونقلها لليهود على أن تكون تابعة للمستعمر وسائرة فى ركابه .

ومن جهة اليهود ليس هناك وفاء أو صلات خاصة تدفعهم لاختيار سيدهم الجديد الذى يمنحهم فلسطين ويمنحونه السيادة ، فاليهود لا يعرفون الوفاء ، ومن أجل هذا تم اتفاق بينهم وبين نابليون بونابرت على هذه الصفة ، ليضرب بها مصالح انجلترا فى الشرق ، ولكن نابليون سرعان ما هزم وعاد الى بلاده ، فراح اليهود يبحثون عن سيد جديد .

وفى آخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ظهر زعيم يهودى كبير هو تيودور هرتزل ، وكان صحفياً نمساوياً . وقد شهد بباريس — كمراسل صحفى — محاكمة الضابط الفرنسى اليهودى (دريفوس) ، ولكنه أحس فى المحاكمة — كما يقول — بروح العداء للسامية ولليهود ، فكتب كتابه « الدولة اليهودية » سنة ١٨٩٥ يعلن فيه ضرورة قيام دولة لليهود يحتمون بها من هذا العنت ، ولم يعين هرتزل مكانا لهذه الدولة ، ثم بذل جهداً هائلا لجمع كلمة اليهود وتوجيه نشاطهم . فعقد مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ وقد حدد هرتزل أهدافه بقوله « إننا اجتمعنا هنا لكى نضع حجر الأساس للمبادىء التى تجمع الشعب اليهودى » وسرعان

---

(١) من الفكر اليهودى ص ١٤٩ .

ما سيطر شعور اليهود الشرقيين (الروس بوجه خاص) علـى هـذا المؤتمر ، وكان هؤلاء يتمسكون بأن يكون مأوى اليهود فى أرض فلسطين ، فاتخـذ المؤتمر القرار التالى :

إن أمانى الصهيونية هى إنشاء وطن للشـعب اليهودى يعترف به من الناحيتين الرسمية والقانونية ، ويصـبح الشعب اليهودى بإنشائه فى مأمن من الاضطهاد ، على أن يكون هـذا الوطن هو فلسطين (١) .

وتوالت المؤتمرات ، وكانت خلاصـة نتائجها تدور حول : كيف يمكن اليهود استعادة فلسطين ؟ فاتفقوا على أن هـذا يسـتلزم جهـدين : جهـداً داخلياً يرمى الصهيونيون من ورائه الى تنظيم أنفسهم وإعدادها لاستعادة فلسطين . وجهـداً خارجياً يرمى الى البحث عن دولة تساندهم ، وتحقق لهم ما تصـبو اليه نفوسهم .

أما من الناحية الأولى فقـد أنشئوا جهازاً إدارياً دقيقاً لجمع المال ، وظهرت « جمعية عشـاق صـهيون » لنشر اللغـة العبرية ، وللدعوة الى تكوين مستعمرات زراعية فى فلسـطين ، وذلك بشراء الأرض من العـرب مهما بلغ سعرها ، ودفع أكبر عـدد من اليهود للهجرة الى فلسطين بحيث يصـبحون أكثرية بأسرع ما يمكن ، واشترك أثرياء اليهـود بسـخاء فى تمويل هـذه المشروعات وبخاصـة المليونير روتشـيلد الذى فتح خزائنه لهـذا الغرض دون حسـاب .

وأما من الناحية الثانية فقد درسـوا أحـوال القوى الاستعمارية المتصارعة ليتحازوا للمعسكر الذى يتفق مع أغراضـهم ، ووجـدوا فى إنجلترا خير حليف لهم ، فأعلن زعيمهم الجـديد وايزمان ارتباط مصالح اليهود بمصالح انجلترا ، وانضم صراحة الى معسكرهم .

---

(١) Max Margolis and Alexander Marx : A History of the Jewish People pp 702 - 707.

هـذا هو جانب اليهود فى الموضـوع حتى قبل إعـلان تصريح بلفـور ، فماذا كان جانب الاستعمار ؟

فى سـنة ١٩٠٧ تولى « كامبل بنرمان » رئاسة الوزارة فى بريطانيا . وقـد قام رئيس الوزراء بتشـكيل لجنـة مكونة من بعض علماء التاريخ ورجال القانون والسياسة ليس من بريطانيا وحـدها وإنما من عدة دول أخرى . ووجـه « بنرمان » خطـاباً الى تلك اللجنـة حدد فيها مهمتها وجـاء فيـه :

« إن الامبراطوريات تتـكون وتتسـع وتقوى ، ثم تسـتقر الى حـد ما ، ثم تتحلل رويداً رويداً ، وتزول ، والتاريخ ملىء بمثل هـذه الأمثلة ، وهى لا تتغير بالنسبة لأية امبراطورية أو أمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينـاوالهنـد والصين . وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها . فهل يمكن الحصـول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربى وانهياره أو تؤخر مصـيره المظـلم بعد أن بلغ الآن الذروة ، وبعـد أن أصبحت أوربا قارة قـديمة استنفدت مواردها ، وشـاخت معالمها ، بينما العالم الآخر لا يزال فى شـبابه يتطلع الى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية ؟ » .

وقـد ظل هؤلاء العلماء يبحثون ويتدارسون طيلة سـبعة شهور ، ثم قدموا نتيجة أبحاثهم فى هيئـة تقرير سرى خاص الى وزارة الخارجية البريطانية وهاك مقتطفات منـه :

« إن الخطر ضـد الاستعمار فى آسـيا وفى افريقية ضـئيل ، ولكن الخطر الضـخم يكمن فى البحر المتوسـط ، وهـذا البحر همزة الوصـل بين الغرب والشرق .. وحوضـه مهـد الأديان والحضـارة ، ويعيش فى شواطئه الجنوبية والشرقية بوجـه خاص شعب واحـد تتوافر له وحـدة التاريخ ، والدين واللسان ، وكل مقومات التجمع والترابط ، هـذا فضـلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعة .

فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوربية ، وانتشر التعليم بها ، وارتقت الثقافة ؟

اذا حدث ما سلف فيستحل الضربة القاضية حتما بالاستعمار الغربى ، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالى :

١ — على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة .. وتأخرها ، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل .

٢ — ضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقى فى هذه المنطقة عن الجزء الآسيوى . وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشرى قوى ، وغريب . يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا بإفريقية ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس ، قوة صديقة للاستعمار ، وعدوة لسكان المنطقة .

وإتماماً لهذه الدراسة التى ظهرت فى وثيقة بنرمان نضيف مجموعة من الحقائق المهمة مستقاة من أبحاث كبار المؤرخين الغربيين الذين عنوا بشئون الشرق الأوسط أمثال سديو وكارل بروكلمان ، وهذه الحقائق هى :

أولا : إن موقع الدول العربية بالشرق الأوسط وبخاصة مصر وقناة السويس يشكل نقطة حيوية فى التخطيط الاستعمارى ، فعن طريق هذه المنطقة يتم اتصال إنجلترا بمستعمراتها فى الهند والشرق الأقصى وباستراليا ، ويتم اتصال فرنسا بالهند الصينية . والبرتغال بجوا ، وهولندا باندونيسيا ، ومن هنا كانت مصر تمثل باب هذه المستعمرات .

ثانيا : انضمت أمريكا وكندا الى هذا الاتجاه ، فأما أمريكا

فقد دفعتها الصهيونية التى كانت ذات نفوذ كبير فى البيت الأبيض ولدى السلطات الحاكمة . فأعلنت أمريكا أن عزلتها انتحار بطىء لها . ولابدَّ من ارتباط وثيق يربطها بأوربا ضد الخطر الشيوعى الذى يهدد الجميع. وانها لذلك تسند مستقبل أوربا وتؤازر مخططها وتحمل أعباءها . وأما كندا فقد كانت أكثر احساساً بمشكلات الغرب وتفاعلا بها بسبب ارتباطها الوثيق بانجلترا .

ثالثا : يقول كارل بروكلمان إن الخبراء الانجليز أكدوا النظرية التى طالما برهن التاريخ على صوابها وهى أن التحكم فى مصر لا يتم إلا من قاعدة سورية . ومن هنا أصبحت فلسطين — وهى فى الأصل جزء من سوريا — ضرورية للسياسة الغربية .

رابعا : إن الاستعمار أو الانتداب أو الاحتلال أو غيرها من الاصطلاحات لا تفى بالمطلوب بالنسبة لهذا الموقع بالذات . فحركات التحرر به لا تهدأ ، عرفها الفرنسيون إبان حملة نابليون ، وعرفها الإنجليز إبان حملتهم على رشيد ، ومنذ وضعوا أقدامهم فى التل الكبير ، **ومن أجل هذا اتجهت الجهود الى شىء آخر غير الاستعمار والاحتلال والانتداب بالنسبة لفلسطين ، ذلك هو استعمار الإبادة أو تحويل فلسطين من بلد عربى الى غربى على نحو ما تمَّ فى استراليا ونيوزيلندا وأمريكا ، وعلى نحو ما يجرى الآن فى جنوبى افريقية على أن يتخذ الاستعمار والانتداب والاحتلال وسيلة لهذه الغاية .**

وبدأ خبراء السياسة الغربيون ومعهم خبراء علم النفس وعلم الاجتماع يبحثون عن الوسيلة لذلك ، وسرعان ما اهتدى هؤلاء الخبراء الى استغلال الدين لتحقيق هذا الغرض . ولعل المسيحية خطرت على بالهم ، ففى فلسطين ولد المسيح وتربى ودعا قومه ، وبيت المقدس مزار المسيحيين منذ ذلك العهد ، ولكن هذه الفكرة لم تكن طويلة العمر ، إذ رئى أن الأخذ بها سيكون عودة الى الحروب الصليبية ، وسيحمل فى طياته أسباب الفشل .

واتجهت الأنظار الى اليهود ، وفلسطين بالنسبة لهم مكان مقدس أيضاً ، ثم هم يعانون ألواناً من الاضطهادات والتعذيب والتشرد ، وهم باحثون عن المال . والشرق الأوسط فيه غنى ، وفيه تخلف صناعى مما يهيء سوقاً رائجة لأية دولة صناعية تجارية تقوم به . ولليهود بفلسطين الصلة التاريخية التى ألمنا بها . والتى انقضت منذ عشرين أو خمسة وعشرين قرناً . ولكن الخبراء اتخذوهم وسيلتهم على كل حال . على أن يغلفوا اتجاههم باسم الإنسانية والرحمة لهؤلاء المعذبين المشردين .

ويصرح ألفرد مونت فى كتابه « الجار » بقوله :

إننى أتطلع بلهفة الى ذلك اليوم الذى تصبح فيه فلسطين وشرق الأردن وحدة ضمن الإمبراطورية البريطانية ، وتشغل مركزاً مهما فى جسم تلك الإمبراطورية ، وتدافع عن هذه الوحدة عدة ملايين من اليهود الذين تربطنا بهم رابطة الود والإخلاص والمدنية .

وكانت فلسطين فى أكثر فترات التاريخ وبخاصة فى العهد الإسلامى تتبع مصر . فلما جاء العثمانيون حرصوا على عزل فلسطين عن مصر وضموها الى الشام الذى أحيوا له الاسم القديم (سورية) وكان هذا لإضعاف الجبهة المصرية التى كانت تمثل مركزا قويا دعا العثمانيين أن يحسبوا حسابه ، وظلت فلسطين جزءا من سورية حتى سقطت الإمبراطورية العثمانية ، فاستولت فرنسا على الجزء الشمالى من سوريا وجعلت منه سوريا ولبنان ، واستولت بريطانيا على الجزء الجنوبى وجعلت منه إمارة شرق الأردن وفلسطين .

والتقت حول فلسطين مصالح الصهيونيين مع مصالح الاستعمار الإنجليزى ، وجاءت الحرب العالمية الأولى فكانت فرصة ذهبية للصهيونيين ، وأصبح انتصار الإنجليز على الأتراك نقطة الأمل عند الصهاينة ، وبينما كان الإنجليز يستدرون عطف العرب ، ويقدمون لهم العهود والمواثيق

لتحقيق استقلالهم كاملا بعد الحرب . كانت المؤامرة الدنيئة تنسج خيوطها بين اليهود والإنجليز . وفى الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ أعلن وعد بلفور المشئوم ونصه :

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى إقامة وطن قومى فى فلسطين الشعب اليهودى . وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل هذه الغاية . على أن يفهم جليا أنه لا يجوز عمل شىء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية التى للطوائف غير اليهودية فى فلسطين . ولا الحقوق ولا المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أى بلد غيرها .

ويعترف وايزمان فى مذكراته أنه هو الذى كتب بيده هذه الوثيقة بناء على طلب اللورد بلفور [١] .

واتجهت إنجلترا بكل قواها الى أن يتم لها الانتداب على فلسطين لتنفذ ما وعدت به ، ولم يكن ذلك عسيراً عليها . فإن القوى الغربية بعصبة الأمم كانت تشارك إنجلترا نفس الشعور . لأنها كانت واقعة تحت تأثير اليهود ، وما يسيطرون عليه من مناصب حساسة بالدول الكبرى ، وبخاصة فى أمريكا ، ثم بما يملكون من ذهب وإغراء ومتاع . **ولذلك يقول وايزمان فى مذكراته بصلف وكبرياء : نحن اليهود الصهيونيين كنا نسعى لإقامة دولة لنا بفلسطين ، وقد انتدبنا الانجليز لحكمها ، واستعنّا فى هذا بعصبة الأمم ، فنحن الذين سلمنا فلسطين للانجليز مؤقتا ، وليس الانجليز هم الذين وهبوها لنا بعد ذلك [٢] .**

وكان مدلول الانتداب أنه أمانة ينتهى أجلها عندما يصبح السكان قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم . وقد برهن الشعب العربى بعد فترة قصيرة على هذه الصلاحية فاستعاد بعض حقوقه السياسية بسوريا

---

(١) مذكرات وايزمان ص ٢٧ .
(٢) مذكرات وايزمان ص ١٨ و ٢١ و ٢٩ .

ومصر والعراق متمثلة فى الحكم الذاتى ، وطالبت فلسطين بمثل هذا الحق . وذكر المتحدثون باسم فلسطين أنها ليست أقل تطوراً من البلدان العربية الأخرى . وقد أجاب تشرشل على هذا بقوله فى صراحة : إن المسألة ليست هى أن الشعب العربى فى فلسطين أقل تقدما من جيرانه . ولكن تشكيل حكومة وطنية بفلسطين سيحول دون تنفيذ العهد الذى قطعته الحكومة البريطانية للشعب اليهودى بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين .

ويقول الدكتور وايزمان فى مذكراته :

لقد احتضنت بريطانيا حركة الصهيونية منذ نشأتها ، وأخذت على عاتقها تحقيق أهدافها ووافقت على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب لليهود فى سنة ١٩٣٤ ولولا الثورات المتعاقبة التى قام بها عرب فلسطين لتمّ إنجاز هذا الاتفاق فى الموعد المذكور [١] .

وعقب الانتداب اختارت بريطانيا السير هربرت صموئيل اليهودى ليكون أول مندوب سامى لها فى فلسطين ، وأطلقت يده لاتخاذ ما يراه من إجراءات فى البلاد ، ويعترف وايزمان فى مذكراته بأنه هو الذى اقترح على الحكومة البريطانية تعيين هربرت صموئيل ، وقد بادر هربرت بأن أسس الادارة المدنية بفلسطين من اليهود أو من أنصاف اليهود ، واعتبر اللغة العبرية لغة رسمية بالإضافة الى اللغة الانجليزية والعربية ، وسلم اليهود جميع وسائل الصناعة ، وجعلهم مشرفين على التربية ، ومهد لخلق إمارة شرق الأردن فى مارس سنة ١٩٢١ ، بالاجتماع الذى رتبه بين الأمير عبد الله والمستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية آنذاك حين زار القدس . وكان الهدف من خلق هذه الامارة هو إيجاد حاجز

---

(١) مذكرات وايزمان ص ٢٥ .

من الموالين لبريطانيا يحمون الوطن القومى اليهودى من هجمات الثوار العرب (١) .

وعمل هربرت على اغراق البلاد بالمهاجرين اليهود ، ويسرت الإدارة البريطانية لهم سبل الحياة ، ومنحتهم أرض « الميرى » وأقامت لهم الدور والمصانع ، وألحقتهم بجيشها ليتم تدريبهم على استعمال أحدث الأسلحة . وفى سنة ١٩٤٤ كونت فى جيشها فرقة يهودية أسمتها The Jewish Brigade وأمدتها بالسلاح والذخيرة . فكانت جيشاً يهودياً رسمياً أصبح فيما بعد نواة جيش إسرائيل . وفى نفس الوقت أثقلت كاهل العرب بالضرائب . وسلبت منهم أرضهم بطريق أو بآخر . وقصرت فى مد أرضهم بما تحتاج اليه من المياه ، ودفعت ملاك الأرض غير الفلسطينيين ليبيعوا أملاكهم لليهود ، وحرّمت على العرب المهاجرين العودة الى فلسطين ، وحرّمت على العرب حمل السلاح أو امتلاكه .

ويشرح وايزمان فى مذكراته نقطة خطيرة هى اجتماعه بالأمير فيصل بن الملك حسين سنة ١٩١٨ وتأثيره فيه ، ويقول وايزمان : شرحت للأمير أن البلاد تتسع للعرب واليهود جميعاً ، وبينت له حاجتنا الى مساعدته الأدبية ، فأعرب عن رغبته فى أن يرى العرب واليهود يتعاونان فى مؤتمر السلام ، وقال إن مستقبل الشعبين مرتبط بالشرق الأوسط ، وأن واجب الشعبين الاستعانة بصداقة الدول الكبرى ، وقد استمر حديثنا ساعتين ، واقترح الأمير فى نهاية الحديث أن تؤخذ لنا صورة معاً ، وقد وضعت هذه المقابلة حجر الأساس لصداقة متينة بينى وبين الأمير دامت طوال حياته (٢) .

وفى ٣ يناير ١٩١٩ حصل وايزمان على اتفاق مع فيصل يعترف فيه بوعد بلفور ، ويعد بأحسن العلاقات بين الدول العربية التى ستنشأ

---

(١) عبد الله التل : خطر اليهودية العالمية ص ٢٦٣ .
(٢) مذكرات وايزمان ص ٤٥ .

فى الشرق وبين فلسطين ، وبعد شهرين عزز فيصل موقفه بخطاب أكد فيه هذا المعنى وأرسله الى القاضى الصهيونى « فيلكس فرانكفورتر » عضو الوفد الصهيونى الى مؤتمر فرنساى بفرنسا ، ولكن الشعب العربى كله رفض الاتفاقية رفضا باتا [١] .

ونقطة أخرى خطيرة كالسابقة يشرحها وايزمان متصلة بشخصية لورانس الذى تظاهر بصداقة العرب وخدع بعضهم ، وهو فى الحقيقة عريق الصلة بالصهيونية ، يقول وايزمان : ويقضى علىّ الواجب وأنا أبحث تاريخ العلاقات بين العرب واليهود ، أن أثنى أعظم ثناء على الخدمات التى قدّمها « لورانس » للقضية اليهودية ، لقد عرفت لورانس وقابلته مرات عديدة فى مصر ، وقد كان يتردد بعد ذلك على منزلى فى لندن من غير رسميات ولا كلفة ، وكان موقف لورانس من الصهيونية موقفاً ايجابياً ، لا شك فيه ، وكان من الخطأ البالغ أن الكثيرين كانوا يتصورون أن لورانس عدو الصهيونية بحكم أنه كان صديقاً للعرب [٢] .

وسرعان ما ارتفع رقم اليهود بفلسطين ارتفاعاً كبيراً عما كان عليه عند احتلال بريطانيا لفلسطين حتى نافس عدد العرب ، وقد جاء فى تقرير اللجنة الملكية البريطانية سنة ١٩٣٧ ما يلى : « وما جاءت سنة ١٩٣٦ حتى كان الوطن القومى اليهودى قد نما وأصبح شيئاً يشبه حكومة داخل الحكومة ، فالطائفة اليهودية قد بلغت أربعمائة ألف شخص [وكانت خمسة وأربعين ألفاً سنة ١٩١٨] ولها عاصمتها « تل أبيب » وعلمها الوطنى ، ونشيدها القومى ، ونظامها الثقافى ، ولها شبكة من المصالح الاجتماعية والاقتصادية ، وترتبط هذه الطائفة باليهودية العالمية بوساطة الوكالة اليهودية ، بينما تدار شئون الجماعة الداخلية بواسطة

---

(١) مذكرات بن جوريون ص ٣٤ .
(٢) مذكرات وايزمان ص ٤٥ — ٤٦ .

مجمع وطنى أو مجلس ملّى . ومجلس ربّانيّين . وإننا نرى أن الدولة المنتدبة قد قامت حتى الآن خير قيام بإنشاء الوطن القومى لليهود بفلسطين [١] .

ويبدو أن النشاط الإنجليزى لخدمة الصهاينة توانى أحياناً بسبب الضغط الذى كانت بريطانيا تتعرض له من العرب والمسلمين ومن الضمير العالمى ، ولكن اليهود لم يغفروا للانجليز هذا التوانى ، بل ثاروا عليهم كلما ظهر منهم التوانى فى خدمتهم ، فأوقع الإرهاب الصهيونى بالانجليز ألواناً من البلاء ، فدمروا منشآتهم ونسفوا دورهم وقاطراتهم ، وقتلوا كل من تحوم حوله شبهة التوانى فى خدمة الصهيونية ، وبلغ استهانتهم بالسيد الذى رباهم وآواهم أن شنقوا رجال البوليس على قارعة الطرق ، وأعلن بن جوريون أن الوكالة اليهودية بفلسطين لن تستطيع أن تساعد فى وقف هذا الإرهاب . واضطر الانجليز أن يحنوا الرأس وأن يعودوا لمسالة اليهود ومساعدتهم .

واذا كان الانجليز قد أصابهم هذا البلاء ، فإن العرب قاسوا من الانجليز ومن اليهود ألواناً من التنكيل تقشعر لها الأبدان ، وقد تعاونت « الهاجانا » (أى منظمة الدفاع عن النفس) اليهودية مع الانجليز فى قمع ثورات العرب كما تعاون الانجليز مع جماعة « إرجوم زفاى ليومى » (أى المنظمة الحربية القومية) وجماعة « شتيرن » [٢] للتنكيل بالعرب والإيقاع بهم غدراً وليست مذبحة دير ياسين ومذبحة قرية ناصر الدين بالقرب من طبرية إلا نماذج لكثير من أمثالها ، وكانت المحاكم الإنجليزية تحكم بالسجن على المعتدين اليهود ، ثم يُفْرَج عنهم خلسة ليستأنفوا نشاطهم العدوانى الأثيم .

---

(١) تقرير اللجنة الملكية .

(٢) جماعة تنسب الى ابرهام شتيرن الذى كان له صلة بحكومة ايطاليا الفاشية ؛ وكانت هذه الجماعة تستعمل للتدمير والتعذيب للانجليز والعرب جميعا .

(Kirk : A Short History of the Middle p. 318).

دور الكنيسة الانجليزية فى خدمة اليهود :

إن دور الكنيسة فى خدمة اليهود يذكره وايزمان بصراحة فى العبارة التالية : وللقارىء أن يسأل ما هى أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود وشدة عطفهم على أمانى اليهود فى فلسطين ؟ والجواب على ذلك أن الإنجليز — لا سيما من كان منهم من المدرسة القديمة — هم أشد الناس تأثراً بالتوراة ، وتديُّن الإنجليز هو الذى ساعدنا فى تحقيق آمالنا ، لأن الإنجليزى المتدين يؤمن بما جاء فى التوراة من وجوب عودة اليهود الى فلسطين • وقد قدمت الكنيسة الإنجليزية فى هذه الناحية أكبر المساعدات [١] •

قيام إسرائيل :

ووصلت انجلترا الى الخطوة النهائية لتهويد فلسطين ، فاخترعت فكرة التقسيم وأيّدته ؛ واستعملت هى وحليفاتها كل نفوذهم المادى بهيئة الأمم المتحدة حتى حصلوا على الأغلبية العددية بالنسبة للذين أعطوا أصواتهم ، وأعلنت بريطانيا أنها ستنسحب من فلسطين فى الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٨ ، وفى هذا الموعد سلّمت بريطانيا البلاد لليهود بعد أن اطمأنت الى أنهم قوة يمكن أن تستولى على الحكم ، وتصدت الدول العربية للدفاع عن عروبة فلسطين ، وخاضت من أجل ذلك حرباً ضد اليهود ، ورجحت كفة العرب فى الجولة الأولى ، فتدخل النفوذ الاستعمارى وأرغم العرب على إيقاف القتال مدة محدودة ، وفى خلال هذه المدة انهالت الأسلحة الغربية على اليهود ، كما انهال المتطوعون الغربيون ، مما ضمن لليهود النصر فى الجولة الثانية ، وكان من الأخطاء العربية الجسيمة أن تُركت القيادة العامة لجيش الأردن الذى كان قائده « جلوب باشا » إنجليزيا يخدم أهداف بلاده قبل كل شىء •

---

(٢) مذكرات وايزمان ص ١٨ •

وقامت دولة إسرائيل . وأسرعت أمريكا فاعترفت بها . واعترفت بها روسيا ودول الغرب . وأخرجت إسرائيل العرب من دورهم . وسلبت ممتلكاتهم . وألقت بهم لاجئين خارج وطنهم . يعيشون فى خيام . او يتزلون صفر اليدين بالبلاد العربية . ورفضت إسرائيل أن تصيخ لقرارات هيئة الأمم المتحدة بإنصاف اللاجئين . وراحت توفى للاستعمار بوعودها . فتآمرت مع إنجلترا وفرنسا للعدوان على مصر سنة ١٩٥٦ .

ولكن هذه الجولة الخاسرة كانت مطلع النور بالنسبة للبلاد العربية ، فقد هبت من سباتها . وأدركت ما يراد بها . وعرفت الخطر المحدق بمستقبلها . فراحت تبنى نفسها بعزم وإصرار . وعلا صوتها فى المحيط العالمى فغطى على صوت إسرائيل وأنصارها . وكانت حرب العاشر من رمضان أول معركة نبدأها بإرادتنا . فعبرنا الى النصر بعد الهزيمة وحققنا الكرامة والمجد . وقد جاء فى التقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية فى لندن أن حرب أكتوبر بسلاحيها العسكرى والبترولى جعلت من العرب قوة سادسة فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوربا . ويقول أيضا إن حرب أكتوبر جعلت بقاء اسرائيل فى أى أرض عربية ترفا باهظ الثمن لن تقدر عليه بعد اليوم أبدا (١) .

اليهود فى فلسطين وخارجها

فى الحديث عن قيام دولة اليهود بفلسطين يتحتم على البحث أن يحتوى ثلاث نقاط مهمة هى :

الأولى : الزراعة وسيلة اليهود لاستعمار فلسطين .

الثانية : علاقة اليهود خارج فلسطين بدولة اليهود .

الثالثة : الى أى مدى استطاعت الصهيونية أن تكوّن دولة على أساس الدين وحده ؟ .

---

(١) جريدة الأهرام : فى ١٠ مايو ١٩٧٤ .

وللإجابة عن النقطة الأولى نلجأ الى مؤرخ صهيونى هو « روفائيل ماهلر » الذى وضع دراسة عميقة عن وضع اليهود الاقتصادى فى البلاد المختلفة رأسمالية وشيوعية واشتراكية ، ويقرر هذا المؤرخ أن اليهود يتجنبون مهنة الزراعة ، وأنه ليس بينهم فلاحون قط ، فيما عدا مناطق صغيرة نائية فى بولندا وروسيا القيصرية ، وكما تجنب اليهود الزراعة فإنهم كذلك تجنبوا الصناعة ، فليس لهم فى المناجم عامل واحد ، وليس لهم أى دور فى النشاط الصناعى . أما الأعمال التى تخصصوا فيها فهى التجارة والمال والمهن الحرة كالطب والمحاماة والصحافة .

ويقرر المؤرخ الصهيونى أن هذا الوضع يثير الناس ضد اليهود لأنهم لا يسهمون فى عمليات الانتاج ، ولا يحملون عبء العمل مع المناضلين ، ويروى المؤرخ أنه طالما سمع فى بولندا من العمال هذا السؤال : لماذا لا نجد من اليهود أى عامل صناعى مثلنا ، لماذا لا نراهم فى هذه الأعمال المجهدة ؟ ويروى أنه قرأ أخيراً أن الاتحاد السوفيتى قرر أنه ليس من حق أية قومية من قوميات الاتحاد السوفيتى أن يكون لها نسبة بين طلبة الجامعات أكثر مما لها من نسبة بين عمال المناجم ، ويعقب المؤرخ على هذا بقوله : إنه لا يوجد عامل مناجم يهودى واحد لا فى روسيا ولا فى أمريكا [١] .

ويشرح لنا Hosmer [٢] السبب فى عدم إقبال اليهود على الزراعة والصناعة فيقول : إن اليهود فى خلال عصور التشرد لم يكن يسمح لهم بشراء الأرض ؛ إذ لم يكن يسمح لهم بالاستقرار فى البلاد التى نزلوا بها ، ومن ثم لم يتجهوا للزراعة ، كما أن اليهود لم يكن يسمح لهم بدخول المصانع والمناجم ، إذ كان يخشى أن يكونوا بها عوامل تخريب واضطراب ، وبذلك اتجهوا الى المهن الفردية ، كالطب والمحاماة والكتابة ،

---

(١) نقلا عن اسرائيليات للاستاذ احمد بهاء الدين ص ٦٨ — ٦٩ .
(٢) The Jews p. 136

والتجارة ، على أن ميولهم للتجارة كانت أوسع لأنهم يربحون خلالها دون أن يقدموا للمجتمع الذى يعيشون فيه أية خدمات .

ولكن الحركة الصهيونية أدركت منذ وقت مبكر أن الزراعة هى التى تمنح الشعب استقراره وتغرس جذوره فى الأرض . ولذلك كان من أول اتجاهاتها خلق الفلاح اليهودى والمزرعة اليهودية ، فخلق المزرعة اليهودية كان قراراً سياسيا وليس قراراً اقتصاديا ، ومن أجل هذا حرص اليهود بفلسطين على توسيع مزارعهم . وللوصول لهذا الهدف حاولوا اغتصاب ماء الأردن بتحويل مجراه .

واتجه اليهود بالمزرعة لتكون وحدة زراعية وعسكرية فى نفس الوقت . فرجالها يعنون بالزراعة ويدافعون عن المستعمرة دفاعاً عسكرياً . حتى اذا قامت إسرائيل بحرب أصبحت المزارع المتجاورة بمثابة حصون دفاعية يسكنها الفلاح الجندى . وتمتد هذه على طول الحدود بين اسرائيل والبلاد العربية [1] .

ويتصل بهذه الخطة ما شرحه وايزمان زعيم إسرائيل بقوله : إن رأيى هو أن الوطن القومى له سبيل واحد لتحقيقه ، وذلك السبيل هو ضم دونم الى دونم وبقرة الى بقرة ، ومزرعة الى مزرعة ..... [2] وبهذا كانت الزراعة هى السبيل الذى ارتآه اليهود طريقاً لتحقيق أهدافهم الصهيونية .



وللاجابة عن النقطة الثانية نذكر أن وعد بلفور تنبأ بخطر العلاقة بين اليهود خارج فلسطين وبين دولة اليهود ؛ فلمن يكون ولاء اليهود الذين يعيشون فى غير فلسطين ؟ هل سيكون ولاؤهم للبلد الذى ينتمون اليه

(١) انظر اسرائيليات للاستاذ احمد بهاء الدين ص ٦٨ وما بعدها .
(٢) مذكرات وايزمان ص ٧٣ .

سياسياً ؟ أو للبلد الذى ينتمون اليه روحياً ؟ وشمل وعد بلفور نصاً يقرر أن الوطن القومى لليهود فى فلسطين لا يتنافى مع الحقوق والمركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى غير فلسطين .

وعلى هذا فاليهود فى غير إسرائيل مواطنون ، ولاؤهم — نظريا — للبلاد التى يعيشون فيها ويحملون جنسيتها ، ولكن العلاقة بين إسرائيل وبين اليهود خارجها لم تسر على هذه النظرية واتخذت من الناحية العملية الاتجاهات التى تحملها الأفكار التالية :

— أعلنت الصهيونية أن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف مشتتة تعيش فى المنفى ، وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شىء ، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التى يسبغونها على أنفسهم [١] . وتقول جولدا مائير عن هذا : **إن اليهودى الانجليزى الذى ينشد بحكم انجليزيته نشيد (حفظ الله الملكة) لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا** [٢] .

— تقول الصهيونية إنه اذا كان اليهود لا يتعرضون للاضطهاد فى العهد الحاضر كما تعرضوا من قبل فى روسيا القيصرية ، وفى ألمانيا النازية ، فإن تعرضهم للاضطهاد محتمل ، فهم ساميون ، وهم شعب مختار ممتاز ، وسيظل العالم لهذا يصطنع الوسائل لاضطهادهم .

— أما (أرى تاناكودار) أستاذ علم الاجتماع فى الجامعة العبرية فيضع الأمر بحيث لا يحتمل شكاً ، ويُلزِم اليهود أن يحسوا بالاضطهاد ولو لم يكن هناك احتمال له ، وهو يقول فى ذلك : إن اليهودى حقاً هو من يشعر بأن هناك (مشكلة يهودية) حتى لو عاش بمفرده فى جزيرة نائية .

---

(١) محمد على علوبة : فلسطين والضمير العالمى ص ١٣٨ .
(٢) محاضرة منشورة عن اليهود واسرائيل .

ويعلق الأستاذ أحمد بهاء الدين على هذا بقوله : إن اليهودى فى رأيه هو الذى يشعر باضطهاد حتى ولو لم يوجد من يضطهده (١) .

— رغمت الحركة الصهيونية فوق رأس اليهود خارج إسرائيل سلاح التهديد . ولم يكن التخلص من هذا السلاح ممكنا إلا بكتابة شيك على أحد البنوك تبرعا لإسرائيل (٢) .

— ويقول سيسل روث المؤرخ اليهودى الإنجليزى : إن اليهود الإنجليز كان من السهل عليهم مثلا أن يؤيدوا إسرائيل خلال حربها ضد مصر سنة ١٩٥٦ لأن إنجلترا كانت ضد مصر ، ولكن ماذا يكون الحال لو جدّ ما يجعل إسرائيل — كدولة — تقف فى لحظة ما ضد مصالح إنجلترا الأساسية بصورة أو بأخرى (٣) .

ومن أجل هذا كان كثير من المفكرين اليهود يعارضون قيام دولة اسرائيل إيماناً منهم بأن قيامها قد يكون سبباً فى اضطهاد اليهود من الدول الأخرى فى المستقبل ، لأن إسرائيل كدولة لابد أن تكون لها مع الزمن مواقفها المؤيدة والمعادية لدولة أخرى ؛ وفى حالات العداء سوف يكون اليهود بهذه الدولة فى وضع لا يحسدون عليه ، ولكن هذه الأصوات خفتت بعد قيام أسرائيل ، وإن بقى أصحابها يضعون أيديهم على قلوبهم (٤) .



وعن النقطة الثالثة نذكر أن علماء الاجتماع قرروا أن مقومات التجانس تشمل ثمانية أسس ، هى اللغة والدين والأرض والتاريخ

---

(١) اسرائيليات : ص ٦٤ .
(٢) من ملاحظات المؤرخ اليهودى الانجليزى سيسل روث .
(٣) المرجع السابق .
(٤) احمد بهاء الدين : اسرائيليات ص ٥٨ .

والاقتصاد والآمال والجنس والأمن الداخلى والخارجى ، وقد أقام اليهود دولتهم على أساس الدين فقط ، ووأضح أن الفشل لابد أن يكون نصيب مثل هذا المجتمع لما بين معتنقى هذا الدين من تفاوت واسع ، وقد دل تعداد اسرائيل الذى أجرى سنة ١٩٥٦ على أن اليهود باسرائيل يبلغون ٤٥٥ر٦٦٧ر١ منهم ١٨٨١٠ر١٨ غير معروف الأصل ، وأما الباقون فمنهم ٥ر٣١٪ من أبناء إفريقية و ٣ر٤٣ من أبناء أوربا و٨ر٠٪ من أبناء أمريكا ، فما العلاقة بين هؤلاء اليهود بعضهم والبعض الآخر ؟ .

إن كل المعلومات والأنباء تؤكد أن الصهيونيين الغربيين يحتقرون الصهيونيين الإفريقيين والأسيويين ، ولا يحتاج ذلك الى دليل [1] ، فالمسيحيون الأوربيون ينكلون بالمسيحيين الإفريقيين فى إفريقية ، ويعتقد اليهود الغربيون أنهم هم الذين أقاموا دولة إسرائيل ، وأن يهود الشرق عالة عليهم ، ولذلك لا تنقطع الاضطرابات والثورات بينهم ، كما أن حوادث فرار اليهود الشرقيين مستمرة ، ولا تسوى الدولة فى معاملاتها بين هؤلاء وأولئك . ومن الأحداث التى دونت فى العالم الغربى حادث بلدة « وادى صليب » حيث شب نزاع مسلح بين يهود إفريقية ويهود رومانيا الذين يسكنون هذه البلدة ، وقد استمرت المعركة أربعة وعشرين ساعة ، ورددت الصحف الفرنسية والإنجليزية خبر هذه المعركة وقد نشرت صحيفة جويش كرونيكل الإنجليزية أن مستر روبين عضو حزب ماباى للعمال قد صرح بأن معظم الذين يعملون فى الأعمال الحقيرة هم من اليهود الشرقيين ، وأن هذا يؤدى الى إحساسهم بالظلم الواقع عليهم ، وصرح الدكتور موشين من كبار اليهود الشرقيين بأن الاضطهاد العنصرى ضد اليهود الشرقيين اضطهاد حقيقى وليس مختلفاً [2] .

ويتضح من دراسة المؤلف الحافل الذى وضعه Hosmer عن اليهود

---

(١) اعترف ابراهام كاتزير رئيس دولة اسرائيل فى اغسطس ١٩٧٤ بالفوارق الاجتماعية الضخمة بين يهود الغرب ويهود الشرق داخل اسرائيل ، كما اعترف بالتعاسة التى يعانيها اليهود الملونون فى اسرائيل .

(٢) انظر نهاية اسرائيل لصبرى أبو المجد ص ٤٨ — ٤٩ .

أن ما يعانيه المجتمع اليهودى الآن من فرقة وتشعب ، عميق الجذور ، يرجع أصله الى عهد العودة من سجن بابل ، ويقرر Hosmer أن المجتمع اليهودى عقب العودة من هذا السجن كان منقسما الى قسمين بينهما حاجز حاد ، وكان أحدهما يكوّن الطبقة العليا ، ويكوّن الثانى الطبقة السفلى ، وكان القسم الأول يصف نفسه بأنه القسم المقدس أو « البذور المقدسة » التى لم تختلط بدم أجنبى وعادت من بابل لتعيد بناء الهيكل ، ومن هذا القسم يختار كبار القسس وكبار الرجال بالمدن ، أما القسم الثانى فيشتمل أولئك الذين قيل إن دماءهم اختلطت بدماء أجنبية ، ويتحتم أن يقنع هؤلاء بالمهن الحقيرة فى القرى ، ولا ينافسون أفراد القسم الأول فى امتيازاتهم ولا فى القيادة التى هى حق من حقوقهم (١) .

وقد عقد الطلاب الفلسطينيون ندوة عالمية فى أواخر مارس وأوائل أبريل سنة ١٩٦٥ دعى إليها كثير من الكتاب والمفكرين من شتى أنحاء العالم ، وتدارس المجتمعون قضية فلسطين وعروبتها والطغيان الصهيونى بها ، وما يلقاه من تأييد الاستعمار وعونه المادى والأدبى ، وفى هذا المؤتمر تحدث المدعوون وظهرت آراء لهم ، يجدر بنا هنا أن نشير الى بعضها ، فهى وثيقة الصلة بتلك النقطة التى نشرحها .

فمن بين المجتمعين قس أمريكى ، هو الدكتور « هومر أوجل » الذى زار إسرائيل ورأى هناك يهود الشرق ويهود الغرب ، وشاهد ما بين الطائفتين من خلاف ، فأعلن قوله : وجدت فى إسرائيل أقواما مختلفين ، نجحوا فى إقامة مزارع ومدن ، وفشلوا فى إقامة وطن موحد ، ولم يكن هذا هو الشىء الوحيد الذى هزّنى فى اسرائيل وإنما هزّنى أيضا اختلاف القيم والمبادىء والأخلاق ، مما جعله يقرر أن استمرار هذه الدولة فيه قضاؤها على نفسها .

---

(1) James Hosmer : The Jews p. 75.

ومن بينهم الكاتب البريطاني « نيفل باربو » الذى قال : إسرائيل لن يمكنها الاستمرار كدولة أوربية ، تعيش فوق أرض عربية ... إن هذا استعمار صريح .

أما « أنتونى ناتنج » الوزير البريطاني السابق ، فقد كان رأيه مشروحاً وطويلا ، وذلك نتيجة لعمق صلته بالمشكلة ، ومتابعة تطوراتها ، فقد زار إسرائيل ، وزار البلاد العربية ، وله اتصالات لم تنقطع بمنظمات اللاجئين ومن هنا كان رأيه جديراً بالدراسة والتفكير .

ورأى « أنتونى ناتنج » يتلخص فى أن الجنس الأوربى من اليهود غير مستقر فى إسرائيل ، وأن هؤلاء الأوربيين لم يجدوا مطلقاً أماكنهم هناك ، ولم ولن يشعروا بأى استقرار بالرغم من كونهم الجنس الحاكم أو المسيطر .

ويعلل هو ذلك بالأوضاع التى فرضت عليهم الهجرة ، وتغير هذه الأوضاع الآن ، فقد هاجروا من أوربا تطاردهم ذكرى معسكرات الاعتقال ومآسى الحرب والحطام .. الى اسرائيل الموعودة حيث « أرض الأحلام » وحيث الفرص الجديدة ، والمستقبل الجديد ، بالإضافة الى الحماية والأمان . ويقول أنتونى ناتنج إن معظم هؤلاء قد أصيبوا بخيبة أمل شديدة ، فإنهم لم يجدوا الفرص التى توقعوها ، ولا المستقبل الأفضل ، معظمهم كان من أصحاب المهن ، ولكن لم تستوعبهم مجالات العمل فى اسرائيل ، فتحولوا على الرغم منهم الى الزراعة وفلاحة الأرض فى المستعمرات التعاونية . وتمر سنوات وسنوات ثم يتأكدون تماماً أن الجنة الموعودة لم تكن إلا سراباً ، وأن معظمهم لا يحتل مكانه الصحيح ، وفوق ذلك إحساس مرير بالغربة . وبعدم الاستقرار ، وبالتفكك وفى نفس الوقت تنتعش أوربا من جديد وتتسع فيها مجالات العمل .

ويؤكد أنتونى ناتنج أن الرغبة فى العودة الى أوربا قد تحركت ، وأن هناك أفواجاً قد عادت الى أوربا بالفعل ، وهو يدلل بهذا الراى

على أن تجربة دولة بأجناس مختلفة تجربة فاشلة ؛ وقد سبق فشلها فى التاريخ عند ما غزا الصليبيون الشرق وعاشوا فيه وأقاموا دولة استمرت مائتى عام ، وانتهت بعودتهم الى أوطانهم من جديد .

وعلى هذه الأسباب السابقة يبنى « أنتونى ناتنج » نظريته التى تتنبأ بتقلص الجنس الأوربى من ناحية ، وامتصاص الجنس العربى لما بقى فى فلسطين من أجانب من ناحية أخرى فى تطور تاريخى ، ويقرر أن من الطبيعى أو من المحتم أن تستوعب فلسطين أبناءها المشردين خارجها . وأن تلفظ الأجانب الذين لا ينماعون فى الحياة الجديدة ؛ ثم تنشأ دولة فلسطين من حكومة عربية إقليمية مزدوجة العنصر ، يعيش فيها العرب واليهود جنباً الى جنب [1] .

اليهودية والصهيونية

تحدثنا من قبل عن اليهود واليهودية ، ونريد هنا أن نبين العلاقة بين اليهودية وبين الصهيونية ، فهذه العلاقة من النقاط المهمة التى لم تتضح تماما لدى كثير من الباحثين والكتاب .

والصهيونية (Zionism) نسبة الى جبل صهيون الذى يقع فى الجنوب من بيت المقدس ، وقد اقتحمه داود إبان ملكه ، واستولى عليه من اليبوسيين الذين كانوا يقطنونه « وأخذ داود حصن صهيون ، ...» .

وأقام داود فى الحصن وسماه « مدينة داود » [2] وأصبح صهيون مكاناً مقدساً لاعتقاد اليهود بأن الرب يسكن فيه ، فقد ورد فى المزامير : رنموا للرب الساكن فى صهيون [3] .

(١) صحيفة أخبار اليوم فى ١٩٦٥/٤/٣ .
(٢) صموئيل الثانى ٥ : ٧ — ٩ .
(٣) مزامير ٩ : ١١ .

وعلى هـذا فالصهيونية فى أبسط تعاريفها هى استقرار بنى إسرائيل فى فلسطين أى جبل صـهيون وما حوله ، وهى كذلك تأييد ذلك بالقـول أو بالمساعدة المالية أو الأدبية ، فالصـهيونى هو اليهودى الذى يؤثر أن يعيش فى فلسطين ، وهو كذلك من يساعد اليهود مادياً وأدبياً ليستوطنوا فلسـطين .

ويرى اليهود أن موسى كان أول قائد للصـهيونية ، وأول من شيد صرحها ووطـد دعائمها ، فهو الذى قاد بنى إسرائيل ليدخل بهم فلسطين عقب خروجهم من مصر [١] ، ولم يدخل موسى أرض الميعاد ولكن خلفاءه دخلوها كما شرحنا من قبل . وهبت أعاصير ضدهم حين أقحموا أنفسهم فى هـذه البلاد ، وأُخْرِجوا منها عـدة مرات ، وفى كل مرة كان فريق منهم يتطلع للعودة لأرض الهيكل وللحيـاة فى صـهيون كما ذكرنا من قبل ، وهؤلاء هم الصـهيونيون .

ويُعدُّ خروجهم سنة ١٣٥ م اجتثاثاً لدابرهم وتدميراً لجذورهم حتى أن الفتح العربى عند ما جاء بعـد ذلك بخمسـة قرون (٦٣٦) لم يكن بإيلياء (بيت المقـدس) يهودى واحـد ، إذ كانت الأطماع فى الاستقرار بفلسطين قـد زالت ، فارتضى اليهود الحياة فى مواطن الهجرة ، وبخاصة فى البلاد الإسلامية حيث تمتعوا بما يكفله الإسلام لغير أتباعه فى المجتمعات الإسلامية من حقوق [٢] ، وتوقفت بذلك حركة الصـهيونية .

ومر الزمن ولم يُبدِ اليهود قط أى لون من ألوان الولاء للبلاد التى عاشوا بهـا ، واشتركوا فى مؤامرات ضدها كما ذكرنا من قبل ، فتعرضوا لحركة اضطهاد عنيفة فى أكثر البلاد التى نزلوا بهـا ، وكان من أشـدها قسوة المذبحة التى نزلت بهم فى روسيا سنة ١٨٨٢ [١] ، وعلى إثرها بدأت

(١) ايلى ليفى ابو عسل : يقظة العالم اليهودى ص ١٦ .
(٢) المجتمع الاسلامى للمؤلف ص ١٤٦ — ١٥٤ وانظر ما دونه Hosmer عن تسامح المسلمين مع اليهود فى كتابه The Jews ص ١٣٨ .
(٣) عن هـذه المذبحة اقرأ A History of the Jewish People by Margolis and Marx p. 109.

حركة الصهيونية من جديد ، وأدرك اليهود مرة أخرى أنه ليس ثمة عيش لهم إلا فى أرض أسلافهم ، أرض الميعاد . وكان باعث الحركة الصهيونية الجديدة يهودياً يدعى « سيمحا بينسكر » الذى أخذ يدعو فى روسيا لهذه الحركة ، وقد تألفت على إثر دعوته جمعية سميت « جمعية عشاق صهيون » ، ويقول وايزمان فى مذكراته إن الحركة الصهيونية فى حقيقتها وجوهرها نشأت فى روسيا ، وإن يهود روسيا كانوا العمود الفقرى للكيان اليهودى فى فلسطين منذ قيام الحركة (١) . وأخذ اليهود يتسللون من روسيا ، واتجه أكثرهم الى الولايات المتحدة ، وأراد بعضهم الاتجاه الى فلسطين ولكن الحكومة التركية أصدرت قانوناً يحرم على اليهود دخول فلسطين ، وفى الوقت نفسه منعت حكومة القيصر بروسيا الدعوة للهجرة ، وعلى الرغم من كل ذلك استطاع نفر قليل من الشبان أن يصلوا الى فلسطين سنة ١٨٨٢ حيث أنشأوا أولى المستعمرات الزراعية بالقرب من يافا ، وأطلقوا عليها اسم (ريشون ليزيون) أى الأولون فى صهيون ، ويسميها بن جوريون « الهجرة الأولى » أما الهجرة الثانية فكانت نتيجة الثورة الروسية التى قامت سنة ١٩٠٥ ، وقد تمكن القيصر من القضاء عليها ، ويقول بن جوريون إن هذه الثورة لو نجحت لأدت الى رفع الاضطهاد عن اليهود وبالتالى لاستقر يهود روسيا بها ، ولكن فشلها دفع اليهود الى ما يسميه بن جوريون بالهجرة الثانية ، وكان بن جوريون من مهاجرى هذه الموجة (٢) وتلا ذلك هجرات من الدول المختلفة بأوربا وبخاصة رومانيا ، حيث كان اليهود يعدون أنداداً للخارجين على القانون . وتبعاً لهذه الهجرات أنشئت عدة مستعمرات فى مناطق جودا والخليل والسامرية ، وقد تعرضت المستعمرات الصهيونية الى كثير من الكساد وأوشكت على الانهيار لولا المساعدات الضخمة التى قدمها أثرياء اليهود وبخاصة البارون أدمون دى روتشيلد (٣) .

---

(١) مذكرات وايزمان ص ١٤ .
(٢) بن جوريون : اسرائيل وسنوات التحدى .
(٣) اسرائيل كوهين : هذه هى الصهيونية ص ٣٢ وما بعدها .

وألفت فى بعض بلاد أوربا جمعيات مماثلة لجمعية عشاق صهيون التى ألفت فى روسيا ، ثم جاء هرتزل الصحفى النمساوى الذى يعتبر أبا للصهيونية الحديثة وتنسب له خطوتان مهمتان ، أولاهما تتمثل فى كتابه (الدولة اليهودية) الذى نشره عام ١٨٩٥ يدعو فيه الى تجميع اليهود فى مكان ما فى العالم ، وعن ذلك يقول : يكفى أن يعطونا أية قطعة من الأرض تتناسب وحاجات شعبنا وتكون لنا السيادة عليها ، فإن هدفنا ليس هو الأرض المقدسة بل أية قطعة من الأرض تخصص لنا [1] ، أما الخطوة الثانية فهى الدعوة لمؤتمر يهودى عام يعقد لبحث نظرية (الدولة الجديدة) ، وقد عقد هذا المؤتمر فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ حيث تبنى هذه النظرية على أن تكون الدولة الجديدة فى فلسطين ، ومن هنا سميت هذه الحركة التى تعمل على جمع اليهود فى فلسطين ، حول جبل صهيون ، بالحركة الصهيونية ، فأصبحت تجديدا للفكر الصهيونى القديم الذى بدأ فى روسيا والذى ذكرناه آنفاً [2] .

ولن نستمر فى حديثنا عن مراحل تكوين إسرائيل ، فقد وفينا ذلك الموضوع بحثاً فى دراستنا السابقة ، ولكنا هنا نواصل كلامنا عن مراحل التطور المتصل بالصهيونية .

وأول ما يلاحظه الباحث فى هذا المجال أن الصهيونية عقب إعلانها فى حركة « عشاق صهيون » أو فى « الحركة الصهيونية » اتخذت لها مفهوماً أو مفاهيم محددة ، ومن أهمها إحياء اللغة العبرية وجعلها اللغة الرسمية للجماعة الصهيونية ، فكل من اعتنق فكرة الصهيونية كان عليه أن يبادر بتعلم اللغة العبرية دون إبطاء ، ويقول شختر فى بيان ضرورة اللغة العبرية لليهود : « اللغة العبرية هى الخزانة التى أودعنا فيها كل نفيس من حياة بنى إسرائيل الروحية ، ولولاها لفصلنا من الشجرة

---

(١) هرتزل : الدولة اليهودية ص ٤٠ .
(٢) انظر
Margolis and Marx : A History of the Jewish People p. 706.

الكبرى التى هى بمثابة الحياة للمتصلين بهـا . إن اليهود الإغريقيين هى الطائفة الوحيدة المعروفة فى التاريخ بمحاولتها هـذه التجربة للتخلص من اللغـة العبرية ، وقـد خاب فألها وانتهت الى الهلاك . وسارت فى طريق الاضمحلال . وأخيرا ارتدت جملة عن الدين اليهودى . فلنتجنب مغالطة انفسنا . ليس هناك أى مستقبل لليهود الذين يقاومون اللغة العبرية » (١) .
كما اتخـذت الصهيونية فكرة التعصـب العنصرى والدينى ، وفكرة تقوية الشعور القومى لدى اليهود ، وإحياء التاريخ اليهودى . وتقاليد اليهود وعاداتهم ، واتخاذ القهر ضمن الوسائل المباحة للوصـول الى غايتهم . وهكذا أصـبح للحركة الصهيونية « إيديولوجية » خاصـة اذا استبحنا لأنفسـنا استعمال هـذا التعبير وكانت الجامعة العبرية من نتائج هـذا الاتجاه ، إذ قصـد بها أن تكون المعهد الذى يعمل لإحياء اللغة العبرية ويتبنى تنمية الشعور القومى وفكرة التعصـب العنصرى .. وقد وضـع اللورد أللنبى أساسها سنة ١٩١٨ ، وافتتحها بلفور سنة ١٩٢٥ (٢) .

وخطوة ثانية خطتها الحركة الصـهيونية ، هى اتخاذ مختلف الحيل والسبل للتقليل من استعمال كلمة فلسطين ليسدل عليها النسيان ، وذلك باستعمال تعبيرات أخرى للدلالة على هـذه المنطقة ، بعضـها له صـلة بصـهيون وبعضها له صلة بماضى اليهود بهذه البلاد ، ومن أبرز التعبيرات التى استعملت تعبيران هما : « أرض صـهيون » و « إسرائيل » وقـد رجح التعبير الثانى عند قيام الدولة اليهودية ، لأن الصـهيونية بفلسطين عرفت بالعنف وحركات القسوة والتدمير . فاقتضت السياسة اليهودية أن تتحاشى استمرار استعمال هـذا التعبير خداعا للناس ، وإيهاماً لهم بأن الدولة الجـديدة لن تتخذ أساليب الصهيونيين . والحقيقة أنه ليس هناك أدنى فرق بين الدولة الجـديدة وبين الصـهيونية .

وخطوة ثالثة خطتها الحركة الصـهيونية ، وبرزت بعـد قيام دولة

---
(١) فى الفكر اليهودى ص ١٧ .
(٢) مذكرات وايزمان ٤٦ ، ٦٦ .

إسرائيل وكان بن جوريون رائدها ، هى أنه ضيّق حدود الصهيونية . إذ أعلن أنه لا يعد صهيونيا إلا اليهودى الذى يسارع الى جبل صهيون مضحياً بكل شيء مؤثراً الحياة بفلسطين على كل حياة ، وإلا اليهودى الذى يحس وهو فى أى بلد آخر غير إسرائيل أنه فى المنفى ، وأنه آن الأوان لانتهاء عصر النفى والتشرد . ويقول بن جوريون ..... أما أولئك اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءاً من الشعب الأمريكى أو الإنجليزى أو الفرنسى ، أولئك اليهود الذين لا يشعرون أنهم يعيشون فى منفى ، أولئك اليهود الذين لا يرون أن مستقبلهم ومستقبل أولادهم وأحفادهم لا يمكن أن يوجد إلا فى اسرائيل ، هؤلاء اليهود جميعاً إنما يذوبون تدريجياً فى حضارة غير يهودية ، ولغة غير يهودية ، إن هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم كذباً لقب الصهيونيين بحكم انتمائهم الى منظمات تحمل هذا الاسم ، هم فى الحقيقة خطر على مستقبل اليهودية .

ويرى بن جوريون أن ما يربط بين اليهود ليس الدين اليهودى بدليل أن الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود لا دينيون ، أى لا يؤمنون بوجود الله ، وليس العنصر فإن نقاء العنصر بعد هذا التشرد الطويل ليس ممكناً ، وليس اللغة لأن اللغة العبرية قد اختفت تقريباً ويتكلم اليهود لغات متعددة ، وإنما يربط بين اليهود رباط لا يتخلف هو رؤيا العودة ، هو الإيمان بأن الخلاص هو فى العودة الى جبل صهيون ، حيث أقام داود معبده الأول (١)

وتتخذ جولدا مائير نفس الاتجاه ، فهى تقول فى محاضرة مطبوعة :

« بعد قيام صهيون لا يمكن أن يعد صهيونياً إلا ذلك الذى يحمل حقائبه ويأتى على الفور ....

---

(١) بن جوريون : دراسات ومحاضرات مطبوعة نقلا عن « اسرائيليات » للأستاذ احمد بهاء الدين ص ٥٢ — ٥٤ .

« جميل جداً أن يعطينا اليهود فى الغرب تأييدهم وحماسهم وأموالهم ، ولكن هـذا لا يكفى ، فمن بعيد لا يمكن أن تتم زراعة النقب ، وبقـاء إسرائيل يتوقف على ما اذا كان ممكناً أن تُزْرَع صحراء النقب وجبال الجليل . إننى لا أستطيع أن أفصل أمن إسرائيل عن تعمير النقب والجليل . إننى كلما سمعت أغانى اسرائيل يرددها اليهود فى نيويورك ولوس انجلوس وشـيكاغو رقص قلبى طرباً . ولكن ترديد الأغانى عن النقب فى نيويورك أو بوسطن لا يعمِّر النقب إنما تعمرها الأغانى اذا كانت تقنع الشـباب اليهودى بالهجرة الى النقب . وإلا فسوف يبقى اليهود يعيشون فى أمريكا ويغنون عن النقب فى أمريكا ، ولكن النقب سوف يبقى خاليا مهجورا »[١] .



ومع مطلع الحركة الصهيونية بدأ التدبير الواسع الذى يرمى ليسيطر اليهود على العالم ، فقـد كان قرارهم حول فلسطين هو القرار العلنى لمؤتمرهم فى بال ، أما القرارات السرية لهم فتتمثل فى « بروتوكولات حكماء صـهيون » وسنتكلم عنها عند الكلام عن « مصادر الفكر اليهودى » . ولكن فحواها أن يتمكن اليهود من الاستئثار بحـكم العالم ، وأن تكون فلسطين مركزاً للحـكومة اليهودية التى تسيطر على الشرق والغـرب ، فاليهود صفوة الخلق ، ولهم زعامة الجنس البشرى ، وليس للناس إلا السمع والطاعة لكل ما يشـاء اليهود .

وبمرور الزمن وخلال حِيَل اليهود المختلفة استطاع هؤلاء أن يضموا الى صفوفهم كثيراً من قادة العالم من غير اليهود . فقـد قدموا المـال للمعسر وعابد المـال ، وقدموا الجمال لهواة الجمال ، ولعبوا بأصواتهم فى الانتخابات الأمريكية ، وخدعـوا الغـرب فأوهموه أنهم سـيكونون فى خدمته ... فاستجاب لهم كثير من القادة وأولى الأمر من أمثال تشرشل

---

(١) المرجع السابق ٥٦ .

وإيدن وترومان وأيزنهاور ، وكثيرا ما كان تشرشل يقول إنه صـــهيونى عريق وإنه يفخر بذلك •

ولا زال موكب الصهيونية يسير ، ولكن القوى العربية والإسلامية قصّرت خطواته ، وهى تعمل جاهدة لتعيد هــذا الموكب القهقرى ، وتضع مكانه العربَ الذين يحملون رسالة الحب والسلام •

* * *

الباب الثاني

أنبياء بني إسرائيل وعقيدتهم من القرآن الكريم

أنبياء بنى إسرائيل

كما صوّرهم القرآن الكريم

تحدث القرآن الكريم عن أنبياء بنى إسرائيل أو أكثرهم ، فصوّرهم فى صورة كريمة ، وأبرزهم ينطبق عليهم القانون الإلهى فى اختيار الرسل . ذلك القانون الذى عبرت عنه الآية الكريمة « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » [1] فأنبياء بنى إسرائيل ككل الأنبياء صفوة أخيار ، وعندما تحدث الفكر الإسلامى عن صفات الرسل أثبت لهم جميعاً علو الفطرة ، وصحة العقول ، والصدق فى القول ، والأمانة فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، والعصمة من كل ما يشوه السيرة النبوية . والزم أن يعتقد الناس أن الرسل ممدودة أرواحهم بمدد من الجلال الإلهى لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليهم سطوة روحانية [2] .

وعلى هذا فالحديث عن أنبياء بنى إسرائيل مستقىً من القرآن الكريم ومن تفاسيره وشروحه التى دوّنها المسلمون ، يبرز هؤلاء فى إطار من الفضائل والصفاء .

وعلى عكس ذلك ما سيبدو لنا فيما بعد عند ما نتحدث عن أنبياء بنى إسرائيل معتمدين على مصادر أخرى غير القرآن الكريم ، وبخاصة المصادر اليهودية ، فسنرى أن بنى إسرائيل لم يراعوا عند الحديث عن أنبيائهم إلاّ ولا ذمة ، ولم يراعوا فى حديثهم أى تقديس لهم أو إجلال ، فنسبوا الى هؤلاء الأنبياء ولأسرهم ما يدنس تاريخهم وما ينبو عن الذوق .

والفرق بين القرآن الكريم وبين المصادر اليهودية فى الموضوع يبدو

---

(١) سورة الحج الآية : ٧٥ .

(٢) الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٧٦ — ٨٠ .

أكثر وضوحاً عند عرض مسائل محددة غير عادية ، حدثت من بعض هؤلاء الأنبياء أو اتصلت بسيرتهم ، فقد عالجها الفكر الإسلامى بتؤدة وتقدير ، واتجه فى بحثها الى تأويل لا يخدش سمعة هؤلاء الأنبياء ولا يمس كرامتهم ، ولكن المراجع اليهودية ذكرتها متبنية جانب السوء والشر ، فنسبت لهؤلاء الأنبياء ما لا يمكن أن ينسب لأمثالهم ، وستأتى هذه الموضوعات فى سيرنا التاريخى مع هؤلاء الأنبياء •

وتاريخ بنى اسرائيل الصاخب يبدأ من موسى ، ويمكن أن نبدأ حديثنا عنده ، ولكن من الأفضل أن نذهب الى ما قبل موسى ، ليس فقط لنبدأ حديثنا عن يعقوب (إسرائيل) الذى ينسب له بنو إسرائيل ، بل لنبدأ بأصل هذه الشجرة ومطلع هذه الأرومة وهو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل ، فذلك فيما أرى أتم وأوفى •

وعلى هذا فالأنبياء الذين سنتكلم عنهم فى هذا الفصل هم :

إبراهيم — إسماعيل — إسحق — يعقوب — يوسف — موسى — هرون — داود — سليمان ، وعن كل من هؤلاء الأنبياء سنورد آيات القرآن التى تصور اتجاهاته الفكرية والخلقية ، ثم نشفعها ببعض التعليقات والدراسات :

إبراهيم :

يقول الله تعالى فى سورة الشعراء :

واتل عليهم نبأ إبراهيم • إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا

مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين ، رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الاخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لابى إنه كان من الضالين ، ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم (١) .

ويقول فى سورة مريم :

واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، يا ابت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً (٢) .

ويقول فى سورة إبراهيم :

وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمناً ، واجنبنى وبنىَّ أن نَعْبُدُ الأصنام (٣) .

وهكذا يصف القرآن الكريم إبراهيم أجمل وصف ، ويضعه فى مكانة سامية بين الأنبياء ، ويعلق الباحثون المسلمون على مواقف إبراهيم تعليقات كلها إجلال وتقدير ، فهم يرون « أن العقيدة الحقة تغلغلت فى نفسه ، واستولت على فكره ، واستغرقت كل خطوات قلبه ، وملكت عليه مشاعره ووجدانه ، فهو يستهين بالنار يلقى فيها ، ويتقبل كل عذاب دون أن يتراجع أو يتقهقر ، وقد كانت ثورته على الأصنام كلامية وعملية ، وكان دفاعه عن عقيدته قوياً دون أن يهاب سطوة ملك أو تجمهر

(١) سورة الشعراء الآيات ٦٠ — ٨٩ .
(٢) سورة مريم الآيات ٤١ — ٤٤ .
(٣) سورة ابراهيم الآية ٣٥ .

جماهير ، وهو مع هـذا كان رقيق القلب يحاول أن يستغفر لأبيه مـع علمـه بضـلاله (١) .

ومن المسائل الشائكة التى تتصـل بإبراهيم وتختلف فيها وجهـة النظر الإسلامية مع وجهة النظر الإسرائيلية مسألة موقف إبراهيم من سارة زوجته عندما وفـد بها الى مصر ، وأحس بأنها ستكون مطمعا للحـكام والسادة ، وسنورد الآن وجهة النظر الإسلامية عن هذه المسألة كما ذكرها رجال من أدق الباحثين المسـلمين (٢) .

رحل إبراهيم الى مصر عندما ضاقت به سبل العيش فى الشـام ، ونزل ومعه زوجته سارة فى المنطقة المصرية التى كان يسيطر عليها آنذاك ملك من العماليق الهكسوس ، وكانت سارة ذات جمال باهر ، فوشى بها أحـد بطانة السوء الى الملك وأغراه بجمالها ، وزين له حسنها ، وحبب إليـه الاستحواذ عليها ، فصادفت هـذه المقالة رغبة فى نفسـه ، فدعا إبراهيم إليه ، وسأله عما يربطهما من سبب ، وما يصـل بينهما من قرابة . ففطن إبراهيم الى مأربه ، وعرف مقصده ، وخاف إن أخبره أنها زوجته أن يبيِّت الشرَّ له ، ويعمل على الإيقاع به لتخلص له من دونه ، وليستأثر بها من بعـده ، فقال إبراهيم له : هى أختى (يقصـد أختى فى الدين واللغـة والإنسانية) .

فَهِمَ الملك أنها ليست بذات بعل ، فأمر أن يذهبوا بها الى قصره ، ويسوقوها الى مخدعه ، ورجع إبراهيم الى زوجته ، فأخبرها بقصـته ، وطلب اليها أن تكون مصـدِّقة لقوله ، مؤكدة لخبره ، ثم أسلمها لعين الله ترعاها وتحفظها .

أُدخِلت سـارة الى قصر الملك ، وزُيِّنَتْ بفاخر الثيـاب وثمين

---

(١) الأستاذ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٥١ — ١٥٢ .
(٢) الأستاذ محمد جاد المولى وآخرون : قصص القرآن ص ٤٩ — ٥١ .

الحلى . ولكنها لم تعبأ بهـذا الزخرف البراق ، ولا بذاك البذخ الخلاب ، ولم تـُعْن بما أحيطت به من نعمة ، وما رأت من سـعة السلطان وبسطة العيش ، ولم ينسها كل ذلك الوفاء لزوجها والاستمساك بدينها ، وجلست مكتئبة حزينة ، بل انتبذت مكاناً قصـياً .

ولما أقبل الملك عليها ورأى ما بها من لوعـة وأسى ، حاول أن يخفف من حزنهـا ويؤنس وحشـتها ، ويزيل اكتئابهـا فجفلت ، وأحس الملك اضطراباً فى نفسه ووجيباً فى قلبه فابتعد عنها حتى تمالك قواه ، ثم أراد أن يعيد الكرة فعاد اضطرابه وخوفه ، فتركها وأوى الى فراشه واستسلم للنوم ، ورأى فى نومه رؤيا استبان بها الحق ، وعرف أن لهـا زوجـا ، وأحس بلزوم أن يعيدها له دون أن يمسها بسوء . فلما أفاق من نومه أطلق سراحها ووهبها « هاجر » خادمة لها ، كما وهبها بعض المال والماشية .

فهل ترى محنة أشـد وفتنة أعظم من ذلك ؟ رجل غريب يفـد الى بلد سـعياً وراء الرزق فتسلب منه زوجته : ويفرّق بينه وبين أهله ، ولكن الذى نجّى ابراهيم من حر النار وسعيرها ، حفظه من وصمة العار ونجّاه من العـدوان .

ذلك هو الفكر الإسلامى تجاه هذه القصة ، فماذا يقول عنها اليهود ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال سترد فى الباب الثالث من هـذا الكتاب .

اسماعيل واسـحاق :

ابنا إبراهيم ، وقـد رزق بهما بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، فقد كانت سارة عقيما لا تلد ، وكان يحزنها أن ترى بعلها الوفى يتطلع الى النسـل ، وقـد أصبحت هى على حال لا يرجى منه الولد بسـبب تقـدم سـنها ، فأشارت على زوجها أن يدخل بأمتها (هاجر) التى قدمها لها حاكم مصر ، وتمنت سارة أن تنجب (هاجر) طفـلا تقر به عين أبيه وتنشرح له نفس سارة ، فانصاع إبراهيم لرأيها ودخل بهاجر .

أنجبت هاجر غلاما زكيا هو إسماعيل . فانتعشت له نفس إبراهيم ، ولعل سارة قد شاركت إبراهيم فى سروره حينا ، وشايعته زمنا فى بهجته ، ولكن الغيرة لم تلبث أن دبت الى قلبها ، وعقدت عليها الكآبة سحابة مُطبِقة ، فأصبحت لا تطيق النظر الى الغلام . ولا تحتمل رؤية هاجر ، وطلبت من إبراهيم أن يبعد عنها الغلام وأمه بحيث لا يصل صوتهما الى سمعها ، ولا تقع عليهما عينها .

أذعن إبراهيم لإرادتها وكان الله أوحى إليه أن يطيع أمرها . فركب دابّته واصطحب الغلام وأمه ، وسار ، وطال به السير ، وامتد به الطريق ، حتى وقف عند مكان البيت الحرام ، فانزل هاجر وابنها فى هذا المكان البلقع ، وتركهما فى تلك البقعة الجرداء ، وترك لهما — كما جاء فى رواية البخارى — جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم اتجه إبراهيم عائداً ، فنادته هاجر : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى ؛ فلم يلتفت لها إبراهيم . فسألته آلله آمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لن يضيّعنا . وكان إسماعيل وأمه بذرة العمران الذى شمل هذه المنطقة فيما بعد على ما فصلته كتب التاريخ [1] .

ولم ينس إبراهيم ابنه فكان يفد إليه لماماً ويزوره من حين الى حين ، فلما شبّ إسماعيل وأطاق السعى والعمل ، رأى إبراهيم فى نومه أنه يؤمر بذبح ولده ، ورؤيا الأنبياء تعد بمثابة الوحى والأمر المباشر ، فارتحل إبراهيم حتى لقى ابنه ، ولنلجأ الى القرآن الكريم لنستكمل هذه الحادثة .

« قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت ، افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما

---

(١) انظر صحيح البخارى وموسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف جـ ١ ص ١١٢ وما بعدها من الطبعة الحادية عشرة ، وقصص القرآن للأستاذ محمد جاد المولى وآخرين ص ٥٢ — ٥٣ .

أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق » (١) .

وهكذا نجا إسماعيل من الذبح ، ومن الواضح أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحق كما تذكر التوراة ، فبالنسبة للاستدلال بالقرآن نجد أن البشْرى بإسحاق جاءت بعد قصة الذبيح ، أى أن إسحاق لم يكن قد وُلِدَ بَعْدُ عند ما حدثت هذه القصة ، وهذا يؤكد أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، ويؤكده كذلك نسق الآيات التى وردت مبشِّرة بمولد إسحاق ، فقد ارتبطت بشارة المولد بأن الوليد سيكون نبياً وبأنه سيكبر ويتزوج ويولد له ولد يسمى يعقوب ، قال تعالى :

— وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين (٢) .

— فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب (٣) .

ومن التناقض أن يكلف الله إبراهيم بذبح غلام وعد الله أنه سيكون نبيـاً وأنه سيتزوج ويعقب .

وبالنسبة للتوراة يلحظ الباحث المدقق أن ما ورد بها عن تحديد الذبيح بأنه اسحق عمل مصنوع لم تتْقن صنعته ، فقد جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين « إن الله امتحن ابراهيم فقال له يا ابراهيم . فقال : هأنذا ، فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق . واذهب الى جبل الموريا وأصعده هناك مُحرَقةً على أحد الجبال الذى

(١) سورة الصافات الآيات ١٠٢ — ١٠٣
(٢) سورة الصافات الآية ١١٢ .
(٣) سورة هود الآية ٧١ .

اسرائيل لك ... [١] » ووضـع الاسم ، « اسحق » مع كلمة « وحيـدك » تناقض ظاهر لأن اسحق لم يكن وحيداً لإبراهيم فى يوم من الأيام . فقد ولد وعمر اسماعيل أربع عشرة سنة كما نصت التوراة . وبقى اسماعيل واسحق معاً حتى مات ابراهيم ودفناه معاً فى مدينة حبرويه (الخليل)[٢] .

ودليل آخر نسوقه على كون الذبيح اسماعيل لا اسحق ، ذلك هو أن كاتبى التوراة من اليهود دأبوا على محاولة إسناد الفضائل الى أجدادهم ، فاذا كان فى قصـة الذبح طاعة وامتثال فإنهم ينسبونها لإسحق . ونراهم كذلك يحاولون أن ينقلوا بركة اسحق الى جـدهم يعقوب بدلا من أخيـه الأكبر عيسو على ما سيأتى [٣] :

يعقـوب ويوسـف :

إن ما ذكره القرآن الكريم عن يعقوب يضعه فى مكانه سـامية من الحـكمة واليقين ، تعال بنا نقتبس من آى الذكر الحـكيم ما يبرهن على هـذا الرأى :

— إذ قال يوسـف لأبيه : يا أبت إنى رأيت أحـد عشر كوكبـاً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال : يا بنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عدو مبين [٤] .

— وجاءوا على قميصـه بدم كذب ، قال (يعقوب) بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصـفون [٥] .

— وقال يا بَنِىَّ لا تدخلوا من باب واحـد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحـكم إلا لله ، عليه توكلت،

(١) سفر التكوين الاصحاح الثانى والعشرين الفقرات ١ — ٢ .
(٢) سفر التكوين الاصحاح الخامس والعشرين الفقرات ١ — ٢ .
(٣) هناك ادلة اخرى على ان الذبيح هو اسماعيل . وقد أوردناها بالجزء رقم ٣٢ من المكتبة الاسلامية وهو الجزء الخاص بقصة اسماعيل .
(٤) سورة يوسف الآيتان ٤ — ٥ .
(٥) نفس السورة الآية ١٨ .

وعليه فليتوكل المتوكلون ، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) .

— قال : إنما أشكو بثّى وحزنى الى الله (٢) .

أما عن يوسف فإن السورة المسماة باسمه تسجل له قَدْرَه فى العلم والحكمة والعفة وضبط النفس قال تعالى :

— ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين ، وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب ، وقالت هيت لك . قال : معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون .

ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين (٣) .

— قال : رب ، السجنُ أحبُّ الىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرفْ عنى كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم (٤) .

ومن تعليقات الباحثين المسلمين على يوسف نقتبس العبارة الآتية : قد تقلب يوسف فى حالى البؤس والرخاء وتداولته أيدى ريحين : زعزع ورخاء ، وهو كالذهب الإبريز لا يزيد على التقلب فى النار إلا صفاء ، أو كالياقوت لا تؤثر فيه النيران ، فبينما هو فى كنف يؤثره بالكرامة ويحوطه بالمحبة ، اذا هو فى يد إخوة يسومونه الإهانة والمذلة ، ويلقونه فى غيابة

---

(١) نفس السورة الآيتان ٦٧ — ٦٨ .
(٢) نفس السورة الآية ٨٦ .
(٣) سورة يوسف الآيات ٢٢ — ٢٤ .
(٤) نفس السورة الآيتان ٣٣ — ٣٤ .

الجب ظالمين ، ثم يشم ريح الحياة من جـديد ولكنها حياة رق وعبوديه . ثم ينتقل منها الى عزيز مصر حيث يرى الترف والخير والغنى ولكن مع الغواية ودوافع الخطيئة ، بيـد أنه ينتصر على نفسه ، ويتخذ العفة ملجأه وإن دفعت به الى السجن ... (١) .

موسى وهـرون :

تكررت قصـة موسى وهرون فى القرآن كما لم تتكرر قصة أخرى . وقـد بيَّن الله فى القرآن الكريم كيف رعى موسى منـذ طفولته المبكرة ، ونشأه أطيب تنشئة ، واصطفاه لرسالته ، وشد أزره بأخيه هرون عند ما طلب موسى ذلك ، وأيده بأقوى المعجزات . وفى خلال القصـة يجىء فيض من الثناء على موسى وهرون ووصـف لموسى بأنه مناضـل فى الحق ، دءوب . لا يخاف فى الله لومة لائم : فاذا أخطأ موسى غفر الله له خطيئته وحرسـه من عواقبها ، ولنقتبس من آى الذكر الحـكيم بعض آيات بينات تتصـل بموسى وهرون :

— وأوحينـا الى أم موسى أن أرضـعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم . ولا تخافى ، ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين (٢) .

— ودخل المدينة على حين غفـلة من أهلها ، فوجـد فيهـا رجـلين يقتتلان ، هـذا من شيعته وهـذا من عـدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عـدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال : هـذا من عمـل الشيطان ، إنه عـدو مضل مبين ، قال : رب ، إنى ظلمت نفسى فاغفر لى . فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم (٣) .

---

(١) الأستاذ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٨٠ بتصرف .
(٢) سورة القصص الآية السابعة . وانظر تعليق البلغاء العـرب على هذه الآية فى « المجتمع الاسلامى » للمؤلف ص ٢٠٩ — ٢١٠ من الطبعة السابعة.
(٣) سورة القصص الآيتان ١٥ — ١٦

— قال : رب اشرح لى صدرى ، ويسّر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً ، قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى (١) .

— قال : يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء (٢) .

وتعرّض موسى لإيذاء بنى إسرائيل ، فقيل إنه دُبّرت ضده مؤامرة ليرمى بالزنا فى حفل من الناس ، وقيل إنه أتُّهم بقيلة مائية أو غيرها من العيوب الجسمانية ، وقيل إنه اتهم بقتل هرون أخيه ، وقد تصدى القرآن الكريم للدفاع وإثبات براءته .

قال تعالى :

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها (٣) .

داود :

اجتمع لداود النبوة والملك ، وحباه الله من النعم أشرفها ، ومن الفضل والتوفيق أكثره وأعظمه ، وقد تحدث القرآن عن ذلك فى آيات عدة نقتبس هنا بعضها :

— وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء (٤) .

---

(١) سورة طه الآيات ٢٤ — ٢٦ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٤٤ — ١٤٥ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٠ .

— ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوِّبى معه ، والطير ، وألَنَّا له الحديد ، أن أعمل سابغات وقدِّر فى السرد ، واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير (١) .

واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب (٢) .

وهناك قصة تتصل بداود وواحد من رعاياه واسمه « أوريا » وامرأة اسمها « سابغ » وسنرى فيما بعد أن بنى إسرائيل يصورون اتصال داود بسابغ فى صورة الزنا ، كما يصورون داود مدبراً للمؤامرات ليتخلص من زوجها ، ولكن الفكر الإسلامى الذى يسمو بالأنبياء عن الرذائل والنقائص صور هذه المسألة فى صورة تنأى عن الكبائر ، ولم يرها إلا هفوة استحقت نوعاً من العتاب والتعليم من الله ، لنبيه ومصطفاه .

وقصةُ ذلك — فى نظر المسلمين — أن أوريا كان قد خطب سابغ لتكون زوجة له ، ولكنه استُدْعِىَ للحرب قبل أن يتم عقد الزواج ، وطالت غيبته عن خطيبته وأهلها ، فرآها داود فى هذه الأثناء ، فأعجب بها ، فخطبها من أهلها فاستجابوا له ، وتم الزواج بينهما ، وهى أم سليمان .

هل كان من اللائق أن يتزوج داود امرأة ارتبطت بغيره برباط ما ، مع أن عنده من الزوجات والسرارى عدداً كبيراً ؟ ذلك ما عوتب عليه داود بطريق غير مباشر حيث هبط عليه ملكان فى صورة رجلين يشكو أحدهما الثانى بأنه له تسع وتسعون نعجة ومع ذلك يطمع فى نعجة واحدة يمتلكها الشاكى ، ويستغل الطامع نفوذه وفصاحته لينال مأربه ، ويَحْرِم أخاه من

---

(١) سورة سبأ الآيتان ١٠ — ١١ .
(٢) سورة يس الآيات ١٢ — ٢٠ .

نعجته الوحيدة ، وحكم داود بأن هذا ظلم لابد أن يقاوم ، وابتسم الملكان ابتسامة لها معنى ، واختفيا وهناك صوت ينبعث : لماذا إذا ضممت « سابغ » الى عشرات النساء عندك وحرمت منها أوريا ؟ وأدرك داود أنه زل ، فانكب يستغفر الله ويرجو عفوه ، فغفر الله له ، وقص القرآن هذه القصة ، وبها مزيج من العتاب والتربية والاستغفار والعفو ، قال تعالى :

وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض : فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزني في الخطاب ، قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب (١) .

سليمان :

ورث سليمان ملك أبيه ، ومنحه الله من أفضاله ونعمه ألواناً تدعو للدهشة والعجب ، وقد ذكر القرآن الكريم صور هذه المنح العظيمة ، وفيما يلي قبس من هذا الفيض الرباني الزاخر نقتبسه من الذكر الحكيم :

— وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكماً وعلماً ، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ، ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين (٢) .

---

(١) سورة ص الآيات ٢١ — ٢٥ .
(٢) سورة الأنبياء ٧٨ — ٨٢ .

ويقول المفسرون عن حكم داود وسليمان فى الحرث إن زرعاً ناضجاً أكلته ليلا غنم لغير أصحابه ، فشكا أصحابُ الزرع غرماءهم الى داود وعنده سليمان فحكم داود بالغنم لأصحاب الزرع عوضاً عن التلف . قال سليمان : غير هذا أرفق . فسئل : ماذا يرى ؟ فقال تدفع الغنم لصاحب الزرع عاماً ينتفع بألبانها وأشعارها وأولادها ، وفى خلال هذا العام تدْفع الأرض لصاحب الغنم ليعيد زرعها وتنميتها . وبعد العام يسترد كلٌّ ماله . وأخذ داود بذلك .

— وورث سليمان داود ، وقال : يا أيها الناس عُلِّمْنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون (١) .

ولسليمان الريح غدُوُّها شَهْرٌ ورَوَاحُها شهرٌ ، وأَسَلْنا له عين القِطْر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آلَ داود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور (٢) .



وبعد ، هؤلاء هم أنبياء بنى اسرائيل فى آيات القرآن ، رسل مصطفون ، وقادة صالحون ، جاءوا ليكافحوا الشر فى قومهم ، وليقودوهم سواء السبيل ، ولكن بنى اسرائيل كانوا غلف القلوب فما انتفعوا بالإرشاد ، ولا اتبعوا الهدى ، بل ضلوا سواء السبيل ، وملأوا الدنيا تمرداً وشروراً ، كما رأينا وكما سنرى فيما بعد .

---

(١) سورة النمل الآيتان ١٦ — ١٧ .
(٢) سورة سبا الآيتان ١٢ — ١٣ .

عقيـــدة بنى إسرائيل

كما صورها القرآن الكريم

ويجىء الآن دور الحـديث عن عقيـدة بنى اسرائيل ،وكما أعطى القرآن الكريم صـورة طيبة لأنبياء بنى اسرائيل ، فإنه كذلك تتحـدث عن العقيـدة التى كلّفوا بهـا فصورها سليمة صـادقة صافية ، لا تختلف عن عقيدة المسلمين ، قال تعـالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعـده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل وإسـحاق ويعقـوب والأسباط [1] » • فالعقيدة الأصـيلة لبنى اسرائيل كانت الإيمـان بالله الواحـد الأحـد ، الفرد الصـمد ، إله الناس جميعاً ، خالقهم وراعيهم ، العالم بكل شىء ، القادر على كل شىء ، والإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر ، وما يتصـل بذلك من الحساب والثواب أو العقاب •

ونسوق فيما يلى من آى الذكر الحـكيم ما يوضـح هذه الصورة ، قال تعالى على لسان إبراهيم :

— إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجّه قومه ، قال أتحاجّونى فى الله وقـد هدانِ ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشـاء ربى شـيئاً ، وسـع ربى كل شىء علماً ، أفـلا تتذكرون ؟ وكيف أخـاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سـلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظـلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفـع درجاتٍ مَنْ نشاء إن ربك حـكيم عليم ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسـف وموسى وهرون وكذلك نجزى

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٣ .

المحسنين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين[١] .

وتوضح هذه الآيات إيمان ابراهيم بالله الذى فطر السموات والأرض ، ومقاومته لقومه عند ما حاجوه فى ذلك ، وتأكيده أن الله وسع كل شيء علماً ، كما توضح أن أبناءه الأنبياء نالوا من الهدى والرشاد ما نال أبوهم إبراهيم « كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان ... » .

وهناك مجموعة أخرى أو مجموعات من آيات القرآن تشهد لإبراهيم وبنيه أنهم آمنوا بالإله الواحد القهار ، ونسوق منها قوله تعالى :

— ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه : أَسْلِمْ . قال : أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحداً ونحن له مسلمون [٢] .

ومن العقائد التى كان على بنى اسرائيل أن يتبعوها ، إيمانهم بالبعث متبعين فى ذلك سنة أبيهم ابراهيم ، قال تعالى : وإذ قال ابراهيم : رب ، أرنى كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذْ أربعة من الطير فصرْهُنَّ إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً : ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم [٣] .

---

(١) سورة الانعام لآيات ٧٩ — ٨٦ .
(٢) سورة البقرة لآيات ١٣٠ — ١٣٣ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٠ :

ويشرح الأستاذ محمد جاد المولى وزملاؤه هذه العقيدة بقولهم [١] :
قد كان ابراهيم مفعم القلب بالإيمان بربه ، ممتلئاً بالثقة واليقين بقدرة خالقه ، ومؤمناً بما أوحى اليه من بعث الناس بعد موتهم ، وحسابهم فى حياة اخرى على أعمالهم ، ولكنه أراد أن يزداد بصيرة وإيماناً ، وثقة ويقيناً . وتطلع الى أن يلمس البرهان المبين على البعث . ويرى الحجة الواضحة على النشور ، فسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى بعد موتهم ، ويبعثهم بعد فناء أجسامهم ، فقال الله له : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . قد أوحيتَ الىَّ وآمنتُ وصدقتُ ، ولكن تاقت نفسى الى المشاهدة ليطمئن قلبى ويزداد يقينى . فاستجاب الله دعاءه وآتاه سؤْلَه ، وأمره أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعها إرباً ويفرق أشلاءها بأن يجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً بإذن الله .

وفعل ابراهيم ذلك وعادت الأشلاء تتجمع ، وسعت إليه الطيور الأربعة ، وزاد يقين ابراهيم ، وامتلأ قلبه اطمئنانا .

وتكررت عقيدة التوحيد والإيمان باليوم الآخر منسوبة الى غير ابراهيم من أنبياء بنى اسرائيل والصالحين منهم ، قال تعالى على لسان يوسف : إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتَّبعتُ ملة آبائى ابراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون [٢] .

---

(١) قصص القرآن ص ٢٣ .
(٢) سورة يوسف الآيات ٣٧ — ٤٠ .

وعن التوحيد واليوم الآخر والحساب يقول الله تعالى مخاطباً موسى : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاتبعنى وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردي » (١) ويقول الله تعالى على لسان موسى واصفاً الله جل وعلا بأنه خالق كل شيء ومانحه الهدى « ربنا الذى أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى » (٢) . وعن علم الله سبحانه وتعالى يقول القرآن الكريم على لسان موسى « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً » (٣) .

وعن الحياة الدنيا ومتاعها ، والحياة الآخرة وما بها من جزاء يقول الله تعالى على لسان موسى : « يا قوم ، إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » (٤) .

وهكذا كانت العقيدة التى نادى بها أنبياء بنى اسرائيل متفقة تماماً مع عقيدة المسلمين ، تهتم بوحدانية الله إله الكون ، وإسناد الصفات المقدسة إليه سبحانه ، كما تهتم باليوم الآخر والحساب وغيرهما من المعتقدات .



هذه فكرة واضحة عن أنبياء بنى اسرائيل وعقيدتهم من وجهة النظر الإسلامية ، ولكن بنى اسرائيل ثاروا فى وجه أنبيائهم ، ورفضوا الاستجابة لهم ، واطرحوا العقيدة التى جاء بها هؤلاء الأنبياء ، ثم هاجموا الأنبياء ، وقتلوهم أحياناً ، واستبد بهم الضلال والجحود ، فعبدوا غير

(١) سورة طه الآيات ١٤ — ١٦ .
(٢) سورة طه الآية ٥٠ .
(٣) نفس السورة الآية رقم ٩٨ .
(٤) سورة غافر الآيتان ٣٩ — ٤٠ .

الله وأنكروا البعث ، ونسبوا لأنبيائهم مالا يمكن أن يصدر من أنبياء .
ويجدر بنا ونحن لا نزال مع القرآن أن نستعرضه لنقتبس منه بعض الآيات التي تحدثت عن بنى اسرائيل ووصفت أخلاقهم وصفاتهم ، قال تعالى :

ـ ... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١) .

ـ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة (٢) .

ـ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون (٣) .

ـ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون (٤) .

ـ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون (٥) .

ـ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٦) .

ـ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا

---

(١) سورة البقرة الآية ٦١ .
(٢) سورة البقرة الآية ٧٤ .
(٣) سورة البقرة الآية ٨٥ .
(٤) سورة البقرة الآية ٨٧ .
(٥) سورة آل عمران الآية ٧١ .
(٦) سورة آل عمران الآية ٢١٢ .

وعصينا واسمع غير مُسْمَع ، وراعنا ، ليًّـا بألسنتهم وطعناً فى الدين . ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم . ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا (١) .

— فبما نقضـهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حـق ، وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبـع الله عليهـا بكفرهم فـلا يؤمنون إلا قليـلا (٢) .

— فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسـية . يحرفون الكلم عن مواضـعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ... (٣) .

— وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلَّتْ أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشـاء ، وليزيدنّ كثـيراً منهم ما أُنْزِل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، وألقينا بينهم العـداوة والبغضاء الى يـوم القيامة ، كلما أوقـدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسـدين (٤) .

— لُعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسـان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصـوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعـلون (٥) .

— واتخـذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار . ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين (٦) .

---

(١) سورة النساء الآية ٤٦ .
(٢) سورة النساء الآية ١٥٥ .
(٣) سورة المائدة الآية ١٣ .
(٤) سورة المائدة الآية ٦٤ .
(٥) سورة المائدة الآيتان ٧٨ — ٧٩ .
(٦) سورة الأعراف الآية ١٤٨ .

— إن الذين اتخـــذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين [١] .

— اقتتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يَخْلُ لكم وجه أبيكم [٢] .

* * *

وسنرى فى الفصـــل التالى تفاصيل الانحراف الذى انحـــدر إليه بنو اسرائيل عند كلامهم عن أنبيائهم وعقيدتهم .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٢ .
(٢) سورة يوسف الآية ٩ .

الباب الثالث

أنبياء بني إسرائيل وعقيدتهم

من غير القرآن الكريم

أنبيـــاء بنى اسرائيل
من غــير القرآن الكريم

يتحتم علينا أن نخصص مكاناً فى مطلع هــذا البحث لنذكر فيه مقدمة ضرورية له ، فنحن المسلمين نجلّ كل الأنبياء ونعظمهم ، بيد أنا فى دراستنا العلمية نجــد عن بعضهم آراء لا تتفق مع عقيدتنا عنهم ، ولكنا مع هــذا نلتزم بذكرها لنتمكن من إعطاء صــورة متكاملة عن كل منهم تمثــل كل الجوانب وألوان التفكير ، فما ذكره المستشرقون من غمزات عن نبينا محمد صــلوات الله عليه فى تعــدد زوجاته وموقفه من القبلة ، ومن اليهود .. ذكرناه وناقشناه [١] ، وفى كتابى عن « المسيحية » تحــدثت عن المسيح فى رأى المسلمين ، ثم عن المسيح فى رأى المسيحيين ، فصــورته فى الأولى كما صوره القرآن بشراً رسولا ..... وفى الثانية أوردت أقوال المسيحيين عنــه التى تَصَوّره ابن الله نزل الى الأرض وضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر ....

وأنبياء بنى اسرائيل صوّرهم القرآن تلك الصــورة الطيبة التى سبق أن أوردناها ، ولكن البحث لا تكتمــل عناصره حتى نورد عنهم ما ذكــرته التوراة وما ذكرته المراجع الأخرى ، على نمط ما فعلنا مع محمد ومــع عيسى ، ولن نحتاج فى العرض الذى سنقوم به الى مناقشــة ما سنورده من آراء ، لأن الرأى الإســلامى قــد أوردناه بادىء ذى بدء وهو الذى نرتضــيه ، فنحن فى هــذا الباب الذى نأخــذ فيه ، نسرد آراء الآخرين حتى لا يكون البحث مبتوراً ، وبخاصــة أن أكثر ما سنورده مقتبس من الكتاب المقــدس لدى اليهــود ، والمسلمون يرون أنه محرف ، وليت شعرى لقــد حرّفه اليهود [٢] لا ليرفعوا من مكانة أنبيائهم وعقيدتهم ، بل ليطعنوا

---

(١) اقرأ الجزء الأول من « موســوعة التاريخ الاســلامى والحضــارة الاسلامية » واقرأ كذلك كتاب « الاســلام » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .
(٢) أو وضعوه كما سنرى عند الكلام عن العهد القديم .

الأنبياء وينحطوا بالعقيدة ، وهذا هو الذى دعا كثيرين من الباحثين الى الأخذ بما ورد فى التوراة متبعين المبدأ العام الذى يرى أن التحريف يكون لصالح من حرّف ولا يكون لإدانته . فاذا كان رجل مديناً لرجل بعشرة جنيهات وحرّف الدائنُ صكّ الدَّيْن فإن الطبيعى أن يزيد الدَّيْنَ وليس طبيعياً أن يحرّفه بالنقص ليجلب الخسارة على نفسه .

على أى حال فإن هذا البحث به صورتان متناقضتان . إحداهما مقتبسة من الذكر الحكيم تمثل رأى المسلمين وقد سبق إيرادها . والأخرى مقتبسة من التوراة ومن المراجع الأخرى نذكرها على مسئولية كتابها استكمالا لعناصر الدراسة دون أن نؤيدها أو نوافق عليها ، وحسبنا هذا التقديم الضرورى عن هذا الباب بوجه خاص وعن المواقف المماثلة بالكتاب كله بوجه عام (١) .



وقبل أن نأخذ فى هذا ، ينبغى لنا أن نوضح أن تاريخ العبريين يذكر عدداً من الأنبياء قاموا بين الناس بدور الوعاظ وظهروا بعد انقسام مملكة سليمان ، وكان ظهور هؤلاء رد فعل للنظام الطبقى الذى اتسع مداه بين اليهود ، فقد كانت هناك جماعة تنعم بالغنى الفاحش ، وكان آخرون يتساقطون جوعاً ، وكان كذلك رد فعل لانشغال الكهنة بالمال والتقاليد والمظاهر عن الروح الدينية الحقيقية ، ومن أجل هذا كثر فى هذا العصر من أطلقوا على أنفسهم أنبياء وكان هؤلاء — كما يقول (٢) — ينتمون الى أصول وطبقات متباينة ، فكان حزقيال مثلا من طائفة الكهنة وكان ذا عواطف كهنوتية ، وكان عاموس راعيا ، على

---

(١) يلاحظ القارىء مزيدا من الحيطة والتحرز حول هذه الدراسة . ولكن مما يخفف الحرج ان ما سنقتبسه هنا مأخوذ من الكتاب المقدس . وهو مطبوع ومتداول بين أيدينا . ومأخوذ كذلك من مراجع مطبوعة ومتداولة بيننا . وسيرد ذكرها مع كل اقتباس .

(٢) The Outline of History p. 294.

أنهم يشتركون فى كونهم يبثون فى الحياة قوة دينية خارج نطاق القرابين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد .... فظلوا بعيداً عن الخطة الدينية الرسمية ، ولم يبرح الكهان يتبرمون بالأنبياء تبرماً يتفاوت قدره ، إذ أنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس فى الشئون العامة ، والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة ، وهم قوم « نصبوا أنفسهم بأنفسهم » ولم يكن لهم من سند يستندون اليه إلا ما يحسون من نور باطنى ، وفى الكتاب المقدس صيغة ثابتة هى : وعند ذلك جاءت كلمة الرب الى .... ، ويروى عن عاموس فى محاربة الكهنة والأغنياء قوله : إنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها ، لأنى علمت أن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة ، أيها المضايقون البار ، الآخذون الرشوة ، الصادّون البائسين خلف الباب ، لذلك يصمت العاقل فى ذلك الزمان لأنه زمان ردىء [١] .

على أن هؤلاء الذين يطلق عليهم « الأنبياء » لم يكونوا كلهم يستحقون الاحترام ، فقد كان بعضهم من المتنبئين الذين يحاولون قراءة قلوب الناس ومعرفة ماضيهم ومستقبلهم ، ويتقاضون نظير ذلك بعض الأجور . وكان منهم متعصبون متهوسون يستثيرون مشاعر الناس بالأصوات الموسيقية الغريبة أو المشروبات القوية أو الرقص ، وينطقون فى أثناء غيبوبتهم بعبارات يراها أصحابهم وحياً أوحى إليهم ، وكان بعضهم لذلك يسخر من بعض [٢] ، وعن هؤلاء يصيح حزقيال : قل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب ، هكذا قال الرب : ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ، ولم يروا شيئاً ، أنبياؤك يا اسرائيل صاروا كالثعالب فى الخِرَب ..... رأوا باطلا وعرافة كاذبة ، القائلون وحىُ الرب ، والرب لم يرسلهم ..... [٣] .

(١) عاموس الاصحاح الخامس ١١ ـ ١٣ .
(٢) سليمان مظهر : قصة العقائد ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .
(٣) حزقيال ١٢ : ٢ ـ ٦ .

واذا ضربنا صــفحاً عن المتنبئين والمتهوسين ، فإننا يجــدر بنــا أن نذكر كلمة عن أربعة قيل عنهم إنهم الأنبياء الكبار فى هــذا العهد . وهم :

اشــعيا (القرن الثامن ق م) : كان من مستشارى الملك حزقيّا ملك يهــوذا (٧٢٩ — ٦٨٨ ق م) الذى حاصر سنحريبُ ملك آشور أورشليمَ فى عهــده ؛ ولأشــعيا نبوءة امتازت بشدة لهجتها ، فقــد كان يحمل على من يتظاهرون بالورع ، مع جمــع الأموال والسيطرة على الأقوات وحرمان الفقــراء .

وعن أشــعيا يقول W[illegible] : كان أشــعيا من سكان أورشليم ؛ وهو ينتمى الى الطبقات العليــا بين الســكان ويُحْتَمَلُ انتسابُه للأسرة المالكة ، وقــد بدأ نبوءته بالرؤيا التى قصــها فى السفر المنسوب إليه ، ومن نبوءاته التى تحققت ســقوط السامرية ، وهجوم سنحريب على أورشليم ، وهو أول من وضــح أن يهوه إله عالمى وأن الممالك كلها أدوات فى يده ، وهو يدفع إحــداها لتقتص من الأخرى على ذنب وقعت فيه ، وأشــعيا أول من تنبــأ بمجىء المســيح (١) .

ارميــا (٦٥٠ — ٥٨٠ قم) : تنبأ بســقوط أورشــليم ، ونادى بالخضــوع لملوك بابل ، فاضطهده ملوك اليهود واعتدوا عليه ، وكان أرميا شــديد الحقــد على قومه يدافع عن بابل ويعلن فى الملأ أنها سوط عذاب فى يــد الله ، ويتهم حــكام يهوذا بأنهم بلهــاء معاندون ، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله الى نبوخذ نصر ، حتى ليكاد من يقرأ أقواله فى تلك الأيام أن يتهمــه بالخيانة الوطنيــة ، وأن يظــن أنه من صــنائع بابــل المأجورين (٢) . استمع إليه يقول على لسان ربه : إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجــه الأرض بقوتى العظيمة ، وبذراعى

---

(١) Civilization of the Near East p. 69

(٢) ول ديورانت قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٥٨ .

المودودة . وأعطيتها لمن حسُن َ فى عينىّ ، والآن وقد دفعت كل هذه الأراضى ليد نبو خذ نصر ملك بابل عبدى ، وأعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه ، وتخدمه كل الشعوب ••• والأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نيره إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء ، يقول الرب : حتى أفنيها بيده ، فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرّافيكم وحالميكم وعائفيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل ، لأنهم إنما يتنبئون لكم بالكذب (١) • وكلام أرميا أبلغ وصف لأنبياء هذا العهد •

ويقول Weech (٢) عن أرميا إنه كان رجلا مثقفاً فصيحاً ، شديد التأثر بما كتبه هوشع ، وقد ندد بأخطاء قومه ، وأنذرهم بالعقوبة ، وقال أرميا بأن الدين مسألة عقيدة ، وليست مسألة طقوس ، وخلال حصار أورشليم صاح بأنه لا أمل ، ودعا للاستسلام ، وعندما سقطت المدينة أخذ أسيراً ولكن سرعان ما أطلق آسروه حريته وأعادوه الى أورشليم ، ليستغلوا فيه اتجاهه لتهدئة قومه ، ودعوته لهم بالخضوع للفاتحين الجدد ، ثم هاجر الى مصر مع من هاجروا إليها وهناك لم يسمع له ذكر بعد ذلك •

حزقيال (القرن السادس ق م) : عاصر فترة سقوط مملكة يهوذا ، وكان يشجع قومه على احتمال المتاعب والمحن ، ويعلمهم أن ما نزل بهم إنما هو من القصاص العادل الذى أوقعه الرب عليهم ، وكان يحذرهم من مخاطر رخاء العيش وعبادة الأوثان فى البلدان التى ساروا إليها بعد سقوط بلادهم •

وكان حزقيال من رجال الدين ، وقد أُبْعِدَ الى بابل بعد استسلام أورشليم ويبدو أنه هناك مُنح قدراً كبيراً من الحرية ، وكان يلجأ له كثير

---

(١) أرميا ٢٧ : ٥ — ١٠ .
(٢) Civilization of the Near East p. 90

من الناس ليعرفوا منه أمر المستقبل ، إذ كان شائعاً أنه يوحى إليه وأن نبوءاته صحيحة ، وكانت تنبؤاته كئيبة توحى بالتشاؤم من المستقبل . ولم يهتم الناس بها فى بادىء أمره ولكن سرعان ما تحققت نبوءته عن تدمير أورشليم ، فالتف حوله الناس وآمنوا بما يقول ، وأصبح حزقيال بينهم وكأنه يتمتع بما يمكن أن يسمى الحاسة السادسة ، وكثيراً ما كان يسقط فى غيبوبة أو يشمله الذهول ، وينسب له أنه نقل الفكر اليهودى من عهد يهوه الى ما هو عليه الآن ، ورفض القول بأن الأبناء يؤخذون بذنوب آبائهم ، وأعلن أن كل إنسان يؤخذ بذنبه فقط ، واهتم حزقيال بالطقوس الدينية ، وقال بالبعث والحساب وبالمسيح الذى سيجىء من نسل داود ويصبح ملكا لليهود (١) .

دانيال : ويشتهر سِفْرُه بالمنامات والرؤى الرمزية التى أعلنت مستقبل الشعب الإسرائيلى ، لا سيما من الضربات الحالّة عليهم ، ووعدهم بالخلاص على يد المسيح .

ولنعد بعد هذا الى الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم . لنروى عنهم بعض الأحداث التى وردت فى غير القرآن الكريم منسبوبة لهم :

إبراهيم :

عن قصة فرعون وإبراهيم وسارة التى سبق أن أوردنا عنها وجهة النظر الإسلامية جاء فى سفر التكوين ما يلى : وحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام الى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون اذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا

---

(1) Weech : Civilization of the Near East pp. 90-91.

نفسى من أجلك ، وحــدث لما دخل أبرام الى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنهـا حسـنة جـداً فمدحوها لدى فرعون فأُخِذَت الى بيت فرعـون فصـنع الى أبرام خيراً بسببها وصـار له غنم وبقر وحمير وعبيـد وإماء وأتن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسـبب ما رأى امرأة أبرام ، فدعـا فرعون أبرام وقال ما هـذا الذى صنعت بى ؟ لمـاذا لم تخبرنى أنها امرأتك ؟ لماذا قلت إنها أختى حتى أخذتها لتكون لى زوجة ؟ والآن هو ذا امرأتك خـذها واذهب [١] .

وعن إله إبراهيم يتكلم المؤرخ Weech فيرى أن الفـكر الدينى كان بدائياً فى عهـد إبراهيم ، وأن الإله الذى دعا له إبراهيم كان من نوع الآلهة التى كان يعبدها أبوه ، وأنه هو يهوه الذى اعتبر إله بنى اسرائيل فيما بعـد [٢] .

ميراث ابراهيم وميراث اسـحق :

حرص واضـعو التوراة على أن يسجلوا على ابراهيم أنه حابى ابنه إسـحق وأعطاه كل ما كان له ، وأما بنـو السرارى اللواتى كن لإبراهيم فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن إسـحاق ابنـه شرقاً الى أرض المشرق وهو بعدُ حىّ [٣] ، واذا كان واضعو التوراة قـد حرصوا على إبعـاد اسماعيل فيمن أبعدوا ، فقد نسوا ذلك وعادوا فذكروا مـا يدل على أن اسماعيل ظل بجوار أبيه حتى موته ، واشترك هو وإسحاق فى دفنه [٤] .

وحدث مثل ذلك أيضاً بالنسبة ليعقوب وأخيه عيسو وَلَدَىْ إسحق ، فتروى التوراة أن إسحق تزوج من امرأة اسـمها رِفْقة فحملت منـه ، وتزاحم فى بطنها توأمان فمضـت لتسأل الرب فقال لها الرب : فى بطنك

---

(١) تكوين : ١٢ : ١٠ — ١٩ .
(٢) Civilization of the Near East p 83.
(٣) تكوين : ٢٥ : ٥ — ٦ .
(٤) نفس الاصحاح : الفقرة التاسعة .

امتَّان ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب . وكبير يُستَعْبَد للصغير ، فلما كملت أيامها لتلد اذا فى بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو ، وأصبح بكر أبيه ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدُعيَ اسمه يعقوب . وطالما حاول يعقوب أن يحلَّ محل أخيه فى البكورية . وتقول التوراة إن يعقوب طبخ طبيخاً فأتى عيسو من الحقل وقد أعيا فقال ليعقوب : أطعمنى لأنى قد أعييت . فقال يعقوب : بعنى اليوم بكوريتك ، فقال عيسو : أنا ماض الى الموت فلماذا لى بكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لى اليوم . فحلف له ، فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى ، واحتقر عيسو البكورية [1] .

ويستمر سفر التكوين فى وصف المحاولات التى قام بها يعقوب لينال ميراث أبيه دون أخيه عيسو ، ويصف سفر التكوين أعمال يعقوب بالشطط والكذب لينال ما ليس له ، وفيما يلى عبارة سفر التكوين : وحدث لما شاخ إسحق وكلَّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا بنى . فقال : هأنذا . فقال إسحق : إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى فالآن خذ عدتك ، جعبتك وقوسك ، واخرج الى البرية ، وتصيد لى صيداً ، واصنع لى أطعمة كما أحب وأتنى بها لآكل حتى تبارك نفسى قبل أن أموت ، وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو الى البرية كى يصطاد صيداً ، وأما رفقة فنقلت ذلك ليعقوب ابنها وقالت له : إذهب الى الغنم وأحضر لى جديين جيدين فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب ، وتحضرها الى أبيك ويباركك . فقال يعقوب لأمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشعَر وأنا أملس ، وربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون ، وأجلب على نفسى لعنة لا بركة ، فقالت له أمه : لعنتك علىّ يا بنى اسمع لقولى فقط ، فذهب وأحضر

---

(١) تكوين : ٢٥ : ٣١ — ٣٤ .

الجـديين وصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب . وأخـذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبستها ليعقوب ابنها الأصـغر وألبست يديه وملاسة عنقه جـلود الجـديين . وأعطت الأطعمة والخبز الى يعقوب .

فدخل الى أبيه وقال يا أبي . فأجاب هأنذا من أنت يا بني ؟ فقال يعقوب لأبيه أنا عيسـو بكرك ، قـد فعلت كما كلمتني . قم اجلس وكل من صـيدي لكي تباركني نفسك ، فقال إسحق لابنه ما هذا الذي أسرعت لتجـد ؟ فقال : إن الرب إلهك قـد يسّر لي ، فقال إسحق ليعقوب تقدم لأجسك أنت هو ابني عيسو أم لا فتقـدم يعقوب الى إسحق أبيه فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مُشعرتين كيـدي عيسو ، فقال له هل أنت هو ابني عيسو ؟ فقـال : أنا هو . فأكل إسحق وشرب وقال لابنه تقـدم وقبلني ففعل فشم رائحة ثيابه واعتقد منها أنه عيسو ، فدعا له وباركه قائلا : فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض ، وكثرة حنطة وخمر ، لتستـتعبَد لك الشعوب وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لإخوتك وليسجد لك بنو أمـك ليكن لاعنوك ملعونين ، ومباركوك مباركين (١) .

ويستطرد سفر التكوين فيذكر أن عيسو عاد وصـنع طعاماً وجاء الى أبيه فعرف ما حـدث وطلب من أبيه أن يباركه وصرخ وبكى فقـال لـه إسحق : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق ، وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبَد (٢) .

خال يعقوب يخدعه :

وحقـد عيسو على يعقوب وحاول قتله فعرفت أمه ذلك فأوصت ابنها بالهرب الى بيت خاله لابان ، وهناك خطب يعقوب ابنة خـاله الصـغرى

---

(١) الاصـحاح ٢٧ : ١ — ٢٩ .
(٢) نفس المرجع : ٣٩ — ٤٠ .

« راحيل » ، ودفع مهرها سبع سنين عملا لأبيها ، ولما أتمها طلب زوجته فأدخله أبوها على ابنته الكبرى « ليئَة » وكانت عيناها ضعيفتين ، ولما غضب يعقوب لذلك التزوير طلب منه خاله أن يعمل سبع سنين أخرى ليزوجه ابنته الصغرى ففعل ، وحدث أن يعقوب وهو عائد الى فلسطين أن قابله أخوه عيسو فتخوف يعقوب منه ، لما يعرف من سابق حقده عليه ، ولكن عيسو كان كريماً معه ، فركض للقائه وعانقه (١) .

ويعلق J.W.D. Smith على تصرفات يعقوب هذه بقوله : ولا نجد بحال من الأحوال وسيلة لقبول تصرفات يعقوب ، فقد كان واضحاً أنها غير عادلة وكان يسلك مختلف السبل وينتهز كل الفرص لينال حقوق أخيه ، كان مستعداً أن يستعمل أساليب المكر والختل والحيل ليحقق أهدافه ، فيعقوب بهذا يعتبر نموذجاً حقيقياً لأخلاق اليهود ، وعلى هذا تُعْتَبَرُ تسميتهم باسمه ميراثاً دقيقاً ، فقد ورثوا عنه أكثر مما ورثوا عن ابراهيم الذى كان رجل عقيدة وإيمان أكثر منه رجل ختل ودنيا (٢) .

الحياة فى بيت يعقوب :

وآل الأمر الى يعقوب بعد كل هذه الحيل ، وقارىء التوراة يجد احداثاً عجيبة يدهش الإنسان أن تجرى فى بيت رسول ، ومن هذه الأحداث أن زوجة يعقوب (راحيل) كانت وثنية ، حتى بعد أن مضت عدةُ سنوات على زواجها منه ، وقد بلغ من وثنيتها وأخلاقها أنها سرقت أصنام أبيها وفرت بها هاربة من بيت أبيها مع زوجها الى فلسطين (٣) ، ومن هذه الأحداث أن رأوبين ابن يعقوب البكر زنى ببلهة زوجة أبيه

---

(١) تكوين : ٣٢ و ٣٣ .

(٢) God and Man in Early Israel pp. 15-17.

(٣) تكوين ٣١ : ١٩ .

وأم أخويه دان ونفتالى . وشاع هـذا الخبر حتى سمعه يعقوب [١] . ومن هـذه الأحـداث واقعة زنا وغـدر يقصها سفر التكوين كما يلى : وخرجت دِينة ابنة ليئة التى ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض ، فرآها شكيم بن حمور رئيس الأرض فأخـذها وزنى بهـا وتعلقت نفسه بها فكلم أباه أن يطلبها زوجة له ، فخرج حمور الى يعقوب ليطلب ابنته ، ولما عـلم أبناء يعقوب بما جرى لأختهم غضـبوا من شكيم لأنه صـنع قباحة فى اسرائيل وأسرّوا غضبهم ، فلما طلبها حمور زوجةً لابنه وأبدى استعداده لدفـع مايطلبون مهراً . أجاب بنو يعقوب بمكر قائلين : لا نستطيع أن نعطى أختنا لرجل أغلف ، لأنه عار لنا ؛ فاذا اختتنتم أعطيناكم بناتنا وأخـذنا بناتكم ونصـير شعباً واحـداً ، فقبل شـكيم ذلك ، وكان أكرم بيت أبيه ودعا قومه للاختتان فقبلوا ، واختتن كل ذكر ، وحـدث فى اليوم الثالث إذ كان الجميع متوجعين أن هجم أبناء يعقوب على محـلة شكيم فقتلوه وقتلوا أباه وأهـله ونهبـوا المدينة ، غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخـذوه ، وسبوا ونهبوا كل ثرواتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما فى البيـوت [٢] .

ومن الأحـداث التى وقعت فى بيت يعقوب مسألة حقـد إخوة يوسف عليه ، والتآمر للتخلص منه بالقتل أولا ثم بالعـدول عن القتـل إلى إلقائه فى البئر .... وقـد سبق أن أشرنا الى هـذه القصـة وهى لا تختلف فى التوراة عما سبق أن أوردناه [٣] .

موسى وهـرون :

يرسم المؤرخ العالمى Weech صـورة لموسى ننقلها فيما يلى :

ظهر موسى بين بنى اسرائيل وهم يعيشون غرباء مضطهدين فى المجتمـع

---

(١) تكوين : ٣٥ : ٥٢٣ .

(٢) تكوين : الاصحاح الرابع والثلاثون .

(٣) تكوين : الاصحاح السابع والثلاثون .

المصرى . فقادهم موسى وخرج بهم من مصر ، وكان لهم قائـداً ومشرعاً وإماماً ، ويرجع اليه ما عرف لبنى اسرائيل من ألواح وكتب ، وتجـول بهم موسى فى التيه حيث عاشوا من جـديد حياة البدو الرحل [١] : ودعاهم موسى الى التوحيد ، وكانت عقيدة التوحيد قـد ظهرت فى العالم قبل ذلك على يد أخناتون فى مصر ، ويبدو أن موسى — وقـد أمضى طفولته وصباه وشبابه فى مصر — عرف هـذه العقيدة وتأثر بها ودعا لهـا [٢] .

ويقرر Hosmer أن مكانة موسى جاءت من كفاءته التى استطاع بها أن يقود بنى اسرائيل ويخرجهم من مصر . ثم من مقـدرته على إمـلاء التوراة التى كانت قانون هـذه الجماعة بعد أن لم يكن لها قانون . كمـا كانت القاعدة التى قام عليها بناء الدولة من الناحية السياسية [٣] .

ومن أبرز الأحـداث التى تتصـل بموسى وبربه وشعبه — عـلى ما تذكره التوراة — مسألة سرقة اسرائيل حلىّ المصريين تنفيذاً لوصـية الرب التى أوصى بها موسى وبلغها هـذا الى قومه فعملوا بها ، وفيما يلى كلمات التوراة : وأعطى — أى أنا الله — نعمة لهذا الشـعب فى عيـون المصريين ، فيكون حينما تمضـون أنكم لا تمضـون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعـة فضـة وأمتعة ذهب وثيـاباً ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين [٤] ، وفعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى ، طلبوا من المصريين أمتعة فضـة وأمتعة ذهب وثياباً ، وأعطى الرب نعمة للشـعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم ، فسـلبوا المصريين [٥] .

ويعلق الأستاذ محمد عزة دروزة على هـذا النص بقوله : ومهما كان

---

(١) Civilization of the Near East p. 53.

(٢) Ibid p. 88.

(٣) James Hosmer : the Jews p. 14.

(٤) خروج ٣ : ٢١ — ٢٢ .

(٥) خروج ١٢ : ٣٥ — ٣٦ .

من أمر فإن تسجيل هـذا الخبر بهـذا الأسلوب يدل على ما كان وظل يتحـكم فى نفوس بنى اسرائيل من فكرة استحلال أموال الغـير وسلبها بأية وسيلة ، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس . كما أنه كان ذا أثر شديدبدون ريب فى رسوخ هذا الخلق العجيب فى ذراريهم ثم من دخل فى دينهم من غير جنسهم (١) .

أما هرون فإنه — بناء على ما ورد فى التوراة — استجاب لقـومه حينما استبطأوا موسى وطلبوا منه أن يقيم لهم إلهاً يعبدونه ، وفيما يلى نص التوراة : ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هرون وقالوا له : قم اصـنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هـذا موسى ، الرجل الذى أصـعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصـابه . فقال لهم هرون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتـكم وأتونى بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم ، وأتوا بها الى هرون ، فأخـذ ذلك من أيديهم ، وصـوّره بالإزميل ، وصـنعه عجـلا مسبوكاً ، وقال : هـذه آلهتك يا اسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ، وبنى مذبحاً أمـامه ، ونادى هرون وقال غـداً عيد للرب . فبكّروا فى الغـد ،وأصْعَدوا مُحْرقات ، وقدّموا ذبائح سلامةٍ ، وجلس الشعب للأكل والشرب ، ثم قاموا للعب (٢) .

داود :

أول شىء يمكن أن نقتبسـه من الكتاب المقدس عن داود أن نسـبه ليس اسرائيليا خالصـا ، وسفر راعوث يحـكى لنا قصـة هذا النسب ، واسم السفر مقتبس من اسم امرأة من مؤاب اسمها راعوث ، وخلاصـة هـذا السفر أن اسرائيليا من بيت لحم ومن سبط يهوذا نزح الى مؤاب مع زوجته وولديه تحت ضـغط الجوع ، ثم مات الرجل ، وبعـد فترة تزوج

---

(١) تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم ج١ ص ٧٨ — ٧٩ .
(٢) خروج ٣٢ : ١ — ٦ .

الولدان من فتاتين من مؤاب إحداهما اسمها عُرْفة والثانية اسمها راعوث . ثم مات الولدان . وأرادت أمهما العودة الى بيت لحم فحاولت أرملتا ابنيها العودة معها . ولكن المرأة نصحتهما بالذهاب الى أهلهما . فقبلت عرفة ورفضت راعوث ، وأصرت على أن تصحب حماتها ، وفى بيت لحم تزوجت راعوث رجلا من أقارب حماتها اسمه بوعز ، فولدت له ولداً سمى عوبيد . وكبر هذا وتزوج ووُلِدَ له ولد سمى يسَّى وهو والد داود [١] .

وأهمية هذا النسب خطيرة بالنسبة للفكر الذى حدده اليهود مع قيام دولتهم . فاليهودية الجديدة تَعْتَبر السلالة من ناحية الأم هى السلالة التى يعتمد عليها فى نقاء الدم اليهودى ، ويعتبر « غير نظيف » عند اليهود من اختلط دمه ، ويُعتبر غير يهودى من كانت أمه غير يهودية [٢] .

ويعتبر عهد داود وسليمان عهد الاستقرار النِّسبى لبنى اسرائيل ، وقد كان كل منهما ملِكاً على مملكة العبريين ، ومن أجل هذا كتب عنهما المؤرخون أكثر مما كتبوا عمن سبقوهم من قادة بنى اسرائيل . وتبعاً لذلك ستكون اقتباساتنا عنهما ليست من الكتاب المقدس فحسب بل مما كتبه المؤرخون كذلك .

ويصف ول ديورانت داود بقوله : وقد استطاع الأدب فى هذا العصر البعيد أن يرسم له صورة كاملة ، صورة واقعية فيها كل ما فى النفس الحية من عواطف وانفعالات متعارضة : فهو قاس غليظ القلب كما كان الناس فى وقته وكما كانت قبيلته ، وكما كانت الصفات التى خلعها

---

(١) نظر سفر راعوث .

(٢) نشرت جريدة النيويورك تايمز الامريكية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩ يناير سنة ١٩٦٠ قصة امرأة تدعى ريتا كان أبوها يهوديا . وشبت فى ألمانيا يهودية ، وعانت الاضطهاد لانها يهودية . واعتقلها الانجليز فى قبرص لانها يهودية ، وجاءت الى اسرائيل كيهودية . وعاشت فى احد المعسكرات اليهودية ، وتزوجت يهوديا وعاشت تمارس الشعائر اليهودية ، ثم ـ فجاة ـ اعلنت وزارة داخلية اسرائيل أن ريتا غير يهودية ، لان الوزارة عرفت ما يدل على أن أمها ليست يهودية (انظر اسرائيليات للاستاذ أحمد بهاء الدين ص ١٩٨) .

على إلهه ، ولكنه مع هــذا كان مستعداً لأن يعفو عن أعــدائه ، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، وكان يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الآشوريين ، ويأمر ابنه سليمان بالقتل ويشجعه عليه ، ويأخــذ امرأة أوريا لنفســه من غير حياء ، ويرسل زوجها الى الصــف الأول فى ميدان القتال ليتخلص منــه (١) .

وبمناسبة الحــديث عن زوجة أوريا يجــدر بنا ان نعود الى الكتاب المقــدس لنقتبس القصة كاملة ، ففيها – بناء على رواية الكتاب المقدس – أحــداث موغلة فى القسوة وبعيدة عن العفة ، وفيما يلى كلمات الكتــاب المقــدس : أرسل داود قائده يؤاب وجنوده ومن بينهم جندى اسمه أوريا ، فخربوا بنى عمون وحاصروا ربّه ، وأما داود فأقام فى أورشــليم ، وفى المساء قام داود عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من عــلى السـطح امرأة تستحم للطهارة من طمثها وكانت جميلة المنظــر جــداً ، فأرســل لها داود وأخذها ودخل بها ، وعند ما جاء موعد الطمث لم تحض ، فأدركت أنها حملت من داود إذ كان زوجها بعيداً فى المعركة ، فأرسلت الى داود وقالت إنى حبلى ، فأرسل داود الى يؤاب يقول أرسل الىّ أوريّا ، فأرسله ، فسأله داود عن سلامة يؤاب وسلامة الشعب ونجاح الحــرب . وقال داود له : انزل الى بيتك واغسل رجليك ، ولكن أوريّا لم يذهب الى بيته ونام على باب الملك مع عبيد سيده ، ولما عرف داود ذلك ســأله عن السبب فأجاب أوريا : إن التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يؤاب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى الى بيتى لآكل وأشرب واضطجع مع امرأتى ؟ وحياتك لا أفعل هــذا الأمر . فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضــاً وغــداً أطلقك ، وفى الصــباح كتب داود مكتوباً الى يؤاب وأرسله مع أوريا ، وفى هــذا المكتوب يقول داود : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ،

---

(١) ول ديورانت : قصــة الحضارة جـ ٢ ص ٣٣١ .

غفعل يؤاب ، ودفع أوريا وجماعة معه حتى دنوا من سور المدينة ثم تقهقر يؤاب عنهم فماتوا جميعاً ، وأرسل بذلك الى داود ، وقال يؤاب للرسول : إن غضب الملك لأننا دنونا من المدينة وتعرض رجالنا لمقذوفات السكان من خلف الأسوار ؟ فقل له : إن أوريا قد مات . فلما سمعت امرأة أوريا أن بعلها قد مات ندبته ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً [هو سليمان] ويختتم الإصحاح بقوله : وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب (١) .

ويتحدث العهد القديم عن حادثة مدبرة وقعت فى بيت داود . وهاك كلمات هذا الكتاب : كان لأبشالوم بن داود شقيقة جميلة اسمها ثامار ؛ وقد أحبها وتتيم بها أخ لها من أبيها اسمه أمنون . وحدث أن أمنون مرض وطلب من أبيه أن تحضر أخته لتعد له طعاماً وتطعمه ، ولما حضرت أخته أخلى المكان وزنا بها على الرغم منها ، وخرجت ثامار صارخة باكية ، ولما عرف أبشالوم شقيقها هذا الأمر دبر فى نفسه مكيدة لينتقم من أمنون ، فدعاه هو وإخوته الى الطعام ، وأوصى عبيده أن يثقلوا الطعام والشراب لأمنون حتى يسكر ثم يقتلوه ... (٢) .

سليمان :

نال سليمان من عناية الباحثين والمؤرخين نصيباً كبيراً ، فقد كانت دولة اليهود فى أول عهده فى أقصى قوتها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن عصر سليمان اتجه الى الملاذ والترف أكثر من اتجاهه الى خدمة الدين والمبادىء ، وبين أيدينا مجموعة زاخرة من المعلومات عن هذا العصر ترويها من الكتاب المقدس ومما كتبه المؤرخون والباحثون :

لما آل الملك الى سليمان ، قتل جميع منافسيه ليستريح من متاعبهم ،

---

(١) صموئيل الثانى : الاصحاح الحادى عشر .

(٢) صموئيل الثانى : الاصحاح الثالث عشر .

ولكن عمله هــذا لم يغضب يهوه إلهه الذى أحب الملك الشاب ووهب له حكمة لم يهبها أحــداً من قبله ولا من بعــده (١) . ويذكر سفر الملوك الأول أنه قتل أخاه أدونيا ، وقتل يؤاب قائد جيشــه وهو ممســك بقرون المذبح مستجيراً ، وقتل شمعى أحــد كبار الرجال فى مملكة أبيه (٢) .

ويصف غوستاف لوبون سليمان بقوله : وقــد عاش سليمان حاكماً شرقياً حقيقياً بكثرة آلهته ، وبدائرته حريمه المشتملة على مئات النساء ، وبثيابه الزاهية ، وبقصــوره ، وحرسه الأجنبى ، وهو الذى شاد الهيكل عن زهو لا عن زهــد ، وذلك تقليداً لأبهة ملوك مصر وآشور واستنساخاً لطرزهما البنائية ، وانهمك سليمان فيما لا عهــد لأسباط بنى اسرائيل به من ضروب الملاذ الآسيوية ، فلم يفــكر فى غير التمتع بعمل داود تمتع ذى أثرة ، فأثقل كاهل الشعب بالضرائب ، ليقوم بنفقات شهواته ، معداً بذلك مُقْبِل الفتن (٣) .

وقــد تحدث ول ديورانت عن سليمان حــديثاً طويلا ، وفيما يــلى مقتبسات قصــيرة مما قاله عنه : استخدم ســليمان ثروة بلاده فى ملاذه الشخصية ، وأخص ما استخدمها فيه ، إشباع شهواته فى جمع السرارى ، وإن كان المؤرخــون ينْقِصــون زوجاته السبعمائة الى ستين أو سراريه الثلاثمائة الى ثمانين ، وقسم بلاده الى اثنى عشر قسما إدارياً ، وتعمد أن تكون حــدودها متفقة مع حــدود منازل الأسباط الإثنى عشر ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يضعف النزعة الانفصــالية بينهم ، وأن يؤلف منهم شعباً واحــداً ، ولكنه أفلس فى هــذا وأفلست بلاد اليهود معه ، ورغبة فى جمع الأموال فرض سليمان الإتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين ، كما

---

(١) ول ديورانت : قصــة الحضارة : جـ ٢ ص ٣٢٢ ، واقرأ الملوك الاول الاصحاح الثالث : ١٢ .

(٢) الملوك الاول : ٢ : ٢٨ .

(٣) اليهود فى تاريخ الحضارات الاولى ص ٢٩ وانظر .
Weech : Civilization of the Near East p. 86.

غرض جزية الرؤوس على رعاياه ، وطالب كل قسم من أقسام دولته بقدر من المال ، وأعاد للدولة احتكارها القديم لبعض صنوف التجارة [١] .

وفى الحديث عن الحياة الاجتماعية فى عاصمة بنى اسرائيل وبخاصة فى عهد سليمان يقول ول ديورانت : كان على الفتاة أن تثبت ليلة عرسها أنها عذراء وإلا رُجمت حتى تموت ، ولكن الزنا كان على رغم هذا منتشراً بين اليهود . ويلوح أن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة ، ولما كان القانون لم يحرم الاتصال بالعاهرات الأجنبيات . فإن المؤابيات والمَدْيَنيِّات وغيرهن انتشرن فى الطرق العامة ، حيث كن يعشن فى مواخير وخيام ، ويجمعن بين الدعارة وبيع مختلف السلع الصغيرة ، ولما كان سليمان لا يتشدد كثيراً فى هذه الأمور فإنه قد تساهل فى تطبيق القانون الذى كان يحرم على هؤلاء النساء السكنى فى أورشليم ، وسرعان ما تضاعف عددهن حتى كان الهيكل نفسه ماخورة للزنا والفجور . كما وصفه مصلح غضوب [٢] .

وينسب الكتاب المقدس انحرافات دينية لسليمان ، ومن هذا الكتاب نقتبس بعض عبارات عن ذلك :

جاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول ما يلى ، وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى اسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكان له سبعمائة من النساء السيدات ، وثلاثمائة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه

---

(١) قصة الحضارة : جـ ٢ : ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة : جـ ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء عَشْتُورَت آلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب . ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعاً لمُولُك رجس بنى عمُّون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن ، فغضب الرب على سليمان ، لأن قلبه مال عن الرب إله اسرائيل الذى تراءى له مرتين ، وأوصاه فى هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب (١) .

ويعلق Wells على عبارة الكتاب المقدس بقوله إن إقامة سليمان هيكل أورشليم ورؤياه لربه ومحادثته له فى مستهل حكمه ، لم تحل دون ابتداعه فى أواخر أيامه ضرباً من العبث بالأمور الدينية فإنه أكْثَرَ من الزواج وأخذ يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية ، فهو يقدم القربان لربَّةِ صيدا (عشتورت) ، ولرب مؤاب (شموس) (٢) وغيرهما ، والواقع أن وصف الكتاب المقدس لسليمان يصوره لنا ملكاً متقلباً كغيره من الملوك ، لا يَفْضُلُ ألبتة أياً منهم فى موضوع تمسكه بالدين ، كما يصور لنا قومه شعباً معتقداً بالخرافات ، وذا عقلية مبلبلة (٣) .

ويتفق ول ديورانت مع ما اقتبسناه آنفاً من الكتاب المقدس عن انحرافات سليمان فيقول : ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به ، وأخذت عنايته بالدين تقل على مر الأيام ، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل ، ولشدَّ ما يلومه كُتَّابُ أسفار التوراة على شهامته ، إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية التى كانت تعبدها زوجاته الأجنبيات (٤) .

---

(١) الملوك الأول : ١١ : ١ — ١٠ .

(٢) يلاحظ أننا قد ذكرنا أكثر من اله لصيدا ولمؤاب وعمون وليس ذلك سهوا فتعدد الآلهة كانت طبيعة العصر .

(٣) معالم تاريخ الانسانية : جـ ٣ : ص ٢٨٥ .

(٤) قصة الحضارة : جـ ٢ ص ٣٣٧ .

بقى أن نشير هنا الى ما سبق أن أوردناه : عن قسوة سليمان على بنى اسرائيل : تلك القسوة التى جعلتهم يقولون لرحبعام ابنه وخلفه على العرش : إن أباك قسّى نيرنا ، وإن عليك أن تخفف من عبودية أبيك الشاقة ونيره الثقيل الذى وضعه علينا . وذلك واضح الدلالة على أن عهد سليمان كان شديد الوطأة على بنى اسرائيل وأن مشاريعه قد حملتهم جهداً عظيماً وتكاليف باهظة ، وقد كان بنو اسرائيل جادين فى طلبهم من رحبعام فلما رفض رحبعام طلبهم ، ثاروا عليه وانقسمت المملكة وبايع الثائرون يربعام ملكا عليهم كما سبق القول .

***

وبعد ، فهذه صورة سريعة عن أنبياء بنى اسرائيل من غير القرآن الكريم ، توضح اتجاه الكتّاب والباحثين وبخاصة كتّاب الكتاب المقدس عن هؤلاء الأنبياء .

عقيـــدة بنى اسرائيل

من غـير القرآن الكريم

من الناحية الواقعية التاريخية يتضح أن بنى اسرائيل أهملوا المصدر الحقيقى للعقيــدة وهو السماء ، وانساقوا خلف مصـادر أخرى : فقد مرت ببنى اسرائيل أحـداث خطيرة ، عاشوا فى مصر ، ووقعوا بين شقى الرحى فى فلسطين ، ونفوا الى بابل ، وفى فترة الصراع بينهم وبين الدول ، ثم فى فترة التشرد كتبوا العهـد القديم ، ووضعوا التلمود ، وبروتوكولات حكماء صهيون . كما سنرى فيما بعد ، وأصبحت هذه هى المصادر الواقعية للعقائد اليهودية ، وسنبحث فيما يلى أبرز المعالم لهـذه العقائد .

الإلـــــه

معبودات بنى اسرائيل غير « يهـوه » :

لم يستطع بنو اسرائيل فى أى فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحـد الذى دعا له الأنبياء ، وكان اتجاههم الى التجسيم والتعدد والنفعية واضحاً فى جميع مراحل تاريخهم وعلى الرغم من ارتباط وجـودهم بإبراهيم إلا أن البـدائية الدينية كانت طابعهم ، وتُعدُّ كثرة أنبيائهم دليـلا على تجـدد الشرك فيهم ، وبالتالى تجـدد الحاجة الى أنبياء يجدِّدُون الدعوة الى التوحيد ، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أى حال ، فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح والأحجار ، وأحياناً مقلِّدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التى كانت لها حضـارة وفـكر قلدهما اليهود . ويقول J. Shot Well (١) إن اليهـود كانوا فى مطـلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحـلا تسـيطر عليهم الأفكار البدائية كالخـوف من الشياطين والاعتقاد فى الأرواح ، وكانوا يعبـدون الحجارة

---

(١) The Religions Revelution of Today p. 30.

والأغنام والأشجار [1] . ويقول Reinach إن اليهود اتخذوا فى بيوتهم أصناماً صغيرة كانوا يعبدونها ويتنقلون بها من مكان الى مكان [2] . وقد ظل بنو اسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى وخرج بهم من مصر ويقول Foster Kent [3] إن موسى حاول أن يكوّن أمةً من الجماعات التى تبعته ، وقد وجد ألا مناص من تحديد إله يرعى جموعهم ، وتعبده هذه الجموع . ويتم بينه وبين بنى اسرائيل نوع من المنفعة المتبادلة ، ويرتبط مصيرهما كل بالآخر ارتباطاً دقيقاً . وتبعا لذلك أعلن موسى « يهوه » إلهاً لبنى اسرائيل ، ويرى المؤرخون الغربيون أن موسى استعار القول بالوحدانية من اخناتون ، وفى ذلك يقول Weech [4] : إن أوّل من قال بالوحدانية الخالصة هو اخناتون . ومن المحتمل أن يكون موسى قد عرف وهو بمصر تفاصيل هذا الاتجاه الدينى فتأثر به فى دعوته ومال إليه . وقد سبق أن أشرنا الى هذا الرأى ، ولكن بنى اسرائيل كما يقول ول ديورانت [5] لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحَمل ، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا فى مصر ، وظلوا زمناً طويلا يتخذون هذا الحيوان القوى آكل للشعب رمزاً لإلههم . وتقرّر التوراة قصة العجل الذى عمله لهم هرون فعبدوه بعد أن تأخر موسى فى العودة إليهم ، وكيف خلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب ، وقد أعدم موسى ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن [6] . وقد بقيت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى اسرائيل من حين الى حين ، فقد عمل يوبعام بن سليمان عجلى

---

(1) See alse : Weech : Civilization of the Near East p. 86 and p. 88.

(2) Reinach : History of Religion p. 176.

(3) A History of the Hebrow People p. 42.

(4) Civilization of the Near East p. 84 and p. 88.

(5) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٣٨ .

(6) خروج ٣٢ : ١٨ — ٣٦ .

ذهب ايعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا الى الذهاب الى الهيكل [١] ، وقد عبد أهاب ملك اسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد [٢] وسنرى فيما بعد مزيداً من التفصيل عن معبودات بنى اسرائيل .

وقد كانت الحية معجزة موسى كما هو معروف ، ويروى العهد القديم أن موسى عمل حية من نحاس وأن بنى اسرائيل عبدوها بعد ذلك [٣] ، وكانت الأفعى تُعَدّ حيوناً مقدساً لأنها — عندهم — تمثل الحكمة والدهاء والانسياب ، فضلا عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان [٤] ، وكان من نتيجة معجزة الأفعى التى قدمها موسى ما يرويه ول ديورانت من أن اليهود نظروا الى موسى وهرون على أنهما ساحران ، ومن ثمّ انتشر السحر بينهم الى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة [٥] .

وبعد موسى ، وفى عهد القضاة ، تأثر بنو اسرائيل بمعبودات الكنعانيين تأثراً كبيراً ، ويوضح Kent أن إله الكنعانيين « بعل » أصبح معبوداً لبنى اسرائيل فى كثير من قراهم ، وفى أحوال كثيرة أصبح للطائفتين معبد واحد به تمثال يهوه وتمثال بعل ، بل أصبح يهوه ينادَى بعل ، وقد ظل ذلك الى عهد يوشع [٦] .

---

(١) الملوك الاول ١٢ : ٢٦ — ٢٨ .
(٢) ول ديورانت ج٢ ص ٢٣٨ بالهامش .
(٣) الملوك الثانى ١٨ : ٤ .
(٤) G. Allen : **Evelution** of the Idea et God p. 192.
(٥) قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٢٩ ، وقد أصبح اليهود اقطاب السحر فيما بعد ومنظمى الجمعيات التى تعتمد على الطلاسم والرموز والارقام ، واصبحت الفلسفة وتعليم الروحية والشعوذة والسحر تكون مزيجا يسمى « الكابالا » ، وكانت الكابالا سوط عذاب أطلقه اليهود ضد المسيحية خلال القرون الوسطى .
(٦) Charles Foster Kent : A History of the Hebrow. **People**

يهـوه ومراحـل عبـاداته

يجـدر بنا أن نقف وقفة عند « يهوه » الذى شـغل دائمـاً فراغا واسـعا عند الكلام عن آلهـة بنى اسرائيل . وسنتناول الكـلام عن يهوه من عـدة نواح :

أ — اشتقاق الاسـم « يهـوه » :

يقول الأستاذ العقاد [١] إن اسم « يهـوه » لا يعرَف اشتقاقه على التحقيق . فيصـح أنه من مادة الحياة . ويصـح أنه نداء لضمير الغائب أى « يا هو » لأن موسى عـلَّم بنى اسرائيل أن يتقوا ذكراه توقيراً له . وأن يكتفوا بالإشارة إليه . وهذا الاتجاه هو ما ذهب إليه Smith . ويضيف هـذا احتمالا لاتجاه آخـر : هو أن الكلمـة العبرانية المماثـلة لـكلمة (لورد Lord) هى يَهْوا وكانت اللغـة العبرية تكتب بدون حروف علة حتى سنة ٥٠٠ م ثم دخلت هـذه الحروف ، فأصبحت كلمـة يهـوا : ياهـوفا Jehovah . وبذلك فكلمـة (يهـوا) أو (ياهوفا) معنـاها سـيد وإله [٢] .

ب — صـفات يهـوه :

للإله أسماء تختلف — بطبيعة الحال — باختلاف اللغات ، ففى اللغة العربية يُسَمَّى الواحـد الأحـد « الله » وفى اللغة الإنجليزية يسـمى «God» وفى اللغة الإندونيسـية يسمى «Tuhan» وهكذا . فهل « يهوه » هو اسم الإله عند اليهود أو فى اللغة العبرانية ؟ .

إن الإجابة على هـذا السؤال تجىء بالنفى القاطع . لأن الصـفات التى ذكرها اليهود ليهوه تُبْعِدُه كل البعد عما يتصف به الإله عنـد أى

---

(١) الله ص ١١٣ .

(٢) Smith : God and Man in Early Israel p. 35.

جماعة من جماعات المتدينين ، وتجعله هذه الصفات لا مرشداً وهادياً ، وإنما تجعله يمثل انعكاساً لصفاتهم واتجاهاتهم ، ويقول ول ديورانت : «**يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا الى أحد آلهة كنعان فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلهاً** ، ويؤيد ذلك أن من بين الآثار التى وجدت فى كنعان سنة ١٩٣١ قطعاً من الخزف من بقايا البرنز (٣٠٠٠ ق م) عليها اسم إله كنعانى يسمى « ياه أو ياهو » [١] ، فيهوه ليس خالقاً لهم ، وإنما هو مخلوق لهم ، وهو لا يأمرهم ، بل يسير على هواهم وكثيراً ما يأتمر بأمرهم ، وفى يهوه صفاتهم الحربية إن هم حاربوا ، وصفات التدمير لأنهم مدمرون ، وهو يأمرهم بالسرقة اذا أرادوا أن يسرقوا ، ويعلم منهم ما يريدونه أن يعلم ، ولنعد الى المراجع التى بين أيدينا لنقتبس منها مجموعة من هذه الصفات :

وأولى هذه الصفات هو اضطراب الفكرة التى ترسمها الأسفار عن الإله ، فالوصية الثانية من الوصايا العشر تسمو بالإله عن الإحاطة والحصر ، إذ تنص على الآتى : « لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت ... » [٢] ولكن على الرغم من ذلك ترسم أسفار التوراة الخمسة صورة بشرية محضة للإله [٣] ، وستتضح هذه الصورة من فيض الأوصاف التى وصف بها اليهود يهوه ، والتى سنروى بعضها هنا .

فمن الأوصاف الحسية ليهوه أنه كان يسير أمام جماعة بنى اسرائيل فى عمود سحاب ..... فقد جاء فى سفر الخروج : وارتحلوا من سكوت ، ونزلوا فى إيثام طرف البرية ، وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود

(١) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٤٠ وانظر الهامش المنقول عن .
New York Times 3/5/1931.

(٢) خروج ٢٠ : ٤ .
(٣) ول ديورانت جـ ٢ ص ٢٧٢ .

سحاب ليهديهم فى الطريق . وليلا فى عمود نار ليضىء لهم [١]

ويعلل Smith لهذا بأن شبه جزيرة سيناء بركانية يكثر فيها الدخان المنبعث من البراكين ، ومن المحتمل أن يكون عمود السحاب الذى تبعه بنو اسرائيل وظنوا إلههم يسير فيه ، ليس فى الحقيقة إلا دخاناً متجمعاً من البراكين دفعته الرياح الى الأمام [٢] .

ومن الأوصاف البشرية المحضة ليهوه ما جاء فى التوراة :

— ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ اسرائيل . ورأوا إله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات السماء فى النقاوة ، ولكنه لم يمد يده الى أشراف بنى اسرائيل [٣] .

— ...... فيصنعون لى مقدساً لأسكن فى وسطهم [٤] .

ويهوه لا يدعى أنه عالم ، ويطلب من بنى اسرائيل أن يرشدوه ، فقد قرر حينما كان بنو اسرائيل لا يزالون فى مصر ، « أن يجتاز فى أرض مصر هذه الليلة ويضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم » [٥] ولكن يهوه لا يريد أن تنزل ضرباته ببنى اسرائيل ، ولذلك فإنه يطلب منهم أن يميزوا بيوتهم بدماء الكباش المضحاة ، بأن يحملوا الدم على القائمين والعتبة العليا فى البيوت [٦] .

ويهوه ليس معصوماً ، وكثيراً ما يقع فى الخطأ ، ثم يندم على مافعل ،

---

(١) خروج ١٣ : ٢٠ — ٢١ .
(١) Smith . God and man in Early Israel p. 35.
(٣) خروج ٢٤ : ٩ — ١١ .
(٤) خروج ٢٥ : ٨ .
(٥) خروج ١٢ : ١٢ .
(٦) خروج ١٢ : ٧ .

وفى نص التوراة « فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » (١) وفى نص آخر « وكان كلام الرب الى صموئيل قائلا : ندمت على أنى قد جعلت شاءول ملكا لأنه رجع من ورائى ولم يقم كلامى » (٢) .

والإله يهوه يأمر بالسرقة ، وقد سبق أن أوردنا نص التوراة الذى أمر فيه يهوه بنى اسرائيل أن « تطلب كل امرأة منهم من جارتها أو من نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » (٣) .

ويهوه إله قاس مدمّر متعصب لشعبه لانه ليس إله كل الشعوب بل إله بنى اسرائيل فقط وهو بهذا عدو للآلهة الآخرين (٤) كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى ، وتصوّره المراجع اليهودية كبير الشعب برئيس عصابة فهو يقول : متى أتى بك الرب إلهك الى الأرض التى أنت داخل إليها لتملكها ، وطرد شعوبا كثيرة من أمامك : الحيثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، سبع شعوب أكثر وأعظم منك ، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم ، فإنك تحرّمهم ، لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق بهم (٥) .

ويقول كذلك : حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء

---

(١) خروج ٣٢ : ١٤ .
(٢) صموئيل الاول ١٥ : ١٠ .
(٣) خروج ٣ : ٢٢ .
(٤) خروج ١٢ : ١٢ .
(٥) تثنيا ٧ : ١ — ٢ .

والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك . وتأكل غنيمة أعـدائك التى أعطاك الرب إلهك . وهـكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جـدأ التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصـيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما [١] .

ومن صـور القسوة والوحشية التى ينسبها العهـد القديم ليهوه ذلك الحوار الذى ورد فى الإصـحاح الخامس عشر من سـفر صـموئيل الأول . فقـد كان الرب طلب من شاول ملك اسرائيل تدمير العماليق ، بل وتدمير مواشيهم . وهـدم بيوتهم ، والقضاء على كل ذراريهم ، ومشى شـاول بجيش كبير حتى حاصرهم فى سيناء وانتصر عليهم وقبض عـلى ملكهم واسمه أجـّاج وأهلك هـذا الشعب كله ودمر ممتلكاته ولم يستبق منها إلا جيد الغنم والبقر ليقدم ذبيحة للرب ، ولكن يهوه يغضب من ذلك ويقول : استماع كلام الرب أفضـل من الذبيحة ، والطاعة أفضل من شحم الكباش . ويندم شاول على هـذا ويقتل أجاج الذى كان أسيرا ، ويهلك ما كان قـد احتفظ به من الأنعام [٢] .

وليست قسوة يهوه على أعـداء بنى اسرائيل وحدهم ، بل إنه يقسو أيضـا على شعبه ويلعنهم ويتوعدهم إن هم خالفوا شيئاً من أوامره ولم يتبعوا كل وصـاياه ، وننقل لذلك نصـًا من نصـوص التوراة فى هـذا الشأن : إن لم تسمع لصـوت الرب إلهك لتحرص على أن تعمل بجميع وصـاياه وفرائضه التى أنا أوصـيك بها اليوم ؛ تأت عليك جميع اللعنات وتدركك ، ملعوناً تكون فى المدينة ، وملعونا تكون فى الحقل ، ملعونة تكون سلتك ومعجنك . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضـك ، نتاج بقرك وإناث غنمك ، ملعوناً تكون فى دخولك وملعوناً تكون فى خروجك ، يرسـل عليك الرب اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد اليه يدك لتعمله حتى

---

(١) تثنية ٢٠ : ١٠ — ١٦ .
(٢) اقرأ الاصحاح ١٥ من سفر صموئيل الأول .

تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أعمالك إذ تركتنى ، يلْصِقُ بك الرب الوباء حتى يبيدك على الأرض التى أنت داخل اليها لكى تملكها ؛ يضربك الله بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول حتى تفنيك ••••• يضربك الرب بالقرحة والبواسير والجرب والحكة والجنون والعمى وحيرة القلب ••••• ويكون ذلك فيك وفى نسلك الى الأبد (١) •

وفى بعض الأحايين نفذ الرب وعيده ، وقص العهد القديم قصة من ذلك كما يلى •••••• من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه ، ومد يده عليه ، وضربه حتى ارتعدت لها الجبال ، وصارت جثتهم كالزبل فى الأزقة ، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد (٢) •

وكان بنو اسرائيل يرون ما ينالونه من نصر على أعدائهم منحة يهوه إليهم ، كما يرون أن ما يقع عليهم من هزائم ليس إلا انتقاما من يهوه ينزله بهم لمخالفتهم أوامره (٣) •

ويقتبس ول ديورانت بعض هذه اللعنات ويعلق عليها بقوله : إن هذه اللعنات لجديرة بأن تكون نماذج فى القدح والسب ، ولعلها هى التى أوحت الى الذين حرقوا الكفرة فى محاكم التفتيش الإسبانية ، أو حكموا على سبينوزا بالحرمان أن يفعلوا ما فعلوا (٤) •

وشتان أن نقارن ما يتوعد به هذا الرب شعبه إن أهملوا بعض ما أوصى به ، بالحساب الذى قرره إله المسلمين الغفور الرحيم ، ذلك الحساب الذى تحمل الآيات الآتية اتجاهاته :

---

(١) تثنية ٢٨ : ١٦ وما بعدها •
(٢) سفر اشعيا ٥ : ٢٥ •
(٣) Guignebert : The Jewish World in the time of Jesus p. 123.
وانظر أيضا Foster Kent : A History of the Hebrew people p. 34.
(٤) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٤٢ •

— إن الحسنات يذهبن السيئات [١] .

— فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية [٢] .

— إن الله يغفر الذنوب جميعاً [٣] .

وتنتقل الى صفة أخرى من صفات يهوه هى أن التوراة تصور موسى ذا سلطان عليه ، ينصحه فينتصح ، ويتخذ موسى وهو ينصحه موقف المرشد المعلم ، فمن ذلك أن يهوه غضب على بنى اسرائيل ، وقال لموسى : اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم ..... فراجعه موسى وقال له : ارجع عن حُمُوّ غضبك ، واندم على الشر أن توقعه بشعبك ، ماذا يقول عنك الناس اذا سمعوا بفعلتك ؟ ... فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه [٤] .

وقد قلنا فيما سبق إن اليهود استعاروا كثيرا من المعبودات التى كانت معروفة عند جيرانهم ، ويوضح لنا غوستاف لوبون أن اليهود لم يستعيروا من جيرانهم فى الاتجاهات الدينية والاجتماعية إلا أحطّ ما كان عندهم ، يقول غوستاف لوبون : عند ما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم ، من باديتهم ليستقروا بفلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة من زمن طويل ، فكان أمرهم كأمر جميع الأجناس المتخلفة التى تكون فى أحوال مماثلة ، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما فى حضارتها ، أى لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها ، ودعارتها وخرافاتها ، فقرّبوا القرابين لجميع آلهة آسيا ، قرّبوا لعشتروت ، ولبعل ، ولمولك من القرابين ما هو أكثر جداً مما قربوه لإله قبيلتهم « يهوه » العبوس

(١) سورة هود الآية ١١٤ .
(٢) سورة القارعة الآية التاسعة .
(٣) سورة الزمر الآية ٥٣ .
(٤) خروج ٣٢ : ١٠ — ١٤ وعدد ١٣ — ١٨

الحقود الذى لم يثقوا به إلا قليلا من الزمن على الرغم من كل إنذار جاء به أنبيائهم (١) .

ذلك موجز من صـــفات يهوه اقتبسناه من أدق المراجع ، لعله أعطى صـــورة واضـــحة عن إله بنى اسرائيل .

د — مراحل عبـادة يهـوه

عبادة يهوه مرّت بثلاث مراحل رئيسية هى :

١ — عبادته قبل بناء الهيكل .

٢ — عبادته فى الهيـكل .

٣ — عبادته بعد تدمير الهيكل .

وسنتكلم عن كلٍّ من هـــذه المراحل على حـــدة :

١ — يهـوه قبل الهيـكل :

تبدأ المرحلة الأولى من عبادة « يهوه » عندما دعاهم موسى إليـــه ، وكان يهوه عند موسى هو الإله الواحـــد ، رَمَزَ له باسـم « يهوه » على ما سبق أن شرحنا عند الكلام على اشتقاق الكلمة ، ولكن بنى اسرائيل لم يستجيبوا لموسى استجابة حقيقية ، وسرعان ما عبدوا العجل فى حيـــاة موسى وبعـــده .

وعبدوا كذلك الحية المقدسة على ما ذكرنا من قبل .

وفى عهـــد القضاة « عاد بنو اسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب : وعبدوا البَعْليمَ والعَشْتَارُت وآلهـــة صـــيدوم وآلهة مؤاب وآلهـــة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه » (٢) .

---

(١) اليهود فى الحضارات الأولى ص ٢٠ .
(٢) قضـــاة ١٠ : ٦ .

وفى مطلع عهـد الملوك يقص الكتاب المقدس أن زوجة داود و سـمها ميـكال كانت تعبد تماثيل على صـور البشر يرمز بها الى الله ، وقـد أخـذت الترافيما « اسم أحد التماثيل » ووضعته فى الفراش لتوهم أعداء داود أن داود نائم فى الفراش ، بينما عملت على تهريب داود من رسـل شـاول الذين كانوا يبحثون عنه ليقتلوه (١) .

٢ — يهـوه مع الهيـكل :

أما المرحـلة الثانية فهى مرحـلة ارتباط يهوه بالهيكل ، فإن داود جاء واتخـذ أورشليم عاصمة له ، ثم جاء سليمان وبنى الهيكل بها ، وتركزت عقيدة بنى اسرائيل حول الهيكل . واعتبر الهيكل مقر إلههم الذى طالما دعاهم له الأنبياء والذى سموه « يهوه أو ياهوغا » . وكان تجديد الهيكل وتجسيمه وزخرفته من دواعى استجابتهم لهـذا المعبود الذى طالما نفروا منـه . وأصـبح الهيكل فى الواقع رمزاً لكل ما كان يدور بخلدهم من معبودات ، فهو ليس بعيداً عن الأحجار والأصنام ، وهو مسكن الأرواح ، وبه المذبح حيث رأس العجل الذى ذكرنا من قبل أن قائد سليمان قُتِل وهو ممسك بقرونه مستجيراً به (٢) .

وهكذا عندما نشأت الوحـدة السياسة فى أيام داود وسـليمان ، تركزت العبادة فى الهيكل فى أورشليم فأخـذ الدين يردد أصـداء التاريخ والسياسة ، وأمسى يهوه إله اليهود الأوحـد الذى يعلو على آلهة غيرهم من البشر (٣) ، ويعتقد الباحثون فى تاريخ الأديان أن هـذا الهدف الذى قال به اليهود لم يكن لغرض دينى وإنما كان لغرض دنيوى فكان القصـد منه توحيد فـكر اليهود لتثبيت دولتهم والمحافظة عليها (٤) .

---

(١) صموئيل الأول : ١٩ : ١٠ — ١٦ .
(٢) الملوك الأول : ٢ : ص ٣٤٣ .
(٣) ول ديورانت : قصـة الحضارة جـ ٢ ص ٣٤٣ .
(٤) أديان العالم الكبرى : لخصه عن الانجليزية حبيب سعيد ص ٨٩ .

وهكذا ارتبط اليهود بيهوه ، ولكن ما مدى هـذا ارتباط ؟

إن الإجابة عن هـذا السؤال تستدعى شرحاً طويلاً نوعا ما . لنقطتين هامتين همـا :

(أ) خصَّ اليهود أنفسهم بيهوه ولم يسمحوا لغيرهم بعبادته أو الدخول فى ديانته .

(ب) اعترف اليهود لغير اليهود بآلهة يعبدونها . بل لم يقنع اليهود فى أكثر أحوالهم بيهوه وراحوا يعبدون آلية هؤلاء .

وفيما يلى مزيد من الشرح لهاتين النقطتين :

(أ) فعن النقطة الأولى نقرر أن الوصـية الأولى من الوصـايا العشر تساعد على هـذا الفهم ، فيهوه فيها يقول : « أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى » (١) ففى هـذه الوصية لم يقل يهوه إنه هو الإله الوحيد فى العالم ، بل اكتفى بأن يقول إن بنى اسرائيل يجب ألا يكون لهم آلهة سواه (٢) ، فشـعب اسرائيل لم يعرف الإله الواحـد ، إله الخلق أجمعين ، لم يعرف هذا الإله ولم يعبده ولم يثبت على ميثاقه ، وإنما كان يعبد إلهاً يسميه إله اسرائيل ، ويحسب أن هذا الإله يميزه ويختاره على عامة الخلق لغير طاعة ولا إيمان ، ولا فضـيلة ولا إحسان ، ولكنها وثيقة كتبها شعب اسرائيل على إلهـه منذ القـدم ، وهـذا الإله مسئول عنهـا كما يُسأل المدين عن القروض وربـاه لقد كان إلههم إله عشيرة واحـدة يسميها عشيرته وشـعبه وتسميه هى ربَّها وإلهها دون العالمين (٣) .

وتبعا لذلك كان ممنوعاً على غير اليهود أن يُقبلوا فى الجماعة اليهودية

---

(١) خروج ٢٠ : ١ — ٢ .
(٢) سليمان مظهر : قصة العقاد ص ٣٣ .
(٣) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ٣٠٧ .
See Oleso : Kent History of the Hebrew people p. 204.

وأن يدينوا بالولاء لرب بنى اسرائيل ، فقــد نصت التوراة على ما يلى : « لا يدخل عمونى ولا مؤابى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، لا يدخل منهم أحــد فى جماعة الرب الى الأبد » (١) . ويعلق الأستاذ محمد عزة دروزة على هــذا النص بقوله : إن الديانة اليهودية ليست دينا تبشيريا ولا إنسانياً عاماً ، وإن بنى اسرائيل كانوا يعتبرون الديانة ديانتهم والإله خاصــاً بهم ، وإن دخول غير اليهود فيها لم يكن تبشيراً بها ، وإنما كان من باب السماح لمن يريد — بنفسه وبدون دعوة — أن يدخل فى جماعة الرب وفى بعض الحالات نرى الكتاب المقدس يســد باب الله ودينه أمام الناس الى الأبــد (٢) .

ديانة عنصرية :

واســتكمالا لهــذه النقطة يجــدر بنا أن نبيِّن الى أى مدى كانت اليهودية ديانة عنصرية ، فقد ورد فى كتاب « المطالعات فى الأديان العالمية » أن ديانة اليهود ذات ارتباط بشــعب معــين ، كما يؤخــذ من تســميتها اليهودية أو العبرية ، وهى لهــذا تشــبه الهندوكية « ديانة الهنود » فى أنها ديانة مقفلة أى ليست من ديانات الدعوة ، وليست إلا تعبيراً طبيعياً لشعب خاص وجزءاً من ثقافة اجتماعية لا تقبل الغرباء (٣) ، والذى يقرأ الأسفار كلها لا يجــد فيها ما يدل على أن موسى أو بنى اسرائيل كانوا مأمورين بدعوة غيرهم الى ديانتهم ، وكل ما فى الأسفار مُنصبٌ على كون الديانة اليهــودية ديانتهم الخاصــة ، وكون الرب ربهــم الخاص (٤) ، ويميل كثير من المفكرين اليهود الى مزيد من تضييق الدائرة ، فلا يَعدّون

---

(١) تثنية ٢٣ : ٣ ويلاحظ فى النص انه مرة يقول حتى الجبل العاشر ومرة يقول الى الابد .

(٢) تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم : جـ ١ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) نقلا عن « ما يقال عن الاسلام » ص ٥١ .

(٤) محمد عزه دروزة . واسرائيل من اسفارهم جـ ١ص ٧٣ وتاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على جـ ٦ ص ٣٤٦ .

يهوداً إلا أولئك الذين يعيشون فى فلسطين أو يعتبرونها وطنهم وإن بعدوا عنها للضرورة (١) ، فاليهودية بهذا تتساوى مع الصهيونية التى سبق أن شرحناها فى الباب الأول .

وقفل اليهود ديانتهم عليهم ، وأنفتهم من إشراك غيرهم فى الانتساب إليها نوع من الأنانية والإحساس بالتعالى والامتياز ، يرفع قدرهم عن باقى البشر ويجعل مَن سواهم همجاً أو شبه أنعام « جوييم » ، أما أولئك الذين تسربوا الى اليهودية من غير بنى اسرائيل فسرعان ما عدهم التفكير الاسرائيلى شعباً من بنى اسرائيل وأطلق عليهم لقب « اليهود » ، فكأنهم ينحدرون من يهوذا ، وبهذا اختلطت عندهم الديانة بالنسب .

وقد عاب العالم على ألمانيا النازية جانبها العنصرى واعتبارها الشعب الألمانى أفضل شعوب البشر ، والصهيونية لا تختلف من قريب أو بعيد عن النازية فى هذين الاتجاهين إن لم تزد عنها ، ويقول « أرنولد توينبى » إن أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود ، فالحركات الصهيونية والنازية سواء فى ادعاء هذه الصفة العنصرية ، وإن الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما فى الحضارة الغربية من استعمار وقومية عمياء .

(ب) وعن النقطة الثانية يقول Berry : لم يكن لدى العبرانيين تصور للعالم ، ولهذا لم يصلوا الى تصور إله غير محدود ، ولقد كان عالمهم محدوداً وكان إلههم محدوداً كذلك (٢) .

وكان الاسرائيليون يؤمنون بأن للشعوب آلهة أخرى ، ويوضح الكتاب المقدس أن بنى اسرائيل عبدوا أنواعا من هذه الآلهة ، وقد ندد بها أرميا فى سفره ، ومنه نقتبس بعض النصوص :

---

(١) سليمان مظهر : قصة العقائد ص ٣٢١ .

(٢) Religions of the World p. 31.

— اسمعوا كلمة الرب يا بيت يعقوب وكل عشائر بيت اسرائيل ؛ هكذا قال الرب : ماذا وجد فيَّ آباؤكم من جورٍ حتى ابتعدوا عنى ، وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا [١] ؟ .

— وحين تقولون لماذا صنع الرب إلهنا كل هذه ؟ أقول لكم : كما تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم [٢] .

— يقول الرب أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى [٣] .. ؟

— يقول الرب : إن آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها ، وإياى تركوا وشريعتى لم يحفظوها ، وأنتم أسأتم فى عملكم أكثر من آبائكم ؛ وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى لا تسمعوا لى [٤] .

وعلى هذا فمع وجود الهيكل فى عهد سليمان كانت عبادة آلهة الأجانب منتشرة ، وينسب العهد القديم لسليمان نفسه أنه أقام مذابح للآلهة الخارجية التى كانت تعبدها زوجاته الأجنبيات [٥] ؛ فبنى مذبحا لعشتروت رجاسة الصيدنيين ، ولكموش رجاسة المؤابيين ، ولملكوم إلهة بنى عمون [٦] ، وعقب موت سليمان انقسم ملكه بين ابنيه يربعام ورحبعام وهذا التغير فى تاريخ العبرانيين صحبه تغير فى عقيدتهم ، فاسرائيل فى الشمال كانت دولة غنية حظى سكانها بالاستقرار ، وقبلوا

---

(١) ارميا : ٢ : ٤ — ٥ .
(٢) ارميا ٥ : ١٩ — ٢٠ .
(٣) ارميا : ٧ : ٩ — ١٠ .
(٤) ارميا ١٦ : ١١ — ١٣ .
(٥) ول ديورانت قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٣٧ .
(٦) الملوك الثانى ٢٣ : ١٢ .

عادات الكنعانيين وعبدوا إلهتهم (بعـــل) ، أما دولة يهوذا فى الجنـــوب فكانت دولة فقيرة يشتغل سكانها بالزراعة والرعى وظلوا على تبعيتهم لإلهم يهـــوه ، إله الفقراء ، والى هـــذه الفترة ينســـب الأنبياء [١] ، وقد صنع يربعام عجلين من ذهب ووضـــع أحدهما فى بيت إيل وثانيهما فى دان ، وبنى عندهما مذابح وقال لشـــعبه : هذه آلهتكم التى أصعدتكم من مصر ، فاذبحوا وعيّدوا عنـــدها ولا تصـــعدوا الى أورشـــليم • فاســـتجاب له الشـــعب [٢] •

وقُبيل عهـــد الملك يوشيا كان الهيـــكل مملوءاً بالمعبودات والأصنام التى تمثل بعل ومولك والشمس والقمر وكل أجناد السماء وكان الشـــعب يسجد لهـــا ، وقـــد قام هذا الملك بكثير من الاصلاحات فدمّر هذه المذابح وأخرج هـــذه الآلهة من الهيكل ، وكان يقصـــد بذلك أن يعيد الشعب الى عبادة يهـــوه ولكن قليلا من استجاب له [٣] •

وعن الملك أخَزْيا ابن الملك آخاب يقول الكتاب المقدس : وعمـــل أخَزْيا الشر فى عينى الرب وســـار فى طريق أبيـــه وطريق أمـــه وطريق يرُبعام ، وعبد البعل وســـجد له وأغاظ الرب إله اسرائيل ، حسب كل ما فعـــل أبوه [٤] •

ونما سلطان الكهنـــة وانتشرت التربية الدينية ، ولكن ذلك لم يكف لتحرير عقول العبرانيين من الخرافات والأوهام ومن عبادة الأوثان ، بل ظلت قُلل التلال والحراج مأوى الآلهـــة الأجنبية ، ومشـــهداً للطقوس الخفية ، وظلت جماعات كبيرة من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد

---

(١) Berry : Religions of the World pp. 32-33.

(٢) الملوك الاول ١٢ : ٢٨ — ٢٩ •

(٣) اقرأ الاصحاح الثالث والعشرين من سفر الملوك الثانى •

(٤) الملوك الاول ٢٢ : ٥١ — ٥٣ •

بعـل وعشتروت . أو تتنبأ بالغيب على الطريقة البابلية ، أو تقيم الأنصاب وتحرق لها البخور . أو تركع أمام الحيـة النحاسية أو العجل الذهبى ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية [١] .

٣ ـ يهـوه بعـد الهيـكل :

هـذه هى المرحلة الثالثة من مراحل عبادة يهوه . وقـد صاحبت هذه المرحلة الأسرَ البابلى ، فقـد فكَّر اليهود : أين يهوه الآن بعد أن تحطمت المدينة المقدسـة وأحرِق الهيكل ؟

لقـد بدا لهم أن يهوه كان معهم فى الأسْر ، ولكن ألا يزال يهوه مع الذين تخلفوا منهم فى فلسطين ؟ وألَمْ يسر يهوه مع من سـاروا منهم إلا بلاد أخرى فى الشمال والجنوب والشرق والغرب ؟ وكانت إجابتهم على ذلك بعيدة المـدى فى الفـكر اليهودى ، فقـد أصبحوا يعتقدون أن يهوه مع كل منهم أنَّى كان ، ومعنى هـذا أن يهوه فى كل مكان [٢] ، وتعد تلك خطوة هامة فى تاريخ العقيدة الاسرائيلية . فإنها رفعت الإله عن أن يكون محـدوداً فى مكان لا يتعداه ، وتخطت به قيود التجسيم الى حد مَّا .

نداء الوحـدانية عنـد أشـعيا :

تلك هى مراحـل الارتباط بين بنى اسرائيل وبين إلههم يهـوه . وفى خلال الأسر البابلى هبَّ أشعيا بدعوة جـديدة كانت تطويراً للمرحـلة السابقة ، ونجـد فى هـذه الدعوة ملامح الوحدانية الحقـة ، إذ أخـذ يتحـدث عن إله لا عهـد للأسفار به ، إنه الإله الواحـد ، إله العالمين ، خالق الكون ورازقه ، المحب العطوف ، الذى لا يهوى التدمير ولا يحب

---

(١) ول ديورانت قصة الحضارة : جـ ٢ ص ٣٤٦ .
(٢) سليمان مظهر . تاريخ العقائد ص ٣١٧ .

لأذى . وتبعا لذلك هاجم اشعيا الاصنام . وسفه عبادتها ، تعال بنا نورد فيما يلى فقرات من هذا السفر لتفصل لنا هذا الاتجاه الجديد :

— أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الارض ، أنت صنعت السموات والارض . إن ملوك أشور قد خربوا كل الأمم وأرضهم ، ودفعوا آلهتهم الى النار ، لانهم ليسوا آلهة ، بل صنعة أيدى الناس ، خشب " وحجر" ، والآن خلصنا يارب لنعلم ممالك الأرض أنك أنت الرب وحدك (١) .

— هو الله الجالس على كرة الأرض ، الذى ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن ، الذى يجعل العظماء لا شيئاً ، ويصير قضاة الأرض كالباطل ، فبمن تشبهون الله فيساويه (٢) ؟

— هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الأرض ورازقها ، معطى الشعب عليها نسمة ، والساكنين فيها روحاً ... أنا الرب هذا اسمى ومجدى ، لا أعطيه لآخر (٣) .

— أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى ، وكل شيء أنا أعلم به ... أنا الرب صانع كل شيء ، ناشر السموات وحدى ، باسط الأرض ، مَنْ معى ؟ مُبطل آيات المخادعين ، ومحمق العرافين ، مُرْجع الحكماء الى الوراء ومجهل معرفتهم ، مقيم كلمة عبده ، ومتمم رأى رسله (٤) .

— أنا الرب وليس آخر ، لا إله سواى ، أنا الرب وليس آخر ، مصدر النور وخالق الظلمة ، صانع السلام ... أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها (٥) .

---

(١) اشعيا ٣٧ : ١٦ — ٢٠ .
(٢) اشعيا ٤٠ : ٢٢ — ٢٥ .
(٣) اشعيا ٤٢ : ٥ — ٨ .
(٤) اشعيا : ص الاصحاح ٤٤ .
(٥) اشعيا الاصحاح ٤٥ .

ـــ أنا الأول وأنا الآخــر ، ويــدى أسست الأرض ويمينى نشرت السموات . أنا أدعوهن فيقفن معــاً [١] .

وقد سبق أن تحدثنا عن أشعيا ودعوته للمسالمة ، وامتداحه لقورش ، وحثــه بني قومه على الطاعة له [٢] ، وقــد اتهِم من أجل هــذا بأنه خائن لوطنه . وهناك بعض المفكرين يربطون بين اتجاه أشــعيا السياسى واتجاهه الدينى ، ومن هؤلاء ول ديورانت الذى يقــول [٣] : وهــل الذى أوحى الى هــذا النبى فــكرة وجود إله واحــد للكون كله هو نهضــة الفرس ، وانتشار قوتهم ، وإخضاعهم دول الشرق الأدنى كلها . وجمعها فى وحــدة إمبراطورية أوسع رقعة وأحسن حــكماً من أى نظام اجتماعى عرفه الناس من قبل ؟ واذا كان بنو اسرائيل سيكونون قطعة من هــذا الملك الواسع فإنه لا يمكن أن يكون لهم إله وحــدهم وللحاكمين الفرس إله سواه . فاذا كانت هناك امبراطورية واحدة فليكن هناك إله واحد .

ولكن دعوة أشعيا للتوحيــد على كل حال لم تجــد إلا قليلا جــداً من الآذان الصــاغية .

اليهود والألوهية عمــوما :

على أن مســألة الألوهية كلها ، سواء اتجهت للوحــدانية أو للتعدد ، لم تكن عميقة الجــذور فى نفوس بنى اسرائيل ، فقد كانت المادية والتطلع الى أسلوب نفعى فى الحياة من أكثر ما يشغلهم ، واذا تخطينا عدة قرون فإننا نجــد الفكر اليهودى الحــديث يجعل لليهود رباً جــديدا كذلك ، ذلك هو تربة فلسطين ، وزهر برتقالها ، والذى يقرأ رواية (طوبى للخائفين) للكاتبة اليهودية يائيل ديان ابنة القائد الصــهيونى العسكرى موشى ديان ،

---

(١) اشعيا الاصحاح ٤٨ .
(٢) اشعيا ٤٤ : ٢٨ .
(٣) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٦٤ .

يجد أحد أبطالها (إيفرى) ينصح ابنه الطفل بأن يتخلى عن الذهاب للكنيسة ، وأن يحوّل اهتمامه لإلهه الجديد : تراب فلسطين ، ونقتبس فيما يلى سطوراً من هذه الرواية :

عندما عاد الصبى من المعبد الذى لا يذهب إليه إلا القليلون ، ثار أبوه فى وجهه بحديث له مغزى عميق ، قال له : أيام زمان حين كنا يهوداً فى روسيا وغيرها، كان من الضرورى بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات ، ونحافظ على ديننا . فقد كان الدين اليهودى لنا وسيلتنا لنتعاون ونتعاطف ونزود عنا الردى ، أما الآن فقد أصبح لدينا شىء أهم : هو الأرض ، أنت الآن اسرائيلى ولست مجرد يهودى ، إنى قد تركت فى روسيا كل شىء ، ملابسى ومتاعى وأقاربى وإلهى ، وعثرت هنا على رب جديد ، هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال ، ألا تحس بذلك ! وأخذ إيفرى حفنة من تراب الأرض وسكبها فى كف ابنه ، وقال له : امسك هذا التراب ، اقبض عليه ، تحسسه ، تذوّقه ، هذا هو ربك الوحيد ، اذا أردت أن تصلى للسماء فلا تصلّ لها لكى تسكب الفضيلة فى أرواحنا ، ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا ، هذا هو المهم ، إياك أن تذهب مرة أخرى الى المعبد (١) .



وبعد ، فهذه قصة الإله عند اليهود ، وهى واضحة الدلالة على أن اليهود لم يعرفوا الإله الحق فى أكثر تاريخهم ، وهم الآن يتخذون تراب فلسطين إلهاً لهم ، إن تراب فلسطين رمز المادة التى تحكمت فى الفكر اليهودى على مر التاريخ .

---

(١) يائيل ديان : طوبى للخائفين .

الآخــرة والبعث

تهتم اليهودية بالأعمال ولا تـُعْنـَى بالإيمان ، وهى فى جوهرها أسلوب حيـاة لا عقيدة تـُعْتـَقد ، وهى فى هــذا تختلف عن المسيحية التى تعنى بالإيمـان وتجعـله يفوق العمل الصـالح ، فالاتجاه الخلقى عند اليهود فى التصرفات اليومية أهـم من الاعتقاد السـليم (١) ، وتختلف اليهـودية عن المسيحية كذلك فى مجـال تفـكيرها فمجال اليهودية ليس فيما وراء هذا العالم ، ذلك الذى لن يقــدر الإنســان العائش هنا على الأرض أن يدركه ، وإنما مجالها الأوحــد هو هــذا العالم الحاضر (٢) ، وفى دائرة المعـارف العبرية يقرر كوهلر أن اليهودية ليست عقيــدة أو نظاما من العقائد يتوقف على قبولها الفــداء أو الخلاص فى المستقبل ، ولكنهـا نظـام للسـلوك البشرى ، وناموس البر الذى يتحتم على الإنسان اتباعه (٣) ، ويقرر الفكر اليهودى بناء على ذلك ، أن الجزاء يكون حسب الأعمال لا حســب الاعتقاد « أشهد السـموات والأرض على أنه سـواء كان المرء يهودياً أم وثنياً ، رجـلا أم امرأة ، حراً أو مُقيداً ، فإنه سينعم بالجزاء حسب أعمـاله دون سـواها » (٤) .

ولما كانت اليهودية دين أعمال لا دين إيمان ، فمن الواضـح تبعـاً لذلك ألا تتـكلم عن الآخرة والبعث والحساب ، فتلك أمـور تتوقف على العقيدة ، ولهــذا فقلما يشـير اليهود الى حياة أخرى بعد الموت ، ولم يرد فى دينهم شىء عن الخلود ، وكان الثواب والعقاب يتم فى الحياة الدنيا ، ولم تـَدُرْ فكرة البعث فى خـلد اليهود ، إلا بعـد أن فقـدوا الرجاء فى

---

(١) Berry : Religions of the World p. 35.

(٢) اديان العالم الكبرى لخصها عن الانجليزية حبيب سعيد ص ٨٨—٨٩ .

(٣) The Jewish Encyclopaedia Judism

(٤) فى الفكر اليهودى ص ٣١ .

أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض . ولعلهم أخذوا هذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شيئاً منها عن المصريين ، ومن هذه الخاتمة الروحية ولدت المسيحية [١] .

والدارس للكتب الاسرائيلية يجدها تسير مع الفكر الذى أوضحناه آنفاً ، فهى لم يرد فيها شىء عن البعث واليوم الآخر ، وإنما ورد بها حديث عن الأرض السفلى والجب التى يهوى إليها العصاة ولا يعودون « وإن الذى ينزل الى الهاوية لا يصعد » . ويقول Arthur Hertzberg إن الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها هى عالم الإنسان ، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك فى بعث ، وجنة أو نار [٢] .

ومر الزمن واحتل الفرس بلاد بابل ودولتى اليهود ، ووقع الأسر البابلى ، ثم سمح قورش ملك الفرس لليهود بالعودة الى فلسطين وإعادة بناء معبدهم ، وكانت هذه العلاقة الطيبة بين الفرس وبين اليهود داعية لأن يدرس اليهود الديانة الزرادشتية ديانة الفرس ، ومن تعاليم هذه الديانة اقتبس اليهود الاعتقاد فى حياة أخرى بعد الموت ، ولأول مرة عرفوا أيضاً أن هناك جنة وناراً فنقلوا ذلك الاعتقاد الى دينهم [٣] ؛ وفى هذا الجو بدأ أشعيا كلامه الذى يشير الى يوم البعث والى الحساب والجزاء ، كما أخذ دانيال يحذر الناس ويذكرهم بيوم البعث ، ومن قوله فى ذلك : « كثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار ، الى الازدراء الأبدى » [٤]

على أن اليهود عندما تكلموا عن الآخرة ، لم يكونوا فى أكثر الأحوال يعنون ما تعنيه الأديان الأخرى من وجود دار للحساب على ما قدم

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٤٥ .
(٢) Judaism p. 205.
(٣) سليمان مظهر قصة العقائد ص ٣١٨ .
(٤) دانيال : ١٢ : ٢ .

الإنسان فى حياته الأولى ، إنما كانوا يعنون بهـا شيئاً آخر . فالشعب اليهودي عند الباحثين اليهود قسمان . قسم عاش حياته الدنيا سعيداً حراً وهؤلاء يعدهم الفكر اليهودى قد حصلوا على الجانب المادى من رضا إلههم . أما القسم الآخر وهم الذين فقدوا هذا الجانب وعاشوا تحت سلطان الجوييم أو عاشوا فى المنفى مشردين فهؤلاء يرى الفكر اليهودى أن من حقهم أن يعودوا للحياة مرة أخرى لينالوا نصيبهم من المتعة أو النعيم (١) .

وعلى العموم فإن فكرة البعث لم تجد لها أرضاً خصبة فى عالم اليهود ، وقد حاول بعض طائفة الفرّيسيين القول بها ، ولكن هذه المحاولة لقيت معارضة شديدة ، أما باقى الفرق اليهودية فلم تعرف عنها شيئاً (٢) .

(١) Guignebert : The Jewish World in the Time of Jesus p. 117.

(٢) Ibid p. 120.

التابـوت الهيــكل

إن دراســة التوراة يمكن أن تعطينا صــورة واضــحة عن التابوت والهيكل ، لعل أهم حــديث نبدأ به عن التابوت هو ما ورد فى سفر الخروج ونصــه : « وقال الرب لموسى اصعد إلىّ ، الى الجبل وكن هناك ، فأعطيك لَوْحَىْ الحجــارة والشريعة والوصــية التى كتبتهــا لتعــليم بنى اسرائيل ... » [١] ، فصــعد موسى الى الجبل ، وهناك تلقى من الإله أوصــافا للتابوت ، ويذكرها سفر الخروج مفصــلة نجتزىء منها ما يلى لنعرّف بهــذا التابوت وصفته : « فيصنعون تابوتاً من خشب الســنط طوله ذراعان ونصــف ، وعرضــه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف ، وتغشيه بذهب نقى ، من داخلٍ ومن خارج ، وتضــع عليه إكليلا من ذهب حواليه ، وتَسْبِكُ له أربع حلقات من ذهب ، وتجعلها على قوائمه الأربع ، على جانبه الواحــد حلقتان وعلى جانبه الثانى حلقتان ، وتصنع عصويْن من خشب الســنط ، وتغشيهما بذهب ، وتدخل العصوَين فى الحلقات على جانبى التابوت ، ليُحمل التابوت بهمــا ، وتبقى العصــوان فى حــلقات التابوت ، لا تنْزَعان وتضــع فى التابوت الشهادة التى أعطيك » [٢] وعلى غطاء التابوت يوجــد طائران لم ير الناس مثلهما ، وينسب لموسى القول بأنه رأى هــذا النوع من الطيور بالقرب من عرش الله ، وحراسةُ التابوت موكولة لهــذين الطائرين [٣] .

وتذكر التوراة أن موسى نزل من الجبل ولَوْحا الشــهادة فى يده ، لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هنا كانا مكتوبين ، واللوحان هما صــنعة الله ، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين [٤] .

---

(١) خروج ٢٤ : ١٢ .
(٢) خروج ٢٥ : ١٠ — ١٥ .
(٣) James Hosmer : The Jews p. 16.
(٤) خروج ٣٢ : ١٥ — ١٦ .

ويتصل بالتابوت شيء يجدر بنا أن نتكلم عنه كلمة قصيرة ، ذلك هو المذبح المخصص لإيقاد البخور ، ويورد العهد القديم وصفاً مفصلاً له فيصفه بأن يكون طوله ذراعاً وعرضه ذراعاً وارتفاعه ذراعين ، وأن يصنع من خشب السنط ويغشى بذهب نقي سطحه وحيطانه . ويوضع قدام الحجاب الذي أمام تابوت الشهادة . ويوقد عليه هارون بخوراً عطراً كل صباح ، حين يصلح السرج ، وحين يصعد هارون السرج في العشية ، يوقده . بخورا دائما أمام الرب . ويصنع هارون كفارة على قرونه مرة في السنة من ذبيحة الخطية التي للكفارة [١] .

وتروي المراجع التي بين أيدينا ، أن بني اسرائيل صنعوا التابوت على صفاته تلك ، وأن موسى وضع اللوحين في التابوت ، كما وضع فيه ذهبا وفضة وبعض المواثيق ، وسماه تابوت العهد ، وقال لبني اسرائيل : إنه في هذا السفط توجد روح الإله يهوه . ولم يكن يسمح لأحد أن يمسه [٢] ، وإنما كان يحمل عن طريق العصوين سالفي الذكر ، ولما مسه عزة الصالح ، بأن مد يديه الى التابوت ليمنعه من السقوط على الأرض وأمسكه لحظة قصيرة ، غضب الرب على عزة ، وضربه الرب هناك لأجل أنه يمد يده الى التابوت فمات هناك أمام الله [٣] ، ويبدو أن قادة بني اسرائيل كانوا يحتفظون في التابوت بأغلى ما يملكون من ثروات ، ويوهمون الناس أن مَنْ مسه مات ، ليضمنوا نجاة هذه الثروات ، بدليل أن العرب في إحدى جولاتهم أخذوا التابوت من بني اسرائيل ، ولم يمت أولئك الذين أخذوه .

ويرى غوستاف لوبون [٤] أن تابوت العهد اقتباس من الفكر المصري الذي كان به نظائر لهذا التابوت المقدس ، وقد ظل الاعتقاد في

---

(١) خروج ٣٠ : ١ — ١٠ .
(٢) سليمان مظهر : قصة العقائد ٣٠٣ و ٣٠٦ .
(٣) صموئيل الثاني ٦ : ٧ .
(٤) اليهود في الحضارات الأولى ص ٦١ — ٦٢ .

قدسية هـذا التابوت حتى عهـد أرميا الذى أخـذ يتكلم عن إله روحانى . ووضـع من شأن التابوت وقال عنه : لا يعودون يقولون تابوت عهد الرب . ولا يخطر لهم ببال ، ولا يذكرونه ولا يفتقدونه ، ولا يصنع من بعـد .

ذلك حـديث يكشف لنا سر التابوت . وبقى بعـد ذلك أن نتحـدث عن الهيكل . وأن نربط التابوت بالهيكل . وقـد سبق أن ذكرنا أن داود اتخـذ مدينة أورشـليم عاصـمة لملكه . ويقص سفر أخبار الأيام الأول . أن داود جمع رؤساء اسرائيل ورؤساء الفرق الخادمين الملك . ورؤسـاء الألوف ورؤسـاء المئات ، ووقف على رجليه وخطب فيهم قائلا : اسمعونى يا إخوتى وشـعبى ، كان فى قلبى أن أبنى بيت قرار لتابوت عهـد الرب ، ولموطىء قـدمى إلهنـا ، وقـد هيأت للبناء . ولكن الله قال لى : لا تبن بيتـاً لاسمى ... إنما اختار سليمان ابنى ليجلس على مملكة الرب بعدى ، وقال لى إن سـليمان ابنك ، هو يبنى لى بيتى ودارى . لأنى اخترته لى ابنـاً وأنا أكون له أباً [١] ، وقال داود الملك لكل الجمع ، إن سليمان ابنى صـغير وغض . والعمل عظيم لأن الهيـكل ليس لإنسـان بل للرب الإله : وأنا بكل قوتى هيأت لبيت إلهى الذهب والفضـة والنحاس والحـديد والخشـب وحجارة الجزع وحجارة الترصيع ، وحجارة كحـلاء ، ورقماء ، وكل حجارة كريمـة ، وحجارة الرخام بكثرة ..... (ويذكر الإصـحاح مقادير هائلة وأوزاناً عظيمة من هـذه المواد) ثم يحث داود الشعب أن يباركوا الرب إلهم وأن يسهموا بما يستطيعون من مـال فى بنـاء هـذا الهيكل [٢] . وتقول الرواية إنهم تبرعوا بخمسة آلاف وزنة من الذهب ، وبضـعفها من الفضة ، وبكل ما يحتاج إليه الهيكل من الحديد والحجارة ، وقام سليمان ببناء هـذا الهيكل الذى تُورِدُ عنه المراجع اليهودية وصفاً مفصـلا ، بما يحوى من أروقة وبيـوت وخزائن وغرف ومخادع ، وبما به

---

(١) اخبار الايام الأول الاصحاح الثامن والعشرين
(٢) اخبار الايام ٢٩ : ١ — ٣ .

من أمتعة وموائد وكئوس وأقـداح ومذابح . ولعل من الأوفق أن نقتبس سطوراً قليلة عن وصـف هـذا الهيكل من سفر الملوك الأول . فقـد جاء فيه ما يلي : فبنى سليمان البيت وأكمله وبنى حيطان البيت من الداخل بأضـلاع أرزٍ من أرض البيت الى حيطان السقف . وغشّاه من داخـل بخشب ، وفرش أرض البيت بأخشاب سَرْوٍ ، وبنى عشرين ذراعاً من مؤخر البيت بأضـلاع أرزٍ من الأرض الى الحيطان . وبنى داخله المحراب أى قَدْسَ الأقداس ... وهيأ محرابا فى وسـط البيت من داخل ليضـع هناك تابوت عهـد الرب ، وأقام تمثالين للكين يحرسان قدس الأقداس ، وعشَّى المحـراب بذهب خالص وغشَّى المذبح بأرزٍ . وغشَّى سـليمان البيت من الداخل بذهب خالص ، وسدَّ بسلاسل ذهب قدام المحراب[١] .

ويقول ول ديورانت : إن طراز الهيـكل هـو الطراز الذى أخـذه الفينيقيون عن مصر وأضافوا إليه ما أخـذوه عن الآشوريين والبابليين من ضروب التزيين . ولم يكن هـذا الهيكل كنيسـة بالمعنى الصحيح . بل كان سياجا مربعا يضـم عـدة أجنحة ، ولم يكن بناؤه الرئيسى كبير الحجم ، فقـد كان طوله حوالى مائة وأربع وعشرين قدما ، وعرضـه حـوالى خمس وخمسين وارتفاعه حوالى اثنين وخمسين[٢] .

وقـد اختير لتشييد الهيكل مكان" فوق ربوة ، ولكن سائر أجـزاء الهيكل لم يبق منها الآن شىء على الإطـلاق[٣] .

أما بناة الهيكل فقـد جلبهم سليمان — كما سبق القول — من حليفه ملك حيرام ، إذ كان اليهود لا يعرفون فن الهندسة والعمارة ، وكانوا كذلك

---

(١) الملوك الأول ٦ : ١٤ — ٢١ .
وانظر : A History of the Jewish People by Margolis and Marx p. 49-50.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٢٥ .
(٣) المرجع السابق .

يجهلون ألوان الفنون الأخرى ، لبداوتهم ولأن موسى حرّم عليهم التصوير والنحت حتى لا يخلقوا أشياء تناظر ما خلقه الله (١) ثم يعبدوها .

ويقول ول ديورانت عن الهيكل :

يعدُّ بناء الهيكل أهم الأحداث فى ملحمة اليهود ، فإنه لم يكن بيتاً ليهوه فحسب ، بل كان أيضا مركزاً روحياً لليهود . وعاصمة لملكهم . ووسيلة لنقل تراثهم . وذكرى لهم . يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض . ولقد كان له فوق ذلك شأن فى رفع الدين اليهودى من دين بدائى متعدد الآلهة الى عقيدة راسخة غير متسامحة (٢) .

ولما تم بناء الهيكل جمع سليمان شيوخ اسرائيل ، وحمل الكهنة تابوت عهد الرب وأدخلوه الى مكانه فى محراب البيت فى قدس الأقداس . تحت جناحى الكروبين (٣) .

وأصبح الهيكل منذ ذلك الحين المكان الوحيد الذى تقدَّم عنده القرابين وكانت القرابين من قبل تقدَّم لرب اسرائيل فى هياكل محلية ، أو هياكل ساذجة فوق التلال (٤) .

ودخول الهيكل لم يكن مباحا للجميع ، وإنما كان مقصوراً على الكهنة : أما قدس الأقداس (المحراب) فلا يفتح إلا مرة فى العام ولا يدخله إلا كبار الكهنة (٥) .

---

(١) Hosmer : The Jews p. 72.
(٢) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٣٨ .
(٣) الملوك الاول ٨ : ١ — ٦ .
(٤) الملوك الاول ٣ : ٢ .
(٥) Margolis and Marx : A History of the Jewish People p. 64.
وانظر كذلك : The Jewish World in the Time of Jesus by Guignebert p. 57.

الكهنـة والقرابين

تحدثنا عن الأنبياء فى الفكر اليهودى . وذكرنا أنهم طبقة ظهرت بين اليهود وادّعت الوحى والنبوة ، وقال كل منهم إنه تلقى كلمة الرب ، وذكرنا تنديد بعضهم ببعض . ورَمْىَ بعضهم بعضاً بالكذب والشعوذة ونرانا هنا — ونحن نتحدث عن الكهنة — فى حاجة إلى أن نوضح الصـلة بين الأنبياء والكهنة ، فهؤلاء وأولئك يدّعون الوحى . ويقدّمون النصح . ولكن كان هناك فرق واضح بين المجموعتين . فقد ظل الأنبياء بعيدين عن المعابد والخطط الدينية الرسمية . غير مرتبطين بتقاليد ، وكان جل اتجاههم أن ينعوا على الأغنياء غناهم . فأصبحوا كما يقول Wells الناصحين غير الرسميين للناس فى الشئون العامة والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة [١] . وكانت تظهر أهمية الأنبياء مع كثرة المصائب والأهوال التى كانت تنزل ببنى اسرائيل ، ولم تكن أعمـال الأنبياء ذات صـلة بالهيكل أو القرابين . ولم يكن أحد يعيِّن الأنبياء ، ولا كانوا يختـارون من سبط محدد . ولم تكن هناك تقاليد يمرون بهـا ليصلوا للنبوة ، وهم فى كل هـذا يخالفون الكهنة ، وكثيراً مـا كانوا يهاجمون الكهنة ، وأحيانا كانوا ينتقدون الملوك وينعون عليهم الترف والملاذ ، وكان الكهنـة يحقدون عليهم تدخلهم فى الشئون الدينية ، وأنهم يدّعون أنهم يوحى إليهم ، إذ كان الكهنة يحـاولون أن تكون لهم وحدهم هـذه المواقف ، وليس الخلاف الذى حدث بين عيسى وكهنة الهيكل إلا حلقة من حلقات خلافات مماثلة بين الأنبياء والكهنة .

ونجىء الآن إلى الكهنة لنقرر أنهم كانوا من أبنـاء ليفى أحد أبناء يعقوب ، ومـا كان من الممكن أن يكونوا من غير هـذا الفرع ، وللوصول إلى الكهنوتية كان الواحد منهم يمر بتدريبات وتقاليد يعرف خلالها الطقوس والأسرار الدينية ، ويبرهن على استحقاقه لهـذا المنصب الخطير ، وكان لهم وحـدهم حق تفسـير النصوص ، ولم تكن القرابين مقبولة إلا اذا

---

(1) The Outline of History p. 294.

قدمت على يد أحد الكهنة ، وكانوا معفون من الضرائب ، وتقــدم لهم العشور من نتاج الضأن ، ويأخذون مــا بقى في الهيكل من القرابين ، وقد جمعوا بذلك أموالا ضخمة وثراء عظيما . وامتازت ثروتهم بأن عدت مقدسة ، وشخصياتهم بأن كانت الوسيلة إلى الله ، وبذلك أصبحوا فى كثير من الأحوال أقوى من الملوك أنفسهم .

وقد عقد Guignebert فصــلا عن المجمع الكهنوتى الذى يدبر شئون اليهود (١) . ونقتبس منه مــا نحتاجه فى هذا البحث :

كان يتكون من كبار الكهنة مجلس" يبحث الشئون الكبرى التى تهم اليهود ،ويرى بعض الباحثين أن هــذا المجلس امتــداد" للمجمع الذى أمر يهوه موسى أن يكونه من سبعين من كبار اليهود ليلتقى بهم يهوه فى خيمة الاجتماع (٢) . ولا يوافق Guignebert على هــذا الرأى ويرى أن الفرق كبير بين مجمع موسى الذى كان يمثل القبــائل والسلطات وبين مجمع الكهنة الذى نتحدث عنه ، والذى كان يمثل طائفة من العلماء والمفكرين من أبناء ليفى . ويرى هــذا المؤرخ أن مجمع الكهنة يرجع إلى عهــد الضغط اليونانى والرومانى ، ومــا انفجر عن ذلك من ثورات يهودية ، وقد رأى القائمون بهــذه الثورات أن من الضرورى أن يكون لهم مجلس يدبر أمر هــذه الثورات ويرعى مصالح اليهود (٣) ، وعضوية هــذا المجلس تمتد مــدى الحياة، أمــا طريقة اختيار أعضائه فإنهــا غير واضــحة ، ولم يكونوا فى مستوى واحد من حيث مكانتهم ، بل كان منهم أعضــاء لهم نفوذ واسع وتأثير كبير على الآخرين (٤) .

---

(١) The Jewish World in the Time of Jesus pp. 50-59.

(٢) سفر العدد ١١ : ٦ .

(٣) Gaignebert p. 56.

(٤) The Jewish World in the Time of Jesus p. 62.

وسلطان هـذا المجلس الأدبى ، كان يمتد إلى حيث يقيم اليهود فى كل البقـاع . أما سلطانه المـادى فكان ينكمش وينبسط حسب الظروف .

وكان هـذا المجلس يبحث فى كل الشئون التى لهـا علاقة بالدين . فهو يضـع قوانين المعاملة ، وقوانين الزواج والطلاق . ويحـدد الأعياد ومواعيدها ، ويحـارب الهرطقة ، ومـا إلى ذلك من مشكلات اليهود . وكان هـذا المجلس يقوم بدور الوساطة أحياناً اذا جد نزاع بين طائفتين من اليهود ، وكان يحكم فى القضـايا الجنـائية الكبرى . وله أن يحكم بالإعدام على الهراطقة ، بشرط موافقة الحاكم الرومانى ، وقد قضى هذا المجلس بإعدام عيسى ، ولكنه احتاج لموافقة هـذا الحاكم [١] ، وبذلك كان هـذا المجلس سلاحاً حاداً فى يد طبقة الكهنة ، وطالما استعمله هؤلاء لبسط نفوذهم على اليهود وإملاء كلمتهم ، وبواسطة هـذا السلاح أصبحوا يأمرون وينهون ، ويحرّمون ويحللون ، ولم يقنعوا بمدّ سلطانهم على المسـائل الدينية فقط ، بل راحوا يحوّلون كل مشكلات الحيـاة إلى مسائل دينية ، وبذلك أخضعوها إلى سلطانهم [٢] .

ولم يكن هـذا هو كل نفوذ الكهنة على الشعب . فبجانب هـذا المجلس كان الكهنة هم رعـاة المعبد وخدمة ، وقد حقق لهم هـذا الوضع امتيازاً دينياً وإدارياً . فالكاهن الأعظم استمتع بسلطة عظيمة ليس فقط فى الأمور الدينية ولكن فى الأمور المـادية أيضا ، وبخاصة فى عهد كانت الحدود بين السياسة والدين غير واضحة ، وعن طريق هـذا النفوذ طالما أصبح الكاهن الأعظم ملكا متوجا [٣] .

وكان الكاهن الأعظم يُختار من أعظم فروع أسرة ليفى . وبهـذا يضفى على جماعته مجداً وعظمة ، ممـا يجعلها تَدْعَم سلطته وتقوّى

---

(١) يوحنا ١٨ : ٣٠ ، وانظر كتاب المسيحية للملف و Guignebert p. 54.

(٢) Guignebert pp. 55-56.

(٣) Ibid p. 56.

نفوذه . وتحرص على بقائه فى هــذا المنصب ، إذ كان ضياع هــذا المركز منه كثير التأثير على أمنهم وثرائهم (١) .

أمــا القرابين فكانت تشــمل الضحايا البشرية ، فكان الإنســان يقدّم مع القرابين الأخرى من الحيوان والثمــار ، واستمر الأخذ بهــذه العادة فترة طويلة امتدت إلى عهــد الانقســام حيث قدّم الملك أخاذ ابنه قرباناً للآلهــة (٢) ، وممن قدّموا ضحايا للآلهــة أيضاً ابنة جفثة (Jephthah's doughter) (٣) ، ثم اكتفت الآلهــة بجزء من الإنسان ، بدلاً من أن يضحّى بالإنســان كله ، وكان هــذا الجزء هو ما يقْتَطع فى عملية الختــان ، وقد بقيت عملية الختــان رمزاً للتضحية ، وبقى مع جزء الختــان الحيوانُ والثمــارُ ، فأصبح يُضحّى بالبقر والخراف أو ببواكير الثمــار ، تحرّق أمام المعبد مع الجزء الذى يقطع فى الختــان ، وكانت القرابين عبارة عن هدية يتقرب بهــا الشخص للاله ، رجاء قضاء حاجة يريدها ، وكانت أحياناً للشكر والاعتراف بعون حصــل عليه الشخص قبل تقديمها (٤) .

وكانت القرابين هى الحدث اليومى عميق الصــلة بالمعبد ، وكان يقــدّم قربانٌ فى الصباح وآخر فى المســاء ، وكان يصحب القرابينَ احتفالٌ طويل وشعائر يقوم بهــا الكهنة ، وكثيراً مــا كان أفراد من الشعب يقدّمون قرابين خاصة بجوار القرابين سالفة الذكر ، وفى السبت وأيام الأعيــاد كانت هنا لك قرابين إضافية ، واحتفالات دينية أوفى وأشمل ، وكان تقديم القرابين ليهوه ، دليلا على الارتبــاط بين الشعب والاله ، ودليلا على وجود يهوه بين الشعب (٥) .

---

(١) The Jewish World in the Time of Jesus p. 57.

(٢) الملوك الثانى ١٦ : ٣ .

(٣) Charles Foster Kent : A History of the Hobrew People p. 96.

(٤) Berry : Religions of the World p. 31.

(٥) Guignebert : The Jewish World in the Time of Jesus pp. 60-61.

ويذكر الباحثون أن تقديم القرابين كان مرحلة من مراحل الرقى عند اليهود ، فقد كانوا من قبل يلجئون للسحرة والعرافين ، ولكن الكهنة قاوموا هـذا الاتجاه فيهم ، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة واحدة . هى قوة القربان والصلوات والتبرعات ، وكان المعتقد أن القرابين تكفِّر ذنوب الناس وتمحو خطاياهم اذا باركتها يد الكاهن (١) .

والتطور فى نوع القرابين الذى ذكرناه آنفـاً كان نتيجة للتطور فى الفكر اليهودى عن الإله ، فقد كان يهوه فى بادىء الأمر إلهـاً يحب الدم . وكانت اليهودية دين فزع وذعر وخوف ، ولم يكن يُطفأ حقـد الإله إلا بالدم المسفوك ، فلمـا ترقَّت فكرة اليهود عن الإله ، وقالوا بإله بَر وصالح ، أصبح هـذا يكتفى بالختان بدل الإنسان ، كمـا يكتفى بالحيوان والثمار ، وكان بعض بنى اسرائيل يثورون أحيانا على الطقوس والقرابين والعبادات الشكلية بالمعبد . ولكن أكثرهم على كل حـال . ظلوا خاضعين لهـا أطول فترات تاريخهم .ومـا ساعد على تقليل الثقـة بالمعـابد قبل بناء الهيكل تبـادل التكذيب والتحقير بين معبد ومعبد فى المنافسات الشديدة . فكانت هـذه كلها مؤثرات تحاول أن تفك عقال أذهان الناس ، وتفتح أمامهم آفاقاً أكثر سـعة ، وأشد حرية من النظرة الدينية ، وكانت الكنوز الذهبية الضخمة بالمعبد تجذب الناس فى عهـد من العهود ، وتفعل فعلهـا السحرى فى نفوس السذج ، ثم أصبحت هـذه الكنوز نفسها عاملا من عوامل التراخى فى العبـادة ، فما كان الجائع يستطيع أن يمسك بطنه ويخضع لثراء الأثرياء ، بعد أن تفتح ذهنه بعض الشىء .

وممـا أضعف نظام الكهنة كذلك ، قيـام المركزية الدينية ببناء الهيكل ووضع التابوت به ، فأصبح هناك معبد واحد ومجموعة واحدة من الكهنة ،

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٣٩ .

ونظر بعض الكهنة فوجدوا أنفسهم قد فقدوا كل سلطان لهم فحقدوا على هؤلاء الذين لم يفقدوا مكانتهم ، وأخـذ كل منهم يقلل من مكانة الآخرين .

وهكذا وضـع كهنة اليهود أنفسهم بين الناس وبين الله ، فلم تكن تقبل توبة ولا قرابين إلا إذا باركها الكاهن ، فقد كان مفتاح السماء فى يده ، وهـذا التصرف كان من أهم العيوب التى جـاء المسيح لمحاربتها ، ولكن المسيحية — للأسف — سرعان ما سارت فى نفس الطريق بعد المسيح ، فقـام القسس يمثلون نفس الدور الذى مثله كهنة اليهود من قبل [1] .

---

(١) أنظر كتاب المسيحية للمؤلف .

الشعب المختار والمسيح

يقول الدكتور هربرت لوى اليهودى ، أستاذ اللغــة العبرية بجامعة اكسفورد : إن اليهودية تقوم على أساسين همــا وحدانية الله واختيــار اسرائيل [١] ، وقد سبق أن تحدثنا عن الوحدانية عنــد اليهود ، ونتكلم الآن عن الأساس الثانى ، فيروى أن يهوه قطع وعداً لإبراهيم بأن يفضِّل الشعبُ اليهودىُّ جميع الأجناس[٢] ، وجاءت النصوص الآتية فى التوراة :

— أنا الرب إلهكم الذى ميزكم عن الشعوب ، تكونون لى قديسين لأنى قدُّوس ، أنا الرب وقد ميَّزْتكم من الشعوب لتكونوا لى [٣] .

— إنك يا اسرائيل شعب مقدس للرب إلهك ، إيَّاك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ، ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق بكم الرب واختاركم ، ولا لأنكم أقل من ســائر الشعوب ، بل من محبة الرب إياكم ، وحِفظه القسم الذى أقسم لآبائكم [٤] .

وبالغ التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون — وسنتكلم عنهمــا فيهمــا بعد — فى تبيان أفضلية اليهود واختيارهم ، فذكرا أن الفرق بين الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وبين باقى البشر ، وقررا أن لليهود وحدهم الحياة الأبدية ، وأن أرواحهم من روح الله دون سائر الشعوب .

ما السبب فى كون اليهود شعباً مختاراً ؟

---

(١) سبق أن فصلنا القول فى الوحدانية والتعدد عند اليهود ، وهربرت لوى يهمل أطول فترات التاريخ العبرى عندما يتناسى تعدد الآلهــة عندهم .

(٢) Wells : The Outline of History Vol II. pp. 291.

(٣) لاويون ٢٠ : ٢٤ — ٢٦ .

(٤) تثنية ٧ : ٦ — ٨ .

هناك عبـــارات اصطلاحية يذكرها اليهود للتعبير عن مصـــدر هذا الاختيار ، وهى عـــبارات تدعـــو للسخرية والضحك ، فالباحث Arthur Hertzberg يقرر أنه فى سيناء عندما تجلى الله لموسى ولبنى اسرائيل تمّ زواج" بين الله وبين اسرائيل ، وسُجِّل عقد الزواج بينهمـــا ؛ وكانت السماوات والأرض شهوداً لهـــذا العقد ، وفيما يلى نص كلمات هـــذا البـــاحث .

There are a number of exambles in Jewish literature of «A msrrig contract» between God and Israel. with heaven and earth as witnesses(1).

ويرى اليهود أن الامتياز الذى حصـــل عليه الشعب اليهودى هو فى الوقت نفسه مسئولية عليهم ، وعدم رعايتهم هـــذه المسئولية بأمانة وصدق جعلهم هدفاً للانتقام ، ولذلك فإنهم يفسرون مـــا نزل بهم من ضُرٍّ بأنه عقـــاب لهم على عدم حملهم الأمانة وعدم سيرهم بمقتضى ما مُنِحوه من امتياز وتفوّق ، ويُضيف مفكروهم — دفاعاً عمـــا أصابهم من ويلات — أن اليهود لم يكونوا أكثر الناس خطايا ، ولا أبعدهم عن الصواب ، ولكن المصـــائب لحقت بهم أكثر من غيرهم لأن اختيـــارهم وتفضيلهم على سواهم ، كان يحتّم عليهم أن يكونوا أكثر طـــاعة وأكثر استجابة ، فلمـــا عَصَوْا كان عقابهم أقسى ممـــا نزل بسواهم على نفس العصـــيان (٢) .

وقد سبق عند الحديث عن ديانة اليهود العنصرية أن أوضحنا أن الصهيونية والنازية تشتركان فى ادعـــاء السيادة والامتياز على البشر . ونضيف هنـــا أن النازية أسّست على أن الألمـــان عنصر ممتاز نقى يسمو على كل عناصر البشر ، وليس هناك من يضاهيه رِفْعَةً وسمواً ، ولما كانت هـــذه المبادىء نفسها هى مبادىء اليهود ، فإن صداماً ضخماً حدث بين

---

(١) Judaism Ed. by Arthur Hertzberg p. 119.

(٢) Ibid p. 13.

الطائفتين ، لأن كلا منهما يدعى أنه أفضل من الآخر ، وفى منح السيادة بالنسبة له .

ونتج من طبيعة الاختيار عقيدة أخرى عند اليهود ، هى عقيدة المسيح المنتظر ، فإن اليهود وجدوا أنفسهم لاخيرة البشر كما زعموا ، ولا صفوة الخلق كما أملوا ، بل لم يجدوا أنفسهم فى نفس المكانة التى ينعم بها الآخرون ، وإنما كانوا هدفاً للبلاء والنكبات ، ومن هنا اتجه مفكروهم فى عصورهم المتأخرة إلى مخلّص ومنقذ ينتشلهم من هذه الوهدة . ويضعهم فى المكانة التى أرادوها ، وأطلقوا على هذا المخلّص « المسيح المنتظر » . ووصفوه بأنه رسول السماء ، والقائد الذى سينال الشعبُ المختار بهديه وإرشاده ما يستحقه من سيادة وسؤدد [١] . ويتضح من الوصف الذى أورده Guignebert أن المسيح المنتظر ليس إنساناً عادياً بل هو إنسان سماوى (Heavenly person) وكائن مُعْجِز" خَلَقَه الله قبل الدهور ، ويبقى فى السماء حتى تحين ساعة إرساله ، وعندما يُرْسِله الله يمنحه قوته ، وهو يحمل لقب « ابن الإنسان » أى أنه سيظهر فى صورة الإنسان [٢] وإن كانت طبيعته تجمع بين الله وبين الإنسان [٣] .

ونعلق على هذا الوصف بأن نقول إن المسيحيين اقتبسوه كله وأسندوه إلى عيسى بن مريم [٤] .

وكلمة المسيح معناها الممسوح « بزيت البركة » لأنهم كانوا يمسحون به الملوك والأنبياء والكهنة والبطارقة ، وكانوا فى مبدأ الأمر يرون المسيح ملكاً فاتحاً مظفراً من نسل داود ، يسمونه ابن الله ، ويعتقدون أنه سيجىء ليعيد مجد إسرائيل ، ويجمع أشتات اليهود بفلسطين ، ويجعل أحكام

---

(١) The Jewish World in the Time of Jesus p. 140.

(٢) Ibid p. 141.

(٣) James Hosmer : The Jwes p. 85.

(٤) اقرأ كتاب المسيحية للمؤلف .

التوراة نافذة المفعول ، ولكنهم أحياناً أطلقوا كلمة المسيح على من يعاقب أعداءهم وإن لم يكن من نسل داود ، كما أطلقها أشعيا على قورش . ولما طال انتظارهم للمسيح الفاتح الغازى ، ولم يجىء فكروا أحياناً بأن يجىء المسيح مصلحا اجتماعيا عادلاً وديعاً (١) .

وقد سبق أن قلنا إن فكرة المسيح برزت فى الفكر اليهودى فى وقت متأخر ، ومراجعة الكتاب المقدس تقرر لنا أن هذه الفكرة لم تظهر إلا بعد سقوط دولتهم وأسرهم فى بابل ثم خضوعهم إلى الفرس (٢) ، وهذا التوقيت دفع كثيرين من الباحثين إلى الاعتقاد بأن فكرة المنقذ المخلص مستعارة من الزرادشتية التى يدين بها الفرس (٣) .

ويشرح Guignebert العلاقة بين الفكر الفارسى والفكر اليهودى فى مسألة المسيح فيقول : إن الاتجاه الفارسى كان يُبْرِز انتصار الخير على الشر فى الصراع الطويل بينهما ، وذلك الذى سماه الفرس خيراً هو نفسه ما أسماه اليهود « المسيح » ، ويضيف هذا الباحث أن فكرة وجود ملك مثالى يحكم العالم كله كانت فكرة شائعة عند الساميين وهى تستتبع وجود عالم مثالى وهو ما أسماه اليهود ، والمسيحيون من بعد اليهود (ملكوت الله) (٤) .

بل يعود Guignebert بفكرة المسيح لدى اليهود إلى وقت سابق للعهد الفارسى ، وهو يرى أن الكلمة المستعملة مع المسيح هى كلمة Expectation أى (توقُّع) ، وهى عنده توحى بأن المسيح وُجِد قبل ذلك ، وليس توقُّعه إلا أملاً فى أن يعود مرة أخرى ، ويقرر أن بعض

---

(١) Judaism Ed. by Arthur Hertzberg pp. 215-218.

(٢) اقرأ سفر دانيال .

(٣) العقاد : الله ص ١١٧ .

(٤) The Jewish World in the Time of Jesus p. 141.

الباحثين توقعوا المسيح منـــذ عهد موسى ، ويروى أن بعض الشعراء وصفوا داود بأنه المسيح المنتظر ، ويتخذ من هــذا دليلا على وجود فكرة المسيح قبل الأسر البابلى (١) • ولايَسْتَبْعد أن يكون (Messiah = مسيا = المسيح) يمثّل المنقذ الذى هتف به اليهود كلمــا ألمّت بهم النوائب ، وطالما ألمّت بهم هذه النوائب (٢) •

ويتجه بعض الباحثين إلى القول بأن فكرة المهدى المنتظر عند الشيعة مستعارة من فكرة المسيح المنتظر عند اليهود (٣) • وعلى هــذا فكلمة « المهدى » بديل" شيعى لكلمة « مسّيا » اليهودية ، وهؤلاء وأولئك لايزالون ينتظرون هــذا الأمل ويرون فيه الرشاد والخلاص •

ويرى We'ls أن فكرة المسيح عند اليهود كانت خطوة طبيعية ناشئة عن خطوات سبقتها ، وتلك الخطوات هى الاعتقــاد بأن الخلق أجمعين ليسوا من أبناء إبراهيم ، وإنمــا هم أمم وقبائل ، وأن الشعب اليهودى أرقى هــذه الأجناس وتلك الأمم » وأن إلههم يهوه أعظم وأقوى آلهــة القبائل خطراً ، ونشأت عن هــذه الأفكــار الثلاثة فكرة المسيح المنقذ رجاء أن يحقق لليهود ما ترامى به الزمن من وعود يهوه التى طــال الأمد عليهــا (٤) •

وبالغ اليهود فى رسم الصــورة التى أرادوها للمسيح الذى كانوا ينتظرونه ، فذكروا أن الناس فى ظله لن يعيشوا وحدهم فى العــالم فى سلام وسعادة ، بل سوف يشاركهم فى ذلك كل أنواع الحيوانات ، فالذئب يسالم الحمل ، والعجل يداعب الأسد •

---

(١) Ibid p. 139.

(٢) The Jewish World in the Time of Jesus p. 139.

(٣) Margolis and Marx : A History of the Jewish Peaple p. 258.

(٤) Outline of History Vol. 2, p. 292.

ونقتبس فيما يلى بعض فقرات من أشعيا يتحدث فيها عن المسيح المنتظر :

— ها العذراء تحبل وتلد ابنا (١) .

— يولد لنا ولد ، ونُعْطَى ابنا ، وتكون الرياسة على كتفه ، ويُدْعى اسمه عجيبا ، ويكون إلهـا قديراً أبا أبديا رئيس السلام ، ولنموٌ رياسته يجلس على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ، ويعضُدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد ، غيرةُ رب الجنود تصنع هذا (٢) .

— ويخرج قضيب من جزع يسَّى وينبت غصن من غصونه ، وتحل عليه روح الرب ، روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب ، ولذته تكون فى مخافة الرب ، فلا يقضى بحسب نظر عينيه ، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه ، بل يقضى بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فمه ، ويميت المنافق بنفخة شفتيه ، ويكون البِرُّ مِنْطقة متنية ، والأمانة منطقة حَقْويه .

— فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربُض النمر مع الجدى ، والعجل المسمَّن والشبل معا ، وصبى صغير يسوقها ، والبقرة والدبة ترعيان ، تربض أولادهما معاً ، والأسد كالبقر يأكل تِبْناً ، ويلعب الرضيع مع سرب الصل ، ويمد الفطيم يده على حُجْر الأفعوان ، لا يسوءون ولا يفسدون فى كل جبل قدسى لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغطى المياه البحر ، ويكون فى ذلك اليوم أن أصل يسَّى القائم رايةً للشعوب ، إياه تطلب الأمم ويكون محله مجداً .

---

(١) اشعيا ٧ : ١٥ .
(٢) اشعيا ٩ : ٦ — ٧ .

— ويكون فى ذلك اليوم أن السيد يعيد يـده ثانية ليقْتنىَ بقيـة شـعبه . التى بقيت من آشـور ومن مصر ومن •••••• ومن حمـاة ومن جزائر البحر ، ويرفع راية للأمم ، ويجمع منفيى اسرائيل ، ويضم مشتّتى يهوذا من أربعة أطراف الأرض (١) .

وردّد أرميا وعاموس نفس المعانى التى ردّدها أشـعيا واقتبسناها آنفاً ، والقارىء لسفريهما يجـد هذه الأفكار منثورة هنا وهناك .

وتهيأ الرأى العام اليهودى لهـذا المسيح ، وكان توقّعه يتجدد كلما نزلت باليهود البلايا والمحن ، وظهر عيسى بن مريم وأعلن أنه المسـيح الذى ينتظره اليهود ولكن أكثرية اليهود رفضـوا هـذا الادّعاء ، وقاوموا دعوة عيسى ، وألقوا القبض عليه وحـكموا عليه بالإعـدام (٢) ، ويقول عنه التلمود : إن يسوع الناصرى موجود فى لُجّات الجحيم ، بين القارّ والنار ، وقـد أتت به أمه عن طريق الخطيئة (٣) .

ومرت فترة طويلة دون أن يجىء المسـيح الذى ينتظره اليهـود ، وانتهز بعض اليهود فرصـة هـذا الترقب فادعى كل منهم أنه المسيح ، ويسجل التاريخ أخبارا لمسيح كاذب من حين الى حين ، وبخاصـة فى بلاد الفرس حيث ذاع القول بالمهـدى المنتظر لدى الشيعة ، فأثار الحماسة لظهور المسـيح المنتظر ، ففى بلدة شيرين ظهر رجل من اليهود فى القرن الثامن الميلادى ، وادعى أنه المسيح المنتظر ، ووعـد بأنه سيحقق معجزة استعادة فلسـطين (٤) ، وفى نفس القرن ظهر فارسى آخر فى بلدة اصفهان اسـمه أبو عيسى وادعى أنه المسيح ، وقال إن عودة فلسـطين لن تتم

---

(١) اشعيا ١٧ : ١٥ و ٩ : ٦ — ٧ و ١١ : ١ — ١٠ .
(٢) اقرا كتاب المسيحية للمؤلف .
(٣) سنتكلم عن التلمود فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .
(٤) Margolis and Marx : A History of the Jewish People . p. 259.

إلا على أسـنة الرماح ، وأعـد جيشـا قوامه عشرة آلاف جنـدى من اليهود ، وواتته فترة الاضطرابات التى كان يعانيها العالم الإسلامى عند سقوط الدولة الأموية وقيام دولة بنى العباس ، فعاشت حركة أبى عيسى فترة لأن أبا العباس السفاح انشغل عنها بما صـادفه من مشـكلات فى مطلع الدولة العباسية ، فلما آل السلطان للخليفة المنصـور اتجـه بضربة قاصـمة الى جيش اليهود فهزمه ، وفر أبو عيسى تجاه الشـمال ، ذاكراً أنه سيتقابل هناك مع أحـد قادة اليهـود المختفين ليتعاون معـه على استعادة فلسـطين [1].

وفى القرن السابع عشر ظهر فى سالونيك يهودى اسمه سبتاى زيفى كان واسـع الاطلاع على الثقافة اليهودية مما جعـله على صـلة بأقوال اليهود حول المسـيح المنتظر ، ورأى زيفى ما عاناه اليهود فى حرب الثلاثين بأوربا ، فقـد أمضى طفولته وشبابه وهـذه الحرب مشتعلة ؛ حيث كان اليهود وقوداً لها ، وساورته نفسه أن يعلن أنه المسيح المنتظر ، فعكف على الصـلاة والصوم ، وأخـذ يطوف البلاد هنا وهناك ، ويدعو لنفسه ويعلن قرب ظهور المسيح المبارك ، ولما حلّت سنة ١٦٦٦ أعلن زيفى أول رسـالة لليهود ، واختار لإعلانها يوماً يمضـيه اليهود فى صـوم وحزن لأنه يرتبط بذكريات أليمـة عندهم ، وفى هـذه الرسالة يقول :

« من أول ابن لله سبتاى زيفى ، المسيح ، مُخلّص شعب اسرائيل ، الى جميع أبناء اسرائيل .... السلام .... لمّا كان قـد قدّر لكم أن تكونوا جديرين برؤية اليوم العظيم وإنجاز وعـد الله الى أبنائه ، فلابُد أن تغيروا أحزانكم فرحاً وصـومكم مرحاً ، لأنكم لنْ تبـكوا بعد الآن ، فاستمتعوا وغنّوا واستبدلوا باليوم الذى كان من قبل يُقضى فى حـزن وآلام ، يوم عيـد ، لأننى ظهرت ... » .

---

(1) Ibid p. 259

وأعلن زيفى أنه سيستعيد فلسطين لليهود ، وسيُعيد مجد صهيون الذى حققه من قبل داود وسليمان ، وقد ذكر لنا Hosmer تفاصيل دقيقة عن سبتاى زيفى وحركته ، فلننقل منه بعض فقرات تصور لنا هذه الحركة الخطيرة ونهايتها ، يقول Hosmer [1] : وُلد سبتاى زيفى سنة ١٦٢٦ م وهو ابن" لتاجر يهودى كان يعمل مديراً لفرع من فروع شركة انجليزية تجارية كبيرة ، وكان سبتاى جذابا هادىء الأخلاق . كما كان شديد الحماسة للفروض الدينية والتقاليد اليهودية ، مما لفت اليه الأنظار ، وعندما بلغ الخامسة والعشرين أعلن أنه المسيح المنتظر ، وسرعان ما صدّقته أفواج من الناس وأصبح له مريدون يزدادون يوماً بعد يوم . وأخذ سبتاى ينتقل بين اليونان وسوريا ومصر . وكان بعض أتباعه المتحمسين له يسبقونه الى حيث ينوى أن يذهب ليهيئوا الجو لحضور . ويجمعوا لاستقباله الجموع ؛ وفى القاهرة كانت هناك فتاة يهودية بولندية نادرة الجمال هربت بما يشبه المعجزة من مذابح القوزاق ، وعندما التقى بها سبتاى افتتن بجمالها وتزوج بها وأعلن أنه منذ القدم كان قد قُضىَ بأن تكون شريكة حياته ، وراح سبتاى فى حماسة ظاهرة ينتقل هنا وهناك ويواصل دعوته ، ولم يستطع الربانيون أن يوقفوا حركته التى أخذت تنتشر فى كل مكان بين اليهود ، حتى أصبح له أتباع فى أمستردام وهامبورج ولندن بالإضافة الى أتباعه بالشرق . وقد بلغ تصديقه مبلغاً عظيما حتى أن بعض أتباعه راحوا يبيعون ممتلكاتهم ويجمعون ثروتهم ويُعدون انفسهم للعودة من المهجر الى فلسطين خلف سبتاى ؛ وفى فارس توقف العمال اليهود عن طاعة ساداتهم ورفضوا أن يستمروا فى فلاحة الأرض ، وبدأ اليهود فى كل مكان وكأنما مسهم طائف من الجنون وأصبحوا عبيداً للأمل الذى جددته دعوة زيفى .

وانتشى زيفى بالنصر الذى حققه ، فراح يُدخل تعديلات جريئة فى

---

(1) James Hosenr : The Jews pp. 216-218.

التقاليد والنظم اليهودية ، فغير وقت الصـوم ومواعيد الأعياد كما جاء فى رسالته التى ذكرناها آنفاً ، ووصـلت به النشوة الى أن تخيل نفسه صاحب سلطان شامل ، فأخـذ يوزع التيجان على إخوته وأصدقائه المقربين ؛ بعد أن عين كلا منهم ملكاً على منطقة من المناطق التى رأى أن سلطانه سيزحف عليها ، واحتفظ لنفسه بلقب « ملك الملوك » .

ووصـل زيفى فى تجواله الى القسطنطينية حيث عاصـمة الخـلافة العثمانية ويلاحظ أن الخليفة المسـلم لم يتعرض له فى المدة السابقة لأنه فيما يبدو لم يُرد أن يواجه الحماس والصخب الذى أحاط باسم سبتاى فى أول أمره ، وهـذا التصرف من الخليفة المسلم شجع سـبتاى الى أن يدخل عاصـمة الخلافة ؛ وهناك ألقى الخليفة القبض عليه ، وأحـكم قيده وألقى به فى قلعة الدردنيل ، واكتفى الخليفة المسلم بذلك فترة نَعِم خلالها سبتاى بالكرم والحفاوة ، وزحف كثير من اليهود الى القسطنطينية ليروا مصـير قائدهم ، ولكن أحـد اليهود الربانيين البولنديين أعلن أن سبتاى كاذب ، وأن حركته تهـدد الأمن والسلام ، وانتهز السلطان محمد الرابع هـذا الخلاف ، فأحضر سبتاى أمامه فى جمع حافل ؛ وأعـدّ بعض الجند المهرة لقتله ، ثم أعلن هـذا السلطان استعداده ليتحول الى اليهودية اذا استطاع سبتاى ابنُ الله ، والمسيح المنقذ كما يدعى ، أن يمنع الرصاص من الانطلاق ، وفى نفس الوقت منح الخليفة فرصـة لسبتاى ليُعلن أنه كاذب مدع ، وأن يدخل الإسلام إن كان يعرف أنه لن يستطيع إيقاف الرصاص من الانطلاق ، وسرعان ما اختار سبتاى السلامة ، وأعلن أنه كاذب ، واعتنق الإسلام أو لم يجـد مناصاً من ذلك ، وسُمِّى محمد أفنـدى ؛ وانتهت بذلك هـذه الزوبعة التى أثارها هـذا المدعى ، ولا يزال اليهود حتى الآن ينتظرون المسـيح (١) .

---

(1) See also : Margolis and Marx : A History of the Jewish People p. 701.

الفِرَق فى اليهودية

تكثر الفِرَق فى اليهودية كثرة بالغـة ، وتختلف هـذه الفرق فى مبادئهـا وأسس حياتها ونظرتها إلى الكون ، وإلى مـا وراء الكون ؛ وسنتكلم هنا عن أهم الفرق فى اليهودية ، شارحين أبرز نقـاط الاتفاق والاختلاف بينهـا :

الفرّيسيون :

كلمة الفرّيسيّين معناها المنعزلون والمنشقون ، فهم بذلك يناظرون إلى حدٍّ ما فريق المعتزلة عند المسلمين ، وقد أَطْلَق عليهم أعداؤهم هذه التسمية ، ولذلك فهم يكرهونهـا ويسمون أنفسهم « الأحبار » أو « الإخوة فى الله » أو « الربانيين » Godly oues [١] .

وهم يعتقدون أن التوراة بأسفارهـا الخمسة خلقت منـذ الأزل ، وكانت مدونة على ألواح مُقدسة ثم أُوحِيَ بهـا الى موسى ، وعلى هذا فتدوينها بعده هو فى الحقيقة إعـادة تدوين ، ويعتقد الفريسيون فى البعث ، وقيامة الأموات ، والملائكة ، والعـالم الآخر ، وأكثرهم يعيشون فى مظهر الزهد والتصوف ، لا يتزوجون ، ويحافظون على وجودهم بطريق التبنى ، ولا يقدّمون القرابين فى المعابد [٢] .

ويرى الفريسيون أن التوراة ليست هى كل الكتب المقدسـة ، التى يُعْتَمَد عليهـا ، وإنما هناك بجانب التوراة روايات شفوية ومجموعة من القواعد والوصايا الشروح والتفاسير ، التى تعتبر توراة شفوية ، وقد تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل ، وربمـا دونوها أحياناً خوفا عليها

---

(١) Guignchert : The Jewish World in the Time of Jesus p. 154.

(٢) Laurance Browne : From Babylon to Bethlehem pp. 84-85.

من الضياع ، وتلك الروايات الشفوية هى التى دونت فيما يسمى التلمود[١] ، ولضمان تقديس اليهود للتلمود ، أعلن الفريسيون أن للحاخامات سلطة علّيا ، وأنهم معصومون وأن أقوالهم صادرة عن الله ، وأن مخافتهم هى مخافة الله ، ومن قولهم فى ذلك : « ويلزم المؤمن أن يعتبر أقوال الحاخامات كالشريعة لأن أقوالهم هى قول الله الحىّ ، فإذا قال الحاخام أن يدك اليمنى هى اليسرى وبالعكس ، فصدّق قوله ولا تجادله ...»[٢] وتبعاً لذلك ليس هناك اجتهاد عند الفريسيين ، وما الحاجة للاجتهاد إذا كان الحاخام مقدساً ومعصوماً ؟ وعنده لكل سؤال جواب[٣] وللفريسيين رأى فى القضاء والقدر ، فهم يرون أن الأفعال يمكن أن تتأثر بالقضاء والقدر ولكنها غير واقعة بهما[٤] .

ويرى بعض الباحثين أن الفريسيين لا يكوّنون فرقة دينية ، وإنما يمكن أن نطلق عليهم حزباً سياسياً له اتجاهاته الدينية ، وهم يعتقدون أن دولة اليهود لابد أن تستعيد مكانتها ، ولذلك كانوا يؤمنون بالمسيح الذى يجىء ليعيد « ملكوت الله »[٥] .

وكان نشاط الفريسيين فكرياً لا ثوريا ، فهم لم يلجأوا قط للحركات العنيفة ، ولكنهم اتجهوا بكل جهدهم إلى تفسير التوراة والتعليق عليها[٦] .

وكان الفرّيسيون يريدون من بنى اسرائيل أن يتمسكوا بالعقيدة القديمة التى كانت لأجدادهم قبل سقوط دولتهم بفلسطين ، وكانوا يعارضون الأنبياء الذين ظهروا فى فترة الأسر وبعده ، ويتمسكون بشريعة الأنبياء الأوّلين ، كما كانوا يتشدّدون فى التنفيذ ، ويتمسكون بالتقاليد .

---

(١) Margolis and Marx : A History of the Jewish People p. 159.

(٢) من نصوص التلمود .

(٣) الباعو بشياصي : شعار الخصوص ص ١ .

(٤) Lauraucе Beowne : From Babylon to Methlehem p. 25.

(٥) Guiguebert The Jewish World in the Time of Jesus p. 167.

(٦) Ibid p. 189.

وكان الفريسيون ينعمون بكثير من السلطة فى بلاط أمراء المكابيين . وكان لهم نفوذ واسع فى المجتمع اليهودى . وقد أدى اتساع هذا النفوذ إلى تخوف السلطات الحاكمة منهم ، وإلى نظرها لتصرفاتهم فى شيء غير قليل من الشك والشبهة . وكان ذلك بدء انشقاق بين السلطات الحاكمة وبينهم .

وفى عهد هركانوس (١٠٥ ق م) اشتد الخلاف بينه وبينهم . فانسحب الفريسيون من تأييد حكومته ، ووضعوا أنفسهم موضع المعارضة . فتخلى عنهم هركانوس وانضم إلى منافسيهم الصدوقيين الذين ظلوا على الولاء للحكومة (١) ، ومنذ حصلت هذه القطيعة اتجه الفرنسيون إلى العودة لفكرة المسيح الذى ينتظره اليهود كما ذكرنا آنفاً ، وقد كان تحول السلطان عنهم نذيراً بتدهور أحوالهم ، هذا بالإضافة إلى أنهم انحرفوا عن سنن أسلافهم ، واستهوتهم الحياة الدنيا ببريقها ، وأقبلوا على الشهوات يستسرون بها ، وهم فى عملهم يراءون الناس استدراجاً ليوقعوهم فى مخالبهم ، ويبتزون أموالهم ، فكان ظهورهم بمظهر الزهد فخاً نصبوه لصيد الدرهم والدينار (٢) .

وقد صورهم كاتبو الأناجيل فى صورة معارضة للمسيح عيسى عليه السلام ، ووضعوهم فى موضع معارض له (٣) .

وتأثرت مكانتهم رويداً رويداً بهذه الأسباب فتخلى عنهم أكثر أتباعهم ، وأصبح الانتساب إليهم عاراً ، على أنه وُجِدَ من بين الباحثين اليهود فى العصر الحديث من يدافع عنهم ليعيد لهم مكانتهم التى نعموا بها فترة من التاريخ ، ومن هؤلاء « هوكسلى » الذى يقول : من غرائب سخريات التاريخ إن لم تكن أغربها ، أن كلمة فريسى أصبحت تدل على العار .

---

(١) Ibid p. 168.

(٢) سليمان مظهر — قصة العقائد ص ٢٦٩ .

(٣) Guignebert The Jewish World in the Time of Jesus p. 165
Guignebert

ويقول « هارفولد » : كانت الفريسية سيئة الحظ فى التاريخ ، إذ قلما وجدت المسيحية فرصة سانحة لمعرفة الفريسيَّة على حقيقتها ، بل قلما حاولت أن تنتهز هذه الفرصة إذا سنحت ، فهل بلغ الدين المسيحى مبلغاً من الضعف ، يلجئه إلى الدفاع عن نفسه بتسويد صفحة أفضل منافسيه ؟ .

ويقول القس « بوكس » : لقد أسس الفريسيون نظام الفردية فى الدين ، ووضعوا طقوساً روحية بحتة ، وتعمقوا فى الاعتقاد فى الآخرة ، ودافعوا عن قضية العلمانية أمام الكهنوت المتطرف ، وجعلوا الكتاب المقدس ملكا مشاعاً للجميع ، وفى اجتماعات الكنيس الأسبوعية كانوا يلقون على الشعب عظات باللغات ، عن حقائق الدين وآماله ، استناداً على نصوص التوراة .. وكافح الفريسيون كفاحاً مستبسلا فى سبيل وضع الحياة تدريجياً تحت سلطة العقائد الدينية ، فتأثرت قلوب الشعب بأوامر الدين ونواهيه بفضل ما بذله الفريسيون من العناية فى سبيل تقويم العادات ، وتطبيق الطقوس الدينية تطبيقاً دقيقاً ، ولكن الظواهر الخارجية كانت دائماً خاضعة للعقائد الكامنة [1] .

الصدّقيون :

يرى بعض الباحثين أن هذه التسمية نسبة إلى صادوق الكاهن الأعظم فى عهد سليمان ، أو إلى كاهن آخر بهذا الاسم وجد فى القرن الثالث قبل الميلاد [2] وينكر Guignebert هذه النسبة لأن حرف الدال مضعَّف فى تسمية الفرقة وليس مضعفاً فى كلمة صادوق ، ثم أن أتباع هذه الفرقة لم يدَّعوا أبداً الارتباط بهذا الكاهن أو ذاك ويرى Guignebert أن هذه التسمية من صنع أعدائهم وأنها من نوع التسمية المضادة

---

(١) من الفكر اليهودى ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) Laurance Browne : From Babylon to Bethlehem p. 85.

لأن الصدوقيين عرفوا بالإنكار فسماهم أعداؤهم « الصدّوقيين » [١] .

وهم ينكرون البعث والحياة الأخرى والحساب والجنة والنـار ويرون أن جزاء الإنسان يتم فى الدنيا ؛ فالعمل الصـالح ينتج الخير والبركة لصاحبه ، والعمل السىء يسبب لصاحبه الأزمات والمتاعب [٢] .

وينكر الصدوقيون كذلك التعاليم الشفوية « التلمود » ، وحتى التوراة لا يرون أنهـا مقدسة قدسية مطلقة ، وينكرون الخلود الفردى . كمـا ينكرون وجود الملائكة والشياطين ، ولا يقولون بالقضـاء والقدر ويؤمنون بحرية الاختيار ، ويرون أن الأفعـال مخلوقة للإنسان لا لله ، وينكرون كذلك المسيح المنتظر ولا يترقّبونه .

ولا يميل الصدوقيون للاشتراك فى الحركات الثورية والآمـال التى تتطلب عنفاً وجهـداً ، ويميلون لاحترام القوانين الموجودة عـلى أى حال ، مـا دامت الديانة اليهودية محترمة بوجه مـا ، فكانوا يكتفون من السلطات الحاكمة بالاعتراف بيهوه ، وبامتيازاتهم الخاصة ، ويرون أن من الحكمة قبول الأمر الواقع .

وينحدر الصدّوقيون من طبقة الارستقراط ببيت المقدس الذين كانوا يمثلون الغنى والدين والسلطة والمكـانة فى المجتمع اليهودى ؛ ولذلك يعدّهم الكتّاب اليهود حزب المحـافظين فى الشـعب اليهودى ؛ ويرى Guignebert أنهم لا يكوّنون طائفـة دينية بقدار مـا يكونون حزباً سياسياً [٣] ، ويسميهم حزبَ المحافظين لعـدم اعترافهم بالتراث الشفوى « التلمود » ولأنهم يرون أن الزيادة فى الاعتقاد أو العبـادة أو التراث بدعة مرفوضة [٤] .

---

(١) The Jewish World in the Time of Jesus p. 162.

(٢) Laurance p. 85.

(٣) The Jewish World in the Time of Jesus pp. 162 - 163.

(٤) Margolis and Marx : A History of the Jewish People p. 159.

ويقال أن عيسى عليه السلام كان على صـلة طيبة بهم ، لأنه هاجم الفرّيسيين وقَبِلَ سلطان قيصر الروم ، على نحو مـا فعل الصدوقيون ، غير أن إنكارهم للبعث والدار الآخرة ... كانت سببا فى الخلاف بينهم وبين المسيح ، وقد حاول عيسى ردّهم إلى الاعتقـاد السليم ، ولكنهم لم يستجيبوا له وقاوموا دعوته أكثر مما قاومها غيرهم [١] .

القراءون :

كان القرّاءون يمثلون القِلّة بين اليهود ، فلما تدهور شأن الفرّيسيين ، نمـا فريق القرائين ووَرِث أتبـاعَ الفريسيين ونفوذَهم .

والقرّاءون لا يعترفون إلا بالعهد القديم كتـاباً مقدساً ، وليست عندهم روايات شـفوية كالتى قيل إن الحاخامات توارثوها الواحد بعد الآخر ، وبالتالى لا يعترف القراءون بالتلمود .

ويقول القراءون بالاجتهاد ، فإذا تبين الخلف خطأ السلف كالخطأ الذى لاحظوه فى المحرمات فى الزواج ، فإن للخلف تصحيح هـذا الخطأ ، ومن هـذه الأخطاء التى لا حظهـا المتأخرون وصححوها ، خطأ تحليل بنت امرأة الأب مع وضوح تحريمهـا بنص الآية الخـامسة من آيات المحـارم [٢] .

الـكتبة :

تطلق هـذه التسمية على مجموعة من اليهود كانت مهنتهم كتـابة الشريعة لمن يطلبها ، فهم أشبه شيء بالنسّاخ ، وعن طريق صلتهم بكتابة الشريعة ، عرفوا بعض المعلومات من الكتب التى نسخوها ، فاتخـذوا

---

(١) Laurance, Passim.

(٢) الياهو بشياصى : شعار الخضر ص ١ — ٧ (مقدمة المترجم) .

الوعظ وظيفة أخرى لهم بجوار كتابة الشريعة ، وكان الوعظ وكتابة الشريعة وسيلتين اصطنعهما الكتبة لتَصيُّد أموال الناس ، وبخاصة عندما عمّ الفساد وانحرف الفريسيون [١] .

وكانوا يسمَّون أحياناً بالحكماء ، وأحياناً السادة « Rabbis » كما كان الواحد منهم يُنادى بلقب « أب » عند المخاطبة ، وقد برز الكتبة كحملةٍ للواء الشريعة عند ما جذب النفوذ السياسى غيرهم من رجال الدين إلى مجاله ، فأصبح رجال الدين حلفاء للحكام الأجانب من فرس وإغريق ورومان وأخلوا المجال الدينى للكتبة ، فاحتلوه .

وجاءت خطوة ثانية رفعت من شأن الكتبة وأعْلت من قدْرهم ، هى أن كل واحد منهم عُنِىَ بإنشاء مدرسة أصبح هو راعياً لها ومعلماً بها ، وكان له مريدون يسمعون تعليماته ويذيعونها ، ومن الناحية النظرية لم يكن يجوز لهذا المعلم أن يتقاضى أجراً من مُريديه ، وإن كانت الناحية النظرية كثيرا ما أهملت ، وحصل الكتبة على ثراء كبير من مريديهم ومن وسائل أخرى [٢] .

المتعصبون :

فرقة أخرى من الفرق اليهودية خصص لها (Guignebert) حديثا . نورد فيما يلى ترجمة أبرز فقراته :

كان فى فلسطين بين الفرق الأخرى فريق وثيق الصلة بالفريسيين . يتفق معهم فى أكثر عقائدهم ، كالقول بالمسيح المنتظر ، وكالحماسة الوطنية والميل للعبادة ، ولكن هذا الفريق امتاز بعدم التسامح ، بل بالعدوانية ضد المواطنين الذين اتُّهموا باللادينية ، أو بقبول الخضوع لغير اليهود ،

---

(١) Margolis and Marx : A History of the Jewish People p. 258.

(٢) Guignebert : The Jewish World in the Time of Jesus pp. 67-68.

وكان من سياسة هذا الفريق ألا ينتظر أتباعه العون من إلههم ، بل يعملوا بأنفسهم ليساعدوا الإله على تحقيق ما يريده لشعبه . وكانوا بذلك يكونون الجناح اليسارى فى فريق الفريسيين . بيد أنهم كانوا فى غاية الحماسة تجاه شغفهم بالحرية ، ولم يعترفوا بأى سلطان عليهم سوى سلطان الله ، وكان الموت عندهم أسهل من طاعة اليهود ، ومن ثم أعلنوا احتقارهم لجماعة الفريسيين الذين قبلوا الأمر الواقع وخضعوا للرومان ، وكانت الحركات الثورية التى قام بها المتعصبون فى مطلع القرن الميلادى الأول سببا فى الحدة بين اليهود وبين الرومان ، مما دفع الرومان إلى أن يضربوا الثائرين ضربات قاصمة ، وأن يذبحوا قادة الثورة ، ولكن إخماد هذه الثورات لم يضع نهاية لحركات المتعصبين ، فهبوا من جديد يدبرون ثورات أخرى ويجمعون لها الجموع ، ولما أحس الرومان بذلك قضوا على السلطة المحلية التى كانوا قد منحوها لليهود ، وحكموا مناطق اليهود بطريق مباشر ، وكان ذلك باعثا لحماسة هذا الفريق ودافعا إلى خلق جو من الاضطراب والقلق فى المناطق اليهودية ، وفى هذا الجو بدأ المتعصبون حركات اغتيال وفوضى ضد الرومان وضد اليهود الذين كانوا يتعاونون مع الحكم الرومانى ، وبلغ من حماستهم أنهم كانوا يرتكبون جرائمهم علناً فى الطرقات ، ويغتالون دون تردد كل من يرون أن القضاء عليه سيحقق لهم هدفهم [1] ، وبهذا أُطْلِق عليهم « السفاكون » Assassins كما لجئوا إلى النهب واللصوصية والفتك ، وأوقعوا بالبوليس الرومانى ألواناً من العنت ، ومن أجل هذا يَعُدُّ الباحثون هذا الفريق ضمن الفرق السياسية ، أو فرق العصابات ، مع أنهم بدءوا حركتهم فى إطار دينى ، ولهدف دينى ، ولكن جرائمهم الكبرى نقلتهم من ميدان إلى ميدان [2] .

---

(١) من أحفادهم قتلة برنادوت وكنيدى .
(٢) The Jewish World in the Time of Jesus pp. 169-170.

البَابُ الرابع

مصَادر الفكر اليهُودى

تقـــديم :

كان التخطيط الأول لهـــذا الكتاب أن يكون به مبحث عن « العهـــد القديم » يناظر المبحث الذى ورد بكتاب « المسيحية » عن « العهد الجديد » ولكن المراجع سرعان مـــا قررت أن « العهد القديم » ليس الكتاب المقدس الوحيد لدى اليهود ، وأن هناك مصـــادر أخرى يلتزم اليهود بتقديسها ولا تقل أهمية عن « العهد القديم » • ومن أجل هـــذا تغير عنوان هـــذا الباب فأصبح « مصادر الفكر اليهودى » حيث سيشمل البحثُ الكلامَ عن أهم المصـــادر التى يضفى اليهودُ عليهـــا القداسةَ ويستمدون منها التوجيه ، وهـــذه المصادر هى :

١ — العهـــد القديم •

٢ — التلمـــود •

٣ — بروتو كولات حكماء صهيون •

وفيما يلى حديث عن كل منها :

العهـــد القـديم

تعريف بالعهـد القديم :

العهد القديم هو التسمية العلمية لأسفار اليهود . وليست التوراة إلا جزءاً من العهد القديم كمـا سيتضح فيما بعد ، وقد تُطلَق « التوراة » على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل ، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى ، لأنه أبرز زعمـاء بنى اسرائيل ، وعنده يبدأ تاريخيهم الحقيقى ، **وكلمة توراة معناها الشريعة أو التعاليم الدينية .**

والعهد القديم مقدس لدى اليهود ولدى المسيحيين . ولكن أسفاره غير متفق عليهـا . فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفاراً لا يقبلها أحبار آخرون . فإذا جئنا إلى المسيحيين وجدنا النسخة الكاثوليكية تزيد سبعة أسفار عن النسخة البروتستانتية .

وتقسَّم أسـفار العهد القديم التى يعترف بهـا البروتستانت ثلاثة أقسـام :

القسم الاول « التوراة » ويشمل أسـفاراً خمسة هى : التكوين — الخروج — اللاويون (الأحبار) — العدد — التثنية ، وتلك هى التى يُطلق عليها أسفار موسى أو يطلق عليها التوراة كما ذكرنا .

القسم الثانى « أسفار الأنبياء » وهى نوعان :

١ — أسفار الأنبياء المتقدمين : وتشـمل الأسفار الآتية : يشوع (يوشع ابن نون) — قضاة — صموئيل الأول — صموئيل الثانى — الملوك الأول — الملوك الثانى .

٢ — أسفار الأنبياء المتأخرين : وتشمل الأسفار الآتية : إشَعْيَا — إرْمِيَا — حزَقيال — هُوشَع — يوئيل — عاموس — عُوبَدْيا — يونان (يونس) — ميخا — ناحوم — حَبَقُّوق — صَفَنْيا — حَجَّى — زكريا — مَلاَخِى .

القسم الثالث « الكتابات » وهـذا القسم يتشعب إلى أنواع ثلاثة :

١ — الكتب العظيمة وتشمل الأسـفار الآتية : المزامير (الزبور) الأمثال (أمثال سليمان) — أيوب .

٢ — المجلات الخمس : — تشمل الأسفار الآتية : نشيد الأناشيد — راعوث — المراثى (مراثى إرميا) — الجامعة — أستير .

٣ — الكتب : ويشمل الأسفار الآتية : دانيال — عَزْرا — نحميا — أخبار الأيام الأول — أخبار الأيام الثانى .

ومجموعة هـذه الأسفار تسع وثلاثون سفراً وهى الأسـفار التى تعتمدها الكنيسة البروتستانتية ، أمـا الكنيسة الكاثوليكية فتضيف سبعة أسفار أخرى هى : طوبيا — يهوديت — الحكمة — يسوع بن سيراخ — باروخ — المكابيين الأول — المكابيين الثانى ، كمـا تجعل أسفار الملوك أربعة وأولها وثانيها يجيئان بدلا من سفرى صموئيل الأول والثانى ، وبعض رجال اللاهوت من اليهود لا يوافقون على ضم سفرى الجامعة ونشـيد الأناشيد لأسفار العهد القديم ، وطائفةُ السامرين [١] لايؤمنون إلا بأسفار موسى الخمسة ، ولا يرون غيرها كتاباً مقدساً ، ويضيف بعض السامرين سفرى يوشع والقضاة لأسفار موسى ويرون فى هـذا الأسفار السـبعة كتابهم المقـدس .

وللمسيحيين الكاثوليك تقسيم آخر لأسفار العهد القديم ، فهم يرون أن الأسفار الستة والأربعين تتدرج تحت خمسة أقسام هى :

١ — أسفار موسى الخمسة التى تتضمن شريعته .

٢ — أسفار تاريخية وعددها ١٦ وهى — يشوع — القضـاة — راعوث — الملوك الأول والثانى والثالث والرابع — أخبار الأيام الأول —

(١) السامريون طـائفة من المتهودين اى الذين دخلوا اليهـودية من غير بنى اسرائيل .

أخبار الأيام الثانى — عزرا — نحميا — طوبيا — أستير — يهوديت — المكابيون الأول والثانى •

٣ — أسفار شعرية — وعددها ستة وهى : أيوب — المزامير — أسفار سليمان الثلاثة : الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد — مراثى إرميا •

٤ — أسفار نبوية وعددها ١٧ وهى : أشعيا — إرميا — باروخ — حزقيال — دانيال — هوشع — يوئيل — عاموس — عُوبَدْيا — يونان — ميخا — ناحوم — حبقّوق — صَفَنَيا — حجَّى — زكريا — ملاخِى •

٥ — أسفار تعليمية وعددها اثنان هما : سفر الحكمة ويسوع بن سيراخ (١) •

وهناك سفران لا يبدو لهما صلة ببنى اسرائيل ، وهما سفر أيوب وسفر يونان ، فأيوب من بنى عيسو وليس من أبناء اسرائيل كما يظهر من نصوصه ، ويونان تفيد عبارته أنه نبى مرسل إلى نينوى لا إلى بنى اسرائيل ، ومحتويات السفرين قريبة من المحتويات التى أشار لها القرآن الكريم •

ومن الأسفار ما هو طويل كثير الإصحاحات كسفر المزامير الذى يصل إلى مائة وخمسين مزموراً ، وإشعيا الذى يحوى ستة وستين إصحاحاً ، وإرميا وهو يتكون من اثنين وخمسين إصحاحاً ، والتكوين وبه خمسون إصحاحاً ، ومنها ما هو قصير كسفر عُوبديا وبه إصحاح واحد ، وحجى وبه إصحاحان ، وصَفَنْيا وحبقّوق وناحوم وكل منها يتكون من ثلاثة إصحاحات •

والعهد القديم على العموم سِجلٌ فيه شعر ونثر ، وحِكم وأمثال ، وقصص وأساطير ، وفلسفة وتشريع ، وغزل ورثاء مع بلاغة أسلوب وفصاحة عبارات فى كثير من الحالات •

---

(١) زكى شنودة : تاريخ الأقباط ص ٩١ — ٩٢

تعريف بالأسفار

بعد هذه الجولة السريعة حول الكتاب المقدس كجملة ، يجدر بنا أن نعرّف بأسفاره مفصلة ، وسنسير على ذلك متتبّعين نظام النسخة البروتستانتية فإذا انتهينا من التعريف بأسفارها ، رحنا نعرّف بالأسفار الزائدة التي أوردتها النسخة الكاثوليكية :

أسفار التوراة :

أول ما يعنينا فى بحثنا أسفار موسى الخمسة ، والسفر الأول الخلْق (Genesis) أو التكوين كما يسمى فى اللغة العربية وسمِّى بهذا الاسم لاشتماله على قصة خلق العالم ، وخلق الإنسان الأول : ويشمل السفر — بالإضافة إلى هذا — قصة الخطيئة التى ارتكبها أبو البشر ،ونزوله إلى الأرض عقاباً له ، ثم حياة أولاده وما جرى بينهم ، فقصة الطوفان ونشأة الشعوب بعده ، وقصة إبراهيم وتجواله ونسله الى اسحق ويعقوب وأولاد يعقوب وبخاصة يوسف ، وما جرى له الى أن أصبح ذا شأن كبير بمصر واستدعى إليه أباه وإخوته ، وبموت يوسف ينتهى هذا السفر •

والسفر الثانى هو سفر الخروج ويسمى باليونانية واللاتينية Exodus أى خروج ، وسُمِّى بذلك لتناوله خروج بنى اسرائيل من مصر ويحوى هذا السفر قصة بنى اسرائيل بعد يوسف ، وما عانوه من الفراعنة ، وظهور موسى وخروجه بهم من مصر ، ويستمر هذا السفر فى قص تاريخ بنى اسرائيل حتى يصل بهم إلى شرق الأردن ، وفى هذا السفر الوصايا العشر التى أعطاها الله لموسى ، وبه كذلك كثير من المسائل التشريعية والتعاليم الدينية الخاصة بيهوه إله بنى اسرائيل ، ومنها وصف خيمة الاجتماع وتابوت العهد ، وما حدث من بنى أسرائيل فى غيبة موسى •

والسفر الثالث اللاويون أو الأحبار ، ويسمى فى اللاتينية (Leviticus)

أى لاويون نسبة إلى أسرة لاوى أو ليفى ، ويحتوى هـذا السفر كثيراً من التشريعات والوصايا والأحكـام ، مثل كفارات الذنوب ، والأطعمة المحرمة ، والأنكحة المحرمة ، ومثل الطقوس والأعياد والنذر والطهـارة ، كمـا يحتوى كثيراً من الأمور المتصـلة بالعادات والأوامر الدينية التى يستحق من اتبعهـا الثواب ومن خالفها العذاب .

والسفر الرابع سفر العَدَد (Numeri) وسُمى بذلك لأنه حافل بالعد والتقسيم لأسباط بنى اسرائيل ، وبه ترتيب لمنازلهم حسب أسباطهم وإحصـاء للذكور منهم ، وبجوار هـذا العدّ ، يحتوى هـذا السفر على سيرة بنى اسرائيل فى بَرِّيَّة سيناء وما بعدها، فهو بذلك استمرار لمـا ورد فى سفر الخروج ، وفيه كثير من التنظيمات والتعاليم الطقسية والكهنوتية والاجتماعية ، والمدنية ، وبه كذلك حديث عن حروب بنى اسرائيل ضـد المَدْينيين ، وفى الإصحـاح الثانى عشر من هـذا السفر ثورة وسُخط يبدوان من هارون ومريم أخوى موسى ضـده ، لأن موسى تزوج امرأة كوشية ، ويقول هارون ومريم فيمـا رواه هذا الاصحاح ، هل كلَّم الربُّ موسى وحده ؟ ألَمْ يكلمنا نحن أيضـاً (١) ؟ ويغضب الرب على هارون ومريم وتصاب مريم بالبرص ، ويعلق الأستاذ محمد عزه دروزة على هذا التذمر بقوله : وهكذا لم يَنْجُ أخو موسى وأخته من خُلق التذمر والحسد والأنانية (٢) . ويحكى الإصحاح السادس عشر قصـة ثورة قادها شخص من اللاويين اسمه قورح ضـد موسى وهارون ، وفى هـذه الثورة صاح قورح قائلا : كفاكما ، إن كل الجمـاعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب . فمـا بالكمـا ترتفعان على جماعة الرب (٣) ، وانضـم إلى قورح ثوار

---

(١) الاصحاح الثانى عشر : الفقرة الثانية .

(٢) تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم . جـ ١ ص ٩٩ .

(٣) الاصحاح السادس عشر الفقرة الثالثة .

آخرون وصاحوا بموسى قائلين : أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا لتميتنا فى البرية حتى تترأس علينا أيضا ترأسا ؟ [١] .

والسفر الخامس سفر التثنية أو تثنية الشريعة ومعناه الإعـادة والتكرار لتثبيت التشريعات والتعاليم،ويسمَّى فى اللاتينية (Deuteronomium) أى الإعادة وفى هـذا السفر عُرِضت الوصـايا العشر عرضاً جديداً ، كمـا أعيد الكلام عن الأطعمـة الحلال والحرام ، وعن نظـام القضاء والمُلْك عند بنى اسرائيل ، وتحدث هـذا السفر عن الكهنة والنبوة ، كما تحدث عن انتخاب يشوع بن نون خلفاً لموسى ، وينتهى السـفر بخبر وفاة موسى ودفنه فى جبال مؤاب .

***

وبعد الحديث عن أسفار موسى الخمسة نتناول بإيجـاز الأسفار الأخرى من العهـد القديم :

يشـوع :

ينسب هـذا السفر إلى يشوع بن نون ، وكان يشتغل فى أول حياته خادما لموسى وكان اسمه آنذاك هوشع فدعاه موسى يشوع ، وكان موسى قد عرف فيه الإخلاص والكفاءة فاستخلفه ، وينص هـذا السفر على أن يشـوع اصطنع مختلف الحيل لينتصر فى حربه ضـد سكان البلاد الأصليين وليدخل فلسطين ، ومن حيلـه التى ذكرها هـذا السفر التجسس ، وقد شغلت الإصحاحات الأولى من هـذا السفر بأخبار التجسس والغزو ، أمـا الإصحاحات الأخيرة منه فتتحدث عن تنظيم البلاد المفتوحة وتوزيعها على الأسباط واستيطانها ، وفى الإصحاح الرابع والعشرين وهو الإصحاح الأخير من هـذا السفر حديث عن موت يشوع ودفنه فى جبل أفرايم ،

---

(١) نفس الاصحاح الفقرة ١٣ .

وحديث كذلك عن عظـام يوسف التى أصعدها بنو اسرائيل من مصر حيث أعيد دفنهـا كمـا يقول الإصحاح فى شكيم« نابلس » .

القضـاة :

كان رؤساء بنى اسرائيل فى الفترة التى تبدأ من يشوع إلى صموئيل يسمون القضـاة ، ومن هنـا اتخذ هـذا السـفر اسمه منسوبا إليهم ، ويتحدث هـذا السفر عن بعض القضـاة العظام مثل عثنائيل وأهـوز وباراق ودبوره وجدعون ويفتـاح وشمشون صاحب القصـة الشهيرة مع دليلة [١] ، كمـا تحدث هـذا السفر عن قضاة صغار لم يكن لهم تأثير يذكر فى حياة بنى اسرائيل ، ويتحدث هـذا السفر كذلك عن شغب بنى اسرائيل على يهوه وعبادتهم آلهـة أخرى من الحجارة والأشجار ، ويبين كيف انتقم الله منهم فسلَّط عليهم أعداءهم وأنزل كثيراً من النوائب بهم . وآل أمر القضاة الى صموئيل ، فلمـا شاخ جعل بنيه قضاة ، ولكنهم أخذوا الرشوة وظلموا فى القضـاة ، فطلب شيوخ بنى اسرائيل من صموئيل أن يعين لهم ملكـا ، ففعل ، وبدأ عهـد المُلك فى بنى اسرائيل .

راعـوث :

لعله كان منالطبيعى أن تَرِد الأسفار التى تحدثت عن الملوك بعد سفر القضاة ، ولكن لمـا كان داود أشهر هؤلاء الملوك ، فقد أورد كاتبو العهد القديم سفر راعوث كتمهيد لأسفار الملوك ، لأن سفر راعوث يبين لنا نسب داود ، واسم السفر مقتبس من اسم امرأة مؤابية ، وخلاصة ما فى هـذا السفر أن مجاعة نزلت ببيت لحم فهاجر منهـا اسرائيلى اسـمه « أليمالك » ومعـه زوجته « نعمْى » وابناه « مَحاون وكِليون » ونزلوا بأرض مؤاب ، وهناك تزوج الابنـان إمرأتين مؤابيتين اسم إحداهمـا

---

(١) اقرأ قصته فى الاصحاح الرابع عشر والسادس عشر .

« عُرفة » واسم الأخرى « راعوث » ثم مات الرجـال الثلاثة وأرادت نعمى العودة إلى بيت لحم فأصرّت راعوث أن تصحبها ، وفى بيت لحم تزوجت راعوث من رجل يهودى اســمه بوعز ، وأعقبت منــه عُوبْيد جــدّ داود •

وفى السِّفْر بالإضافة إلى هــذه القصة وصفٌ للحيــاة القروية ، حيث اتصلت راعوث ببوعز فى مزارعه بالريف • وهــذا السفر من الأسفار التى لقيت عناية كبيرة من الغربيين واهتم به كثير من الأساتذة والقصصين والكتاب والشعراء •

أسفار الملوك الأربعــة :

تشمل هــذه الأسفار مــا أسمته الكنيسة البروتستانتية صموئيل الأول والثانى والملوك الأول والثانى ، وتتحدث هــذه الأسفار عن سيرة شاول أول ملوك بنى اسرائيل ، وأشبوشب ابنه ، وداود ، وأبشالوم بن داود ثائراً فى حياة أبيه ، ثم — بعد أبيه — فى حياة سليمان بن داود ، كمــا تتحدث عن ملوك الدور الثانى بعد انقســام دولة بنى اسرائيل ، وفى هــذه الأسفار حديث فياض عن الخلاف بين شاول وداود ، ثم عن هرب داود ، ثم هزيمة شاول ، وانتقال الأمر إلى داود الذى احتل عاصمة شاول وهى حبرون « الخليل » ، ثم اســتيلاء داود على أورشليم التى أصبحت تسمى مدينة داود ، وفيهــا كذلك حديث اتصــال داود بزوجة أوريا ، وعن الخلافات التى دبت ضــد داود فى أواخر ايامه ، ثم عن سليمان وتغلبه على الأحداث فى مطلع عهده ، وبنائه الهيكل ، وصلته بملكة سبأ ، وقصص حريمه اللاتى استملن قلبه إلى آلهتهن ، ثم حديث عن نهــاية سليمان ، ومــا تلا ذلك من انقسام دولة اليهود إلى مملكتين ، وحروب واسعة النطاق بينهمــا ، أو بين كل من دولتى اليهود من جهة وبين الممالك المجاورة فى الشمال أو الجنوب من جهة أخرى •

اخبار الأيام الأول والثانى :

يلاحظ من يطالع العهد القديم أن سفر أخبار الأيام الثـانى ينتهى بالعبارة الآتية : « وفى السنة الأولى لقورش ملك فارس ، لأجل تكميل كلام الرب بفم إرميا ، نبه الربّ روح قورش ملك فارس ، فأطلق نداء فى كل مملكته وبالكتابة أيضاً ، قائلا : هكذا قال قورش ملك فارس ، إن الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض ، وهو أوصانى أن أبنى له بيتاً فى أورشليم التى فى يهـوذا ، مَنْ منكم من جميع شعبه ليكن إلهـه معه ويصعد » وهذه العبارة نفسها هى التى يبدأ بها — بتغيير طفيف أحياناً — سفر عزرا الذى يتلو سفر أخبار الأيام الثانى ، وقد دعت هـذه المسألة بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن سفرى أخبار الأيام الأول والثانى كانا فى الأصل يكوّنان مع سفر عزرا كتاباً واحداً فى التاريخ •

وسفرا الأخبار يحويان محتويات لا تختلف كثيراً عن المحتويات التى وردت فى أسفار موسى ، وفى أسفار الملوك ، ففى سفر الأخبـار الأول حديث عن آدم وأولاده ، وعن الملوك الذين ملكوا أرض إدوم قبل اسرائيل ، ويبدأ الإصحاح الثانى عـدًّا لبنى إسرائيل من الأجداد إلى الأحفـاد بتفاصيل واسعة حتى عهد داود وسليمان ، وابتداء من الإصحاح العاشر يتكلم السفر عن ملوك بنى اسرائيل بعد الانقسـام حتى السبى ، وعلى العموم فإن هذين السفرين اقتبسا أكثر مـا بهما من مادة من الأسفار التى أوردنا الحديث عنها من قبل •

عزرا ونحميـا :

يُنسب سفر عزرا إلى عزرا الكاهن ، ويبدو أنه عُزَيْر الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، ويقص هـذا السفر قصة عودة بعض المسبيين من بابل إلى أورشليم ، ثم يجىء — فى بعض النسخ — سفر يحمل الاسمين

معا « عزرا — نحميا . » ويلى ذلك سفر نحميا ، ولو تتبعنا الأحداث التاريخية لكان سفر نحميا جديراً بالتقدم على سفر عزرا . لأن نحميا سبق عزرا فى الحضور إلى أورشليم ، ولكن يبدو أن شخصاً واحداً هو الذى ألّف سفر أخبار الأيام بقسميه وكذلك الأسفار المنسوبة لعزرا ونحميا ، وكان ذلك حوالى سنة ٣٠٠ ق م أى بعد عزرا ونحميا بأكثر من قرنين . وذلك على الرغم من ان فى سفر نحميا عبارات كثيرة يتحدث فيها الكاتب عن نفسه متقمصاً شخصية نحميا ، وقد قدّم سفر عزرا لأهمية هذا الكاهن فى التاريخ اليهودى ، ولأنه بعد أن حضر سبق نحميا فى المكانة ، وكان له قصب السبق فى إعادة بناء الهيكل .

وقد تمكّن بذكائه وحسن سياسته من أن يؤثر على ملك الفرس فأذن له بالذهاب إلى أورشليم ، لإعادة أسوارها وبناء أبوابها وتشييد قلاعها ، وقد تمكن نحميا من إعادة بناء السور ، ثم جاء عزرا ومعه ألف وثمانمائة شخص إلى أورشليم ، وكان من بينهم رجال المعبد لإعادة شريعة يهوه ، وأصبح عزرا نائباً عن الملك ، يعين الموظفين ويوقع عليهم العقوبات ، وهكذا قام عزرا بحركة إصلاح دينى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وكانت حركة معززة بالسلطة الحكومية التى كان يمثلها عزرا فى نفس الوقت ، ويحوى السفر قانوناً ، يفرض على الشعب الطاعة العمياء لعزرا ، لأنه يؤيد شريعة موسى ، كما يسرد السفر أعمال الإصلاح الدينية والاجتماعية التى تنسب إليه ، ويعد سفرا أخبار الأيام وسفرا عزرا ونحميا سلسلة متكاملة مستقلة تشمل تاريخ العالم من آدم إلى عزرا ، حتى ليمكن بها الاستغناء عن باقى الأسفار التاريخية مع شىء من الاختصار ، وسفرا عزرا ونحميا هى أقدم الأسفار التى تتحدث عن اليهود بعد النفى .

استير :

سُمِّىَ هذا السفر باسم امرأة يهودية جميلة اسمها أستير ، رآها ملك الفرس واتخذها له زوجة ، وقد استطاعت أن تقرّب بين الملك زوجها

وبين ابن عم لها اسمه مردخاى ، وكان للملك وزير اسمه هامان كان الفرس يسجدون له ويعظمونه ، ولكن مردخاى — اعتماداً على ابنة عمه الملكة — رفض أن يسجد مع الساجدين ، وأخذ هامان لذلك يُدبِّر مؤامرة للقضاء على اليهود ، فاستصدر من الملك قراراً بالتنكيل بهم لأنهم خونة . وعيَّن يوم الثالث عشر من آزار للقضاء عليهم وأعدَّ مشنقة خاصة لمردخاى ، ولكن استير وابن عمها استطاعا أن يرسما خطة يُظهران بها للملك خيانةً ضده يُدبِّرها له هامان وزيره ، فاصدر الملك أمره بقتل هامان وأتباعه ، وقُتل هامان على المشنقة التى كان قد أعدها لمردخاى . وبلغ عدد من قتلهم اليهود فى اليوم الثالث عشر من آزار خمسة وسبعين ألفاً من الفرس ، وصار اليوم التالى « الرابع عشر من آزار » عيداً من أعياد اليهود حتى اليوم ، وليست أستير قصة تاريخية ، وإنما هى أسطورة يرسم بها مؤلفها الطريق للنساء الإسرائيليات أن يتخذن من جمالهن وسيلة لخدمة بنى اسرائيل ، وخدمة أغراضهم .

أيوب :

قلنا فيما سبق إن قصة أيوب الواردة فى العهد القديم فيها عناصر قصة أيوب التى أوردها القرآن الكريم ، ولكن العهد القديم يصوِّر أيوب حائراً بين الرضا والثورة ، فهو أحياناً يرضى بما نزل به ، وأحياناً يثور ويتساءل : لماذا نزل بى كل هذا ؟ فأيوب مؤمن بالله راض بما قسم له ، ولكن كان هناك — على حد تعبير السفر — رهان بين الله وبين الشيطان . ويحاول الشيطان أن يثير التساؤل والسخط فى نفس أيوب ، وينتصر الشيطان أحياناً بعض الانتصار فيصرخ أيوب « اليوم أيضاً شكواى تمردٌ !! ضَرْبتى أثقل من تنهدى ، مَنْ يعطينى أن أجده ، فآجيء الى كرسيه أُحْسِن الدعوى أمامه وأملأ فمى حججاً ، فأعرف الأقوال التى بها يُجِيبُنِي ، وأفهم ما يقوله لى ، أبكثرةِ قوةٍ يخاصمنى .

كلا (١) .... كم لى من الآثام والخطايا ؟ أعلِمْنى ذنبي وخطيئتى . لماذا تحجب وجهك وتحسبنى عدوا لك ؟ أترعب ورقة مندفعة ؟ وتطارد قشاً يابساً ؟ لأنك كتبت علىَّ أموراً مُرَّة ، وورثتنى آثام صباى (٢) .

ويعتبر الدارسون الغربيون سفر أيوب من أمتع الأسفار من الناحية الفلسفية والأدبية ، ويقول عنه كارليل : هو كتاب نبيل . وهو كتاب الناس أجمعين ، وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التى لا آخر لها ، مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معــه على ظهر هذه الأرض (٣) . ويعلق ول ديورانت على مــا قاله كارليل بقوله : إن هــذه المشكلة قامت بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هــذه الدنيا ، ذلك أنه لــا كانت الجنة لا وجود لهــا فى الديانة اليهودية القديمة ، فقد كان من الواجب المحتم أن تنــال الفضيلة ثوابها فى هــذا العالم ، وإلا لم يكن لهــا ثواب على الإطلاق ، ولكنهم كثيراً ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون ، وأن أشد الآلام قد نزلت بخيــار الناس ، فَلِمَ إذاً — كمــا يقول كاتب المزامير — هؤلاء هــم الأشرار يكثرون ثروة (٤) ولِمَ يخفى الله نفســه ولا يعــاقب الأشرار ويثيب الأخيار (٥) .

المزامير :

سمى الســفر بذلك الاسم لأنه يحوى مجموعة من الأغانى تُنْشَد بمصاحبة المزامير . فهــذا السفر يناظر ما يُعرَف فى العربية بالتهاليل والتواشيح والتسابيح ، وبعض المزامير طقوس دينيــة ، وبعضها يتصل

(١) الاصحاح ٢٣ : ١ — ٦ .
(٢) الاصحاح ١٣ — ٢٦ .
(٣) Carlyle Heroes and Hero-Worship p 280.
(٤) المزمور ٧٣ : ١٢ .
(٥) ول ديورانت . قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٦١ .

بالأعياد الإسرائيلية . وأكثر المزامير ترجع لداود . فله وحده ثلاث وسبعون مزموراً ، وبالسفر مزامير أخرى لسليمان ولآساف الذى كان رئيس المغنين فى عهد داود ، وتُنسب بعض المزامير لموسى . وفيما يلى مزمور منسوب إلى داود ، ووضعه فى الكتاب المقدس هكذا :

المزمور الخامس

لإمام المغنين على ذوات النفخ ، مزمور لداود

لكلماتى أصغ يارب : تأمل صراخى استمع لصوتى ودعائى يا ملكى وإلهى لأنى إليك أصلى يارب . بالغداة تسمع صوتى ، بالغداة أوجه صلاتى نحوك وأنتظر .

لأنك لست إلهاً يُسَرُّ بالشر ، ولا يساكنك الشرير ، لا يقف المفتخرون قدام عينيك ، أبغضتَ كل فاعلى الإثم ، رجلُ الدماء والغش يكرهه الرب ، أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك ، أسجد فى هيكل قدسك بخوفك .

يا رب اهدنى إلى برك بسبب أعدائى . سهل قدامى طريقك . لأنه ليس فى أفواههم صدق . جوفهم هُوّة . خلقهم قبر مفتوح . ألسنتهم صقلوها . أَدِنْهُم يا الله . ليسقطوا من مؤامراتهم بكثرة ذنوبهم ، طوّح بهم لأنهم تمردوا عليك .

ويفرح جميع المتكلين عليه . الى الأبد يهتفون وتظللهم . ويبتهج بك محبو اسمك لأنك أنت تبارك الصدّيق يارب . كأنه بترس تحيطه بالرضا .

أسفار سليمان (الأمثال — الجامعة — نشيد الأناشيد) :

تُنسَب هذه الأسفار إلى سليمان ، وليست فى الحقيقة إليه ، فسفرُ الأمثال يحوى مجموعة من الأمثال لا تربط بينها رابطة ، وليس فى

أسلوبها وحـدة أو تناسق ، فالسفر – فيمـا نعتقد – ليس من فعـل شخص واحد ، ولا نتاج عصر واحد ، وإنمـا هو من الآداب الشعبية التى تتناقلها الأجيال وتُدْخِل عليهـا كثيراً من الزيادة والنقصان .

وكما تعدَّدت الأشخاص الذين ألَّفوا هـذه الأمثال ، فإن موضوعاتها متعددة أيضـاً ، فمنها أمثال دينية ، ومنهـا دنيوية ، ومنها أمثال للتحذير والإنذار ومنها ألغـاز وهجاء .

وبعض الأمثال تَرِدْ باسم سليمان كنصائح يوجهها لولده ، وبعضها تنسب لسليمان أيضـاً ولكنها عامة ليست موجهة إلى أحد ، وبعضها تنسب إلى حكماء ، حُدِّدَتْ أسماؤهم أو لَمْ تُحَدَّد ؛ وممن حدِّدت أسماؤهم « أجور بن ياقة » وبعض هؤلاء يوجهون الأمثال نصائح لأولادهم وبعضهم يطلقونها إطلاقاً ، وبعض الأمثـال تتصل بالملك « لموئيل » ، وهى عبارة عن نصائح أمه له لمـا صار ملكاً ، ويختم السفر بمدح للزوجة الصالحة ، فهو يصفها بأنها « تفوق اللآلىء ؛ بهـا يثق قلب زوجها ، فلا يحتـاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتهـا ، تفتح فمها بالحكمة ، وفى لسـانها سنة المعروف ، تراقب طُرْق أهل بيتهـا ، ولا تأكل خبز الكسل ... الحُسْن غِشٌ والجمـال باطل أما المرأة المتقية الرب فهى تُمدَح [1] .

أمـا سفر الجامعة فهو أيضـاً نوع من الشعر الذى يطلق عليـه شعر الحكمة ، وهو قريب الشبه بالإصحاحات الأولى من سفر الأمثال ، حيث يتحدث حكيم له خبرة ومعرفة يسميه السفر « الجامعة » [2] ، وقد يتشاءم أحياناً ويتشكك فيمـا حوله فيتكلم بعبارات الشك والإلحـاد

---

(١) انظر الاصحاح ٣١ .
(٢) الاصحاح : ٢٢ : ٩ .

والزندقة ، مثل « قد يكون بارٌ يَبِيدُ في برِّه ، وقد يكون شرير يطول في شرِّه ، لا تكن باراً وتكن حكيما بزيادة ، لماذا تخربُ نفسك ؟ لماذا تموت في غير وقتك ؟ حسن أن تتمسك بهذا وألا ترْخى يدك عن ذاك ، مُتَّقى الله يخرج منهما كليهما [١] » .

أما سفر نشيد الأناشيد فهو عبارة عن موضوع غرامي أو هو غزل بين يهوه وبين اسرائيل يرتله اليهود حتى اليوم في عيد الفصح . وقد قبِل في الكتاب المقدس لأن فيه اسم سليمان ، والحقيقة أنه ليس له ، فهو أغان شعبية من وضع الشعب . ويرددها الشعب في عصور متعددة ، في مناسبات الزواج والزفاف.

أسفار الأنبياء :

وهي في النسخة الكاثوليكية ستة عشر سفراً ، وتكاد تكون محتويات هذه الأسفار متشابهة ، فهي أحياناً مهاجمة لسلوك بني اسرائيل ولمعبوداتهم التي مالوا إليها دون يهوه ، وهي أحياناً تهديد لهم بالشر نظير سوء سلوكهم ، وبعضها يتنبأ بسقوط دولتهم ، وبعضها يحث على الخضوع للسلطات الخارجية ، وبعضها يتكلم عن المسيح المنتظر ، وهكذا ، وترد الفكرة مع أكثر من نبي أحياناً ، وليست نسبة هذه الأسفار للأنبياء دقيقة ، وليس وضع الأنبياء في هذه الأسفار متسلسلا تاريخياً ؛ فعاموس الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد يجيء بعد إرميا الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد . وسفر عوبديا يصور رؤيا تلقَّى هذا فيها خطاباً من الرب يندد بإبادة كل رجل في جبل عيسو لأن أبناء عيسو جاروا على أبناء يعقوب ، وسفر حبقوق عبارة عن وحي تلقاه هذا النبي ومناجاة لربه ، وفيما يلي فقرات من الإصحاح الأول تشير إلى ما ذكرنا « الوحي رآه حبقوق النبي — حتى متى يارب أدعو وأنت

---

(١) الاصحاح السابع ١٥ — ١٨ .

لا تسمع . أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلص [١] ... » وفى سفر حجّى . مـا يدل على أن « الربّ كلّف حجّى ليكلم حاكم يهوذا وكاهنها الأكبر منددا ببقـاء بيته خرباً ، وبقولهم إنه لم يحن وقت بنائه بينما هم يسكنون فى بيوت مغشاة » [٢] . وقد سبق لنا الحديث عن أكثر هؤلاء الأنبياء وكان ظهورهم فى فترة الانقسام ، فالسبى ، فمـا بعد السبى .

المراثى :

يَرِدُ سفر المراثى بعد سفر إرميـا ومنسوباً له ، وفيه يبكى إرميا حاله يهوذا وأورشليم ، ومـا نزل ببنى اسرائيل من انحرافات . والمصير السيىء الذى آلت له دولتهم ، وممـا جاء فى هذا السفر « ابتلع السيد — ولم يشفق — كلَّ مساكن يعقوب ، نقض بسخطه حصون بنت يهوذا ، نجّس المملكة ورؤساءها ، وأشعل فى يعقوب ناراً ملتهبة تأكل من حولهـا ، مدَّ قوسه كعدو ، نصب يمينه كمبغض ، وقتل كل مشتهيات العين فى خباء بنت صهيون ، سكب — كنـار — غيظه ، صـار السيد كعـدو ابتلع اسرائيل ... » [٣] .

الأسفار الزائدة بالنسخة الكاثوليكية

اعترفت الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٤٦م بأسفار لم تكن معترفاً بها قبل ذلك التاريخ ، أهمها الأسفار السـبعة التى أشرنا لهـا من قبل والتى سنورد عنهـا بعض التفاصيل فيمـا بعد ، ويجدر بنا أن نوضح أن هذه الأسفار وضعت بعد الزمن الذى اتُّفِق على أنه عصر العهـد القديم ، فليس رفضها من بعض الكنائس لأنهـا أقل من سواها ، بل لأنهـا وضعت بعد « عصر العهد القديم » وبعضها كبير الأهمية لأنه يحمل دراسة تاريخية

---

(١) الاصحاح الاول : ١ — ٢ .
(٢) الفقرات الاولى من الاصحاح الاول .
(٣) الاصحاح الثانى ٢ — ٥ .

كسفرى المكابيين ، وبعضها أساطير يهودية كيهوديت التى لا تقل عن أسطورة أستير ، وفيما يلى تعريف بهذه الأسفار :

طوبيا :

أسطورة طوبيا كما وردت فى العهد القديم تتلخص فى أن رجلا اسمه طوبيا كان أسيراً فى نينوى وفقد بصره هناك ، وكان له ابن اسمه طوبيا أيضاً ، وفى مدين كانت هناك امرأة جميلة اسمها سارا ، كان يعشقها عفريت يقتل كل من يتقدم للزواج منها ، حتى قتل سبعة من خطابها ، ثم أرسل الرب رسولا إلى طوبيا الأب أن يزوج ابنه من سارا ، وأعلمه أنه سيقضى على العفريت ، ورحل طوبيا الابن إلى نينوى وتم الزواج ، وفى السفر وصف لحفلة الزفاف وبه كذلك خطب وصلوات ونبوءات .

يهوديت :

تشبه أسطورة يهوديت أسطورة أستير التى تحدثنا عنها من قبل وتتلخص فى أن نبوخذ نصر ملك آشور هاجم اليهود واستولى على المنابع التى تمد مدنهم بالماء ، وبدا أنه سيقضى عليهم ، وأوشكوا على الاستسلام ، لولا أن أرملة يهودية جميلة واسعة الحيلة اسمها يهوديت اتصلت بقائد نبوخذ نصر ، وفتنته بجمالها فأغرم بها واستسلم لها ، وفى إحدى الليالى انتهزت يهوديت فرصة فقده وعيه بسبب كثرة ما شرب من خمر فقطعت رأسه ، ونجت قومها منه .

وليس هذا السفر تاريخياً ، وإنما هو أسطورة تصور آمال بنى اسرائيل ، واتجاه حيلهم .

الحكمة :

ينسب هذا السفر إلى سليمان ، وهو فى الحقيقة ليس له ، ويتجه مؤلف السفر إلى ملوك الأرض والجبابرة بها بألا يغتروا بمكانتهم ، وأن

يراعوا العدالة مع من يحكمون ، فالحكمة لا تأوى إلى جسد المذنب ، كما يتحدث السفر عن أثر الحكمة فى الأحداث التاريخية منذ آدم حتى موسى .

يسوع بن سيراخ :

تنسب ليسوع أمثال كتلك التى تنسب لسليمان ، ويسوع هذا رجل يهودى من أورشليم كثير التجول والترحال ، له أسلوب رائع يصوغ به أفكاره عن الحكمة والرشد ، ويقرر يسوع أن مصدر الحكمة هو الله ، وأن الله يمنحها لبعض أحبائه . وفى السفر تعاليم أخلاقية وصور من السلوك ، وهو ينصح من يريد الكلام أن يستعد له ، ويرى من الحكمة ألا يستثير الإنسان حسوداً ، وألا يعطى الجسد ما يضره .

باروخ :

باروخ تلميذ إرميا ، وقد اختفى معه فى الصحراء هرباً من رجال الدين اليهود الذين كانوا يعبدون بعل ويقدمون له الذبائح ، وسفر باروخ أشتات من الأفكار ، وليست به وحدة متناسقة .

المكابيون الأول والثانى :

يحوى هذان السفران تاريخ المكابيين الذى سبق أن ذكرناه فى الباب الأول ، والسفران يشيدان ببطولة الأسرة المكابية ، وفى الكتابين حديث عن الإسكندر الأكبر وتراثه العقلى الذى عارضه اليهود ، وكانت هذه المعارضة من أسباب الخلاف بينهم وبين السلطة الحاكمة (١) .

دراسات عن العهد القديم

أوردنا فيما سبق تعريفاً بالأسفار ، ملاحظين واقع الأسفار التى بين أيدينا ، ولكن هذا الواقع يختلف مع الحق ، فأكثر الأسفار ألفها

---

(١) دكتور فؤاد حسنين : « التوراة » فى امكنة متعددة .

غير من نُسِبَت إليهم أو قل نُسِبت إلى غير مؤلفيها الحقيقيين ، وتواريخُ تأليفهـا بعيدة عن الدقة ، وبهـا كثير من المتناقضات ، وكتبت لأهداف محددة لا لتصف الواقع ، وغير ذلك من المآخذ . ومن ثم لزم أن نورد بعض الدراسات حول هـذه الأسفار لنضعها فى مكانها الصحيح :

الإسلام والعهد القديم :

يعترف الإسـلام بالتوراة التى أنزلهـا الله على موسى ولا يعترف بسواها من أسفار العهـد القديم ، قال تعالى :

ــ الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتـاب بالحق مصدقاً لمـا بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس (١) .

ــ ومن قبله كتاب موسى (٢) .

وفيمـا عدا ما أنزله الله على موسى فإن الإسلام لا يعترف به فسفر يشوع وسفر القضـاة والملوك ... ليست من الكتب المقدسـة فى نظر الإسلام ، والأنبياء السبعة عشر الذين أوردنا ذكرهم وتكلمنا عن أسفارهم هم أنبياء فى نظر اليهود ولم يتعرض القرآن الكريم لهم ولا لكتبهم بأى ذكر ، وقد سبق أن اوردنا فى الباب السـابق هجوم بعض هؤلاء الأنبياء على بعض ، ورميهم بعضهم بعضاً بالشعوذة والهوس والتظاهر ، لا بتزاز الأموال بغير حق .

ونعود إلى التوراة التى أنزلها الله على موسى فنتسـاءل : أين هى ؟

ويجيبنا القرآن الكريم على هذا التساؤل بأن اليهود أهملوا بعضها فضـاع ، وحرّفوا بعضا على نحو ما أرادوا ، قال تعالى :

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ٢ ــ ٣ .
(٢) سورة هود الآية ١٧ .

— يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به [١] .

— قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل [٢] .

— مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله [٣] .

وفى الذكر الحكيم ما يوضح أن القرآن الكريم حوى الأصول الصحيحة التى جاءت بها الأديان السابقة . قال تعالى :

— شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى [٤] .

— وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه [٥] .

— هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً [٦] .

ويقول المفسرون فى تفسير الآية الأولى من هذه الآيات : **إن الله شرع للمسلمين ديناً يحوى ما جاء به الأنبياء من نوح إلى عيسى** [٧] .

ويقولون فى تفسير الآية الثانية إن القرآن هو الصورة الأخيرة لكتاب الله الواحد ، المتحد الأصل والوجهة ، المساير لحاجات البشر ، حتى إذا كشف للناس عن الحقائق الكبرى التى تقوم عليها أسس الحياة ،

---

(١) سوره المائدة الآيه ١٣ .
(٢) سورة المائدة الآية ٦٨ .
(٣) سورة الجمعة الآية الخامسة .
(٤) سورة الشورى الآية ١٣ .
(٥) سورة المائدة الآية ٤٨ .
(٦) سورة الفتح الآية ٢٨ .
(٧) البيضاوى ص ٤٨٥ .

انقطع الوحى ليتصرف العقل البشرى فى حدود تلك الحقــائق الكبرى .
لا خوف من الزلل ما دام يرعى تلك الحدود ، ومن ثَمَّ فكل الحُكْم يجب
ن يرجع إلى هــذا الكتاب الأخير الذى يتضمن الباقى من شريعة الله كلها
فى كل كتاب ، ويضعها فى الصورة الأخيرة الباقية إلى يوم القيامة (١) .

ويقولون فى تفســير الآية الثالثة : إن الله أرسل محمداً بالإسلام دين التوحيد والحق الخالد ، ليعلو على الأديان والمعتقدات ، بأن يحوى أحسن مــا فيها وأن يضيف إلى ذلك مــا فيه خير الإنسان فى الدنيا والآخرة (٢) .

ويقرر التاريخ أن موسى عليه السلام كتب نسخة التوراة ووضعها مع اللوحين فى التابوت (٣) ، ومرت الأيام . وظهر فى بنى اسرائيل كثير من الفجرة والكفرة حتى جــاء عهد سليمان وفُتح التابوت بعد أن وُضع فى الهيكل ، فلم توجد به نسخة التوراة ، وإنما وجد اللوحان الحجريان فقط ، وقد جاء فى الكتاب المقدس عن ذلك « ... لم يكن فى التابوت إلا لوحــا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الربّ بنى اسرائيل عند خروجهم من أرض مصر (٤) » ، وحدثت بعد سليمان أحــداث دينية عجيبة ذكرناها فيمــا سبق ، وصلت إلى الردة وعبادة الأوثان ، وعبــادة آلهــة الأقوام المجاورين ، وتعرَّض بيت المقدس للسلب والنهب والتدمير عدة مرات ، وبنى مذبح للأصنام فى فنــاء بيت المقدس ، ولم يعد هنــاك ذكر للتوراة ولا صلة بهــا ، وبعد سقوط مملكة اسرائيل ، بقيت مملــكة يهوذا تعانى صوراً من الاضطراب والفوضى ، وكان اتجاهها غالبــاً إلى الزندقة والكفر ، وقبيل سقوطها آل السلطان إلى الملك يوشيا (حوالى ٦٢٩ — ٥٩٨ ق م) ومال هــذا إلى العودة للإيمان واتباع التوراة رجاء أن يكون فى هــذا إنقاذ مملكته من الفوضى والدمار ، وكان يعاصره كاهن اسمه حلقيا انتهز فرصة هــذا الميل فى الملك فادعى — بعد سبعة عشر عاماً

(١) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) أنظر النسفى والقرطبى والكشاف .
(٣) خروج ٢٥ : ٢١ .
(٤) الموك الاول ٨ : ٩ .

من حكم يوشيا — أنه وجد نسخة التوراة فى بيت المقدس ، وأعطاها شافان الكاتب [١] .

ولا يقبل الباحثون ادّعاء حلقيا ، إذ لا يعقل أن توجد نسخة التوراة فى بيت المقدس ولا يراها أحد قبل يوشيا ولا خلال السبعة عشر عاماً الأولى من حكمه ، ويرى الباحثون أن حلقيا انتهز فرصة ميل يوشيا إلى العودة لدين الله والعمل بالتوراة فكتب خلال هذه الأعوام السبعة عشر ما أسماه أسفار التوراة ، وليس ذلك فى الحقيقة إلا من مخترعاته ومما سمعه من أفواه الناس . بقى أن نذكر أن الباحث العلامة ول ديورانت يقرر أنه لم يبق لدينا من شريعة موسى سوى الوصايا العشر [٢] .

كتّاب العهد القديم :

تنسب أسفار العهد القديم إلى هذه الأسماء التى ذكرناها مع كل سفر ، ولكن الحقيقة أن هذه التسمية غير صحيحة ، وأن هؤلاء الذين نسبت لهم الأسفار أو أكثرهم لم يكتبوها أو لم يكتبوا حرفاً منها ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا عند حديثنا عن بعض الأسفار ، وأبنّا أن بعض من نسبت إليهم الأسفار ليس لهم وجود فى التاريخ ، وإنما وضعت قصصهم وضعاً لهدف معين ، وبعض الأسفار ليست فى الحقيقة إلا أساطير وأغنيات شعبية لصقها الكتّاب ببعض الأنبياء أو المتنبئين من اليهود .

وحقيقة القول أن اليهود بعد أن انحرفت اعتقاداتهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى الحقيقية ، لأنها كانت تختلف عما باشروا من طباع وخُلق ، وكتبوا سواها مما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ ومن عقيدة .

ما الدليل على أن هذه الأسفار نسبت إلى غير مؤلفيها ؟

فى الإجابة على هذا السؤال نورد بعض نماذج تؤيد هذه الحقيقة

---

(١) اقرأ « إظهار الحق » للعلامة رحمة الله الهندى ص ٣٢٣ — ٣٣٥
(٢) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٢٧١ .

دون شك . فعن الأسفار التى تنسب إلى موسى الآن ، نقرر أنه لا يوجد من قريب أو من بعيد مـا يفيد أن موسى هو الذى جاء بهـا ، أو أنزلت عليه . بل عـلى العكس من ذلك يوجد مـا يقرر خطأ نسبة هـذه الأسفار إلى موسى ، وفيمـا يلى اقتباسات من هذه الأسفار توضح خطأ هذه النسبة :

— جاء فى سفر التثنية مـا يلى : « فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب ، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم » [١] وليس من المعقول أن يكتب موسى ذلك عن نفســه .

— وجاء فى نفس السفر : « ولم يقم بـَعْدُ نبىٌّ فى بنى اسرائيل مثل موسى [٢] » ومن الواضح أن مثل هـذه العبارة لا تقال إلا بعد موت موسى بزمن ليس بالقصير .

— وجاء فى سفر التكوين مـا يلى : « وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم قبلما مَلَكَ مَلِكٌ لبنى اسرائيل » [٣] .

وهـذه الفقرة تدل على أنهـا كتبت فى عهـد ملوك بنى اسرائيل أو بعده ، وعهد ملوك بنى اسرائيل متأخر عن موسى بعشرات السنين أو مئات السـنين .

ومن هـذا ندرك أن أسفار التوراة ليست من أسفار موسى ، وإنما نسبت له لكثرة ورود اسمه بهـا .

ويقول الباحث ‎James‎ عن سفر الخروج : إن هـذا السفر الذى نقرؤه بين أسفار الكتاب المقدس ، لم يكتَب إلا بعد فترة طويلة من الأحداث الواردة فيه ، وربمـا كانت هذه الأحداث محفوظة جيـلا عن جيل ، إذ كان بعضها ، كمـا لا يزال الحال حتى الآن ضمن التلاوة الدينية التى يرتلها رجال الدين فى المناسبات وبخاصة فى عيد الفصح [٤] .

---

(١) سفر التثنية ٣٤ : ٥ .
(٢) تثنية ٣٤ : ١٥ .
(٣) تكوين ٣٦ : ٣١ .
(٤) God and Man in Early Israel pp. 34-35.

فإذا تركنا أسفار موسى إلى سواها من الأسفار وجدنا نفس النتيجة ، فإن هـذه الأسفار نسبت إلى غير مؤلفيها الحقيقيين ، ويبدو أن المؤلفين كانوا متأخرين جداً عمن نسبت لهم هـذه الأسفار ، وقد قرر الكتاب الغربيون هـذه الحقيقة ، ويرى بعضهم أن سفر يوشع كتبه إرميا ، وبين يوشع وإرميا أكثر من ثمانية قرون تقريباً ، ويرى آخرون أنه تصنيف صموئيل ، ويرى فريق ثالث أنه تصنيف فنيحاس [1] .

وسفر القضاة ينسبه بعض الكتاب الغربيين إلى حزقيال ، وينسبه آخرون إلى عزرا ، وينسبه فريق ثالث إلى فنيحاس ، وبين عزرا وفنيحاس أكثر من تسعة قرون [2] ، وسفر دانيال لا يمكن أن يكون قد كتب فى ذلك الزمن البعيد الذى عاش فيه دانيال ، أى عندما سقطت بابل فى يد الملك الفارسى قورش سنة ٥٣٨ ق م ، بل لابد أن يكون هـذا السفر قد كتب بعد ذلك بثلاثة قرون أو أربعة للأسباب التالية :

١ — يتضمن هـذا السفر كلمات مقدونية ، مع أن اليهود فى زمن الأسر البابلى لم يكونوا قد خالطوا اليونانيين بعد ، ولاصكت أسماعهم اللغة اليونانية .

٢ — فيه وصف للكلدانيين لا يتسنى الإتيان به لكاتب سابق على عصر الإسكندر .

٣ — اقتبس طرفاً من أقوال إرميا وحزقيال وزكريا مع أن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا قد وجدوا إبان الأسر البابلى [3] ، والأسفار المنسوبة إلى سليمان ليست إليه كما سبق أن ذكرنا عند التعريف بالأسفار . ومثل هـذا يقال عن كل الأسفار أو أكثرها ، وقد تعرض لهـذا الموضوع العلامة ول ديورانت وكتب عنه موجزاً يمكن أن نقتبسه ، قال هذا الباحث :

---

(١) انظر هذه الآراء فى اظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندى ص ٦٦ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ٦٨
(٣) انظر محنة التوراة على أيدى اليهود لعصام الدين حفنى ناصف ص ٥٩ — ٦٠ .

كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كُتبت ؟ .

ذلك سؤال كُتِبَ في الإجابة عنه آلاف المجلدات ، ولكن يجب أن نَفْرُغ منه هنا في فقرة واحدة ، فإن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هو سفر التكوين ، وقد كتب بعضه في يهوذا وبعضه في اسرائيل ، ثم تمَّ التوافق بين ما كتب هنا وهناك بعد سقوط دولتى اليهود ، والرأى الغالب أن سفر التثنية من كتابة عزرا ، ويبدو أن أسفار التوراة الخمسة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالى عام ٣٠٠ ق.م ..[١].

الأسر البابلى وأثره على العهد القديم وعلى اليهود :

يقرر Wells أن أسفار العهد القديم جُمعت لأول مرة في بابل وظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد [٢] ، ويربط رأيه ذاك بأهمية الأسر البابلى على اليهود ، فيقرر أن اليهود لم يكونوا قبل الأسْر شعباً متحضراً ولا متحداً ، وربما لم يكن فيهم إلا قِلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة ، ولم يظهر في تاريخيهم قط أن أسفاراً كانت تُقرأ قبل الأسْر ، ولكن الأسر البابلى مَدَّنهم ووحدهم وأبرز حاجة الشعب العبرانى إلى جمع تاريخه ، ورَسْم تقاليده وتنميتها فبدءوا يدوِّنون الأسفار من مصادر مختلفة لهدف واحد هو خدمة مستقبلهم ، فلما عادوا من الأسر ، كانوا شعباً يختلف اختلافاً عظيما عن الشعب الذى خرج ، مما يصدِّق عليه ما يقوله المؤرخون من أن التوراة هى التى صنعت اليهود وليس اليهود هم الذين صنعوا التوراة [٣]

ويذكر Wel's في كتابه Outline of History ما يزيد هذا الموضوع إيضاحاً ، وهاك عبارته : والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة جـ٢ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٢) A Short History of The World p. 89.

(٣) Ibid pp. 90, 94, 96.

الكتاب المقدس ، هى أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً ، وعادوا منها ممدنين ، خرجوا جمهوراً مختلطاً منقسما على نفسه ، لا يربطه وعى ذاتى وطنى ، وعادوا بروح قومية شديدة ، وجنوح إلى الاعتزال ، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة ، وليس هناك ما يدل على تعودهم تلاوة أى كتاب ، وعادوا إلى وطنهم ومعهم شطر كبير من مادة « العهد القديم » وواضح أن اليهود بعد أن تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين ، وبَعُدوا عن السياسة ، وعاشوا فى ذلك الجو الباعث على النشاط الذهنى فى العالم البابلى ، فإن العقل اليهودى ما لبث فى أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الإمام خطوة عظيمة (١) .

ذلك موجز القول عن ظروف تدوين الأسفار ، أما كتّابها فكثيرون ، ويبرز من بين الكتّاب إسم الكاهن عزرا ، مرتبطاً بتدوين التوراة ، ويذكر Hosmer أن عزرا هو الذى — فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد — قاد جماعة من اليهود إلى فلسطين حيث استعاد بها الحياة اليهودية ، وهو الذى أبرز أجزاء كثيرة مما سمى فيما بعد بالعهد القديم ، وقد أكمل الكهنة الذين الذين جاءوا بعد عزرا ما بدأه هذا الكاهن ، وفى عهد المكابيين كانت أجزاء العهد القديم قد وجدت تقريباً ، ولكنها لم تكن وضعت فى نظامها المعروف الآن ، كما أنها لم تكن فى مستوى واحد من حيث الإجلال والتقدير (٢) .

ويروى العلامة رحمة الله الهندى أقوال بعض المؤرخين الغربيين التى تقرر أن توراة موسى ضاعت ، فأوجدها عزرا مرة أخرة بإلهام (٣) . ويبدو أنه بسبب دعوى الإلهام هذه ، وبسبب جهود عزرا فى إعادة بناء الهيكل ، سَمَّى اليهود عزرا « ابن الله » .

---

(١) Outline of History p. 2^0.

(٢) The Jews pp 75-76

(٣) انظر هذه الاقوال فى اظهار الحق ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

على أنه ليس مستبعدا أن تصح نسبة بعض الأسفار المتأخرة إلى من نسبت إليهم ، فبعد العودة من الأسر وبعد عهد عزرا بدأ التدوين ، واتجهت العناية إلى كتابة الأسفار ، فلما جاء عهد تحقيق الأسفار زُجّ بكثير من هذه الكتابات فى العهد القديم . ولا تزال هناك أسفار يرفضها البروتستانت المسيحيون حتى العهد الحاضر ، وهناك أسفار أخرى يرفضها البروتستانت والكاثوليك ويعترف بها اليهود أو يعترفون ببعضها كما سبق القول .

مصادر العهد القديم :

إذا ثبت لنا أن الوحى ليس المصدر الحقيقى لأسفار العهد القديم التى بين أيدينا ، فما المصادر الحقيقية لهذه الأسفار ؟

يبدو من الدراسة الفاحصة أن هذه الأسفار من صنع أجيال متعددة . وأن فترة التدوين بدأت من عهد عزرا واستمرت بعده ، وأن الكهنة كانوا يعتمدون على ما سمعوه وما تلقاه الخلف عن السلف من أخبار وأساطير وأقوال ، وكثيراً ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم أو ما يأملونه على أنه حقيقة واقعة ، أو تاريخ سابق ، وليس ذلك فى الحقيقة إلا تصديقاً للخيال ، وإلا من الوهم الذى يتخذ فى نفس الواهم صورة الحقائق المقررة ، ومن ذلك جاء فى سفر صموئيل من أن داود ذهب ليسترد سلطته عند نهر الفرات (١) .

ومن الواضح أن داود لم يصل بسلطانه إلى الفرات ولم يقرب منه ، وأين نهر الفرات من فلسطين ؟ وليس ذلك إلا وليد الخيال (٢) .

ومن المصادر المهمة للأسفار قرارات المحافل اليهودية ، فعلى مرّ التاريخ كان زعماء اليهود يدفعون بقراراتهم لتصير جزءاً من الأسفار

---

(١) الإصحاح الثامن الفقرة الثالثة .
(٢) محمد عزه دروزة : تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم جـ ٢ ص ١٨٨ .

المقدسة (١) . وعندما اتخذت الأسفار المقدسة وضعها النهائى قبيل الميلاد . لم يتوقف زعماء اليهود عن محاولاتهم تجاه تقديس قراراتهم ، فدفعوا بها إلى التلمود . ثم بعد ذلك إلى بروتوكولات حكماء صهيون ، وليس هذا وذلك بأقل عندهم من العهد القديم قداسة وجلالا .

ويقرر ول ديورانت أن أساطير الجزيرة العربية ، كانت معيناً غزيراً لأسفار العهد القديم ، فمن هذه الأساطير أخذت قصص الخلق والطوفان التى يرجع عهدها فى البلاد إلى ثلاثة آلاف سنة أو نحوها قبل الميلاد . والراجح أن اليهود أخذوها من مصادر سامية وسومرية قديمة ، كانت منتشرة فى جميع بلاد الشرق الأدنى ، ويقول ول ديورانت كذلك إن القصص الشعبية العالمية كانت مصدراً من المصادر التى اقتبس منها كتاب أسفار العهد القديم . فقد كان فى مصر والهند والتبت وبابل وبلاد الفرس واليونان والمكسيك وغيرها من البلاد ، قصص شعبية عن الجنة وما فيها من نعيم ، وما فيها كذلك من الأشجار المحرمة والأفاعى ، وقد سلبت هذه الأشياء الخلود من الناس ونزلت بهم إلى الأرض ، وأكبر الظن أن الحية والتينة كانتا رمزين للشهوات الجنسية ، تلك الشهوات التى تقضى على الطهر والسعادة وتسبب الشرور ، وقد برزت هذه الفكرة فى سفر الجامعة ، ويوضح ول ديورانت أن المرأة اتخذت فى معظم القصص العالمية أداة للشيطان ، ويبرز اسم بوسى فى الأساطير الصينية ، ويقرر القصص الصينى « شيجنك » أن كل الأشياء كانت فى باديء الأمر خاضعة للانسان ، ولكن المرأة ألقت بنا فى ذل الاستعباد ، فشقاؤنا لم يأتنا من السماء بل جاءت به المرأة التى أضاعت الجنس البشرى ، ويضيف ول ديورانت أن قصة الطوفان أيضاً كانت واسعة الانتشار فى الأدب الشعبى ، فلا يكاد يوجد فى الأمم القديمة أمة لم تعرفها ، وقلما وجد جبل فى آسيا لم يرس

---

(١) عبد الرحمن سامى : الصهيونية والماسونية ص ٦١ .

عليه راكب السفينة الذى قدر له أن ينجو من الطوفان [١] .

ويُعد الفكر المصرى أيضاً مصدراً رئيسياً لأسفار العهد القديم . وقد وضح أدولف إرمان Adolf Erman هذا الموضوع فى بحثه القيم الذى تقدم به سنة ١٩٢٤ إلى المجمع العلمى البروسى ، وعنوانه « مصدر مصرى لأمثال سليمان ، وتكلم فى هذا البحث عن مؤلَّف لحكيم مصرى اكتشف حديثاً على أوراق البردى ، وقد وضع هذا الحكيم نصائحه فى ثلاثين باباً وساقها فى صورة نصائح والد لولده . وهو نفس الطريق الذى سلكه حكماء الشرق منذ القدم ، وقد تكررت هذه الحكم بشكل واضح فى سفر الأمثال [٢] . ويلاحظ كثير من الكتاب أن المعانى التى ذكرها اخناتون فى قصيدته عن الشمس تكررت كذلك فى أسفار العهد القديم [٣] .

ومن مصادر العهد القديم الرئيسية الفكر البابلى ، وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية ، تروى كلا من قصتى الخليقة والطوفان ، وهى نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى فلسطين ، ومن ثم فإن نقاد الكتاب المقدس يُحاجُّون بأن اليهود استولوا فى أثناء أسْرهم على تلك الفصول ، وهى قوام للإصحاحات العشر الأولى من سفر التكوين ، ومن المصادر البابلية التى عثر عليها نصوص تُعَدُّ مرجعاً هاماً لقصة شمشون ودليلة وسواها من قصص العهد القديم [٤] كما أن ترانيم التوبة البابلية قد اقتبست فى بعض هذه الأسفار [٥] .

ويقول الأستاذ العقاد عن المأثورات الفارسية فى الفكر اليهودى ما يلى :

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٦٨ : ٣٦٩ .
(٢) انظر . « التوراة » للدكتور فؤاد حسنين ص ٦٨ — ٦٩ .
(٣) محنة التوراة ص ٧٥ .
(٤) Wells : The Outline of History pp. 275, 291.
(٥) محنة التوراة ص ٥٧ .

قصة الخليقة فى العقائد الاسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقه فى الواح بابل . وعقيدة « المخلّص » المنتظر موجودة فى الديانة الفارسية وموجودة فى الديانة الإسرائيلية ••• وكان البابليون يؤمنون بأن الإنسان [illegible] حتى [illegible] ويندمج إلى جنود [illegible] ، فبحث عن [illegible] الفنـــاء (١) .

على أن أهم مصدر اعتمدت عليه أسفار العهد القديم هـــو تشريع « حمورابى » الذى يرجع تاريخه إلى نحو ١٩٠٠ ق ٠ م وقد اكتشف فى سنة ١٩٠٢ م محفوراً على عمود من الصخر الأسود ، وتشريع حمورابى : أقدم تشريع سامى معروف حتى الآن ، وهو يدل على عقلية بلغت شأوا عظيما من الرقى والنضج ، ثم إن هناك شبهاً شديداً بينه وبين القوانين اليهودية ، وهذا الشبه ليس سطحياً ولا عرضياً ، بل يتناول اللحمة والسدى واللب والجوهر ، وحتى اللفظ والتراكيب ، ولـــذا ذهب كثير من العلمـــاء وفى مقدمتهم Jeremias إلى أن القوانين الإسرائيلية فى معظمها مأخوذة مباشرة من تشريع « حمورابى » (٢) ، ومن أبرز مـــا اتضح فى تشريع حمورابى وتحدّر إلى الفكر الاسرائيلى « قانون المشابهة » الذى يـُوجِـد علاقة بين الجريمة والعقوبة ويلزم أن تكون العقوبة مضارعة للجريمة وأن تكون مثلها بقدر الإمكان ، فالعضو الذى يـُحـْدِث الضرر يلـْقى العقـــاب ، فكانت اليد التى تخطىء أو تسرق تعاقب بالقطع ، فإن زلـّت يد الجراح فسببت وفاة المريض أو فقأت عينه ، قطعت يد الطبيب ، وإذا جرى لسان بالغيبة أو النميمة فبتره هو العقـــاب ، وإذا هجم رجل على آخر فأضر ببعض أعضائه ، كان العقاب فى مثل الموضع المصاب ، وكذلك كانت الحال فى البضائع والأمـــوال ، فالسلعة بالسلعة ، والسفينة بالسفينة ، والثور بالثور ، والضأن بالضأن ، وما إلى ذلك •••

---

(١) عباس محمود العقاد : الله ص ١١٧ .

(٢) The Old Testament in the Light of the Ancient East, Passim.

هذه نماذج من تشريع حمورابي . ونجدها في العهد القديم بنفسها أو مع اختلاف يسير ، مما يدل على أن تشريع حمورابي كان مصدراً مهماً من مصادر العهد القديم [1] .

تحريف العهــد القديم :

من الدراسات السابقة اتضح لنا أن الفساد سرعان مـا تطرق لبني اسرائيل بعد موسى ، واتضح لنـا كذلك أن أسفار العهد القديم كتبت متأخرة ، أي في عهد الفســاد والاضطراب ، وأن كتابها ليهود هم الذين أسندت لهم هـذه الأسفار ، وليس الوحي مصـدراً لهـذه الأسفار . والنتيجة الواضحة لكل هـذه المقدمات أن اليهود كتبوا التوراة انعكاساً لأخلاقهم ولآمالهم ، وبنوهـا هدفاً يحققون به مقاصدهم . ومن هنـا ازدحمت الأخطاء في العهد القديم وتوالت ، وقد عُنى كثير من الباحثين بإبراز أخطاء العهد القديم ، وإيضــاح ما به من خلط وتضارب .

والنظرة السريعة للعهـد القديم توحي أن الهدف الأسمى الذي أراده بنو اسرائيل من الكتاب المقدس ، كان تبرئة بني اسرائيل من العيوب ، وتلويث سواهم من الشعوب ، فأحد ابني آدم كان ضـالا وكان الآخر مهتدياً ، ومن المهتدي ينحدر بنى اسرائيل ، وأبناء نوح الذين نجوا من الغرق كانوا ثلاثة ولكن بني اسرائيل يكثرون الهجوم على حام بن نوح ويسخطون عليه لا لشيء إلا أنه أبو الجنس الذي انحدر إلى مصر ومـا

---

(١) هناك نصوص من « تشريع حمورابي » تقارن بما ورد في سفر الخروج ٢١ : ٢٣ — ٣٦ وما ورد في سفر التثنية ١٩ : ٢١ وسـفر اللاويين ٢٤ : ١٧ — ٢٢ .
وانظر « النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السابقة » للدكتور محمد محمود جمعه ص ١٨٦ وما بعدها .

يليها من الجنوب ، وكراهية بنى اسرائيل لمصر قديمة وعريقة ، ويصب سفر التكوين السخط على كنعان بن حام بن نوح [١] لأن الكنعانيين حاربوا العبرانيين ، فلما دوّن هؤلاء العهد القديم ، خصوا الكنعانيين بسخط الله ؛ كأن الله يسخط على من سخطوا عليه ويرضى على من رضوا عنه .

وهكذا كُتبت أسفار العهد القديم باسم الله والله منها برىء ، إنها فى الحقيقة صدى لانفعالات اليهود وأحاسيسهم .

وبهذا السبب وبسبب كثرة الكُتاب الذين اشتركوا فى تدوين العهد القديم ، كثرت الأخطاء فيه ، ويمكننا أن نعطى منها بعض نماذج :

— لم يكن للعدد مدلول دقيق فى أسفار العهد القديم ، فقد ورد فى سفر الخروج أن إقامة بنى اسرائيل فى مصر كانت ٤٣٠ سنة ، وهى فى الحقيقة ٢١٥ سنة وقد اعترف مفسرو العهد القديم بوقوع الخطأ فى هذا الرقم ، وعدد الرجال الذين بلغوا سن العشرين قبيل خروج موسى من مصر كما ورد فى سفر العدد لا يمكن عقلا أن يكون صحيحاً ، فقد كان عدد بنى اسرائيل عند دخولهم مصر سبعين ، ومحال أن يصيروا فى مدى قرنين آلافاً كثيرة أو ملايين . وهكذا .

— ورد فى أسفار التوراة ما يقرر أن الأبناء يؤخذون بذنب الآباء حتى الجيل الثالث والرابع ، وهاك نص العبارة : « مُفْتَقَد" إثم الآباء فى الأبناء وفى أبناء الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع » [٢] ، وفى سفر حزقيال ما يعارض هذا الاتجاه ، فقد جاء به « النفس التى تخطىء هى تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر

---

(١) تكوين ٩ : ٢٥ — ٢٦ .
(٢) خروج ٣٤ : ٢ وتثنية ٥ : ٩ وعدد ١٤ : ١٨ .

عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون » (١) وهذا تناقص واضح •

— تختلف الأحكام اختلافاً واضحاً وصريحاً من سفر إلى آخر . ويبدو ذلك بمقارنة الإصحاح الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من سفر العدد ، بالإصحاح الخامس والأربعين والسادس والأربعين من سفر حزقيال •

— فى سفر أخبار الأيام الثانى وردت الفقرة التالية «••• لأن الرب ذلّل يهوذا بسبب آحاز ملك إسرائيل » (٢) . ولفظ اسرائيل غلط يقيناً لأن آحاز كان ملكاً ليهوذا لا لاسرائيل ، ومثل هذا الخطأ وقع فى الإصحاح الأخير (الاصحاح ٣٦) من هذا السفر فقد ورد به أن نبوخذ نصر عزل يهوياكين وملّك بدله صِدْقِيَّا أخاه (٣) ، والحقيقة أن صِدْقِيَّا كان عم يهوياكين لا أخاه ، ولذلك صحح مترجمو العهد القديم هاتين الكلمتين لتتفق الفكرتان مع الحق والتاريخ •

— تنص الفقرات السابقة على أن نبوخذ نصر أسر يهوياكين إلى بابل ، ولكن الحقيقة التاريخية أنه قتله فى أورشليم وأمر أن تلقى جثته خارج السور ، ومَنَعَ دَفْنَهَا كما ذكر المؤلف اليهودى « يوسيفس » (٤)•

— وقع فى الفقرة الثامنة والعشرين من الزبور الخامس بعد المائة فى النسخة العبرانية العبارة التالية « لم يعصوا كلامه » وفى النسخة اليونانية جاءت هذه العبارة هكذا « وقد عصوا كلامه » وأحدهما خطأ يقيناً وقد اعترف بذلك مفسرو العهد القديم من الغربيين •

هذه نماذج قليلة مما فى العهد القديم من خطأ واضطراب لم تقصد بها الحصر وإنما قصدنا مجرد التمثيل •

---

(١) حزقيال ١٨ : ٢ .
(٢) الاصحاح الثامن والعشرين الفقرة ١٩ .
(٣) الفقرات ٩ — ١١ .
(٤) انظر اظهار الحق للعلامة رحمة الله الهندى ص ١٢٧ .

أهمية العهـد القديم :

يسمى اليهود أنفسهم شعب التوراة ولهـذا يقرر باحثوهم أن أى شخص يفشل فى دراسته للتوراة أو فى التدرب على آدابها ، يجب أن يدفع عن هـذا الفشل احتقاراً وازدراء ينصب عليه من كل بنى اسرائيل ، وعلى العكس من ذلك أولئك الذين برهنوا على مقدرتهم على استيعابها والانتفاع بآدابهـا ودراستها ـ فهؤلاء يكافئون بشرف التقدير والاحترام من المجتمع الإسرائيلى كله ، فإن الإحـاطة بالتوراة هى الجوهرة التى لا تقـدر بثمن ، وهى ثروة بنى اسرائيل ، وإذا فرض أن بنى اسرائيل سلبت أموالهم وأمتعتهم وكل مصـادر ثرواتهم ، وبقيت لهم التـوراة فإنهم الرابحون ، وإن الثراء الذى ذهب لا يقاس بشىء إن قيس بالتوراة ما بقيت لهم ، وفى سبيل المحافظة على التوراة ورعايتها يرخص كل غـال ويهون كل صعب . وإله اسرائيل سيكون خير عون لشـعبه مـا حافظوا على كتابه المقدس ، وكل جهد يبذل من أجل التوراة ويكون نصـيبه الفشل ، فإن باذله لابد أن يكون متأكدا من حسن الثواب من الله . ومع هذا فخدمة التوراة ينبغى ألا تقـدم نظير جزاء ، بل ينبغى أن تكون متعة فى نفسها ، وأن يترك الجزاء يجىء من نفسه من يهوه ومن شعب يهوه . ذلك هو إحساس اليهود تجـاه التوراة وذلك هو مـا يدور بخلدهم عن كتابهم المقدس [1] .

ويقتبس Arthur Hertzberg اقتباسات من الربانيين عن قيمـة التوراة نورد هنا بعضها ، لنظهر إلى أى مدى كانت أهمية التوراة عند بنى اسرائيل ؛ يقول Arthur Hertzberg إن التوراة تضـمن لدارسـها والحيط بهـا أسمى مكانة فى المجتمع الإسرائيلى ، فإن التوراة عند بنى اسرائيل كانت وجودا ثانياً ، كانت دولة شامخة وروحانية رفيعة ، تضاف

---

(١) Guignebert . The Jewish World in the Time of Jesus p. 78 - 79.

أو تغنى عن دولتهم الدنيوية فقد أصبحت التوراة خلال مدة النفى مركزاً التف حوله بنو اسرائيل ، وتبعوا إرشاداته فى السر والعلانية . وإن المثل الذى يقول « اسرائيل والتوراة شىء واحد » ليس مجرد مثل سائر . ولا يستطيع غير بنى اسرائيل أن يدركوا كنهه . فمعنى التوراة فى أهميته الوطنية لا يفهم لغير بنى اسرائيل ، ومحتويات التوراة ليست فقط ديناً أو عقيدة أو أخلاقاً أو تشريعاً أو علماً بل ليست كل هـذه مجتمعة ، إنها شىء أكثر جداً من كل هـذا عند بنى اسرائيل ، إنها حياتهم ودنياهم فى الماضى والحاضر والمستقبل ، والتوراة — فى الفكر الإسرائيلى — الوسيلة والأداة التى خُلِق بهـا العالم ، فبها ولأجلها خَلَق الإله الدنيا . ولذلك فهى أقدم من هـذا العالم ، إنهـا أسمى فكرة . وإنهـا الروح الحية للدنيا كلهـا ، وبدونها ليس للدنيا بقـاء ، ودراسة التوراة أهم عند بنى اسرائيل من بناء معبد ، والإلمام بهـا يضع صاحبه فى مكانة أسمى من الكهنـة ومن الملوك ، ودارسها يضمن لنفسـه النجاح ، وبهـا يسمو الإنسان على كل البشر ، ولو اشتغل بهـا وثنى فإنه يصبح فى مكانة أسمى من مكانة الكاهن ، والفاسق الأثيم إذا حفظها يأخذ مكانة أسمى من رجل الدين الذى يجهلها [1] .

التلمـــود

بين أيدينا مرجع يُعَدّ مصدراً أساسياً عند الحديث عن التلمود ، ذلك هو « الكنز المرصـود فى قواعـد التلمود » ومؤلفـه هو الدكتور « رُوهلنج » الذى كان مدرساً بجامعة براغ ، وقد ترجمه من الفرنسية إلى العربية الدكتور يوسف نصر الله ، ومرجع آخر وثيق الصـلة به وهو « التلمود شريعة اسرائيل » وسنقتبس منهمـا تعريفاً بالتلمود وموجزاً لأعم مبـاحثه .

تعريف بالتلمود :

قلنا عند الحديث عن الفريسيِّين إنهم يرون أن التوراة ليست هى كل الكتب المقدسة وإنمـا هناك بجانبها روايات شفوية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل ... وتلك الروايات هى التى تعرف بالتلمود ، وبعد المسيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى « يوضاس » أن تلعب أيدى الضياع بهذه التعاليم الشفوية وتلك الروايات المتناقلة ، فجمعها فى كتاب سمّاه « المِشْنا » ومعنى كلمة « المشنا » الشريعة المكررة لأن المشنا تكرار لمـا ورد فى توراة موسى ، وليس المشنا إيضاحاً وتفسيراً وتكميلا لهذه الشريعة .

وفى السنين التالية أدخل حاخامات فلسطين وبابل كثيراً من الزيادات على ما دونه « يوضاس » وأتم الربّى يهوذا سنة ٢١٦ م تدوين هـذه الزيادات والروايات الشفوية ، وأصبحت كلمة المشنا تضم كل مـا كتب من عهد يوضـاس إلى عهد الربّى يهوذا .

واستعصت المشنا على بعض القراء ، فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها حواشى كثيرة وشروحا متشعبة ، وسميت هـذه الحواشى وتلك الشروح باسم « جِمارا » .

ومن المشنا والجِمارا يتكوَّن التلمود ، فالتلمود تعليم ديانة اليهود وآدابهم ، والمشنا الذى به زيادات لحاخامات فلسطين يسمى هو وشروحه « تلمود أورشليم » أما المشنا الذى به زيادات لحاخامات بابل فيسمى هو وشروحه « تلمود بابل » • وهـو المتداول بين اليهود والمُراد عند الإطلاق [1] •

ويَعْتَبِر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزّلا ويضـعونه فى منزلة التوراة ، ويروْن أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة ؛ ولكنه أرسل على يده التلمود شفاها ، ولا يقنع بعض اليهود بهـذه المكانة للتلمود ، بل يضـعون هذه الروايات الشفوية فى منزلة أسمى من التوراة ؛ ويرى بعضهم ألا خَلاَص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط ، لأن أقوال علماء التلمود أفضـل مما جاء فى شريعة موسى ؛ ويعدُّون التوراة خبزاً ويرون أن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط ، وأن الأدم هو التلمود ؛ ويُصرِّحون بأن مَنْ يقرأ التوراة بغير المشنا والجمارا فليس له إله •

وتضطرب آراء اليهود أحياناً وهم يضعون التلمود فى تلك المكـانة ، فلا يكتفون بمـا سبق أن أوردناه من أن التلمودمنزل ، بل يعلنون أن التلمود وإن كان أقوال الحاخامات ، فهو أيضـاً فى مكانة التوراة ؛لأن أقوال الحاخامات هى قول الله الحىّ ، وأن الله يستشير الحاخامات عندما توجد مسألة مُعضلة لا يمكن حلهـا فىالسماء [2] ، وإذا خالف أحـد اليهود أقوال الحاخامات يعاقب أشـد العقاب لأن الذى يخالف شريعة موسى خطيئته قد تغفر ، أما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل [3] •

---

(١) الكنز المرصود ص ٢٩ — ٣٠ بتصرف والتلمود شريعة اسرائيل ص ١٠ — ١١ •

(٢) الكنز المرصـود ص ٣٢ — ٣٣ والتلمـود شريعة اسرائيل ص ١١ — ١٢ ..

(٣) الكنز المرصود ص ٨٧ •

من نصوص التلمود

الله فى التلمود :

يروى التلمود أن الله نَدِم لما أنزله باليهود وبالهيكل ، ومما يرويه التلمود على لسان الله قوله : تبًا لى لأنى صرّحت بخراب بيتى وإحراق الهيكل ونهب أولادى .

وليست العصمة من صفات الله فى رأى التلمود ، لأنه غضب مرة على بنى اسرائيل فاستولى عليه الطيش ، فحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية ، ولكنه ندم على ذلك بعد أن هَدَأَ غضبه ، ولم يُنفِّذ قَسَمَه لأنه عرف أنه فَعَلَ فعلاً ضد العدالة .

ويقرر التلمود أن الله هو مصدر الشر كما أنه مصدر الخير ، وأنه أعطى الإنسان طبيعة رديئة وسنّ له شريعة فلم يستطع بطبيعته الرديئة أن يسير على نهجها ، فوقف الإنسان حائراً بين اتجاه الشر فى نفسه ، وبين الشريعة المرسومة إليه ، وعلى هذا فإن داود الملك لم يرتكب خطيئة بقتله أوريا واتصاله بامرأته لأن الله هو السبب فى كل ذلك [1] .

أرواح اليهود :

تتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله ، كما أن الابن جزء من أبيه . ويقول التلمود بالتناسخ ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند ، وأخذه حاخامات اليهود من المجتمع البابلى .

---

(١) التلمود شريعة اسرائيل ص ١٧ — ١٩ .

اليهود والسـلطة :

ينص التلمود على أنه يجب على كل يهودى أن يبذل جهده لمنع تسلط باقى الأمم فى الأرض ، لتصير السلطة لليهود وحدهم ، فإذا لم تكن لهم السلطة عُدُّوا كأنهم فى حياة النفى والأسْر ، ويعيش اليهود فى حرب مع باقى الشعوب حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع وحينئذ يدخل الناس أفواجاً فى دين اليهود ويُقْبَلُون جميعاً ماعدا المسيحيين لأن هؤلاء من نسل الشيطان [١] .

اليهود وغير اليهود فى التلمود :

جاء فى التلمود أن الإسرائيلى مُعْتَبَر عند الله أكثر من الملائكة ، وأن اليهودى جزء من الله ، فإذا ضرب أمىٌّ اسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية ، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان ، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود ، ولليهودى فى الأعياد أن يُطعم الكلب وليس له أن يطعم غير اليهودى ، والشعب المختار هم اليهود فقط ، أمـا باقى الشعوب فهم حيوانات ، ويَرْوى التلمود أنه لما قـدَّم بختنصر ابنته الى زعيم اليهود ليتزوجها ، قال له هذا الزعيم : إنى يهودى ولست من الحيوانات . ويَعْتَبر اليهودُ غيرَ اليهود أعداء لهم ، ولا يجيز التلمود أن يشـفق اليهود على أعدائهم ، ويُلزم التلمود بنى اسرائيل أن يغشُّوا مَنْ سواهم فقد جاء فيه : يلزم أن تكون طاهراً مع الطاهرين ودنساً مع الدنسين . ويمنع التلمود اليهود أن يُحَيُّوا غير اليهود ما لم يخشوا ضررهم ، ويجيز التلمـود استعمال النفاق مع غير اليهود ، ولا يجيز أن يقـدم اليهود صدقة لغير اليهـود [٢] .

---

(١) الكنز المرصود ص ٤٨ — ٤٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٥١ — ٥٥ والتلمود شريعة اسرائيل ص ٢٥ .

اليهــود والتملك :

ترى الأديان السماوية أن الدنيا والمـال والثراء ملك الله ، ولما كان التلمود يقرر أن اليهود أجزاء من الله ، فإن اليهود لذلك يعتبرون أنفسهم مالكين لكل مـا فى الأرض من ثراء بالنيابة عن الإله ، وقد جاء فى وصايا موسى : « لا تسرق مـال القريب » وفسَّر علمـاء التلمود هذه الوصية بجواز أن يسرق اليهودى مال الغريب أى غير اليهودى ، فسَلْبُ ماله ليس مخالفاً للوصايا ، وسار الفكر اليهودى فى التلمود على هـذا النحو فعَدَّ سرقةَ اليهودىِّ مالَ غير اليهودى استرداداً لأموالٍ من سالبيها ، وأجاز علماء التلمود أن يبيع اليهودىُّ شيئاً يملكه غير يهودى ، وللمشترى أن يتخذ الوسائل لوضع يده على مـا اشتراه ، ويساعده كل اليهود ليحصل على حقه ، وجاء فى التلمود نص يشرح هـذه الفكرة شرحاً وافياً وهو : إن مَثَلَ بنى أسرائيل كمثل سيدة فى منزلها ، يحضر لهـا زوجها النقود فتأخذها وتنفقها دون أن تشترك معه فى الشغل والتعب ، فعلى الأمميين أن يعملوا ولليهود أن يأخذوا نتاج هذا العمل .

ومن الوسائل التى يصطنعها اليهود ليستولوا على ثروات العـالم الغش الذى أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود فى حالة البيع أو الشراء ، وقال الحاخام « رشى » : مُصرحٌ لليهودى أن يغش غير اليهودى ويحلفه له أيماناً كاذبة .

ومن الوسائل كذلك عدم رد الأشياء المفقودة ، فقد جاء فى التلمود أن الله لا يغفر ذنباً ليهودى يردُّ للأممى ماله المفقود .

ومن الوسائل كذلك الربا الذى أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود ، فقد جاء فى التلمود : غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا (١).

---

(١) الكنز المرصود ٥٦ و ٦٥ « موجز » والتلمود شريعة اسرائيل ص ٢٢ ومـا بعدها .

اليهود وأرواح غير اليهود :

ليست لأرواح غير اليهود حرمة لدى اليهود ، فقد جاء فى التلمود : محرم على اليهودى أن ينجى [illegible] حفرة يقع فيهـا . بل إذا رأى أحدَ الأمميين يقع فى حفرة لزمه أن يسدها بحجر ، وقال « ميمانود » الشفقة ممنوعة بالنسبة لغير اليهودى . فإذا رأيته واقعاً فى نهر أو مهدداً بخطر فيحرم عليك أيهـا اليهودى أن تنقذه ؛ لأن السكان الذين كانوا فى أرض كنعان وقضت التوراة بقتلهم جميعاً لم يُقتلوا عن آخرهم ، بل هرب بعضهم واختلط بباقى أمم الأرض . ولذلك يلزم قتل غير اليهودى لاحتمال أن يكون من هؤلاء الهـاربين .

وينص التلمود على أن من العدل أن يقتل اليهودى كل أممى لأنه بذلك يقرّب قرباناً إلى الله [1] .

المرأة فى التلمود :

قال موسى لا تشته امرأة قريبك ، فمن يَزْنِ بامرأة قريبه يستحق الموت ، ولا يعتبر التلمود القريبَ إلا اليهودى فقط ، فإتيـان زوجات الأجانب جائز ، واستنتج من ذلك الحاخام (رشى) أن اليهودى لا يخطىء إذا تعدى على عرض الأجنبى لأن كل عقدِ نكاح عند الأجانب فاسد ، لأن المرأة التى لم تكن من بنى إسرائيل هى كبهيمة ، والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها ، وقد أجمع على هـذا الرأى الحاخامات (بشـاى وليفى وجرسون) فلا يرتكب اليهودى محرّماً إذ أتى امرأة مسيحية ، وقال (ميمانود) إن لليهود الحق فى اغتصاب النساء الغير مؤمنات أى الغير يهوديات [2] .

---

(١) الكنز المرصود ص ٦٦ — ٦٧ والتلمود شريعة اسرائيل ص ٤٠—٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٣ والتلمود شريعة اسرائيل ص ٤٤ و ٦٥ .

القسم فى التلمود :

ينص التلمود على أن اليمين التى يقسم بهـا اليهودى فى معاملاته مع باقى الشعوب لا تعتبر يميناً ، إذ كأنه أقسم لحيوان والقسم لحيوان لا يعد يميناً . فإذا اضطر اليهودى أن يحلف لمسيحى له أن يعتبر القسم كأنه لا شىء ، ويجوز لليهودى الحلف زوراً إذا حوّل اليمين لجهة أخرى وبخاصة إذا كانت اليمين إجبارية كأن تكون أمام المحـاكم أو أمام خصم قوى .

وإذا سرق يهودى أجنبياً وكلفت المحكمة اليهودى أن يحلف اليمين حلف زوراً ، ويعيّن التلمود يوماً كل فترة يسمى يوم الغفران العـام ، وفيه يُمحى كل ما ارتكبه اليهود من ذنوب ومن ضمنها الأيمان الزور [١] .

اليهود والمسيح :

يقول التلمود عن المسيح : إن يسوع الناصرى موجود فى لجـات الجحيم بين القار والنار وإن أمه مريم أتت به من العسكرى « باندارا » عن طريق الخطيئة ، وإن الكنـائس النصرانية هى مقـام القاذورات ، والواعظون فيهـا أشبه بالكلاب النابحة ، وإن قتل المسيحى من الأمور المأمور بهـا ، وإن العهد مع المسيحى لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهودى القيام به ، وإنه من الواجب أن يلعن اليهودى ثلاث مرات رؤساء المذهب النصرانى وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة لبنى اسرائيل [٢] .

ويحدد التلمود أنواعاً من الطهر لا يصل لهـا اليهودى إلا باستعمال الذبائح البشرية من المسيحيين . وقد وقعت أحداث تؤكد أن أيدى اليهود تلوثت بدماء المسيحيين لهـذا الغرض عدة مرات [٣] .

---

(١) الـكنز المرصـود ص ٧٤ — ٧٦ والتلمـود شريعـه اسرائيل ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) الـكنز المرصود ص ١٩ .

(٣) انظر نماذج من ذلك فى الكنز المرصود ص ٨٩ ومـا بعدها ونماذج أخرى فى « خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية » للقـائد عبد الله التـل ص ٨٢ — ١٠٥ » .

بروتوكولات حكماء صهيون

لا يزال واضعو هـذه البروتوكولات ووقت وضعها من الأسرار التي لم تكتشف حتى الآن بوجه الدقة . وتدل الظواهر على وجود علاقة زمنية بين هـذه البروتوكولات وبين نهـاية القرن التاسع عشر ، وعلى وجود ارتباط بين هـذه البروتوكولات وبين مؤتمر « بال » الذى عقـد سـنة ١٨٩٧ (١) .

ومرجع هـذا الفهم أن هـذه البروتوكولات عبـارة عن مؤامرة شريرة ضـد البشرية . ويبدو أنهـا كانت رد فعل لمـا عاناه اليهود خلال القرن التاسع عشر من اضطهاد فى أوربا ، وما نزل بهم من جور وتعسف . فتدارسوا فى هـذا المؤتمر — ضمن ما تدارسوه — وسائل الانتقام من البشرية جميعاً التى اعتقد اليهود أنها اشتركت كلها بطريق أو بآخر فى إذلالهم والنيل منهم .

وبروتوكولات معناها محاضر جلسـات . ويسميها بعض الباحثين « قرارات » وتلتقى التسميتان إذ لاحظنا نصوص البروتوكولات ، وأنهـا عبارة عن تقرير وضـعه بعض الباحثين ، وأن هـذا التقرير عرض على المؤتمر فى « بال » بسويسرة ، وأن المؤتمرين أقروه . فالبروتوكولات تقرير بالنسبة لواضعيها ، ومحاضر بالنسبة لعرضها على المؤتمرين فى جلساتهم ، وقرارات بالنسـبة لقبولها وتأييدها .

وكانت هـذه البروتوكولات مودعة فى مخابىء سرية . ولا يعرف محتوياتها إلا الخاصـة من اليهود الذين يعملون على تنفيذ مـا جاء بها بهدوء وحسب تخطيط منظم ، ثم حدث اجتمـاع بين سيدة فرنسية مسيحية

---

(١) يرى بعض الباحثين أن هـذه البروتوكولات كانت القرارات السرية لمؤتمر بال ، أمـا القرارات العلمية فهى التى أعلنت عن ضرورية قيـام دولة لليهود فى فلسطين ، وقد ذكرنا ذلك مفصلا فى دراستنا السابقة .

وبين زعيم صهيوني كبير ، وتمّ هذا الاجتماع في وكر الماسونية بباريس ، ورأت هذه السيدة بطريق الصدفة بعض هذه القرارات ، فذُعِرت من محتوياتها . واستطاعت أن تختلس منها بعضها وتخرج بها من هذا الوكر . وكان ذلك سنة ١٩٠١ ويبدو أن السيدة الفرنسية خافت أن تُتَّهَم بسرقة هذه الوثائق فعملت على أن تذاع هذه الوثائق من مكان قَصِيّ هو روسيا القيصرية . وقد وصلت هذه الوثائق إلى رجل يهمه أمرها هو أليكس نيقولا نيفنتش كبير أعيان روسيا القيصرية . فسلمها إلى صديقه الأستاذ سرجي نيلوس الذى نشرها فى العام التالى (أى سنة ١٩٠٢) باللغة الروسية . وعقب اكتشاف سرقة هذه الوثائق أعلن تيودور هرتزل الذى دعا إلى مؤتمر بال أنه قد سُرِقَ من « قدس الأقداس » بعض الوثائق السرية التى قصد إخفاؤها عن غير أصحابها . وأن ذيوعها قبل الأوان يعرّض اليهود فى العالم للخطر . فلما ظهرت هذه الوثائق مطبوعة عقب ذلك هبَّ اليهودُ فى كل مكان يعلنون أنها مختَلَقة عليهم وينكرون صلتهم بها ، ولكن هذا الإنكار لم يكن ذا قيمة على الإطلاق لأن الأحداث العالمية التى وقعت آنذاك كانت مطابقة لما ورد فى البروتوكولات . ومتمشية مع مصلحة اليهود ، وكان واضحاً أن ذلك ليس مجرد مصادفة .

وننقل فيما يلى ما كتبه الأستاذ محمد خليفة التونسى فى مقدمته لترجمة هذه البروتوكولات عن تطور طبع هذه الوثائق ونشرها [1] :

أعاد نيلوس نشر هذا الكتاب مع مقدمة وتعقيب بقلمه سنه ١٩٠٥ ، ونفدت هذه الطبعة بسرعة غريبة بوسائل خفية ، وتبيّن أن اليهود جمعوا نسخها من الأسواق بكل الوسائل وأحرقوها ، ثم طبعت سنة ١٩١١ فنفدت على هذا النحو ، ولما طبعت سنة ١٩١٧ صادرها الشيوعيون الذين كانوا يومئذ قد استطاعوا تدمير القيصرية وقبضوا على أزمة الحكم فى روسيا ،

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٠ — ١١ .

وكان معظمهم من اليهود الصرحاء أو المستوردين أو من صنائعهم . ثم اختفت البروتوكولات من روسيا حتى الآن .

وكانت قد وصلت نسخة من الطبعة الروسية سنة ١٩٠٥ إلى المتحف البريطاني فى لندن وختمت بخاتمه ، وسجل عليها تاريخ تسلمها (١٠ أغسطس سنة ١٩٠٦) وبقيت مهملة حتى سنة ١٩١٧ . وحينئذ وقعت هذه النسخة فى يد الأستاذ فيكتور مارسدن مراسل جريدة المورننج بوست اللندنية ، فقرأ النسخة ، وقدَّر خطورتها ورأى نبوءة نشرها تنبئوس بالانقلاب الروسى قبل وقوعه باثنى عشر عاماً . فعكف فى المتحف على ترجمتها ، ثم طبعها قبل أن يسافر إلى روسيا لموافاة جريدته بأخبار الانقلاب الشيوعى الذى تم حينذاك ، وأعيد بعد ذلك طبعها عدة مرات كانت آخرها وخامستها سنة ١٩٢١ ومنها النسخة التى ترجمها الأستاذ خليفة للعربية [١] . كما نشرت كذلك بالفرنسية والألمانية والإيطالية وغيرها من اللغات ، وكانت تنفد نسخها فى كل طبعة بطرق غريبة مريبة . وأحجمت دور النشر بعد ذلك عن إعادة طبعها بسبب نفوذ اليهود وسلطانهم على هذه الدور .



وبين يدى الآن نسخة من هذه البروتوكولات . وأريد أن أحللها هنا تحليلا علمياً لا دعاية فيه ولا تعصب :

عدد البروتوكولات أربعة وعشرين ، ولكنها غير دقيقة التأليف . وبها كثير من التكرار ، وقد حاولت أن أقترح عنواناً محدداً لكل منها فلم يتيسر ذلك إذ لم يخصص موضوع لكل منها ، ولعل ذلك هو طبيعة النقاش الذى يستطرد أحياناً ، حتى ليخيل لى أن الوثائق التى بين أيدينا خلاصة محاضر جلسات ، وليست نص تقرير قدم لهذه الجلسات ، ولا نص

---

(١) نشرت بالقاهرة مرتين

محاضر الجلسات ، وربما كان ما استطاعت السيدة الفرنسية الفرار به جزءا من هذه المحاضر ، أو حتى جزءاً غير متسلسل منها .

وهدف هذه البروتوكولات إقامة وحدة عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة يهودية . ومن أجل ذلك يمكن أن نقسم البروتوكولات قسمين كبيرين . يبحث القسم الأول فى موقف اليهود من العالم قبل تحقيق هدفهم . ويبحث القسم الثانى فى مواقف اليهود من العالم بعد أن يصبحوا أصحاب السلطان عليه ، والبروتوكولات العشر الأولى تتبع القسم الأول تقريباً ، أما باقى البروتوكولات فتتبع القسم الثانى ، وسنذكر فيما يلى أهم الملامح لكل من هذين القسمين ، ثم نورد نصوصاً من البروتوكولات :

قبل تكوين الحكومة اليهودية العالمية :

من أهم ما يعنى به اليهود قبل تكوين هذه الحكومة إعداد الشعب اليهودى للسلطان . وتثبيت الاعتقاد بأن اليهود هم شعب الله المختار ، فالناس عند اليهود قسمان : يهود وجوييم أو أمميون [1] أى كفرة وثنيون ، واليهود شعب الله المختار ، وهم أبناء الله وأحباؤه لا يتقبل العبادة إلا منهم ، ونفوسهم مخلوقة من نفس الله وعنصرهم من عنصره ، فهم وحدهم أبناؤه الأطهار ، وقد منحهم الله الصورة البشرية تكريماً لهم ، أما الجوييم فخلقوا من طينة شيطانية ، والهدف من خلقهم خدمة اليهود ، ولم يمنحوا الصورة البشرية إلا بالتبعية لليهود ليسهل التعامل بين الطائفتين إكراماً لليهود ، فاليهود أصلاء فى الإنسانية ، والجوييم أتباع فيها ، وعلى هذا فمن حق اليهود معاملة الأمميين كالبهائم ، والآداب التى يتمسك بها اليهود لا يمكن أن يعاملوا الأمميين بها ، فلهم أن يسرقوهم ويغشوهم ويكذبوا عليهم ويخدعوهم ويغتصبوا أموالهم ويقتلوهم ويهتكوا

---

(١) يسميهم القرآن : أميين كما سيأتى .

أغراضهم . ويرتكبوا معهم كل الموبقات ما أمنوا استتار جرائمهم [وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله على لسانهم « ليس علينا فى الأميين سبيل » [1]] .

وبناء على هذه العقيدة يرى اليهود أن العالم لم يُخلق إلا لهم ومن حقهم وحدهم استعباده وتسخيره ، وليس لغيرهم إلا السمع والطاعة والرضا والقناعة بما يجود به اليهود عليهم .

ويرى اليهود فى هذه المرحلة ضرورة تمزيق الأوطان . والقضاء على القوميات والأديان . وإفساد نظم الحكم فى كل الأقطار بإغراء الملوك وسائر الحكام باضطهاد الشعوب . وإغراء الشعوب بالتمرد على سلطة الحكام ونصوص القانون .

وترسم البروتوكولات لليهود أن يهتموا فى هذه المرحلة بنشر المذاهب المختلفة . وأن يختلف اتجاههم فى مكان عن اتجاههم فى مكان آخر وكذلك فيما يتعلق بالزمان . فهم يعملون على نشر الشيوعية أحياناً والرأسمالية أحياناً ، ويلبسون مسوح الاشتراكيين فى بعض الأحيان ، ويوقفون بذلك الكتل العالمية متصارعة ، وهم يقولون أحياناً بالحرية والمساواة فيثيرون المظلومين فى وجه الظالمين ، ولكنهم سرعان ما يحاربون الحرية والمساواة ، ويعلنون أن الطاعة العمياء والتفاوت بين الناس هما أساس القيم البشرية ، ويحاربون الحرية مؤكدين أنها تحول الغوغاء إلى حيوانات ضارية ، وأن من الضرورى أن تسحق هذه الكلمة ويزول مدلولها تماماً .

وهم فى هذه المرحلة ينشرون الإباحية والفوضوية . ويعملون على تقويض الأسر وصلات الود ، ويدفعون الناس للشهوات والانحلال ، والبعد عن كل القيم الإنسانية .

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٧٥ .

وترسم البروتوكولات لليهود أن يستعملوا ما فى النفس الإنسانية من ضعف . فالمـال والنَّهَم والنساء وسائل يمكن استعمالها مـع الجوييم ليكونوا أداة فى يد اليهود ينفذون بسببها مـا يطلب منهم . **كمـا توصى البروتوكولات أن يضـع اليهود فى المراكز الكبيرة شخصيات مرموقة لها أخطاء لا يعرفها إلا اليهود ، وفى ظل الخوف من إشاعة هـذه الأخطاء ينفذ هؤلاء الأشخاص لليهود مـا يشيرون به .**

وتهتم البروتوكولات بأن يسيطر اليهود فى هـذه المرحلة على الصحافة ودور النشر وجميع وسائل الإعلام ، حتى لا يتسرب للرأى العـام العالمى ألا مـا يريده اليهود .

ويستعمل اليهود المـال وسيلة من أكبر وسائلهم ، ليس للرشـوة فحسب كمـا سبق القول ، بل لإثارة الثورات الداخلية عن طريقه ، فهم يغرون الحاكم بجمع المـال لنفسه ، والظهور بمظهر البذخ والأبهـة التى تناسب جلال الملوك وأمجادهم ، ثم يدفعون الفقير ليثور ضـد الحاكم الذى استحوذ على ثروة البلاد وغلبته الأنانية القاسية .

ويدفع اليهود بالدول للاستعمار ، ويجر الاستعمار إلى التنافس بين هذه الدول ، والتنافس وسيلة هـامة من وسائل الحروب بين الـدول المستعمرة ، فإذا شبت الحروب بين الدول المستعمرة قدم اليهود لهؤلاء ولأولئك القروض والسلاح بشروط سهلة حيناً ومعقدة حينـاً ، وربْح اليهود فى هـذه الصفقات مزدوج ؛ فهم أولا يستنزفون ثروات الدول ويجمعونها لأنفسهم ، وهم ثانيا يسخرون بعض الجوييم لقتـل البعض الآخـر .

وفى المؤسسات والمصانع يعمل اليهود على إفسادها بإشاعة الخلل فى إدارتها والتخريب فى أجهزتها كلمـا أمكنهم ذلك .

ويتشتت اليهود فى كل أقطـار العالم خلال هـذه المرحلة ليختفوا

عن المسرح العالمى حتى لا يتتبع الناس نشاطهم الهدام . هـذا من جهه ، ومن جهة أخرى يتصل اليهود بأقطار مختلفة ويعملون متعاونين بالمـال والعلم والنسـاء ليصلوا إلى القصور . وليكون لهم فى إدارة البلاد شـأن ونفوذ . فاليهود فى فرقتهم متحدون . وفى تشتتهم مجتمعون .

بعد تكوين الحكومة اليهودية العالمية :

إذا تحقق انتصـار اليهود فإن اليهود يقيمون مملكة اسـتبدادية تحكم العـالم كله ويكون مقرها أورشليم ، وحكمها للعـالم يكون بطريق مباشر لو تم سقوط كل حكومات العـالم . كمـا يكون بطريق غير مباشر أى من وراء الحكومات التى لم تسقط بعد . فإذا اكتمل النصر وسقطت كل الحكومات انتقلت العاصمة إلى روما حيث تسـتقر إلى الأبد ويتعاقب على العرش حكام من ذرية داود ، « فالسياسة صـناعة سرية سـامية لا يحسنها إلا نخبة من اليهود درّبوا عليهـا تدريباً تقليدياً . وكشفت لهم أسرارها التى استنبطها حكماء صهيون من تجـارب التاريخ وغيره خلال قرون طويلة ، وهم يتناقلونها فى الخفاء ، وعليها يربون ملوكهم ومن يحيط بهم من المستشارين [١] » .

ويسوس اليهود الناس بالرشوة حيناً وبالعنف والإرهاب حيناً . فمن خضع للمـال والنساء والمناصب وأسلس القيـاد بذلك ، قدّم له هذا الدواء أو الداء ، ومن لم يخضع لذلك استعمل معه العنف ؛ فالجوييم كقطعان البهائم أو الوحوش يخضعهم الإرهاب والإذلال فيصبحون كقطع الشطرنج تتصرف فيها أصابع اليهود حسبما تشاء هـذه الأصابع .

وفيما يلى اقتباسات قصيرة من هذه البروتوكولات :

---

(١) انظر صبرى ابو المجد : نهاية اسرائيل ص ١٤ .

نماذج من البروتوكولات

[قبل قيام الحكومة اليهودية العالمية]

من البروتوكول الأول :

— يجب أن يلاحظ أن ذوى الطباع الفاسدة من الناس أكثر عددا من ذوى الطباع النبيلة ، وإذن فخير النتائج فى حكم العالم ما ينتزع بالحكم والإرهاب ، لا بالمناقشات الأكاديمية .

— إن الحرية السياسية ليست حقيقة بل فكرة . ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية ، فيتخذها طعماً لجذب العامة إلى صفه إذا كان قد قرر أن ينتزع سلطة منافس له ، وتكون المشكلة يسيرة إذا كان هذا المنافس موبوءاً بالأفكار التى تسمى تحررية فيتخلى عن بعض سلطته بسهولة .

— إن الجمهور غر غبى ، ومن ارتفعوا من بينه ينغمسون فى خلافات تعوق كل إمكان للالتقاء ، وكل قرار للجمهور يصدر عن جهل بالأسرار السياسية ويقود للفوضى ، وإذا نال الرعاع الحرية مسخوها فوضى واضطراباً .

— إن السيادة لا تتفق مع الأخلاق فى شىء ، والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسى بارع ، وهو غير راسخ على عرشه .

— إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا — ونحن نضع خططنا — ألا نلتفت إلى ما هو أخلاقى وما هو خير ، بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضرورى ومفيد .

— عندما تضطرب قوى المجتمع ستكون قوتنا أشد من أى قوة أخرى ، لأنها ستكون مستورة حتى اللحظة التى تبلغ فيها مبلغاً لا تستطيع معه أن تنسفها أية خطة ماكرة .

— إن مما يحقق السعادة أن تكون الحكومة فى قبضة شخص واحد مسئول . وبغير الاستبداد لا يمكن أن تكون حضارة .

— فى السياسة يجب أن نعلم كيف نصادر الأموال بلا أدنى تردد إذا كان هذا العمل يمكننا من السيادة والقوة ، وإن دولتنا — فى سبيل الفتوح السامية — لها الحق أن تستبدل بأهوال الحرب أحكام الإعدام . والإعدام ضرورة تولد الطاعة العمياء . فالعنف وحده هو العامل الرئيسى فى قوة الدولة .

— كنا قديماً أول من صاح فى الناس « الحرية — المساواة — الإخاء » وهى كلمات ما انفكت ترددها ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر . وقد حرمت — بترديدها — العالم من نجاحه .

من البروتوكول الثانى :

— ان نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل ، وإن الأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم لدى غير اليهود سيكون واضحاً . ولكن ينبغى أن ندرس ونعى ما يلائم منها أخلاق الأمم وميولها .

— الصحافة هى القوة العظيمة التى نستطيع بها توجيه الناس ؛ فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور ، وتعلن شكاوى الشاكين ، وتولد الضجيج بين الغوغاء ، وقد سقطت الصحافة فى أيدينا ، ومن خلالها أحرزنا النفوذ وكدسنا الذهب دون أن نظهر للعيان .

من البروتوكول الثالث :

— إن موازين المجتمع وتقاليده القائمة ستنهار سريعاً ، لأننا على الدوام نُفْقِدها توازنها ، كى نبليها بسرعة ونمحق كفايتها .

— إن الناس مستعبدون للفقر أكثر ممـا كانوا مستعبدين لقوانين رق الأرض ، فمن الرق كانوا يستطيعون أن يحرروا أنفسـهم بطريق أو بآخر ، ولكن لا شيء يحررهم من طغيان الفقر الذى فرضناه عليهم .

إننا نقصد أن نظهر كمـا لو كنا المحرِّرين للعمـال ، جئنا لنحررهم من هذا الظلم حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين الشيوعيين ، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طبقاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية

— إن فائدتنا نحن فى ذبول الأمميين وضعفهم ، وقوتنا تكمن فى أن يبقى العـامل فى فقر ومرض دائمين ، لأننا بذلك نستبقيه عبداً لإرادتنا إذ لن يجد قوة ولا عزماً للوقوف ضدنا .

حينما نستحوذ على السلطة يجب أن نمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية ، باعتبار أنها رمز القوة الوحشية الذى يمسخ الشعب حيوانات متعطشة للدماء .

من البروتوكول الخامس :

— كان الناس ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الآلهة . فكانوا يخضعون فى هدوء لاستبداد ملوكهم ، ثم أوحينا إلى العـامة بحقوقهم الذاتية وببشرية الملوك ، فانساق العـامة خلفنا وسقطت المسحة المقدسة عن رؤوس الملوك ، وانقلبت السلطة إلى رجل الشـارع ، فاختطفنا منه هـذه السلطة دون أن يعى .

— لقد بذرنا الخلاف بين الأفراد كمـا بذرناه بين الأمم ، ونشرنا التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً ، فلم يعد من الممكن أن يلتقى الأفراد . ولا أن تلتقى الأمم .

— إن علم الاقتصاد السياسي الذي محصه علماؤنا الفطاحل قد برهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج ، ويجب أن نحصل على احتكار مطلق للصناعة والتجارة وأن نحصل من التجار على أكبر ربح ليظلم التجار الجماهير ويثيروهم على الحكومات •

من البروتوكول السادس :

بعد القضاء على أرستقراطية الأمميين كقوة سياسية ينبغي أن نقضي على الأرستقراطيين من ملاك الأرض ، فهؤلاء خطر علينا لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم ، ومن وسائل القضاء عليهم فرض الأجور والضرائب حتى تنهار مواردهم فيبدءون في بيع أراضيهم لأنهم بما تعودوه من ترف لا يستطيعون القناعة بالقليل •

— كي نخرب صناعة الأمميين سنزيد أجور العمال . ولكننا في الوقت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية فنسترد زيادة الأجور . ونعرض الصناعة للخراب ، والعمال للفوضى •

من البروتوكول الثامن :

— ملء المناصب الكبيرة باليهود في هذه المرحلة غير مأمون ، ولذلك توصي البروتوكولات بأن يُعْهَد بهذه المناصب الخطيرة إلى الناس الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم ، كي تقف مخازيهم فاصلا بين الأمة وبينهم ، كذلك يوضع في هذه المناصب الناس الذين إذا عصوا الأوامر توقعوا المحاكمة والسجن ، والغرض من كل هذا أن هؤلاء سيدافعون بحماس عن المصالح اليهودية التي وضعتهم في هذه المناصب وعرفت زلاتهم •

من البروتوكول التاسع [1] :

— لقد أصبحنا المشرِّعين من خلف الستار ، فنستطيع أن نقضى بإعدام من نشاء ، كما نستطيع العفو عمن نشاء .

— نحن نسخِّر فى خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب ، من رجال يرغبون فى إعادة إنشاء الملكيات ، واشتراكيين ، وشيوعيين ، وحالمين بالمملكة الفاضلة . لقد وضعناهم جميعاً تحت السرج ، وكل منهم بطريقته الخاصة يحارب القوانين القائمة ، ويقوِّض النظم الحكومية ببلده . وسنرث فى النهاية كل هذه الحكومات .

— لقد خدعنا الجيل الناشىء من الأمميين ، وجعلناه فاسداً متعفناً بما علَّمناه من مبادىء ونظريات ، معروفٌ لدينا زيفها التام .

البروتوكول العاشر :

— إذا أوحينا إلى عقل كل فرد أهميته الذاتية ، فسوف ندمر الحياة الأسْريَّة بين الأمميين وأهميتها التربوية .

— إذا استطعنا أن نصل إلى إقامة عصر جمهورى فسيمكننا أن نضع بدل الملك المقدس ناطوراً فى شخص رئيس لهذه الجمهورية ، ونختاره من الدهماء من بين مخلوقاتنا وعبيدنا وأمثال هؤلاء يختارون ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيحة أو صفة أخرى مشينة ، وإن رئيساً من هذا النوع سيكون منفِّذاً لأغراضنا لأنه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذى يتملك دائماً الرجل الذى وصل إلى السلطة والذى يتلهف على أن يستبقى امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع .

---

(١) من تعليقات المترجم على هذا البروتوكول ان اليهود يدخلون فى الاديان الاخرى فى الظاهر . ويمضى جيلان وهم ينتقلون من مكان الى مكان : ويظهر احفادهم دون ان يعرف احد صلتهم باليهودية ، ويؤلفون الجمعيات او ينضمون اليها ، وفى ظروف كثيرة يخدمون اليهود دون ان يتهمهم احد (انظر ص ٩٦)

[بعد قيـام الحكومة اليهودية العالمية]

من البروتوكول الحادى عشر :

— من رحمة الله أن شعبه المختـار مشتت . هـذا التشتت الذى يبدو ضعفاً فينا أمام العـالم ، قد ثبت أنه كل قوتنا التى وصلت بنـا إلى عتبة السلطة العالمية .

من البروتوكول الثانى عشر :

— كان دور الصحافة تهييج الغوغاء وإثارة المجادلات الحزبية التى كانت ضرورية لمقـاصدنا ، ولكن بعد انتصارنا يتغير كل شىء : فسنقود الصحف بلجم حازمة . ونسيطر على شركات النشر ، ونصـادر الصحف والكتب التى لا تتمشى مع أغراضنا ، ونفرض على النشر ضرائب باهظة ونعطل الصحف التى تكرر نقدها لنـا . وسندس بين النشرات الهجومية نشرات من عملنا نحن ، ولكنهـا لن تهاجم إلا النقط التى نعتزم تغييرها فى سياستنا ، وسنسيطر على وكالات الأنباء بحيث لا يصل للمجتمع خبر دون أن يمر على إدارتنا .

— سنلهى الجماهير بأنواع شتى من الملاهى والألعاب لملء الفراغ ، وسندعو الناس للدخول فى مباريات شتى فى كل أنواع المشروعات كالفن والرياضة ومـا إليها .

وحينمـا نمكّن لأنفسنا ونكون سـادة الأرض لن نسمح بقيـام أى دين غير ديننـا ، وسنكون قد حطمنا كل عقـائد الأديان الأخرى ، وسيفضح فلاسفتنا كل مساوىء الديانات الأممية .

من البروتوكول السابع عشر :

سنغير الجامعات ونعيد إنشاءها حسب خططنا الخاصة ، وسيكون مديروها وأساتذتها قد أُعِدّوا إعداداً خاصاً ، وسيلته برنامج سرى متقن ، سيهذّبون ويشكّلون بحسبه . ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب . وسيرشّحون بعناية بالغة ، وسيكونون معتمدين كل الاعتماد على الحكومة . ولن يسمح للجامعات أن تخرج للعالم فتياناً خضر الشباب ذوى أفكار عن الإصلاحات الدستورية الجديدة . أو ذوى اهتمام بالمسائل السياسية على الإطلاق ، كما سنمحو كل أنواع التعليم الخاص .

من البروتوكول الثامن عشر :

— سنحدّ نطاق عمل مهنة المحاماة ، وسنضع المحامين على قدم المساواة مع الموظفين المنفّذين ، والمحامون — كالقضاة — لن يكون لهم الحق فى أن يقابلوا عملاءهم وستعيّنهم المحكمة ، وسيكون أجرهم محدوداً سواء كان الدفاع ناجحاً أو غير ناجح .

— وسنحط من كرامة رجال الدين الأمميين لننجح فى الإضرار برسالتهم ، ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية انهياراً تاماً . وستتبعها فى الانهيار باقى الأديان ، ويصير مَلِك اسرائيل (بَابَا) للعالم :

من البروتوكول التاسع عشر :

— إن أية ثورة ضدنا ينبغى أن تصير كنباح كلب على فيل ، فليس على الفيل إلا أن يقوم بِمَثَلٍ واحد متقن من التدمير حتى تكف الكلاب عن النباح ، وتشرع فى البصبصة بأذنابها عندما ترى الفيل ، ولكى ننزع

عن المجرم السياسى تاج شـــجاعته سنضعه فى مراتب المجرمين الآخرين بحيث يستوى مع اللصوص والقتلة والأنواع الأخرى من الأشرار المنبوذين المكروهين •

مباحث البروتوكولات الباقية :

تهتم البروتوكولات الباقية بشرح البرنامج المـــالى للدولة اليهودية العـــالمية ، ونظام الضرائب الذى ستتبعه ، والعملة والقروض والبورصة والسندات . ومعالجة البطالة والأسلوب الذى يربـّى عليـــه الملوك من أحفاد داود ليبقى ملكهم مـــا بقى الزمن •



هـــذه صورة سريعة لهـــذه البروتوكولات . ومنهـــا يبدو ما بـــا من خطر على الأفراد وعلى الشعوب والمدنيات •

والذى يقرا عذه البروتوكولات بدقة يدرك أن كثيرا من الحكومات الديكتاتورية بالشرق تتبنـّى مبادئها ، وتنفـّذ توجيهاتها •

الباب الخامس

من صور التشريع في اليهودية

موسى والتشريع :

ينسب إلى موسى عليه السلام أنه أول من رسم لليهود السلطة التشريعيه . ويذكر Hosmer أن موسى وضع أسس التشريع فى التوراة . فأصبحت المرجع القانوني . كما أصبحت حجر الأساس لبناء الدولة اليهوديه . ويذكر Wecch ان موسى كان قائداً لبنى اسرائيل . وكان بجانب ذلك مرشداً ومشرعاً لهم . وقد سبق أن اقتبسنا ذلك . كما تحدثنا عن التوراة التى تنسب الى موسى وقررنا ان الاسفار الخمسة المسماة بالتوراة والموجودة الآن ليست مما أوحِيَ إلى موسى . وليست من كتابته أو إملائه . بل هى من تأليف كُتَّاب متأخرين . وأن الوصايا العشر أو بعضها هى ما تبقى لنا من توراة موسى . وما عدا هذه الوصايا من تشريعات فهو من صنع الكهنة والرهبان من اللاويين أبناء ليفى الذين كان لهم الحق فى وضع الأحكام للأمة العبرية [1] ، ولم يكن أحد غير هؤلاء يستطيع أن يقرِّب القرابين بالطريقة الصحيحة أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية تفسيراً آمناً من الخطأ [2] . وهكذا وضع الكهنة والرهبان هذه التشريعات يقرِّرون بها حقوقاً لأنفسهم وتقاليد لقومهم ، وقد آن لنا أن نقتبس الوصايا العشر ثم نتبعها بحديث عن التشريع الذى وضعه الكهنة والرهبان :

الوصايا العشر :

من مطالعة أسفار موسى الخمسه يتضح لنا أن الوصايا العشر وردت فى صيغتين ، إحداهما أكثر اتصالا بالدين والعقيدة . وقد جاءت فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج ، والأخرى أكثر اتصالا بالعادات والتشريع ، وقد وردت فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وفى الإصحاح الخامس من سفر التثنية ، وهناك فى الصيغتين توافقٌ فى

---

(١) محمد صبرى : المقارنات والمقابلات ص ٢ ٣ .
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٦ .

بعض الوصايا ثم اختلاف فى البعض الآخر • فتتجه الصيغة الأولى للعقيدة . والثانية للتقاليد والآداب كما مر •

ونص الصيغة الأولى كالآتى :

اصنع ما أنا موصيك اليوم :

— لا تسجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور ، إله غيور هو ••••

— لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة •

— تَحْفَظُ عيد الفطير ، سبعة أيام تأكل فطيراً كما أمرتك فى شهر أبيب . لأنك فى شهر أبيب خرجت من مصر •

— لى كل فاتح رحم (أى أن البكرى يقدَّم قرباناً) وكل بكر من بنيك تَفْدِيه ، وكذلك تَفْدِى بكر الحمار •

— أول أبكار الأرض تحضره إلى بيت الرب إلهك •

— ستة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه •

— اصنع لنفسك عيد الحصاد ، عند حصاد الحنطة وعند الجمع فى آخر السنة •

— لاتذبح على خمير دم ذبيحتى •

— لا تبتْ إلى الغد ذبيحة عيد الفصح •

— لا تطبخ جدياً بلبن أمه •

هذه هى كلمات العهد ، الكلمات العشر (١) •

---

(١) خروج ٣٤ : ١١ — ٢٨

ونص الصيغة الثانية كالآتى (١) :

— أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر . من بيت العبودية . لا يكن لك آلهــة أخرى أمامى . لا تصــنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما ممــا فى الأرض . لا تســجد لهن ولا تعبدهن ، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور .

— أفتقد ذنوب الآباء فى الأبنــاء فى الجيل الثــالث والرابع من مُبْغِضيَّ ، وأصنع إحساناً إلى ألوف من مُحبِّيَّ وحافظى وصاياى .

— لا تَنْطق باسم الرب إلهك باطلا . لأن الرب لا يُبْرِئ مَنْ نطق باسمه باطــلا .

— اذكرْ يوم السبت لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك . وأمــا اليوم السابع ففيه سَبْت للرب إلهك . لا تصنع عملا مــا . أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمَتك وبهيمتك ونزيلك الذى دخل أبوابك ، لأن فى ستة أيام صَنَعَ الرب السماء والأرض والبحر وكل مــا فيها ، واستراح فى اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدَّســه .

— أكرم أباك وأمك لكى تطــول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهــك .

— لا تقتل .

— لا تزن .

— لا تسرق .

— لا تشهد على قريبك شهادة زور .

---

(١) الاصحاح العشرين من سفر الخروج ٢ — ١٧ والاصحاح الخامس من سفر التثنية ٦ — ٢٢ .

— لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك .

تشريعات أخرى من التوراة :

وفي أسفار التوراة الموجودة بين أيدينا . تزدحم التشريعات في سفر الخروج واللاويين والعدد والتثنية . وفيما يلي نماذج من تشريعات سفر الخروج :

— من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلا ، ولكن الذي لم يتعمد فليكن له مكان يهرب إليه . ومن سرق إنساناً وباعه . أو وُجِدَ في يده . يقتل قتلا . ومن شتم أباه وأمه يقتل قتلا . وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه . لكن إن بقى يوماً أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله ، وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة ، فمات . يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئاً . ولكن إن كان ثوراً نطاحاً من قبل ، وقد أُشْهِدَ على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضاً يقتل (١) .

— إذا سرق إنسان ثوراً أو شاة فذبحه أو باعه يعوّض عن الثور بخمسة ثيران ، وعن الشاة بأربعة من الغنم ، إن وُجِدَ السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم ، ولكن إن أشرقت عليه الشمس فَلَهُ دمٌ (٢) .

وفي سفر اللاويين أحكام تتصل بالقرابين والطقوس والأعياد والنذور والمحرّقات وكفارات الذنوب ، وفيه كذلك شروح ضافية لمكانة اللاويين وخيمة الاجتماع . والمحرمات في الزواج ، والطعام الذي يحل والذي يحرم . ومن هذا السفر يمكن أن نقتبس بعض التشريعات :

---

(١) من الاصحاح الحادي والعشرين .
(٢) من الاصحاح الثاني والعشرين .

— إذا كان فى رجل أو امرأة جانٌ أو تابعةٌ فإنه يقتل ، بالحجارة يرجمونه ، دمه عليه [١] .

— متى ولد بقرٌ أو غنم يكون سبعة أيام تحت أمـه ثم من اليوم الثامن فصاعداً يُرضى به قُربانا وقوداً للرب [٢] .

— الأرض لا تبـاع ألْبتَّة ، لأن لىَ الأرض وأنتم غربـاء ونزلاء عنـدى [٣] .

وفى سفر العدد — بالإضافة إلى العد ّ والإحصـاء — توجد تشريعات حول نقاط كثيرة ، منهـا ما سمى بشريعة الغَيْرَة واللِّعـان والاعتراف . وقد ورد ذلك مفصـلا فى الإصحاح الخامس ، وسنتحدث عن موضوع الاعتراف فيمـا بعد ، وهناك تشريعات أخرى بهـذا السفر نقتبس منها مـا يـلى :

— من مس ّ ميتاً ، ميتةَ إنسان مـا ، يكون نجساً سبعة أيام ، يتطهر فى اليوم الثالث وفى اليوم السـابع يكون طاهراً ، وإن لم يتطهر فى اليوم الثالث ففى اليوم السـابع لا يكون طاهراً ، هـذه هى الشريعة ، إذا مات إنسان فى خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان فى الخيمة يكون نجسا سبعة أيام ، وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه نجس [٤] .

— وكلَّم موسى رءوس أسباط بنى إسرائيل قائلا : هـذا ما أمر به الرب ، إذا نذر رجل نذراً للرب ، أو أقسم قَسَماً أن يُلزم نفسـه بلازم فلا ينقض كلامه ، حسب كل مـا خرج من فمه يفعل ، وأمـا المرأة إذا نذرت نذراً للرب ، والتزمت بلازم فى بيت أبيها فى صباها وسمع أبوهـا

---

(١) الاصحاح العشرين .
(٢) من الاصحاح الثانى والعشرين .
(٣) من الاصحاح الخامس والعشرين
(٤) من الاصحاح التاسع عشر .

نذرها . فإن سكت ثبت نذرهـــا ، وإن نهاها أبوها يوم سمعه لا تثبت . وإن كانت متزوجة فالزوج كالأب [١] .

وفى سفر التثنية تكرار للتشريعات والتعاليم التى وردت فى الأسفار السـابقة بالإضافة إلى تشريعات أخرى استُحْدِثت فيه . وفيمـا يلى نماذج من تشريعات هـذا السفر .

ـ احفظ شهر أبيب واعمل فِصْحاً للرب إلهك لأنه فى شهر أبيب أخرجك الرب إلهك من مصر ليلا ، فتذبح الفصْح للرب إلهك غنمـا وبقرا فى المكان الذى يختاره الرب ، ليحل اسمه فيـه ، لا تأكل عليه خميراً سبعة أيـام . تأكل عليـه فطيراً خبز المشـقة . لأنك بعجلة خرجت من أرض مصر [٢] .

ـ لا يقوم شاهد واحدا على الإنسان فى ذنب مـا أو خطية مـا من جميع الخطايا التى يخطىء بهـا . على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر [٣] .

نماذج لموضوعات عالجهـا التشريع اليهودى :

هـذا لون من ألوان التشريعات التى وردت فى أسفار موسى . وهناك تشريعات اجتماعية بالغـة الخطورة وردت فى التلمود ، وتشريعات سياسية مهمة وردت فى بروتوكولات حكماء صهيون ، وقد أوردنا عن هـذا وذاك دراسة ضافية فى الباب السـابق ، ونريد الآن أن نورد نمـاذج لبعض التشريعات المتصلة بمسائل مهمة كموقف اليهودية من المرأة . ومن الرق . والاعتراف ، ورأيهـا فى الميراث ، والربا ، والمحرمات فى الزواج ، وغيرها وقد اعتمدنا فى تحقيق هـذه المسائل على المراجع اليهودية الدقيقـة .

---

(١) من الاصحاح الثلاثين .
(٢) من الاصحاح السادس عشر .
(٣) الاصحاح التاسع عشر .

وسيمكننا بعرض هـذه المسائل أن نبرز المقارنة بين التشريعات فى اليهودية والتشريعات فى الإسلام .

الاعتراف والتطهير :

فى الفكر اليهودى تكثر الخطايا ، ففى كل شهوة من الشـهوات تكمن الخطيئـة ، فالخطيئة تدنس المخطىء ، والحيض والولادة كالخطيئـة يدنسـان المرأة ، ويتطلبان تطهيرا ذا مراسم وتقاليد وتضحية وصلاة على يد الكهنة ، والهبات والقرابين هى الوسيلة للتكفير عن الخطايا ، على أن تقدم للكهنة بعد الاعتراف الكامل بمـا ارتكب الإنسـان من إثم ، وعلى هـذا كان المجتمع اليهودى مجتمع خطايا ، ومجتمع تكفير وغفران فى نفس الوقت ، حتى أن التاجر كان ولا يزال يطفف الكيل ويغش فى الميزان ، ثم يحـاول التكفير عن ذنبه بالتضحية والصلاة [1] . وقد أورد سفر العـدد صورة مفصلة للمرأة التى تريد أن يُغْفَرَ لهـا وضرورة أن تذهب للكاهن لتعترف عنده بخطيئتها ، وذكر السـفر أن الكاهن يوقفهـا أمام الرب ويأخذ مـاء مقدساً فى إناء خزف ، ويتلو عليه ترانيم وأدعية ، ويطلب الكاهن من المرأة الاعتراف ، فإن رفضت سقاها من هـذا الماء الذى يسمى مـاء اللعنة ، وهددها بأن هـذا الماء إذا دخل أحشاءها وهى مذنبة لم تعترف ، ورم بطنها وسقط فخذهـا ... [2] وإذا اعترفت استطاع الكاهن أن يطهرها بالقرابين والهبـات والأدعية [3] .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ج ٣ ص ٣٥٤ .

(٢) الاصحاح الخامس : الفقرة ١١ وما بعدها .

(٣) روى لى أحد العلماء الافاضل حادثة وثيقة الصلة بموضوعنا ، فقد ذكر له أحد اليهود الذين أسلموا حديثا أنه رأى امرأة يهودية يخلو بهـا الكاهن للاعتراف والتطهير وخرجت المرأة من الخلوة مغفورا لها !! وثارت نفس اليهودى على هـذا الوضع وبخاصة أن الشك لعب به لمـا لاحظه من اضطراب على المرأة حين خروجها ، وصادف أن ذهب اليهودى فى نفس اليوم للعزاء فى أحد المسلمين ، فسمع القارىء يتلو قوله تعـالى « ومن يغفر الذنوب الا الله ؟ » وقد دفعت هـذه المقارنة هذا اليهودى الى أن يدخل فى دين الاسلام .

الــــرق :

أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء أو سبياً في الحرب . فجعلت للعبري أن يستعبد العبري إذا افتقر . فيبيع الفقير نفسه للغني . أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفّي له الثمن . ويبقى عبداً له ست سنين ثم يتحرر . ففي سفر الخروج : إذا اشتريت عبداً عبرياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً . وإذا سرق العبري ماشية وذبحها . أو أي شيء استهلكه . ولم يكن في يده ما يعوّض به صاحبه يباع السارق بسرقته كما نصت التوراة على ذلك في سفر الخروج . وأباحت التوراة للعبري أن يبيع بنته فتكون أمة للعبري الذي يشتريها [١] .

أما الاسترقاق سبيا في الحرب فهو أيسر ما يُنزله اليهود بأعدائهم وقد نصّ العهد القديم على ما يلي :

« حين تقرُب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح . فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك التسخير ويُستَعْبَد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك [٢] .

الختـــان :

قلنا — عند الحديث عن الكهنة والقرابين — إن الختان ارتبط عند اليهود بالقربان ، فقد كان الإنسان نفسه يقدّم قرباناً من قبل . ثم اكتفت الآلهة بجزء من الإنسان . وذلك الجزء هو ما يقتطع في عملية الختان .

---

(١) سفر الخروج ٢١ : ٢ وما بعدها .

(٢) سفر التثنية الاصحاح العشرون وانظر كتاب الاسلام للمؤلف ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

وقد كان الختان سُنّةً شائعة عند المصريين الأقدمين ، ووُجِدَ عندهم للوقاية الصحية من الأقذار التى تتعرض لهـا الأعضاء التناسلية . وقد اقتبسه اليهود من المصريين وجعلوه مرتبطا بالقرابين والضحايا التى تقدم للغفران وإرضـاء الآلهة .

وبمرور الزمن أصبح الختـان لدى اليهودى فريضة يحتمها الولاء للجنس . فعلى اليهودى أن يقوم بعملية الختـان ليبرهن على انه يهودى . وقبيل عهـد المكابيين كان الختان يُجْرَى للذكر والأنثى بصـورة بسيطة تمكّن الشخص من الادعاء بأنه غير مختون ليتقى عدوان غير اليهود عليه . ثم لما جاء المكابيون امر الكهنة ان تزال الغُلْفة عن آخرها حتى لا يحاول اليهودى الاندماج فى غير اليهود من الشعوب (١) .

الميراث (*) :

أول من يرث الميتَ ولَدُه الذكر ، وإذا تعـدد الذكور من الأولاد فللبكرى حظ اثنين من إخوته ، ولا فرق بين المولود بنكاح صحيح أو غير صحيح من الأولاد فى المواريث ، فيعطى لـكل منهم نصيبه بقطع النظر عن النكاح الذى ولد منـه ، ولا يحرم البكرى من امتيـازه بسبب كونه من نكاح غير شرعى ، أما البنات فمن لم تبلغ منهن الثانية عشرة فلهـا النفقة

---

(١) انظر قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤٥ و ٣٧١ وانظر الهامش بهـذه الصـفحة .

(*) من بين مراجعنا فى الابحاث التالية ثلاثة مراجع فى منتهى الاهميه هى « الاحكام العبرية » الذى الفه العالم الفريسى « دى بفلى » وترجمه الى العربية القاضى المصرى الاستاذ محمد صبرى وأضاف له مقارنات بالشريعة الاسلامية وجعل عنوانه « المقارنات والمقابلات » وقد اعتمد المؤلف على كبار العلمـاء والمشرعين اليهود . وذكر عقب كل اقتباس مرجعه ، ونقل المترجم ذلك بكل دقة فى الترجمة العربية . امـا المرجع الثانى فهو « شعار الخضر فى الاحكام الشرعية الاسرائيلية للقرائين » ومؤلفه اسمه « الياهو بشياصى » وقد ترجمه الى العربية من العبرية الاستاذ مراد فراج . والمرجع الثالث مجموعة من الابحاث عن اليهودية نشرها بالانجليزية (Arther Hertezberg) بعنوان (Judaism)

والتربية حتى تبلغ هـذه السن تماماً ، وليس لهـا شيء بعد ذلك [١] .

وإذا لم يكن للميت ولد" ذكر" فميراثه لابن ابنه . وإذا لم يكن له ابن انتقل الميراث إلى البنت فأولادها وهكذا [٢] . ويرى القراءون أن يكون للبنت نصيب مع الولد . سهمان للولد وسهم للبنت [٣] . وإذا لم تكن له ذرية فميراثه لأصوله . وأحق الأصول بميراث الميت أبوه . وله كل التركة فإن لم يكن له أب" فجده ، وإذا لم يكن له أصـول انتقل الميراث إلى درجات الأقارب الفرعية من الذكور [٤] ، وإذا لم يكن للميت وارث من فروع أو أصول أو حواش كانت أمواله مبـاحة يملكها أسبق الناس إلى حيازتها . وتظل وديعـة في يد حائزها مدة ثلاث سنوات . فإذا لم يظهر للميت وارث خلالها صارت ملكاً تاماً لحائزها [٥] .

وعند اختلاف الدين يرث اليهودي أقاربه من غير اليهود ، ولا يرث الأقاربُ غيرُ اليهودِ اليهوديَّ [٦] .

النكاح وتعدُّد الزوجات :

السن المفروضة لصحة التزوج هي الثالثة عشرة للرجل والثانية عشرة للمرأة ، ولكن يجوز نكاح من بدت عليه علامات بلوغ الحلم قبل هـذه السن ، ومن بلغ العشرين ولم يتزوج فقد استحق اللعنة ، وتعدد الزوجات جائزة شرعاً بدون حدٍّ ، ولم يَرِدْ بالتوراة ولا أحكـام الأنبياء قبل **الإسلام نهي عن تعدد الزوجات ولا عن تحديد عددهن ، وعلى العكس من ذلك فقد ورد في التوراة ما يفيد تعدد الزوجات للأنبياء ولغير الأنبياء [٧] .**

---

(١) المقارنات والمقابلات ص ٢٣٤ .
(٢) المقارنات والمقابلات ص ٢٥٠ .
(٣) شعار الخضر ص ٢٥٤ .
(٤) المقارنات والمقابلات ص ٢٥١ .
(٥) المقارنات والمقابلات ص ٢٥٢ .
(٦) انظر المرجع السابق ص ٢٦١ .
(٧) المقارنات والمقابلات ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

وحدد الربانيون الزوجات بأربع وأطلقه القراءون [١] ، ويقول غوستاف لوبون : وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعاً كثيراً لدى بنى اسرائيل على الدوام ، وما كان القانون المدنى أو الشرعى ليعارضه [٢] .

وغير اليهود يُعتبرون وثنيين فى نظر اليهود ، ومن أجل هذا لا يُجيزون زواج اليهودى أو اليهودية من غير اليهود [٣] .

وعن المحرمات للزواج تَمْنَع الديانة اليهودية أن يتزوج الرجل من كانت زوجة لعمه ، ومن كانت زوجة لأخيه إذا أنجبت منه [٤] . ولا تجعل اليهوديةُ الرضاعةَ سبباً للتحريم [٥] ، وفيما يتعلق بزوجة الأخ المتوفى فقد نصت التوراة على أنه إذا لم يكن للمتوفى ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى ، بل يدخل عليها أخو زوجها ويتخذها لنفسه زوجة ، والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت ، لئلا يمحى اسمه من اسرائيل [٦] . ولا يزال الربانيون يعملون بهذا التشريع ، أما القراءون فيرون أن هذا التشريع قد نسخ من زمن ولا يزال منسوخاً [٧] .

وبعض القرائين يحرّمون امرأة زوج الأخت ، فإذا تزوج زوجُ الأخت زوجة أخرى ثم طلقها أو مات عنها فإنها تكون محرمة على إخوة ضرتها ، وبعضهم يجعل الزوج والزوجة كشخص واد ويُجْرُون التحريم على هذا الأساس ، ومعنى هذا أنه يحرم على الزوجة ما يحرم على زوجها لو قدّر زوجها امرأة ، أى أنها يحرم عليها أخوه وعمه وخاله وابنه [٨] .

---

(١) شعار الخضر ص ٨٣ .
(٢) اليهود فى الحضارات الاولى ص ٥٠ .
(٣) المقارنات والمقابلات ص ٣٧٢ .
(٤) المقارنات والمقابلات ص ٣٧٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٧٦ .
(٦) التثنية ٢٥ : ٥ — ٦ .
(٧) شعار الخضر ص ١٨٠ .
(٨) شعار الخضر ص ٢٨ و ٣٢ .

المرأة :

يقول بابا بتره : مـا أسعد من رزقه الله ذكوراً . ومـا أسـوأ حظ من لم يـُرزق بغير الإناث ، نعم لا يـُنكر لزوم الإناث للتناسل إلا أن الذرية كالتجارة سواء بسواء ، فالجلد والعطر كلاهمـا لازم للناس إلا أن النفس تميل إلى رائحـة العطر الزكية ، وتكره رائحة الجلد الخبيثة . فهل يقاس الجلد بالعطر (١) ؟

وقد ورد بالعهـد القديم عن المرأة مـا يلى :

« درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنهـا جنون ، فوجدت أمرَّ من الموت المرأة التى هى شباك وقلبها أشـراك ، ويداها قيود (٢) .

والزواج فى اليهودية صفقة شراء تـُعدُّ المرأة به مملوكة ، تشـترى من أبيهـا فيكون زوجها سيدها المطلق (٣) ، ويتم الزواج إذا باركه أحد الكهنة « ربـِّى » [أى أستاذ] ، وقدّم الرجل للمرأة خاتماً أو هدية أخرى لهـا قيمة فى حضـور شاهدين على الأقل ، ويعتبر ذلك عقداً ، وإذا حضر العقد عشرة رجال فأكثر ، أُتـْبـِع العقد بصلوات وأدعية يشترك فيهـا الجميع (٤) ، ومن تقاليد الفكر اليهـودى أن الرجل إذا تزوج لا يلتحق بالجيش ، ولا يرتبط بأعمـال تـُبعده عن زوجتـه مدة عام ، فشهر العسل فى الفكر اليهودى عام كامل (٥) .

والمرأة المتزوجة كالقاصر والصبى والمجنون ، لا يجوز لهـا البيع

---

(١) المقارنات والمقابلات ص ٢٨٧ .
(٢) سفر الجامعة : الاصحاح السابع : الفقرتان ٢٥ — ٢٦ .
(٣) غوستاف لوبون : اليهود فى الحضارات الاولى ص ٥٢ .
(٤) Judaism p. 84.
(٥) Ibid p. 76.

ولا الشراء (١) وينص الفكر اليهودى على أن جميع مال المرأة ملك لزوجها ، وليس لهـا سوى ما فُرِض لهـا من مؤخر الصـداق فى عقد الزواج تطالب به بعد موته ، أو عند الطلاق منـه ، وعلى هـذا فكل مادخلت به من مال ، وكل مـا تلتقطه وتكسبه من سعى وعمل ، وكل ما يُهْدَى إليها فى عرسها . ملك حلال لزوجهـا ، يتصرف فيه كيف شاء بدون معـارض ولا منـازع .

وبالنسبة لكثرة مـا شوهد من وقوع الشقاق والفرقة بين الأزواج ، فقد استقرَّ رأى السـادة (الأرباب) على وجوب الأخذ بمشروع « وقف الزوجية » ومعنى وقف الزوجية أن توقف أموال الزوجة ، ويصير الزوج قيماً عليهـا ، يستغلها ، دون أن يبيعها أو يرهنها ، فتصبح الزوجـة بذلك مالكة لرقبة الأموال ، والزوجُ مالكا للمنفعة ، فإذا حصلت الفرقة عادت الثروة للزوجة (٢) .

وعلى الزوجة مهما بلغت ثروتها ومكانتها أن تقوم بالأعمـال اللازمة لبيتهـا ، صغيرة كانت الأعمال أو كبيرة (٣) ، ويحـدد Arthur Hertzberg دور المرأة فى أعمـال المنزل فيقول : إن على المرأة أن تطحن الحبوب ، وتخبز ، وتغسل الملابس ، وتطبخ ، وترضع ولدها ، وتنظف البيت وتنظمه ، وتغزل وتخيط الثياب ، ولكنهـا إن أحضرت معهـا خادما تابعاً لهـا من بيت أبيهـا فإنها تعفى من الطحن والخبز والغسيل ، وإن أحضرت خادمين معهـا أعفيت من المطبخ والرضاعة ، وإذا أحضرت ثلاثة فإنها تعفى من تنظيف البيت وتنظيمه ، وإذا أحضرت أربعـة فإنها تعفى من كل الأعمال لكن ربى Eliezer يقول : إن الزوجة إذا أحضرت معهـا مائة خادم ، فإنها لا تعفى من الغزل ، ولزوجهـا أن يرغمهـا عليه ، لأن البطـالة تقود للفسـاد (٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٤ .
(٢) المقارنات ص ٤٠١ — ٤٠٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٢١٤ .
(٤) Judaism p. 77

ولا ترث المرأة زوجها . وكل ما لها بعد موته هو مؤخر الصداق . أما باقي ثروتها فقد آل كما قلنا آنفا إلى زوجها ومنه إلى ورثته . وإذا أخذت مؤخر صداقها مضت إلى حال سبيلها . أما إذا لم تطالب به فلها أن تعيش مع الورثة من مال التركة [١] .

بعض الواجبات الدينية

يقرر Hosmer أن الواجبات الدينية عند اليهود كانت تشغل قدرا كبيرا من وقتهم ونشاطهم [٢] . وسنقتبس هنا بعض صور من هذه الواجبات الدينية .

زيارة بيت المقدس :

كان يتحتم على كل يهودي ذكر رشيد أن يزور بيت المقدس مرتين في العام . وأن يبقى به أسبوعا كل مرة . ويبدأ الأسبوع يوم الجمعة . وتقام خلاله احتفالات يحضرها الوافدون . ويقودها الكهنة واللاويون . وقد قصد بهذه الزيارة أن تتيح فرصة لليهود أيا كانت مناطقهم أن يتعارفوا ويتحدوا [٣] .

الأعياد :

تكثر الأعياد عند اليهود كثرة بالغة ، ومنها ما يتصل بالأحداث التاريخية . ومنها ما يتصل بمواسم الزراعة والحصاد ، ومنها ما يتصل بالهلال أو التوبة والتكفير عن الذنوب ؛ وقد وردت أكثر هذه الأعياد في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر اللاويين ، وسنذكر هنا بعضا من أهم هذه الأعياد :

---

(١) شعار الخضر ص ١٦٣ .

(٢) The Jews p. 83.

(٣) Ibid pp. 83-84 and Judaism p. 112.

عيد الفصح Passover :

هـذا العيد هو يوم الذكرى لخروج اسرائيل من مصر ومن العبودية التى كانوا يخضعون لهـا ، ويقول علماء اليهود إن هـذه الذكرى لا يمكن أن تنسى فقد جاء الرب بنفسه — دون أن يكتفى بملائكته — وقاد شعبه وأخرجهم من إطار العبودية ، وكان خروجهم سريعاً فلم يعدّوا خبزهم كالعادة ، وإنما أعدّوه فطيراً دون أن يختمر ، وعلى هـذا ففى خلال عيد الفصح الذى يستغرق الأسبوع الثالث من شهر أبيب (نيسان = إبريل) من اليوم الرابع عشر مساء إلى اليوم الحـادى والعشرين مساء يكون طعام اليهود خبزاً غير مختمر ويبدأ اليوم الأول من هـذا الأسبوع بحفل مقدس ويختم الأسبوع بحفل مقدس أيضاً ، وفى هذين الحفلين تتلى أدعية وتقام صلاة وتحرق القرابين (١) .

الهـلال الجديد :

يلقى الاحتفال بالهلال الجديد عناية كبيرة فى الفكر اليهودى ، وكان يسمى عيد النفير لأن الأبواق كانت تستعمل فى الإعلام بظهوره ، وكان الناس يتبارون فى مراقبة الهلال ومحاولة السبق فى رؤياه ، وكان الذى يراه أولا يسـارع إلى بيت المقدس ليخبر بذلك الكهنة والرؤساء ، وأحياناً كان يقام سباق بين الذين شاهدوا الهلال وكل منهم يحـاول أن يكون له قصب السبق ، وينفخ فى الأبواق إعلاناً بالشهر الجديد وتشعل النيران على جبال الزيتون ، وعندما يراها سكان التلال البعيدة يشعلون هم أيضـاً النيران على تلالهم (٢) .

---

(١) Judaism pp. 113-114. وسفر الخروج ١٢ : ١٥ — ٢٠ ولاويون ٢٣ : ٤ — ٨ .

(٢) Hosmer : The Jews p. 8 ..

السبت :

يوم السبت من الأيام المقدسة عند اليهود . التي تجب مراعاة حرمتها مراعاةتامة . فلا يجوز ليهودى الاشتغال فيه . ومن خالف حرمة هذا اليوم ودنسه بالاشتغال فيه يكون قد ارتكب جرماً عظيما .

ولم يكن عند اليهود خطيئة أعظم من عدم حفظ يوم السبت إلا عبادة الأوثان [١] . والسبت هو « شبات Shabbath » فى العبرانية بمعنى راحة . لأنه يوم الرب . فيه استراح . وأمر عباده بالاستراحة فيه وباركها . وقد أمرت الوصية الرابعة بمراعاة حفظ يوم السبت وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك [٢] . ويضع المفكرون اليهود هذا الموضوع فى صورة يرفضها الفكر الإسلامى . فيقول Arthur Hertzberg : إن الإنسان نِدٌ لله ونديك له فى خلق الكون، فالله عمل ثم استراح والإنسان يعمل دوره فى الخلق تم عليه أن يستريح . وقد أوصت أسفار موسى بذلك ، وحتمت التفرغ تماماً عن العمل يوم السبت . وأبرز الأنبياء أهمية الراحة يوم السبت وجعلوه مصدراً للروحانيات وللتشبه بالله الذى هو غاية ما يتمنى [٣] ، ولعل تسمية هذا اليوم بل لعل المادة نفسها قد جاءت من البابليين ، فقد كان هؤلاء يطلقون على أيام الصوم وأيام الدعاء « شَبتو » [٤] ومما ورد عن يوم السبت فى الكتاب المقدس النص التالى : تحفظون السبت لأنه مقدس لكم ، مَنْ دنسه يقتل قتلا ، إن كل من صنع فيه عملا تقطع تلك النفس من بين شعبها ، ستة أيام يُصنع عمل أما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب لأنه فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض وفى اليوم السابع استراح وتنفس [٥] .

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ج ١ ص ٥٣٧ .

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على ج ٦ ص ١١٩ .

(٣) Judaism p. 101.

(٤) ول ديورانت قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٥) خروج ٣١ : ١٤ — ١٧ .

يوم التكفير :

هو يوم فى العـام يحاول فيه اليهودى أن يعبد الله ، لا كإنسان بل كملاك ، والملاك لا يأكل ولا يشرب ويمضى ونتـه كله فى العبادة وتعظيم الله ، فعلى اليهودى أن يعيش هـذا اليوم كمـا تعيش الملائكة فى صـوم جادّ وعبادة دائمة ، وهـذا اليوم يُسبَق بتسعة أيام تسمى أيام التوبة ، حيث يتطهّر اليهودى خلالها تطهيراً يكفل له النقـاء خلال العام القـادم ، وفى اليوم العاشر يوم الصـوم والعبادة تكمل طهـارة اليهود وتغفر لهم سيئاتهم عن الماضى ويُعدّون لاستقبال عام جديد ، وتقع هـذه الأيام فى الشهر السـابع من شهور السنة اليهودية (١) .

عيد المظلات :

فى شهر أكتوبر (تشرين الأول) يحتفل اليهود فى العالم بعيد المظلات أو عيد الخيام ، وفى هـذا العيد يذهبون إلى المعبد حاملين السعف وأغصان الأشجار ، وفى الطريق إلى المعبد يقيمون الخيام ، أو أكواخا من القش يمضون بهـا عدة أيام رمزاً للتاريخ الطويل الذى مر بهم وهم ضِياع ؛ ليس لهم بيوت ثابتة حيث كانت مساكنهم من الأغصان وسعف النخيل ، وهم يذهبون إلى المعبد لشكر الرب أن أنهى عنهم حياة المكابدة والتطواف ، ومنحهم الاستقرار ، ويمتد هـذا العيد مدة عشرة أيام ، ويكون اليومان الأخيران حافلين بالبهجة والرقص والشراب والبخور .

---

(1) Judaism pp. 131-132.

الباب السادس

اليهود في الظلام

لعب اليهود فى الخفاء دوراً ضخماً لتحقيق أهدافهم لا يقل عن الدور الذى لعبوه فى العلانية ، وقد اتسع نطــاق هذا الدور فشمل التــآمر والاغتيال ، وشمل التجسس وإشعال الثورات وغيرها من ضروب الغدر . وفى هــذا الباب سنذكر الخطوط العريضة لهــذه الأحداث الجسام :

الإثارة وبث الفتن :

يقرر الباحثون أن الدور الذى قــام به اليهود فى بث روح الثورة وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة عظيم جداً ومؤكد جداً ؛ فهم دعاة الثورة وقادة التقويض ، وعنهم يقول الكــاتب العظيم برنارد لازار : « اليهودى يضطرم بروح ثورى ، وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أو لم يشعر » ومما يؤكد نسبة أكثر الحركات الهدامة السرية لليهود ، أنه تظهر دائما فى هــذه الحركات آثار التعاليم اليهودية الفلسفية (١) .

ويعترف اليهود بذلك ، فقد ورد فى مجلة الجامعة الإسرائيلية نص خطير بهــذا الشأن ، اقتطفه Lenis Daste ووضــعه على غلاف كتاب عن « **اليهود والجمعيات السرية** » **وفيمــا يلى هذا النص :**

> **نصــادف فى كل التغييرات الفكرية الكبرى تقريبــا عملا يهوديا ، ســواء كان ظاهراً واضحاً أو خفياً سريا ، وعلى هــذا فإن التاريخ اليهودى يمتد بامتداد التاريخ العالمى بجميع مجالاته ، حيث تغلغل فيه بالآف الدسائس (٢) .**

وقد رأينــا من قبل أن كثيرين من اليهود لم يرحبوا بالفرصة التى أتاحها لهم قورش للعودة لفلسطين ، وآثروا البقــاء فى فارس وفى أرض

---

(١) محمد عبد الله عنــان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ص ١١٦ — ١١٧ بتقديم وتأخير .

(٢) الجامعة الاسرائيلية ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٧ ص ٥٨٥ و « اليهــود والجمعيات السرية » تأليف Louis Daste (صفحة الغلاف الامامية) .

بابل لينعموا هناك بالغنى والجـاه ، وفى تلك المنطقة نفث اليهود سمومهم . ولما جاء الإسلام عـاداه اليهود . ووقف كذلك فى وجهـه غدة الفرس وأمراؤهم . فكان ذلك فرصة لهؤلاء وأولئك ليتعاونوا للوقوف فى وجـه الإسلام وإثارة الشغب والفتن فى الربوع الإسلامية . ومن هنـا كانت فارس مركزاً متسعاً لكثير من الحركات الهدامة التى عبث فى المـاضى فى وجـه الإسلام . كالقرامطة والبـابية والبهائية والشيعة الغلاة أو الذين أسميناهم « مدعى التشيع » ....

وفى حالات كثيرة هاجر اليهود من فلسطين إلى أوربا . وحملوا معهم بذور الدهاء للعمل فى الخفاء ، ويقرر علمـاء الغرب أن حركات الهـدم التى اجتاحت أوربا واشتعلت بها مدى قرون ثلاثة لم تكن سوى أثر للجهود السرية التى يقـال إن اليهود يبذلونها منـذ ظهور النصرانية والإسلام فى سبيل عدمها انتقاماً لدينهم [١] ؛ ويرى بعض المفكرين المسلمين هـذا الرأى فيمـا يتعلق بدعوات الهدم ضد الإسلام ، ولا سيما دعوة عبد الله ابن ميمون التى أسفرت عن انفجار أعظم حركات عادمة عرفها الإسلام ، فيقولون إن اليهود هم الذين نظموا مقاومة الإسلام منـذ ظهوره وحشدوا الدعاة لإفسـاد تعاليمه ، وإن ميمون بن ديصان وولده عبد الله كانا يعملان على بث مبادئهـا السرية فى الإلحـاد والهدم بتحريض وتعضيد من الدعـاة اليهود [٢] .

وممـا يذكره التاريخ من محاولات الإثارة والهـدم ما قام به اليهود فى المدينة إذ عمدوا إلى محاولة إحياء الأحقاد والضغائن الكـامنة فى نفوس الأوس والخزرج وقد ظهرت لهم بوادر النجاح لولا أن تداركت عين الله مجتمع المسلمين ، فتدخل الرسول وأعاد للقوم رشدهم ونزل قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنو إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » [٣] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧١ .
(٢) انظر الكامل فى التاريخ لابن الاثير ج ٢ ص ٩ .
(٣) سورة آل عمران اية ١٠٠ .

وعمد اليهود كذلك إلى التشكيك وإثارة الشبهات ليضعفوا الإيمان فى نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم فى الإسلام ، وقد نزل فيهم قوله تعالى : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم » ، [١] وقوله : « ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يا أهل الكتاب لما تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون [٢] » .

ويسير يهود اليوم على نهج أسلافهم فى التشكيك ، ومن أبشع ما عمدوا إليه فى ذلك تحريف المصحف ومحاولة نشره محرفاً ، وكذلك تحريف السنة المحمدية ، ولولا أن فطن المسلمون لذلك لأمكن أن يكون لهذا الفعل نتائج بالغة الغاية فى السوء .

ويربط بعض الباحثين معظم الثورات الكبرى فى العالم باليهود ، فأنىٰ عاش اليهود وجدت الإثارة فالثورة ، حصل ذلك فى الشرق والغرب على السواء ، ورأيناه أحياناً يتم باسم الرأسمالية لتضرب الحركات الشيوعية ، وباسم الشيوعية لتضرب الاتجاهات الرأسمالية ، فهدف اليهود الثورة والتدمير على كل حال ، تدمير هذا الاتجاه وذاك الاتجاه .

تلك لمحة سريعة عن دَوْر اليهود فى الإثارة وبث الفتن وتسميم الأفكار ، ونضيف إلى ذلك أن اليهود لم يكتفوا بالأفكار يسممونها ، بل عمدوا إلى تسميم الأجسام ما وسعتهم الحيلة ، وقد عرف تاريخهم تسميم الآبار ، ولا يستبعد المفكرون أن يضع اليهود مقادير ضئيلة من المواد التى تضر بالصحة فى الأدوية والمشروبات الروحية ، بل فى الدقيق ومنتجاته وغيرها من المواد التى يصدّرونها بطريق مباشر أو غير مباشر للشعوب غير الصديقة إن لم يكن للشعوب جميعاً .

---

(١) سورة البقرة ١٠٩ .
(٢) سورة آل عمران الايات ٦٩ — ٧١ .

خلف وسائل الإعلام :

قلنا عند الحديث عن « بروتوكولات حكماء صهيون » إن اليهود يهتمون بالسيطرة على الصحافة ودور النشر وجميع وسائل الإعلام ، حتى لا يتسرب إلى الرأى العام العالمى إلا ما يريده اليهود ، وقد استطاع اليهود أن يحققوا هذا الهدف إلى حد كبير ، فقد ثبت فى الإحصاء الذى أجرى سنة ١٩٥٦ الخاص بالصحافة ، أن اليهود يصدرون ٨١٩ صحيفة ومجلة بمختلف اللغات وفى مختلف الأقطار . وهو عدد يمثل الأغلبية العظمى من صحف العالم ومجلاته . ولليهود مثل هذا التفوق فى وسائل الإعلام الأخرى كدور النشر . ووكالات الأنباء . بل فى السينما والإذاعة والتليفزيون فى معظم بلاد العالم ، ويسيطر اليهود على الصحافة والنشر بطريق آخر هو طريق احتكار تجارة الورق ، فهم يقبضون أيديهم ويبسطونها حسب استجابة الصحافة لأغراضهم ، ويتسرب بعض الكتاب من أتباعهم إلى الصحف التى لا تخضع لهم تمام الخضوع ، وإذا حدث أن صحفياً عُرف بمعارضة اتجاهاتهم وضعوا العراقيل أمامه حتى يفقد وظيفته أو يخضع لاتجاهاتهم .

فاحتكار اليهود متكامل الحلقات ، فهم يسعون إلى احتكار ما يسيطر على معدة الإنسان ، ويسعون كذلك إلى احتكار ما يسيطر على عقله وعواطفه ، لذلك كان احتكار الصحافة وشركات الأنباء ودور النشر من الخطوات الأساسية فى هذا السبيل ، فمن طريق هذه الرسائل ينشر اليهود ما يناسب صالحهم ويمنعون من النشر كل ما يعارض ذلك الصالح [1] .

وقد حدث أمامى حادث وثيق الصلة بهذا الموضوع ، فمنذ بضع سنوات تقابلت مع أحد الأساتذة فى إحدى دور النشر ، وكان الأستاذ ينشر كتاباً بالإنجليزية عن المسيح ، وسألنى الأستاذ رأيى فى نقاط الكتاب ، فأبديت

---

(١) دكتور محمد عبد المعز نصر : الصهيونية فى المجال الدولى ص ٨٤ .

رأيي . فارتضاه الأستاذ وطلب منى أن أكتبه ، ففعلت ، ودفع الأستاذ برأيي إلى المطبعة ، وبعد فترة تقابلت مع المؤلف فاعتذر لى بأنه لا يستطيع نشر رأيي ، وعلل ذلك بأن هـذا الرأى ضد اليهود ، وهم الذين سيتولون نشر الكتاب حيث القراء الإنجليز ، ومثل هـذا الرأى يجعلهم يَقْضون على الكتاب بالكساد . وهكذا يحقق اليهود أكبر نصر فى هـذا الميدان ، **وهم يقولون بصلف وكبرياء .**

ــ إن الصحافة قد انتهت إلى الوقوع تحت سيطرتنا عـدا شواذ قليلة منهـا يمكن تجاهلها بارتياح .

ــ اكتسبنا عن طريق الصحافة قوى ذات نفـوذ فى الوقت الذى احتجبنا فيه وراء الظلال .

ــ لقد سيطرنا على وكالات الأنباء المهمة فى العالم ، فلن يصـل إعلان واحد للجمهور دون رقابتنا وسننشر مـا نريد نشره لصالحنا ، ولن ننشر ما يتعارض مع اتجاهنا وآمالنا (١) .

ومن الوسـائل التى يختفى خلفهـا اليهود نجوم السينما والمسرح والفنانون بوجه عام ، ويستطيع اليهود عن طريقهم ، أن يقدموا للعـالم أفلاماً وروايات بهـا بذور صهيونية وحقائق مسمومة يتلقاها المشاهدون وهم فى غمرة البهجة ، فتصـل إلى عقول الكثيرين منهم دون مقاومة تذكر .

التجسس :

كان التجسس ولا يزال وسيلة مهمة لليهود . يحصـلون عن طريقه على أسرار الدول والجماعات ليستغلوا هـذه الأسرار فى خدمة مصالحهم ، وفى إيقـاف تطور أعدائهم أو تدمير هـذا التطور . فقد عَرَفت المسيحية منذ عهدها المبكر ، تجسس اليهود على قادتها وعلى أفكارها ، وكان من بين

(١) جون سكوت : الحكومة السرية فى بريطانيا ص ٨٠ .

الحواريين من عمل جاسوساً لحساب اليهود . فقد ذكرت الأناجيل الأربعة أن يهوذا الإسخريوطى عمل جاسوساً لليهود وساومهم على تسليم عيسى نظير ثلاثين من الفضة ، ولما قبضها قاد جماعة من اليهود للقبض على عيسى حيث كان مختفياً . وقد جاء فى إنجيل متى عن ذلك ما يلى : حينئذ ذهب واحد من الاثنى عشر الذى يدعى يهوذا الإسخريوطى إلى رؤساء الكهنة . وقال : ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أسلمه إليكم ؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة . ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه [١] .... وبعد مدة اصطحب جمعاً معهم سيوف وعصى من قبل رؤساء الكهنة . وسار إلى حيث كان يختبىء عيسى واتفق مع هؤلاء على علامة يعرفون بها عيسى قائلا الذى أقبله هو هو أمسكوه ، وتقدم يهوذا نحو يسوع وقال السلام يا سيد وقبّله . حينئذ تقدم اليهود وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه [٢] .

وفى مطلع الإسلام اتخذ اليهود التجسس وسيلتهم لينالوا من الإسلام ، فقد ادعى بعض اليهود دخول الإسلام ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر منافقين ، ومن هؤلاء داعس وسعد بن حنيف وزيد بن اللصيت ورافع بن حريملة وغيرهم . وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام عن رافع يوم مات « اليوم مات منافق عظيم » وكان هؤلاء يتخذون المسجد وحلقات العلم مجلساً لهم ليتسقطوا أخبار المسلمين وليطّلعوا على تنظيماتهم . لينقلوا ذلك إلى اليهود وإلى حلفائهم المشركين ، ولكن المسلمين شكّوا فى تهجدهم وفى افتعالهم التقوى ، فراقبوهم حتى ظهر منهم ما ينقل هذا الشك إلى اليقين ، فانقضّ المسلمون عليهم وأخرجوهم من المساجد معلنين للملا نفاقهم [٣] .

---

(١) الاصحاح ٢٦ : ١٤ — ١٦ .
(٢) نفس الاصحاح : ٤٨ — ٢٠ .
(٣) ابن هشام جـ ٢ ص ١٦ وما بعدها ، وانظر تاريخ العرب قبل الاسلام ، للدكتور جواد على جـ ٦ ص ١٣٤ — ١٣٥ .

وظل التجسس دأبهم فى كل قطر أقاموا به ، كانوا جواسيس الحلفاء فى ألمانيا . وكانوا جواسيس الغرب فى روسيا . وهم لا يزالون حتى الآن يزاولون حرفة التجسس فى كل مكان نزلوا فيه . ففى كندا اكتشفت حلقة تجسس خطيرة سنة ١٩٤٥ كان اليهود يتزعمونها ، وكان من بين الجواسيس عضو فى البرلمان الكندى وأستاذ فى جامعة ماك دل [1] .

أما تجسس اليهود فى البلاد العربية ، فلا تنقطع خيوطه ، وهو يسير على أشده وتتوالى حلقاته ، ويشترك فيها الرجال ، والنساء الحسان ، ويدرب الجواسيس تدريبا كاملا على استعمال الأجهزة والآلات الخاصة بالاستقبال والإرسال ، وكذلك على فنون التصوير والكتابة غير المرئية ، وإعادة الكتابة إلى الرؤية ، واستعمال المتفجرات وإرسالها داخل مظاريف ، وغير ذلك من الفنون . والجواسيس على صلة وثيقة بمراكز التجسس بإيطاليا وغيرها من دول أوربا ، وقد استطاع الجواسيس أحياناً أن يضللوا بعض مرضى النفوس من الشعب العربى ليعاونوهم وليمدوهم بما تحت أيديهم من أسرار ليبعث بها الجواسيس إلى اسرائيل ، وهذه الكلمات تكتب بضاحية المعادى ودماء الأبرياء تسيل بهذه الضاحية نتيجة لظروف انفجر فى وجه عامل فى مكتب البريد ، فشوه وجهه وأفقده البصر إلى الأبد . وقد انكشف أمر الجاسوس الألمانى اليهودى الذى ارتكب هذه الفعلة النكراء . وقد اعترف الجاسوس الأثيم كما اعترف سواه قبله بما ارتكبوا من آثام .

التستر خلف اديان اخرى :

قلنا فى السطور السابقة إن بعض اليهود تظاهروا بالدخول فى بعض الأديان ليتمكنوا من التقاط أخبار أتباعها ، والتعرف على خططهم لينقلوها إلى اليهود ، ونحن الآن نتكلم عن طريق آخر من طرق استغلال اليهود للأديان ذلك هو التظاهر بالدخول فى دين — لا لينقلوا الأخبار — بل ليعملوا وهم فى ظل الدين الجديد ما يخدم أغراض دينهم الأصيل وهو اليهودية

---

(1) Franit Briton : Behind Communism pp. 145-146.

وتبعاً لهـذا المبدأ دخل اليهود أكثر الديانات المعروفة . دخلوا البوذية والمسيحية والإسلام ، وهى الأديان الثلاثة الغالبة فى العـالم من حيث العدد ومن حيث المكانة ، وأخذوا يعملون لصالح اليهود . ففى نطاق البوذية أبرزت لى تجاربى الخاصة أن عدداً ممن يعتنقونها من رجال الشرق الأقصى يعملون لصـالح « اسرائيل » بنفس الإخلاص والحماسة التى يعمل بها أى يهودى . وقد راعنى فى مبـدأ حياتى بالشرق الأقصى أن وجدت بعض سفارات هـذه البلاد بإندونيسيا تخدم قضية اسرائيل بنشاط بالغ الحد ، حتى لقد كنا نقول إنه ليس لهـذه البلاد فى هذا المبنى سوى اللوحة المثبتة على الباب . أمـا أكثر النشـاط المنبعث من داخل المبنى فيخدم قضـية اسرائيل . وقد خف عجبنا عندما عرفنا أنه من كبـار موظفى هذه السفارة ، بل من كبار حكومة هذه البلاد بوذيون من أصل يهودى . أو بوذيون اتخذوا زوجات يهوديات أو زوجات بوذيات تجرى فى عروقهن الدماء اليهودية .

وقد استطاع كثير من هؤلاء البوذيين ذوى الدم اليهودى أن يصلوا إلى أرقى المناصب الدينية والمدنية . حتى أمسكت الكنانة أن تكون وقفـاً عليهـم .

وإذا ذهبنـا إلى المسيحية وقفنا أمـا شاءول « بولس » اليهودى الفريسى الذى دخل المسيحـية وأحدث بهـا أحداثا خطيرة . فنقلها من ديانة خاصة ببنى اسرائيل الى ديـانة عالمية . ونقلها من التوحيـد إلى التثليث ، وقال بألوهية المسيح ، وألوهية روح القدس . واخترع قصـة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر ... بولس الذى طمس الديانة ، لمـاذا ؟ ليثأر لدينه ، فهو قد تظـاهر بالدخول فى المسيحية ليحاربها من الداخل بسلاح الهدم والتدمير ، متعاوناً فى ذلك مع أبناء دينه اليهود فى القضـاء عليها [1] والعجيب أن اليهود فيما بعد استطاعوا أن يخدعوا المسيحيين حتى ثبتوا لهم أن افكار بولس تمثل المسيحية ، وهى فى الحق بعيدة كل البعد عن المسيحية الحقة وعن الأناجيل .

---

(١) انظر كتاب المسيحية للمؤلف ص ٨٨ — ٨٩ .

أمّا فى الإسلام فيصادفنا عدد من اليهود دخلوه ليدمّروه . وفى مقدمة من هؤلاء عبد الله بن سبأ وهو الشخص الذى نقل الثورة ضد عثمان من الكلام إلى العمل [1] . وقد قلت عنه فى مكان آخر إنه لم يكن مخلصاً فى حركته ، وكان يهوديا ادعى أنه دخل الإسلام ، ولم يكن يضمر للإسلام ولا للمسلمين خيراً ، فانتهز فرصة صورٍ من النقد وُجّهت لسياسة عثمان ، وأشعل الفتنة وأنزل بالعالم الإسلامى ناراً ظلت متأججة عشرات السنين ، أو مئات السنين . وبالإضافة إلى موقفه ضد عثمان ، ذلك الموقف الذى انتهى بقتل الخليفة ، تجده يدفع بنظريات فارسية يحشرها حشراً فى الفكر الإسلامى ، فهو الذى نشر مذهب الوصاية ووضع الأحاديث ليدعم بها رأيه ، كما أشاع نظرية الحق الإلهى . وغير ذلك مما يجعله بحق زعيم الفتن السياسية والدينية فى الإسلام [2] .

ولا تزال هذه حال اليهود حتى العهد الحاضر . يدفعون ببعض أسرهم أو ببعض أفرادهم ليدخلوا هذا الدين أو ذاك . ويغيّر هؤلاء أسماءهم وينتقلون من بلد إلى بلد ويتعمقون فى دراسة الدين الجديد ، ويأتى وقت عليهم لا يعرف الناس حولهم عن ماضيهم شيئا ، وحينئذ يحاول هؤلاء أن يخدموا اليهودية دون أن يكونوا موضع اتهام [3] ، ويعتقد بعض الباحثين أن عدداً من الكرادلة فى الفاتيكان ينحدر من أصل يهودى ، وقد دفعتهم الأغراض اليهودية لاتخاذ بعض قراراتهم : كقرار تبرئة اليهود من دم المسيح .

ومن أبرز اليهود الذين اعتنقوا المسيحية فى العصر الحديث دزرائيلى الذى ولد فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٤ — ١٨٨١) ، من أب يهودى وأم يهودية ، وقد بدت عليه علامات النجابة والنبوغ منذ صباه ، فلما

---

(١) Browne : A Literary History of Persia p. 220

(٢) انظر ما كتبناه عنه فى الجزء الاول من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . ص ٣٣٦ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٣) انظر البروتوكول التاسع من بروتوكولات حكماء صهيون ثم انظر هامش المترجم . ص ١٦١ و ١٦٦ .

مات أبوه سنة ١٨١٦ رئى أن يدخل الصبى المسيحية فعمّد فى كنيسة فى إنجلترا سنة ١٨١٧ ، وأتاح له هذا أن يتغلغل فى المجتمع الإنجليزى ويصبح نجما لامعاً فى الصالونات الاجتماعية ، ثم دخل ميدان السياسة فبرز فيه ، وفى سنة ١٨٣٧ دخل البرلمان الانجليزى ، وفى سنة ١٨٤٧ أصبح زعيما لحزب المحافظين ، وفى سنة ١٨٧٤ أصبح رئيسا لمجلس الوزراء البريطانى ؛ وبهذا وصل قمة السياسة العالمية ، واستمر فى هذا المنصب ست سنوات ، وينسب له أنه أقْدَم مَنْ عمل لإقامة اسرائيل فى العصر الحديث ، فقد اشترى لانجلترا نصيب مصر من أسهم قناة السويس ، فثبت بذلك أقدام بلاده لتحرس الوطن الذى كان قد فكّر فى إقامته لبنى دينه ، ثم خطا خطوة أخرى لخدمة اليهود ، فساعد بعض المسيحيين أو اليهود الذين دخلوا المسيحية على شراء بعض الضياع فى فلسطين ، فخط بذلك الخط الأول لإقامة وطن قومى لليهود بهذه البقعة المقدسة .

التآمر والاغتيال :

التآمر والاغتيال طبيعة فى اليهود لم تتخلف فى كل عصورهم . وقد شهدناها ضد يوسف من إخوته ، وتحدث القرآن الكريم عن هذه الطبيعة فى اليهود فذكر أنهم « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون [1] » .

وعندما جاءت المسيحية اتجه التآمر والاغتيال تجاه الجماعة الجديدة ، وكان المسيح نفسه — فى رأيهم — ضحية من ضحايا اليهود ، وقد نزل بكثيرين من أتباعه فى عهده وبعده مثل ما نزل به ؛ فقد جاء فى كتاب « سدر حادوروث » ما يلى :

الحاخام الربانى يهوذا كان محبوباً لدى الإمبراطور الرومانى ، فذكر له عن الناصريين أنهم سبب وجود الأمراض المعدية ، وبناء على

---

(١) سورة المائدة : الآية ٧٠ .

ذلك تحصل على الأمر بقتل كل هؤلاء الناصريين ، الذين كانوا يسكنون روما فى فترة تعادل تقريبا سنة ١٥٥م ، وجاء فى الكتاب نفسه بعد هذه العبارة أن الإمبراطور « مارك أوريل » قتل جميع الناصريين بناء على إيعاز اليهود . وفى كتاب سفر يوكاسين أنه فى زمن البابا « أكليمان » قتل اليهود فى روما وخارجها جملة من النصارى كرمال البحر ، وكان اليهود محبوبين عند الامبراطور نيرون [١] ، ويبدو أنه بإيعازهم ألقى نيرون المسيحيين للوحوش الضارية ، تنهش أجسامهم . وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار . وأشعلت لتكون مصابيح بعض الاحتفالات التى كان يقيمها فى حدائق قصره [٢] .

وجاء الإسلام فبدأ تآمر اليهود مبكراً ضد هذا الدين ، فلقد حاولوا اغتيال محمد بعدة طرق . كان منها أن وضعت امرأة يهودية له السم فى طعام دعته إليه ، وذهب مرة إلى مساكن بنى النضير يطلب منهم — بناء على المعاهدة التى كانت بينه وبينهم — أن يسهموا مع المسلمين فى دفع دية التزموا بها فتظاهر اليهود بحسن استقباله ، وقالوا له : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وطلبوا منه الجلوس ريثما يحضرون المال الذى طلبه ، وذهب اليهود لا ليجمعوا المال من بينهم بل ليدبروا حيلة للقضاء على محمد ، ولكن الله أوحى له بأن اليهود يأتمرون به ليقتلوه ، فانسحب فى صمت ، وكان عقاب بنى النضير أن أخرجوا من المدينة .

ولم يكف اليهود عن تدبير المؤامرات ، فراحوا يدبرون مؤامرة أوسع وأقسى ، يريدون بها القضاء على الإسلام والمسلمين وكان ذلك فى غزوة الأحزاب ، عندما تجمعت قوى الشر وحاصرت المدينة ، فاتصل يهود بنى النضير الذين هاجموا المدينة مع المهاجرين ، بيهود بنى قريظة الذين كانوا

---

(١) نقلا عن الكنز المرصود ص ٧٠ .
(٢) انظر : زكى شنودة : تاريخ الاقباط ص ١٠١ .

لم يزالوا بالمدينة . ودُبرت مؤامرة من أعنف المؤامرات ، ليضرب بنو قريظة المسلمين من الخلف ليوقعوهم بين شقى الرحى ، واستجاب يهود المدينة لهـذا الغدر الذى أوقع المسلمين فى حالة من الذعر والقلق يصورها القرآن الكريم أدق تصـوير حين يقول : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصـار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً [1] »ولكن الله نجى المسلمين من هـذا الطغيان ورد الذين كفروا على أعقابهم [2] .

واشـترك اليهود فى قتل عمر وعثمان . وفى كل حركات الاغتيال التى حدثت فى العـالم الإسلامى أو أكثرها [3] .

وظلت هـذه خطة اليهود فى جميع مراحل التاريخ ، حتى فى أزهى عصـور المدنية التى حرَّمت دم الإنسان وَحمت رأيه واتجاهه ، ولكن الغدر والاغتيال كانا دستور اليهود فلم يحيدوا عنـه ، قاموا به فى روسيا ، ونفَّذوه ضـد الانجليز فى فلسطين . وقاموا به فى ألمانيا وأمريكا ، وكان نصيب العرب منـه نصيباً واسعاً .

ففى روسيا ظهر فى بداية القرن العشرين منظمة من أبرز منظمات الإرهاب التى سجلها التاريخ أطلقت على نفسـها « الحزب الاشتراكى الثورى » وكان اليهود يسيطرون على هـذه المنظمة ، وكان بالمنظمة قسم للإرهاب يرأسه يهودى اسمه « غرشونى » وهـذا القسم هو الذى اغتال ستة من كبار الزعماء بروسيا ، وقد حوكم أعضـاء هذا القسم وثبت عليهم الاغتيال فأعدم بعضهم . وحُكِمَ على آخرين بالسجن المؤبد [4] .

ونال الألمـان نصيباً وافياً من اغتيال المنظمات الإرهابية اليهودية ،

---

(١) سورة الاحزاب الايتان ١٠ — ١١ .

(٢) انظر ما كتبناه عن « اليهود والمسلمون » فى موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية جا ص ١٦١ — ١٧٦ من الطبعة السادسة .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٦ — ٢٧٩ .

(٤) Franit Briton : Behind Communism p. 44.

فاليهـود تارة يهاجمونهم فى الطرقـات فيقتلونهم أو يخطفونهم ، وتارة يرسلون لهم المواد المتفجرة ، وبخاصة لأولئك الذين عملوا و تعاقدوا على العمل مع البلدان العربية .

وقد قامت « جماعة ستيرن » باغتيال اللورد موين «Moyne» ، الذى كان وزيراً بريطانياً مقيمـا بالقاهرة ، لاعتقـادهم أنه — إبان كان وزيراً للمستعمرات — قام بتضييق أبواب الهجرة إلى فلسطين فى وجه اليهود (١) .

وفى سنة ١٩٤٨ أطلق اليهود على الكونت برنادوت وسيط هيئـة الأمم اثنتى عشرة رصاصة فى أثناء وجوده بالسـيارة التى كان يستقلها بالقدس فمـات على الفور مع أحد مساعديه الفرنسيين ، وكان كل ذلك لأنه أعرب عن رأيه بأن العدالة تقضى بإعادة النقب للعرب (٢) .

وليس الرئيس الأمريكى الراحل كيندى إلا ضحية من ضحاياهم ؛ ومن العجيب أن التحقيق كان يسـير فى هذا الاتجاه وذاك ، حتى إذا أوشك أن يلتفَّ حول اليهود عـاد أدراجه فانفضَّ عنهم ، لا لشىء إلا لأن الاغتيال كان جزاء محدداً لكل من يُثْبِتُ هـذه الجريمة على اليهود . ولم يكن ذنب كيندى لدى اليهود إلا أنه أيَّد العدالة فى قضـية اليهود والعرب ، وقضية التفرقة العنصرية فى أمريكا .

ومن الاغتيالات التى حدثت بمصر ، ذلك الطرد المملوء بالمتفجرات الذى أرسله اليهـود فى مارس سنة ١٩٦٣ فقضى على ستة من العلمـاء المصريين فى أحد مراكز البحوث العربية .

وفى العراق ضبط البوليس سنة ١٩٥١ كميات كبيرة من الأسلحة والمواد المتفجرة ، مخبأة فى كنيس يهودى يدعى كنيس عزرا ، وكانت هـذا الكميات

(١) Kirk. A Short History of the Middle East p. 323.
(٢) John Scott : The Secret Government in Britain p. 56.

كافية لنسف بغداد كلها ، كما أن البوليس اكتشف فى منزل أحد الأثرياء اليهود مخبأ متسعا يضيق بما فيه من مدافع رشاشة (١) .

هذه صورة سريعة لمظهر التآمر والاغتيال عند اليهود لم نقصد بها إلا الإشارة الخفيفة ، فإن إحصاء هذه الأحداث يفوق العد .

جمعيات سرية

الجمعيات السرية الخطرة كانت ولا تزال من أهم المؤسسات التى اعتمد عليها اليهود لتنفيذ أغراضهم والوصول إلى عدفهم ، وقد ينشئ اليهود جمعيات لهذا الغرض . أو يُوعِزُون بإنشائها ، وقد يجد اليهود جمعيات قامت لغرض أو لآخر فيندسون فيها ، وينفثون فيها سمومهم ، ويوجِّهون أتباعها وُجْهتهم التى يريدونها . ولا تكاد توجد جمعية ذات أسرار وأخطار إلا كان اليهود يعيشون فيها خلف الستار . والمراجع العديدة التى اعتمدنا عليها فى هذا الباب توحى بأن اليهود كانوا خلف الحركات التى هبت فى وجه المسيحية والإسلام . فقد كانوا خلف جمعية فرسان المعبد ، وجمعية الصليب الوردى وغيرهما من الجمعيات التى وجهت نشاطها للنيل من المسيحية ، وكانوا خلف القرامطة ، وغلاء الشيعة . وغيرهما من الجمعيات التى ناصبت المسلمين العداء رغبة النيْل من الإسلام ، وفى مكان آخر لم أقبل تعبير « غلاة الشيعة » وقلت إن هؤلاء ليسوا شيعة وليسوا مسلمين ، وإنما هم جماعة من أعداء الإسلام تظاهروا بالدخول فيه وتظاهروا بالتشيع ، فجعلوا من اسم الشيعة ستاراً لهم ، ونسجوا خلفه ألواناً من الترهات والأباطيل بقصد الكيد للإسلام والمسلمين (٢) .

---

(١) جون بتى : الستار الصهيونى حول أمريكا ص ١٤٦ (الترجمة العربية) .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف جـ ٢ ص ١٥١ من الطبعة السابعة .

وينبغي لي أن أوضح شيئاً خطيراً يصطنعه أعداء الإسلام للنيل منه ، ذلك أنهم على اختلاف مشاربهم أدركوا أن من العسير جداً أن يرتد المسلم عن الإسلام إلى سواه من الأديان ، وأن محاولة ذلك تكلفهم جهداً كبيراً ومالا ضخماً دون أمل ، ومن هنا اكتفى هؤلاء من المسلم بتضليله ، ودفعه إلى الانحراف والبعد عن الإسلام الصحيح وإن لم يعتنق ديناً سواه ، ومن وسائلهم لذلك أن يكلموه عن الإنسانية والعمل لخيرها ، مع الإيمان بالله وتوحيده ، ويجعل هؤلاء شعارهم « الله » أو « الإنسانية » ومن وسائلهم أن يصوّروا له أن الأديان « أفيون » الرعاع فينحدروا به إلى اللادينية ، ومنها أن يزجّوا به إلى مذهب منحرف من المذاهب التي تربط نفسها بالإسلام كالأحمدية والإسماعيلية ، واليهود خلف هذه الطرق جميعاً بطريق مباشر . كأن يؤسسوا هذه الجمعيات أو ينضموا إليها ، وبطريق غير مباشر كأن يدفعوا الاستعمار إلى تأييد مثل هذه الجمعيات . والهدف واحد هنا وهناك .

وإذا تركنا الماضي وعنينا بالحاضر وجدنا اليهود خلف كثير من الجمعيات السرية الخطرة التي تبذل غاية الجهد للنيل من الأديان والأوطان

إننا ندعو الناس مهما كانت أديانهم أو أوطانهم أن يقرءوا ما سندوّنه هنا عن :

الماسونية — والروتارى — والليونز — والبوجا .

فهي أعاصير سامّة تدفعها الصهيونية ليستنشقها المخدوعون .

هذه الجمعيات أو الأندية :

الجمعيات السرية التي تحارب الأديان والأوطان بدوافع صهيونية ، جمعيات كثيرة ، وهي مختلفة الأسماء ، ولكنها متحدة الأغراض ، وقد

قضت السياسة الصهيونية أن تحمل هـذه الجمعيات أسماء مختلفة بحيث لو كشفت أسرار جمعية منهـا وقُدِّر عليهـا أن تُغلق أبوابهـا ، فإن الجمعيات الأخرى تستمر في مزاولة نفس النشـاط وأداء نفس المهمة . وأشهر هـذه الجمعيات هي :

الماسونية — الروتاري — الليونز — البوجا

وجميعها توهم بالنشاط الاجتماعي ، وتقوم ببعضه فعلا بشرط أن يكون هـذا النشـاط تافها قليل الجدوى أو عديم الجدوى ، كا لالتفاف حول مائدة لتناول طعام ، أو الاستماع لخطـاب يلقيه واحد منهم ، أو تقديم هدايا ضئيلة في بعض المناسبات ، أما العمل الحقيقي لهـذه الجمعيات فهو السم الذي ينشر بهدوء ، هو التجسس ، والإغراء ، ومحاربة الوطنية ، ومصارعة الارتباط بالدين .

وهـذه الجمعيات — كمـا سنرى — تضم مجموعة من الأبرياء الذين تخدعهم المظاهر في هـذه المؤسسات ، أو كان عنـدهم فراغ من الوقت يسعون لشغله ، وهؤلاء يعيشون في هـذه الجمعيات كواجهـة لينجذب لهـا آخرون ممن تلعب بهم أغراض الصهاينة .

إننـا نهيب بكل مسلم ، وكل مسيحي (١) أن يبتعد عن هذه المزالق وأن يتعرّف على حقيقة هـذه المؤسسات ممـا سنقتبسه من أدق المصادر حتى يحمى نفسه ودينه ووطنه من هـذا الفساد .

ونتنبه إلى أن الأندية المصرية والعربية كثيرة ، والجمعيات الاجتماعية متعددة ، وكلها تتيح الفرصـة لمزاولة النشـاط البرىء وشغل أوقات الفراغ ، بعيدا عن مؤسسات تتخذ مركزها الرئيسي في شيكاغو أو نيويورك وتقوم أيدى الصهاينة بتحريك خيوط نشاطها . وقد بلغت فاللهم اشهد .

وسنعطي بعض التفاصيل عن هـذه الجمعيات فيما يلي :

---

(١) سنرى أنه صـدر مرسوم بابوى يحذر المسيحيين من الاشتراك في هذه الجمعيات .

الماســـونية

لمحـــة تاريخية :

نشأة الماسونية ليست محددة التاريخ ، ويربطها بعض الباحثين بالكهانة فى عهد الفراعنة ، ويقرر آخرون أنها أنشئت فى هيكل سليمان ، ومنهم من ربطها بالحروب الصليبية ، أو بجمعية الصليب الوردى « سنة ١٦١٦ » ، ويراها آخرون أحدث نشأة ، فيحددون لقيامها القرن الثامن عشر ، واعتقادى أن هناك ارتباطاً بين هذه الآراء جميعاً ، فالماسونية كما سنرى منظمة يهودية ، تظهر لخدمة اليهود من حين إلى حين ، وليس بعيداً أن يكون اليهود قد اقتبسوا بعض أنظمتها وأسرارها من الفكر المصرى ، ثم تجددت مع هيكل سليمان ومع الحروب الصليبية وغيرها من الأحداث الكبرى .

ويكاد الباحثون يجمعون على أنها هى جمعية البنائين الأحرار ، التى وُجدت منذ أقدم العصور فى مصر واليونان وفلسطين ، ومصدر إجماعهم هو التشابه العظيم بين الجماعتين فى النظم والتقاليد ، واعتقادى أن الماسونية منظمة سرية يهودية ، وأن هناك رباطاً يربط بينها وبين البنائين الأحرار ، ذلك أنه كان من بين البنائين من ارتقت مكانته ، فأصبح ذا صلة بأسرار الأهرام والهياكل والمقابر ، فإذا كان البناءون العاديون يبنون الأهرام ، فإن الخاصة منهم يوكل لهم بناء ما بداخل الأهرام من أسرار ، كالمكان الذى ستودع فيه جثة الملك وما معها من حلى وثراء ، وكالطريق الموصل لهذا المكان وكان هؤلاء الخاصة من البنائين على صلة بالكهنة وبالأسرار الكهنوتية ، فلما أنشئت الماسونية بتعاليمها السرية ، كان من ضمن الأسرار أن تتخذ لها اسماً فيه خفاء من جهة ، وفيه دلالة على احتضانها للأسرار من جهة أخرى ، فاتخذت لها اسم « البنائين » وهذا هو الذى ربطها بالبنائين الأحرار .

الظاهر والباطن فى أهداف الماسونية :

وأهداف الماسونية فى الظاهر تختلف اختلافاً كبيراً عن أهدافهـا فى الباطن . فهى فى الباطن وفى حقيقة الأمر — كمـا يقول الحاخام الدكتور إسحق وايز — مؤسسة يهـودية وليس تاريخهـا ودرجاتها وتعاليمهـا وكلمات السر فيهـا وشروحها إلا أفكاراً يهودية من البداية إلى النهاية [١] ،

أما فى الظاهر فهى تظهر للسذج كأنها — كما يقول مكاريوس شاهين — جمعية أدبية تخدم الإنسانية ، وتنور الأذهـان وتنشر الإخاء . وتوطد الحب بين الأعضاء . تحثهم على فعل الخير والإحسان لإخوتهم المحتاجين [٢] . وهى فى الحق بعيدة كل البعد عن هـذه الصفات .

وشـعار الماسونية الظاهرى : الحرية والإخاء والمساواة ، وقد حاول اليهود الانتفاع بهـذا الشعار وبخاصة فى أوربا خلال العهود التى عـانى اليهود فيهـا مرارة الاضطهاد ، فكانوا يقصـدون حث الناس على أن يمنحوهم الحرية ، وأن يعاملوهم بود وبدون تفرقة .

ولا تفتح الماسونية أبوابها لكل الناس ، إنمـا تختار صفوتهم فتشترط لمن يريد الدخول فيهـا ، أن يكون رشيداً ، له مهنة شريفة ، وثقافة لا بأس بهـا ، حر النسب مستقيم الخلق ، لم يعرف بالطيش أو الخلاعة .

وتضـع الماسونية لها دستوراً علنياً يبدو جذاباً خداعاً ؛ توصى فيه بالعمل الصالح ، وبحب الناس ، وتطهير النفس ، والتعـاون مع الزملاء من الأعضاء تعاوناً كامـلا ، وإكرام الغريب ، واحترام المرأة ، وتجنب المشـاجرات .

وعند ما يُقرَّر قبول عضـو جديد ، يتقدم ليقسم قَسَم الجمعية الذى يصبح بمقتضاه عضواً كاملا يؤدى واجبه ويتحمل مسئولياته . ونص القسم كالآتى :

---

(١) The Israelite of America, August 3rd 1866.

(٢) عبد الحليم الخورى : الماسونية : ذلك العالم المجهول ص ٢٢ — ٢٣ .

أقســم بمهندس الكون الأعظم أننى لا أفشى أسرار الماسونية ولا علاماتها وأقوالهـا ، ولا تعاليمها وعاداتها ، وأن أصونها مكتومة فى صدرى إلى الأبد .

أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها ، لا بالإشــارة ولا بالكلام ولا بالحروف ، وألا أكتب شيئاً منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير ، وأرضى — إن حنثت فى قسمى — أن تحرق شفتاى بحديد ملتهب ، وأن تقطـع يداى ويحزّ عنقى ، وتعلّق جثتى فى محفل ماسونى ليراهـا طالب آخر ليتعظ بهـا ، ثم تحرق جثتى ويذرّ رمادهــا فى الهـواء ، لئــلا يبقى أثر من جنـايتى (١) .

وهــذا القَسَم يمدّنا بمعلومات خطيرة عن الماسونية نوضحهــا فيمــا يلى :

أولا — هو قَسَم منقطع عن دستورها العلنى الذى ذكرناه آنفــا فليس به حثّ على العمل الصالح ، وحب الناس ، وتطهير النفس أو غيرها من الأهداف الظاهرة التى تكلمنا عنهــا .

ثانياً — هو قَسَم واضح الدلالة على أنه إقدام على شيء حافل بالأسرار ، فأول شيء ينص عليه القسم ، عدم إفشاء هذه الأسرار بأية صورة من الصور .

ثالثاً — هو وعيد صارم للطالب بالقتل والتمثيل بجثته أن أفشى هذه الأسرار ، ويرى بعض الدراسين أن هــذا الوعيد نُفّذ أحيانا بأن قتل من أفشى السر بصــورة تجعله يبدو كأنه مات منتحراً أو مات موتا طبيعيا .

---

(١) محمد على الزغبى : الماسونية منشئة ملك اسرائيل .

ومراتب الماسونية ثلاثة هي :

١ — الماسونية الرمزية : ويدخل بها أتباع الديانات المختلفة ، ويباشر هؤلاء طقوساً وحركات لا يَفْهَمُون مغزاها ، ويظل فيها الشخص قانعاً بألفاظ الحرية والإخاء والمساواة ، سعيداً بما يناله من عون من الأعضاء الآخرين ، ذلك العون الذي كثيراً ما يدفع العضو إلى مكان الصدارة في عمله ، أو يكسب له وظيفة ممتازة أو ثراء عريضاً ، مما يجعله يزيد ارتباطاً بالماسونية وحباً لأنظمتها ، وفي داخل هذا القِسْم توجد ثلاث وثلاثون درجة ، يترقى فيها العضو درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه وكفاءته وإقباله على الماسونية وتعاليمها ، وينال العضو أسمى الدرجات إذا تم انحرافه عن دينه وعن وطنه ، وأصبحت الماسونية كل عقيدته واحتوت كل تقديره •

٢ — الماسونية الملوكية أو العَقْد الملوكي : وأكثر أعضائها من اليهود ويطلق عليهم الرفقاء ؛ ولا يسمح لغير اليهود بالدخول فيها إلا لمن وصل لأرقى درجات الماسونية الرمزية أي لم يعد يكترث بدين ولا وطن ، فليس له مثل أعلى سوى الماسونية •

٣ — الماسونية الكونية : وهي أرقاها ، وأعضاؤها من اليهود الخلص ، ويطلق عليهم الحكماء ، ورئيس هذا الفريق يلقب بالحكيم الأعظم ، وهو مصدر السلطات لجميع المحافل الماسونية ، ولا يعرف أحد أعضاء هذه المرتبة ، ولا مركز نشاطها •

وللماسونية ألوان وصور تتبع الدرجات والمراتب ، وهي سر من الأسرار لا يعرفه غير أعضاء كل درجة •

وقد أدرك زعماء المسيحيين خطر الماسونية بوجه خاص وخطر الجمعيات السرية بوجه عام على الدين المسيحي ، فصدر مرسوم بابوي رقم

٨٦٤ يحـذّر الكاثوليك من الاشتراك فى الهيئات السرية والمشتبه فيهـا على الإطلاق .

الماسونية فى مصر والبلاد العربية :

لم تتفتح العيون بمصر على خطر الماسونية إلا متأخرة ، فقد اتضح لولاة الأمر ما تقوم به الماسونية من اخطار فى مطلع سنة ١٩٦٤ فصدر قرار فى ابريل من ذلك العام بإلغاء المحافل الماسونية بمصر ، فأُغْلِقَ هـذا الوباء أبوابه .

وانتهت الماسونية بمصر ولكن مهامها ألقيت على الروتارى والليونز واليوجا كمـا سنرى بعد قليل .

وانتهت الماسونية بمصر بعد التأكد من أضرارها ، ولكن للأسف لا تزال المحافل الماسونية تباشر نشاطها فى كثير من البلدان العربية والإسلامية جنبا إلى جنب مع الجمعيات الصهيونية الأخرى .

صورة جديدة من أخطار الماسونية :

نشرت صحيفة الأخبـار القاهرية صفحة فى العـدد الصـادر يوم ١٩٨١/٦/٣ عن فضيحة كبرى من فضـائح الماسونية ، ونقتبس من هذه الصفحة بضعة سطور لنرى صورة من أعمال الماسونية :

والعنوان الرئيسى (المانشيت) لهذه الصفحة هو :

الشبح الذى يحكم إيطاليـا

المحفل الماسونى بإيطاليا دولة داخل الدولة

وفى داخل إطـار أعلى الصفحة جاءت العبارات الآتية :

محفل ماسونى هو الذى اطاح هـذه المرة بالحكومة فى ايطاليـا . والفضيحة الجديدة ، التى يمكن أن يطلق عليهـا « مؤامرة الماسونيين » جعلت جميع الفضـائح التى شهدتها إيطاليا طوال الثلاثين سنة الماضية

تبدو مجرد فقاعات صغيرة ، وقد تمّ العثور على قائمة تضـــم ٩٦٢ اسماً من الشخصيات الكبيرة التى تشـــغل أخطر المراكز فى إيطاليـــا تنتمى إلى المحفل الماسونى وعن طريق هـــذه الشخصيات تمّ إخضـــاع كل الأجهزة والمؤسسات فى إيطاليـــا لسلطة خفيّة سرية •

ونقتبس من هـــذه الصفحة بعد ذلك بضعة سطور :

ــ كانت الصهيونية العالمية تنتظر من الصفوة الماسونية بإيطاليـــا أن يقدّموا معلومات عن عملهم وعن خصومهم •

ــ هنـــاك وثائق ضبطت كانت معدّة ليستخدمها الماسونيين ضـــد الأعضـــاء فى عمليات ابتزاز وتهديد اذا دعت الحـــاجة . أى اذا كشف أىّ منهم أسرار الماسونية ، فحينئذ يعرض نفسه لإذاعة هـــذه الوثائق التى تدينـــه فى عمليات خطيرة اعترف فى الوثائق بالقيـــام بها ، ومنهـــا جرائم قتل ، وتهريب رءوس أموال ، وتجارة غير مشروعة ، واختلاسات ، وإرهـــاب أســـود •

ــ امتد خطر الماسونية بإيطاليـــا إلى الجيش والبوليس ، فقد شملت القـــائمة بعض جنرالات الجيش والبوليس وحرس الحدود وهـــذا هدّد الأمن الداخلى والأمن الخارجى للدولة •

ــ استعملت الماسونية الابتزاز والرشاوى والوعود لتحقيق الأغراض الصـــهيونية •

ذلك موجز سريع لهـــذه الصفحة السوداء التى تحكى أخطار الماسونية ، لعل الدول العربية والاسلامية توقف هـــذا الخطر قبل أن يستفحل •

الروتـــارى

لم يكتف اليهود بالماسونية السرية رغم أنهـا تتشـكل فى البلدان بأشكال مختلفة تبعـاً لطبائع كل بلد ونظمه . بل أقاموا هيئة أخرى علنية منفصـلة عنها ، تؤدى بعض مهامها تحت ستار الإخاء الإنسانى أيضـاً ، وسموها « أندية الروتارى » وتوجد هـذه الأندية فى العواصم والمـدن الكبرى . والغرض الظـاهرى منهـا هو النظر فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية بإلقـاء المحاضرات والخطب ، والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة والبلدان المتعددة . أمـا الغرض الحقيقى فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود ، ثم يحـاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جمع المعلومات التى تساعدهم فى تحقيق أغراضهم ، اقتصادية كانت أو صناعية أو سياسية .

ولقد فطن الفاتيكان أيضاً إلى خطر هـذه الأندية كمـا فطن من قبل إلى خطر الماسونية ، فصدر مرسوم من المجلس الأعلى المقدس فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٥٠ قرر فيه الكرادلة ما يلى :

« دفاعاً عن العقيدة وعن الفضـيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتسـاب إلى الهيئة المسـماة بنادى الروتارى وعـدم الاشتراك فى اجتماعها ، وإن غير رجال الدين يطالبون بمراعاة المرسوم رقم ٨٦٤ الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيهـا » .

وتتفق الماسونية وأندية الروتارى فى أن أبوابها ليست مفتوحة لكل الناس ، وإنمـا يُختار لهمـا أحد نوعين ، يتحتم أن نتحدث عن كل منهما على حـدة .

النوع الأول : جماعة المشاهير الذين لا تحوم حولهم شبهات ، والذين لهم مراكز عظمى فى المجتمع ، ويوضع هؤلاء فى الدرجة الأولى أى الدرجة التى لا ترى إلا الحفلات والرحلات ومظاهر الإخاء الإنسانى ، ومهمـة

هؤلاء أن يضمنوا السلامة وإبعاد الشبهات عن الجمعية من جانب . وأن يُخدَع بهم آخرون فيتقدموا للانضمام لهذه المؤسسات من جانب آخر .
ويقال إن السيد جمال الدين الأفغاني كان عضوا في الماسونية . وكان الإمام محمد عبده كثير الجلوس في بيروت مع عباس افندي الذي آلت له رياسة البهائية التي سنتكلم عنها فيما بعد ، وكان عباس شديد الولاء للانجليز . ويسير ركبه بحماسة في خدمة الحلفاء في خلال الحرب العالمية الأولى . وكان شديد الانحراف عن الدين ، ولكنه كان يخفي هذا الاتجاه في جلساته مع الأستاذ الإمام ، حتى كان الإمام يبدي إعجابه به ، وقد دهش السيد رشيد رضا من هذا الموقف للأستاذ الإمام ، ولكننا نلتمس العذر له ، فأمثاله في التاريخ كثيرون ممن انجذبوا لهذه المؤسسات وأخفيت عنهم تماما الاتجاهات المنحرفة لها .

شاهد عيان يتحدث عن الروتاري :

وممن انضم لأندية الروتاري من المفكرين المصريين المعاصرين **الأستاذ أنيس منصور** . وقد ظل عشر سنوات يدور في هذه الدائرة الضيقة : حفلات وطعام دون جدوى ، ثم صرخ بعد هذه السنوات صرخة مدوية . صرخة شاهد عيان تساءل فيها عن جدوى هذه الأندية ونشر صرخته في « مواقف » بالأخبار يوم ٢٠/٥/١٩٧٣ وفيها يقول :

« اشتركتُ على سبيل العلم بالشيء ، في إحدى جماعات الروتاري منذ أكثر من عشر سنوات ، وكان اشتراكي نتيجة لضغط شديد من الأصدقاء قالوا لي : تعال ، تفرَّج ، لكي تزداد معلوماتك ومعارفك .. بدلا من أن تدفن رأسك وحياتك كلها في الكتب .. يا أخي أنت درت حول الأرض شرقاً وغرباً وسوف يأتي العالم كله إليك .. تعال ، اشترك .

وذهبت واشتركت ، وفى اليوم الأول كان حفل غداء ، والغداء أهم حدث أسبوعى فى كل جمعيات الروتارى ..

« وفى أثناء الغداء أو بعده كان يقـال لنـا : جاءنا اليوم مستر كوكو ما كوكو من اليابان وهو عضو الروتارى المركزى فى طوكيو ، ويحمل إليكم تحيـات السيد أكوماكو الرئيس الفخرى .

« ويتعالى التصفيق ، ثم يتبادل الزائر اليـابانى ورئيس الروتارى المصرى الأعلام .. ومع التصفيق يجلس الزائر لنسمع عن زائر آخر جاء من الهنـد ويحمل تحيات الهنود .. وزائر ثالث من أمريكـا ... وهكذا .. غـداء وتصفيق وأعلام ولا شىء بعد هـذا !

« ولذلك يمكن القول إنه لا معنى لعضوية الروتارى إلا إذا كان الإنسان خاليـاً لا عمل له ولا دور له فى أى مجال ، وإن كنت أعترف بأن كل إنسان حر فى تبديد وقته وطاقته ومـاله .

« ومن الأخبـار المضحكة التى تنشرهـا الصحف والمجلات ظهور عدد كبير من الجمعيات الروتارية النسائية ، تجتمع وتنفض . لماذا ؟ لا أحد يعرف الإجـابة ، وأهم نواحى نشاطها هو الغداء أو العشاء ، وأن تتخذ قرارها فى كل اجتماع ، بأن يكون الغداء القادم فى المكان الفلانى ، وَوَلَدَتْ الجمعيات النسائية الروتارية جمعياتٍ صغيرة لأطفال الروتارى ، وهم أيضاً يجتمعون ويصدرون قرارات أخرى مماثلة وتُنْشَرُ لهـا الصور فى الصحف مجـاملة وتشجيعاً ، لأن بعض أعضائها من أقارب الزملاء الصحفيين أو أصدقائهم .

« والناس يتساءلون : مَنْ هؤلاء الروتاريون ؟ ما دورهم ؟
ما رسالتهم ؟ ما سرّ حرصهم على إضاعة الوقت وإيهام
الناس بأنهم يستثمرون الوقت لصالح الآخرين ؟ .

« أنا حقيقة لا أدرى لها فائدة ، ولم أسمع من أحد
أن لها فائدة » .

وما أن نشر الأستاذ أنيس منصور هذه الكلمة حتى ثارت ثائرة الذين يهمهم أن تبقى حياة هذه المؤسسات سراً مكتوماً ، وهاجم أحدهم الأستاذ أنيس هجوماً وصفه سيادته فى كلمته فى ٣٠/٥/٧٣ بأنه تفوّه بشتائم لا تصدر إلا من رجل مصاب بتشنج أو جنون ، وأنها نوبة روتارية .

النوع الثانى ممن يختارون للماسونية والروتارى : جماعات تجيء منجذبة بالأسماء اللامعة السابقة ، وتختار هذه الجماعات بدقة هائلة بحيث يكون هناك أمل فى أن تعمل لتحقق الأغراض الرئيسية لهذه المؤسسات بكشف بعض الأسرار أو ترويج الاشاعات الضارة .

والبحث التاريخى يثبت علاقة بين القرامطة الذين حاربوا العالم الإسلامى وكانوا من أسباب ضعفه وبين هذه المؤسسات ، من ناحيتين :

أولا : صفات من يقبل للالتحاق بهذه وتلك ، فلم يكن يقبل أحد للانضمام للقرامطة إلا بعد اختبارات طويلة ومراسم خاصة [1] ، وكذلك لا يسمح للانضمام للروتارى إلا لجماعات خاصة تدخل تحت النوع الأول أو النوع الثانى . ؟

ثانيا : الاتجاهات السرية فى القرامطة وفى هذه المؤسسات ؟ فكلمة « قرمط » معناها « المعلم السرى » كما يقول الدكتور فيليب حتى [2] .

---

(١) انظر الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف عند الحديث عن القرامطة .
(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٩ .

ويقابل ذلك القسم الذى ينضم به العضو الجديد لهذه المؤسسات مهو حافل بالأسرار والغموض ، وقد سبق أن أوردنا نص القسم الذى يقسم به العضو الذى يدخل الماسونية ، ولا يستعمل هذا القسم مع النوع الأول ممن يختارون للماسونية والروتارى حتى لا يثير هذا القسم شكوك هذا النوع من الأعضاء .

وجماعات النوع الثانى التى تدخل هذه المؤسسات منجذبة بالأسماء اللامعة السابقة توضع عقب دخولها تحت الاختبار ، وتتدرج فى الدرجة الأولى من الدرجات المتعددة لهذه المؤسسات ، وفى هذه الدرجة تباشر هذه الجماعات ألواناً من الحفلات التى تحدث عنها الأستاذ أنيس منصور ، وقد تمارس بعض الرحلات ، أو ترى ما يمكن أن يسمى التعاون والمساعدة ؛ وفى خلال هذه المرحلة هناك عين يهودية تفحص وتختبر لتلتقط من بين هذه الجماعات من تتوافر فيه الصفات الثلاثة التالية :

١ — التسامح الدينى أو قل عدم الحماسة للدين ولشعائره ولطقوسه ، أياً كان هذا الدين .

٢ — عدم الحماسة الوطنية ، وضعف الارتباط بالوطن .

٣ — النفوذ الذى يستمتع به ذلك العضو ، وقد يكون هذا النفوذ عن طريق أسرار تحت يده أو عن طريق كلمة مكتوبة أو مقولة يمكن أن يؤثر بها على الآخرين . أو عن طريق المقدرة على نشر الشائعات .

والذى تتوافر فيه هذه الشروط تلتقطه العين اليهودية الفاحصة لتضعه فى مرحلة أعلى ، وتقدم له مزيداً من العون ، ويشجع على عدم الحماسة للدين أو للوطن ، وذلك باستعمال تعبيرات خداعة مثل : الإنسانية — والدين لله ، وهكذا ..

وإذا استجاب هذا العضو لهذه الاتجاهات نقل إلى درجة أعلى . وهو فى كل خطوة ينال مزيداً من العون فى النواحى التى ترضى رغباته

مادية كانت أو معنوية ، ويصل أخيراً إلى المرحلة التي يُصبح فيهـا أداة طيِّعة فى أيدى قادة هـذه المؤسسات وباعثى النشاط فيهـا ، وهى أيدٍ يهودية صرفة تعمل لصـالح القضية اليهودية من جوانبها المختلفة .

وهكذا يتضح لنـا أن هناك أفراداً ينتسبون إلى هـذه المؤسسات ولا يعرفون أسرارها ، بل يدافعون عنها ، لأن هذه المؤسسات لا تستغلهم . ولا تكشف أسرارها لهم ، ولكنها تنتفع بهم من حيث لا يشعرون ، فهم قمم فكرية أو شخصيات معروفة غير متهمة ، وعن طريقهـا يدخل الأغرار من الناس هـذه المؤسسات ويُساء استعمالهم ، وقد ألغت مصر المحافل الماسونية فى أبريل سنة ١٩٦٤ بعد تحريم البابا لها بأكثر من عشر سنوات ، ولكن لا تزال هذه المحافل تباشر نشاطها فى بعض البلدان العربية كما قلنا ، ولا تزال الروتارى والليونز يزاولان نشاطهما فى مصر ، وليسا فى الحقيقة إلا صورة دقيقة للماسونية ولكنهـا تحمل أسماء أخرى .

وقد حـدث أن تعرّفت بعض هـذه المؤسسات على كتابى هـذا « اليهودية » فأزعجهم مـا جاء به عنهم ، وراحوا يتصلون بى بين وعـد ووعيد لتخفيف اتجـاهى نحوهم أو إيقافه ، ولكنهم بطبيعة الحـال لم ينالوا شيئاً من أمانيهم ، وكان هـذا بالإضافة لمـا كتبه الأستاذ أنيس منصور ضربة قاسية عليهم تكشف اتجاهاتهم ، فراحوا يدافعون عن هـذه الاتجاهات بأن أوعزوا إلى كاتب لطه من صفوف النوع الأول أن يكتب عنهم فيضاً من المدح والثناء ، وفتحت مجلة الإذاعة أبوابها لذلك فى عددها الصـادر فى ١٨/٨/٧٣ ، بل استطاعوا أن يصـلوا إلى التليفزيون العربى وأن يعرضوا به مـا أسموه نشاطاً اجتماعياً لهم ، ولكن ذلك لم يُخْفِ الحقائق عنهم ، ولذلك نقتبس ممـا جاء فى مقال مجلة الإذاعـة بعض العبارات التى تشير بطريق غير مقصود إلى حال أندية الروتارى ، فقد كانت العناوين التى اختارها كاتب المقال تَنِمُّ عن الأسرار والانحراف .

وهذه العنـاوين هى :

* هؤلاء الروتاريون وعالمهم العجيب !

* فى مصر ١٠٠٠ روتارى وثلاثون نادياً !!

* عضو واحد من مهنة واحدة فى النادى الواحد !!

والعنوان الأول لا يحتاج إلى تعليق ، والعنوان الثانى يفضح التكاليف الباهظة ، ويتساءل الإنسان كيف يكون هناك ثلاثون نادياً لألف فقط من المشتركين ؟ وكيف يستطيع حوالى ثلاثين أن يتحملوا تكاليف النادى ؟ والعنوان الثالث يوضع تحته عدد من الشرط وتوضع أمامه علامات استفهام كثيرة لنسأل : لماذا لا يقبل أكثر من واحد من مهنة واحدة فى النادى ؟ والإجابة تقول إن ذلك ضرورى حتى تظل الأسرار مكتومة ، وحتى لا يحدث التنافس بين الاثنين كشفاً لهذه الأسرار .

وفى هذا المقال حديث عجيب عن طعام الصباح الحافل الذى قدم لرواد مؤتمر الروتاريين فى لوزان بسويسرا سنة ١٩٧٢ وأطباق القشدة الشهية التى تتوج بها أعمال الأيام الحافلة بالمناقشات ، والاستعراضات الترويحية التى تقدم بسخاء وذوق رفيع للضيوف الروتاريين .

وفى هذا المقال يذكر الكاتب ما يلى بالحرف الواحد مما يوضح الصلة بين الروتارى وبين هيئة القرامطة التى أشرنا إليها من قبل ، يقول الكاتب :

« والحصول على عضوية نادى الروتارى أشد صعوبة من دخول كلية الطب ، ومن الوصول من خلال الكمبيوتر إلى سيارة نصر ١٢٥ ، أو شقة من شقق الأوقاف ، فهذه هى العضوية الوحيدة التى لا يسمح للإنسان بأن يتقدم إليها ، بل الشرط الأساسى فيها أن يفاجأ العضو بأنه مرشح لها ، وفى هذه النقطة بالذات تقضى طقوس الروتارى بأن يتم وضع العين على العضو المرشح ، دون أن يشعر ، وتبدأ التحريات عنه دون

إخطار ، حتى إذا تمت الموافقة عليه من الجهـاز الإدارى بدأ التحدث معـه بشأن العضوية . فإذا علمت أنه لا يقبل فى أى ناد من نوادى الروتارى أكثر من عضـو واحد من مهنة واحدة ، أدركت ضيق فرصة العضوية فى هذا النادى .

« وإذا فقـد عضو عضويته فى نادى الروتارى كان ذلك أشد خطراً من فقدان إنسان لشهادته الدراسـية أو رخصة سيارته : فهذه أو تلك يمكن التغلب عليها باستخراج بدل فاقد ، أمـا عضوية الروتارى المفقودة فالطريق إلى استعادتها ، أصعب من استعادة الزوج لزوجته بعد طلاق ثالث » يا لله !!

ويورد الكاتب صورا من الخدمات التى يقدمها الروتارى فى بلاد العالم المختلفة ، وهى صـور تدعو فى الحقيقة للسخرية البالغة ، وهى أمامى وأنا أكتب هـذه السطور ، وليت كل قارىء يراجعها ليسخر منها كما سخرت . وأنا أكتفى بنموذجين منهـا : أحدهما يرتبط بضاحية المعادى التى أعيش بهـا ، والآخر يرتبط بقطر إسلامى عدت منه حديثاً هو « ماليزيا » .

وعن المعـادى يقول هذا الكاتب : إذا كانت ضاحية مثل المعـادى تشكو من معاناة ألفين وخمسمائة من شبابها يومياً فى ذهابهم إلى الجامعة ، فإن الروتارى يفكر فى حل هـذه المشكلة بطريقة مهمة هى كيف يتعـاون سكان المعادى من أصحاب السيارات كل صباح على نقل عدد من الطلبة فى سياراتهم وهم فى طريقهم للعمل . وهو حل كمـا ترى يدعو للسخرية . ولا وجود له ، فلا تكاد ترى طالباً يعتمد على هـذا الحل ، ولا صاحب سيارة يقف إلا لمعـارفه أو رفاقه . ممـا يجعل الحل خيـالا فى ذهن الكاتب فقط أو فى ذهن أتباع الروتارى على العموم ، وأنا أقول هـذا وأنا من سكان المعـادى ، ومعى سيارة لا أذكر أن أحدا استوقفنى إلا قليلا

جدا ، فالطلاب يحافظون على أوقاتهم وكرامتهم • ويتجهون من بيوتهم الى المواصلات العامة والكثيرون منهم يملكون سيارات خاصة •

وعن ماليزيا يذكر الكاتب أن نادى الروتارى تدعم مجموعة من الأجهزة لبعض الأطفال من الصم في إحدى القرى لتعينهم على السمع • ومن الواضح أن هذا الكاتب لم ير ماليزيا ، ولو رأى ما تنعم به من ثراء فياض لتردد كثيراً قبل أن يكتب هذا الخبر الذى يظنه مفخرة للروتارى ، وهو عن المفاخر بعيد وبعيد •

ليت مفكرينا يتدارسون هذه الأنشطة التى ليس لها هم إلا أن تتوقع الأضرار بمقدساتنا وقيمنا الرفيعة •

معلومات جديدة عن أندية الروتارى

١ — وزير داخلية مصرى يفضح الروتارى :

فى ضاحية المعادى يوجد فرع من فروع أندية الروتارى ، وفى هذا الفرع مجموعة من الأعضاء أعرف بعضهم ولا أعرف الآخرين ، وقد ذكرت نشرة أنباء المعادى الصادرة فى ١٩٧٥/٥/٢٢ أن حديثاً دار فى أروقة ناديهم عن موقفى من الروتارى ••• ، والذى لاحظته من هذا المقال وسواه مما دار فى الاجتماع ووصلتنى أخباره ، أن الروتاريين يضيقون بالنقد ، وهى صفة أشار لها الأستاذ أنيس منصور فى كلمته بالأخبار بتاريخ ١٩٧٣/٥/٣٠ حيث تحدث عن النوبة الروتارية التى تصيب بعض الروتاريين عندما يعرض لهم أحد بنقد أو تأريخ ، **كانما يريدون أن تبقى حياة تلك المؤسسات سراً مكتوما** •

وفى أحد لقاءات جماعة الروتاريين بالمعادى كان الاجتماع لتناول العشاء وكان ضمن الحاضرين الأستاذ ضياء الدين بيبرس ، وعلى فكرة أقرر أن أعضاء الروتارى لا يهتمون بالألقاب التى يتعامل بها الناس ،

فالصحفى والأستاذ والدكتور لا أهمية لهـا عندهم . وإنمـا اللقب الحبيب إليهم هو « الزميل الروترى » (أنظر فى ذلك نشرة « أنباء المعادى » بتاريخ ٢٢/٥/١٩٧٥) .

وفى لقـاء العشاء ذاك دعا الأستاذ ضياء الدين بيبرس المذيعـة اللامعة الأستاذة كريمان حمزة أو الحاجة كريمان حمزة كمـا تحب أن تنادى . وكانت الحاجة كريمان قد استضافتنى مرة للبرنامج الذى تقدمه بالتليفزيون العربى ، حيث تكلمت كلمة عن أندية الروتارى ، ومن أجل هذا دعاها الأستاذ ضياء الدين لاجتماع نادى الروتارى بالمعادى ، وفى أروقة النادى قدمهـا الأستاذ ضياء الدين إلى الأستاذ عبد العظيم فهمى وزير الداخلية السابق ، قائلا :

— السيدة كريمان حمزة التى هوجمت أندية الروتارى فى برنامجهـا « هدى الله » فقال الأستاذ عبد العظيم فهمى وزير الداخلية السابق :

معها حق ، لقد كان اليهود أول جماعة أنشأت ناديا للروتارى بمصر ، وكانت تحوم حوله الشبهات ، ولهـذا أقفلت أندية الروتارى بمصر مرتين وأنا وزير الداخلية .

قال الأستاذ ضـياء الدين :

ولكنك عضـو فيه .

فأجاب الأستاذ عبد العظيم فهمى وزير الداخلية السابق قائلا :

أنا الآن بالمعـاش ، وأضيع الوقت فى بعض النشاط ، ثم إننى أقصد أن أعرف « بتعملوا إيه » .

ولو كنت مكان الأستاذ ضياء الدين لتخليت عن الروتارى بعد ذلك الحديث ، ولأذعت ما قاله وزير الداخلية بين الأعضاء ليكونوا على علم بشىء من تاريخ هـذه المؤسسة التى ينتسبون إليهـا .

(ب) نشاط نادى الروتارى بالمعادى :

فى نشرة « أنباء المعادى » التى يصدرها الأستاذ حسن صبحى الذى يوجّه أكثر جهود قلمه وصحيفته لخدمة الروتارى ، كتب الأستاذ حسن صبحى مقالا طويلا فى ١٩٧٥/٥/٢٢ عنوانه « إلى الدكتور أحمد شلبى » وفى هـذا المقال أو الخطاب المفتوح دراسة مفصلة عن جهود نادى الروتارى بالمعادى ؛ وهى تقديم عون مالى لإحدى الجمعيات الخيرية ، وإصلاح ملجأ متهدم للكفيفات ، ومساعدة منكوبى كوارث السيول ، ومواساة جرحى الحرب ، ورفع مستوى بعض الحرفيين بتدريبهم فى مصانع المنطقة ، ومساعدة بعض التلاميذ بشراء الكتب التى يحتاجونها ولا يملكون ثمنها .

وقد كتبتُ رداً على هذا الخطاب المفتوح لينشر فى نفس المكان الذى نشر به الخطاب المفتوح ، ولم أعْنَ بنشره ، ولم أناقش فى الرد مدى هذه الجهود وجدواها ، **بل كان أبرز ما ذكرته فى الرد هو إظهار الدهشة أن نكوّن بالمعادى فرعا للروتارى من أجل هـذه الأهداف التى يمكن أن تقوم بها أية جمعية وطنية أو اجتماعية بالمعادى دون حاجة لأن يقوم بذلك فرع للروتارى يرتبط بمركز الروتارى العام بالولايات المتحدة .**

وذكرت فى الرد أن « مسجد الفتح » بالمعادى يقوم بأضعاف أضعاف هذا النشاط ، وهو يُعدُّ فى الحق منارة عالية لخدمة البيئة ، وأن به قاعة محاضرات لكل نواحى المعرفة ، ودروساً لتقوية التلاميذ ، وأضواؤه ساطعة تستقبل التلاميذ والطلاب أكثر الليل وطول النهار فى فترات الاستذكار ، وبه عيادات طبية ومستشفى لمختلف الأمراض .

وختمت خطابى بالأمل أن نربط نشاطنا الاجتماعى بمؤسسات وطنية اجتماعية بعيدة عن الشبهات .

(جـ) رأى المؤتمر الإسلامى العالمى فى الماسونية والروتارى .

عُقد فى مكة المكرمة وتحت رعاية المغفور له الملك فيصل مؤتمر عالمى

للمنظمات الإسلامية فى المدة من ١٤ إلى ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٩٤ هـ (مارس ١٩٧٤) وقد اشترك فى هـذا المؤتمر ١٤٠ وفداً تمثل جميع الدول الإسلامية والأقليات الإسلامية بالدول غير الإسلامية ، وكان لمصر وفد كبير بين هذه الوفود . وقد تدارس المؤتمر مجموعة من القضايا الإسلامية والعالمية ، واتخذ فيهـا قرارات صارمة ، وكان قراره الحادى عشر خاصاً بالماسونية وأندية الروتارى وأندية الليـونز وحركات التسـلح الخلقى وإخـوان الحرية ، ونصـه :

« الماسونية جمعية سرية هدامة لهـا صلة وثيقة بالصهيونية العالمية التى تحركها وتدفعها لخدمة أغراضها ، وتتستر تحت شعارات خداعة ، كالحرية والإخاء والمساواة ، وما إلى ذلك ممـا أوقع فى شباكها كثيراً من المسلمين ، وقادة البلاد وأهل الفكر ، وعلى الهيئات الإسلامية أن يكون موقفها من هـذه الجمعيات السرية على النحو التالى :

١ — على كل مسلم أن يخرج منها فوراً .

٢ — تحريم انتخاب أى مسلم ينتسب لهـا لأى عمل إسلامى .

٣ — على الدول الإسلامية أن تمنع نشاطها داخل بلادها وأن تغلق محافلها وأوكارها .

٤ — عدم توظيف أى شخص ينتسب لهـا ومقاطعته مقاطعة كلية .

٥ — فضحها بكتيبات ونشرات تباع بسعر التكلفة .

وتعامل كل من النوادى التالية معاملة الماسونية : نادى الروتارى — نادى الليونز — حركات التسلح الخلقى — إخوان الحرية » .

وبعد هـذا الإيضـاح من الدراسات العلمية ، ومن وزير الداخلية بمصر ، ومن المؤتمر العالمى الإسلامى لم تبق حجة أمام أى مسلم وأى مصرى للانضمام لهـذه الجمعيات المشبوهة .

* * *

(د) الغفلة التى ضاعفت أعداد الروتاريين

لابد أن نبدى دهشتنا ممـا يحصل حولنا ، فنحن الكتاب نؤدى واجبنا فى شرح المشكلات للناس ، ونتخذ الوسائل المتعددة لتوضيح هذه الأمور وإزالة هـذا الظلام ، ولكن يبدو أن القراء قليلون ، وأن الكثيرين لا يزالون يعيشون فى الظلام وينتسبون لهـذه المؤسسات الموبوءة وكلما زاد عدد أعضاء هـذه المؤسسات كلما تضاعف الخطر ، على الدين والوطن ، وفى العدد الصـادر فى ١٩ يونيو سنة ١٩٨٠ من « أنباء المعادى » إحصائية توضح الزيادة الخطيرة للمنتسبين لهـذه الأندية ، وتوضـح كذلك أن الرأسمالية الصهيونية تحتضن أفكار هذا المؤسسات وتنفق عليهـا بسخاء ليظل السذج منجذبين إليها وسنقتبس فيما يلى سطورا من هذه الإحصائية :

١٨٫٧٤٠ روتريا من جميع أنحاء العالم يجتمعون بشيكاغو لتبادل المعلومات

حفلت مدينـة شيكاغو الكبيرة بالولايات المتحدة منـذ يوم ٣٠ مايو الماضى وحتى العاشر من يونية الحالى بعدد كبير من الروتريين وأعضـاء اسرهم بلغ عددهم من واقع سجلات مؤتمر الروترى الدولى ١٨٫٧٤٠ قدموا من ١١٢ دولة فى القارات الست • فملأوا رحاب فنادق المدينة رغم كثرتها ورغم ضـخامة بعضها الذى يتسـع لثلاثة آلاف ضيف • وازدحمت بهم المتاجر والشوارع والمطاعم والمسـارح على كثرتها • كما ازدانت شوارعها بالاتوبيسات الخاصة التى تحمل على مقدمتهـا شارة الروترى ورقما خاصا بكل أتوبيس • • • •

وقد أصبح عدد أندية الروتارى ١٨٫٦١٩ ناديا تضم ٨٦٠٫٤١٢ عضوا فى ١٥٣ دولة ، وأصبحت حضارة كل بلد تقاس بعدد أندية الروتارى فيها •

يا لله ، كبرت كلمة أن تقاس حضارة البلاد بعدد أندية الروتارى ،

والذى نراه أن غفلة الناس وسذاجتهم هى التى تقاس بعدد هذه الأندية •

ومرة أخرى نسأل : من الذى أنفق على هـذه التجمعات الهائلة . د«ا من تذاكر السفر إلى الاقامة أكثر من عشرة أيام ؟

إن المـال اليهودى وحده هو الذى يستطيع أن يتحمل هذه النفقات ويحجز الأماكن لهؤلاء الآلاف بأضخم الفنادق ، وهو الذى يعد الأوتوبيسات ويحجز للروتاريين بالمسارح ، وينظم لهم الرحلات والحفلات .

لقد باع هؤلاء بلادهم ومبادئهم وأديانهم بثمن رخيص هو متعـة رخيصة مدة عشرة أيام .

إننا نرجو لهم التوبة والعودة السريعة لخدمة الدين والوطن .

الليونز — إخوان الحرية ...

ان القرار الذى أصدره المؤتمر الاسلامى والذى نقلناه من قبل يوضح أن هناك هيئات أخرى أقامتها الصهيونية لتباشر نفس النشاط الذى تقوم به الماسونية والروتارى ، وقد ذكرت من قبل أن الصهاينة حرصوا على الإكثار من هذه الهيئات حتى إذا أغلق واحد منها بقيت الأندية الأخرى تؤدى نفس العمل .

ومن الهيئات المنتشرة الآن فى كثير من دول العالم مؤسسات الليونز وإخوان الحرية ، ومما يذكر عن الليونز فى القاهرة أن أعضاءه يتناولون الغداء مرتين فى الأسبوع إحداهما فى فندق شيراتون القاهرة ، والأخرى فى « جولى فيل » بمنطقة الهرم ، وقد دعيت حديثا لإلقاء محاضرة لأعضاء الليونز عقب تناولهم طعام الغداء ، وكان ذلك بمناسبة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستجبت ، ولكن صاحب السلطة هناك اقترح على أن أتكلم فيما قدمته الأديان للبشرية من أفضال ، وأحسست أنه يريد أن يصرفنى عن الحديث الطبيعى وهو لمحات من صفات الرسول محمد صلوات الله عليه .

وبدأت أتكلم حيث تناولت بعض التشريعات الاجتماعية التى وردت فى التوراة وذكرت أن الانجيل لم يضف إلا الشىء القليل لهذه التشريعات ثم ذهبت الى الإسلام لأتحدث عن حضارته المتشعبة التى أنقذت البشرية من الظلام ونقلت الناس إلى النور ، كما ذكرت أن القرآن الكريم ينص على أن الإسلام شمل أهم ما فى الأديان السماوية من تشريعات وأضاف اليها ما تحتاجه البشرية الى يوم الدين .... فالذى يدخل الإسلام يحيط بكل الأديان ، ويحترم كل الأنبياء .

وقد أعجب كثير من الحاضرين بحديثى وطالبوا أن أحضر مرات أخرى لتقديم مزيد من هذه الدراسة ، ولكن أصحاب السلطات الذين يعرفون أسرار هذه الأندية لم يكرروا الدعوة لى حتى لا يتيحوا الفرصة لتقديم مثل هذه الدراسات .

اليــوجــا

ومن الجمعيات ذات الصلة بالصهيونية منظمة اليوجا وهى منظمة تدعى أنها تباشر ألواناً من الرياضة البدنية ، والتدريبات الجسمانية . وكذلك بعض التدريبات الروحية أو ما يسمى « باليوجا الروحية » ولهذه المنظمة فروع فى أكثر بلاد العالم ، وهى تبدأ باسم اليوجا ثم تتجه لنشر سمومها بين الأعضاء الذين يخدعون بها وأهم ما تعنى به محاربة الأديان . وتوجيه الشباب للتحلل من التزاماتها ، والعمل على ما يسمونه بالرباط الإنسانى . ويصلون بذلك إلى الدفاع عن اليهود باسم الإنسانية ، وباسم ما عانى هؤلاء من اضطهاد فى التاريخ ، كأنهم وحدهم الذين عانوا الاضطهاد بين البشر .

وقد افتتحت منظمة اليوجا فرعاً لها فى القاهرة سنة ١٩٧٥ وكان يقوم بالتدريب به شاب من الفلبين وفتاة أمريكية ، وقد استطاع الاثنان أن يجذبا إلى مقر هذه المنظمة عدداً من شباب الجامعات للتدريب على اليوجا ، والاعداد للقيام بنشاط اجتماعى لتوعية أهالى القرى والمدن .

وذكرت صحيفة الأخبار المصرية الصادرة فى ١٩٧٥/٧/١٦ أن رجال الأمن لاحظوا أن الفتى والفتاة يتستران وراء هذه العملية ، ويقومان بنشاط سياسى ودينى ، ويهتمان بالدعوة لتمييع الأديان ، والانتقاص من القيم الروحية التى تتضمنها .

وبعد التحقيق فى هذه المسألة اتضح ان هذه المنظمة تموّل من جهات صهيونية ، وأنها فرع لمنظمة تتخذ مركزها فى إسرائيل ، ومن أجل هذا صدرت الأوامر بإيقاف هذا النشاط ، وترحيل الفتى والفتاة إلى خارج البلاد .

تنبيـــه وتحذير

أيهـا القارىء الكريم ..

هل اقتنعت بخطر هـذه المؤسسات والأندية على الدين والوطن إننى أعيد وضع الحقائق الآتية أمامك بإيجـاز لأساعدك على الوصول إلى اليقين :

١ — أدركت الحكومة المصرية سنة ١٩٦٤ خطر الماسونية على الدين والوطن ، وأنهـا تعمل لحسـاب الصهيونية ، فصدر قرار فى أبريل سنة ١٩٦٤ بإلغـاء المحافل الماسونية .

٢ — قرر السيد عبد العظيم فهمى وزير الداخلية الأسبق بمصر أنه ثبت له أن اليهود كانوا أول من أنشأ ناديا للروتارى بمصر ، وكانت تحوم حوله الشبهات ، ولذلك أصدر قراراته بإقفال أندية الرتارى . ولست أدرى كيف يسمح لها بالنشاط بعد ذلك .

٣ — ثبت لرجال الأمن بمصر أن القائمين بنشاط « اليوجا » يقومون بنشاط سياسى ودينى ، ويهتمون بالدعوة لتمييع الأديان والانتقاص من القيم الروحية التى تتضمنها ، وثبت لهم كذلك أن هذه المنظمة تموَّل من جهات صهيونية ، وأنهـا فرع لمنظمة تتخذ مركزها فى اسرائيل ، ولهـذا صدر قرار بإيقاف نشاطها وإغلاق أبوابها .

٤ — قرر الأستاذ أنيس منصور أنه التحق بالبروتارى عشر سنوات فلم يجد لهـذه الاندية أية فائدة .

٥ — درس المؤتمر الاسلامى العالمى أحوال هـذه المؤسسات فتبين له أنهـا هدَّامة ، وأنها وثيقة الصلة بالصهيونية العالمية .

٦ — لا تنس أيهـا القارىء « مؤامرة الماسونيين » بإيطاليا حيث اتخذت هـذه المؤسسة كبار القادة وسائل لهـا للسيطرة على الدولة

واستعملت الابتزاز وجرائم القتل ، والتهريب ، والاختلاسات ... للوصول إلى أهدافها .

وأخيرا ، إذا لم يكن قد استقر يقينك — أيها القارىء الكريم — بخطر هذه المؤسسات ، فيكفى أن الشبهات القوية قائمة لتبتعد عن هذه الأندية ، ولتواصل نشاطك فى الأندية المصرية والدينية لخيرك وخير الدين والوطن .

واللهم قد بلغت ، فاشهد .

البـــابية والبهائية

إذا كانت مؤسسات الماسونية والروتارى وغيرها تبـــاشر نشاطها المسموم فى خفاء ، واذا كانت هــذه الأندية تدّعى أنهـــا تقوم بنشـــاط اجتماعى ... فإن البابية والبهائية أعلنتا — بعد فترة من الغموض — أنهما ينتميان للفكر الصهيونى ويصدران عن هواه ، ويدافعان عن شماراته ... فلندرس هذين المذهبين لنتبيّن هذه المسيرة .

فى بلاد فارس قام المذهبان أو الدينان الخطيران : البابية والبهائية ، والبهائية امتداد للبابية كمـــا سنرى ، وكلاهما تعبير عن الفكر الذى تكلمنا عنه من قبل ، والذى نشـــأ منذ عهد بعيد بسبب التعـــاون الذى قام بين اليهود الذين بقـــوا بفارس بعد أذن قورش لأسرى بابل بالعـــودة إلى فلسطين ، وبين الجماعات الفارسية الساخطة على الإسلام لأنه وضـــع حداً لمـــا كان لهـــا من أمجاد زائفة .

وقد سبق أن قلنا إن بلاد فارس — لهـــذا — ظلت فى فترات كثيرة مصدراً خطراً تنبع منـــه الحركات المعادية للإسلام ، والجاهدة لتقويض أركانه بطريق أو بآخر .

فالبابية والبهائية لهمـــا جذور يهـــودية ، ولكن اليهـــود المعاصرين للحركتين لم يكتفوا بالجذور اليهودية القديمة ، بل راحوا يَمُدّون الحركتين بعناصر يهودية أخرى توارت حيناً ، وبرزت حيناً ، ثم أعلنت عن نفسها تماماً فى العهـــد الحاضر ، إذ أصبح زعيم البهـــائية أحد حاخامات اليهود كمـــا سنرى .

ولنعد إلى القصـــة من أولهـــا :

فى بلاد فارس ولد الميرزا على الشيرازى حوالى سنة ١٨٢٤ من أسرة مسلمة . وشبّ الميرزا ونال ألواناً من الدراسات الإسلامية ، وكان يمتـــاز

بالجمال والذكاء والطموح والفصاحة ؛ وحج الميرزا وزار أضرحة العراق التى يقدسها الشيعة ، ولما عاد لوحظ عليه أنه أصبح يغالى فى تدينه وتعصبه ، ورآه رجلان أغلب الظن أنهما من دم يهودى أو يعملان لحساب الفكر اليهودى ، فأوهماه أنه سيكون له شأن ، وأدخلا فى روعه أنه سيصبح منقذ الإنسانية من الضلال وقائد ركب المتدينين ؛ فاستهوت هذه العبارات الميرزا ، فسُرَّ الرجلان بهذه الخطوة من النجاح ، وراحا يقدمان له بطريق مباشر أو غير مباشر أفكاراً جديدة سرعان ما اعتنقها وراح يدعو لها ؛ وأبرزُ ما فى هذه الأفكار كان القول بوحدة الوجود ؛ فأصبح الميرزا يعتقد « أن الله واحد أى ليس له شريك فى القوة والقدرة ، وقد خلق الكون ، ولكن هذا الكون ليس شيئاً آخر غير الله ؛ بل هو مظهر ذاته . والأنبياء فى الكون مظهرٌ أكمل لله ، دائم الاتصال بالأصل الذى نشأ منه »، ويروى البابية عن الله قوله « الحق يا مخلوقاتى أنك أنا » فإذا قامت القيامة رجع الخلق إلى الله وفنوا فى وحدته التى صَدَرُوا عنها ، فيتلاشى إذ ذاك كل شىء إلا الطبيعة الإلهية ، وتبعاً لذلك أنكر الميرزا البعث والجنة والنار مما يؤكد ارتباط أفكاره بالفكر اليهودى ، وحشدَ أفكاره هذه فى كتاب أسماه « البيان » وادعى أنه المقصود بقوله تعالى « خلق الإنسان علمه البيان » (١) .

ولم يكن هذا الاتجاه من الميرزا غريباً على الفرس ، فقد قال الهنود جيرانُ الفرس بوحدة الوجود ، وقال به كثير من اليهود ، وأنكرت بعض الفرق اليهودية اليوم الآخر ... ثم إن للفرس هوًى فى الثورات التى تهب معارِضةً للإسلام ، فانضم للميرزا منهم عدد كبير واعتنقوا مبادئه ؛ ولما حصل الميرزا على هذا التأييد خطا خطوة جديدة فى إبراز قيمة نفسه فسمى نفسه « الباب » أى أنه الطريق الوحيد الذى يتصل الإنسان بواسطة بالخالق عز وجلّ . وسميت هذه الفرقة بالبابية تبعاً لذلك ، ثم لم يكتف

---

(١) سورة الرحمن الايتان ٣ — ٤ .

الميرزا بأن يكون « باباً » بل نقل نفسه إلى غاية جديدة . فأعلن أنه « النقطة » أى مُنْبَثَقُ الحق وروح الله ومظهر قدرته وجلاله ، وجعل « الباب » إليه أحدَ مريديه المخلصين له واسمه « حسين بسرويه » من أهل الخراسان .

وفى مؤتمر برشت سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧م) أعلن البابيون انسلاخهم عن الإسلام ، واشتد بهم الحرص على محاربته من كل ناحية ، ومحاربة اللغة العربية ، وكانوا يقصدون بمحاربة اللغة العربية قطع أتباعهم عن قراءة القرآن وعن أحاديث الرسول ، وعن التعرف على التراث الإسلامى ، وهكذا ابتعدت البابية بعداً تاماً عن الإسلام .

وتحركت حكومة فارس لمجاهدة هذا الباطل ، وقاد حسين بسرويه جحافل المدافعين عن البابية يؤازره مجموعة من القادة هم الميرزا يحيى محمد على بلفروسى وامرأة اسمها رزين تاج لُقِّبت « قرة العين » ، وهذا يؤكد لنا أن التمرد على الإسلام فى فارس كان يقوم به جماعات متمردة كذلك على الحكم هناك .

ودارت معارك صاخبة قاسية بين الفريقين ، وطالما حقق البابيون الانتصار على جيوش الحكومة ، فعمدت الحكومة إلى الثأر لقادتها وجيوشها ، وفى النهاية سقط قادة البابية فى الميدان ، أو قتلوا بأحكام إعدام أصدرتها الحكومة ، وكان الميرزا على « النقطة » من هذا النوع الأخير ، فقد أعدم فى تبريز سنة ١٨٥٠ م وخَفَتَ صوت البابية بعد نضال مرير وتضحيات من الجانبين كثيرة ، ولجأت البابية إلى طريق جديد ، هو العمل كحركة سرية بعد أن أعيتها العلانية ، وفتحت البابية بذلك الباب لليهود على مصراعيه ، فالحركات السرية يهواها اليهود ويتخذون منها وسيلتهم لدس أفكارهم وتنفيذ أغراضهم ، ومن أجل هذا يَعُدُّ الباحثون هذه المرحلة مرحلة خطيرة أعِدَّت فيها البابية لتصبح أقرب إلى الاتجاهات اليهودية أو معبِّرة عنها .

وبعد فترة الستر خرجت البابية من عكا سنة ١٨٦٨ م بفلسطين باسم البهائية نسبة إلى زعيمها الجديد ميرزا حسين على مازندرانى (١٢٣٣ — ١٣٠٩ هـ) الذى كان يلقب « بهاء الله » والذى كان أتباعه ينادونه « ربنا الأسمى » وكان هذا الزعيم قد هرب إلى عكا من قبل . وأصبح من قواعد البهائية توحيد الأديان السماوية فى دين واحد ، والقول بأن سلسلة الأديان السماوية لم تتم إلا بظهور البهاء فهو يوحّد الأديان ويتمّها ، وهو الذى يفسر منها ما استغلق ، فهو وحده الذى يعلن ما كتمه عيسى حين قال : « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن ، وأما متى جاء روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية [١] » . وهو وحده الذى يعلم ما احتجزه الله لنفسه فى مطلع الإسلام حين قال « وما يعلم تأويله إلا الله » [٢] .

ويورد البهائيون أدلة من القرآن والحديث يستدلون بها على أن خروج النبى الجديد يكون من سهول سوريا ، من عكا ، ومن ذلك قوله تعالى « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج [٣] » فسهول سوريا أقرب الأراضى إلى الجزيرة العربية ، ويروون أن الرسول قد حدّد ذلك المكان بحديث رووه هو : طوبى لمن رأى عكا وحديث آخر هو : طوبى لمن يشهد الملحمة العظمى ، مأدبة الله بمرج عكا .

ومن الواضح أن حياة البهائية فى عكا بين جماعات اليهود أثرت فيها تأثيراً واسعاً ، وقطعت ما كان باقياً بينها وبين الإسلام من صلات طفيفة إن وجدت ، فأصبحت البهائية وجهاً آخر لليهودية وللصهيونية ، فقد أعلن البهاء أن لجميع البشر ديناً واحداً ووطناً واحداً ، وهو يدعو

(١) انجيل يوحنا ١٦ : ١٢ — ٣٣ .
(٢) سورة آل عمران الآية السابعة .
(٣) سورة ق الآيتان ٤١ — ٤٢ .

لدين واحد يجمع كل الأديان وكل الأجناس ، ويحارب ما سواه من أديان ، وهو يرى العالم وطناً واحداً لكل الناس . ويحارب نزعات القومية والإقليمية .

ومات البهاء فى عكا فأصبح مدفنه مزاراً ضخماً لأتباعه ، وخلفه ابنه ، « عباس أفندى » الذى كان فى خدمة الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى فأنعمت عليه بريطانيا برتبة فارس مع لقب سير ، وتوفى سنة ١٩٣١ فخلفه ابن بنته شوقى ربانى ، الذى مات بعد ذلك دون أن ينجب ولداً .

وفى ظل الفكر الجديد للبهائية دفعها اليهود إلى أقطار الأرض ورعوها بالمال ومنحوها الرعاية التامة ، فأصبحت البهائية « صهيونية أمريكية » كما يسميها الكتّاب المحدثون ، وأسفرت البهائية عن وجهها الصهيونى ، إذ — بعد وفاة ميرزا شوقى ربانى — اجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية فى اسرائيل وانتخب صهيونياً أمريكياً اسمه « ميسون » ليكون رئيساً روحياً لجميع أفراد الطائفة البهائية فى العالم .

وهكذا اختفت البابية وقامت البهائية على أثرها ، ومع البهائية اتضحت معالم هذه العقيدة الزائفة وظهرت لها مراجع منحرفة ، وفيما يلى مزيد من التفاصيل عن البهائية .

عقيدة البهائيين :

تتلخص عقيدة البهائيين كما قررها البهاء فى كتبه وألواحه ، وكما فسرها دعاته فى كتبهم ونشراتهم فيما يلى :

١ — الله ليس له أسماء ولا صفات ولا أفعال ، وأن كل ما يضاف إليه من أسماء وصفات وأفعال هى رموز لأشخاص ممتازين من البشر قديماً

وحديثاً ، وهم مظاهر أمر الله ومهابط وحيه فى زعمهم وآخرهم وأكملهم هو ميزا حسين المازندرانى الذى لقب نفسه (بهاء الله) .

٢ — بناء على ذلك يعدّ (بهاء الله) مظهر الله فهو عند نفسه وعند أتباعه مظهر الله الأكمل ، وهو الموعود ، ومجيئه الساعة الكبرى ، وقيامه القيامة ، ورسالته البعث ، والانتماء إليه الجنة ، ومخالفته هى النار ، وعندهم أن الديانات السابقة والأنبياء كانت مهمتهم التبشير به ، وأن ظهوره هو ظهور جمال الله الأبهى ، ومن أجل هذا كان أتباعه كلهم يدعونه « ربنا » وهم بذلك يعترفون بالرسالات السابقة فى حدود التبشير برسالة البهاء .

وفى ذلك يقول أبو الفضل الجرفادقانى (١) : نحن معشر الأمة البهائية نعتقد بأن مظاهر أمر الله ومهابط وحيه هم بالحقيقة مظاهر جميع أسمائه وصفاته ، ومطالع شموس آياته وبيناته ، لا تظهر صفة من صفات الله تعالى فى الرتبة الأزلية إلا منهم ، ولا يمكن إثبات نعت الجلالة والجمالية إلا إليهم لأن الذات الإلهية والحقيقة الربانية غيب فى ذاتها ، متعالٍ عن الأوصاف بحقيقتها ، منزه عن النعوت بكينونتها ، لا تدركها العقول ، ولا تبلغ إليها الأفهام ، ولا تحويها الضمائر ، ولا تحيط بها المدارك ، فلا توصف ، ولا تسمى باسم ، ولا تشارك بإشارة ، ولا تتعين بإرجاع ضمير ، لكن منزع كل هذه هى المدارك الحسية ، وهى فوق الإدراك ، لأن كل مدرك محاط ، وكل محاط محدود ذو وضع ، وهذا من صفات الجسم والجسمانيات ، تعالت عنه المجردات ، فكيف الذات الإلهية والحقيقية النورانية . فكل ما توصف به ذات الله ويضاف ويسند — إلى الله — من العزة ، والعظمة ، والقدرة ، والقوة ، والعلم والحكمة ، والإرادة ، والمشيئة وغيرها من الأوصاف والنعوت ، يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره (٢) ،

---

(١) الدرر البهائية ص ٥٤ — ٥٦ (مطبعة الموسوعات ١٩٠٠) .

(٢) مظاهر أمر الله عند البهائيين هم برهما وبوذا وكونفوشيوس وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد والباب ، فكانت مهمتهم فى رسالاتهم التبشير بحسين على المازندرانى الذى هو عندهم مظهر صفات الله كلها .

ومطالع نوره . ومهابط وحيه ، ومواقع ظهوره ، وقد رقمت هـذه المسألة من القلم الأعلى : مبيَّنةً مفصلة فى ألواح ربنـا الأبهى . فأظهر الله تعالى جواهر أسرارها فى الصحف المطهرة ببيانه الأحلى (يقصـد الكتب التى تنسب للبهـاء وسنشير إليها فيمـا بعد) .

٣ — يَعتبرُ البهائية أن عقيدتهم أسمى من جميع العقائد والمراجع والأديان التى سبقتها لأن ظهور مظاهر الله فى البهـاء ، أسمى وأعظم من ظهور هـذه المظاهر فيمن سبقه من الأنبياء ، وفيمـا يلى كلمات داعيتهم أو داعيتهم (١) .

« اعلموا أضـاء الله وجوهكم البهية بنوره الوضاح ، وأيد كلمتكم العالية بآيات اليسر والنجاح ، أن هـذه الأدلة والبراهين تثبِتُ حقيقة مظهر أمر الله فى زماننا هـذا فى شكل أوضح ، وأجلى ممـا كانت عليه حقيقة مظاهر أمر الله (أى الأنبياء) فى الأزمنة السابقة .

« إن هـذه البراهين قائمة ومتوفرة فى هـذا الظهور الأعظم الأسنى ، والطلوع الأفخم الأبهى ، ونعنى به ظهور سيدنا (البهـاء) جل اسـمه وعز ذكره ، أكثر ممـا توفر فى ظهور من سبقه من الأنبياء ، بحيث لو أنكر أحد هـذا الظهور الأعظم ، وأنكر أدلته وبراهينه الواضحة الجليلة فإنه لا يستطيع إثبـات حقيقة دين من الأديان الماضية .

٤ — ينكر البهائية إعجاز القرآن الكريم ، وفى ذلك يقول أبو الفضل الجرفادقانى (٢) عَدَّ أكثر علمـاء الإسلام فصاحة القرآن حجة بالغة ، وبلاغة كلامه معجزة دامغة ، ولكننا فندنا هـذا الرأى فى كتب عديدة ، بما لم يبق شك فيه لأرباب البصـائر والنظر .

---

(١) أبو الفضائل الجرفادقانى : الحجج البهية ص (مطبعة السـعادة ١٩٢٥) .

(٢) الحجج البهية . ص ١٨٨ وما بعدها .

٥ — من أعظم أدلتهم على إعجاز البهـاء أنه مع ما صادفه منـذ أول ظهوره من البلايا والمصائب الجسيمة ، والدواهى العظيمة ممـا ليس هنـا محل لذكره ، ومع أنه لم يكن من أهل العلم ، ولم يدخل المدارس العلمية . فقد ملأ الآفاق من ألواحه المقدسة الفارسية والعربية ، ممـا لا نبالغ إذا قلنـا أنها تزيد على مـا عند مِلل الأرض جميعاً من كتبهم السماوية وصحفهم الإلهيـة .

كتب البهـائية :

نسبت للبهـاء عدة كتب يمكن أن نقول عنهـا إنها فى الحق ليست من عمل البهـاء ، وإنمـا وضعها أتباعه ونسبوها إليه : وهناك مراجع أخرى مقدسة عندهم وضعها الأتباع شرحاً لمـا نسب للبهاء وتعليقاً عليه . وأهم كتب البهائية هى :

١ — « الإيقان » وقد طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٠ وعدد صفحاته ٢٠٠ صفحة ويَعُدّه البهائيون وحياً من ربهم البهـاء ، وقد قال عنـه أبو الفضل سالف الذكر : إن إرادة حضرة المحبوب — لا زالت أقطـار الأرض منورة بأنوار وجهه ، ورياض العـالم مزينة بأزهار أمره — قد تعلقت باتحاد كلمة أوليائه ، وأمرُه المبرم قد نفذ باتفاق قلوب أحبائه ، فعليك بالاعتراف من معين (الإيقان) الذى جرى من قلم الرحمن هـذه الأزمان ، فإنه — مع وجازته — تبيان الزبور والألواح ، ومترجم كتب الله فالق الأصباح ، به فك ختم النبيين وحل عُقَد إشارات السابقين ، فابذل غاية الجهد والتدبر فى هـذا الكتاب المستطاب ، ليلهمك الصواب فى كل باب ، واحفظ قلوب الأحباب عن نطاق الشـك والارتياب إن (ربنـا) لبالمرصاد ، وهو ولينا فى المبدأ والمعـاد »[1] .

---

(١) ابو الفضل الجرغادفانى : مجموعة الرسائل ، الرسالة الثانية ص ٣٦ .

والعجيب إن هـذا الكتاب يتنازعه البهـاء وأخوه المخالف له يحيى المازندرانى ، وكل منهما يدعيه لنفسه ، ويعلن أنه من وحيه .

مجموعة الألواح :

ومما يسميه البهائيون وحياً من ربهم البهـاء ، كتاب يسمونه (مجموعة الألواح المباركة) وهو مطبوع بأمر عبد البهـاء فى مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) وقد جاء فى صفحة ١٦١ منـه فى لوح من ألواحه عنوانه (الناظر من أفقه الأعلى) مخاطباً شخصاً اسمه عبد الوهاب :

« ياوهاب إذا اجتذبك ندائى الأحلى ، وصرير قلمى الأعلى ، قل : إلهى ، لك الحمد بمـا فتحت على وجوه أوليائك أبواب الحكمة والعرفان.. أى رب . أسألك بالذين أسرعوا إلى مقر الفدا شوقاً للقائك ، ومـا منعتهم سطوة الأمراء عن التوجه إليك بمـا أنزلته فى كتابك ، ثم بالذين أقبلوا إلى أفقك بإذنك ، وقاموا لدى باب عظمتك ، وسمعوا نداءك ، وشاهدوا أفق ظهورك ، وطافوا حول إرادتك ، أن تقدّر لأوليائك مـا يؤيدهم على ذكرك وثنائك وتبليغ أمرك . إنك أنت المقتدر على مـا تشاء ، لا إله إلا أنت الغفور الرحيم . يا قلمى الأعلى ، بدّل اللغـة الفصحى باللغة النوراء » .

وهـذا الخطاب — وكثير غيره من آمثاله — مبنى على أن البهـاء حسين على المازندرانى هو الله ، وأنه لا إله إلا هو الغفور الرحيم المقتدر على مـا يشاء ، وأن أساس عقيدتهم أن الله ليس له وجود الآن إلا بظهوره فى البهـاء ، وكان يظهر قبلا بمظـاهر غامضة فى الديانات السالفة ، ولكنه بظهوره فى البهـاء الأبهى ، بلغ الكمال الأعلى . ليس لله — عندهم كمـا ذكرنا من قبل — أسماء ولا صفات ولا أفعـال ، إلا مـا يتّصف به من صفات مظهره وهو البهـاء ، وما يصـدر عن البهـاء من أفعال إلهية .

٣ — كتاب « الشيخ » وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٩٢٠ من نسخة

بخط عظيم من عظمائهم يسمونه « الزين » ولعله البهاء نفسه . فيكون « الزين » هو حرف الزاى مقتطعاً من كلمة « مازندرانى » .

٤ — وللبهاء أيضاً (الإشراقات) ، و (البشارات) ، و (الطرازات) وقد نشرت نماذج منها فى كتاب (نبذة من تعاليم حضرت البهاء) المطبوعة فى القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٥) .

٥ — كتب الداعية الذكى الذى يعد البهائية وواضع عقائدها ومفاسدها وكاتب كتبها ومراجعها وهو أبو الفضل (أو أبو الفضائل) الجرفادقانى وهى كتب عديدة ، كلها ضلالات وترهات ، ومن أهمها :

الدرر البهية ، والحجج البهية ، والفرائد ، وفصل الخطاب [1] .



ومن العجيب أن كثيرين من المشاهير فى العالم العربى يعطفون على البهائية كما كانوا يعطفون على الماسونية والروتارى ، وهم مخدعون بكلمات الإخاء والمساواة التى تخفى العداء للأديان والأوطان ، ولعل هذا الحديث يصل إلى أيديهم ليعود إلى الرشاد .

---

(١) اعتمدنا فى التعريف بالبابية والبهائية على اكثر المراجع الرئيسية التى وردت فى البحث واستعنا بالمراجع التالية التى كتبت عن البابية والبهائية .

ا — دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى مادة بابية ومادة بهائية .

ب — أبحاث الأستاذ محبى الدين الخطيب التى نشرها فى مجلة الأزهر .

جـ — قصة العقائد للاستاذ سليمان مظهر .

كلمة ختـــام

لعل أحسن مـــا نختم به هـــذه الدراسة اقتباسات ننتقيها من كتاب « المسألة اليهودية » الذى وضعه كارل ماركس ، استمع إليـــه يقول :

— نحن نقر بأن ثمة فى اليهودية عنصراً عاماً مناهضاً للمجتمع ، وهو عنصر دُفع بالتطور التاريخى إلى نقطة الأوج فى الزمن الحاضر ، ولابد أن يأتى بعده الانحلال .

— يسعى اليهود إلى مـــا يسمونه تحرير اليهود ، وما أحرى البشرية أن تتحرر من اليهود .

— لقد تحرر اليهود فعلاً ولكن على الطريقة اليهودية ، فاليهودى مثلا الذى لا يحسب له حساب فى فينا هو الذى يقرر بقوته المالية ، مصير الدولة كلها ، واليهودى الذى قد يكون فى أصغر المقاطعات الألمانية محروماً من الحقوق هو الذى يقرر مصير أوروبا .

— لقد تحرر اليهودى على الطريقة اليهودية ، وليس فقط بأن أصبح سيد السوق المالية ، وإنمـــا لأن المال أصبح بواسطته قوة عالمية ، والروح العملية اليهودية أصبحت الروح العملية للشعوب الأخرى [1] .

— المـــال هو إله اسرائيل المطـــاع ، وأمامه لا ينبغى لأى إله أن يعيش ، إن المـــال يهزم جميع آلهة البشر ، ويحولها إلى ســـلعة ، إن المال هو الجوهر الذى يسيطر على الإنسان ويستعبده . لقـــد أصبح إله اليهود أيضاً إلهـــاً للناس جميعاً ، وهذا انتصار لليهود [2] .

— لقد انبثقت المسيحية من اليهودية ، وقد انتهى بهـــا الأمر إلى العودة إلى اليهودية .

---

(١) المسألة اليهودية لكارل ماركس ص ٥٦ — ٥٧ من الترجمة العربية .
(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

— مرة أخرى ليس اليهودى هو الذى يسعى إلى التحرر من غير اليهود . وإنما المجتمع الإنسانى هو الذى ينبغى عليه أن يسعى ليتحرر من اليهود [١] .



وبعد ، لقد فرض اليهود أنفسهم أو فرضهم الاستعمار على أرضنا العربية ، وكان الدين وسيلتهم عند تنفيذ هذه المأساة ، وحولنا — فى إفريقية وفى آسيا — يدور صراع طويل بين أديان الدعوة (وهى البوذية والمسيحية والإسلام)ولكن ذعر الاستعمار من الإسلام وخوفه منه جعله يحشد الجهود ضده ، وقد استطاع الاستعمار أن يغطى نفسه بقناع مزيف أسماه المسيحية ، وهو فى الحقيقة بعيد عن مسيحية عيسى كل البعد ، وتلاقى الاستعمار المسيحى مع اللادينية والإلحاد فى هذا المضمار ، ثم لحقت اليهودية بهذا الجمع لتنال ما اعتاده الفكر اليهودى من كسب رخيص على حساب العرب والمسلمين ، وعن طريق اليهودية اندفع لأرض المسلمين صور من الباطل والضلال باسم البابية والبهائية والروتارى والماسونية .

ولكن ركب الحق سيسير ، وسيتخطى العقبات ، وينتصر على الباطل . وكل ما أرجوه أن يتعرف المسلمون على أعدائهم ، وألا يخدعهم الطلاء الكاذب أوالاسم البراق على مسمًى يحمل فى طياته السم ، ولعل فى هذا البيان الذى سقته فى هذا الكتاب وفى الكتب الأخرى من هذه السلسلة « سلسلة مقارنة الأديان » ما يدمغ هذا الباطل ويبعث شعاعاً من العلم والمعرفة لطلاب العلم والمعرفة

والله الموفق

(١) المسألة اليهودية ص ٤٦ .

مراجـع الـكتاب

ملحوظتـان :

١ — المصـادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليهـا هذا الكتاب ، ووردت في ذيل صفحاته ، أمـا المراجع الأخرى التي أسهمت بطريق غير مباشر ، فلم تذكر في هـذه القائمة .

٢ — رتبت هـذه المصـادر حسب الترتيب الأبجدي لأسـماء مؤلفيهـا مع اعتبار الاسم المشهور للمؤلف (فمثـلا ابن خلدون وليس عبد الرحمن بن محمد) ومع عدم اعتبار الملحقات (ابن ، ال) .

١ — القرآن الكريم .
٢ — مجموعة من كتب التفسـير
٣ — مجموعة من كتب الحديث
٤ — الكتاب المقـدس .
٥ — قاموس الكتاب المقدس
٦ — التلمـود
٧ — التلمود شريعة اسرائيل .
٨ — بروتوكولات حكماء صهيون
٩ — مجموعة من المجلات العلمية والصحف
١٠— The Jewish Encyclopadia
١١— Encyclopadia Britannica
١٢— Encyclopadia of Religions and Ethics
١٣— دائرة معـارف القرن العشرين لفريد وجدي
١٤— Israelite of America
١٥— مجلة الوثائق الكاثوليكية
١٦— مجلة الجامعة الاسرائيلية
١٧— من الفكر اليهودي (مجموعة اقتباسـات في مجلد)
١٨— تقرير اللجنة الملكية البريطانية
١٩— تقارير من هيئة الأمم المتحدة
٢٠— تشريع حمورابي
٢١— أبو الفضل الجرفادقاني : الدرر البهيـة

٢٢ـ أبو الفضل الجرفادقانى	الحجج البهية
٢٣ـ » »	مجموعة رسائل
٢٤ـ Arthur Hertzeberg	Judaism
٢٥ـ ابن الأثير	الكامل فى التاريخ
٢٦ـ دكتور احمد بدوى	فى موكب الشمس
٢٧ـ احمد بهاء الدين	اسرائيليات
٢٨ـ دكتور احمد شلبى	موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية (١٠ اجزاء)
٢٩ـ دكتور احمد شلبى	السياسة فى الفكر الاسلامى
٣٠ـ » » »	الاقتصاد فى الفكر الاسلامى
٣١ـ » » »	المسيحية
٣٢ـ » » »	الاسلام
٣٣ـ » » »	اديان الهند الكبرى
٣٤ـ » » »	المجتمع الاسلامى
٣٥ـ أحمد كمال	العقد الثمين
٣٦ـ أحمد نجيب هاشم وآخرون	مصر فى العصور القديمة
٣٧ـ Allen G.	Evolution of the idea of God
٣٨ـ Efraim Emerton	Midieval Europ.
٣٩ـ اسرائيل كوهين	هذه هى الصهيونية
٤٠ـ اسرائيل ولفنسون	تاريخ اللغات السامية
٤١ـ ايلياهو بشياصى	شمار الخضر
٤٢ـ ايلى ليفى ابو عسل	يقظة العالم اليهودى
٤٣ـ Berry	Religions of the Wor.
٤٤ـ Browne	A Literary History of Persia
٤٥ـ البهاء : ميرزا حسين	الايقان
٤٦ـ » » »	مجموعة الالواح
٤٧ـ » » »	كتاب الشيخ
٤٨ـ » » »	نبذ من تعاليم البهاء (الاشراقات ـ البشارات ـ الطرازات)
٤٩ـ برستيد	تاريخ مصر من اقدم العصور
٥٠ـ بن جوريون	اسرائيل وسنوات التحدى
٥١ـ بن جوريون	مذكرات بن جوريون

٥٢ــ جولدا مائير — اسرائيل واليهود

٥٣ــ Guignebert — The Jewish world in the Time of Jesus

٥٤ــ دكتور جواد على — تاريخ العرب قبل الاسلام

٥٥ــ جون بيبى — الستار الصهيونى حول امريكا

٥٦ــ حبيب سعيد — اديان العالم الكبرى (ملخص عن الانجليزية)

٥٧ــ الدبس (المطران) — تاريخ سورية

٥٨ــ رحمة الله الهندى — اظهار الحق

٥٩ــ روهلنج — الكنز المرصود فى قواعد التلمود

٦٠ــ Jeremias — The old Testament in the Light of Ancient East

٦١ــ John Scott — The Secret Government in Britain

٦٢ــ René Sediliot — The History of the World

٦٣ــ Reinach — History of Religion

٦٤ــ زكى شنوده — تاريخ الاقباط .

٦٥ــ دكتور سليم حسن — تاريخ المصريين القدماء

٦٦ــ سليمان مظهر — قصة العقائد .

٦٧ــ Charles Foster Kent — A History of the Hebrow People

٦٨ــ Shotwell — The Religious Revolution of today

٦٩ــ Smith J. W. D. — God and man in Early Israel

٧٠ــ صبرى أبو المجد — نهاية اسرائيل

٧١ــ عباس العقاد — الله

٧٢ــ عباس العقاد — مــا يقال عن الاسلام

٧٣ــ عبد الله التل — خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية

٧٤ــ عبد الحليم الخورى — الماسونية ذلك العالم المجهول

٧٥ــ عبد الرحمن سامى — الصهيونية والماسونية

٧٦ــ دكتور عبد المعز نصر — الصهيونية فى المجال الدولى

٧٧ــ عبد الوهاب النجار	قصص الأنبياء
٧٨ــ عدلى حشــاد	فلسطين فى طريق العودة
٧٩ــ عصام الدين حفنى	محنة التوراة على أيدى اليهود
٨٠ــ على امام عطية	الصهــيونية العــالمية وأرض الميعــاد
٨١ــ دكتور على عبد الواحد وافى	الأسـفار المقدســة فى الأديان السابقة للاسلام
٨٢ــ غوستاف لوبون	اليهود فى تاريخ الحضــارات الأولى
٨٣ــ دكتور فؤاد حسنين	التوراة : عرض وتحليل
٨٤ــ Frank Briton	Behind Communjsm
٨٥ــ القلقشندى	صــبح الأعشى
٨٦ــ كارل ماركس	المســألة اليهودية
٨٧ــ Carlyle	Heroes and Hero-worship
٨٨ــ Kirk	A Short History of the middle East
٨٩ــ Leiws Dasté	Le Société Sécrete et Les Jenfs
٩٠ــ Laurance B.	From Babylon to Bethlehem
٩١ــ Mex margolis & Alexander marx	A History of the Jewish peeple
٩٢ــ Maspere	Struggie of the Nations
٩٣ــ محمد جاد المولى وآخرون	قصص القرآن
٩٤ــ محمد حماد (دكتور مهندس)	بحث عن لوح كامس
٩٥ــ محمد صــبرى	المقارنات والمقابلات
٩٦ــ محمد صــفوت	اسرائيل العدو المشترك
٩٧ــ محمد عبده	رســالة التوحيــد
٩٨ــ محمد عبد الله عنان	تاريــخ الجمعيــات السرية والحركات الهدامة
٩٩ــ محمد عزة دروزة	تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم (ثلاثة اجزاء)
١٠٠ــ محمدعلى الزغبى	الماسونية منشئة ملك اسرائيل
١٠١ــ محمد على علوبة	فلسطين والضمير العالمى
١٠٢ــ دكتور محمد فوزى وعمر رشدى	الصهيونية وربيبتها اسرائيل

١٠٣ـ دكتور محمد محمود جمعه	النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية
١٠٤ـ Hertzl	The Jewish State
١٠٥ـ Hetler	my struggle
١٠٦ـ Hosmer J.	The Jews
١٠٧ـ ابن هشام	السيرة النبوية
١٠٨ـ ول ديورانت	قصة الحضارة
١٠٩ـ وايزمان	مذكرات وايزمان
١١٠ـ Weech	Civilization of Near East
١١١ـ Wells	A Hhort History of the World
١١٢ـ Wells	The Outline of History
١١٣ـ يائيل ديان	طوبى للخائفين

مقارنة الأديان

(٢)

المسيحية

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

استاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة
والحائز لوسام الجمهورية "وسام العلوم والفنون" من الطبقة الأولى



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولادة
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

مقارنة الأديان

٢

المسيحية

اقرأ فى هذه الطبعة الموضوعات الخطيرة التالية :

١ ـ قضية الالوهية كنموذج للمقارنة بين قضايا الاديان .
٢ ـ قضية رفع السيد المسيح الى السماء .
٣ ـ ماذا يقول القسس والمفكرون عن الحياة فى الأخيرة .
٤ ـ اسطورة نقل رفات القديس مرقص من البندقية الى القاهرة .
٥ ـ خرافة ظهور السيدة العذراء فى كنيسة الزيتون والمعادى ...

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

الطبعة العاشرة ١٩٩٨

مع زيادات واسعة وتحقيقات مهمة



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين

ولا تجادلوا اهل الكتـــاب الا بالتى هى احسن
الا الذين ظلموا منهم

وقولوا آمنا بالذى انزل الينـــا وانزل اليـــكم ،
والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون ...

قرآن كريم

(سورة العنكبوت الآية ٤٦)

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ ــ الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

ــ مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى ــ تفسير التاريخ ــ هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ ــ فائدة التاريخ ــ مراحل تدوين التاريخ ــ قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسلامى ــ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...

ــ تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر ــ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ــ السيرة النبوية المطهرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة

ــ الدعوة الاسلامية وفلسفتها ــ عصر الخلفاء الراشدين

٢ ــ الجزء الثانى : (الطبعة السابعة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ ــ الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ــ الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

ــ الأندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

ــ المغرب ــ الجزائر ــ تونس ــ ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .

ــ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ ــ الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

ــ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر) .

ــ الحروب الصليبية : دوافعها ــ ادوارها ــ نتائجها .

ــ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشاتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الثالثة)

الاســلام والدول الاســلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهــا الاســلام حتى الآن :
— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربى :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :
— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :
ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين ، .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب — عصر جمال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات . (عصر النجاح فى الشئون الخارجية والفشل فى الشئون الداخلية) .
(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ — الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام — انحرافاتها فى عصـور الظلام — وجوب تصحيحها (*)

١٢ — الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره (الطبعة السابعة)

١٣ — الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة (*)

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصـاد (الطبعة السادسة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ — مبادىء الاسلام الاقتصادية .

٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .

٤ — من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .

٥ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة الثامنة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وامكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السابعة)
اسس تكوينه .. اسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
فى الفكر الاسلامى

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المراة ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الثالثة)
وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
فى الفكر الاسلامى (العلاقات الدولية)

بحث علمى يبرز موقف الاسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الاسلام فى مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، واخلاق المجاهد ، والخديعة فى الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ، وقصص القرآن : للأولاد والشباب والسيدات والرجال

ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ الرسول فى بيته : ازواجه — أولاده واحفاده — خدمه

ج ٧ الرسول فى بيته : مشكلات الحياة فى بيت الرسول وكيف عالجها

ج ٨ الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — الرسول يربى المجتمع الاسلامى .

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة أو بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ اجزاء)

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة فى عهده
ج ٢٠ (٤) على بن ابى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ اجزاء)

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى أدائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل فى ميدان المقارنة .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : اسراره واعجازه .

ج ٣٤و٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفى الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم

جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا ميسرا

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ اجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن —قصة اصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة اصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة ايوب عليه السلام .
ج ٣١ قصة قارون — قصة اصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :
(٤ اجزاء)

ج ٣٦ لماذا انحرف المؤرخون بتاريخ الأمويين .
نماذج من عباقرة الأمويين .

ج ٣٧ اتجاهات حضارية من صنع الأمويين .

ج ٣٨ اتساع العالم الاسلامى يد من ايادى الأمويين .

ج ٣٩ نشاط الشيعة فى العهد الاموى ، وقصة استشهاد الامام الحسين .

المجموعة السادسة : الاسلام والمراة :

ج ٤٠ المراة فى الحضارات القديمة .
المراة فى أوربا خلال العصر الوسيط .
ماذا قدم الاسلام للمراة ؟ .

ج ٤١ سيدات مسلمات : السيدة زينب اخت الامام الحسين .

ج ٤٢ سيدات مسلمات : بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .

ج ٤٣ سيدات مسلمات : عائشة بنت طلحة .

ج ٤٤ سيدات مسلمات : رابعة العدوية .

ج ٤٥ زيجات شهيرة فى التاريخ الاسلامى : بوران — قطر الندى .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل اعداد « المكتبة الاسلامية » ضمن العدد الخاص بكتب للمؤلف)

كتب للمؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديـــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الاديان ، تعتمـد على ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهـودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل، عقيدة بنى اسرائيل، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة الثامنة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدهـــا .

٢٣ — الجزء الثالث : الاســلام : (الطبعة الثامنة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المراة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منـــه ، السياسة والاقتصــاد فى الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : بوجاواسستها ، كيتـــا .

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـــود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات اجنبية

٢٥ — كيفَ تكتب بحثا او رسالة (الطبعة السابعة عشرة)

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals

٢٧ — History of Muslim Education

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)

٢٨ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam

٢٩ — Masjarakat Islam

٣٠ — Hukum Islam

٣١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1

٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11

٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111

٣٤ — Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٥ — Perbandingan Agama (Masihi)

٣٦ — Perbandingan Agama (Islam)

٣٧ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)

٣٨ — Sadjarah Pendidikan Islam

٣٩ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤٠ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤١ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi

٤٢ — Perang Salib

٤٣ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٤ — Pengajian Al Quraan

٤٥ — Sedjarad Kehakiman Dalam Islam

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسة الكتابين التاليين :

٤٦ — **تعليم اللغة العربية لغير العرب :** (الطبعة الثالثة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٧ — **قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها :** (الطبعة الثالثة)
عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـــاد طبعها

٤٨ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
اكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٢ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .
واكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتـــويات الكتـــاب

الموضـــــــــوع الصفحة

مقدمة الطبعة الثـــامنة

يحس المؤلف بسعادة عندما تتكرر طبعات كتابه ، ولكن هذه السعادة لم تشغلنى عن شكر المعلم الأعظم الذى هدى لاختيار الموضـــوع ، ثم هدى لتخطيطه والقراءة له وتدوينه ، فاللهم أشكرك شكر من يعـــترف بأفضالك • وأثنى عليك ثناء من لا ينسى إلهامك وتوفيقك •

علم « مقارنة الأديان » يزدهر :

وقد أصبح علم مقارنة الأديان — بعد ما بذلتُ فيه من جهــد — علما ذا بال فى كثير من الجامعات ومعاهد العلم ، وقد سرنى أن دُعِيتُ لتدريسه بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر وشــهدتُ اقبالا هائلا من الطلاب ، وسرنى أننى بذلك أديت بعض الدَّيْن لهــذه الجامعــة العريقــــة •

كما أصبح هذا العلم أحــد المواد التى تدرس بمعهــد الدراسات الإسلامية الذي يضم مجموعة كبيرة من الطلاب الحاصلين على درجات جامعية ، من بينهم عــدد كبير من الطلاب الوافدين من الدول العربيــة والإسلامية ، وقد أُسْنِدَ لى تدريس هذا العلم بالمعهد ، وقد بلغ اقبال الطلاب على هذا العلم أقصى المدى •

وبدأت سلسلة مقارنة الأديان تترجــم لعدة لغات رجاء أن يعــم بهـــا النفــــع •

العـــلم يتأثر بالســـياســـة :

وكان الرئيس السابق أنور الســادات قد أعلن أنه ســيبنى مجمَّعا للأديان فى سيناء ، فكتبت إليه أذكر أن أبرز شىء يمكن أن يزْهــر به هذا المجمَّع أن تقيم معهدا لدراسة « مقارنة الأديان » وسرعان ما حول

الرئيس السابق خطابى لجامعة القاهرة لوضع منهج لهذا المعهد ، وتألفت لجان على مستوى عالٍ كنتُ عضوا فيها ، واجتمعنا وتدارسنا الأمر ، ووضعنا المناهج والخطط ٠ ٠ ٠ ٠ ولكن نهاية الرئيس وضعت نهاية لهذه المحاولة ، فغمرها النسيان ٠

وهكذا تأثر العلم والفكر بمجريات السياسة ، والأمر لله ٠

موقف المسيحيين من هذا الكتاب :

وقد قرأ عدد كبير من الأصدقاء والمواطنين المسيحيين هذا الكتاب ، وأشهد أن أغلبية هؤلاء كانت على جانب كبير من الثقافة والسماحة ، فأدركتْ الروح الطيبة التى لازمتنى وأنا أدون كل كلمة من كلماته ، كما رأت حرصى على الاعتماد على المراجع المسيحية وأنا أعرض أخطر القضايا فيه ، وقد اتصل الكثيرون من هؤلاء بى ، وأحسسنا دائما أن الفكر السليم يلاقى القبول ، وأن المجادلة بالحسنى تنتج أزهى النتائج ٠

ولكن من الحق أن أقرر أن بعض القراء من المسيحيين كانوا على ثقافة ضحلة أو بدون ثقافة على الاطلاق ، وواحد منهم أَسْمَى نفسه « مينا الصعيدى »يعترف أنه لم يتعلم إلا مبادىء فى « الكُتَّاب » ويقول إنه مع هذا مستعد لمناقشتى وإقناعى ! ! ! ٠ ٠ ٠ ٠ ولم يسلم خطابه من كلمات خشنة وألفاظ لا تليق ٠

وهناك جماعة — ولا أقول فردا — أخذت ترسل لى خطابا كل يوم تقريبا يحوى كل خطاب ثلاث صفحات أو أكثر ، وتحمل الصفحات أرقاما مسلسلة ، وهى سلسلة من الشتائم والهجوم ، وطبيعى أننى لم أقرأ إلا سطورا قليلة جدا ثم توقفت عن القراءة ، وأحيانا لم أفتح الرسالة لأنى عرفت خط المرسلين ٠

وينبغى أن نصرف النظر عن هؤلاء ، ونعود للأغلبية التى لاقيت منها كل ترحيب وتشجيع ، وهم من عِلْيَةِ المسيحيين وأعلاهم مركزا

ومكانة ، ومن بين ما يذكر هنا بالتحديد أنّ لقاء واسعا جمعنى بأعضاء نادى الروتارى فى شهر رمضان المعظم (١٤٠٤هـ) وقد دعيت لهذا الاجتماع لأتحدث عن آداب الصيام وحكمته ٠٠٠٠ ومع أنى لا أنتسب لنادى **الروتارى ولا لأمثاله من الأندية التى أعتقد أنها مؤسسات صهيونية ،** مع هذا فقد قبلت الدعوة لأتحدث لهذا الجمع عن الإسلام ، وقد تعودت ألا أرفض أى لقاء للحديث عن الإسلام رجاء أن تحمل كلماتنا الهداية للبشر ، وأنا فى موقفى هذا أتأسّى بالرسول صلوات الله عليه ، الذى استقبل نصارى نجران وفرش لهم عباءته وتحدث إليهم ، واستقبل عدى بن حاتم وكان قد اعتنق النصرانية وتحدث إليه ٠٠٠٠ والمهم أننى فى حديثى لجماعه الروتارى ذاك المساء وُجّهَ إلىّ سؤال من مواطن مسيحى من أرقى المستويات الثقافية والسياسية بمصر ، والسؤال هو : ما رأيك فيما يظهر من صراع أحيانا بين المسلمين والمسيحيين ؟ وما الموقف الذى ترى أن الإسلام وضعه للعلاقة بين المسلمين والمسيحيين ؟

وأجبت بأن القرآن الكريم حوى الإجابة الواضحة لهذه العلاقة ، وهى قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ٠ (آل عمران ٦٤)

واستمرت الإجابة تدور حول شرح هذه الآية الكريمة ، وقد لاقت هذه الإجابة قبولا حسنا من السامعين وأثنى عليها كبار المسيحيين الحاضرين ٠

دعوة لقراءة هادئة لهذا الكتاب :

إننى أدعو كل مسيحى أن يقرأ هذا الكتاب بهدوء وتؤدة ، فقد كتبته وأنا فى قمة الهدوء والتؤدة ، وقد تلقيت بذور هذا العلم فى جامعة كمبردج بانجلترا ، وكانت الحيدة التامة دستور الدراسة فى هذه المادة ٠

وأدعو كل مسلم أن يقرأ هذا الكتاب كذلك بإمعان ، ففى الماضى

كان المسيحيون يعرفون الكثير عن القرآن الكريم ، ويحفظون بعض آياته لهدف أو لآخر ، ولكن المسلمين لم يكونوا يعرفون شيئا عن المسيحية ولا عن اليهودية ولا عن العهد القديم أو الجديد وذلك نقص كبير ينبغى أن نتداركه فى حاضرنا الثقافى ، فالأديان السماوية من مصدر واحد ، ومعرفة حلقة من حلقاتها دون الإلمام بالحلقات الأخرى يعد نقصا كبيرا لدى المثقف الواعى •

وفى هذه الطبعة من هذا الكتاب زيادات واسعة ومهمة ، سيطالعها القارىء من أول لقائه بالكتاب ، وهي زيادة تعتبر اعادة تخطيط للكتابة عن المسيحية ، وأرجو أن يكون فيها مزيد من النفع للقارىء الذى نعيش له ، ونبذل غاية الجهد لإرضائه ، لعلنا بذلك نكافىء إقباله الكريم •

وأخيرا فإنى أتجه إلى الله أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه وقارئه ، وهو سبحانه نعم المجيب •

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٨٤ •

مقدمـــــة عامـــة

منــــاجاة :

يارب .. فى مطلع هذا العمل يطيب لى أن أتوجــه إليك ، أعترف بفضلك ، وأشكر نعمتك ، وأستلهم رضاك .

يارب . . . إياك أعبد وإياك أستعين ، فكن معى وأنا عبدك ، وكن لى وأنا أســـتعين بك .

يارب . . . إن أوزار الأرض وأثقال الحياة تَشدّنى وأنا أسعى إليك وتحاول أن تقصّر خطواتى وأنا أجاهد لإرضائك ، فساعدنى يارب لأتغلب عليها ، وأنتزع منها نفسى ، لأظل فى طريقى إليك أناضل وأكافح .

يارب . . . إنى أعرف أن ثقة الناس تستلزم مزيداً من الجهــد ، وإقبال الناس يستدعى مضاعفة الطاقة ، فامددْنى يارب بالقوة والعون ، لأزيد من جهــدى وأضاعف من طاقتى .

يارب . . . ليس إلا أنت الذى يعرف مدى إخلاصى فى عملى ومدى العناء الذى ألاقيه فى سبيله ، ولستُ — لهذا — أرجو الجزاء إلا منك ، فإنك لا تضيع أجــر من أحسن عمــــلا .

يارب . . . كثيرون من الناس يكافحــون من أجلك بســيوفهم ، وكثيرون يكافحون من أجلك بأموالهم وبجاههم ، ولا أملك يارب إلا قلمى ولسانى ، فاقبل يارب كفاحى بهما ، وبارِكْهُ ، واجعل له أحسن النتائج .

وآخرون يا رب ... أعمتهم الدنيا فراحوا بأســلحتهم وأمــوالهم يعارضون تعاليمك ، ونحن ضد هؤلاء فى ميدان حرب ، فكن معنا يارب فى هذه المعركة ، عاوِنّا بوسائلك الظاهرة والباطنة حتى نكسب النصر ، ونرفــــع عــــلم الحق .

يارب . . . يارب . . .

أكثر الأديان تعقيـــدا :

وتكاد المسيحية تكون أكثر الأديان السماوية والوضـعية تعقيداً ، وقد علّمها عيسى عليه السلام ديناً بسيطاً سهلا ، ولكن التعقيد طرأ عليها بعد ذلك ، حتى أصبح عسيراً جدا فهم كثير من مبادئها ، وحتى أصبح غموضها طبيعة واضحة فيها ، ويقول Roland Binton **إن المسـيحية بدأت بسيطة ولكن الناس عقّدوها بعقائد صعبة عصفت بها**[١] •

وقـد كُلّفت بتدريس مادة مقـارنة الأديان فى عـدة جـامعات بإندونيسيا ، وكان طبيعياً أن أختار من الأديان السـماوية والوضـعية ما يناسب البلاد التى أعمل فيها ، ومن ثمّ كانت المسـيحية والبـوذية موضوع محاضراتى هناك ، وكنت أريدها محاضرات فقط ثم رأيت التبشير بإندونيسيا يقوى وينتشر ، فاستلزم ذلك طبع هذه المحاضرات ونشرها باللغة الإندونيسية ، ثم عدتُ لقراءة هذه المحاضرات وإعدادها إعـدادا يناسب الطبع والنشر بمختلف اللغات •

محاضرات ومناظـــرات :

وكانت محاضراتى عن المسيحية فى إندونيسيا تلقى إقبالا كبيرا من الطلاب والمثقفين ، وكان بعض المشتغلين بالدراسات الدينية يتتبعون هذه المحاضرات بعناية ، ثم حدث أن تلقيت خطابا من جامعة مسيحية للتخصص فى الدراسات اللاهوتية مقرها Tjijirog على بعد حوالى مائة كيلو متر من جاكرتا عاصمة إندونيسيا ، وكان هذا الخطاب دعوةً من أساتذة هذه الجامعة إلى مناظرة علمية عن الأديان وبخاصة عن الدين الإسلامى ، فقبلتُ الدعوة على الفور ، وحدد الثالث عشر من شهر يونيو سنة ١٩٥٩ موعدا لهذه المناظرة ، فذهبت فى الموعد المحدد إلى مقر هذه الجامعة حيث تجمّع الأساتذة وكلهم غربيون وحضر بعض الطلاب الاندونيسيين وبعض

---

(١) The Church From the Biginning up to the 20 the Century.

المشتغلين بهذه الدراسات ، وجمهور كبير من الناس ، وقد استغرقت هذه المناظرة عدة ساعات ، تلقيت خلالها عددا من الأسئلة عن الدين الإسلامى، ويمكن القول بقوة إن التوفيق حالفنى إلى أبعد حد ، فانتزعت إعجاب الحاضرين لا بشخصى ولكن بالدين الإسلامى وبدعوته الرشيدة •

فلما جاء دورى لأسأل قدمت بعض أسئلة عن الدين المسيحى فجاءت الإجابة عنها من المسيحيين متهافتة أو قل لم تكن هناك إجابة علمية على الإطلاق •

وطلب منى بعض الحاضرين من المسلمين أن أكتب موجز هذه المناظرة وأذيعها ، ولكنى فضلت أن تكون الكتب التى أنشرها شاملة ، لا خاصة بأسئلة المناظرة واتجاهاتها ، فأعددت ضمن سلسلة مقارنة الأديان كتابين أحدهما عن الإسلام والثانى هو هذا الكتاب عن المسيحية• وكتابى عن المسيحية هدية للمسلمين والمسيحيين على السواء • إنه أبحاث علمية لا دينية ، أبعدتها بقدر الطاقة عن محيط العاطفة ، ولعلى قد نجحت فى ذلك وأرجو أن يكون — مع أمثاله من الأبحاث — نورا يهدى السبيل •

هذا الكتاب ليس رداً على الكتب التى هاجمت الإسلام :

وأحب أن أقرر أن المراجع المسيحية التى بين يدى تتعرض كثيرا بالغمز بل بأكثر من الغمز أحيانا لديننا الحنيف ، وبعضها يهاجم القرآن الكريم ويهاجم محمداً صلوات الله عليه ، وقد طبع بعض هذه الكتب فى القاهرة ، ولكنى مع هذا لم أرد أن أجعل من كتابى هذا وسيلة للرد على هؤلاء وتفنيد آرائهم ، بل سرت فى دراستى سيراً مستقيما علمياً لاعاطفياً، فعرضت المسيحية من مراجعها الأصلية عرضاً أعتقد أنه إلى الكمال أقرب •

واتجاهى يميل إلى عدم الإشارة للكتب التى كتبها مسيحيون

وهاجموا فيها الإسلام ، ولكن هناك كتابا بلغ الغاية فى انحراف، وترجمه وجهله ، وأجدنى مضطرا للإشارة إليه ، ذلك هو كتاب « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » للأسقف الأنبا ايسيذورس ، وقد طبع بمطبعة قاصد خير بالفجالة سنة ١٩٦٤ برعاية البطريرك كورلس السادس ، وهو مودع بدار الكتب (رمز ه رقم ٤٦٤٥) ، ومع أن قرارا صدر بعدم تداوله ، فان من السهل أن تحصل على نسخة منه بالشراء أو الاستعارة ، وقد قرأت بعض صفحاته (مثلا جـ٢ ص ٩١ وما بعدها) فوجدت كلاما يجمع البذاءة والجهل ، وإنى لأتساءل كيف أجيز طبع هذا الكلام فى بلد العلم والإيمان ؟

والإجابة فى تقديرى سهلة ، فقد طبع هذا الكتاب فى عام شهد قسوة الحكام الظالمين على الإخوان المسلمين ، أريقت فيه دماؤهم ، وعذبت أجسامهم ، وسيقوا الى السجون والمعتقلات بدون حق وبدون ذنب ، وعندما خفتَ صوت المسلمين ارتفع وعربد صوت الجهلة المتعصبين من المسيحيين وتملقتهم السلطات الحاكمة التى كان يتزعمها عبد الناصر ، فغضت النظر عن كلامهم فى عهد كان الرقيب يرى كل كلمة قبل أن تنشر • يا لله • ! !

المراجع المسيحية أساس هذا الكتاب :

وقد عُنيتُ فى هذا الكتاب عناية خاصة بالمراجع التى كتبها مسيحيون ليكون حديثى عن المسيحية أقرب بقدر الإمكان الى اعتقاد المسيحيين ، ومن أهم المراجع التى اعتمدت عليها « الكتاب المقدس » أى العهد القديم والعهد الجديد ، وقد قدم الكتاب المقدس مادة ضافية لهذه الدراسة ، وكان عمادا كبير الشأن أقمنا عليه صرح هذا البحث ، ويجىء بعد الكتاب المقدس كتاب باللغة الإندونيسية أصدرته الكنيسة الكاثوليكية وتقوم بتوزيعه ، وعنوانه :

Pengadjaran Geredja Katolik

أى « تعاليم الكنيسة الكاثوليكية » وهو دراسة دقيقة لحالة الكنيسة والتعاليم التى تتبعها ، وتاريخ هذه التعاليم •

ومن الكتب والأبحاث الغربية الهامة التى اعتمدتُ عليها ما يلى :

Berry : Religions of the World
Harnack : What is Christianity
William Patoun : Great Religions of the World
Encyclopaedia of Religions and Ethics.
Encyclopaedia Britannica.
Wells : A Short History of the World.

وكَتَبَ المسيحيون الشرقيون مجموعة من الكتب كانت من أهم مراجعنا مثل :

القس بولس سباط : المشرع .
القس ابراهيم سعيد : تفسير بشارة لوقا .
« بوطر : الأصول والفروع :
حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى .

وهناك كتاب اسمه « الإنجيل والصليب » كتبه السيد عبد الأحد داود ، وهو قسيس مسيحى اعتنق الإسلام ، ولذلك يكتب عن المسيحيه عن خبرة وعمق ، وكان اقتباسى من هذا الكتاب محدوداً لأنى أدركت أن مثل هذا الكتاب قد يتحدى المسيحية ، وقد يحاول من طريق أو آخر أن يهجم عليها بسبب انتقاله من منصبه المقدس الى غامة المسلمين ، ولهذا اقتصرتُ فى الاقتباس منه على الأمور العقلية والأفكار المنطقية الواضحة، ولا شك أنه كان لى كبير الفائدة .

ومن الأبحاث العلمية التى كتبها باحثون مسلمون كتاب « الاسلام والمسيحية مع العلم والمدنية » للإمام محمد عبده وهو دراسة جيدة توضح دور الإسلام فى خدمة الحضارة وأن ليس للمسيحية دور فى هذا المجال ، ثم يجيء كتاب « محاضرات فى النصرانية » للأستاذ محمد أبو زهرة ، وهو بحث رائع استفدت منه كثيرا فى هذه الدراسة التى أقدمها ، كما استفدت من كتاب الأستاذ السيد محمد رشيد رضا « شبهات النصارى وحجج الإسلام » فوائد ذات بال .

وهناك مجموعات أخري كثيرة من الكتب سيجدها القارىء بين طيات هذا البحث ، على أنى بطبيعة الحال لم أكن جامعاً فقط وإنما كنت كذلك باحثاً مفكراً ، فكنت أنقد ، وأقترح ، وأبسط رأيى تقريبا فى جمع النقاط التى شملتها هـــذه الدراســـة .



وهذه هى الطبعة الثامنة من كتاب « المسيحية » وإذا كنت أطمـــع فى رحمة من الله يوم لا ظلّ إلا ظله ، فهذا الكتاب هو أهم وسائلى لهذه الغاية ، إنه القربى التى أُمسكها بإحدى يَدَىّ وأُمسك كتاب «الإسلام» باليد الأخرى وألوّح بهما فى شكر وتواضع ، ذاكراً أنهما ساعدا على تقديم الهداية لملايين البشر ، وإنقاذهم من التبشير ووسائله ، فقد عشت سنوات فى آسيا ورأيت التبشير المسعور يعم كل الأرجاء ، يحـــاول أن يجتذب للمسيحية ملايين البشر من الذين وصـــفتهم فى كتابى « أديان الهند الكبري » [1] بأنهم ذوو قلوب فارغة ، لم تستطع البوذية أن تحتفظ بها ، ولا استطاعت اللادينية أن تقنعهـــا .

المسيحية الســـياســـية :

ودخول هؤلاء المســيحية ليس خطـــرا ضـــدنا من الناحية الدينية فحسب ، ولكنه خطر سياسى واقتصادى أيضاً ، فإن المسيحية التى يعلمها هؤلاء المبشرون ليست المسيحية التى جاء بها عيسى عليه السلام ، إنما هى المسيحية التى نسميها « المسيحية السياسية » التى ترمى أولا الى ربط آسيا وإفريقية بعجلة الغرب عن طريق نشر الدين ، وترمى ثانيـــا الى خلق فكر مسيحى يقف أمام المسلمين وأمام الفكر الإسلامى فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والدولية [2] .

---

(١) ص ١٩٠ .

(٢) اقرا ما كتبناه بهذا الكتاب تحت عنوان « الكنيسة فى خدمة السياسة الغربية » وما كتبناه فى الجزء السادس من موسوعة التـــاريخ الاسلامى عن « الاستعمار والاديان » .

ضعف التجمع الاسلامى بآسيا وأفريقية بعد الاستقلال ! ! :

وقد انتهى الاستعمار السياسى فى هذه البلاد ، ولكنه يحاول أن يستعيد نفوذه بطريق المبشرين ، وأحيانا بطريق عملائه من السكان الأصليين • وكان كثير من السكان الأصليين يتجمعون حول راية الإسلام إبان الصراع للتحرر ، اذ كانت المسيحية تعد دين المستعمر ، والإسلام دين المقاومة ، فلما انتهى الاستعمار خفت صوت التجمع الاسلامى أحيانا وضعفت شوكته ، وزاد التجمع لنشر المسيحية وكثرت وسائله •

وسائل نشر المسيحية بآسيا وافريقية :

وبمناسبة الحديث عن وسائل نشر المسيحية بالشرق الأقصى وبقلب إفريقية أعدد هنا بعض هذه الوسائل تعدادا سريعا :

- وفود العلماء اللاهوتيين المبشرين •
- الرجال الذين يعملون بالسلك الدبلوماسى ولهم دراسات لاهوتية (مع ملاحظة أن أكثر الدبلوماسيين المسلمين لا يعرفون الفكر الإسلامى) •
- الكتب اللاهوتية التى تباع بأرخص الأسعار ، وتقدم هدايا فى كثير من الأحوال •
- المجلات الدينية التى توزع بدون ثمن •
- نشرات التبشير ونسخ الكتاب المقدس التى تصرف مجانا •
- المستشفيات المسيحية التى توجد فى كل مكان •
- المدارس المسيحية التى توجد فى كل مكان •
- البعثات التى تخصص لخريجى الجامعات والمعاهد وتمنحهم الشهادات بسرعة وتعيدهم لأسمى المناصب •
- البعثات السريعة التى يدعى لها مئات الصبيان [من سن ١٦ الى سن ١٨] لزيارة أمريكا أو ألمانيا مدة بضعة شهور ويلقى خلالها هؤلاء الصبيان ما يفسد عقائدهم •

ـ الإذاعات التبشيرية التى تنطلق فى قلب أفريقيـة ، وفى بعض المناطق بالشرق الأقصى •

ويؤسفنى أن أقرر أن المسلمين لم يعملوا شيئا ذا بال لمقاومة هذه الحركة التى ستعود بالخسارة علينا وعلى بلادنا إن لم نوقف تيارها •

نشاط تبشيرى فى البلاد الاسلامية الكبرى :

ومن أشنع ما نذكره هنا أن النشاط التبشيرى فتـح له جبهات فى البلاد الإسلامية ، ليفسد الجيل القادم من المسلمين ، وليشغلنا عن مقاومته فى الجبهات الخارجية ، ومما يستحق الثناء أن السلطات المسئولة بجمهورية مصر العربية تقف صارمة ضد ما يُكتشف أمره من هذه الحركات فقد علمتُ أن قسا أجنبياً كان يعيش هنـا ، وكان يمـارس ألواناً من النشاط الضارّ ، ولما اكتشفت السلطات المسئولة خبره أمسكت به ووضعته فى الحال فى طائرة غادرت به بلادنا على ألا يعود اليها ، وأرجو أن يضاعَف هذا الجهد فى جمهوريتنا ، وفى السودان ، والباكستان ، وغيرهما من الأقطار الإسلامية ، ليوقف الى الأبد هذا الصوت التبشيرى الأثيـم •

ولم أنِ فى كل كتبى وتقاريرى الرسمية عن التنبيه لخطر هـذا التبشير ، ولا زلت أفعل ، وهذه السطور صورة من صور التنبيه ، فأرجو أن تتجه العنـاية لمقـاومة التبشـير ، على الأقل بترجمـة بعض الكتب الإسلامية الممتازة الى اللغات المختلفة ، وإرسال بعض المبعوثين الأفذاذ لا ليعلموا الفقه واللغة فحسب ، بل لينشروا الإسلام ويقاوموا الحركات المضـادة له •

* * *

اضافات جديدة فى كل طبعـة :

وقد بذلتُ أقصى الجهد لأضيف الى كل طبعة الجديد مما أصل اليه من معلومات نتيجة القراءة المتصلة ، ففى الطبعة الثانيـة أضفت

إضافات واسعة جعلت الكتاب كأنه كتاب جديد ، إذ كانت تلك الطبعة غنية بمراجع كثيرة عثرت عليها بعد ظهور الطبعة الأولى ، وغنية أيضا بأبواب جديدة • وبتنظيم جديد ، ومن الكتب التى انتفعت بها فى الطبعة الثانية ما يلى :

Pagan Christs by Dr. Robertson.
The Sources of Christianity by Kamal - uldin
The Life of Buddha by Edward Smith

يسوع المسيح للأب بولس إلياس •
تاريخ الأقباط للاستاذ زكى شنوده •
المسيحية فى الإسلام للقس ابراهيم لوقا •
وغيرها • • • •

خرافات وأوهام :

وبمناسبة الحديث عن الكتاب الأخير أذكر أن بعض المسيحيين قاموا بما يلزم أن نسميه « حديث خرافة » إذ أصروا على ربط المسيحية بالإسلام ، وعلى الاعتقاد بأن الإسلام بل القرآن الكريم أجاز المسيحية على حالها بما فيها التثليث ، وأن المسيح سيحاسب الناس يوم الدين ، وأن المسيح مصدر الحياة • • •

فالقس بولس سباط يروى قوله تعالى :

— إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين (١) •

— وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس (٢) •

ويعلق عليهما بقوله بالحرف الواحد (فكأنى بصورة التثليث قد انعكست على مرآة القرآن فأبرزها بهاتين الآيتين) (٣) •

(١) سورة آل عمران الاية ٤٥ •
(٢) سورة البقرة الاية ٨٧ •
(٣) المشرع ص ٢٥ •

وردنا عليه هو أن هذا القول ليس إلا خرافة لا تستحق الذكر ، فليس فى الآيات الكريمة ما يفيد التثليث من قريب أو بعيد ، وحاشا لذلك أن يـــكون •

أما القس ابراهيم لوقا فكتابه كله من هذا اللون ، وعلى هذا فليس إلا حديث خرافات متصلة ، وليس إلا ضلالات بعيدة كل البعد عن المنطق والفكر السليم ، وأورد على هذا مثالا واحداً ليرى القارىء اتجاه هــذا المؤلف (١) •

عقيدة المسيحيين	تصريحات المسيحية	تصريحات الإسلام
المسيح مصدر حياة	نا هــو القيــامة والحيــاة ، ن آمن بى ولــو مـــات سيحيا ، انجيــل يوحنــا ١١ : ٢٥)	إنمــا المسيح عيسى بن مــريم رسول الله وكلمته ، ألقــاها إلى مريم وروح منه (سورة النساء الآية ١٧٠)

ولست أدرى كيف توحى هذه الآية الكريمة بأن المسيح مصدر حياة ومبعث الكون ، مع أن الآية تنص بوضوح عــلى أن الله خلق عيسى من مريم بعد أن ازدهر الكون وعمر ؟

وقريب من هذا ما كتب لى به أحد المسيحيين المثقفين ، فقد اقتبس فقرات من الأناجيل وآيات من القرآن الكريم يرى أن معناها تكرار لمــا جاء فى فقرات الأناجيل ، وسألنى : ألا يعد ذلك اقتباسا من الأناجيل •

وأجبته بالتـــالى :

أولا — إن المقارنة فيها كثير من التعسف ، والفكر القرآنى بعيد عن ما ورد فى الأناجيل فى أكثر الحالات التى أوردها هذا الكاتب •

(١) المسيحية فى الاسلام ص ٩٦ •

ثانيا ــ اذا صح أن هناك تشابها بين الآيات القــرآنية وفقــرات الأناجيل أحيانا فإن سبب ذلك أن الدينين من عند الله ، ومن الممكن أن تكون هناك نصائح وتوجيهات خلقية وردت فى الأناجيل ثم كررت بشكل ما فى القرآن الكريم لإرشاد البشر فى كل زمان ومكان ، بل إن القرآن الكريم قد تكررت به آيات لهذا الغرض ، حتى اذا غفل القارىء عن معنى آيةٍ مرةً قابلته مــــرة أخــــرى •

ثالثا ــ هناك جوانب حضــارية كانت خاصــة بالاســلام فالنظام السياسى والاقتصــادى والاجتماعى والتربوى • • • • الذى ورد فى القرآن لم يرد له نظير من قبل ، وينحصر التشابه فى الأمور الأخلاقية •

ومن الحق أن أذكر أنه ردَّ على إجابتى بأدب جــم وبالكثير من الاقتنــــاع •



وقد حفلت الطبعة السادسة من هذا الكتاب بالجديد نتيجة قراءات واسعة لما كتبه بعض مشاهير المفكرين المسيحيين الذين اتخذوا فى كتاباتهم عن المسيحية موقف الباحث العالم لا موقف المتعصب الجامد •

وفى الطبعة السادسة كذلك دراسة اقتبستها من باحث مسيحى عن خرافة ظهور العذراء ، وعن خدعة ما عُرِف بنقل جثمان القديس مرقص من البندقية للقاهرة ، ودراسة مثيرة عن الحياة فى الأديرة •

وفى هذه الطبعة (الثامنة) زيادات واسعة أشرنا لها فى مقدمتهــا بصدر الكتاب •

وأرجو بذلك أن أكون متتبعا بصدق وأمانة للأحــداث وللدراســات حــول دين السيد المسيح عليه السلام •

وبعد ، فهذه الطبعة أقدمها للقارىء وللمجتمع ، راجيــاً أن يكون فيها هدى ونور لبنى الإنسان ، وأن يكون فيها مرضاة للخالق العظيم .

ودعاء يارب من الأعماق أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكريم وأن تكثر به النفع ، إنك ســــميع الدعاء .

دكتور أحمد شلبى

موجز عن مسيرة المسيحية

إن مطالعتنا للأناجيل تقدم لنا عرضا واضحا لسَيْر دعوة المسيح عليه السلام ، وإنجيل متى — فى تقديرى — أكثر الأناجيل وضوحا ، ومنه نقتبس بعض الفقرات التى تصور لنا مسيرة هذه الدعوة :

نجاط الدعوة :

كان يسوع يطوف كل الجليل يعلّم فى المجامع ، ويَكْرِز (يبشّر) بملكوت الله ، ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب ، فذاع خبره فى جميع سورية ، فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة ، والمجانين والمصروعين والمفلوجين ، فشفاهم ، فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن[1] .

عظة الجبل :

صعد يسوع الجبل ، وتقدم اليه تلاميذه ، ففتح فاه وعلمهم قائلا: طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزّوْن ، طوبى للوُدَعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطش الى البرّ لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يُرحَمون ، طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينُون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم يُدْعَوْن أبناء الله ، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات[2] .

أخلاقيات :

هناك صور طيبة من الأخلاقيات أوصى بها السيد المسيح ، وإذا كانت المسيحية خلت تقريبا من التشريعات ، فإنها حفلت بالأخلاقيات ،

---

(١) متى ٤ : ٢٣ — ٢٥ .
(٢) متى ٥ : ١ — ١٠ .

ولكن للأسف نسى أكثر المسيحيين القـدماء والمحدثين هـذه الأخلاقيات تمـاما ، تعال بنا نعرض بعضها بإعجاب ، ونأسف لإهمالها :

– سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تحنث ، بل أَوْفِ للرب بقسمك ، **وأما أنا فأقول كم : لا تحلفوا ألبتة .... وليكن كلامكم نعـم أو لا** [١] .

– **لا تكونوا كالمرائين ، الذين يحبون أن يُصلّوا حتى يقال أنهم يُصلّون ، الحق أقول لكم إن هؤلاء استوفوا أجـرهم** [٢] **(بحديث النـاس عنـهم)** .

– إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوى ، وان لـم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم زلاتكم [٣] .... ولا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض . حيث يُفسـد السـوس والصدأ ، وحيث ينقب السـارقون ويسرقون .... انظروا إلى طيور السماء ، إنهـا لا تزرع ولا تحصـد ولا تجمع فى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها [٤] .

– سأله الفريسيون (طائفة من اليهود) : لماذا تأكل مـع الخطاة والمذنبين ؟ فأجاب : لا يحتاج الأصحاء الى طبيب بل المرضى [٥]

ضـد اليهـود :

عانى السيد المسيح أشد عناء من طوائف اليهـود ، ومـع الخلاف بين هذه الطوائف (الكهنة والفريسيون والصدقيون) فإنهم جميعا اتفقوا على محاربة دعوة المسيح والوقوف منها موقف هجوم وصراع ، ولذلك

---

(١) متى ٥ : ٢٣ – ٢٧ .
(٢) متى ٦ : ٥ – ٧ .
(٣) متى ٦ :
(٤) متى ٦ : ١٤ ، ١٩ – ٢٠ ، ٢٦ .
(٥) متى ٩ : ١١ – ١٢ .

هاجمهم السيد المسيح عدة مرات ، وأبرز انحلال أخلاقهم وبعدهم عن جادة الصواب ، وفيما يلى مقتبسات من كلامه فى هذا المجال :

— قالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ، فافرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء من قبل (١) .

— احترزوا من الأنبياء الكَذَبَة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب" خاطفة (٢) .

— يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار . . . . جيل « شرير » وفاسق ، أنتم أيها الكتبة والفريسيون (٣) .

— ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس ، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون ، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ، ولعلة تطيلون صلواتكم ، لذلك تأخذون دينونة أعظم ، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون للقادة العميان . أيها الحيات أولاد الأفاعى . . . . (٤)

نهاية المسيح كما يوردها إنجيل مَتّى :

كان هجوم عيسى عليه السلام على اليهود أهم سبب أدى إلى

---

(١) متى ٥ : ١١ — ١٢ .
(٢) متى ٧ : ١٥ .
(٣) متى ١٢ : ٣٤ و ٣٨ .
(٤) متى ٢٣ : ١٢ وما بعدها .

محاكمته والحكم عليه بالإعدام ، فيَرْوِى متى أن رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب اجتمعوا فى دار رئيس الكهنة الذى يُدعى « قيافا » وتشاوروا لكى يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه [١] .

وأحسّ عيسى عليه السلام أن مؤامرات تدور حوله للقضاء عليه وأن واحداً من الحواريين سيتآمر ضده ويسلمه إلى أعدائه ويحكى متى ذلك فيقول : ولما كان المساء اتكأ يسوع مع الاثنى عشرة وفيما هم يأكلون قال : الحق أقول لكم ان واحداً منكم يسلّمنى [٢] فحزنوا جداً ، وابتدأ كل واحد منهم يقول له : هل أنا هو ؟

وبالاضافة الى من يسلمه عرف السيد المسيح أن من تلاميذه مَنْ سينكره ، وهو بطرس ، فقد قال له المسيح : الحق أقول لك أنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرنى ثلاث مرات ، فقال بطرس : لو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك [٣] .

المسيح فى ضيعة جَثْسَيْمَانِى :

وفى الليلة التى تقرر فيها القبض على السيد المسيح لجأ هو وتلاميذه إلى ضيعة جَثْسَيْمَانِى ، وأخذ المسيح يعظ تلاميذه وينصحهم وذكر لهم أن الساعة قد اقتربت ليسلّم ابنُ الانسان الى **أيدى الخطاة وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الحواريين الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، وكان قد اتفق معهم على أن يعطوه ثلاثين من الفضة نظير تسليم عيسى لهم ، وقد أعطى يهوذا علامةً للجنود الرومان هى قوله لهم : الذى أقبّله هو هو أمسكوه .**

---

(١) متى ٢٦ : ٣ — ٤ .
(٢) متى ٢٦ : ٢٠ — ٢٣ .
(٣) متى ٢٦ : ٢٣ — ٢٥ .

وتقدم يهوذا الاسخريوطى الى السيد المسيح وقال : السلام يا سيدى . وقبّله .

وتقول الرواية المسيحية [١] إن الجنود أمسكوا يسوع ومضوا به الى (قيافا) رئيس الكهنة حيث اجتمع الكهنة والشيوخ ، وتبعه بطرس من بعيد الى دار رئيس الكهنة فدخل وجلس بين الخدام لينظر النهاية ، **وحينئذ رأت جارية بطرس فجاءت وقالت : أنت كنت مع يسوع الجليلى، فانكر أنه يعرفه ، ثم رأته امرأة أخرى ، فأنكر أيضا وأقسم بأنه لم يعرف هذا الرجل ، ثم جاءت جموع تقول لبطرس إنك من أتباع يسوع وإن لغتك تظهرك ، فأخذ يلعن ويحلف إنى لا أعرف الرجل ، وهكذا أنكر بطرس ثلاث مرات معرفته لأستاذه ومعلمه** [٢] .

وفى الصباح أوثق الكهنة رباط السيد المسيح ومضوا به الى بلاطس الوالى وقد قرروا قتله ، فسأله الوالى عن الجرائم التى نسبوها اليه ، ولكنه لم يجب بشىء مما ثبّت عليه الجرائم التى ادعاها الكهنة والكتبة والشيوخ وثبّت عليه بالتالى حكم الإعدام .

وكان الوالى معتاداً فى العيد أن يطلق فى الجمع أسيراً واحداً تقرّر إعدامه هدية منه للشعب فى كل عيد ، وكان اليهود آنذاك يحتفلون بعيد من أعيادهم ، وكان هناك اثنان حكم عليهما بالإعدام ، هما عيسى عليه السلام وأسير آخر اسمه (باراباس) ولعل الوالى أراد أن ينتهز هذا التقليد لينجو به عيسى ، فاتجه للجموع يسألهم أن يختاروا نجاة أحد الاثنين ، ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرّضوا الجموع على أن يطلبوا نجاة (باراباس) واهلاك يسوع ، وصاحوا بيسوع : ليُصلب وهتفوا فى صوت واحد : دمه علينا وعلى أبنائنا [٣] .

وأعدم يسوع بناء على الرواية المسيحية .

وهكذا كان الرومان أكثر عدالة وعطفا على السيد المسيح من اليهود

---

(١) سندرس فيما بعد الفكر الاسلامى حول هذا الموضوع .
(٢) متى ٢٦ : ٦٩ — ٧٥ .
(٣) متى ٢٧ : ١٥ — ٢٦ .

تلك فكرة سريعة عن مسيرة المسيحية ، وسنتدارس فيما يلى الاتجاهات المختلفة حول المسيح والمسيحية ، فقد اختلفت وجهات النظر اختلافا واسعا حول هذه القضية ، فكان لكل من المسلمين والمسيحيين واليهود والمثقفين الغربيين اتجاه يختلف قليلا أو كثيرا عن الاتجاهات الأخرى ، وسنبدأ فيما يلى حديثنا عن هذه الاتجاهات .

أشهر الاتجاهات حول المسيح والمسيحية

نأخذ الآن فى بيان الاتجاهات المختلفة عن المسيح والمسيحية لنضع على بساط البحث أشهر الأقوال المتصلة بتلك الديانة ، سواء أكانت هذه الأقوال من عقيدة المسيحيين أو كانت رأيا لغير المسيحيين فى المسيحية . لنجعل الموضوع بذلك أكثر وضوحا ، بالأضواء نلقيها عليه من نواح متعددة :

المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين

الكلام عن المسيح والمسيحية عند المسلمين يحتاج الى تقديم سريع للتعريف ببضعة أشخاص لهم صلة بحياة المسيح :

زكريا :

كان زكريا أحدَ أنبياء بنى إسرائيل كما كان أحد من يقومون بخدمة الهيكل المقدس ، وقد تقدمت سن زكريا وأصبح كهلا ، ولكنه لم يرزق ولداً ، وكان يتمنى أن يرزقه الله ولدا يواصل دعوته من بعده ، خوفا على قومه أن يضلوا ، فقد كانت بوادر الضلال تظهر فيهم ، ولكن تقدُّمَ سنِّه وإشرافَه على التسعين ، قطع أملَه فى الولد ، كما قطع أمَله عقمُ زوجته وتقدُّمها فى السن أيضا ، ولكن زكريا رأى ما يجعله يتذكر أن قدرة الله إن اتجهت لشىء تغلبت على كل العوائق، فقد دخل على مريم — وسنتكلم عنها بعد قليل — وهى حبيسة الهيكل ،

تقضى فيه ليلها ونهارها ، فوجد عندها طعاما وشرابا ، ووجد فاكهة فى غير أوانها ، فسألها : يا مريم أَنَّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، هنالك دعا زكريا ربه قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى [١] » .

يحيى :

يحيى بن زكريا حملت به أمه اليصابات وهى عجوز كما سبق ، ووضعته ، وتربى حتى صار كما وصفه القرآن الكريم « مصدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين [٢] » ، وقد عُرف يحيى بأوصاف التقوى والصلاح منذ صباه ، واتَّجه للعلم ففهم مسائل التوراة ، وأحاط بأصولها وفروعها ، وأصبح فيها مرجعا هاما ، ونُبِّىءَ يحيى قبل أن يبلغ الثلاثين ، ومن أهم ما اشتهر به أنه كان يعمِّد الناس أى يغسلهم فى نهر الأردن للتوبة من الخطايا وللتطهير من الذنوب ، ولذلك سماه اليهود (يوحنا المعمدان) وقد عَمَّدَ المسيح ، وكان المسيح يضاهيه فى العمر تقريبا . وقد ورد فى إنجيل لوقا أن الحمل بعيسى بدأ فى الشهر السادس من حمل اليصابات [٣] .

وكان يحيى جريئا فى الحق ، يقول ما يعتقد دون خوف من سطوة حاكم أو طغيان ملك ، وقد نقلوا إليه أن هيرودوس ملك اليهود بفلسطين قد وقع فى حب هيروديا ابنة أخيه فيلبس ، وأنه ينوى الزواج بها ، فأعلن يحيى أن ذلك يناقض التوراة ، وأنه إن حصل فهو زواج باطل .

وكانت أم هيروديا حريصة على أن تتزوج ابنتُها من الملك ، ووجدت أن يحيى سيكون عقبة فى سبيل هذا الزواج ، فزينت ابنَتَها بأحسن

(١و٢) سورة آل عمران الايات ٣٧ — ٣٩ .
(٣) الاصحاح الاول الفقرتان ١٦ و ٢٦ .

زينة ، وأسلمتها لعمها وأوصتها إن طلب منها عمُّها أن تتمنى شيئاً ، أن تطالب برأس يحيى ، وأجادت الفتاة تمثيل الدور ، فرقصت لعمها ، وعرضت أمامه ألوان فتنتها وسحرها حتى وقع فى حبائلها ، وسألها أمنيتها ، فقالت : رأس ذلك الذى سمَّع بى وبك وتكلم عنا فى كل نادٍ ، ولم تمض إلا دقائق حتى كانت رأس يحيى فى طبق أمام هيروديا [١] فاستحقت واستحق معها عمها وأعوانه من بنى إسرائيل لعنة الله ، وفى بعض الروايات أن هذا الحاكم تزوج من بنت أخيه هيروديا ، وزوجها حىّ . فأخذ الرسول يحيى يندد بهذه الخطيئة فى مجالسه ، ووصل هذا التنديد الى مسامع هيروديا ، وفى ليلة من ليالى اللهو رقصت بنت أخيه بين يديه فأعجب بها ووعد أن يمنحها ما تريد ، فطلبت — بإيعاز من أمها — أن يأتى لها برأس يوحنا فى طبق [٢] .

وقد بدأ المسيح دعوته بعد أن بلغه موت يحيى ، ويقال إن زكريا مات فى هذه الفتنة التى مات فيها ابنه .

يوسف النجار :

يوسف النجّار شاب صالح من شباب اليهود ، كانت مريم مخطوبة له قبل أن تحمل بالمسيح ، ولما عرف أنها حامل فكّر فى تركها دون أن يتحدث عنها ، ولكنه رأى فى منامه مَنْ يأمره بعدم تركها لأنها بريئة ، ولأنه إن تركها ستصير وحيدة تصارع الأحداث وحدها ، فخضع يوسف لهذا ، وظل معها .

مريم ابنة عمران :

كان عمران أحد عظماء بنى إسرائيل ، وكانت زوجته عاقرا تقدمت بها السنّ دون أن ترزق بولد ، وتبعا للطبيعة البشرية كانت زوجة عمران

---

(١) انجيل متى ١٤ : ٢ وما بعدها ومرقص ٦ : ١٧ وما بعدها .
(٢) وردت القصة بمدلول مخالف قليلا فى متى ١٤ : ٣ — ١١ .
وانظر فى ذلك كتاب هداة الانسانية للدكتور عبد العزيز عبد المجيد ص ١٤٢ .

تأمل أن تكون أماً فاتجهت الى الله سبحانه سائلة داعية ، ونذرت إن حقق الله رجاءها ورزقها ولدا أن تتركه للهيكل خادما محررا ، أى لا عمل له إلا خدمة البيت والعبادة .

واستجاب الله لها فحملت ، وسرعان ما أحست بالجنين يتحرك فى أحشائها فيحرك فى نفسها لذة وسروراً وبهجة ، وقبل أن تضع جنينها توفى زوجها ، فلم يقدر له أن يرى طفله المنتظر ، وأتمت امرأة عمران أشهر الحمل ، وولدت بنتا أسمتها مريم ، ولذلك خاب أملها فى النذر الذى نذرته ، فقد كانت تحسب أن البنت لا تفى بالنذر ، ولا تستطيع أن تقوم بالخدمة ، ولكنها بناء على رأى سدنة الهيكل نفذت نذرها ، ووضعت طفلتها فى الهيكل المقدس لخدمته وللعبادة فيه ، وقد تنازع سدنة البيت أيهم يكفل مريم الصغيرة ، فاقترعوا فيما بينهم فخرجت القرعة لزكريا ، فكفلها وعنى بها ، وكان زوج خالتها ، ولم يكن له فى ذلك الوقت أولاد كما قلنا من قبل . فوجد راحة كبيرة فى الإشراف على هذه الصغيرة الناسكة ، وقد رأى زكريا صوراً حار لها ، تتعلق بهذه الفتاة ، هى هذه الأرزاق التى تأتيها ، وفاكهة الصيف التى يجدها عندها فى الشتاء وفاكهة الشتاء التى يجدها فى الصيف ، وراقبها زكريا فما وجد أحداً يدخل عليها ، ولا وجدها تخرج من حجرتها ، ولذلك سألها كما مر : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . وقد وردت هذه القصة فى الآيات الكريمة :

(إذ قالت امرأة عمران : رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت : رب إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتاً حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا : قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق ما يشاء بغير حساب . . . . .

. . . .

ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيـهم يكفـل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون (١) .

العقـــم فى بنى إسرائيل :

إن الذى يدرس تاريخ بنى إسرائيل يشاهد تفشّى العقم فـيهم ، فالذى حدث لزكريا وزوجته والذى حدث لعمــران وزوجته ليس شـيئا نادراً ، وفى كثير من الأحوال كان العقم يستمر ، وأحيانا تجىء لفتة من الله سبحانه وتعالى فيهب الولد بعد اليأس وتقدم السّنّ كما رأينا ، ولعل هذا العقم هو الذى جعل بنى اسرائيل الآن لايتكاثرون كما يتكاثر سواهم من البشر .

إنه لطف الله حتى لا يكثر هذا الوباء فى المجتمع البشرى .

---

(١) سورة آل عمران : الاية ٣٤ ـ ٣٧ و ٤٤ .

المسيح فى نظر المسلمين

بعد الحديث عن هذه الشخصيات المهمة التى مهّدت للكلام عن السيد المسيح ، نصل للحديث عن السيد المسيح نفسه ، وقد ظلت مريم فى الاعتكاف كعادتها ، ولكنها فوجئت فى يوم من الأيام برجل يقف أمامها، فارتاعت وتساءلت : من هذا الذى ينغّص عليها وحدتها ؟ وماذا يريد منها ؟ ولكنه نقلها من عجب إلى عجب حين قال لها : « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا [١] » وصاحت مريم : « أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغيا [٢] » فأجاب « كذلك ، قال ربك هو علىَّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا [٣] » ورضيت مريم بمنحة الله ، وبدأ الحمل ، وتقول الآية الكريمة « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » [٤] .

ما الروح ؟

وينبغى أن نقف هنا وقفة قصيرة لنقدّم دراسة عن الروح متصلة بقوله تعالى « فنفخنا فيها من روحنا » .

وقد وردت « الروح » فى القرآن الكريم بمعان ثلاثة هى :

١ — بمعنى جبريل ، قال تعالى :

— وأيدناه بروح القدس	البقرة ٨٧
— فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا	مريم ١٦
— نزل به الروح الأمين	الشعراء ١٩٣
— تعرج الملائكة والروح إليه	المعارج ٤
— تنزل الملائكة والروح فيها	القدر ٤

(١) سورة مريم ١٩ .
(٢) مريم ٢٠
(٣) مريم ٢١ .
(٤) الانبياء ٩١ .

٢ — بمعنى الوحى بوجه عام أو القرآن بوجه خاص ، قال تعالى :

— ينزل الملائكة بالروح من أمره النحــل ٣

— يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده المؤمنون ١٥

— وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا الشورى ٥٢

٣ — بمعنى القوة التى تحدث الحياة فى الكائنات ، قال تعالى :

— ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى الاسراء ٨٥

— إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين الحجر ٢٨ — ٢٩

— إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ص ٧١ — ٧٢

— والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا الأنبياء ٩١

— ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا التحريم ١٢

والآية السابقة «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » واضحة الدلالة على أن هذه القوة التى تحدث الحياة فى الكائن هى من علم الله ، وأن الله سبحانه خص نفسه بمعرفة كنهها ، وهو وحده الذى يمنحها فتدب الحياة أو يأخذها فتصبح الأجسام هامدة .

والآيات التالية تطبيق لذلك ، فالله خلق بشرا من طين ثم أودعه الروح ، وباللغة القرآنية « نفخ فيه من روحه » أى أودعه القوة التى لا يعرفها ولا يسيطر عليها سواه ، فجاء آدم .

وأودع هذه القوة رحم مريم العذراء التى أحصنت فرجها والتزمت بالعفاف وعدم مخالطة الرجال ، ونتيجة لنفخ روح الله فى رحم مريم أى

إيداع الله القوة التى تخلق الكائن الحى فى رحم السيدة العـذراء ، جاء السيد المسيح .

ومن هنا تجىء الآية الكريمـة « إن مثـل عيسى عنـد الله كمثـل آدم . . . [١] »

ويلاحظ فى الآيتين الكريمتين السابقتين المرتبطتين بالسيدة العذراء وحملها أن الآية الأولى تقول « فنفخنا فيها » والثانية تقول « أحصنت فرجها فنفخنا فيه»والمقصود فى الآية الأولى منحنا مريم القوة التى جعلت طفلا يدب فى رحمها ، فالضمير لمريم ، أما الآية الثانية فاتجهت للوسيلة التى يجىء الأطفال عن طريقها وذلك للتقريب ، وهناك إحدى القراءات فى هذه الآية تقول « فيها » أيضا ، والنفخ هو تسلط الارادة كما سنرى بعد قليل وليس نفخا بالمعنى المعروف .

ويتجه الإمام البيضاوى اتجاها ميسرا فى شرح هـذه الآيات فيرى أن « مِنْ » حرف زائد ، وأن المقصود أودعنا فى الطين أو فى الرحم روحنا أى القوة التى لا يملكها سوانا والتى بمقتضـاها يجىء كائن حى بدون الوسائل العادية . وكلماته هى « روح خلقناه بلا توسط أصل » [٢] .

ويقول الباحثون المسلمون إن معنى النفخ هو تحصيل آثار الروح أى أن تدب الحياة ، ويقولون إن منح الله القوة فى كل الأرحام ضرورى للحمل والحياة ، وأن كثيرا من الأزواج يلتقون بزوجاتهم ، ولا يحصـل حمل مدة من الزمن لأن الله سبحانه لم يمنح هذه القوة التى يبدأ بهـا الحمل أو تبدأ بها الحياة ، ثم يتفضل الله عندما يشاء فيمنح هـذه القوة ويبدأ الحمل ، ومعنى هذا أن نفخ الروح فى الأرحام ضرورى لكل البشر ، وانما ورد النص فى حالتى آدم وعيسى لأن الخلق فى آدم والحمل فى عيسى

---

(١) آل عمران ٥٩ .
(٢) تفسير البيضاوى ص ٩١ من الجزء الثانى .

جاء بغير الطـريق الطبيعي ، ولكن بالنسبة لله سبحانه وتعالى تستوى كـل الطـرق •

ولعله يرتبط بهذا ما يذكره ابن هشـام حول تفسـير قوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشـاء [١] » فإنه يذكر أن عيسى عليه السلام كان ممن صوِّر فى الأرحام كما صور غيره من بنى آدم [٢] •

وقد أعطى الله سبحانه وتعـالى لعيسى عليه السـلام هذه القوة ليستعملها فى هيئة الطير التى صنعها من الطين ثم نفخ فيهـا فأصبحت طيرا بإذن الله قال تعالى « ورسولا الى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طـيرا بإذن الله [٣] » •

النفـخ :

وإيضاحا لكلمة النفخ التى تكرر ورودها فى القرآن الكريم متصلة بخلق آدم أو بخلق عيسى عليهما السلام أو بخلق طير من الطين أو متصلة بالنفخ فى الصور ، نذكر أن المفسرين يرون أن معنى النفخ هو تحصـيل آثار الروط أى أن تدب الحياة ، **فهو تسلط الإرادة بالحياة فى حالة آدم وعيسى وهيئة الطير التى أعدها عيسى ، وتسلط الارادة بالبعث يوم القيامة،** وكلمات المفسرين التفصيلية هى : أصل النفخ إجراء الريح فى تجـويف جسم آخر ، ولما كان الروح يتعلق أولا بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض به القوة الحيوية فيسرى حاملا لهـا فى تجـويف الشرايين الى أعمـاق البـدن جعل تعلقه بالبدن نفخا ، والمقصود تعلق الإرادة عـلى كـل حـال •

وعلى هذا فخلق عيسى على هذا النمط هو على نمط خلق آدم وخلق الطائر من الطين الذى سيهيئه عيسى على هيئة الطـير ، وهـو تصرف

---

(١) آل عمران ٦ •
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٦١ •
(٣) آل عمران ٤٩ •

لا يحتاج لجهد ، ولكن المسيحيين عندما اتخذوا ذلك وسيلة لتأليه عيسى عقّدوا الأمور ، وصوروا عيسى ابن الله . . . . والله سبحانه لم يلد ، ولم يولد ، لم يكن له كفوا أحد .

وقد اتجه بعض الكتّاب المسلمين (١) الى تأليف كتاب جعل عنوانه « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » وذلك لدقة الصلة بين الحالتين .

مشكلات السيدة العذراء بعد الحمل :

لقد تقبلت السيدة العذراء أمر ربها ، وبدأ حملها بابنها ، ولكن كيف سيكون موقفها من الناس الذين لا يعلمون ما تعلم ؟ .

وبعد فترة بدأ الجنين يدبّ فى رحم العذراء ، وكثرت أوهامها وأفكارها عما سيقوله الناس عنها ، وخرجت من الهيكل الى قريتها الناصرة ، وأقامت فى بيت صغير اعتزلت فيه الناس ، ثم خرجت مع يوسف النجار الى بيت لحم ، فلما أوشكت على الوضع وأحست ألم المخاض خرجت من القرية ، فأجاءها المخاض (دفعها) الى جذع نخلة يابسة ، وحيدةً فريدةً ، حيث وضعت السيد المسيح ، ونظرت لطفلها البرىء الذى سيصبح فى نظر القوم دليل جريمة ، وقالت : « يا ليتنى متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً »(٢) ثم فكرت فى طعامها وشرابها ليكون ذلك وسيلة لدرّ اللبن الى ابنها ، فسمعت صوت الملاك يناديها « ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً (جدول ماء) وهزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلى واشربى ، وقرّى عيناً(٣) » .

وإذا كانت مسألة الطعام والشراب قد انحلّت فكيف بمشكلة العار؟ وماذا عسى أن تقول للمتّهمين والمتهكّمين والذين سيصيحون فيها قائلين

---

(١) هو الدكتور حسن عز الدين الجمل .
(٢) سورة مريم الاية ٢٣ .
(٣) نفس السورة الايات ٢٤ — ٢٦ .

« يا مريم لقد جئت شيئاً فَرِيّاً ، يا أخت هارون ما كان أبوك أمْرَأ سَوْءٍ وما كانت أمك بغيا [١] » ولكن الملاك علمها الرد على هذا الاتهام ، وهو أن تسكتَ وتدعَ الرد للطفل الصغير ففى كلامه الرائع معجزة وأية معجزة ، « فإما ترينَّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً [٢] » .

فلما تجمع القوم وسألوها عن فعلتها أمسكت عن الكلام وأشارت اليهم ليكلموا الصبى « فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم مَنْ كان فى المهد صبياً ؟ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيـاً ، وجعلنى مباركاً أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شـقياً ، والسـلام علىَّ يوم وُلِدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً [٣] » وصدّق قليلون ، ورآه الباقون سحرا ، وظلّت أغلبية بنى إسرائيل الساحقة فى طغيانهم يعمهون ، فكانوا يسمونه « ابن البغى » وكانوا يقولون على مريم بهتاناً عظيماً [٤].

هل هناك حكمة فى أنّ عيسى وُلدَ من غير أب ؟

يرى الأستاذ أبو زهرة أن ذلك كان لحكمة رائعة ، فاليهـود كانوا قوما ماديين ربطوا الأسباب بمسبباتها ، وسادت عندهم الفلسفة التى تقول إن خلق الكون كان من مصدره الأول كالعلة من معلولها ، فأراد الله سبحانه أن يوضح لهم أن قدرته هى التى ربطت الأسباب بمسبباتها ، وأنها تستطيع أن تتجاوز هـذا القانون فيوجـد المسبب دون أن يوجد السبب ، فخلقَ الله عيسى من غير أب لهذا . ومن مادية اليهود أيضـاً

---

(١) سورة مريم الايات ٢٧ ـ ٢٨ . واخت هارون معناها انها من نسل هرون اخى موسى ، والعرب يقولون للتميمى يا اخا تميم وللقرشى يا اخا قريش .

(٢) سورة مريم الاية ٢٦ .

(٣) نفس السورة الايات ٢٩ ـ ٣٣ .

(٤) مما يرتبط بعيسى فى هذه المرحلة ما رواه متى من أن مريم خرجت بعيسى ومعها يوسف النجار الى مصر هربا من ملك اليهود ، وسنذكر ذلك عند الكلام عن « المسيح فى نظر المسيحيين » .

إنكارهم الروح واعتقادهم أن الإنسان مادة خلقت من مادة فأراد الله أن يخلق إنساناً دون أن تكون المادة أساساً له [1] •

نشـــأة عيسى :

ليس عندنا كثير من المعلومات عن نشـــأة عيسى ، ويقـــول القس بولس شباط إن الأناجيل قد أوجزت الكلام عن حيـــاة عيسى من مولده الى دعوته ، فلم تذكر منها إلا نزرا يسيرا ، ولا كتب الإنجيليون سوى أنه كان يزاول التجارة [2] وقد نشأ ـــ فيما يبدو ـــ كما ينشأ الصبيان فى عهده ، وكان ينتقل مع أمه بين الناصرة وبيت المقدس ، وامتاز بذكاء وعمق ، فلم يكن يهتم بمظاهر الأشياء بل كان يغوص فى أعماقها ، وكـــان يسمع المدرسين والحكماء فلا يسلّم بما يقولون به ، بل يناقشهم كلما رأى فى كلامهم غموضاً أو ألغازا مما تعوّد سواه أن يقبلها دون تفسير أو نقاش ، وقد ألـمّ بالتوراة ونال من العلم قســطاً كبيرا ، وســاءه ما آلت إليه حالة قومه من بنى إسرائيل من ضلال وعمى ، وما خضعوا له من ترهات وأكاذيب سنلم ببعضها فيما يلى :

بنـــو اسرائيل قبل نبوة عيسى :

حرّف بنو إسرائيل شريعة موسى وجعلوا همهم جمع المال • وامتد هذا التفكير المادى الى العلماء والرهبان ، فأخذوا يحرّضون العامة على تقديم القرابين والنذور للهيكل رجاء أن يحصلوا على الغفران ، وربطوا الغفران برضا الرهبان ودعائهم •

وتعمقوا فى المادية وبعدوا عن الروحية ، فأنكر فريق منهم القيامة والحشر ، ومن ثَمّ أنكروا الحساب والعقاب ، فانغمس الكثيرون منهم فى متاع الحياة الدنيا غير خائفين من عاقبة ، ولا متوقعين حســاباً ، وفى

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٥ .
(٢) انظر المشرع ص ٩٢ ومتى ١٣ : ٥٥ .

كلمة واحدة لقد فسدت العقيدة وفسدت الأخلاق ، ولم يكن بدٌ من منقذ يحاول أن يردهم عن طغيانهم الذين كانوا فيه يعمهون [١] .

نبـوة عيسى ومعجـــزاته :

بُعث المسيح وهو فى حوالى الثلاثين من عمـره ، وكان لب دعوته التبشير بالروح وهجر الملاذ الضالة ، وأيده الله بمعجزات خارقة هامة ذكرها القرآن فى الآيات الآتية : « ورسولا الى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىءُ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم [٢] » فهذه معجزات أربعة :

١ — خلق طير من الطين .

٢ — إبراء الأكمه والأبرص .

٣ — إحياء الموتى .

٤ — الإنباء بما هو مجهول من طعامهم ومدخراتهم .

وأما المعجزة الخامسة فهى إنزال المائدة التى طلبها الحواريون وقد ورد ذكرُها فى قوله تعالى « إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله إنى منزّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين [٣] » .

---

(١) انظر طه المدور : بين الديانات والحضارات ص ٢٨ والقس بولس سباط ٥٤ .

(٢) سورة آل عمران الاية ٤٩ .

(٣) سورة المائدة ١١٢ — ١١٥ .

ولست أدرى كيف يتشكك الحواريون فى رسالة عيسى مع براهينه الماضية ، وهم الذين اتبعوه من دون بنى إسرائيل ؟ وإذا كان هذا شأن الحواريين فكيف يكون شأن العامة ؟ ثم لماذا كانت المائدة هى الوسيلة الوحيدة ليصدّقوا ، مع أنها ليست أقوى من إحياء الموتى ولا إبراء الأكمه والأبرص ؟

وقبل أن نترك معجزات المسيح نقرر أن المسلمين مع إقرارهم بهذه المعجزات لا يؤيدون ما تذكره الأناجيل عن استعمال هذه المعجزات فى الحياة العملية ، فالذى يقرأ هذه الأناجيل يلاحظ ملاحظتين هامتين :

١ — تذكر هذه الأناجيل عددا ضخماً أحياهم المسيح بعد الموت ، أو شفاهم من البرص ، أو جعلهم يبصرون بعد العمى ، وطبيعة المعجزة غير ذلك ، إنها دليل" لإثبات النبوة ، ومعنى ذلك أنها تُستعمل بضع مرات لتحدّى البشر حتى يصدّقوا ، ولكن الذى تذكره هذه الأناجيل غير هذا ، إنه أشبه بالتمثيل ، أى يُميت الله فيحيى عيسى مَنْ أماته الله دائما ، ويقضى الله بالعمى فَيَهبُ عيسى الأبصارَ لكل العميان .

وتحفل الأناجيل بالحديث عن العشرات والمئات من المجانين والمصروعين والعميان والموتى والمشلولين الذين شفاهم السيد المسيح[1]، وأحيانا يذكر إنجيل متى أن « جموعا كثيرة جاءت ليسوع فيهم العرج والعمى والخرس والشلّ وآخرون كثيرون وطرحوا عند قدَمَىْ يسوع فشفاهم »[2] .

٢ — من أين هذا العدد الكبير من المرضى والموتى والعميان ... الذين ذكرت الأناجيل أن معجزات المسيح مسّتهم ؟ حتى ليوشك أن يفوق هذا العددُ سكانَ فلسطين جميعاً فى ذلك الوقت ، وكأن كل السكان مسهم البرص أو العمى فشفاهم عيسى ، أو ماتوا فأحياهم .

---

(١) انظر انجيل متى فى الاصحاحات ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٥ .
(٢) ١٢ : ١٥ و ١٥ : ٢٩ — ٣١ .

اتجاه معجـــزات عيسى :

لماذا اتجهت معجزات المسيح اتجاهاً طبياً فى الغالب ؟

المشهور أن أكثر معجزات الرسل تأتى من نوع ما اشتهر من الفكر فى عهد كلٍّ منهم ، وتكون فى مستوى أعلى مما يستطيعه الناس ، فالسحر كان معجزة موسى ، والبلاغة كانت من معجزات محمد ، لانتشار السحر فى عهد موسى ، وانتشار البلاغة فى عهد محمد ، ولكن ، ليس معنى هذا انتشار الطب بين بنى إسرائيل فى عهد عيسى ، لا ، فإن الثابت أن معرفة بنى إسرائيل بالطب كانت قليلة حينذاك وقبل ذاك ، حتى لقد كان انتشار الوباء بينهم من أسباب إخراجهم من مصر [1] ، والذى نراه أن معجزات عيسى فى صميمها تتفق مع طبيعة مولده ، فمعجزاته من نوع مولده ترمى الى إحياء الناحية الروحية وإقامة الدليل على وجود الروح ، تلك التى أنكرها أكثر بنى إسرائيل فَخَلْقُ شكل طير من الطين لا حراك فيه ، ثم النفخ فيه فيتحرك ويطير مع أن مادته لم يزد عليها شىء ، معناه أن زيادة جديدة طرأت ، وهذه الزيادة ليست مادية قط ، فلابدّ أن تكون روحية . وجسم الميت الذى لا يتحرك ولا يعى ، يصبح بعد دعـوة عيسى حيـاً واعياً دون زيادة مادية عليه ، فمعنى ذلك وجود الروح .

وتتّصل بمعجزات عيسى عليه السلام خرافة كان جديراً بنـــا أن تغض عنها الطرف ، ولكن لا بأس من إيرادها للترويح ، فقد ذكر الأب بولس إلياس [1] فى مجال الفخر بعيسى ومعجزاته ما يلى :

« ومن مزيته التى لا يفاضله فيها نبى ولا رسول أنه أفضى بالقدرة على إتيان المعجزات الى تلاميذه ، ثم جدّد منحها لهم بعـد قيامه من الموت وصعوده الى السماء ، وأورث كنيسته تلك القدرة أيضاً » .

---

(١) اقرأ كتاب « اليهودية » للمؤلف .

(٢) يسوع المسيح ص ٨٩ مشيرا فى هامشـــه الى متى ١٠ : ١ ولوقا ٢٠ ـ ٩ ويوحنا ١٤ : ١٢ .

ولو استطاع البابا الآن أن يحيى الموتى أو يبرىء الأكمه والأبرص كما كان عيسى يفعل ، لو استطاع ذلك لتوقف الخلاف بين الأديان ولا تتّبعه كافة البشر ، ولكن هيهات أن يكون ذلك ، فليس البابا إلا إنسانا يمرض ولا يعرف الطريق الى علاج نفسه ، فما بالك بعلاج سواه، وقد رأينا حديثا أحد البابوات يمرض ويطول عليه المرض ، وتقوم الصلوات فى الكنائس للتخفيف عنه وشفائه دون جدوى ، فمن أين جاء بولس إلياس وأمثاله بهذه الخرافة ؟

اليهود ودعوة المسيح :

كانت دعوة المسيح تحارب اتجاهين تأصّلا عند اليهود ، هما :

١ — شغفهم بالمادة وإهمالهم الناحية الروحية فيهم •

٢ — ادعاؤهم أنهم شعب مختار ، وادعاء أحبارهم أنهم الصلة بين الله والناس ، وبدونهم لا تتم الصلة بين الخالق والمخلوق •

ولشدّ ما كان ارتياع اليهود وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكتسح **أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات ، إذ يعلّم الناس أن الله ليس من المساومين ، وأن ليس هناك شعب مختار ، وأن لا أحظياء فى مملكة السماء، وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء ، وأنه لا يستطيع اختصاص البعض بالرعايات عدم استطاعة الشمس ذلك مع الناس سواء بسواء (١) •**

وبسبب هذا الموقف تعرّض عيسى الى عداء بنى إسرائيل وسخطهم، ولم يؤمن به إلا قليلون منهم ، فقد انتظروه مسيحاً يبسط سلطان بنى إسرائيل على العالم أجمع ، ولكن خابت آمالهم فيه(٢) ، ثم عندما رأوا أن بعض الضعفاء اتبعوه ، خافوا أن تنتشر مبادئه ، فأغروا به الحاكم الرومانى ، ولكن الرومانيين كانوا وثنيين ولم يكونوا على استعداد

---

(١) Wells : Outline of History vol, 3 p. 684.

(٢) الاب بولس الياس : يسوع المسيح ص ٣٧ •

للدخول فى الخلافات الدينية بين اليهود ، ولم تكن دعوة المسـيح التى أعلنها إلا إصلاحاً خلقياً ودينياً فلم تتصل دعوته بالسياسة ، ولم تمس الحكومة من قريب أو من بعيد ، ولذلك لـم يسـتحق غضب الرومان ، ولكن اليهود تتبعوا عيسى لعلهم يجدون منه سـقطة تثير عليـه غضب الرومان ، فلما لم يجـدوا تقوّلوا عليـه وكذَبوا ، فأغضـبوا الحاكم الرومانى على عيسى ، فأصدر أمره بالقبض عليه ، وحكِمَ عليه بالإعدام صـلباً .

وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السـلفية أكبر المتهمين ليسوع [١] . وقد ذكـرنا ذلك بشىء من التفصـيل عند حديثنا السابق عن مسـيرة المسيحية .

نهـاية المسيح عـلى الأرض :

أخذ جند الرومان يبحثون عن عيسى لتنفيذ الحكم عليه كما أوردنا من قبل ، وكان عيسى قد لجأ الى ضيعة جَتسيمانى ليحتمى بها ، ولكن الخائن يهوذا الاسخريوطى أحد الحواريين ، كان قد اتفق مع زعماء اليهود على أن يدلهم على مكمنه نظير ثلاثين قطعة من الفضة ، وتسـلم هـذا الخائن هذا المبلغ ، وقاد جند الرومان الى حيث وُجد السـيد المسيح ، ولمـا كان جنـد الرومان لا يعرفون شخصية المسيح ، فقد ذكر الخائن لهم علامة هى قوله : الذى سأقبّله هو هو أمسكوه .

وتمّ كل شىء على هذا النمط ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فإنه عند تقبيل الخائن للمسـيح ألقى الله عـلى الخائن شَـبَهَ عيسى وملامحه تماما ، فأصبح الدليل هو المدلول عليه ، وأصـبح الذى قبّـل يحمل جميع ملامح الذى قُبّل ، وتقدم جند الرومـان فقبضـوا على

(١) Wells : Outline of History vol, 3 p. 693. ويسوع تحريف ليشوع ومعناه المخلص لانه سبب لتخليص الكثيرين من آثامهم ، لانه — فى اعتقادهـم — ضحى بنفسه للتكفير على خطيئة البشر ، وسنعرض هذا الراى فيما بعد .

الخائن وأُرتج عليه ، أو أَسْكَتَه الله فـلم يتكلم حتى نفـذ فيه حـكم الصـــلب (١) .

أما السيد المسيح فقد كتب الله له النجاة من هذه المؤامرة ، وانسلّ من بين المجتمعين فلم يحس به أحد ، وقد عبر القرآن الـكريم عن ذلك بقوله « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وسيأتى مزيد من الكلام لإيضاح هذا الموضوع بعد قليل .

بقيت بعض نقاط جديرة بالإيضاح هى :

اولا : من هـــو الخـــائن ؟

ما ذكرناه آنفـا من أن الخائن هو يهـوذا الاسـخريوطى أحـد الحواريين الاثنى عشر هو رواية مسيحية ، أما المراجع الاسلامية فـلم تحدد شخصية الواشى ، وتتجه المراجع المسيحية الى نجاح المؤامرة وصلب السيد المسيح ، وأن يهوذا كان حيا بعد صلب عيسى ، وأنه ندم ورَدّ الى كهنة اليهود ما كان قد أخذه منهم ، ومضى فخنق نفسه (١) .

ولا يوافق المسلمون على هذا الزعم لأن هذه المراجع اتجهت هذا الاتجاه لاقتناعها بأن الذى صلب هو السيد المسيح نفسه ، ونقول إنه إذا ثبت أن يهوذا كان حيا بعد هذه الحادثة فإن الخائن يكون شخصا آخر ، لأن المسلمين لم يحددوا شخصية الخائن .

وأغلب الظن أن الدفاع عن يهـوذا دفاع مصـطنع قام به بعض الذين شملهم الخجل من هذه الخيانة التى قام بها أحد الحواريين .

وإذا جاز لنا أن نجرى بعض المقارنة فإننا نذكّر القارىء أن زعماء المسلمين كانوا فى حالات متعددة يضعون أنفسهم لمواجهـة المخاطر حتى ينجو الرسول ، وقد حدث ذلك فى غزوة أحد وغزوة حنين ، كما حـدث

---

(١) انظر تفسير البيضاوى جا ص ٦٤ و ١٠٤ وانجيل برنابا بالاصحاح ١١٢ : ١٣ — ١٥ .
(٢) متى ٢٧ : ٣ — ٥ .

قبل ذلك عندما بات الإمام على فى سرير الرسول ليلة الهجرة ، وهو يعرف أن من يبيت فى هذا السرير يواجه الموت من الأعداء المتربصين بصاحب البيت .

ثانيا : الى أين ذهب عيسى بعد النجاة من المؤامرة ؟

لم تتحدث المراجع التاريخية عن المكان الذى ذهب اليه عيسى عليه السلام عقب نجاته من المؤامرة ، والذى يرشد له العقل أن عيسى عليه السلام بعد ذلك ترك فلسطين لأن بقاءه فيها كان معناه أن يعثر عليه اليهود والسلطة الحاكمة فى يوم من الأيام ، وأن ينفذوا فيه الحكم الذى صدر عليه .

وعلى كل حال فقد اختفى السيد المسيح عقب نجاته ، واختفت معه أخباره ، على أن هناك قولا يرى أن المسيح هاجر الى بلاد الهند ومات هناك فى لا هور ، وهو قول ينقصه التأكيد والوثائق .

ثالثا : ماذا كانت نهاية عيسى بعد النجاة :

هل رفع الى السماء حياً بجسمه وروحه ؟

هل استوفى أجله على الأرض وهو مختفٍ ثم مات ودفن جسمه ورفعت روحه الى بارئها ؟

كان هناك اتجاه شاع بين الناس بأن عيسى عليه السلام عندما نجا من المؤامرة رُفع بجسمه وروحه الى السماء ، وكان هذا الرأى يصوّر اختفاءه الذى تحدثنا عنه ، ولكن هذا الاتجاه واجه دراسة واسعة قام بها المفكرون فى العصر الحديث ، واعتمدوا فى كلامهم على نصوص قديمة ودراسات موثقة ، وأوشك هذا الاتجاه الجديد أن يقضى على المزاعم القديمة التى كانت تقول برفع السيد المسيح بجسمه وروحه .

وعلى كل حال فينبغى أن نورد دعائم الرأى القديم ، وأن نناقش هذه الدعائم لنسهم فى تأصيل الرأى الجديد الذى نرتضيه .

بُنِيَ الرأى القديم على فهم غير دقيق للآيات والأحاديث التالية :

—قوله تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم منعلم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه (١) » .

— وقوله « إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا »

— ما ورد فى البخارى ومسلم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حاكما عادلا مقسطا ، يكسر الصليب ويقتل الخنزير . . . .

— ما ورد فى مسلم من أن عيسى سينزل فى آخر الزمان فيقتل المسيح الدجال .

مناقشة هذه الأدلة وردّها :

ويناقش جمهور المفكرين المسلمين هذه الأدلة فيقولون إن عيسى بعد أن نجا من اليهود عاش زمناً حتى استوفى أجله ، ثم مات ميتة عادية ورفعت روحه الى السماء مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء ، وقد ورد النص برفع عيسى — مع أن روحهسترفع بطبيعة الحال لأنه نبى — تكريماً لمكانته بعد التحدى الذى واجهه من اليهود ، فذكر الله نجاته ، ثم مكانته التى استلزمت رفع روحه .

ويقولون عن الآية الأولى « بل رفعه إليه » إنها تحقيق الوعد الذى تضمنته الآية الثانية « إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا » فإذا كان قوله تعالى « بل رفعه الله إليه » خلا من ذكر الوفاة

---

(١) النساء ١٥٧ — ١٥٨ .
(٢) آل عمران ٥٥

والتطهير واقتصر على ذكر الرفع فإنه يجب أن يلاحَظ فيها ما ذكر فى قوله « إنى متوفيك •• » جمعاً بين الآيتين •

ويرى هؤلاء العلماء أن الرفع معناه رفع المكانة وقد جاء الرفع فى القرآن بهـذا المعنى كثيرا ، قال تعالى :

— فى بيوت أذن الله أن ترفع [١] •

— نرفع درجات من نشاء [٢] •

— ورفعنا لك ذكرك [٣] •

— ورفعناه مكاناً علياً [٤] •

— يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات [٥] •

وإذن فالتعبير بقوله « ورافعك إلى » وقوله « بل رفعه الله إليه » كالتعبير فى قولهم : لحق فلان بالرفيق الأعلى ، وفى (إن الله معنا) [٦] • وفى (عند مليك مقتدر [٧]) ، وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول فى الكنف المقدس [٨] •

وهناك آية كريمة أقوى دلالة من آيات الرفع ، ولكنها مع هذا لا تفنى سوى خلود الروح لا الجسم ، وهى قوله تعالى « ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون [٩] • فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من فى خلفهم [٩] » •

---

(١) سورة النور الاية ٣٦ •
(٢) سورة الانعام الاية ٨٣ •
(٣) سورة الانشراح الاية الرابعة •
(٤) سورة مريم الاية ٥٧ •
(٥) سورة المجادلة الاية ١١ •
(٦) سورة التوبة الاية ٥٥ •
(٧) سورة القمر الاية ٥٥ •
(٨) الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت : الفتاوى ص ٥٦ •
(٩) سورة آل عمران الاية ١٦٩ •

فمع أن الآية قررت أنهم أحياء فليس معنى هذا حياة الجسم ، فجسم الشهيد قد وُورى التراب ، ومع أنها قررت أنهم عند ربهم • وأنهم (يرزقون) ••• فليس المقصود هو العندية المكانية • ولا الرزق المادى ، **وإنما المقصود تكريم الروح بقربها من الله قرب مكانة والاستمتاع باللذائذ استمتاعاً روحياً لا جسمانيا •**

وعن الحديثين يجيب الباحثون بإجابتين :

أولا — هما من أحاديث الآحاد وهى لا توجب الاعتقاد ، والمسألة هنا اعتقادية كما سبق •

ثانيا — الحديثان ليس فيهما كلمة واحدة عن رفع عيسى بجسمه ، وقد فُهِمَ الرفع من نزول عيسى ، فاعتقد بعض الناس أن نزول عيسى معناه أنه رُفع وسينزل ، وهكذا قرر هؤلاء أن عيسى رُفِعَ لمجرد أن فى الحديثين كلمة ينزل ، مع أن اللغة العربية لا تجعل الرفع ضرورة للنزول ، فإذا قلت نزلت ضيفا على فلان ، فليس معنى هذا أنك كنت مرتفعا ونزلت ، وإذا رجعنا الى مدلول هذه الكلمة (نزل — وأنزل) فى القرآن الكريم ، وجدنا أنه لا يتحتم أن يكون معناها النزول من ارتفاع ، بل قد يكون معناها : جعل ، أو قدّر ، أو وقع ، أو منح ، قال تعالى :

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد [1] » أى جعلنا فى الحديد قوة وبأسا •

وقال : « وقل ربى أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين [2] » **أى قَدِّرْ لى مكانا طيباً •**

وقال : « فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين [3] » أى وقع •

---

(١) سورة الحديد الاية ٢٥ .
(٢) سورة المؤمنون الاية ٢٩
(٣) سورة الصافات الاية ١٧٢ .

وقال : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج [١] » أى منحكم وأعطاكم .

وهكذا يتبين لنا أن كلمة ينزل فى الحديثين — لو صح هذان الحديثان — ليست إلا بمعنى يجىء ، ومن الممكن أن يُحْيِى الله عيسى ويرسله على شريعة محمد قبل قيام القيامة ، وليس ذلك بمستبعد قط على الله ، والاستنتاج الذى قال به هؤلاء خروج بالكلمات عن مدلولها ، فالرفع ليس من كلمات الحديث الشريف بل من تفكير بعض قارئى الحديث وليس من حقهم أن يضيفوا الى الحديث ما ليس منه ومالا تستدعيه ألفاظه .

وهناك آيتان اختلف المفسرون فى تفسيرهما ، وجاء فى بعض ماقيل عنهما أنهما تدلان على نزول عيسى فى آخر الزمان ، وهاتان الآيتان هما :

— وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته [٢] .

— وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها [٣] .

فعن الآية الأولى يرى بعض المفسرين أن الضمير فى « به » وفى « موته » عائد على عيسى ويكون المعنى على ذلك عندهم أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ بعيسى قبل أن يموت عيسى أى سيؤمنون به عند عودته آخر الزمان ، ولكن هذا مردود بما ذكره مفسرون آخرون من أن الضمير فى « به » لعيسى وفى « موته » لأهل الكتاب ، والمعنى أنه ما من أحد من أهل الكتاب يدركه الموت حتى تنكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح فيرى أن عيسى رسول ورسالته حق ، فيؤمن بذلك ، ولكن حيث لا ينفعه إيمان [٤] .

---

(١) سورة الزمر الاية السادسة .
(٢) النساء ١٥٩ .
(٣) الزخرف ٦١ .
(٤) الشهيد سيد قطب : فى ظلال القرآن حـ ٦ ص ١٤ .

وأما عن الآية الثانية « وإنه لعلم للساعة • • • • » فيرى بعض المفسرين أن الضمير فى « إنه » ، راجع الى محمد صلى الله عليه وسلم أو الى القرآن على أنه من الممكن أن يكون راجعاً — كما يقول مفسرون آخرون — الى عيسى لأن الحديث فى الآيات السابقة كان عنه • فالمعنى وإن عيسى لعلم للساعة ، ولكن ليس معنى هذا أن عيسى سيعود للنزول بل المعنى أن وجود عيسى فى آخر الزمان (نسبياً) دليل على قرب الساعة وشرط من أشراطها ، أو أنه بخلقه بدون أب ، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث •

وعلى كل حال فنزول عيسى فى آخر الزمان على فرض حدوثه ليس معناه رفعه حياً بجسمه كما سبق القول ، ثم إن الدليل اذا تطرق له الاحتمال سقط به الاستدلال كما يقول علماء الأصول ، وفى هذه الأدلة أكثر من الاحتمال ، بل فيها اليقين عند الأكثرين •

المسيح الدجال فى رأى الامام محمد عبده :

ترى المسيحية أن المسيح الدجال أو المسيخ الدجال شخص مضاد للمسيح وأنه ظهر أو سيظهر ليقود قوى الشر ضد قوى الخير [1] •

ففكرة المسيح أو المسيخ الدجال فكرة مسيحية ، وقد روى مسلم حديثا عنها أوردناه فيما سبق ، وقد تعرض الاستاذ الإمام محمد عبده لهذا الحديث وقال :

إن هناك تخريجين لهذا الحديث :

١ — أولهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادى ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا القطعى ، لأن المطلوب فيها اليقين ، وليس فى الباب حديث متواتر •

٢ — ثانيهما أن الدجال ليس إلا رمزا للخرافات والدجل ، وقد وجد

---

(١) رسالة يوحنا الاولى ٢ : ١٨ والثانية (هى اصحاح واحد) الفقرة ٧

ذلك وسيوجد عدة مرات ، وهو يزول بشريعة الإسلام الغراء وبالقــرآن والحديث وجهود العلماء والمفكرين وعلى هذا فلا وجود لما يسمى المسيح الدجال وهو الرأى الذى يرتضيه أكثر العلماء (١) .

رفـــع روح عيسى لا جســــمه :

ونجىء الآن لإيراد بعض التفاصـيل والأدلة التى ترى أن عيسى عليه السلام مات كما ماتت كل الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وأن جســمه قد دفن كما دفنت أجسام الأنبياء وغيرهم ، وأن الذى رفع هو روحه :

وبادىء ذى بدء أذكر أن ندوة كبيرة أقامتها مجلة « لواء الاسلام » فى أبريل سنة ١٩٦٣ عن هذا الموضوع ، وقد اشترك فيها مجمـوعة من العلماء الأفذاذ ، واتفق الجميع على مبدأين مهمين هما :

١ — ليس فى القرآن الكريم نص يلزم باعتقاد أن المسيح عليــه السلام قد رفع بجسمه الى السماء .

٢ — عودة عيسى عليه السلام جاءت بها أحاديث صحاح ، ولكنها أحـاديث آحاد ، وأحاديث الآحـاد لا توجب الاعتقاد ، والمسـألة هنا اعتقادية فـــلا تثبت بهذه الأحاديث (٢) .

وسنقتبس مما قاله هؤلاء العلماء بعد قليل عن موت عيسى ودفنــه وصعود روحه الى بارئها مع أرواح الأنبياء ، والصديقين والشهداء .

وعلى كل حال فالعلماء الذين يرون أن الذى رفــع هو روح عيسى لاجسمه يعتمدون أساسا على الآيات القرآنية التالية :

— **اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك** ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين

---

(١) اقرأ تفسير النار عند شرح الايات الخاصـــة بنهـــاية عيسى على الارض .

(٢) عدد ذى الحجة ، ١٣٨ هـ (ابريل ١٩٦٣) ص ٢٦٣ .

كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامـة ، ثم إلىّ مرجعـــكم [١] •

فهذه الآية تذكر بوضوح ما سبق أن ذكرناه ، أى وفاة عيسى وتطهيره وحمايته من أعدائه ، وتجعل عيسى ضمن أتباعه إلى الله مرجعهم •

— ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن أعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، **فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم** ، وأنت على كـل شىء شـــهيد [٢] •

وواضح من الآية وفاة عيسى ونهايه رقابته عـــلى أتباعه بعد موته وترك الرقابة لله •

— وقوله تعالى حكاية عن عيسى :

والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا [٣]

والآية واضـحة الدلالة عـــلى أن عيسى كـكل البشر يولد ويموت ويبعث ، وكل ما يخالف ذلك تحميل للفظ فوق ما يحتمل •

وقد اشترك فى هذا الرأى كثير من العلماء فى العصور الماضـــية وفى العصر الحديث ، وفيما يلى نسوق بعض تفاسير لهذه الآيات الكريمة كما نسوق آراء العلماء الأجلاء •

يقول الإمام الرازى [٤] فى تفسير الآية الأولى : انى متوفيك أى **منهى أجلك ، ورافعك أى رافع مرتبتك ورافع روحك الىّ ، ومطهرك أى مخرجك من بينهم ، ومفرّق بينك وبينهم** ، وكما عظّم شأنه بلفظ الرفع

---

(١) آل عمران ٥٥ .
(٢) المـــائدة ١١٧ .
(٣) سورة مريم الاية ٣٣ .
(٤) تفسير الفخر الرازى .

نبيه خبَّر عن معنى التخليص بلفظ التطهير ، وكل هذا يدل على المبالغة فى اعلاء شأنه وتعظيم منزلته ، ويقول فى معنى قوله تعالى : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا » المراد بالفوقية ، الفوقية بالحجة والبرهان ثم يقول : واعلم أن هذه الآية تدل على أن رَفْعه فى قوله : « ورافعك » هو رفع الدرجة والمنقبة لا المكان والجهة ، كما أن الفوقية فى هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والمكانة .

ويقول الألوسى [1] ان قوله تعالى : « انى متوفيك » معناها على الأوفق انى مستوف أجلك ، ومميتك موتا طبيعيا ، لا أسلط عليك من يقتلك ، والرفع الذى كان بعد الوفاة هو رفع المكانة لا رفع الجسد خصوصا وقد جاء بجانبه قوله تعالى : « ومطهرك من الذين كفروا » مما يدل على أن الأمر تشريف وتكريم .

ويرى ابن حزم [2] وهو من فقهاء الظاهر **إن الوفاة فى الآيات تعنى الموت الحقيقى ، وأن صرف الظاهر عن حقيقته لا معنى له ، وأن عيسى بناء على هذا قد مات .**

وقد تعرض الأستاذ الامام محمد عبده الى آيات الرفع وأحاديث **النزول ، فقرر الآية على ظاهرها ، وأن التوفى هو الإماتة العادية ، وأن الرفع يكون بعد ذلك وهو رفع الروح [3] .**

ويقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت [4] ان كلمة « **توفى** » قد وردت فى القرآن كثيرا بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها المتبادر منها ، ولم تستعمل فى غير هذا المعنى الا بجانبها ما يصرفها

---

(١) انظر روح المعانى للالوسى .
(٢) الفصل فى الاهواء والملل والنحل (عند الكلام عن المسيحية) .
(٣) اقرا تفسير المنار عند شرح الايات السابقة .
(٤) الفتاوى ص ٢ ، وما بعدها .

عن هذا المعنى المتبادر ، ثم يسوق عددا كبيرا من الآيات استعملت فيه هذه الكلمة بمعنى الموت الحقيقى ، ويرى أن المفسرين الذين يلجئون الى القول بأن الوفاة هى النوم أو أن فى قوله تعالى : « متوفيك ورافعك » تقديما وتأخيرا ، يرى أن هؤلاء المفسرين يحمّلون السياق مالا يحتمل ، تأثرا بالآية « بل رفعه الله اليه » وبالأحاديث التى تفيد نزول عيسى ، ويرد على ذلك بأنه لا داعى لهذا التفكير ، **فالرفع رفع مكانة ، والأحاديث لا تقرر الرفع على الإطلاق .**

ويقول فضيلته إنه إذا استدل البعض بقوله تعالى « وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين (1) » على أن عيسى رفع إلى محل الملائكة المقربين. أجبناه بأن كلمة « المقربين » وردت فى غير موضع من القرآن الكريم دون أن تفيد معنى رفع الجسم ، قال تعالى :

— والسابقون السابقون أولئك المقربون (2) .

— فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم (3) .

— عيناً يشرب بها المقربون (4) .

أما السيد محمد رشيد رضا ، فقد أضاف إلى هذه الدراسة نقطة جديدة هى أن مسألة الرفع بالجسم والروح هى فى الحقيقة عقيدة النصارى ، وقد استطاعوا بحيلة أو بأخرى دفعها تجاه الفكر الإسلامى ، كما استطاعوا إدخال كثير من الإسرائيليات والخرافات ، وفيما يلى نص كلام هذا الباحث الكبير : **ليس فى القرآن نص صريح على أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء ، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء ،**

---

(1) سورة آل عمران الاية ٤٥ .
(2) سورة الواقعة الايتان ١٠ — ١١ .
(3) سورة الواقعة الايتان ٨٨ — ٨٩ .
(4) سورة المطففين الاية ٢٨ .

وإنما هى عقيدة أكثر النصارى ، وقد حاولوا فى كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها فى المسلمين (١) .

ويضيف هذا الباحث قوله : وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يصلح العالم فمن السهل أن يصلحه على يد أى مصلح ولا ضرورة إطلاقاً لنزول عيسى أو أى واحد من الأنبياء (٢) .

ويتفق الأستاذ أمين عز العرب مع اتجاهات الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا فيقول : أستطيع أن أحكم أن كتاب الله من أوله إلى آخره ليس فيه ما يفيد نزول عيسى (٣) .

ويثير الأستاذ محمد أبو زهرة نقطة دقيقة حول الأحاديث السابقة فيقرر **أنها — بالإضافة إلى أنها أحاديث آحاد وليست متواترة — لم تشتهر قط إلا بعد القرون الثلاثة الأولى** (٤) ، **ويمكن ربط هذا بما ذكره السيد محمد رشيد رضا عن محاولات النصارى ، فإنهم فى خلال هذه القرون كانوا يحاولون إدخال بعض عقائدهم فى الفكر الإسلامى بطريق أو بآخر بدليل أن هذه الأحاديث لم تشتهر فى القرون الثلاثة الأولى مع ما وصلت له العقيدة الإسلامية من دقة وعمق فى هذه القرون** ، ويختم الأستاذ محمد أبو زهرة كلامه بقوله إن نصوص القرآن لا تلزمنا بالاعتقاد بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده ، وإذا اعتقد أحد أن النصوص تفيد هذا وترجحه فله أن يعتقد فى ذات نفسه ولكن له أن يلتزم ولا يلزم (٥) .

ويقول الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى : ليس فى القرآن نص قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه وعلى أنه حى الآن

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ من المجلد الثانى والعشرين .
(٢) تفسير المنار الجزء الثالث .
(٣) لواء الاسلام : العدد السابق ص ٢٧٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٦١ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

بجسمه وروحه ، والظاهر من الرفع أنه رفع درجات عند الله ، كما قال تعالى فى إدريس « ورفعناه مكاناً علياً » فحياة عيسى حياة روحية كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبيـــــاء [١]

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار [٢] : إنه لا حجة لمن يقول بأن عيسى رفع إلى السماء لأنه لا يوجد ذكر للسماء بإزاء قـوله تعالى : « ورافعك إلىّ » وكل ما تدل عليه هذه العبارة أن الله مبعده عنهم إلى مكان لا سلطة لهم فيه ، وإنما السلطان فيه ظاهراً وباطنـاً لله تعـالى ، فقوله تعالى « إلىّ » هو كقول الله عن لوط « إنى مهاجر إلى ربى » [٣] . فليس معناه أنى مهاجر إلى السماء بل هو على حد قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله .. » [٤] .

ويقول الأستاذ الشهيد سيد قطب [٥] عند تفسير الآية الأولى من الآيات الثلاث السـابقة :

لقد أرادوا قتل عيسى وصلبه ، وأراد الله أن يتوفاه وفاة عادية ففعل ، ورفع روحه كما رفع أرواح الصالحين من عباده ، وطهره من مخالطـة الذين كفروا ، ومن البقاء بينهم وهم رجس ودنس .

ونجىء الآن إلى الباحث الأستاذ محمد الغزالى وله فى هذا الموضوع دراسة مستفيضة نقتبس منها بعض فقرات بنصوصها :

ــ أميل إلى أن عيسى مات ، وأنه كسائر الأنبياء مات ورفع بروحه فقط ، وأن جسمه فى مصيره كأجساد الأنبياء كلها : وتنطبق عليـه الآية « إنك ميت وإنهم ميتون [٦] » والآية « وما محمد إلا رسول قد خلت

---

(١) نقلا عن كتاب الفتاوى للشيخ شلتوت ص ٧٤ .
(٢) قصص الانبياء ص ٥١١ .
(٣) سورة العنكبوت الاية ٢٦ .
(٤) سورة النساء الاية ١٠٠ .
(٥) فى ظلال القرآن الجزء الثالث ص ٨٧ .
(٦) سورة الزمر الاية ٣٠ .

من قبله الرسل [١] » وبهذا يتحقق أن عيسى مات [٢] .

— ومن رأيي أنه خير لنا نحن المسلمين وكتابنا (القرآن الكريم) لم يقل قولا حاسماً أبداً أن عيسى حي بجسده ، خير لنا منعاً للاشتباه من أنه وُلد من غير أب ، وأنه باق على الدوام مما يُرَوِّج لفكرة شائبة الألوهية فيه ، خير لنا أن نرى الرأى الذى يقول إن عيسى مات ، وإنه انتهى ، وإنه كغيره من الأنبياء لا يحيا إلاّ بروحه فقط ، حياة كرامة وحياة رفعة الدرجة .

— وأنتهى من هذا الكلام الى أنى أرى من الآيات التى أقرؤها فى الكتاب أن عيسى مات ، وأن موته حق ، وأنه كموت سائر النبيين [٣] .

ويثير الأستاذ صلاح أبو إسماعيل نقاطاً دقيقة تتصل بالرفع فيقول : إن الله ليس له مكان حسى محدود حتى يكون الرفع حسياً ، وعلى هذا ينبغى تفسير الرفع على أنه رفع القدر وإعلاء المكانة ، ثم إن رفع الجسد قد يستلزم أن هذا الجسد يمكن أن يُرَى الآن وأنه يحتاج إلى ما تحتاج إليه الأجسام من طعام وشراب ومن خواص الأجسام على العموم ، وهو مالا يتناسب فى هذا المجال [٤] .

وأحب أن أجيب على من قال إن فى مقدور الله أن يوقف خواص الجسم فى عيسى ، بأن إيقاف خواص الجسم بحيث لا يُرَى ولا يأكل ولا يشرب ولا يهرم . . . . معناه العودة إلى الروحانية أو شىء قريب منها ، وذلك قريب أو متفق مع الرأى الذى يعارض رفع عيسى بجسمه .

وبعض الناس يقولون إن عيسى رُفع بجسمه وروحه ، فإذا سئلوا :

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٤٤ .
(٢) لواء الاسلام : العدد السابق ص ٢٥٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٥٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٥٨ .

إلى أين ؟ وما العمل فى خواص الجسم ؟ قالوا لا نتعرض لهذا . وهو رد ليس — فيما نرى — شـــافياً .

ونعود إلى الأستاذ صلاح أبو إسماعيل الذى يتساءل قائلا : إذا كان رفع عيسى رفعاً حسيًا معجزة ، فما فائدة وقوعها غير واضحة أمام معاندى المسيح عليه السلام وجاحدى رسالته ؟ وأنا أعتقد « الأستاذ صلاح أبو إسماعيل » أن كلمة « متوفيك » تعنى وعداً من الله بنجاة عيسى من الصلب ومن القتل كما وعد محمداً عليه الصلاة والسلام بأن يعصمه من الناس[1] .

* * *

وبعد .. لقد أثيرت هذه المسألة منذ سنين فى فتــوى أجاب عنها الأستاذ المراغى والأستاذ شلتوت كما رأينا ، وقد قامت ضجة على إثر إذاعة هذه الفتوى ، شأن كل جديد يخرج للناس ، ومرّ الزمن ورجحت هذه الفكرة وأصبحت شيئا عاديا يدين بها الغالبية العظمى من المثقفين ، وطالما وقف كاتب هذه السطور يرفع صوته بها فى قاعات المحاضرات بأعرق جامعة إسلامية فى العالم وهى جامعة الأزهر وبغيرها من الجامعات وقاعات المحاضرات ، وكان الناس يتقبلون هذه الآراء قبولا حسنا ، والذى أرجوه أن يرفق المعارضون فى تلقى الآراء الجديدة ، وأن يفحصوها بروح هادئة .

والله يهدينا ســواء السبيل .

ونختم هذا البحث بأن نقرر أن الاعتقاد بأن عيسى رفع بجسمه وروحه اعتقاد متأثر بالفكر المسيحى الذى يرى أن عيسى هو الإله الابن نزل من السماء ثم رفع ليعود للجلوس بجوار أبيه الإله الأب . أما المسلمون الذين يعتقدون أن الله واحد ، وأنه فى كل مكان ، وليس جسما ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

فكيف يوفقون بين هذا وبين رفع عيسى ليكون بجوار الله ، فالله — مرة أخرى — فى كل مكان ، ولو بقى عيسى على الأرض لكان مع الله أيضاً .
وكيف يوفقون بين هذا وبين قوله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد [1] » .

* * *

وكانت دعوة عيسى — كما يقول الشهرستانى — ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام [2] .

المسيحية فى نظر المسلمين

ذلك هو إجمال القول فى المسيح عند المسلمين ، فما رأى المسلمين فى تعاليم المسيح ورسالته ؟

لقد اتضح مما سبق أن المسلمين يتصفون عيسى بن مريم وأن القرآن الكريم يجله ويجل أمه . ويحكى لنا التاريخ قصة تدل على هذا الإجلال واعتراف المسيحيين به ، ويقول ابن هشام : إن المسلمين الأول لما هاجروا إلى الحبشة بأمر الرسول صلوات الله عليه ، وأرادت قريش استرداد هؤلاء المسلمين أرسلت الداهية عمرو بن العاص ، وكان لم يدخل الإسلام بعد ، فحاول هذا الداهية أن يوقع بين المسلمين وبين النجاشى إمبراطور الحبشة المسيحى ، فقال له إن هؤلاء المسلمين يقولون فى مريم وعيسى قولا عظيما (مشينا) فاستدعاهم النجاشى وسألهم رأى الإسلام فى عيسى بن مريم وأمه ، فتلا عليه جعفر بن أبى طالب المتحدث باسم المهاجرين سورة مريم ، فلما سمعها النجاشى بكى حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته ، وقال قولته الشهيرة : **إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة** [3] .

(١) سورة الانبياء الاية ٣٤ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠٩ وانظر « يسوع المسيح » للاب بولس الياس ص ٢٣ .
(٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢١٣ .

ومما يدل على تكريم الاسلام للسيدة العذراء أن هناك سورة باسمها فى القرآن الكريم ، ولا توجد سورة باسم امرأة غير سورة مريم.

وكما ينصف المسلمون عيسى ينصفون تعاليمه ورسالته ، ويقولون فيها قولا لا يختلف تقريباً عما يقوله المنصفون من المسيحيين الذين لهم ثقافة وفكر ، وأهم معالم المسيحية فى نظر المسلمين هى :

١ — يعتقد المسلمون أن المسيحية الصحيحة دين توحيد مطلق ، وأنها تعترف أن الله وحده هو الإله الخالق المقتدر ، فالتوحيد المطلق الذى لا تشوبه شائبة هى السمة العامة للأديان السماوية جميعاً ، وعيسى هو رسول الله ليس غير ، واعتقاد المسلمين هذا جاءهم من الأدلة القرآنية الآتية :

— وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم (١) .

— لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد (٢) .

— ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام (٣) .

— ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم (٤) .

وعن هذا الاتجاه أيضا يروى مرقص أن أحد الكتبة سأل عيسى : أية وصية هى أول الكل ؟ فأجاب عيسى : إن أول كل الوصايا هى : اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك ، وهذه هى الوصية

(١) سورة المائدة الاية ٧٢ .
(٢) سورة المائدة الاية ٧٣ .
(٣) سورة المائدة الاية ٧٥ .
(٤) سورة المائدة الاية ١١٧ .

الأولى . وثانية مثلها هي أن تحب قريبك كنفسك . فقال له الكاتب : جيداً يا معلم بالحق قلت ، لأن الله واحد وليس آخر سواه [١] .

ويروى لوقا قول المسيح عندما حانت نهايته على الأرض : ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه ، لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين [٢] .

وهنالك فقرات كثيرة في الأناجيل تثبت كون عيسى نبياً وليس أكثر من نبي [٣] وسنعود إلى هذا الموضوع عند الكلام عن ألوهية المسيح .

٢ — يعتقد المسلمون أن عيسى بن مريم رسول إلى بني إسرائيل خاصة قال تعالى : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بني إسرائيل [٤] » وتؤيد الأناجيل هذا القول ، فقد جاء في متى ما نصه : ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة : ارحمني يا سيد يا ابن داوود ، ابنتي مجنونة جداً . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة [٥] .

وفي متى كذلك أن عيسى عندما حدد الحواريين الاثنى عشر أوصاهم قائلا : إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة [٦] .

---

(١) مرقص ١٢ : ٢٨ — ٣٦ .
(٢) لوقا ١٣ : ٣٣ — ٣٤ .
(٣) اقرأ لوقا ٧ : ١٦ ويوحنا ٦ : ١٤ وبرنابا الفصل الثالث والتسعين
(٤) سورة آل عمران الايتان ٤٨ — ٤٩ وانظر « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » للامام محمد عبده ص ٥٠ .
(٥) متى ١٥ : ٢١ — ٢٤ .
(٦) نفس المرجع ١٠ : ٥ — ٦ .

وذكر متى أيضاً أن بطرس أحد الحواريين قال لعيسى : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا ؟ فقال يسوع : متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً تدينون أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر (١) . وهذا واضح الدلالة على أن دنيا عيسى كانت بنى إسرائيل .

وفى « أعمال الرسل » فقرات كثيرة تدل على تمسك الحواريين بعد عيسى بأن المسيحية دين لبنى إسرائيل خاصة ، فقد خاصم اليهود بطرس لأنه دخل على غير اليهود وتكلم معهم (٢) . وورد فى عبارات بطرس قوله لغير اليهود : أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى أو يأتى إليه (٣) .

ويروى برنابا قول عيسى : وقد أقامنى الله نبيا على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء (٤) .

ويؤيد الكتاب المسيحيون هذا الاتجاه أيضا ، فقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية أن أسبق حواريى المسيح ظلوا يوجهون اهتمامهم إلى جعل المسيحية دينا لليهود وجعل المسيح أحد أنبياء بنى إسرائيل إلى بنى إسرائيل (٥) . وكذلك يرى Bury ان اضطهاد الرومان لأتباع المسيح كان سببه ان الأباطرة لم يعرفوا عن دعوة عيسى إلا أنها امتداد لليهودية التى كانت شديدة التعصب ، عميقة الحقد والحسد ، فأثارت غضب الرومان مع ما عرف عنهم من التسامح الدينى مع أتباعهم (٦) .

ويقول Dean inge إن عيسى كان نبيا لمعاصريه من اليهود ، ولم

---

(١) المرجع السابق ١٩ : ٢٨ .
(٢) اعمال ١١ الفقرة الاولى .
(٣) اعمال ١٥ : ٢٨ .
(٤) انجيل برنابا ٥٢ : ١٣ .
(٥) Encyclopaedia Britannica vol. 5p. 632.
(٦) A History of Freedom of Thought فى امكنة متعددة .

يحاول قط أن ينشىء فرعا خاصا من بين هؤلاء المعاصرين ، أو ينشىء له كنيسة خاصة مغايرة لكنائس اليهود أو تعاليمهم [1] .

وسنرى عند الكلام عن بولس دوره فى نقل المسيحية من دين خاص باليهود إلى دين عـــالمى .

٣ — يعتقد المسلمون أن طابع المسيحية كان الزهد والرضا بالضيم . وعن الزهـــد نـــرى فى الأناجيل المعترف بها لدى المسيحيين مجموعـــة كبيرة من الفقرات توصى به وتحث عليه . ومن ذلك ما ورد فى متّى عند ذكر الشاب الغنى الذى نصحه عيسى بأن يبيـــع أملاكه ويعطى ثمنهـــا للفقراء ويتبع عيسى فتردد الشاب ، فقال عيسى : يعسر أن يدخل غنىٌ ملكوت السموات ، وأقول لكم إن مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنىٌ فى ملكوت الله [2] .

وعن الرضا بالضيم وعدم محاولة الثأر يروى لوقا قول المسيح : من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك [3] وسيأتى مزيد من الكلام عن هذا الموضوع عند الحـــديث عن رهبانيـــة المســـيحية .

٤ — يعتقد المسلمون أن المسيح دعا للصلة المباشرة بين الله والناس، وتكلم عن ملكوت الله المفتوح لجميع الصالحين [4] **ويوضح** Wells [5] أن المقصود بملكوت الله كان ضربة للولاء العائلى عند بنى إسرائيل ، ذلك الولاء الذى يجعل منهم وحدة لا تتصل بســـواها من وحـــدات البشر (تجعل منهم شعباً مختاراً) فصاح عيسى بهذا الاتجاه يبتغى أن يكتسح

---

(١) The Sources of the Chistianity p 15

(٢) متى ١٩ : ٢٣ ولوقا ١٨ : ٢٠ .

(٣) لوقا ٦ : ٢٨ ومتى ٥ : ٣٨ — ٤١ .

(٤) انجيل متى ٥ : ٤٥ .

(٥) Outline of History vol. 3 p684

طونان" جارف من حب الله كل العواطف العائلية الضيقة المقيدة للحرية ويفتح السبيل للأخيار الصالحين أن ينتموا لملكوت الله .

فملكوت الله أو مملكة السماء بهذا المعنى هى معارضة واضحة لدعوى اليهود الاختيـــار والامتياز .

ويقول الأب بولس الياس [١] فى تفسيره « ملكوت الله » ما يلى :

ليس ملكوت الله حزبا سياسيا ، أو مؤسسة اجتماعية ، إنمـا هو حالة نفسية ، حالة بر تقوم على نبذ الأنانية وعلى الاعتصام بطاعة الله ونواميسه ، وعلى العودة الى البساطة أو الطفولة المسيحية وما فيها من صفاء نيات ونقاء سرائر ، وهذا ما ألمح إليه السيد المسيح بقوله «لايقال إن ملكوت الله هنا أو هناك لأن ملكوت الله فى داخلكم [٢] » .

وقبل أن ندع الكلام عن ملكوت الله أو مملكة السماء بالمعنى الذى شرحناه وهو أدق معنى فى هذا الموضوع ، نقرر أن هذه المملكة وجـدت قبل المسيحية ، وكانت شعارا للكنفوشية فى القرن السادس ق م ، ثم كانت شعارا للمسيحية فالإسلام ، وكانت بذلك دعوة لإله واحد ووضع حـد لتعدد الآلهة . ولـكن الإخلاص العـام لإرادة واحـدة انحـرف فى الكنفوشية والمسيحية فاتجهتا لتأليه كونفوشيوس وعيسى باعتبار أنهمـا صاحبا هذه الإرادة التى تدعو للحب العام لأنها تسيطر على الجميـع ، بيد أن محمدا — وقد أدرك هذا — كرر القول بأنه بشر كغيره من الناس فنجا من أن يؤلهه الناس ، كما قرر القول بالمساواة بين بنى الإنسان .

وتعال بنا إلى Wells وإلى Hirth لنرى هذه الفكرة ونشاهد هذه المقارنة الدقيقة بين الأديان الثلاثة :

كان الكاهن الصينى « موتى » يعيش فى القرن الرابع ق م عندما

---

(١) يسوع المسيح ص ١٧١ و ١٧٢ .
(٢) انجيل لوقا ١٧ : ٢٠ .

كانت تعاليم كونفوشيوس ولاهوتى منتشرة فى الصين : وقد كتب — فيما كتب — دراسة عن هذا الموضوع ، هاك نصها ، وإذا تأملتها وجدتها — كما يقول Wells — نصرانية الروح :

إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة ودولة ، والاغتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى ، والسرقات المتبادلة بين الرجل وأخيه ، وافتقار الملك الى الرفق ، والوزير الى الولاء ، والحاجة الى الحنان ، والواجب بين الوالد وولده — هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمبراطورية وكل هذا راجع الى انتفاء الحب المتبادل ، فلو أمكن فقط أن نعمم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة ، فلن يصبح للأمراء وقد أحب أحدهم الآخر أى ميادين للقتال ، ولن يحاول رؤساء العائلات أن يأخذوا أى شىء غصبا ، ولن يرتكب الرجال أية سرقة ، ولا تتصف الحكم والوزراء بالسماحة والولاء ، ولأصبح الآباء رحماء والأبناء بررة ، ولصار الإخوة منسجمين وأمسى التراضى بينهم هينا ، ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا ، لما انقض قويهم على ضعيفهم ، ولما نهبت قلتهم كثرتهم ، ولما أهان غنيهم فقيرهم ، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضيعهم ، ولما غش خبهم بسيطهم [1] » .

ويعلق Wells على هذه العبارة بقوله :

« لا شك أن فى هذا مشابهة عجيبة لتعاليم عيسى الناصرى ، وإن صبّ فى قالب سياسى ، وهكذا اقتربت أفكار « موتى » من مملكة السماء .

ويضيف Wells قوله : وهذا التطابق الجوهرى هو أهم سمة تاريخية تجمع بين هاتين الديانتين العالميتين ، فإن بدايتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمعبد ، وهى تلك النحل المقامة لعبادة آلهة محدودة المعالم ، معروفة الحدود ، والتى عاشت مع عمر الإنسانية

---

(1) Hirth , The Ancient History of China

زمنا طويلا يمتد بين ١٥٠٠٠ و ٦٠٠ ق٠م (يقصد بذلك أديان اليهود ومعاصريهم حتى عهد كونفوشيوس) ٠

« أما الديانات العالمية الجديدة ، من ٦٠٠ ق٠م فصاعدا ، فهى بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوى الشامل ، وهى التى جرفت أمامها كل تلك الأرباب المتنوعة المحدودة ، وخدمت باتجاهها الجديد حاجة الإنسانية ، إذ أن المجتمعات الإنسانية قد اندمجت بعضها فى بعض بعاملى الخوف والرجاء وسنرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام إنه حدث للمرة الثالثة بعد الكونفوشية والمسيحية أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسى السابق ، مبدأ الحاجة الى إخلاص تام من جميع الناس لإرادة واحدة ، على أن محمداً اتعظ بما مر بالمسيحية من تجارب ، فكان حاسما باتاً فى إصراره على انه هو نفسه ليس إلا بشرا كغيره من الناس ، وبذا وقى تعاليمه شر كثير من الفساد والتصحيف[1] ٠ »

٥ — يعتقد المسلمون ان اختفاء إنجيل عيسى كان عملا مقصودا لأن إنجيل عيسى قريب الصلة بالقرآن ، كما يعتقدون ان اختفاء هذا الإنجيل مهّد للتزيد والحذف والتحريف فى تعاليم الديانة المسيحية ، فانهارت أسسها وضاعت معالمها كديانة سماوية ٠

٦ — يعتقد المسلمون أن المسيحية بعد المسيح بعدت جدا ، أو قل اختلفت كل الاختلاف عن مسيحية المسيح ، وبخاصة عندما دخلها بولس أو ادّعى دخولها ، فحطم اتجاهاتها الصحيحة ، وقال فيها بالتثليث ٠ وقال بألوهية المسيح ، وبهذا بعدت الشقة بينها وبين الأديان السماوية ، حتى يمكن القول إن بولس هو واضع الديانة المسيحية المعروفة اليوم وان المسيح منها براء ، وسندرس هذا الموضوع دراسة مؤيدة بالأدلة العلمية عند الكلام عن بولس ٠

ومن الأشياء الغريبة أيضاً على الديانة المسيحية والتى دخلتها بعد

(1) Ontline of History vol. 3 p. 690

المسيح حركة الاضطهادات والقتل والقسوة بين المسيحيين بعضهم والبعض الآخر ، وبين المسيحيين وسواهم . فأين هذا مما عرف عن تعاليم المسيح من عدم مقابلة القوة بالقوة ، ومن التسامح الذى يصل إلى حد الرضا بالضيم كما تحدثنا من قبل ، وستخص حركة الاضطهادات فى المسيحية بحديث فيما بعد .

٧ — يعتقد المسلمون أن المسيح بشّر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى الذكر الحكيم « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد (١) » كما وردت هذه البشارة صريحة أيضاً فى إنجيل برنابا فى مواضع متعددة (٢) .

وقد قدم المسيحى الذى أسلم ، السيد عبد الأحد داود ، بحثاً لغويا طويلا استنبط منه أن ميلاد المسيح كان بشارة بميلاد محمد ، وأورد من إنجيل لوقا ما يدل على ذلك ، فقد جاء فى إنجيل لوقا أنه عند مولد المسيح ظهر جمهور من الجنود السماوية للرعاة السوريين وأخذ هؤلاء الأملاك يترنمون بالنشيد التـالى :

الحمد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة (٣) .

وهذا هو النص الموجود فى الترجمة العربية كثيرة الانتشار ، أما النص فى الترجمة التى قامت بها Tho Bible Socsiety فهو :

الحمد لله فى الأعالى ، على الأرض سلامة ، فى الناس حسن الرضا .

ويقول السيد عبد الأحد إن هؤلاء الأملاك لم يتكلموا باللغة العربية ،

---

(١) سورة الصف الاية السادسة .
(٢) انظر الاصحاح ٣٩ : ١٤ والاصحاح ١١٢ : ١٧ .
(٣) لوقا ٢ : ١٤ .

ولو تكلموها ما فهمها منهم هؤلاء السوريون ، ولم يتكلموا كذلك بلغة غير لغة هؤلاء الرعاة ، لأن طبيعة الرعاة ألا يعرفوا لغات أجنبية لقلة ثقافتهم ، وإذا كانت الأنشودة باللغة السريانية ، لغة الرعاة فما كلمات الأنشودة بهذه اللغة وما ترجمتها الحقيقية ؟ وبخاصة الكلمتان « السلام أو سلامة ، والمسرة أو حسن الرضا » ؟

وقبل أن يجيب سيادته على هذا السؤال يؤكد تأكيداً قاطعا أن ترجمة الكلمتين السريانيتين إلى « السلام أو سلامة » و « المسرة أو حسن الرضا » ترجمة خاطئة ، ويتساءل ما معنى : على الأرض السلام أو السلامة ؟ وأى سلام شهدته الأرض منذ خلقها الله ؟ وقد دنسها أحد ابنى آدم حين قتل أخاه فى مطلع البشرية ، واستمر بعض أولاد آدم يقتلون إخوتهم دون توقف حتى العهد الحاضر ، وأصبح طبيعيا للنوع البشرى أن يعيش عيشة تكاد تكون مستمرة بين الفجائع الوخيمة والاختلافات التى جبلت عليها الطبيعة البشرية ، وما يقال فى هذه الجملة يقال كذلك فى الجملة الأخرى « وبالناس المسرة أو فى الناس حسن رضا » فأين المسرة التى رآها الناس ؟ وما قيمتها إذا قيست بالدموع والعرق والكفاح والآلام التى يعانيها الجنس البشرى ؟ وأين حسن الرضا الذى أظهروه ؟ والأطماع لا تحد والكفاح لا ينى ؟

ومما يؤيد بطلان هذه الترجمة أن تولستوى المفكر الروسى الشهير كتب مؤلفا عن الأناجيل الأربعة • ورتب من الأناجيل الأربعة انجيلا واحداً • رابطا جمل الآيات المفيدة على زعمه بعضها ببعض ، ولم يثبت تولستوى هذه الآية فى انجيله الشامل ، زاعما أنها من الآيات المحرفة التافهة ، ومن لغو القول •

وبَعْدَ هذا يورد السيد عبد الأحد الكلمتين الأصليتين وهما « ايرينى ، وأيادوكيا » ويوضح ببحث لغوى طويل أن ايرينى معناها الإسلام وأيادكيا معناها أفعل تفضيل من الحمد أى أكثر الحمد أو أحمد ، والمعنى العام كما يراه هو :

الحمد لله فى الأعالى ، أوشك أن يجىء الإسلام للأرض ، يقدمه للناس أحمد . ويؤكد مرة أخرى أنه لو كان المقصود سلام بمعنى Peace (الأمن وعدم الحرب) لاستعملت كلمة « شلم » السريانية أو «شالوم» العبرانية[1] .

---

(١) انظر هذا البحث فى « الانجيل والصليب » ص ٣٢ — ٥٣ .

الاضطهادات والمسيحية

يبدو أنه من اللازم أن نتحدث هنا — ونحن على ذكر بحركة الاضطهادات فى المسيحية — حديثاً فيه شىء من التفصيل عن هذه الاضطهادات ، ذلك لأن هذه الاضطهادات كانت بعيدة الأثر فى توجيه المسيحية ، وكانت من أهم الأسباب التى دفعت المسيحية إلى ما هى عليه الآن من الميل للعنف ، وسنشير فى دراستنا القادمة عدة مرات لهذه الاضطهادات ، وسنصفها بالقسوة والوحشية والبربرية ، ولذلك كان من الأفضل أن نذكر عنها هنا شيئاً يساعد القارىء على فهم جذورها ، وعلى فهم الأثر الذى خلفته ..

والاضطهادات ذات الصلة بالمسيحيين وذات الأهمية فى بحثنا نوعان :

١ — ما نزل بالمسيحيين من أعدائهم فى عهود المسيحية الأولى .

٢ — ما أنزله المسيحيون بعد قوتهم بمخالفيهم فى الرأى من المسيحيين وغيرهم ممن أطلق عليهم هراطقة .

وقد اشتط بالمسيحيين عندما كانوا ضعافاً مغلوبين على أمرهم ، ونزلت بهم آنذاك ألوان من الضيم والخسف والوحشية ، فلما آل لهم السلطان ، أنزلوا بمخالفيهم ألوان العذاب بنفس الوحشية التى عوملوا بها أو بأكثر منها ، أما تعاليم الرحمة والغفران ، أما هتاف المسيح الذى يقول فيه « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » [1] ، فقد بقيت كلمات مسطورة دون أن يكون لها أى أثر أو نتيجة .

---

(١) متى ٥ : ٤٤

وقد بدأ اضطهاد المسيحيين منذ عهد مبكر ، وكان المسيح ضحية هذا الاضطهاد ، وقد نزل بأتباعه فى عهده وبعده مثل ما نزل به من العسف والظلم ، وكان اليهود مصدر هذه القسوة ، ولكن المسيحية بدأت تنتشر على الرغم من اليهود ، وغلبتهم على أمرهم ، وحينئذ تقدم أباطرة الرومان لاضطهاد المسيحيين وذلك لأن هؤلاء الأباطرة كانوا لا يعرفون من أمر الدين الجديد إلا أنه امتداد لليهودية ، وكانت هذه موضع كراهية من الوثنيين على غير ما جرى العرف عليه من إباحة الحرية الدينية لسكان الإمبراطورية ، ذلك لأن اليهودية أثارت بتعصبها الحقد فى القلوب ، وكان الأباطرة قبل المسيح يقومون بحماية السكان من ضراوة هذا الحقد ، حتى إذا أحسوا بأنها ستبدو فى ثوب جديد هو (المسيحية) ، وتجذب كثرة من الأنصار الجدد ، يشيعون تعصبها ، ويثيرون حقد الناس عليها ، أخذوا فى مقاومة تعاليمها واضطهاد أتباعها • ومما أثار حقد الرومان أيضاً على المسيحية أنها أخذت من اليهود تعصبها ، فأعلنت حتى فى عهود ضعفها أنها تناصب العقائد الأخرى العداء ، وأنها ستعمل على إبادة المذاهب الفكرية الأخرى ، وعلى تحطيم الحضارة الرومانية عندما تتهيأ لها الفرصة (١) •

وهذا التحول الذى أعلنته المسيحية ، من التسامح والرضا بالضيم، إلى الحقد والثأر ، يمثل التحول من أفكار عيسى إلى أفكار بولس كما سيجىء فيما بعد •

وأبشع حركات الاضطهاد التى عاناها المسيحيون فى القرن الأول تلك التى أنزلها بهم نيرون الطاغية (٦٨ م) فقد ألقى بعضهم للوحوش الضارية تنهش أجسامهم ، وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار وأشعلت لتكون مصابيح بعض الاحتفالات التى يقيمها نيرون فى حدائق قصره (٢) •

---

(١) دكتور توفيق الطويل : الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ص ٣٣ و ٤٢ •

(٢) زكى شنوده : تاريخ الاقباط ج ١ ص ١٠١ •

وفى القرن الثانى كان المسيحيون يُعتبرون أنجاساً لا يُسمح لهم بدخول الحمامات والمحل العامة وكانوا — كما حصل فى عهد نيرون — يُلْقَوْن للوحوش الضارية تفترسهم فى مدرج عام يضم خصومهم الذين يحضرون للتَّلهِّى بمشاهدة هذه المناظر (١) .

وسجل القرن الثالث صوراً أخرى من أبشع ألوان التعذيب والاضطهاد للمسيحيين ، وذلك فى عهد الإمبراطور دقلديانوس ، فقد أمر بهدم كنائس المسيحية واعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها . وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين سقطت حقوقهم المدنية ، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين ، وتجريعهم العذاب ألواناً ، ونفذت هذه التعليمات فى جميع المناطق ، فامتلأت السجون بالمسيحيين ، واستشهد الكثيرون بعد أن مُزقت أجسامهم بالسياط والمخالب الحديدية ، أو أحرقت بالنار ، أو قطعت إربا ، أو طرحت للوحوش الضارية ، أو غير هذا من وجوه التعذيب ، وقد سمى عصره (٢٨٤ — ٣٠٥ م) عصر الشهداء (٢) .

وفى مطلع القرن الرابع تغيرت الأحوال ، فقد أصدر الإمبراطور قسطنطين مراسيم التسامح سنة ٣١١ و ٣١٣ ثم دخل المسيحية بعد ذلك بعشر سنوات ، وسرعان ما قويت المسيحية ورجحت كفتها وشالت كفة أعدائها ، فانقضت على أعدائها تفتك وتُفنى ، فتأسست الجمعيات الثورية باسم الدين ، وكان أشهرها جمعية « الصليب المقدس » فى « تورينو » التى أخذت على عاتقها استئصال شأفة الملحدين من بقايا الرومان الوثنيين ، وحدث بعد ذلك ولا حرج عن الدماء التى سُفكت والأرواح التى أزهقت ، وقد وصف هارتمان هذه الحركة بأنها أفظع المجازر البشرية التى سجلها التاريخ (٣) .

على أن اضطهاد المسيحيين لم يكن موجهاً ضد الوثنيين فحسب ، بل

---

(١) الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ص ٣٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٠ وتاريخ الأقباط لزكى شنوده جـ ١ ص ١٠٨ — ١١٠ .
(٣) طه المدور : بين الديانات والحضارات ص ٣٤ .

اتجه كذلك ضد المسيحيين أيضاً ، فإن المسيحية التى ظهرت وأصبحت ذات سلطان لم تكن مسيحية عيسى ، بل مسيحية بولس ، ومسيحية الفلسفة الإغريقية ، ولكنها كانت ولا تزال تسمى المسيحية على كل حال ، ولما كانت هذه المسيحية قد ابتدعت أشياء لا يرضى بها المسيحيون الأصليون كألوهية المسيح والتثليث وغيرهما ، فقد بدأ صراع جديد اعتبر فيه المسيحيون الأصليون متمردين ، وأوقعت بهم المسيحية الإغريقية أو مسيحية بولس ألواناً من العنت والاضطهاد ، واستمرت الكنيسة فى خلق البدع وفى ابتكار الخرافات كالعشاء الربانى وغفران الذنوب ، ووجد من المسيحيين من يعارض هذه الخرافات ، فكان نصيبه أن لاقى القسوة والوحشية ، وسنلم هنا بصور قليلة من هذا العنت الذى أنزله المسيحيون بالمسيحيين :

فى القرن الرابع عارض أريوس (٣٣٦ م) القول بألوهية المسيح كما سيأتى ، مما دعا إلى عقد مجمع نيقية ، وسيأتى الحديث عنه ، وقد قرر هذا المجمع إدانة أريوس ، وإحراق كتاباته ، وتحريم اقتنائها ، وخلع أنصاره من وظائفهم ، ونفيهم ، والحكم بإعدام كل من أخفى شيئاً من كتابات أريوس وأتباعه (١) . وفى عهد تيودوسيوس (٣٩٥) ظهرت لأول مرة « محكمة التفتيش » وكانت مركزا بشعاً للاضطهاد والتعذيب ، وكان أعضاؤها من الرهبان ، وكانت وظيفتهم اكتشاف المخالفين فى العقيدة ، ولهم سلطان كبير ، ولا يسألون عما يفعلون ، وتاريخ محكمة التفتيش هو تاريخ الاضطهاد الدينى فى أقسى صوره ، وقتل حرية الفكر بأبشع أداة ، ومن أقذر سبلها أنها حتمت أن ينهى كل إنسان فى غير تباطؤ ما يصل إلى سمعه بشأن الملحدين ، وهددت من يتوانى فى ذلك بعقوبات صارمة فى الدنيا والآخرة ، فنشأ بسببها نظام التجسس حتى بين أفراد الأسرة الواحدة (٢) .

---

(١) زكى شنوده : تاريخ الأقباط ص ١٤٩ — ١٥٢ .

(٢) انظر الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، للامام محمد عبده ص ٤٠ .

وفى القرون التالية كثر صرعى هذا النظام ، وتعرض للشنق والحرق والإعدام جماعات كثيرة لأنهم فى نظر الكنيسة هراطقة ، وكثيراً ما كانت الكنيسة تلجأ للإعدام البطىء مبالغة فى التنكيل ، فتسلط الشموع على جسم الضحية ، وتخلع أسنانه كما فعل ببنيامين كبير أساقفة مصر ، لأنه رفض الخضوع لقرار مجمع خلقدونية الذى يرى أن للمسيح طبيعتين إلاهية وإنسانية .

وكان الإعدام يسبق بصور بشعة من التعذيب ، كالكى بالنار ، والضرب ، لعل المتهم يعترف بجرمه ، فإن لم يعترف قتل ، لأنه لم يكن يعتبر بريئاً حتى تثبت إدانته ، بل مجرما حتى تثبت براءته ، وهيهات أن تثبت ، وإذا اعترف المتهم بجريمته استمر تعذيبه قبل القضاء عليه لعله يكشف عن أنصاره وشركائه .

وكانت القوانين تقضى أن يحمل الأبناء والأحفاد تبعة الجرم الذى يتهم به الآباء ، فيسلبون حقهم فى مباشرة الكثير من الوظائف ومزاولة الكثير من المهن (١) .

أما الجماعات التى أعدمت فأكثر من أن يحصيها عد ، ففى إسبانيا قدمت محكمة التفتيش للنار أكثر من واحد وثلاثين ألف نسمة ، وحكمت على أكثر من مائتين وتسعين ألفاً بعقوبات أخرى تلى الإعدام (٢) .

وفى عام ١٥٦٨ أصدر الديوان حكمه بإدانة جميع سكان الأراضى الواطئة والحكم عليهم بالإعدام ، واستثنى من الحكم بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم ، وبعد عشرة أيام من صدور الحكم دفع للمقصلة ملايين الرجال والنساء والأطفال (٣) .

ولما ظهر البروتستانت اتجهت الكنيسة لهم بالاضطهاد العنيف وكثرت

---

(١) الدكتور الطويل : الاضطهاد الدينى فى المسيحية والاسلام ص ٧٦.
(٢) المرجع السابق ص ٧٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

المذابح ، ومن أهمها مذبحة باريس فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ التى سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت ، هؤلاء الذين دعوا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر ، ثم قتلوا خيانة وهم نيام ، فلما أصبحت باريس ، كانت شوارعها تجرى بدماء هؤلاء الضحايا، وانهالت التهانى على تشارلس التاسع من البابا ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم على هذا العمل الدنىء (١) .

والعجيب أن البروتستانت لما قويت شوكتهم مثلوا نفس دور القسوة مع الكاثوليك ولم يكونوا أقل وحشية فى معاملة خصومهم من أعدائهم السابقين ، ولولا أن عصر النور أطل لرأينا صوراً أكثر وأكثر ، من اضطهاد البروتستانت للكاثوليك .

وهكذا دون تاريخ المسيحية : بحار من الدماء ، وأكداس من رماد الذين أحرقوا ، ويتم ، ودموع ، وأنين ووحشية ، وبربرية طال عمرها وأتيح لها السلطان فكانت نقمة وشراً ، ولو ضممنا إلى هذا ما فعله المسيحيون بالمسلمين فى الحروب الصليبية ، وفى الأندلس بعد سقوط غرناطة (٢) ، وما فعله الاستعمار المسيحى بأقطار المسلمين ، لتبين لنا أن المسيحية التى هى دين الرحمة كانت تستغل باباً من العذاب ، وجحيما من التنكيل ، وحشداً من الغل والكراهية والحقد ، كانت جرحاً أليما أصاب الإنسانية ، وكان للبشرية مصدر قلق وآلام وشجون .

---

(١) الدكتور توفيق الطويل : الاضطهاد الدينى ص ٩٠ .

(٢) انظر :

أ ـ الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف .

ب ـ الأسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٥ .

المسيح والمســـيحية عند اليهود

انتهينا من الكلام عن المسيح والمسيحية عند المسلمين ، فلنتكلم الآن كلمة عن المسيح والمسيحية عند اليهود :

وينبغي أن يكون حديثنا هنا ، لا عن المسيح والمسيحية ، ولكن عن عيسى بن مريم وعن الدّين الذى جاء به ، أما الكلام عن مسيح اليهود فســـيأتى فيمـــا بعـــد •

والحديث عن عيسى بن مريم عند اليهود موجز للغاية ، فإنه لا وجد فى تاريخ اليهود الدينى ولا فى كتبهم أى ذكر لعيسى بن مريم ، ولالدعوته ولا لأحداث القبض عليه وصلبه ، فالذى يقرأ كتب اليهود لا يجد لعيسى ذكراً ، وهذا هو الذى حدا ببعض الغربيين إلى اعتبار عيسى شـــخصية خرافية فرْضية ليست حقيقة واقعة •

وإذا تكلم اليهود عن عيسى وقتله ، فليس لأنه مثبت فى تواريخهم المأثورة عن آبائهم ومشايخهم ، ولكن لأنهم يسمعون ما يقوله المسيحيون عن المسيح فيروون عنهم أحياناً ، وإلا فكتبهم خالية من ذلك •

لماذا أهمل اليهود شأن عيسى ولم يذكروه فى كتبهم ؟

الجواب هو أن عيسى عندهم ـــ إن صح وجوده ـــ رجل عادىٌ كفر بدعوتهم فقتلوه ، وهم لا يَجْمَعون فى كتبهم أخبار كل فرد من الدولة ، فهذا رجل انشق فعاقبوه بالقتل ، ولا يستحق بعد ذلك أى ذكر •

ويقول الدكتور إسرائيل ولفنسون إن مسألة قتل المســـيح كـــانت موجودة فى التلمود ولكن اليهود أخرجوها حتى لا يعثر عليها أحـــد من الأمم المسيحية التى كان يقيم بها اليهود (١) •

---

(١) انظر قصص القرآن لعبد الوهاب النجار ص ٤٣٠ •

هذا عن عيسى بن مريم ، أما كلمة «المسيح» فقد وردت فى التوراة، ولا يزال اليهود ينتظرونه ، ويرونه ملكاً عظيما سيأتى ليجعل لهم السلطان على الأرض ويجعل كلمتهم هى العليا ، وجنسهم هو الجنس الأعظم بين أجناس البشر ، وقد جاءهم عيسى بن مريم ، ولكنه دعاهم إلى الأخلاق الفاضلة ، وأراد أن يوجههم وجهة روحية ، وأن يقلل تكالبهم على المال ، ومثل هذه الدعوة لا تجد قلباً سميعا ولا تلاقى تأييداً من اليهود ، فلم يعتبروه المسيح الموعود به ، وثاروا عليه وتآمروا على قتله ... كما ذكرنا، ولا يزالون إلى اليوم — كما قلنا — ينتظرون مسيحهم الذى يملكهم الأرض ويجعلهم سادة العالم .

وليس عيسى بن مريم عندهم إلا رجلا عاديا ثار فلقى جزاء ثورته، ولا يستحق رجل عادى كهذا أن يدخل التاريخ ، ولذلك أهملوه كما سبق القول .

المسيح والمسيحية فى نظر المفكرين الغربيين

يمكن القــول دون تردد إن أغلب المفــكرين الغــربيين لا يدينون بالمسيحية كما يدين بها عامة المسيحيين ، وكما تعلمها الكنيسة والقسس ، ويمكن القول كذلك إن الثورات التى أشعلها المفكرون المسيحيون فى الماضى ضد المسيحية التى تعلمها الكنيسة ، لا يزال المفكرون المحدثون يرفعون لواءها وكل ما هناك من فرق أن الكنيسة فى الماضى عدت أولئك متمردين وحاربتهم حرباً قاسية سقط فيها آلاف الضحايا ، أما الكنيســة اليوم فلم يعد فى يدها سلطان ، فاكتفت بأن حرمت على أتباعها المخلصين أن يقرءوا ما يكتبه هؤلاء المفــكرون ممــا اعتبرته الــكنيسة ضــلالات وإلحاداً [١] ، وهذه الحقيقة يدركها كل الذين يقرءون عن المسيحية كتابات المفكرين الغربيين من غير رجال الكنيسة ، وسيرد فى هذا الكتاب اقتباسات تؤيد هذا مما كتبه عدد من هؤلاء المفكرين ، ولكنى آثرت أن أثبت هنــا ترجمة كاملة لما كتبه واحد من هؤلاء وهو Gerald L. Berry فى كتابه Religions of the World [٢] ولن أحذف من ترجمة ما كتبــه Berry إلا تفاصيل قليلة لا تمس جوهر الموضوع .

وقبل أن أبدأ ذلك أسجل حقيقة هامة تختلف فيهــا المســيحية عن الإسلام اختلافا يكاد يكون تاماً . وتلك الحقيقة هى أن مبادىء الإسلام

---

(١) بناء على قرار الفاتيكان الصادر سنة ١٩٢٩ والذى لا يزال معمولا به حتى كتابة هذه السطور ، تصل الكتب المحظورة قراءتها على الكاثولك الى خمسة آلاف كتاب ، منها جميع مؤلفات ميترلنك ، واميل زولا ، ومنهــا اكثر مؤلفات رينان ، وجان جاك روسو وديماس الاب وديمــاس الابن وديكارت ولامينية وفيكتور هوجو ، ومنها انحلال الامبراطورية الرومانيــة وســقوطها لجيبون وتاريخ الأدب الانجليزى لتين وافكار ورســائل أقليميــة لباســكال وغيرهــــا .

(٢) من ص ٦٨ الى ص ٧٦ .

واحدة عند جميع المسلمين عامتهم ومفكريهم ، فوحدانية الله ، وكون محمد عبده ورسوله والقرآن الكريم ، ونظام المواريث والزواج والطلاق ا وغيرها من أمور الدين والدنيا لا تختلف عند المسلمين عالمهم وجاهلهم ، أما المسيحية فيمكن القول إن هناك نوعين منها ، يتبع المفكرون نوعاً ، وتتبع الكنيسة وعامة الناس نوعاً آخر بعيداً جداً عن النوع الأول ٠

وهناك حقيقة أخرى تترتب على تلك التى سبق إيرادها ، وهى أن المسلم يزيد حبه للإسلام وتقديره له كلما زاد تعمقاً فى دراسته وتفكيراً فى مبادئه وفلسفته وحضارته وآدابه ، أما المسيحى فعلى العكس من ذلك لأنه كلما زاد تعمقاً فى دراسته المسيحية ظهر له ما بالمسيحية من تعقيد واستحالة ، فيبعد عن مسيحية الكنيسة ويتخذ له مسيحية أخرى ، أو ربما بَعُدَ عن المسيحية كلها واعتنق ديناً آخر ، أو لجأ إلى اللادينية وان بقى اسمياً فى عداد المسيحيين ، ويذكر الأستاذ العقاد بعض هؤلاء المفكرين فى كتابه « عقائد المفكرين فى القرن العشرين [١] » فيقول :

إن الأوربيين الذين خرجوا على سلطان الكنيسة الرومانية ، ظهر منهم أناس يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالكتب ، ولا بشعائر الكنيسة ، وتسمَّت منهم طائفة بالربانيين Diests - من كلمة ديوس بمعنى الرب أو الإله ، وسمَّوا دينهم دين الطبيعة تمييزاً له من دين الكنيسة ، واشتهر من هؤلاء فى البلاد الإنجليزية لورد هربرت شربرى Cherbury المتوفى قبيل منتصف القرن السابع عشر ، فدعا إلى دين طبيعى يقوم على أركان خمسة : هى الإيمان بالله والعباد والفضيلة والتوبة واليوم الآخر ، ثم تلاه أنتونى كولنس Collins الذى يعتبره الكثيرون أستاذاً لفولتير وبنيامين فرنكلين فى حرية الفكر ، ويحسبون كتابه « محاضرة فى الحرية الفكرية » Discourse on Freethinking إنجيل هذه النحلة ، ثم تلاه تندال Tindal فألف كتابه الذى جعل عنوانه « المسيحية قديمة كقدم الخليقة » ليثبت به أن الإيمان سابق للكنائس والمذاهب ٠

---

(١) ص ٦٣ ٠

والآن هيا بنا إلى أحد المفكرين الغربيين الذى يبين لنا فى المسيحية اتجاها يكاد يكون عاماً لهؤلاء المفكرين :

يقـــول Berry :

فى رأى الكنيسة أن المسيح الإله انقلب فأصبح إنساناً وعاش مع الناس كواحد منهم ليعلمهم طريقة مُثْلى للعيش ، وقُتِل هذا الإله بمؤامرة دبرها أعداؤه ، ودفن ثم خرج من قبره وصعد للسماء ، وقد احتمل هذه الآلام لينقذ المؤمنين به من الخطيئة ، **فالذى يدرس هذه المسيحية يجدها اقتباسات من الوثنية واليهودية والحياة الشرقية والرومانية ، ويجد بها عناصر أجنبية كثيرة بارزة بها كاملة أو محرفة •** فمن الأفكار الفلسفية الإغريقية التى اقتبستها المسيحية « الكلمة » وهى ترادف « الإله » عند الإغريق لأن الكلمات لا تفنى بالاستعمال كما لا يفنى الإله • • • ومن اليهودية اقتبست المسيحية فكرة الأبوة بين الله والناس أى فكرة أبوة الإله للخلق ، وفكرة الأخوة بين الناس ، كما اقتبست المثالية التى تكلمت عنها اليهودية — وإن لم يتبعها اليهود — وهى الحب والرحمة والعدالة ، ومن الحياة الشرقية اقتبست المسيحية الفنون والرسوم التى ازدانت بها الكنائس ، كما اقتبست استعمال الفسيفساء والصور والبخور والأنغام ، أما الحياة الرومانية فقد اقتبست الكنيسة منها النظم التى اتبعتها لتوزيع السلطان •(وسيأتى مزيد من التفاصيل عن هذه الاقتباسات)

وليس من المقطوع به أن عيسى شخص تاريخى ، بل إن ذلك مجرد احتمال ، ولم يبدأ التاريخ الميلادى من ميلاد المسيح كما يُظن ، بل إنه ولد فى عهد أوغسطوس أى فى العام الرابع قبل التاريخ الميلادى فى بلدة الناصرة بفلسطين ، وأمضى الثلاثين سنة الأولى من حياته فى حانوت النجارة الذى كان يملكه **أبوه يوسف النجار** ، ويؤيد علم الآثار القديمة بعض التأييد الرأى القائل بأنه أمضى وقتاً طويلا فى الطواف بالشرق وبأوربا حتى وصل بريطانيا •

وفى سن الثلاثين كان تصور فكرة أبوّة الله وأخوّة الناس قد اكتمل فى نفسه • وصادف فى ذلك الوقت أن أُلْقِىَ القبضُ على « يوحنا المعمّدان » (يحيى) ، فخلا له الجو ، فأعلن دعوته ، وكان ذلك فى عهد « تيربريوس » ، وكان لليهود طريقان يقابلون بهما عسف الدولة الرومانية الحاكمة ، وهذان الطريقان هما المقاومة ، وقوة العقيدة ، وقد اختار المسيح الطريق الثانى •

وقد بنى عيسى تعاليمه على الثقافات اليهودية القديمة والمعاصرة له ، والجديد الذى جاء به هو أنه كان يتكلم كإنسان فى يده نفوذ أكثر من أن يقنّع بأن يكون مفسراً وشارحاً ، واستطاع بفصاحته أن يجذب له كثيراً من الأتباع ولم يدّع عيسى قط أنه المسيح الذى ينتظره اليهود ، ولكن كثيرين من أتباعه (الذين هم فى الأصل يهود ينتظرون المسيح) منحوه هذا اللقب ، وقد نادى عيسى — كما ينادى المصلحون المحدثون — بعالم جديد خال من البؤس والحاجة والشقاء ، بل وخال من الموت ، ولم يخضع عيسى للعادات ولا للقانون ، فأثار غضب الطبقات العليا من اليهود ، وبهذا قدّم للمحاكمة بتهمة ملفقة عن خيانة سياسية ، وكانت المحاكمة أمام بونتيوس بيلاطس Pontius Pilates ولكن هذا لم يَجِدْ أدلة كافية ضد عيسى ، بَيْدَ أن الطبقات العليا من اليهود صاحت تريد قتله فأدين وصلب ، **وبعد صلبه ذاب أتباعه ، وفى خلال السنوات التالية لم يعد أحد يسمع بعيسى ولا بأتباعه** (١) •

وكان عيسى يدعو الناس ليتبعوا مشيئة الله وأن يحسنوا علاقاتهم بإخوانهم وأن يكونوا شفوقين رحماء ، ولأن عيسى اتبع طريقة العظة اليهودية القديمة واجهتْ دعوته فى حياته استجابة كبيرة لدى طبقات العامة ، لأنه جعل لهذه الطبقات مكانة وقيمة ، وتعرّض لمشكلات

---

(١) ومثل هذا ما يقوله Wells فى هذا الموضوع وعبارته : وبعد صلب عيسى انهارت دعوته انهيارا تاما وتخلى عن فكرته أتباعه عن بكرة أبيهم ، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال « لا أعرف هذا الرجل » .
(Outline of History Vol 3 p. 698).

الناس اليومية بطريقة ودية سهلة ، وكان ذكياً جداً ، فيسرت له كل هذه الأمور أن يحصل على الأتباع والمريدين ، ومن مواعظه قوله :

— تعالوا أيها الضعفاء والمثقلون بالذنوب •

— أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله •

— ••• فليرجمها منكم من لم يرتكب خطيئة •

وهكذا كانت المسيحية تتجه لتربية روح الأخلاق ، ولم تعط عناية تذكر للجسم والمادة بل حقرت من شأنهما فى كثير من الأحيان •

هذا هو عيسى وتلك هى دعوته التى أوشكت أن تفنى بعد موته كما سبق القول ، ومر الزمن وجاء شاءول Saul وهو يهودى رومانى من الفريسيين أحد طبقات اليهود العليا ، لم ير عيسى ولا سمعه يبشر الناس ، وقد لعب شاءول هذا دوراً أنقذ به المسيحية بعد أن أوشكت أن تدخل عالم النسيان الذى ضم كثيراً من أمثال هذه الحركات ، وقد كان شاءول هذا فى أول عهده أكبر أعداء المسيحيين ، فانزل بهم ألواناً من الاضطهاد والقتل والتعذيب ، لكنه فجاة تحول إلى المسيحية ، واستخدم تجاربه ومكانته ، لينقذ المسيحية ويوجهها على نحو ما أراد •

وكان عيسى يهودياً ، وقد ظل كذلك أبداً ، ولكن شاءول كون المسيحية عن حساب عيسى ، فشاءول — الذى سمى فيما بعد بولس — هو فى الحقيقة مؤسس المسيحية [1] ، وكان شاءول يمتاز بأنه صاحب دراية فى السياسة والابتكار ، فى حين كان عيسى صاحب أوهام وأحلام ، وقد أدخل بولس **على ديانته** بعض تعاليم اليهود ليجذب له أتباعاً من اليهود فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد Lord استطاع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة ، وهذه الاصطلاحات التى قال

(١) ويقرب من هذا ما يقوله Weils ونص عبارته : ان (يسوع الناصرى هو نواة المسيحية اكثر منه مؤسسا) Outline of History vol 3 p. 679.

بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق وبخاصة فى Mithras و Cybele فانحاز أتباع هذه الفرق إلى ديانة **بولس** ، وعمد بولس كذلك — ليرضى المثقفين — فاستعار من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف Philo فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق « الكلمة » The Logos أو عن طريق ابن الإله The Sun of God أو عن طريق الروح القدس The Holy Ghost .

وبدأ بولس ديانته فى أنطاكية Antioch حيث نشأ لأول مرة التعبير الشهير Christian [1] أى الانتساب لدين المسيح ، وبدأت تنتشر هذه الديانة فى المدن حيث تكثر الحاجة والفقر ، ثم انتشرت فى بقاع أخرى بعد ذلك ، ورسائل بولس إلى هذه الجماعات التى استجابت لدعوته تمدنا بالجزء الأعظم من المادة التى تكوّن منها العهد الجديد .

بالإضافة إلى رسائل بولس يتكون العهد الجديد من الأناجيل **الأربعة التى تنسب إلى أربعة من الحواريين (؟) وإن كانت هذه الأناجيل فى الحقيقة ليست من إنتاج هؤلاء الحواريين** ، ولا شك أن تاريخ حياة المسيح ودعوته كانت قد كتبت بلغته الأرامية ، ولكن هذا الأصل قد فقد ، ولعل هذه الأناجيل قد أخذت عنه . وقد كتبت هذه الأناجيل الأربعة باليونانية بعد وفاة عيسى بجيل أوجيلين ، وأقدمها عهداً هو إنجيل مرقص Mark (٦٥ م) وآخرها إنجيل يوحنا (١٠٠م) .

وبولس هو المؤسس الحقيقى للديانة المسيحية ، وقد طور فكرة المسيح من الناحية اللاهوتية والناحية الإنسانية وجعلها تتناسب مع فكرة الإنقاذ القديمة ، فقدّم آداباً مستحدثة فى طابع قديم مألوف .

---

(١) لم يسمح عيسى خلال حياته لاتباعه أن ينسبوا انفسهم له ، فكلمة مسيحى او نصرانى او ما شابه ذلك كانت ممنوعة لان عيسى كان يعد نفسه حلقة من حلقات انبياء بنى اسرائيل ، وكانت شريعة موسى هى شريعته ، ولم تظهر كلمة Christian (مسيحى) الا فى القرن الثالث فى المجلس الذى عقد بمدينة نيس .
انظر : The Sources of Christianity p. 15.

وبهذا فصل دعوة عيسى عن اليهودية ، **ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية ، بل على العكس اقتبس كثيراً من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين دون أن ينفروا منها** ، وليبعد ديانته بذلك أيضاً عن أن تذوب فى اليهودية ، ومن الصور التى حقق بها هذا الغرض أن جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد متبعاً فى ذلك تقاليد Mithras وأهمل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود [1] ، واقتبس بولس من الوثنيات كذلك أعياد رأس السنة ، وعيد القيامة ، وعيد الغطاس ، وأطلق عليها مسميات جديدة ، فعيد الربيع عند Ostara أصبح عيداً لخروج عيسى من القبر Easter ، وطقوس السر المقدس أخذت مكان معبد التضحية عند اليهود ، وعيسى أصبح « ابن الله » حملت به أمه العذراء حملا غير طبيعى ، واحتلت صورة العذراء والمسيح مكاناً مقدساً احتلته قديماً صورتا حوروس وأوزيريس Herus and Osiris ووضعتا فى كل الكنائس ، وأما المعابد ذات الأعمدة الكثيرة فكانت تذكار الأحراش والغابات ذوات الأشجار الكثيفة التى كانت مكاناً للعبادة لدى الأمم القديمة .

تلك أمثلة مما اقتبسته المسيحية من الوثنية ، ولكن يجب ألا ننسى أنه على الرغم من كثرة ما أخذت المسيحية من الوثنية لم تصر المسيحية وثنية فى روحها ، بل ظلت متمسكة بتحفظها الدينى الذى ورثته من اليهودية . كما حافظت على ابتعادها عن الناحية الجسمانية الشهوانية ، **وقد ظلت المسيحية كذلك طالما كانت مضطهدة ، تحارب لتعيش ، فلما** اصبحت أقوى من أعدائها تغيرت **الأحوال فقل صفاؤها وضعف** ، وظهرت بها الفرق والأحزاب التى استقلت كل منها بتنظيم نفسها ، وأصبح رؤساؤها رجال سياسة وقادة دينيين فى نفس الوقت .

وعند نهاية القرن الثانى كان أتباع المسيحية أكثر من أتباع أى دين

---

(١) خروج ٣٣ : ١٧ وتثنية ٥ : ٣ .

آخر ، وكان الرومان مع تسامحهم تجاه كل الأديان يضطهدون المسيحيين لأسباب ثلاثة :

١ — اعتبرهم الرومان غير مخلصين للوطن لتنبؤهم بسقوط الإمبراطورية ولأنهم امتنعوا عن الخدمة العسكرية وعن شغل الوظائف .

٢ — اعتبرهم الرومان غير متجاوبين مع الاتجاه الاجتماعى فى الإمبراطورية لأنهم لم يشتركوا فى الأعياد العامة .

٣ — اعتبرهم الرومان أميل للفجور وسوء الأدب لأن أغلب الأسر التى تنصرت كان مصيرها الفرقة والانحلال .

اعتراف الامبراطورية بالمسيحية وأسبابه ومراحله :

وفى ابتداء القرن الرابع بدأ الأباطرة أمثال Galerius و Constantine **يقدرون التأييد الضخم الذى يمكن أن يحصلوا عليه من المسيحيين ليسندوا بذلك الجمهورية التى كانت تهتز وتتهاوى ، ففى سنة ٣١٣ صدر منشور (فرمان) يعترف بالمسيحية ويساويها بالأديان الأخرى ، ثم جاء الإمبراطور** قسطنطين الذى بذل جهداً خاصاً ليكسب تأييد المسيحيين ، فأعفى القسس من الضرائب ، وبنى الكنائس على حساب الدولة ، وترك للكنيسة شئونها القضائية ، وجعل يوم الأحد إجازة رسمية ، واستمرت محاباة المسيحية بعد ذلك حتى أخمدت الوثنية نهائياً بقانون ثيودوس الذى صدر سنة ٤٣٨ م وبمقتضاه أصبح على جميع المواطنين أن يصيروا أعضاء بالكنيسة الأرثوذكسية ، وانتشرت الديانة الجديدة كذلك بسرعة بين برابرة الجرمان على حدود الإمبراطورية فعظمت بذلك الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن انتصار الكنيسة نشأ معه شىء حاد هو عقوبة المخالفين عقوبات قاسية تصل إلى الموت .

وازدانت الكنيسة بألوان الثقافات والفنون الإغريقية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى رجال مثل أوجستين وقسطنطين وجريجورى الأول (Augustine, Constantine and Gregory I) وقد أثر الفن المعمارى

بالكنائس على الفن المعمارى بالقصــور الرومانيــة ، فظهــرت الأعمدة الكثيرة التى تحمل السقف (وهى فى الحقيقة منحــدرة من المعابد المصرية ومن ديانات الوثنيين كما سبق القول) وأصبحت الــكنيسة تزدان كذلك بالنقوش والفسيفساء والصــور والزجاج الملوّن ، وكثرت بها الآنيــة المرصعة بالأحجار الكريمة ، **وهذه المظاهر الخلابة جذبت للمسيحية أتباعا جدداً ، كما أن ادعاء الكنيسة أن النجاة تتوقف عليها جعــل كثيرين من الناس يتدفقون على دخول المسيحية ، وأعلنت الكنيسة أن التعميد يغسل الماضى ويزيل الذنوب الأساسية ، وأن مداومة الاتصال بالكنيسة تمحــو ما يجدّ من سيئات ، وأذاعت الكنيسة معجزات نسبتها إلى القديسيــن لتثبت بذلك حقها اللاهوتى وقوتها السامية الإلهية** ، واشتغل الرهبــان بجمع المخطوطات ونسخها وتقديم نسخ منها إلى المكتبات التى تطلبها ، وبذلك حفظت الكنيسة كثيرا من التراث العلمى اليونانى واللاتينى الذى كان على وشك أن يضيع فى ظلام العصور الوسطى •

وقد قلنا من قبل إن الكنيسة استعارت من الرومان أوضاع رجال الدين وتوزيع السلطات (System of Organisation) ونعود إلى ذلك بشئ من الإيضاح فنقول إنه فى خلال القرون الأولى للمسيحية كــانت هناك تنظيمات قليلة فى الكنيسة لأن المسيحيين كانوا ينتظرون عودة المسيح ليقود حياتهم ، ومن هنا كانت كل كنيسة لها رئيس مؤقت ، كان يلاحظ فيه كبر السن واسمه مستعار من الإغريقية وهــو (Presbys) أى الرجل الشيخ (The Old Man) فلما لم يعد عيسى وكانت الكنيسة قد عظمت وكثر أتباعها بدأ المسيحيون يعملون نظما أكثر دقة ودواما وهى كالآتى :

١ — أصبح للكنيسة رجال منقطعون لها ولا عمل لهم سواها ، وكل منهم يسمى Priest أى قسيس أو رجل دين •

٢ — أطلق على هؤلاء Clergy أى رجال الدين للتمييز بينهم وبين العلمانيين وهم غير المنقطعين لخدمة الدين •

٣ — كبير القسس فى كل مدينــة أطلق عليــه Bishop أى أسقف أو مطـــران •

٤ — الأساقفة فى المدن الرئيسية أطلق على كل منهم اسم Archbishop أى رئيس الأساقفة فى دائرته •

٥ — من بين رؤساء الأساقفة ارتفع خمسة إلى مكانة أسمى وأصبح لهم نفوذ كبير ، وأخذ كل منهم لقب Patriarch أى بطريك أو بطـريق وهؤلاء رؤساء الأساقفة فى المدن التــالية : أنطاكيــة (Antioch) وبيت المقــدس (Jerusalem) والإســكندرية (Elexandria) والقســطنطينية (Constantinople) وروما (Rome) ومن الملاحظ أن أربعة من هؤلاء فى الشرق وواحداً فقط فى الغرب • ويلاحظ كذلك أن أسقفا واحداً غربيا كان قويا وكان صاحب نفوذ وهــو أسقف (Carthage) أما باقى الأســاقفة الأقوياء فكانوا شرقيين •

٦ — قبل القرن الحادى عشر كان كل من الأساقفة ورؤساء الأساقفة يطلق عليه لقب (Pope) ولكن فى القرن الحادى عشر فى عهد جريجورى السابع (Gregory VII) اختص بهذا اللقب رئيس أساقفة روما •

ذلك هو التنظيم الدينى للكنيســة ، ومن الملاحظ أنه يتبع مراحــل التنظيم الإدارى للدولة الرومانية كما سبق القول •

سلطة رئيس أساقفة رومـا :

وقد استطاع رئيس الأساقفة فى روما أن ينال نفوذا أكبر لعـدة عوامل • فروما كانت العاصمة وكان رئيس الأساقفة بها يطمع فى نفـوذ يعادل مكانة البلدة التى يشغل منصبه بها ، كما كان هناك اعتقاد أن كنيسة روما قد أسسها St. Peter بتفويض من عيسى نفسه ، ثم إن الذين تولوا هذا المنصب فى العصــور الأولى كانوا أقــوياء ورجال سياســة مبرزين فوجّهوا أنظار الناس لهم • وأخــيرا كان لروما أثر واضــح فى الدعوة

للمسيحية ، وفى سنة ٤٤٥ أصدر الإمبراطور قراراً يجعل رئيس أساقفة روما رئيساً عاماً للكنائس المسيحية ، (وبعد ذلك بعدة سنوات أخذ رئيس كنيسة القسطنطينية رياسة الكنائس الشرقية) ، وكان ذلك فى عهد جريجورى العظيم (Gregory the Great) رئيس أساقفة روما من سنة ٤٤٠ إلى سنة ٤٦١ فأصبح هذا بمقتضى القرار السابق رئيسا للكنائس المسيحية كلها ، وفى عهد هذا الرجل حدث حادث عظيم هو استيلاء هذا البابا على السلطة السياسية فى روما وظل السلطان السياسى فى أيدى البابوات اثنى عشر قرناً •

الكنيسة تضم السلطان السياسى للسلطان الدينى :

وقد تم استيلاء هذا البابا على السلطان السياسى عندما بدأت الإمبراطورية الرومانية تتشطر ، فبادرت كنيسة روما فعزلت نفسها من السلطة السياسية للأمبراطورية ، ثم استولت على الأمور السياسية بالإضافة إلى الروحانية وكونت الكنيسة بذلك دولة ، وكانت الكنيسة غنية قوية ، فساعدها ذلك على ادعاء أن لها الحق فى أن يمتد حكمها فيشمل جميع المسيحيين فى كل البقاع **وأذاعت أن مكانتها أسمى من مكانة الملوك والأباطرة ، وأن البابا له السيادة العليا فى القضاء والإدارة ، وأنه المشرّع ، والمفسر النهائى للكتاب المقدس ، وأنه مالك مفتاح الرحمة** وباب السماء ، وَجَبَتْ الكنيسة الضرائب ، وسيطرت على القضاء ، واستعملت حق الحرمان كأكبر عقوبة تنزلها بمخالفيها ، واستصدرت قانونا جديدا عكف على إعداده عدد كبير من القسس ، وأصبح يعاقب بمقتضاه القسس إذا أخطئوا ، كما يعاقب بمقتضاه جميع المذنبين فى حق الكنيسة كالمنشقين والمارقين والفساق والذين يمسون الأشياء المقدسة بدنس •

وأصبحت الكنيسة تمثل الغنى والترف ، وكان غناها من إيراد الممتلكات الواسعة التى كانت تمتلكها ، ومن جمع الزكاة ، ومن الهبات التى طالما كان يوصى بها الناس للكنيسة قبل موتهم لتضمن لهم نعيما فى الحياة الآخرة ، وبالتالى أصبحت الكنيسة مركز نشاط اجتماعى وثقافى•

فأشرفت على المدارس والمستشفيات ووزعت الصدقات وسيطرت على الجامعات ودور النشر •

واجتمع فى يد الكنيسة جميع شئون الأسرة كالزواج والطلاق وتقييد المواليد والوراثة والوصايا ، وأصبح للكنيسة سعاة يجمعون لها الأخبار ويبلغون عنها التعليمات ، **وعدَّ رجال الكنيسة أنفسهم ممثلين لله ، فأخذوا حق قيادة أفكار الناس وأعمالهم ، وأعلنت الكنيسة بقوة أنها تسيطر على باب الله ، وأنها منْفَذ الرحمة** ، وبهذا أبرزت خطر الحرمان الذى هو حاجز بين المحروم وباب السماء •

وجذبت هذه المكانة التى استمتع بها رجال الدين كثيرين من الناس ليدخلوا الكنائس ولينضموا إلى رجالها لينعموا بهذا النفوذ ، وقد استطاع كثير من هؤلاء أن يحققوا أملهم وأن يصيروا من رجال الكنيسة ، وتسبب عن ذلك أن **أصبح هناك عدد كبير من الجهلة ورجال الأطماع وعبدة الدنيا محسوبين فى عداد رجال الدين** •

ولما ازدادت قوة الكنيسة وأهميتها زادت طقوسها المقدسة عدداً ، وتنوعت هذه الطقوس ، وامتدت لها يد الحبك والزخرفة ، وتدخلت هذه الطقوس وهذه الأسرار فى كل شىء ، فى حياة الإنسان وبعد موته ، ثم أنقَصَت الكنيسة الطقوس إلى سبعة أهمها:

١ — تعميد الأطفال عقب ولادتهم لتُمحى عنهم آثار الخطيئة الأصلية ، وليُعطى الطفل شيئا من الحرية والمقدرة لعمل الخير •

٢ — العشاء الربانى ، وهو يكون بالماء أو الخمر ومعه الخبز الجاف، وقد ارتبط هذا القداس بخبر إعجازى ، وهو تحوُّل هذا الماء أو الخمر إلى دم عيسى وتحول الخبز إلى عظامه ، ويجرى هذا القداس مرتبطاً بالأنوار والعطور والزهور •

٣ — الاعتراف ، ويتبع الاعترافَ الغفرانُ ، وكان الاعتراف يتكرر

عدة مرات مدى الحياة ، ولكن منذ سنة ١٢١٥ أصبح لازما مرة واحدة على الأقل ، وسنتحدث عن الاعتراف وما جرّه من فضائح عند الحديث عن حركة الإصلاح الدينى •

٤ — حضور القسيس عند الزواج ليقيم وحدة بين الرجل والمرأة •

٥ — حضور القسيس عند الموت ليمسح المريض المشرف على الموت بالزيت ، وبخاصة أعضاء الحواس والصلب والأقدام •

(انتهى ما كتبه Berry)

ولنا تعليق سريع على ما كتبه Berry ذلك هو أن رأى هذا العالم الأوربى الكبير لا يجعل أى ارتباط بين عيسى وبين المسيحية الحالية ، ويؤكد أن المسيحية الحالية من صنع بولس ، وسنزيد هذا الموضوع دراسة فيما بعد •

المسيح والمسيحية فى نظر المسيحيين

ليس من السهل فى الحقيقة أن نتحدث عن المسيح والمسيحية فى نظر المسيحيين كما تحدثنا عن المسيح والمسيحية فى نظر غيرهم ، وسبب ذلك أن فِرَقَ المسيحيين متعددة ، وأن عقائد المسيحية مختلفة باختلافهم ، ثم إن المسيحيين كانوا يعتقدون اعتقاداً ثم مرّ الزمن فتغير ذلك الاعتقاد أو زِيد عليه ، ومعنى هذا أن الفكرة عن المسيح والمسيحية اختلفت باختلاف الجماعات واختلاف الأزمان ، ومع هذا فسنحاول أن نجعل هذه الدراسة شاملة لأبرز هذه التطورات والاختلافات ، بيد أنا هنا نبدأ فى بيان المعالم العامة الشهيرة للمسيح والمسيحية كما تعتقدها الكنائس اليوم وتعلّمها ، وكما يتبعها جماهير المسيحيين وعامتهم [1] ونسارع فنشير هنا إلى ما سيأتى تفصيله فيما بعد من أن الكنائس من كاثوليكية وأرثوذكية وبروتستانتينية وغيرها تختلف فى الفروع ، أما الأصول كألوهية المسيح والتثليث فليست موضع خلاف ، فإذا اعتمدنا فى بيان الأصول على مصدر كاثوليكى هام مثل Pengadjaran Geredja Katolic فإنه لا يعطينا فقط فكرة الكاثوليك فى هذه الأصول ، وإنما يعطينا فكرة الجميع ، وسنعتمد فى دراستنا هذه كذلك على الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى المسيحيين ، وعلى مصادر أخرى أكثرها أو كلها مسيحية كتبها مسيحيون شرقيون أو غربيون لنعرض أفكار المسيحيين كما يعتقدونها دون تحريف ، وليس لنا على ما سنورده من هذه المصادر المسيحية إلا التعليق الذى هو طبيعة الكاتب وروحه ، والذى لا غنى لمؤلف عنه .

المسيح فى نظر المسيحيين :

ليس المسيح فى نظر المسيحيين إنسانا ولد على الطريقة التى ذكرها

---

(١) واعتقاد الكنيسة وعامة المسيحيين يختلف عن اعتقاد المسيحيين المثقفين الذى ذكرناه فيما سبق ممثلا فى راى Berry وغيره .

المسلمون ، بل هو تكوين آخر ، إنه ابن الله الأزلى ، وهو كالأب أزلى أيضا ، فليس بينه وبين الله فرق فى الزمن ، والله الأب غضب على الجنس البشرى بسبب خطاياهم وبخاصة خطيئة أبيهم آدم التى أخرجتـه من الجنة ، ولكن مع غضب الله على الجنس البشرى فهو رحيم ، يريد أن يمحو هذا الذنب ويعيد رضاه عن الناس ، **فأرسل ابنه ووحيده إلى الأرض حيث دخل رحم مريم العـذراء البتول ، وولد كمـا يولد الأطفـال ، وتربى كالأطفال حتى بدا إنسانا كالبشر ، ثم صلب ظلما على الصليب ، لا لأنه ارتكب خطأ فى حق الرومان أو اليهود ، بل ليكفّر عن إثـم آدم الذى اصبح المسيح كأنه** أحد أبنائه ، فكأنه احتمل بعض مسئولية عصيان أبيه آدم [١] ، وسيجىء فيما بعد مزيد من التفصيل لهذا الموضوع .

ويرى المسيحيون أن وفود الملائكة بدأت تظهر فى الجو مسبّحة فى الحقول المجاورة لبيت لحم عقب مولد المسيح ، وأن نجما لاح فى السماء يشير بمولد المخلّص ، وأن جماعات المجـوس تبعوا ذلك النجـم الذى هداهم إلى مكان ولادته فرأوا الطفل وسـجدوا له [٢] ، وأن هيرودوس ملك اليهود لما علم بذلك خاف على ملكه من المولود الجديد فقد كان يعرف أن ملكه يزول على يد مولود معاصر فى بيت لحم ، فأصدر أمره بقتل كل مواليد بيت لحـم .

المسيح وأمـه فى مصر :

ولكن الله أوحى إلى يوسف النجار أن يأخذ الطفل وأمه ويذهب إلى مصر [٣] فأخذهما وحلّ بهما فى دير المحـرق بجبـل قسـقام بمحافظة أسيوط ، حيث أقاموا بضعة أشهر ، حتى جاء الوحى مرة أخرى ينبىء يوسف بأن ملك اليهود هذا قد هلك ، ويأمره بالعودة إلى فلسطين [٤] ، فقاموا ومرّوا فى طريقهم بالمطرية واستظلوا فترة بشجرة سميت منـذ

(١) باختصار من Pangdjaran Geredja Katolik pp. 47;52 65;69.
(٢) متى ٢ : ١ — ٩ .
(٣) متى ٢ : ١٩ — ٢٢ .
(٤) متى ٢ : ١٣ — ١٤ .

ذلك الحين بشجرة العذراء • ولم يتفق المؤرخون على المدة التى استغرقتها هذه الرحلة وتتراوح أقوالهم بين سنة وأربع سنوات [١] •

ولما عاد المسيح إلى فلسطين أقام مع أمه بالناصرة ، وكانت مريم ويوسف وعيسى يذهبون كل سنة إلى أورشليم فى عيد الفصح ثم يعودون بعد أيام ، وحدث مرة أن الطفل اختفى منهم فى أورشليم ، فلما بحثوا عنه وجدوه جالسا فى الهيكل يناقش العلماء ، وكانت سنه آنذاك اثنتى عشرة سنة [٢]

بدء الدعوة :

ولما بلغ الثلاثين من عمره بدأ يبشر فى مدينة الجليل ، كما أنه أخذ يعظ الناس فى كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها • يعظهم هناك فى البيعة اليهودية ، ثم هبط إلى أورشليم •

وكان دخول أورشليم نصراً سلميا • إذ اجتمع حوله فى الجليل عدد عظيم من الأتباع ، حتى كان يضطر فى بعض الأحايين أن يعظ الناس من زورق فى بحيرة الجليل بسبب تراحم الجمهور على الشاطىء ، وتسامع الناس به وسبقته شهرته إلى العاصمة ، فخرجت جماهير غفيرة لتحيته عند قدومه إلى العاصمة ، وواضح أنهم لم يفهموا اتجاه تعاليمه ، وأنهم جميعا كانوا يشتركون فى اقتناعهم بأنه سيقلب النظام القائم بضربٍ من سحر البِرّ والصلاح ، وقد دخل المدينة راكباً جحشا استعاره من تلاميذه والجمهور يرافقه رافعاً صوته بالتهليل والتكبير هاتفاً بكلمة (أُوصانا !! Hosanna)وهى لفظة تعبر عن الفرح •

صراع مع الشعوذة اليهودية :

وذهب توًا إلى الهيكل • وكانت أقنيته الخارجية غاصة بمناضد

---

(١) زكى شنوده : تاريخ الاقباط ج ١ ص ٤٤ •
(٢) لوقا ٢ : ٤١ — ٤٧ •

الصيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكى يحرره زوار المعبد الأتقياء !! وانبْعثَ هو وأتباعه يطردون هؤلاء المتَّجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم ، وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيجابية الوحيدة (١) .

وقد حاول الشيطان أن يخدعه ولكن المسيح طرده ، واختار من أتباعه اثنى عشر مريداً لقبّوا بالحواريين ، وقد لازمه هؤلاء مدة دعوته. ثم اختار من أتباعه من أرسلهم إلى القرى للتبشير ، وأيده الله بالمعجزات العظيمة ، فكان يحيى الموتى ، ويشفى المرضى ، ويفتح أعين العمياء ، ويخرج الأرواح النجسة ، وينهر الرياح إذا ثارت فتهدْأ ، والبحر إذا أصخب فيخضع (٢) .

مؤامــــرة :

ولما رأى اليهود أن شأن المسيح سيرتفع جُنّ جنونهم ، فاجتمع رؤساء الكهنة والفرّيسيون ، بالحَبْر الأكبر كايافاس «Caiaphas» وراحوا يتآمرون ويتشاورون ، فقال رئيس الكهنة : « إنه خير لنا أن يموت واحد ولا تهلك أمة كلها » وقرروا قتله ، وأخذوا يثيرون عليه بيلاطس حاكم فلسطين من قبِل الرومان ، ولما رأوا أن هذا لا يريد أن يتدخل فى الشئون الدينية لليهود ، تقدموا إليه مدّعين أن عيسى أخذ يفسد الأمة وأنه يمنع أن تعطى جزية لقيصر (٣) ، ويدعى أنه مسيح ملك (٤) ، بل توعدوا بيلاطس أن يرفعوا الأمر لقيصر إنه هو قصر فى إنزال العقوبة بعيسى ، ولما رأوا تردده وخوفه على نفسه من دم عيسى صاحوا به : دمه علينا وعلى أولادنا .

وهكذا أثّر اليهود على بيلاطس فأمر بالقبض على عيسى ، وأحس

---

(١) Wells ; Outlne of History vol 3 p. 692.
(٢) وردت هذه المعجزات فى عدة أمكنة من الاناجيل الاربعة .
(٣) كان القيصر آنذاك هو « طيبريوس » .
(٤) لوقا : الاصحاح ٢٣ الفقرة الاولى وما بعدها .

عيسى بذلك فاختفى مع حوارييه فى حديقة جثيمانى Gethemane ، ولكن يهوذا الأسخريوطى أحد الحواريين تقدم للكهنة وساومهم على تسليمه للرومان نظير ثلاثين قطعة من الفضة ، وقاد يهوذا جند الرومان حيث قبضوا على عيسى ، ودفع اليهود بيلاطس فحكم عليه بالموت صلبا (١) ، ونكل به الجنود الرومان ثم صلب حتى مات ودفن ، وبعد ثلاثة أيام أمضاها فى القبر قام فى الفصح ، ومكث أربعين يوماً مع تلاميذه خاصة ، ثم ارتفع إلى السماء أمامهم بعد أن أوصاهم بالجِد فى نشر دعوته باسم الأب والابن والروح القدس (٢) .

وهذا الموضوع الأخير وهو ارتفاع عيسى إلى السماء وتلاميذه يَرَوْنَهُ ، موضوعٌ يدعو إلى التفكير ، فالآراء المسيحية مجمعة كما سيأتى على أن عيسى تجمّع فيه اللاهوت والناسوت ، وأن الجانب الذى كان يُرى ويأكل ويتكلم ويمشى ويتألم هو جانب الناسوت فى عيسى ، وإذا صح هذا الكلام فلماذا يصعد هذا الجانب أو هذا الجسم إلى الطبقات العليا كان من الطبيعى أن الناسوت انتهت مهمته فحق عليه الفناء بالصلب كما يفنى كل الناس . وأن الذى يعود إلى العليين هو جانب اللاهوت فى عيسى وهو جانب لا يُرَى وليست به صفات البشر .

صورة جديدة اقترحها بولس للمسيح :

والذى رسم للمسيح هذه الصورة هو بولس الذى سنتكلم عنه فيما بعد وهى صورة قلبت الفكر الذى ينسب للمسيح ، وبين أيدينا كتاب هام ألفه رائد مسيحى وقس متبحر ، ولكنه يصدقُ القول عندما يقول إن المسيح الذى نتكلم عنه الآن هو « مسيح بولس » وفيما يلى عبارة هذا المؤلف :

---

(١) الاناجيل الاربعة وتاريخ الاقباط للاستاذ زكى شنوده ص ٥٦ والمشرع للقس بولس شباط ص ٩٤ — ٩٥ .

(٢) انظر قصة محاكمة المسيح وصلبه فى متى الاصحاح ٣٧ وانظر المشرع ص ١٠٥ وتاريخ الاقباط للاستاذ زكى شنوده ص ٦٥ — ٦٧ .

لقد ترك لنا بولس الرسول عن المسيح رسما واضح القسمات وإن اختلف ظاهراً عن رسم مسيح الأناجيل ، فمسيح بولس هو مسيح الإيمان أكثر منه مسيح التاريخ • ولا عجب فبولس الفيلسوف واللاهوتى لم ير المسيح فى الجسد ولا رافقه كباقى الرسل ، فمسيحه هو ابن الله (روما ٨ : ٣ و ٢٣ — غلاطية ٤ : ٤) له طبيعتان إلهية وإنسانية ، تجسَّد واتخذ صورة عبد (فيلبى ٢ : ٧) وتحدَّر من ذرية إبراهيم حسب الجسد (غلاطية ٣ : ١٥) ومات مصلوبا وقُبِر وقام من بين الأموات (كورنثوس الأولى ١ : ٢٤ و ٢٧ وفيلبى ١٥ [١]) •

نعم ذلك هو مسيح بولس وليس عيسى بن مريم عليه السلام •

وهناك وصف آخر دقيق لشخص عيسى فى وضْعَيْه الحقيقى والمزعوم وهذا الوصف يقدمه Wells ، ويجدر بنا أن نورده هنا ، يقول Wells :

كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوِّهت وانطمست وراء تلك الصور الجامدة الوثنية المتربعة التى تمثّل شخصية بوذا فى البوذية المتأخرة ! ، فكذلك يشعر المرء أن شخص عيسى النحيل المكدود قد أضرّ به كثيراً ذلك الجو الوهمى وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته فى الفن المسيحى الحديث تبجيل" خاطىء أجوف ، لقد كان عيسى معلما ذا خصاصة ، يتجول فى « أرض يهودية » المُتْرِبَة اللافحة الشمس • ويعيش على هبات عرضية من الطعام • ومع ذلك فإنه يصوَّر على الدوام نظيفاً ممشَّط الشعر ، مرجَّله ، صقيل الإهاب ، نقى الثياب ، مستقيم العود • ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق فى الهواء • وهذا وحده قد جعله وهماً لا يؤمن به الكثير من الناس الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف استطرادات التحسين والتحلية غير الموفقه التى يضفيها بعض المتبتلين الأغنياء [٢] •

---

(١) الاب بولس الياس . يسوع المسيح ص ١٧ — ١٨ •
(٢) المرجع السابق : ص ٢٦٧ •

خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون

وقبل أن نترك الحديث عن المسيح وأمه إلى الحديث عن المسيحية ، يجدر بنا أن نقف وقفة مع السيدة العذراء بمناسبة حادث خطير وقع بمصر سنة ١٩٦٨ •

والذى يطالع الأناجيل الأربعة بعناية وعمق لا يجد بها لمريم البتول أكثر مما أوردته المصادر الإسلامية ، فليست لها قدسية خاصة ، وكل ما تناله من إجلال يرتبط بأنها أم عيسى ، وليس فى الأناجيل قط ما يثبت لها معجزات فى حياتها ، ولا أى دور من الدعوة •

بيد أن بعض المسيحيين فى مصر اتجهوا فى القرن العشرين اتجاها عجيبا ليثبتوا أن السيدة العذراء تظهر للناس وتشفى الأمراض ، ومن الواضح أن هذا الاتجاه عودة للفكر المسيحى بالنسبة لفهم التاريخ ، ذلك الفكر الذى شرحناه فى الجزء الأول من موسوعة التاريخ الإسلامى ، والذى يقضى بأن التاريخ البشرى ليس تاريخ أحداث وحضارات وإنما هو تاريخ خوارق ومعجزات يتحتم قبولها دون تفكير فيها • ولكن هذا الاتجاه نحو التاريخ مات منذ أمد بعيد فى العالم كله وسخر المفكرون منه• ثم جاء مسيحيو مصر فعادوا بعقارب الساعة للوراء ورجعوا بالفكر التاريخى إلى الخرافات والترهات ، وقد نفخوا فى هذه الخرافات بكل قواهم فترة من الزمن ثم ماتت خرافاتهم فى مدى وجيز :

فقد انتهز بعض المسيحيين بمصر فرصة الهزيمة النكراء التى حلت بجيشنا فى يونيو سنة ١٩٦٧ بسبب اضطراب القيادة السياسية والعسكرية ولم يشاءوا أن يشاركوا الشعب آلامه ، ورأوا أن القيادة السياسية كانت تتلمس الطريق لإرضائهم ولو على حساب الحق والاسلام ، فلم يضيعوا هذه الفرصة ، وأرادوا أن يكسبوا جولة من النصر ، فادعوا أن العذراء ظهرت للناس وأعادت الإبصار للعميان والقوة للكسيح •

وخرجت صحيفة « وطنى » المسيحية تهلل وتذيع ، ولم يعد لها من عمل إلا تأييد هذه الفرية الهزيلة ، وقد حاولتُ آنذاك كما حاول غيرى أن نرد هذا الباطل ، ولكن أوامر القيادة السياسية منعت أى نقاش فى هذ، الموضوع ، فسكتنا حتى أذن الله للحق أن ينبلج ولصوت الباطل أن يخفت ، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد ضحايا كثيرين سقطوا فى الزحام الذى جمعته الدعاية الظالمة ، وبدل أن تشفى العذراء المرضى تسببت هذه الفرية التى ارتبطت بالعذراء فى قتل الأبرياء •

ومعى الآن كتاب كتبه باحث مسيحى أوربى يعرض هذه المهزلة ومنه نقتبس كلماته ليكون صوتا مسيحيا يردّ باطل أهل دينه •

باحث مسيحى يدحض هذه الفرية :

يقول Otte Meinardus فى كتابه :
Christian Egypt : Faith and Life

« فى شهر مارس سنة ١٩٦٨ صرخت كنيسة العذراء بالزيتون بشارع طومان باى صرخة مدوية بأن العذراء ظهرت بها ، وأنها تشفى المرضى وتُعيد الإبصار للعميان ، وقد سمع بهذه الصرخة آلاف من المصريين فاتجهوا ليروا هذا الأمر الجلل ، ولم تقتنع القيادة المسيحية بمصر بأن يُذاع مثل هذا الخبر دون توثيق فأرسل البطريرك كرولس السادس مطرانَ بنى سويف ليرى ذلك بنفسه وليعلنه بصفة رسمية ، وفى الثانى من أبريل أعلن هذا المطران ظهور العذراء فى هذه الكنيسة ، وأنها ظهرت عدة مرات بحجمها الطبيعى ، أو ظهر النصف الأعلى منها ، وقد أذاع المطران هذا الاعلان فى مؤتمر صحفى ذاكراً أنه رأى العذراء بنفسه ، وأن آلاف الناس رأوا ذلك معه (١) •• »

ويقرر المؤلف أن الذى ظهر ليس إلا انعكاسا ضوئيا ، وليس بحال من الأحوال ظهوراً للعذراء ، كما يقرر الحقيقة التى ذكرناها وهى أن العذراء لم تكن تشفى المرضى وهى حية منذ ألفى سنة • ويذكر كذلك

---

(١) Christian Egypt p. 265

أن البطريرك لم يتجه بنفسه إلى كنيسة العذراء إلا بعد أربعة أشهر من هذا الإعلان ، مما يدل على تهاونه به ، ولو حدث ظهور" للعذراء فعـلا لأسرع لاستقبالها والسجود لها • ولكن سلوكه كان أقل حماسا وانفعالا من معظم الاقباط (١) •

ويستمر المؤلف فيقول إن الكنائس فى شـبرا وفى المعـادى أخذت تتنافس فى ادعاء هذا الأمر لتجذب لها جماهير المخـدوعين ، بل وصـل الأمر إلى كنائس شتى فى جميع بلاد الشرق الأوسط أخذت تدّعى هـذا الادعـــاء (٢) •

ويختتم المؤلف وصفه لهـذه المسـألة بحـديثه عن كارثة بشرية تسببت عنها ، فيذكر أنه فى ١٩ مايو سنة ١٩٦٨ قـُتـِل وطئاً تحت الأقدام حوالى خمسة عشر شخصاً فى زحام داخل كنيسة شبرا وبهـذا الحدث الجلل توقف هذا الباطل وقـُطـِعت ألسنة الكاذبين •

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ •
(٢) المرجع السابق : ص ٢٦٩ •

المسيحية الحالية وواضعها

سيكون حديثنا هنا — كما قلنا آنفاً — عن مسيحية اليوم • مسيحية الكنائس • ولكن حديثا كهذا يستلزم أن نترجم لمنشىء هذه المسيحية وواضع أسسها ومدوّن قوانينها ، ذلك هو شاءول الذى سُمِّىَ فيما بعد بولس والذى يقول عنه Berry فيما أوردناه سابقاً « إنه هو فى الحقيقة مؤسس المسيحية » ويقول عنه Wells : « إن كثيرا من الثقات العصريين يعدونه المؤسس الحقيقى للمسيحية [١] » وستكون ترجمتنا لبولس ومبادئه مأخوذة من رسائله المعتمدة لدى الكنائس • وستضع هذه الترجمة فى أيدينا مفتاحاً نفهم به هذه الديانة فهماً أقرب إلى الصواب • فلنرجىء — إلى حين — حديثنا عن المسيحية فى نظر المسيحيين لنتكلم عن مؤسس هذه الديانة • عن « بولس الرسول » •

شاءول (بولس) :

أول ما نذكره عن شاءول هو مقتطفات مما كتبه هو عن نفسه أو كتبها عنه تلميذه لوقا ، ننسق بها تعريفا به ، قال بولس :

— أنا يهودى فريسّى بن فريسى على رجاء قيامة الأموات [٢] •

— سمعتم بسيرتى قبلا فى الديانة اليهودية ، إنى كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها • وكنت أتقدم فى الديانة اليهودية على كثيرين من أترابى فى جنسى إذ كنت أوفر غيرةً فى تقليدات آبائى [٣] •

ويقول لوقا عنه فى أعمال الرسل : وكان شاول راضياً بقتل **المسيحيين ، وكان يسطو على الكنيسة ، ويدخل البيوت ، ويجر رجالا**

---

(١) Outline of History vol. 3 p. 695.
(٢) أعمال الرسل ٢٣ : ٦ •
(٣) غلاطية ١ : ١٣ — ١٤ •

ونساء ويسلّمهم إلى السجن (١) ، ولـم يزل ينفث تهديداً وقتلا عـلى تلاميذ الرب ، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسـائل إلى دمشق ، حتى إذا وجد أناساً فى الطريق رجالا أو نسـاء يسـوقهم موثقين إلى أورشـليم (٢) .

وعجباً أن توجد هذه الصفات فى إنسان ثم يصبح رسولا ومؤسس ديانة .

وعن دخوله المسيحية يقول لوقا : « وعند ما كان بولس قريبـاً من دمشق ، فبغتةً أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض ، وسـمع صوتاً قائلا له : شاءول شاءول لماذا تضطهدنى ؟ فقال : من أنت يا سيد ؟ فقال الرب : أنا يسوع الذى تضـطهده . فقال وهو مرتعـد ومتحير : يارب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له : قم وكرّز بالمسيحية . ويقول لوقا فى ختام هذه القصة جملةً ذات بال غيّرت وجه التاريخ هى : « وللوقت جعل يكرز فى المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله (٣) » ولم تـكن هذه الفكرة قد عُرِفت من قبل ، فأصـبحت نقطة التحـول فى الدراسـات المسيحية ، وقد حدث هذا التطور لشاءول أو حدث فى تفكير شاءول وهو فى الطريق من أورشليم إلى دمشق ، وكان ذلك حـوالى سـنة ٣٨ م ، وسنعود فيما بعد لحديث أوسع يتصل بالتعاليم التى نادى بها شـاءول وأسـسها .

وقد دخل بولس المسيحية وأصبح معلماً لها ، وتمّ ذلك بهذا النسق الذى يصدّقه قوم ويراه آخرون قصة مخترعة لم يُجِـدْ حَبْكَها ، ولكن هذا ينقلنا إلى سؤال آخر دقيق هو :

---

(١) أعمال ٧ : ٦٠ ، ٨ : ٣ .
(٢) أعمال ٩ : ١ — ٢ .
(٣) أعمال ٩ : ٣ — ٢٠ .

كيف تعلم شاول المسيحية ؟ أو مَنْ هم أساتذة شاول فى المسيحية؟

إن شاول قد أعد لهذا السؤال إجابة شبيهة بقضية دخوله المسيحية، فهى إما أن تقبل وإما أن ترفض ولكنها على كل حال لا تُنَاقش . قال : أعرفكم أيها الإخوة ، الإنجيل الذى بشَّرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا علِّمته من إنسان ، بل بإعلان يسوع المسيح (١) .

وهكذا أخذ شاول — الذى أصبح يدعى بولس بعد دخوله المسيحية — الزمام فى يده ، فهو لم ير المسيح قط ولا سمعه يتكلم ، ولكنه قال بصلة مباشرة بينه وبين المسيح ، صلة أدخلته المسيحية وسكبت فى نفسه تعاليم جديدة . وبهذه الدعوى لم يصر لأحد حق فى أن يناضله فيما ينشره من تعاليم . ما دام يقول إن هذه التعاليم تلقاها مباشرة من السيد المسيح.

وعلى هذا لم يكن لبولس أساتذة تلقى عنهم المسيحية ، فهل كان له زملاء ؟ وهل كان له تلاميذ ؟

نعم كان له زملاء وكان له تلاميذ ، ففى وسط المحنة التى كان يمر بها المسيحيون استخف الطرب المسيحيين عندما رأوا بولس أكبر أعدائهم ينضم إليهم ، وقد تشكك بعضهم فى أمره ولكن برنابا دافع عنه وأحسن تقديمه إلى هؤلاء (٢) وبعد أن أعلن بولس فكره الذى يتنافى مع المسيحية الحقيقية ، نفر منه زملاؤه وتلاميذه كما سنرى فيما بعد ، ولم يبق معه إلا تلميذه لوقا . ويقول عنه بولس « إنه الطبيب الحبيب (٣) » وآمن لوقا برسالة بولس وأخلص لها ولم يعرف من المسيحية سواها . فخدم أستاذه وأحله محلا رفيعاً لا يقل عن مقام عيسى نفسه . وكتب لوقا رسالة أعمال الرسل . ولكنها فى الحقيقة قصة حياة بولس فهى لبولس كإنجيل متى ومرقص للمسيح . كلها وصف لأعماله وإشادة بمعجزاته . وكتب

---

(١) غلاطية ١ : ١١ — ١٢ .
(٢) اعمال ٩ : ٢٦ — ٢٧ .
(٣) كولوسى ٤ : ١٤ .

لوقا إنجيله فأفرغ فيه أفكار أستاذه ، وهكذا تبادل بولس ولوقا المدح والمنفعة فأصبح لوقا فى الصف الأول إذ أصبح من كتبة الأناجيل مع أنه هو وأستاذه لم يريا عيسى قط . وأصبح « الطبيب الحبيب » . وكافأ لوقا أستاذه على احتفائه به فأصبح خير داعية لأفكار بولس . واختلطت أفكار بولس ولوقا حتى قال القديس ترتليانوس أسقف قرطاجة : إن إنجيل لوقا ينسب كله إلى بولس (١) .

بولس يدعو لمذهبه ويهاجم سواه :

وقد سبق أن تكلمنا عن الاضطهادات التى واجهت المسيحية منذ عهدها الأول ، تلك الاضطهادات التى كان عيسى نفسه ضحيتها . وقد استمرت الاضطهادات بعد عيسى فأحاقت بحوارييه وأتباعه . وكان من أسباب ذلك أن فنيت المسيحية أو أوشكت . ويقول Perry : وبعد صلب المسيح ذاب أتباعه واختفت دعوته ولم يعد أحد يسمع شيئا عن هذه الدعوة (٢) .

وفى خلال هذا الظلام الحالك ظهر بولس ، وأحاط نفسه بالضمانات التى سبق أن أوردناها ، فلم يقيد نفسه بما تلقاه غيره عن عيسى **بل راح يقول فى صراحة إنه الوحيد الذى أؤتمن على المسيحية الصحيحة (٣) وعلى إنجيل مجد الله المبارك . (٤) . وأن كل ما يخالف ما يقول به من تعاليم ، كلام باطل دنس ، مخالف للعلم ، كاذب الاسم ، يتظاهر به قوم زاغوا عن الإيمان ، ولهذا يجب الإعراض عن مثل هذا الكلام (٥) .**

يا لله !! كيف جاز لمعلم دينى أن يصف زملاءه بهذه الأوصاف ؟

وراح بولس يعلن ديانة استمد لها عناصر من الثقافات الأجنبية التى كان بولس على علم واسع بها . يقول Wells « وقد أوتى بولس قوة

---

(١) الاب بولس الياس : يسوع المسيح ص ٢١ .
(٢) Religions of the World p. 89.
(٣) تيطس ١ : ٣ .
(٤) تيموثاوس الاولى ١ : ١١ .
(٥) تيموثاوس الاولى ٦ : ٢٠ — ٢١ .

عقلية عظيمة ،كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية : فتراه على علم عظـيم باليهـودية والميثرائية وديانة ذلك الزمـان التى تعتنقهـا الإسكندرية • فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكراتهم ومصطلح تعبيرهم • ولم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها ، وهى فكرة « ملكوت السموات » **ولكنه علّم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قرباناً ويصلب تـكفيراً عن خطيئة البشر ، فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة فى أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية (١) »** •

الفرق بين المسـيحيتين :

يقول Wells فى مكان آخر (٢) :

من الراجح جداً أن بولس تأثر بالمثرائية ، إذ هو يسـتعمل عبارات قريبة الشبه بالعبارات المثرائية ، ويتضـح لكل من يقرأ « رسـائله » المتنوعة جنباً إلى جنب مع الأناجيل ، أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نـُسِبَ لعيسى من أقوال وتعليم ، ألا وهى فـكرة الشخص الضحية الذى يـُقـَدَّم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة ، فما بشـّر به عيسى كان ميلاداً جديدا للروح الإنسانية ، أما ما بشـّر به بولس فكان الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح وسـفك الدماء طلباً لاسـترضاء الآلهة ، كان عيسى فى نظره حمل عيد الفصـح ، تلك الضـحية البشرية المأثورة المبرأة من الدنس أو الخطيئة •

ولا زلنا على ذكر بما نقلناه من قبل عن Berry الذى يكرر عـدة مرات أن المسيحية الحالية مسيحية بولس ، وأنها ديانته ، وهو مـُنشئها ، ولعل من الخير أن نعيد هنا عدة سـطور مما سـبق أن أوردناه ، ليكون موضوعنا أكثر وضوحا ، يقول Berry « وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبداً ولكن شاءول كوّن المسيحية على حساب عيسى • فشاءول هو

(١) A Short History of the World pp. 178 - 179.

(٢) Outline of History Vol. 3. p. 696.

فى الحقيقة مؤسس المسيحية ، وقد أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود ، كما أدخل صورا من فلسفة الإغريق ليجذب أتباعا له من اليونان ، فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد Lord استطاع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة ، وهذه الاصطلاحات التى قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق وبخاصة Cybele and Mithras فانحاز أتباع هذه الفرق إلى ديانة بولس ، وعمد كذلك — ليرضى المثقفين اليونان — فاستعار من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف Philo فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة The Loges أو ابن الإله The Son of God أو الروح القدس «The Holy Ghost» »[1]

ابتكارات بولس فى المسيحية :

ونبرز هنا بإيجاز نقاطا كبيرة الأهمية **كانت عماد ديانة بولس بسطنا** القول فى بعضها من قبل وسنعود إلى البعض الآخر بالشرح والتفصيل فيما بعد ، وهذه النقاط التى ابتدعها بولس هى :

١ — أن المسيحية ليست دينا لبنى إسرائيل فقط ، بل هى دين عالمى

٢ — التثليث ويتبع ذلك ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس .

٣ — كوْن عيسى ابن الله ونزوله ليضحى بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر .

٤ — قيامة عيسى من الأموات وصعوده ليجلس على يمين أبيه كما كان من قبل ليحكم ويدين البشر .

ولعل الموضوع الأول وهو كون المسيحية دينا عالميا كان نقطة التحول فى تاريخ هذه الديانة ، ولاشك أن بولس هو أول من قال بعالمية المسيحية ، وأفاض فى شرحها فى رسائله [2] **واعترف « أن هذه النعمة أعطيت له وهو أصغر القديسين دونهم جميعاً** ليبشر بها بين الأمم ولينير الجميع

(١) Religions of the World p. 70.

(٢) انظر رومية ١ : ٥ ، ١٤ — ١٦ و ٢ : ٢٥ — ٢٩ وكورنثوس الاولى ١٣ وغلاطية ٣ : ٢٦ — ٢٩ وافسس ٢ : ١٢ وما بعدها و ٣ : ٨ وكولوسى ٣ : ١١ .

فى ما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور [١] » ويعترف الكتاب المسيحيون أن الحواريين وتلاميذ المسيح الأول لم يفهموا هذه الحقيقة حتى اكتشفتها عبقرية بولس يقول William Pataun ما نصه « ولم يفقه التلاميذ الأولون فى بادىء الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت ، ولكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت إلى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية وعرف أنها لليهودى والأممى والبربرى والذكر والأنثى على السواء دون تفريق أو تمييز [٢] « **ومن الواضح للذى يقرأ رسائل بولس أن بولس لم يورد دليلا واحدا ولا كلمة واحدة تنسب إلى عيسى عن عالمية المسيحية ، وإنما كان تدليله على هذه العالمية من كلامه هو ومن بنات أفكاره ، شأنه فى ذلك شأن التدليل على عدم ضرورة الختان وعلى كثير من التعاليم** [٣] .

وقد قلنا آنفاً إن عالمية المسيحية كانت نقطة التحول فى تاريخ هذه الديانة ، وذلك لأن **فَتْحَ باب هذه الديانة لجميع العناصر ألزم بولس أن يُدْخِلَ على ديانته تعليمات أخرى تزيل الهوّة بين ديانات بنى إسرائيل وأفكار الأمم المختلفة الذى فُتِحَ لهم باب المسيحية ،** وبخاصة الوثنيون الأوربيون واليونانيون ، وأتباع ديانة متراس وغيرهم ، ولهذا قال بولس بالتثليث وبنزول عيسى ليُكَفِّر بنفسه عن خطيئة البشر ، وبعدم ضرورة الختان . وغير ذلك من العقائد والشعائر التى لها صلة بديانات هذه الأمم واتجاهاتها ، فتدفق الغربيون لذلك على دين بولس بينما نفر منه الشرقيون ، وكان هذا سبباً فى نقل المسيحية من دين شرقى إلى دين **غربى تقريباً .**

بولس يسترضى السادة :

وعمدت مهارة بولس إلى إرضاء طبقة السادة والطبقة الحاكمة فجعل

---

(١) افسس ٣ : ٨ — ٩ .
(٢) Christianity ضمن كتاب « اديان العالم الكبرى » ترجمة حبيب سعيد ص ١١٧ .
(٣) انظر رسالة بولس الى اهل رومية ٥ : ١٢ وما بعدها و ٩ : ٧ وما بعدها .

طاعتهم دينا كإطاعة المسيح ، قال للعبيد « أيها العبيد أطيعوا سيادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدعة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس [١] » ويقول فى رسالة أخرى « جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقين كل إكرام لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه [٢] » ويكتب إلى تلميذه تيطس « ذكّرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ويطيعوا [٣] » .

تحــــــول :

وعلى هذا شهد العقد الرابع والخامس من الميلاد المسيحى دين عيسى وهو يذبل ، وتفنى بعض مراجعه ويختفى البعض الآخر ، ويتشتت أتباعه ويخبو ريحه ، كما شهد هذان العقدان دينَ بولس وهو ينبثق باسم المسيحية ، وتوضع له المراجع فى صورة أناجيل ورسائل ، وتُحدّد قواعده وأركانه وتنهال عليه الجماهير ، ويبدو أن أتباع بولس وجدوا أحياناً لونا من التسامح وبخاصة من الطبقة الحاكمة التى لم تجد فى اتجاه بولس ما وجدته فى اتجاه عيسى من عنصرية ، ومن حثٍّ على عدم شغل الوظائف ، وعدم الخدمة العسكرية وغيرها مما يثير الحكم ، فقلّ اضطهاد الحكام لهم من أجل ذلك .

وهنا نعود إلى السؤال الذى سبق أن أوردناه ، وهو الحديث عن زملاء بولس وتلاميذه فنتساءل مرة أخرى :

ما موقف الحواريين وأتباع عيسى الحقيقيين من أفكار بولس ؟

الجواب على ذلك أن صراعاً ضخماً قام بين بولس وأنصاره من جانب وبين المسيحيين الحقيقيين من جانب آخر ، وقد طال مدى هذا الصراع ،

---

(١) افسس ٦ : ٥ — ٧ .
(٢) تيموثاوس الاول ٦ : ١ .
(٣) تيطس ٣ : ١ .

وامتد قروناً بعد وفاة بولس ، ونتائج هذا الصراع كانت مطابقـة للمنطق *والعقل ، ففى جانب بولس كانت قلة محدودة جدا من المثقفين المسيحيين ،* وكثرة ساحقة من الجماهير وكان جانب المسيحيين الحقيقيين بالعكس أى كان معهم جماهير المثقفين وقلة من العامة ، أما الطبقة الحاكمة فقد كانت ميولهـا (its Sympathy) فى جانب بولس وأتباعه ، وابتداء من مطلـع القرن الرابع برزت هذه الميول وأصبحت تأييداً صريحاً لاتجاهات بولس، وإلزاماً للناس باتباعها كما سيأتى إيضاحه فيما بعد •

ذلك موجز هذا الصراع ولكن لدينا إيضاحات ذات بال عن هـذا الصراع وعن دور بولس نفسه فيه ، وتلك الايضاحات مأخوذة من كلام بولس ، فالذى يطالع رسائل بولس إلى الفيلبيين والكولوسيين والغلاطيين ورسالته إلى تيموثاوس ورسالته إلى تيطس يجد من ذلك الشىء الكثير ، ويجد شيئا آخر مهما هو سلوك بولس مع مخالفيه فى الرأى وتحقيره لهم وإغراؤه بهم ، ونحن هنا سننقل صورة سريعة لهذا الصراع من هـذه الأقـــوال •

لقد أشرنا آنفاً إلى أن أفكار بولس انتشرت فى الغرب بين الوثنيين واليونان أكثر من انتشارها فى الشرق الذى هو مشرق النبوات السماوية التى كانت الوحدانية فى قمة تعاليمها ، وقد وضّح بولس نفور الشرق من تعاليمه بكلمات صريحة حيث قال فى رسالته إلى تلميذه تيموثاوس « أنت تعلم أن جميع الذين فى آسيا ارتدوا عنى [1] » •

بولس يستغيث بعد أن انفض أغلب المسيحين عنه :

وانفضّ أكثر أنصار بولس عنـه ، وهو يكتب بهـذا إلى تلميذه تيموثاوس فى نفس الرسالة السابقة فيقول : « بادر أن تجىء إلىّ سريعا لان ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تسـالونيكى ،

---

(١) تيموثاوس الثانية ١ : ١٥ .

وكريسكيس ذهب إلى غلاطية وتيطس إلى دلماطية• لوقا وحده معى• اسكندر النحاس أظهر لى شروراً كثيرة ليجازه الرب حسب أعماله فاحتفظ منه أنت أيضاً لأنه قاوم أقوالنا جداً • فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى بل الجميع تركونى [1] » •

وقد ذكرنا من قبل أن برنابا هو الذى أيَّد بولس وقدمه للمسيحيين حينما نفر هؤلاء منه فى أول عهده بادعاء المسيحية ، ولكن برنابا عاد فتخلى عن بولس بعد أن ظهرت اتجاهاته ، وفى ذلك يقول بولس : « حتى إن برنابا أيضاً انقاد إلى رياء الآخرين » [2] :

وهكذا انفضَّت آسيا وانفض الحواريون والمثقفون المسيحيون من حول بولس وتركوه وحده أو مع قلة قليلة ممن لم يعرفوا من المسيحية إلا آراءه مثل مريده لوقا وقليلين من أمثاله ، فماذا كان موقف بولس من هؤلاء الذين ارتدوا عنه ؟

هجوم بولس على معارضيه :

والجواب على ذلك عجيب للغاية ، فقد كان بولس قاسياً عليهم ، حقوداً ، محقِّراً شأنهم مُغْرِياً بهم ، وهاك رسالتيه إلى تيموثاوس ، كلتاهما هجوم وحقد وإغراء وتحقير ، ونحن نقتبس منهما ومن غيرهما من الرسائل نماذج تصور لنا موقف بولس من المسيحيين الآخرين :

كتب إلى مريده تيموثاوس يقول :

طلبت إليك أن تمكث فى إفسس إذ كنتُ أنا ذاهباً إلى مكدونية لكى توصى قوماً ألا يعلِّموا تعليما آخر ، ولا يصيخوا إلى خرافات وأنساب لا حدَّ لها تسبب مباحثات دون بنيان الله الذى فى الإيمان ، وأما غاية الوصية فهى المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء ، الأمور

---

(١) تيموثاوس الثانية ٤ : ٩ — ١٦ •
(٢) غلاطية ٢ : ١٣ •

التى إذ زاغ قوم عنها انحرفوا إلى كلام باطل يريدون أن يكونوا معلمى الناموس وهم لا يفهمون ما يقولون ولا ما يقررونه [١] .

ويقـــول له فى موضع آخـــر :

إن كان أحد يعلم تعليما آخر فقد تصلف وهو لا يفهم شـيئاً . بل هو متعلل بمباحثات ومماحكات الكلام التى منها يحصل الحسد والخصام والافتراء والظنون الردية ، ومنـــازعات أناس فاســدى الذهن وعادمى الحق يظنون أن التقوى تجارة . تجنب مثل هؤلاء [٢] .

ويختم بولس هذه الرسالة بقــوله :

ياتيموثاوس ، احفظ ، الوديعة ، معرضا عن الكلام الباطل الدنس ، ومخالفات العلم الكاذب الاسم الذى إذْ تظاهر به قوم زاغوا من جهــة الإيمـــــان [٣] .

وفى رسالته الثانية لتيموثاوس يقول له :

والمباحثات الغبية والسخيفة اجْتنبْها عالما أنها تولد خصومات[٤].

وفى رسالته إلى الفلبيين يقول :

أرجو فى الرب يسوع أن أرسل لكم سريعا تيموثاوس لــكى تطيب نفسى إذا عرفت أحوالكم ، لأن ليس لى أحد" آخر نظـير نفسى يهتــم بأحوالكم بإخلاص ، إذ الجميع يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو ليسوع المســيح [٥] .

---

(١) تيموثاوس الاولى ١ : ٣ — ٧ .
(٢) تيموثاوس الاولى ٦ : ٣ — ٥ .
(٣) المرجع السابق ٦ : ٢٠ — ٢٤ .
(٤) ٢ : ٢٣ .
(٥) رسالة الى فيلبى ٢ : ١٩ — ٣١ .

وفى رسالته إلى تيطس يقول :

يجب أن يكون الأسقف ملازماً للكلمة الصادقة التى بحسب التعليم لكى يكون قادراً أن يعظ بالتعليم الصحيح ويوبّخ المناقضين ، فإنه يوجد كثيرون متمردون يتكلمون بالباطل ويدعون العقول ولا سيما الذين يقولون بالختان الذين يجب سدّ أفواههم ، فإنهم يقلبون بيوتاً بجملتها ، معلّمين ما لا يجب من أجل الربح القبيح (١) .

وفى رسالته الى الكولوسيين يقول :

يسلّم عليكم أرسترخس ومرقس ويسوع المدعُو يُسطُس . هؤلاء هم وحدهم العاملون معى لملكوت الله (٢) .

وتعليقنا على هذه الألفاظ التى ذكرها بولس فى رسائله ضد الحواريين ، هو الدهشة أن تصدر مثل هذه الألفاظ من داعية دينى .

وهجوم يوحنا أيضا على المسيحيين الحقيقيين :

وقد انضم إلى بولس فى هذا الهجوم تلميذه الحبيب لوقا ، وقد سبق الحديث عنه ، وهناك رسائل ثلاثة تنسب إلى يوحنا وفيها هجوم مماثل على مخالفى بولس والذين قاوموا أفكاره ، وأغلب الظن أن هذه الرسائل وضعت باسم يوحنا ولم يكتب يوحنا منها حرفاً واحدا ، وربما ارتفع هذا الظن إلى اليقين لو تعمقنا فى دراسة أسلوب هذه الرسائل وأفكارها وقارناها بأسلوب بولس وأفكاره ، وهذه الدراسة تقودنى للقول بأن رسائل بولس والرسائل المنسوبة إلى يوحنا صدرت من معين واحد ، وأنا أدعو القارىء لمطالعة هذه الرسائل بأناة ، وأغلب الظن أنه سيصل إلى نفس النتيجة .

وعلى كل حال فإن صح هذا التقدير أمكن ضم هذه الرسائل إلى بولس ، وإن لم يصح فيوحنا كان مثل لوقا سار على نهج بولس وتفكيره ، تعال بنا نقتبس من هذه الرسائل نماذج من هجومها على مخالفى بولس .

---

(١) رسالة الى تيطس ١ : ٩ — ١١ .
(٢) رسالة الى الكولوسيين ٤ : ١٠ — ١١ .

فمن رسالته الأولى :

سمعتهم أن ضد المسيح يأتى ، قد صار الآن أضداد للمسيح ، منا خرجوا لكنهم لم يكونوا منا ، لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا ••• من هو الكذاب إلا الذى ينكر أنّ يسوع هو المسيح ، هذا هو ضد المسيح الذى ينكر الأب والابن ، كل من ينكر الابن ليس له الأب أيضاً ، ومن يعترف بالابن فله الأب أيضاً ، احذروا الذين يضلونكم (١) .

ومن رسالته الثانيـــــة :

قد دخل إلى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيســـوع المســـيح آتياً فى الجسد ، هذا هو المضل والضد للمسيح ، انظروا إلى أنفســـكم لئلا نضيِّع ما عملناه ، كل من تعدى ولم يثبت فى تعليم المسيح فليس له الله ، ومن يثبت فى تعليم المسيح فهذا له الأب والابن جميعـــاً ، إن كان أحد يأتيكم ولا يجىء بهذا التعليم فلا تقبلوه فى البيت ، ولا تقولوا له سلام ، لأن من يسلم عليه يشترك فى أعماله الشريرة (٢) .

ومن رسالته الثالثـــــة :

كتبتُ إلى الكنيسة ولكن ديوتريفس لا يقْبلنا ، ومن أجل ذلك إذا جئتُ فسأذكّره بأعماله التى يعملها هاذرا علينا بأقوال خبيثة ، وإذ هو غير مكتف بهذه الأقوال لا يقبل أتباعنا ويمنعهم ويطردهم من الكنيسة(٣)

وبعد ، نريد أن ننتقل إلى موضوع هام جداً ، هو :

---

(١) يوحنا الاولى ٦ : ١٨ وما بعدها .
(٢) يوحنا الثانية ٧ — ١١ .
(٣) يوحنا الثالثة ٩ — ١٠ .

ماذا عمل الحواريون ؟

ما هو موقف المسيحيين الحقيقيين ؟

ما هو هذا التعليم الذى حذر منه بولس ويوحنا ؟

ماذا كتب هؤلاء الذين قال عنهم يوحنا إنهم ينكرون الابن ولا يعترفون بألوهيته ؟

هل يمكن أن هؤلاء جميعاً لم يكتبوا شيئاً ؟ ولم يشرحوا آراءهم ولم يدافعوا عن اعتقاداتهم ؟

الإجابة التى هى يقين لا يحتمل شكاً ، وعلم لا يحتمل ظناً ، أن هؤلاء كتبوا وتكلموا وناضلوا ، وهذا واضح تمام الوضوح من كلام بولس ويوحنا • لكن أين ما كتبوه وأين أحاديثهم وشروحهم ودفاعهم عن آرائهم ؟

الجواب أنه ليس فى أيدينا شىء ، فلا بد أن يكون قد ضاع ودمرته يد الطغيان والغوغاء فى العصور المظلمة كما دمرت إنجيل عيسى ، أو قل إن بعض ما كتبه هؤلاء ربما استطاع أن ينجو من التدمير ، وأخفاه ذووه وتوارثه الأبناء والأحفاد حتى ظهر مجمع نيقية حيث تقرر أن يُختار الكتاب المقدس للمسيحيين فقدمه أصحابه للمجتمعين ، ولكن القائلين بالتوحيد وهم الأغلبية الساحقة بهذا المجمع غلبوا على أمرهم ، وانعقد المجمع بدونهم فى أقلية تقول بألوهية المسيح واتخذت قراراً بذلك كما سنرى فيما بعد وهؤلاء الذين قالوا بألوهية المسيح هم الذين اختاروا من بين الأناجيل والرسائل الموجودة مالا يعارض هذا القرار ، وقضوا على سواها بالفناء كما سنرى عند الكلام عن الكتاب المقدس ، ولم يظهر لنا من الثروة التى قُضِىَ عليها بالدمار إلا إنجيل برنابا ، وقد كُشِف فى القرن الثامن عشر ، وذكر برنابا أنه ألف إنجيله ليرد على الضلالات التى يذيعها بعض الناس ومنهم بولس ، وسيأتى حديث خاص عن برنابا وإنجيله فيما بعد •

ومرت حقبة من الزمن انهزمت فيها مبادىء عيسى وفنى حواريوه • وضاع التراث الفكرى الذى خلفوه أو اختفى ، وتم النصر لأفكار بولس أو رجح النصر ، وبخاصة عندما أيدت القوة الرومانية فى مطلع القرن الرابع هذا الاتجاه وحاربت ما سواه كما سيأتى شرحه ؛ ولكن الحق كله لم يختف ، بل ظل من حين إلى آخر يَبرقُ فتتغشّى العيون التى تكره النور ، وأغلب الظن أن الحق سيكون له النصر فى النهاية ، وسيكون له الفوز فى آخر المطاف • •

بولس ومصادر المسيحية :

سيأتى الحديث فيما بعد عن مصادر المسيحية ، ولكنا هنا نتحدث عن علاقتها ببولس ، وهذه المصادر قسمان قسم يُعْرَفُ بالأسفار التاريخية وذلك يشمل الأناجيل التى وصفت حياة عيسى وتحدثت عن معجزاته وعظاته كما يشمل كذلك رسالة أعمال الرسل التى وصفت حياة الرسل بوجه عام وجهود بولس بوجه خاص ؛ وقسم يعرف بالأسفار التعليمية وهو يشمل الرسائل الأخرى التى توضح تعاليم المسيحية ومبادئها وشعائرها وقوانينها •

وهناك رأى هام سنوضحه عند الحديث عن هذه المصادر ، وإجماله هنا أن هذه المصادر بقسميها من عمل بولس أو من عمل أتباعه وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماء مستعارة غير حقيقية [١] •

وأحب هنا أن أتجه بدراستى اتجاهاً هو إلى العلم أقرب منه إلى الظن وعناصر هذا الاتجاه هى :

١ — الأناجيل والأبحاث التى تعارض اتجاه بولس فنيت إلى الأبد، وفى قمتها إنجيل المسيح ثم ما كتبه الحواريون كما أشرنا سابقاً •

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية جـ ٥ ص ١١٧ •

٢ ــ ما لم تظهر فيه معارضة لأفكار بولس كإنجيل متى وإنجيل مرقص حُفِظَ من أن يسلم إلى الفناء وليس مُسْتَبْعَداً أنه دخله بعض التغيير من أنصار بولس بالحذف أو الزيادة وبخاصة عند ترجمته من الآرامية إلى لغات الأمم التى دعاها بولس للمسيحية •

٣ ــ أما إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا والرسائل فهى بولسية كلها أى منسوبة الى بولس وأتباعه بلا شك ، وإذا تذكرنا ما أوردناه آنفاً من التعاون الكامل بين بولس ولوقا ويوحنا أدركنا أن الجمهرة الساحقة من هذه المصادر من عمل بولس وتلاميذه ، فهناك إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا وهناك أربع عشرة رسالة من عمل بولس وثلاث من عمل يوحنا وهناك رؤيا يوحنا ورسالة أعمال الرسل وهى من وضع لوقا ونتيجة ذلك أن الجزء الأكبر ــ إن لم يكن الكل ــ من مصادر المسيحية ذو صلة كبيرة بقلم بولس وجنانه ، ومن وضعه أو من وضع مريديه •

بقى من المصادر رسالة هامة كتبها يعقوب ، وهى طراز وحدها ، وعجيب أن أفلتت من التدمير واستطاعت أن تأخذ مكانها فى العهد الجديد ، والذى يقرأ هذه الرسالة يدرك أنه أمام أسلوب جديد وأفكار جديدة ، ليس بها حديث عن ألوهية المسيح ولا عن أنه نزل ليقدم نفسه فداء لخطيئة البشر ، ولا أنه قام من الأموات وجلس على يمين أبيه ، ولا طَعْن" فى غيره من المسيحيين وإيعاز" بهم ، بل عظة هادئة ، وأمثال سهلة التناول دون صناعة أو زخرفة أو ثورة • ومن قول يعقوب نقتبس السطور التالية :

ــ لايذم بعضكم بعضاً أيها الإخوة • الذى يذم أخاه ويدين أخاه يذم الناموس ويدين الناموس ، واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلّص ويُهلك ، فمن أنت يا من تدين غيرك ؟

ــ هلم الآن أيها القائلون نذهب اليوم أو غدا إلى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح ، أنتم الذين لا تعرفون أمر

الغد ، لأنه ما هى حياتكم ؟ بخار يظهر قليلا ثم يضمحل ، عوض أن تقولوا إن شاء الرب وعشنا نفعل هذا أو ذاك ، وأما الآن فإنكم تفتخرون فى تعظمكم ، كل افتخار مثل هذا ردىء ، فمن يعرف أن يعمل حسنا ولا يعمل فذلك خطية له [1] » .

تلك رسالة فريدة بين رسائل وأناجيل العهد الجديد ، وربما كان فى أصولها الأولى معارضة واضحة لآراء بولس ، ولكن ذلك الشىء اختفى وبقى قائماً جانبُ الوعظ السلبى الهادىء .

والخلاصة الواضحة أن مصادر المسيحية الموجودة الآن هى أو أكثريتها الساحقة من عمل بولس أو من عمل مريديه ، وما سوى ذلك فقليل ، ويبدو أن يداً لعبت بذلك القليل فتركته لا يؤيد ولا يعارض كما رأينا فى رسالة يعقوب وفى إنجيل متى .

بولس والتشريع فى المسيحية :

قلنا آنفاً إن الرسائل تسمى « الأسفار التعليمية » وقد كتب بولس وحدَه أربع عشرة رسالة وهى وحدَها تمثل فى حجمها خمسة أسداس الرسائل جميعاً ، ويمكن القول دون تردد إن رسائل بولس هى وحدها مصدر التشريع فى المسيحية ، وإن التشريعات التى وردت فى الرسائل الأخرى كانت تكراراً وصدى لآراء بولس وتشريعاته .

وعلى هذا لم يكتف بولس بأن يضع مبادىء المسيحية وشعائرها بل شرّع قوانين للمسيحيين يتبعونها فى حياتهم العامة ، فهو الذى أوصى بما نراه اليوم فى الكنائس من التسابيح والأغانى الروحية والمزامير والتراتيل [2] وهو الذى يقول بعدم وجوب الختان ويدلل على ذلك بقوله

---

(١) رسالة يعقوب ٤ : ١١ — ١٧ .
(٢) افسس ٥ : ١٩ .

« دُعِيَ أحد وهو مختون فلا يصير أغلف ، ودعى أحد فى الغرلة فلا يختتن ، ليس الختان شيئاً وليست الغرلة شيئاً بل حفظ وصايا الرب [١] » ويجيز بولس الزواج للأساقفة بقوله : « يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعلَ امرأةٍ واحدة ، وليكن الشمامسة كلٌ بعلَ امرأةٍ واحدة [٢] ويتكلم بولس عن العلاقة بين الزوج والزوجة وعن واجب الزوجة ، ويقرر بوضوح أن الرجل أفضل من المرأة وأنها خلقت من أجله وفيما يلى بعض فقرات من رسائله عن هذا الموضوع :

— أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو رجل ، ورأس المسيح هو الله ... الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده ، وأما المرأة فتغطى رأسها لأنها مجد الرجل ، والرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ، لأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل [٣] .

— أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ، لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضاً هو رأس الكنيسة ، أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة ، وأسلم نفسه لأجلها [٤] » .

— لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً ، ولكن إن كنّ يُردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالمرأة أن تتكلم فى الكنيسة [٥] » .

وينهى بولس عن السرقة والزنا والكذب والسب والسفاهة والطمع والهزل وعبادة الأوثان [٦] .

---

(١) كورنثوس الاولى ٧ : ١٢ — ١٩ .
(٢) تيموثاوس الاولى : الاصحاح الثالث .
(٣) كورنثوس الاولى ١١ : ٣ — ١٠ .
(٤) افسس ٥ : ٢٢ — ٢٤ .
(٥) كورنثوس الاولى ١٤ : ٣٤ — ٣٥ .
(٦) اقرأ رسالته الى الافسيين ٤ : ٢٥ — ٢٩ و ٥ : ٣ — ٥ .

وقبل أن نترك موقف بولس من التشريع نوضح أنه أحيانا كان ينسب آراءه إلى عيسى ، وكان أحيانا يعترف بأنه يشرّع من عنده هو وبرأيه هو ، وفى ذلك يقول : « أما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب ألا تفارق المرأة زوجها ... وأما الباقون فأقول لهم أنا لا الرب .... : وأما العذارى فليس عندى أمر من الرب فيهن ولكنى أعطى رأياً ... » (١) .

بولس والمسيحية :

وبعد هذه الدراسة الموجزة الشاملة نسأل أنفسنا سؤالا مهما هو : ماذا أراد بولس بالمسيحية ؟ لقد أحدث بولس فى المسيحية أحداثاً خطيرة ، نقلها من ديانة إلى بنى إسرائيل إلى ديانة عالمية ، ونقلها من التوحيد إلى التثليث ، وقال بألوهية المسيح وألوهية الروح القدس ، واخترع قصة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر ، وألغى المعالم التى نادى بها عيسى نفسه كالختان وعدم أكل لحم الخنزير ، وفى كلمة واحدة خلق ديناً جديداً كما سبق القول وسلب له كلمة المسيحية فوضعها عليه ، وطمس بذلك الديانة المسيحية الحقيقية . لماذا كل هذا ؟ وماذا أراد بولس بالمسيحية ؟

يرى كثير من الباحثين أن عداوة بولس للمسيحية هى التى دفعته ليتظاهر بالدخول فيها ليستمر فى حربها بسلاح جديد ، سلاح التهديم من الداخل بإفساد معالمها وطمس مظاهرها ومسخها ، فهو قد دخلها فى الظاهر ليأخذ من اعتناقه الظاهرى لها سلاحاً يطعنها به ، ومثل هذا كثير فى تاريخ الأديان ، وفى الإسلام كثيرون من هذا النوع من أشهرهم عبد الله بن سبأ اليهودى الذى تظاهر بالإسلام وأشعل فيه من الثورات ونَشَرَ من المبادىء الفاسدة ما كان يعجز عن عمل جزء قليل منه لو ظلَّ يُعلن يهوديته ، ولكن أفكار عبد الله بن سبأ لم تستطع أن تعيش وتنمو كما عاشت ونمت أفكار بولس ، ذلك لأن القرآن كان محفوظاً ومكتوباً وهو خير حارس للإسلام ، أما إنجيل عيسى فضاع بين طيات الأحداث ،

(١) كورنثوس الاولى الاصحاح السابع الفقرات ١٠ ، ١٢ ، ٢٥ .

فلم يكن للمسيحية عماد يحميها من هذه الصدمات العنيفة التى أنزلها بها أعداء من الداخل وأعداء من الخارج ، فخرت مسيحية عيسى وقامت على أنقاضها مسيحية بولس .

الفاتيكان يعترف :

والعجيب أن الفاتيكان يعترف إلى حد كبير بموقف بولس من المسيحية وعدم حرصه عليها ، فقد جاء فى كتاب نشره الفاتيكان سنة **١٩٦٨ بعنوان « المسيحية عقيدة وعمل » ما يلى :**

كان القديس بولس منذ بدء المسيحية ينصح لحديثى الإيمان أن يحتفظوا بما كانوا عليه من أحوال قبل إيمانهم بيسوع (١) .

وذلك أمر يستدعى الدهشة فليس لإنسان أن يسمح لمؤمن أن يظل على ما كان عليه قبل الإيمان ، ولكن بولس لم يكن يهتم بالمسيحية ، وكان تشويهها وتدميرها هدفا من أهدافه .

---

(١) المسيحية عقيدة وعمل نسخة الفاتيكان ص ٥٠ .

المسيحية فى نظر المســـيحيين

بعد هذا البيان الشامل الذى أوردناه عن بولس نستطيع أن نعود إلى أسس العقيدة المسيحية اليوم وهى :

١ — التثليث .

٢ — تجسد الابن وظهوره بمظهر البشر ليصلب تكفيراً للخطيئـــه التى ارتكبها أبو البشر .

٣ — أن الإله الأب (١) ترك للإله الابن حساب الناس على خطاياهم، فالإله الابن — لأنه حيناً ظهر بمظهر الإنسان — أقرب لفهم بنى الإنسان

وهناك عبارة دقيقة للمؤرخ الشهير Wells تستنكر كل هذه المبادىء وما سيأتى ذكره من شعائر ، وترى أنها جميعاً موضوعة ولا سند لها من الأناجيل ، ويجدر بنـــا أن نورد عبـــارة Wells هنا لأنها مرتبطة بـــكل المبادىء والشعائر ، ولنذكرها إجمالا قبل أن نتحدث عن كل من هذه المبادىء على حدة ، يقول Wells **من العسير أن تجد أية كلمة تنسب فعلا إلى عيسى ذكر فيها مبادىء الكفّارة ، أو الفداء ، أو حضّ فيهـــا أتباعه على تقديم القرابين أو اصطناع عشاء ربانى (٢) .**

---

(١) الآب بمد الهمزة فى اللغة السريانية معنـــاه الله ولكن النصـــارى عندما ترجموا العهد الجديد للغة العربية ابقوا المدة مع ان مقصودهم ما يقابل الابن ، ولتصحيحها ينبغى أن تكتب من غير مد (اقرأ الانجيل والصليب لعبد الاحد داود ص ٨ بالهامش) .

(٢) Outline of History Vol. I. p. 982.

وسنعطى بعض التفاصيل عن أسس هذه العقيدة :

١ — التثليث فى المسيحية :

نستميح القارىء العفو إذا صدرنا حديثنا عن التثليث بخرافة ننقلها من مسيحى واسع الاطلاع ، مفروض فيه عمق الفكر ودقة التعبير ولكنها موضوعات المسيحية يزل فيها كل مسيحى يريد أن يتمسك بها ويعلل لها ، والاقتباس الذى ننقله فيما يلى هو حديث عن « سر الثالوث » وهاك نصه :

« من الناس مَنْ يقولون : لم يا ترى إله واحد فى ثلاثة أقانيم ؟ أليس فى تعدد الأقانيم انتقاص لِقَدْر الله ؟ وأليس من الأفضل أن يقال : الله أحد وحسب ؟

« لكننا إذا اطلعنا على كنه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث ، وكنه الله محبة (يوحنا الأولى ٤ : ١٦) ولا يمكن إلا أن يكون محبة ، ليكون الله سعيداً ، فالمحبة هى مصدر سعادة الله ، ومن طبع المحبة أن تفيض وتنتشر على شخص آخر فيضان الماء وانتشار النور ، فهى إذن تفترض شخصين على الأقل يتحابان ، وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما . وليكون الله سعيداً — ولا معنى لإله غير سعيد وإلا انتفت عنه الألوهية — كان عليه أن يهب ذاته شخصاً آخر يجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، ويكون بالتالى صورة ناطقة له ، ولهذا وَلَدَ اللهُ الابن منذ الأزل نتيجة لحبه إياه ، ووهبه ذاته ، ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، وبادل الابنُ الأبَ هذه المحبة وَوجد فيه هو أيضاً سعادته ومنتهى رغباته . وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الأب والابن كانت الروح القدس . هو الحب إذاً يجعل الله ثالوثاً وواحداً معاً .

« ولا يصح أن يكون هذا الكائن الذى حبس اللهُ الأبُ محبته عليه إلا الابن ، ولو كان غير الابن ، ولو كان خليقة محدودة ، بشراً أو ملاكاً

واحدة ، قد يكون ذلك هو الطبيعى ، ولكن الواقع غير ذلك ، الواقع أن التثليث كجملة ظهر أولا عند المسيحيين ، أخذوه من الثقافات المحيطة بهم ، تلك الثقافات التى أثّرت على مسيحية بولس ونقلتها — كما سيأتى — إلى عبادة ثالوث مقدس ، فأصبحت هذه الحقيقة مسلما بها ، وأصبح الاتجاه العام وبخاصة بين الجماهير هو الإيمان بثالوث مقدس قريب الشبه بالثالوث الذى كانوا يؤمنون به قبل أن يدخلوا المسيحية .

ولكن الإيمان بهذا الثالوث خلق لهم مشكلة ، تلك هى محاولة التوفيق بين الوحدانية التى هى سمة الأديان السماوية ، والتى قالت بها التوراة بصراحة وبين القول بعبادة الثالوث ، وحينئذ جد جدهم ، وجندوا جنودهم ، وأعملوا عقولهم وقالوا كلاما يوفقون به بين الوحدانية والتثليث ، لكنهم عندما قالوا ذلك لم يكونوا يقتنعون به ، وصرحوا بعدم اقتناعهم أحيانا كما سيأتى . ولكن على كل حال لم يكن بد من الاستمرار فى القول بالتثليث وافق العقل أو لم يوافقه . وعندما ثبت القول بالتثليث بدأت المرحلة الثانية ، مرحلة البحث عن أفراد هذا الثالوث .

وكان من اللازم — فى البحث عن هذا الثالوث — أن يكون الله جل جلاله الإله الأول فى هذا الثالوث ، ذلك لأن المسيحية ديانة سماوية الأصل وهى وليدة اليهودية ، والتوراة كتاب مقدس عند المسيحيين وهى تقول بالوحدانية وقد أشاد عيسى بالله وأفاض فى الثناء عليه وكل هذا جعل من اللازم الاعتراف بالله ، وبدأ المسيحيون بعد هذا يبحثون عن الإلهين الآخرين ، فقالوا بألوهية المسيح فأصبح ثانى الآلهة ، ثم قالوا بألوهية الروح القدس لأنهم كانوا يريدون أن يدعوا الصلة بالله وتلقى العلم منه ، فقالوا بألوهية الروح القدس ، وأنه ينزل عليهم ويمتلئون به ، ويعرفون بواسطته مالا يعرف البشر ، فأصبح الروح القدس بذلك ثالث الآلهة ، وتم بذلك الثالوث الذى يريدون .

وسنتبع فى دراستنا نفس الخطوات التاريخية التى مرّ بها المسيحيون للأخذ بهذه العقيدة فنتكلم أولا عن عقيدة التثليث ومحاولتهم إثباتها ، ثم نتتبّعهم وهم يبحثون عن أفراد هذا الثالوث،فيحاولون إثبات ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس •

تعدد الالهة وعقيدة التثليث :

أما موضوع تعدد الآلهة فموضوع يكاد يكون عاماً فى جميع الثقافات القديمة ، قال به المصريون القدماء ، وقال به الأشوريون والبابليون والفرس والهنود والصينيون واليونان على اختلاف فى عدد الآلهه ومكانتهم واختلافٍ فى تصور صلة الآلهةِ بعضهم ببعض ، أو صلتهم بالبشر [1] •

أما التثليث فلعله كان تحديداً لهذا التعدد الذى يُولغ فيه أحياناً ، ويمكن القول بأن تحديد الآلهة بثلاثة عمل له صلة بعبادة الأبطال ، تلك العبادة التى بدأت منذ فجر التاريخ والتى لا يزال لها بقايا فى عالمنا الحاضر [2] وارتباط التثليث بعبادة الأبطال مرجعه أن الجماهير كانت تعبد البطل لعمل رائع قام به ، ثم يتخذ البطل له زوجة فتحتل معه مكان الألوهية ، وتسجدُ لهما الجماهير ، وينجب الزوجان ، ثم يعيّن البطلُ أحد أبنائه ليتولى مكانه فيما بعد • فتسجد له الجماهير أيضا ، ويتمّ بذلك الثالوث •

تلك هى الفكرة الأولى للتثليث ، ثم انطلق التثليث فلم يعد يتقيد بهذه الفكرة ، وأصبح الثالوث معبوداً معروفا لكثير من الأمم •

ولعل البابليين هم أول من قال بالثالوث وذلك فى الألف الرابع قبل

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة للدكتور ابراهيم مدكور ص ٦ — ١٩ •
(٢) انظر الابطال وعبادة البطولة لكارليل فى أمكنة متعددة •

الميلاد ، فقد كان البابليون يدينون بتعدد الآلهة ، ولكنهم نظموا هؤلاء الآلهة أثلاثاً أى جعلوها مجموعات متميزة المكانة والقدر ، كل مجموعة ثلاثة ، فكانت المجموعة الأولى على رأس الآلهة وتتكون هذه المجموعة من إله السماء ، فإله الأرض ، فإله البحر ، أما المجموعة الثانية فإله القمر وإله الشمس وإله العدالة والتشريع ... (١)

وبينما كان البابليون يقولون بالتثليث كان المصريون والإسرائيليون — والطائفتان أعرق فى الحضارة الدينية من البابليين — يقولون بالتوحيد (٢) ومن نشيد آمون : « الإله الجليل سيد الآلهة أجمعين ، الإله الأكبر الذى يحيا بالحق ، الواحد الفرد الذى صنع كل ما هو موجود » .

ووقفت حضارات أخرى أقدم جداً من المسيحية بين بين ، بين التعدد الذى قال به البابليون وبين التوحيد الذى قال به المصريون والإسرائيليون فظهرت بدعة التعدد فى وحدة والوحدة فى تعدد ، وقد قال بها الهنود قبل المسيح بأكثر من ألف عام ، فقد كان عندهم « براهما » و « فشنو » و « سيفا » وكانوا يعدونها ثلاثة جوانب لإله واحد أو كانوا يعدون « براهما » إلها واحدا له ثلاثة أقانيم ، فهو « براهما » من حيث هو موجود ، وهو « فشنو » من حيث هو حافظ ، وهو « سيفا » من حيث هو مهلك (٣) .

واتجهت مدرسة الإسكندرية نفس الاتجاه ، يقول Wells : وبعد الفتح الإغريقى أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً لحياة مصر الدينية ، بل أصبحت فى الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهلينى كافة ،

---

(١) الدكتور ابراهيم مدكور : تاريخ الفلسفة ص ٦ .
(٢) القول بالتوحيد هنا لا يتناقض مع ما ذكرناه عن المصريين من قبل من القول بتعدد الالهة ، اذ ان هناك تعددا ولكن هناك كبير الالهة .
(٣) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٤٨ .

فأقام بطليموس الأول معبداً عظيما هو معبد السرابيوم كان يُعْبد فيه نوع ما من ثالوث الأرباب مكوَّن من أوزيريس وإيزيس وحورس ، ولم يكن الناس يعدُّونها أربابا منفصلة بل هيئات ثلاثا لإله واحد (١) .

عـــودة الى التثليث فى المسيحية :

لقد سِرْنا مع عقيدة التثليث منذ العهد البدائى ، منذ عبادة الأبطال حتى مدرسة الإسكندرية التى قامت عقب إنشاء مدينة الإسكندرية سنة ٣٣١ ق م وورثت حضارات مختلفة وقام بها علماء مصريون وساميون ويونان ورومان ، وعرفت اليهودية طريقها إليها ، كما انسابت إليها أفكار وثنية كثيرة ، وقد استمرت المدرسة تباشر مكانتها الثقافية حتى ميلاد المسيح وبعد ميلاد المسيح ، ومن أشهر علمائها « أفلوطين ٢٠٥ — ٢٧٠ م » وعلى يده كان تجديد مذهب أفلاطون حتى عُرف مذهب أفلاطون بالأفلاطونية الحديثة ، وخلاصة مذهب أفلوطين أن فى قمة الوجود ، يوجد « **الواحد** » أو « **الأول** » وهو جوهر كامل فياض ، وفيضه يُحدث شيئا غيره هو « **العقل** » وهو شبيه به وهو كذلك مبدأ الوجود ، وهو يفيض بدوره فيحدث صورة منه هى « **النفس** » وتفيض النفس فتصدر عنها الكواكب والبشر (١) . أو بعبارة سهلة موجزة ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة : (الواحد — العقل — النفس) .

كيف انتقلت هذه الأفكار إلى المسيحية ؟ .

الجواب على ذلك سهل يسير ، فقد مرت بالمسيحية عهود ضعف واضطهاد تحدثنا عنها فيما سبق ، وطبيعة هذه الهزائم أضعفت المقاومة ، وقضت أن يستتر المسيحيون ، أو على الأقل يكتموا تدينهم بين اضلاعهم فلا يعرفه أحد ، وامتد الاضطهاد إلى إنجيل عيسى فالتهمة وقضى عليه ،

---

(١) الدكتور ابراهيم مدكور : تاريخ الفلسفة ص ٦٥ .

وهكذا فقدت المسيحية كثيراً من رجالها فى قمتهم المسيح نفسه ، وفقدت أكثر مراجعها الأصلية ، فأصبح مصدر المسيحية واهناً أو معدوما .

ودخل بولس المسيحية كما سبق وكان عارفا بالفلسفة الإغريقية التى تمثلها مدرسة الإسكندرية ووجد بولس الميدان خاليا ، واستخف الطرب بعض المسيحيين لأن بولس عدو المسيحية اللدود قد انتسب إليها، وبدأ بولس يضع البذور التى نقل بها المسيحية من الوحدانية إلى التثليث (١) ووافقت فكرة التثليث الجماهير ، وكانت الجماهير قد نفرت من اليهودية لتعصبها ، ومن الوثنية لبدائيتها ، فوجدت فى الدين الجديد ملجأ لها وبخاصة أنه أصبح غير بعيد عن معارفهم السابقة التى ألفوها وورثوها عن آبائهم وأجدادهم .

ولم يُقفل هذا الباب بعد بولس بل ظل مفتوحا ، واستطاع بعض أتباع بولس أن يصيروا من آباء الكنيسة وذوى الرأى فيها . وتمَّ امتزاج تقريبا بين آراء مدرسة الإسكندرية وبين المسيحية الجديدة ، ويقول ليون جوتيه Gauthier : « إن المسيحية تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية اليونانية ، فاللاهوت المسيحى مقتبس من المعين الذى صبَّت فيه الأفلاطونية الحديثة ، ولذا نجد بينهما مشابهات كثيرة (٢) .

والآن بعد القول بالثالوث بقى على المسيحيين أن يجدوا حلا للأمور الآتية :

١ — ما الطريق للتوفيق بين التوراة التى تقول بالوحدانية والتى يقدسها المسيحيون ، وبين التثليث الذى اعتنقه المسيحيون ؟

٢ — ما وظيفة كل من أفراد هذا الثالوث ؟

---

(١) انظر اعمال الرسل الاصحاح التاسع .
(٢) المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية ص ٩٣ .

٣ — كيف يتم فهم « وحدة فى تثليث ، وتثليث فى وحدة ؟ »

٤ — يقولون الابن مولود غير مخلوق ، والابن ليس أحدث من الأب • فما معنى هذا ؟

لقد حاولتُ جهدى أن أصل إلى جواب لهذه الأسئلة عن طريق القراءة أو المحادثة مع المسيحيين ، ولكنى أقرر أننى لم أستطع فهم إجاباتهم ، بل صرح كثير منهم — كما سيرد فى كتاباتهم — أن هذه المسائلَ مسائلُ اعتقاد لا فهم • فاعترضت بأنها مسائل أساسية ، وهى المدخل للدين فكيف لا تُفهم ؟ ولكنى لم أتلق جواباً على اعتراضى ، واتَّبع بعضهم التعبيرات الإنشائية التى لا توضِّح مقصوداً • كقول بعضهم « المحبة السرية التى بين المسيح والله » وقول الآخر « كل ثروات الولاء والتعبد اختزنت فى فكر يسوع المسيح عوناً على فهم حقيقة الله ••• » وغير ذلك مما سيرد فيما بعد ، ولذلك فمن الخير أن أنقل للقارىء هذه الأقوال كاملة ليرى فيها رأيه :

١ — يقول الدكتور يوسف بوست فى قاموس الكتاب المقدس (١) : طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الأب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن ، وإلى الابن الفداء وإلى الروح القدس التطهير ، غير أن الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال الالهية على السواء •

٢ — ويقول William Patoun ، إذا أردنا أن نفهم طبيعة الله فى المسيحية ، فهناك نراه : الله الذى عاش معه يسوع فى صلة وثيقة لا تنفصم عراها ، صلة الابن بالأب ، وكل ثروات الولاء والتعبد التى خلّفها كتّاب العهد القديم ، كلها اختزنت فى فكر يسوع المسيح عوناً لنا على فهم حقيقة الله ، فهو الإله الذى تفوق قداسته كل تصورات الإنسان

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ١٦ •

عيناه أطهرا من أن تريا الشر ، هو خالق البشر والمسيطر على العالم ، هو الأب ، ويحمل هذا اللقب كل معانى العطف والمودة والحنان .

. . . .

ويسوع يعلن الأب لا فى كلمات ينطق بها فقط ، بل فى حياته وشخصه وبينه وبين الأب علاقة سرية متينة الأواصر لم يستطع تلاميذه أن يتقصوا إلى مكنوناتها « أنا فى الاب والأب فى ، ومن رآنى فقد رأى الأب » فإن رمنا أن نعرف طبيعة الله ، على قدر ما يستطيع الإنسان أن يعرف ، فلا مندوحة عن الرجوع إلى شخص يسوع (١) .

٣ — ويقول القس بولس سباط فى ذلك ما يلى : يرى النصارى أن البارى تعالى جوهر واحد ، موصوف بصفات الكمال ، وله ثلاث خواص ذاتية كشف المسيح عنها القناع وهى الأب والابن وروح القدس ، ويشيرون بالجوهر الذى يسمونه البارى ذا العقل المجرد إلى الأب ، وبالجوهر نفسه الذى يسمونه ذا العقل العاقل ذاته (أى الذى يعقل ذاته) إلى الابن ، وبالجوهر عينه الذى يسمونه ذا العقل المعقول من ذاته إلى روح القدس ، ويريدون بالجوهر ما قام بنفسه مستغنياً عن الظرف (٢) .

٤ — ويقول القس ابراهيم سعيد فى تفسير بشارة لوقا (٣) : يليق أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد « بابن العلى أو ابن الله » فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله ، وإلا لقيل ولد الله ، ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعاً أنهم أبناء الله ، لأن نسبة المسيح لله هى غير نسبة المؤمنين عامة لله ، ولم يقصد بها تفرقة فى المقام من حيث

---

(١) اديان العالم الكبرى ترجمة حبيب سعيد ص ١٠٤ و ١٠٨ .
(٢) المشرع ص ١٣ — ١٤ .
(٣) تفسير بشارة لوقا ص ٦٩ — ٧٠ .

الكبر والصغر ولا الزمنية ولا الجوهر ، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التى بين المسيح والله ، وهى محبة متبادلة ، وما المحبة التى بين الأب والابن الطبيعيين سوى أثر من آثارها وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها ، ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذى حاز رضا الله وأطاع وصاياه ، فقبل الموت ، موت الصليب ، لذلك يقول الله فيه : هذا ابنى الحبيب الذى به سررت ، له اسمعوا . وقد تكررت هذه العبارة عدة مرات مدة خدمة المسيح على الأرض لأنه تمم إرادة الله فى الفداء. ويراد بها إظهار التشابه والتماثل فى الذات وفى الصفات وفى الجوهر ، كما يكون بين الأب والابن الطبيعيين ، فقيل عن المسيح إنه بهاء الله ورسم جوهره ، وقال هو عن نفسه من رآنى فقد رأى الآب ، أنا والآب واحد ، ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شىء الذى منه وبه وله كل الأشياء ، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل .

— ويقول القس بوطر [1] موضحا الثالوث ومبيناً لماذا لم يظهر بوضوح الابن وروح القدس فى التوراة ولا قال بهما اليهود : بعد ما خلق الله العالم ، وتوج خليقته بالانسان لبث حينا من الدهر لا يعلن سوى ما يختص بوحدانيته ، كما يتبين ذلك من التوراة ، على أن المدقق لا يزال يرى بين سطورها إشارات وراء الوحدانية ، لأنك إذا قرأت فيها بإمعان تجد هذه العبارات : « كلمة الله ، أو حكمة الله ، أو روح القدس » ولم يعلم من نزلت إليهم التوراة ما تكنه هذه الكلمات من المعانى لأنه لم يكن قد آن الوقت المعين الذى قصد الله فيه إيضاحها على وجه الكمال والتفصيل ، ومع ذلك فمن يقرأ التوراة فى ضوء الإنجيل يقف على المعنى المراد ، إذ يجدها تشير إلى أقانيم فى اللاهوت . . . ثم لما جاء المسيح إلى العالم أرانا بتعاليمه وأعماله المدونة فى الإنجيل

---

(١) رسالة الاصول والفروع ص ٤٣ — ٤٥ .

أن له نسبة أزلية سرية الى الله تفوق الإدراك ، فهو مسمىً فى أسفار اليهود « كلمة الله » وهى ذات العبارة المعلنة فى التوراة ، ثم لما صعد إلى السماء أرسل روحا ، ليسكن بين المؤمنين وقد تبين أن بهذا الروح أيضاً نسبة أزلية إلى الله فائقة كما للابن ويسمى الروح القدس ، وهى ذات العبارة المعلنة فى التوراة كما ذكرنا ، ومما تقدم نعلم بجلاء أن المسمَّى بكلمة الله والمسمى بروح الله فى نصوص التوراة هما المسيح والروح القدس المذكوران فى الإنجيل ، فما لمَّحت به التوراة صرح به الإنجيل كل التصريح ، وإن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم (١) ، وكل من أنار الله ذهنه وفتح قلبه فى فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر « الكلمة » بمجرد أمر من الله أو قول مفرد ، ولا يفسر « الروح » بالقوى التأثيرية ، بل لابد له أن يعلم أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوية فى الكمالات الإلهية ، ومتميزة فى الاسم والعمل ، والكلمة والروح القدس اثنان منها ، ويُدعى الأقنوم الأول الأب ، ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها ، وأن نسبته للكلمة ليست صورية ، بل شخصية حقيقية ، ويمثل للأفهام محبته القائمة وحكمته الرائعة ، ويُدعى الأقنوم الثانى الكلمة لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية ، وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس ويُدعى أيضاً الابن ، لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة ، والوحدة بينه وبين أبيه وطاعته الكاملة لمشورته ، وللتمييز بين نسبته هو إلى أبيه ونسبة كل الأشياء إليه ، ويُدعى الأقنوم الثالث الروح القدس للدلالة على النسبة بينه وبين الأب والابن ، وعلى عمله فى

---

(١) يرد السيد عبد الاحد داود على دعوى ان الوحدة لاتنافى التثليث بقوله : تدعى الكنيسة ان الثالوث لم يتشكل من ثلاثة آلهة ، ولكنها ما دامت تعترف بوجود نسبة بين الاقانيم ، وان لكل منها صفات وواجبات ليست للاخرين فمعنى هذا هو التغاير وعدم الكمال لكل منها وحده ، وصفة النقص هذه تنافى الالوهية (انظر الانجيل والصليب ص ٩) .

أرواح البشر ، وحثهم على طاعته ، وبناء على ما تقدم يظهر جليا
عبارة الابن لا تشير كما فهم بعضهم خطأ إلى ولادة بشرية ، ولكنها
سرّية فائقة بين أقنوم وآخر فى اللاهوت الواحد ، وإذا أراد أن
منا تلك النسبة لم تكن هناك عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة
حدة فى الذات ، والإبانة للمشورة الإلهية ، وأما مِنْ حيث الولادة
رية فالله منزه عنها ، ولأجل هذه الإيضاحات الجليلة علم خدام
ن المسيحى واللاهوتيون حسب ما قررته الكلمة الإلهية أن فى
وت ثلاثة أقانيم حسب نص الكلمة الأزلية ، ولكل منها عمل خاص
بشر .

ويختم هذا المؤلف شرحه لعقيدة التثليث بقوله : قد فهمنا ذلك على طاقة عقولنا ، ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل حين ف لنا الحجاب عن كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وأما فى ت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية .

وذلك اعتراف هام من المؤلف بأن العقيدة لا يمكن فهمها على نطاق
من هذا ، وهو ينتظر يوم الكشف عن البصائر ليمكن للبصيرة التى
فَ عنها أن تدرك هذا الاعتقاد وتستسيغه ، ونحن ننتظر معه ،
كنا نعتقد أن هذا اليوم لن يجىء ، وأنى يجىء يوم تلتقى فيه
حدانية بالتثليث وتصبح فلسفة الإغريق دينا يُدَّعى أنه نزل من
د الله ؟

والذى قال به القس بوطر قال به أيضا الدكتور الخورى جرجس
رج ، وألفاظه هى :

لا تقل فى قلبك كيف يمكن أن يتجسد الله ويصير إنسانا ، فدع ذلك
من شأنه الخاص (١) .

---

(١) شرح رسالة القديس بولس الى أهل رومية ص ١٣٩ .

ويقول القس وهيب عطا الله : إن التجسد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية ، ولكننا نصدق ونؤمن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولا (١) .

* * *

وبعد ، لقد رأى القارىء الصعوبات الجمة التى نجمت عن القول بالتثليث ، وقد حاول المسيحيون — دون نتيجة — أن يجدوا لها حلا ، وقد طرقوا حلولا كثيرة نعود إلى إيجازها فيما يلى :

١ — التوفيق بين التوحيد فى التوراة والتثليث عندهم ، فقالوا إن التثليث موجود فى التوراة ولكنه غير واضح فوضحه العهد الجديد . وحاولوا أن يدللوا على ذلك كما رأيت آنفا فى كلام القس بوطر . وأحيانا كانوا يدركون أن ما فى التوراة لا يساعدهم على القول بالتثليث وأن مثل ما قال به القس بوطر ظاهر الصنعة ، فكانوا يلجئون الى طريق آخر يوضحه لنا حبيب سعيد بقوله : قد يقال : هل فى نظر المسيحية شىء ما يعدو حدود العهد القديم ، أى دين اليهودية ؟ وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد وجواب جد خطير ألا وهو أننا فى الواقع نشرح العهد القديم فى ضوء العهد الجديد (٢) . وهو بهذا كما ترى يحتّم أن يوجّه العهد القديم وجهة العهد الجديد ، أو قل يجعل الأصل فرعاً والفرع أصلا .

٢ — عكس الحل السابق بأن حاولوا التوفيق بين التثليث عندهم والتوحيد فى التوراة ، فكأنهم سلموا بالتوحيد وراحوا يخضعون اعتقادهم له ، ومن أجل هذا ابتدعوا قولهم « تثليث فى وحدة » وفى ذلك يقول

---

(١) طبيعة السيد المسيح ص ١٨ .
(٢) أديان العالم الكبرى ص ١٠٧ .

يوحنا فى رسالته الأولى : « إن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس ، وهؤلاء الثلاثة هم واحد [١] .

٣ — *الطريق الثالث* الذى لجئوا إليه هو إعلان عدم خضوع مثل هذا الاعتقاد إلى العقل ، فقالوا إن هذا شىء يجب الإيمان به واعتقاده أولا ، وبعد ذلك يجتهد المسيحى فى فهم ما اعتقد ، كما قال بذلك القديس انسليم . ويقول حبيب سعيد . إن الإنسان لن يبلغ هـذا الإيمان عن طريق المطارحات النظرية ، بل بإلهام من الله وإعلان منه [٢] .

٤ — وقد اهتدى قليل منهم إلى الحل الصحيح وهو القول بالتوحيد الخالص وترك القول بالتثليث . وقد كان لهذا الرأى أتباع من المسيحيين على مدى العصور وفى مختلف البلاد . ومن هـؤلاء برنابا وهـو من الحواريين وأريوس المصرى (٣٣٦) وسرفيتوس الأسبانى (١٥٥٣) ومن مشاهير الإنجليز نذكر تشبرى (Cherbury) المتوفى قبيل منتصف القرن السابع عشر وغير هؤلاء مئات أو آلاف من المفكرين المسيحيين ظهروا فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، ولكن صيحة هؤلاء لم تتغلب على ضجيج الكنيسة وقدسيتها ، ولم تصل إلى قلوب العامة والجماهير .

على أن القول بتثليث فى وحدة أى بإله واحد له أقانيم ثلاثة يقود إلى مشكلة أخرى ، هى : كيف خرج أحد هذه الأقانيم الثلاثة ودخل رحم مريم ثم امتزج بالناسوت وأصبح إنساناً فى مظهره ؟ ألا يدل ذلك على تعدد ظاهر ؟ لأن معبود النصارى لو كان واحداً له أقانيم ثلاثة لما أمكن خروج أحد هذه الأقانيم وحده ونزوله إلى الأرض . . . ولقد أدرك القس بولس سباط هذا الاعتراض فراح يقرر أن هذا الأقنوم مع نزوله

---

(١) رسالة يوحنا الاولى : ٥ ، ٧ .
(٢) اديان العالم الكبرى ص ١٠٦ .

إلى الأرض ظل أقنوماً يمثل جانباً فى الإله الواحد ولم ينفصل عنه حتى بعد اتحاده بالناسوت (١) • وعندى أنه كلام يصعب الاقتناع به •

ألوهية المسـيح ومؤتمر نيقيـة :

بقى أن نسأل : متى بدأ اعتبار عيسى إلهاً ؟ ومتى بدأ اعتبار روح القـدس إلهـاً ؟

وقد سبق أن أوردنا إجابة عن السؤال الأول فيما اقتبسناه من كلام Wells & Berry وغيرهما ، ولكنا ونحن بصدد إيضاح شـامل لهذه المسألة نعود إلى Wells مرة أخرى فنورد عبارته كاملـة عن هـذا الموضـوع • يقول H. G. Wells « **كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المسيحية الحديثة وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس ،** وكان اسم بولس فى الأصل شاول ، وكان فى بادىء الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسـيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس ، وقد أوتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية ، فتراه عـلى علم عظـيم باليهودية والميتراسية وديانة ذلك الزمـان التى تعتنقها الإسـكندرية ، فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكراتهم ومصطلح تعبيرهـم ، ولم يهتـم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها ، وهى فكرة « ملكوت السموات » **ولكنه علّم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، ولا زعيم اليهود الموعود فقط ، بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر •**

فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمـة من الآلهة فى أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشرية •

• • • • • • • •

---

(١) اقرأ المشرع ص ٤٠ — ٤١ •

« وقد استعارت المسيحية أشياء كثيرة من هذه الديانات كالقسيس الحليق ، وتقديم النذور ، والهياكل والشموع والتراتيل والتماثيل التى كانت لعقائد متراس والإسكندرية ، بل تبنّت أيضاً حتى عباراتها فى عباداتها وأفكارها اللاهوتية •

« وراح القديس بولس يُقرّب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن أوزوريس : كان ربا مات ليبعث حيا وليمنح الناس الخلود (١) » •

وهكذا وضع بولس بذرة ألوهية المسيح ، وصادفت البذرة أرضا خصبة فى عقول أولئك الذين لهم معرفة بالفلسفات والاتجاهات التى سبقت المسيحية ، وساعد على نمو هذه الأفكار ما صادفه المسيحيون الأول من الاضطهادات المدمرة التى سبق أن تحدثنا عنها ، تلك الاضطهادات التى التهمت كثيراً من مراجعهم وقضت على أتباع المسيحية الحقيقيين أو كادت ، وقد استمرت هذه الاضطهادات أكثر من ثلاثة قرون (حتى سنة ٣١٣) وفى خلال هذه القرون فقدت المسيحية طابعها من كثرة ما تأثرت بالثقافات المختلفة بل بالخرافات المتعددة ، وخرجت الى الناس بعد هذه المدة وبعد تلك الأجيال وفيها تناقض ظاهر فى كل تعاليمها ، وأشد أنواع التناقض هو ما اتصل بالسيد المسيح نفسه ، فقد كان بعضهم يراه رسولا ككل الرسل ، ورآه آخرون إلها ، واشتدت الاضطرابات بين الجماعات المسيحية •

تدخل قسطنطين وصيحة أريوس :

وهنا جمع قسطنطين إمبراطور الروم البطاركة والاساقفة فيما يسمى بمجمع نيقية Nicea سنة ٣٢٥ ليضع حداً لهذه الاختلافات ، وليقرر حقيقة المسيح ، وكان عدد المجتمعين ٢٠٤٨ وفى هذا الاجتماع صاح عالم مصرى اسمه أريوس صيحته التى كان يرددها دائما : « إن

(١) A. Short History of the world pp. 178;180.

الأب وحده الله ، والابن مخلوق مصنوع وقد كان الأب إذ لم يكن الابن»
أما كنيسة الإسكندرية — والإسكندرية عريقة التأثر بالتفكير المصرى القديم وبالفلسفة الإغريقية وبالأفلاطونية الحديثة التى تقول بالتثليث — فقد قاومت أريوس ، وانضم الى كنيسة الإسكندرية كنيسة روما ، واختلف المجتمعون وتضاربوا ، ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى قرار [١] ، « فقرر الإمبراطور أن يفصل فى الأمر بالتدابير الشديدة بعد أن تبنى رأى صديقه **المثل الدينى للغرب « كاهن روما » فأصدر أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحدين ، ونفى الكثيرين منهم ، وقتل أريوس مع بعض من أيدوا رأيه ، واجتمع الأعضاء القائلون بالتثليث وبألوهية المسيح وعددهم ٣١٨ ، فاتخذوا قرارا بذلك ، وعند كتابة نص القرار اعترض أكثرهم على عبارات المساواة بين الآب والابن ولكنهم خافوا أن ينزل بهم ما نزل بمعارضى التثليث ، فوضعوا إمضاءاتهم على هذه الوثيقة [٢] »** .

وفيما يلى نص هذا القرار :

نؤمن بالله الواحد ، الآب ، مالك كل شىء ، وصانع ما يُرى وما لا يُرى ، وبالابن الواحد يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، الذى وُلد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شىء . من أجلنا ومن أجل معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ، وحُبِل به وولد من مريم البتول ... وصُلب أيام بيلاطوس ، ودفن ، ثم قام فى اليوم الثالث وصعد إلى

---

(١) يتساءل السيد عبد الاحد داود : لماذا لم ينزل الروح القدس على المجتمعين فيهديهم سواء السبيل ؟ فقد ادعى كاتب رسالة اعمال الرسل ان روح القدس نزل وينزل على الاباء الروحيين كلما حزب أمر (الانجيل والصليب ص ٢٠) .

(٢) الانجيل والصليب ص ٢٠ — ٢١ .

السماء ، وجلس عن يمين أبيه (١) ، ويُضيف القرار ما يلى للتخـويف والتحـــذير :

*والجامعة المقدسة الكنسية الرسولية تَحرِم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجـد من لا شىء . أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الأب ، وكل من يؤمن أنه خَلِقَ ، أو من يقول إنه قابل للتغيير (٢) .

وهكذا تدخلت القوة فخلقت هذا القرار الذى اتخذته أقلية المجتمعين ولم تكتف القوة بذلك بل فرضت هذا القرار فرضاً على الناس وحرّمت كل ما سواه ، وحرّمت على الناس الحديث بما يخالفه ، وصادرت وأفنت كل ما كتب متجها غير هذا الاتجاه ، وتعدّت ذلك إلى اضطهاد من يقولون بالتوحيد وعزْلهم عن مكان الرياسة ، ومعاقبتهم بالنفى والتشريد عنـد اللـــزوم .

وكان هذا العام (٣٢٥) أول تاريخ يُتّخذ فيه قرار ضد التوحيد ويحكم بألوهية المسيح ، ولكن القائلين بالتوحيد لم يهدءوا على الرغـم مما لاقوا من عنف ، فنجدهم كما يروى ذلك ابن البطريق يعقدون مجمعا إقليميا فى صور وقد حضره بطريرك الإسكندرية ، ووجد نفسه الوحيـد بين المجتمعين الذى يعتقد بألوهية المسـيح ويدافع عنها ، وقد اشـتد الخلاف بينه وبين الحاضرين ، وانتقل الخـلاف من القـول إلى الفعـل فاعتدوا عليه بالضرب الشديد وكادوا يقتلونه .

ويقول الأستاذ محمد أبو زهرة بحق : إن بطارقة الإسكندرية كانوا يمثلون فلسفة الإسكندرية أكثر من تمثيلهم لمسيحية المسيح وهذا هـو

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٢) Pengapjaran Geredja Kathotlk p. 92. وتاريخ الاقبـــاط ص ٢٢٦ — ٢٣٨ .

مفتاح التاريخ الصحيح (١) ونضيف أن القوة أيدت كنيسة الإسكندرية وعسفت بأعدائها ، فضعفوا بمرور الزمن وكثرة التضحيات •

أسس تأليه المسيح :

وقبل أن نترك ألوهية المسيح يجب أن نعرف الأسس التى جعلتهم يتخذون هذا القرار الخطير •

وقد سبق أن أجبنا عن هذا السؤال وبيّنّا أن الفلسفة الإغريقية وجدت طريقها إلى المسيحية وبخاصة فى عهود ضعفها ، وكانت هذه الفلسفة من أهم العوامل التى أدت إلى رسم هذه الصورة للمسيح ، ولكن القسس المسيحيين لا يعترفون بذلك بطبيعة الحال ، وربما لا يعتقدونه ، ويرون أن الأسس التى أدت إلى اتخاذ هذا القرار الخطير الذى قضى بألوهية المسيح هى ما ورد فى كتبهم المقدسة ، وتبيانا لذلك نسوق بعض آيات من الأناجيل المعتبرة عندهم والتى اعتبروها مرجعا للقول بألوهية المسيح ، فمن ذلك :

ما رواه متى عن الله : هذا هو ابنى الحبيب به سررت (٢) •

وقول يوحنا فى وصف المسيح : فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ••• وكان الكلمة الله كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان • والكلمة صار جسدا ، وحل بيننا ، ورأينا مجده مجدا (٣) •

ويروى متى : أن رئيس الكهنة سأل المسيح مرة وقال له : استحلفك بالله الحى أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟ فأجابه المسيح أنا هو (٤) •

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٢١ •
(٢) متى ٣ : ١٧ •
(٣) يوحنا ١ : ١ ، ٢ ، ١٤ •
(٤) متى ٢٦ : ٦٢ •

وفى أعمال الرسل أن فيلبس أحد الحواريين كان يسير مع خصى فمرّا بماء فطلب الخصى من فيلبس أن يعمّده فقال فيلبس إن كنت تؤمن من كل قلبك عمدتك • فقال الخصى : أنا أومن من أنّ يسوع هو ابن الله ، فعمده فيلبس (١) •

مناقشة هذه الأسس وردّها :

تلك هى أدلة القوم لهذا الموضوع الخطير ، وهى أدلة كما ترى متداعية ومناقشتها لا تحتاج الى جهد ، فلنمض فى مناقشتها على النسق الآتى :

أولا — أبان الكاتب الكبير Kalthoff أن الاعتقاد بألوهية المسيح سبق كتابة الأناجيل ، فالاعتماد على الأناجيل لإثبات ألوهية المسيح عمل بعيد عن الصواب ، يقول Kalthoff :

إن صورة المسيح بكل معالمها وملامحها أُعدّت قبل أن يكتب سطر واحد من الأناجيل ، وإن هذه الصورة هى من إنتاج الفلسفة العقلية (الميتافيزيقية) التى كانت ذات سيطرة ، وكانت آراؤها شائعة ، وتكاد تكون عامة أو عالمية (٢) •

ثانيا — يثبت Pllieсderer المصادر الحقيقية للاعتقاد بألوهية المسيح فيقول : إن معالم التنبؤ عند اليهود ، وعظات الأحبار ، والخيال الشرقى ، والفلسفة الإغريقية قد اختلطت كل ألوانها ، ومن هذه الأصباغ جاءت صورة المسيح التى ظهرت فى العهد الجديد ، وكل ما يمكن تقريره دون تردد هو أن تصور المسيح ورسمه كان الهدف الوحيد للمسيحية فى عهدها الأول كما كان هدف دعاتها (٣) •

---

(١) أعمال ٨ : ٢٦ — ٢٧ •

(٢) Der Brewer Radikaliamus p. 101.

(٣) The Early Christian Conception of Christ p. 6.

ثالثا — إن ما يرويه متى أو يوحنا لا يمكن أن يعتبر دليلا على مثل هذا الأمر الخطير ، وخاصة اذا اتضح لنا أن هذه الأناجيل من صنع هؤلاء أو قل إنها على الأقل من صنع الأجيال المتعاقبة ونسبت لهم ، لأن الصلة بين إنجيل عيسى وهذه الأناجيل مقطوعة ، والصلة بين هذه الأناجيل والذين نسبت إليهم تكاد تكون مقطوعة أيضاً ، وسيأتى مزيد من الإيضاح لذلك عند الكلام على الأناجيل •

رابعا — إن كلمة ابن الله ، أو قول الله تعالى : هذا ابنى الحبيب ، لو صح هذا أو ذاك لما كان دليلا على ألوهية المسيح فإنه استعمال مجازى معناه التكريم • وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : الفقراء عيالى •

ويقول H. D. A. Maior **مدير** Ripon Hall. Oxford **ينبغى أن يلاحظ أن عيسى لم يدّع أنه ابن الله من الناحية الحسية الجسمانية ، ولا من الناحية الفكرية العقلية ، وإنما من الناحية العامة التى تضع كل الناس من الله بمنزلة الأبناء من الأب فى التعلق به ، والاعتماد عليه ، والحاجة إليه (١) •**

خامسا — ورد فى الأناجيل عدة مرات على لسان عيسى عليه السلام قوله عن نفسه : « ابن الانسان » فكيف يعد إلها مع هذا التعبير الثابت عن بشريته ونسبه •

سادسا — وردت فى هذه الأناجيل عبارات كثيرة تقرر توحيد الله وتفيد بوضوح أن المسيح بشر رسول ، وإليك بعض هذه العبارات •

يروى متى عن عيسى قوله : إن اباكم واحد الذى فى السموات (إصحاح ٢٣ الفقرة ٨) •

---

(١) Islamic Review. Vol. Ix. No. 2. pp. 276 - 7.

ويروى مرقص قــول عيسى : الرب إلهنا إلــه واحد • وليس آخر سواه (١٢ : ٣٠ ــ ٣١) •

وجاء فى إنجيل متى : هــذا يســوع النبى الذى من ناصرة الجليل (إصحاح ٢١ الفقرة ١١) •

وجاء فى انجيل لوقا : قد خرج فينا نبى عظيم (٧ : ١٦) •

ويروى لوقا عن عيسى قوله : لا يمكن أن يهلك نبى خارج أورشليم • يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين (١٣ : ٢٣) •

ويروى يوحنا : إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم (٦ : ١٤ و ٧ : ٤٠) •

ويروى يوحنا عن عيسى : وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله (٨ : ٤٠) •

ويروى يوحنا كذلك عن عيسى : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهــكم • (٢٠ : ١٨) •

وفى رسالة أعمال الرسل : أن موسى قال للآباء : إن نبيــاً مثــلى سيقيمه لكم الرب إلهكم من إخوتكم ، له تسمعون فى كل ما يكلمكم ، وكل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب وجميع الأنبيــاء أيضــاً من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا ، ســبقوا وأنبئوا بهــذه الأيام (٣ : ٢٢ ــ ٢٣) •

ســابعا ــ إن بولس اســتعمل هــذا التركيب « ابنى الحبيب » استعمالا مجازيا كذلك • فقد ورد فى رسالة كورنثوس الأولى قول بولس عن تيموثاوس : أرسلت إليكم تيموثاوس الذى هو ابنى الحبيب (١) •

---

(١) كورنثوس الاولى ٤ : ١٦ •

ثامنا — يقول Harnack **ما يلى عن شخصية المسيح (١) : ووصف المسيح إله السماء والأرض بأنه إلهه وأبوه وبانه الأعظم والإله الواحد، وأن المسيح يعتمد عليـــه فى كل شىء ، وأن خضــوعه له تام ، ويدْخِل عيسى نفسَه ضمن الناس معلنـــا أنه من طبيعـــة البشر التى تختلف عن طبيعة الله** وفيما يلى كلمات Harnack نفسها :

Christ Described the Lord of Heaven and Earth as His God and Father, as the Greater, as the only God. In all things he is Dependent on and Submissive to God; and over against His God even includes himself among other men (2).

تاسعا — ورد فى دائرة المعارف البريطانية ما نصه : ولم يدّع عيسى قط أنه من عنصر فوق الطبيعة ، ولا أن له طبيعة اسمى من طبيعة البشر ، وكان قانعا بنسبه العادى ابنا لمريم منسوبا من جهـــة الأب إلى يوسف النجـــــار (٣) ٠

عاشرا — نشرت جريدة التايمز بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٩٦٦ وثيقة دينية اكتشفت حديثا ، وقد جاء فيها ما ترجمته : تعتقد المســيحية أن عيسى ابن الله المقدس ، ولكن مؤرخى الكنيسة يســلمون بأن أكثر أتباع المسيح فى السنوات التالية لوفاته اعتبروه **مجرد نبى آخر لبنى إسرائيل ٠**

مرة أخرى نعود إلى ما سبق أن أجبنا به من أن فلســـفة مدرســـة الإسكندرية وفلسفة الإغريق هما اللتان دفعتا المســيحيين إلى القـــول بألوهية المسيح أو القول بتعدد الآلهة ، ويؤكد Harnack أن تعدد الآلهة هو « من عمل أتباع المسيح وهو بعيد كل البعد عن عمل المسيح وقوله (٤) ويقول السيد محمود أبو الفضل : إن الاضطهاد الذى لاقاه المسيحيون

(١) What is Christianity p. 126.
(٢) What is Christianity p. 126.
(٣) Encyclopaedie Brttannica Vol. 5. p. 636.
(٤) What is Christianity p. 160.

فى عهدهم الأول دفعهم إلى الهجـرة ، فرحل بعضــهم إلى الإسكندرية فأخــذوا عن مدرســتها ورحل البعض إلى رومــا فأخــذوا عن الوثنية الرومانية : ومن هذين المعينين جاءت المسيحية الحديثة (١) •

وهناك دليل عجيب على ألوهية المسيح يقدمه الأب بولس إليــاس الخورى ، وهذا الدليل أقرب إلى الخرافة فى رأى أى عاقل ، يقول الأب بولس : استباح السيد المسيح حق تعديل الشريعة وتكميلها فصــارح سامعيه بقوله « قد سمعتم أنه قيل للأولين : لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة» والله هو الذى قال ذلك للأولين وقد وضع عيسى نفسه بذلك موضــع الله الذى شرع ، فلابدّ أن يكون هو الله (٢) •

ومعنى هذه الخرافة أن كثيرين منا آلهة فطالما شرحنا للناس ما فرضه الله عليهم وطلبنا منهم مزيداً من العمل الصالح ، نعوذ بالله من الخطل •

وسنورد فى نهاية هذا الكتاب خلاصة هذه الأبحاث فى الملحق الخاص عن « قضية الالوهية » •

أما الروح القدس فلم يُتخذ بشأنه قرار فى اجتماع نيقية بل نُصَّ فى ذلك الاجتماع على « ترك الحرية للناس فى الاختلاف عــلى الروح القــــدس » •

وهكذا كان متخذو هذا القرار يتمتعــون بشىء من الحصــافة فلم يشاءوا أن يقولوا بالثالوث مرة واحدة ، بل اكتفوا بإعلان ألوهية المسيح وتركوا إعلان ألوهية روح القدس موضــع اختــلاف بين الناس فــلم يثبتوها ولم ينفوها بل أجّلوها لفرصة أخرى حتى يستقر المبدأ الجديد

---

(١) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٣١ .
(٢) يسوع المسيح ٦٩ .

وهو ألوهية المسيح ، ثم بعد ذلك يُكْمِلوا إعلان ألوهيـة روح القدس حتى يكمل الثالوث الإغريقى • وسنتكلم فيما يلى عن وقت إعلان ألوهية روح القدس وظروف ذلك •

ألوهيـة الروح القـدس :

الروح القدس هو الذى حل على العـذراء لدى البشـارة ، وعلى المسيح فى العماد ، وعلى الرسل بعد صعود المسيح إلى السـماء (١) • والذى حل على العذراء بالبشـارة هو فى نظر المسـلمين جـبريل عليه السـلام •

وقد سبق أن قلنا إن مجمع نيقية بعد أن قرر ألوهية المسيح ترك الحرية للناس فى الاختلاف على الروح القدس ، وفى ضوء هـذه الحرية وُجِدَ اتجاهان يتصارعان تتزعم كنيسة الإسكندرية أحدهما الذى يقول بالتثليث وأن المسيطر على العالم قُوَى ثلاث : المكون الأول ، والعقل (الابن) ، والنفس العامة (الروح القدس) ويتزعم الاتجاه الآخر بعض القسس فى مقدمتهم مقدونيوس أسقف القسطنطينية ، وقد أعلن هـذا أن الروح القدس ليس بإله ولـكنه مخلوق مصـنوع كما أعلن الأسقف أوسابيوس إنكار وجود الأقانيم الثلاثة ، وقال إن الثالوث ذات واحـدة بأقنوم واحد وكان ذلك الخلاف داعيا لعقد مجمع جديد يبت فى الأمر أو قُلْ كان الأوان قد آن ليـكمل إعـلان الثالوث فعقـد الإمبراطور تاعوديوس الكبير مجمع القسطنطينية سـنة ٣٨١ ولـم يحضره إلا مائة وخمسون أسقفا ، وفى هذا المجمع أعلن حرمان الأسقفين السابقين ، وأسقط كل منهما من رتبته ، ثم قدم بطريرك الإسكندرية قياسا على هيئة الاقيسة المنطقية ، ولكنه فى الحقيقة بعيد عنها ، فمقدماته غير مسلم بها ، ونتائجه غير مرتبة ولا مبنية بالضرورة على المقدمات ، وهاك نصه :

---

(١) الاب بولس الياس : يسوع المسيح ص ٧٣ •

« ليس روح القدس عندنا بمعنى غـير روح الله ، وليس روح الله شيئا غير حياته ، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن روح الله مخلوق ،وإذا قلنا إن روح الله مخلوقة ، قلنا إن حياته مخلوقة ، واذا قلنا إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حى ، واذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به ، ومن كفر به وجب عليه اللعن (١) »

ومن النظر فى هذهالسلسـلة التى تأخذ الشـكل المنطقى بمقدماتها ونتائجها يظهر أن أساسها ومقدماتها الضرورية وهى أن روح القدس هى روح الله مقدمة ساقطة ، لا يوافقه عليها أغلب الناس ولا يستطيع أن يقيم الدليل عليها ، فالعقيدة السائدة الصحيحة هى أن روح القدس خلقه الله واتخذه ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلقى عليـه وحيا من خلقـه أو أمراً كونياً (٢) .

ولكن هذا المجمع لم يكن يفكر ، ولم يجتمع ليناقش بل ليتخـذوا قراراً معدّاً قبل الاجتماع ، ولذلك سرعان ما اتخذوا قرارهم بألوهية الروح القدس ويلعن من يقول بغير ذلك ، ويقـول ابن البطريق أحـد المؤرخين المسيحيين فى إثبات القرار وشرحه ما يلى : « زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشرة أسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية ، الإيمان بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب الذى هو مع الأب والابن مسجود له ، وممجّد ، وثبّتوا أن الأب والابن وروح القـدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، ثلاث خواص ، وحدية فى تثليث ، وتثليث فى وحدية ، كيان واحد ، فى ثلاثة أقانيم ، إله واحـد ، جوهر واحـد ، طبيعة واحـــدة » .

ومرة أخرى فرض هذا القرار فرضـاً على المسـيحيين ، وعُذّب ولعن من خالفه ، وحرم من الوظائف وصودرت آراؤه وقتلت .

---

(١) Pengadjaran Geredja Katolik p. 93.

(٢) أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٣٤ .

ولم يكتف بعض رجال الكنيسة بهذا الثالوث على هذا الوضع ، بل نراهم كأنهم تصوروا منافسة بين الله جل جلاله وبين المسيح ، فلم يقنعوا بأن يكون الروح القدس منبثقاً من الأب ، بل عقدوا مجمعاً آخر هـو مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ م وقرروا أن الروح القـدس منبثق من الابن أيضاً ، ولم تقبل الكنيسة اليونانية هـذه الزيادة الجـديدة ، ولا تزال عبارة « ومن الابن أيضاً » موضع خلاف بين الكنيسة اليونانية والكنيسة الكاثوليكية ، وسبباً فى عدم الالتقـاء بين الـكنيستين ، وتؤمن الكنيسة القبطية بمصر بأن روح القدس منبثق من الأب فقط (١) .

وهكذا اتّخذت هذه المجامع سلطة صُنْع الآلهة !!! يا لله من ظلم الإنسـان وجهـله ! .

وقبل أن نترك الكلام عن روح القدس يجدر بنا أن ننقـل عن لوقا تصويره العجيب لروح القدس ذاك ، يقول لوقا فى وصفه لاجتماع بطرس بالتلاميذ المائة والعشرين الذين اختارهم ليعلموا المسيحية :

ولما حضر يوم الخميس كان الجميع معا بنفس واحدة ، وصار بغتة من السماء صوت" كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كلّ البيت حيث كانوا جالسين ، وظهرت له ألْسِنة منقسمة كأنها من نار ، واستقرت على كل واحد منهم ، وامتلأ الجميع من الروح القدس ، وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا (٢) .

ويقول المسيحيون إن روح القدس لا يزال موجوداً ، وهو ينزل على الآباء والقديسين بالكنيسة يرشدهم ويعلمهم ، وقد نقلت الأخبار نبـأ اجتماع الرئيس أيزنهاور بالبابا فى الفاتيكان (نهاية سنة ١٩٥٩) حيث قرأ البابا تحية مكتوبة بالإنجليزية أمـام الرئيس أيزنهـاور ، وعلقت

---

(١) تاريخ الاقباط للاستاذ زكى شنودة ص ٣٤١ .
(٢) اعمال الرسل ٢ : ١ — ٤ .

الأخبار أن البابا بدأ يتعلم الانجليزية حديثاً ولذلك كانت تحيته قصيرة ومكتوبة • ليت شعرى لماذا لم يعلمه الروح القدس اللغة الإنجليزية كما يقول لوقا بأن الروح القدس علم فى لحظات هؤلاء الرسل لغات لم يكونوا يعرفونها •

٢ ــ صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر :

هذا هو الأساس الثانى من أسس العقيدة المسيحية ، وقد سبق أن تحدثنا عنه ونزيد هنا الموضوع وضوحاً ، وأساس هذا الموضوع عند المسيحيين أن من صفات الله العدل والرحمة ، وبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التى ارتكبها أبوهم وطُرِد بها من الجَنة واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها ، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر ، ولم يكن هناك من طريق للجمع بين العدل الرحمة إلا بتوسط ابن الله ووحيده وقبوله أن يظهر فى شكل إنسان وأن يعيش كما يعيش الإنسان ثم يصلب ظلماً ليكفر عن خطيئة البشر (١) ، وقد ورد فى العهد الجديد ما نصه : وإن ابن الإنسان قد جاء ليخلص ماقد هلك ، فبمحبته ورحمته قد صَنَعَ طريقا للخلاص ، لهذا كان المسيح هو الذى يكفرٌ عن خطايا العالم • وهو الوسيط الذى وفق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته ، إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون فى الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم ، ولكن باقتران العدل والرحمة وبتوسط الابن الوحيد ، وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق ، قرب الناس من الرب بعد الابتعاد (٢) •

---

(١) الانجيل والصليب للاستاذ عبد الاحد داود ص ٦ — ٧ وتاريخ الاقباط ص ٢٣٨ .

(٢) اقرأ انجيل مرقص الاصحاح العاشر الفقرة ٤٤ وما بعدها وانجيل يوحنا ٣ : ١٦ ورسالة رومية ٢٣:٣ وما بعدها و ١٠:٥ وما بعدها والاصحاح السادس .

ويقول القس ابراهيم لوقا (١) إن المسيحية تعلّم أن الله — لكى يجمع بين عدله ورحمته فى تصرفه مع الإنسان عقب سقوطه — دبّر طريقة فدائه بتجسيد ابنه الحبيب وموته على الصليب نيابة عنا ، وبهذا أخذ العدل حقه ، واكتملت الرحمة فنال البشر العفو والغفران وهذه هى نظرية الفداء .

ويصور كاتب مسيحى هو : Alfred E. Garvie هذا الموضوع فى مقاله الطويل الذى كتبه عن المسيحية فى :

«The Encyclopaedia of Religions and Ethics» فيقول (٢) :

« فى المسيحية ينسب الكمال كله لله ، أما الإنسان فهو غير كامل ، وهو مستحق للوم على ما يرتكبه مما يبعده عن الكمال ، والصلة بين الله والناس تتعرض للوهن أو الانفصام بسبب سيئات الإنسان ، ولابد للإنسان — لكى يعيد رفقته لله — أن يفتدى نفسه ، ولا يملك الإنسان ما يفتدى به نفسه ، وليس إلا عيسى ابن الله ليتقدم شفيعا بين الله والإنسان ، فهو الابن الذى يعرف الله كأب ، ويعلن عنه لهم أنه أب محب للرحمة يعفو عن سيئاتهم ويرحب بهم داعيا لهم أن يعودوا إليه وإن كانوا قد أذنبوا .

« وعيسى بصدق تعاليمه وسماحتها وبحياته التى هى مثال راق ، تجذب الناس إليه ، ويوقظ ثقتهم بأنفسهم ، ويكرر لهم التوبة فيضمن لهم عفو الله ، وهذا يبدأ بقبول عيسى النزول إلى الأرض والحياة بين البشر ، ولكنه يصل القمة بأن يقدم نفسه فدية لذنوب الناس ، وتقديم عيسى نفسه فدية هكذا درجة عليا فى الوساطة بين الله والناس » .

ويقول كاتب مسيحى آخر : إن خطيئة آدم عصيان ضد الله وشرود عن الصلة به ، ومعصية ضد قداسته تعالى ، وأعلن لنا يسوع وهو على

---

(١) المسيحية فى الاسلام ص ١٧١ .
(٢) Vol. 3 p. 581.

الصليب أن الله قد تنازل ليجدد الصلة التى قطعت خطيئتنا أواصرها ويتخطى الشقة التى أحدثها بيننا وبينه اعوجاجنا وزيغنا (١) •

ويعيد الأب بولس إلياس الخورى الحق إلى نصابه حينما يطن فى جراءة أن بولس هو مبتدع هذه الفكرة ، وقد حمل هو وتلميذه الحبيب لوقا لواء الدعاية لها ، وفيما يلى كلمات هذا الباحث المسيحى :

ومما لا ريب فيه أن **الفكرة الأساسية التى ملكت على بولس مشاعره** فعبر عنها فى رسائله بأساليب مختلفة هى فكرة رفق الله بالبشر ، وهذا الرفق بهم هو ما حمله على إقالتهم من عثارهم ، فأرسل إليهم ابنه الوحيد ليفتديهم على الصليب ، وينتقل بهم من عهد الناموس الموسوى الى عهد النعمة ، وهذه الفكرة عينها هى التى هيمنت على إنجيل لوقا (٢) •

وتصوّر بعض الأناجيل عملية التعذيب التى مرّ بها عيسى قبل صلبه تصويراً لاذعاً مثيراً ، فقد جاء فى إنجيل متى بعد أن وصف القبض على عيسى وتسليمه إلى الوالى بيلاطس ما يلى :

فقال الوالى للشعب : ماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح ؟ قال له الجميع : ليصلب ، فقال الوالى : وأى شر عمل ؟ فكانوا يزدادون صراخاً قائلين : ليصلب • فلما رأى بيلاطس أن كلامه لا ينفع شيئا بل بالحرى يحدث شغبا أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلا إنى برىء من دم هذا البار أبصروا أنتم • فأجاب جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا ، حينئذ جلد الوالى يسوع وأسلمه للصلب ، فأخذ عسكر الوالى يسوع الى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة ، فعروه وألبسوه رداء قرمزياً وضفروا اكليلا من شوك ووضعوه على رأسه ووضعوا قصبة فى يمينه ، وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين : السلام يا ملك

(١) اديان العالم الكبرى ص ١١١ .
(٢) يسوع المسيح ص ٢٨ و ٩٢ و ٩٣ .

اليهود ، وبصقوا فى وجهه ، وأخذوا القصبة وضربوه بها على رأسه ، وبعد أن استهزئوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضـوا به للصلب ، وأعطوه خلا ممزوجاً بمرارة ليشرب ، ولما ذاق لم يرد أن يشرب (١) •

أيها المسيحيون ، تعالوا نفـكر :

ولست أدرى ما الذى حدا بالمسيحيين أن يصوروا نبيهم أو إلههم هذا التصوير البشع ، وإنّ أىّ مفكر لتخطر بنفسه الأسئلة الآتية :

١ ــ ادعى المسيحيون أن صلب المسيح كان لتحقيق العدل والرحمة، وأىّ عدل وأىّ رحمة فى تعذيب غير مذنب وصلبه ؟ قد يقولون إنه هو الذى قبل ذلك ، ونقول لهم إن من يقطع يده أو يعذب بدنه أو ينتحر ، مذنبٌ ولو كان يريد ذلك •

٢ ــ إذا كان المسيح ابن الله فأين كانت عاطفة الأبوة وأين كانت الرحمــة حينمــا كان الابن الوحيــد يلاقى دون ذنب ألوان التعــذيب والسخرية ثم الصلب مــع دق المسامير فى يديه ؟ •

٣ ــ ما هى صورة المسيحيين عن الله (جلّ فى سماه) الذى لايرضى إلا بأن يُنزِل العذاب المهين بالناس ، والعهد فى الله الذى يسمونه الأب ويطلقون عليه « الله رحمة » أن يكون واسع المغفرة كثير الرحمات ؟

٤ ــ من هذا الذى قيد الله (جلا جلاله) وجعل عليــه أن يلْزَم العدل وأن يلزم الرحمة وأن يبحث عن طريق للتوفيق بينهما ؟

٥ ــ ويدعى المسيحيون أن ذرية آدم لزمهم العقاب بسبب خطيئة أبيهم ، وفى أى شرع يلتزم الأحفاد بأخطاء الأجداد ، وبخاصة أن الكتاب المقدس ينص على أنه لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن

---

(١) اقرأ الاصحاح ٢٧ فقرة ٢٣ وما بعدها وانجيل مرقص الاصحاح ١٤.

الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل (١) ؟

٦ — وإذا كان صلب المسيح عملا تمثيلياً على هذا الوضع فلماذا يكره المسيحيون اليهود ويرونهم آثمين معتدين على السيد المسيح ؟

٧ — وهل كان نزول ابن الله وصلبه للتكفير عن خطيئة البشر ضروريا أو كانت هناك وسائل أخرى من الممكن أن يغفر الله بها خطيئة البشر ؟ •

الجواب عن ذلك يقدمه كاتب مسيحى هو القس بولس سباط بقوله: لم يكن تجسد الكلمة ضرورياً لإنقاذ البشر ، ولا يُتَصَوَّر ذلك مع القدرة الالهية الفائقة الطبيعية (٢) •

ثم يسترسل هذا الكاتب فيذكر السبب فى اختيار الكلمة ليكون فداء لخطيئة البشر فيقول : إن الله على **وفرة ماله من الذرائع إلى فداء النوع البشرى** ، وإنقاذه من الهلاك الذى نتج من الخطيئة ومعصية أمره الإلهى، قد شاء سبحانه أن يكون الفداء بأعز ما لديه ، لما فيه من القوة على تحقيق الغرض وبلوغه سريعاً (٣) •

ونصرخ فى وجه هذا الكاتب أنه ليس من الحكمة فى أى شىء أن نفتدى بدينار ما نستطيع أن نفتديه بفلس ، تعالى الله عن ذلك •

كلام فارغ وهراء :

وإجابة أخرى عن هذا السؤال نقتبسها من كاتب مسيحى آخر هو الأب بولس إلياس الذى يقول (٤) :

---

(١) تثنية ٢٤ : ١٦ •
(٢) المشرع ص ٤٢ •
(٣) المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٣ •
(٤) يسوع المسيح ص ٩٧ — ٩٨ •

مما لا ريب فيه أن المسيح كان باستطاعته أن يفتدى البشر ويصالحهم مع أبيه بكلمة واحدة ، أو بفعل سجود بسيط يؤديه باسم البشرية جمعاء لأبيه السماوى ، لكنه أبى إلا أن يتألم ، ليس لأنه مريض بتعشق الألم ، ولا لأن أباه ظالم يَطْرَب لمرأى الدماء ، وأية دماء ؟ ابنه الوحيد ، وما كان الله بسفاح ظلوم ، لكن الله الابن شاء مع الله الأب أن يعطى الناس أمثولة خالدة من المحبة ، تبقى على الدهر ، وتحركهم على الندامة على ما اقترفوه من آثام وتحملهم على مبادلة الله المحبة .

ومرة أخرى نصرخ فى وجه هذا المؤلف مؤكدين أنه صور الداء أدق تصوير عندما تكلم عن الدماء والقسوة ، ولكنه عندما بدأ يجيب ويصف الدواء تعثر وكبا ، ولم يقل إلا عبارات جوفاء لا تحمل أى معنى .

ما العمل فى خطايا المستقبل ؟

٨ — ونعود إلى القس بولس سباط لنسأل كما سأل : إذا كان الكلمة قد تجسد لمحو الخطيئة الأصلية فما العمل فى الخطايا التى تحدث بعد ذلك ؟ ويجيب هذا الكاتب بما يلى بالحرف الواحد : إذا عاد الناس إلى اجتراح الخطايا فالذنب ذنبهم ، لأنهم آنسوا النور وعشوا عنه مؤثرين الظلمة بإرادتهم (١) .

ومعنى ذلك أن خطيئة واحدة محيت وأن ملايين الخطايا سواها بقيت وجدّت بعد ذلك وسيحاسَبُ الناسُ على ما اقترفوه ، وبعض ما اقترفوه أقسى من عصيان آدم ، لقد أنكر بعض الناس وجود الله ، وهاجمه آخرون وسخروا بجنته وناره ، فلماذا كانت مظاهرة التجسد لخطيئة واحدة وتُركتْ خطايا لا تُعَدُّ ؟

---

(١) المشرع ص ٤٤ .

أين قرار الله من عهد آدم الى عهد عيسى ؟

٩ — وأين كان عدل الله ورحمته منذ حادثة آدم حتى صلب المسيح؟ ومعنى هذا أن الله ظلّ (تعالى عن ذلك) حائرا بين العدل والرحمة آلاف السنين حتى قَبِلَ المسيح منذ حوالى ألفى عام أن يُصلب للتكفير عن خطيئة آدم ٠

١٠ — ويلزم فى جميع الشرائع أن تناسب العقوبةُ الذنبَ ، فهل يتم التوازن بين صلب المسيح على هذا النحو ، وبين الخطيئة التى ارتكبها آدم ؟ ٠

١١ — هذا إلى أن خطيئة آدم التى لم تزد عن أن تكون أكلا من شجرة نُهِى عنها ، قد عاقبه الله عليها بإخراجه من الجنة ، ولا شك أنه عقاب كاف ، فالحرمان من الجنة الفينانة ٠ والخروج الى الكدح والنصَب عقابٌ ليس بالهيِّن ، وهذا العقاب قد اختاره الله بنفسه وكان يستطيع أن يفعل بآدم أكثر من ذلك ، ولكنه اكتفى بذلك ، فكيف يستساغ أن يظل مضمراً السوء غاضباً آلاف السنين حتى وقت صلب عيسى ٠

الطوفان ابتلع العصاة الا يكفى ذلك ؟

١٢ — وقد مرت بالبشر من عهد آدم الى عهد عيسى أحداث وأحداث وهلك كثيرون من الطغاة وبخاصة فى عهد نوح ، حيث لم ينج إلا من آمن بنوح واتّبعه وركب معه السفينة ، فهؤلاء هم الذين رضى الله عنهم فكيف بعد ذلك تبقى ضغينةٌ وكراهية تحتاجان لأن يضحى عيسى بنفسه فداءً للبشرية ؟

١٣ — والكاتب المسيحى الذى أسلم « عبد الأحد داود » ينتقد قصة التكفير هذه انتقاداً عقلياً سليما فيقول إن من العجيب أن يعتقد المسيحيون أن هذا السر اللاهوتى وهو خطيئة آدم وغضب الله على

الجنس البشرى بسببها ، ظل مكتوماً عن كل الأنبياء السابقين ، ولم تكتشفه إلا الكنيسة بعد حادثة الصلب (١) .

١٤ — ويقول هذا الكاتب إن مما حمله على ترك المسيحية ، هو هذه المسألة وظهور بطلانها لأن الكنيسة أمرته بأوامر لم يستسغها عقله وهى :

(أ) نوع البشر مذنب بصورة قطعية ويستحق الهلاك الأبدى .

(ب) الله لا يخلّص أحداً من هؤلاء المذنبين من النار الأبدية المستحقة عليهم ، بدون شفيع .

(جـ) والشفيع لابد أن يكون إلها تاماً وبشراً تاماً .

ويدخل هذا الكاتب فى نقاش طويل مع المسيحيين بسبب هذه الأوامر ، فهم يرون أن الشفيع لابدَّ أن يكون مطهراً من خطيئة آدم ، ويرون أنه لذلك وُلد عيسى من غير أب لينجو من انحدار الخطيئة إليه من أبيه ، وسألهم الكاتب : ألم يأخذ عيسى نصيباً من الخطيئة عن طريق أمه مريم ؟ .

ويجيب هؤلاء بأن الله طهر مريم من الخطيئة قبل أن يدخل الله الابنُ رحمها . ويعود الكاتب فيسأل : اذا كان الله يستطيع هكذا فى سهولة ويسر أن يطهِّر بعض خلقه ، فلماذا لم يطهر خلقه من الخطيئة كذلك بمثل هذه السهولة وذلك اليسر ؟ بدون انزال ابنه وبدون تمثيلية الولادة والصلب (٢) ؟

ونضيف الى نقاش عبد الأحد داود أن قولهم بضرورة أن يكون الشفيع مطهراً من خطيئة آدم (مما استلزم أن يولد عيسى من غير أب ، وأن يطهر الله مريم قبل دخول عيسى رحمها) يحتاج الى طريق طويل

---

(١) الانجيل والصليب ص ٧ .
(٢) الانجيل والصليب ص ١٢٤ ، ١٢٧ .

معقد • وكان أيسر منه أن ينزل ابن الله مباشرة فى مظهر الانسان دون أن يمر بدخول الرحـم والولادة ، ونضـيف كذلك أن قول المسـيحيين بالتطهير يتعارض مع اتجاه مسيحى آخر سبق أن أشرنا اليه ، وهو أن ابن الله دخل رحم مريم ليأخذ مظهر الانسان وليتحمل فى الظاهر بعض خطيئة آدم الذى يبدو ابنٌ الله كأنه ولدٌ من أولاده ، ثم يصلب ابن الله تكفيراً عن خطيئة البشر الذى أصبح كواحد منهم • ويبقى فى هـذا الموضوع أن نسـأل أسئلة أخيرة هى :

هل كان الأنبياء جميعاً قبل عيسى مدنسين خطاة بسبب خطيئة أبيهم آدم ؟

وهل كان الله غاضباً عليهم أيضاً ؟

وكيف اختارهم مع ذلك لهداية البشر ؟

حقيقة قصة الصلب للتـكفير :

قلنا إن مبدأ التثليث ورد للمسيحية من الفلسفة الاغريقية ، ونقول هنا كذلك إن فكرة الصلب للتكفير ليست من المسيحية فى شىء ، ويبـدو أنها وردت الى المسيحية من عقائد أخرى وبخاصة عقيدة الهنود ، إذ أننا نجدها **معتقدة سائدة عند الهنود** قبل المسيح بمئات السنين ، فهم يعتقدون أن « كرشنا » المولود البكر الذى هـو نفس الإله « فشـنو » الذى لا ابتداء له ولا انتهاء ، تحرك حنوّاً كى يخلص الأرض من ثقل حملها ، فأتاها وقدم نفسه ذبيحة عن الانسان ، ويصـورونه مصـلوباً مثقوب اليدين والرجلين ، ويصفون كرشنا لذلك بالبطل الوديـع المملوء لاهوتا لأنه قدم نفسه ذبيحة من أجل البشر •

وفى بلاد النيبال والتبت يعتقدون أن إلههم « أندرا » سفك دمـه بالصلب وثقب المسامير لـكى يخلص البشرية من ذنوبهـم ، وأن صور

الصلب موجودة فى كتبهم (١) • »

وقبل أن نترك هذا الموضوع نحب أن نقرر أن الأناجيل الأربعة المعتمدة عند النصارى اختلفت اختلافاً كبيراً فى إيراد قصة الصلب ، ويعجب الانسان كيف تختلف هذه الأناجيل فى أساس هام من أسس ديانتهم ، ولو صح أن هذا أساس ، وأن المسيح أنبأ به ، لكان اهتمامهم بتدوينه متساوياً أو متقارباً ، أما التفاوت بين الأناجيل فى ذلك الموضوع فيصوره الأستاذ عبد الوهاب النجار بإيراد نصوص هذه الأناجيل كاملة حول هذه المسألة ، ثم يناقشها فيعدد أربعة وثلاثين وجهاً من أوجه التضاد بين هذه النصوص ، ولا شك أن هذا التضاد يُسقط قيمة الاستدلال بهذه النصوص • وبالتالى يسقط قيمة الفكرة (٢) •

٣ ــ المسيح يحاسب النـــاس :

هذا هو الأســاس الثالث من أســس العقيدة المسيحية ، ويرى المسيحيون أن الأب أعطى سلطان الحساب للابن ، وذلك لأن الابن ــ بالاضافة الى ألوهيته وأبديته ــ ابن الانسان أيضاً ، فهو أولى بمحاسبة الانســان (٣) •

ويعتقدون أنه بعد أن ارتفع الى السماء جلس بجوار الأب على كرسى استعداداً لاستقبال الناس يوم الحشر ليدينهم على ما فعلوا • وقد جاء فى رسالة بولس الثانية الى أهل كورنثوس « لابد أننا جميعاً نظهر أمام

---

(١) أ ــ العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية للاستاذ محمد طاهر التنير فى عدة صفحات .
ب ــ تفسير المنار للسيد رشيد رضا جـ ٦ ص ٣٢ .
جـ ــ شبهات النصارى وحجج المسلمين للسيد رشيد رضا ص ١٥
د ــ قصص الأنبياء للاستاذ عبد الوهاب النجار ص ٤٣٢ ــ ٤٣٣.
(٢) اقرأ عن الاناجيل وصلب المسيح « قصص الانبياء » للاستاذ النجار ص ٤٣٢ ــ ٤٤٨ .
(٣) Encyclopaedia Britannica Vol. 5 632.

كرسى المسيح لينال كل منا ما كان بالجسد ، بحسب ما صنع ، خيراً كان أو شراً » (١) •

وهناك نصوص أخرى فى العهد الجـديد تقرر هـذا المبدأ ، نورد بعضـــهما فيمـــا يلى :

١ ــ جاء فى رسالة بولس الى أهل إفسس قوله : أقام الله المسيح من الأموات ، وأجلسه عن يمينه فى السموات فوق كل رياسة وسـلطان وقوة وسيادة ، وأخضع كل شىء تحت قدميه (٢) •

٢ ــ وفى رسالته لأهل رومية : إننا جميعاً سوف نقف أمام كرسى المســـيح (٣) •

٣ ــ وفى إنجيل يوحنا : الأب لا يدين أحداً بل قـد أعطى كل الدينونة للابن (٤) •

٤ ــ ويروى يوحنا عن عيسى قوله : أنا أسـمع وأدين ودينونتى عـــادلة (٥) •

وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة بعد أن ناقشـنا أسسها وأثبتنـا بطلانها ، وأنها مبنية على ألوهية المسيح وهو أساس باطل ، واذا ثبت أنه بشر نبى لم يكن له الحق أن يحاسب أو يدين ، وقد جاء فى الوثيقة التى أشرنا لها من قبل والتى نشرتها جريدة التـايمز بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٩٦٦ النص الآتى منسـوباً الى عيسى : لن أحاسب النـاس على أعمالهم ، أو أحكم عليهم ، الذى أرسلنى هو الذى يصنع ذلك •

---

(١) راجع الاصحاح الخامس •
(٢) الاصحاح الأول • الفقرة ٢٢ •
(٣) اصحاح ١٤ الفقرة ١٠ •
(٤) اصحاح ٥ الفقرة ٢٢ •
(٥) اصحاح ٥ الفقرة ٢٠ •

والتفكير الاسلامى فى هذا الموضوع يجعل الرسل شهوداً أمام الله على أنهم بلّغوا الرسالة ، كما تشهد أعضاء الانسان عليه بما فعل ، أما الحكم النهائى فهو لله الذى يحكم لا معقب لحكمه ، فإذا قارنا هذا التفكير الأسلامى بالتفكير المسيحى نجده متقارب الأصول من حيث أن كل نبى يحضر محاسبة قومه ويعلن أمام الله العلى العظيم أنه بلّغهم ما أُمِرَ به ولكن الحكم النهائى فى اعتقاد المسلمين لله العلى العظيم ، والحكم عند المسيحيين للمسيح ، وسبب ذلك الانحراف فى التفكير المسيحى ، هو ما يتخيله المسيحيون دائماً من منافسة بين الله العلى العظيم ، وبين عيسى ، وهذا الخيال المريض لم يجعل المسيحيين يقنعون بالتفكير العام الذى يقضى بأن الحكم لله وأن الرسل شهداء على أقوامهم كما سبق ، لم يقنع المسيحيون بذلك فوضعوا عيسى على كرسى بجوار الله وحكموا له أنه هو الذى سيحاسب ويدين وأن الله تنازل له عن هذا السلطان ، إن المسيحيين فى كثير من الأحيان لا يريدون أن يقنعوا بمساواة المسيح لله ، بل يحاولون أن يرتفعوا به إلى غاية أعلى وهى سبق الابن للأب (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) •

وربما جاز لنا أحياناً أن نفهم أن تفكير المسيحيين قريب الصلة بعبادة الأبطال وربما كانوا الى عبادة الأبطال أميل •

الاسلام والمسيحية الحالية :

لقد رأينا المسيحية الحالية ، مسيحية بولس ، ورأينا انحرافها الذى أبعدها عن المسيحية الحقيقية ، ومن أجل هذا الانحراف واجه المجتمع الاسلامى من أول ظهوره وثنية رومانية تسمّى نفسها بالمسيحية والحق أنها لا صلة لها بمسيحية عيسى ، فقد اتضح للمسلمين دون عناء أن المسيحية الحالية ، خليط من وثنيات العالم القديم ، ولا يوجد بها طقس من الطقوس ، أو عقيدة من العقائد الا كان من الممكن إعادته لما قال به أفلوطين بالأسكندرية ، أو ما انحدر عن تقاليد اليونان والرومان ،

والمجتمعات البربرية فى أوربا ، وقد أوضحنا ذلك فيما ذكره Berry ، من قبل .

ومن الواضح أن الإسلام كان يتعارض تعارضاً جذرياً مع وثنية الروم وقد وقف الاسلام منادياً بالمسيحية الحقة التى تقود للاسلام ، مصححاً أفكار المنحرفين ، فاستجاب له الكثيرون ، وآثر آخرون أن يغمضوا عيونهم عن النور ، فظلوا فى طيات الظلام ، ومجاهل الانحراف .

شعائر المسيحية

الشعائر المسيحية لا تسمو الى مكانة العقائد التى سبق الكلام عنها ، فالعقائد أساس لدخول المسيحية ، وبدون الايمان بها لا يكون الانسان مسيحياً ، أما الشعائر فإنها لازمة ، وعلى المسيحى أن يقوم بها ، ولكن الشخص على كل حال يُعتبر مسيحياً قبل أن يقوم بها ما دام قد اعتنق العقائد السابقة . وكانت هذه الشعائر سبعة ، ويقول الأستاذ عمر عنايت (١) : إن هذه الشعائر نشأت من القَسَم الذى كان يحلفه الجندى الرومانى قبل انخراطه فى سلك الجيش ، وأهم هذه الشعائر : التعميد ، والعشاء الربانى ، وتقديس الصليب وحمله ، وقد تأثرت طريقة أداء بعض هذه الشعائر بطريقة أداء القسم سالف الذكر ، فكما لزم أن يؤدّى القسم فى حضرة ممثل للجيش فإن التعميد يلزم أن يؤدى بواسطة ممثل للكنيسة ويلزم كذلك أن يقدم الخبز والخمر فى العشاء الربانى بواسطة آباء الكنيسة (٢) ، وسنتكلم فيما يلى كلمة عن كل من الشعائر السالفة :

التعميد :

تكاد تتفق كل الفرق المسيحية على ضرورة التعميد ، وكان التعميد موجوداً قبل المسيحية عند اليهود كان يحيى يعَمّد الناس فى نهر الأردن

---

(١) العقائد ص ١٠٤ .

(٢) Pengadjsran Geredjs Katolik Hal. 300.

ولذلك سُمّى (يوحنا المعّمدان) وقد قام يوحنا بتعميد المسيح كما سبق القول •

ولم يتفق المسيحيون على وقت التعميد ، فبعضهم يعمّد الشخص فى طفولته ، وبعضهم يعمّده فى أى وقت من حياته ، وبعضهم يُجْرى التعميد والشخص على فراش الموت بحجة أن التعميد إزالة السيئات وتطهير من الذنوب فيحسن أن يتم حيث لن تحصل ذنوب بعده ، وقد عُمّد قسطنطين حامى المسيحية وهو على فراش الموت ، والغالب أن يتم التعميد فى الطفولة حتى ينشأ الانسان — كما يقولون — طاهراً مُبَرّأً من الذنوب •

وطريقة التعميد هى رش الماء على الجبهة أو غمس أى جزء من الجسم فى الماء ، ويكثر أن يغمس الشخص كله فى الماء ، ولابد أن يقوم بهذه العملية كاهن يعمّد الانسان باسم الأب والابن وروح القدس• ولا يقوم غير الكهنة بالتعميد إلا للضرورة ، وحينئذ يسمى التعميد « تعميد الضرورة » (٢) • ولا تجيز الكنيسة القبطية التعميد بالرش إلا للضرورة كذلك ، وتلزم أن يكون بالتغطيس ، وأن يكون ثلاث مرات، الأولى باسم الأب ، والثانية باسم الابن ، والثالثة باسم روح القدس(٣)•

ويقول صاحب كتاب الأصول والفروع عن التعميد : « فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء باسم الأب والابن والروح القدس الى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم يسوع المسيح ، وهى ختم عهد النعمة كما كان الختان فى الشريعة الموسوية ، والعمودية تدل على اعترافهم العلنى بإيمانهم وطاعتهم للأب والابن والروح القدس

---

(١) Pengadjsran Geredjs Katolik pp. 147-154.

وانظر كتاب « وحدة الدين والفلسفة والعلم » للسيد محمود ابو الفيض ص ١٢٢ •

(٢) زكى شنودة : تاريخ الاقباط ص ٨ .

كإلههم ومعبودهم الوحيد • ولا يجوز أن يعمّدوا إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهاراً أمام كنيسة الله (١) » •

ويذكر الأب بولس إلياس عن سر المعمودية أنها تمحو الخطيئة الأصلية فى النفس وتلدها ثانية (٢) •

العشاء الربانى Saciament

يطلق عليه أيضاً « التناول » وهو أيضا عادة أخذت عن الأديان السابقة للمسيحية (٣) ، ويرْمز بالعشاء الربانى الى عشاء عيسى الأخير مع تلاميذه اذ اقتسم معهم الخبز والنبيذ ، والخبز يرمز الى جسد المسيح الذى كُسِرَ لنجاة البشرية ، أما الخمر فيرمز الى دمه الذى سفك لهذا الغرض ، ويُستعمل فى العشاء الربانى قليل من الخبز وقليل من الخمر لذكرى ما فُعِلَ بالمسيح ليلة موته وكذلك ليكون هذا طعاماً روحياً للمسيحيين فمن أكل هذا الخبز وشرب هذه الخمر استحال الخبز الى لحم المسيح والخمر الى دمه فيحصل امتزاج بين الآكل وبين المسيح وتعاليمه (٤) وسيأتى مزيد من الايضاح لهذا الموضوع عند الكلام عن الاستحالة •

وقد جاء فى رسالة بولس لأهل كورنثوس عن العشاء الربانى ما يلى: « إن الرب يسوع فى الليلة التى أُسلم فيها أخذ خبزاً ، وشكر ، فكسر ، وقال : خذوا وكلوا • هذا هو جسدى المكسور لأجلكم ، اصنعوا هذا لذكرى ، وكذلك أعطاهم قليلا من الخمر وقال : خذوا واشربوا هذا هو دمى المسفوكَ لأجلكم ، وإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذا

---

(١) انظر كذلك Pengadiaran Geredja Katolik H. 147-154.
(٢) يسوع المسيح ص ٢١٠ •
(٣) عمر عنايت : العقائد ص ١٠٥ •
(٤) انظر كتاب « وحدة الدين والفلسفة والعلم » للسيد محمود ابو الفيض ١٣٢ •

الكأس تخبرون بموت الرب حتى يعود (١) » ، ومن أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الخبز يرمز الى جسم المسيح الذى كسر لنجاة البشرية ، وأن الخمر يرمز الى دمه الذى سفك لهذا الغرض أيضاً (٢) .

وجاء فى انجيل يوحنا قول عيسى : والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم ، ومن يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية يثبت فىّ وأنا فيه ، فمن يأكلنى فهو يحيا بى (٣) .

تقديس الصليب وحمله :

إن تقديس الصليب عند المسيحيين سبق صلب المسيح نفسه ، فقد ورد عن المسيح قوله « إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى (٤) » ومعنى حمل الصليب عندهم هو الاستهانة بالحياة والاستعداد للموت فى أبشع صوره ، أى صلبا على خشبة كما يفعل بالمجرمين والآثمين ، وقويت فكرة تقديس الصليب بعد صلب عيسى ، فأصبح أداة تذكر المسيحيين بالتضحية الضخمة التى قام بها المسيح من أجل البشر . ومن العجيب أن الكنيسة التى تعلن الحرب على الأصنام هى بذاتها تقدس صليبا مصنوعا من معدن أو خشب وتوصى بتقديسه(٥) . قد يقول المسيحيون إن الصليب ليس إلا رمزا ، ونجيبهم أن العرب فى جاهليتهم الأولى قالوا عن عبادتهم للأصنام « ما نعبدهم إلا ليقربونا

---

(١) كورنثوس الاول ١١ : ٢٣ — ٢٦ .

(٢) Pengadjaran Geredja Katolik Hal. 197.

(٣) الاصحاح السادس ، اقرأ الفقرات ٥١ — ٥٨ .

(٤) لوقا ٩ : ٢٣ .

(٥) عبد الأحد داود : الانجيل والصليب ص ٨ .

الى الله زلفى (١) » ومع هـذا فقد عِيبَتْ عليهم عبادتهم للأصنام مع أنهم كانوا فى عهد جاهلية .

من الواضح أن هناك علاقة بين تقديس الصليب عند المسيحيين وبين النظم الرومانية التى كانت تجعل حمل الصليب دليلا على صدور الحكم بالإعدام صلباً ، فحَمَل المسيحيون الصليب استعداداً لهـذه الحالة ، فالتعبير بحمل الصليب مستعار من العـادة التى قضت بهـا الأنظمة الرومانية على المحكوم عليه بالصلب أن يحمله كل يوم .

(١) سورة الزمر الآية الثالثة .

المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية

تحدثنا عن العقائد المسيحية ، وعن شعائر المسيحيين ، ووقفنا وقفة بعد كل من هذه العقائد وتلك الشعائر نذكر مصدرها ، ونبيّن أنها جميعا ليست من المسيحية الحقيقية فى شىء ، وأنها تعاليم دخيلة على الدين المسيحى كما علمه عيسى بن مريم عليه السلام •

وكان من بين المراجع الكثيرة التى انتفعتُ بها وأنا أُعِدُّ الطبعات المتعددة لهذا الكتاب ، مجموعة مراجع بالغة الأهمية • كانت كبيرة النفع فى تبيان المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية التى تعلّمها الكنيسة ، وهذه المراجع هى :

أولا — كتب كتبها مسيحيون مصريون لهم صلة بالدراسات المصرية القديمة ، وسنتحدث عنها بعد قليل •

ثانياً — The Life of Buddha by Edward Thomas

ثالثا — The Sources of Christianity by Khwaja Kamal ud-din

رابعاً — Pagan Christs by L. Ropertson

وسنتكلم عن هذه المجموعة من المراجع موضحين اتجاهاتها فى الحديث عن المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية •

ومجموعة المراجع العربية التى أشرنا لها فى « أولا » تشمل الكتب الآتية :

١ — مجد الكتاب المقدس للاستاذ صابر جبره •

٢ — كنائس القاهرة القبطية للاستاذ رءوف حبيب •

٣ — فى رحاب المعبود توت للدكتور سامى جبره •

الفكر المصرى فى المسيحية :

يقول الدكتور صابر جبره إن كلمة الحيــاة عنــد قــدماء المصريين تـُرسـَم بما يـُرسم الصليب ، وليس بعيداً إذاً أن يكون رســم الصليب مقتبساً من الفكر المصرى ، بمعنى نهاية الحيــاة ، أو الحيــاة التى تلى الصلب ، ويقول كذلك • إن فكرة التثليث عند قدماء المصريين كانت نبوءة فطرية للتثليث فى المسيحية (١) •

ويقول الأستاذ رءوف حبيب فى حديثه عن نشأة المسيحية بمصر : المصريون من أسبق الشعوب التى اعتنقت المسيحية ، إذ وَجد المصريون فى حياة المسيح صدى لقصة أوزوريس الإله الذى ذهب ضحية روح الشر، وكذلك اتفقت قصة المسيح من ناحية نظام الثالوث الأقدس مع قصــة التثليث فى الفكر المصرى (٢) • (أوزوريس وإيزيس وحورس) ويتضح من كلام الأستاذ رءوف حبيب عن تطابق العقائد بين الفــكر الفرعونى والفكر المسيحى أن تفكيراً مصرياً عميقاً ظهر فى المسيحية •

ويقول الدكتور سامى جبره (٣) إن كثيراً من المفكرين يتجهون الى أن الثالوث يرجع الى خمسة عشر قرناً على الأقل قبل مولد المسيح ، فقد وُجدَ فى مصر فى ذلك التاريخ ، وتأثر الفكر المسيحى بالفــكر المصرى وبخاصة بسبب قرب المسافة بين موطن الفكر الفرعونى والفكر المسيحى•

ونختتم حديثنا عن التشابه بين العقائد المصرية وبين الفكر المسيحى باقتباس من الدكتور محمد حماد (٤) يقول : المسيحية كدين ليست بعيدة فى أسسها عن العقائد المصرية القديمة ، وهناك تشابه كبير بين الاثنين فى كثير من الوجــــوه •

الفكر البوذى فى المسيحية :

أما المرجع الثانى فقد عقد فصلا خاصاً لمناقشة المقارنة بين البوذية

---

(١) مجد الكتاب المقدس : ص ١٠٣ •
(٢) كنائس القاهرة القبطية : ص ١
(٣) فى رحاب المعبود توت : ص ٢٤ •
(٤) الفنون والطرز القبطية : ص ٦ •

والمسيحية (١) . ويتضح من هذا الفصل أن المسيحية استعارت كثيراً من معتقداتها وشعائرها من البوذية ، فالتثليث ، والأقانيم ، وقصة الصلب للتكفير عن خطيئة البشر ، والزهد ، والتخلص من المال للدخول فى ملكوت السموات ، والرهبانية ... كلها مستعارة من البوذية التى سبقت المسيحية بعدة قرون .

المسيحية اقتباس من مصادر متعددة :

وأما المرجع الثالث فدراسة واسعة مستفيضة حول الأصول التى انحدرت منها عقائد المسيحية الحالية وشعائرها ، وهذا المرجع يصور المسيحية ثوباً مهلهلا تكوّن من مجموعة كبيرة من الرقاع ، جاءت كل رقعة منها من وادٍ ، فبعض المعتقدات انحدر من الأديان الوثنية ، وبعضها من ديانة متراس ، وبعضها من البوذية ، وبعضها من الفلسفة الإغريقية ، وبعضها من الخرافات التى يدين بها البدائيون وهكذا .

الوثنية فى المسيحية :

وأما المرجع الرابع فإن عنوانه : « المسيحية الوثنية » وهذا العنوان خير دليل على اتجاه مباحثه .

وإذا اكتفينا بما أوردناه عما اقتبسته المسيحية من الفكر المصرى فإننا ينبغى أن نطيل وقفتنا لنوضّح ما اقتبسته المسيحية من البوذية والوثنية .

وقد ظهرت البوذية قبل المسيحية بأكثر من خمسة قرون ، ويلاحظ غوستاف لوبون تشابها واضحاً بين الديانتين من ناحية الشكل ومن ناحية الموضوع ، ونقتبس منه قوله : إنك تلاحظ تماثلا عجيباً من كل وجه بين صيام عيسى فى البرّية حيث حاول الشيطان أن يغويه ثلاث مرات ، وصيام بوذا فى الآجام حيث حاول الشيطان أن يغويه ثلاث مرات أيضاً ، ويذكرنا ما حدث لهذا الحكيم الهندوسى مع المرأة التى طلب منها أن تسقيه وهى من الطبقة الدنيا ، بما حدث لعيسى من السامرية وما قاله

---

(1) Chap, xvll pp. 237-248.

لها ، وكلتا الديانتين أمرتا بالاحسان والزهد ، وكلتاهما ناطتا الخطيئـة بالنيات كما تناط بالأعمال ، وكلتاهما ابتدعتا الرهبانية ، ولم تكونا سوى وجهين لحادث مهم واحد فى تاريخ العالم • ويختم غوستاف لوبون هذه المقارنة بقوله : وليس مما نبالى به كثيراً أن تكون إحداهما مدينة للأخرى فلا ندرس هذا الأمر فى هذا الكتاب (١) •

أما نحن فإننا ندرس هذا الأمر فى هذا الكتاب ، ولذلك نقـرر أن مسيحية بولس استعارت هذا وسواه من البوذية ، فطبيعـة اللاحق أن يستعير من السابق ، ولا يمـكن للعكس أن يكون ، وبخاصـة أن هـذه الاتجاهات دُوِّنت قبل ظهور عيسى ، وهى وليدة الحياة الهندية وسائرة فى أفقهـــا (٢) •

وبمناسبة الاشارة الى بولس هنا نقتبس من Khwaia Kamalud - din اقتباساً يقرر انقطاع العلاقة بين الأناجيل والكنائس ، على الرغـم من تأثر الأناجيل برسائل بولس تأثراً جعلها لا تعارض هذه الرسائل وتكتفى بالاتجاه التاريخى عن المسيح ، يقول Khwaia Kamalud - din :

إذا درسنا الأناجيل دون نظر لما كتبه القديس بولس ، فإننا نجـد تعاليم عيسى وكلماته لا تنسق مع اتجاه الكنائس فى عهدنا الحاضر (٣) •

فمن أين اتخذت الكنائس قدوتها ؟ وما المصدر الذى استقت منـه الـكنائس اتجـاهاتها ؟ •

فى الاجابة عن هذا السؤال يقول هذا المؤلف فى طبعته الأخـيرة بحـــروفه :

Iam glad to say that none of my Church Critics have questioned the correctness of the facts that lead me to conclude that most of the Furnitnue of current Christianity has been borrowed from Paganism.

---

(١) حضارة الهند ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .
(٢) انظر أديان الهند الكبرى للمؤلف .
(٣) The Sources of Christianity p. 15.

يسرنى أن أسجل أنه ، من بين المسيحيين الذين تعرضوا لكتابى هذا بالنقد والمناقشة ، لا يوجد واحد عارض الحقائق التى ذكرتها به والتى قادتنى الى أن أقرر أن أكثر تعاليم المسيحية الحالية مستعار من الوثنيـــة (١) » •

وهذا المؤلف هو و Ropertson يذكـــران تفاصيل الديـانات الوثنية التى استعارت المسيحية شعائرها وعقائدها ، كما يذكران هـذه الشعائر وتلك العقائد المستعارة ، وفيما يلى بعض التفاصيل لهذه المسائل:

مقارنة العقائد الوثنية بعقائد المسيحية الحالية :

قبل ظهور المسيح كانت هناك معابد كثيرة تقـدس عـددا كبيرا من الآلهة فهناك مثلا آبلُّو الذى كان يقدسه الإغريق ، وهيركوليس معبود الرومان ، ومثرا معبود الفرس ، وأدونيس معبود السوريين ، وأوزوريس وإيزيس وحورس معبودات المصريين ، وبعل معبود البابليين ، وسواهم كثيرون وكانت هذه الآلهة تعتبر كلها من نسل الشمس ، وفى هذه الأديان أو أكثرها كانت توجد المعتقدات الآتية :

ـ كل هذه الآلهة ينسب لها أنها وُلِدَتْ فى نفس الفترة [الشهر أو الموسم] التى ينسب لعيسى أنه ولد فيها •

ـ كل هؤلاء وُلدوا فى كهف أو حجرة أو بعيدا عن الناس •

ـ كلهم عاشوا حياة فيها عناء من أجل الجنس البشرى •

ـ كلهم كانوا يُنْعَتُون ، المخلِّص ـ المنقذ ـ الوسيط •

ـ كلهم قُهروا بقوى الشر والظلام •

ـ أُلقى بهم بعد هزيمتهم فى المدافن أو النيران السفلى •

ـ هبُّوا جميعاً من مدافنهم بعد الموت وصعدوا الى عالم السماء •

ـ أسسوا جميعاً خلفاء لهم ورسلا ومعابد •

Ibid. p. XI. (١)

ويتضح من هذا أن المسيحية اقتبست كل هـذه المعتقـدات (١) ، ويمكن أن نعطى تفاصيل أوسع عن أحد المعتقدات السابقة لنرى مدى صلة المسـيحية بهـا :

متراس : هذه الديانة فارسية الأصل ، وقد ازدهرت فى بلاد فارس قبل الميلاد بحوالى ستة قرون ، ثم نزحت الى روما حوالى سنة ٧٠ ق.م، وانتشرت فى بلاد الرومان ، وصعدت الى الشمال حتى وصلت بريطانيا ، وقد اكتشفت بعض آثارها فى مدينة يورك ومدينة شسـتر وغيرهما من مدن انجلترا وتذكر هذه الديانة أن :

— مترا كان وسيطاً بين الله والبشر .

— وأن مولده كان فى كهف أو زاوية من الأرض .

— وأنه ولد فى الخامس والعشرين من ديسمبر .

— كان له اثنا عشر حواريا .

— مات ليخلص البشر من خطاياهم .

— دفن ولكنه عاد للحياة وقام من قبره .

— صعد الى السماء أمام تلاميذه وهم يبتهلون له ويركعون .

— كان يُدْعَى مُخلصاً ومنقذاً .

— ومن أوصافه أنه كان كالحمل الوديع .

— كان أتباعه يعمَّدون باسمه .

— وفى ذكراه كل عام يقام عشاء مقدس (١) .

---

(١) The Sources of Christianity pp. 29 - 30.

(٢) Ropertson : pagan christs p. 338.

ويقول Ropertson إن ديانة متراس لم تنته فى روما إلا بعد أن انتقلت عناصرها الأساسية الى المسيحية (١) .

مقارنة بين محاكمة بعل ومحاكمة عيسى :

وإذا كانت ديانة متراس قد أمدّت المسيحية بهذه التعاليم فإن ديانة بعل إله البابليين كانت معيناً للمسيحية فى موضوع هام من موضوعاتها العاطفية ذلك هو قصة محاكمة عيسى وصلبه ، وقد وضع البابليون قصة محاكمة بعل فى تمثيلية مؤثرة كانت تُمثّل كل عام قبل مولد المسيح بقرون عديدة ، وكانت تمثيلية حافلة بالغموض والحزن ، وقد اكتُشِف فى مطلع هذا القرن **بأرض بابل لوحتان** يرجع تاريخهما الى القرن التاسع قبل الميلاد ، وسُجلت عليهما قصة محاكمة بعل ونهايته. وقد أُخذ اليهود الى سجن بابل منذ عهد بختنصر وهناك رأوا هذه التمثيلية تعرض كل مطلع ربيع ، وعندما عاد اليهود الى ديارهم كانت هذه القصة عالقة بأذهانهم ومؤثرة فى حياتهم ، فانعكست على آدابهم وعلى حياتهم العامة ، **وعقب نهاية المسيح ظهرت تمثيلية بعل بنفس عناصرها مع اسم جديد وضع مكان بعل وهذا الاسم هو المسيح** ، حتى ليمكن القول إن قصة صلب المسيح كما توردها الأناجيل هى قصة منتحلة تماماً وفيما يلى بعض عناصرِ التشابه بين القصتين :

محاكمة بعل	محاكمة عيسى
١ ـ أُخذ بعل أسيراً	أُخذ عيسى أسيراً
٢ ـ حوكم بعل علناً	وكذلك حوكم عيسى
٣ ـ جرح بعل بعد المحاكمة	اعتُدِى على عيسى بعد المحاكمة
٤ ـ اقتيد بعل لتنفيذ الحكم على الجبل	اقتيد عيسى لصلبه على الجبل

(1) Ibid. : 350.

محاكمة بعل	محاكمة عيسى
٥ — كان مع بعل مذنب حكم عليه بالاعدام ، وجرت العادة أن يُعفَى كل عام عن شخص حكم عليه بالموت : وقد طَلَبَ الشعب إعدام بعل والعفو عن المذنب الآخر •	وكان مع عيسى قاتل اسمه باراباس محكوم عليه بالإعدام ، ورشح بيلاطس عيسى لِيُعْفَى عنه كالعادة كل عام ، ولكن اليهود طلبوا العفو عن باراباس وإعدام عيسى
٦ — بعد تنفيذ الحكم على بعل عمّ الظلام وانطلق الرعد واضطرب الناس	عقب تنفيذ الحكم على عيسى زلزلت الأرض وغامت السماء
٧ — حرس بعل فى قبره حتى لا يَسرِق أتباعُه جثمانه	وحرس الجنود مقبرة عيسى حتى لا يسرق حواريوه جثمانه •
٨ — إلاهات جلسن حول مقبرة بعل يبكينه	مريم المجدلية ومريم أخرى جلستا عند مقبرة عيسى تنتحبان عليه
٩ — قام بعل من الموت وعاد الى الحياة مع مطلع الربيع وصعد الى السماء	قام عيسى من مقبرته فى يوم أحد وفى مطلع الربيع أيضاً وصعد إلى السماء (١) •

مقارنة بين حياة بوذا وحياة عيسى :

وهناك مقارنة أخرى ، هذه المرة بين بوذا وبين عيسى ، وقد أورد هذه المقارنة كل من T. W. Doane (٢) و Edward Thomas (٣) و Khwaja

---

(١) Khwaja Kamal - ud - din : The Seurces of Christianity pp. 44 - 49.

(٢) Bible Mythology pp. 287-297.

(٣) The Life of Boddha pp. 237 - 248.

Kamal - ud - din (١) ومنهم من أفاض فيها ومنهم من أوجـز ، وفيما يلى خلاصة ما ذكره هؤلاء المؤلفون •

بوذا	عيسى
١ — عند مولد بوذا ظهر نجـم فى السماء يبشر به ، وقـد رئى هذا النجم يسير نحو مـكان مـولده ، وتبعـه من رآه ليسجدوا للوليد	وعند مولد عيسى ظهر هذا النجم أيضاً يبشر بمولد المخلّص، وقاد جماعات المجوس نحـو مـكان ولادته فرأوا الطفل وسجدوا له
٢ — ولد بوذا فى اليوم الخـامس والعشرين من ديسمبر كمـا تذكر الأساطير الهندية •	ولد عيسى فى الخامس والعشرين من ديسمبر أيضاً •
٣ — عنـد مولد بـوذا احتفـلت الملائـكة بولادته وسـبّحت بحمده قائلة إن المبارك قـد ولد اليوم ليمنـح السـلام للناس والمسرة للأرض •	وعند مولد عيسى ظهرت الملائكة فى الجو مسـبحة فى الحقـول بالقرب من بيت لحم ، وكـانت تسبح بحمد (المبارك) وتقول : للنـاس المسرة وعـلى الأرض السـلام •
٤ — كـان مولد بوذاخطـراً على الملك والسلطان فهـدده ملك بنباسارا وأراد قتـله ، حتى لا يكون سببا فى القضاء على سـلطانه •	وكان عيسى خطـراً كذلك عـلى ملك هـيرودوس ولذلك أراد هيرودوس قتله لولا أنه فرّ إلى مصر مـع أمه •
٥ — وعندما كان بوذا على وشك	وعند بدء دعوة عيسى ظهـر له

(١) The Sources of Christianity pp. 62 - 70.

عيسى	بوذا
الشيطان (The Devil) محاولا تضليله .	أن يبدأ دعوته ظهر له الشيطان (Mara) ليحاول تضليله .
وقال الشيطان لعيسى : إذا عبدتنى سأجعلك ملكا على العالم كله	٦ ـ قال مارا لبوذا ابتعد عن الدعوة الدينية وتصبح إمبراطور العالم .
ولم يسمع عيسى لكلمات الشيطان وصاح به : أخسأ أيها الشيطان .	٧ ـ ولم يهتم بوذا بمارا وصاح به : ابتعد عنى .
وبعد أن انتصر عيسى على الشيطان هبطت الملائكة لعيسى وكرّمته .	٨ ـ وبعد أن انتصر بوذا على مارا أمطرت السماء زهورا وعبِقَ الهواء بعبير طيب .
وصام عيسى أربعين يوما بلياليها	٩ ـ وصام بوذا فترة طويلة .
وعَمّد يحيى عيسى فى نهر الأردن وكان ذلك أيضا فى حضرة روح الله وروح القدس .	١٠ ـ وتعمد بوذا بالماء المقدس ، وفى أثناء تعميده كانت روح الله حاضرة وكذلك روح القدس
وتقبل صلاة المسيحيين مادامت باسم عيسى وينالون بسببها الفردوس .	١١ ـ وتُقْبَل صلاة البوذيين وتقودهم إلى الفردوس ما دامت تقدم باسم بوذا .
وعندما مات عيسى ودفن أزاحت	١٢ ـ وعندما مات بوذا ودُفن

بوذا	عيسى
شُقَّ قبره بقوة من قوى ما فوق الطبيعة وعاد للحياة •	قوة من قوى ما فوق الطبيعة الحجارة عن قبره وعاد عيسى إلى الحياة •
١٣ــ وصعد بوذا إلى السماء بعد أن أتم دعوته على الأرض •	وصعد عيسى كذلك بعد انتهاء دعوته على الأرض •
١٤ــ وسيعود بوذا إلى الأرض في آخر الزمان ليواصل دعوته ويستعيد مجده ويملأ الأرض سعادة ونعيما •	وسيعود عيسى كذلك ليحكم الأرض من جديد وينشر دعوته ويملأ الأرضَ بالخير والسلام •
١٥ــ وسيوكل كل حساب الناس إلى بوذا بعد البعث •	وسيوكل لعيسى أيضاً أن يحاسب الناس في الدار الآخرة •
١٦ــ وبوذا لا أول له ولا نهاية وهو خالد •	وعيسى لا أول له ولا نهاية وهو خالد كالأب •
١٧ــ ويروى عن بوذا أنه قال : إنني أحمل سيئات البشر عنهم ليصلوا إلى السلامة •	وعيسى مخلص البشر الذى قدم نفسه فداء ليكفر عن خطيئة أبيهم آدم •
١٨ــ ويروى عن بوذا قوله : أَخْفِ أعمالك الطيبة وأعلن على الناس سيئاتك التى ترتكبها •	ومما علمه عيسى لأصحابه أن يخفوا أعمالهم الطيبة ويعلنوا مساوئهم وخطاياهم •

عيسى	بوذا
وقال عيسى لأتباعه : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا لمن يبغضكم •	١٩ـ وأوصى بوذا أتباعه بالشفقة والحب حتى مع أعدائهم •
واشترط عيسى على من يريد دخول الدعوة أن يتصدق بماله ويؤثر الفقر ليدخل ملكوت الله •	٢٠ـ ونصح بوذا حوارييه وأتباعه أن يطرحوا الدنيا جانباً ويتنازلوا عن غناهم ويؤثروا الفقر ليُقبَلوا فى الدعوة •
ودعا عيسى منذ مطلع رسالته أتباعه ليدخلوا ملكوت السماء •	٢١ـ وكان هدف بوذا الأسمى أن يكوّن ما سمته الفلسفة البوذية ملكوت السماء •
ويقرر الفكر المسيحى أنه من الأفضل للرجل ألا يمس امرأة ولكن إذا خاف الزنا جاز له أن يتزوج فالزواج خير من الاحتراق بالنار •	٢٢ـ ونادى بوذا بعدم الزواج وشبّه الزواج بالاحتراق فى الفحم ، ولم يُجِزْه إلا عند خوف الزنا •

ولم تكتف المسيحية باقتباس الأحداث وإنما اقتبست أيضاً الأيام والتواريخ ، فمولد عيسى وصلبه ودعوته للحياة تقع فى أيام تتفق تماما مع أحداث وثنية ترتبط بمثل هذه الأيام كما سبق القول (١) •

أما حادثة العشاء الربانى التى سبق أن أوردناها فهى بتفاصيلها الدقيقة واردة فى ديانة متراس حذوك النعل بالنعل كما يقولون (٢) •

---

(١) The Sources of Christianity p. X.

(٢) Justin Martyr : The Christionity p. 14.

وبعد ، فقد اتضحت لنا المصادر الحقيقية للمسيحية الحالية ، ونقرر هنا بيقين أن هذا ليس خافيا على الكهنة المسيحيين الذين يقودون هذا الركب ، ويقول الأستاذ محمد فؤاد الهاشمى القسيس الذى أسلم :

إن المسيحية فى أصولها دين سماوى جاء به المسيح من عند الله ، ولكن الكهنة فى كل زمان ومكان كانوا يحتكرون الأسرار لأنفسهم ، تلك الأسرار التى لو كشفنا عنها لتبين أنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه ، وإنه ليمنعنى من الدخول فى أسرار الكنائس عديد من الاعتبارات سوف تزول ويأتى الوقت الذى نفصح فيه عن كل شىء (١) .

وأنا بدورى أرجو أن يفصح الأستاذ الهاشمى عما عنده من أسرار، فلقد قادته هذه المعرفة الى الهداية وأصبح عليه أن يعمل لهداية الآخرين.

الكنيسة فى خدمة السياسة الغربية :

ويتصل بالمصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية مصدر جديد تمارسه الكنيسة هذه الأيام ، أى بعد انحسار الاستعمار الغربى ، فإن الدول الاستعمارية أوحت للكنائس بمبادىء جديدة لتضعها الكنيسة ضمن المعتقدات المسيحية بالنسبة للدول النامية وحدها ، ففى ذلك حفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من تسلط الغرب على الدول النامية .

ويندهش الباحث عندما يرى كبار رجال الكنائس يتناسون المسيحية ومبادئها الأصلية السمحة ، ويجندون أنفسهم لخدمة الاستعمار ، وهم يتخذون الدين المسيحى وسيلة للضغط على الشعوب المسيحية النامية حتى لا تتطور ، وحتى تبقى بمنأى عن الرقى والتصنيع والتقدم ، واذا كانت الكنيسة فى الغرب تقر مبدأ فصل الدين عن الدولة ، فإنها لا تقر ذلك بالنسبة لبلاد الشرق ، ليظل كلام الكنيسة سيفا مصلتا على الرقاب، وإذا كانت الكنيسة فى الغرب تبارك التصنيع ، فإنها تعارضه فى الشرق ،

---

(١) الاديان فى كفه الميزان ص ٤٦ .

لأن العامل — فى زعمها — يعتبر نفسه خالقاً وهذا يتنافى مع الإيمان واعتبار الإنسان مخلوقاً .

وترى الكنيسة أن الثروة التى ستعود على البلاد من التصنيع ستجلب الشر على المسيحيين بالبلاد النامية ، لأن ارتفاع مستوى المعيشة تصحبه كثرة الخطايا والشرور .

وترى الكنيسة أن التقدم لن يتم إلا بالتضحية بالتراث والتقاليد الموروثة ، ولذلك فهى تقرر أن الاحتفاظ بالتراث والتقاليد خير من التقدم الاقتصادى .

وتـُتَّخـَذ المجالس الكنسية العليا وسيلة لرعاية هذه السياسة الظالمة .

لست أنا الذى أقول هذا القول ، وإنما هى كلمات مسيحى مثقف هو الدكتور رمزى فهيم ؛ فقد هاله ذلك الدور الذى تقوم به الكنيسة فى هذا المجال ، فكتب لصحيفة الأخبار يقول (١) :

« منذ عدة سنوات كنت أقرأ عن اجتماعات وقرارات مجلس الكنائس العالمى ، ولقد فوجئت حين وجدت أن ما يتعرض له من مسائل ليست من الموضوعات الدينية التى ينتظر أن تكون هى موضوع اهتماماته، فمثلا عقد المجلس مؤتمراً فى مدينة سالنيك باليونان سنة ١٩٥٩ ؛ قرر فيه أن السياسة هى المجال الذى يتحتم على الكنيسة فى دول إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية أن تعمل فيه ؛ والغريب أن المجلس يقرر فى نفس المؤتمر أن المبدأ الغربى الذى يقضى بفصل الدين عن الدولة لا يمكن اقتباسه فى الدول النامية ، وهنا يثور التساؤل : هل هناك نوعان من المسيحية أحدهما يـُطَبَّق فى بلاد الغرب والآخر (يـُفَبْرَك) بواسطة (الخبراء) ليـُعمل به فى الدول النامية .

(١) صحيفة الاخبار فى ١١ ابريل سنة ١٩٦٦ .

« ويتابع هذا المؤتمر قراراته فيطالب الكنائس فى إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية أن تراقب خطط التنمية ، فتميز فيها بين ما يتفق وإرادة الله وبين عمل الشيطان ، وأن تكون رقيبة تعلن للقوم أين يقف الله ومن أين يطل إبليس العدو .

« أما كيف يمكن أن يكون فى خطط التنمية مكان للشيطان ، فإن المجلس يعثر على إبليس فى عملية التصنيع بالذات التى تقوم بها حاليا الدول النامية ، فهو يرى أن الإنتاج الذى يحققه التصنيع يملأ النفس غروراً فيعتبر العامل نفسه أنه الخالق الذى يستغنى عن كل إله آخر . أما الله فإن مكانه فى نظر المجلس هو فى الحقل وفى القرية ، بحيث أن الانتقال من العمل الزراعى الى الصناعة — وهو الأمل الذى تحاول الدول النامية الوصول اليه لحل مشكلاتها الاقتصادية — هذا الانتقال يترتب عليه أفدح الأضرار بالإيمان الدينى وبالعائلة .

« بل يصل استخفاف المجلس بوطنية المواطنين فى البلاد النامية ، وبفهمهم للدين ، إلى الحد الذى يقرر فيه فى مؤتمر نيودلهى الذى عقد سنة ١٩٦١ أن الكنيسة يجب أن تكون متأهبة للصراع مع الدولة فى أى وطن وتحت أى نظام سياسى .

« والواقع أن المجلس يحاول فى النصف الثانى من القرن العشرين أن يقنع المواطنين فى الدول النامية بالمحافظة على مستواهم الاقتصادى الذى حددته لهم الدول التى كانت تستعمر بلادهم وتستغل مواردهم ، فبعد أن يعدد المجلس سوءات التصنيع وخطط التنمية ، مثيراً كل ما يخطر على البال من صعوبات ومعوقات فى طريق تنفيذها ، يعود للقول بأنه حتى على فرض إمكانية تحقيق ما تصبو إليه هذه الدول فإن التقدم الاقتصادى وارتفاع مستوى المعيشة ستأتى معهما بالضرورة كثرة من الخطايا والشرور فنحن مدنسون بالشر حتى أننا نجد صعوبة فى التعرف على ما يريد الله أن نعمله بمستوى المعيشة العالى حين نصل إليه .

« بل إننا نقرأ فى كتابات أقطاب هذا المجلس أنهم يحاولون وضع التقاليد والتراث الشعبيين فى مواجهة التقدم الاقتصادى والسياسى ، ويقولون إن التقدم لن يتم إلا على حساب التراث وأن الشعوب حين يطلب إليها أن تختار بين التقدم والمحافظة على القديم ستختار دون تردد قديمها بسبب ما يتطلبه التقدم الاقتصادى من جهود وتضحيات » .



ولعل هذه المصادر المصطنعة هى التى أوحت الى Wells بأن يورد مقارنة قصيرة بين الإسلام من جانب والبوذية والتاوية والمسيحية من جانب آخر ، استمع إليه يقول بعد أن تكلم عن طرد البوذية من الهند :

أصبح الآريون تحت سلطان دينين هما المسيحية والإسلام ، وهما ساميان خالصان ، وتتخذ البوذية والتاوية والمسيحية — بخلاف الإسلام — أثواباً من الطقوس والمراسم التى يلوح أنها مستقاة عن الهلّينيين ، من مصر ، أرض المعابد والكهانات ، ومن العقلية الأشد بدائية وأولية ،عقلية الشعوب الحامية السمراء (١) .

---

(1) The Outline of History vol. 2 p. 415.

طبيعة المسيح والآراء حولها

(المذاهب المسيحية)

إن تقرير ألوهية المسيح لم يكن عملا سهلا ، بل كان عملا معقداً ، سبَّب كثيراً من الاختلافات والاتجاهــات ، لا بين من قالوا به وبين من أنكروه فحسب ، بل بين الجماعات التى اتفقت على المبدأ واعتنقته ، ثم عادت تفكر فيه ، وعلى هذا أوَجَدت المشكلة مجالا للتفــريق بينهم ، وقد تحدثنا فيما سبق عن الاختلاف بين من قالوا بألوهية المســيح وبين من أنكروا هذا المبدأ ، ونريد هنا أن نتحدث عن الاختلافات التى حصلت بين الطوائف التى اجتمعت حول القول بألوهية المسيح ٠

وكان مصدر الاختلافات بين هؤلاء هو التفكير فى طبيعة المســيح للتوفيق بين الألوهية التى صدر بها قرار وأصبحت بموجبه اعتقاداً ملزماً، وبين الواقع وهو أن عيسى بن مريم كان يمشى على الأرض ، وكان يأكل كما يأكل الناس ، ويتحدث كما يتحدثون ، وكان على العموم إنساناً فى مظهره على الأقل ، ومرة أخرى اتخذ المسيحيون المجامع وسيلة للحديث عن طبيعة المسيح كما اتخذوها من قبل وسيلة لإثبات ألوهيته ، وسنتحدث فيما يلى عن آراء المسيحيين حول طبيعة المســيح ٠ وأهــم الاتجاهات التى اتجهوا اليها فى ذلك ، ثلاثة :

١ ــ مذهب النسطوريين :

مذهب النسطوريين ينسب الى نسطور الذى كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٣١ ، ومذهب النساطرة محاولة للعودة الى التوحيد أو القرب منه، ويقول نسطور (١) شارحا مذهبه : **إن مريم لم تلد إلها ، لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جســداً ، ولأن المخــلوق لا يلد الخالق ، فمريم ولدت إنسانا ، ولكن كان آلة للاهوت ٠ وعلى هذا فمريم لا تسمى والدة الإله بل والدة المسيح الانسان** ، وقد جاء اللاهوت لعيسى بعــد ولادته ، أى

---

(١) زكى شنوده : تاريخ الاقباط ١٥٩ ٠

اتحد عيسى بعد الولادة بالأقنوم الثانى اتحاداً مجازيا فمنحه الله المحبة ووهبـــــه النعمـــــة •

وقد وضع نسطور بذلك الأساس للقول بطبيعتين فى المسيح ، ذلك القول الذى سيتبناه الكاثوليك والذى سنشرحه فيما بعد ، ونبين اتفاقه وعدم اتفاقه مع رأى نسطور ، أما الكنائس الشرقية فقد اتخـــذت موقفاً معارضاً لنسطور وقالت بطبيعة واحدة ••• كما سيأتى •

وقد اعتبر ذلك بدعة من نسطور ، ولذلك طُرِد من منصـــبه ونفى من القسطنطينية ، ولكن مذهبه لم يمت ، وأحياه فيما بعد عالم مسيحى اسمه برصوما كان مطران نصيبين ، ومن ثم انتشر فى الشرق ، ولا يزال حتى الآن شائعاً فى العراق والموصل والجزيرة •

٢ — مذهب الكنائس الشرقية (الأرثوذكس) : المذهب اليعقوبى :

يجدر بنا أن نشرح هذا المذهب قبـــل أن نشرح مذهب الكاثوليك ، إذ كان مذهب « الأرثوذكس » ردَّ فعل لعقيدة نسطور ، ثم إنه أُعْلِنَ قبل أن يعلن الكاثوليك اتجاههـــم •

وقد أُعلن مذهب الأرثوذكس عن طبيعة المسيح فى مجمع عُقِـــد لهذا الغرض بمدينة إفسس بالأناضول سنة ٤٣١ واتخذ المجمـــع قراراً يوافق عقيدة البابا كيرلس بطريرك الاسكندرية ، وهو يقضى بأن المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، ففى المسيح أقنوم واحد تمّ بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ، ولذلك **فالعـــذراء تدعى بحق والدة الإلـــه ، وفيمـــا يلى** نص كلمات البابا كيرلس ســـابق الذكر : إن لسيدنا يسوع المسيح أقنوماً واحداً إلهيا اتحد بالطبيعـــة الانســـانية اتحاداً تاما بلا اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ، **فالعذراء والحالة هذه هى بحق والدة**

---

(١) سار نسطور الى مصر بعد النفى واقام باخميم حتى مات •

الإله ، فمريم لم تلد إنساناً عاديا بل ابن الله المتجسد ، لذلك هى حقا أم الله (١) •

الناسوت لم يفارق اللاهوت

وبلغة أخرى يقولون بأن الكلمة (الاله الابن) انقلبت لحما ودما فصار الاله هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده بل هو هو ، وينتشر المذهب الأرثوذكسى فى مصر والنوبة والحبشة •

وقد يسمى هذا المذهب بالمذهب اليعقوبى نسبة الى داعية مشهور اسمه يعقوب البرادعى قام بالدعوة له ونشره •

وكان هذا الاتجاه حول طبيعة المسيح من الأسباب التى فصلت الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية •

٣ ــ مذهب الكاثوليك : الملكانية :

مذهب الكاثوليك هو مذهب الطبيعتين والمشيئتين وقد اعتنقته كنيسة روما ، واتخذت به قراراً فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ، وهذا **المذهب يقول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، فالمسيح أقنوم إلهى بحت، ولكن له ذاتان وكيانان هما الإله والانسان** ، ومن الواضح أن هذا القول متأثر الى حد ما باتجاه نسطور سالف الذكر الذى يرى بأن المسيح إنسان غمره اللاهوت بعد ولادته ، **ولكن الكاثوليك يختلفون عن نسطور فى اعتقادهم أن مريم ولدت الاثنين جميعاً** ، فهى قد ولدت يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية ومع الناس فى الطبيعة الانسانية ، فهو طبيعتان ومشيئتان وأقنوم واحد ، وقد حضر زوج الملكة مجمع خلقيدونية ولذلك يسمى هذا المذهب بالمذهب الملكانى •

وكنيسة هؤلاء من الطقس البيزنطى ، وتنتشر الملكانية فى سوريا ومصر وفلسطين ، ولهم جالية كبيرة فى الولايات المتحدة ، ولصلتهم بالطقس البيزنطى تسمى كنيستهم بكنيسة الروم •

---

(١) زكى شنوده : تاريخ الاقباط ١٦٠ ــ ١٦١ •

٤ ـ المذهب المـــارونى :

المذهب المارونى نسبة الى رجل اسمه يوحنا مارون دعا سنة ٦٦٧ الى أن للمسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد ، ولكن البطارقة لم يقبلوا ذلك وأشاروا على الامبراطور أن يعقد مجمعا ، فعقِد مجمع بالقسطنطينية سنة ٦٨٠ وقرر أن للمسيح طبيعتين ومشـــيئتين ، وكان ذلك تأكيدا لمذهب الكاثوليك ، وقد لعن هذا المجمع كل من يقول بغير ذلك •

اليسوعيون والكنيسة الكاثوليكية :

وقبل أن نترك الطوائف المسـيحية يجدر بنـا أن نتـكلم كلمة عن اليسوعيين : الذين أخذوا شهرة واسعة فى مجال الدعوة للمسـيحية ، وقد تأسست جماعة اليسوعيين سـنة ١٥٢٤ ومؤسسها فارس أسـبانى اسمه اجناسيوس ، قد أسسها عقب أن جرح فى الحروب بين المسـلمين والأسبان فى الأندلس ، فـكرس بقية حيـاته لخـدمة الدين والدعـوة للمسيحية فى ظل الكنيسة الكاثوليكية ، واعترف البابا سنة ١٥٤٠ بهـذه الجمعية فكثر أعضاؤها وزادت قوتها ، وكانت نظمها عسكرية صـارمة ، واتخذت التربية وسيلتها لنشر المسـيحية ، فاهتمت بالجامعات والمعاهد العليا ، وجذبت لها أبناء الطبقة الراقية لأنهم الذين سيكون لهم مستقبل الحكم بالبلاد ، ونشروا معاهدهم وكلياتهم فى أقطار مختلفة ، واختاروا لها أحسن الأساتذة ، ووضعوا مناهجها لتشمل التربية الدينية الصارمـة ولتشمل بجوار ذلك باقى المواد والعلوم حسب طبيعة الكليات •

وتحت الرقابة والعمل لتنمية أهداف الجمعية لـم يوجـد بالمعاهد اليسوعية ابتكار وضعفت روح التفكير الحـر والابداع ، إذ كانت هـذه المعاهد خاصة لأهداف دينية عتيقة ، تريد الوصول لتحقيقها أكثر ممـا تريد تربية النفوس والأجيال ، ولذلك لم تحقق ما كـانت ترجـوه من أهـــداف •

الحواريون والرسل

الحواريون هم أولئك الذين آمنوا بعيسى وعاونوه وتتلمذوا عليه وعددهم اثنا عشر ، وهم كما ذكر متى (١) :

١ — سمعان المعروف باسم بطرس .
٢ — اندراوس أخو سمعان .
٣ — يعقوب بن زبدى .
٤ — يوحنا أخو يعقوب .
٥ — فيلبس .
٦ — برثولماوس .
٧ — توما .
٨ — متى العشار .
٩ — يعقوب بن حلفى .
١٠ — لباوس الملقب تداوس .
١١ — سمعان القانوى (الغيور) .
١٢ — يهوذا الاسخريوطى .

وهناك الرسل السبعون الذين يقال إن المسيح اختارهم وأرسلهم ليعلموا المسيحية .

وهناك المائة والعشرون الذين خطب فيهم بطرس خطاباً امتلئوا بعده بالروح القدس وراحوا يدعون للمسيحية ، وعن طريق هؤلاء المائة والعشرين اختير بالقرعة بديل ليهوذا الخائن فوقعت القرعة على ميتاس ، فأكمل الاثنى عشر (٢) .

---

(١) الاصحاح العاشر : ٢ — ٤ .
(٢) أعمال ٢ : ١٣ — ٢٦ .

المجـــامع

المجامع هيئات شورية فى الكنيسة المسيحية ، رَسَمَ الرسل نظامَها فى حياتهم ، إذ عقدوا المجمع الأول فى أورشليم سنة ١٠٥ م برياســة الأسقف « يعقوب الرسول » للنظــر فى ختان الاممى (غــير اليهود) ثمَّ نسجت الكنيسة على منوالهم •

والمجامع قسمان : مجامع مسكونية [أى عالمية مسكونية نسبة الى الأرض المسكونة] • ومجامع محلية أو مكانية ، وقد عُقــدت المجامــع المسكونية عدة مرات فى القرون الأولى ؛ وشهدها ممثــلو الــكنائس من جميع الأقطار وكان السبب الرئيسى لعقدها ظهور مذاهب دينية غريبــة ينبغى فحصها واصدار قرارات بشأنها وشأن مبتدعيها ، وقد عقــد من المجامع المسكونية عشرون مجمعا ابتداء من مجمع نيقية سنة ٣٢٥ حتى مجمع الفاتيكان سنة ١٨٦٩ ولا يعترف الارثوذكس إلا بقرارات المجامع السبعة الأولى التى كان آخرها مجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ ومن أهم المجامع مجمع نيقية الأول ومجمع القسطنطينية الأول ، وفيهما تقــررت العقائد الرئيسية للمسيحية التى تلتقى حولها جميــع الفــرق والمذاهب المسيحية ؛ (ألوهية المسيح وألوهية روح القدس واستكمال عقيدة التثليث بذلـــــك) •

وأما المجامع المكانية فكثيرة • وكانت الكنائس ولا تزال تعقدها فى حيزها الخاص لإقرار عقائد معينة ، أو رفض بعض العقائد ، أو للنظر فى بعض الشــئون المحلية (١) •

ولعل من الخير ونحن على ذكر بكثير من المجامع أن نــلم إلمــامه قصيرة شاملة بأهم المجامع المسيخية ، مسكونية أو محليــة ، وأن نبين ما اتخذته من قرارات ، وفيما يلى هذا الحديث :

---

(١) زكى شنوده : تاريخ الاقباط ص ١٦٨ — ١٦٩ •

١ ـ مجمع نيقية لمعارضة أريوس : (مجمع مسكونى)

عُقِدَ مجمع نيقية Nicaea سنة ٣٢٥ وكان عقدُه رداً على الوحدانية التى تزعَّم أريوس القول بها ، ويُعَدُّ مؤتمر نيقية أهم المجامع المسيحية ، اذا اتُّخِذَت فيه أخطر القرارات ، وكان عقده بأمر الإمبراطور قسطنطين الكبير ، وقد سبق أن ذكرنا أن عدد الذين حضروه أولا من الآباء الروحانيين ٢٠٤٨ وأن الخلاف اشتد بينهم حول القول بألوهية المسيح ووصل الخلاف الى المعارك ، وتبنَّت الأغلبية الساحقة رأى أريوس ، فأصدر الإمبراطور قراره بفض الاجتماع ثم أعيد عقد الاجتماع عقب ذلك ولم يحضره إلاّ الأعضاء القائلون بالتثليث وبألوهية المسيح وعددهم ٣١٨ وحضر الإمبراطور نفسه ، واتُّخِذَت فيه قرارات خطيرة وضعت الأساس للمسيحية التى لا تزال تتبعها الكنائس ، وأهم هذه القرارات ما يلى :

(أ) القول بألوهية المسيح ونزوله ليصلب تكفيراً عن خطيئة البشر •

(ب) عدم التصريح لمن يترمل من الكهنة بأن يتزوج مرة أخرى • كى يكون كل منهم كما قال بولس الرسول (بعل امرأة واحدة) •

(ج) اختار المجمع الكتب المقدسة التى لا تتعارض مع القرارات السابقة وقرر تدمير ما عداها من الرسائل والأناجيل •

٢ ـ مجمع صور وتجديد رأى أريوس عن الوحدانية : (مجمع أقليمى)

مجمع صور الاقليمى الذى عقد بعد ذلك ببضع سنوات وقرر وحدانية الله وأن المسيح رسوله ، فكان بذلك تجديداً لرأى أريوس القائل بالوحدانية ، وهذا المجمع لم يُعْتَرف به •

٣ — مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م وقد قرر هذا المجمع أن روح القدس إله .

٤ — مجمع إفسس الأول Ephesus سنة ٤٣١ الذى تحدثنا عنه آنفا والذى تقرر فيه أن المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، وأن العذراء ولدت إلهاً وتدعى لذلك أم الإله ، وكان ذلك رداً على حركة نسطور .

٥ — مجمع إفسس الثانى سنة ٤٤٩ وقد عقد بأمر الامبراطور تاءوديوسوس وناقش فلابيوس الذى اتهم بإحياء آراء نسطور ثم حكم بعزله ولم تعترف كنيسة روما بهذا المجمع (١) .

٦ — مجمع خلقيدونية Chalecodon سنة ٤٥١ م وقد أيّد هذا المجمع قرار مجمع إفسس الأول ورفض قرار مجمع إفسس الثانى ، ولعن نسطور وديسقورس وأتباعهما ، وكان هذا المجمع قد عقد أولا فى القسطنطينية ثم انتقل الى خلقيدونية وقد حضره أساقفة روما ، كما حضره البابا ديسقورس بطريرك الإسكندرية ومعه أساقفته . وقد اشتد الخلاف بين الفريقين فى اليوم الأول حتى إذا كان اليوم الثانى مُنِع البابا ديسقورس وأساقفته بالقوة من حضور الجلسة ، واتخذ المجتمعون قراراً يقول بالطبيعتين والمشيئتين ، ورفض ديسقورس طلب الإمبراطور الموافقة على هذا القرار ، فنفاه الإمبراطور بعيداً عن مصر حيث مات فى منفاه ، وقد ظل أقباط مصر حتى الآن يرفضون قرارات هذا المجمع ويدينون بالولاء لبطريرك الإسكندرية (٢) .

(مجمع الموافقة على العقيدة الكاثوليكية)

٧ — مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ م وقد أيد قرارات مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية الأول ومجمع خلقيدونية ولعن وطرد أصحاب الفكرة التى شاعت حينئذ عن تناسخ الأرواح وأن شخص المسيح لم يكن حقيقة بل خيالا .

---

(١) زكى شنودة : تاريخ الاقباط ج ١ ص ١٧٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٧٧ .

٨ — مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ وقد قرر هذا المجمع أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، وكان ذلك رداً على المذهب المارونى الذى كان يقول بطبيعتين ومشيئة واحدة .

٩ — مجمع رومة سنة ٨٦٩ وفى هذا المجمع تقرر :

(أ) اعتبار الروح القدس منبثقاً من الأب والابن .

(ب) مَنْ يريد المحاكمة فى أمر يتعلق بالمسيحية يرفع دعوى الى كنيسة روما .

(ج) المسيحيون فى جميع بلاد العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما .

١٠ — مجمع القسطنطينية الذى عقد سنة ٨٧٩ برياسة فوسيوس بطريرك كنيسة القسطنطينية وفيه تقرر أن انبثاق الروح القدس من الأب فقط ، وبهذا المجمع وسابقه تمّ انقسام الكنيسة إلى غربية وشرقية، وأصبحت المجامع خاصة بإحداهما وتبْطِل قرارات الأخرى ولا تعترف بهـا .

١١ — مجمع رومة الذى عقد سنة ١٢٢٥ وفيه تقرر أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء .

١٢ — مجمع رومة سنة ١٨٦٩ وفيه تقرر أن البابا معصوم .

ومن الواضح للباحث أن هذه المجامع اتخذت سلطة قوية وقررت قرارات تعتبر أصولا فى الدين المسيحى ، إنها صنعت الآلهة وتحدثت عن طبيعتها ، ومنحت الكنيسة سلطة محو السيئات ، وقررت عصمة البابا ، وتلك كما ترى أشياء ضخمة لا يتصور الإنسان أنها من خصائص البشر .

لقد أخذت المجامع سلطة لم تعرفها أكثر الأديان أو كلها ، ففى الإسلام مثلا للعلماء أن يجتهدوا ، ولكن فى الفروع ، أما عدد الصلوات

وعدد الركعات وفرائض الحج وأمثالها فلا تخضع للاجتهاد ، وليس للمسلمين أن يشرعوا فالمشرع هو الله العلى العظيم . والمسلمون بعيدون جداً عن صنع الآلهة ، والله وحده ــ عند المسلمين ــ هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول ، والعصمة لله وحده ، وليس للأنبياء مع عظيم مكانتهم عصمة إلا فى التبليغ وفقاً لرأى أغلب العلماء (١) .

الكنيسة تتدخل فى شئون الدول :

وهناك نقد سياسى يوجهه النقاد الى قرارات المجمع التاسع (مجمع روما سنة ٨٦٩) إذ تقرر فى هذا المجمع ان جميع المسيحيين فى جميع بلدان العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما ، ومثل هذا القرار يعتبر خطراً للغاية ، إنه تدخل سافر فى شئون الأمم واستقلال الدول ،

فمعناه أن المسيحيين أيا كانت بلادهم يتبعون حكوماتهم بأجسامهم ويتبعون كنيسة روما بأرواحهم ، وقد كان البابا يخضع الملوك والحكومات إليه باسم هذا القرار ، فتمردت بعض الحكومات على هذا الوضع وأعلنت أنها لا دينية ، فاتجه البابا بقراره الى الرعايا بعد أن عجز عن إخضاع الحكومات ، وفى العصر الحديث نجد البابا يساوم بهذه السلطة التى بيده ، فقد حدث أن قابل البابا رئيس جمهورية أندونيسيا السابق وطلب من هذا الرئيس السماح لعدد أكبر من المبشرين بدخول بلاده ، ووعده نظير ذلك أن يضمن له ولاء المسيحيين بهذه البلاد ، وقد أثار هذا التصريح ثائرة المواطنين بهذا القطر عندما أدركوا أن ولاء المسيحيين من مواطنيهم إنما هو فى يد رئيس كنيسة روما .

ويعد من أصدق القول ما كتبه الأستاذ زكى شنوده فى تعليقه على « المجامع » ونحن نقتبسه فيما يلى .

« كانت هذه المجامع فى بداية أمرها وسيلة للدفاع عن الايمان

(١) انظر الحديث عن عصمة الانبياء بكتاب « الاسلام » للمؤلف الطبعة الثامنة .

المسيحى ، ثم لم تلبث أن أصبحت بعد ذلك أداة فى يد الامبراطور ، لتنفيذ أغراضه ، مستغلا فى ذلك مطامع بعض الأساقفة وطموحهم الى الجاه والنفوذ والسلطان ، وهكذا أصبحت المجامع أداة هدم بعد أن كانت أداة بناء ، وقد فتحت الباب على مصراعيه للخصوم والشقاق بين المسيحيين فى البلاد المختلفة » (١) .

ولعل من المفيد هنا أن نترجم فصلا قصيراً من كتاب « تعاليم الكنيسة الكاثوليكية » لنعرف بوضوح مكان الكنيسة عند المسيحيين ، وكيف أن سلطان كنيسة روما انساب الى الكنائس الأخرى ، وليس فقط فى الاجتهاد والتشريع وشرح الكتاب المقدس وغيرها مما احتفظت به كنيسة روما لنفسها . بل فى وجوب طاعة المسيحيين للأساقفة والآباء الروحانيين دون تفكير ، كما يطيعون الله وكما أطاع عيسى أباه على حد قولهم ، ومن العجيب أن المسيحيين جعلوا عيسى إلهاً ، ثم جعلوا الأساقفة فى مقام عيسى أي أحلوهم أيضاً محل الآلهة ، فمقام الآلهة عندهم سهل الوصول ، ومن العجيب كذلك أن بعض من وضع فى هذا **الموضع من آباء الكنيسة انحرف وحكمت عليه الكنيسة بالحرمان فكيف ينحرف المعصوم ؟** ومما يدعو للدهشة أن أساس هذا الاعتقاد أن أحد الأساقفة أوصى بذلك حوالى سنة ١٠٧ م وأصبحت وصيته مقدسة وبنى عليها هذا الاعتقاد العجيب الذى يرفع القسين الى مصاف الآلهة. والفصل الذى نزمع ترجمته عنوانه : « نفوذ الكنيسة » ونصه كما يلى :

نفوذ الكنيسة :

حوالى سنة ١٠٧ م كتب الأسقف اجناسيوس أسقف كنيسة أنطاكية الى المسيحيين فى سميرنا Smyrna ما يلى :

« عليكم جميعاً أن تطيعوا آباء السماء كما أطاع عيسى أباه ، أطيعوا أئمتكم الروحانيين كما تطيعون الرسل ، ولا يباشر أحد منكم

---

(١) زكى شنودة : تاريخ الاقباط جـ ١ ص ١٧٦ .

شأناً من الشئون التى تقوم بها الكنيسة (كالتعميد والزواج وحضور الموت والصلاة) بدون حضور آباء الكنيسة ، وأنَّى يوجد الأسقف فإن حضوره يُعدّ حضوراً للمسيح نفسه تبعاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية .

« الأب والأئمة الروحانيون لهم سلطان لقيادتنا وإرشادنا باسم المسيح ، فمن أيديهم نتلقى حياة الطهر عن طريق التعميد ، وهم الذين يعطوننا الخبز المقدس فى العشاء الربانى ، وهم الذين يربوننا لنصبح أبناء الله ، وهم عوض عيسى وآباؤنا الروحانيون ، فعلينا أن نتعمق فى احترامهم وحبهم وطاعتهم .

« وكل رجال الكنيسة العظام من الأب المقدس الى الأساقفة يصدرون الأوامر لتنظيم الكنيسة ولسلامة المسيحيين من الذنوب والهموم النفسية وتشجيعهم على فهم الحياة الكنسية .

« والمسيحيون أعضاء يتكون منهم جسم عيسى المقدس فعليهم أن يمتثلوا لأوامر الأساقفة وأن يسلموا أنفسهم للآباء الروحانيين » (١) .

وهكذا أعطى الفكر المسيحى للقسس وللآباء الروحانيين سلطات أسمى من سلطات البشر ، وهو شيء لا يقره العقل السليم .

(1) Pengadjaran Geredja Katohk pp. 300-301.

الكتاب المقدس

مقـــدمة :

الكتاب المقدس عند المسيحيين يشمل « العهد القديم » و « العهد الجديد » وقد رأينا للأسف أن المسيحيين مع تقديسهم للتوراة لم يتبعوها، فأحلوا ما جرمتــه ، ولم يلزموا حدودها ، ولما لم يكن فى وسعهم أن يتصرفوا فى نصوصها لأن أصولها ثابتة عند أعـدائهم اليهـود ، فإنهم عمدوا الى المجامع يغيرون بها ما يشاءون مما نصت عليــه التـوراة ، وراحوا أحياناً يفسرون التوراة بما يناسب الإنجيل كما ظهر فى محاولتهم ليجدوا فى التوراة دليلا على ألوهية المسيح وألوهية الروح القدس ، ومن أجل هذا كان حديثنا عن العهـد الجـديد هنا أهـم ، لأنه أولا : كتاب المسيحيين المباشر ، ولأنه ثانياً : يفسر التــوراة ويوجهها حسب اعتقــاد المسيحيين ، أما الحديث عن العهد القديم فيجـده القارىء مفصــلا فى كتابنا عن « اليهودية » •

وكلمة إنجيل (Gospel) كلمة يونانية معنــاها (الحلوان) وهــو ما تعطيه مَنْ أتاك ببشرى ، ثم أريدَ بالكلمة البشرى عينَها ، أما السيد المسيح فقد استعملها بمعنى (بشرى الخلاص) التى حملها الى البشر ، واستعملها الرسل من بعده بالمعنى نفسه ، وربما استعملوها أيضاً بمعنى ملخص تعليم المسيح لأن فيه الخلاص • أو سيرة حياته ومــوته (١) لأن فى هذه السيرة معنى الخلاص أيضاً •

وما لبثت هذه الكلمة أن استعملت بمعنى الكتاب الذى يتضمن هذه البشرى ، وقد غلب استعمالها بهذا المعنى منذ أواخــر القرن الأول حتى اليوم ، نقول إنجيل متى وإنجيل لوقا (٢) •••

---

(١) متى ٢٦ : ١٣ افسس ١ : ١٢ غلاطية ٢ : ٧ •
(٢) الاب بولس الياس : يسوع المسيح ص ١٤ •

ويتكون العهد الجديد (الانجيل) من سبعة وعشرين سفراً يمكن وضعها فى ثلاثة أقسام :

١ — قسم « الأسفار التاريخية » ويشمل هذا القسم خمسة أسفار هى الأناجيل الأربعة (إنجيل متى وإنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا) ثم رسالة أعمال الرسل التى كتبها لوقا ، وسميت هذه الأسفار الخمسة بالأسفار التاريخية لأنها تحوى قصصاً تاريخية ، فالأناجيل تحوى قصة حياة عيسى وتاريخه وعظاته ومعجزاته ، ورسالة اعمال الرسل تحوى قصة حياة معلمى المسيحية وبخاصة بولس .

٢ — قسم « الأسفار التعليمية » وتشمل إحدى وعشرين رسالة ، وقد سبق أن تحدثنا عن الرسائل (Epistles) عند الكلام عن بولس ، وتتوزع الرسائل بين كتابها كالآتى :

١٤ رسالة من كتابة بولس وبعضها محدد التاريخ ، وهى جميعاً كالآتى :

رسالتان إلى أهل تسالونيكى سنة ٥٤ .

رسالته الأولى الى كورنثوس سنة ٥٥ .

رسالته إلى أهل روما سنة ٥٦ أو ٥٧ .

رسالته الى أهل أفسس وفيلبى وكولوسى سنة ٦١ أو ٦٣ .

ثم رسالته الى أهل غلاطية ، ورسالتان الى تلميذه تيموثاوس ، ورسالة الى تيطس ، ورسالة الى فيليمون ، ورسالة الى العبرانيين ، ورسالته الثانية الى أهل كورنثوس (١) .

٣ رسائل من كتابة يوحنا .

٢ رسالتان من كتابة بطرس .

---

(١) الاب بولس الياس : يسوع المسيح ص ١٧ .

١ رسالة واحدة من كتابة يعقوب .

١ رسالة واحدة من كتابة يهوذا .

ومن هنا يتضح أن أكثر الرسائل هى رسائل بولس ، ويتضح بالتالى أن بولس وضع أكثر التشاريع المسيحية .

٣ — أما القسم الثالث فهو رؤيا يوحنا اللاهوتى ، وتسمى رؤيا لأنها أشبه بالأحلام ولكن يوحنا رآها فى اليقظة ، وقد قرأتها عدة مرات ولم يظهر لى منها قَصْدٌ ذو بال.وكأن يوحنا أراد أن يُظْهِر بها سلطان المسيح بعد رفعه وصلته الدائمة بالكنائس ، وما كان أجدر بالمسيحيين أن **يحذفوا هذه الرؤيا من الكتاب المقدس فهى للخرافات أقرب (١) ، ويصور يوحنا فيها السيد المسيح بالخروف المذبوح (٢) ، ويكرر هذا اللفظ ، وهو ذوق نابٍ فى التعبير . وعن هذا التشبيه يقول الروائى الإنجليزى المعاصر** D. H. Lorance **: إننى أشمئز من الربط بين المسيح وبين الخروف المذبوح ، مع أن الخراف أغبى وأجشع ما فى مملكة الحيوان .**

الأناجيل تتأثر برسائل بولس :

وقصة هذه الأناجيل وعلاقاتها بالمعتقدات المسيحية قصة تدعو للعجب ، فمن الطبيعى أن تنبنى المعتقدات على الأناجيل ، ولكن الواقع غير هذا أو قل عكس هذا ، إذ انبَنَتْ الأناجيل على المعتقدات ، فقد نشأت المعتقدات بواسطة بولس ، ثم كتب بولس رسائله بين سنة ٥٥ وسنة ٦٣ م بيد أن الإنجيليين لم يبدءوا كتابة أناجيلهم إلا فى سنة ٦٣ ، ورجحت كفة بولس وكفة معتقداته على ما ذكرنا من قبل ، فتأثرت الأناجيل بهذه الرسائل (٣) .

---

(١) اقرأ الاصحاح الثانى عشر من هذه الرؤيا .
(٢) الاصحاح الخامس الفقرة السادسة وما بعدها .
(٣) انظر يسوع المسيح للاب بولس الياس ص ١٨ .

أناجيل مهمة أُبيدَتْ :

وبجانب ما وضعه بولس ومريدوه من أناجيل ورسائل كانت هناك أناجيل متعددة تتكلم عن حياة المسيح ودعوته ، منها إنجيل عيسى نفسه وقد ورد ذكره فى إنجيل مرقص (١) وفى رسالة بولس الى أهل رومية (٢) ومنها إنجيل السبعين وإنجيل التذكرة وغيرها من الأناجيل الكثيرة ، ولكن مصير هذه الأناجيل كلها قررَّهُ مجمعُ نيقية سالف الذكر ، أى قرره أولئك الذين اتخذوا قراراً بألوهية المسيح ، ومن ثمَّ ألْغَى هذا المجمع كل الأناجيل التى لا تتفق وقرارَه السابق ، والتى لا تلائم الاتجاه الذى ابتدعه بولس الرسول ، فوافق هذا المجمع على الأسفار السبعة والعشرين سالفة الذكر وكوَّن منها ما أطلق عليه « العهد الجديد» وردَّ المجمع كل ما سوى ذلك وعده هراء بالغاً وكفراً وزيغاً يجب إفناؤه ويعاقب من قال به أو حَمَلَه .

ومن الواضح أن هناك أناجيل ورسائل فنيت فى عهد الاضطهادات الأولى التى عانتها المسيحية ، ولكن بقى جزء كبير من الأناجيل والرسائل أخفاه ذووه ثم أظهروه عندما غَلَبَتْ المسيحيةُ أعداءها ، فقدموه لمجمع نيقية ، ولكن المجمع انحرف وأصبحت الغلبة للأقلية التى تقول بألوهية المسيح كما سبق ، وأصبح هؤلاء يتكلمون باسم المسيحيين جميعاً ، وعلى هذا قرر ذلك المجمع مصير الأناجيل ، ويحدثنا الكاتب المسيحى الذى أسلم عبد الأحد داود عن هذا التصرف ويبرز سيادته حقيقة هامة جداً هى أن الأناجيل المعتبرة الآن لم تكن معترفاً بها قبل القرن الرابع ، وهاك كلمات هذا الكاتب :

إن هذه السبعة والعشرين سفرا أو الرسالة الموضوعة من قِبَل ثمانية كتاب لم تدخل فى عداد الكتب المقدسة باعتبار مجموعة هيئتها

---

(١) الاصحاح الاول الفقرة ١٤ .
(٢) الاصحاح الاول الفقرات ٩ ، ١٦ والاصحاح ١٥ الفقرة ١٩ .

بصورة رسمية إلا فى القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية العام وحكمه (سنة ٣٢٥ م) لذلك لم تكن أىّ من هذه الرسائل مقبولة ومصدّقة لدى الكنيسة وجميع العالم العيسوى قبل التاريخ المذكور ، ثم جاء من الجماعات العيسوية فى الأقسام المختلفة من كرة الأرض ما يزيد على ألفى مبعوث روحانىّ ومعهم عشرات الأناجيل ومئات الرسائل الى نيقية لأجل التدقيق ، **وهناك تمّ انتخاب الأناجيل الأربعة من أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلا وتمّ انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل لا تُعَدّ ولا تحصى وصودق عليها ، وكانت الهيئة التى اختارت العهد الجديد هى تلك الهيئة التى قالت بالوهية المسيح (١) . وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلها (٢) .**

ويبرز هذا الكاتب نقطة أخرى مهمة هى أن كاتبى الرسائل لم يكونوا على علم بهذه الأناجيل الأربعة ، مع أنه لو صح نسبة الأناجيل الى أصحابها لكانت أسبق من الرسائل ، ويؤكد هذا الكاتب « أن الأناجيل الأربعة لم تكن موجودة فى زمن الحواريين الخمسة أو الستة الذين كتبوا تلك الرسائل لأن الرسائل لا تبحث عن محتويات هذه الأناجيل قطعاً ولا تشير اليها » (٣) .

وهناك موضوع آخر يتصل بالعهد الجديد وصلاحيته مصدراً للدين المسيحى ، فقد أثبتنا آنفا أن **الأناجيل اختيرت لتلائم المعتقدات التى وضعها بولس** ، ومن ثم كانت الأغلبية الساحقة من « العهد الجديد » من وضع بولس ومريديه كما أسلفنا القول عند الكلام عن بولس ، ومع هذا فإنه بمرور الزمن ظهر للمسيحيين أن هذه الأناجيل لا تفى بما أرادوا أن يضيفوه للمسيحية من معتقدات ، كغفران السيئات وعصمة البابا وغير

---

(١) الانجيل والصليب ص ١٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ١٥ وقد اقتبسنا آنفا من الاب بولس الياس ما يقطع بأن رسائل بولس كتبت قبل الاناجيل .

ذلك ، ومن ثم اقترحوا المجامع يثبتون بها ما يشاءون من الأصول ، واذا كانت المجامع قد أخذت الحق فى تقرير ألوهية المسيح فلا ضير عندهم أن تأخذ الحق فيما دون ذلك من مسائل ، فليس هناك موضوع يرقى الى مستوى هذا الموضوع الخطير ، وعلى هذا فالمصدر الحقيقى للمسيحية هو المجامع ، هو البشر .

على أن الكاثوليك استغنوا عن المجامع واستغنوا عن الكتب المقدسة عندما أثبتوا عصمة البابا ، فانتقلت كل السلطة فى إصدار القرارات وتعيين المعتقدات والأحكام « الى حبر رومية الأعظم الجالس على كرسى الخلافة البطرسية ، وأصبح له الحكم فيما يختص بالأحكام والأخلاق العيسوية ، وأصبح حكمه قطعيا تجب طاعته لأنه قد وُهِبَ من الله صفة العصمة(١) »

إنجيل يوحنا كُتِبَ ليقرِّر ألوهية المسيح :

ونعود مرة أخرى الى ما أثبتناه آنفا من أن المسيحيين منذ عهدهم الأول كانوا يعتقدون الشيء الذى لا يوجد فى الأناجيل . ثم يوعزون لأحدهم ليكتب إنجيلا يثبت فيه ما اعتقدوه ، وقد أوضح الكتاب المسيحيون أنفسهم ظروف كتابة انجيل يوحنا :

قال جرجس زوين اللبنانى فيما ترجَمَه « **إن شيرِ بنطوس وأبيسون وجماعتهما لما كانوا يعلِّمون المسيحية ، كانوا يرون أن المسيح ليس إلا إنسانا ، وأنه لم يكن قبل أمه مريم فلذلك فى سنة ٩٦ اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح ، وينادى بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون وأن يكتب بنوع خصوصى لاهوت المسيح** » .

وقال يوسف الدبسى الخورى فى مقدمة تفسيره (من تحفة الجيل) إن يوحنا صنف إنجيله فى آخر حياته بطلب من أساقفة آسيا ، والسبب

---

(١) عبد الاحد داود : الانجيل والصليب ص ٢٣ .

أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح فطلبوا منه إثباته وذِكْرَ ما أهمله متى ومرقص ولوقا فى أناجيلهم » .

وقال أكليمنضوس الإسكندرى المسيحى صاحب المؤلفات الكثيرة فى حقيقة الدين المسيحى ما يلى عن إنجيل يوحنا : **إن يوحنا كتب إنجيله بعد كتّاب الأناجيل الأخرى لأنه لاحظ أن الأناجيل السابقة لم تدوّن عن ترجمة المسيح إلا الأمور الحسية ، فتلبية لدعوة بطانته ، وبعد استلهام روح القدس عقد العزم على كتابة « انجيل روحى »** (١) .

فبغية يوحنا من إنجيله إظهار ألوهية يسوع (٢) .

وقد قام الأستاذ أبو زهرة بدراسة بعض هذه النقول واستنبط منها أمرين :

أحدهما : أن الاناجيل الثلاثة الأولى (متى ومرقص ولوقا) ليس فيها ما يدل على ألوهية المسيح أو هكذا كانت قبل تدوين الانجيل الرابع. (انجيل يوحنا) .

ثانيهما : أن الاساقفة اعتنقوا ألوهية المسيح قبل وجود الانجيل الذى يدل عليها (٣) .

ونضيف الى هذين أمرا ثالثا هو الاعتقاد باستحالة أن تهمل الاناجيل الثلاثة الاولى أساساً هو فى الحقيقة أهم أسس الدين المسيحى وهو ألوهية المسيح ، فلو أن لهذه الألوهية أصلا فى الديانة المسيحية لما كان من الممكن أن تهملها هذه الأناجيل الثلاثة .

وهناك عالم مسيحى متبحر هو الاب بولس إلياس مؤلف كتاب « يسوع المسيح » ، وهذا العالم يثبت الغفلة والخطأ على أصحاب

---

(١) انظر يسوع المسيح للاب بولس ص ١٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢ .
(٣) محاضرات فى النصرانية ص ٣٥ .

الاناجيل أو الانجيلين كما يسميهم ، ومثل هذه الصفات تفقدنا الثقة فيما يُنْسَب لهؤلاء وفيما يلى نسوق نصَّيْن من الكتاب السابق عن خطأ الانجيليين فى موضوع خراب أورشليم ، قال الكاتب :

« ومن المؤكد أن مرقص كتب إنجيله قبيل سنة ٧٠ م أى قبل خراب أورشليم فى عهد تيطس ، لأنه لو كان كتبه بعد هذا التاريخ لما كان أخطأ فهم نبوءة المسيح عن خراب أورشليم كمتى ولوقا اللذين ظنّا أن المسيح يَقْصِدُ من نبوءته هذه خراب العالم والدينونة الأخيرة لا خراب أورشليم ولكان أصلح خطأه ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا » (١) .

وقال فى موضع آخر :

« وضع لوقا إنجيله وكتاب أعمال الرسل ، ومن الثابت الراهن أنه كتب إنجيله قبل سنة ٧٠ أى قبل خراب أورشليم ، وإلا لما كان أخطأ مثل ما أخطأ متّى ومرقص فهم نبوءة المسيح عن هذا الحدث الهام ، وهذا دليل على أن الانجيليين رددوا أقوال المسيح على علاتها دون أن يفهموها فى بعض الأحايين (٢) .

والآن . بعد هذا العرض العام للأناجيل ، يجدر بنا أن نتكلم كلمة عن كل من هذه الأناجيل المعتبرة عند المسيحيين لنرى مقدار صلاحيتها لتكون أساساً للمسيحية .

انجيل متى :

متّى أحد الحواريين الذين سبق أن عددناهم ، مات سنة ٧٩ ببلاد الحبشة حيث كان قد اتخذها موطن دعوته ، ويتفق جمهور المسيحيين على النقاط التالية :

١ — متّى كتب إنجيله بالآرامية ، ولكن النسخة الآرامية لا وجود لها ، ولا يعرف بالضبط تاريخ تأليفها .

---

(١) ص ١٥ : ٢٦ .
(٢) ص ٢٧ : ٢٨ .

٢ — ظهر كتاب باللغة اليونانية قيل إنه ترجمة إنجيل متى ، ولم يعرف المترجم ولا تاريخ الترجمة •

وعندما توجد هذه الشكوك حول أى كتاب تقل قيمته كمصـــدر أو تنعـــــدم •

انجيل مرقص وانكار ألوهية المسيح :

مرقص من السبعين الذين تحدثنا عنهم فيما سبق ، وقد طـاف فى البلاد داعيا للمسيحية ثم اتخذ مصر مقراً له ، وقد قتل سنة ٦٢ م (١) •

ومعنا باحث مهم شرح إنجيل مرقص ، هو وليم باركلى أستاذ العهد الجديد بجامعة جلاسجو ، وهو يرى أن إنجيل مرقص ما هو إلا خلاصة مشاهدات بطرس أعظم الرسل وخلاصة مواعظه ، فقد كان مرقص قريبامن بطرس حتى كان هذا يصفه بأنه ابنه (٢) ، **وأن إنجيل مرقص — بسبب اقتباسه آراء بطرس — كان مصدرا استقى متى ولوقا نهجه وكثيرا من عبـــاراته وألفاظـــــه (٣) •**

ويذكر وليم باركلى أن مرقص كان يؤكد الجانب البشرى فى المسيح حتى أن الكتّاب الذين اتبعوه اضطروا الى إدخال بعض التعـديلات فى كثير من عباراته فبينما يذكر مرقص أن يسوع كان نجارا يتحرج متّى فيذكر أنه ابن نجار ، ويوضح مرقص الاحتياجات الجسـدية للمسـيح فيذكر أنه كان يتجوع (١١ : ١٢) ويتعب فيحتاج للراحة (٦ : ٣١) (٤)

ويقرر وليم باركلى أن مرقص صحب بولس عنـدما بدأ رحلـته التبشيرية الأولى مع برنابا (خال مرقص) ولكن مرقص لم يكمل الرحلة لأنه لم يرض تماما عن اتجاهات بولس وتصرفاته • وعنـدما بدأ بولس

---

(١) يلاحظ القارىء تضاربا واضحا بين التأكيد بأن الاناجيل كتبت بعد سنة ٦٣ م وبين اسناد انجيل لمرقص الذى قتل سنة ٦٢ •

(٢) وليم باركلى : تفسير العهد الجديد : انجيل مرقص ص ١٣ ترجمة القس فهـــيم عـــزيز •

(٣) المرجع السابق ص ١١ •

(٤) المرجع السابق ص ١٦ •

رحلته التبشيرية الثانية لم يقبل برنابا أن يصحبه بل افترق عنه دون رجعة (١) .

وقد جاء فى كتاب مروج الأخبار فى تراجم الابرار أن مرقص كان ينكر ألوهية المسيح هو وأستاذه بطرس (٢) . ومن أجل هذا يقول Wells إن النقاد يميلون الى اعتبار إنجيل مرقص أصح ما كتب عن شخص عيسى وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة (٣) .

وعلى هذا فأى كلام عن ألوهية المسيح بهذا الانجيل ليس إلا تحريفاً أدخله عليه الكتّاب المتأخرون .

جثمان القديس مرقص بين القاهرة والبندقية :

بقى أن نذكر عن القديس مرقص معلومات جديدة ترتبط باسمه ونستمد هذه المعلومات من كاتبين مسيحيين هما الاستاذ زكى شنوده والباحث Otto Meinardus ويقول الاستاذ زكى شنوده كلاما طويلاً يصعب قبوله ، فهو كعادة المسيحيين العرب ينسب للقديس مرقص أنه أمسك يد اسكافى كانت تنزف دماً فشفاها فى الحال ، وكان ذلك دافعاً للاسكافى أن يدخل المسيحية ، وأن يجمع أقاربه وأصحابه ليكونوا باكورة المؤمنين فى مصر ، ويذكر الأستاذ زكى شنوده أن مرقص استمر فى دعوته ، وأن أتباعه كثروا ، فشيَّد أول كنيسة بالاسكندرية ، وأسس أول مدرسة لاهوتية ، وسرعان ما كثر عدد المؤمنين وتوطدت دعائم الكنيسة .

بيد أن الاستاذ زكى شنوده ينتقل فجأة من مظهر القوة الى مظهر الضعف فيذكر أن القديس كان يحتفل بعيد القيامة فى الكنيسة مع شعبه

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ .
(٢) انظر محاضرات فى النصرانية ص ٤٥ .
(٣) The Outline of History Vol. 3, p. 680.

فهجم عليه أعداؤه ، ووضعوا حبلاً فى عنقه ، وراحوا يجرونه فى طرقات مدينة الاسكندرية حتى نزف دمه ، ثم ألقوه فى السجن ، وفى اليوم التالى فعلوا به نفس الفعلة حتى أسلم الروح ، ولعل من الصعب أن نوفق بين التطور والكثرة التى ذكرها الأستاذ زكى شنوده وبين الضعف المهين الذى يواجهه القارىء فى الصفحة التالية من كتاب هذا الباحث ، بحيث لم يوجد من يدافع عن القديس أو يحميه من الأعداء .

ويختم الأستاذ زكى شنوده حديثه عن مرقص بكلام أشبه بالأسطورة فهو يرى أنه دفن بالاسكندرية عقب قتله ، وأن بعض البحارة البنادقة سرقوا فى القرن التاسع الميلادى جسمه ما عدا الرأس فقد بقى بمصر ، ولا تزال الرأس بالكنيسة المرقسية الكبرى بالاسكندرية أما الجثمان فقد دُفن فى كنيسة فخمة فى البندقية سميت باسمه وهو يعتبر شفيع المدينة .

ليت شعرى لماذا قنع البحارة البنادقة بالجثمان وتركوا الرأس (١) .

ونجىء للباحث الآخر الذى يكشف اللثام عن أسطورة أخرى ترتبط بجثمان القديس مرقص ، فهو يروى أنه فى مارس سنة ١٩٦٧ أرسل البابا كرولس السادس بطريرك الاسكندرية وجميع افريقية خطاباً الى بابا روما يرجو قداسته أن يعيد للكنيسة القبطية جثمان القديس مرقص ، وأن اتصالات جرت بين بابا روما وكاردينال البندقية انتهت بأن وعد البابا بتسليم بقايا الجثمان ، وبناء على ذلك سافر الى روما وفد كبير يضم المطارنة ، وبعض كبار الأقباط والمسيحيين الأحباش ، وأُعِدَّ فى القاهرة استقبال حافل لما قيل أنه جثمان القديس ، وجاء شىء سمى بالجثمان ودفن فى احتفال ضخم بالكاتدرائية المرقصية الجديدة بأرض الأنبا رويس بالعباسية .

ويقرر Otto مؤكدا أن قبر القديس مرقص بالبندقية لم يفتح

(١) تاريخ الاقباط جـ ١ ص ٩٨ — ٩٩ .

إطلاقا ، وأن الوفد القبطى لم يذهب الى البندقيــة ، بل ذهب الى روما وتسلم صندوقا رخاميا صغيرا فى حجم علبة الكبريت به قطعة من العظم لا تزيد عن فلتر السيجارة ، وقد حرص الوفد أن يضع هذا الصــندوق الصغير داخل صندوق كبير ليواجه الجمــاهير التى كانت محتشــدة فى المطار فى انتظار الجثمان (١) •

وهذا القول يصوِّر هذا الحدث فى صورة تدعــو للخجل والأسف وليس هذا التصرف إلا خداعا للجماهير •

بقى أن نتساءل : لماذا لم يَضُمَّ الذين قامــوا بهذه الأســطورة جثمانَ القديس الى رأسه بالاسكندرية ؟

انجيل لوقا :

ليس لوقا من الحواريين ولا من تلاميذهم ، وانما هو تلميذ بولس• وقد تكرر ذكر هذا فى رسائل بولس كما سبق ، ويقولون إنه كــان طبيبا وبعضهم يقول إنه كان مصوراً • ولوقا يبدأ انجيله بجمــلة ذات شــأن هى : « إذ كان **كثيرون** قد أخذوا **بتأليف قصة** فى الأمور المتيقنة **عندنا ، كما سلمهااالينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخــداما للكلمة** ، رأيت أنا أيضاً إذ تتبعت كــل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التــوالى اليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صــحة الكلام الذى علمت به » (٢) • وقد سبق لنا حديث كاف عن بولس **ومريديه وبخاصة لوقا الطبيب** الحبيب •

انجيل يوحنا ومَنْ الذى كتبه ؟

سبق أن تحدثنا عن إنجيل يوحنا وسنزيد الحديث هنا وضــوحاً ، ولهذا الانجيل أهمية خاصة فى دراسة المسيحية ، ذلك لأنه الانجيل الذى نص صراحة على ألوهية المسيح ، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الانجيــل

---

(١) Christian Egypt : Faith and Life pp. 142-143.

(٢) لوقا ١ : ١ — ٤ .

ألف لهذا الغرض ، ولهذا لا يقوى هذا الانجيل ليكون حجة فى هذا الباب، وهناك استدلال آخر يقلل من قيمة هذا الانجيل أو يزيلها تماما ، ويلزم لا يضاح هذا الاستدلال أن نعود إلى الوراء لنتذكر ما سبق أن قلناه من أن مدرسة الاسكندرية هى مصدر التثليث وألوهية المسيح ، وفى ضــوء هذا نســـير فى الاستدلال :

الشائع أن هذا الانجيل كتبه يوحنا الحوارى الذى كان يحبه المسيح ويصطفيه ، ولكن هذا الشائع لا أساس له من البراهين ، وكثير من كتاب المسيحية يؤكدون أن هذا الانجيل لابد أن يكون من كتابة يوحنا آخـر لا علاقة له بيوحنا الحوارى ، وقد ورد فى دائرة المعارف البريطانية مايلى: « أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صـاحبه به مضادة اثنين من الحواريين أحدهما للآخر ، وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد أدّعى هذا الكاتب المزوّر فى متن الكتاب أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاّتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غـير يوحنا يقيناً ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها وبين من نسبت اليـه ، وإنا لنرأف ونشـفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطـة ذلك الرجل الفلسـفى الذى ألف هذا الكتاب فى الجيل الثانى بالحوارى يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى » .

ونسبة هذا الكتاب الى يوحنا الحوارى هوجمت قبل دائرة المعارف البريطانية بمئات السنين أيضاً ، وكان تلاميذ يوحنا الحوارى أحياء ولكنهم لم يردوا هذا الهجوم ولم يذكروا قط أنهم سمعوا من أستاذهم هـذا الانجيل أو أى خبر عنـــه .

من إذاً مؤلف هذا الانجيل ؟ ومن يكون ذلك الرجل الفلسـفى الذى ألف هذا الكتاب ونسبه الى يوحنا ؟

الاجابة سهلة ، فالتأليف الفلسفى روح مدرسة الاسكندرية ، وعقيدة التثليث عقيدة مدرسة الاسكندرية ، وإذاً فالأستاذ استادلن على حق حينما قال : « إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية (١) » .

* * *

ونختم كلامنا على الأناجيل الأربعة بعبارة مهمة ختم بها باحث غربى دراسته عن الأناجيل ، وهذه العبارة هى :

إن فلسفة الإغريق ، والقانون الرومانى اثّرا فى تدوين الاناجيل ، وجعلا الأناجيل لا تمثّل حقيقة المسيحية ، والباحث المنصف فى تاريخ الكنيسة لا يستطيع ولا لحظة واحدة أن ينكر أن آراء مزيفة ، وأغراضا غير كريمة ، ومقاصد خاطئة ، كانت أسبابا رئيسية مسيطرة أحيانا ، دفعت الى هذا التبديل الذى حدث فى الأناجيل (٢) .

انجيل برنابا :

تحدثنا فيما سبق عن الأناجيل الأربعة المعتبرة عند المسيحيين . وأمامنا الآن إنجيل آخر جدير بحديث أطول هو انجيل برنابا ، ذلك لأن هذا الانجيل يمكن أن يكون حلقة الاتصال بين المسيحية والاسلام ، أو أنه هو الحلقة المفقودة بين هاتين الديانتين ، ولا تعترف الكنيسة بهذا الانجيل ولا تقيم وزنا لما ورد فيه .

وقد ترجم هذا الانجيل الى اللغة العربية فى مطلع القرن العشرين، وقام بترجمته الدكتور خليل سعادة وقدم له مقدمة تاريخية علمية ، ونشره السيد محمد رشيد رضا وقدم له كذلك مقدمة علمية طويلة ، ونريد

---

(١) انظر محاضرات فى النصرانية للاستاذ ابو زهرة : ص ٤٩ .

(٢) Alfred E. Garvie : Encyclopaedia of Relegions and Ethics Vol. 5. p. 634.

أن نستعرض الانجيل نفسه ، ونستعرض هاتين المقدمتين ، ونربط حديثنا بالأناجيل الأخرى وبالدراسة التى قمنا ونقوم بها فيما يختص بالمسيحية

نريد أن نشرح النقاط الآتية :

١ ـ من هو برنابا ؟

٢ ـ الى أى حد تصح نسبة هذا الانجيل اليه ؟

٣ ـ ما أوجه الخلاف بين هذا الانجيل والأناجيل الأخرى ؟

٤ ـ ما الأسباب التى دفعت برنابا الى تأليف إنجيله ؟

ولنبدأ الكلام عن هذه النقاط :

١ ـ من هو برنابا ؟

بناء على انجيل برنابا يدخل برنابا هذا ضمن الحواريين الاثنى عشر فقد ورد فى هذا الانجيل ما نصه : « فلما رأى يسوع أن الجمهور الذى عاد الى نفسه ليسلك فى شريعة الله ، جمهور غفير ، صعد الجبل ، ومكث كل الليل بالصلاة ، فلما طلع النهار نزل من الجبل وانتخب اثنى عشر سماهم رسلا ، منهم يهوذا الذى صلب ، أما أسماؤهم فهى : اندراوس وأخوه بطرس الصياد وبرنابا الذى كتب هذا مع متى العشار الذى كان يجلس للجباية ، ويوحنا ويعقوب ابنا زبدى ، وتداوس ويهوذا وبرثولومارس وفيليبس ويعقوب ويهوذا الاسخريوطى الخائن (١) » •

وسواء كان برنابا من الحواريين أو ليس منهم فإنه معدود من الصف الأول بين أتباع المسيح ، وقد ورد اسمه فى رسالة أعمال الرسل عدة مرات نورد منها هنا بعض النماذج :

ـ ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا ••• (٢) •

(١) برنابا ١٤ : ٩ ـ ١٢ •
(٢) أعمال ٤ : ٣٦ •

— ولما جاء شاءول (بولس) الى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافون غير مصدقين أنه تلميذ ، فأخذه برنابا وأحضره الى الرسل وحدثهم كيف أبصر الرب ٠٠٠٠ (١) ٠

— وكان فى أنطاكية فى الكنيســة هنــاك أنبيــاء ومعلمون ، برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ، ولوكيوس القيروانى ، ومنابن الذى تربى مع هيرودوس رئيس الربع ، وشاول ، وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس : أفرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه ، فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا الأيادى ثم أطلقوهما ٠

فهذان إذْ أرْسِلا من الروح القدس انحدرا الى سلوكية ، ومن هناك سافرا فى البحر الى قبرص ٠ ولما صارا فى سلاميس ناديا بكلمة الله فى مجامـــــع اليهـــود (٢) ٠

فيتضح من هذا أن برنابا إما من الحواريين الاثنى عشر وإمــا من الرسل السبعين ، ولا يحتمل أن يكون هناك برنابا آخر لأنه لم يرد ذكر لغير برنابا واحد فى جميع المراجع ، وملامحه واحدة فيها كلها ٠

٢ — الى أى حد تصح نسبة هذا الانجيل الى برنابا ؟

قام الدكتور خليل سعادة مترجم هذا الانجيل بدراسة واسعة حول هذا الموضوع ، ونحن نقتبس منه ما ذكره عن تاريخ هذه النسخة ، وعن رأيه فى نسبتها ، ثم نناقش هذا الرأى ، يقول سيادته :

— كانت هذه النسخة فى مكتبة البابا سكتس الخامس بروما ، وقد اختفت من المكتبة حوالى القرن السادس عشر ، ويرجح أن الذى اختلسها راهب اســـمه فرامرينو (٣) ٠

(١) اعمال ٩ : ٢٦ — ٢٧ ٠
(٢) اعمال ١٣ : ١ — ٥ ٠
(٣) مقدمة المترجـــم ص هـ ٠

— عن طريق هذا الراهب آلت هذه النسخة الى مكتبة أحد وجهاء أمستردام حيث بقيت حتى مطلع القرن الثامن عشر •

— فى سنة ١٧٠٩ كان كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا ينزل فى امستردام ، وكانت له بهذا الوجيه صلة ، ولما رأى هذه النسخة استعارها، ثم ذكر للوجيه أنها عظيمة القيمـــة •

— فى سنة ١٧١٣ أهدى وجيه امستردام هذه النسخة الى البرنس أيوجين سافوى الذى كان مولعاً بالعلوم والآثار التاريخية ، ثم انتقلت هذه النسخة مع مكتبة البرنس كلها الى مكتبة البلاط الملكى فى فينا حيث لا تزال هذه النسخة موجودة حتى الآن وهى مكتوبة بالايطالية وعلى هامشها تعليقات بلغة عربية ركيكة (١) •

وهناك نسخة أخرى لهذا الانجيل باللغة الأسبانية ظهرت حوالى سنة ١٧٨٤ ولكنها فقدت بعد ذلك • ويرجح أن تكون ترجمة عن النسخة الايطاليـــة (٢) •

« ويجزم الثقات — كما يقول الدكتور سعادة — بأن ناسخ هذه النسخة الايطالية هو من أهالى البندقية ، وأن اللغة التى أخذت عنها هذه النسخة هى لغة البندقية • ويدحض هؤلاء الثقات الشبهة التى تقول بأن هذه النسخة ترجمت عن نسخة عربيـــة (٣) » ويقول الدكتور سعادة مؤيداً رأى هؤلاء الثقات : « ثم إنه لم يرد ذكر لهذا الانجيل فى كتابات مشاهير الكتاب المسلمين سواء فى العصور القديمة أو الحديثة • حتى ولا فى مؤلفات من انقطع منهم الى الأبحاث والمجالات الدينيـــة • مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاح لهم فى مثل تلك المناقشات • وليس ذلك فقط ، بل لم يرد ذكر لهذا الانجيل فى فهارس الكتب العربية القديمة عند

(١) المرجع السابق ص (د)
(٢) المرجع السابق ص (هـ)
(٣) المرجع السابق ص (ح)

الاعارب أو الأعاجم أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية من قديمة وحديثة (١) » .

ويقول الدكتور سعادة إنه « يرى أن واضع هذا الانجيل يهودى أندلسى تعمق فى دراسة اليهودية ، ثم تنصر وتعمق فى دراسة النصرانية، ثم اعتنق دين الاسلام وتحمس له (٢) » .

ونرى نحن أن هذه الصورة يصعب أن توجد فى الخيال فهيهات أن توجد فى الواقع ، وأى خيال يستطيع أن يصور يهوديا متعمقاً فى اليهودية ينتصر ويتعمق فى النصرانية ، ثم يُسْلِم ويتعمق فى الإسلام ويتحمس له تحمساً يحمله على كتابة انجيل ونسبته الى واحد من الحواريين أو الرسل ؟ إن هذا الرجل يحتاج أن يعمر عدة قرون كما يحتاج الى وسائل غير عادية ليصل الى هذه النتيجة ، ثم لماذا لم ينتقل مثل هذا الرجل مباشرة من اليهودية للإسلام كما فعل كثير من يهود الأندلس ؟ الحق أن مثل هذا التفكير يبدو لى مستحيلا .

ونسأل الدكتور سعادة : لماذا وضع هذا الرجل المسلم هذا الانجيل ؟ الطبيعى أنه وضعه ليحتج به المسلمون على المسيحيين فى المناظرات التى كانت دائمة الوقوع بينهم ، ولكن ما رأى الدكتور سعادة فى أن أحداً من المسلمين لم يحتجَّ بهذا الانجيل قط ولم يرد ذكره فى تلك المناظرات الحامية كما كتب ذلك الدكتور سعادة نفسه . وكيف ينحدر انجيل كاذب كهذا الى مكتبة البابا . ثم الى البرنس أيوجين ، ثم الى مكتبة البلاط الملكى بفينا ؟ وكل هذه أوساط مسيحية لا يمكن أن تسمح لكتاب كاذب يهاجم عقائد المسيحية بأن يتسرب الى مكتباتهم ، وأن ينال العناية التى وصفها الدكتور سعادة من تجليد وتذهيب ؟ ولو حاول كاتب مسلم أن يضع انجيلا لكان أولى به أن ينسبه الى عيسى ، على أن

---

(١) مقدمة المترجم ص (ط) .
(٢) المرجع السابق .

التعمق فى الاسلام الذى وصفه الدكتور سعادة يحتم على هذا المتعمق ألا يرتكب هذه الحماقة أو قل الخيانة الكبرى ، وهى أن يؤلف كتابا ثم ينسبه الى ســــواه •

ويقول الدكتور سعادة ــ مسـتدلا على أن كاتب هـذا الانجيـل مسلم ــ ما يلى : ولو أشار الى مجىء « الرســول » نبى المســلمين من طرف خفى بإشارات تنطبق عليه دون التصريح باسمه لكان ذلك أصـلح للغاية (١) • ونحن نأخذ هذا القول دليلا على صحة نسبة الانجيل لبرنابا، فهذه الحقيقة التى ذكرها الدكتور ســعادة لا تخفى على أحد ، وهـذا الكاتب وصفه الدكتور سعادة بالبراعة والفلسفة العالية وكثرة الاطلاع ، فكيف تخفى عليه حقيقة ابتدائية كهذه لو كان كاذباً •

ويذكر التاريخ أمرا أصـدره البابا جلاسـيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها وفى عدادها كتاب يسمى (إنجيل برنابا (٢)) ويرجح أنه هو الانجيـل الذى اختفى وضاعت نسخه • ولم تبق منه إلا هذه النسخة التى وصلت الى بر السلامة حينما أخذت مكانها فى مكتبة البابا نفســه حيث لا يخاف البابا أن تكون مكتبته موضع شك وموضع اختبار ، أما غير البابا فيعتقد أنهم أسرعوا الى هذا الانجيل فانتزعوه من مكتباتهم وأســلموه للفناء حرصا على أنفسهم وعلى مكتباتهم أن يمتد لها الفناء لو عثر على هذه النسخة فيهـــا •

وقد احترقت وفنيت نسخ هذا الانجيل كلها وسلمت هذه النســخة من ظلام العصور الوسطى وظهرت فى عصر النـور حيث أصـبح حرق الكتب جريمة لا تغتفر ، وبهذا استطاعت هذه النسخة الفريدة أن تحيى ما أوشك أن يندرس من معالم هذا الانجيل • ومن المؤكد بلا شـك أن

---

(١) مقدمة المترجم ص (ن) •
(٢) المرجع السابق ص (ل) •

نسبة هذا الانجيل لبرنابا أقوى من القول بنسبة انجيل متّى اليه ، وكذلك القول فى سائر الأناجيل ، وهناك أدلة كثيرة يقدمها الكتاب الغربيون أوردنا بعضها آنفا وهى تؤكد أن أغلب هذه الأناجيل من صنع بولس (١) وأن انجيل يوحنا من صنع طالب بمدرسة الاسكندرية .

٣ — ما أوجه الخلاف بين هذا الانجيل والأناجيل الأخرى ؟

يقول مترجم الكتاب (٢) إن هذا الانجيل يباين الأناجيل الأربعة المشهورة فى عدة أمور جوهرية هى :

(أ) أن يسوع أنكر ألوهيته وكونه ابن الله وذلك على مرأى ومسمع من جمهور عظيم .

(ب) أن الابن الذى عزم ابراهيم على تقديمه ذبيحة لله انما هو اسماعيل لا إسحق .

(ج) أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع ، بل محمد وذَكَرَ محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول وقال انه رسول الله وأن آدم لما طرد من الجنة رأى مسطوراً فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

(د) أن يسوع لم يصلب وأن الذى صلب إنما هو يهوذا الخائن الذى شبه به .

والمسألتان الأولى والأخيرة تهماننا هنا فى بحثنا عن المسيحية ، ولذلك نقتبس من كلام برنابا نفسه بعض النماذج عنهما ، وهذه الاقتباسات هى فى الوقت نفسه اجابة عن السؤال الرابع من الأسئلة التى تهمنا لبيان القول عن انجيل برنابا ، وهذا السؤال هو :

---

(١) انظر فى ذلك أيضا دائرة المعارف الفرنسية .
(٢) مقدمة المترجم ص (م) .

٤ ـ ما الأسباب التى دفعت برنابا لتأليف انجيله ؟

وضّح برنابا الأسباب التى دفعته لتأليف هذا الانجيل فى مقدمته التى كتبها لهذا الانجيل وهاك نصها :

« أيها الأعزاء ، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام الأخيرة **بنبيه** يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى **مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله** ، ورافضين الختان الذى أمر به الله دائماً، مجوّزين كل لحم نجس ، الذين ضلّ فى عدادهم أيضاً بولس الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى ، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته وسمعته أثناء معاشرتى ليسوع لكى تخلّصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا **فى** دينونة الله ، وعليه فاحذروا كل أحد بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصُوا خلاصاً أبدياً » .

ويبين برنابا أن ادعاء ألوهية المسيح بدأ فى حياة المسيح بسبب معجزاته واتجاهها فى إحياء الموتى وإبراء الأكمة وغير ذلك مما ليس للبشر به عهد .

يقول برنابا : ونزل يسوع فى السنة الثانية من **وظيفته النبوية** من أورشليم الى نايين ، فلما اقترب من باب المدينة كان أهل المدينة يحملون الى القبر ابنا وحيداً لأمه الأرملة ، وكان كل أحد ينوح عليه . فلما وصل يسوع علم الناس أن الذى جاء إنما هو **يسوع نبى الجليل ،** فلذلك تقدموا وتضرعوا اليه لأجل الميت طالبين أن يقيمه **لانه نبى** .... فتقدم المسيح الى أم الميت وقال لها بشفقة : لا تبكى أيتها المرأة . ثم أخذ يد الميت وقال : أقول لك أيها الشاب **باسم الله** قم صحيحاً ، فانتعش الغلام .

ويواصل برنابا قوله فى الإصحاح التالى : : وكان جيش الرومان فى ذلك الوقت فى اليهودية لأن بلادنا كانت خاضعة لهم بسبب خطايا

أسلافنا ، وكانت عادة الرومان أن يدعوا كل من فعل شيئا جديداً ، فيه نفع للشعب ، إلها ويعبدوه • فلما كان بعض هؤلاء الجنود فى تايين وبخوا واحداً منا بعد آخر قائلين : لقد زاركم أحد آلهتكم وأنتم لا تكترثون له، حقاً لو زارتنا آلهتنا لأعطيناهم كل ما لنا ، ، فوسوس الشيطان بهذا الأسلوب من الكلام حتى أنه أثار شغباً بين شعب نايين ، فقال قوم منهم « إن الذى زارنا إنما هو إلهنا » قال آخرون « إن الله لا يرى ، فلم يره أحد حتى ولا موسى ، فليس هو الله بل بالحرى ابنه » وقال آخرون « انه ليس الله ولا ابن الله لأنه ليس لله جسد فيلد بل هو نبى عظيم (١) •

المسيح ينكر القول بالوهيته ويقرر بشريته :

وتتكرر هذه الأحداث فيشفى عيسى المرضى أو يحيى الموتى ، وهذا يدعو الناس الى أن يحسوا ويجهروا أحياناً أن عيسى إله (٢) وينكر عيسى ألوهيته ويصرخ فى وجه هؤلاء الضالين ليعيدهم الى الرشد ، ولكن بولس يتسلم هذه الدعوى فيضعها فى قالب فلسفى • ويدعو بها بعد أن ادعى أنه رسول وأنه يتحدث باسم المسيح •

وقد أورد برنابا قول عيسى منكراً ألوهيته : إنى أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض ، أنى برىء من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر ، عرضة للشقاء العام (٣) •

ويدرك عيسى أن هذه الدعوى الكاذبة قد تنتشر فيهتف قائلا : الحق أقول لكم متكلما من القلب : إنى أقشعر لأن العالم سيدعونى إلهاً ، وعلى أن أقدم لأجل هذا حساباً **لعمر الله الذى نفسى واقفة فى حضرته إنى رجل**

(١) اقرأ الاصحاحين ٤٧ ، ٤٨ •
(٢) انظر نماذج من ذلك فى الصفحات : ٧٥ — ١٠٦ — ١٠٧ — ١٣٩ — ١٤١ •
(٣) الاصحاح ٩٤ : ١ — ٢ •

فانٍ **كسائر الناس** ، على أنى وإن أقامنى الله نبياً على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء وإصلاح الخطاة ، خادم الله وأنتم شهداء على هذا (١) .

أما مسألة أن المسيح لم يصلب ، فقد وضحها برنابا مقتبساً من عيسى قوله : اعلم يا برنابا أنه سيبيعنى أحد تلاميذى بثلاثين قطعة من نقود ، وإنى على يقين من أن من يبيعنى يُقْتل باسمى ، لأن الله سيغيِّر منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياى . (٢) .

ويقول برنابا فى وصف خاتمة المسيح على الأرض : لما دنت الجنود مع يهوذا سمع يسوع دُنُوَّ جمٍّ غفير فاستيقظ . وكان الحواريون الأحد عشر نياماً ، ثم رفع الله المسيح إليه ، ودخل يهوذا إلى الغرفة التى صعد منها يسوع فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شبيها بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع .... ودخل الجنود فأخذوا يهوذا وأوثقوه ظانين أنه يسوع (٣) .

وهكذا يتفق هذا الإنجيل فى أكثر مسائله مع القرآن الكريم ويزيل الهوة التى ابتدعها بولس والتى أبعدت المسيحية عن الأديان السماوية .

---

(١) الاصحاح ٥٢ : ١٠ — ١٤ .
(٢) الاصحاح ١١٢ : ٢٣ — ١٥ .
(٣) اقرأ الاصحاحات ٢١٥ — ٢١٧ .

مصادر المسيحية فى رأى الكنيسة

عرفنا أن مصادر المسيحية التى تعترف بهـا الكنيسة ، ليست من كتابة عيسى ولا من إملائه ، فكيف يجوز الاستدلال بهـا وكيف تُتَّخَذ وسيلة لإثبات عقائد المسيحية ؟ •

الجواب على ذلك عند المسيحيين سهل للغاية ، فهم يعتقدون أن هذه الأناجيل وتلك الرسائل موحىً بها الى هؤلاء القديسين • وأن هـؤلاء القديسين كانوا رسـلا ، وأن الروح القدس أمدّهم بالهدى والرشاد •

وهنا تتسع الهـوة بين تفكير المسلمين وتفكير المسيحيين ، فإثبات الرسالة شىء ليس باليسير عند المسلمين ، فالرسول لابد أن يشيع أمره ، وأن تكون له معجزات ، ولكن أكثر هؤلاء الرسـل الذين يبلغ عددهـم مائة وعشرين غـير معروفين إطلاقاً ، والقليلون منهـم يعرفهم خاصـة المسيحيين فقط ، ولم يُنْسَبْ لأكثرهم معجزات قط ، وقد نُسِبَ إلى قليلين منهم بعض خوارق ، ولكنها نسبة لا يوجد عليها دليل ثابت ، وعلى فرض صحتها فإنها ليست أكثر من أن تكون محض مصادفة أو — على أحسن تعبير — نوعاً من التكريم الذى يمنحه الله بعض الصالحين •

ونسبة الرسائل والأناجيل إلى أصحابها ليست قطعية ، ويوشك أن يكون مقطوعاً بخطأ النسبة فى بعضها كإنجيل يوحنا •

ويكثر التناقص بين هـذه الأسفار ، وقد عـد الباحثون مئات من الأمثلة لهذا التناقض ، وخَبَرُ القبض على المسيح ومحاكمته ، موضـع اختلاف كبير بين هذه الأناجيل ، والموحى به لا يمكن أن يوجد فيه مثـل هـذا التناقض ، وسـنعطى أمثلة من التناقض عنـد الكلام عن نقـد المسيحية •

ويتضح من الأناجيل نفسها أنها ليست إلهاماً ، فقد سبق أن اقتبسنا من لوقا السبب الذى جعله يؤلف إنجيله وذلك قوله « إذ كان كثيرون **قد أخذوا بتأليف قصة فى** الأمور المستيقنة **عندنا كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين** وخداماً للكلمة ، **رأيت أنا أيضاً** إذ تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق **أن أكتب إليك أيها العزيز ثاوفيلس (١)!** » فلوقا **يقرر أن السابقين ألّفوا قصصا ، وذلك ينافى الإلهام ، وهو يقرر أنهم تسلموا هذه المعلومات من الذين كانوا منذ البدء معاينين لا من روح القدس ، ثم هو يقرر عن نفسه أنه نوى وبدأ يكتب ما تتبعه من الأول فأين الإلهام وأين الوحى ؟**

* * *

وبعد ، فهذه فكرة سريعة عن المسيحية ، نختمها بالدعاء والتضرع إلى الله أن يلهم القوم الرشاد حتى يعودوا إلى محيط الوحدانية السامى الذى هو أساس الأديان السماوية ، والذى بدونه يتحطم الرباط بين أتباع هذه الأديان .

ويوم يعود القوم الى التوحيد الخالص ، واعتبار عيسى عليه السلام نبياً كما كان ، يومئذ تنتهى هذه المشكلات المعقدة التى حاولوا دون فائدة أن يدللوا عليها ، وتنتهى اسطورة نزوله لتخليص الناس من خطأ آدم ، وتنتهى مشكلة الروح القدس وممن انبثق ، وتنتهى مشكلة طبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية ، وتنتهى مشكلة الرسل المائة والعشرين ، وتنتهى مشكلة المجامع التى تصنع الآلهة ، وتختار الأناجيل التى تثبت هؤلاء الآلهة .

ويوم يعود القوم إلى التوحيد الخالص سيظهر إنجيل المسيح ، ويقرأ الناس شعائر المسيحية كما علمها عيسى بن مريم ، وتلتقى المسيحية بغيرها من الأديان السماوية ..

ليت هذا اليوم يجىء ، ولكن هيهات .

---

(١) لوقا ١ : ٤ .

التشريع والمسيحية

مرَّ التشريع فى المسيحية بعدة مراحل ألممنا ببعضها فيما سبق من حديث ، ومن الضرورى أن نذكر هذه المراحل هنا مجتمعة مرتبة لنرى تطور التشريع فى المسيحية ونماذج منه ، وهاك هذه المراحل :

المرحلة الأولى : اتّباع التشريع اليهودى :

تَعتبر المسيحيةُ التوراةَ وأسفارَ الأنبياء السابقين كتباً مقدسة ، ويطلقون عليها « العهد القديم » كما ذكرنا من قبل ، وكانوا لذلك فى عهودهم الأولى يتبعون شريعة اليهود والوصايا العشر عندهم ، وروى عن عيسى بن مريم قوله : إننى لم أجىء لأغير الناموس ولكن لأقرر ، وسيأتى مزيد من إيضاح هذا فى المرحلة الثانية .

ومن أجل هذا لم يأت عيسى بتشريع جديد ، وكل ما اهتم به هو الوعظ والوصية والتسامح ، ويعلل المسيحيون عدم اهتمام عيسى بالتشريع بقولهم :

(أ) إنه أراد الشريعة روحاً مُحْيياً لا حرفاً ميتاً .

(ب) إنه أراد تجنيب هذه الشريعة ما تفرضه عليها أحوال الزمان والمكان من تحوير .

(جـ) إنه أراد أن يحترم حرية الإنسان فلا يسوقه مكرها إلى الخضوع للشريعة فيحرمه جزاء أعماله (١) .

وطبيعى أن هذا التعليل غير مقبول ، فإن عيسى لم يتحرر من التشريعات السماوية ، وإنما أَلْزمَ أتباعَه بطاعة ما شرعه العهد القديم

---

(١) الاب بولس الياس : يسوع المسيح ص ١٩٢ — ١٩٣ .

ثم إن التشريع الحكيم ليس حرفاً مميتاً ، ولا جامداً صلداً ، ولا يحـرم الإنسان نتيجة الطاعة والامتثال ، والتشريع الحكيم يسرى فى فكر الإنسان ويصبح معبِّراً عنه ومحققاً مطالبه ، وحامياً لحرماته •

المرحلة الثانية : عظات عيسى ومكانها من التشريع :

عُنِىَ عيسى عليه السلام بالوعظ كما سبق • وأهم ما يروى عنه عظة الجبل وهاك مقتطفات منها :

— طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات •

— طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض •

— طوبى للحزانى فانهم يعزون •

— طوبى للجياع والعطاشى الى البر فإنهم يشبعون •

— طوبى لأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله (١) •

التشابه والتناقض بين التشريع اليهودى والمسيحى :

ويرى المسيحيون أن عظة الجبل وما ماثلها نقلت التشريع فى المسيحية الى طور جديد • ويعقدون لذلك مقارنة بين الشريعة القديمة (اليهودية) والشريعة الجديدة (المسيحية) ونحن نوجز هذه المقارنة فيما يلى •

وجوه التشابه :

(أ) كلا الناموسين صادر عن الله •

(ب) كلا الناموسين يأمر بوجوب حفظ الوصايا القديمة التى تسلمها موسى من الله على الجبل ، وهذا ما ذَكَّر به السيدُ المسيحُ الشابَّ الغنى عندما سأله عن وسيلة لدخول الحياة الأبدية فقال : إن كنت تريد أن تدخل الحياة الأبدية فاحفظ الوصايا المتعلقة بالله وهى :

---

(١) عظة الجبل كاملة فى متى : الاصحاح الخامس والسادس والسابع .

— أنا الرب إلهك فلا يكن لك آلهة أخرى •

— لا تصنع لك تمثالا ولا صورة تسجد لها •

— لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا •

— اذكر يوم السبت لتقدسه •

— واحفظ كذلك الوصايا المتعلقة بالإنسان وهى : لا تسرق — لا تزن — لا تقتل — لا تشهد الزور — أكرم أباك وأمك — لا تشته ما عند قريبك (١) •

(جـ) كلا الناموسين يجعل محبة الله رأس الوصايا •

وجـــوه التناقض :

أورد الكتاب المسيحيون تحت هذا العنوان صوراً ليست فى الحقيقة تشريعاً جديداً ، ولا معارضة لشريعة موسى ، ولكنها فى الغالب ألوان من التسامح ، وليس بها تعديل فى التشريع إلا فى الطلاق ، وفيما يلى هذه المقـــارنة •

(أ) نهت شريعة موسى عن القتل ، أما المسيح فقد ذهب الى أبعد من ذلك ، فنهى عن التفكير فى الإساءة على العموم ، ورذل الغضب والبغض واحتقار الغير فقال : قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فإن مَنْ قتل يستوجب الدينونة • أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة » (متى ٥ : ٢١) •

(ب) ونهت شريعة موسى عن الزنا ، وأما المسيح فقد نهى عن كل فكرة دنس تداعب الحس والخيال فقال : « قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزنِ • أما أنا فأقول لكم : إن كل من نظر الى امرأة لكى يشتهيها فقدزنى بها فى قلبه » (متى ٥ : ١٧) •

---

(١) انجيل متى ١٩ : ١٨ — ١٩ ومرقص ١٠ : ١٩ •

(ج) وأباحت شريعة موسى الطلاق • أما المسيح فأرجع الزواج الى صرامته ونقائه • فألغى الطلاق الذى ما سمح به موسى إلا لقساوة قلوب قومه ، وما سمح المسيح الا بالهَجر بشرط ألا يعقبه زواج جديد •

(د) ونهت شريعة موسى عن الحنث بالعهود والحلف بالله ، أما المسيح فقد نهى عن الحلف على الإطلاق أياً كان نوعه ، فقال : قد سمعتم أيضاً أنه قيل للأولين لا تحنث بل أَوْفِ للرب بِقَسَمك ، أما أنا فأقول لكم لاتحلفوا ألبتة لا بالسماء فإنها عرش الله ، ولا بالأرض فإنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم فإنها مدينة الملك الأعظم ، ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء • ولكن ليكن كلامكم : نعم نعم ، ولا لا ، وما زاد على ذلك فهو من الشر (متى ٥ : ٣٣ — ٣٧) •

(هـ) وتساهلت شريعة موسى فاعترفتْ بالانتقام ، وسلّمت بسنةالعين بالعين ، أما المسيح فنصح بقبول الإهانة برباطة جأش ، فمن الحمق أن ترد الكيل بالكيل والضربة بالضربة ، وإنما الحكمة كل الحكمة أن تبادل بالشر الخير ، فإن فعلنا فقد ركمنا جمر نار على هامة المعتدى المسىء فقال : « قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن ، أما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر » (متى ٥ : ٣٩) •

(و) ونصت شريعة موسى على محبة الاحبّاء وبغض الأعداء • أما المسيح فقد قال بمحبة الاحباء والاعداء ، فأضاف قوله : « قد سمعتم أنه قيل : أَحِبَّ قريبك وابغض عدوك ، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، وأحسنوا الى من يبغضكم • وصلّوا لأجل من يَعْنَتَكم ويضطهدكم لتكونوا بنى أبيكم الذى فى السموات ، لأنه يُطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين » (متى ٥ : ٤٣ — ٤٤) •

(ز) واكتفى الإسرائيليون بإتمام واجبات العدل لينال الانسان

النجاة ، أما المسيح فأفهم الناس أن العدل وحده يحجِّر القلوب إن لم تمازجه دفقة من محبة (لوقا ١٦ : ١٩ — ٢٠) (١) •

ومن الواضح أن هذا ليس تشريعاً ولكنه تهذيب وتسامح ، ومن الواضح كذلك أن المسيحيين فى الغالب لم يتبعوا فى سلوكهم هذا الاتجاه، بل لم يقنعوا بالعدالة التى قالت بها التوراة ، وراح أكثرهم يستعمرون الشعوب ويظلمون الناس •

المرحلة الثالثة : الرسل والتشريع :

وبعد عيسى بفترة قصيرة اتضح لقادة المسيحيين أن التشريع اليهودى شق على الأتباع الجدد وبخاصة من غير بنى إسرائيل ، وكان الختان من أهم ما شق على هؤلاء ، فأخذ المسيحيون يقللون من التكاليف والحرمان • وحصروها فى الزنا ، وأكل المخنوق ، وأكل الدم ، وأكل ما ذبح للأوثان ، وأباحوا الخمر ولحم الخنزير والربا ، وهى محرمة فى التوراة •

المرحلة الرابعة : بولس والتشريع :

وجاء بولس فلعب دوراً كبيراً فى التشريع المسيحى ، فكان تارة يشرح ما رُوِى عن عيسى ، وتارة يقترح من عنده هو ، وقد سبق أن تكلمنا عن هذا عند حديثنا عن بولس وعند حديثنا عن الأسفار التعليمية بالكتاب المقدس • وكان الختان من أهم ما عنى بولس بإيقافه ، وطالما صرخ فى رسائله بقوله : ما هو نفع الختان (٢) ؟

المرحلة الخامسة : دور الرؤساء الروحانيين والمجامع فى التشريع :

وتسلم الرؤساء الروحانيون تراث التشريع من الرسل ومن بولس وظلوا يباشرونه حتى تمَّ الاعتراف بالمسيحية فانتقل حق التشريع الى

---

(١) الاب بولس الياس ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
(٢) انظر مثلا رسالته الى اهل رومية ٣ : ١ .

المجامع التى لم تكتف بالتقنين حول أمور الدنيا بل راحت تخلق الآلهة وتقرر حق الغفران وعصمة البابا ••• كما سبق •

المرحلة السادسة : الكنائس والتشريع :

وقرر مجمع روما سنة ١٨٦٩ عصمة البابا فانتقل حق التشريع إليه كرأس للكنيسة ، وعن طريقه نعمت الكنيسة بهذا الحق ، وقد نسب المسيحيون عصمة الكنيسة الى عيسى ، يقول الأب بولس إلياس(١) « لقد خول السيد المسيح الكنيسة عين السلطان الذى تلقاه من أبيه السماوى عندما قال لتلاميذه : كما أرسلنى الأب ، هكذا أنا أرسلكم • وذلك يشمل سلطان الكهنوت والتدبير والتعليم ••• وعصمة الكنيسة هذه امتياز تتنعم به هى والبابا رأسها نائب المسيح المنظور ، ولا يعتبر البابا معصوماً عن الضلال إلا عندما يعلن أو يرذل بطريقة احتفالية عقيدة من عقائد الإيمان ، أو تعليما له مساس بالآداب المسيحية • ولا تزال هذه المرحلة معمولا بها حتى الآن •

وقد سبق أن اقتبسنا من السيد عبد الأحد داود قوله : إن المسيحيين عندما أثبتوا عصمة البابا انتقلت كل السلطة فى إصدار القرارات وتعيين المعتقدات والأحكام الى حبر رومية الأعظم الجالس على كرسى الخلافة •• وأصبح حكمه قطعياً (٢) •

وهكذا باشرت الكنيسة سلطاتها التشريعية ، ولا تزال تباشرها ، ومن القرارات الهامة التى اتخذتها تبرئة اليهود من دم المسيح ، وهو قرار لعبت السياسة دوراً لاتخاذه ، ويرى كثير من الباحثين أن عدداً من الكرادلة الذين اشتركوا فى تأييد هذا القرار ينحدرون من أصل يهودى ، وانهم اعتنقوا المسيحية لغرض خدمة اليهودية •

قد يقال إننا نحن المسلمين نرى أن الله أنجى عيسى من اليهود ، فهم

(١) يسوع المسيح ص ١٨٨ و ١٩٠ .
(٢) الانجيل والصليب ص ٢٣ .

بذلك لم يقتلوه ، ونجيب بأن اليهود لا يعترفون بأن شبيها لعيسى حل محله ، وعدم اعترافهم بذلك يتضمن اعترافهم بقتله أى بقتلهم له لأن هناك شخصاً قُتِلَ قطعاً ، ولكنها عادة اليهود ، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، كما نص على ذلك الذكر الحكيم(١) ٠

نماذج من التشريع المسيحى :

أهم العبادات عند المسيحيين الصوم والصلاة ، وتحديدهما ليس متفقاً عليه ، ويرى كثيرون من المسيحيين أن الانتظام فى الصوم والصلاة توجيه اختيارى لا إجبارى ، ومعنى الصوم عندهم الامتناع عن الطعام من الصباح حتى بعد منتصف النهار ثم تناول طعام خال من الدسم ، ويشمل الصوم عند المسيحيين صوم يوم الأربعاء وهو يوم المؤامرة التى انتهت بالقبض على عيسى ، ويوم الجمعة لأن المسيح صلب يوم الجمعة ٠ وصوم الميلاد وعدد أيامه ٤٣ يوماً تنتهى بعيد الميلاد ، والصوم المقدس وعدد أيامه ٥٥ وهى عبارة عن الأربعين يوماً التى صامها المسيح مضافاً إليها أسبوعان : الأسبوع الأول منهما قبل الأربعين ويسمى أسبوع الاستعداد والتهيئة للصوم الأربعينى المقدس ، والأسبوع الثانى أسبوع الآلام ويأتى بعد الأربعين وينتهى بأَحَد القيامة ٠ ويمتنع فى هذا الصوم أكل لحم حيوان أو ما يتولد منه أو ما يستخرج من أصله ، ويقتصر على أكل البقول ولا يُعْقَد فى أثنائه سر الزواج ، ثم يجىء صيام الرسل وعدد أيامه يزيد وينقص حسب الطوائف وتتراوح مدته بين ١٥ و ٤٩ ، وصوم العذراء ومدته ١٥ يوماً تبدأ من أول شهر مسرى ٠

أما الصلاة فسبع صلوات فى اليوم والليلة وهى صلاة البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والحادية عشر والثانية عشرة ومنتصف الليل(؟) واهتمامهم بالصلاة أكثر من اهتمامهم بالصوم ٠ وليس للصلاة ترتيب خاص ، وانما هى أدعية تختلف من مكان إلى مكان ، وغاية ما يلزم أن

---

(١) سورة البقرة الاية ٨٥ ٠

تحويه أن تكون على نسق الصلاة الربانية التى قدمها لهم المسيح وهى : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم ، واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا ، ولا تدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشر .

تشريعات حول الأسرة :

ومن التشريعات حول الأسرة أن الأصل أن يترهب الناس رجالا ونساء ، ولكن لما كان ذلك غير ممكن أجيز الزواج ، وكان تعدد الزوجات معمولا به فى مطلع المسيحية تبعاً للتعدد الذى قالت به اليهودية ، ولكن للجمع بين اتجاه المسيحية للرهبنة وبين ضرورة الزواج خوف الزنا ، أصبح الزواج مباحا من واحدة فقط ، ولا يجوز الطلاق إلا فى حالة الزنا ، فإذا تم طلاق بسبب الزنا لا يجوز لأى من هذين الزوجين أن يتزوج مرة أخرى أما اذا كان الفراق بالموت فإن الحى يجوز له أن يتزوج ، وهم فى مسألة الطلاق يخالفون اليهودية التى تجيز الطلاق بدون زنا ، وهناك حالة أخرى غير الزنا يجوز فيها الطلاق فى المسيحية وتلك إذا كان أحد الزوجين غير مسيحى فيصح التفريق عند تهاجرهما وعدم الألفة بينهما .

الاهتمام بكثرة النسل :

ويهتم المسيحيون بكثرة النسل ويحاربون تحديده ، ومما ينسب الى البابا بيوس الثانى عشر قوله فى الاتحاد الايطالى لجمعيات العائلات الكثيرة العدد سنة ١٩٥٨ ما يلى : إن خصب الزواج شرط لسلامة الشعوب المسيحية ودليل على الإيمان بالله والثقة بعنايته الإلهية ومجلبة للأفراح العائلية (٢) ، ويزيد اهتمامهم بكثرة النسل فى البلاد التى يكونون فيها أقلية أو مساوين فى التعداد تقريبا لأتباع غير المسيحية من الديانات ،

---

(١) انجيل متى ٦ : ٩ — ١٣ .
(٢) مجلة الوثائق الكاثوليكية العدد ١٢٧١ سنة ١٩٥٨ .

ولذلك تراهم فى الشرق بوجه خاص يتجهون إلى إكثار النســل فى الوقت الذى يتجه فيه سواهم من أتباع الديانات الأخرى بهذه المنطقة الى تحديد النســـــــــل ٠ ! !

فقر فى التشريع :

وفى ختام هذه الدراسة نقرر أن المسيحية فقيرة فى تشريعاتها ، وأنها دين يعنى بالروحانيات ، ولا يهتم بشئون الدنيا ٠ وهذا يؤكد أنها تكملة لأديان بنى إسرائيل ، فقد تركت لهذه الأديان كل مســائل التشريــع أو أكثرها وقنعت بتوجيه كل العناية الى الجانب الذى أهمله اليهود ، وهــو جانب التسامح والحب والزهد فى الدنيا ٠

الطـــوائف المسيحية

عند حديثنا عن « طبيعة المســيح والآراء حــولها » فيمــا سبق ، وضّحنا أنه بسبب الاختلاف فى القول عن هذه الطبيعة ، تكوّنت مذاهب مسيحية متعددة ، ولكن هذه المذاهب لم تستقر بعد تكوينها ، فقد تكرّر فى تاريخ المسيحية حدث عظيم لم يتخلّف • هو التجاء الجانب القوى الى أعنف وأقسى وسائل الاضطهادات والتعـذيب والتنـكيل والحرق والإفناء يسلطها على الجانب الضعيف كما قلنا من قبـل ، والعجيب أن المسيحيين اضطُهِدوا من اليهود والرومــان ، ونزلت بهـم الويلات فى فى القرون الثلاثة الأولى ، فلما بدأ جانبهم يشتد رأيناهم يُنْزِلون نفس الويلات بمخالفيهم من أبناء دينهم ومن أتباع الأديان الأخـرى ، ومن هنا فنيت مذاهب مسيحية كثيرة كان بعضها فى وقت ما له الغلبة فى العدد ولكن تنقصه القوة والسلطان ، وكان فناء هـذه المذاهب بسبب قســوة اليهود والرومان أحيــانا ، وبسبب قسوة فـرق مسيحية أخـرى قويت واشتدت بالأباطرة وذوى النفوذ •

وبجانب ذلك ظهر فى العصر الحـديث مذهب جـديد هـو مذهب البروتستانت وسنتكلم فيما يلى كلمة قصيرة عن أشهر الطوائف الموجودة الآن :

(أ) الكاثوليك :

كنيستهم تســمى الكنيسة الكاثوليكية أو الغربيــة أو اللاتينية أو البطرسية أو الرسولية • ومعنى الكاثوليكية أى العامة لأنها تَدْعَى أم الكنائس ومعلمتها ، ولأنها وحدها التى تنشر المسيحية فى العالم ، وسميت غربية أو لاتينية لامتداد نفوذها الى الغرب اللاتين خاصــة أى الى بلاد ايطاليا وبلجيكا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال ، وإن كان لها أتباع فيمــا عدا ذلك من البلدان وسميت الكنيسة البطرسية أو الرسولية لأن أتباعها

يدّعون أن مؤسسها الأول هو بطرس الرسول كبير الحواريين ورئيسهم ، والبابوات فى روما خلفاؤه .

والكنيسة الكاثوليكية تتبع النظام البابوى ويرأسه البابا والكرادلة وهم أصحاب الحق الأول والأخير فى تنظيم الكنيسة ، إذ يتكوّن منهم المجمع الكنائسى الذى يُصدر إرادات بابوية سامية هى إرادات إلهية . لأن البابا هو تلميذ المسيح الأكبر على الأرض فهو ممثل الله ، ومن هنا كانت إرادته لا تقبل الجدل أو المناقشة (١) .

(ب) الأرثوذكس :

وتسمى كنيستهم كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، لأن أكثر أتباعها من الروم الشرقيين ومن البلاد الشرقية على العموم كروسيا والبلقان واليونان ، كان مقرها الأصلى القسطنطينية ، وقد فصلت عن الكنيسة الكاثوليكية أيام ميخائيل كارولاريوس بطريرك القسطنطينية سنة ١٠٥٤ (٢) ، وهى الآن مؤلفة من عدة كنائس مستقلة .

أسباب انقسام الكنيسة الى كاثوليكية وأرثوذكسية :

وينبغى أن نقف هنا لنشرح الأسباب التى دعت الى انقسام الكنيسة الى كاثوليكية وأرثوذكسية ، وقد تكلم Garvie (٣) عن ذلك ، وسنستعين برأيه لنضيفه الى رأينا الخاص :

إن الدارس لأسباب هذا الانقسام يجد أنها سياسية أحيانا ودينية أحيانا أخرى :

---

(١) محمد فؤاد الهاشمى : الاديان فى كفة الميزان ص ٤٤ .
(٢) Encyclopaedia of Religions and Ethics Vol. 3p. 590.
(٣) Encyclopaedia of Religions and Ethics Vol. 3p. 590.

فالأسباب السياسية هى :

١ — قَسَّم الامبراطور تيودوسيوس Theodosius الامبراطـوريه الرومانية قسمين : سنة ٣٩٥ غربية وعاصمتها روما وشرقيـة وعاصـمتها القسطنطينية ، وبعد وفاته أصبح ابن « أركاديوس » (٤٠٨) امبراطورا على الامبراطورية الشرقية ، وصار ابنه الثانى «هونوريوس» امبراطورا على الامبراطورية الغربية ، هذا التقسيم أتاح للمسيحية مركزين للسلطة والنفوذ ، وأخذت العاصمة الجديدة مكان المنافس لمدينة روما •

٢ — سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية بهجوم البربر عليها سنة ٤٧٦ م فأعطى هذا فرصة لكنيسة روما أن تضم الى نفوذها الدينى نفوذا سياسيا ، فادعت أن من حقها أن تحكم العالم المسيحى كـله ، ولم تقبل أن تقسم النفوذ مع كنيسة القسطنطينية ، وأعلنت الكنيسة الغربية أن رئيسها هو الحبر الأعظم والرئيس الروحى للجميع ، ولم تقبل الكنيسة الشرقية ذلك وإن كانت فيما بعد تساهلت فاعترفت بتقديمه لها برياسته •

الأسباب الدينيـــــة :

أما الأسباب الدينية فخلاصتها أن منطقة الامبراطـورية الشرقيـة متصلة" بأرض الديانات ، حيث ازدهر التوحيـد فترات طـويلة قبـل المسيحية وفى مطلعها ثم بعد ذلك فى العصر الاسلامى ، وفى هذه المنطقـة كانت هناك أسس دينية ثابتة كتحريم الدم المخنوق ودهن الخنزير ، فلما استقر الأمر بالمسيحية الى التثليث واعتبار السـيد المسيح إلها بقى فى الكنيسة الشرقية بعض المظاهر التى انبثقت من الماضى ، ويظهر ذلـك ممـــا يـــلى :

١ — تأثرت كنيسة روما بالدم الألمانى ونَشْر المسيحية بين الوثنيين أما كنائس الشرق فقد تأثرت بالتفكير الشرقى ونَشْر المسيحية بين قوم قديمى عهد بالأديان ، وقد بدأ بذلك الخلاف بين الكنيستين ، ثم أخـذ ينمو ويزداد حينما **تساهلت كنيسة روما لتجذب لها الجرمان واللادينيين فأحلّت أكل الدم المخنوق وأباحت للرهبان أكل دهن الخنزير وغـير ذلك** مما لم تقبـــله الكنائس الشرقيـــة •

٣ — قالت الكنيسة الغربية إن روح القدس نشأ عن الله الأب والله الابن معاً ، وأصرت الكنيسة الشرقية على أن روح القدس نشأ عن الله الأب فقط .

٣ — قالت الكنيسة الشرقية بأفضلية الإله الأب عن الإله الابن ، وقالت الكنيسة الغربية بالمساواة الكاملة بين الاثنين .

٤ — قالت الكنيسة الشرقية بأن المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وقالت الكنيسة الغربية بأنه طبيعتان ومشيئتان .

ولا تزال الأسباب الثلاثة الأخيرة هى قمة الخلاف بين الكنيستين . وقد سبق أن أشرنا الى أن الكنائس الغربية ظلت محتفظة بوحدتها بزعامة كنيسة روما ، ولكن الكنائس الشرقية انقسمت الى وحدات ، كل وحدة منها مستقلة وإن اتفقت جميعها فى المشرب والاتجاه .

والكنيسة الأرثوذكسية تتبع نظام الإكليروس ويبدأ من البطريرك ويليه فى الرتبة المطارنة ، ثم الأساقفة ، ثم القسس أصحاب الامتياز ويسمون القمامصة ، ثم القسس العاديون ويسمون القساوسة وهؤلاء جميعاً أصحاب الرأى والكلمة فى كل ما يدور حول الكنيسة (١) .

(جـ) البروتستانت :

وتسمى كنيستهم الكنيسة الإنجيلية ، وقَصَدَ بهذه التسمية الى أن أتباع هذه الكنيسة يتبعون الإنجيل دون غيره ، ويفهمونه بأنفسهم ، ولا يخضعون لفهم سواهم له ، ولا تختص بفهمه طائفة دون أخرى ، فلكلٍّ قادرٍ الحقُّ فى فهمه ، وجميعهم متساوون ومسئولون أمام هذا الكتاب ، وبهذا الاتجاه يعارضون الكنائس الأخرى التى تَعتبر فهم الإنجيل وقْفاً على رجال الكنيسة ، والتى لا تعتبر الإنجيل هو المصدر الوحيد للديانة المسيحية بل تضيف إليه الإلهام

(١) محمد فؤاد الهاشمى . الاديان فى كفة الميزان ص ٤٤ .

والتعاليم غير المكتوبة التى يتناولها البابوات الواحد عن الآخر ... (١)

وتنتشر البروتستانتية فى ألمانيا وانجلترا والدانمرك وهولندا وسويسرا والنرويج وأمريكا الشمالية ولكن الإنجليز اعتقدوا أن حركة الإصلاح حركة عادلة رشيدة ، وأنها هى الاصل فيما يجب أن تكون عليه الكنيسة الكاثوليكية ومن ثَمَّ استبقى الانجليز استعمال كلمة الكنيسة الكاثوليكية على الكنائس التى هى نتاج حركة الإصلاح دون أن يحتاجوا أن يطلقوا عليها كلمة بروتستانتية ، وللتفريق بين تسمية الكنائس الإنجليزية والكنيسة الكاثوليكية الأصلية أطلقوا على كنيسة روما وأتباعها « الكنيسة الرومانية الكاثوليكية » (٢) .

وتتبع الكنيسة البروتستانتية نظاماً تعاونياً أى يتعاون أعضاؤها على القيادة والوعظ ، مع عدم المساس بالاستقلال الذاتى لكل كنيسة .



والصراع عنيف بين هذه المذاهب فى الحاضر كما كان فى الماضى ، فقد اعتبر الصليبيون الكاثوليك المسيحيين المصريين كفرة وملاحدة ومنعوهم من الحج للقدس لأنهم ارثوذكس (٣) وقد ساد هذا الاتجاه جميع المذاهب المسيحية ، فكتاب القسطاس (٤) البورتستنتى يهاجم الكاثوليكية بعنف وكتاب الصخرة الأرثوذكسية يفنّد تعاليم كل من الكاثوليكية والبورتستانتينية ولو صدقنا هذه الكتب التى دوّنها قادة مسيحيون لانتهينا إلى نتيجة حاسمة هى بطلان كل هذه المذاهب والقضاء على المسيحية كلها ، وقد مرَّ أَمَدٌ طويل وفى ايرلندا بالملكة المتحدة صراع دموى بسبب الانتماء الى مذاهب مسيحية مختلفة .

---

(١) Pengadjaran Geradja Katolik p. 119.
(٢) Encyclopaedia of Religions and Ethice Vol. 5 pp. 258-259.
(٣) ميخائيل فكس : القدس عبر التاريخ ص ٥٧ .
(٤) أنظر كتاب القسطاس البروتستنتى وكتاب الصخرة الارثوذكسية لحبيب جرجس .

الكنيسة وطقوسها وأسرارها

ويتصل بالطوائف المسيحية بحث" عن الكنيسة وتقاليدها وأسرارها يُعْنـَى به المسيحيون ، وقد مرّ أكثر ما به من مادة فى ثنايا هذا الكتاب ، ولكن لا بأس من إيجازه هنا تبعاً لاتجاه هؤلاء الباحثين :

طقوس الكنيسة :

الطقوس فى اصطلاح الكنيسة هى مجموع الصلوات والابتهالات التى تتم فى الاحتفالات الكنسية ويقوم بها الكاهن مع الذين يساعدونه فى أداء الأسرار المقدسة ، ومن هذه الطقوس السجود أمام الهيكل بمجرد دخول الكنيسة ، والبخور ، والقرابين ، وأداء الصلوات السبع التى فرضتها الكنيسة ، وهى صلاة البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة ثم صلاة منتصف الليل (؟)

أسرار الكنيسة :

أسرار الكنيسة سبعة هى :

١ — سر المعمودية وقد سبق الحديث عنها .

٢ — سر المسح بالميرون المقدس ، ويُمْسَح به عقب الخروج من المعمودية ، والميرون مزيج من العقاقير عليه بقايا تحدّرت — كما يدّعى رجال الكهنوت — من الدهن الذى صنعه الرسل ولا يمسح بالميرون إلا الكهنة .

٣ — سر العشاء الربانى وقد سبق الكلام عنه .

٤ — سر التوبة والاعتراف ، ويلزم أن يكون الاعتراف أمام كاهن، وأن يكون الاعتراف كاملا وواضحاً ، ومن ثمار هذا الاعتراف الحصول على غفران الخطايا ويمنح الكاهن هذا الغفران !! وسنرى أن ذلك السر

سيكون من الأسباب التى أثارت كثيرين على المسيحية ، فخرجوا على الكنيسة وأنشأوا جماعة البروتستانت .

٥ ــ سر الكهنوت وهو السر الذى يختار به رجال الدين ويعينون فى مناصبهم الكهنوتية .

٦ ــ سر المسح على المريض ليشفى جسمياً وروحياً .

٧ ــ سر الزواج للربط بين الزوجين رباطاً مقدساً دائماً (١) .

وتسمى هذه أسراراً حتى تسدل هالة من التقديس والرهبنة على القسس الذين يزاولونها .

الرهبنة والأديرة

ويتصل بالكنائس أيضاً حديث عن الرهبنة والأديرة جدير بالذكر ، فقد عانى المسيحيون فى عهد الاضطهاد صنوفاً من التعسف والقسوة كما ذكرنا من قبل ، وكان ذلك ــ كما يقول الكتاب المسيحيون ــ تدريباً للمسيحيين على التضحية وحب الفداء . فلما بدأ عهد الحرية تحسر أولئك الذين فاتهم ركب التضحية وسفك الدماء ، فقرروا أن يضحوا بمتعهم إذ فاتهم أن يضحوا بدمائهم ولجأوا للتفرد بالجبال ، والابتعاد عن ضجيج الحياة ، والحرمان وتعذيب الجسم بالجوع والعطش وخشن الثياب . والتبتل وعدم الزواج ، والعكوف على العبادة تقديراً للسيد المسيح الذى بذل نفسه من أجل البشر ، وبخاصة أنهم أدركوا بطلان هذا العالم وخداع مظهره الخلاب .

مراحل الرهبنة :

وقد مرت الرهبنة بمراحل ، فكانت فى المرحلة الأولى هروباً من

---

(١) الاب بولس الياس : يسوع المسيح ص ٢١٠ — ٢١٤ وتاريخ الاقباط لزكى شنوده ص ٢٥٦ — ٢٦٤ .

الناس وبعداً عن المدن والقرى الزاخرة بالأدناس ، وانطلاقا فى الصحارى والبرارى ولجوءاً الى الكهوف ، بقصد محاربة الجسد والإكثار من العبادة والتأمل • مع المحافظة على الوحدة والتفـرد •

وبمرور الزمن كثر عدد الراغبين فى الترهب ، ومال هؤلاء الى نوع من الاجتماع والمعاشرة إذ تعرض بعضهم الى عدوان اللصوص والمجرمين فبنوا لهم صوامع متجاورة ، ثم انتهى بهم الأمر الى بناء أسوار عاليـة تضم بداخلها عدداً من الصوامع ، فنشأ عن ذلك « الديرُ » ، وكثرت بعد ذلك الأديار وانتشرت هنا وهناك •

الرهبنة استجابة لتعليمات المسيح :

على أن الرهبنة لم تنشأ فقط بسبب الرغبة فى التضحية والفداء بعد أن توقف الاضطهاد ، بل إن المسيحيين ينسبون أسسها الى السيد المسيح الذى احتقر المال والمتاد والتمسك بالأسرة ، ويروى عنه فى ذلك قوله :

— إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى •

— من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابناً أو ابنة فلا يستحقنى ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى ، ومن أضاع حياته من أجلى سوف يجدها •

— من ترك بيوتاً أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحيـــاة الأبدية •

— للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الإنسان فليس له أن يســـند رأســـه (١) •

---

(١) متى الاصحاح ١٩ الفقرات ٢١ وما بعدها .

أما اللجوء الى الجبال والبرارى فمقتبسة من السيد المسيح أيضا ، فقد كان يصعد الى الجبل حين يريد أن يصلى أو يعلّم الجموع ، ومن يوحنا المعمدان الذى كان يعيش فى البرية ويكرّز فيها •

أسس الرهبنة :

ومن أسس الرهبنة عدمُ الزواج أى التبتلُ ، وعن ذلك يحدّث السيد المسيح فى قوله : يوجد خصيان ولدوا هكذا ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يحتمل فليحتمل (١) ، وسنعود فيما بعد بالنقد لهذا النظام الذى يجر على العالم الخراب والدمار •

وأما التقشف والفقر وتعذيب الأبدان بالجوع والعطش وخشن اللباس فقد أعاده المسيحيون الى الاقتداء بالسيد المسيح فى زهده واحتماله الآلام ، وبما جاء فى أعمال الرسل : إنه بمضايقات كثيرة ينبغى أن تدخل ملكوت الله •

وأما الطاعة التامة التى يدين بها الرهبان لرؤسائهم فيرجعونها الى قول المسيح : مع كونه ابناً تعلّم الطاعة (٢) •

اقتباس من الفكر الهندى :

والباحث فى مقارنة الأديان يجد أن المسيحيين فى تصرفاتهم هذه اتبعوا المنهاج الهندى دون تحريف ، فالترهب والتبتل وتعذيب الجسم ••• هى سياسة الهندوسية والبوذية التى وصفناها بوضوح فى كتابنا « أديان الهند الكبرى » •

---

(١) متى ١٩ : ١١ — ١٢ •
(٢) انظر تاريخ الأقباط للأستاذ زكى شنودة ص ١٧٨ — ١٩٢ ويسوع المسيح للأب بولس الياس ص ٢٦٧ — ٢٨١ • والدعوى الرهبانية فى الكنيسة للأب موجنه ص ٣٤ •

وليس الالتحاق بالرهبنة شيئاً يسيراً ، فطالب الالتحاق يختبَر ويمر بتجارب حتى يعترف الرهبان بأنه مستحق ، وحينئذ يرقد على ظهره أمام الهيكل ويصلى الرهبان عليه صلاة خاصة ، مضمونها أن هذا الرجل قد ترك العالم كأنه مات ، ولم يعد يحسب ضمن أبناء هذا العالم أى ضمن العلمانيين •

ويرى الباحثون الأقباط أن نظام الرهبان نشأ فى مصر أول ما نشأ ، ثم نقله الرهبان الأقباط الى ايطاليا وفرنسا وغيرهما من الدول (١) •

انحرافات الأديرة

تحدثنا آنفا عن الرهبنة ، وأنها نشأت عن الرغبة فى التضحية والفداء والطهر ، وأن الباحثين يرجعون بها الى خلق السيد المسيح ، وأن الأديرة نشأت لمساعدة الرهبان على هذه الأهداف السامية ، **بيد أن حياة الطهر فى الصوامع والأديرة كانت قصيرة العمر جدا ، فسرعان ما تطرّق لها الفساد وشملها الفسوق ، حتى انه يُنسب الى مُنشىء الأديرة « الأنبا أنطونيوس » أنه قال لزميله « مكاريوس » :**

« قم يا مقاره ، اقفل الديارة ، لأن الرهبنة فسدت (٢) » •

ويقول الأنبا « باسيليوس » مطران ابى تيج : إن الأديرة لا تقى من الفساد ، وإن الرهبان يحيون حياة شريرة (٣) •

وتقول المجلة المسيحية « رسالة الحياة » ما يلى عن الرهبنة والأديرة :

الأديرة تحتوى على فساد عميق ، وهيهات أن يوجد بها من يصلح

---

(١) تاريخ الاقباط ص ٢١٤ •

(٢) مجلة رسالة الحياة المسيحية السنة الاولى العدد السادس ص ٧٤

(٣) انظر بحثه عن الاديره فى كتابه صوت الحق

للبقاء ، إذ أنها تضم بين جدرانها أفاقين أولى بهم غيابات السجون (١) .

وإذا كانت هذه الأقوال عن الأديرة مجملة ، فإن بين أيدينا أوثق كتاب عن الأديرة هو كتاب « الديارات » للشابوشتي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) ، وقد حققه الباحث المسيحي كوركيس عواد معتمداً على نسخة خطية كانت عند الأب « أنستاس ماري الكرملي » نقلها بيده عن النسخة المصورة بالفوتوغراف عن المخطوطة الوحيدة للكتاب في خزانة كتب برلين، وذكر الأستاذ كوركيس عواد أن البطريرك « مار أرناطيوس » أمده بمزيد من المعلومات عن الديارات السوريانية التي تحدث عنها الشابوشتي، وقد نشرت هذه الاضافات في ذيول الكتاب .وكل هذا يجعل ما ورد في الكتاب من أحداث عن الديارات موضع تسليم من جميع الباحثين .

وسنعيش مع هذا الكتاب لنرى ما آلت اليه حال الأديرة منذ هذه العصور المبكرة .

وأول ما نقتبسه من هذا الكتاب سطور من مقدمة المحقق يتحدث فيها **عن أن الأديرة كانت مجالات للأنس والطرب ومواطن للنزهة واللهو** ، وأن كل دير من الديارات كان محصناً بسور مكين شاهق يدفع عنه شر الهجمات . ويكفيه غائلة المعتدين عليه (٢) ، وربما جاز لنا أن نقول إن هذه الأسوار كانت تخفي ما يدور بداخل الديارات من انحراف وأسرار .

والديارات التي تكلم عنها الشابوشتي هي ثلاثة وخمسون ديراً أكثرها بالعراق (٣٧ ديراً) وبعضها بالشام (١٣ ديرا) ومصر (٩) والجزيرة (٤) وقد شملها الانحراف جميعاً مما يدل على أن الأديرة في أي موقع كانت قد رحبت بهذا اللون المنحرف من الحياة ، فكأن الانحراف كان جزءاً مهماً من أعمالها وأنشطتها .

---

(١) العدد السابق ونفس الصفحة .
(٢) ص ٣٦ و ٤٩ من المقدمة .

دَيْرُ دُرمالس :

ولنذهب الآن الى صلب الكتاب فأول دير تكلم عنه الشابوشتى هو « **دير دُرمالس** » وعنه يقول المؤلف : هو من البقاع المعمورة بالقَصْف والمقصودة بالتنزه والشرب ، وعيدُه أحسن عيد يجتمع نصارى بغداد به ، **ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم ، ويقيم الناس فيه الأيام ، ويطرُقونه فى غير الأعياد ، ولأبى عبد الله ابن حمدون النديم فيه أبيات منها :**

يادير دُرمالس مَا أحسنك ... ويا غزال الدَّيْر ماأفتنك
لئن سكنتَ الدير يا سيدى ... فإن فى جوف الحشا مسكنك(١)

دير الثعالب :

فإذا استطردنا فى قراءة الكتاب قابَلَنَا دير آخر هو **دير الثعالب** ويقول عنه الشابوشتى : إنه لا يخلو من أهل البطالات ، والتطرب ، واللذات ، فمواطنه أبداً معمورة ، وبقاعه بالمتنزهين مشحونة ، ويروى الشابوشتى كثيرا من الأشعار التى قيلت فيه ومنها نقتبس نموذجا قصيراً هو

دير الثعالب مألف الضلاَّل ... **ومحلُّ كلِّ غزالة وغزال**
كم ليلة أحييتُها ومُنادِمى ... فيها أبحُّ مُقطع الأوصال
سمحٌ يجود بروحه فإذا اقضى ... ومضى سمحت له وجدت بمالى
ومنعمٌ دينُ ابن مريم دينُه ... غَنِجٌ يشوب مُجُونَه بدلال(٢)

دير العذارى :

ولننتقل الى دير يحمل قصة خطيرة هو « **دير العذارى** » ويقول عنه الشابوشتى انه سُمِّى بدير العذارى إذ أقيم لبعض الجوارى المتبتلات العذارى فكنَّ سكانه وقطَّانه ، فَسُمِّى الدير بهن ، ويروى

(١) ص ٣ و ٤ .
(٢) ص ٢٤ ، ٢٥ .

الشابوشتى عن الجاحظ أنه قال : حدثنى ابن فرج الثعلبى أن قوماً من بنى ثعلب أرادوا قطع الطريق على مال السلطان ، ولكن السلطان عرف ذلك فأتبعهم برجاله فاختفوا فى دير العذارى ، فلما أمنوا خلا كلٌ واحد منهم بجارية كان يظنها عذراء ولكنهم جميعاً تبينوا **أن القسّ الذى كان موكلا بحماية الدير قد اعتدى عليهن جميعا . وقد قيل فى ذلك قصائد وأشعار طويلة منها ما قيل عن هذا الراهب وعن أفعاله :**

إذا ما مشى غضّ من طرفه وفى الدير فى الليل منه عرام(١)

دير مرمـــار :

وهناك دير آخر هو « **دير مرمار** » فى « سُر من رأى » ويقول عنه الشابوشتى إنه من مواضع النزهة ، ويروى عنه قول الشاعر :

أمضيتُ فى « سُرَّ مَنْ رى » خيرَ لذّاتى
ونلتُ فيها مُنَى نفسى وشهواتى

عمّرتُ فيها بقاع اللهو منغمساً فى القصف ما بين أنهارٍ وجنات
بدير مرمار إذ نحيى الصبوح به ونعمل الكأس منه بالعشيات
بين النواقيس والتقديس آونةً وتارةً بين عيدان ونايات
وكم به من غزال أغيد غزلٍ يصيدنا باللحاظ البابليات(٢)

دير مَرْيَحَنّا :

ونجىء الآن الى « **دير مَرْيحَنّا** » الذى يقول فيه الشاعر :

أرى قلبى قد حَنّا إلى دَيْرِ مَريَحَنّا
الى ظبىٍ من الإنس يصيد الإنس والجِنّا
إلى أحسن خلق الله إن قدّس أو غنّا
فلما دارت الكأس أدرنا بيننا لحنا
ولما هجع السُمّار نمنا وتعانقنا(٣)

(١) ص ١٠٧ وعرام معناها شراشة .
(٢) ص ١٦٣ و ١٦٤ .
(٣) ص ١٧١ و ١٧٢ .

دَيْر ماسرجيس :

وهناك دير كان واسع الشهرة على نهر الفرات هو **«دير ماسرجيس»** **ويفهم مما قيل فيه من أشعار أن الذين يعيشون فيه لم يكونوا من النصارى أو الرهبان ، بل كان يفد للحياة به من لا يعتنق المسيحية ليجلب له الرواد من طلاب اللذة والمتعة ، ويؤخذ هذا من قول الشاعر :**

وغـزالٍ مكحـلٍ ذى دلالَ ساحر الطرف بابلى عروس
دينه مُعلَنٌ لدين النصارى وإذا ما خلا فدين المجوس
قـد خلونا بظبية نجتليهـا يوم سبت الى صباح الخميس
بـين ورد ونرجس وبهـار وسط بستان دير ماسرجيس(١)

دَيْر قنّى

وفى العراق كذلك دير يعرف بدير **« قنّى »** أو دير **مارى السليح** أى الرسول ، وفيه يقول الشاعر :

وكم وقفة فى ديرقنى وقفتها أغازل فيه فاتن الطرف أحورا
وكم فتكة لى فيه لم أنس طيبها أمتُّ بها خيراً وأحببت مُنْكَراً(٢)

دَيْر القُصَير :

فإذا جئنا الى أديرة مصر قابلنا **دير القُصَيْر** فى أعلى جبل المقطم وكان به من المجون ما بأديرة بغداد ، وفيه يقول الشاعر :

كم لى بدير القصير من قصْفٍ مع كل ذى صبوة وذى طَرْفِ
لَهَـوْتُ فيه بشادن غَنِـجَ تَقْصُر عنه بدائعُ الوصف(٣)

---

(١) ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .
(٢) ص ٢٣٦ .
(٣) ص ٢٨٠ .

دَيْر مار يوحنـــــا :

ونقابل فى مصر كذلك « دير مارحنا » ويسمى أيضاً دير مار يوحنا ويقول عنه الشابوشتى إنه من مواضع اللعب ومواطن اللهو والطرب وكان يقع على شاطىء بركة الحَبَش بالقرب من نهر النيل ، وهى الآن تعرف بدار السلام ، وفى الدير والبِرْكة يقول الشاعر :

واقْرَ أعلى دَيرِ مارْحنّا السلام فقد أبدى تذكّره منى صبـــاباتى
وبركة الْحَبَش اللاتى ببهجتها أدركتُ ماشئت من لَهْوِى ولذاتى
منازلا كنتُ أغشاها وأطرقهـــا وكن دَوْماً مواخيرى وحاناتى(١)

تلك هى الأديرة هنا وهناك كما تحدث عنها الشابوشتى وقد وضحت مجلة الحياة المسيحية فى الأعداد التى أشرنا لها آنفا أن الأديرة لا تزال فى العصر الحديث تمارس ما مارسته فى الماضى ، وقد أشارت الصحف حديثا بأقلام مسيحية الى ما يحدث من انحرافات فى الموالد المسيحية ، وكـل هذا يدق الناقوس نحو هذا الخطر العظيم .

---

(١) ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

حركة الاصلاح الدينى

الحديث عن المذهب البروتستانتى أو عن حـركة الاصـلاح الدينى يحتاج أن نبدأ بذكر شىء من التفصيل لبيان حالة الكنيسة قبيل هذه الحركة الاصلاحية ، وفيما يلى أهم الأسباب التى دعت الى الثورة والتى أنتجت حركة الاصـــلاح •

١ ــ سلطة البابا :

وأول ما نبرزه هو السلطة التى حصل عليها البابا ، تلك السلطة التى منحتها له المجامع أو التى منحتها له الظروف وقد رأينا أن مجمع رومــة المنعقد سنة ٨٦٩ قرر أن الفصل فى المسائل الدينية من اختصاص كنيســة روما ، وأن المسيحيين جميعاً يخضعون لقرارات رئيس هــذه الكنيســة ، ورأينا أن مجمع رومة المنعقد سنة ١٢١٥ يقرر أن الكنيسة البابوية تملك حق الغفران وتمنحه لمن تشاء ، وطبيعى أن من يملك حق الغفران يملك حق الحـــرمان •

أما الســلطة التى منحتها الظروف للبــابا فمرجعها الى الانقســام السياسى الذى حصل فى الدولة الرومانية والى الصراع الذى جاء عقب ذلك ، وفى وسط هذا الانقسام وذلك الصراع استقل البابا استقلالا تاماً ولم يعد تابعاً لأىٍّ من الملوك والأمراء ، وقد اعترف الجميع له بالاستقلال تخلصاً من التنافس على السيطرة على الكنيســة ، ومن ثم صــار تعيين البابوات بطريق المجامع لا بطريق الأباطرة وهذا أيضــاً قوَّى ســلطان البـــابا •

وفى الوقت الذى لم يعد البابا تابعاً لأى من الملوك كان الملوك بحكم أنهم مسيحيون تابعين للبابا وخاضعين له تبعا لقرار المجمع آنف الذكر الذى جعل كل المسيحيين ملزمين بطاعة البابا وخاضعين له •

وكان المسيح كما يعتقدون قد أقام بطرس الرسول خليفة له ليرأس الحواريين ويدير شئون المسيحيين ، وقد أنشأ بطرس كنيسة روما، والبابا خليفة لبطرس فى رياسة هذه الكنيسة وفى إدارة شئون المسيحيين، فالبابا على هذا خليفة للمسيح ، له سلطاته ومكانته •

وقد باشر رجال الدين هذه السلطات بكثير من التوسع بل النزق أحياناً ، فأخذوا يبيعون صكوك الغفران ، ويصدرون قرارات الحرمان حتى على الملوك والعظماء ، وأصبحت الكنيسة بذلك هى التى تفهم الكتاب المقدس ، وهى التى تصدر القرارات بناء على هذا الفهم وبناء على العلم الذى يدوَّن والذى يتوارثه البابوات كما سبق • ولا معقب لما تقول الكنيسة ، و « وعلى الناس أن يتلقوا قولها بالقبول • وافق العقل أو خالفه ، وعلى المسيحى اذا لم يستسغ عقله قولاً قالته أو مبدأً دينياً أعلنته أن يروض عقله على قبوله ، فإن لم يستطع فعليه أن يشك فى العقل ولا يشك فى قول البابا (١) •

٢ ـ الاستحالة :

ومن هذه الأشياء التى أعلنتها الكنيسة مسألتان لا أصل لهما فى الأناجيل المعروفة ولا يستسيغهما العقل ، وهاتان المسألتان هما :

١ ـ الاستحالة •

٢ ـ غفران الذنوب •

والاستحالة هى اعتقاد المسيحيين أنهم حينما يأكلون الخبز ويشربون الخمر يوم الفصح وهو المسمى عندهم بالعشاء الربانى يستحيل الخبز الى لحم عيسى وتستحيل الخمر الى دمه فمن أكل ذلك الخبز وشرب تلك الخمر فقد أدخل المسيح فى جوفه وامتزج به وبتعاليمه (٢) وقد سبق الحديث عن العشاء الربانى • = الأوخارستيا

---

(١) ابو زهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٦٨ •
(٢) متى ٢٦ و ٢٧ لوقا ٢٢ : ١٨ مرقص ١٤ : ٢٢ •

٣ ـ غفـران الذنوب :

وأما غفران الذنوب فقد أصبح بدعة عجيبة (١) فإذا أراد البابا أن يبنى كنيسة أو يجمع مالا لشىء ما ، طبع صكوك الغفران ووزعها على أتباعه ليبيعوها للناس كالذين يبيعون أسهم الشركات أو أوراق اليانصيب وبالصك فراغٌ تُرِكَ ليُكتَب به اسم الذى سيُغْفَرُ ذنبه ، والعجيب أن هذا الصك يغفر لمشتريه ماتقدم من الذنوب وما تأخر ، فهو بعبارة أخرى إذن بارتكاب كل الجرائم بعد أن ضَمِنَتْ الجنة لهذا المحظوظ، وفيما يلى نص لصك غفـــران :

« ربنا يســوع المسـيح يرحمك يا ..... (يكتب اسـم الذى سَيُغْفَرَ له) ويُحِلُّك باستحقاقات آلامه الـكلية القدسـية ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أُحِلُّك من جميع القصاصـات والأحكام والطائلات الكنيسية التى استوجبتَها ، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتَها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة ، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذر الذنوب وكلّ علامات الملامة التى ربما جلبتَها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى تلتزم بمـكابدتها فى المطهـر وأردُّك حديثاً الى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين ، أردُّك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا عند معموديتك ، حتى انه فى ساعة الموت يُغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطـاة إلى محل العـذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الروح . وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة ، حتى تأتى ساعتك الأخيرة ، باسم الأب والابن وروح القدس » .

---

(١) انظر ارتباط هذه البدعة بالحروب الصـليبية فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، للمؤلف .

ذلك هو الوضع الذى آلت له حينذاك مسألة غفران الذنوب ، لقد كان جمع المال فى أول الأمر وسيلة للإعفاء من الاشتراك فى الحروب الصليبية ، ثم أصبح وسيلة لغفران ما مضى منها وما هو آت ، دون حاجة إلى توبة أو رد ظلامة •

ولم تقف قضية غفران الذنوب عند هذه الصكوك ، بل سرعان ما دخلها عنصر جديد فاضح • ذلك ما يسمى « الاعتراف » فكان على المذنب أن يعترف بذنبه فى خلوة مع قسيسه ، ليستطيع هذا القسيس أن يغفر له ذنبه ، وفى خلوات الاعتراف حدثت أشياء يقشعر لها الوجدان ، ولست أجدنى فى حل من ذكر هذه الفضائح فى هذا الكتاب ، وإنما أشير إليها إشارة سريعة لعل قرارا حاسما يصدر بإيقاف هذا الزيغ الذى يرتكب باسم الدين ، وقد نشرت المجلة المسيحية « رسالة الحياة » صورا من ذلك يندى لها الجبين ، وذكرت أحداثا محددة اعتدى فيها رجال الدين أو حاولوا العدوان على المعترفات (١) •

والأرثوذكس ينتقدون صكوك الغفران بقسوة ، ويبرزون ما فى قضية التطهير من انحراف (٢) •

٤ — الضرائب :

دفع المسيحيون الأموال ليشتروا الغفران ، ولكن الكنيسة لم تقنع بما جمعت من مال ، فقد أرادت أحيانا أن تأخذ مالا مرة أخرى ممن سبق أن اشترى صك الغفران ، أو ممن لم يقنع بهذه البدعة وضن بالمال على هذا الصك ، وعمدت الكنيسة لذلك إلى فرض ضرائب على أتباعها كانت باهظة أحيانا ، وكانت تشمل الفقير والغنى •

---

(١) رسالة الحياة : السنة الاولى — العدد الثانى عشر ص ٦ ، والسنة الثانية — العدد الثانى ص ٢٥ .

(٢) دلوار شنوده المنفلوطى : المطهر تحت المجهر ص ٣٠ وما بعدها .

٥ — الهرطقة ومحاربتها :

على أن أهم ما اشتهر به العهد الذى سبق حركة الإصلاح هو محاربة ما سمِّى بالهرطقة ، والحديث عن هذا الموضوع يحتاجنا أن نوضِّح :

١ — ما الهــرطقة ؟

٢ — كيف حوربت ؟

والإجابة عن السؤال الأول سـهلة يسـيرة ، فالهرطقة — كما فهمتها الكنيسة إذ ذاك — هى مخالفة رأى الكنيسة ، فرأى يراه عالم فى العلوم الكونية هرطقة ، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسى هرطقة ، وانتقاد شىء يتصل بالكنيسة هرطقة ، ومساعدة واحد من هؤلاء أو الرِّضا على اتجاهه هرطقة ، على أن رؤساء الكنيسة طالما رمى بعضهم بعضـا بالهرطقة خدمة لمطامعهم الخاصة •

وأما كيف حاربت الكنيسةُ الهرطقةَ فيتضح ذلك من قرار المجمع الذى عقد فى سنة ١٢١٥ إذ تقرر فيه استئصال الهراطقة ، وقـد نفذت الكنيسة هـذا القرار أو هذا الاستئصال بكل قسوة ونشاط ، فاستعملت القتل والحرق ومحاكم التفتيش ، فأُحْرِق يوحنـا هوس وجيروم ، وأحرقت كتب ابيلارد وسـجن حتى الوفاة ، وأوقعت محاكم التفتيش بالهراطقة والابرياء دون تمييز ، فقد كان الإيقاع بالناس دليل إخلاص إلى الكنيسة ، وقد سبق الحديث عن هذه الاضطهادات •

عهـد النـور

وأطل عهد النور على العالم ولكن الكنيسة لم تُحِسَّ به ، فقبـل ذلك ببضعة قرون كان هناك دين آخر قد ظهر ، ذلك هو الدين الإسلامى ، وذلك الدين لم يحارب العلوم بل غذَّاها وحث عليها ، وفى ظل هـذا

الدين استيقظت فلسفة الإغريق بعد سبات طويل ، واستيقظ الطب والفلك وعلوم الرياضة ، وقام العلماء المسلمون فى هذه العلوم وفى سواها بنشاط كبير ، ورعا الخلفاء والكبراء هؤلاء العلماء وبنوا لهم المعاهد الشهيرة ، ومن أهمها بيت الحكمة حيث كان الخليفة المأمون يعطى المترجمين وزن ما يترجمونه من الذهب الخالص .

ووجدت هذه العلوم طريقها إلى أوربا عن طريق الأندلس وصقلية وفلسطين ، والتحق كثير من المسيحيين بمعاهد قرطبة وإشبيلية وغيرها ، وبدأت اليقظة تدب فى أوروبا نتيجة لذلك ونتيجة لسواه وهو ما يسمى عصر النهضة «The Renaisance» وحينئذ وجدت الكنيسة أن الهرطقة (!!) كثرت وانتشرت ، فضاعفت جهدها فى الكفاح غير أن عهد النور كان قد قوى ، وقد استطاعت الكنيسة أن تحصل على سلطات ضخمة وأن تحافظ عليها وأن تقضى على كل خصومها فى عهد الظلام . أما وقد بدأ عهد النور فلم يعد من السهل على الكنيسة أن تستمر فى هذا الطريق ، ولكنها قاومت وناضلت ، وقاوم معارضوها وناضلوا أيضا ، وأخذوا من عهد النور قوة فلم يفنوا كما فنى أمثالهم من قبل ، ومن هنا بدأ صراع عنيف بين الكنيسة وبين المصلحين سنلم به إلماماً سريعاً :

المصلحون :

بدأ المصلحون يرتفع صوتهم فى القرن الخامس عشر ، **ومن أشهر من قادوا الإصلاح فى هذا القرن جيروم وهوس ، ولكن سلطان الكنيسة كان أقوى منهما ، فأعدما حرقاً بالنار** ، بيد أن مصلحى هذا القرن على كل حال مهدوا الطريق لمن جاء بعدهم ، وحفل القرن السادس عشر بمجموعة من المصلحين المشاهير ، وبخاصة فى إنجلترا التى كانت ترى سلطان الكنيسة تدخلا فى شئونها ، وفى ألمانيا التى عانى بعض ملوكها قسوة البابوات حينما أصدروا ضدهم قرارات حرمان . ومن هنا يسّر هؤلاء الملوك لرعاياهم القيام بحركات مناوئة للكنيسة ، **وظهر فى انجلترا**

توماس مور (١٤٧٨ — ١٥٣٥) ودعا إلى إصلاح الكنيسة بطريق سلمى ، ثم ظهر بعد ذلك (فى نفس القرن) أشهر المصلحين وهو **مارتن لوثر،** وكان ظهوره فى ألمانيا موطن العقل الكبير والتفكير الحر ، وكان لوثر عالماً باللاهوت ولذلك نجد أنه تجمع له ما لم يتجمع لسواه ، فحركته نابعة من قلبه وليست بتوجيه ملك أو إيعاز أمير وهو رجل ألمانى مستقل العقل حر التفكير ، ثم هو من رجال اللاهوت ، فهو عليم بخبايا الكنيسة ، دارس لعلومها .

وكان لوثر — بالإضافة إلى دراسته للاهوت — شديد الورع يحصى على نفسه سيئاتها ويبالغ فى تقديرها ، وتضطرب نفسه خوفا منها ، وحج إلى روما رجاء أن يزيده قربه من الأماكن المقدسة صلاحا ويبعده عن السيئات ، ولكنه هناك وجد ما أزعجه ، فإن هذه الذنوب التى أثقلته يستطيع الكاهن أن يعفيه منها بصك يشتريه ، يالله ! كيف هذا ؟ كيف ينجو القاتل من العذاب بصك يشتريه ؟ وكيف تمحى سيئات السارق وقاطع الطريق وآكل حقوق الناس إذا أراد الكاهن ذلك دون نظر إلى المعتدَى عليهم ودون نظر إلى الله خالق الكون ، ورأى لوثر كذلك فى روما ما قلل مكانة رجال الدين عنده ، وعاد الى ألمانيا فلاحقته صكوك الغفران إذ كان البابا « ليو » يريد أن يعيد بناء كنيسة بطرس واحتاج للمال فقرر أن يحصل عليه من بيع هذه الصكوك ، فأرسل أحد حامليها فيمن أرسل إلى ألمانيا ، فثار لوثر لذلك وكتب احتجاجاً علقه على باب الكنيسة . فطلبته الكنيسة لمحاكمته أمام محاكم التفتيش فلم يذعن فأصدرت قراراً بحرمانه ، وتبعا لذلك أصدر الإمبراطور قراراً بحرمانه من الحقوق القانونية والمدنية ومعنى ذلك أنه أصبح مباح الدم فقد كل ما يملك ، ولكن أحد الأمراء حماه .

وصادفت دعوة لوثر فى القرن السادس عشر نجاحاً ، واعتنقها كثير من المصلحين الذين ساروا فى طريق لوثر فأنكروا حق الغفران ، والاستحالة، وحق فهم الكتاب المقدس على الكنيسة ، وما شابه ذلك.

نتائج الحـــركة الاصلاحية :

بقيت الكنيسة فى واد ودعوة الإصلاح فى واد آخـر ، وعجـزت الكنيسة عن القضاء على هذه الحركات ، ولكن هذه الحركات أيضا عجزت عن تحويل تفكير الكنيسة ، وكانت نتيجة ذلك أن أنشأت الحركة الجديدة كنائس لأتباعها ، سميت الكنائس البروتستانتية •

مبادىء الكنيسة البروتستانتية :

أهم مبادىء هذه الكنيسة هى :

١ ـــ جعل الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للمسيحية ، وردّ كلّ الأحكام التى لم ترد فيه كتلك التى تستند الى رأى البابوات أو الى العلم الخاص الذى قيل إنهم يتوارثونه الواحد عن الآخر •

٢ ـــ من حق كل مسيحى قادر أن يقرأ الكتاب المقدس وأن يفسره •

٣ ـــ ليس لكنـائس البروتستانتية رياســة عامـة ، فلكل كنيسة رياستها ، وعملُ الرياسةْ هو الإرشاد وتوجيه من لا يستطيع أن يستقل وحده بفهم الكتاب المقدس •

٤ ـــ ليس للكنيسة حقّ غفران السيئات •

٥ ـــ ترجمة الكتاب المقدس للغات المختلفة حتى يقرأه الناس على اختلاف لغاتهم وحتى تكون صلاتهم ودعاؤهم بلغة يعرفونها •

٦ ـــ لا علاقة للعشاء الربانى بجسم المسيح ودمه وليس هـو إلا للذكـرى •

٧ ـــ عدم الاعتراف بضرورة الرهبنة وإباحة الزواج لرجال الدين •

٨ ـــ عدم اتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس وعدم السجود لهـا فذلك للوثنيـــة أقرب •

نقـــد الحـــركة الإصـــــلاحية :

هل نجحت حركة الإصلاح هذه أو فشلت ؟

يرى كثير من الباحثين أن الحركة نجحت وأن من دلائل نجاحها بقاءها وكثرة أتباعها وانتشـــارها فى عدة أقطار •

وقد قامت حركات إصلاحية من قبل كحركة أريوس ونسطور وغيرهما ولكنها فشلت واندثرت ، ولم يبق لها إلا ظلال قليلة إن كانت لها ظـــلال فى ثنايا التاريخ أو تفكير الأذكياء الموهوبين الشجعان •

أما حركة لوثر فقد ساعدها الزمن الذى كان قد تطور ، والحـــرية التى كانت قد بدأت تنتعش ، ثم ساعد بعد ذلك على انتشارها أنها صادفت اكتشاف أمريكا فدخلت إلى هذه البلاد مع أتباعها من الإنجليز وغيرهم ، وهناك قوى عودها واستقرت ، فاتخذت لها فى الدنيا الجديدة كما اتخذت فى الدنيا القديمة مراكز قوية •

ولكن إذا ذهبنا نتعمق فى فهم هـــذه الحركة الإصلاحية نجد أنهـــا فشلت من ناحيتين :

أولا : **لم تستطيع تقويم الكنائس التى كانت قائمة** ، ولم تفلح فى التغلب على البابا وأفكاره وأتباعه ، فقنعت بإنشاء كنائس لها تظهر فيها المبادىء الإصلاحية التى اعتنقتها ، وتركت آلاف الكنائس الأخرى تسير على النحو الذى كانت تسير عليه من قبل •

ثانياً : **كانت الحركة إصلاحاً للكنيسة لا إصلاحاً للمسيحية** ، والفرق بين الموضوعين كبير ، ومعنى هذا أن ما أثار لوثر ومعاصريه هو أفعـــال الكنيسة فى ذلك العهد ، أما البحث فى الأشياء الهامة التى دخلت عـــلى المسيحية الأصيلة فلم يكن موضوع إصلاح عند لوثر ومعاصريه ، لقـــد

تلقى لوثر ومعاصروه المسيحية من الأجيال السابقة ، واعتنقوها تقريبا كما هى ، ولم يثوروا إلا على ما ابتدعته الكنيسة فى عهدها الأخير ، كغفران السيئات ، الاستحالة ، وحق تفسير الكتاب المقدس ، والتشريعات غير المكتوبة التى يتوارثها البابوات .. ؟

وعلى هذا بقيت موضوعات ضخمة لم يتطرق لها الإصلاح وذلك مثل :

١ — التثليث .

٢ — صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

٣ — ما الكتاب المقدس ؟ ومن هم مؤلفوه ؟ وما الصلة بين الأناجيل ومؤلفيها ؟ وأين إنجيل عيسى ؟

٤ — مدى سلطة المجامع فى اتخاذ قرارات تتعلق بأسس الذين

وبهذا كان نجاح الحركة الإصلاحية — فيما أعتقد — محدوداً ومحدوداً للغاية .

بقى أن نقول أن الكاثوليك يقولون إن « لوثر من أصحاب البدع والأضاليل (١) وأنه هو وأمثاله زاغوا عن طريق الإيمان (٢) » .

---

(١) دكتور الخورى جرجس فرح : شرح رسالة القديس بولس الى اهل رومية ص ١٠ — ١١ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ .

المسيحية فى ضوء النقد العلمى

هل يجوز لى أن أنقد رسالة المسيح وأنا أومن به وبرسالته ؟

صحيح أن الأديان تعرضت لنقد شنه الفلاسفة والمفكرون الأحرار (Free Thinkers) الذين لا يتبعون ديناً معيناً • ويعطون أنفسهم الحرية الكاملة فى نقد أى دين كما ينقدون أية فكرة وأى اتجاه ، ولكن هل يستطيع اتباع الأديان أن يفعلوا ما فعله المفكرون الأحرار ؟

لقد حدث فى الإسلام حدث ذو بال فيما يتعلق بالتفكير الحر ، ذلك أن المسلمين قبلوا تحدى هؤلاء المفكرين الأحرار ، وراح المسلمون يناقشون معهم قواعد الإسلام فى ضوء النقد العلمى والتفكير الحر ، وراح هؤلاء المسلمون وبخاصة طائفة المعتزلة يشرحون للناس اتفاق الدين الإسلامى مع العقل ، كما ذهبوا يستخدمون العقل والبراهين المنطقية فى الدفاع عن الإسلام وشرح أسسه واتجاهاته ، وكان علماء الإسلام أول المتدينين الذين أجازوا أن يتدخل العقل فى فهم الأديان وأهدافها ، وانتهت طائفة المعتزلة ، ولكن اتجاهها هذا ظل حياً قوياً ، ولا شك أن اتجاه المعتزلة وغيرهم من المفكرين المسلمين كان صدى للتفكير الإسلامى نفسه فالقرآن الكريم مملوء بالآيات التى تحث على استعمال العقل وتدبر الأمور •

وفى ضوء هذا الاتجاه ننقد المسيحية نقداً علمياً هادئاً قوامه الإنصاف والبحث عن الحق ولا شىء غير ذلك •

على أننا فى الحقيقة نستطيع أن ننقد المسيحية دون هذا التردد والحذر ، فقد اتضح لنا من الدراسة السابقة أن المسيحية التى تعلمها الكنيسة ، أى مسيحية اليوم • مسيحية الأناجيل المعترف بها من الكنيسة ، هذه المسيحية لا تمثل المسيحية الحقيقية بحال ، ان هذه الديانة هى من

وضع بولس وليست الوحى الذى نزل من الله إلى المسيح ، ومن ثم ليس هناك أدنى حرج فى نقدها وإخضاعها لمقياس الفكر حتى عند المحافظين الذين يرون أن الواجب أن نَخْضع للأديان السماوية دون أن نقيسها بمقياس العقل •

وهناك سبب آخر هام يبيح نقد المسيحية ، ذلك أن المسيحية جاءت لبنى إسرائيل لتصحح أوضاعا شاذة عندهم ، فقد تكالب اليهود مثلا على المال وحاولوا جمعه بمختلف الطرق ، فجاءت المسيحية تدعو للزهد لتكسر حدة هذا الجشع • وكان التحدى والانتقام طابع العلاقة بين طوائف اليهود (الكهنة والفريسيين والقراء وغيرهم) فجاءت المسيحية تقول بالتسامح • ولو بقيت المسيحية على وضعها هذا ، أى لو بقيت دينا لبنى إسرائيل يدعوهم للزهد ليكسر حدة جشعهم ، ويدعوهم للتسامح ليكسر حدة التحدى عندهم لكان ذلك جميلا ، لأنها ديانة جاءت فى ظروف خاصة ولجماعة خاصة فتلونت بلون خاص ، ولكن بولس نقلها إلى العالمية وبقيت فى أناجيلها تعاليم الزهد والتسامح فلم يستقم أمرها واضطربت وتعثرت ، فلم يكن من الممكن أن تعيش هذه التعاليم ، لم يكن من الممكن أن يعيش الزهد ومحاربة المال فى الأحوال الاقتصادية المادية ، ولا كان من الممكن أن يظل العالم يقدم الخد الأيسر للمعتدى ليصفعه كما صفع الأيمن ومن أجل هذا انفض أتباع المسيحية عنها وإن بقى الكثيرون منهم يحملون اسمها • ؟

وفى ضوء هذا التقديم نبدأ بنقد المسيحية نقداً علمياً هادئاً ، وقد سبق لنا أن نقدناها خطوة خطوة فقد كان من الضرورى عندما تكلمنا عن ألوهية المسيح أو الكتاب المقدس مثلا أن نستمر فنبدى الرأى فى هذا القول ، ولكننا هنا نريد أن ننقد المسيحية جملة ، وهو ما نأخذ فى إيرادة فنسأل السؤالين التاليين :

١ ــ ما الأسس الأصلية للديانة المسيحية ؟

٢ ــ إلى أين انتهت هذه الديانة ؟

وللاجابة على السؤال الأول نقـرر أن الأناجيل تـكاد تكون فكرة مكررة عن التسامح والحب وعدم الميل للشر حتى فى دفع الشر ، وعـن الصلة المباشرة بين الله والناس ، ولسنا نستطيع أن نعطى هنا نماذج لما فى المسيحية من تسامح وحب لكثرة ما نعطى وكثرة ما ندع ، وحسبنا أن نقول إن الإنجيل كله حث على هذه الأخلاق ، فليفتح القارىء أى صفحة منه فإنه سيجد هذا الاتجـاه لا محالة ، وعن الصـلة المباشرة بين الله والناس يقول الاستاذ فريد وجدى : « إن النقد الدينى للديانة العيسوية يقول إن عيسى لم يجىء إلى الناس بأصـل جديد من أصـول الدين ، ولا بأمر من الأمور العبادية لم يكن معروفاً من قبل ، ولكنه امتاز بأمـر واحد لم يوضحه رسول قبله مثل تجليته إياه وهو إعلان القرابة القريبة بين الله وعباده ، فجعل الله أباً لخلقه رحيما بهـم ، وهـدم الحواجز بين الله والناس (١) » .

ويقول الكاتب المسيحى Alffred E. (٢) : وتعاليم المسيح تجمعهـا الأسس التاليـة :

١ — قيام مملكة الله حيث المساواة والعدالة ...

٢ — الله هو أبو البشر وهو الأمل الذى تهفو نحـوه أرواح البشر جميعـاً .

٣ — الكمال التام والحب الشامل .

تلك هى الديانة المسيحية لا أكثر ولا أقل ، أما سوى تلك من أسس دينية فقد اعتمدت الديانة المسيحية فيها على التوراة ، وقد صرح عيسى بقوله إنه جاء ليتم التوراة لا ليبدأ دينـاً « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل (٣) » .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ٦ ص ٧٨٨ .

(٢) Encyclopaedia of Religions and Ethics Vol. 3 p. 583.

(٣) متى ٥ : ١٧ .

وهنا نجيء إلى السؤال الثانى وهو إلى أين انتهت هذه الديانة ؟ فتقابلنا فى الإجابة عنه حقيقة عجيبة هى أن الإنجيل أصبح منذ زمن طويل جسما لا روح فيه وأن المسيحيين وفى مقدمتهم رجال الكنيسة أنفسهم كانوا أول من أهمل تعاليمه . **فقد عاد القسس إلى ما كان عليه الكهنة اليهود من وضع أنفسهم بين الله وبين الناس ، فالتعميذ والزواج والموت لابد فيها من حضور ممثل الكنيسة** (١) . ويقول عبد الأحد داود إنه من تعاليم الكنيسة أنه مهما تكن أعمال المرء سليمة وتبدو مقبولة ، ومهما يكن الإيمان والصلاح مسلمًا بهما عند الناس فكل المزايا والفضائل ستبقى بدون ثمرة ما لم تتدخل قدسية القسيس بين المرء وربه ، وما لم تبارك يد القسيس هذه الأعمال (٢) ، أما الحب والتسامح فقد حل محلهما البغض والانتقام بل الغيظ والعدوان ، وحسبنا ما ذكرناه من قبل عن اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض واضطهادهم لسواهم من غير المسيحيين ، ومعنى ذلك أن أثر التعاليم المسيحية كان محدوداً فى نفوس المسيحيين أو كان معدوماً .

وكان التفكير الإسلامى فى مسألتى الحب والتسامح عمليا ، فقد أوصى الإسلام تابعية بالحب والتسامح ، وتكررت فى القرآن آيات الحب وآيات التسامح (٣) ، ولكن الإسلام لم يكتف بذلك بل فرض العدالة ، ووضع النظم ، فإذا عجز البشر عن اتباع الحب كان عليهم أن يخضعوا للنظم والقوانين العادلة التى فرضها الإسلام ، ولكن المسيحية تركتهم للحب فقط ، فإذا عجزت النفس الإنسانية عن التخلق به — وكثيراً ما يحدث — لم تكن هناك قوانين تحد من طغيانها .

الايمان بدون تفكير :

ولا يوافق النقاد على عقيدة المسيحية التى ترى أن الإيمان منحة

---

(1) Pengadjaran Geredja Katolik H. 147-148.

(٢) الانجيل والصليب ص ١٢٦ .

(٣) أقرأ المجتمع الاسلامى ص ٨٩ .

لا دخل للعقل فيها ، وأن عـلى المسيحى أن يؤمن بالعقـائد المسيحية ، ثم يروض عقله على فهمها • **وقد عبر عن ذلك القديس أنسليم بقـوله « يجب أن تعتقد أولا ما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت »** ويعلق استاذنا الإمـام محمد عبده على ذلك بقـوله : والويل كل الويل لطالبٍ إذا ادّاه اجتهـاده إلى شىء يخالف ما تعلق به إيمانه (١) •

سلطة واسعة للرؤساء الروحانيين :

وتعطى المسيحية للرؤسـاء الروحانين سلطة شبه سلطة الآلهـة ، وتجعل قولهم يلزم أن يتبعه الناس ، ويلزم أن يتبعه الله (!!!) فقد ورد فى متى (٢) مانصه : الحق أقول لكم ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء •

ويعلق الإمام محمد عبده على هذا بقوله : فإذا قال الرئيس الكهنوتى لشخص إنه ليس بمسيحى صار كذلك ، وإذا قال انه مسيحى فاز بها • فليس المعتقد حرا فى اعتقاده ، يتصرف فى معارفه كما يرشده عقله ، بل إنه مشدود بشفتى رئيسه الدينى (٣) •

موضوع تفكك الأسرة :

ويرى النقاد كذلك أن مسيحية « العهد الجـديد » تفكك الأسرة ، فقد نقل لوقا قول المسيح • إن كل أحـد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته لا يقدر أن يكون لى تلميذاً (٤) • ونقل متى عن المسيح قوله : لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ،

---

(١) الاسلام والنصرانية ص ٢٩ .
(٢) الاصحاح ١٨ الفقرة ١٨ .
(٣) الاسلام والنصرانية ص ٢٧ ؛
(٤) لوقا ١٤ : ٢٦ ؛

ما جئت لألقى سلاما بل سيفا ، فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ، أعداء الإنسان أهل بيته (١) .

محاربة العمران والمال :

ويرى النقاد أن تعاليم المسيحية كما صورها « العهد الجديد » تحارب العمران لأنها تكره المال وتحاربه ، وقد جاء فى متى ولوقا ومرقص قصة الشاب الذى أراد أن يتعلم من عيسى فقال له عيسى : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن ، لا تشهد الزور .. فقال الشاب : حفظت هذا كله وعملت به . قال عيسى : بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعنى . فلم يقبل الشاب . فقال عيسى : يعسر أن يدخل غنىٌ ملكوت الله ... ولدخول الجمل فى ثقب إبرة أيسر من دخول الأغنياء ملكوت الله (٢) .

ولو ترك الناس أموالهم وأوقفوا استثمارها فماذا تكون النتيجة غير خراب العالم وانتهاء العمران ؟ .

محاربة الأبدان :

وكما تحارب هذه المسيحية العمران فإنها تحارب الأبدان ، وقد جاء فى متى قول عيسى : لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ، ولا لأجسامكم بما تلبسون (٣) .

الحث على الرضا بالضَّيْم :

ويرى النقاد أن تلك المسيحية تحث على الرضا بالظلم والخضوع

---

(١) متى ١٠ : ٣٤ — ٣٨ .
(٢) متى ١٩ : ١٨ — ٢٣ ومرقص ١٠: ١٧ — ٢٠ ولوقا : ١٨ — ٢٠
(٣) متى ٦ : ٢٤ — ٢٥ .

له ، وقد ورد فى لوقا قول المسيح : من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخـر ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك ، ومن أخـذ الذى لك فلا تطالبه به (١) • وقد جاء فى متى عند وصف القبض على المسيح أن أحـد أتباع المسيح أخرج سيفه وحاول أن يدافع عن المسيح « فقال له يسوع : ردّ سيفك الى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون »(٢)•

لا علم ولا مدنية ولا إصلاح :

ويرى النقاد حقيقة يدركها كل من يطالع الأناجيل ، تلك الحقيقة أن هذه الأناجيل تخلو خلواً تاما من أية أثارة من علم أو إصـلاح أو مدنية ، وحسبك أن تقرأ الأناجيل وأن تعيد قراءتهـا ، فلن تجـد فيها ما يبنى مجتمعا ، أو يحث على علم ، أو يقود إلى إصلاح أو مدنية • قد يقـال إن الغرب المسيحى نهض وحقق فى سبيل التقدم والمدنية خطوات واسعة ، وهذا صحيح ، ولكن ربط التقـدم بالمسيحية شىء لم يقل به أحـدٌ قط « فمدنية الغرب مدنية مادية مبنية عـلى حب المـال والسلطة والتغلب والعزة والكبرياء والعظمة والتمتع بالشهوات ، والتعاليم المسيحية تناقض هذا كله بإفراط بعيد ، وما وصـل الأوربيون إلى ما وصلوا إليه إلا بعد أن نبذوا التعاليم المسيحية ظهرياً ، ولو أن هذه المدنيـة من أثر التعليم المسيحى لنشأت عنـه بقرب نشـأته ، ولكنها لم تظهر إلا بعـد بضعة قرون من ظهوره » (٣) •

الجهـالةُ أمّ التقـوى :

ويرتبط بهذا المبدأ ما عرف عن المسيحية من أنها تحارب الفكر وتقرر قاعدة هامة هى : « الجهـالة أمّ التقـوى » فمنعت الكنيسة — إبان نفوذها — أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعـوة إلى الصـلاح

---

(١) لوقا ٦ : ٢٨ — ٢٩ .
(٢) مرقص ١٠ : ١٧ وما بعدها .
(٣) السيد محمد رشيد رضا : شبهات النصارى وحجج الاسلام ص ٧ .

وتقرير الإيمان على وجه ظاهر ، وبقى غير القسيسين فى جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره • وقد رأينـا من قبل أحكام الكنيسة ضد كثير من المفكرين بالتجريد والحرمان والنفى • وقد عارضت الكنيسة القـول بكروية الأرض وعارضت رحلة كريستوف كولمـب للـكشف عن الدنيـا الجديدة ، وعارضت الحقن تحت الجلد وعارضت تخدير المرأة لتسـهيل ولادتها •••• وكل ذلك وسواه لسبب واحد هو أن هذه الأشياء لم ترد فى الكتاب المقدس وليس لأحد أن يقترح شيئاً لم يرد فى هذا الكتاب • فهذا الكتاب عندهم كل العلم وكل المعرفة ، ومرة أخرى لم تنهض أوربا نهضتها العلمية إلا بعد أن تحررت السلطة المدنية من سلطات الكنيسة •

تعطيل العلاقة الجنسية :

ومسيحية « العهد الجديد » تقضى بفنـاء الجنس البشرى ، فمتّى يروى عن عيسى قوله : يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصـوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل (١) •

ويزيد بولس هذا الموضوع شرحاً فيقول : حسَن" للرجل ألا يمس امرأة ، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحـد امرأته ، وليكن لكل واحدة رجلهـا • وأقول لغـير المتزوجـين وللأرامـل إنه حسن لهـم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إذا لم يضبطوا أنفسـهم فليتزوجوا لأن التزويج أصلـح من التحرق فى النار بسبب الزنا (٢) •

وقد كتب الدكتور على عبد الواحد وافى موضوعا طريفاً عن « موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة » فى مجلة الأزهر ونحن نقتبس منه بعض ما كتبه عن موقف المسيحية من العزوبة (٣) ، قال : ويعـلق

(١) متى ١٩ : ٢٢ •
(٢) كورنثوس الاولى ٧ : ١ — ٣ و ٨ — ٩ •
(٣) عدد يوليو سنة ١٩٥٩ ص ٣٢ — ٣٣ •

ترتوليان Tertullien على ما كتبه بولس بقوله : الزواج لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم • لكن الخير أن يتقى الإنسان الأمرين معاً • فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار ، وإن قصارى ما يحققه الزواج أن يعصم الفرد من الخطيئة على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ويذلل له السبل الى منزلة الإشراق ، ويتيح له أن يأتى بالمعجزات ، فجسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء ، والقديس يوحنا المعمدان(يحيى بن زكريا)والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم فى سفر الخلود • آثروا التبتل وحثوا الناس عليه ، وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى أن تعبر البحر هى وجميع من كان يسرن خلفها من النساء ، فانشق لهن فيه طريق سهل،وانتهين إلى الساحل الآخر سالمات ، والقديسة البتول تكلا قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها وخرت جاثية تحت قدميها ، وقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء ، لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء ، ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طاهراً حصوراً ولتكاثر النوع الإنسانى بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ، ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين •

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة فى الدين بالضرورة ، أى التى لا يجوز إنكارها ولا الشك فيها ، حتى أن مجمع مديو لاننس Mediolanense المسيحى قد حكم فى أواخر القرن الرابع الميلادى على الراهب جوفينيان بالطرد من الكنيسة لأنه عارض المبدأ المسيحى الذى يقرر أن التبتل خير من الزواج ، وينظر هؤلاء الفقهاء كذلك إلى الزواج على أنه مجرد ضرورة لبقاء النوع الإنسانى ولصيانة الفرد من الفاحشة ، ومن ثم لا ينبغى فى نظرهم للمسيحى أن يطلق لنفسه العنان فى إشباع شهواته بل ينبغى أن يقيد من ذلك بقصد واعتدال وفى الحدود التى تحقق الذرية والنسل ، فيكون شأنه شأن الزارع الذى إذا بذر البذرة انتظر الحصاد بدون أن يلقى فى الأرض بذوراً أخرى •

وقد ذهبت فرقة المارسيونين Marsionies وهى مسيحية إعتنقت مذهب مارسيون (القرن الثانى الميلادى) إلى ما هو أبعد من ذلك فحرمت الزواج تحريما باتا على جميع أفراد نحلتها كما فعلت فرقة الحسديين من اليهود وأوجبت على كل متزوج يرغب فى اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن صاحبه ، وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده .

ومع أن الفرق المسيحية الباقية الى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى ، وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة ، قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على الرهبان وعلى القسيسين فى المذهب الكاثوليكى ، فمنذ العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج إمرأة متوفى عنها زوجها ، كما كان يحظر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته .

وفى أوائل القرن الرابع الميلادى أصدر مجمع الفيرا Elvira فى أسبانيا قراراً بتحريم الزواج وبالابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة ، وفى أواخر القرن الحادى عشر أصدر البابا جريجورى السابع أمراً بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القساوسة والرهبان ، كبارهم وصغارهم « حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسى » ومع أن هذا القرار قد لاقى فى مبدأ الأمر معارضة شديدة فى كثير من المناطق المسيحية فإنه لم يكد ينتهى القرن الثالث عشر الميلادى حتى كان نظاماً مقرراً فى الكنيسة الكاثوليكية ومطبقاً على جميع القساوسة ، والرهبان من الرجال ، والراهبات من النساء .

الدعوة للرهبنة :

ومسيحية « العهد الجديد » تدفع للرهبنة ، والرهبنة هى الزهد فى متع الحياة الدنيا ، والبعد عن نعيمها واعتزال حياة المادة وقطع الصلة بين

ويروى متى أيضاً عن عيسى وأتباعه ما يلى : ولما جاءوا الى الجمع تقدم اليه رجل جاثياً له وقال : يا سيد ارحم ابنى فإنه يصرع ويتألم شديداً ويقع كثيراً فى النار وكثيراً فى الماء ، وأحضرته الى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه • فأجاب يسوع وقال : أيها الجيل غير المؤمن الملتوى ، الى متى أكون معكم ؟ الى متى أحتملكم ؟ قدموه الىّ هنا • فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفى الغلام فى تلك الساعة • ثم تقدم التلاميذ الى يسوع على انفراد وقالوا : لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه ؟ فقال لهم يسوع : لعدم إيمانكم •

فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يكون شىء غير ممكن لديكم (١) •

ويقول بولس : بالإيمان قهر أناس ممالك ، وسدوا أفواه أسود وأطفأوا قوة النار ، ونجوا من حد السيف (٢) •

المسيح انسان شرقى والمسيحية الحالية فكر غربى :

ويرى النقاد أن مسيحية روما دين غربى كما أشرنا من قبل ، وأن المسيح رجل شرقى ، ولد فى الشرق ، ونشأ فيه ، وبعث به ، وظل بالشرق حتى نهايته على الأرض ، ولكن الغرب تلقى هذه الديانة وطبعها بطابعه ، وهذه حقيقة آمن بها المبشرون المسيحيون أنفسهم واعترف بها الكتاب المسيحيون ، يقول روبير ديشان (٣) إن المبشرين المسيحيين فى إفريقية كانوا يعتقدون أن المدنية الغربية والدين المسيحى وحدة" لا تتجزأ ، ولذلك أطلقوا عليهما تسمية مفردة هى « المدنية المسيحية » • وقدمت روما والفاتيكان هذا الدين الغربى الى الشرق مرة أخرى • ووصلت به أقصى

---

(١) متى ١٧ : ١٤ — ٢٠ •
(٢) عبرانين ١١ : ٢٣ : ٢٤ •
(٣) الديانات فى افريقية السوداء ص ١٧٢ •

بلاد الشرق فاقتحمت به تايلاند وفيتنام والفليبين والملايو واندونيسيا ، ولكن العقل الشرقى لم يستطع أبداً أن يهضم هـذه الديانة الغربية ، ولذلك تعثّر هذا الدين فى تلك البقاع وعجزت روما عجزاً تاماً — علـى الرغم من النفقات الباهظة التى تسهم فيها كل دول الغرب — أن تجعـل هـذا الدين يتعمق فى نفوس الناس أو يجد منهم حماسة ظاهرة ٠

مقـــارنة :

وقد دخل هذا الدين اندونيسيا منذ أربعة قرون وتبعه عـدد من الإندونيسيين يبلغون المليونين تقريبا ، ولكن روما على الرغـم من هـذا النجاح الظاهرى لم تستطع أن تدفع شخصاً واحداً من هذين المليونين ليصبح عالماً بالمسيحية ، فلا تزال الكنائس فى إندونيسـيا يشرف عليهـا الأوربيون ، ولا تزال الوجوه الغربية هى التى تقيم الاحتفالات الدينية والصلوات ، ولو قسنا ذلك بالإسلام لظهر العجز واضحاً فى المسيحية ، فإن الإسلام لما كان بطبيعته ديناً عالميا برز فيه من غير العرب من يفوقون العرب ، وحسبنا أن نذكر هنا أسماء أبى حنيفة والبخارى ومسلم والغزالى وابن خلدون ، ونسأل هل تستطيع المسيحية الغربية أن تقدم لنا من غير الغرب من لمع فى المسيحية ممن يضاهى هؤلاء الأعلام ؟ ٠

وفى إندونيسيا برز أعلام من المسلمين فبلغوا الغاية ، ولسنا ندرى مَنْ نذكر منهم أو مَنْ ندع ، وليس دحلان وشكروأمينوتو وأجـوز سالم وهاشم أشـعرى وحسن باندونج وهمـكا ومحمـد ناصر وحتى وسوتان منصور وعبد الوهاب وحسبى ومختار يحيى ومحمـود يونس وبسطامى عبد الغنى ٠٠ إلا نماذج لمئات أو آلاف من المفكرين المسلمين الممتازين الذين انتجتهم هذه البلاد ٠

تناقض :

وهناك فى « العهد الجديد » تناقض ظاهر يحار العقل فى فهمـه ، ومن صور التناقض البارزة ما سبق أن أوردناه فى هذا المبحث الأخـير

وهو قول هذه الأناجيل بالحب والتسامح ، حتى وصلت إلى القول بحب من يكرهك والتسامح مع من يعتدى عليك ، ثم قولها بأن عيسى قال إنه لم يجىء ليملأ الأرض سلاماً بل حرباً ، ومن لم يـكره أباه وولده فلن يكون تلميذاً للمسـيح •

ومن صور التناقض كذلك ما سبق أن أوردناه بشأن ضرورة إهمال الجسـد وعدم العناية به لأنه فانٍ (١) ، فذلك يتناقض مع قول بولس موصياً بالجسد : ألستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم ، الذى لكم من الله ، فإنكم لسـتم لأنفسكم ، لأنكم قد اشتُريتم بثمن ، فمجـدوا الله فى أجسامكم (٢) •

ومن صور التناقض ما أوردناه آنفـاً من الاهتمام بالإيمـان وأنه يفعل الأعاجيب ، مع أن يعقوب فى رسالته يشيد بالأعمال ويقلل من شأن الإيمان إذا خلا من الأعمال ، يقول يعقوب : ما المنفعة يا إخوانى إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له أعمال ، هل يقدر الإيمان أن يخلصه ؟ •• •• •• إن الجسد بدون روح ميت • وهـكذا الإيمان أيضـاً بدون أعمال ميت (٣) •

قد يحاول البعض التحوير والتفسـير ليلائم بين هـذا التناقض الظاهر ، ولكنها كانت دائماً وستكون دائماً محاولة فاشـلة ، أما الإجابة الصـحيحة فمرجعها أن هذه الأناجيـل ليست من مصـدر واحد ، إن مصدرها هم قائلوها ، وهم وحـدهم أو الذين حرّفوها مِنْ بَعْدهـم هم المسئولون عن هذا التناقض والمسـئولون عن سـواه مما سبق أن أوردنـــاه •

* * *

---

(١) متى ٦ : ٢٤ — ٢٥ •
(٢) كورنثوس ٦ : ١٩ — ٢٠ •
(٣) يعقوب ٢ : ١٤ — ٢١ •

وبعد فهذه دراسة عن المسيحية التزمت فيها روح الإنصاف وبيان الحقيقة جهد الطاقة ، وقصدت أن يكون بحثاً علمياً يخضع للعقل والمنطق لا للعاطفة والشعور ، والمرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، وقد اتضح لنا من هذه الدراسة أن المسيحية بعدت عن صفائها ، ودخلتها عناصر غريبة عجيبة حتى نقلتها عن طبيعتها وطبيعة الأديان السماوية كلها ، وكان ذلك إيذاناً بإرسال نبى جديد برسالة جديدة، ينقذ العالم مما نزل به من خطوب وويلات ، ويضع أسسا صالحة شاملة لأمور الدين وأمور الدنيا ، وبهذا جاء محمد ، وبهذا جاءت رسالة الإسلام، التى خصصنا لها الحلقة الثالثة من هذه السلسلة « سلسلة مقارنة الأديان » .

قضـــية الألوهيـــة

« نموذج للمقارنة بين قضايا الأديان »

مقدمـــــة :

طرق البحث فى مقارنة الأديان

دراسة مقارنة الأديان لها طريقان :

١ ــ الطريق الأول أن تكون المباحث الـكبرى بالأديان هى عناوين للدراسات ، كأن نكتب كتاباً عن « الله » ، وندْرس به مختلف الاتجاهات عن الإله ، ونكتب كتاباً آخر عن « النبوة » وثالثاً عن « التشريع » ... وهكذا ... وقد سار على ذلك المنوال بعض الباحثين مثـل Max Mueller فى كتابه Essay on Comparative Mythology ومثل الأستاذ العقاد فى كتـــابه « اللــــه » .

ولكن يؤخذ على هذه الطريقة بعض مآخذ أهمها :

أولا ــ أن مباحث الأديان ليست متشابهة ، فمثلا :

ــ تاريخ اليهود له أثر كبير فى عقيدتهم ، ومن ثمَّ وجب أن يــكون مبحثاً مهما عند دراسة « اليهودية » ، ولكن التاريخ الإسلامى ليس ذا أثر فى العقيدة الإسلامية ، ومن ثمَّ فليس ضرورياً أن يكون ضمن مباحث كتاب عن « الإســـــلام » .

ــ لم يتكلم بوذا عن الإله ، ولكن محمداً تكلم عنه وأفاض .

ــ وفى البوذية موضوع النرفانا ، وفى الجينية موضـــوع النجاة ، وليس فى الأديان السماوية ما يماثل هذه المباحث .

ــ فى أديان الهنـــد موضـــوع التناســخ ، وليست كذلك الأديان الســـــماوية .

— يهتم الإسلام بالتشريع ، ولا تهتم المسيحية به ... وهكذا .

واذا لم تتشابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة ، وكانت المباحث التى توجد فى دين واحد من الأديان قلقة الموضوع فى هذه الدراسة ، إذ لا توجد مقارنة بين الأديان عنها .

ثانيا — دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو لا تعطى فكرة متكاملة عن كل دين ، إذ ستردُ مباحث كل دين متناثرة هنا وهناك .

على أن دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو ينبغى أن تجىء بعد دراسة الأديان نفسها ، فإن طبيعة المقارنة أن تتأخر عن استيعاب الأصل، ففى الأدب المقارن يلزم أن ندرس الآداب المختلفة ثم نقارن بينها ، وفى الفقه المقارن يلزم أن ندرس التشريعات المختلفة ثم نقارن بينها ، وفى مقارنة الأديان يلزم أن ندرس الأديان ثم نعقد المقارنة بين مباحثها .

ويمكن القول — إنه — سبب هذه المآخذ — لم يسر أحد الى آخر الشوط فى دراسة مقارنة الأديان متبعاً هذا الطريق .

٢ — الطريق الثانى : هو أن يُخَصصَ كتاب لكلٍ دين ، نَدْرس فيه مباحثه العقائدية والتشريعية المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال وهذا الطريق هو الذى يسير عليه أغلب الكتاب ، وهو ما اتبعته فى سلسلة « مقارنة الأديان » وبه نتحاشى المآخذ التى سبق أن أوردناها على الطريق الأول .

ونحن ، بعد أن استكملنا دراستنا طبقاً لهذه الطريقة ، نجدنا فى وضع يجعل من اليسير علينا أن نقتبس بعض ما كتبناه عن مبحث من أهم مباحث الأديان وهو « قضية الألوهية » ولنضع ما اقتبسناه بعضه بجانب بعض حتى تتكون لنا صورة واضحة للاتجاهات حول هذه القضية التى هى أساس الأديان ، وبهذا نكون قد عرضنا الطريقين معا فى هذه القضية كنموذج لدراسة القضايا الدينية الأخرى دراسة مقارنة ، وقد

خصصنا « قضية الألوهية » بهذه الدراسة لأنها قمة المشكلات الدينية وعلى هدْى دراستنا فيها يمكن للقارىء أن يكوّن فكرة عن المقارنة بين كثير من قضايا الأديان التى احتوتها هذه السلسلة •

ونقطة أخرى يتحتم عرضها فى هذه المقدمة ، وهى أننا فى دراستنا لمقارنة الأديان اهتممنا بالأديان السماوية لأن صراعاً عنيفاً يدور بينها ، وكان من الطبيعى أن يكون بينها وئام ، فأردنا أن نتعرّف على ألوان الانحرافات التى وَضعَتْ الشقاق مكان الوفاق ، والكراهية مكان الحب، أما اهتمامنا بأديان الهند فيرجع لسببين :

أولهما : أن أديان الهند كانت معيناً تسربت منه ألوان من الأفكار فوجدت طريقها بين معتقدات المسيحيين والمسلمين ، فالشعار المسيحى « تثليث فى وحدة ووحدة فى تثليث » منحدر من الهندوسية ، وكانت البوذية أهم مصدر اقتبست منه المسيحية كثيراً من مبادئها كما ذكرنا من قبل ، وقال بعض المسلمين بالتناسخ ووحدة الوجود تأثرا بثقافة الهند •

والسبب الثانى : أن البوذية تعتبر من أديان الدعوة ، أى من الأديان التى لها دعاة ينشرونها ويحاولون جذب الأتباع لها • ومن هنا تدخل البوذية فى صراع مع الإسلام فى منطقة الشرق الأقصى ولابدّ من التعرف على عناصر هذا الصراع ليمكن تقدير نتائجه •

وفى ترتيب الأديان التى درسناها فى هذه السلسلة ابتدأنا بالأديان السماوية بترتيبها التاريخى ، لأنها الأصل فى الدراسة ، ثم درسنا أديان الهند فى الجزء الرابع ، ولكنا فى عرضنا لقضية الألوهية سنبدأ بأديان الهند ، لأن منها تسربت بعض الأفكار — كما قلنا — لمعتقدات المسيحيين وقلة من المسلمين •

وفى ضوء هذا التقديم نبدأ عرض قضية الألوهية :

قضـــية الألوهيـــة

الله فى الفــــكر الهندوسى :

يتجه التفكير الهندوسى فيما يختص بالإله إلى نزعة التعدد غالبـاً وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغاً كبيراً ، فقد كان عندهم لكل قوة طبيعية إله يعبدونه ويستنصرون به فى الشــدائد كالمـاء والنــار والأنهـار والجبال وغـيرها ، وكـانوا يدْعـون تلك الآلهـة لتبـارك لهـم فى ذريتهم وأموالهم من المواشى والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم •

ويقول غوستاف لوبون : وهيهات أن تجد هندوسيا لا يعبد عـدداً من الآلهة ، فالعالم عنده زاخر بها حتى أنه يصـلى للنمر الذى يفترس أنعامه • ولجسر الخط الحديدى الذى يصنعه الأوربى ، وللأوربى نفسه عند الاقتضــاء (١) •

ولكن بعض الهنود فى وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحياناً للتوحيد أو اتجاه قريب منه ، فقد كانوا إذا دعوا إلهاً من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا اليه بقربان ، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجل ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الالهة والأرباب (٢) ، ويصير إليهم هو الإله لا غير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية ، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الالهة ، تعظيما وإجلالا لا تحقيقا وإيقانا • وإذا عطفوا الى غيره أقاموه مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة ، وهذا التعبير « رب الأرباب أو إله الالهة » كان أولا يدل على العظمة والجلال ، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلا أن فى صف الالهة رئيسا ومرءوسين ، وآمرا ومأمورين ، وأن

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة الهند ٣٦٨ •

(٢) Hinduism, Ed. by Lewis Renan p. 6.

الرئيس والآمر هو وحده رب الأرباب وإله الآلهة ، وهذا وصف ثابت له لا ينتقل الى سواه والكائنات كلها تحت يده وسائر الالهة تحت أمره (١).

التثليث فى الفكر الهندى :

وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود الى رأى تشبهه عقيدة التثليث الحالية عند المسيحيين ، فقد جمعوا الالهة فى إله واحد ، وقالوا إنه هو الذى **أخرج العالم من ذاته** ، وهو الذى **يحفظه** الى أن **يهلكه** ويرده اليه ، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو « براهما » من حيث هو مُوجد ، وهو « فشنو » من حيث هو حافظ ، وهو « سيفا » من حيث هو مهلك (٢) . وفتح الكهنةُ الهنودُ البابَ للمسيحيين فيما يسمى : تثليث فى وحدة ووحدة فى تثليث .

عبادة البقر :

ومن بين المعبودات المتعددة عند الهنود حظيت البقرة بأسمى مكانة، وهى من المعبودات الهندية التى لم تضعف قداستها مع كرّ السنين وتوالى القرون ، ففى الويدا حديث عن قداستها والصلاة لها ، ولا تزال البقرة حتى الآن تستمتع بهذه القدسية ، ففى الأدب المنسوب للمهاتما غاندى تفسير لما حظيت به البقرة قديما وحديثا من نفوذ دينى ، وفى عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة Bhavan's Journal التى تصدر فى بومباى بالهند ، عدة مقالات عن عبادة البقر ، وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات، وأول ما نقتبسه نشيد من « ساما ويدا » (٣) نشرته المجلة فى صفحة مستقلة داخل رسم تخطيطى للبقرة (٤) والترجمة العربية للنشيد هى :

---

(١) محمد عبد السلام الرامبورى . فلسفة الهند القديمة .
(٢) دكتور ابراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ص ١٢ .
(٣) قسم من اقسام الويدا وهو كتاب الهندوس المقدس .
(٤) انظر بكتاب اديان الهند الكبرى ص ٣١ من الطبعة الرابعة .

صلاة الى البقرة :

أيتها البقرة المقدسة ، لك التمجيد والدعاء ، فى كل مظهـــر تظهرين به : أنثى تدرّين اللبن فى الفجر وعند الغسق ، أو عجلا صغيراً ، أو ثورا كبيرا فلنُعِدّ لك مكاناً واسعاً نظيفا يليق بك ، وماء نقيا تشربينه ، لعلك تنعمين هنـــا بالسعادة •

أما رأى مهاتما غاندى فى عبادة البقرة فقد أثبتَتَه مفصلا فى المجلة السابقة واقتبسناه فى كتابنا عن « أديان الهند الـكبرى » (١) وفيما يلى لمحـــات منـــه :

« عندما أرى بقرة لا أجدنى أرى حيـوانا ، لأنى أعبـد البقـرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع ••• وإن ملايين الهنود يتجهـون لها بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسى واحداً من هؤلاء الملايين » •

الله فى الفـــكر الجينى :

كانت الجينية نوعاً من المقـاومة للهندوسـية وثورة على سـلطان البراهمة ، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يَعُدّون أنفسهم صلة بين الناس والآلهة، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ، ومن هنا سمى هذا الدين دين إلحـــاد •

غير أن العقل البشرى يميل الى الاعتراف بإله • ويحتـاج الإلحاد الى أدلة أكثر من الأدلة التى يحتاجها إثبات الآلهة ، ومن هنا وجد فراغ كبير فى الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يُكْمِل به صورة الدين الذى دعا اليه ، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبروه إلهاً • بل عدوا الجيناوات الأربعة والعشرين آلهة لهم ، ولعلهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندى الذين يميل فى الأكثر الى تعدد الآلهة •

---

(١) ص ٣٦ •

الله فى الفكر البوذى :

لم يعن بوذا بالحديث عن الإله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً ، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية ، وما وراء الطبيعة ، وما يتحدث عن القضايا الدقيقة فى الكون ، وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا فى هذه الأبحاث ويوبخهم على سؤالهم عن مثل هذه القضايا •

ولكن بوذا اتجه أحياناً الى جانب الإنكار أكثر من اتجاهه الى جانب الإثبات فقد وقف فى إحدى خطبه يسخر ممن يقول بوجود الإله ، وكان مما قاله فى ذلك : إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله ، ولم يروه وجهاً لوجه ، كالعاشق الذى يذوب كمداً وهو لا يعرف من هى حبيبته ، أو كالذى يبنى السلم وهو لا يدرى أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهراً فينادى الشاطىء الآخر ليقدم له (١) •

ومن أجل إهمال الإله أو الاتجاه الى نكرانه أحياناً ، اتجه براهمة عصره الى أن يصموه بوصمة الإلحاد •

والإيمان بإله ، اتجاه نفسى قوى لا يقل عن قوة الغرائز فى البشر ، وإهمال هذا الاتجاه يُحْدِث ارتباكاً واضطراباً ، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون فى الإله ، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه ، ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خالياً ، فقد لعبت بهم الأهواء فاتجه بعضهم الى الاعتقاد أن بوذا ليس إنساناً محضا ، بل إن روح الله قد حلت به ، وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التى يعتنقها بعض المسيحيين فى السيد المسيح فيقولون إن شخصيته ثنائية : لاهوتية وناسوتية ، وإن الشخصية اللاهوتية حلت بالناسوت • وتسربت هذه العقيدة أيضاً الى « مدعى التشيع » فقالوا بها فيما يتعلق بعلى بن أبى

---

(١) العلامة رادها كرشنن (انظر اديان الهند للمؤلف ص ١٧٢) •

طالب . وعاقبهم رضى الله عنه بما يستحقون ، بل ذهب بعض البوذيين الى القول بأن بوذا كائن لاهوتى هبط الى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور (١) . وقد تسربت هذه العقيدة كذلك لبعض الطوائف المسيحية .

الله عنـــد اليهـــود :

لم يستطع بنو إسرائيل فى أى فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذى دعا له الأنبياء ، وكان اتجاههم الى التجسيم والتعدد والنفعية واضحاً فى جميع مراحل تاريخهم ، وعـلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم ، وكثرة أنبيائهم دليل على تجدد الشرك فيهم ، وبالتالى تجدد الحاجة الى أنبياء يجددون الدعوة الى التوحيد ، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أى حال ، فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح والأحجار ، وأحيـانا مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التى كانت لها حضـارة وفـكر قلدهما اليهود . ويقول J. Shotwell (٢) إن اليهود كانوا فى مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحـلا تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخـوف من الشياطين ، والاعتقاد فى الأرواح ، كانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار ، ويقول Reinach إن اليهود اتخذوا فى بيوتهم أصناماً صغيرة كانوا يعبدونها ويتنقلون بها من مكان الى مكان (٣) ، وقد ظل بنو إسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى وخرج بهم من مصر .

ولكن بنى إسرائيل كما يقـول ول ديورانت (٤) لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ، ولم يستطع موسى أن يمنـع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا فى مصر ، وظلوا زمناً طويلا يتخذون هذا الحيـوان القوى آكـل العشب رمزاً لإلهم ، وتقرر التوراة قصة العجل الذى عمله لهم هارون

---

(١) حامد عبد القادر . بوذا الاكبر ص ٩٦ ، ١٣٠ .

(٢) The Religious Revolution of today p. 30.

(٣) History of Religions p. 176.

(٤) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٣٣٨ .

فعبدوه بعد أن تأخر موسى فى العودة اليهم ، وكيف خلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب ، وقد أعدم موسى ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن (١) ، وقد بقيت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى إسرائيل من حين الى حين ، فقد عمل يربعام بن سليمان عجلىَ ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا الى الذهاب الى الهيكل (٢) ، وقد عبد أهاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد (٣) •

وهكذا كان اتجاه اليهود ماديا فى الغالب ولم تجد الاتجاهات الروحية عندهم أرضاً خصبة فى أكثر الأوقات ، وقد عبرت يائيل ديان ابنة القائد العسكرى موسى ديان عن ذلك بقولها — على لسان أحد أبطال رواياتها « طوبى للخائفين » — ما يلى :

أيام زمان كنا يهوداً فى روسيا وغيرها ، وكان من الضرورى بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات ، ونحافظ على ديننا ، فقد كان الدين اليهودى لنا وسيلتنا لنتعاون ونتعاطف ونذود عنا الردى ، أما الآن فقد أصبح لدينا شىء أهم ، هو الأرض ، أنتَ الآن إسرائيلى ، ولست مجرد يهودى إنى قد تركت فى روسيا كل شىء ملابسى ، ومتاعى وأقاربى وإلهى ، وعثرت هنا على رب جديد ، هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال (٤) •

وحتى عندما ظهرت الوحدانية عند بنى اسرائيل كان معناها أن هناك إلها واحدا لبنى اسرائيل ، ولغير بنى اسرائيل آلهتهم ، فالتعدد كان موجوداً •

---

(١) خروج ٣٢ : ١٨ — ٢٦ والقرآن الكريم يقرر أن السامرى هو الذى عمل العجل •

(٢) الملوك الاول ٢٢ : ٢٦ — ٢٨ •

(٣) ول ديورانت جـ٢ ص ٣٣٩ •

(٤) يائيل ديان : طوبى للخائفين (انظر القصة كاملة بكتاب اليهودية ص ١٧٦ — ١٧٧) •

الله فى الفكر المسيحى :

عندما نصل الى الحديث عن الله فى التفكير المسيحى نحتاج الى مزيد من الصبر لنرى التحول الخطير الذى أصاب الفكر المسيحى فى هذه القضية الهامة :

تقرر الأناجيل المسيحية وأعمال الرسل ثلاث قضايا مهمة :

أولاها : أن الله واحد لا شريك له

والثانية : أن عيسى رسول الله وليس أكثر من رسول •

والثالثة : أن عيسى رسول لبنى إسرائيل فقط •

وعن القضية الأولى نورد النصوص التالية من هذه الأناجيل :

— يروى متى عن عيسى قوله : أن أباكم واحد الذى فى السموات (إصحاح ٢٣ الفقرة ٨) •

— ويروى مرقص : قول عيسى : الرب إلهنا إله واحد وليس آخر سواه (١٢ : ٣٠ — ٣١) •

— ويروى يوحنا عن عيسى قوله : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم (٢٠ : ١٨) •

وعن القضية الثانية نورد من الأناجيل النصوص التالية :

— جاء فى انجيل متى قوله : هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل (٢١ : ١١) •

— وجاء فى لوقا : قد خرج نبى عظيم (٧ : ١٦) •

— ويروى يوحنا : إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم (٦ : ١٤ و ٧ : ٤٠) •

— ويروى يوحنا كذلك عن عيسى قوله : **وأنا إنسان قد كلمكم بالحق** الذى سمعه من الله (٨ : ٤٠) •

— ويروى لوقا عن عيسى قوله عندما أحس بقرب نهايتـه بسبب مؤامرات اليهـود عليه :

ينبغى أن أسير اليوم وغداً وما يليه لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارج أورشليم ، يا أورشليم ، يا أورشليم ، **يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين** •

وعن القضية الثالثة نورد النصوص التالية :

— جاء فى متى ما نصه : ثم خرج يسوع من هناك ، وانصرف الى نواحى صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود ، ابنتى مجنونة جداً فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبـوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : **لم أرسل إلا الى خـراف بنى إسرائيل الضالة** (متى ١٥ : ٢١ — ٢٤) •

— وفى متى كذلك أن عيسى عندما حـدد الحـواريين الاثنى عشر أوصاهم قائلا : الى طريق أمـم لا تمضـوا ، والى مدينـة **للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحـرى الى خـراف بنى اسرائيل الضالة** (١٠ : ٥ — ٦) •

وقد خاصم اليهود بطرس لانه دخل على غير اليهود وتكلم معهم • (أعمال الرسل ١١ الفقرة الأولى) •

وورد فى عبارات بطرس قوله لغير اليهود : أنتم تعلمون كيف هو **محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى أو يأتى إليـه** (أعمال الرســـل ١٠ : ٢٨) •

والقرآن الكريم يقرر هـذه الاتجاهات الثـلاث فى المسـيحية ، قـــال تعـــــالى :

— وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم (سورة المائدة الآية ٧٢) •

— لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد (سورة المائدة الآية ٧٣) •

— ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل (سورة المائدة الآية ٧٥) •

— ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم (سورة المائدة الآية ١٧) •

— ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بنى إسرائيل (سورة آل عمران الآيتان ٤٨ — ٤٩) •

ومن أجل هذا كان نقل المسيحية من الوحدانية الى التثليث ، ونقل عيسى من رسول الى إله ، والقول بأن المسيحية رسالة عامة ، والقول بأن عيسى هو ابن الله نزل ليضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر ، وأنه عاد مرة أخرى الى السماء ليجلس على يمين أبيه ، كان هذا كله عملا جديداً على المسيحية التى جاء بها عيسى •

كيف انتقلت المسيحية من حال الى حال ، ومَنْ الذى قام بذلك ؟ ومتى ؟ • هذا ما سنحاول إبرازه فيما يلى :

ترتبط هذه الأمور بشخصية مهمة فى المسيحية ، هى شخصية شاءول (بولس) ، ولذلك يرى الباحثون الغربيون أن المسيحية الحالية بهذه العناصر الجديدة هى من صنع هذا الرجل ، ويقول Berry (١) إن بولس هو فى الحقيقة مؤسس المسيحية ، ويقول Wells (٢) إن كثيراً من الثقات

---

(١) رأى Berry فى كتاب « المسيحية » ص ٩١ — ١٠١ •
(٢) Outline of History Vol. 3 p. 695.

العصريين يعدونه المؤسس الحقيقى للمسيحية .

وبولس كما يقول عن نفسه (يهودى فرّيسى ابن فريسى على رجاء قيامة الأموات) (أعمال الرسل ٢٣ : ٦) وكان عدواً للمسيحيين ، وهـو فى ذلك يقول : سمعتم بسيرتى قبـلا فى الديانة اليهـودية ، إنى كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها ، وكنت أتقدم فى الديانة اليهودية على كثيرين من أترابى فى جنسى ، إذ كنت أوفر غَيْرَةً فى تقليدات آبائى » (غلاطية ١ : ١٣ — ١٤) .

ويبدو أنه كان من وسائل بولس لتدمير المسيحية أن يحطم معتقداتها واتجاهاتها المقدسة ، ووضع لذلك طريقـة تـكفل له الوقوف فى وجـه معارضيه عندما يظهر بأفكاره الجديدة ، فادعى شاءول أن السيد المسيح — بعد نهايته على الأرض — ظهر له وصاح فيه وهو فى طريقه الى دمشق: لماذا تضطهدنى ؟ فخاف شـاءول وصرخ : من أنت يا سـيد ؟ قال : أنا يسوع الذى تضطهده . قال شاءول : ماذا تريد أن أفعل ؟ قال يسوع : قم وكرّز بالمسـيحية .

ويقول لوقا فى ختام هذه القصة جملة ذات بال غيرت وجه التاريخ هى : « وللوقت جعل يكرّز فى المجامع بالمسيح أنه ابن الله » (أعمال ٩ : ٣ — ٣٠) .

* * *

ادعاءات بولس :

وهكذا وضع بولس لنفسه سـياجاً يحتمى به لأنه كـان يدرك أن معارضة قوية ستَهُبّ فى وجهه وتنكر هذه المعتقدات الجديدة التى جاء بها ، وهى القول بتعدد الآلهة وأن عيسى ابن الله نزل ليضحى بنفسـه للتكفير عن خطيئة البشر ، وأنه عاد مرة أخرى الى السماء ليجلس عـلى يمين أبيه ، فأعلن أنه تلقى المعتقدات الجديدة من عيسى مبـاشرة ، وأنه

الوحيد الذى أؤتمن عليها وفى ذلك يقول : وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب انسان لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا علمته ، بل بإعلان يسوع المسيح (غلاطية ١ : ١١ — ١٢)، ويقول كذلك : إنه الوحيد الذى أؤتمن على المسيحية الصحيحة (تيطس ١ : ٣) وعلى انجيل مجد الله المبارك (تيموثاوس الأولى ١ : ١١) •

معارضة الحواريين لبولس واستغاثته :

وقد عارضه الحواريون معارضة شديدة ، وهبوا فى وجهه يصارعونه فى عناد طويل مرير ، وحققوا عليه كل نصر ، فانفض الناس من حوله تماماً ، ولم يبق معه إلا قلة قليلة جداً ، وهو يقرر ذلك بقوله الى تلاميذه:

ـ أنت تعلم أن جميع الذين فى آسيا ارتدوا عنى (تيموثاوس الثانية ١ : ١٥) •

ـ بادر أن تجىء الى سريعاً لأن ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر وذهب الى تسالونيكى ، وكريسكيس الى غلاطية ، وتيطس الى دلماطية ، لوقا وحده معى،اسكندر النحاس أظهر لى شروراً كثيرة ليجازه الرب حسب أعماله ، فاحتفظ منه أنت أيضاً ، لأنه قاوم أقوالنا جداً فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى ، بل الجميع تركونى (تيموثاوس الثانية ٤ : ٩ — ١٦) •

وراح بولس يهاجم معارضيه مهاجمة قاسية ، ويصفهم بأنهم انحرفوا الى كلام باطل ، وأنهم يميلون للحقد والحسد ، ويتجهون للباطل والرياء ، والعلم الكاذب والمباحثات الغبية السخيفة ••• (تيموثاوس الأولى الإصحاح السادس) •

وقد سار يوحنا فى رسائله فى الطريق الذى فتحه أستاذه بولس ، وأخذ يدافع عن المعتقدات التى ابتكرها فكر بولس ويهاجم المعارضين

بألفاظ قاسية لا تليق بالمفكرين فهو فى أسلوبه وفى فكره يحــذو حــذو أستاذه ، ومن ذلك قوله فى رسالته الأولى :

كل من ينكر الابن ليس له الأب أيضاً ، ومن يعترف بالابن فله الأب أيضاً ، احذروا الذين يضلونكم (١) •

وفى رسالته الثانية يقول :

قد دخل الى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيسوع المســيح آتياً فى الجسد ، هذا هو المضل والضد للمسيح ، انظروا الى أنفسكم لئلا يضيع ما عملناه ، كل من تعدى ولم يثْبُت فى تعليم المسيح فليس له الله ومن يثبت فى تعليم المسيح فهذا له الأب والابن جميعاً ، إن كان أحــد يأتيكم ولا يجىء بهذا التعليم فلا تقبلوه فى البيت ، ولا تقولوا له سلام ، لأن من يسلم عليه يشترك فى أعماله الشريرة (٢) •

وفى رسالته الثالثة يقول :

كتبتُ الى الكنيسة ولــكن ديوتريفس لا يَقْبَلُنا ومن أجل ذلك اذا جئتُ فسأذكّره بأعماله التى يعملها هاذراً علينا بأقوال خبيثة ، وهو غير مكتف بهذه الأقوال بل لا يَقْبلُ أتباعنا ، ويمنعهم ويطردهــم من الكنيســــة (٣) •

ولم تَجِدْ أفكار بولس ولا أفكار يوحنا أرضاً خصبة فى آسيا ، كما اقتبسنا من كلامهما آنفاً ، فلما عبرت هذه الأفكار الى أوربا وجدت هناك أرضا خصبة ، فالتثليث ونزول الإله من السماء تضحية بنفسه وتــكفيراً عن خطيئة البشر ، وصعوده الى السماء مرة أخــرى ، كل هــذا كان له

---

(١) يوحنا الاولى ٦ : ١٨ — وما بعدها .
(٢) يوحنا الثانية ٧ — ١٩ .
(٣) يوحنا الثالثة ٩ — ١٠ .

جذور قديمة فى الأساطير الأوربية ، ولم يكن التوحيد عميق الجذور بأوربا .

دينان مسيحيان ومؤتمر نيقية :

ومر الزمن جيلا بعد جيل والمذهبان يعيشان ، ففى آسيا تعيش المسيحية التى جاء بها عيسى ويعتنقها علماء المسيحية ، وغيرهم ، وفى أوربا تعيش آراء بولس ، حتى جاء القرن الرابع الميلادى وجاء عهد قسطنطين (توفى سنة ٣٣٧ م) الذى أصدر سنة ٣١٣ قانون التسامح ، وأراد بعد ذلك أن يضع حداً حول حقيقة المسيح ، فدعا لمؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ وحضره جلة العلماء المسيحيين من كل البقاع ومعهم الأسانيد التى يستندون عليها فى معتقداتهم ، وكان عدد الحاضرين ٢٠٤٨ ، وقد اتضح من أول لحظة أن الجمهرة العظمى من الحاضرين تدين بالمسيحية الحقيقية، وكان معهم من الأناجيل ما يعضد آراءهم ، ولكن حاشية الامبراطور وهى أوربية لم تكن تعرف من المسيحية إلا تلك المعلومات السائدة فى أوربا ، والتى كانت من تراث بولس ، ولذلك رأت هذه الحاشية أن اتجاه الأغلبية من حاضرى المؤتمر يتعارض مع الاتجاه الرسمى ومع معلوماتهم عن المسيحية وعدّوا ذلك انحرافا ، وأثاروا الامبراطور ، الذى كان طبعاً كالحاشية فى اعتقاده ، وقد أثاره كذلك « بابا » روما الذى يمثل هذا الاعتقاد من الناحية الدينية فأصدر الإمبراطور بناء على ذلك أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحّدين ونفى الكثيرين منهم . وقتل العالم المصرى أريوس الذى كان يتخذ التوحيد عقيدة له ، ثم أمر بعقد المؤتمر من جديد . فحضره الأعضاء الذين يعتنقون مذهب بولس أو الخائفون والمترددون ، وكان عددهم ٣١٨ ، واتخذ هؤلاء قراراً بألوهية المسيح ، وكان هذا أساساً المعتقدات الأخرى التى قال بها بولس ،

واتخذ المؤتمر كذلك قراراً بتدمير كل الوثائق التى تخالف هذا الرأى ، وإنزال العقوبات الشديدة بمن يُخْفِى مثــل تلك الوثائق ، وتبعاً لذلك اختفت المسيحية الحقيقية رويداً رويدا واختفت الأناجيل الصــحيحة ، وحلت المسيحية البوليسية محل مسيحية عيسى •

وهكذا صنع هؤلاء الإله وأخفوا إنجيل عيسى ، والأناجيل الحقيقية التى أخذت عنه ، ولم يُبْقُوا من المصادر المسيحية إلا ما يؤيد اتجاههم أو ما يقف موقفاً سلبياً ، ولعل ذلك يوضح قصة التفــكير المســيحى فى قضـــية الألوهيـــة •

الله فى الفـــكر الاسلامى

لا يحتاج الحديث عن « الله فى التفكير الإسلامى » الى جهد كبير ، فعندما يذكر الله فى الإســلام تتجــلى الوحدانية الخالصــة وصــفات الكمال المطلق ، ولذلك فنحن هنا نكتفى بهذا ونحيل من يريد التفصــيل الى كتاب « الاسلام » من هذه السلسلة ليرى دراسة واضحة حول وجود الله ووحدانيته وصفاته ، وليتأكد أن محاولات الانحراف فى الاســلام باءت بالفشـــــل •

نتيجـــــة المقارنة

إن المقارنة السابقة توضح حقيقتين مهمتين :

الحقيقة الأولى أن جهود الانحراف اتجهت بكل قــواها وشرورها الى الله سبحانه وتعالى ، وحققت — للأسف — فى هذا المجال ما أرادته من نجاح ، والقارىء يرى اتجاه التعدد فى الهندوسية وتأليه البقرة ، ويرى كذلك تأليه جينا ، وتأليه بوذا ، وتأليه العجل ، وتأليه المسيح ، وقد اتجهت المحاولة كذلك للإسلام ، فقال قوم من مدعى التشيع بتأليه

على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وحاربها على بقسوة (١) ، وحاربها بعده كل المسـلمين ، فنجا الإسلام وحده من محاولات التحريف فى عقيدة الألوهية •

الحقيقة الثانية : أن الانحراف بالأديان هو الذى سبب الصراع بين معتنقيها • ولو سارت الأديان سيرها الطبيعى كرسالات من عند الله دون تحريف لالتقت جميعاً فى أهدافها وفى كثير من وسائلها •

إن الدعوة التى ننادى بها هى أن نعود للحق ، وأن نخلّص معتقدات البشرية مما تسرب لها من أخطاء وما قادها للانحـراف ، ليحلّ الوفاق محل الخلاف ، والوئام محل الصراع ، ونحن نعتقد أن العقيدة الصحيحة معروفة لكثيرين من قادة الأديان ، ولكن الاحتراف وحب الدنيا وزينتهـا يزَيِّنان الباطل ويدفعان لتأييد الانحراف •

فاللهم اهدنا سـواء السـبيل

---

(١) انظر هذه المسألة فى « أديان الهند الكبرى » ص ٧٢ — ٧٣ •

— —

مراجـــع الكتـــاب

ملحوظتـــان :

١ ـ المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته، أما المصادر الأخرى التى اسهمت فيه بطريق غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة .

٢ ـ الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه القائمة بنيت على الترتيب الأبجدى لاسم المؤلف الذى اشتهر به ، مع عدم اعتبار الملحقات (ابن ـ ال) .

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ تفسير البيضاوى .

٣ ـ « الأستاذ الامام محمد عبده .

٤ ـ « أبى السعود .

٥ ـ « المنـار .

٦ ـ « الفخر الرازى .

٧ ـ « الألوسى .

٨ ـ « فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

٩ ـ كتب الأحاديث الستة .

١٠ ـ مجموعة من كتب الفقه الاسلامى .

١١ ـ عدة ابحاث فى مجلات علمية .

١٢ ـ وثائق وسجلات .

١٣ ـ العهد القديم .

١٤ ـ العهد الجديد (الأناجيل الأربعة والرسائل) .

١٥ ـ انجيل برنابا .

١٦ ـ Encyclopacdia of Islam,

١٧ ـ Enyclopacdia Britannica

١٨ ـ Encyclopaedia of Religions and Ethics

١٩ ـ دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى .

٢٠ — دائرة المعارف الفرنسية .

٢١ — مجلة رسالة الحياة المسيحية .

٢٢ — Islamic Review

٢٣ — مجلة الوثائق الكاثوليكية .

٢٤ — المسيحية عقيدة وعمل (نشر الكنيسة)

٢٥ — Pengadjaran Geredjla Katolik

٢٦ — ابراهيم سعيد	تفسير بشارة لوقا
٢٧ — دكتور ابراهيم مدكور	تاريخ الفلسفة
٢٨ — Edward Smith	The life of Bnddha
٢٩ — دكتور احمد شلبى	موسوعة التاريخ الاسلامى (عشرة اجزاء)
٣٠ — » » »	المجتمع الاسلامى
٣١ — » » »	الاسلام
٣٢ — » » »	اليهودية
٣٣ — » » »	أديان الهند الكبرى
٣٤ — Berry	Raligions of the World
٣٥ — Bury	A History of Freedom of thought
٣٦ — الأنبا ناسيليوس	بحث عن الأديرة بكتاب (صوت الحق)
٣٧ — القس بوطر	رسالة الأصول والفروع
٣٨ — بولس الياس	يسوع المسيح
٣٩ — القس بولس شباط	المشرع
٤٠ — Pfledere	The Early Chrisitian Conception of Christ
٤١ — T. W. Doane	Bible Mythology
٤٢ — دكتور توفيق الطويل	الاضطهادالدينى فى المسيحيةوالاسلام
٤٣ — Justin Martyr	The Christianity
٤٤ — جرجس فرج (الخورى)	شرح رسالة القديس بولس

٤٥ — ابن حزم	الفصل فى الملل والأهواء والنحل
٤٦ — حبيب جرجس	كتاب القسطاس البروتستنتى
٤٧ — » »	كتاب الصخرة الأرثوذكسى
٤٨ — دالور شنودة المنفلوطى	المطهر تحت المجهر
٤٩ — رشيد رضا	شبهات النصارى وحجج المسلمين
٥٠ — Roland Binton	The Church From the Bigining up to the 20th Century.
٥١ — رءوف حبيب	كنائس القاهرة القبطية
٥٢ — روبير ديشان	الديانات فى افريقية السوداء
٥٣ — زكى شنودة	تاريخ الاقباط
٥٤ — دكتور سامى جبرة	فى رحاب المعبود توت
٥٥ — السيوطى	الفتاوى
٥٦ — الشابوشتى	الديارات
٥٧ — الشهرستانى	الملل والنحل
٥٨ — Shotwell	The Religious Revolution of today
٥٩ — صابر جبرة	مجد الكتاب المقدس
٦٠ — طه المدور	بين الديانات والحضارات
٦١ — عباس محمود العقاد	عقائد المفكرين فى القرن العشرين
٦٢ — عبد الأحد داود	الانجيل والصليب
٦٣ — دكتور عبد العزيز عبدالمجيد	هداه الانسانية فى الشرق
٦٤ — عبد الوهاب النجار	قصص الأنبياء
٦٥ — Otto Meinardus	Christian Egypt : Faith and life
٦٦ — عمر عنايت	العقائد
٦٧ — غوستاف لوبون	حضارة الهند
٦٨ — كارليل	الأبطال وعبادة البطولة
٦٩ — Khwaja Kamalud-Din	The Sources of Christianity
٧٠ — KOITHEFF	Der Bremer Radikalismus
٧١ — ليون جوتيه	المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية (الترجمة العربية)

٧٢ — محمد ابو زهرة | محاضرات فى النصرانية
٧٣ — دكتور محمد حماد | الفنون والطرز القبطية
٧٤ — محمد طاهر التنير | العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية
٧٥ — الامام محمد عبده | الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية
٧٦ — محمد فؤاد الهاشمى | الأديان فى كفة الميزان
٧٧ — محمود ابو الفضل | وحدة الدين والفلسفة والعلم
٧٨ — محمود شلتوت (الامام) | الفتاوى
٧٩ — ميخائيل فكس | القدس عبر التاريخ
٨٠ — Harnack | What is Christianity
٨١ — Hirth | The Ancient History of China
٨٢ — ابن هشام | سيرة ابن هشام
٨٣ — Wells | A Short History of the world
٨٤ — Wells | Outline of History
٨٥ — وليم باركلى | انجيل مرقس
٨٦ — William Patoun | أديان العالم الكبرى (ترجمة حبيب سعيد) .
٨٧ — ول ديورانت | قصة الحضارة
٨٨ — وهيب عطا (القس) | طبيعة السيد المسيح
٨٩ — يوسف الدبس | من تحفة الجيل
٩٠ — دكتور يوسف بوست | قاموس الكتاب المقدس

COMPARATIVE RELIGIONS

2

CHRISTIANITY

BY
ʿHMED SHALABY
B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by:
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



الدكتور أحمد شلبي

ـقى دراساتة فى الازهر و فى كليـة دار العلوم
ـة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج.
ـ الولايـ لتحدة الامـ يكية كما زار اكثر دول اوروبا
ـسيا و افريقيا ، ومثل مصر فى عدة مؤتمرات دوليـة.
ـرس مجموعة من اللغات الاجنبية ويجيد الانجليزية
ـالاندونيسية.
ـتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصـل الى
ـجة استـاذ و رئيس قسم التـاريخ الاسـلامى
ـالحضارة الاسلامية . وقد حاضر منتدبا و زائرا
ـارا فى جامعة الازهر، وعين شمس واندونيسيا ،
ـسودان ، وماليـزيا، والمملكة العربيـة السعـودية ،
ـيا وفى معهد الدراسات الاسلاميـة ومعـهد البحوث
ـلدراسات العربية، و معهد الدراسات الدبلوماسية .
ـؤلفاتة تزيد عن خمسين كتابا و اهم هذه المؤلفات :
- موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة مجـلدات.
- موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشـرة اجزاء.
- مقارنـة الاديـان فى اربعـة اجـزاء.
- كيف تكتب بحثـا او رسـالة.
- المكتبـة الاسلاميـة لكل الاعمـار (١٠٠ جـزء من السير و التاريخ و قصص القرآن للاولاد و الشبـان و السيدات و الرجال.)

ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORAS
HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

ـكتب بعض كتبـة بالانجليـزية و الانـدونيسـية .
و ترجمت اكثر مؤلفاتة الى الاوردية . و التركيـة ،
والاندونيسية و الماليزية، و الفرنسية، و الفارسيـة.

دكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

مقارنة الأديان

٣ - الإسلام

الطبعة الثانية (١٩٦٥)
مع تعديلات وإضافات مهمة

كتب للمؤلف

باللغة العربية :

١ – كيف تكتب بحثاً أو رسالة :

دراسة منهجية لكتابة الأبحاث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

(الطبعة الرابعة – مكتبة النهضة المصرية)

تاريخ الفكر الإسلامي

سلسلة من الكتب تصور فى عمق وإحاطة « تاريخ الفكر الإسلامي » فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة ، وتشمل :

٢ – الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره

(مترجم عن الإنجليزية) . (مكتبة الأنجلو المصرية)

٣ – السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامي :

دراسة شاملة للسياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامي مع المقارنة بالاتجاهات السياسية والاقتصادية الحديثة ، ومع دراسة علمية مؤيدة بالوثائق عن « الاشتراكية العربية فى الميزان الإسلامي » . (مكتبة النهضة المصرية)

٤ – تاريخ التربية الإسلامية :

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولمناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، وللإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ... ... وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ... وغير ذلك من الدراسات التربوية الرائعة .

(الطبعة الثالثة – مكتبة النهضة المصرية)

هذا الكتاب مترجم للغة الأوردية : ترجمه : الأستاذ محمد حسين خان زبيرى

نشره : The Institute of Islamic Culture - Karachi

٥ – المجتمع الإسلامي :

أسس تكوينه – أسباب تدهوره – الطريق إلى إصلاحه .

(الطبعة الثانية – مكتبة النهضة المصرية)

هذا الكتاب مترجم للغة الأوردية أيضاً

٦ – الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامي

(تحت الطبع)

التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، من العرب قبل الاسلام حتى العهد الحاضر لجميع الأقطار الإسلامية .

(الناشر : مكتبة النهضة المصرية)

ظهر منه الأجزاء التالية :

٧ — الجزء الأول :

العرب قبل الإسلام — الرسول : حياته وأعماله — الخلفاء الراشدون — فلسفة الدعوة الإسلامية . (الطبعة الثالثة)

٨ — الجزء الثاني :

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٩ — الجزء الثالث :

العصر العباسى الأول ، ودور المسلمين خلاله فى خدمة الثقافة الإسلامية والعالمية .

(الطبعة الثانية)

١٠ — الجزء الرابع :

من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر عن :

الأندلس — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا — السنوسية : مبادئها وتاريخها .

١١ — الجزء الخامس :

من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر عن :

مصر وسوريا — الحروب الصليبية — تركيا (الإمبراطورية العثمانية) .

١٢ — الجزء السادس :

من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر عن :

موريتانيا — مالى — السنغال — غينيا — النيجر — نيجيريا — السودان — الصومال — تنجانيقا وزنجبار .

(الأجزاء الباقية ستظهر تباعاً)

←

مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تتناول أهم الأديان السماوية والوضعية ، وتشمل :

١٣ — اليهودية (تحت الطبع)	(مكتبة النهضة المصرية)
١٤ — المسيحية وتطورها . (الطبعة الثانية)	
١٥ — الإسلام . (الطبعة الثانية)	
١٦ — أديان الهند الكبرى : الهندوسية — الجينية — البوذية .	

ترجم كتابا « المسيحية » و « الإسلام » للغتين الأوردية والإنجليزية

باللغة الانجليزية :

١٧ — History of Muslim Education (دار الكشاف ببيروت والقاهرة)

باللغة الاندونيسية :

١٨ — Negara dan Pemerintahan dalam Islam :	Nabhan (Surabaja)
١٩ — Masjarakat Islam	Djajamurni (Djakarta)
٢٠ — Hukum Islam	
٢١ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam I	
٢٢ — « « « « II	
٢٣ — « « « « III	
٢٤ — Perbandingan Agama (Masihi)	
٢٥ — « « (Islam)	
٢٦ — Sedjarah Pendidikan Islam	
٢٧ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam	
٢٨ — Perkembangan Keagamaan dalam Islam dan Masehi	Sjamsijah (solo)

كتب نفدت ولن يعاد طبعها :

٢٩ — الحكومة والدولة فى الإسلام :

أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٣٠ — فى قصور الخلفاء العباسيين :

وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الطبعة الثانية

يا رب . . . لك شكر المدينِ لك ، المعترفِ بفضلك ، الذاكرِ الذى لا ينسى عونك ، والشاكرِ الذى غمرته نعمُك .

يا رب . . . أنت الذى وجّهتنى لهذه الدراسة ، وقُدْتَنى وأنا أكافح فى خضمّها ، وبعثتَ شعاعاً من نورك فأنار لى السبيل ، فإذا كل غامض يتبين ، وكل مُغْلَق ينبلج ، وكل صعب يهون .

يا رب . . . لقد سرتُ فى الطريق الذى فتحته لى عنايتُك ، وكان تأييدك يسير معى ، فتخطيتُ العقبات الجسام ، ورأيت جهدى يثمر ، وعملى يكبر ، فصَدَرَ الجزء بعد الجزء فى هذه السلسلة ، وأقبل الناس عليها إقبالا جعلنى أحس بعظم المسئولية فأواصل الجهد ، وأحس بكبير فضلك فأكرر الثناء والاعتراف بالجميل .

يا رب . . . . مزيداً من العون أبذله لإرضائك ، ومزيداً من التوفيق يدفعنى لأعمق الشكر والثناء .

* * *

وهذه الطبعة تزدان بكثير من التحقيقات المهمة ، ومن محاسنها :

١ — أنها تظهر وقد صدر من سلسلة « مقارنة الأديان » ثلاثة أجزاء عن : المسيحية — الإسلام — أديان الهند الكبرى (الهندوسية — الجينية — البوذية) ، وسيظهر حالا إن شاء الله الجزء الخاص باليهودية ، وهو جزء حافل بأعمق الدراسات والأفكار والأسرار .

٢ ــ وأنه أضيف لها دراسة عميقة عن « الرق وموقف الإسلام منه » لتصحيح اتهام طالما ضلّ به أعداء الإسلام .

٣ ــ وقد أصبح علم « مقارنة الأديان » من أبرز الدراسات بكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، في تطورها الجديد ، وكان من دواعى اغتباطى أن أُسنِد إلىّ تدريسه ، فشهدت إقبال الطلاب على هذا العلم وحرصَهم عليه .

٤ ــ وبدأتْ هذه السلسلة تترجم إلى عدة لغات ، ليعم بها النفع .

يا رب . . . إنى أستعرض هذه المنن ، فلا أملك إزاءها إلا شكر واهب النعم ، وإلا الدعاء أن تظل معنا عنايته وتوفيقه .

١٦ من ديسمبر سنة ١٩٦٤

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة الأولى

أوفدتنى جامعة القاهرة والمؤتمر الإسلامى أستاذاً للدراسات الإسلامية بجامعة إندونيسيا ، ثم أسند إلىّ منصب « مدير المركز الثقافى للجمهورية العربية المتحدة بجاكرتا » ، ومنذ نزلتُ الأرض الخضراء (إندونيسيا) فى يوليو سنة ١٩٥٥ بدأت أدرس البيئة التى حللت بها لأتعرف مطالبها ، وسرعان ما وجدت مشكلتين كبيرتين تتطلبان حلا سريعاً ، وأدركت أن نجاحى فى عملى يتوقف على التغلب عليهما ، وهاتان المشكلتان هما :

١ — تعليم اللغة العربية لغير العرب .

٢ — تقديم الإسلام لغير المسلمين .

ويبدو أننا فى العالم العربى لم نهتم قط ، أو على أحسن الظنون لم نهتم اهتماماً كافياً بهاتين المشكلتين ، فقد اتجهتْ عناية المربين إلى تعليم اللغة العربية لأطفالنا العرب فى مدارسنا العربية ، فظهرت ولا تزال تظهر طرق متعددة لذلك ، أما تعليم اللغة العربية لغير العرب فلم ينل من عناية الباحثين ما يستحق الذكر ، وكان الطالب من الباكستان أو إندونيسيا أو إفريقية يأتى للقاهرة ليتعلم اللغة العربية ، فلا يجد مناصاً من أن يلتحق بالأزهر أو بكلية دار العلوم ، حيث يجلس مع الطلبة العرب ، ويتعلم معهم ألفية ابن مالك والخضرى والسعد فى البلاغة وما ماثلها ، فإذا عاد لبلاده أخذ يعلّم اللغة العربية كما تعلمها ، فلجأ إلى ألفية ابن مالك وإلى الخضرى ... ، وهيهات أن يجد غيرُ العرب فى مثل هذه الكتب ما يشفى الغلة أو يُعلّم لغة القرآن .

هذا من جهة اللغة العربية ، ومن جهة الإسلام فقد وقف الأزهر حيال ذلك منبرا عملاقاً ، حمل عبء الثقافة الإسلامية أكثر من ألف

عام ، ولكن الأزهر كان كما لا يزال حتى الآن موئلا للمسلمين ، فليس فيه طالب واحد غير مسلم ، وكان المسلم يَرِدُ إليه ليتلقى فيه علوم التفسير والحديث والفقه وما ماثلها ، فاتّجاه الأزهر هو تقديم الإسلام للمسلمين ، بل قل إنه تخصّص فى تقديم الإسلام للمسلمين العرب منذ وصد أبوابَه فى وجه اللغات الأجنبية ، ولم يضع أساتذةُ الأزهر وسيلةً لتقديم الإسلام لملايين اللادينيين أو لغير المسلمين من أتباع الديانات الأخرى(١) .

ذلك بإيجاز هو الوضع الذى واجهتُه عندما نزلت اندونيسيا ، وكان علىّ أن أضع — بقدر طاقتى — الدواء لهذا الداء ، فألّفت لتعليم اللغة العربية لغير العرب كتبا لقيت كثيراً من الرواج وأسدت كثيراً من الخير لسكان اندونيسيا العزيزة ، واتجهتُ بكل حولى إلى ديننا الحنيف أبحث وأكتب رجاء أن أقدمه إلى الملايين من سكان الشرق الأقصى عامة وسكان إندونيسيا بصفة خاصة ، فقد قابلت — بجانب المسلمين المثقفين هناك — ملايين البشر الذين اعتنقوا الإسلام اعتناقاً سطحياً دون أن يتعمقوا فيه ، أو وقفوا أمامه مترددين يريدون أن يعرفوه ولا يجدون إليه السبيل ، ومن أجل هذا كتبت مجموعة من الكتب فى التربية الإسلامية والحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى والمجتمع الإسلامى وغير ذلك من الأبحاث الإسلامية .

---

(١) صدر قانون جديد بتطوير الأزهر وجعله جامعة تشمل كل فروع الثقافات ، وهو قانون جدير بالتقدير والغبطة ، ونحن نرجو صادقين أن يشمل هذا التطوير مباحث الأزهر الرئيسية وهى اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، فلا شك أن دراسة هذين الموضوعين الكبيرين بالأزهر تحتاج إلى عناية بل قل ثورة تزيل القديم الواهى وتشيد على أثره نظما جديدة تتناسب مع أهمية هذين الموضوعين ومع المسئولية الكبرى التى تحملها جمهوريتنا الفتية فى عهدها الجديد .

وكنت فى نفس الوقت معنيًّا بإخراج كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان » ، أردت به أن أعرِّف بالمسيحية الحقيقية ، وما أدخلته عليها الأجيال من انحراف ، حتى صارت إلى وضعها الحالى ، لأوقف بذلك نشاط المبشرين فى تلك البقاع ، ولما صدر هذا الكتاب (المسيحية) لقى إقبالا رائعاً ، وأدّى مهمته خير أداء ، فرغب إلىّ كثيرون أن أخْرِج فى سلسلة مقارنة الأديان كتابا عن الإسلام ، يشمل أهم مباحثه واتجاهاته فى تركيز ودقة .

وبدأت أفكر فى الموضوع . . .

وفى خلال التفكير أخذت أقرأ ما كتب عن الإسلام فى المراجع التى عُنِيَتْ بمقارنة الأديان ، وهى مراجع قليلة ، وأكثرها من وضع الغربيين ، ومن أهم ما قرأت فى هذا الموضوع :

Berry : Religions of the World.

William Patoun : Great Religions of the World.

Encyclopaedia of Religions and Ethics.

وقد بدا لى من القراءة فى هذا الموضوع أن أغلب ما دوّنه الغربيون عن الإسلام مجافٍ للحق ، وأكثره نتيجة لصدأ تراكم على عيونهم فعمّى عليهم الإسلام وجعلهم يحقدون عليه ، وينسبون له ألوان النقائص ، ويتلمسون فى مسائله العيوب .

وعُدت أبحث فى المراجع العربية فوجدتها قليلة أو نادرة ؛ فقد اتجه المسلمون منذ أقدم عصورهم كما قلنا آنفاً إلى العناية بالفقه وأصوله ، والحديث ومصطلحه ، وتفسير القرآن والاتجاهات فيه ، والتوحيد والمنطق ، وعلوم اللغة ، ولم يهتموا اهتماماً ملحوظاً بكتابة كتاب عن الإسلام يشمل مبادئه وأهم مسائله مع مقارنة بعضها بنظائرها فى الأديان الأخرى .

وقد دفعني هذا إلى كتابة كتاب عن الإسلام لعله يسهم مع أمثاله من الكتب التي طرقت هذا الباب في إزالة الصدأ عن العيون ، وفي حسن القيادة والتوجيه ، فاعتقادي أن هذا الموضوع ينبغي آن يكون في مطلع الدراسات الإسلامية وأساساً من أسسها ، ثم تجيء بعده الموضوعات سالفة الذكر عن نظم الإسلام وفقهه وتشريعه .

وبدأت أعمل ، وكنت أظن أول الأمر أن مباحث هذا الكتاب ستُقتبس من كتبي التي أشرت إليها آنفاً ، ولكن سرعان ما أدركت أن كتاباً كهذا لا بدّ فيه من جديد لم يسبق لي أن كتبته في كتبي السابقة ، إذ أن هذه الكتب لم تشمل كل ما يلزم إيراده في كتاب عن « الإسلام » في موضوع مقارنة الأديان ، فأخذت أكتب الموضوعات الجديدة كموضوع « الله التفكير الإسلامي » و« النبوة » و« دعوة في الميزان » و « المرأة » و « الرقّ وموقف الإسلام منه » . . . كما بدأت أختصر ما سبق أن كتبته بإفاضة كنظام الحكومة في التفكير الإسلامي وكالنظام الاقتصادي في الإسلام . . . وجاء هذا الكتاب نتيجة هذا الجهد .

وأشهد لقد حاولت بقوة وثبات أن أجعل هذا البحث علمياً لادينياً ، أي أن أجعله غير متأثر بعاطفتي واعتناقي لهذا الدين ، وسرت فيه على النحو الذي اتبعته في بحث الأديان التي أتممت بحثها ، فكنت أقرأ المراجع الأصيلة وأجمع المادة منها وأعرضها دون تحيز . فإن رأى القارئ ما يظنه مخالفا هذا ، أي إن رأى ثناء وتقديراً فليدرك أن الحقائق والمقدمات كثيراً ما تقود الى الثناء والتقدير ، فإذا قلت مثلا إن الإسلام انتشر بين جماعات مختلفة اللون واللغة والثقافة بسرعة فائقة لسهولة مبادئه ، فتلك حقيقة من الحقائق التي لم ينكرها أحد ، وإذا مجّدتُ القول بوحدانية الله فلأن أى باحث عالم لا بد أن يميل للتوحيد ويحتقر التعدد والأصنام ، وهكذا ، ولم يكن الطعن

قط هدفاً لكاتب يحترم قلمه ويحترم نفسه ، فالهدف هو الحقيقة وحدها ، فإذا عثر عليها الكاتب أعلنها فى سرور وغبطة ، وعلق عليها بما تستحقه من ثناء وتأييد ، أو من معارضة وتفنيد .

وعلى كل حال فتلك المحاولة — محاولة البحث العلمى دون تحيز — كانت هدفى منذ بدأت العمل حتى أتممته ، وأرجو أن تكون هذه المحاولة قد نجحت لأنه قد يشق على الإنسان أن يخلع نفسه من عقيدته ، ولكنى على كل حال لم أكتب هذا الكتاب للدفاع عن الإسلام ، وإنما كتبته بحثاً علمياً كرفاقه من الأجزاء الأخرى فى هذه السلسلة .

* * *

وجدير بنا أن نوجه الآن جهداً كبيرا لشرح الإسلام فى عهد النور الذى أطل على العالم الإسلامى ، وفى عهد الاضطراب الذى تجتازه الإنسانية فى الوقت الحاضر . والذى نعتقده أن الإسلام فقط هو الذى يحمل الدواء لما أصاب الإنسانية من مشكلات وآلام ، لقد بدأت رسالة محمد — كما ستوضح فيما بعد — وكانت مدنية العالم على وشك التفكك والانحلال ، فأنقذتها هذه الرسالة من دمار محقق ، والآن ، نجد التاريخ يعيد نفسه ، فَقُوَى الشر تتحفز للقضاء على الحضارة الإنسانية التى استنفدت ألواناً ضخمة من الجهود لإقامة صرحها ، فلتقدم رسالة محمد مرة أخرى لعلها تنقذ العالم الآن كما أنقذته من قبل .

والإقبال على الإسلام فى العهد الحاضر يقوِّى الاعتقاد أن الإسلام دين المستقبل ، وهذه حقيقة يدركها كل باحث فى انتشار الأديان ، فالذى لاشك فيه أن جهود المبشرين بالدين المسيحى أقرب إلى الفشل ، إذ أن التكاليف التى يتكلفها هؤلاء الدعاة باهظة لا تناسب ما يحصلون عليه من نتائج ، بيد أن الدين الإسلامى ينتشر ويزدهر دون أن نعرف دعاته ،

ودون أن تتكتل جهود لخدمته ، وقد انتشر الإسلام فى عهد الظلام فما بالك بعهد النور ، ومن الواضح أن الإسلام لا ينتشر فقط فى آسيا وإفريقية ، ولكنه أيضا يشق طريقه فى معاقل المسيحية بأوربا وأمريكا .

ويطيب لبعض الناس أن يقتبسوا إحصائيات عن أتباع الديانات المختلفة ، ونقلا عن The World Almanac, U.S A. تبــدو الديانات الخمسة الكبرى وأتباعها كما يلى :

١ ـ المسيحيون ٠٠٠ر٤٠٠ر٦٨٢

٢ ـ الكنفوشيون ٠٠٠ر٦٠٠ر٣٥٠

٣ ـ الهندوس ٠٠٠ر١٥٠ر٢٣٠

٤ ـ المسلمون ٠٠٠ر٠٢٠ر٢٠٩

٥ ـ البوذيون ٠٠٠ر١٨٠ر١٥٠

وهذه الإحصائية واضحة الخطأ من عدة جهات ، ولولا الاتجاه لاحترام الأبحاث العلمية لقلنا إن هذا الخطأ متعمد بالنسبة للإسلام ، ولكنا سنحاول أن نصحح هذه الإحصائية معتمدين على باحث أمريكى أيضا حتى لا نُتَّهَمَ بالمبالغة ؛ والمرجع الذى سنعتمد عليه مرجع حديث ، هو أطلس التاريخ الإسلامى الذى وضعه Harry W. Hazard وفيه يقرر أن المسلمين فى العهد الحاضر (عند وضع المؤلَّف سنة ١٩٥٠) ٣٧٠ مليونا . ومع هذا فلا يزال هذا الرقم أقل بحوالى مائة مليون مما يعتقده الباحثون المسلمون ، وعلى كل فإن الرقم الذى وضعه Hazard بناء على الإحصائيات التى جمعها يجعل الإسلام ثانى الديانات فى العالم (بعد المسيحية .)

ولكن الحقيقة التى يعترف بها المسيحيون أنفسهم أن المسلمين أكثر جدا من المسيحيين تمسكا بدينهم واحتراما له ، ولو أخرجنا من أتباع

الديانات العالمية كلَّ الذين يُنْسَبون إلى الأديان دون أن يحترموها أو ينفذّوا طقوسها ، لتهاوت هذه الملايين التى تذكر أمام المسيحية أو الهندوكية أو الكنفوشية أو البوذية ، ولم يبق إلا الإسلام يحمل رقما فريداً بين أتباع الديانات المختلفة .

لهذه الحقائق أيضا اتجهت لأن أكتب كتابا عن الإسلام ، أخدم به دينى وأخدم البشرية كلها ، وكتابة كتاب عن الإسلام فى موضوع مقارنة الأديان تختلف عن كتابة كتاب عن المسيحية فى الموضوع نفسه ، ذلك لأن المسيحيين شغلوا أنفسهم بموضوعات غريبة استنفذت كل جهد الباحثين ، حتى بدت المسيحية كلها كأنها بحث عن ألوهية المسيح ، وعن الكتاب المقدس وما حوله من آراء ، وعن الخطيئة الأولى وصلب المسيح للتفكير عنها .

ولكن كان الإسلام على النقيض من ذلك ، فالله وحده هو الإله ، وليس محمد إلا بشرا رسولا ، والقرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو ثابت لا شبهة حوله ، وهو كلام الله وليس منسوبا لأحد كما نسب الإنجيل إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا ، ويشمل القرآن الكريم توضيح أساسَىْ الإسلام ، وهما العقيدة الإسلامية وشريعة الإسلام بما فيها من عبادات ومعاملات ، وكلما أخطأ المسلمون طريق الهداية عادوا إلى القرآن فوجدوا فيه ما يعيدهم إلى النور ، وسيمدُّنا هذا الكتاب المقدس بزاد وفير فى أبحاثنا التى سنعرض لها .

وبالإضافة إلى هذا فليس فى الإسلام اعتقاد بخطيئة توارثها البشر ، لأنه بناء على التفكير الإسلامى لا تزر وازرة وزر أخرى ، وليس فى الإسلام سلطات إلهية للحاكم ، وبالتالى سوء استعمال لهذه السلطات ، ومن أجل هذا يُعْفَى الكاتب عن الإسلام من هذا العناء ، فتتاح له الفرصة ليوجِّه

كل جهوده للحديث عن نظم الإسلام وأفكاره ، وأن يتكلم من أول كلمة إلى آخر كلمة عن موضوعات ذات بال .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالإسلام دين ودولة ومن هنا شمل الحديث عن الإسلام مشكلات الإنسان حتى العصر الذى نعيش فيه ، ويقدم الإسلام حلولا لكل هذه المشكلات .

ولا نزاع أن الباحث المنصف سيسرع بالهتاف للإسلام عندما يقارن التفكير الإسلامى فى موضوع « الله » بالتفكير المسيحى أو البوذى فى الموضوع نفسه ، وكذلك فى موضوع « النبوة » و « الروح والمادة فى التفكير الإسلامى » و « فلسفة العبادات فى الإسلام » و « المرأة » و « الدين المعاملة » و « الرق » وغيرها من الموضوعات التى ستظهر جلال الإسلام وعظمته بين سائر الأديان والمعتقدات .

رباه ! حقق بهذا الكتاب الأمل ، واجعله خالصا لوجهك الكريم .

جاكرتا فى الرابع من أبريل سنة ١٩٦١ — دكتور أحمد شلبي

تطور الرسالات

وعمر الجنس البشرى

يدرك الباحث فى مقارنة الأديان حقيقة كبيرة الأهمية ؛ هى أن الجنس البشرى بدأ كما يبدأ الطفل أقرب إلى البدائية والبساطة ، ثم نما الجنس البشرى ونمت أفكاره فوصل إلى ما يمكن أن نسميه مرحلة صبا البشرية ، ثم نما مرة أخرى فوصل إلى مرحلة يمكن أن تُعَدّ مرحلة شباب البشرية .

وكانت الرسالات تناسب كل طور من هذه الأطوار ، ولا نزاع أن مصدر الرسالات هو الله العلى العظيم ذو الجاه والسلطان ، ولكنه جلت قدرته كان يعطى الدواء بقدر طاقة المريض ، فكان يعطى البشرية من الهدى والتوجيه ما تحتمله البشرية ، وما يناسب عودها الذى بدأ ضعيفا ثم اشتد رويدا رويدا حتى اكتمل نموه .

تلك حقيقة واضحة تمام الوضوح لكل من يعنى بدراسة الأديان وعلاقتها بالجنس البشرى ، وقد أشار أستاذنا الإمام محمد عبده إلى هذه الحقيقة فى كتابه « رسالة التوحيد » فذكر أن الأديان الأولى خاطبت الحس يوم كانت الإنسانية فى طور الطفولة ، لا يعرف الإنسان فيها إلا ما يقع تحت حسه ، ولا يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، فلما سار ركب الإنسانية وجرّبت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ونما بها الوجدان ، وبدت العواطف ، جاء دين يتحدث عن الزهادة وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الإنسانية فى صراعها لم تستطع أن تعيش على الإيثار ، ولم يطل مقامها فى الصفاء ، فراحت تتعارك وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان المسالمة ، فجاء دين

ينظم الشئون كلها ، ويرعى الحس والعاطفة ، ويدرس العقل والقلب ، وينظم للناس شئون دنياهم وآخرتهم[١] .

وقد قمت — بحكم عملي فى مقارنة الأديان — بدراسة الأديان السماوية أو أكثرها ، وبدراسة الأديان الوضعية أو أشهرها ، وظهرت لى هذه الحقيقة واضحة ، وأريد هنا أن أبرزها وأن أسير معها فى ركب الجنس البشرى لأصفه وهو يتطور وتتطور معه الرسالات .

وينبغى أن يكون واضحا أن الجنس البشرى لم يتطور دفعة واحدة فى وقت واحد . وإنما ساعدت عوامل خاصة على تطور جزء من الجنس البشرى ، وبقيت أجزاء أخرى فى تخلفها وتأخرها ، وهكذا دواليك ، وبذلك وصل جزء من البشرية إلى مرحلة الشباب ، وكان جزء آخر فى نفس الوقت لا يزال فى مرحلة الصبا ، فى حين كان هناك جزء ثالث لا يزال فى مرحلة الطفولة يعيش عيشة بدائية أو ما يقرب من البدائية .

وربما صح القول أن هذه الأقسام كلها لا تزال تعيش فى العهد الحاضر ، فقد رَفَعَتْ المدنية بعض أجزاء من الجنس البشرى إلى غاية من الرقى ، ولا يزال هناك آخرون يَحْبُون ، نصيبهم فى المدنية محدود ، ومجالهم فى التطور ضئيل ، وبين هؤلاء وأولئك أقسام وأقسام .

ولعل حقا أن يقال إن الديانات السماوية تركزت فى منطقة الشرق الأوسط لهذا السبب ، فقد شهدت هذه المنطقة أرقى حضارات العالم منذ أقدم العصور ، وكانت حضاراتها أدبية وعلمية فهيأت شعوبها لتلقى الرسالات ، ولسنا فى حاجة لنذكر هنا حضارة الفراعنة المتلوّنة الفسيحة ، وكذلك حضارة الفينيقيين ، والبابليين ، والأشوريين ، وفى بعض أجزاء الهند والصين ظهرت حضارات أدبية ، فظهرت بجانبها فلسفات وأفكار اتخذت

---

(١) اقرأ رسالة التوحيد ص ١٥٤ وما بعدها .

فيما بعد شكل الدين كالبوذية والكونفوشية ، أما بقاع العالم المتخلفة فقد قامت بها أفكار بدائية تناسب الطور الذى كان يمر به سكان هذه الأقاليم .

نعود بعد ذلك للرسالات السماوية لنبين ما سبق أن أشرنا إليه من أنها — وإن كانت قد جاءت لأرقى جماعة بين جماعات البشرية — كانت تختلف فى درجة رقيها تبعا لعصر المرسل إليهم . وفى هذا المجال يمكن أن نقسم مراحل هذه الرسالات إلى ثلاثة أقسام تقريباً ، فالقسم الأول يمثل طفولة الجنس البشرى وذلك يشمل الفترة التى عبرتها البشرية من آدم إلى نوح حتى إبراهيم ، والقسم الثانى يمثل صبا الجنس البشرى حيث كان أنبياء بنى إسرائيل وبخاصة موسى وعيسى ، والقسم الثالث يمثل شباب الجنس البشرى حيث رسالة محمد .

وهناك ملامح خاصة لكل قسم من هذه الأقسام .

ففى القسم الأول كانت الدعوة بسيطة ، ومظاهر ذلك تبدو فيما يلى :

١ — الدعوة محدودة بقوم الرسول ولا تتعداهم لسواهم .

٢ — الدعوة عبارة عن التوحيد وترك عبادة الأوثان والأصنام دون تنظيمات وتفاصيل أخرى إلا ما يكون من مرض اجتماعى تفشّى فتنهى عنه الدعوة وتحاربه .

والآيات القرآنية التى تتحدث عن هذه الرسالات توضح هذين الاتجاهين تمام الإيضاح ، إقرأ هذه الآيات :

— لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره[1] .

— ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩ . (٢) سورة هود الآية ٢٥ .

– ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين[١] .

– وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم[٢] .

– وإلى ثمود أخاهم صالحا[٣] .

– وإلى عاد أخاهم هودا[٤] .

– وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه[٥] .

ومن نتائج بعث الرسول لجماعة خاصة لا يتعداها ، أن وُجِدَ رسولان لجماعتين فى وقت واحد كإبراهيم ولوط ، وكإسحق وإسماعيل .

٣ – ليس للدعوة فى ذلك الحين كتب واضحة ، وإنما هى بضع نصائح وقد توجد بعض ألواح أو صحف عامة .

٤ – ليست هناك تواريخ ولا تقريبية لأديان هذه المرحلة فمتى كانت ديانة نوح ؟ ومتى كانت ديانة هود ؟ وهل جاء هود قبل إبراهيم أو بعده ؟ لا نعرف بوجه الدقة .

ويقف القسم الثانى (صبا الجنس البشرى) بين بين ، ففيه من القسم الأول بعض ملامحه ، ولكنّ له ملامح أكثر تعقيدا وشمولا ، ومظاهر ذلك تبدو فيما يلى :

١ – دخلت الدعوةَ بعضُ التفاصيل والتشريعات ، ففى سفر التثنية ما يلى :

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨١ ..

(٢) سورة الأعراف الآية ٨٤ وسورة هود الآية ٨٤ وسورة الشعراء الآية ١٨٣ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٧٣ . (٤) سورة هود الآية ٥٠ .

(٥) سورة الزخرف الآية ٢٦ .

ــ لا يُقْتَل الآباء عن الأولاد ، ولا يُقْتَل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل[١] .

ــ إذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا إلى القضاء ليقضى القضاة بينهم ، فليبرروا البار وليحكموا على المذنب[٢]

ــ إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى ، أخو زوجها يتزوجها ، والبكر الذى يلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل[٣] .

ــ لا يكن لك أوزان مختلفة ولا مكاييل مختلفة ، بل وزن واحد صحيح ومكيال واحد صحيح[٤] .

٢ ــ أصبح للدعوة كتاب هو التوراة أو الإنجيل ولكن معانيهما فقط هى الموحى بها وصاغها البشر فى عبارات ، وقد مسهما التحريف والضياع كما سبق القول عند الكلام عن المسيحية .

٣ ــ وقد وُجِدَتْ فى هــذه المرحلة تواريخ ولكنها غير دقيقة تماما .

٤ ــ ولم يستطع بنو إسرائيل فى أكثر عصور هذه المرحلة أن يفهموا التوحيد فهما واضحا ، فحسب أكثرهم وحدانية الله على أن هناك إلها واحدا لبنى اسرائيل ، وبجانبه كانت هناك آلهة للشعوب يؤمن الإسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها على أبناء جنسهم[٥] .

---

(١) الأصحاح ٢٤ الفقرة ١٦ .

(٢) ٢٥ : ٢ .

(٣) ٢٥ : ٥ و ٦ .

(٤) ٢٥ : ١٣ ــ ١٥ .

(٥) الأستاذ عباس العقاد : الله ص ١١٥ .

وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته ، فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة ، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال[١] .

أما القسم الثالث (شباب الجنس البشرى) فله ملامح واضحة هى :

١ — اتضحت وحدانية الله وحُطِّمت الأصنام ، وفتح بالاسلام عهد جديد لا يقبل الشرك فى أية صورة من صوره ، فالصورة الإلهية فى الإسلام « فكرة تامة » لا تسمح لعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير ، بل له المثل الأعلى وليس كمثله شيء[٢] .

٢ — أصبحت الدعوة عامة لكل البشرية ، وأصبح محمد رسولا للعالمين : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا[٣] » .

والدليل على عموم رسالة محمد واضح تمام الوضوح ؛ فقد عمت رسالة محمد الخافقين وشملت الأبيض والأسود والأصفر ولم يحس أحد من هؤلاء أن الدعوة لا تناسبه ، ولا أنها مستوردة إليه من صنف آخر من الناس ، بل أحس كل واحد أن الدعوة له ، وأنها تنظِّم كيانه وحياته .

٣ — خُتِمَتْ الرسالات بدعوة محمد ، والدليل على ذلك واضح للغاية أيضا ، فقد مرَّت القرون تلو القرون بعد محمد ، ولم يأت من يدعى الرسالة منذ طلع على العالم محمد بن عبد الله ، لقد كانت الرسالات قبله يتلو بعضها بعضاً ، بل كان بعضها يعاصر بعضاً كما سبق القول ، ثم طلع محمد بقوله إنه خاتم الأنبياء والرسل ، وصدَّقه الواقع أربعة عشر قرنا وليس مثلَ ذلك دليلٌ .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) « « ص ١١٥ .

(٣) سورة سبأ الآية ٣٨ .

٤ ـ دعوة محمد لها كتاب لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد ، فقد مرت القرون وتوالت السنون ، وكثر أعداء الإسلام ، ولكن القرآن بقى دون تحريف أو شبهة تحريف « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[١] » « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ[٢] » « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين[٣] » .

٥ ـ يقين الرسول فى هذه المرحلة ثابت كالطود الشامخ ، لم تزعزعه الأحداث ولم تخطر له الشكوك ولا الأوهام ، وكان يهتف فى الشدائد : رباه إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى .

٦ ـ حياة محمد وحياة دعوته كلها وضوح وضوء ونور ، تواريخ محددة ، وأحداث ثابتة ، وتطور مستقيم راسخ .

٧ ـ ديانة شاملة لأمور الدين وأمور الدنيا ، صورت لنا الله تعالى فى سماه ، وصورت لنا جنته وناره ، وأبرزت معالم الخير والشر ، وراحت إلى أمور الدنيا تتحدى تفكير العالم بنظم رائعة فى الميراث والسياسة والاقتصاد والبيع والشراء والوصية والهبة والسلم والحرب وكل حاجات الإنسان ، كما سنوضحه فيما بعد .

ويقول الأستاذ العقاد فى ذلك[٤] : « جاء الإسلام للناس بعد أن بلغوا من التطور فى فهم الدين مرحلة واسعة ، وميزوا بين هداية الضمير وبين فواصل الأمكنة والأنساب ، فعرفوا أن الحق الإلهى محصول روحانى وليس بالمحصول الأرضى الذى يرتبط بالتربة كما ترتبط محاصيل الزروع والضروع .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) سورة البروج الآيتان ٢١ – ٢٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية الثانية .

(٤) ما يقال عن الإسلام ص ٥٣ .

« فالله فى الإسلام هو رب العالمين ، يتساوى عنده الناس ولا يتفاضلون بغير العمل الصالح .

« والنبي فى الإسلام هو المبشر بالهدى والمنذر بالضلال ، وليس هو بالمنجم الذى يكشف الطوالع والأسرار ، ولا بصاحب الخوارق والأعاجيب التى تشل العقول وتهول الضمائر وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ، ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز » .

لقد تطور العالم وأصبح جديراً أن يتلقى أسمى الرسالات فجاءته أسمى الرسالات ، وهى موضوع حديثنا ، وما أمتعه من موضوع .

ليل الإنسانية الطويل

لقد أحاط بالبشرية ظلام حالك قبيل بعثة محمد ، كان ظلاماً مطبقاً ، وكان ليلا طويلا ، نشطت فيه الترهات وانزوت الأفكار الصالحة ، ودبَّ الجهل وانكمش العلم ، وعم اليأس وقلَّ الأمل ، وأوشكت الإنسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، وأن تتردى فى هوة سحيقة هى إلى عالم الحيوان أقرب .

تعال بنا نَجُلْ جولةً سريعة نصور فيها حياة الجنس البشرى آنذاك .

اليهودية :

بنو إسرائيل خصهم الله بكثير من فضله ، وأرسل منهم لهم عدة من الرسل ليكونوا مصدر هداية ومبعث ضوء ورحمة ، ولكن طبيعه أكثرهم كانت إلى الشر أميل ، فراحوا يعتلون ويفسقون دون رادع من ضمير أو خلق ، واستمرءوا الفجور فأنزلوا بأنبيائهم ألوانا من الاعتداءات الأثيمة دوَّنتها كتبهم المقدسة(١) وصوَّرها القرآن الكريم بقوله : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتلون »(٢) . وانتقم الله لأنبيائه ورسله من ضللة بنى إسرائيل ومن نسلهم الذين يعلم الله أنهم سيسيرون كأسلافهم طغياناً وسوء سيرة ، فجعلهم هدفا لمن يُنْزِل بهم العذاب المهين إلى يوم الدين « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »(٣) .

---

(١) انظر صورا منها فى كتاب « اليهودية » للمؤلف .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

ولم يستطع أنبياء بنى إسرائيل أن يحملوا الهداية إلى أكثر هذه القلوب الغلف ، وكان من اهتدى من إسرائيل يسرع إلى العودة للضلال كأنما كانت نفوسهم على وعد به ، وعلى نَفْرة مع الرضوان والهداية . فالروايات تقص علينا خبر أولئك الذين اتبعوا موسى من بنى إسرائيل وأنجاهم الله به مما أنزله فرعون بهم من ذل ومهانة ، ولكنهم سرعان ما تخطف أبصارَهم أصنامٌ لقوم يعكفون عليها فيقولون لنبيهم : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة[1] .

ويدعهم موسى فى رعاية أخيه هرون ويذهب ليتلقى الألواح من ربه ، وفيها لهم نور من الله وهدى ، ولكن سرعان ما يتخذ هؤلاء من حليهم عجلا جسداً له خوار ، يعبدونه ويسجدون له من دون الله . وقد حكى القرآن ذلك فى الآيات الكريمة « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بىَ الأعداء ، لا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين »[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ — ١٥٦ .

وأراد موسى أن يستغفر لقومه وأن يطلب من الله لهم الرحمة ، فاختار سبعين رجلا من أتقيائهم ، ولكن هؤلاء هتفوا به : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة(١) .

تلك صور من ضلالات بنى إسرائيل فى حياة موسى وفى حياة هرون ، أما ضلالاتهم بعد ذلك فتكاد تكون سلسلة من البغى ، يقتلون فيها النبيين ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وهكذا ، حتى خلا التاريخ أو كاد من هداية روحية يقدمها رجل من بنى إسرائيل إلى الجنس البشرى ، أو شعاع من الضوء النفسى يكون فيه للإنسانية هدى أو بصيرة .

المسيحية :

ليس لنا أن نعيد حديثنا عن المسيحية بعد كتابنا الذى خصصناه للحديث عنها فى سلسلة « مقارنة الأديان » ، وكل ما نقوله هنا هو أن نعيد الكلمات التى ختمنا بها ذلك الكتاب وهى : وقد اتضح لنا من هذه الدراسة أن المسيحية بعدت عن صفائها ، ودخلتها عناصر غريبة حتى نقلتها عن طبيعتها وطبيعة الأديان السماوية كلها .

وقد كان فشل اليهودية والمسيحية صورة من الفشل الذى شمل الفكر فى العالم كله ، فلنجُل جولة حول ذلك العالم لنرى إلى أى غاية كان يسير(٢) .

الحياة فى فارس :

إن الإصلاح الدينى الذى قام به زرادشت (٦٦٠-٥٨٣ ق م) فى إيران قد ضعف بعده ثم ضاع . وفى القرن الأول قبل الميلاد تسلط الاسكندر المقدونى على فارس ، ثم قسمها إلى دويلات قبل أن يغادرها لغزو الهند(٣) ،

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٥ .

(٢) سنقتبس فيما يلى بضع صفحات من كتابنا « المجتمع الإسلامى » ص ٥ — ٩ .

(٣) اقرأ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف جـ ١ ص ٥٧ (الطبعة الثالثة) .

فنشأ بذلك « عصر ملوك الطوائف » الذى اضطربت فيه الاحوال السياسية والفكرية .

وفى القرن الثالث المسيحى ظهر (مانى) فى فارس ، وكان ظهوره فى عصر سادت فيه الشهوة ، فاختط طريقا يحارب به هذه الشهوة الجامحة ، فنادى بحياة العزوبة وعدم النكاح لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وذلك بقطع النسل واستعجال الفناء ، وقد قتله بهرام سنة ٢٧٦ قائلا : إن هذا خرج لتخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه . وذهب مانى ولكن تعاليمه بقيت بعده إلى ما بعد الفتح الإسلامى .

وظهر مزدك سنة ٤٨٧ م فأعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ، وينبغى أن يعيشوا سواء ، ولما كان المال والنساء من أهم الأسباب التى تخلق الفوارق وتسبب الكراهية ، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما ، يقول الشهرستانى[1] : أحلّ مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، ولقيت هذه الدعوة قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة ، بل أيدها القصر الإمبراطورى . ويقول الطبرى[2] : كاتف السفلة مزدك فى دعوته وشايعوه فابتُلِىَ الناس بهم وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعَّدوه إن رفض ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٨٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٨٨ .

وادعى ملوك فارس أن دماً إلهياً يجرى فى عروقهم ، أو أن فى طبيعتهم عناصر علوية مقدسة ، وصدّق الفرس هذه الدعوى فأنزلوهم منزلة الآلهة ، قدموا لهم القرابين ، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية ، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ، ويسيطروا على الناس أيا كانت سنهم أو كفاءتهم . وفيما عدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الإيرانى بطبقاته الكثيرة التى تقوم هوة واسعة بين كل اثنتين منها ، وكان كل إنسان فى طبقة لا يستطيع أن يتعداها إلى سواها من الطبقات مهما أوتى من كفاءة خاصة أو تجارب معينة[١] .

الصين :

من أهم الأديان التى كانت سائدة فى الصين قبيل ظهور محمد ، الديانة البوذية وكانت البوذية فى ذلك الحين قد فقدت بساطتها ، وتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت ، يقول الأستاذ أتريا : لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة بوذا ما يلى : لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيهما العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ، لقد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيها[٢] .

الهند :

يقول السيد أبوالحسن على الحسنى النووى وكيل ندوة علماء الهند ما يلى : اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانة

---

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للسيد أبو الحسن النووى ، ص ٣٣ .

(٢) اقرأ عن ذلك كتاب « أديان الهند الكبرى » للمؤلف .

وخلقا واجتماعا كان ذلك العهد الذى يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادى ، فقد شاركت الهند فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن . . . . وبلغت الوثنية أوجها ، ووصل عدد الآلهة ٣٣٠ مليونا فقد أصبح كل شىء رائع ، وكل شىء جذاب ، وكل مرفق من مرافق الحياة إلها يُعْبَد ، وهكذا جاوزت الأصنامُ والتماثيل والآلهة الحصرَ وأربت على العد ، فمنها أشجار تاريخية ، وأبطال تمثل فيهم الله ، وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومعادن كالذهب والفضة ادّعوا أن الله تجلى فيها ، وأنهار وآلات حرب ، وآلات تناسل وحيوانات أشهرها البقرة وغير ذلك ، وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل فى هذا العهد حتّى فاق هذا العصر فى ذلك جميع العصور الماضية ، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأوثان .

وظهر فى الهند نظام الطبقات فى أبشع صوره ، فقد ازدهرت فى الهند قبل المسيح بثلاثة قرون الحضارة البرهمية ، ووُضِعَ فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وأُلِّف فيه قانون مدنى وسياسى أصبح رسميا ومرجعا دينيا فى حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ « منو دهرما ساسترا » ويقسم هذا القانون السكان أربع طبقات هى :

١ — البراهمة : وهم طبقة الكهنة ورجال الدين .

٢ — الكشتريا : وهم رجال الحرب .

٣ — الوشيا : وهم التجار والصناع والزراع .

٤ — الشودرا : وهم طبقة الخدم والعبيد .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة ، فجعلتهم صفوة الله وملوك الخلق ، وملكتهم ما فى العالم لأنهم

أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم الشودرا ما شاءوا ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده[١] .

العرب :

فى صور من وأد البنات ، وسبى النساء ، وعبادة اللات والعزى ومناة ، وفى حروب لا تنقطع ، وغارات لا تهدأ ، كان يعيش العرب قبل الإسلام ولعل أدق تصوير وأقصره لحالة العرب فى الجاهلية هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشة حينما سأله هذا عن دين الإسلام والرسول محمد قال جعفر : أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف[٢] .

* * *

تلك صورة سريعة مجملة للعالم قبيل شروق الإسلام، تلك الحالة التى وصفها الأستاذ Dinson فى كتابه Emotions as the Basis of Civilization بقوله : فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تُعين على إقامة الحضارة قد انهارت ، ولم يك ثَمّ ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتشاجر

---

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٨ – ٤١ ، واقرأ كذلك « أديان الهند الكبرى » للمؤلف ص ٥٣ – ٦٠ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢١٣ .

لا قانون ولا نظام ، أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .

وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى كان خير دواء لهذا الداء :

مطلع الفـــجر

طال ليل البشرية كما وصفنا آنفاً ، ومر الجنس البشرى بألوان من التجارب والخبرات حتى أصبح مستعداً أن يتلقى رسالة تنظم له هذه الشئون وتعالج له ما بدا من مشكلات ، ووقفت الإنسانية ترقب مطلع الفجر ، وأخذت تقلب وجهها ذات اليمين وذات الشمال ، باحثة عن الأمل الذى يقود الإنسانية إلى الهدى ، وباحثة عن شعاع الضوء الذى يزيل طبقات الظلام المتراكم .

وانبثق الفجر من هناك ، من مكة المدينة المقدسة التى تربض فى منتصف الطريق الواصل بين شمالى الجزيرة العربية وجنوبها تقريباً ، ولم يكن أحد يعرف حينما ولد محمد أن هذا الوليد اليتيم سيكون ذلك الأمل الذى ترقبه الملايين ، والذى سيهدى البشرية إلى سواء السبيل .

وولد محمد فى ضوء التاريخ ، لا شكوك حول أسرته ، ولا غموض حول تاريخ مولده ، ولا ظلام حول نشأته ، ولا تردد حول بعثته ومبادئه ، وإنما هى وضوح كلها ، ويقين كلها ، يؤمن به من يشاء ، ويكفر به من يشاء ، ولكنه على كل حال كفران ناشئ عن التحدى أو العصبية ، أوسبب مماثل من الأسباب ، وليس ناشئاً عن الجهل أو الغموض . ويقول غوستاف لوبون(1) عن حياة محمد ووضوحها : إذا استثنينا محمدا لم نجدنا مطلعين على حياة مؤسس ديانة اطلاعاً صحيحاً .

تعال بنا نقص طرفا من سيرة محمد نستقصيها مما كتبناه عنه بتفصيل وإطناب فى المظان التاريخية المخصصة لذلك(2) .

---

(1) حضارة الهند ص ٣٤٤ .

(2) اقرأ الجزء الأول من كتاب « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف .

انتقل السلطان فى مكة من خزاعة إلى قريش سنة ٤٤٠ م وكان قصىّ الجدُّ الرابع للرسول قد تزوج بفتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على مكة ، فمهد له ذلك أن يستولى على السلطان بعد موت هذا الأب واضمحلال قوة خزاعة أمام قوة قريش الناهضة .

وقصىّ هذا هو الذى بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيما بينهم تحت إشرافه ، وهو الذى رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها ، وهذه الوظائف هى السقاية والرفادة واللواء والحجابة[1] .

وبعد قصىّ انحدرت وظائف الكعبة إلى أولاده فأحفاده ، وكان هاشم ابن عبد مناف بن قصى من أكثر أحفاد قصى حظا ، فقد آلت له السقاية والرفادة ، وتولاها بعده أخوه المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول الذى عز شأنه وذاع صيته ، وأصبح مرجع كل الأمور بمكة ، وفى عهده كان عام الفيل حيث هجم أبرهة بالفيلة يريد دك البيت المقدس وتخريبه ، ولكن الهزيمة حاقت به وكتب للبيت المقدس النجاة . وفى هذا العام ولد محمد .

ومحمد حفيد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكان لعبد المطلب مجموعة من الأبناء تزيد عن العشرة ، وكان من بينهم ابنه عبد الله أبو محمد ، وكان عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه ، كان شاباً جميلا تغلب عليه الوداعة والخير ، وقد زوّجه والده فى سن مبكرة من فتاة قرشية فى ميعة الصبا ، هى آمنة بنت وهب ، والتقى الزوجان الشابان التقاء قصيراً تكونت فيه نطفة طفل قدر له أن يكون فى قمة القادة والمشاهير ، وافترق الزوجان افتراقاً لم يتم بعده لقاء ، فقد سافر عبد الله فى تجارة أبيه إلى المدينة فالشام ، ولما عاد سقط مريضاً بالمدينة ومات هناك .

---

(١) انظر مدلولات هذه الوظائف فى الجزء الأول من كتاب « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف ص ٤٩ — ٥٠ .

• لقد كان حقيقاً بقلب آمنة أن يتحطم ، ولكن التاريخ يثبت لنا هدوء آمنة فى غمرة الحزن ، ورضاها مع الأسى ، وقد وجدت آمنة سلواها فى جنينها ثم ولدته فأنِستْ به ، وأصبح دنياها الذى نسيت له وبه كل شيء ، ولكن آمنة سرعان ما ماتت وطفلها فى السادسة من عمره ، وكأنما أراد الله أن يتولى هو تنشئة الطفل ، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله « ألم يجدك يتيما فآوى[1] » وعبر عنه الرسول بقوله : أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

وتولى عبد المطلب الإشراف على حفيده الحبيب ، ولكن عبد المطلب أيضاً مات بعد سنتين من آمنة فتولى أبو طالب بن عبد المطلب كفالة محمد .

وواجه محمد الحياة فى ظل عمه أبى طالب ، تربى فى بيته ، وساعده فى أعماله التجارية ، وسافر معه إلى الشام متاجراً قبل أن يبلغ الحلم ، وعندما كانت سنه أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة ، وقد حضرها الرسول ، ويروى عنه قوله « كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » .

وتقدم محمد نحو الشباب ، ولكنه كان طرازاً وحده ، لم يشرك أترابه فيما اعتادوه من لهو وعبث ؛ فلم يشرب الخمر ، ولم يغش مجالس الميسر ، ولم يسجد لصنم قط ، وكان حليف الأمانة وحليف الصدق حتى عرفه الناس بالصادق الأمين .

وتاجر محمد فى مال خديجة بنت خويلد ، وسافر فى هذه التجارة إلى الشام ، وصحبه ميسرة غلامُ خديجة ، وقد ربحت هذه التجارة ربحاً عظيما وكانت سبب ارتباط بين محمد وخديجة ، وقد تُوِّج هذا الارتباط بزواجه منها وهو فى الخامسة والعشرين وهى امرأة فى الأربعين من عمرها تزوجت قبله مرتين .

(١) سورة الضحى الآية ٦ .

وقد هيأ مال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للفكر الذى كان يراوده ، فقد كان محمد كثيراً ما يخلو لنفسه ويفكر فى الكون مبدئه ونهايته ، ولكن السعى للمعاش كان يقطع عليه فكره ويحول دون استمراره فى هذه اللذه العقلية التى كان ينعم بها ، ولكن حياته الجديدة مع خديجة ضمنت له فراغ الوقت ، ومنحه تقدم سنه مزيداً من العمق ، ومنحته أخلاقه الحسنة مزيداً من الصفاء ، وشملته عناية الله فرأى أن يخلو لله ، وشجعته زوجته الصالحة على رغبته ، فكانت تعد له الطعام فيأخذه ويذهب إلى غار حراء ، حيث يخلو ليفكر فى الكون وخالقه ، والموت ومصير الناس بعده وهكذا ، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق ولا تكاد تتخلف .

بدء الوحى :

وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان وناداه :

– اقرأ

– ما أنا بقارئ .

– اقرأ .

– ما أنا بقارئ .

– اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم[٩] .

وكانت هذه أول آيات من القرآن الكريم ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تكلف محمداً بدعوة ، ولم تخبره برسالة ، ولم تكن

---

(١) سورة العلق الآيات ١ – ٥ .

إلا إعلاماً بشيء غير عادى لم يدرك محمد كنهه ، ولذلك أسرع إلى البيت خائفاً مذعوراً .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك وكان الرسول يترقبه فى الغار وخارج الغار ، وبعد فترة من الانتظار طالت على محمد ، ظهر له جبريل مرة أخرى ، فظهرت عليه رعدة وفزع ، وسارع إلى بيته فى حالة من الخشية ، وقال لأهله : دثرونى دثرونى . فدثروه . ولكن جبريل جاءه وهو فى هذه الحال وألقى إليه نداء ربه : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر[1] » ، وأدرك محمد بهذه الآيات ما يراد منه ، فهب ينذر الناس وبدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد ، وافتتحت هذه الآيات للإنسانية عصراً جديداً هو عصر النور وعصر السلام والإسلام .

وبدأ محمد دعوته بمكة ولكن الدعوة تعثرت ووقفت قوى الشر فى طريقها ، ولكن محمداً بحث عن طريق آخر تنطلق منه دعوة الإسلام ، فهاجر إلى يثرب ، وحاولت القوة الغاشمة أن تَلْحَقَ به وأن تحطم بالمدينة الدعوةَ المهاجرة من مكة ، ولكن محمداً قاوم القوة بالقوة ، وخاض معارك حاسمة مع المعتدين ، كتب له فى نهايتها النصر المبين ، وعلا صوت الحق ، ودخل الناس فى الدين أفواجاً ، وعندما استكمل محمد الثالثة والستين كان عَلَمُ الإسلام يخفق على الجزيرة العربية كلها ، وأصبح لهذه الجزيرة التى كانت أشتاتاً متنافرة دينٌ واحد ، ورئيس واحد ، وغاية مثلى تقودها ، وأفكار سامية توجهها . ثم انطلقت هذه القوة من حدود الجزيرة بعد وفاة محمد فاتجهت إلى أرقى الممالك التى عرفها ذلك التاريخ ،

---

(١) سورة المدثر الآيات ١ — ٧ .

فخرت بسرعة مذهلة أمام الزحف الإسلامى الذى لم يطق الباطل أن يوقفه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى كان الإسلام يخفق فى الأندلس ، ويرفرف على السند ، ويشمل بخارى ، ويعم ما بين هذه البلاد من بقاع .

ولنعد إلى محمد نبى الإسلام لنذكر جملة أخرى من صفاته قبل أن نستمر فى حديثنا عن موضوعات هذا الكتاب .

لقد بُعِثَ محمد وتبعه بعض الناس . وعاداه آخرون . ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا فى أخلاقه مطعناً ، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصة ، أو ثلمة .

وعظم شأن الإسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الدينى والرئيس السياسى ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير أصحابه فيه إلا رائداً وصديقاً ، كان ينهاهم عن الوقوف له إذا أقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، وإذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة[1] .

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه ، بل امتدت إلى أهل الكتاب ، فكان يقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها . وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

---

(١) أفاض الإمام الغزالى فى وصفه لأخلاق الرسول فى أكثر من موضع بكتاب الإحياء ، انظر كذلك زاد المعاد ١ : ٣٤ — ٤٧ .

وكان زاهداً فى الدنيا ، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لايدخر شيئاً لغده ، حتى لقد توفى وقد رهن درعه عند يهودى فى قوت عياله ، وكان شديد الزهد فى الحياة المادية ؛ اتخذ فراشاً خشناً . وطعاماً بسيطاً ، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام .

وكان لامع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به أحيانا مشكلات جسيمة ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها . بل كان يبحث عن الحلول فى وقت تقف فيه العقول عن التفكير ، وحسبك أن تذكر موقفه عندما حلّت به الهزائم فى غزوة أحد ، وخرّ صفوة من أتباعه ، وتشتت شمل جيشه ، ومسه هو الضر ، وسقط فى حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادى قريش أن محمداً قد مات ، فأراد أحد المسلمين أن يكذّبه ، وأن يصيح بأن محمداً لا يزال حياً ، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك — وهو فى حاله تلك — أن خبر موته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه ، وهذا ما كان .

ومحمد — ككل مصلح وكل رسول — كان له أعداء . ولا يزال له أعداء ؛ ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يجرّح أخلاقه ؛ أو أن يجد فى صفاته ما ينُال منه . وكثير من المستشرقين الحانقين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة — لا لصدق دعوته — بل لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للأمور ، وتفوقه الذهنى والخلقى على رجالات عصره .

ومن خصائص الدين الذى جاء على يد محمد التوحيدُ المطلق الذى لا هوادة فيه ، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعدُه عن

الكهنة والقرابين ، وقد اتخذ محمـــد كل الاحتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته ؛ كما أن من أهم خصائص هذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعاً إخوة متساوون تماماً ، مهما اختلفت ألوانهم أو أجناسهم أو مراكزهم[1] .

رحم الله محمداً ! لقد كان نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد ، وحباها كريم الصفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده ديناً جديراً بأن يكون خاتم الأديان لما يكفله لمعتنقيه من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيا .

(١) Wells : موجز تاريخ العالم ص ٢٠٢ .

دعوة فى الميزان

قال محمد : إنى رسول الله ، أرسانى بشيراً ونذيراً .

وقال محمد : إن رسالتى تشمل البشرية كلها .

وقال محمد : إن رسالتى تنظم شئون الدين وشئون الدنيا ، شئون الروح وشئون الجسم ، شئون الفرد وشئون الجماعة .

هل صدق محمد فيما قال ؟

وهل ملأ هذا الفراغ الكبير الذى قال إن دعوته ستشمله ؟

تعال أولا نفترض عدم صدق محمد ، وندّعى مع من ادّعوا أن محمداً لم يكن صادقا وأن دعوته إنما هى من خَلْقِه هو وليست رسالة من الله ، ولكنا نسرع فنتساءل :

كيف يدّعى رجل مثل هذه الدعوة الكاذبة وتعيش دعوته ؟

ونتساءل ثانياً :

لماذا كَذَبَ محمد هذه الكذبة العريضة ؟ ما هدفه وما آماله ؟

ونسير فى بحث السؤال الأول فنذكر أنّ كثيرين ادّعوا النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات ، ادّعاها الأسود العنسى ، وادّعاها طليحة ، وادّعتها سجاح ، وادّعاها فى العصر الحديث أحمد القاديانى ، ولكن كلا من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة أثارت الضحك والسخرية ، وكان عمرها فى عمر الزهور ، وكثيراً ما تراجع صاحبها نفسه وسخر من نفسه مع الساخرين ، لشىء واحد ، هو أن النبوة عبء ثقيل ، حمله يرهق النفس البشرية ، والنهوض به من أشق الصعوبات .

انزل بين جماعة وادّع أنك طبيب ولست بطبيب ، كم يمضى من الوقت قبل أن ينكشف أمرك ويظهر تضليلك ؟

وانزل بين جماعة وادع أنك معلم أو مهندس أو رجل قانون ، أو حتى زارع أو طباخ أو حلاق ولست كذلك ، لا شك أن أمرك سينكشف بعد قليل ، وسيطاردك أولئك الذين قد يُخدَعون بك فى اللحظات الأولى .

هل النبوة أقل من ذلك ؟

اللهم لا . إنها مسئولية خطيرة ، ودعوة عريضة ، وهى امتحان قاس ، هيهات أن يعبره كاذب أو مختلق .

إنها ليست كلمة تقال ، أو دعوى تدعى ، إنها فكرة ، أو سلسلة من الأفكار ، ونظام ، أو حلقات من النظم ، وهى عقيدة تُبْنَى ، وشروح تُعْرَض ، ومشكلاتٌ تعالج ، ولا يقوم بذلك إلا صادق أمين .

وتعال بنا إلى السؤال الثانى :

ما هدف محمد من هذه الدعوى العريضة على فرض بطلانها ؟

من المحتمل أن يكذب إنسان وأن يدّعى دعوى باطلة ، ولكن الذى لا شك فيه أن الإنسان يرمى إلى شىء عندما يرتكب هذه الحماقة . ما الشىء الذى أراده محمد من هذه الدعوى ؟

هل أراد المال ؟ هل أراد الجاه ؟ هل حصل على شىء لنفسه ، أو لذويه ؟

الإجابة على ذلك واضحة يقصها علينا التاريخ الواضح ، الذى لا يختلف فيه اثنان ، فقد كان محمد غنيا قبل البعثة بمال زوجته الواسع وثرائها العريض ، ولكن محمداً أفنى هذا المال وأنفق كل هذا الثراء حتى إذا مات كان مديناً ، رهن درعه عند يهودى فى قوت أهله . وقد أراده

قومه على المال ، وعرضوا عليه أنفَسَ ما يملكون لأنهم ظنوا أنه طالب مال ، وعرضوا عليه الجاه والسؤدد وأرادوه ملكا عليهم ؛ ولكن محمداً صاح صيحته الشهيرة : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه[1].

وظنه الجدد من أتباعه ذا سلطان . فوقفوا له إذ قَدِم عليهم ، ولكنه هتف بهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، فلست بملك ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

وقاسى محمد من أجل النبوة ألوانا من العناء ، عرف الجوع والطوى ، وامتدت عليه الأيدى بالضرب والإيذاء ، وقاطعته قريش هو ومن تبعه أو نصره ، واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، وشملت التجارة والمحادثة والتزاوج وغيرها من المعاملات ، وكان من نتيجتها الضر البالغ لمحمد ولأتباعه ، ولبنى هاشم جميعا ، ثم تلا ذلك هجرة وغربة وتشرد .

وماذا حَصَّل محمد لذويه ؟

إن كان محمد قد حصَّل شيئاً لأولاده وذويه فذلك الشىء هو الحرمان ، طالما بات مع أهله على الطوى ، وطالما قنع وقنعوا معه بالثوب المرقَّع ، والنعل المخصوف ، ثم — وهو غاية الحرمان — لقد وضع محمد حدا لما قد يقال عن جلب النفع ، فقال قبل موته : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة . وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس من موتاهم ، وبرهن على أنه ليس لأهله وإنما هو للمسلمين ، حياتُه لهم وموته لهم ، وكفاحه من أجلهم ، دون هدف ذاتى أو منفعة خاصة .

وليس لمحمد ميراث أدبى كما أنه لم يكن له ميراث مادى ، فالنبوة ليست ملكا ولا سلطانا يتوارثه الأهل ، ولما مات محمد انتقل سلطانه القبائل كما يقضى الإسلام ، ولم ينله غير الأكفاء من أهل محمد كبعض

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠ .

العباسيين والعلويين إلا فى عهد اضمحلال التفكير الإسلامى ، وتدهور الثقافات الإسلامية ؛

وفى حجة الوداع كان خطاب محمد حاسما ، كان حسابا واضحا قدّمه لقومه ، قال لهم : أيها الناس ، من كنت أخذت له مالا ، فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن كنت ضربت له ظهرا فهذا ظهرى فليضربه ، أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى .

حياة واضحة ونهاية واضحة ، حياة فيها الحرمان والضنى واللوعة له ولأهله ، فلما مات لم ينل منه ذووه شيئاً ، وكان للسلمين جميعاً تراثه المادى والأدبى .

وهكذا عند حساب الأرباح والخسائر نجد محمداً لم ينل شيئاً لنفسه ولا لذويه وإنما دفع من ماله وجهده وجاهه ، وما لمثل هذا يسعى كذاب مختلق .

وأكثر من هذا ، فالضر الذى نزل بمحمد لم يكن مفاجأة له ، ولم يكن يسعى للخير فأخطأه التوفيق ونزل به الضر ، لا ، فإن محمداً كان يتوقع الشر منذ جاءته الرسالة ، ومنذ بدأ دعوته ، فقد روى أنه عقب أن تلقى أمر ربه ناله الفزع والخوف ، فدعته خديجة لينال شيئاً من الراحة فأجابها : يا خديجة مضى عهد النوم والراحة ، وجاء عهد الكفاح والعناء .

إذاً لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد . ففرضٌ كهذا لا يجيزه منطق ولا يقره فكر سليم .

لا ، نريد مرة أخرى أن نعود إلى هذا الافتراض الأبله ، ونريد أن ندّعى مع من ادعوا أن محمداً لم يكن صادقاً ، وأن دعوته إنما هى من خلقه ، وقرآنه إنما هو من صنعه ، ولكن سرعان ما يعرض علينا هذا القرآن صوراً تذيب هذا الإدعاء وتمحوه من أساسه ، اقرأ معى :

« عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزَّكَّى ، أو يذَّكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى . كلا ، إنها تذكرة[١] » .

قصة جماعة يدعوهم الرسول إلى الإسلام ، ورجل أعمى مسلم يقتحم على الرسول جلسته ليسأل عن شيء غمض عليه ، ولكن الرسول يستمر فى اهتمامه بهذه الجماعة رجاء أن يجذبها إلى حوزة الإسلام ، أما هذا السائل المسلم فَيُعْرِض عنه الرسول مؤقتاً فلن يفوت شيء إذا أجَّل الرسول الإجابة عن سؤاله . ولكن القرآن لا يترك هذا التصرف لمحمد ، وتنزل عليه هذه الآيات التى يقرؤها الملايين . هل هى من صنع محمد ؟ وكيف جاز لمحمد أن يلوم نفسه هذا اللوم ، وأن يجعل هذا التقريع قرآناً يحفظه الناس ويتلونه وفى هذه الآيات — بالإضافة إلى العتاب واللوم — معان سامية ، واتجاهات رفيعة ، لا يمكن أن يعارض بها محمد نفسه ، لو كانت الدعوة من خَلْقه ، والقرآن من صنعه ، لأن الآيات تسأل بتهكم : لماذا تتصدى لتعلم من استغنى عنك وعن الأفكار التى تدعو لها ؟ وماذا يضيرك أن يبقى هؤلاء فى ضلالهم . . . .؟ كلا ، لا تفعل ذلك مرة أخرى .

هذا أدب الله وتلك سياسة القوى العليا التى لا يصل إلى غايتها فكر البشر ، وأشهد لقد حصل لى حادث مماثل سأذكره هنا ، وليَرَ القارئ رأيه فيه :

فى جاكرتا عاصمة إندونيسيا كان يسكن رجل عربى مسلم هاجر إلى إندونيسيا من نابلس بفلسطين منذ حوالى ثلاثين سنة ، وتزوج فى جاكرتا بفتاة مسيحية هولندية ، وأنجب منها بعض أطفال .

---

(١) سورة عبس الآيات ١ – ١١ .

وكان هناك حوار يدور أحياناً بين الزوجين عن بعض المبادئ الإسلامية ولم يكن الزوج المسلم ذا ثقافة إسلامية عالية يستطيع بها أن يدافع عن الإسلام ، فقرر أن يدعونى لجلسة تثير زوجتُه فيها تلك الشبهاتِ العالقةَ بنفسها عن الإسلام ، وتمَّت هذه الجلسة بحضور مستشار سفارة الجمهورية العربية المتحدة وزوجته ودار حديث طويل باللغة الإنجليزية بينى وبينها ، وعرضت فيه السيدة المسيحية شبهاتها : تعدد الزوجات فى الإسلام — الطلاق — نظام الميراث . . . وأخذتُ أشرح وجهة نظر الإسلام فى هذه المسائل ، وطاب الحديث وظهر أننى مسيطر على الموقف ، ولانت المرأة وأبدت إعجابها بكثير من الاتجاهات الإسلامية ، وكان زوجها يذكِّرها ببعض المسائل التى تعوَّدت أن تتساءل عنها ، فتثيرها ، وأجيب ، وفى وسط هذا النصر واللذة التى تصحبه كان المستشار يتدخل سائلا بعض أسئلة ، ولكنى كنت أعرض عنه وأؤجل الإجابه عن تساؤله .

والمهم — الذى أشهد الله عليه وأستغفره منه إن كان ذنباً — أننى كنت وأنا أتجه للمرأة المسيحية داعياً وأعرض عن المسلم المتسائل ، كنت أتذكر حادثة الرسول آنفة الذكر ، التى أعرضَ فيها عن المسلم واتجه يدعو جماعة إلى الإسلام ، كنت أتذكرها تماماً ، ومع هذا ظللت أدعو المرأة المسيحية وأشرح لها ، وظللت أعرض عن المسلم المتسائل ، لأن اجتماعى بهذه المرأة فى جلسة كهذه كان فرصة فريدة ، أما اجتماعى بالسيد المستشار فكان يتم كل يوم تقريباً ، والفرص عنده واسعة ليسأل عما يريد .

ذلك فيما يبدو اتجاه النفس البشرية ، حِرْصٌ على الدعوة وعلى تحقيق لذة الانتصار وضم جماعة آخرين للدين الذى يعتنقه الداعى ، ولكن اتجاه السماء مغاير ، يصعب أن تسمو النفس الإنسانية إليه إنه اتجاه تبينه الآيات الكريمة :

— فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا[١] .

— لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً[٢] .

مرة أخرى لا يمكن أن تكون سورة عبس من صنع محمد ، فلا يعقل قط أن يتصرف محمد هذا التصرف العادى ، ثم يعود فيلوم نفسه هذا اللوم القاسي ويجعل لومه قرآنا يتلى .

وليست هذه السورة فقط هى التى اتخذت هذا الاتجاه ، فهناك آيات أخرى لا تقل عن سورة عبس إن لم تكن أشد منها وأقسى ، اقرأ معى هذه الآيات :

— عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين[٣]

— ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم[٤] .

— ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة[٥] .

— لولا كتاب من الله سبق ، لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم[٦] .

— لا تقل إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينِ ربى لأقرب من هذا رشدا[٧] .

— وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه[٨] .

— لا يحلُّ لك النساء من بعد ولا أن تبدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن[٩] .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦
(٢) سورة الرعد الآية ٣١
(٣) سورة التوبة الآية ٤٣
(٤) سورة التوبة الآية ١١٣
(٥) سورة الأنفال الآية ٦٧ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٦٨ .
(٨) سورة الكهف الآية ٢٤
(٨) سورة الأحزاب الآية ٣٧
(٩) سورة الأحزاب الآية ٥٢ .

— لِمَ تحرِّم ما أحلَّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك[١] .

وهكذا تصرفات لم يقرّها العزيز الحكيم ، فأنزل فيها سبحانه آيات من قرآنه يلوم بها ويوجّه ، ويقود فيها رسوله إلى المثل العليا ويعلمه بها ما لم يكن يعلم . إنها دلائل واضحة على أن محمدا لم يكن مدّعيا وأنه كان رسول الله ، وأن القرآن الذى جاء به كلام الله .

ولدينا دليل آخر على أن القرآن كلام الله وأنه ليس من كلام محمد ، ذلك أن محمدا كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه ، بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا ، ولكن كانت تمضى الليالى والأيام ، تتبعها الليالى والأيام ، ولا يجد فى شأنها ، قرآنا يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المرجفون بحادث الإفك عن زوجه عائشة رضى الله عنها ؟ وأبطأ الوحى ، وطال الأمر ، والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلاّ أن يقول بكل تحفظ واحتراس « إنى لا أعلم عنها إلا خيراً » ثم — بعد وقت طال وامتد — نزلت الآيات الكريمة : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . . .[٢] » .

فماذا كان يمنعه — لو كان أمر القرآن إليه — أن يتقوّل هذه العبارات أو الآيات الحاسمة من أول الأمر ، ليحمى بها عرضه ، أو يذبّ بها عن عرينه ، وينفى عن أحب زوجاته قول السوء[٣] ؟

على أن محمدا لم يكتف بهذا وذاك دليلا على كون القرآن من عند الله ، بل راح يعلن على المعاندين تحدّى القرآن لهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ، اقرأ معى هذه الآيات :

---

(١) سورة التحريم الآية الأولى . (٢) سورة النور الآية ١١ وما بعدها .
(٣) المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ص ١٦ .

– أم يقولون تقوّله ، بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين[١] .

– قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[٢] .

– أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثلة مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٣] .

– أم يقولون افتراه ؟ قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين[٤] .

– وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين[٥] .

وهكذا نجد ذلك التحدى متدرِّجا ، يطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، فإذا ظهر عجزهم انتقل التحدى إلى عشر سور ، فإذا عجزوا مرة أخرى تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة ، وفى سور القرآن ما هو سطر واحد ، ولكنهم حتى فى هذا يعجزون . وتحدّى العرب أن يأتوا بسورة قصيرة تحدٌ مهين ، فليس للعرب ثقافة إلا البلاغة ، وثروتهم الفكرية محصورة فى مجال الشعر والنثر والفصاحة والبيان ، فإذا عجزوا فى هذا الميدان رغم التحدى السافر ورغم تعاونهم الذى وجههم إليه القرآن فذلك هو الخزى المبين ، ولكن هيهات أن تصل قوى البشر إلى أن تقف وجها لوجه أمام قوى الله .

مرة أخرى نجدنا لا نستطيع أن نفترض عدم صدق محمد ، ففرض كهذا لا ينتج إلا عن فكر سقيم ونظر كليل .

---

(١) سورة الطور الآية ٣٣ – ٣٤ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٨٨ .
(٣) سورة هود الآية ١٣
(٤) سورة يونس الآية ٣٨ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣ .

ولكن ليس هذا فقط هو كل ما عندنا لإثبات صحة رسالة محمد ، فإن محمداً أثبت لنا بما لا يحتمل ترددا أنه يحمل رسالة نظمتها قوة أسمى من قوى البشر ؛ أتى لنا بأفكار وضّحت لنا ما عجزت الإنسانية عن فهمه عبر القرون فيما يتعلق بما وراء الكون ، وأتى لنا بنظم لشئون دنيانا تكفل لمعتنقيها السعادة فى مختلف الأزمنة والأمكنة .

قال لى زميل بجامعة كمبردج : قدِّم لى الإسلام وأثبت لى أنه رسالة من عند الله .

قلت له : لقد طلبت شيئاً يسيرا ، لو كنت عربيا لوضعت القرآن بين يديك لترى فيه إعجاز نسجه وإعجاز أفكاره ، ولدفعك هذا كما دفع كثيرين من العرب للإيمان برسالة محمد ، ولكن رسالة محمد ليست للعرب فقط ، وفيها براهينها لغير العرب وهاك البيان :

محمد رجل أمى ، لم يعرف القراءة ولا الكتابة « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك »[1] ، وهو قليل الثقافة وبيئته كذلك محدودة الثقافة ، ولكن رجلا كهذا جاء بنظام للميراث عاش أربعة عشر قرنا ولا يزال فى ميعة الصبا ، وعَبَرَ هذا النظامُ حدودَ الجزيرة العربية إلى عدة أقطار ، واصطدم بمدنيات وثقافات ، وقورن بأفكار البشر فى رحلته الطويلة ، ولكنه رجحها ولا يزال يرجحها ، تعال معى نقارنه بالنظام الإنجليزي الذى يعطى الميراث للابن الأكبر ويَدَع مَنْ سواه من الأبناء والبنات ، وتعال نقارنه بالنظام الهولندى الذى يعطى نصف الثروة للزوجة ثم يقسم الباقى بالتساوى بين الأولاد والبنات والزوجة مرة أخرى ، وتعال نقارنه بالنظم التي تعطى البنين وتحرم البنات ، كما كان متبعا لدى كثير من قبائل العرب ولدى السكان بشمالى إفريقية ، وتعال نقارنه ببعض النظم التى تجعل الميراث لابنة الخالة الكبرى وتحرم من سواها ،

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

كبعض الأنحاء بإندونيسيا ، تعال نقارنه بالنظم القديمة والحديثة وسنجده يرجح الجميع دون شك وباعتراف المفكرين المخلصين .

هذه واحدة ، وجاء هذا الرجل الأمى بنظام للزواج ، وبنظام للطلاق ، ونظام للرق ، ونظام للعبادات ، ونظام للسياسة ، ونظام للاقتصاد ، وتنظيم للحرب ، ولِما بعد الحرب من مشكلات ، وتنظيم لغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، وتحدث هذا الرجل عن موضوع اهتزت فيه عقول البشر مدى التاريخ وهو الله وبيَّن من هو الله فى التفكير الإسلامى ، وتحدث هذا الرجل عن ما وراء الكون فجلَّى كثيرا من النقاط (وسنشرح هذه الأشياء كلها أو أهمها فى أمكنتها من هذا الكتاب) .

قلت لمحدثى : تُرى كل هذه الأشياء من صنع محمد أو أنها تعاليم تلقاها عن قوة أسمى من قوة البشر ، عن الله سبحانه وتعالى ؟

وقبل أن يجيب محدثى كان هناك مسلم آخر يصغى باهتمام لما أبديه من شروح وإيضاحات ، وسمعنى هذا بعد هذه الشروح أسأل محدثى السؤال السابق ، فسارع يجيب : إن كانت هذه الأشياء من صنع محمد فمحمد ليس بشرا ، إن هذه التنظيمات وهذه الآراء تعجز عن القيام بها لجان كثيرة لها ثقافات عالية ، وتخصص عميق ، مهما أتيح لها من المراجع والدراسات والوقت .

قلت لمحدثى : ما رأيك ؟

قال فى يقين وثبات : نفس الرأى الذى قاله صديقنا ، وأشهد أن رجلا أيًّا كانت عبقريته ، وأيًّا كانت ثقافته ، ليعجز عن أن يأتى بتنظيم فى مسألة واحدة من هذه المسائل ، فما بالك بكلها مع تنوعها وتلون اتجاهاتها ، واعتنق هذا الزميل الإسلام ، وسمى نفسه محمدا تيمنا بالرجل الذى جاء هذا الخير على يديه ، ولا يزال حتى الآن يزداد حبه للإسلام وإعجابه بنبى الإسلام .

تلك هى دعوة الإسلام ، تضعها فى الميزان فترجح ، تختبرها فتزداد فيها يقينا وبها إعجابا ، وتناقشها بالعقل والمنطق فتساير العقل والمنطق ، وتبحثها بالحكمة والتؤدة فتصل إلى القول الفصل . لقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما قال ، وملأ الفراغ الضخم الذى قال إن دعوته ستشمله ، وقد جاء برسالة من عند ربه ، أبانت لنا كل الشئون ، وضمنت لنا خير الدارين ، فاعتنقناها لا لأن آباءنا سبقونا إليها ، لا ، لا ، بل لأنا درسناها فى عناد أحيانا وتؤدة أحيانا فغلبتنا فى كل حين ، وأبانت لنا أنها جمعت كل ما فى الرسالات السابقة من خير ، وأنها أضافت إليها ما يناسب تقدم البشرية ، وما يضمن للجنس البشرى فى رحلته التى لا يزال يقطعها الاستقرار والسلامة ، إنها رسالة اليسر والبساطة ، تدخلها دون عناء أو طقوس ، وتصلى حيث تكون ، وحدك أو مع جماعة ، إذ جُعِلت الأرض كلها مسجدا للمسلمين ، وليس بين المسلم وربه وسيط يعمِّده ، أو يجيز زواجه أو يتلقى اعترافه ، أو يبيع له جنات الخلد ، إنها رسالة الحرية والسلم ، رسالة العقل والقلب ، رسالة المادة والروح ، رسالة التعاطف والقوانين ، فلنسر معا نبسط أبرز المسائل التى شرحها هذا الدين ، وأتى بها محمد من عند ربه بفصل الخطاب .

الله

ما أظلم الإنسان وأقساه ، كيف يحاول فى ضعفه وجهله أن يتحدث عن الله ؟

ولكن الله رب العالمين الذى أجلّه قوم وعبدوه ، وسجدوا له وأحبوه ، ينكره آخرون ولا يعترفون به ، ولا يدركون آلاءه ، ولا يشهدون بهاءه .

لماذا أنكره هؤلاء ؟

وكيف السبيل لقيادتهم إلى النور وارفع الشكوك من نفوسهم والغشاوة عن قلوبهم ؟

هذا ما سنحاول أن نجليه هنا ، ولكن حديثنا على كل حال لن يكون مقصوراً على من أنكر وشطّ عن الهدى ، بل سنتجه بحديثنا أيضاً إلى قوم وقفوا حيارى ، يطلبون سواء السبيل فلا يصلون إليه ، لأن خبراتهم ومعارفهم لاتصل بهم إلى هذه الغاية ، وسنتجه بحديثنا أيضاً إلى قوم لم ينكروا الله ولكنهم أيضاً لم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ، ثم سنتجه بحديثنا كذلك إلى قوم آمنوا بالله واعترفوا به إيمان تسليم وإذعان ، لعلنا نرفع مستوى ذلك الإيمان ، فنجعله إيمانا عن فكر ودراسة ويقين ، وكم يكون سرورنا بالغا إذا قدمنا بحديثنا هنا للعارف بالله زادا جديدا يقوى به إيمانه ، ويزيده ثقة ويقينا .

وسيشمل حديثنا عن الله جل جلاله ثلاثة مباحث هى : وجوده ووحدانيته ، وصفاته .

وجود الله

نعود للسؤال الذى سألناه من قبل وهو : لماذا لا يعترف كثير من الناس بالله ولا يؤمنون بوجوده ؟

الجواب عن ذلك سهل يسير ، هو أنهم ماديون والله ليس مادة .

والحقيقة أن مادية الإنسان متسلطة عليه ، مسيطرة على قواه ، وكثير من الناس يخضعون لهذه المادية ويرونها فلسفتهم ويبنون تفكيرهم على توجيهها وإرشاداتها ؛ وكثير آخرون يقاومون هذه المادية فى نفوسهم وينعشون بذور الروحانية فيهم ، وهؤلاء درجات متفاوتة . أعتقد أنى لا أظلم الناس لو قلت إن قليلين جداً هم الذين سَمَوْا بروحانيتهم إلى الطبقة العليا .

أيها القارئ ، أيا كان اتجاهك الدينى ، هل تنكر أنك مادى ؟

إن كنت تنكر فإنى أسرد لك من حياتك اليومية صوراً بسيطة ساذجة نمتحن بها ماديتك ورحانيتك :

أنت — أغلب الظن — تستعمل معجون أسنان وفرشاة ، وعند ما تنفد أنبوبة المعجون تذهب تواً لشراء أنبوبة أخرى ، ولكن اسأل نفسك : متى تشترى فرشاة أخرى ؟ إن نصائح أطباء الأسنان تقضى بأن الفرشاة يلزم أن يُستَبدَل بها غيرُها من حين إلى آخر ، لأنها تصبح غير صالحة للاستعمال بعد فترة من الزمن ، وإن كانت لا تزال تحمل الشعرات وتبدو كأنها صالحة . فأنت لا تتأخر عن شراء أنبوبة المعجون يوماً واحداً لأن انتهاء صلاحيتها شىء مادىٌّ ، ولكنك غالباً تؤجل شراء الفرشاة لأن انتهاء صلاحيتها ليس واضح المادية وإن كان لا يخلو منها .

وأنت تمرض جسمانياً فتسارع للطبيب لأن مرض الجسم شىء مادى تحس به ، فإذا أرشدك الطبيب لدواء اتبعت تعليماته بكل دقة ، ولكنك

تمرض نفسياً أمراضاً أشد فتكا من أمراض الجسم وأشأم أثراً ، وتحس بهذه الأمراض وتدرك خطرها عليك وعلى الناس . فهل تسارع لطلب الدواء للخلاص من هذا الداء ؟

هل تحس أنك حسود ؟ أو تكره الناس ؟ أو لا تميل إلى التعاون ؟

وهل تحس بالكبر وعدم أداء الواجب ؟ كل هذه أمراض فتاكة تنزل بالإنسان ، وقلّ من يحاول أن يجد لها العلاج ، وقلّ من يتبع سبل العلاج إن حصلت له ، لماذا ؟ لأن الإنسان مادى يعيش للمادة ولا يهتم كثيراً بالروحانيات .

وأنت تشترى قلم الرصاص وتشترى معه مبراة ، ويصغر القلم رويداً رويداً حتى لا تستطيع أن تمسك به فتلقى به جانباً وتسرع فتشترى قلماً آخر ، ولكنك لا تشترى مبراة أخرى مع أنها فى الحقيقة قد انتهت صلاحيتها للعمل كما انتهت صلاحية القلم ، ولكن انتهاء القلم مادىٌّ فقد صغر وصغر ، أما انتهاء صلاحية المبراة فليس واضح المادية ولذلك تحاول استعمالها مرة أخرى ومرات ، وهى لا تستجيب لك ، وربما أفسدت لك الأقلام ، ولكنك تظل تلح عليها لأنك لا تريد أن تدرك غير المادة .

وأنت أيها المسلم تصلى وتتجه إلى البيت الحرام ، وأنت أيها المسيحى تتجه أيام الآحاد إلى الكنيسة ، ويتجه البوذى والهندوكى وغيرهما إلى المعابد ، ويصلّى كل من هؤلاء صلاته ، يقرأ ويدعو ويركع ويسجد . ولكنى أسألك : هل كنت متجهاً إلى إلهك بقلبك وأنت تصلى ؟

وهل كنت تحس بأنك تكلمه وتعيش معه وتناجيه ؟ أو أنك مادى ينطق لسانك وتتحرك أعضاء جسمك ، وقلبُك فى شغل عن هذه الصلاة ؟

إن كنت تفعل ذلك فأنت تؤدى من الصلاة جانبها المادى وتفقد حلاوة روحانيتها .

وهكذا صور حياة الإنسان ، كلها مادة ، والجانب الروحى فيها ضئيل مغلوب على أمره ، فإذا قيل له شيء عن الله . أسرعت المادية إلى نفسه أو إلى لسانه ، ففكر أو سأل : أين يسكن الله ؟ وما شكله ؟ وما لونه ؟ وأين كان قبل أن توجد السموات والأرض ، أو بعبارة أخرى اتجه بالله اتجاها ماديا ؛ فإذا لم يره بعينه أو لم يمسه بيده ، أنكره ، وربما هاجمه .

قال لى محدثى وهو من هؤلاء — وكنا نتكلم عن الله — لماذا لا يظهر الله للناس ويريهم سلطانه وعظمته ليؤمنوا به وليدينوا له بالطاعة ؟

ودهشت لهذا السؤال ولكنى تمالكت نفسى وبدأت أجيب :

قلت له : إنك لا تؤمن إلا بما ترى ، فهل تؤمن بروحك التى تتسلط على أعضائك لأنك لا ترى هذه الروح ؟ ثم إنك يا محدثى تريده أن يظهر ، وهل اختفى حتى تطلب ظهوره ؟

إنه « الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[١] »

إنه « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٢] » إنه « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم »[٣] إنه الله الذى « لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء »[٤] .

وقلت له : ولكنك يا محدثى إنسان مادىٌّ تريده جسما والله ليس بجسم ، تريده مادة وهيهات أن يكون الله مادة ، ثم يا محدثى الأجلّ كيف تريده

---

(١) سورة الحديد الآية الثالثة .
(٢) سورة غافر الآية ١٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .
(٤) سورة آل عمران الآية ٥ .

أن يظهر ؟ أتريده إنسانا ضخم الجثة ، مهيب الوجه ، يأمر الريح فتهدأ ، والميت فيحيا ، والبحر فيجف ؟ هل يكفيك هذا لتؤمن به ؟ ولكن هل نسيت يا محدثى أن عيسى أحيا الموتى وشفا المجذوم ، وأن البحر جف لما ضربه موسى بالعصا ، ومع هذا فقد ضل أتباع هذا وذاك ؟ فأهمل أتباع موسى إلهه الذى كان يدعو إليه وراحوا يعبدون عجل السامرىّ ، وحكم قوم عيسى عليه بالقتل صلباً ، وعملوا على تنفيذ حكمهم فيه ؟

وإذا جاءك الله بجلاله ودخل بيتك وأقام لك المعجزات لتؤمن به ، فهل تريده أن يطوف بكل الدور فى الدنيا الواسعة وأن يقف بكل منها وقفة يثبت ألوهيته ويقيم عليها الأدلة والبراهين ؟ وما رأيك فى أنه عند ما ينتقل من قرية إلى قرية سيدع فى القرية التى خلّفها ألوانا من الشكوك والريب ، وسيقول قوم : إنه ساحر ، وسيقول آخرون : إنه مفترٍ أثيم ؟

لا يا محدثى ، المسألة أنك مادىٌّ ، عميق الجذور المادية ، والطريق الوحيد لتدرك الله أن تقوى جانبك الروحى والفكرى .

وقال لى محدث آخر : إذا كان الله موجودا وخالقا للخلق وعادلا فلماذا لا ينصر المظلوم ؟

قلت له : إن انتصار الله للمظلوم دليل نتخذه لوجود الله ، ونعتقد أن الظالم لا بُدّ أن يُثْأرَ منه ، وأنه ليس هناك حجاب بين الله ودعوة المظلوم ، ولكنك يا صديقى مادى أيضاً تتصوّر الله شرطيا يهتف به المظلوم فيسعى له الله فى الحال وينزل بظالمه العقاب ، والله ياسيدى ليس شرطيا ، إنه يدبر الأمور بعمق أكثر مما تتصوّر ، وينزل العقاب حينما وكيفما يرى ذلك .

وقد يكون من الحكمة أن يمهل الله الظالم فترة ، حتى إذا تجمّعت ألوان الظلم التى يوقعها بالآخرين أنزل الله به سخطه وعقابه . قال تعالى : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما »[1] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٨ .

وأنت يا محدثى تحدّد المظلوم وتشفق عليه ، مع أنك لا تعرف المظلوم حقيقة ولا تعرف من قصته إلا ما تراه ، ألا يمكن أن يكون مَنْ تراه مظلوما هو فى الحقيقة ظالم ، ولكنه يتظاهر بأنه مظلوم ليخدعك بدمعه أو صراخه ؟

ألا يمكن أن يكون ما يقع عليه من ظلم تراه ، هو فى الحقيقة انتقام لظلم أوقعه هذا الباكى بسواه من قبل وأنت لا تعرف ؟ اقرأ معى هذه الآيات :

— ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض[1] .

— ولكن الله يسلط رسله عن من يشاء[2] .

وتحضرنى قصة عربية ليست بعيدة مما خطر لك يا محدثى الفاضل أسردها لك لترى تدبيرك وتدبير الآخرين : تروى كتب الأدب أنه — فى نقائض جرير والفرزدق — هتف جرير يهدد صاحبه :

ذاك ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئتُ ساقكمُ إلىّ قطينا

وكان الخليفة ابنَ عم جرير حقيقة ، فماذا فعل الخليفة ؟ هل انتصر للشاعر ابن العم ؟ هل خذله ؟ الجواب أن الخليفة قال لابن عمه الشاعر : إنك ما زدت عن أن جعلتنى شرطيا ، ولو قلتَ : لو شاء ساقكم إلىّ قطينا ، لَسُقْتُهُمْ إليك .

هذا هو الخليفة الأموى لم يرض أن يكون شرطيا لابن عمه الشاعر ، فهل تريد الله فى جلاله وجبروته أن يكون شرطيا لمن تراه أو لمن يرى نفسه مظلوما ؟ وتريد الله أن يسرع للظالم ويمسك بتلابيبه ؟ الإجابة مرة أخرى إنك مادىّ ، ومعرفة الله تحتاج إلى جانب روحى لأن الله ليس بمادة .

ومحدث ثالث صرخ فى وجهى ينكر الله ويقول : لو كان هناك إله ما خلق طفلا أعمى أو أخرس أو مشوه الخلقة ، لأن هذا الطفل لا ذنب له فيما وقع به من سوء .

(١) سورة الحج الآية ٤٠ . (٢) سورة الحشر الآية السادسة .

قلت له : يا سيدى إنك مادى تقيس الأمور بمقياس المادة وهو مقياس ضئيل لا يصل بصاحبه إلى غاية محمودة ، اسمع ياسيدى — وكان الحديث يجرى فى انجلترا عقب الحرب العالمية الثانية — ما رأيك فيمن أكلتهم الحرب أو شوهتهم وسلبت عيونهم ؟

قال : لقد ضحوا ليسعد الآخرون .

قلت : ولماذا لاتعتقد أن ألوف الآباء سيحسون بالسعادة وينطقون بالشكر لسلامة أبنائهم عندما يرون الأطفال المشوّهين ؟ ولماذا تنسى أن هذه العاهة قد تكون مصدر خير على صاحبها ؟ والذى لا أشك فيه أن بعض العميان وصلوا إلى مكانة ما كان من الممكن أن يصلوا إليها لو كانوا مبصرين . ولماذا لا تعتقد أنه لولا هذه العاهة لكان من الممكن أن يكون هذا الإنسان مصدر شر وبيل على الإنسانية ؟ ولماذا تنسى الملايين الذين خلقهم الله فأحسن خلقهم ثم تنكر وجوده لهذا الشيء النادر الذى لابد أن يكون لحكمة نستطيع أن ندركها حيناً ، ولا نستطيع أن ندركها حينا آخر ، بسبب اتجاهاتنا المادية وضعف الناحية الروحانية فينا ؟ .

تلك صور من المادة والماديين على أن هؤلاء فى وسط ضلالاتهم وماديتهم يعترفون بالله بفطرتهم ، فالفطرة فى ذاتها سليمة (ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوى على شيء من الشوق الروحانى أو شعور باطن مبهم بأن هناك قوة عليا يتوجه إليها بفطرته)[1] وهذه الفطرة السليمة يتراكم عليها الصدأ فى كثير من الأحوال بسبب الاتجاهات المادية وقلة الثقافة الروحية ، ولكن الفطرة تتغلب على الصدأ أحياناً تحت تأثير منظر رائع ، أو نجاح خارق ، أو هزيمة قوى أمام ضعيف ،

---

(١) مجلة المختار : أكتوبر ١٩٤٤

أو ما شابه ذلك ، فإذا بالوجدان يتيقظ ، وإذا بالفطرة تعود ، وإذا بالإنسان الذى كان ضالا يهتف : يا سبحان الله ، لا قوة إلا بالله .

ومعرفة الله هكذا عن طريق الفطرة والوجدان والضمير معرفة لاتحتاج إلى دليل ، إنها صحوة لهذا الوجدان ، ويقظة للجانب للروحى ، ومن الواضح أن هذا الجانب متفاوت فى الإنسان ، ولذلك فدرجات يقظته تتناسب مع درجات وجوده ، ولكن الجانب الروحى موجود على كل حال . ومن الأسباب التى تزيل الصدأ عن الوجدان وتنعش ما ضعف من الجانب الروحى ، الشدائدُ والكوارثُ التى تنزل بالإنسان ، وكلما كثرت الشدائد وقلّ المعين كلما تساقط الصدأ وبدأ الوجدان يطهر وينشط : اقرأ معى هذه الآيات لا علَى أنها قرآن مجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل على أنها تصوير دقيق للنفس البشرية لا يستطيع أحد جحوده . قال تعالى :

– وإذا مس الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عن ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسّه[(١)] .

– هو الذى يسيِّركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجريْنَ بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين[(٢)] .

– وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه[(٣)] .

– وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون[(٤)] .

---

(١) سورة يونس الآية ١٢
(٢) سورة يونس الآية ٢٢
(٣) سورة الروم الآية ٣٣
(٤) سورة النحل الآية ٥٣

على أن الماديين قد مُنُوا بهزيمة ساحقة قوّضت عليهم البنيان المادى الذى شيدوه ، لقد اتخذوا العالم على أنه مادة ؛ ولادة وحياة ثم موت وفناء ، وإذا بالأبحاث تثبت وجود الروح بعد موت صاحبها وهو اتجاه الإسلام فى شأن الروح وقد قال عنه الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ما يلى : والذى ترشد إليه الآثار الدينية أن الروح تخرج من بدن الإنسان فيكون الموت ، وأنها تبقى ذات إدراك ، تسمع السلام عليها ، وتعرف من يزور قبر صاحبها ، وتدرك لذة النعيم وألم الجحيم ، وأن مقرّها يختلف بعد مفارقة البدن بتفاوت درجاتها عند الله[1]

وقد أجريت تجارب لتحضير الأرواح حضرتُ بعضها بنفسى ، ولست أستطيع أن أنفيها ولا أن أثبتها ، فالنظم التى اتُّبعت فى تحضير الروح أمامى كانت إلى البدائية أقرب ، فلم تصل بى إلى درجة اليقين ، وإن كنت كما قلت لاأستطيع أن أنفيها لأن مظاهر حصلت أمامى لاأعتقد أنها من الخداع أو التُّرّهات . وإذا كان هذا موقفى فإن كثيرين من الباحثين أتيحت لهم فرصٌ أوسع ، شهدوا فيها ما جعلهم يؤكدون أن الروح كائن حى وأنه يمكن الاتصال بها بعد موت صاحبها .

والماديون أكثر حاجة لدراسة هذا الموضوع لعلهم بعد أن يدركوا شأن الروح تنهار المادية المتسلطة عليهم .

وعن طريق الفطرة والوجدان الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى يقودنا إلى الاعتراف بالله دون حاجة إلى دليل أو برهان ، عن هذا الطريق يقول برودون : إنّ ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكتشفه عقولنا ؛

ويقول الأستاذ العقاد[2] : فى رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شيء ، فالإنسان له « وعى » يقينى بوجوده الخاص

---

(١) الفتاوى ص ١٥ (٢) الله ص ٢١١

وحقيقته الذاتيـــة ، ولا يخلو من « وعى » يقينى بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية .

وبجوار هذا الدليل هناك أدلة أخرى نستطيع أن نعتمد عليها للتدليل على وجود الله سبحانه وتعالى ، وهذه الأدلة هى : الدليل العقلى والدليل النقلى والتجربة الشخصية ، وعن كل منها سنتحدث حديثاً خاصا هو — حتى ما يتعلق بالدليل النقلى — إلى الاتجاه العلمى أقرب منه إلى الاتجاه الدينى ، كما سيبدو فيما بعد .

الدليل العقلى :

كثيرون من الناس يطلبون الدليل العقلى على وجود الله ، ولدينا هذا الدليل العقلى الذى عقدنا له هذا الجزء من الحديث ، والحقيقة أن القرآن الكريم — كما سيأتى — حثّ الناس على استعمال عقولهم ليعرفوا الله خلال ذلك ، ولكنا نريد أولاً أن نوضح غرور الناس بعقولهم ، وكيف وصل كثير منهم إلى الهاوية بسبب هذه العقول . وفى المثل الريفى الذى سمعته منذ نعومة الأظفار بقرانا فى الجمهورية العربية المتحدة : « كل واحد راض عن عقله وساخط على جيبه » وهذه حقيقة واضحة ، فأغلب الناس أو كلهم يعتقدون أنهم أذكياء ، وفى غاية الفطنة ، وقلَّما يعترف واحد منهم بقصور عقله أو بتفوق سواه عليه فى القريحة والمواهب . وقد جلب هذا الوضع الشقاء للناس ، أى أنهم تعسوا بعقولهم وكان عليهم أن ينعموا بها ، وسبب تعاستهم بهذه العقول أنهم تعرضوا لأشياء تقصر عقولهم عن الوصول إليها ، تعال معى اختبر عقلك :

أنت ترى بعينيك ، فهل تعرف كيف ترى ؟

وأنت تسمع بأذنيك ، فهل تدرك كيف تسمع ؟

وتحمل فى جسمك آلات من أنواع مختلفة ، بعضها يتبع الدورة الدموية ، وبعضها يتبع الدورة الغذائية . فماذا تعرف عن هذه الآلات ؟

وفى يدك ساعة تدرك بها الوقت ، فهل تعرف كيف تعمل هذه الساعة ؟

وفى بيتك مذياع وجهاز تلفزيون ، فهل تدرك كيف تُلْتَقَطُ الأحاديث والصور وتُنْقَل إليك ؟

وألم يحصل لك أن قرأت كتاباً ثم عجزت عن فهمه أو فهم سطور منه ؟

وألم تشتر مرة قماشاً بعد اختبار واختيار ، ثم تبين لك أن عقلك قد خدعك ، أو ضعف عن حسن الاختيار فأعدْت القماش أو كرهته ؟

وهكذا أستطيع أنا وتستطيع أنت أن نعد مئات الأمثلة عجز فيها عقلك عن فهم أمسّ الأمور به وأسهلها تناولا ، وهى أمور معروفة لكثيرين من الناس ، فطبيب العيون يعرف كيف ترى العين . وطبيب الأذن يعرف كيف تسمع الأذن ، وصانع الساعات يعرف كيف تعمل الساعة ، وهكذا ، فطبيعة هذه الأشياء أن يدركها العقل ، ومع هذا عجزت عقول الأغلبية عن فهمها ، واكتفت هذه الأغلبية بفهم المختصين لهذه الأمور ، فإذا مرضت عين شخص أسرع للطبيب وسلّمه قياده ، وإذا فسد المذياع حملناه إلى المختص وتركناه بين يديه ، ومن أجل هذا أسألك أن تكون كذلك فى ميدان معرفة الله عن طريق العقل ، أى أنك إذا أحسست قصوراً فحذار أن تنكر الله ، ولكن سارع فأعط القيادة ربانها ، واتبع من سبقوك فى المواهب والخبرات .

أما إذا أحسست أن عقلك من الفطنة بحيث يصل إلى هذا المستوى السامى فلابد أن تستعمله ليكون إيمانك أوثق وأعمق ، وقد حثك القرآن

على استعمال عقلك كما سبق القول ، وقدم لك مادة تستطيع خلالها إن كنت موهوباً أن تثبّت يقينك فى الله ، اقرأ هذه الآيات :

— هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآيةً لقوم يتفكرون ، وسخَّرَ لكم الليلَ والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآيةً لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم(١) .

— والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون(٢) .

— والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين(٣) :

ويجدر بنا قبل أن نسترسل فى ذكر آيات أخرى تدفع العقل إلى الاعتراف بجلال الله ومجده أن نعلق تعليقاً سريعاً على هذه الآيات التى توضح أن الله سخّر لنا ذوات قوى كان جديراً بها أن تطغى علينا بما بها

---

(١) سورة النحل الآيات ١٠ — ١٨ .
(٢) سورة الحج الآية ٣٦ .
(٣) سورة الزخرف الآيات ١٢ — ١٣ .

من قوة وجلال وصلابة ، وليتذكر القارئ ضخامة الجبل وعظمة البحر ، وقوة الجمل والثور والحصان ؛ ومع هذا فإن الله قد ذللها لنا فأسكن الجبل والبحر ، وجعل الحيوانات القوية تذل للولد الصغير ، يضربها ويركبها ويحمل عليها ، وما كان البشر بمستطيع ذلك لولا قوة الله التي طمأنت من جبروت هذه الحيوانات وأخضعتها لمصالح الإنسان .

ومن أجل هذا يوضح الله فى الآيات السابقة أنّ على البشر أن يشكروا الله أنْ سخر لهم هذه القوى وما كانوا بدون ذلك بمستطيعين أن يتغلبوا عليها وينتفعوا بها ، ولا يزال الإنسان من حين إلى آخر يرى البحر يثور ، والجبال تهتز ، والحيوان يشرد ويتمرد ، ويقف الإنسان ضئيلا أمام هذه القوى ، ويبدو على حقيقته من الخور والضعف حتى يأتيه عون الله فيعيد هذه الكائنات إلى الخضوع والاستكانة ، ويعيد للإنسان القدرة على السيطرة عليها ، وما كانت هذه الثورة العارضة إلا تذكيراً للإنسان بحقيقة قواه وحقيقة القوى المسخَّرة له .

– وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونُفضِّل بعضها على بعض فى الأكُل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون(١) .

– أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير(٢) .

– ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم(٣) .

ويقول أستاذنا الإمام محمد عبده : وللإسلام دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد صلى الله

---

(١) سورة الرعد الآية ٤ (٢) سورة الملك الآية ١٩ .

(٣) سورة الروم الآية ٢٢ .

عليه وسلم ، فأما الدعوة الأولى فلم يعوّل فيها إلا على تنبيه العقل البشرى ، وتوجيه النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ، ليصل بذلك إلى أنّ للكون صانعا ، واجب الوجود عالماً حكيما قادراً[1] .

وقد حصلت لى تجربة خاصة فى التدليل على وجود الله ، سأقصها هنا كما حدثت مع شيء من الإيجاز بقدر الطاقة .

كنت فى زيارة رسمية لأحد أقاليم إندونيسيا حيث أمضيت عشرة أيام ، وقد نظم لى مكتب الوزارة عدة اجتماعات خاصة وعامة لإلقاء محاضرات على المدرسين والهيئات والجماهير ، وفى ذلك الإقليم كانت هناك رابطة للذين تلقوا علومهم فى الغرب ، أو اتجهوا بأفكارهم إلى الثقافة الغربية ، وخلال الأيام الأولى لزيارتى لم يهتم أفراد هذه الرابطة بمحاضراتى ولم ينضموا للجماهير الغفيرة التى كانت تحضرها ، وحجتهم فى مقاطعة هذه المحاضرات اعتقادهم أن المحاضر يتحدث عن الدين كما تعود كثير من الشيوخ أن يفعلوا ؛ يرغّبون فى طاعة الله ويحثون على العبادة وهكذا ، ومستوى مثل هذه المحاضرات التى تخيلوها لم يكن يناسب ثقافتهم ومعارفهم .

غير أن هؤلاء المثقفين عرفوا بعد أيام من زيارتى أن الأحاديث التى كنت ألقيها عالية المستوى كما قالوا لى فيما بعد ، وقد أغراهم ذلك بالاتصال بى ، فأرسلوا لى مندوباً عنهم يسألنى عما إذا كنت مستعداً أن ألقى محاضرة بناديهم تكون عبارة عن إجابات لشكوك دينية أصبحت لديهم حقائق أو عقائد ، وأجبت على الفور بالقبول ، وكانت ليلة طويلة حضرها هؤلاء المثقفون وجماعات غفيرة من سواهم ليروا هذا اللقاء وينظروا نتائجه .

---

(١) رسالة التوحيد ص ٥٢ .

وقدمنى رئيس الرابطة تقديماً رائعاً كله تقدير واحترام ، وشكرتُ فأطنبت ، ثم بدأت أتكلم ، ورغبةً فى تشجيع المتشككين ليُظْهِرُوا شكوكهم ، ذكرت أنني شخصياً مرّت علىّ فى حياتى بعض صور من الشكوك والغموض ، وربما مرت هذه الصور أو شطر منها بمن هو أرقى منا درجة فى المعرفة ، فالقرآن يحدثنا عن إبراهيم وكيف سأل ربه : ربِّ أرنى كيف تحيي الموتى . قال : أوَلم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي[1] . وكيف سأل موسى ربه : رب أرنى أنظر إليك[2] .

وانطلق القوم بعد ذلك يسألون ، وانطلقتُ أجيب : ومن إسناد الفضل لمانحِه أن أقرر أن عونا ضخما جاءنى من الله ، وأن فيضا من عرفانه طاف بى وأمدّنى ذلك المساء ، والذى يهمنا هنا من ذلك الموضوع أنّ من بين الأسئلة سؤالا أثاره واحد منهم ، وكان تعبيراً عما يدور بخلد الجميع ، قال :

ـ أنا أنكر أن للكون إلهاً ، وأعتقد أن الناس عمل الطبيعة ، وُلِدوا وعاشوا ثم يموتون ، فهل عندك دليل واضح على وجود الله ؟

وأجبته فى حزم ويقين : إن عندي من الأدلة ما يجعل اللبيب يرى الله ويوقن به أكثر من يقينه أنه إنسان ، ولكن السؤال الذى يهمنى هو : هل أنت جاهل تريد تتعلم أو جاحد تريد أن تناقش وتناضل وتردّ كل دليل يلقى إليك دون فكر ولا روية ؟ إن كنت جاهلا فأنا قمين أن أعلمك ، وإن كنت جاحداً فلست أستطيع لك الهداية ، فلْتبق بعيداً عن الله ولْيبق بعيداً عنك هدى الله ، ولن يضيره شىء أن تنكره .

قال : أنا جاهل أريد أن أتعلم .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣ .

قلت : جميل ، ولكن لتدرك وليدرك معك أصحابنا الجالسون معنا أن المرض الذى ألمَّ بك مرض خطير ، وأنَّ علاجه يحتاج إلى وقت ليس بالقصير ، فلنصطنع الصبر ، وأنا كفيل بالنتيجة هذا المساء .

ما الدواء الذى قدمته للحاضرين ؟ إنه نقاط مما ورد ويرد ذكره فى هذا البحث ولكنى اعتمدت أكثر الاعتماد على آية من الآيات السابقة التى ساقها الله جل جلاله دليلا على وجوده وعظمته ، تلك هى قوله تعالى : ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم(١) .

قلت للحاضرين وفى قمتهم أعضاء هذه الرابطة : هل فيكم مهندسون متخصصون فى العمارة ؟ فأشار خمسة منهم بالإيجاب ، فأعطيت كلا من الخمسة ورقة ، وقلت لهم إن عندى قطعة أرض طولها ثلاثون متراً وعرضها عشرون ، وأودُّ أن أقيم بها مسكناً لى ، أمامه حديقة صغيرة ، فأرجو أن يعمل كل منكم تخطيطاً تقريبياً لهذا المنزل ، وفكر الجميع وخططوا ، وبعد فترة قدموا لى نتائج عملهم ، فنظرت فيها وقلت : آسف ، لا تعجبنى هذه الاقتراحات ؛ فأرجو أن تحاولوا مرة أخرى : وحاولوا مرة أخرى ، ثم مرة ثالثة ، وعرضتُ هذه الاقتراحات على الحاضرين فظهر أن بعضها مكرر مرة أو أكثر من مرة ، وسألت ماذا لو طلبت منكم أن تعملوا عشرة رسوم أو عشرين ؟ فأجاب أحدهم : إن التكرار سيوجد قطعاً ويزيد ، وستتقارب رسوم أخرى إلى درجة كبيرة . قلت : قارنوا هذا بخلق الله ، الذى خلق ملايين البشر ، واستطاع فى هذه المساحة الصغيرة التى هى الوجه أن يميز بين هذه الملايين بحيث لم تختلط ولم يكرر فيها قط ، بل جعل فى كل منها شيئاً ليس فى الآخرين ، يتميَّز به كل إنسان عن الباقين ، وكما فعل الله تعالى فى الأشكال فعل فى الأصوات ،

(١) سورة الروم الآية ٢٢ .

فملايين الناس يتكلمون اللغة العربية ، وملايين يتكلمون الإندونيسية ، ومئات الملايين يتكلمون الإنجليزية ، وهكذا ، ولكن الله جعل لكل إنسان بحّةً خاصة وصوتاً معيناً ، بحث لا تختلط هذه البحة ولا ذلك الصوت بشخص آخر ، فإذا سمعنا صوتاً أَلِفْناه ، عرفنا صاحبه قبل أن نراه ، ولا نستطيع أن نقول : إن هذا صوته غليظ وذلك صوته أجَشُّ ، لا ، ولكنَّ هناك شيئاً ميَّز الله به بين الأصوات ، وذلك الشيء لا ندرى كنهه ، ولكنه موجود على كل حال ، وبه نفرق بين أصوات الناس كما فرقنا من قبل بين أشكالهم .

ومثل هذا يقال عن اختلاف الخطوط واختلاف البصمات ، فلكل إنسان طابع خاص فى خطه ، فلا تكاد ترى خطاً أليفاً لك حتى تعرف كاتبه .

أما البصمات ، فقد أثبتت كل الأبحاث العلمية أنها تختلف اختلافاً واضحاً من شخص إلى آخر ، وأصبحت فى الأبحاث الجنائية عظيمة القيمة ، لهذا السبب .

ولو قارنا هذا بما يصنعه الإنسان لوجدنا البون شاسعا ، فالأبواب فى العمارة الواحدة متماثلة تماما ، والسيارات أو الأسِرَّة أو المراوح الكهربائية التى تنتجها شركة معينة ، متماثلة تماماً ممـا يبرز الفرق بين صنع الله وصنع الإنسان .

وانتهت هذه الجلسة بعد سهرة طويلة ، قدمت فيها ما عرفتُ مما ذكرت ومما سأذكر ، وخرج هؤلاء المثقفون وهم أقرب إلى اليقين ، أو قُلْ : وهم ينعمون بحلاوة اليقين إلا من طَمَسَ الله على قلبه ، وأعتقدُ أنهم كانوا قلائل .

وهناك محادثة مماثلة جرت بين سقراط وبين أريستوديم الذى ينكر

الألوهية ، وسأقتبس موجزاً لهذه المحادثة من الأستاذ محمد فريد وجدى[1] :

سقراط : أيوجد رجال تعجب بمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أريستوديم : نعم ، أعجب فى الشعر القصصى بهومير ، وفى التصوير بزوكسيس ، وفى صناعة التماثيل ببوليكتيت .

سقراط : أى الصناع أولى بالإعجاب ، الذى يخلق صوراً بلا عقل ولا حراك أم الذى يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

أريستوديم : طبعاً الذى يبدع الكائنات المتمتعة بالعقل والحياة ، إذا لم تكن تلك من نتائج الاتفاق ؟

سقراط : وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تُعْطَى الأعضاء لمقاصد وغايات خاصة ؟ عين ترى ، وأذن تسمع ، وأنف يشم ، ولسان يتذوق ، والعين تحاط بحراسة لحساسيتها وضعفها ، فتقفل عند النوم أو عند الحاجة ، وتُحْرَس بالرموش والحواجب ، ويجعل للأذن جهاز خارجىٌّ يجمع لها الصوت ، هل يمكن أن يكون كل ذلك من نتائج الاتفاق ؟ والميل المودع فى النفوس للتناسل ، والحنان المخلوق فى قلوب الأمهات بالنسبة للأولاد ، مع ندرة أن ينفع ولد أباه أو أمه ، والطفل الذى يُلْهَم الرضاعة بمجرد ولادته . . . هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟

أريستوديم : لا ، إن ذلك يدل على الإبداع وعلى أن الخالق عظيم يحب الكائن الحى ، ولكن لماذا لا نرى الخالق ؟

---

(١) دائرة المعارف مادة إله ج ١ ص ٤٨٦ — ٤٨٨ .

سقراط : وأنت أيضاً لاترى روحك التى تتسلط على أعضائك فهل معنى هذا أن تقول إن أفعالك صادرة عن اتفاق وبدون إدراك ؟

وانتهت هذه المحادثة بإيمان أريستوديم .

ويقول الأستاذ مومنيه : إذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل أن الكون خُلِقَ اتفاقا بلا فاعل مريد مختار ، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل ؛ فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكوِّن كائنا آخر مماثلا له تماماً فى الشكل الظاهرى ، ومباينا له فى التركيب الداخلى وهو المرأة بقصد عمارية الأرض بالناس وإدامة النسل فيها[1] ؟

ويقول المشير أحمد عزت[2] : إن النظام المحيِّر للعقول ، المشاهَدَ فى حركات الأجرام التى تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يحمل على التصادف . . . وما الشىء الذى ندعوه التصادف إلا نتائج القوة الغيبية التى تحيط بنا ، فلابد من الاعتراف بوجود سبب أصلى عام منظِّم لهذا النظام الدقيق .

والقرآن الكريم يتحدث عن المقاييس الدقيقة التى وضعت لهذه المجموعة الشمسية ، قال تعالى :

— والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدَّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم[3] .

— والشمس والقمر بحسبان[4] .

---

(١) دائرة المعارف مادة إله جـ ١ ص ٤٨٦ . (٢) الدين والعلم ص ٢١ .
(٣) سورة يس الآيتان ٣٨ — ٣٩ (٤) سورة الرحمن الآية ٥ .

ويعلق مولانا محمد على علّى هذه الآيات بقوله : إن العالم يسير وفق نظام محدّد ، وبتدبير محكم ، وكل كوكب فيه يسير فى طريقه المرسوم[1] .

بقى أن نقول إنه غير معقول إطلاقاً أن تسير آلة أيا كان نوعها وأيا كانت جودتها دون أن يكون هناك من يراقبها ويلاحظ سيرها ، وأية آلة تشبه هذا الكون الواسع البديع بما فيه من نظم وترتيب ؟ والذى يدل عليه العقل السليم أنّ عين الله لو غفلت لحظة عن هذا الكون لاختلّت نظمه واضطرب سيره ، ولكنه جل شأنه « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم »[2] .

ولما كانت نظم الكون واضحة الدلالة على وجود الله ، ولما كان الإنسان بما فيه من حواس ومواهب من أكبر الأدلة على الخالق الأعلى ، كان أولئك الباحثون فى الكون ونظمه ، وفى الإنسان وخلقه ، مِنْ أسبق الناس لمعرفة الله والإيمان به ، لأنهم أكثر عمقا فى بحوث الكون والإنسان ، ولأنهم لايقفون على هامش الحياة ، بل تدفعهم أبحاثهم ليقفوا وجها لوجه أمام المعجزات الكبرى التى يخرُّون لها سجداً ، معترفين اعترافا كاملا بالخالق العظيم ، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء[3]

وقد نشر الدكتور دينرت Dennert الألمانى بحثا حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء بقصد أن يعرف عقائدهم ، فتبين له من دراسة ٢٩٠ عالماً أنهم بالنسبة للعقيدة الدينية كما يلى :

---

(١) The Religiou of Islam Vol I P. 78

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٥

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨

٢٤٢ من هؤلاء أعلنوا إيمانهم الكامل بالله .

٢٨ لم يصلوا إلى عقيدة .

٢٠ لم يهتموا بالتفكير الديني[1] .

وهكذا نجد أغلبية ساحقة تزيد عن ٩٠٪ يعلنون إيمانهم بالله عن طريق أبحاثهم العلمية ، ونجد مَنْ سواهم لايزالون فى تردد أو لم يهتموا بالعقيدة الدينية فى أبحاثهم ، وأغلب الظن أن المترددين سيصلون يوماً ، وأن الآخرين الذين لم يهدهم العلم لساحة الله يعانون نقصا او تخلصوا منه لـوَصَلوا .

ونختم هذا البحث عن الدليل العقلى على وجود الله بأقوال بعض مشاهير العلماء والفلاسفة .

يقول هرشل العالم الفلكى الإنجليزى : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لا حدّ لقدرته ولا نهاية ، فالجيولوچيون والرياضيون والفلكيون والطبيعون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده[2] .

ويقول الدكتور وتز الكيماوى الفرنسى : إذا أحسستُ فى حين من الأحيان أن عقيدتى قد تزعزعت وجّهت وجهى إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها[3] .

ويقول فولتير ساخراً : لماذا تشككون فى الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى وسرقنى خادمى .

---

(١) نقلا عن مجلة الأزهر المجلد ١٩

(٢) دائرة معارف وجدى مادة إله جـ ١ ص ٥٠٣

(٣) مجلة الأزهر المجلد ١٩ .

الدليل النقلى :(*)

حفَلَ القرآن الكريم بآيات كثيرة تتحدث عن الله ؛ عن وجوده ووحدانيته وصفاته ، وقد كانت السور المكيّة واسعة الاهتمام بالحديث عن الله وإظهار جلاله وكماله ، ولنأخذ سورة واحدة منها نموذجاً لذلك ، قال تعالى فى سورة الأنعام :

— الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون ، وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون(١) .

— إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنّى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌّ ومستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلْعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون(٢) .

(*) أوردنا عند الكلام على الدليل العقلى آيات من القرآن ، وكان الاستشهاد بها من ناحية أنها تحث العقل على التفكير فى الله وصنعه ، فكانت بذلك جزءا من التدليل بالعقل على وجود الله . وهذا يختلف عن الاستشهاد بالآيات هنا كما سنرى .

(١) سورة الأنعام الآيات ١ — ٤ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ٩٥ — ٩٩ .

وهناك آية أخرى فيها وعد وفيها قوة يجدر بنا أن نوردها هنا ، وهي قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانِ ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »(١) :

ولا شك أن الدليل النقلى له احترامه وإجلاله عند المؤمنين ، ولكنا نريد مع هذا أن نستدلّ به بطريق آخر ، فقد سبق أن تحدثنا عن محمد ، وعن الأدلة التى أثبتت نبوته ، ووضحنا أن منها الملموس المحسوس الذى لا يتطرق إليه شك عند المنصفين ، كأن يأتى وهو رجل أمى بهذه النظم الخالدة فى الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها ، وكأن يقول : إنى آخر الأنبياء ، ثم تمر القرون تلو القرون دون أن يجىء نبى بعده ، فإذا صدقنا دعوة محمد بعد هذا البحث وتلك الدراسة ، وآمنا أن محمداً رسول الله بلا شك ، كان على العاقل — فيما أرى — أن يؤمن بما جاء به محمد ما اتضح له وما لم يتضح ، ما دام قد آمن بصدق محمد ، فإذا قَصُرَ فكرُه عن فهم الإسراء والمعراج مثلا فليؤمن بهذه الحادثة إيمان يقين ، تصديقاً لمحمد الذى آمن برسالته بعد تمحيص وبحث ، وإذا قصر فكره عن سبب ركعات الصلوات ، فليقبل ذلك قبول إيمان من الرسول الذى صدّق به واعتنق الدعوة التى جاء بها ، وإذا قصر فكره وخياله عن واهب الوجود الفرد الصمد ، فليؤمن به إيمان يقين لأن القرآن المعجز تحدث عنه ، ولأن محمداً الذى صدقناه والذى هو أكثر منا صفاء وأسمى مكانة حدثنا عنه وعلّمنا جلاله وجبروته ، والاعترافُ بالله أسمى ما جاء به الأنبياء .

أما إذا ظل الإنسان بعد إيمانه يبحث فى مواضع الشُّبَه ، وكان عقله قاصراً عن فهمها فإنه يوشك أن يزلّ ، وهذا يسبب لعقيدته الاهتزاز لتعرضها لأحداث أسمى من مستواه .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦

تعال بنا نقارن ذلك بحياة الإنسان ؛ إذا كنت مثلا تريد أن تذهب إلى طبيب فإن لك أن تبحث عن طبيب ماهر ، وتسأل الناس عنه ، وتتأكد من مقدرته وإجادته لفنّه ، فإذا تمّ لك اختياره وذهبت إليه ، فليس لك أن تسأله عن الدواء الذى سيصفه إليك ومناسبته للمرض ، والعناصر التى يتكون منها ، ونسبة هذه العناصر فيه ، ولو ذهبت تسأله عن ذلك لضاق بك ولما استطعت أن تفهم ما يقول .

وإذا كنت تريد أن تتزوج فإن من حقك أن تبحث صفات المرأة التى ستتزوجها ، ابحث جمالها وخلقها ودينها وكل مطالبك فيها ، فإذا كانت نتيجة البحث اطمئنانك ورضاك وتمّ بذلك الزواج ، فهل من الخير بعد ذلك أن تستمر فى البحث والاختيار ؟ وهل تقبل زوجتُك أن تَمْتَحِنَ دائماً عفتها وشرفها ؟ أغلب الظن أنها لن تقبل ، وأن هذا سيسبب اهتزازاً للحياة الزوجية ، فانعدام الثقة يعتبر بدء النهاية .

وكذلك الحال إذا أردت أن تشترى سيارة أو بيتاً ، لك أن تختبر وتبحث فإذا استقر رأيك على الشراء واشتريت ، فلا تواصل بحثك وإنما عليك أن تدبّر أمرك وأن تنظّم لنفسك حياة استقرار ودعة .

وقد قلت فى كتابى : « تاريخ التربية الإسلامية » عند الحديث عن الإجازات العلمية(١) ، إنه منذ مئات السنين كان على من يريد أن يعمل مدرساً أن يعلن ذلك ، ويحدد اليوم الذى سيبدأ فيه إلقاء دروسه ، وكان الطلاب يجتمعون إليه ويُعِدُّون له الأسئلة المعقدة ، ويجرى حوار بينه وبينهم ، فإن استطاع أن يشرح لهم ما أرادوه ثبتت قدمه ، واعتبر ذلك إجازة له ليشتغل بالتدريس حتى ولو أخطأ بعد ذلك ، أما إذا عجز عن الإجابة فإنه يقوم معهم ويلتحق مرة أخرى بإحدى حلقات الشيوخ ، ومن

---

(١) انظر هذا الفصل ص ٣٥٤ وما بعدها .

الزمن وأصبحت هناك امتحانات وإجازات دراسية ، ولكن الطلاب لايزالون حتى اليوم يسيرون على نهج السابقين تقريبا ، فإننى أذكر أنه كلما دخلتُ جامعة لأعلِّم فيها لأول مرة ، تنهال علىّ أسئلة الطلاب وأرى فى عيونهم التحفز ومحاولة التعجيز ، فإذا أقنعتهم بكفاءتى ووضحت لهم ما غمض عليهم سَلِسُوا لى وألقوا إلىّ الزمام .

والخلاصة أنك إذا قبلتَ الإسلام دينا ، وارتضيتَ محمداً رسولا ، كان عليك أن تعتقد بما جاء به ، حتى بتلك النقاط التى لم يتضح لك كُنْهُهَا وتظهر لك أسبابها ، والقرآن الكريم هو قمة ما جاء به محمد ، فليكن نورا نهتدى به ، وشعاعاً يبين لنا الطريق .

التجربة الشخصية :

هناك طريق آخر لمعرفة الله ، وللإيمان بأن للعالم خالقا يدبِّره وينظمه ، وذلك الطريق هو التجربة الشخصية ، وطريق التجربة الشخصية طويل ، يحتاج إلى شيء من الدقة والصبر ، ولكنه يؤدى إلى غاية دقيقة لا تحتمل الشك ولا التردد ، وقد قال بهذا الطريق بعض مشاهير العلماء وفى قمتهم الإمامُ الغزالى ، ولا يقصدون أن يقدموا لك دليلا على وجود الله وصفاته ، بل أن يصفوا لك طريقاً لتجد أنت خلاله الدليل ، وحينئذ لا تجادل ولا تناضل .

والتجربة الشخصية يمكن أن يقوم بها شخص واحد ، ويمكن أن تقوم بها نخبة محدودة من الأصدقاء ، وفحواها أن يُثْبِتَ الإنسان أدقّ الأحداث التى تمر به أو تحدث أمامه ، ويؤكد القائلون بهذا الرأى أنه بعد فترة ليست طويلة ستجد ألاّ مناص لك من الإيمان بالله والاعتراف به ، فستدرك أن الأحداث التى مرت بك ليست من المصادفات إطلاقاً ، وإنما هى ترتيب محكمٌ دبَّره صانع حكيم .

وليس لدىَّ ما أقوله أكثر من هذا عن طريق التجربة الشخصية ، لأن هذا الطريق متروك لك أنت ، وبمقدار صفاء نفسك ورغبتك فى المعرفة ، وبمقدار الدقة وبُعد النظر فى فهم التجارب التى تمر بك ، بمقدار ذلك ستكون النتيجة سريعة أو بطيئة .

لقد اتبعت أنا نفسى هذه الطريقة وعرفت بها الله معرفة يقين لا يعرف الشك ، هل تريدنى أن أقص عليك بعض تجاربى فى هذا المجال ؟ سأفعل ، ولكن لا لأدفعك بها إلى الإيمان ، بل لأذكر لك أنها دعمت إيمانى وزادتنى يقينا ولأذكر لك كذلك أن هذه نماذج لتجارب قد تواجه أنت أقوى منها :

فى قرانا بريف الجمهورية العربية المتحدة تزوج شاب قليل الثقافة يشتغل بالزراعة من إحدى فتيات القرية ، وكان عمرهما متقارباً يزيد الشاب عن العشرين قليلا وتنقص الفتاة عن العشرين سنةً أو سنتين ، وحملت الفتاة بعد الزواج بسرعة كعادة أغلب الريفيات حيث لا تعرف وسائل تأجيل الحمل أو التحكم فيه ، وبعد انتهاء مدة الحمل ولدت طفلين ، ومرت فترة قصيرة حملت بعدها أيضاً ثم وضعت طفلين كذلك ، ومعنى ذلك أنه فى أقل من سنتين أصبح فى البيت أربعة أطفال ، وسرعان ما حملت للمرة الثالثة ، فاستشاط زوجها غضباً ، وخاف أن تلد طفلين للمرة الثالثة فتجعل فى بيته الصغير ستة أطفال فى مدة وجيزة ، وهو رجل رقيق الحال ، وأقسم وهو فى ثورة غضبه أنها طالق إذا ولدت هذه المرة طفلين أيضا ، وبكت المرأة ، وسخر الناس ، وتمت أشهر الحمل فولدت المرأة . . . ولدت ثلاثةَ أطفال ، ومعنى ذلك أن يمين الطلاق لا يقع لأنه أقسم على اثنين فجاء ثلاثة ، ثم كيف يتحدى الخالق ؟ لتكن الهزيمة عليه ، ولكن هذا الرجل

صدمته هذه التجربة فاستغفر الله وتاب ، وأغدق الله عليه من الرزق ، والعجيب أن المرأة توقفت عن الحمل والولادة بعد ذلك ، كأنما أخرجت كل ما كان فى رحمها وفرغت من الحمل والولادة .

هذه تجربة ، وإليك تجربة أخرى :

فى أسرة غنية حملت سيدة من سيدات الطبقة العليا ، وولدت طفلا ذكراً جميلا ، ولكن بإحدى يديه إصبع زائدة ، ولما اغتمَّت الأم لذلك هدَّءوا روعها واستدعوا أمهر الأطباء حيث قطعوا تلك الإصبع ، ومرَّ الزمن وحملت السيدة مرة أخرى وولدت ، ولكن طفلها هذه المرة كان بإحدى يديه أربع أصابع فقط ! ! ! يالله كأنَّ هتافا يصيح بهم : إذا كنتم استطعتم أن تقطعوا الإصبع الزائدة بسرعة فهل تستطيعون أن تضيفوا الإصبع الناقصة ؟

وإليك تجربة ثالثة :

كان عمدةٌ من عمد الريف بالجمهورية العربية المتحدة ، وكان كأغلب العمد يفتح بيته لجلسات الريف حيث يتحاكم المتنازعون وتُفَضُّ المنازعات ، واشتهر الرجل بحب التوفيق بين الناس فكان يُسْتَدْعى لمثل هذه الجلسات بالقرى المجاورة ، أو كانت منازعات تلك القرى تأتى إليه .

وكان لهذا العمدة ابن تدرج فى التعليم حتى دخل كلية الحقوق ثم تخرج منها واشتغل بالمحاماة ، وكانت هذه الحادثة نقطة تحول فى تاريخ الرجل ، فلم يعد الرجل يحب فض المنازعات بل ربما أثار الخصومات ، وكان يقصد بذلك أن يدفع لابنه المال عن طريق القضايا التى أصبحت ترسل للمحاكم ، بعد أن كانت لا تتجاوز دوَّار العمدة المسكين .

ولكن الرجل لم يفرح بابنه ولم يدفع له الثراء ، وإنما جلب على ابنه سخط الناس ، فذبل الابن وسقط مريضاً ، وأنفق الرجل على ابنه أضعاف ما دفع إليه من مال .

وتجربة رابعة :

أحد باشوات العهد الماضى بالجمهورية العربية المتحدة كان يبعث بابنه إلى المدارس ، وكان الابن يركب السيارة الفاخرة كل يوم فى ذهابه وغدوه ، وكان للباشا طباخ أسمر اللون له ابن فى عمر ابن الباشا ، تقريبا ، وقد التحق ابن الطباخ بالمدارس الأولية فأظهر استعدادا طيبا ، ثم ألحقه أبوه بالمدارس الابتدائية ، ولكن الباشا صاح فى وجهه : إذا كان ابنك يريد أن يتعلم فمن سيكون طباخ ابنى ؟ وأوشك الطباخ أن يخضع لرغبة الباشا ، وما كان له إلاّ أن يفعل ، ورسم لابنه أن يتعلم الطبخ ليصبح طباخ ابن الباشا فى المستقبل ، ولكن الولد كان يقرأ فى غفلة من الباشا ومن ابن الباشا ، وكان يستعمل كتب ابن الباشا ، وشجّعه على ذلك مدرس صغير لمح ذكاءه ، وتقدم ابن الطباخ للشهادة الابتدائية من الخارج فحصل على مجموع كبير يضمن له المجانية فى التعليم الثانوى ، وتمرّد ابن الطباخ على أبيه وأصر على أن يتعلم ، وهجر بيت الباشا إلى بيوت أخواله والتحق بالمدرسة ، وعانى ابن الطباخ حياة مُرّة فقيرة ولكنه صبر ، وكان يكتفى بمصباح ضئيل يستذكر عليه دروسه ، وأتم دراسة الجامعية وكان أول الناجحين فأرسلته الجامعة مبعوثاً على نفقتها للحصول على الدكتوراه فى الخارج .

وبدأ الحظ يلمع لابن الطباخ وعاد دكتورا فى الهندسة ، وفُتِحَ أمامه الباب ، وبدأ يكوّن ثروة ليست بعيدة عن منطقة نفوذ الباشا ، وجاء العهد الجديد لمصر ، وألغيت الألقاب وحددت الملكية ، واضطر الباشا

أن يبيع من أملاكه ما زاد عن القدر المسموح به . فاشترى ابن الطباخ أو الدكتور المهندس بعض هذه الأطيان ، ثم مات الباشا واقتسم أبناؤه ثروته فأصبحوا إلى الفقر أقرب منهم إلى الغنى ، وأصبح للدكتور مكانة أسمى وعدد من الطباخين ، ولكنه لم يخطر بباله قط أن يعتقد أن ابن الطباخ لا بد أن يكون طباخاً لابنه ، لأنه انتفع بالدرس الذى عاش فيه وعاناه .

وتجربة خامسة :

تزوج شاب متوسط الثقافة والثراء من فتاة أحلامه ، وبعد فترة رزق منها بطفلة سمحة كانت مبعث سرور أبويها ، ثم حملت الزوجة مرة أخرى ووضعت طفلة ، ولم يحسن الأب استقبال الطفلة الثانية فقد كان يتمنى أن يرزق طفلا ، وحملت المرأة للمرة الثالثة ووضعت طفلة كذلك ، وهنا أظهر الرجل من سخطه ما كان قد كتمه فى المرة السابقة ، ولم يرض بقضاء الله ، وربما أهمل بعض مطالب الفتيات الصغيرات ، وأصبح شغفُه بابنٍ حديثَ الناس ، وحملت المرأة للمرة الرابعة ، وأخذ قلبها يدق ويضطرب ، وأخذت الهواجس تلعب بنفس الرجل الذى نفد صبره ، ووضعت المرأة ذكراً هذه المرة ، وقامت الزينات ودقت الطبول ، واتجهت كل العناية للطفل الذكر ، وفى غمرة الفرح اكتشف الطبيب أن خلق الطفل ليس سويا ، وأن بإحدى رجليه عرجاً واضحاً . . . ومرت سنون رأى الأب فيها ابنه مصدر شقاء له ومبعث ألم لانحراف صحته وعدم استواء عوده ، أما الفتيات فكان مرور الأيام يزيدهن روعة وجمالا ، وكن لأبيهن مصدر اليمن والسعادة والنعيم .

وتجربة سادسة :

شاب فى مقتبل العمر ، تزوج فتاة أحلامه ، وكان يعمل مدرساً ،

وكانت زوجته تشتغل أيضاً بالتدريس ، وأنجبا طفلا فرِحا به أشد الفرح ؛ ولكن سرعان ما أحسَّا بالعناء الشديد لصعوبة الجمع بين رعايته وبين عمل أمه ، وكان يمرض أحيانا ، أو كانت الخادم تتغيب أو تنقطع ، فيضطر الأب أو الأم للتخلف عن العمل ، أو يتركان الطفل فى رعاية بعض الأقارب أو الأصدقاء ، وفكر الزوجان فى أن تتوقف الأم عن العمل ، ولكن ظروفهما الاقتصادية كانت ترغمهما على طرح هذه الفكرة .

وفوجئ الزوجان بأعراض الحمل تظهر على الزوجة ، وجُنَّ جنونهما ، فقد ناءا بطفل ، فكيف باثنين ، وأسرعا لطبيب ايساعدهما على التخلص من الجنين ، ولكن الطبيب رفض أن يقوم بإسقاط الحمل ، وإزاء ضغطهما نصحهما بأن تَجْرِىَ الزوجة وتقوم ببعض الجهد الجسمانى ليتم الإجهاض ، وقبل الزوجان نصيحة الطبيب ، وراحا يصعدان الهرم ويهبطان ، وجريا شوطاً بعيداً ، ثم عادا إلى البيت ينتظران التخلص من الحمل ، وفى البيت اصطدما بعاصفة مريرة ، فقد وجدا طفلهما قد فارق الحياة إثر سقطة من فوق سلم كان يصعده فى غفلة من الخادم .

ولم يضع الزوجان وقتا فى النحيب ، بل سارعا للطبيب الذى كانا عنده منذ ساعات يطلبان عونه — هذه المرة — ليوقف الإجهاض ، ومرة أخرى قال الطبيب : لاأستطيع ، وليس إلا الله يستطيع عونكما ، وانطلق دعاء الزوجين أن يرفق الله بهما ، فاستجاب الله للدعاء ورعا الجنين الذى أصبح أملا لهما ، وكان منذ ساعات شرًّا يحاولان التخلص منه .

تلك نماذج من تجاربى لاأريد أن أطيل عليك بسرد سواها ولكنى أدعوك أن تبدأ تجاربك الشخصية التى تقودك قطعاً لاعتقاد جازم أن للكون مالكا سبحانه ، خلقه ويدبر أمره ويرعاه .

* * *

وبعد ، لماذا ينكرون الله وهو ملجأهم عند الهزيمة ، وملاذهم إذا أصابهم الفشل ؟ وطالما نسمع الشخص عند الإخفاق ينسب إخفاقه إلى إرادة الله ، ومعنى هذا عدم يأسه ، ومعناه كذلك أن يحاول العمل من جديد رجاء أن يكون عون الله معه فى الجولة الأخرى ، والإنسان دائما ينجح ويفشل ، ويعلو وينخفض ، ومن الخير أن يظل على صلة بالله يدعوه عند الشدة ويستعين به عند العجز ، فلا يحس أنه وحده فى الشدائد ، ولا يضعف أمام الصعاب لأنه يؤمن أن الله معه ، ومن كانت معه قوة الله استسهل الصعاب واستهان بالمشكلات .

وحدانية الله :

وحدانية الله فى التفكير الإسلامى تشمل الوحدة فى الوجود ؛ أى أنه إله واحد فليس فى الإسلام تعدد آلهة بأية صورة من الصور ، وتشمل كذلك الوحدة فى التركيب ، فليس الله مكوناً من أجزاء ، وتشمل ثالثاً الوحدة فى العبادة فليس هناك معبود إلا الله ، وليس هناك صاحب سلطان مطلق يصرّف الأمر كله ، ونتّجه له خاضعين ساجدين إلا الله الواحد القهار .

والتوحيد بهذا المعنى عظيم الفائدة للجنس البشرى ، لأنه يجمع البشر حول إله واحد ، وفى ذلك توحيد اتجاههم وغرس نظام الأخوة بينهم ، أما تفرق الآلهة فمعناه تفرق البشر ، وذهاب كل فريق إلى التعصب لما وُجّه قلبه إليه ، وفى ذلك فساد النظام وخسارة للبشرية[1] .

ومن فوائد عبادة الله وحده عبادة مباشرة دون وساطة ودون زلفى ، تحريرُ الفكر البشرى من الخضوع لغير الله من إنسان أو حيوان أو جماد ،

(١) انظر رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٧٦ – ٧٧ .

ومن نبات وأجرام سماوية وقوى طبيعية ، ومعنى ذلك ألا يعبد الإنسانُ الإنسانَ ، ففى عبادة الإنسان للإنسان ذل وطبقيَّةٌ لا يعرفها التفكير الإسلامى ، ومعنى ذلك أيضاً ألا يعبد الإنسان ما سخره الله للإنسان من حيوان أو نبات أو غيرهما ففى تخليص الإنسان من هذه العبادة وضعٌ له فى مكانه الطبيعى ، سيداً لما سُخر له ، لا عبداً أمام مخلوق ينقص فى تكوينه عن مستوى الإنسان[١] .

وتوحيد الله وعبادته دون سواه تُكْسِبُ المسلمَ الأنَفَةَ والعزة والشجاعة ، ما دام يدرك أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا[٢] » وما دام يدرك أن موته وحياته بيد الله لا سلطان لمخلوق على ذلك « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا »[٩] وأن الرزق منحة الله لا منحة غيره « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »[٣] .

وتوحيد الله وضع طبيعى حتى أنه يلجأ إليه من يقولون بالتعدد ، إذ يظل هؤلاء فى صراع بين التوحيد الذى تجذبهم له طبيعة الألوهية ، وبين اتجاهاتهم التى هى تعدُّدٌ بصورة من الصور ؛ فنجد المسيحيين يضيقون بالتعدد ، ويدركون ضرورة هزيمته أمام العقل فيلجئون إلى القول بأن اعتقادهم هو : وحدةٌ فى تثليث أو تثليث فى وحدة ، والمصريون القدماء تتعدد عندهم الآلهة ولكنهم يؤمنون بإله أعظم هو سيد الآلهة وكبيرهم ، ويرى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز أنه لا يقول بالتعدد إلا العقل

---

(١) Mawlana Muh. Ali: The Religion of Islam Vol. I P. 51

(٢) سورة التوبة الآية ٥١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٥ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٢ (انظر روح الدين الإسلامى للأستاذ عفيف طبارة ص ٦٥) .

القانع المتعجل الذى يقف عند أدنى مبادئ الغيب وغاياته ، فيرى أن وراء كل فصيلة من الظواهر الكونية مبدأ يدفعها وينظمها ، فيقوده ذلك إلى الاعتقاد بوجود إله للريح وإله للشعر وإله للحرب وهكذا ، أما العقول الواعية الطليقة المتسامية ، فإنها ترى أن خلف هذا كله قوة واحدة أسمى وأعظم ، تصرّف جميع الشئون ، فهى لا ترضى بآحاد القوانين ، ولكنها تسمو إلى قانون القوانين وتستشرف إلى اليد التى جمعت تلك القوانين ونسقتها[١] .

ولما كان التوحيد ضرورياً فإنه كان قاعدة الأديان السماوية كلها قبل أن تفسدها الأفكار الطارئة الضالة ، قال تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون »[٢] .

وقد لجأ القرآن الكريم للعقل يحكّمه فى مسألة التوحيد والتعدد ، ويثبت بأسلوب منطقى أن خالق الكون ومدبّره لا بد أن يكون واحداً ، كما أن لكل دولة رئيساً واحداً ، وللسيارة سائق واحد ، وللمدرسة ناظر واحد ، وهكذا ، اقرأ معى هذه الآيات :

— لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[٣] .

— ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض[٤] .

— ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه[٥] .

---

(١) انظر « الدين » ص ٨٩

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

(٤) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٥) سورة القصص الآية ٨٨ .

ويقدّم علماء الكلام على توحيد الله دليلا سهلا قاطعاً هو إذا كان هناك تعدد آلهة فهل كل إله يستطيع أن يعمل وحده كل شيء أو أنه عاجز وحده عن ذلك ؟ فإذا كان يستطيع وحده أن يعمل كل شيء فما فائدة الآلهة الآخرين ؟ وإن عجز وحده عن ذلك كان بعيداً عن طبقة الألوهية ، فالإله لا يمكن أن يكون عاجزاً ولا أن تتوقف قوته على سواه .

صفات الله :

قصدنا بهذا العنوان « صفات الله » أن نوضح أن ذات الله توصف ولا تدرك ؛ فالله سبحانه وتعالى خالق الكون ، وطبيعة الخالق مخالفة لطبيعة المخلوق ، كما يختلف النجار عن الباب الذى يصنعه ، وعلى هذا يرشدنا القرآن إلى معرفة الله (بآثاره الدالة على صفاته ، وكمال جلاله وجماله ، وتنزهه عن المماثلة لخلقه ، أو الاتحاد ، أو الحلول فى شىء مما خلق ، وأوصد أمامه باب التطلع إلى معرفة حقيقته وذاته وصرفه عن محاولة التفكير فى هذا الباب .... والعجزُ عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله ، وهو نفسه برهان على سمو الألوهية الحقة عن الدخول فى دائرة التفكير العقلى المحدود بطبيعته ، والذى لا يجد مجالا لتخطى ما وراء الكون)(١) .

ويقول الإمام محمد عبده إن النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة مَنْ هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره .... وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى ، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ، ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاولٌ إلى ما لم تبلغه القوة البشرية من

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٠ .

جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة لأنه يؤدى إلى الخبط فى الاعتقاد ولأنه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره[١] .

وقد قال القرآن الكريم موضحاً ذلك المعنى « ليس كمثله شيء »[٢] وقال « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[٣] وقال « ولا يحيطون به علما »[٤] وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله) وقال أيضاً (تفكروا فى كل شيء ولا تفكروا فى ذات الله) .

أما صفات الله كما يراها الإسلام فإن مصدرها القرآن الكريم ، وهى فى مجموعها تصوّر الكمال المطلق ، وليس للمسلم أن يناجى ربه باسم أو صفة لم يضعه الله لنفسه ، فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثاره وصفاته[٥] وإليك آيات من القرآن الكريم تحمل بعض صفات الله :

– بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين[٦] .

– ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها[٧] .

– تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير[٨] .

– يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[٩] .

---

(١) رسالة التوحيد ٤٨ – ٤٩ . (٢) سورة الشورى الآية ١١

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٣ (٤) سورة طه الآية ١١

(٥) الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٩ .

(٦) سورة الفاتحة الآية ١ – ٤ . (٧) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٨) سورة غافر الآية ٢ – ٣ . (٩) سورة غافر الآية ١٩ .

– هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصورُ له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم[1] .

– إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد فعّالٌ لما يريد[2] .

– وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، ويوم يقول كُنْ فيكون ، قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير[3] .

سبِّح اسمَ ربك الأعلى ، الذى خلق فسوَّى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى[4] .

– ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم[5] .

* * *

وبعد ، فالإيمان بالله على النحو الذى وصفنا ، قمةُ العقائد الإسلامية ، ويجيء بعد الإيمان بالله ، الإيمانُ بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمانُ بأن محمداً خاتم الرسل ، ولا شك أن مَنْ آمن بالله آمن بكلامه ووعده ووعيده ، فأصبح سهلا عليه أن يؤمن بما جاء به رسل الله من توجيه وتعليم ، ولا شك أن العقل السليم يقتنع دون تردد أنه لابد من معاد ، وأن الحياة الدنيا لايمكن أن تكون نهاية الكون ، ولو كانت كذلك لطغى الناس فيها وبغوا ، ونالوا ما أحبُّوا أن ينالوه بأية وسيلة من

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٢ – ٢٤ .
(٢) سورة البروج الآية ١٢ – ١٦ .
(٣) سورة الأنعام الآية ٧٣ .
(٤) سورة الأعلى الآية ١ – ٦ .
(٥) سورة السجدة الآية ٦ .

الوسائل غير هيابين ولا خائفين ، ولكن النفس البشرية من تلقاء نفسها تدرك أن بعد هذه الحياة حياة ، وأن بعد العمل حسابا .

ويتضح من مبادئ الدين الإسلامي سماحتُه مع أَتْباع كل الديانات ، إنه يجمع الناس جميعاً على إله واحد ، ويجعل من مبادئه الاعتراف بالرسل السابقين وبكتبهم . فهو يمد يده لأتباع الديانات السماوية ليلتفوا حوله ، ويمد يده لمن لا دين له ليدخل حظيرة النور .

ومن مفاخر الدين الإسلامي أنه سوَّى بين الناس ، ولم يجعل لجنس على جنس مزِّية فكان بذلك دينا يقاوم الطبقات ويقاوم تسلط الشعوب على الشعوب ، ويقول أستاذنا الإمام محمد عبده[١] فى ذلك الموضوع : رَفَعَ الإسلام كلَّ امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرَّر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة ؛ وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى فى الجنس والفصل والخاصة ، وشرف إستعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حُرِم منها غيرهم ، وتسجيل الخسَّة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً .

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٩ — ١٦٠ .

النبـــوة

الحاجة إلى الرسل (*) :

يتفق الناس على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج السليم منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم فلذلك ضربوا إلى جانب الشر ، وكلٌّ يظن أنه إنما يطلب نفعا ويتقى ضررا ، فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته فى الغالب أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة .

وجمهور الناس لا تساعدهم عقولهم لمعرفة بعض الغيبيات ، كمعرفة الله والتحقق من الحياة الآخرة ، ومعرفة الملائكة والجن ، كما لا تستطيع عقولهم أن تقرِّر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى الدنيا والآخرة ، فعقوبة السارق ، وعقوبة قاطع الطريق ، وثواب الصبر والاحتساب ، وثواب الصلاة والزكاة ، كل هذا وسواه مما يعجز العقل العام أن يصل إليه ويحدده .

(*) [ا] من أهم المراجع عند الحديث عن الحاجة إلى الرسل كتاب « رسالة التوحيد » لأستاذنا الإمام محمد عبده ، وقد اقتبسنا منه بتصرف بعض العبارات فى هذه المقدمة (انظر ص ٧٦ — ١٠٠) .

[ب] النبىء بالهمز ويخفف ، هو من يتلقى نبأ عن الله ، وقد يكون النبى رسولا ، فهو نبى فى تلقى النبأ ، ورسول فى تبليغ الرسالة ، وقد يستعمل اللفظان أحدهما مكان الآخر ، وقد يستعملان مجتمعين (انظر كتاب الدين الإسلامى لمولانا محمد على ص ١٥٢) .

وحياة الإنسان قصيرة ، ويُقْضَى شطر كبير منها بين ضعف الطفولة وجهلها ، فليس لدى الإنسان فرصة كافية للتجارب والمحاولات والخطأ والصواب .

وجمهور الناس يحيون للذة المادية ، ويهملون لذة أدوم وأعمق وهى اللذة الروحية ، فطبيعة الإنسان أن يسعد بالطعام اللذيذ ، والفراش الوثير ، والمرح والحبور ، أكثر من سعادته بالوفاء ، وعوْن الضعيف ، وكلمة الحق لنصرة المظلوم .

ومن طبيعة الإنسان كذلك حبه لنفسه ، وتقديمه الأقربين إليه على الأبعدين عنه ، وفى ظل هذه الأنانية لا يستقيم المجتمع الإنسانى ولا يسير قدماً إلى النجاح .

لهذه الأشياء وسواها من نظائرها جاء الرسل : جاءوا ليرشدوا العقل إلى الخير والشر ، ولوصف النعيم الذى ينتظر المطيع ، والعقاب الذى سينزل بالعاصى .

جاءوا ليرشدوا العقل إلى معرفة الله وما يجب أنْ يعرف من صفاته ، وليبينوا كذلك أن ذات الله ليست موضع بحث ولا يصل إليها عرفان .

جاءوا ليعلّموا الناس من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به كالملائكة والجن وأحوال الآخرة مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشقّ عليه الاعتراف به .

جاءوا ليبلغوا الناس أوامر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وليشرحوا لهم ما فرضه الله عليهم من عبادات وما قرره من وسائل للمعاملات .

جاءوا « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »[١] .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

جاءوا لئلا يقول الناس « ربنا لو أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »(١) .

جاءوا ليدعوا الناس إلى تحويل اهتمامهم من اللذائذ الفانية إلى الرغائب السامية ، من عبادة المادة إلى التمتع بالروحانيات ، ليضعوا بذلك الأسس لمجتمعات صالحة فيها تعاون وفيها إيثار .

جاءوا على العموم لتحقيق خير الناس فى دنياهم وآخرتهم ، على أن يحملوا للناس ما تحتمله عقول الناس من إرشادات :

ومن الواضح أنه ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب والبحث ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك والعقول . وكل دَخْلِ الأديان فى ذلك هو حراسة العقول حتى لا تشط أو تزل ، فتحدث بأبحاثها رَيْباً فى الاعتقاد بالأساس العام لهذا الكون ، وهو تقرير إله واحد خالق له ، متصف بكل صفات الكمال . وإذا كان قد ورد فى كلام الأنبياء بعض إشارات للكون وأحوال الأفلاك ، فالمقصود توجيه النظر إلى حكمة المبدع وقدرة الصانع ، أما التفاصيل العلمية للكون والأفلاك فأبحاث يطلبها من استطاع من مجالتها العلمية .

---

(١) سورة طه الآية ١٣٤ .

الرسالات الخاصة والرسالة العامة :

عند حديثنا فى مطلع هذا الكتاب عن « تطور الرسالات » وضّحنا أن الرسالات كلها من عند الله ، وأنها تتفق فى الأصول العامة المهمة كتوحيد الله وترك عبادة الأوثان ، ثم تتطور بعد ذلك بتطور الجنس البشرى واستعداده لتلقى تفاصيل أوسع ودراسات أعمق وتبعات أكثر .

وعن الرسلات التى سبقت الإسلام ، يقول القرآن الكريم :

– وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[١] .

– ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون[٢] .

– ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت[٣] .

– ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات[٤] .

– وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون[٥] .

– قال (نوح) : يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون[٦] .

وهكذا كانت الرسالات التى سبقت الإسلام غير شاملة ؛ بالنسبة للدعوة نفسها ، فلم تكن الدعوة كاملة التفاصيل ، وإنما حوَت ما يستطيع العقل آنذاك هضمة وفهمه ، وكانت كذلك غير شاملة بالنسبة للبشرية ،

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ .
(٢) سورة يونس الآية ٤٧ .
(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .
(٤) سورة الروم الآية ٤٧ .
(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٦) سورة نوح الآيتان ٢ – ٣ .

فقد كانت الرسالة محدودة لقوم معينين ، وجاءت رسالة الإسلام ، وهى خاتمة الرسالات ، ومن هنا تحتم أن يوجد فيها من العناصر ما يجعلها تناسب كل زمان ومكان ، ومن أهم هذه العناصر : شمولها لألوان من التعاليم واسعة فى الميادين المختلفة كنظام الميراث والزواج والطلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها ، ومنها كذلك وجود الاجتهاد فيها وإباحته للعلماء الذين يصلون إلى مستواه من أى جنس وأى لون ليشرحوا لأقوامهم ما يجدّ من أحداث داخل الإطار العام الذى نظّمه الإسلام ، ثم كان من عناصر هذه الرسالة أن تعترف بالرسالات السماوية السابقة ، وبما جاء به هؤلاء الرسل من كتب ، وذلك وضع طبيعى ، فكلى هذه الرسالات من الله ، وتلك الكتب تعليمات منه ما لم يمسها تحريف ، فإذ جاءت الرسالة الأخيرة فمن الطبيعى أنها تحوى الرسالات السابقة وتزيد عليها .

وعلى هذا نص القرآن الكريم على أنه يجب على المسلم أن يعترف بالرسل السابقين ، وبكتبهم الصحيحة ، وبما جاءوا به من مبادئ ، لأنها مبادئ لم تتغير وإنما زاد الإسلام عليها أو عدّل فيها حسبما اقتضاه تطور الحياة . قال تعالى :

– شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[١] .

– وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاكم رسول مصدق لما معكم[٢] .

– قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا و ما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون[٣] .

(١) سورة الشورى الآية ١٣ . (٢) سورة آل عمران الآية ٧١ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

– آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله[1] .

وهكذا يتضح من هذه الآيات أن الإيمان برسالات الرسل السابقين جزء من الإسلام ، كما يتضح من الآية الأخيرة أن الإسلام لا يفرق بين الرسل وأنهم جميعاً متساوون ، وعلى هذا يدخل الناس جميعا الإسلام وكلٌ يعرف أن دينه موضع احترام ، وأن نبيَّه مكان إجلال ، والكتاب الذى أنزل على رسوله لا يزال موضع تقدير .

بيد أن الإيمان بما جاء به الرسل السابقون يحتم أن نصل إلى حقيقة ما جاءوا به ، وذلك يقتضى أن نزيل الخرافات والترهات التى أدخلها بعض أتباع هذه الديانات على دياناتهم .

لماذا كانت رسالات السابقين خاصة ؟ وجاءت رسالة محمد عامة ؟

الإجابة على هذا السؤال سهلة ، فقد كان من الطبيعى أن تتعدد رسالات السابقين ، وأن يكون كل منها لجماعة محدودة ، وذلك للسببين الآتيين :

١ – كان الاتصال بين الأمم السابقة غير موجود ، وكانت كل أمة تعيش فى عزلة أو شبه عزلة عن الأمم الأخرى لعدم وجود المواصلات والروابط غالبا ، ولاختلاف العادات وطرق الحياة ، ثم لتعدد اللغات وقلة الذين عُنوا بتعلُّم لغات أجنبية ومن ثمَّ أرسل الله لكل أمة رسولا ، وما كان رسول واحد يستطيع أن يوفِّىَ بالغرض من الرسالات .

٢ – سبَّبَت العزلةُ التى تحدثنا عنها آنفا اختلافا فى درجة الثقافة ، فأصبح ما يلائم جماعة من البشر لا يلائم جماعة أخرى .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

ولهذين السببين أرسل الله لكل أمة رسولا يعلمهم المبدأ الديني العام وهو توحيد الله والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . ثم يعالج أمراضهم المتفشية بينهم ، أما رسالة محمد فقد كان من الطبيعي أن تكون عامة ، إذ انتفى السببان السابقان فلم يَعُد العالم مجزأ إلى أقاليم يعيش كل إقليم في عزلة ، بل امتدت المواصلات بين أجزاء العالم ، وكثر تعلم اللغات الأجنبية فاتصلت الأمم ، وأصبح سهلا أن تعم رسالة واحدة جميع البشر ، ثم إنّ درجة الثقافة قرّبت بين أكثر الأمم ، إذ انتشرت الطباعة وانتقل المدرسون والطلاب بين أطراف العالم بسبب سهولة المواصلات ، فتبودلت بذلك الثقافات ولم تعد الهوة واسعة في الفكر والثقافة بين أمم العالم ، وكان ذلك إيذانا بإرسال رسول واحد لجميع البشر[1] .

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تقرر عموم رسالة محمد ، وتقرر أنها خاتمة الرسالات ، اقرأ قوله تعالى :

– وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا[2] .

– يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً[3] .

---

(١) لا نزال نرى في عالمنا الحاضر بلادا تتخلف كثيرا في حضارتها عن بلاد أخرى ، ولكن هذا التخلف عمل صناعي اقتضاه الاستعمار . ولو لم يوجد الاستعمار لأمكن للدول المتخلفة أن تلحق بركب الحضارة وأن تتقارب الثقافات بين أطراف العالم ، وهذا يلاحظ في التطور السريع الذي تصل إليه الدول بعد أن تتخلص من الاستعمار أو شبه الاستعمار ، ولنذكر في هذا المجال الجمهورية العربية المتحدة والصين وغيرها .

(٢) سورة سبأ الآية ٢٠٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

– تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا[١] .

– وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[٢] .

– ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين[٣] .

وقد سبق أن ذكرنا أن الزمن أكد عموم رسالة محمد وأنه خاتم النبيين ، فإنه قد مرت القرون تلو القرون دون أن يخرج للعالم من يدعى الرسالة بعد محمد ادعاءً ذا بال ، وقد كان الرسل قبل محمد متقاربين أو متَّحدين فى الزمن .

ويقول مولانا محمد على[٤] : لم يُرسَل محمد إلى الناس كافة ورحمة للعالمين فحسب ، وإنما جاء ليبشر بدين واحد للناس ، أساسه الإيمان برسول كل أمة من أمم الأرض ، وهذا أمر لا يدفعه الناس حيث أنه يدعو إلى المساواة والوحدة بين جميع الأمم .

صفات الرسل فى التفكير الإسلامى :

يتصف الرسل بعلوّ الفطرة ، وصحة العقول ، والصدق فى القول ، والأمانة فى تبليغ ما عُهِدَ إليهم أن يبلغوه ، والعصمة من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة الأبدان مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، ويلزم الاعتقاد بأن الرسل ممدودة أرواحهم بمدد من الجلال الإلهى لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليهم سطوة روحانية .

---

(١) سورة الفرقان الآية الأولى . (٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٤) The Religion of Islam Vol I. P. 161

وإنما لزمت لهم هذه الصفات لأنهم لو انحطّت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخرى ، أو مس عقولهم شيء من الضعف ، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص ، وهو اختصاصهم بالوحي والكشف لهم عن أسرار علم الله . ولو لم تَسْلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في إنكار دعواهم ، ولو كذبوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلِّين لا مرشدين ، فتذهب الحكمة مِنْ بعثهم ، والأمر كذلك فيما يتلق بنسيان ما عُهِدَ إليهم تبليغه من العقائد والأحكام .

أما فيما عدا ذلك فالرسل بشرٌ يعتريهم ما يعتري سائر أفراد البشر ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهرون ، وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون ، وتمتد إليهم أيدي الظَّلَمَة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يُقْتَلون[1] .

والسبب في كون الرسل بشراً أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، حتى يكونوا أكثر صلة بالناس وأعرف بمشاعرهم وأحاسيسهم ، وحتى يكونوا قدوة للناس في تنفيذ ما يبلغونه من تعليمات وإرشادات ، وفي بشرية الرسل يقول القرآن الكريم :

– ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم[2] .

– وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم[3] .

– ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزوجاً وذرية[4] .

---

(١) الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد : مقتبسات من ص ٧٩ – ٨٢ مع تقديم وتأخير .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٣١ – ٣٢ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٩ وسورة الأنبياء الآية ٧ .

(٤) سورة الرعد الآية ٣٨ .

— وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّنَ لهم[١] .

ويحمل الملَك الرسالاتِ إلى الرسول فيبلغها الرسول إلى المرسل إليهم قال تعالى « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس[٢] » ولا يحمل الملَكُ الرسالات إلى الناس مباشرة لأن عالم الملائكة يختلف عن عالم الإنسان فى طبيعته ، وصدق الله حين قال « لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا[٣] » .

ومسألة بشرية الرسل مسألة هامة فى التفكير الإسلامى ، ولعل العناية الكبرى التى وُجهت فى الإسلام لإيضاح هذه المسألة تسببت عن الضلالات التى سبقت الإسلام ، وهى تأليه الأنبياء أو حتى تأليه النابهين من المفكرين ، فقد ألّه المسيحيون عيسى وأله البوذيون بوذا وهكذا ، ولذا نجد محمداً — كما يقول المستشرقون — يقفل كل باب يَظُنُّ أنه يوماً ما يكون مسلكاً لتأليهه أو حتى يشْبِهَهُ التأليه ، فإذا وقف له بعض أتباعه صاح بهم : لا يقفوا كما تقف الأعاجم ، فلست بملك ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ، ويختار مكاناً ليعسكر فيه فى غزوة بدر ، ثم يشير عليه أحد الصحابة بمكان أفضل فيقبل رأيه وينتقل إليه ، أما القرآن الكريم فقد وفّى هذا الموضوع وجلاه ، فلم تَقُمْ شكوك من أى نوع حول بشرية محمد ، وإنما أصبحت بشريتُه حقيقة واضحة مسلماً بها ، اقرأ هذه الآيات :

— قل إنما أنا بشر مثلكم[٤] ..

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤ .
(٢) سوة الحج الآية ٧٥ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٩٥ .
(٤) سورة فصلت الآية ٦ وسورة الكهف الآية ١١١ .

– قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسّنىَ السوء(١) .

– قل إنى لا أملك لكم خيراً ولا رَشَدَاً(٢) .

– قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا(٣) .

– قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله(٤) .

– وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟(٥) .

الأنبياء والعصمة :

بقى موضوع يتصل ببشرية الرسل أيضاً ، وهو جواز الخطأ على الأنبياء ، وهذا الموضوع دقيق للغاية ، وأغلب الكتّاب يتحرّزون من الخوض فيه خشية القول بجواز الخطأ على الأنبياء ، ومنهم من خاض فيه باحثاً عن البراهين التى تساعده على القول بعصمة الأنبياء ، وعدم إمكان وقوع الخطأ منهم ، وفى قمة هؤلاء ، الشيعةُ الذين يُثبتون عصمة الأنبياء وعصمة الأئمة أيضاً ، ويرون أن الرسول لو لم يكن معصوماً من الزلل لقلّت الثقة به ولانتفت فائدة البعثة(٦) .

وهناك كتب خصصها الشيعة لبحث ذلك الموضوع ولتأويل كل ما يحتمل خلاف العصمة ، ومن أهم هذه الكتب كتاب « تنزيه الأنبياء » للسيد الشريف المرتضى ، وفى هذا الكتاب يقرر المؤلف أن الشيعة يرون أنه

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٨ . (٢) سورة الجن الآية ٢١ .
(٣) سورة الجن الآية ٢٢ . (٤) سورة يونس الآية ٤٩ .
(٥) سورة آل عمران الاية ١٤٤ .
(٦) السيد محمد صادق الصدر : الشيعة ص ٢٢٧ .

لا يجوز على الأنبياء شيء من المعاصى والذنوب كبيراً أو صغيراً لا قبل النبوة ولا بعدها، ويقولون فى الأئمة مثل ذلك[١] .

والعجيب أن قول الشيعة بعصمة الأنبياء تسرَّب إلى أهل السنة ، وأصبح رأى جمهور المسلمين ، ولم يجد هذا الاتجاهُ معارضة تذكر من العلماء والباحثين المسلمين المحدثين لأنه موضوع يتصل بالأنبياء ، ويدفع الورعُ أغلبَ الباحثين فلا يتعرضون لردِّ ما قال به الجمهور ، ولذلك نجد أستاذنا الإمام محمد عبده يذكر رأى الجمهور ويعلق عليه بقوله « ومن العسير إقامة الدليل العقلى أو إصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب إليه الجمهور[٢] » .

تعال بنا نبحث الموضوع بشيء من الانطلاق لنحق الحق ، والذى أراه أن هناك أموراً مسلماً بها هى :

١ – يلزم الإجماع على عصمة الأنبياء فى التبليغ وقد سبق الحديث عن ذلك .

٢ – يلزم الإجماع على أنهم بعد الرسالة لا يرتكبون الكبائر قط ولا الصغائر عمداً ، قال تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا »[٣] ، والأئمة والهداة لا يمكن أن يعملوا الكبائر أو يتعمدوا الصغائر .

٣ – يلزم الإجماع على أنهم قبل البعثة نخبة مصطفاة من أحسن معاصريهم سيرة وخلقا ، قال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس[٤] » والآية واضحة فى أن الرسل صفوة الخلق وخيارهم . وقد

---

(١) اقرأ كتاب تنزيه الأنبياء فى عدة أمكنة واقرأ كذلك تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ٢٩٣ – ٣٩٥ .

(٢) رسالة التوحيد ص ٨٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧٣ . (٤) سورة الحج الآية ٧٣ .

هتف قوم صالح به يقولون فيما رواه القرآن الكريم : « يا صالح قد كنت فينا مَرْجواً قبل هذا »(١) مما يدل على مكانة الأنبياء بين ذويهم قبل بعثهم .

٤ – يلزم أن نتذكر حقيقة هامة يقررها القول الشائع « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ، فإذا قُلْنا ببشرية الأنبياء وجواز الخطأ عليهم فى غير ما تلزم العصمة فيه ، فليس معنى هذا أن الأنبياء يخطئون كما نخطئ نحن ، فمن الواضح أن العالم لا يرتكب الخطأ الذى يقع فيه الجاهل ، فكذلك لا يمكن أن يتساوى الأنبياء مع بقية البشر فى نوع الخطيئة ، أى أنهم إنْ أخطأوا فزلات بسيطة وهفوات يسيرة لأنهم بطبيعة الحال أكثر دقة وهداية ورعاية من الله .

فإذا قارنَّا هذه المبادئ ببشرية الرسل التى تحدثنا عنها آنفاً ، جاز لنا أن نثبت أن الرسول عندما يتحدث أو يعمل كرسول ، أى مبلغاً أو داعياً أو معلما فهو معصوم ، أما إذا كان يتحدث أو يعمل من عند نفسه فى الأمور العامة التى ليست جزءاً من الرسالة ، فهو بشر ، يمكن أن يخطئ ويغلب أن يصيب ، وقد وضَّح الرسول ذلك بقوله فى الحديث الذى رواه رافع ابن خديج « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » وكان المسلمون فى الصدر الأول للإسلام يفرِّقون بين محمد النبى ومحمد الإنسان ، ويتضح ذلك من المثال الذى أشرنا إليه آنفاً والذى حدث فى غزوة بدر ، فإن الرسول إختار مكاناً ليهيئ فيه جنده للقتال ، فسأله أحد قادة المسلمين سؤالا واضحاً هو : هل هذا الاختيار وحى من الله أو اجتهاد من عندك ؟ وأجاب الرسول : بل اجتهاد من عندى فقال الرجل : إذا كان الأمر كذلك فهناك مكان

---

(١) سورة هود الآية ٦٢ .

أصلح من هذا . وحرس الرسول رأى الرجل وانتقل إلى المكان الذى أشار به[١] .

وقد سبق أن ذكرنا الآيات التى فيها عتاب للرسول على بعض تصرفات لم يقرها العزيز الحكيم ، وهى كما رأيت هنات خفيفة وزلات سهلة ، وهى كذلك صادرة من محمد الإنسان لا محمد الرسول ، ويقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى ذلك الموضوع : أما فى غير ما يبلّغونه عن الله من الآراء أو الأحكام أو الأفعال الشخصية ، فهم — كغيرهم — يصيبون ويخطئون ، وقد عاتب الله نبيه محمداً على بعض تصرفات فعلها من تلقاء نفسه « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . . . »[٢] .

وتميل كتب التفسير إلى هذا الاتجاه ففى البيضاوى عند قوله تعالى « عفا الله عنك ، لِمَ أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟[٣] » . يقول المؤلف : عفا الله عنك : كناية عن خطئه فإن العفو من روادفه[٤] . ويقول الأستاذ سيد قطب عند تفسير هذه الآية ما نصه : إنه لُطْفُ الله برسوله ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب[٥] . وهذا هو الاتجاه العام فى أكثر التفاسير عند الحديث عن أمثال هذه الآيات .

معجزات الرسل :

المعجزة أمر خارق للعادة يَعْجَز البشر عن الإتيان بمثله ، يجيء على يد رسول من رسل الله . ويقدِّمُ الرسولُ المعجزةَ دليلا على صدقه ،

---

(١) انظر أمثلة أخرى مماثلة فى « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٣٤ . (٣) سورة التوبة الآية ٤٣ .

(٤) تفسير البيضاوى ص ١٩٥ . (٥) فى ظلال القرآن جـ ١٠ ص ٧٠ .

وكان على الناس أن يتبعوه إذ أن المعجزة تحمل معنى قول الله تعالى : صدق عبدى فيما يبلغه عنى .

وتتناسب المعجزة مع الدعوة ؛ فأديان المرحلة الأولى التى سبق أن تحدثنا عنها[١] ، أى الأديان التى تدعو لتوحيد الله وترك عبادة الأوثان ، لا تحتاج إلى معجزة ، فالتوحيد وترك عبادة الأوثان هدف طبيعى يصل إليه العقل بذاته ، ولذلك فالأدلة التى يقدمها أنبياء هذه المرحلة عبارة عن حث الناس على استعمال عقولهم ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم ، وتخويفهم من عذابه ، وتهديدهم إن تمادوا أن ينزل بهم ما نزل بأمثالهم من السابقين الضالين ، وقد روى لنا القرآن الكريم صورا مما قدمه أنبياء هذه المرحلة لأقوامهم ، ونحن نقتطف فيما يلى بعضها :

من قول نوح :

استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا[٢] .

من قول هود :

– واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح[٣] .

– فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به ويستخلف ربى قوما غيركم[٤] .

– واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم[٥] .

---

(١) ص ٢١ – ٢٢ .

(٢) سورة نوح الآيات ١٠ – ٢٠ . (٣) سورة الأعراف الآية ٦٩ .

(٤) سورة هود الآية ٥٧ . (٥) سورة الشعراء الآيات ١٣٢ – ١٣٥ .

من قول صالح :

– أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون(١) .

من قول إبراهيم :

– واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرونكم ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين(٢) .

وقد توجد معجزة فى أديان هذه المرحلة ، وذلك إذا طلبها أصحاب الرسول ، كقوم صالح الذين هتفوا به :

– ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت الصادقين(٣) .

فجاءتهم الناقة معجزة لهم .

أما أديان المرحلتين الثانية والثالثة فالمعجزة ضرورية فيهما ، ولذلك تأتى مع الدعوة وبدون طلب ، وذلك لأن فى أديان هاتين المرحلتين تكاليف يتوقف تصديقها واتباعها على المعجزة المُقْنِعة ، ففى أديان

(١) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ – ١٥٠ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٦٠ – ٨٢ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٥٤ .

بنى إسرائيل تشريع كما سبق أن أوضحنا ، ودين الإسلام انقلاب اجتماعى وفكرى لما كانت عليه البشرية قبله .

على أنه يمكن أن يقال إن الإسلام مرّ بمرحلتين ، كان قبل الهجرة يدعو للتوحيد وترك عبادة الأوثان ، فسار على نمط أديان المرحلة الأولى من الحث على استعمال العقل والتخويف والإنذار :

قال تعالى :

– أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ؛ فذكر إنما أنت مذكر ليست عليهم بمسيطر[1] .

– إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى[2] .

وبعد الهجرة – حيث التشريعات الواسعة – برزت معجزات الإسلام التى تحدثنا عنها عند الكلام عن « دعوة فى الميزان » وسنزيدها هنا وضوحا .

وقد تجىء المعجزة أمراً خارقاً للعادة على العموم كمعجزة إبراهيم إذ لم تحرقه النار ، وكناقة صالح التى قال بعض المفسرين إنها خرجت من الصخرة أو التى كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، كما ورد فى القرآن الكريم ، وقد تجىء المعجزة من جنس شىء اشتهر فى عهد المرسل إليهم كاشتهار السحر فى عهد موسى ، والبلاغة فى عهد محمد ، ولذلك تجىء معجزة موسى أشبه بالسحر ولكنها أعلى مستوى ، ويجىء القرآن معجزةً

---

(١) سورة الغاشية الآيات ١٧ – ٢١ .

(٢) سورة الليل الآيات ٤ – ١١ .

لمحمد . وهو فى أعلى درجات البلاغة ، أو قل فى درجة من البلاغة لا يعرفها مستوى البشر .

وتتناسب المعجزات مع طبيعة الرسالة ، فالرسالات التى سبقت الإسلام كانت لأقوام معينين ، كما كانت موقتة ، ولذلك جاءت المعجزات من جنس ما اشتهر عند هذه الأقوام ، كما كانت المعجزة نفسها موقتة ، فهى تحدث مرة أو عدة مرات ، ويكفى أن يراها المرسل إليهم ليعترفوا بالرسل إذا كان الله قد كتب لهم الهداية . أما الإسلام وهو دين عام ودائم ، فقد جاءت معجزته مناسبة لهذا الوضع أى جاءت عامة ودائمة ، فالقرآن الكريم لا يزال بأسلوبه ومعانيه معجزاً ، ولا يزال متجدداً يقيم الدليل كل يوم على صحة رسالة محمد ، وقد سمعته الأجيال الأولى فدهشت له ، مَنْ آمن منهم ومَن لم يؤمن ، حتى كان قادة المشركين يتسللون ليلا خفية ليتسمعوا لمحمد وهو يتلو القرآن[1] ، وسمعته بعد ذلك أجيال وأجيال ، ونسمعه حتى اليوم ونقرأه ، فيخرُّ البلغاء له ساجدين ، ويعترفون بأنه نسيج وحده ، وأن له نسقا لا يطاوَل ولا يدانى[2] .

وبالإضافة إلى القرآن الكريم ، وهناك أيضاً تلك النظم الخالدة التى أشرنا إليها عند حديثنا عن « دعوة فى الميزان » وقد انبثقت هذه النظم من القرآن الكريم ، ومن الحديث الصحيح ، فكيف لمحمد الأمىّ أن يضع فى

---

(١) اقرأ هذا الموضوع كاملا فى كتاب « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف جـ ١ ص ٢٧١ – ٢٧٢ .

(٢) هناك كتب كثيرة فصلت القول فى موضوع إعجاز القرآن ، ونكتفى بالإشارة إليها هنا ليرجع إليها من يشاء وأهمها : إعجاز القرآن للباقلانى ، وإعجاز القرآن للرافعى ، والتصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب ، والقرآن والعلم الحديث لعبد الرازق نوفل ، ومجازات القرآن لمحمد عبد الغنى حسن .

حقبة قصيرة من الزمن ألوانا من التشريعات عبرت القرون والأقطار وهى حية نامية تتفق مع كل زمان ومكان ؟ يالله !! إن لجاناً علمية ضخمة تجتمع لبحث مشكلة واحدة ، وتنفض وتجتمع ، وتقرأ وتدرس ، ثم تقترح ، ويعدل اقتراحها عدة مرات ، ثم يصدر ، وبعد سنين قليلة يلحظ الناس أن هذا التشريع لم يعد يناسب العهد الذى جد ، فتجتمع لجان أخرى وتبحث من جديد وهكذا دواليك . أين هذا من الشئون التى نظمها محمد فى عشر سنوات فجاءت مع تنوعها وهى فصل الخطاب ؟

والجديد كذلك فى معجزات محمد أنها — بالإضافة إلى خلودها — ليست عصا تنقلب ثعباناً ولا ناقة تشرب النهر ، إنما هى من طبيعة عمل الرسول ، فإذا جاء رجل يدعى الطب ، فإن خير دليل يدعم به دعواه طبه ودواؤه الناجع ، وإذا جاء مدرس يدعى الإحاطة بعلم الفلسفة فإن خير برهان يقدمه هو أن يقف محاضراً فيعرض أفانين من الفلسفات ، وكذلك محمد ادعى أنه نبى جاء برسالة تنظم شئون الدين والدنيا ، شئون الروح والجسد ، ثم برهن على ذلك بأن نظم النظم وقنن القوانين وأتى بالتشريعات التى حققت ما قال ، ولاتزال تحققه حتى العهد الذى نعيش فيه ، وأى معجزة أكبر وأقوى من تلك المعجزة الخالدة ؟

وأخيراً فهناك اتجاه جديد أيضاً فى معجزات محمد ، ذلك الاتجاه هو استعمال العقل بيسر وهدوء ، فقد كانت المعجزات السابقة تشده العقول وتفحم ، فلا تتيح للإنسان فرصة التفكير ، من ذا الذى يستطيع أن ينجو من نار ألقى فيها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يجعل عصاه ثعبانا يلقف الثعابين ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يحيى الموتى أو يبرئ الأكمه دون دواء ؟ ولكن هذه العقول سرعان ما تعود إلى نفسها وتفكر فيما رأت ، فتعتقد أو يعتقد أكثرها أن ما شاهدت إنما هو ضروب من السحر والكهانة فتكذب الرسول فى دعواه ، وهذا المعنى هو الذى عبر

عنه القرآن بالآية : « وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون »[١] . أما معجزات محمد فاتجاه آخر إنها معجزات فيها تحدٍّ ولكن فى يسر وهدوء ، فاذهب إلى بيتك واخل إلى نفسك أو اجتمع بصديق ، وخذ معك القرآن ، أو استعرض النظم التى جاء بها محمد فى مختلف الشئون ، وناقش تلك المعجزات ، وتذكر أن التحدِّى لايزال قائماً ، هل تستطيع ومعك أساطين البلاغة أن تأتوا بسورة من مثله ؛ هل تستطيع — ولا تخصص لك ، أو حتى مع التخصص — أن تضع أمثال هذه النظم أو تخطيطا خالدا لتنظيم فى مسألة واحدة ؟ فكِّر وتدبر أمرك بهدوء وتأنٍّ فإذا عجزت كما عجز الملايين قبلك فالإسلام يمدُّ لك يده ، ويفتح إليك بابه ، ويرحب بك لتدخل فى زمرة أتباعه .

وفى ذلك يقول الأستاذ العقاد[١] : والنبى فى الإسلام ليس بصاحب الخوارق والأعاجيب التى تشل العقول ، وتهول الضمائر ، وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ، ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز .

إن معجزات الإسلام لا تزال تعيش حتى اليوم ، وستظل تعيش إلى يوم الدين ، وهى معجرات من طبيعة تختلف عن طبيعة المعجزات التى جاء بها الأنبياء من قبل .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

الروح والمادة فى التفكير الإسلامى

هناك شخص يتطلّع للذّة ويعيش لها ، حياتُه كلها صراع ليُحقّق مالاً وفيراً ، ومنزلا فخما ، وطعاماً شهياً ، ومركباً فاخراً وغير ذلك من ملذات الحياة ، وهناك شخص ، أهمل الدنيا ، وقتل رغبات الجسم ، وهجر الحياة بما فيها من خير وشر ، ولجأ إلى كهف أو معبد يمضى به حياته فى عبادة تكاد تكون متصلة .

ومثل ذلك المجتمعات ؛ فهناك مجتمعات اتجهت لعبادة المادة وعُنيتْ بها ، وأنكرت الحياة الروحية وسخرت منها ، كما تعيش الدول الرأسمالية والشيوعية جميعاً ، وعلى العكس من هذه المجتمعات ، دعوةُ المسيحية التى ترى أن دخول الجمل فى سُمّ الخياط أسهل من دخول الغنىّ ملكوت الله ، والتى تدفع الناس للرهبانية وهجر الحياة الدنيا .

كلاَ الاتجاهين لا يقرُّه الإسلام لا فى الفرد ولا فى الجماعة ، ذلك لأن الإسلام دين الفطرة ، والفطرة التى خلق الله الإنسان عليها هى أنه جسم وروح فيلزم ـ لإسعاده ـ العناية بهما جميعاً ، ومن أجل هذا اتجهت ثقافة الإسلام إلى تربية جسم الشخص وتربية روحه ، والجماعات عبارة عن مجموعة من الأفراد ، فسلامة الفرد جسما وروحا معناه سلامة المجتمع جسمياً وروحانيا كذلك .

ومن اهتمام الإسلام بالناحية المادية فى المسلم أن أحلّ له الطيبات ، وحثه على التمتع بزينة الحياة الدنيا ، وأوجب عليه المحافظة على الصحة ، وحبّبَ إليه العمل لخير الدنيا لنفسه ولذوية ، والآيات والأحاديث فى هذا المضمار عديدة واضحة نذكر منها :

– يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إن الله لا يحب المسرفين ، قُل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[١] .

– كلوا من طيبات ما رزقناكم[٢] .

– والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون[٣] .

– هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه[٤] .

– هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً[٥] .

– يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحلَّ الله لكم[٦] .

– إن لبدنك عليك حقاً .

– المؤمن القوىُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير .

وهناك حديث يرويه أستاذنا الإمام « محمد عبده » بعد مقدمة ، فيها مقارنةٌ رائعة . قال رحمه الله تعالى : وصاحب هذا الدين صلى الله عليه

(١) سورة الأعراف الآيات ٣١ – ٣٢ .
(٢) سوره البقرة الآية ٥٧ . (٣) سورة النحل الآيات ٥ – ٨ .
(٤) سورة الملك الآية ١٥ . (٥) سورة البقرة الآية ٢٩ .
(٦) سورة المائدة الآية ٨٧ .

وسلم لم يقل : « بع ما تملك واتبعنى » ، ولكن قال لسعد بن أبى وقّاص ، وقد أراد أن يتصدق بثلثى ماله ، أو بماله كله : الثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس[١] .

وسنتكلم فيما بعد عن العبادات ، وأنه أريد بها خدمة الجسد والروح ولهذا فإن المسلم يُعفى منها أو تُخَفَّف عنه طريقة أدائها ، إذا كان فى أدائها على الوجه العادى ما يمكن أن يسبب ضرراً للجسم ، فالوضوء والغسل يسقطان عن المسلم إذا خيف الضرر ، أو إذا عرضت مشقة فى تحصيل الماء ، ولا يجب صوم رمضان على الحامل ، أو المريض ، أو المسافر ، ولا يلزم القيام فى الصلاة لمن يشقُّ ذلك عليه ، ولا يلزم السعى لصلاة الجمعة إذا كان هناك وحل أو مطر يضران بالساعى ، وهكذا تتحقق القاعدة . « صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان » .

ومن النظم التى وضعها الإسلام للوقاية ، ولحفظ الجسم من الأمراض أن حثَّ المسلم على الاستياك ، وقص الأظافر والشعر ، والاستنجاء ، والنظافة عامة بالوضوء أو الغسل .

ومنها أن حرَّم عليه أكل ما يضر ، أو شُرب ما يؤذى الصحة ، فحرَّم أكل الدم والميتة ، وما أكل السبع ، وحرَّم لحم الخنزير ، وشرب الخمور ، وما ماثلها من مواد تؤثر على العقل والجسم . كالحشيش والأفيون بل والدخان فى رأى بعض العلماء ، كما حرَّم وطء الحائض ، وحرَّم الزنا ، وألزم التعجيل بدفن الميت ، وغير هذا من الأشياء التى لو حللناها واحداً واحداً لوجدنا السبب الرئيسى فيها هو المحافظة على الجسم ووقايتـــه من

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٧٨ .

الأمراض التى أكّد الطب الحديثَ حدوثها لو أُهملت هذه التعاليم[1] .

ومن رعاية الإسلام للجسم ، أنْ أباح للمسلم الجائع أن يأخذ ما فضل عند صاحبه ، رضِيَ صاحب الفضل أو لم يرض ، فانْ قاتَلَ المحتاج لذلك فله الحق ، فإن قُتِل مات شهيداً ، وعلى قاتله القود ، وإن قُتِلَ صاحب القود فلا قَوَدَ على القاتل[2] .

ومن رعاية الإسلام للأبدان كذلك أن حث على الرياضة ، وقد وردت أنواع منها فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى عنه قوله :

— ألا إن القوة فى الرمى .

— حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى .

— ما روته عائشة : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، ثم سابقنى فسبقنى ، فقال : « هذه بتلك » .

ووردت أحاديث أخرى تحثّ على المبارزة ، بالحراب ، والمصارعة ، وغيرهما من أنواع الرياضة ، والمقصود منها جميعاً هو تنمية قوة الأجسام ، والمحافظة على نشاطها .

أما اهتمام الإسلام بالروح فقد بلغ الغاية ، وقد كان من الواضح فى التفكير الإسلامى أنّ حصْر الاهتمام بالجسم وبالقوى المادية لن يُنتج تقدماً للعالم بقدر ما ينتج الدمار له .

---

(١) اقرأ « كتاب الإسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز إسماعيل ، وكتاب « الطب الحديث يترسم خطا الإسلام » للدكتور حامد الغوابى .

(١) ابن حزم الأندلسى : المحلى ج ٦ ص ١٥٩ .

وقد قلت فى كتابى « المجتمع الإسلامى »[1] إن النهضة العلمية التى وصل إليها الغرب هى فى الحقيقة نهضة مدمرة ، تهدد العالم كله بالفناء ، وتتركه قبل الفناء يعيش فى خوف ووجل ، متوقعاً الخراب والدمار . وبعبارة أخرى : يعيش يترقب الفناء ، مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن تُسْعِدَ البشر ، ولكنها بدلا من ذلك تنفق لإنتاج القنابل الذرية والهيدروجينية التى تُعَدُّ للقضاء على البشر ، وكل ذلك لأن هذه المدنية ملحدة ، مدنية بُنيت على نظام اقتصادى ، وأباحت للإنسان أن يقتل أخاه الإنسان ليحصل على ما فى يده من طعام أو كساء ، ولم يدخلها عنصر الأخلاق ولا عنصر الإيمان : ومن هنا : فهى سراب يضىء ، ولكنه ضوء خداع .

لقد بلغت النهضة الصناعية فى ألمانيا غايتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وكانت ألمانيا فى المقدمة بين دول العالم مدنية وحضارة ، ولكن هذه المدنية المدمرة كلفت العالم ملايين البشر يخرُّون صرعى وجرحى فى الحرب التى شنتها ألمانيا ، أو التى دُفعت إليها ألمانيا من الدول المماثلة .

وكان تفتيت الذرة أرقى ما وصل له الفكر الإنسانى ، ولكن سرعان ما دمر وأفنى فى اليابان قبل أن يعرف الناس من خيره قليلا أو كثيرا .

ومن أجل هذا عنى الإسلام بالروح عنايته بالجسم ، ووضعهما فى كفتى ميزان بحيث لاترجح إحداهما الأخرى ، فحث الإنسان على الإيمان بالله الواحد الأحد ، وعلمه ألواناً من الخلق السامى ، وكرَّه إليه رذائل الأخلاق ، امتدح التعاون وألزمه ، وحبب للمسلم الإيثار ، والتآخى فى الإسلام ، وفرض ألواناً من العبادات التى تهذب الروح ، ووضع نظماً أخلاقية نادرة تُكسب النفس صفاء ، وتَهَبُ الروح سماحة ونبلا ، اقرأ معى هذه الآيات :

---

(١) المجتمع الإسلامى : أسس تكوينه ، أسباب تدهوره ، الطريق إلى إصلاحه ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

– وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان[١] .

– ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[٢] .

– إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم[٣] .

– واذكر ربك إذا نسيت[٤] .

– لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون[٥] .

– ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[٦] .

– خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[٧] .

– ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا[٨] .

– وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين[٩] .

– يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب[١٠] .

– يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا[١١] .

(١) سورة المائدة الآية ٢ .
(٢) سورة الحشر الآية ٩ .
(٣) سورة الحجرات الآية ١٠ .
(٤) سورة الكهف الآية ٢٤ .
(٥) سورة آل عمران الآية ٩٢ .
(٦) سورة فصلت الآية ٣٤ .
(٧) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .
(٨) سورة الإسراء الآية ٣٦ .
(٩) سورة الإسراء الآيتان ٢٦ – ٢٧ .
(١٠) سورة الحجرات الآية ١١ .
(١١) سورة الحجرات الآية ١٢ .

– يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم(١) .

هذا ويكثر فى الإسلام أن ترى الآية أو الحديث تجمع بين فوائد الدنيا والآخرة ، بين صحة البدن وسلامة الروح ، لأن كلا منهما ككفة الميزان إن رجحت فعلى حساب الأخرى ، اقرأ قول الله وقول الرسول :

– وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا(٢) .

– فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقِنَا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا(٣) .

– يا أيها الذين آمنوا إذا نودىَ للصلاة من يوم الجمعة فاسعوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قُضِيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله(٤) .

– اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وهكذا يوفق الإسلام بين المادة والروح دون أن يَدَعَ أحدا منهما يطغى على الآخر أو يتغلب عليه ، فإذا تغلبت المادة على الروح فى المسلم هتف به القرآن الكريم :

– مَنْ كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايُبْخَسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطلٌ ما كانوا يعملون(٥) .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .
(٢) سورة القصص الآية ٧٧ .
(٣) سورة البقرة الآيات ٢٠٠ – ٢٠٢ .
(٤) سورة الجمعة الآيتان ٩ – ١٠ .
(٥) سورة هود الآيتان ١٥ – ١٦ .

– اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخرٌ بينكم ، وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتهُ ، ثم يهيجُ فتراهُ مصفرًّا ، ثم يكونُ حُطاما(١) .

وإذا تغلبت الروحانيات على االادة فى مسلم صدمته مصادر الإسلام التى تُحتِّم أن يهتم المسلم بالجانب المادى فيه اهتمامه بجانب الروح ، فقد رُوِىَ أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال الرسول : أيُّكم يكفى طعامه وشرابه ؛ فقالوا : كلنا . فقال : كلكم خير منه . ويُروى أن عمر بن الخطاب نظر إلى رجل يظهر النسك حتى ضعف جسمه واعتلَّت صحتُه ، فخفقه عمر بالدرَّةِ وقال : ليس هذا الفعل من ديننا .

تلك هى سياسة الإسلام تجاه الروح وتجاه المادة ، وهى لاشك سياسة رشيدة تدفع المجتمع تجاه التقدم ولكنها تحمى تقدمه من الدمار والفناء .

(١) سورة الحديد الآية ٢٠ .

فلسفة العبادات فى الإسلام

العبادات فى الإسلام تنحصر فى أربعة أنواع ، هى : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وربما لايتسع هذا الموجز للحديث عن تفاصيلها ، فلهذه التفاصيل مظان أخرى . وإنما نكتفى بكلمة قصيرة نمهد بها لموضوعنا ، وهو الحديث عن فلسفة هذه العبادات .

والصلوات المفروضة خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وهى صلاة الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء .

وصلاة الصبح ركعتان ، وصلاة المغرب ثلاث ركعات ، وما عدا هذين فأربع ركعات ، ويصليها الإنسان منفرداً ، ويحسن أن يصليها فى جماعة .

وهناك صلاة واحدة يلزم أن تُؤدى فى جماعة ، وهى صلاة الجمعة التى تحلُّ محلَّ ظهر يوم الجمعة ، وهى ركعتان .

وبجانب هذه الصلوات المفروضة على المسلمين جميعاً هناك صلاة أخرى تسمى فرض كفاية ، أى أن أداءها من بعض المسلمين يعفى الآخرين من القيام بها ، وهى صلاة الجنازة .

وهناك بجانب هذه الصلوات صلوات مندوبة ، كصلاة العيدين ، والنوافل .

ولا بد من الطهارة قبل الصلاة ، تلك الطهارة التى تتحقق بالاستحمام عند حدوث جنابة ، أو بالوضوء إذا لم تكن هناك جنابة ، ويلزم كذلك طهارة الملبس ومكان الصلاة .

* * *

وتجب الزكاة فى خمسة أنواع هى : النقد (الذهب والفضة) وعروض التجارة والسوائم والزروع والثمار ، ويشترط لوجوب الزكاة فى كلٍّ من هذه الأنواع أن يصل المال إلى مقدار معيّن جعَلَه الشارع دليلا على الغنى واليسار ، فإذا لم يصل المال إلى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه . ويشترط كذلك الحول والنماء ، وأن تكون الماشية سائمة ، وأن تبلغ الزروع حد قوّتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحها .

وأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة . فإذا بلغت عشراً ففيها شاتان .

وأول نصاب البقر ثلاثون وفيها تبيع أتمَّ ستة أشهر ، فإذا بلغت أربعين ففيها مُسِنَّة أتمت سنة . . .

وفى أربعين شاةً شاةٌ إلى مائة وعشرين ، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان ، وفى مائتين وواحدة ثلاث شياه ، وفى أربعمائة أربع شياه ، ثم فى كل مائةٍ شاةٌ

وزكاة النقد وعروض التجارة ربع العشر .

وزكاة الزروع والثمار العشر إذا سُقيت بالسيح أو الأمطار ، فإذا سقيت بالآلات فزكاتها نصف العشر .

وقد أورد القرآن الكريم مصارف الزكاة فى الآية الكريمة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل »[1] ، وإذا لم تَكْفِ الزكاة لحاجة الأفراد أو الدولة كان للحاكم أن يأخذ من أموال الأغنياء ما يفى بهذه الحاجة مهما بلغ من قدر ما يأخذه[2] .

* * *

(١) سورة التوبة الآية ٦٠ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك فى « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف ص ١٩٠ — ١٩٢ .

والصوم هو الامتناع عن الأكل والشرب والملابسة الجنسية من الفجر إلى غروب الشمس ، وهو فرض خلال شهر رمضان على المسلم البالغ القادر الذى ليس له عذر شرعى كالمرض أو السفر أو الشيخوخة أو حيض المرأة أو نفاسها .

* * *

والحج هو قصد البيت الحرام بمكة للعبادة فى وقت معين هو شهر ذى الحجة ، على أن يتم الوقوف بعرفة فى التاسع من هذا الشهر ، وينتهى الحج بالطواف حول بيت الله الحرام بمكة ويجب الحج مرة فى العمر .

* * *

وكثيراً ما تُخفف هذه العبادات ، وكثيراً ما تسقط على النحو الواضح فى كتب الفقه ؛ فالصلاة للمريض يمكن أن تؤدى وهو قاعد أو وهو مضطجع ، ويمكن أن تؤدى حتى بإيماءات خفيفة أو برمش العين ، فالمقصود فقط أن يظل المسلم على صلة بربه فى صحته ومرضه ، وتُجْمَع الصلاة وتُقصر للمسافر ، وتسقط على الحائض والنفساء .

ولا تجب الزكاة إلا على القادر الذى وُجِدَ عنده النصاب ، ولا يعتبر النصاب كاملا إلا بعد تقدير إسقاط الديون ، ويرى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد شلتوت أن الزكاة « لا تجب على الغنى إلا فيما فضل عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم[1] » .

ويؤجَّل الصوم فى حالة المرض والسفر والحيض والنفاس ، وتستبدل به كفارة فى حالة الشيخوخة .

(١) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٨٤ .

ولا يجب الحج إلا على القادر عليه من حيث الصحة والتكاليف وأمن الطريق .

* * *

تلك هى العبادات فى الإسلام ، وهى فيما نرى ويرى المنصفون رياضات جسمانية ورياضات روحانية ، وهى كذلك تنظم شئون الفرد وترتب شئون الجماعة ، وفيها رعاية أحوال الدنيا وبها صلاح حال الدين ، وهى « غذاء للإيمان وعلامة الصدق فيه »[1] وسنعود إلى كل من هذه العبادات نستوضح الهدف من فرضه ، ونستلهم المزايا منه ، ولكنا نبادر فنقرر أن بعض الأحكام لا يتفق الناس على فهم أسبابها ، بل ترى بعضها وكأنما ليس له علة ظاهرة ، واعتقادى أن غموض بعض العلل كسبب عدد الركعات فى الصلوات وكالنصاب فى بعض ما تجب الزكاة فيه ، فلسفة لها مغزاها المهم ، إنها ترمى إلى تعليم الطاعة أحيانا ولو لم يظهر سبب الأمر ، وما ألزَمَ الطاعة المطلقة فى كثير من الأحيان ، فالجند يلزم أن يطيعوا أوامر القائد دون أن يتساءلوا عن سببها ، والمرضى يلزم أن يتبعوا نصائح الطبيب وإن لم يعرفوا دوافعها ، وهكذا ، فإذا ظهرت لنا العلة واضحة فى الصلاة والزكاة فليس هناك داع أن نتتبع كل الجزئيات بالتعليل والبحث عن الأسباب .

ونعود الآن لهذه العبادات لنسرد طرفا من فلسفة الإسلام فيها : —

الصلاة :

من الواضح أن حركات الصلاة حركات رياضية ، وأن تلك الحركات تشمل الجسم كله ، وهى منتظمة كالانتظام الحديث للرياضة البدنية ،

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : منهج القرآن فى بناء المجتمع ص ١٧٤ .

ولو نظرت إلى المصلين في صلاة الجمعة أو الجماعة وهم يركعون معا ، ويسجدون معا ، ثم يقفون ، لحسبتهم يؤدون حركات جسمانية للرياضة كتلك التي يؤديها الشباب في الساحات الرياضية .

وقد حثَّ الإسلام على انتظام الصفوف فى الصلاة وعدم ترك فرجة فيها ، وذلك بلا شك تعليم للنظام وترتيبِ الأمور ، وقد وحَّد الإسلام قِبلةَ المسلمين ، فاتجهوا جميعاً نحو مكان واحد هو مكة المكرمة ، ووقفوا يرددون نفس الكلمات ، وتتجاوب فى نفوسهم نفس المعانى ، وهناك تصوير جميل وضعه باحث مسيحي يصوز به المسلمين وهم يصلون ، ونحن نقتبسه فيما يلي : وإذا نظرت إلى العالم الإسلامى فى ساعة الصلاة بعين طائر فى الفضاء وقُدِّر لك أن تستوعب جميع أنحائه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة ، وتنتشر فى مساحة تزداد قدرا وحجما[1] .

ويلتقى فى المسجد الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، ويسجد الجميع لله ، وله يركعون ، وهذا تأكيد لخلق المساواة ، ووضع للنظرية الإسلامية فى المساواة موضع التنفيذ .

وفى صلاة الجماعة وصلاة الجمعة التقاء عائلى على نطاق واسع ، يعرف أهل المحلة خلاله أحوال بعضهم البعض ، فإذا غاب شخص تساءلوا عنه ، وتعرفوا سبب غيابه ، فإن كان مريضاً عادوه ، أو محتاجاً ساعدوه ، كما أن الاجتماع يكون فرصة لتسرى الأخبار داعية للتعاون المنشود .

ويلتقط خطباء الجمعة الأخبار المهمة فى داخل المحلة وخارجها ليجعلوا منها مادة لوعظهم ، فيحاربون الضلال ، وينشدون البرَّ والهدى والرَّشاد .

---

(1) Hitti : History of the Arabs Vol. I. pp. 130—131

وفى الصلاة ثروة روحية عالية ، فهى تبدأ بتكبيرة الإحرام « الله أكبر » وتلك العبارة تحمل صراخاً فى وجه المتكبرين والمتجبرين بأن الله أكبر منهم وأعظم ، أو أن قواهم ليست شيئاً وجبروتهم ليس إلا خيالا ، وبتكبيرة الإحرام يبدأ المسلم رحلة إلى الله ، رحلة روحانية ، لم يتزوَّد لها المسلم بطعام أو شراب ، وإنما تزود لها بقراءات وأدعية ، ويخلو المسلم إلى الله فترة من الزمان ، بعد أن خلَّص نفسه من علائقها المادية ، واتجه اتجاها تاماً إلى ربه ، فلا يطعم ولا يشرب ، ولا يكلم أحداً إلا الله . فيناديه ويناجيه ؛ يحمده على نعمه . ويستغفر له من ذنبه . ويطلب منه الهداية والتوفيق للطريق القويم .

ويركع المسلم ويسجد ، وهو يناجى ربه بأن الخضوع لا يكون إلا لك ، والإنحناء لا يليق إلا أمام جلالك وعظمتك .

وتختم الصلاة بمجموعة من « التحيات » يذكر المصلى فيها ربه ويكرر تعظيمه وإجلاله ، ويذكر النبي الكريم الذى حمل هذه الرسالة فقاد أتباعه إلى شاطئ السلامة ، ويذكر كذلك إخوانه المسلمين ؛ ويدعو لهم بالخير والصلاح .

وكل صلاة من الصلوات الخمس لا تستغرق أكثر من خمس دقائق فى وضعها العادى . ولكن كثيرين من الناس يستكثرون هذه اللحظات .

والسبب فى ذلك واضح هو أنهم لا يحسون بحلاوة القرب من الله . ولا بلذة المناجاة . لأنهم حين يصلُّون ليسوا قريبين منه . وحين يتكلمون لا يناجونه . إنهم يدخلون الصلاة ليقوموا بأعمال أوتوماتيكية . ولتنطق ألسنتهم بما لا تعيه عقولهم .

إن فكرهم بعيد عن الله . إنهم يرتبون وهم يصلون ما سوف يعملون بعد الصلاة ، وقد يكون ما يرتبونه ضلالا أو شرا ، أو يستعرضون ما مر بهم من أحداث ، وكثيرا ما كانت تلك ضلالا أو شرا كذلك .

إنهم أشبه بأعمى تضعه أمام لوحة فنية ممتازة ، أو أصم تصحبه إلى حفل موسيقى ، فسرعان ما يضيق به هذا وذاك ، لأن كلا منهما لا يستمتع بما فيه من لذة ، ولم يصل إلى شغاف نفسه ما به من جمال .

قل لى بربك : مَنْ ذا الذى يضيق بجلسة مع خالقه ورازقه ، ومن ذا الذى يضيق بحديث يوجهه إلى ربه يشكره ويذكره ويدعوه ؟

ما من لحظة يلتقى الإنسان فيها التقاء صحيحاً بربه إلا وتمنى أن تطول ، فإذا ضقت ذرعا بالصلاة فلنبحث عن الداء الذى دفعك إلى هذا الضيق ، وأغلب الظن أنه ماديتك ، أى أنك مرتبط بالمادة منجذب لها ، فلا تستطيع أن تصل إلى سماء الروحانيات ، واسأل نفسك كم ساعة تضيع كل يوم فى الأكل والشرب واللهو ، وسترى أن وقت الصلاة ضئيل جداً إذ قيس بأوقات الماديات التى تحيط بك .

وهناك مقياس واضح وضعه الإسلام لتعرف به مقدار البر فى صلاتك ؛ قال تعالى : « أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[1] » ويعنى هذا أن وقفتك الحقيقية أمام الله مصلياً ستطهر نفسك وتبعد الرجس عنك ، وكلما رأيت رجل يصلى ولكنه يقدم على الفحشاء والمنكر ، فلتعرف أن صلاته حركات لا مغزى لها ، وأقواله خالية من المعانى .

الزكاة :

ماذا نقول عن الزكاة فى الإسلام وما بها من ثقافة روحية ؟ لقد طاف العالم برحلة طويلة منذ بدء البشرية حتى الآن ، وشهد العالم فى أثناء هذه الرحلة فيضاً من الدماء وألواناً من الحروب التى تسببت عن المال بسبب التزاحم عليه والتكالب لنيله ، وقد وصف الإسلام الدواء للبشرية منذ

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

أربعة عشر قرناً ، ولكن كثيرين من الناس صموا آذانهم ولم يعوا هذه الدعوة ، وهبت الحروب وأريقت الدماء ، ثم وجد العالم ألا بُد من أخذ قسط من مال الغني ورده إلى الفقير ، بل بالغت التشريعات فأزالت الملكية بتاتاً ، وحدّت التوارث أو منعته ، وجعلت الناس متساوين فيما يملكون ، والطريقان بعيدان عن الصواب ، فحصر الثروات فى أيد قليلة شر لا يقرُّه الإسلام « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »(١) والمساواة التامة بين الناس شيء يناقض الطبيعة ؛ فالطبيعة فاوتت بين الناس فى الصحة والذكاء والجمال والصوت وغيرها ، والطبيعة تجعل الأبناء يرثون عن آبائهم هذه الصفات أو أكثرها والطريق الوسط هو اشتراكية الإسلام ، وسنعود لها بحديث فيما بعد ، وقد أوضحناها إيضاحاً كاملا فى كتاب آخر(٢) .

و « المال والبنون زينة الحياة الدنيا »(٣) وطبيعة الإنسان الشح « قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشيةَ الإنفاق ، وكان الإنسان قتورا(٤) » والإنسان يعمل لينمّيَ ماله فى تجارة أو زراعة أو غيرهما ، ثم يقدّم الزكاة من هذا المال العزيز الذى كدّ فى جمعه وتنميته ، والذى هو زينة الحياة الدنيا على الرغم من طبيعته الشحيحة ، إنها رياضة نفسية رائعة فرضها الإسلام ليسمو بالمسلمين عن دنيا المادة إلى صفاء الروح ، وليعلمهم الحياة الاجتماعية السمحة التى لا يُشْغَل فيها الشخص بنفسه وآله ويدع من سواهم ، فالإسلام بالزكاة ينقل الإنسان من الأنانية إلى الإيثار ، ومن الفردية إلى الجماعة ، فيحس أنه فرد فى هذا المجموع ينتفع به وينفعه(٥) .

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .

(٢) السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى للمؤلف ص ١٧٥ وما بعدها .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٦ . (٤) سورة الإسراء الآية ١٠٠ .

(٥) المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ٥٧ .

وقبل الإسلام كانت هناك ضرائب ، ولكنها كانت مفروضة على الفقير يدفعها للغنى ، يدفعها من عرقه وجهده ، فإن لم يكف العرق والجهد سجن فيها أو دفعها من دمه ، فجاء الإسلام وصحح الوضع فجعل الضريبة على الغنىّ يدفعها لصالح الفقير .

وشهد التاريخ ثورات شبت نتيجة الضغط والقسوة ، وكانت ثورات قامت بها الشعوب ضد الملوك ، ولا تزال نظائر لها تحدث فى عهدنا الحاضر ، إذ يضيق الشعب بحاكمه الذى يأخذ الخير كله لنفسه ، فيهبُّ فى وجهه ، وتراق الدماء وتكثر الضحايا من الجانبين ، ولكن الإسلام شهد حرباً من نوع آخر ، إنها حرب أشعلها الحاكم لمصلحة الشعب ، إنها تلك الحرب التى قادها أبو بكر وهو يهتف : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله لقاتلتهم عليها » ولم يتوقف أبو بكر حتى أخذ للفقراء حقهم من الأغنياء وأصحاب النفوذ .

وهكذا نجد الزكاة أداة تطهير روحانى بالغ الغاية ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك أبلغ تعبير ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[1] » وقد وضع النظام الإسلامى أسس الاشتراكية فى أسمى معانيها فجعل (المال ملكا للأمة ، تحفظه اليد المستحقة فيه وتنميه ، ثم تنتفع به الأمة كلها ، يخرج من أحد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر ، فهو منها كلها ، وهو إليها كلها ، وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية ، ولا خادم فيها ولا مخدوم ، وإنما هما خادمان لشخصية واحدة هى شخصية المجتمع الذى الذى لا قوام له ولا بقاء ، إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه[2]) .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٤ .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٨٧ — ٨٨ .

الصوم :

الصوم من العبادات التى تهذب الجسم والروح أيضاً ، وكثيرون من الناس يلجئون إلى ما يسمونه Regime وهو التخفيف من الطعام ، أو إلغاء بعض الوجبات ، أو عدم تناول نوع معين أو أنواع معينة من الأطعمة ، ويقصدون بذلك الهرب من الترهل أو يقصدون بعث النشاط إلى الجسم ، وإراحة المعدة من التخمة ، وقد عبر الرسول عن هذا المعنى بقوله : (نحن قوم لانأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لانشبع) ولما كان أغلب الناس لا يقوون على الحدّ من نهمهم من تلقاء أنفسهم ، وكانت الرغبة فى الطعام تدفعهم إلى أن يأكلوا بدون حساب ، فقد جاءت فريضة الصوم لتعالج هذا الداء ، وتيسر السلامة للأجسام ، وأعرف بعض المسيحيين أدركوا ما فى الصوم من فوائد للأجسام ففرضوه على أنفسهم وقاموا به على النحو الذى يتبعه المسلمون مع استمرارهم على اعتناق المسيحية .

أما الناحية الروحية للصوم فجلية واضحة ، وقد أدركت البشرية منذ عهود سحيقة ما يسببه الصوم من تهذيب للنفس وسمو للروح ، وأدركت أن الصوم معناه إهمال الماديات واحتقارها ، وفى ذلك تقوية للجانب الروحى فى الإنسان ، فلجأ الفلاسفة القدامى للصوم ، أو قل : للحرمان ، وبالغوا فيه يقصدون القضاء على الجانب المادى فى الإنسان أو كما فهمته الهندوكية والبوذية يقصدون إفناء الجسم الذى هو قفص تُحْبَس فيه الروح ، معتقدين أن القضاء على هذا القفص سيترتب عليه انطلاق الروح وتحررها ، وقد هذّب الإسلام هذه العبادة ، ولم يقصد بها القضاء على الجسم ، وإنما قصد بها هدفاً مزدوجا هو ترقية الجسم وترقية الروح جميعا .

والذى يفكر فى الصوم كما نظمه الإسلام يجد أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح فى صراعها مع الجسم ، وأنه عن طريق الصوم

يتحرر الإنسان من العادات التى خضع لها على مر الزمن ، كتناول الطعام فى وقت معين ، وكالتدخين والمرح ، تلك العادات التى يمكن أن يقال إنّ الشخص أصبح عبداً لها لا يستطيع أن يتخلف عنها .

كم استاء زوج لأن زوجته تأخرت فى إعداد الطعام عن موعده ، وكم اضطرب رجل لأن لفافات الدخان نفدت منه فى وقت لا يستطيع أن يشترى بدلها ، كأن يكون فى الليل أو فى رحلة ، وفى كثير من الأوقات يصبح الواجد معدما ، على أن الغنىّ وهو فى أوج غناه تأتى عليه ظروف يحتاج فيها إلى كوب ماء فلا يجده ، أو كسرة خبز فتعزّ عليه ، فكم من الأغنياء يعطش وهو فى جلسة عامة أو فى دار الخيالة وليس للماء فى العادة سبيل آنذاك ، وكم اضطرت الأعمال ذوى الأعمال أن يتأخروا عن مواعيد طعامهم وقتا طويلا أو قصيراً ، وليس الصوم إلا مدربا يُعِدّ الشخص للتغلب على العادة التى اعتادها ، ويساعده على عودة السيطرة على جسمه ونفسه لما قد يلم به من مشكلات وأزمات .

وقد حدث لى باندونيسيا حادث وثيق الصلة بموضوعنا هذا فى خلال كتابة تلك النقطة من هذا الكتاب ، ولم يحدث لى وحدى وإنما حدث لرفاق معى أيضاً ، وقصة ذلك أن فضيلة الأستاذ الأكبر (المرحوم) الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر كان فى زيارة رسمية لاندونيسيا وكان فى خطة تنقلاته بها أن يزور مدينة ميدان بسومطرة وأن أرافقه مع آخرين فى هذه الرحلة ، وكانت الطائرة على أن تغادر مطار جاكرتا فى الثانية بعد الظهر ، فكان مطلوبا منا أن نكون فى المطار فى الساعة الواحدة لنسلم حقائبنا ونؤشر على تذاكر سفرنا ، ومعنى هذا أننا خرجنا من بيوتنا حوالى الساعة الثانية عشرة ، ثم تأخر موعد قيام الطائرة من الثانية إلى منتصف الثالثة تقريباً ، وعلى هذا بدأنا الرحلة وليس فينا شخص واحد تناول طعام الغداء ، معتقدين أن الطائرة ستقدّم لنا

هذه الوجبة ثم ظهر أن الطائرة لا تقدم تلك الوجبة على اعتبار أن الرحلة تبدأ بعد فترة الغداء ، واستغرقت الرحلة حوالى أربع ساعات ، وهكذا كنا نسير بين الأرض والسماء ونحن جياع ، وفى جيوبنا أموال ولكنها لا تسمن ولا تغنى من جوع ، والعجيب أننا بعد أن نزلنا وجدنا أنفسنا أمام استقبال رسمى وخطط مرسومة فلم نر الطعام إلا بعد الساعة العاشرة .

وقد أدركت من هذه الحادثة مغزى هاما من دوافع الصوم ، فالصوم يعلمنا الصبر ويجعل مثل هذه الأحداث أمرا عاديا ، فالصائم الذى يقضى حوالى ست عشرة ساعة كل يوم دون طعام أو شراب يستطيع أن يواجه أمثال هذه الظروف بابتسامة ورضا ، لأن الجوع ليس غريبا عليه إذ يعانيه شهرا كل عام .

ومن الفوائد الروحية الجليلة للصوم غرس خلق المراقبة الذاتية فى النفس ، فالصوم واجب فى رمضان ، والاستحمام جائز أو واجب أحيانا ، وفى حالات كثيرة يشتد العطش بالمسلم فى نهار رمضان ، ثم يلقى بنفسه بين الماء ليستحم ، ويعمه الماء من كل جهة ، وهو شديد الحاجة إلى كوب منه يطفىء به ظمأه ويرد عطشه ، ولكنه لايفعل مع أنه لارقيب من البشر عليه ، ولن يعلم أحد من الناس ما ارتكب . وهذا الخلق نوع من التربية السامية يغرسه الإسلام فى المسلم ليسير فى الحياة مستقيما ، لاخوفا من القانون فطالما استطاع كثير من الناس أن يخدعوا القانون ، ولاخوفا من الناس فطالما أفلت المجرم من عيون الناس ، ولكن خوفا من نفسه ومن ضميره ومن الله الذى « لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء »[1] والذى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[2] » .

---

(١) سورة آل عمران الآية الخامسة . (٢) سورة غافر الآية ١٩ .

الحج :

ربما كان مفيدا ونحن على باب الحديث عن الحج وما به من فوائد مادية وروحية أن نتذكر الإحصائيات الخاصة بالسياحة فى العالم ، وسنرى بلا شك آلاف الناس يقطعون ملايين الأميال كل عام لرؤية أهرام الجيزة أو للاستمتاع بشمس أسوان ، وللانزلاق على الجليد فى سويسرة ، ولرؤية صورة أقرب إلى الحياة الطبيعية أو البدائية ببعض أجزاء جزيرة بالى فى اندونيسيا ، وهكذا يسعى الناس من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق ،لا بدافع دينى ، ولا لهدف روحى ، وإنما لما تحققه الرحلات من مزيد فى التجارب ومزيد فى المتعة الجسمانية والعقلية ، ولاشك أن رحلة المسلمين حتى يصلوا إلى البلدان المقدسة سيكون لها فى هذا المجال نصيب وافر ربما كان وحده دافعا إلى القيام بها ، على النحو الذى يدفع إلى القيام بالرحلات المماثلة .

ولا يظن ظان أن شمس أسوان هى التى تدفع الرحالة إلى هناك ، لا ، فكثير من الناس يرحلون وهدفهم الرحلة فقط وما يعود على الإنسان منها من فوائد ذات بال ، بدليل أن الرحلات تنتظم كل بلاد العالم ، فإذا كانت حلوان مثلا تمتاز بمائها المعدنى وجوها الجاف الرائع الذى يعد علاجا لبعض الأمراض ، فإن أهل حلوان وما جاورها من المدن يرحلون أيضا ويتجهون برحلاتهم إلى أمكنة أخرى بعيدة عن حلوان ، ومن الواضح أن الإنسان يعد نفسه للرحلة ، ويهيئ لها المال والوقت ثم يحدد المكان ، فإذا لم يُتَيَسَّر له مكان اختار سواه لأن الرحلة فى ذاتها مطلوبة ، ولأن الإحساس بالرغبة فى الترحال إحساس يكاد يكون عاما ينتظم اليافع والراشد والذكر والأنثى . تلك حقيقة ليس فيها شك أو خلاف ، وتثبت الإحصائيات الرسمية أن عددا كبيراً من غير المسلمين يرحلون إلى

المملكة العربية السعودية ، ويقربون فى رحلاتهم من مكة والمدينة وإن كانت القوانين لا تبيح لهم أن يدخلوا هاتين المدينتين المقدستين .

ذلك حديث موجز عن رحلات المتعة واللذة التى يقوم بها آلاف الناس كل عام ، فإذا جئنا إلى رحلات الرياضة والعمل والمؤتمرات وجدناها تكاد لا تنقطع فى كل أطراف العالم ، ووجدنا البنات والنساء والرجال يرحلون دون انقطاع لما فى ذلك من فوائد عظيمة . وقد أشار القرآن الكريم إلى تحققها أيضا فى رحلة الحج بقوله : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم[1] » وكلمة « منافع » عامة شاملة تفيد التعارف بين المسلمين وتفيد التعاون فى مختلف الميادين سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها .

ومن الرائع أن نتذكر أن الإسلام منذ حوالى أربعة عشر قرنا هتف باجتماع سنوى حدّد زمانه ومكانه ليلتقى فيه المسلمون من مختلف الأقطار ليبحثوا مشكلاتهم وليشهدوا منافع لهم ، ومرت الأزمنة والعصور وتطورت المدنية وخطت الإنسانية خطوات واسعة تجاه المعرفة والتقدُّم فى كل مجال ، ولكن هذه الإنسانية فى أقصى درجات رقيها لم تجد بدًا من أن تستوحى التعاليم الإسلامية وأن تسير على نهجها فقررت الأمم المتحدة اجتماعا سنويا لها ، حددت زمانه ومكانه ، وذهب له المندوبون من مختلف الأقطار يقصدون التعاون أيضاً فى مختلف الميادين .

ولكن المدنية الحديثة حينما حَذَتْ حَذْوَ الإسلام وسايرت تعاليمه ، لم يكن فى وسعها أن تقتبس اتجاهاته كاملة ، فقنعت الأمم المتحدة بأن أخذت من الحج جزأه المادى وهو الاجتماع السنوى ، ونسيت أن التشريع الإسلامى هيأ الحج تهيئة روحية ، وأحاطه بظروف تحقق له أقصى

(١) سورة الحج الآيتان ٢٧ — ٢٨ .

درجات النجاح ، تعال بنا نستعرض بإيجاز تلك الظروف الروحية التى توحى بالحب والصفاء والتى لو استُغِلَّت الاستغلال الطبيعى لآتت أطيب الثمرات .

فالمكان الذى اختير للحج هو منزل الوحى ، هو هذه الأرض التى درج عليها محمد ، وتلقى بها رسالة ربه ، هو مكة ، حيث الصراع الطويل الذى دار بين الحق والباطل ، هو الموطن الذى شهد رسول الإسلام وهو يقهر الأحداث ، ويهزأ بما حسبته قريش انتصارات لها فى نضالها ضد النور المنبثق ، هذا المكان له إيحاءاته ، وله صفاؤه ، وله تاريخه ، إنه يهيئ زواره إلى درجة من الطهر والنقاء يصغر معها متاع الحياة وماديّاتها .

وقبل أن يدخل الحاج مكة يلزمه أن يُحْرِم ، والإحرام درجة فى الروحانية ذات بال ، يخرج المسلم بها من لباسه ومن زينته ، ولا يمس طيباً ، ولا يلبس مخيطاً ، ولا يقص ظفراً ، ولا يحلق شعراً ، ويكتفى بقماش ساذج يوارى به عورته ، ونعل بسيطة تحمى قدميه ؛ فالإحرام بعبارة أخرى إلقاء زينة الحياة الدنيا جانبا ، وتخلصٌ من المتع الزائلة ، وإشعار بالمساواة والأخوَّة بين المسلمين .

ويلتقى الحجيج جميعا فى التاسع من ذى الحجة بعرفات ، فى ذلك الجبل الفسيح بين الرمل والحصا ، وفى ذلك مزيد من الصفاء ، وتخلص من ماديات الحياة وأنوارها الـمُشِعَّة ، وما بها من جاذبية موقتة تسحر العيون ، وفتنة زائلة تشغل القلوب .

وهنا وهناك ترتفع الحناجر بالتلبية : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، ولا يستطيع قلم أن يصور الانفعال الضخم الذى يشمل الحجيج وهم يهتفون هذا الهتاف الخالد ، ولا نزاع أنه عندما تمتزج أصواتهم بالتلبية ، تمتزج

أرواحهم بالحب ، فيتناسون أوطانهم واتجاهاتهم ، ويلتقون جماعة واحدة لها إله واحد وتتبع رسالة واحدة ، تجعل منهم أمة واحدة وتجعل لهم هدفاً واحداً .

ذلك طرف من الحديث عن روحانية الحج، ولا شك أنه فى مثل هذه الظروف يمكن أن يكون الحج مؤتمراً دانى الثمرات محقق النفع ، فقد هيأت هذه التعاليم الحجيج لصفاء روحانى يجعل هدفهم أسمى من المادة ومن التكالب عليها والسعى لنيلها ، ويجعلهم يسعون للخير ، لا للانتصار على حساب الآخرين كما نرى فى الصراع الذى يدور دون انقطاع فى أروقة الأمم المتحدة ، وصدق الله العظيم حينما قال : « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج[1] » .

بقيت بعد ذلك نقاط نريد أن نستكمل بها حديثنا عن الحج ، وأول هذه النقاط أن الحج اجتماع شعبى ، لم يُخْتَرْ له مندوبون يمتازون بالحِجَاج والجدل ، بل تُرِك الباب مفتوحاً لمن يستطيع أن يأخذ فى هذا المؤتمر الشامل بنصيب ، والحجيج على هذا يمثلون كل الأقطار بل كل القرى ، ويمثلون كل الثقافات وكل الطبقات .

ولا يتجه الحجاج المسلمون فى حجهم إلى قبور يزورونها ويعظمون أصحابها كما تفعل كثير من الديانات ، لأن من مبادئ الإسلام التى لقيت كامل العناية فى التفكير الإسلامى إبعادَ المسلم عن كل ما فيه شبهةٌ تجاه تعدد الآلهة ، وعن مهزلة عبادة الإنسان أو عبادة الأصنام .

ولذة الحج يدركها الحجاج أكثر مما يدركها أولئك الذين يكتبون عن الحج دون أن يقوموا به ، ويمكننا أن ندرك هذه اللذة لو عرفنا أن آلاف الحجاج كل عام يقومون بالحج للمرة الثانية أو الثالثة أو السابعة أحياناً ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٧ .

فلأى شىء جُهْد هؤلاء ورحلتهم ونفقاتهم الباهظة بعد أن أدّوا الفريضة بحجهم الأول ؟ إنها ليست إلا للذة والمتعة التى يحسون بها والتى تفوق عندهم ما يبذلون من جهد وما يدفعون من مال ؟

ومما يتصل بهذا الموضوع أيضا ما نلاحظه فى مختلف البلدان الإسلامية من أن أكثر الذين يحجون ليسوا مكلفين بهذه الفريضة ، فقد أوضحت الشريعة الإسلامية أن الحج يجب على صحيح البدن ، بشرط أن يملك تكاليف الرحلة ، ويملك الإنفاق على نفسه خلالها عن سعة ، ويملك ما يتركه لأهله ليعيشوا فى رخاء مدة غيابه ، على أن يكون هذا المال خاليا من الديون والحقوق . ولو قارنا هذه الشروط بآلاف الحالات لوجدنا أن غالبية الحجاج يقومون بالحج لا إسقاطا للفريضة لأنها فى الحق ليست واجبة عليهم ، بل يقومون بالحج للذة والمتعة والبهجة والسرور .

بقيت كلمة تتصل بالحجر الأسود ، ذلك الحجر الذى كانت تعظمه قريش فى الجاهلية لأنه من بقايا الكعبة التى بناها أبوهم إبراهيم ، والذى يبدأ عنده الطواف حول الكعبة ، ولما كان بعض المسلمين قد اعتادوا أن يقبّلوه فقد فهم المستشرقون من ذلك أن فى الإسلام بقيّةً من وثنية الجاهلية ، وردُّنا عليهم أن الحجر الأسود لم يكن من بين أصنام العرب وأوثانها ، وهذا شىء واضح تمام الوضوح لدارس وثنية العرب[1] ، فأصنام العرب معروفة دون شك ولم يكن من بينها قط الحجر الأسود أو الكعبة ، وإذا اتضح أن العرب فى جاهليتهم لم يقدسوا الحجر الأسود ولم يجعلوه بين أوثانهم فكيف يجوز الاعتقاد بأن المسلمين قدسوه ؟

ولندع العرب فى جاهليتهم ولنعد إلى الإسلام ، وهناك رواية شائعة تقرر أن عمر بن الخطاب قبّل الحجر الأسود ولكنه وضّح مكانة ذلك

(١) اقرأ كتاب الأصنام لابن الكلبى ، وانظر مبحث الدين فى الجزء الأول من « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف .

الحجر وسبب تقبيله له بقوله : والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

هل هذه الرواية صحيحة ؟

الحق أننى كنت أظنها رواية مجمعا عليها ، ولكنْ حدث أننى ألقيت بالمذياع حديثا عن هذا الموضوع ضمن سلسلة أحاديث دينية ، وتكلمت عن الحجر الأسود مع التسليم بهذه الرواية والتعليل لتقبيل عمر للحجر مفترضا حدوث ذلك ، ثم اتصل بى بعض الباحثين وذكروا أن هذه الرواية موضوعة ، وأنكروا بأدلة ذكروها أن الرسول قبَّل الحجر أو أن عمر قبَّله .

وعلى هذا فإنكار هذه الرواية يضع حدا للموضوع ، ولكن إنكار هذه الرواية ليست موضع إجماع ، فلنْسر فى الموضوع على فرض حدوث التقبيل :

لماذا قبَّل الرسول الحجرَ الذى لا يضر ولا ينفع ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نذكر أولا — أن تقبيل الرسول للحجر عمل شخصى لا تشريعى ، ولهذا فليس تقبيله واجبا على الناس ، ثم — ثانيا — يبدو لى أن الرسول قبَّلهُ لحادث خاص تاريخى له صلة بالرسول ، وكلنا يذكر أن قريشا جدَّدت بناء الكعبة ومحمد فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أى قبل البعثة ، فلما أتمت قريش البناء وأرادت وضع الحجر الأسود فى مكانه اختلفت البطون فيمن يكون له شرف حمله ووضعه ، واشتد الخلاف حتى أو شكت الحرب أن تشتعل بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحكِّموا أول داخل عليهم من باب شيبة ، فكان محمد أول داخل منه ، فقالوا : هذا هو الأمين ، رضيناه حكما . وأخبروه الخبر .

وهكذا ألقت قريش مقاليد أمورها فى يد محمد فى ثقة واطمئنان ، وكأنّ ذلك كان امتحانا له ، وهو امتحان قاس لمن أراد أن يُرضى الجميع ، ووجد محمد الحل ، فبسط رداءه ووضع الحجر عليه ، ودعاهم ليأخذ كل بطن بطرف من الثوب وأن يحملوا الحجر معا . وهكذا انتصر محمد ورضى الجميع بما اقترح ، ونال محمد بذلك شرفا كبيرا تحدث به الناس ، فأصبح لذلك الحادث — فيما أظن — أثر فى نفس محمد دفعه إلى تقبيله ، وربما كان هناك دافع غير هذا ، ولكن الموضوع على كل حال شخصى لا تشريعى كما سبق القول .

ومن الأحداث المماثلة لموقف الرسول من الحجر الأسود ما حدث للملكة فيكتوريا ، إذ كانت تركب القطار ليلا ومعها كبار دولتها ، ثم رأى السائق شبحا يشير إليه إشارات غامضة كأنه شخص يومئ إليه أن يتوقف لخطر محدق بالقطار ، وتوقف السائق ونزل يستوضح الأمر ، فوجد فعلا خللا بالقضبان الحديدية كان سيؤدى بقطار الملكة إلى كارثة محقّقة ، وبحث السائق وأعوانه عمن أنقذهم وأنقذ الملكة ، فلم يجدوه شخصا ، وإنما كان فراشة ألقت بها الظروف فى الفراغ بين مصباح القطار والزجاجة الخارجية لهذا المصباح ، وكانت الفراشة تتراقص أمام المصباح فيدفع نور المصباح بخيال الفراشة إلى الخارج حتى ظهر للسائق فى الضوء البعيد كأنه إشارة خطر ، وهكذا دخلت هذه الفراشة التاريخ ، وحصل ارتباط بين حياة الملكة وبين هذه الفراشة ، فأصبحت فراشة مقدسة عند الملكة وقومها ، ولا يزال جثمانها يحتل مكانه فى المتحف البريطانى .

وأعرف رجلا كانت سيارته على وشك أن تهوى به فى سفح منخفض إثر ضربة من سيارة أخرى ، ولكن شجرة ردت سيارة الرجل قبل أن تهوى ، فأنقذت الرجل من موت محقق ، وأعرف هذا الرجل وقد بنى مسجدا بجوار هذه الشجرة ، وأصبح يؤدى فى هذا

المسجد أكثر صلواته ، ومن الواضح أن الرجل لم يعبد الشجرة ولم يعبد المكان ، ولكنها قصة خاصة من القصص التى لها عمق فى عواطف الإنسان دون أن يكون لها أى أثر فى تفكيره الدينى ، وليس الحجر الأسود عندى إلا كذلك بالنسبة للرسول صلوات الله عليه .

* * *

تلك هى العبادات فى الإسلام ، وتلك هى فلسفتها ومنها يتضح ما سبق أن أوردناه من أن العبادات تهذّب الناحيتين المادية والروحية فى الإنسان ، وهى متجددة متكررة حتى يظل المسلم أقرب إلى الطهر ، وحتى تجذبه العبادة إلى رحبات الله كلما دفعته ماديات الحياة إلى البعد عن هذه الرحبات .

بقى أن نوضح أن كلمة عبادة معناها الطاعة ، فعلى المسلمين أن يطيعوا خالقهم وأن يعبدوه كما أراد ، فهموا معنى العبادة أو لم يفهموها ، ولو ناقش خادم سيده فى كل أوامره وأبى أن يستجيب إلا لما يفهم سببه من هذه الأوامر ، لما طالت بينهما الصلة ولأسرعت العلاقة بينهما إلى الانفصام ، ثم أن هناك فرقا ملحوظا بين أن تتوضأ قاصدا النظافة وأن تصلى قاصداً رياضة البدن وتهذيب الروح ، وبين أن تعمل هذه الأشياء قاصـــدا الطاعة بالامتثال وإرضاء الله ، ولا شك أنه فى حالة الطاعة المطلقة تكون العبادة أمثل وأصدق تعبيرا عن المقصود ، ويروى أستاذنا الشيخ محمود شلتوت فى هذا المجال حديث الرسول (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ويعلق فضيلته على هذا الحديث بقوله : فمن قصد بالوضوء النظافة فهجرته إلى غير الله ، ومن قصد الرياضة بالصلاة فهجرته إلى غير الله ، ومن قصد بالصوم العلاج

الصحى فهجرته إلى غير الله ، وهكذا من يفعل العبادة لغير وجه الله خالصة فهجرته إلى ذلك الغير[١] .

هذه ناحية ، وناحية أخرى نريد أن نتحدث عنها وهى أن نسأل : لماذا لا يُعْفَى من إحدى العبادات أو منها كلها مَنْ تجمعت فيه الاتجاهات التى تعمل هذه العبادات لتحقيقها ؟ بمعنى أنه إذا كان الهدف من الصوم مثلا أن يحس الصائم بجوع الفقير ، أو أن يتعود الجوع استعدادا لما قد ينزل به من مشقات طارئة أو دائمة ، فلماذا لا يُعْفَى الفقير نفسه من الصوم ؟ ولماذا لايعفى منه كريم اليد السخى بالعطاء ؟ وقُلْ مثل هذا فى باقى العبادات .

وللإجابة على هـذا نوضح أن الفلسفات التى سبق أن أوردناها إنما هى ألوان من الاجتهاد الإنسانى على مَرِّ العصور للبحث عن أسباب هذه العبادات ، وليس بعيدا أبدا أن تكون هناك أسباب لم نعرفها بعـد ، أو أن تكون عقولنا قاصرة عن إدراك أسباب حقيقية ستظل مطوية عنا .

ثم كيف جاز لنا أن نفكر فى أن نعفى من الوضوء الرجل النظيف ، وأن نعفى من الصوم الرجل الكريم ؟ مع أن النظيف اليوم قد يهمل النظافة غدا ، والكريم اليوم قد يبخـل الأيام التالية ، فكثيرون من الناس أهملوا مظهرهم بعد أن كانت عنايتهم بالمظهر على أشدها ، وكثيرون منهم شحوا بعد كرم وجود .

على أن وحدة التشريع هامة جدا فى التفكير الإسلامى ، ومعنى هذا أن العمل الجماعى مقصود ، فالدين دين الناس جميعا ، والتشريع جاء

---

(١) من توجيهات الإسلام ص ٣٥٧ .

للمسلمين جميعاً ، ولا يمكن أن يُهْمَل الجانب الجماعى فى التكاليف ، ذلك الجانب الذى يرمى إلى خلق وحدة بين المسلمين ، فصومهم معا وصلاتهم معا . . . . لها مغزى سامٍ[1] ولو طُفتَ العالم الإسلامى فى رمضان ورأيت صوما هنا وصوما هناك لأدركت سمو الهدف الذى قصد إليه الإسلام .

---

(١) انظر المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ١٥٣ وما بعدها .

لا رهبانية فى الإسلام

عبر القرآن الكريم عن الطبيعة البشرية السليمة أصدق تعبير عند ما قال : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة [1] » فقد قسم الله تعالى الناس قسمين أحدهما يريد الدنيا فقط والآخر يريد الدنيا والآخرة ، وأهمل سبحانه وتعالى جماعة شذت عن الطبيعة البشرية ، وأهملت الدنيا إهمالا تاما ، وحسبت أن من الخير لها أن توجه كل اهتمامها للآخرة ، فلجأت إلى الصوامع والبيع والكهوف ، وجعلت دستورها الرهبانية والتبتل . وجدير بهذه الجماعة أن يُهملها الإسلام ، لأن سلوكها ليس طبيعيا ، والإسلام دين الطبيعة والفطرة .

والاتجاه للرهبنة والتبتل يعطل ما منحه الله للإنسان من قوى التفكير والإرادة والعمل ، كما يُبْقِى أسرار الكون ومنافعه كامنة ، وقد سخرها الله جميعها للإنسان وسلَّطه عليها ، ومهَّد له طريق إظهارها وعمارة الكون بها [2] ثم إنه يتنافى مع توجيهات الله التى أباحت الطيبات وحثت عليها . اقرأ معى هذه الآيات التى أوضحت هذه الاتجاهات :

- وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون [3] .
- وأن ليس للإنسان إلا ما سعى [4] .
- هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه [5] .

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٠٠ – ٢٠١ .
(٢) اقرأ كتاب منهج القرآن فى بناء المجتمع للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ١٧ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٠٥ . (٤) سورة النجم الآية ٣٩ .
(٥) سورة الملك الآية ١٥ .

– وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها[١] .

– والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين[٢] .

– وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره[٣] .

– ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة[٤]

– وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين[٥] .

– كلوا من طيبات مارزقناكم[٦] .

– قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[٧] .

وطالب الإسلام بالعمل كل من يقدر عليه وجعل ذلك العمل عبادة ، فقد روى أن الرسول كان جالسا يوما مع أصحابه ، فرأوا شابا ذا جلد وقوة قد بكَّر يسعى ، فقال أحد الجالسين : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقال عليه السلام : لاتقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم فهو سبيل الله .

---

(١) سورة النحل الآية ١٤ .
(٢) سورة النحل الآية ٨٠ .
(٣) سورة إبراهيم الآية ٣٢ .
(٤) سورة لقمان الآية ٢٠ .
(٥) سورة الزخرف الآيتان ١٢ – ١٣ .
(٦) سورة البقرة الآية ٥٧ .
(٧) سورة الأعراف الآية ٣١ .

وهناك موقف للرسول جعل فيه المسلمَ المكافح خيرا من المتبتل المترهب ، فقد روى أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ؛ ويكثر الذكر . فقال : أيكم يكفى طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا . قال : كلكم خير منه ، وقد أوردنا هذا الحديث من قبل .

وقد صح أن أناسا جاءوا إلى زوجات الرسول يتعرفون عن طريقهن ألوان العبادة التي يقوم بها صلى الله عليه وسلم ، والتي سببت أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقد روى أن هؤلاء بدءوا يعلنون استعدادهم للتضحية بمتع الحياة ظانين أن فى ذلك ما يقربهم إلى الله ، فقال أحدهم : إنى لا آكل اللحم أبدا . وقال آخر : وأنا لا أتزوج النساء أبدا . وقال ثالث : وأنا أقوم الليل ولا أنام على فراش . فلما عرف الرسول ذلك خرج وصاح فيهم : ما بال قوم يقولون كذا وكذا ، والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

وروى عنه قوله : ليس فى دينى ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع .

ويروى أن عمر بن الخطاب نظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت ، فخفقه بالدِّرة ، وقال : لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله[1] .

ومما سبق ندرك أن الإسلام لا يعرف الرهبانية ، وإنما هو دين اعتقاد وعمل وعبادة ، وللعمل وقته وللعبادة وقتها ، وقد فصَّل الله هذا الاتجاه فى قوله تعالى : يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن

---

(١) المبرد : الكامل جـ ٢ ص ٥١٠ .

كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله[١] » ومن أجل هذا يرى الباحثون المسلمون أن العمل عبادة ، وأن الله يثيب عليه لأنه أمَرَ به ، ففأس الزارع ، ومبرد الصانع ، ولسان المعلم ، وقلم الكاتب ، وعين المدير ، ومثيلاتها ، مصدر ثواب ورحمة لأصحابها ، وينمو ذلك الثواب كلما نما إخلاص المرء ، وكلما راقب الله فى حسن أداء ما وُكلَ إليه من عمل .

(١) سورة الجمعة الآيتان ٩ — ١٠ .

غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى

فى أكثر الأقطار الإسلامية يعيش عدد كبير من غير المسلمين ، فعلى مر التاريخ يوجد مسيحيون ويهود فى الجمهورية العربية المتحدة وإندونيسيا والعراق والمغرب وغيرها ، كيف عاش هؤلاء فى الماضى وكيف يعيشون الآن ؟

وفى مقابل ذلك عاش المسلمون فى بلاد غير المسلمين أى فى بلاد حكوماتها غير إسلامية ، كما عاشوا فى الأندلس بعد سقوط الحكومات الإسلامية ، وكما عاشوا فى فلسطين وقت انتصار الصليبيين ، وكما عاشوا فى الهند حتى عهد قريب ، وكما يعيشون فى إسرائيل الآن ، كيف عاش المسلمون فى تلك المجتمعات غير الإسلامية ؟ وكيف يعيشون ؟

الإجابة عن هذين السؤالين واضحة ، تراها فى الواقع الذى نعيش فيه ، وتقرؤها عن الماضى مما كتبه المسيحيون أنفسهم ، ففى العهد الحاضر ترى غير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية يستمتعون بالحقوق الواسعة التى كفلها لهم الإسلام وينعمون بالتعاون والود وطيب العشرة التى اشتهر بها المسلمون ، وتطوف العالم الإسلامى فهيهات أن ترى شكاة من مسيحى أو يهودى ضد المواطنين المسلمين ، وكثيراً ما ترى الثروات الضخمة والتجارات الكبيرة يملكها يهود أو مسيحيون يعيشون فى ظل حكومات إسلامية.

أما حاضر المسلمين الذين يعيشون تحت حكومات غير إسلامية فيدلك على الآلام والقسوة والحرمان والطرد والصراع المرير ، إنهم هكذا يعانون فى إسرائيل ، حتى هجروا ديارهم ثم لم يسمح لهم بالعودة إليها ، وهم كذلك عانوا فى الهند قبل التقسيم حتى اضطروا إلى أن يستقلوا بقطعة من أرض الهند أطلقوا عليها الباكستان .

والماضى صورة من الحاضر فى الحالتين ، فقد لقى المسلمون من الحكومات غير الإسلامية ضنوف الاضطهاد والتنكيل ، ويحدثنا غوستاف لوبون[1] عن ضرب من ضروب القسوة والبربرية التى كانت طابع حكم الصليبيين فى فلسطين فيقول : (لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التى اتبعوها ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ستين ألفاً فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً ، ويقول غليوم الصورى إن : الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل فى طور القادح الهاجى) .

أما نتيجة انتصار المسيحيين بالأندلس على المسلمين فيحدثنا عنها الواقع الذى يرينا أنه ليس فى أسبانيا الآن مسلم واحد ، لقد ألقوا بالمسلمين فى قاع البحر ، أو أسالوا دماءهم وأزهقوا أرواحهم ، أو أرغموهم إرغاماً على ترك الإسلام والدخول فى دينهم ، فقد نشر فى فبراير سنة ١٥٠٢ أمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا التعميد ، وعليهم أن يغادروا أسبانيا قبل شهر أبريل ، وألا يصحبوا معهم ذهباً ولا فضة ، وألا يذهبوا فى طريق يقودهم إلى أرض إسلامية ، والنتيجة التى جاءت أثراً لهذه الشروط موت الجميع ودمار الجميع .

وهكذا تدرك فى يسر وسهولة أن المسلمين لقوا فى المجتمعات غير الإسلامية ألواناً من الاضطهاد والإبادة ، وكانت النتيجة التى سعت إليها هذه المجتمعات وحققتها أن تُفْنِيَ الإسلام وتُرْغِمَ ذويه على الارتداد عنه ، فإذا تمسك بعض المسلمين بدينهم أسلموهم إلى الدمار والفناء .

---

(١) حضارة العرب ص ١٩٤

أما غير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية فقد شهد التاريخ أنهم نعموا فى ظل الإسلام بالرخاء والأمن والسلامة ، فقد رسم القرآن الكريم وأحاديث الرسول الطريق القويم للمسلمين فى معاملة غير أتباع ديانتهم وسار السلف الصالح فى ضوء ذلك ، وانحدر هذا الاتجاه خلال عصور التاريخ حتى أثنى عليه وامتدحه الكتاب المسيحون أنفسهم ، تعال بنا نقتبس من هذا الضوء بعضا منه دليلا على ما أوردناه هنا .

يحث الله تعالى المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين وأن يكونوا معهم بررة وعدولا ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين[١] » .

ويبيح الإسلام للمسلمين أن يؤاكلوا غير المسلمين وأن يصاهروهم ، ولا شك أن المصاهرة تخلق امتزاجاً بين هؤلاء وأولئك ، فأخوال الأولاد سيصبحون من أهل الكتاب ، وفى هذا رباط كبير أباحه الله بين المسلمين وغيرهم مما يدل على أن الإسلام دين الإنسانية ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم[٢] » .

وقد يدخل الابن الاسلام ويظل الأب على غير الإسلام ، وهنا يدعو الاسلامُ الابنَ أن يظل طيب الصحبة مع أبيه مع اختلاف الدين ، قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا[٣] » .

ويوضح القرآن للمسلمين أدب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب ، ومن هذا الأدب أن يعلن المسلمون إيمانهم بأديان أهل الكتاب تقرباً منهم ،

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٨ . (٢) سورة المائدة الآية ٥ .
(٣) سورة لقمان الآية ١٥ .

وتضييقاً للهوّة بينهم ، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون[١] » .

ومن تسامح الإسلام مع أهل الكتاب أنه أباح لهم ما أباحته لهم أديانهم وإن حرمها الإسلام على المسلمين ، فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر ، أو يأكلوا لحم الخنزير ، وليس للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك .

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان مثلا أعلى فى معاملة أهل الكتاب ، فقد رُوى أنه كان يحضر ولائمهم ويشيع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ويزورهم ويكرمهم ، حتى روى أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها ، وروى أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهن عندهم أمتعته ، حتّى أنه توفى ودرعه مرهون عند بعض يهود المدينة فى دين عليه ، وكان يفعل ذلك لا عَجْزاً من أصحابه عن إقراضه إذ كان منهم المؤثرون الذين هم مستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم فى مرضاة نبيهم ، بل كان يفعل ذلك تعليما للمسلمين وإرشاداً[٢] .

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : من آذى ذميا فليس منى . وكان حِرْص المسلمين على الوفاء لأهل الذمة حقيقة مشهورة معروفة ، حتى أنه يروى أن واصلا بن عطاء زعيم المعتزلة قابل مرة عصابة من الخوارج الذين يستحلّون دماء المسلمين الذين يخالفونهم فى العقيدة ، ورأى واصل أن الطريق لنجاته هو وصحبه من موت محقق ، أن يدّعى أنه هو وصحبه ذميون ، وهكذا فعل وهكذا نجا[٣] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

(٢) عفيف طبارة : روح الدين الإسلامى ص ١٩٩ .

(٣) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب جـ ٢ ص ٢٥٤ .

ومن الطبيعي أن السلف الصالح ساروا فى معاملة أهل الكتاب سيرة القرآن وسيرة الرسول ، ولنأخذ عمر بن الخطاب نموذجاً للسلف الصالح ، ففى عهده اتسع العالم الإسلامى وضم آلافاً من غير المسلمين ، وفيما يلى سطور من نور عنه تبين جانباً من أدب الإسلام وخلفاء الإسلام .

تحقق النصر لجيوش المسلمين التى تحارب فى إيلياء ، ولكن عمر كان حريصاً على السلم أكثر من حرصه على النصر ، ولذلك تجده يرحل بنفسه إلى هذه المدينة ، ويكتب بينه وبين المسيحيين بها عهداً جاء فيه :

« . . . . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولايُنتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يَسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . . . . » .

وكتب للنصارى فى بيت المقدس أمانا على أنفسهم وأهليهم ، يتعهد فيه بسلامة كنائسهم ، فلا تُهدم ، ولا تُسكن ، ولهم أن يباشروا طقوس دينهم وعبادتهم دون أى تدخل أو ضغط .

وكان عمر لا يكتفى بهذه العهود يقطعها لهم عليه وعلى قومه ، بل كان يشفعها بوصاياه المتكررة إلى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة ، وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم ، وألا يكلفوهم فوق طاقتهم ، وقد سجل ذلك فى وصيته قبل موته .

ومن الناحية العملية نجد أن عمر وفّى بما وعد بل زاد عليه عطفاً وتسامحاً وحسن معاملة ، فبينما هو فى كنيسة القيامة إذ دخل وقت الصلاة ، فخرج عمر وصلى خارجها ، وقال للبطريرك : لوصليتُ داخل الكنيسة خفت أن

يقول المسلمون من بعدى : هذا مُصَلّى عمر ، وأن يحاولوا أن يقيموا فى هذا المكان مسجداً .

وروى أنه رأى شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله حيث أعطاه عطاء سخياً ، ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب .

ومر وهو فى أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يُعْطَوْا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت بانتظام[1] .

وبلغ من حرصه على الرحمة بأهل الكتاب أن عزل والياً أحس أنه ضاق ذرعاً ببعض أهل الكتاب فى ولايته ، فخاف عمر أن يجور عليهم ، روى أن نصارى تغلب كانوا يناوئون واليهم الوليد بن عقبة ، فنفد صبر الوليد ، مما كانوا يعملون ، فقال شعراً يتوعدهم ويهددهم ، وسمع عمر بعض هذا الشعر فخشى أن يقسو الوليد عليهم ، وأن يبطش بهم ، فعزله عن ولايته ، وعيّن أميراً غيره

وكان أهل الكتاب يدفعون الجزية للمسلمين ، يدفعها منهم القادر على حمل السلاح ، ولا تدفعها المرأة ولا الصبى ولا الشيخ ولا الأعمى . . . . والجزية مقدار ضئيل من المال يتفاوت بتفاوت حالة الذمى المالية ، فهى على الأغنياء ٤٨ درهماً فى العام (حوالى جنيهين) وعلى المتوسطين ٢٤ درهماً وعلى العمال والصناع ١٢ درهماً .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ .

وتدفع الجزية لسببين :

١ ـ ينتفع أهل الكتاب بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة وغيرهما ، والمرافق العامة تحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجزية فى تكاليف هذه المرافق .

٢ ـ لا يكلّف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد بل يقوم بذلك المسلمون ، ولذلك يدفع أهل الكتاب هذه الضريبة نظير إعفائهم من هذا الواجب الكبير ، ويسجل التاريخ أنّ بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبهم فى الدفاع فى بعض الأحوال فسقطت عنهم الجزية وكان ذلك فى عهد عمر أيضاً[1] .

ويروى البلاذرى[2] أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشاً كبيراً لمهاجمة المسلمين ، فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم ، وقالوا لهم : شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهضوا بذلك ، فسقطت الجزية عنهم .

والذى نريد أن نسجله هنا أنه مع بساطة هذه الجزية ، ومع سياسة المعاملة الكريمة التى اتبعها عمر ورعاها ، دخل كثير من أهل الكتاب فى عهده دين الإسلام أفواجاً ، لا هرباً من الجزية ، ولا تحاشيا لسوء معاملة ، وإنما إعجاباً بعدل الإسلام وخُلُقِ خليفة المسلمين .

---

(١) هناك مسألة واضحة ولكن لا مانع من ذكرها دفعاً لأية شبهة عند بعض القراء ، وهى أنه بناء على الدراسة السابقة لا يُلزم الإسلام أهل الكتاب فى العصر الحاضر أن يدفعوا الجزية ، لأنهم يدفعون الضرائب التى يدفعها المسلمون ويحملون السلاح فى الجيوش مع المسلمين .

(٢) فتوح البلدان ص ١٤٣ .

وسار المسلمون فى أكثر عصورهم سيرة عمر بن الخطاب ، سار عليها الخلفاء الأمويون عند انتصارات المسلمين فى الهند والأندلس ، وسار عليها نور الدين زنكى فى انتصاراته ضد الصليبيين ، وسار عليها صلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس والأشرف خليل ، هؤلاء الأبطال الذين قضوا على حكم الصليبيين فى فلسطين ولكن دون تنكيل ودون وحشية ، ونختم هذا البحث بنماذج من أقوال بعض الكتاب المسيحيين يعترفون فيها بما ناله المسيحيون فى ظل الإســلام من سلام وعون .

يقول عيشو يابه أحد البطاركة المسيحيين : إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العــالم يعاملوننا كما تعرفون ، إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملّتنا ، ويوقّرون قسيسينا ، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا (١)

ويقول آدم متز(٢) إن ما يميز المملكة الإسلامية عن أوربا النصرانية فى القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غ الإسلام ، وليست كذلك الثانية ، وإن الكنائس والبِيَعَ ظلت فى المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، فكأنها لا تكوّن جزءاً من المملكة ، معتمدة فى ذلك على العهود وما أكسبتها من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب عن ذلك خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى .

---

(1) Thomas of Marga : Books of Governors Vol 2 P,156

نقلا عن « روح الدين الإسلامى » ص ٢٠١ .

(2) An Introduction to the Islamic civilisation, translated by Khuda Bakhsh

الدين المعـــاملة

اتجه كثير من المسلمين بالإسلام اتجاه عبادة ، وحسبوه صلاة وصوماً وتسبيحاً ، وتناسوا جانب المعاملة فيه ، ونحب أن نوضح أن الإسلام يهتم اهتماماً كبيراً بالمعاملة ، ومن القواعد التى وضعها الأصوليون أن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الناس مبنية على المشاححة ، فإذا قصَّر مسلم فى حق من حقوق الله فإن التوبة تغفره وعفو الله قد يشمله ، ولكن إيذاء الناس لا يُغْفَر إلا إذا عفا الناس ، فردُّ الحقوق شرط أساسى لقبول التوبة ، وحُسْن المعاملة بكل ما تحتماه هذه الكلمة من معنى ، أصل من أصول الإسلام ، بل أصل مهم جدا ، فالإسلام ينظم علاقات الناس بالناس على أسس من الحب والعدالة مع اتباع النظم الإسلامية فى البيع والشراء والميراث والزواج والطلاق والهبة وغيرها ، ومع اتباع آداب الإسلام فى معاملة الناس ، والإخلاص للعمل ، والتضامن فى أداء الواجب ، والبعد عن إيذاء الناس ، كل هذا وما يماثله أجزاء مهمة من الدين الإسلامى ، ولا يكمل الدين بسواها .

وقد ورد أن رجلا قال للنبى : يا رسول الله ، إن فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ؛ فقال : هى فى النار .

ولست أنوى فى هـــذا البحث أن أكتب عن خلق المسلم ، وأصور اهتمام القرآن الكريم والحديث الشريف بجانب المعاملة فى هذه الخلق فإنَّ هذا بحث طويل يجدر به أن يكون مستقلا ، وقد عُنِى به كثير من الباحثين القدامى والمحدثين[1] ، ولكنا هنا لا نجد بُدًّا من تخصيص فراغ

---

(١) اقرأ الإحياء للإمام الغزالى وخلق المسلم للشيخ محمد الغزالى .

محدود جدا نذكّر فيه المسلم بأخلاق الإسلام . تلك الأخلاق التى يجمعها الحديث الشريف « الدين المعاملة » فالمعاملة ليست فقط جزءا من الدين وإنما هى الدين كله كما وضحه هذا الحديث ، وفيما يلى صورة سريعة لأخلاق المسلم كما رسمتها مصادر الشريعة موضحةً بها النهج الذى يجب على المسلم أن يتبعه فى سلوكه ومعاملته :

الرجل الكامل فى القرآن :

يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل(١) : لقد طالما صور الكُتّاب فى مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل ، صوّره الشعراء والكتاب والفلاسفة والمسرحيون ، صوّروا هذه الصورة فى العصور القديمة ، وما يزالون يصوّرونها حتى اليوم ، ومع ذلك لن تجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذة التى وردت فى سياق سورة الإسراء ، وهى ليست إلا بعض ما أوحى الله إلى رسوله من الحكمة ، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل وإنما يقصد بها أن يذكّر الناس ببعض ما يجب عليهم ، يقول تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنّه كان للأوّابين غفورا ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربّه كفورا ، وإما تُعْرِضَنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ،

(١) حياة محمد ص ٣٤ .

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومن قُتِلَ مظلوما فقد جعلنا لوليّه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلٌ أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش في الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيِّئهُ عند ربك مكروها[١] .

وهكذا تجد بهذه المجموعة من الآيات ألوانا من حسن المعاملة والإرشاد لتعاون كامل ، فهي تبدأ بالإحسان للأبوين ، وتعرج على ذوى القربى ، ثم المحتاجين عموما ، وتوص بالأولاد ، وتنفر من الزنا وقتل النفس بغير حق ، وتوصى باليتيم وتخوف من ماله ، وتحث على إيفاء الكيل والميزان ، وتصل القمة عندما تذكّر الإنسان أنه سُيسأل عن سمعه وبصره وعقله ، فعليه ألا يسيء استعمال هذه المنح الإلهية ، ثم تذكّر الإنسان بضعفه وقلة شأنه ، فينبغي له أن يدع الكبر وأن يتخلق بالتواضع ، ولا شك أن من اتبع هذه التعاليم كان جديرا أن يكون كاملا أو أقرب إلى الكمال .

الإسلام والمساواة :

من الحق علينا أن نتخذ التؤدة دستورنا ونحن نتحدث عن موقف الإسلام من المساواة ، فقد وقف الإسلام نحوها موقفاً فريداً بين الاتجاهات القديمة والاتجاهات الحديثة ، فالهندوسية قسّمت أتباعها أقساماً متميزة ، وجعلت الحقوق تتفاوت بتفاوت هذه الأقسام ، وجاءت البوذية فألغته

(١) سورة الإسراء الآيات ٢٣ - ٣٨

الطبقات ولكن بشرط الدخول فيها ، فلم تتخذ البوذيةُ المساواة مبدأً لذاتها ، ولكنها جعلت كل البوذيين – لا كل البشر – متحدين . وفى بلاد فارس وُجِدَت نظرية « الحق الإلهى المقدس » التى تجعل الملوك آلهة أو ممثلين للآلهة ، وتقول بأن دماً إلهياً يجرى فى عروقهم دون سائر البشر . وجاءت اليهودية فبارك أتباعها أبناءَ يعقوب ولعنوا أبناء أخيه الأكبر عيسُّو ، وسار اليهود على مبدأ التفريق بين البشر إلى أبعد الشوط ، فجعلوا الرحمة والعطف والإخاء والمودة وقفاً على فقراء اليهود ومحرمة على سواهم ، وحرموا الربا مع اليهود وأباحوه مع غيرهم ، وورد بالعهد القديم عن ذلك «للأجنبي تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمد إليه يدك[1] » .

وجاءت المسيحية لترد اليهود عن جشعهم وتعلُّقهم بالمادة ، ولتحث على إطعام الفقير ورعاية البائس ، ولكن سرعان ما تحولت المسيحية بفعل رجال الكنيسة إلى خَلْق الطبقات والتفريق بين شعب وشعب ، وكذلك إلى عزل الكنيسة عن المجتمع وعزل الدين عن الحياة ، وطالما ناصرت الكنيسة الباطل ، ورعت الحكام الجائرين ، وأباحت لهم الشهوات واللذائذ ، وجعلتهم طبقة أرفع من طبقات البشر ، كما فعلت الكنيسة القيصرية[2] .

ذلك هو الاتجاه القديم ، فكيف اتجهت المدنية الحديثة حيال المساواة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء ، فالتفرقة العنصرية التى يعامل بها البيضُ سكانَ المستعمرات تدل دلالة واضحة على الطبقية المسعورة التى خلقتها هذه المدنية الزائفة ، ومن ذلك ما يعانيه الزنوج بأمريكا من اضطهاد وعسف ، وقد دفع كنيدى حياته ثمناً لموقفه العادل من هؤلاء الزنوج ، فما إن نادى بالمساواة وعمل على أن يُلزِم بها المتعصبين حتى دُبِّرت جريمة اغتياله من الصهاينة ورعاة التفرقة العنصرية البغيضة .

---

(١) سفر الخروج الأصحاح الثانى والعشرين

(٢) انظر « الأديان » للأستاذ محمد فؤاد الهاشمى ص ١٢٧

فماذا كان موقف الإسلام من المساواة !

كان موقف الإسلام حاسماً حول هذا الموضوع ، إنه موقف يحدده القرآن الكريم والسنة وعمل الصحابة الأبرار ، قال تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] » . فهذه الآية تذكر الناس بوحدة المنشأ ، وتقرر أن التفاضل لا يتخذ أساسه أصول الناس وألوانهم ، بل ما يقدمونه من عمق الإيمان والعمل الصالح .

ومن السنة ينطلق قوله عليه السلام فى خطبة الوداع : أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

وروى أن أبا ذر الغفارى كان يناقش عبداً فى حضرة الرسول ، فاحتد أبو ذر وصاح بالعبد : يا ابن السوداء . فالتفت له المعلم العظيم وألقى فى وجهه بتعبير يعتبر غاية فى الاستنكار ، هو : طفّ الصاع ، طفّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح . وقد أدرك أبو ذر من كلام الرسول مدى الخطأ الذى ارتكبه بتفكيره الطبقى ، فهوى من استعلائه فى لحظة قصيرة ، ووضع خده على الأرض وقال للعبد : قم فطأ خدى .

ولما سرقت فاطمة بنت الأسود المخزومية ، جاء أسامة بن زيد يشفع لها ، فأنكر الرسول على أسامة شفاعته لها ، وقال للناس حوله : إنما أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

ومن وصايا عمر بن الخطاب لولاته قوله :

— سوِّ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى جنبك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

— اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على مَنْ وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، إياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله .

وهكذا قرر الإسلام المساواة ولا يزال يوصى بها ، وإن شطت الاتجاهات القديمة ، أو ضعفت المدنية الحديثة عن التمسك بهذا الخلق القويم .

الإسلام والحرية :

إن موقف الأديان والمدنيات من الحرية ليس بعيداً عن موقفها من المساواة ، فالطبقات فى الهندوسية نصت على أن « الملك إله فى صورة إنسان فوق الأرض وإن كان طفلا رضيعاً » وألزمت طبقاتِ الشعب أن تقدم له أعمق الإجلال ، ولم تدع الحريةَ لأحد من هذه الطبقات أن ينقده أو يعلق على تصرفاته ، وقد جاء فى شرائع منو ما يلى : ويأمر الملك بصب زيت حار فى فم الشودرا وفى أذنيه إذا ما بلغ من الوقاحة ما يبدى به رأياً للبراهمة فى أمور وظائفهم (١) .

وحرَّمت الديانة اليهودية على الشعب اليهودى مناقشة الأحبار والكتبة والقدّيسين ، وفى المسيحية سرعان ما استولت الكنيسة على مقاليد السلطة ، واستغلت الشعب المسيحى أسوأ استغلال مما أدى إلى وجود طوائف خارجة على الكنيسة ، ولما شعرت الكنيسة بوجود المفكرين الذين خرجوا عما رسمته من قواعد وأصول رأت فى ذلك ما يهدد سلطانها ويضعف مركزها أمام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ فى النماء ، فانطلقت تقاوم وتجاهد تلك الأفكار وذلك العلم ، فحاولت تكميم الأفواه البريئة ، وتعطيل الأفكار الحرة التى تناقض نظرياتها ، ومن هنا كان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر

(١) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٥٩ .

منذ ذلك الحين ، وأصدرت قرارات بتحريم قراءة حوالى خمسة آلاف كتاب من بينها كتب جان جاك روسو وديكارت وفيكتور هوجو وغيرهم[١] وعندما ظهر القول بكروية الأرض — ذلك الأمر الذى عرفه المسلمون وصار رأياً لهم منذ أول خلافة بنى العباس — أحدث اضطراباً شديداً فى عالم النصرانية ، وهددت الكنيسة من يقول به[٢].

هذا عن حرية الرأى والبحث ، أما حرية التدين فقد ألغته الكنيسة واتخذت قرارات غاية فى القسوة سواء فى ذلك ضد اليهود أو ضد البروتستانت أو ضد المسلمين ، ففى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ أصدرت الكنيسة بأسبانيا قراراً بأن كل يهودى لم يقبل العمودية فى أى سن كان وعلى أى حال يجب أن يترك أسبانيا قبل يوليو ، ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل ، وفى فبراير سنة ١٥٠٢ نُشِر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) إذا لم يقبلوا التعميد ، وشُرِط على من يترك منهم أسبانيا ألا يذهب فى طريق يؤدى إلى بلاد إسلامية .

وقد أصدر البابا منشوراً سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة ، أو يرى بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به لربه ، وأصدر منشوراً سنة ١٨٦٨ ينص على أن المؤمنين (المسيحيين) يجب عليهم أن يفدوا الكنيسة بأرواحهم وأموالهم ، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم[٣] ، ولما ظهرت طائفة البروتستانت جعلت الكنيسة الكاثوليكية عقوبة الإعدام قانوناً يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة ، ومن

---

(١) محمد فؤاد الهاشمى : الأديان ص ١٥٧ وعن الكتب التى حرمتها الكنيسة اقرأ كتاب « المسيحية » للدكتور أحمد شلبى ص ٤١

(٢) الإمام محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ٤٢

(٣) الإمام محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١٤

أهم المذابح التى وقعت للبروتستانت مذبحة باريس سنة ١٥٧٢ التى سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم البروتستانت وقتلوهم خيانة وهم نيام[١].

ولم يعرف العالم القديم حرية التملك فقد كان النظام الاقطاعى منتشرا ، وكانت الأرض ملكاً للحاكم ولقلة من أعوانه ، أما الشعب فكان رقيقاً تابعاً للأرض ، لا حق له ولا حرية .

ذلك هو موقف الأديان والثقافات من الحرية قبل الإسلام ، فماذا كان موقف الإسلام ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نلجأ إلى اقتباسات من القرآن الكريم توضح بما لا يدع مجالا للشك تقدير الإسلام للحرية فى كل مجالاتها .

فعن حرية الفكر نجد الإسلام يحث الناس على التفكير والتدبر والعمق ، قال تعالى :

– أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور[٢] .

– هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب[٣] .

– يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات[٤] .

– شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط[٥] .

وقال صلى الله عليه وسلم : الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له . وقال : فقيه واحد أفضل عند ربه من ألف عابد .

---

(١) انظر المسيحية للمؤلف ص ٣٧

(٢) سورة الحج الآية ٤٦ (٣) سورة الزمر الآية التاسعة

(٤) سورة المجادلة الآية ١١ (٥) سورة آل عمران الآية ١٨

وعن حرية التدين يقول الله تعالى :

ـ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[١] .

ـ لكم دينكم ولى دين[٢] .

ـ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة[٣] .

ـ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر[٤] .

ـ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله[٥] .

ـ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن[٦] .

وعن الحرية السياسية جعل الإسلام للمسلم حق اختيار الحاكم ، ومناقشته ، والاعتراض على ما لا يُقْبَل من تصرفاته ، وحق عزله وسيأتى بعض التفصيل لذلك عند إيراد « لمحة عن النظم السياسية فى الإسلام »[٧] وحفل التاريخ الإسلامى بنماذج من الاعتراض على الحاكم تعد غاية فى الرقى والتطور ، ففى غزوة بدر أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلا ، فسأله الحُباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك ؟ فأجاب الرسول : إنه اجتهاد من عندى فقال الحباب : أما إذ كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل ، وأشار بمكان آخر فارتضاه الرسول وارتضاه المسلمون .

وفى غزوة الأحزاب اتفق محمد مع أهل الطائف على أن ينفضُّوا ويفكوا حصارهم عن المدينة ، وكتب معهم وثيقة بثلث ثمار الطائف نظير

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ (٢) سورة الكافرون الآية السادسة
(٣) سورة النحل الآية ١٢٥ (٤) سورة الغاشية الآيتان ٢١ – ٢٢
(٥) سورة آل عمران الآية ٦٤ (٦) سورة العنكبوت الآية ٤٦
(٧) لمزيد من الشرح اقرأ « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف

ذلك ، فسأله قادة الأنصار : هل هذا الرأى من عندك أو وحى من الله ؟ فأجاب بأن هذا الأمر من اقتراحه هو رجاء أن تنفض الغمة ، وحينئذ تناول سعد بن معاذ هذه الوثيقة ومزقها ووافقه المسلمون على ذلك[١] .

وخطب عمر بن الخطاب مرة يندب الناس للجهاد ، فوقف رجل وقال : لاسمعا ولا طاعة . فسأله عمر : لماذا ؟ فأجاب الرجل : لقد قسمت علينا أقمشة من بيت المال وكان نصيب الواحد لا يكفى ثوباً ، وأراه عليك الآن ثوباً كاملا وأنت رجل طويل . قال عمر لابنه عبد الله : أجبه يا عبد الله . قال عبد الله : لقد أعطيت أبى من نصيبى ما يكمل به ثوبه . قال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

واحترم الإسلام حرية الملك وحرسها ووضع الأسس لنقلها من المالك إلى ورثته .

* * *

تعال بنا بعد هذا نجلْ جولة سريعة مع الفكر الإسلامى لنقتبس من آيات القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول ما يُكْمِل لنا بإيجاز رسم صورة للرجل المسلم :

المسلم لا يسخر من الناس :

يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابذوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون[٢] .

---

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : من توجيهات الإسلام ص ٥٣٠

(٢) سورة الحجرات الآية ١١

المسلم لا يأخذ بالظن ولا يتجسس :

يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه(١) .

الإسلام يدعو للاتحاد :

– واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا(٢) .

– ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم(٣) .

الإسلام يدعو لأداء الأمانة والوفاء بالعهد :

– إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها(٤) .

– والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون(٥) .

– وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : كنا جلوساً عند الرسول فأقبل علينا رجل من أهل العالية فقال : أخبرنى يا محمد عن أشد شيء فى هذا الدين وألينه . فقال له : يا أخا العالية ، ألين شيء فى هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأشده يا أخا العالية الأمانة ، ألا إنه لادين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى .

الإسلام يحذر من الغش ومن تطفيف الكيل :

– وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم(٦) .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٦

(٤) سورة النساء الآية ٥٨

(٥) سورة المؤمنون الآية ٨

(٦) سورة الإسراء الآية ٣٥ .

– ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون[١] .

الإسلام ينهى عن الحسد :

– ولا تتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض[٢] .

– أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله[٣] .

– قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد[٤] .

الإسلام ينفر من القسوة على اليتيم ومن أكل ماله :

– فأما اليتيم فلا تقهر[٥] .

– أرأيت الذى يكذّب بالدين فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم[٦] .

– وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوبا كبيرا[٧] .

الإسلام يأمر بالعدل وينفر من الظلم :

– إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى[٨] .

– وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى[٩] .

---

(١) سورة المطففون الآيات ١ – ٣

(٢) سورة النساء الآية ٣١

(٣) سورة النساء الآية ٥٣

(٤) سورة الفلق كلها

(٥) سورة الضحى الآية ٩

(٦) سورة الدين الآيتان ١ – ٢

(٧) سورة النساء الآية ٢

(٨) سورة النحل الآية ٩٠

(٩) سورة الأنعام الآية ١٥٢

– يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى(١) .

الإسلام ينفر من الرشوة :

– ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكام لتأكلو فريقا من أموال الناس بالإثم(٢) .

– وقال صلوات الله عليه : الراشي والمرتشي فى النار .

الاسلام ينفر من شهادة الزور :

– فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور(٣) .

– والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرُّوا كراما(٤) .

الاسلام يوصى بالجار :

– واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب(٥) .

– عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

الاسلام يدعو للتعاون والايثار :

– وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان(٦) .

---

(١) سورة المائدة الآية ٨
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٨
(٣) سورة الحج الآية ٣٠
(٤) سورة الفرقان الآية ٧٣
(٥) سورة النساء ٣٦
(٦) سورة المائدة الآية ٢

– لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون[١] .

– ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[٢] .

– فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين هم يراءون ويمنعون الماعون[٣] .

الإسلام يوصي بالحط عن المدين وعدم تعجله :

– وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة[٤] .

– رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

– من سره أن ينجيه الله من كُرَبِ يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه .

تلك نماذج من المعاملة التى رسمها الإسلام لأتباعه ومعتنقيه ، وقد دلتنا هذه النصوص على أن سوء معاملة الناس دليل على عدم الانتفاع بتوجيهات الإسلام ، ومن ادَّعى الإسلام وبعُد عن أخلاقه وتوجيهاته ، كان كشجرة لاثمر لها ، ولْنَسْتَعِدْ قول الرسول عن المرأة التى تكثر الصوم والصلاة ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها حيث قال : هى فى النار . وقوله : لا دين لمن لا أمانة له . فإذا أردْتَ أن تكون مسلما فلتتبع حديث الرسول الذى جعلناه عنوانا لهذا البحث وهو « الدين المعاملة » .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٢
(٢) سورة الحشر الآية ٩
(٣) سورة الماعون الآيات ٤ – ٧
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٠

انتشار الإســـلام(*)

بين الدعوة والقوة

يعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق فى الدراسات الإسلامية ، أن القوة كانت عاملا مهما فى انتشار الإسلام ، ويتخذون من الحروب التى حدثت فى حياة الرسول وبعد وفاته دليلا على ذلك ، ورداً لهذا الادعاء نأخذ فى شرح هذا الموضوع ، ونبدأ بأن نسأل سؤالين هامين :

١ – هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ؟ وما الدليل على ذلك ؟

٢ – وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

للإجابة عن السؤال الأول نقول فى قوة وإصرار إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة ، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن ، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشك مجال :

فأما القرآن الكريم وهو دستور المسلمين الواجب الاتباع ، فقد وضّح فى عدة آيات أن الدعوة هى الطريق إلى الإسلام ، وأنه لا يجوز إجبار أحد على تغيير دينه ، قال تعالى :

– لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[1] .

(*) انظر ما كتبناه عن هذا الموضوع فى الجزء الأول من كتابنا « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة(١) .

— لكم دينكم ولى دين(٢) .

— فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب(٣) .

— فذكّر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر(٤) .

وأما سلسلة التاريخ فتُرينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقَهُ بالدعوة ، متبعاً هذه الآيات البينات ، ومُبْتَعِداً كل البعد عن القسوة . وإلى القارئ بيان ذلك :

١ — حينما كان الرسول فى مكة ، وحينما بدأ دعوته وحيداً لا سلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبى بكر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب . فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة ؟

وأين القوة فى ذلك الوقت؟

٢ — واضطهدت قريش المسلمين اضطهاداً قاسياً ، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألواناً من العذاب ، وفى وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين ، كان أهل المدينة يسعون للإسلام فيعتنقونه ويدعون له ذويهم وأهليهم ؛ فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

٣ — جاء الصليبيون إلى الشرق إبَّان ضعف الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية لمحو الإسلام والقضاء عليه ، وإذا بالإسلام يجذب جموعاً منهم

(١) سورة النحل الآية ١٢٥

(٢) سورة الكافرون الآية ٦ (٣) سورة الرعد الآية ٤٢

(٤) سورة الغاشية الآيتان ٢١ — ٢٢

فيدخلونه ويحاربون فى صفوف المسلمين . يقول توماس أرنولد : لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى فى العهد الأول أى فى القرن الثانى عشر ، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضاً إلى المسلمين فى ساعات انتصارات المسيحيين .

ويروى توماس أرنولد عن بعض مؤرخى النصارى قوله : إن ستة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يُقهروا من أحد على ذلك ، ويعلل توماس أرنولد لانتشار الإسلام بين الصليبيين بقوله : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية ، مثلا ، فارس انجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت ألبانس سنة ١١٨٥ م واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين(١) .

فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة ؟

٤ ــ فى القرن السابع الهجرى هجم المغول على العالم الإسلامى ، وكان هجومهم وحشياً قاسياً مدمراً ، سفكوا الدماء فسالت أنهاراً ، وحطموا الحضارة الإسلامية ، وهدموا القصور والمساجد ، وأحرقوا الكتب ، وقتلوا العلماء ، وامتدت أيديهم إلى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله . وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، وأصبحت للمغول اليد العليا ، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين فى عاصمة الخلافة وما حولها ، ولكن سرعان ما جذب الإسلام

(١) اقرأ ما كتبه توماس أرنولد عن « حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين » فى كتابه : الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٨ وما بعدها .

إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة ، وسرعان ما دخله المغول الذين هاجموه وعملوا على تقويضه . فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة ؟

يقول سير توماس أرنولد فى ذلك : لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطبا أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان ، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة . . . على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه[1] ،

٥ – وهل كانت غزوات الرسول ذات بال من الناحية الحربية ؟ إن التاريخ يحدثنا أن أكثر غزوات الرسول انتصر فيها أعداء المسلمين . ولكن الإسلام كان ينتشر فى حالتى انتصار المسلمين وانهزامهم[2] .

٦ – يحدثنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هى فترة السلم الذى تلا صلح الحديبية بين قريش والمسلمين ، وكانت فترة السلم سنتين ، ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام فى خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه فى المدة التى تقرب من عشرين عاماً منذ بدء الإسلام حتى ذلك الصلح . وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلم ولم يتبع الحرب .

٧ – وهناك فكرة مهمة يجدر بنا أن نوضحها تماماً ، ويجدر بالقارئ أن يتفهمها ؛ تلك الفكرة هى أنه لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم . فقد كانت الحروب تشتعل ، وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف ، وحينئذ يتقدم الدعاة

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٨ و ١٥٠

(٢) اقرأ المجتمع الإسلامى للمؤلف ص ١٢٨ – ١٣٣

والمعلمون فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه وفلسفاته ، وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوبُ المغلوبة الفرقَ الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه ، وبالدعوة دخل الناس أفواجاً فى الدين الجديد ، فمنهم من أسرع فى الدخول ومنهم من دخل بعد عام ، أو خمسة أعوام ، أو مائة . . .

ويقول Kirk[١] إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه فى هذه البقاع أكثر من قرنين ، ومن هؤلاء المسيحيين مَن لم يدخل الإسلام حتى الآن ، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحيين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية وغيرهما من البلاد الإسلامية .

مرة أخرى لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين الحروب .

ومثل هـذا ما ذكره J. Fage and Roland Oliver من أن الإسلام لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بأفريقية إلا بعد انحلال دولته الكبرى فى المغرب ، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هى الثقافة والفكر والدعوة ، فانتشر الإسلام بين شعوب البربر ، وقامت خلف الصحراء دولة إسلامية لعبت فى التاريخ دوراً كبيراً[٢] .

٨ — وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً فى إندونيسيا وفى إفريقية ، فأين القوة التى نشرته فى هذه البلاد الفسيحة وجذبت له قلوب الملايين ؟ .

وكاتب هذه السطور عاش فى إندونيسيا عدة سنين ورأى الإسلام بنفسه وهو ينتشر بين الاندونيسيين بيسر وبساطة ، رآه وهو يهزم الديانات الأخرى

---

(١) A short history of the Middle East p. 36·

(٢) A short History of Africa P 77

والأفكار المتعددة ويتقدم إلى الطليعة لا تدفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة البسيطة ، وقد رأيت فى أندونيسيا صراعاً بين الأديان والأفكار ، كل منها يريد أن يكون أسرع وصولا إلى قلوب الاندونيسيين ، ولكل منها وسائل وطرق تعمل على تحقيق هذه الغاية ؛ كانت المسيحية يساعدها أو قُلْ يفرضها بطش المستعمر وماله ورجاله ، والكونفوشية يساعدها ملايين الصينيين الذين يقيمون فى اندونيسيا وتدفعها الثروات الضخمة التى يملكها هؤلاء الصينيون ، والهندوكية والبوذية تساعدهما صلات الهند باندونيسيا تلك الصلات الثقافية والحضارية التى تضرب فى أعماق التاريخ ، ورأيت الإسلام تدفعه مبادئه ويرعاه الله ، يعلّمه عرب هاجروا من البلاد العربية بثقافة محدودة وبدون مال ولا سلطان ، أو يعلّمه اندونيسيون ينطبق عليهم وصف العرب فى فقرهم وقلة سلطانهم ، فماذا كانت نتيجة هذا الصراع ؟

أما الكنفوشية فقد خرجت صفر اليدين ولم تجذب إليها فرداً واحداً تقريباً من أبناء اندونيسيا . وقنعت الهندوكية والبوذية بنصيب ضئيل حصلت عليه غالباً قبل زحف الإسلام . وجذبت مدارسُ المسيحيين ومستشفياتهم ووظائفهم عدداً قليلا لايتجاوز المليونين ، وأغلبهم سقطوا فى المسيحية مخدوعين ، فالطفل يدخل مدرسة مسيحية ويتلقى تعاليم هذه الديانة ، ثم يخرج مسيحياً ولا يعرف غير المسيحية ، والمريض يشترك فى الصلوات والأدعية التى تقام فى المستشفيات وليس له إلا الاشتراك أو الطرد من المستشفى وهكذا دواليك . أما الإسلام فقد اكتسح وتسرب فى النور وبالدعوة السلمية إلى أكثر من تسعين فى المائة من سكان اندونيسيا الذين يقربون من تسعين مليوناً .

أما انتشار الإسلام فى إفريقية فندع الحديث عنه إلى شاهد عيان آخر ،

ذلك هو الكاتب المسيحى الفرنسى هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى سنة ١٩٥٠ وهو يقول[١] :

إن انتشار دعوة الإسلام فى أغلب الظروف لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بربهم ، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ، وقد يسَّر انتشارَ الإسلام أمرٌ آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ووسائلُ الانتساب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يُطْلَبُ من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين فيصبح بذلك فى عداد المسلمين ، وقد حببَ الإسلامَ إليهم مظاهرُه الخلاَّبة كالثوب الفضفاض والمسبحة والكتابة العربية والوقار الدينى وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل الإسلام ولو فى الظاهر ، يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية .

وتقول الباحثة الألمانية الدكتورة Ilse Lictenstadter أن التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الإسلام والسيف ، وإنما بين الإسلام والجزية ، وهو الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك فى إنجلترا إبان حكم الملكة اليصابات[٢] .

ونجىء بعد ذلك إلى السؤال الثانى : لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

---

(١) الديانات فى إفريقية السوداء ص ١٢٨ – ١٢٩

(٢) Islam and the Modern Age P 67

والإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق. وسنذكر فيما يلى موجزاً شاملا لها :

١ ـ الدفاع عن النفس : يقرِّر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال ، وقد ضُرِبَ عمار وبلال وياسر وضُرِب محمد وأبو بكر ، ومات ياسر تحت العذاب ، ولم يَرْفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذى وقع عليهم . ولكن المشركين أسرفوا فى عدوانهم ، ووصلوا إلى حد تقرير قتل محمد . فلما أفلت منهم محمد ، وأفلت منهم المسلمون بالهجرة ، وضع المشركون خُطَّتهم على أن يقضوا قضاء عاجلا على المدينة حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسلام والمسلمين . فكان من الضرورى أن يدافع المسلمون عن أنفسهم ، وقد أذن الله لهم بالدفاع بقوله : « أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[1] . ويتضح من الآية للذى يمعن النظر أن الإسلام لا يحب القتال ، فالفعل (أُذن) مبنى للمجهول ، وفاعله عند ما كان مبنيًّا للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد بُنِيَ الفعل للمجهول لأن الله لم يرد ـ فيما أفهم ـ أن يذكَر اسمه الكريم متصلا بالإذن بالقتال . ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره : القتال ، أى أذن لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضاً لأنه كلمة (القتال) وبدلَ نائب الفاعل ذُكرَ سبب الإذن وهو (بأنهم ظُلموا) وقد دعا هذا بعضَ المسلمين أن يقولوا عند ما نزلت هذه الآية : إنها لا تكفى لنقاتل المشركين ، لأن روحها تميل إلى السلم ولو أن ألفاظها تأذن بالقتال . ولم يبدأ القتال الحقيقى بين المسلمين وغيرهم إلا بعد أن نزلت آية أخرى هى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين[2] » ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بحالة

---

(١) سورة الحج الآيتان ٣٩ ـ ٤٠ (٢) سورة البقرة الآية ١٩٠

الدفاع ، وعدم الاعتداء ، فالاعتداء يسبب سخط الله .

وهكذا كان السبب الرئيسى للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال .

وهنا يبدو موضوع مهم يتصل بالحبشة ، تلك البلاد التى ليست بعيدة عن الجزيرة العربية والتى للمسلمين بها عهد منذ مطلع الإسلام ، فقد هاجروا إليها قبل هجرتهم للمدينة . والسؤال المهم هو أن المسلمين لم يهاجموا الحبشة ، لأن الحبشة لم تمسهم بسوء ، ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموها ، فهى أقل قوة من الفرس والروم . قد يقال إن البحر يحميها منهم ، والجواب سهل ، فقد ملك المسلمون بَحْرِيَّةً قوية هاجموا بها القسطنطينية وسيطروا بواسطتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط ولكنهم لم يتجهوا للحبشة ، فما كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعاً ورداً لاعتداء .

٢ ــ تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها : كانت الدعوة الإسلامية مهددة ، وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها ، ثم كان هناك كثير من العرب يميلون للإسلام ويريدون الدخول فيه ، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقوهم إلى الإسلام من عذاب وإيذاء ، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم ، وأن يردوا الاعتداء الذى قد ينزل بأحد منهم بقوة السيف .

٣ ــ المحافظة على الأمة الإسلامية من أن تدكها جيوش الفرس والروم : قبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية ، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة ، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حسابا للعرب ، إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرعون صراعاً يكاد يكون متصلا ، وعلى هذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنها لم تكوّن وحدة يمكن أن تصبح خطراً على الدولتين المجاورتين فى الشمال .

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكفر به آخرون ، وقام نزاع عنيف فى الجزيرة العربية بين المسلمين وغير المسلمين (قريش واليهود) ، وفى هذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضاً بهذا الدين الجديد ، وقالوا إنها حركة قام بها عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا أنها نوع من الصراع الداخلى لا يلبث أن يموت .

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر وينتشر ، وسرعان ما تكونت فى الجزيرة العربية دولة قوية متحدة ، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت لها مبادئ الدين الجديد الذى اجتمع العرب حوله ، هذه المبادئ التى خلقت منهم أسرة واحدة متحابة وجعلت لهم رئيساً واجب الطاعة : قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة[1] » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول[2] » .

كل هذا أدخل الذعر والخوف فى نفوس الفرس والروم ، فقد أصبحت الجزيرة العربية منافساً خطيراً ، قوياً متحداً ، وأصبحت دولة لها دين ولها مبادئ تعمل على نشر هذا الدين وإذاعة أفكاره واكتساب الأنصار إليه ، ومن أجل هذا دخل الفرس والروم المعركة ، وقررتا ضرورة القضاء على الدولة الإسلامية الجديدة والقضاء على الوحدة التى تكونت عند العرب ، وقد بدأ ذلك فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد وقعت فى عهده غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين وقتل فيها مجموعة من خيرة القواد المسلمين ، كما خرج الرسول لمواجهة الروم فى غزوة تبوك عندما بلغه أنهم تجمعوا لمهاجمة المسلمين ، وكان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن صحابيا فى أثناء حياة الرسول

---

(١) سورة الحجرات الآية العاشرة (٢) سورة النساء الآية ٥٨

دق باب عمر بن الخطاب فى ليلة وعمر نائم ، فهب عمر من نومه مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟

وكما تحرَّش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً ، فالتاريخ يروى لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت تُوالى الإغارة على أرض المسلمين ، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

فالحرب الحقيقية لم تكن مع الشعوب ، وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما الباغية ، هؤلاء الجبابرة الطغاة الذين كانوا يسلبون الشعوب المغلوبة حرياتها وثرواتها ، والذين كانوا يقفون حاجزاً بين الناس وبين الدين الجديد حتى لا يجذبهم إلى رحاب الحرية والمساواة ، فلما سقط هذا الحاجز اتصلت الشعوب التى كانت خاضعة مغلوبة على أمرها ، بالإسلام ، وتعاونت مع العرب ، ومنهم من دخل الإسلام واستعذب الحرية فى ظلاله ، ومنهم من بقى على دينه .

ومبادئ الإسلام واضحة فى أن أى قتال إنما هو لرد عدوان كما سبق القول ، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجئوا للسلم إذا أوقف أعداء الإسلام عدوانهم ، قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله[١] » وقال : « فإن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »[٢] .

وقد سار الرسول على هدى هاتين الآيتين الكريمتين فنراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة وأنها تريد الهجوم ، فلما وصل إلى تبوك ووجد أن جيوش الروم تراجعت لم يفكر فى مهاجمة الروم ، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ (٢) سورة النساء الآية ٩٠

علاقة الحالة الاقتصادية بالحروب :

بقى موضوع نحب أن نحققه بإنصاف وعمق ، وهو مكانة الناحية الاقتصادية فى الفتوح ، وقد اهتم بهذه الناحية كثير من الباحثين ، وعدّها بعضهم العامل الرئيسى فى التوسع الذى قام به العرب ، يقول[1] Thomas Arnold :

إن العرب شعب نشيط فعّال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة ، واجتياح الأراضى الغنية المجاورة المترفهة .

ويقول دوايت دونلدش : ونشك فى الحقيقة فيما إذا كان الحماس الدينى وحده كافياً لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة[2] .

ويقول Stanley Lane-Poole : إننا لانستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة ، والأراضى الخصبة ، والمدن العامرة ، فى الممالك المجاورة كانت عاملا كبيراً فى تحمس المسلمين لنشر الإسلام[3] .

ويقول الدكتور فيليب حتى[4] : إن الحاجة المادية هى التى دفعت بمعاشر البدو — وأكثرُ جيوش المسلمين منهم — إلى ما وراء تخوم البادية القفراء ، إلى مواطن الخصب فى بلدان الشمال ، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى ، فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ فى أحضان المدنية التى ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذى حبب لهم القتال .

---

(١) Preaching of Islam P. 46

(٢) عقيدة الشيعة ص ١٨

(٣) Arabs in Spain P. 4 3

(٤) History of the Arabs Vol 1. P. 195 — 199

هل هذا الكلام صحيح ؟ وهل كان البدوىّ تواقا إلى حياة الهناء والبذخ ؟ وهل كان ذلك هو الدافع لهذا البدوى ليخرج قاصداً القضاء على أكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ العالم فى ذلك الوقت ؟

نحب أن نقرر أن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة فى الحصول على المال قديمة جداً ، بدأت مع بدء الإسلام ، واتُّهم بها محمد نفسه قبل أن يَتَّهِمَ بها هؤلاء المستشرقون معاشرَ البدو بمدة طويلة ، وَوُجدت أدلة كثيرة تقوِّض هذه التهمة ، ولكنها مع ذلك لا تزال حية .

لقد اتَّهمت قريش محمداً بأنه طالب مال وعرضت عليه أعز ثرواتها ، ولكنه صاح فيهم : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »[1] .

وافتقر محمد بعد غنى ، وافتقر أبو بكر بعد غنى ، وافتقر عمر الذى آل له السلطان على الإمبراطوريتين العظيمتين ، وظل يعيش فى تقشف ظاهر ، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طلاب مال وثراء !!

وعند البدء فى غزو فارس برزت هذه التهمة فى عقل رستم قائد الفرس ، وظن أنه يستطيع أن يُرْضِيَ هؤلاء البدو بحفنات من ذهب الفرس وينجو من قتالهم ، فطلب من سعد بن أبى وقاص أن يوجِّه إليه بعض أصحابه ، فوجه إليه المغيرة بن شعبة . فقال له رستم : قد علمت أنه لم تحملكم على ما أنتم عليه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون[2] . والعجيب أن الدكتور حِتِّى يذكر هذه القصة حجةً لدعواه ، وينسى أن رأى رستم لا يمكن أن يكون

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٤

هليلا على المسلمين ، ويفسى كذلك باقى الرواية حيث سخر المغيرة من رستم ومن رأيه ومن ماله ، وحيث صاح به بألا مناص من واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

والذى ظنه رستم ، ظنه فيما بعد ملك الصين عندما زحف قتيبة بن مسلم على هذه الأصقاع ، وأناب عنه هبيرة الكلابى لمقابلة ذلك الملك بناء على طلبه ، فقال له الملك : قل لصاحبك (يقصد قتيبة) : إنى عرفت حرصه وقلة أصحابه ، فلينصرف وإلا بعثت عليه من يهلكه . فصاح به هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ أما تخويفك إيانا بالموت فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه أو نخافه .

إذاً فهذه التهمة قديمة ، وردّها أيضاً قديم كما ترى . . . على أننا لانحاول أن ننكر أن بين المحاربين العرب من كان يحب المال أو يسعى إليه ، ولكن الذى ننكره بقوة وإيمان هو أن يكون الدافع لهذه الحروب هو المال ، ومعنى الدافع هو القوة التى ترسم الخطط وتوجّه ، وهو كذلك الإحساس الداخلى الذى يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التى رسمت لهم ، هذا الدافع كان إسلامياً صرفاً ، وإذا جاء المال فهو تابع له ولم يكن قط هدفاً لذاته ، ونضع الأدلة لإبراز هذا الرأى :

أولا — صارع المسلمون الشرك فى قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاماً سقط خلالها آلاف من خيرة المسلمين فى الغزوات وحروب المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وكانت كل هذه الحروب تدور فى البادية القفراء كما سماها الدكتور حتّى ، بعيدة عن الأطماع فى الأرض التى سماها مواطن الخصب بالشمال . فما الدافع لكل هذه الضحايا ؟

أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كما حصل فى فتح مكة ، وطالما حصلوا على غنائم ثم ردوها لأصحابها بعد إسلامهم كما حصل فى غزوة حنين والطائف .

ثانياً — أى مال كان يمكن أن يتطلع إليه المسلمون والوصول إليه محفوف بالمخاطر ؟ وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينما دقّ بابَه أحدُ الصحابة وهو نائم ليلاً هبَّ عمر من نومه مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ وقد عاش البدو آلاف السنين فى هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات فى الشمال ، ولكن أحلام أحدهم لم تصل إلى أن يطمع أن يدكّ عروش الملوك ، وأن يجعلها تخضع لسلطان البدو الذين لاسلاح لهم ولا دربة ولا عدد ، فى حين كان للروم وللفرس جيوش جرارة وعتاد قوى ونظام كامل . وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم وقد وقعت بهم الهزيمة فعلا فى غزوة مؤتة ، وترددوا طويلا عند ما دُعوا إلى غزوة تبوك ، وقد عبر عبد الرحمن بن عوف عن قوة الروم بقوله : إنها الروم وبنو الأصفر ، عزم حديد وبأس شديد .

ثالثا — لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطماع الدخيلة على حياة التقشف والزهد ، وعندما حاصروا حصن بابليون بعد أن فرغوا من الشام وفارس كانوا لايزالون على بساطتهم وصفائهم ، وقد أرسل لهم المقوقس رسلا ليتعرفوا له أحوالهم ، فعاد الرسل إلى المقوقس وقالوا له : رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ؛ وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعْرَف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد . . .

رابعاً — طالت حروب المسلمين مع البربر فى شمال إفريقية وامتدت ، وسقط فيها كثير من الضحايا ، وكانت الصحراء القاحلة آنذاك بها أبرز من مواطن الخصب ومن الغياض .

خامساً — لقد وقعت معارك عنيفة فى داخل صفوف المسلمين ، بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك ، وسقط آلاف الضحايا فى هذه المعارك ، وما كانت تضيف أرضاً خصبة ولا هناء ولا بذخا .

ما الدافع الحقيقى لهذه الحروب ؟

إنها العقيدة التى رخص من أجلها كل شىء ، إنها الرغبة فى الحصول على إحدى الحسنيين ، وهانت من أجل هذا كل تضحية ، لقد كانت هناك أطماع مالية ، ولكن هذه بدأت متأخرة ، وكانت عند من لم يتعمق الإيمان فى نفسه ، وكانت على العموم عاملا ثانويا ، ومَنْ ذا الذى يحمل رأسه على يده ويقاتل بها أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش فى أحضان الهلال الخصيب ؟ والتاريخ الإسلامى مملوء بقصص البطولة ، وبهؤلاء الذين نسميهم بالفدائيين الذين يلقون بأنفسهم فى مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الإسلام وترتفع راية هذا الدين . أين المال والرخاء لهؤلاء الشهداء ؟ .

ويقول Stanley Lane Poole[1] : إن تحمُّس العرب للفتوح كان يوجهه عنصر قوى من الرغبة فى نشر الدين ، فقد حاربوا لأنهم يقاتلون أعداء الله ورسوله ، وحاربوا لأن مثوبة الشهداء وكئوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يُقْتَلون فى سبيل الله .

وقد استمرت الحرب دائرة بين الفرس والروم أربعمائة سنة ، وكانت حروب أطماع ودنيا ، فلم يستطع هؤلاء أو هؤلاء أن يحرزوا نصراً مؤزراً ، لسبب واحد هو قلة العقيدة ، فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة ، فلَّ ذلك السلاحُ كلَّ سلاح ، وتهاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدام المهاجمين .

(١) Arabs in Spain P. 43

المـــرأة

كنت أعتقد أنه لا مكان للحديث عن المرأة فى هذا الكتاب ، فالمرأة فى الإسلام – فيما أرى – ليست مشكلة ؛ لقد رفع الإسلام مكانتها عالياً ، وهيأ لها فى المجتمع الإسلامى والمجتمع الإنسانى منزلة ممتازة ، يدركها كل من فهم التفكير الإسلامى وتَدَبَّره .

غير أن هناك طوائف تبحث عن سوءات تنسبها للإسلام ، وقد وجدت هذه الطوائف فى أحوال المرأة فى العالم الإسلامى سوأة أخذت تشَّهر بها وتذيعها على أنها سقطة إسلامية تقلل من مكانة هذا الدين وتضع من شأنه ، وسار بعض المسلمين الذين خدعهم بريق الغرب – والضعيف فى الغالب يحب تقليد القوى – سيرة الغرب فى هذا الموضوع .

ومن أجل هذا سنتكلم عن المرأة فى التفكير الإسلامى ، شارحين المشكلات التى تتصل بها بما يناسب روح هذا الكتاب واتجاهاته ، تاركين التفاصيل الأخرى إلى مراجع متعددة اهتمت بها[1] .

ونحب أن نوضح هنا بعض الأفكار العامة بادئ ذى بدء :

أولا – فى خلال الاحتلال الأثيم الذى خضع له العالم الإسلامى أو أكثره عدة قرون ، أصيب هذا العالم بنكسة عنيفة فى أفكاره وتراثه ، حتى أصبح المسلم مسلما باسمه لا بروحه ، وحتى وُجِدَ فرق شاسع بين

---

(١) اقرأ عن موضوع المرأة المسلمة :

– فصلا عن تعليم المرأة فى كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » للمؤلف

– بابا عن مجتمع الأسرة فى « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » للمؤلف

– الباب الثانى من كتاب « الإسلامية عقيدة وشريعة » لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

– كتاب « المرأة فى الإسلام » للأستاذ كمال أحمد عون ، وغيرها من الكتب .

واقع المسلمين وبين ما يجب أن يكونوا عليه ، وكان نصيب المرأة من هذا التدهور ليس أقل من نصيب الرجل ، فإذا قيل إن المرأة المسلمة تعيش فى ظلام فلنتذكر أن الرجل المسلم كان كذلك فى الغالب ، ولا يزال كذلك فى كثير من البلدان والقرى .

ثانيا — أدخل المحتلون ألوانا من النظم والعادات والتقاليد إلى العالم الإسلامى ، ولا تزال لها بقايا يُعَيَّر بها الإسلام ، والإسلام منها براء ، وذلك كنظام الحريم ورقص البطن والحجاب.

ثالثاً — عندما تحرر العالم الإسلامى وبدأ ينفض عنه الغبار ، كان الرجل أسرع للتحرر من المرأة ، ولعل هذا شيء طبيعى لأن الرجل أسرع للمغامرة من المرأة ، أو لأنه كان ذا نصيب فى مكافحة الاستعمار أوفى من نصيب المرأة فعادت عليه أولى الثمرات ، أو لأن فُرَصَ الترقى والتعليم لم تكن تكفى الولد والبنت عند بدء النهضة ، فدفع الآباء والأمهات بأبنائهم للمدارس ودور العلم ، وتأخر دفعهم للبنات .

ومعنى هذه المقدمات ، أن تَحرُّرَ المسلمين ، وبالتالى عودتهم للإسلام الصحيح وروحه الحقة ، ستزيل هذه السوأة التى شغلت الكُتَّاب حينا من الزمن ، واعتقادى أنه بعد فترة قصيرة لن يكون موضوع « المرأة فى الإسلام » موضوعا يحتاج إلى دفاع أو شرح كما لم تعد كُرَوِيَّةُ الأرض موضوعا يجهد الجغرافيون أنفسهم لإثباته ، كما كانوا يفعلون منذ جيل واحد .

تلك حقيقة لابُدَّ آتيه ، لأن الإسلام منح المرأة منذ أربعة عشر قرنا ما لم تُمْنَحْه المرأة الغربية إلا بعد ذلك بعدة قرون ، أو ما لم تُمنَحه هذه المرأة إلا فى هذا القرن الذى نعيش فيه ، أو ما لاتزال المرأة الغربية تصارع الآن للحصول عليه .

تعال بنا نذكر لمحات عن المرأة غير المسلمة فى الماضى والحاضر لنرى الظلام الحقيقى الذى عانته هذه المرأة المسكينة .

المرأة فى غير حمى الاسلام :

قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رقيقاً تابعاً للرجل ، لها حقوق القاصر أو لا حقوق لها على الإطلاق .

وقضت شرائع الهند القديمة « أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار خير من المرأة » وكان حقها فى الحياة ينتهى بانتهاء أجل زوجها الذى هو سيدها ومالكها ، فإذا رأت جثمانه يُحرق ألقت بنفسها فى نيرانه وإلا حاقت عليها اللعنة الأبدية .

وجاء فى شرائع منو دهرما ساسترا عن المرأة ما يلى : تعيش المرأة وليس لها خيار ، سواء كانت بنتا صغيرة ، أو شابة ، أو عجوزا ، فالبنت فى خيار أبيها ، والمتزوجه فى خيار بعلها ، والأرملة فى خيار أبنائها ، وليس لها أن تستقل أبدا ، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها ، بل تهجر ما تشتهيه من الأكل واللبس والزينة حتى تموت ، ولا تملك الزوجة شيئاً ، وكل ما تحرزه يذهب توا لزوجها[1] .

وكانت المرأة فى أثينا تعتبر من سقط المتاع ، فكانت تباع وتُشترى ، وكانت تُعد رجسا من عمل الشيطان .

أما رأى التوراة فى المرأة فقد وضحه سفر الجامعة فى الكلمات الآتية : « درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ، ولأعرف الشر أنه جهالة ، والحماقة أنها جنون ، فوجدت أمرَّ من الموت المرأة التى هى شباك وقلبها أشراك ، ويداها قيود »[2] .

---

(١) اقرأ مقارنة الأديان للمؤلف ج ٤ ص ٧٢ و ٧٤

(٢) الاصحاح السابع الفقرتان ٢٥ - ٢٦

أما الكنيسة الكاثوليكية فإن الكاتب الدانمركى Wieth-knudsen يشرح اتجاهها نحو المرأة بقوله : خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوربية محدودة جداً تبعاً لاتجاه المذهب الكاثوليكى الذى كان يَعُدّ المرأة مخلوقا فى المرتبة الثانية(١) .

وفى الجزيرة العربية كانت الحياة كفاحا وصراعا للحصول على العيش ، وقد اضطرت المرأة أن تدخل هذا الخضم عاملة كادحة ، ولكن كدحها لم يكن ينتج ما يعادل كدح الرجل ، كما أن نصيبها فى الحروب كان ضئيلا ، ولذلك غلب أن يتجه لها سخط المجتمع العربى ، ذلك السخط الذى عبر عنه القرآن بقوله « وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون »(٢) بل دسَّه بعضهم فى التراب فعلا ، حتى هتف بهم القرآن الكريم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً »(٣) فإذا نجت الوليدة العربية من الوأد وجدت غالباً فى انتظارها حياة ظالمة ، ليس لها فيها نصيب من الميراث ، وقد تُكره فيها على البغاء ، أو تُعْضَل عن الزواج .

وفى رومية اجتمع مجمع كبير وبحث فى شئون المرأة فقرر أنها كائن لا نَفْس له ، وأنها لهذا لن ترث الحياة الآخروية ، وأنها رجس ، يجب ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وعليها أن تمضى وقتها الصلاة والعبادة والخدمة ، وليس لها الحق فى أن تتكلم ، ولمنعها من الكلام وضعوا على فمها قفلا من الحديد ، فكانت المرأة من أعلى الأسر وأدناها تروح وتغدو فى الطريق أو فى دارها وعلى فمها قفل ، هذا غير العقوبات

(١) Feminism : translated the to the English by arthur chater P. 200

(٢) سورة النحل الآيتان ٥٨ – ٥٩ . (٣) سورة الإسراء الآية ٣١

البدنية التى كانت توقّع عليها باعتبار أنها أداة الإغواء ، يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب(١) .

وقد لخص المرحوم الأستاذ قاسم أمين حالة المرأة فى العصور القديمة بقوله : ترتب على دخول المرأة فى العائلة حرمانُها من استقلالها ، لذلك كان رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته ، وكان يملكها كما يُملَك الرقيق بطريق البيع والشراء ، بمعنى أن عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، فكان الرجل يشترى زوجته من أبيها ، فتنتقل إليه جميع حقوق الأب ، ويجوز للزوج أن يتصرف فيها بالبيع لشخص آخر(٢) .

تلك هى المرأة فى العصور القديمة ، فلنمض فى حديثنا لنتكلم عن المرأة فى عصور أحدث .

فى فرنسا عقد اجتماع سنة ٥٨٦ م يبحث شأن المرأة وما إذا كانت تُعَدُّ إنساناً أو لا تعد إنساناً ، وبعد النقاش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .

وهكذا أثبت الفرنسيون فى هذا التاريخ فقط إنسانية المرأة ، تلك الإنسانية التى كانت مشكوكاً فيها من قبل ، وحتى عندما أثبتوها لم يثبتوها كاملة ، وإنما جعلوا المرأة تابعاً وخادماً للرجل ، ومن أجل هذا مر الزمن حتى عصرنا الحديث والمرأة الفرنسية محرومة من أبسط الحقوق التى مُنِحَتْها المرأة المسلمة منذ مئات السنين ، فقد صدر قانونٌ فى فبراير سنة ١٩٣٨ يلغى القوانين التى كانت تمنع المرأة الفرنسية من بعض التصرفات المالية ، ويجيز لها لأول مرة فى تاريخها بدون إذن القاضى أن تفتح حساباً جارياً باسمها فى البنك ،

---

(١) عفيف طبارة : روح الدين الإسلامى ص ٢٧١

(٢) انظر كتاب المرأة الجديدة ص ١٧

وأن توقع بالتالى على شيكات الصرف، وأن تمضى العقود المالية ، وتستولى على الإرث .

وينقل الدكتور على عبد الواحد فى هذا الشأن نص المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسى وهو كالآتى : « المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ، ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ، ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض ، بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » ويعلق الدكتور عبد الواحد على هذه المادة بقوله : ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر[1] .

وفى إنجلترا حرم هنرى الثامن على المرأة الإنجليزية قراءة الكتاب المقدس ، وظلت النساء حتى سنة ١٨٥٠ م غير معدودات من المواطنين ، وظللن حتى سنة ١٨٨٢ ليس لهن حقوق شخصية ، فلا حق لهن فى التملك الخالص ، وإنما كانت المرأة ذائبة فى أبيها أو زوجها . وعندما كنتُ طالباً فى جامعة كمبردج فى منتصف هذا القرن لم يكن للطالبات الحق فى الاشتراك فى أندية الطلاب ولا اتحاد الطلبة بالجامعة العريقة ، ولم تسوّ جامعة اكسفورد بين الطالبات والطلاب فى الحقوق إلا بقرار صدر فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٤[2] .

هل لنا أن نتصور بعد هذا أنّ ما أصاب العالم الإسلامى من سوءات وتقاليد مشينة فى موضوع المرأة ، انحدر إليه من الغرب ، وحمله إليه الغزاة مع ما حملوا من آثام ؟ إننى شخصياً أميل إلى هذا الرأى .

تعال بنا إلى الإسلام لنجده قد بكر فقرر المساواة بين الرجل والمرأة فى كل شىء ، لم يستثن من ذلك إلا ما دعت الحاجة الواضحة إلى استثنائه

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام ص ٦٠ (٢) جريدة الأهرام فى ٢٧ / ٦ / ٦٤

كالميراث ، إذ قرر للذكر مثل حظ الانثيين ، لأن المرأة معفاة من التكاليف المالية قبل الزواج وبعده ، فقبل الزواج يلتزم أبوها بالإنفاق عليها ، وبعد الزواج يصير الإنفاق عليها وعلى أولادها مسئولية الزوج ، حتى ليرى بعض الباحثين أن المرأة أوفر حظاً فى الميراث من الرجل ؛ فلأنْ تأخذ المرأة خمسة وتدخرها ، خير من أن يأخذ الرجل عشرة لينفق منها أو ينفقها كلها ، على أنْ حديثنا عن المرأة فى الإسلام سيتسع لشيء من الشرح آن لنا أن نأخذ فيه :

المرأة فى الإسلام

قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة ، كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون وفى الحقوق العامة ، وجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون(١) .

تعال بنا نعود إلى مصدر الإسلام الأول لنقتبس منه ما يدعم هذا الاعتقاد ؛ قال تعالى :

– ولقد كرمنا بنى آدم(٢) .

– للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن(٣) .

– للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون(٤) .

– ولهن مِثْلُ الذى عليهن بالمعروف(٥).

– والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهمْ أولياءُ بعض(٦) .

– وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً(٧) .

---

(١) دكتور على عبد الواحد : حقوق الإنسان فى الإسلام ص ٥٢ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠ (٣) سورة النساء الآية ٣٢
(٤) سورة النساء الآية السابعة (٥) سورة البقرة الآية ٢٢٨
(٦) سورة التوبة الآية ٨١ (٧) سورة النساء الآية ٣٧

ــ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى[(١)] .

وهكذا تجد هذه الآيات وسواها تجمع الذكر والأنثى تحت حكم واحد ، وتقضى قضاء مبرماً على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة . بقيت تلك المسائل التى تكرر القول فيها ، والتى ظنَّها مثيروها سوءات تمس الإسلام ، فراحوا ينشرونها فى نحيب وولولة من أجل حقوق المرأة التى زعموا أن الإسلام هضمها ، وفى قمة هذه المسائل تعدد الزوجات والطلاق والقوامة وتأديب الزوجة .

وطريقنا هنا لشرح موقف الإسلام من هذه المسائل جميعاً طريق واحد ، ففى رأينا أن هناك علة واحدة قضت بهذه الأمور ، وهى علة واضحة لا تخفى إلا على من رغب فى الغموض وأغمض عينيه حتّى لا يرى النور ، وتلك العلة هى أن الإسلام دين الفطرة ، ودين الطبيعة ، وقد قضت الفطرة أن الرجل يَفْضُل المرأة فى بعض الأمور ؛ فهو أطول منها قامة فى المتوسط ، وهيكله العظمى أضخم من هيكلها ، ووزنه أثقل ، وعضلاته أصلب ، ومخه أكبر وكذلك قلبه ، ويعتريها ــ دون الرجل ــ عارض الحيض فيهز جسمها بضعة أيام كل شهر .

ويتزوج الرجل وتتزوج المرأة وينجبان ، فلا يبدو على الرجل عارض وإنما يظل كما هو ، ولكن العوارض التى تمس جسم المرأة بسبب الزواج والحمل كثيرة ولا يمكن أن تخفى .

ولا تساوى المرأة الرجل فى أى عمل اشتركا فيه ، ولو كان من الأعمال التى انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان فى معيشة واحدة ؛ لا تطبخ كما يطبخ ، ولا تتقن الأزياء كما يتقنها ، ولا تبدع فى صناعة التجميل كما يبدع فيها[(٢)] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٥

(٢) الأستاذ العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٧٤

والإسلام دين الفطرة كذلك فى اعترافه بواقع الأمر وأخلاق الناس ، فالإسلام يشرِّع تشريعاً مثالياً للخاصة ويحث المسلمين على اتباع هذا النهج المثالى ، ولكن الإسلام يعترف أن بعض الناس لا يقوون على الوصول لهذه الغاية المثلى ، فلا يدعهم يهيمون فى الضلال ، بل يشرِّع لهم ما يوفِّق به بين طباعهم الشاردة وبين القيم الصحيحة ، وذلك هو أسلوب الإسلام فى هذه الشئون التى اعتبرها أعداء الإسلام ومن سار سيرتهم سوءات ، وراحوا يحاولون مهاجمة الإسلام بسببها ، وسنذكر كلمة موجزة عن كل من هذه المسائل نردُّ بها الافتراء على التفكير الإسلامى :

تعدد الزوجات (١)

الأصل فى الزواج فى الإسلام ، هو الزوجة الواحدة ، وهناك أدلة واضحة تحث على هذا الوضع نورد منها ما يلى :

قال تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألاَّ تعدلوا فواحدة (٢) .

وقال : ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم (٣) .

ويعلق المرحوم قاسم أمين على هاتين الآيتين بقوله : لو أن ناظراً فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيداً عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاءا بالإباحة فى الجملة (٤) .

---

(١) حديثنا هنا خاص بتعدد الزوجات فى الإسلام بصفة عامة ، أما تعدد زوجات الرسول فقد وفيناه بحثا فى الجزء الأول من كتابنا : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية .

(٢) سورة النساء الآية الثالثة (٣) سورة النساء الآية ١٢٨

(٤) تحرير المرأة : فصل تعدد الزوجات

وروى البخارى عن المسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن يُنْكِحُوا ابنتهم علىَّ بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما فاطمة بضعة منى ، يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها .

وقد أخذ العلماء أو فريق كبير منهم من هذا الحديث أن الشريفة التى يؤذيها أن يتزوج رجلها لايحل إيذاؤها بالتزوج عليها ، وبخاصة إن اشترطته على الرجل ، أو كانت تلك عادة القوم ، فعليه الوفاء[1] .

فالزوجة الواحدة هى الأصل فى الاسلام ، وقد سار على ذلك الأصل الغالبية العظمى من المسلمين ، وبلغ هؤلاء مثلا فى الجمهورية العربية المتحدة أكثر من ٩٧ ٪ .

بيد أن عوامل متعددة تدفع الرجل — مسلماً كان أو غير مسلم — إلى التزوج بزوجة أخرى ، وتكون هذه الحالة مُلِحَّة أحياناً كعدم الولد ومرض الزوجة ، وعدم المقدرة على الصبر دون الاتصال الجنسى حقبة الحيض والنفاس ، وكالرغبة التى تغلب على بعض الرجال فتجعل حاجتهم الجنسية لا يطفئها إلا عدد من الزوجات ، وعن هذا النوع يقول الإمام الغزالى : ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لاتحصنه المرأة الواحدة ، فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع . . . . ومهما كان الباعث معلوما فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة ، فالمراد تسكين النفس ، فلينْظَر إليه فى الكثرة والقلة[2] .

---

(١) كمال أحمد عون : المرأة فى الإسلام ص ٩٠ ويلاحظ أن موقف الرسول هنا ليس موقفا تشريعيا ، ولو كان موقفه تشريعيا لما احتاج أن يصعد المنبر ، ويستثير عاطفة الناس ، ويتحدث عن ابنته وعما يمسها ويمسه من أجلها من آلام ، إنه عليه السلام يتحدث هنا كأب لا كرسول .

(٢) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٩٧

فهؤلاء وأمثالهم لم يدعهم الإسلام لقيادة الشيطان ، بل رسم لهم ما يحقق رغبتهم أو بعضها فى إطار حلال ، وهو إباحة تعدُّد الزوجات .

هذا من جهة الرجل ، فإذا جئنا إلى المجتمع وجدنا ظروفه كثيراً ما تجعل تعدد الزوجات وسيلة لحل مشكلة به ، فلعل تعدد الزوجات هو الوسيلة الصالحة لحل مشكلة زيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة بعد الحروب والفتن حيث تصبح هذه الزيادة كبيرة ، ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجا من الرضا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لها ولا لأولادها قِبَلَ الرجل ، وأكرم لها كذلك من حياة العانس لما فى هذه الحياة من حرمان وفقر .

بقى أن نقول عن تعدد الزوجات إنه ليس من صنع الإسلام ، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات وفى مقدمتها التوراة ، وأقره الإنجيل إلا فى حالة واحدة هى حالة الأسقف حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات فليكتف بزوجة واحدة . وقد بقى تعدد الزوجات معمولا به فى العالم المسيحى حتى حرمته القوانين الوضعية . ويقول الأستاذ محمد فؤاد الهاشمى[1] (العالم الذى كان مسيحياً وأسلم) : إن اعتراف الكنيسة بتعدد الزوجات بقى إلى القرن السابع عشر وإن جميع الأديان ومنها ديانة البراهمة وبوذا وعباد الوثن والمجوس ، وكذلك المبادئ الوضعية ، قد سايرت الحياة الواقعية ، وجارت الطبيعة البشرية فى شئون الزواج ، ولكن كهنة المسيحيين أبوا أن يفرِّطوا فى مفتاح السجن ، لأن فى ضياع هذا المفتاح ضياعا لسلطتهم .

ولم يقبل الإسلام تعدد الزوجات على النحو الذى عرفته حضارات الماضى ، بل حدده بعد أن لم يكن محدوداً ، ونظمه بعد أن كان لا نظام له ، وقيده وكان من قبل مطلقاً .

---

(١) الأديان فى كفة الميزان ص ١٠٥ – ١٠٦

وقد أعدَّت الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦٣ مشروعاً للحد من تعدد الزوجات ، ومن الطلاق ، بعدم إباحة هذا وذاك إلا أمام القاضى مع تقديم أسباب كافية ، وفى نوفمبر من نفس العام رفضت اللجنة المشكلة لدراسة هذا المشروع أن توافق عليه ، وقالت اللجنة فى أسباب الرفض : إن تعدد الزوجات موجود بنسبة ضئيلة جداً لا تتجاوز الآن ٢٪ ، ومن دراسة كثير من الحالات يتبين أن أكثر من نصف هؤلاء له دوافع مقبولة ، وحالات الطلاق كحالات تعدد الزوجات من ناحية النسبة والظروف ، وتقل النسبة من تلقاء نفسها فى هذا وذاك على مر الأيام ، فلا داعى لإصدار قانون لا موضوع له تقريباً ، وبخاصة أن ذكر الأسباب فى حالة الطلاق قد يسىء إلى المرأة والأسرة على العموم .

الطلاق :

يبغض الإسلام الطلاق وينفِّر منه ، ويحث على علاقة زوجية دائمة يصوِّرها القرآن فى صور رائعة حيث يقول تعالى :

– ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة[1] .

– هن لباس لكم وأنتم لباس لهن[2] .

– وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذْن منكم ميثاقاً غليظاً[3] .

ومن أجل هذه العلاقة القوية استهجن الإسلام الطلاق ونفَّر منه ، ورسم السبل لحل الخلافات دون اللجوء إليه ما أمكن ذلك ، اقرأ معى هذه الآيات والأحاديث

– وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً[4] .

---

(١) سورة الروم الآية ٢١
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٧
(٣) سورة النساء الآية ٢١
(٤) سورة النساء الآية ١٩

– واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا[١] .

– وأن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما[٢] .

– وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحا والصلح خير[٣] .

– لعن الله كل مزواج مطلاق .

– تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له العرش .

– أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

ذلك هو موقف الإسلام من الطلاق ، موقف واضح لا شبهة فيه ، ولكن الإسلام كما قلنا دين الفطرة ، والفطرة أثبتت أن كل شركة يمكن أن تفشل ، وأن الحب قد تعقبه الكراهية ، وأن هذه السبل السابقة قد تعجز عن إقامة أسرة سعيدة أو حتى عادية ، والإسلام يعترف بالأمر الواقع ويضع الطلاق حلا لهذه المشكلة قال تعالى : فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[٤] وقال : ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه[٥] .

إن الطلاق دواء مُرٌّ المذاق ، ولكن مرض الشقاق أكثر منه مرارة وقسوة ، وطالما بتر الأطباء عضو إنسان حرصا على الإنسان كله ، ولا شك أن الطلاق خيرٌ من الموقف المائع الذى يحصل كثيراً فى الغرب ، عندما تسوء العلاقة بين الزوج وزوجته وعندما لا يبقى طريق للتوفيق بينهما ،

---

(١) سورة النساء الآية ٣٣
(٢) سورة النساء الآية ٣٤
(٣) سورة النساء الآية ١٢٨
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٩
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣٢

فإننا نرى كلا منهما يتخذ طريقه حرًّا إلى الخدانة ، فتتخذ المرأة خدينا غير زوجها ، ويتخذ هو خدينة غيرها ، لأن الزواج غير مباح لأى منهما قبل الطلاق ، والطلاق يصعب الحصول عليه ، فلتكن الخدانة الأثيمة هى الحل ، وقد أدركت بعض الدول الغربية ما فى ذلك من عبث ، فيسرت أمر الحصول على الطلاق .

القوامة :

وتشير الآيات والأحاديث التى اقتبسناها آنفا إلى ضرورة إقامة علاقة قوية العرى بين الزوج وزوجه ، علاقة تكوّن من الزوجين فكرا واحدا ، وتجعل لهما هدفا واحداً ، فليس هناك رئيس ولا مرءوس . ولكن الطبيعة أثبتت أن الرياسة ضرورية لكل مجتمع صغير أو كبير ، وأن اختلاف الرأى قد يحدث ، ولابدّ أن يكون هناك آنذاك من يبتُّ فى الأمر ويتخذ فيه قرارا ؛ ويكون مسئولا عنه ، ومن هنا كانت القِوامة ، وكان طبيعيا أن تكون القِوامة للرجل كفاء مسئولياته المختلفة تجاه الأسرة ، وكفاء تفوقه الطبيعى الذى أشرنا إليه من قبل .

أما طبيعة المرأة فيلاحظ فيها إرهاف العاطفة ، وسرعة الانفعال ، وشدة الحنان ، وقد خلقت هذه الصفات فى المرأة لتستطيع بها أن تؤدى وظيفتها الأولى وهى الأمومة والحضانة ، وإذا كانت هذه الصفات لازمة فى مضمار الأمومة والحضانة ، فقد تكون ضارة فى مضمار القيادة والرياسة .

أما الرجل فلا يندفع فى الغالب مع عواطفه ووجدانه كما تندفع المرأة ، بل يغلب عليه الإدراك والفكر وهما قوام المسئولية ، ومن أجل هذا بالإضافة إلى المسئوليات المالية والأدبية ، كانت القوامة للرجل ، وقد

علل القرآن الكريم لقوامة الرجل بقوله : « الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم »[١] .

على أن قوامة الرجل يلزم أن تكون قوامة رحيمة ، يتعاون فيها مع الزوجة ويرفق بها ، ويلزم كذلك أن تكون عادلة ، فليس له أن يطلب من زوجته مطلباً غير عادل قال تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة »[٢] .

ثم إن الإسلام أعطى المرأة الحق فى التدخل فى اختيار زوجها ، وبهذا تشترك المرأة فى اختيار القيم عليها ، ولها أن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرشيدة .

وتبدو قوامة الرجل – كما قلنا آنفاً – عند اختلاف وجهات النظر ، أما فى الحياة العادية فلكل سلطاته وسلطانه ، وكل من الرجل والمرأة بل والخادم مسئول عما تحت يده فى عالم الأسرة ، قال صلى الله عليه وسلم : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالرجل راع فى أهله وهو مسئول رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته .

التأديب :

يقيم الإسلام العلاقة بين الزوجين على الحب والوئام والمودة ، وقد اقتبسنا فيما سبق كثيراً من آيات القرآن التى تحثُّ على هذا الوضع ، وتلك العلاقة هى العلاقة المثلى التى يرسمها الإسلام ويرغّب للناس الانتماء إليها ، وقد تكوّنت فى ظل هذه العلاقة ملايين الأسر الإسلامية التى حققت من التآلف والود أسمى الأمثلة ، ولكن الإسلام – كما قلنا – دين الفطرة ، فهو لا يهمل واقع الحياة ، وفى واقع الحياة خلافات تنشب بين الزوج والزوجة ،

(١) سورة النساء الآية ٣٤ . (٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

ولا بد من أساليب للتغلب عليها قبل أن نصل إلى الفرقة وهي السلاح البتار القاسي ، وقد وضع الإسلام مراحل للتوفيق بين الزوجين ، قال تعالى : «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيراً ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما »[1] .

وهكذا وضع الإسلام هذه المراحل الأربعة وقسمها بحكمته السامية إلى مرحلتين ، أولاهما المرحلة التي يسوي الزوجان الخلافات بينهما دون تدخل عنصر خارجي ، وفي هذه المرحلة محاولات أو طرق ثلاثة مرتبة ترتيباً دقيقاً ، أولها الوعظ وهو — كما ترى — علاج رقيق هادىء ، يرمي إلى إعادة الحق إلى نصابه في يُسْر ، ويشرح وجهات النظر ، ويدعو لإزالة الجفوة في حب وقرب ، فإذا لم ينفع هذا السلاح استعمل الزوجُ السلاح الثاني وهو الهجر ، والهجر سلاح يجمع بين اللين والشدة ، فيه يسر وفيه زجر ، فإذا تمادت المرأة في نشوزها ، ولم تستمع لهتاف الوعظ ، ولم يثنها الهجر ، كان للزوج أن يستعمل السلاح الثالث وهو الضرب إذا سمحت الظروف به ، وذلك قبل أن ينكشف الستار ويلجأ الزوجان للمرحلة الثانية وهي مرحلة الحكمين ، حيث يجهران بأسرارهما ، ويعرّضان حياتهما الخاصة لألسن الناس .

وفي التفكير الإسلامي أن إباحة أسرار الزوجين مرحلة يلزم أن نتحاشاها ما أمكن ذلك ، وضربُ الزوج زوجته أيسر من كلام الناس عنهما ، فكل ما يحدث بين الزوجين يمكن إخفاؤه والاعتذار عنه وإزالة نتائجه ، ولكن حديث الناس عنهما قد يمتد وقد يتسبب ما لا تحمد عقباه .

وقد انتهز أعداء الإسلام فكرة وجود الضرب في تشريع التأديب في الإسلام ، فراحوا يولولون ويتباكون ، لا لقسوة في التشريع ،

(١) سورة النساء الآيتان ٣٣ — ٣٤

ولكن لمرض فى نفوسهم ، ونحب أن نوضح لهم الحقائق التالية :

أولا – نضع بين يدى القارئ الأحاديث الآتية التى تشرح استهجان ضرب الزوجة وامتهان الشدة معها ؛ قال صلى الله عليه وسلم :

– ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم .

– خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .

– لن يضرب خياركم .

– أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم .

– استوصوا بالنساء خيراً .

– أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب البعير ؟

ثانيا – أن إباحة الضرب تخضع لظروف الزمان والمكان ، وطبيعى أن هذا السلاح لا يستعمل إلا حيث يرجى منه خير ، وعلى هذا لا يستعمل هذا السلاح مع امرأة تفضل التحكيم عليه ، أو تفضل الطلاق عليه ، ولا نزاع أنه ذو فائدة مع بعض النساء ، فإذا ادّعى بعض المتحذلقين عدم جدواه فإننا نلجأ للاستاذ العقاد لنقتبس منه الرد على هذه القولة الزائفة ، يقول سيادته : وانه لمن السخف الرخيص أن يقال إن جنس النساء قد برىء من المرأة التى يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره ، ونقول إنه سخف رخيص وخيم لأنه ذلك السخف الذى يضر كثيرا ولا يفيد أحدا (١) .

ثالثاً – لماذا لم يصرخ هؤلاء هذا الصراخ ضد القوانين العسكرية التى تبيح ضرب الجنود مع كثرة العقوبات التى يمكن إنزالها بالجنود المخطئين ؟ تلك العقوبات التى لا يوجد لها نظير فى الحياة الزوجية ، كالحبس وتنزيل الرتبة ، وقطع الأجور ، والحرمان من أنواط الشرف وغيرها .

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٨٥ .

رابعاً ـ هناك رأى لعالم أوربى من علماء النفس عن إحساس بعض النساء تجاه الضرب، ونحن ننقله بنصه ، لا لندعو لاستعماله، ولكن لنعرضه للتفكير ، فربما صحَّ أن الضرب يكون أحيانا وسيلة للإصلاح . قال G A. Hadfield فى كتابه « علم النفس والأخلاق » ما يلى : وغريزة الخضوع تقوى أحياناً ، فيجد صاحبها لذة فى أن يكون متسلَّطاً عليه ، ويحتمل لذلك الألمَ بغبطة ، وهذه الغريزة شائعة بين النساء وإن لم يعرفنها ، ومن أجلها اشتهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر من الرجل ، والزوجة من هذا النوع تزداد إعجابا بزوجها كلما ضربها وقسا عليها . . . ولا شيء يحزن بعض النساء مثل الزوج الذى يكون رقيق الحاشية دائما ، لا يثور أبدا على الرغم من تحديهن ، ولا يعرف شقاء هذه العيشة ولا التوق إلى الزوج الذى يستطيع أن يثور ولو مرة واحدة إلا النسوة اللاتى جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز[١] .

وقريب من هذا الاتجاه ، رأيُ الأستاذ محمد زكى عبد القادر[٢] الذى يقول فيه :

ـ المرأة تحب الرجل العَصِيّ . . تحب أن تصطدم إرادتها بإرادته ، تحب الصراع للظفر تأكيداً لسلطانها ، وتحب أكثر من كل شيء الهزيمة أمام إرادته . . .

ـ ولكنها تغضب . .

ـ تغضب وتملأ الدنيا صياحاً ، وفى قرارة نفسها حلاوة الضعف أمام قوة الرجل .

* * *

وبعد ، لا أريد أن أطيل الحديث عن هذا الموضوع هنا ، وأحيل القارئ إلى كتابى « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » حيث تحدثت

---

(١) نقلا عن : المرأة فى الاسلام ص ٦٧ .

(٢) مقال بصحيفة الأخبار فى ٢٧ / ١٢ / ١٩٦٢

بإفاضة عن المرأة ومكانتها الاجتماعية ، وكل ما أريد أن أضيفه هنا هو أن أكرر أن هذه الموضوعات التى يتشدق بها أعداء الإسلام عن المرأة لم تعد تحتاج إلى دراسة وتعمق ، فقد غلب الخير على العالم الإسلامى فاتجهت أغلبية المسلمين إلى مثالية الإسلام ، فلم يعد هناك تعدد زوجات يُقْلِق ، وليس هناك عدد من المطلقات يثير الأسى كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولا يكاد الضرب يستعمل على الإطلاق فى تأديب الزوجة ، وربما لا يزال يستعمل فى بيئات لا ترى فيه غضاضة تذكر ، وهو لا يستعمل كسلاح أسلمه الإسلام للزوج ، بل لأن البيئة تعرف الضرب وتقره سلاحا للتأديب بين أفرادها على العموم ، أما القوامة فالتعاون بين الزوج والزوجة هدف من أهداف الإسلام أخذ ينتشر ويمتد وتتعمق جذوره ، وفيما يلى إحصائية تثبت ضآلة نسبة تعدد الزوجات فى الجمهورية العربية المتحدة ، وتثبت كذلك أن هذه النسبة تقل من عام إلى عام .

	سنة ١٩٣٣	سنة ١٩٤٣
الزواج باثنتين	٤,٤٩ ٪	٢,٩٥ /
« بثلاثة	٠,٢٩–٪	٠,١٧–٪
« بأربعة	٠,٠٤–٪	٠,٠٢–٪

وفى رأيى أن هذه الأرقام الناطقة جديرة أن تخرس ألسنة المتكلمين فى هذه الموضوعات وأن تمسك بأقلامهم ، وجدير بهم إن كانوا منصفين أن يتجهوا بعنايتهم إلى ما هو أجدى ، أما الغربيون الذين أطلقوا ألسنتهم وأقلامهم للنيل من الإسلام والمسلمين عن طريق المرأة المسلمة ، فإننا ندعوهم ليتجهوا بعنايتهم إلى مشكلة المرأة الغربية التى تمر بمأساة قاسية تهدد كيانها وكيان الأسرة الغربية ، وتهدد مستقبل الجيل الجديد . إن ما يسمونه الأم الآنسة فى الغرب وآلاف المواليد الذين لا يعرفون لهم

آباء لمشكلة تحتاج إلى حل سريع يرمى إلى ضمان نوع من الحضانة لهؤلاء المشردات ولأولادهن ، وقد ذكرت الإحصائيات الرسمية أنه بين كل تسعة أطفال ولدوا فى لندن خلال عام ١٩٦٠ واحد لم تتزوج أمه ، وتُسْعُ المواليد عدد كبير جدا . فقد أثبتت هذه الإحصائيات أن عدد المواليد فى لندن خلال ذلك العام بلغ ٥٧٣٦٨ طفلا(١) .

---

(١) صحيفة الأخبار عدد ٢ / ١ / ١٩٦٢

الرق وموقف الإسلام منه

نريد هنا أن نوضح موقف الإسلام من الرق ، ولكن يجدر بنا قبل ذلك أن نعطى فكرة عن موقف الأمم المختلفة منه ، فقد كان موقف الإسلام من الرق متأثراً باتجاهات الأمم المختلفة عند ظهور الإسلام ، كما كان مؤثّرا فى هذه الاتجاهات ؛ كان الإسلام متأثرا بمعنى أنه وجد الرق – كما سيأتى – نظاما شائعاً ، من أهم موارده الأسرُ فى الحروب ، فأجاز الإسلام للمسلمين أن يأسروا من أعدائهم ما استطاعوا حتى تتحقق المعاملة بالمثل ، وبهذا أجّل الإسلامُ إلى حينٍ هدفَه الأسمى وهو الحرية ، أو قل وصل إلى الهدف خطوة بعد خطوة .

وكان الإسلام مؤثّرا فى اتجاهات هذه الأمم لأنه بالتشريع الذى أجراه للرق أبان أنه مشكلة ، ولم يكن أحد قبل الإسلام يدرك أن الرق مشكلة ، بل كان عملا طبيعياً ، ووضع الإسلام الطرق لحل هذه المشكلة ، وكان ما رسمه الإسلام خطوة واسعة ، ففتح الأعين لتحرير الأرقاء ، حتى تم ذلك فى القرنين الأخيرين .

ما اتجاهات الأمم تجاه الرق ؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما يلى :

الرق فى الحضارة الشرقية القديمة :

لا يعرف التاريخ بداية لاستعباد الإنسان لأخيه الإنسان ، ومنذ عُرِفت الحضارات ودُوِّنَ التاريخ نجد الرق موجوداً ونجده قاسيا .

ففى مصر القديمة وجدت العبودية ، وعلى أكتاف رقيق الأرض بُنِيَتْ الأهرام وأقيمت المعابد ونحتت المسلات .

وفى الصين كان الرق منتشرا ، وكان من أسبابه الفقر الذى كثيرا ما كان يدفع بصاحبه إلى أن يبيع نفسه أو أولاده تخلصاً من العوز الذى كان واسع الانتشار[1] .

وفى الهند – حيث نظام الطبقات – كان الشودرا (Sudra) والمنبوذون (Outcasts) يمثلان الغالبية العظمى بين السكان الأصليين للبلاد ، وكانت هاتان الطبقتان تكوّنان طبقة العبيد . وكان للبراهمة (الكهنة Brahman) الحق فى أن يأخذوا من مال الشودرا ما يشاءون . فهذه الطبقة وأفرادها ملك خالص للبراهمة ، أما طبقة المنبوذين فلم يكن لها حق أن تملك شيئاً ، وكان من التفضل على أىٍّ من أفرادها أن يمتلكه أحد ، وأن يخرجه من طبقة المنبوذين إلى المجتمع .

أما عند الفرس فقد انتشرت نظرية الحق الإلهى وأصبحت عقيدةً مرعيّة عند الجميع ، وبمقتضى هذه النظرية اعتقد الملوك – واعتقد الناس معهم – أن دماء من دماء الآلهة تجرى فى عروقهم ، وأنهم لذلك طبقة أخرى غير طبقة البشر ، وأن مَنْ سواهم عبيدٌ لهم ، ولا ينال الشعب الرحمة من الآلهة إلا إذا رضى عنه الملوك ، فيمكن القول أن سكان فارس كانوا آلهة وعبيداً .

الرق عند اليونان :

وكان استعباد البشر للبشر مطلقاً وبكثرة فى حضارة اليونان ، وكان قرصانهم يتخطفون أبناء الأمم الأخرى فى مختلف السواحل ويبيعونهم فى أسواق أثينا وغيرها ، ولما صارت لليونان مستعمرات فى آسيا الصغرى . صارت لهم فيها أسواق للاتجار بالرقيق ، حتى امتلأت بيوت الإغريق بالإماء والعبيد يستعبدهم اليونان جميعاً ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولم تُؤْثَرْ فى

---

(١) انظر كتاب تاريخ الصين القديم لمؤلفه M. olive

تاريخهم كلمة واحدة عن أى حكيم من حكمائهم باستنكار استعباد الإنسان لأخيه الإنسان أو للترغيب فى تحريره[١] .

وقسّم الفلاسفة اليونان الجنس البشرى قسمين : حر بالطبع ورقيق بالطبع ، وقالوا إن الثانى ما خلق إلا لخدمة الأول ، وإن عليه أن يقوم بالأعمال الجسمانية ويقوم الجنس اليونانى وهو الحر بالطبع بالأعمال الفكرية والإدارية والمناصب الهامة[٢] .

وبناء على هذه القاعدة التى وضعها فلاسفة اليونان استباح اليونان لأنفسهم أن يتلصصوا فى البحار فيخطفوا من يصادفهم ممن يكونون على الشواطئ والسواحل ، فيصبح هؤلاء المخطوفون أرقاء مستعبدين للجنس اليونانى[٣] .

ويرى أفلاطون فى الجمهورية الفاضلة حرمان العبيد حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم[٤] .

ويوافقه تلميذه أرسطو على ذلك فهو يجعل كلمة (المواطن) مرادفة لكلمة (حر) ويرى أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيام على خدمتها ، ذلك لأن (المواطن) حَبَتْهُ الطبيعة ذكاء وشجاعة ، فبنى لنفسه مدينة وتفرّغ لسياستها وخصص حياته لخدمتها فى السلم والحرب ، فلا يتسع وقته للعناية بشئون معاشه ، وتأبَى عليه كرامته أن يتنزل للأعمال اليدوية يزاولها فيشوه يديه وخلقته ، ويظهر وضيعاً ، فكان لابد له ممن يتكفل بذلك دونه ، وقد أوجدت الطبيعة شعوباً قليلة الذكاء أقوياء البنية ، فقدمت له منها آلات للحياة ، هى آلات حية ، وأولئك هم العبيد[٥] .

---

(١) الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر سابقا : مجلة الأزهر صفر سنة ١٣٧٣ .

(٢) انظر النظم الإسلامية للدكتورين حسن إبراهيم وعلى إبراهيم ص ٣٥٩ .

(٣) انظر كتاب الرق فى الإسلام لشفيق باشا ص ١٩ .

(٤) عباس العقاد : حقائق الإسلام ص ٢١٦ .

(٥) دكتور إبراهيم مدكور : تاريخ الفلسفة ص ٥٦ .

الرق عند الرومان :

أما عند الرومان فإن النخاسين كانوا يتخذون الحروب الكثيرة التى اعتاد الرومان أن يشعلوها مواسم لتجارتهم ، وكانوا يصحبون الجيوش لا للاصطدام بالعدو ، بل ليشتروا الأسرى والمغلوبين من صبيان وبنات ورجال ونساء بأبخس الأثمان ، حتى لقد كان الغنىّ من النخاسين يشترى ألف إنسان صفقة واحدة عقب نصر كبير تعده الإنسانية خزياً ،ويعده تاريخ الاستعمار الرومانى عظمة ومجداً ، وفى مدينة روما كانت للرقيق سوق تعرض فيها هذه البضائع للمزاد العلنى على رابية مرتفعة : فيكون الرقيق عرياناً من كل ما يستره ، ذكراً كان أو أنثى ، كبيراً أو حدثاً ، ولمن شاء من الناس أن يدنو من هذا اللحم الحى المعروض للبيع فيجسه بيده ، ويقلبه كيف يشاء ولو لم يشتره فى النهاية ، والقانون الرومانى لم يكن يعتبر الرقيق إنساناً له شخصية ذات حقوق على الإنسانية ، بل كان يعتبره شيئاً من الأشياء كسائر السلع التى يباح الاتجار بها[1] .

ومن وسائل الرق عند الرومان – بالإضافة إلى الحرب التى سبق ذكرها ، أنهم كانوا يسترقون المدين الذى لم يتيسر له الوفاء بدينه ، فيصبح المدين رقيقاً للدائن[2] ؛

الرق عند اليهود :

أما فى بنى إسرائيل فقد أباحت التوراة الاسترقاق بطريق الشراء أو سبياً فى الحرب ، فجعلت للعبرى أن يستعبد العبرى إذا افتقر ، فيبيع الفقيرُ نفسَه لغنى ، أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفّىَ له الثمن ، ويبقى

(١) الشيخ الخضر فى المرجع السابق .

(٢) انظر الرق فى الإسلام لشفيق باشا ص ٢٣ .

عبداً له ست سنين ثم يتحرر ، ففى سفر الخروج : إذا اشتريت عبداً عبرياً فستّ سنين يخدم وفى السابعة يخرج حراً مجاناً (١) ، وإذا سرق العبرى ماشية وذبحها ، أو أى شيء استهلكه ، ولم يكن فى يده ما يعوّض به صاحبه يباع السارق بسرقته ، كما نصت التوراة على ذلك فى سفر الخروج ، وأباحت التوراة للعبرى أن يبيع بنته فتكون أمة للعبرى الذى يشتريها .

أما الاسترقاق سبياً فى الحروب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم ، وقد نصّ العهد القديم على ما يلى :

« حين تقرب من مدينة لكى تحل بها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفُتِحَت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، كلُّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك (٢) » .

الرق عند المسيحيين :

ولما جاءت المسيحية كانت عبودية الإنسان شائعة فى كل العالم ، نقل الدكتور جورج برست ، أحد رجال الجامعة الأمريكية الأولين فى بيروت (٣) ، أن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسى ، ولا من وجهها الاقتصادى ، ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم فى آدابهم من جهة العبودية ، حتى ولا على المباحثة فيها ، ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مضار العبودية ، ولا عن قساوتها ، ولم تأمر بإطلاق العبيد

---

(١) سفر الخروج ١٧ : ١ .
(٢) سفر التثنية الإصحاح العشرون ١٠ — ١٤
(٣) قاموس الكتاب المقدس المجلد الثانى ص ٦٠ — ٦١ . طبع المطبعة الأمريكية فى بيروت سنة ١٩٠١ .

أصلا . وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية بين المولى والعبد بشيء ، بل على عكس ذلك أثبتت حقوق السادة وواجبات العبيد .

وأمر بولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال فى رسالته إلى أهل إفسس[١] . :

« أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يُرْضى الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنيّة صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أو حراً » .

وأوصى بطرس الرسول بمثل هذه الوصية ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم . وأضاف القديس الفيلسوف توماس الأكوينى رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرق بل زكّاه لأنه — على رأى أستاذه أرسطو — حال من الحالات التى خُلِقَ عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان أن يَقْنَعَ الإنسان من الدنيا بأهون نصيب[٢] .

الرق فى أوربا :

فيما عدا اليونان والرومان — وقد سبق الكلام عنهما — ليس لأوربا تاريخ قديم يذكر سوى تاريخ الجرمان ، ويقول الأستاذ شفيق (باشا) عن موقف الجرمان من الرق ما يلى : وكانت المقامرة تخرج بالمولعين بها إلى حد أنهم يقامرون على نسائهم وأولادهم ، بل وعلى حرياتهم الشخصية ، فكان ذلك عند الجرمان مصدراً من مصادر الرق[٣] .

---

(١) الأصحاح السادس : ٥ — ٩ .
(٢) الأستاذ العقاد : حقائق الإسلام ص ٢١٥ .
(٣) الرق فى الإسلام : ص ٣١ .

ولما بدأ تاريخ أوربا العام يظهر فى العصور الوسطى ، ظهر معه نظام الأمراء والإقطاع ، أى نظام السادة من جانب والأرض ورقيق الأرض من جانب آخر ، فقد كان المزارعون عبيداً للملاك يباعون مع الأرض إذا بيعت الأرض ، وليس لواحد منهم الحق فى الخروج من أرض إلى أرض أخرى ، لأنه كان كالآلة تابعا للأرض مملوكا لصاحبها ، ولم يُلْغَ الرق فى أوربا إلا فى القرن التاسع عشر ، وكان فى الحقيقة إلغاءً لاسترقاق الأوربيين فقط ، وتحويلاً لنشاط التسلُّط تجاه آسيا وإفريقية ، وقد كان الاسترقاق فى آسيا منتشراً باسم الاستعمار ، أما فى إفريقية فكان استرقاقاً سافراً وكانت أسواق النخاسين التى فتحها الأوربيون تتمتع برواج عظيم وتفيض بربح وافر على تجارها ، وفى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر تحالف تجار الرقيق البيض مع بعض زعماء القبائل الإفريقيين ، وأخذوا يهجمون على مساكن الإفريقيين ويخطفون أطفالهم ويعرضونهم للبيع فى أسواق العبيد .

الرق عند العرب :

انتشر الرق عند العرب قبل الإسلام انتشاراً كبيراً ، وكانت وسيلتُهُ الحروبَ التى كانت لاتنقطع فى الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا ، ومن وسائل الرق عند العرب القوة فإذا قابلتْ قبيلةٌ قويةٌ قبيلةً ضعيفة استسلمت القبيلة الضعيفة للقوية وخضعت لها وأصبح أفرادها عبيداً . ومن وسائل الرق عند العرب الهجوم السريع ، فالشخص الذى يمشى وحده ، أو الجماعة من الناس التى تمشى دون أن تستطيع حماية نفسها كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع ، فيصبحون بذلك عبيدا .

* * *

والرق عند هذه الأجناس جميعاً يشمل الجسم والعقل ، فالرقيق يتبع سيده فى دينه وتفكيره كما يعمل له بجسمه ، ولا حق للرقيق أن يفكر أو أن يتبع تفكيراً آخر غير تفكير سيده ، وللسيد أن يُنْزِل برقيقه من العقاب ما يشاء لأنه يملكه ملكاً كاملا .

تلك المقدمة القصيرة عن الرق فى الدول المختلفة نستطيع بها أن نعرف بوضوح مكانة التفكير الإسلامى فى مسألة الرق .

الإسلام والرق :

نبدأ حديثنا عن الإسلام والرق بأن نسأل سؤالا هاماً هو : ما موقف الإسلام من الرق ؟ وهل ألغاه ؟

الجواب على ذلك أن الإسلام لم يلغ الرق إلغاء مباشرا ، وإنما وضع نظاماً يكفل إلغاء الرق ، فيمكن القول بأن الإسلام ألغى الرق بطريق غير مباشر .

لماذا لم يلغ الإسلام الرق بطريق مباشر ؟

وما هو هذا النظام الذى وضعه الإسلام ليلغى الرق بطريق غير مباشر ؟

هذا ما سنتكلم عنه فيما يلى بتفصيل كاف .

أما الإجابة عن السؤال الأول ، وهو لماذا لم يلغ الإسلام الرق بطريق مباشر ، فإنها تنحصر فى سببين :

١ — التكافؤ فى المعاملة ، فقد كانت هناك حروب بين المسلمين وغير المسلمين وكان غير المسلمين يستحلون استرقاق المسلمين ، فكان لابد أن يعاملهم المسلمون بالمثل كما سبق القول .

٢ ــ للإسلام فلسفة فى معالجة الشئون التى ليست أساساً من أسسه : فنى معالجة هذه الشئون ، تقضى فلسفة الإسلام ، أن تُعَالَج برفق وأناة ، حتى يصل الإسلام إلى هدفه بدون أن يحدث اضطرابا بين معتنقيه ، فشرب الخمر والرق وتعدد الزوجات ، للإسلام تجاهها هدف ، ولكنه يصل إلى هدفه بيسر ، وبخطوات أحياناً ، أما الأمور الرئيسية فى الإسلام كتوحيد الله وترك عبادة الأصنام ، فإن الإسلام يواجهها مواجهة صريحة مباشرة ، ليقطع دابرها من أول الشوط .

ونجىء بعد ذلك للسؤال الثانى وهو : ما النظام الذى وضعه الإسلام ليلغى الرق بطريق غير مباشر ؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نقرر أن ذلك النظام ينحصر فى مبدأين مهمين :

١ ــ تضييق المدخل .

٢ ــ توسيع المخرج .

وسنشرح فيما يلى كلا من هذين المبدأين .

١ ــ تضييق المدخل :

جاء الإسلام وللرق وسائل أو مداخل كثيرة سبق أن ذكرناها ، ومنها البيع والمقامرة والنهب ، والسطو ، ووفاء الديون ، والحروب مهما كانت أنواعها وأسبابها ، والقرصنة ، والطبقية ، . . . فألغى الاسلام جميع هذه المداخل ، ولم يبق منها إلا مدخلا واحدا ، وضيقه الإسلام حتى لم يعد ينفذ منه إلى الرق الا القليل النادر أشد الندرة ، وذلك المدخل هو الحرب الدينية التى يقصد بها الجهاد فى سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين ، بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلما ولو كان من جيش الأعداء ، وأن يضرب الإمام عليه الرق .

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش إن الشرع لايبيح أن يُسْتَرَقّ مسلمٌ أصلا ، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاقَ أسرى حرب شرعية قامت لإعلاء كلمة الله ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . وقد سدّ الإسلام بذلك ، تلك الأبوابَ التى ذكرناها والتى كانت مصادر للرق فى الأمم المختلفة قبل الإسلام وبعده .

ومن الأدلة الواضحة على أن الإسلام يضيق مدخل الرق ويميل للحرية ما ذكره الفقهاء من أنه إذا وُجِدَ طفلٌ ادّعى نصرانىٌّ أنه ابنُه ، وادّعى مسلم أنه عبده فإنه يُقْضَى به للنصرانى حتى لا يدخل الطفل باب الرق ولو كان فى ذلك إسلامه[1] .

ومن تضييق المدخل أن الإسلام وضع تنظيما لأسرى الحرب لم يكن معروفاً قبل الإسلام، فقد كان الأسرى فى الأمم المختلفة يعتبرون أرقاء بمجرد وقوعهم فى الأسر ، ولكن الإسلام اشترط لاعتبارهم أرقاء أن يضرب الإمام عليهم الرق كما سبق القول ، أما قبل أن يضرب الإمام الرق على الأسرى فيمكن أن تتمّ نحوهم التصرفات الآتية :

١ ــ تبادل الأسرى ، وذلك بأن يرد المسلمون من أسراهم عدداً إلى الأعداء نظير إطلاق عـــدد مقابل من أسرى المسلمين الذين وقعوا فى أيدى الأعداء .

٢ ــ المن على الأسرى أو على بعضهم وذلك بإطلاقهم من غير مقابل لسبب من الأسباب .

٣ ــ قبول الفداء منهم ، وذلك بإطلاقهم نظير مقابل مادى أو أدبى ، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى أسرى بدر ، فقد أطلق بعضهم نظير مقابل مالى ؛ وجعل للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة

---

(٢) دكتور محمد يوسف موسى : مجلة « المسلمون » العدد الأول ص ٨

لعدد من أبناء المسلمين(١) وفى المن والفداء جاءت الآية الكريمة : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منًّا بعدُ وإما فداءً »(٢) .

ومن الممكن أن يُفْهَم من الآية السابقة أن الأسر شيء موقت يزول بطريق المن أو الفداء بعد انتهاء الحرب ، ومقتضى هذا أن عدداً كبيراً من أسرى الحرب أو كلهم لن يصلوا إطلاقاً إلى ساحة الرق . وقد ذكرت لنا المراجع التاريخية صورة جميلة لتبادل الأسرى وافتدائهم ، ونحن نوردها فيما يلى :

كانت عملية الفداء تتم بصورة منتظمة تقليدية ذات روعة خاصة ، فيقف المسلمون على الضفة الشرقية لنهر اللامس وتقف الروم على ضفته الغربية . واللامس نهر صغير ضيق كأنه ترعة ، ويُمَدُّ جسران من القوارب بين الضفتين ، وكلما أطلق الروم أسيراً مسلما أطلق المسلمون أسيراً رومياً معادلا له من حيث المكانة والسن وسلامة البدن ، وكلما وصل إلى المسلمين أسير من أسراهم صاحوا : الله أكبر ، وعندما يصل إلى الروم أحد أسراهم يصيحون صياحاً مماثلا ، فإذا بقيت لأحد الجانبين بقية من الأسرى افتديت بالمال(٣) .

٢ — توسيع المخرج :

أما من يضرب الإمام عليهم الرق ، فإن الإسلام يفتح لهم الأبواب ليعيد الحرية لهم أو ليعيدهم إلى الحرية ، إذ أن الإسلام يعتبر الرق عارضاً ويعمل على إزالته ، وفيما يلى ذكر لهذه الأبواب :

١ — جعل الإسلام العتق مرغوباً فيه ووعد بالثواب العظيم من الله من

(١) المبرد : الكامل ص ١٧١ .

(٢) سورة محمد الآية الرابعة

(٣) انظر تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان جـ ١ ص ٢١٦ (تعليق الناشر) .

يعتق رقبة ، قال تعالى : « ألم نجعل له عينين واساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة »[١] .

وقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب»[٢].

وقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب »[٣] .

وقال عليه السلام : « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار » .

٢ ــ جعل الإسلام العتق وسيلة للتكفير عن يمين حنث فيها الإنسان أو للتكفير عن بعض الذنوب .

قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أوكسوتهم أو تحرير رقبة »[٤].

وقال : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة . . . . »[٥] .

وقال فى نفس الآية : « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » .

وقال : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا »[٦] .

٣ ــ مكاتبة العبد ليتحرر بدفع مال يقدمه لسيده ، ويرى بعض الفقهاء

---

(١) سورة البلد الآية ٨ ــ ١٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ .
(٣) سورة التوبة الآية ٦٠ .
(٤) سورة النساء الآية ٩٢ .
(٥) سورة النور الآية ٢٣ .
(٦) سورة المائدة : الآية ٨٩ .

أن المكاتبة واجبة إذا طلبها العبد وكان هناك أمل أن يوفى بما وعد : والمكاتبة عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية لذلك العبد نظير دفعه مالا للسيد .

وقد اعتمد الفقهاء الذين قالوا بالوجوب ، على قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا »[1] ، وبعد المكاتبة يُعْطَى العبد حق التجارة والعمل ، كما يعطى حق التملك والحرية ليعمل لنفسه ، فلا يعمل لسيده ، بل يتحرر للكسب لسداد النجوم (الأقساط) ، وبالإضافة إلى عمل المكاتَب ليحصل على المال اللازم نجد الإسلام يجعل من حقه نصيباً من الزكاة ليساعده ذلك على السداد ، قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب »[2] . كما يُلْزِمُ الإسلامُ السيدَ أن يحطَّ عنه بعض النجوم ، أو أن يساعده بمال ليوفى بما وعد به ، قال تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

٤ — التدبير : وهو أن يوصى السيد بأن يكون عبده حرا بعد موته ، وسمى كذلك لأن السيد تدبر أمر دنياه فأبقى العبد ليعاونه فى الدنيا ، وتدبر أمر آخرته فأوصى بعتق العبد عقب موته ليساعده ذلك فى الآخرة بتكثير حسناته ، والتدبير موصى به ويحث الشرع عليه ، ولا يجوز بيع المدبر ولا هبته ولا رهنه فى أصح القولين لقوله عليه السلام : « إن المدبر لا يباع ولا يورث ولا يوهب وهو حر من الثلث » .

٥ — إذا أصاب السيد أمته فحملت منه ووضعت ما تبين منه شيء من خلق آدمى حَرُم عليه بيعُها وهبتها وعتقت بموته ، وكان ولده منها حراً ، وهذا بخلاف النظام الذى كان متبعاً عند العرب قبل الإسلام والذى كان يقضى بأن تظل الأمَةُ أمَةً وإن ولدت لسيدها ، وأن يكون ابنها منه عبداً ،

---

(١) سورة المجادلة الآية الثالثة . (٢) سورة التوبة الآية السادسة .

وقد كان عنترة العبسى ابن أمة وكان عبداً لأبيه ، وحدث أنْ هوجمت عبس ولم يهتم عنترة بالدفاع عنها ، فقال له أبوه : كُرَّ يا عنترة ، فأجاب : إن العبد لا يعرف الكرّ ، وإنما يعرف الحلاب والصرّ (الشد على الناقة) فقال له أبوه : كرّ وأنت حر . وهكذا لم ينل عنترة الحرية إلا عندما احتاجت القبيلة إلى كفاحه ، وقبل ذلك كان عبداً لأبيه .

٦ — إن من أعتق بعض عبد يملكه عتق كله ، فإن كان يملك بعض العبد وله شريك يملك باقيه فأعتق نصيبه عتق العبد كله وقُوِّم عليه ما يملكه الشركاء إن كان موسرا ودفع لهم ثمنه ، قال عليه السلام : « من أعتق شركاً له فى عبد وكان موسرا قوم عليه ثم يعتق كله » . فإن كان معسرا سعى العبد فى قيمة الباقى لأنه هو الذى انتفع بالحرية ، ويرى بعض الفقهاء فى هذه الحالة عدم عتق الباقى .

٧ — إن ملك واحداً من ولديه أو والديه عتق عليه فى الحال .

ويتضح من ذلك تمام الوضوح أن الإسلام أنهى الرق من الناحية العملية فالمرأة ينتهى رقها إذا أصابها سيدها وحملت منه ، وهذا يجعل عنصر النساء قريباً جداً من الحرية ، أما الرجال فقد فتحت لهم الأبواب المتعددة التى ذكرناها ، وأبرزها باب المكاتبة الذى يلتزم السيد أن يقبله وأن يساعد عبده على الوفاء بما التزم .

معاملة الرقيق فى الإسلام :

على أن الرق إن بقى بعد ذلك فإن الإسلام كفل زوال أثره عملياً ، وذلك بمحو الفوارق والتوصية بالأرقاء حتى وجد من يؤثر الرق على الحرية كما سيأتى عند الحديث عن الرق الصناعى ، وأبرز ألوان المعاملة التى أتاحها الإسلام للأرقاء ، هى أن الرق يتصل بالعمل الجسمانى ولا يتصل بالعقل ، فالرقيق يعمل لسيده ويطيعه فى حدود هذا العمل ، ولكنه حر فى تفكيره يعتنق

الدين الذى يرضيه ، وليس ملزَماً أن يتبع سيده فى أفكاره أخطأت هذه الأفكار أو أصابت ، وبناء على ذلك لا يجوز للسيد أن يرغم عبده على أن يتبعه فى دينه ولا أن يطلب منه أن يرتكب إثماً أو يقتل نفساً بغير حق ، وللعبد أن يعارض ذلك وأن يقف فى وجه سيده قائلا : لا ، هذا لا يجوز . وقد عد العرب فى مطلع الإسلام هذا التفكير الذى يقضى بتحرير عقل الأرقاء ثورة عارمة ، وقتلوا عبيدهم وعذبوهم حينما صاح هؤلاء العبيد فى وجوه سادتهم قائلين : لقد اعتنقنا الإسلام وليس لكم سلطان على عقولنا ، وسلطانكم محدود بالأعمال الجسمانية التى لا تنافى الدين أو الخلق ، وفى ذلك يقول ابن القيم[1] والسيد لا حق له فى ذمة العبد ولا فى إنسانيته ، و إنما حقه فى بدنه .

وخطوة أخرى خطاها الإسلام فى معاملة الرقيق هى مساواته بالأحرار فى أكثر الشئون وقد روى الشيخان قوله عليه السلام : من قتل عبده قتلناه ، ومن جوع عبده جوعناه ، ونقل الإسلام التفاضل إلى مقياس جديد هو التقوى ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبناء على هذا المقياس الجديد زوج الرسول ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد ، وولى زيداً هذا قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحاربة الروم فى موقعة مؤتة وبين جنوده كثير من عظماء الإسلام ، وولى بعد ذلك أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين لحرب الروم أيضاً وبين جنوده شيوخ المسلمين وعظماؤهم ، وكان من خيرة صحابة الرسول بلال وسلمان الفارسى وصهيب . وقد قرر الإسلام للأرقاء ألا يُطْلَبَ منهم أن يعملوا ما فوق طاقتهم ، وأن يكون من حقهم أن يأكلوا مما يأكل سادتهم منه ، بل أن يلبسوا من لباسهم ، ولعل هذا أرقى درجات المساواة ، وقد ورد فى الحديث : إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم » .

---

(١) أعلام الموقعين جـ ١ ص ٣٥١ .

وقال : « من لاءمكم من خولكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تلبسون ، ومن لا يلائمكم فبيعوه ، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل » .

وقال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُبِ والصاحب بالجَنْبِ وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »[1] .

ورأى رسول الله عبد الله بن مسعود وهو يضرب عبده فصاح به : يا ابن مسعود ! إن الله أقدر عليك منك على هذا » .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى . قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده »[2] .

ورأى رسول الله رجلا يركب دابة وخلفه عبده يجرى فصاح به : « يا عبد الله ، احمله خلفك ، إنما هو أخوك ، روحه مثل روحك » .

ومن نتائج هذه التعليمات ما حصل لابن عمير فقد روى عنه أنه قال : « كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله إياهم بنا » .

ويحدثنا التاريخ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى بيت المقدس ومعه غلامه ، ولم يكن معهما إلا ناقة واحدة ، فكانا يركبانها على التناوب إلى أن اقتربا من تلك المدينة ، وكانت النوبة للغلام ، فأركبه عمر وسعى خلفه ماشياً حتى وصلا ، ولما لامه أبو عبيدة على ذلك قائلا : إنى أراك تصنع أمراً لا يليق ، فالأنظار متجهة إليك . أجاب ابن الخطاب فى قوة وإيمان بالله وبنفسه قائلا : قد كنا أذل الناس وأقل الناس فأعزنا الله بالإسلام ، ومهما نطلب العزة بغيره يذلنا الله .

---

(١) سورة النساء الآية ٣٥ (٢) الكامل جـ ١ ص ٥٩ .

ولم يجعل الشرع الإسلامى هذه الآداب فضائل فقط يَحُثُّ مالكَ الرقيق على التخلق بها ، بل جعلها واجباً يلتزم المالك أن يقوم به ، فإذا جار مالك على عبده أو ظلمه ظلماً بيِّناً كان جزاؤه أن يَعتِق الحاكمُ عليه ذلك العبد ، وقد روى ابن عمر عن الرسول قوله : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه . وسار المسلمون على هذا فى عصور مختلفة ، فقد روى أن زنباغا أبا روح ابن زنباغ الشهير ، عاقب عبدا له على خطأ ارتكبه العبد ، فقسا عليه ، فشكا العبد للرسول فأعتقه الرسول . وأنزل رجل عقابا قاسيا على أمَةٍ فأعتقها عمر وأوجعه ضرباً[١] .

وعمل بذلك أيضاً باى تونس سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥ م) وكان جريئا فيما عمل ، فلقد رأى أغلب المالكين لا يحسنون معاملة الأرقاء ، فاتخذ قراراً بتحرير الأرقاء جميعاً ووافق رئيس الفتوى فى تونس على ذلك[٢] .

ونختم هذا البحث بجملة للأستاذ سيد قطب ، فقد قال بعد أن تحدث قليلا عن معاملة الإسلام للرقيق : على هذا المنوال عالج الإسلام قضية الرق من ناحيتها العملية إلى أن يجد لها حلا من ناحيتها الدولية ، وفى هذا الجانب وحده كانت مراعاة الإسلام لواقع الأمر فى البشرية يوم جاءها ، وبعد أن جاءها لم يعد لعهد الرق وجود فى الوطن الإسلامى ، لأن معالم عهد الرق وخصائصه قد بهتت فى الحياة الاجتماعية الواقعية بحكم تعاليم الإسلام فى معاملة الأرقاء الذين اضطر للإمساك بهم فترة من الوقت حتى يتهيأ له عقد ميثاق دولى عام[٣] .

وقريب من هذا ما ذكره Stanley Lane Poole[٤] وهو يتحدث عن الأرقاء بأسبانيا عقب الفتح الإسلامى للأندلس ، قال : أما فرح العبيد

---

(١) الطيب النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ١٥٨ .
(٢) الشيخ الخضر : مجلة الأزهر صفر سنة ١٣٧٣ .
(٣) انظر ص ٢٦ — مجلة المسلمون — السنة الثالثة — العدد الخامس .
(٤) العرب فى اسبانيا ص ٤٠

بما طرأ على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقاً ، بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ما تقشعر له الأبدان ، فإن الرق فى رأى المسلمين الأخيار نظام إنسانى رفيق ، حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما لم يجد بدًّا من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذى يعارض مبادئ الإسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاته فى كثير من الوصايا والأحاديث .

ويقول الأستاذ العقاد[1] : إن العتق هو الذى شرعه الإسلام فى أمر الرق ، وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعا فحرَّمه جميعاً ، ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم فى نظام الأسرى وتسخيرهم فى أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين ، وسبق القوانين الدولية بتقريره إلزام الدولة واجب السعى فى إطلاق أسراها وإعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة إلى الأفراد من مالكى الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتها .

ولا يقال هنا إنه عملٌ كثير أو قليل ، بل يقال إنه العمل الوحيد الذى استُطيع فى محاربة نظام الرق ، ولم تستطع أمم الإنسانية ما هو خير منه فى علاج هذه المسألة إلى الآن .

الرق الصناعى أو رق لا يقره الإسلام :

هناك نوع يسمى الرق وليس فى الحقيقة رقاً ، وقد انتشر هذا النوع فى العالم الإسلامى فى فترة من الفترات ، وحَسِبَه الناس رقاً إسلامياً والإسلام فى الحقيقة منه براء ، وهذا النوع من الرق هو انتكاس وعَوْدٌ للهوة التى انتشل الإسلام العالَم منها ، إذ وُجِدَ من الناس من يستعذبون الرق ويفضلونه على الحرية فزجوا بأنفسهم أو بذويهم إلى هذا الرق من باب غير الباب الذى فتحه الإسلام ، واختاروا لذلك وقتاً ضعف

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٢١ .

فيه الوازع الديني فأتيح لهم أن يضمنوا بعض النجاح فيما قصدوا إليه ، فكان ذلك الذى نسميه « الرق الصناعى » .

وقصة ذلك أن اصطناع الرق أو التظاهر به كان وسيلة لكسب السلطة وكسب النفوذ للرقيق ، وقصور الخلفاء والعظماء هى بطبيعة الحال البيوت المفتوحة للأرقاء والرقيقات ، ولهؤلاء الأرقاء والرقيقات فى هذه القصور سلطان وجاه واستمتاع بنعيم الحياة فى ظل ما ضمنه الإسلام للرقيق من حقوق ، وكل هذا جعل بعض الأحرار والحرائر يتوقون لدخول هذه القصور ولو باسم الرق وفى سِتْرٍ منه ، وكانت هذه القصور ترحب بالعبد الكفء والقينة الجميلة الماهرة ، ولهذا عمد بعض الآباء إلى تدريب أبنائهم وبناتهم على الحرف التى تعجب أصحاب هذه القصور ، كالموسيقى والغناء والرقص والشِّعر وغيرها ، وعَرَضَ هؤلاء أولادهم للبيع على أنهم أرقاء ورقيقات ، عرضوهم مباشرة أو بواسطة النخاسين الذين تخصصوا فى الاتجار بالأرقاء ، ووصل كثيرون من هؤلاء إلى القصور من هذا الطريق ، وهذا هو السر فى انتشار هذا النوع فى بعض الفترات التى لا حروب فيها ، يقول الأستاذ جميل نخله مدور : إن بيع الرقيقات لم يكن مظهرا من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيراً من الإماء كُنَّ يأتين السوق مختارات ليتمتعن بحياة الترف والنعيم فى بيوت الخلفاء والأمراء[١] .

وطبيعى أن كثيرات من هؤلاء الرقيقات كن يفضلن الرق على الحرية ، ومما يروى فى ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة ، وزهد فى متاع الدنيا ، واتجه للقيام بمسئولياته الكبيرة جمع جواريه وقال لهن : « إنه قد نزل بى أمر شغلنى عنكن فمن اختارت منكن العتق أعتقتها ، ومن أمسكتها لم يكن لها منى شىء . فبكين بكاء شديداً يأسا منه »[٢] .

---

(١) حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٧ .

ولعل الرق القليل الذى لا يزال موجوداً فى بعض القصور هو من بقايا هذا النوع من الرق الصناعى .

وكان إقبال الشبان على الرقيقات عظيما مما جعل أثمانهن ترتفع ارتفاعاً كبيراً فأصبح ثمن الواحدة يعادل مهر عدة من الحرائر ، والسبب فى هذا الإقبال أن الشاب يختار الجارية بعد خبرة ، فيرى جسمها ويسمع صوتها ويختبر تجاربها وعلمها وذكائها ، ولكنه حين يختار زوجة لم يكن يتاح له أن يتعرف عليها ، وغاية ما يستطيعه أن يرى وجهها ويديها إن استطاع أن يقابلها مقابلة قصيرة .

ومن الرق الصناعى الذى لا يقره الإسلام ما يوجد فى بعض القصور من بقايا النخاسة الأوربية التى كانت تلتقط الأطفال والشبان من إفريقية وتدفع بهم إلى مزارع أمريكا ومصانعها ، وتنحرف ببعضهم أحياناً فتلقى بهم فى قصور الشرق للخدمة أو الحراسة .

وبعد ، لقد وضع الإسلام منذ جاء الأساس المتين لإلغاء الرق وتحرير الأرقاء ، وقد ظل صوت الإسلام يزمجر حتى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم ، إن زوال الرق هو أحد الهدايا التى قدمها الإسلام للإنسانية .

لمحة عن النظم السياسية فى الإسلام (*)

اتجهت الأديان والفلسفات التى سبقت الإسلام إلى الكلام عن العقيدة ، ولم تُعْنَ بشئون الدنيا قط ، أو عُنيت بها عناية محدودة ، وحتى عند العناية بها كانت التشريعات أشبه بنصائح غالبا ، لمتبعها الثواب من الله ، ولمخالفها عقابه ، ومن ثمَّ لم ترد بهذه الأديان دراسة كافية عن التنظيم السياسى .

أما عن الإسلام فإن الحقيقة الواضحة أنه دين ودولة ، ذلك لأنه نظم شئون الدين وشئون الدنيا جميعا ، فكما تكلم الإسلام عن الله والملائكة والأنبياء والجنة والنار والعبادات وغيرها من شئون الدين ، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شئون الدنيا ، ووضع الإسلام لهذه وتلك ، القوانينَ والنظمَ ، وألزم المسلمين باتباعها وحدد عقوبة المخالفين والعصاة تحديداً مفصلا أو تحديداً مجملا ترك تفصيله لاجتهاد أئمة المسلمين ، وقد تكلمنا من قبل عن شئون الدين فى الإسلام ، ولنقتبس الآن من القرآن الكريم بعض آيات عن تنظيم شئون الدنيا ، قال تعالى :

– وأحل الله البيع وحرم الربا(١) .

– ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون(٢) .

– خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها(٣) .

– حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ...(٤).

(*) هذا الموضوع مختصر من كتاب « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٥ . (٢) سورة المطففون الآيتان ١ – ٢ .

(٣) سورة النساء الآية الأولى . (٤) سورة النساء الآية ٢٣ .

– الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان(١) .

– والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف(٢) .

– يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل . . .(٣) .

– ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . . .(٤) .

– كتب عليكم القصاص فى القتلى ؛ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى(٥) .

– قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون(٦).

وهذه التعليمات الإسلامية الشاملة لكل شئون الدنيا تقريباً واجبة الاتباع ، ومن خالفها فقد نظَّم الإسلامُ العقوبةَ التى تقع عليه ، قال تعالى :

– السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله(٧).

– الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدة منهما مائة جلدة(٨) .

وكان الرسول فى حياته يتولى تنفيذ هذه الأحكام :

– إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما(٩) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٩
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .
(٤) سورة النساء الآية ١٢ .
(٥) سورة البقرة الآية ١٧٨ .
(٦) سورة المؤمنون الآيات ١ – ٥ .
(٧) سورة المائدة الآية ٤٢ .
(٨) سورة النور الآية الثانية
(٩) سورة النساء الآية ١٠٤

– وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً[١] .

– ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون[٢] .

وهكذا لا يقتصر الإسلام على تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه ، ولو كان الإسلام ديناً فقط أى تنظيما للعلاقة بين المخلوق والخالق لا غير ، لكان من الممكن أن تترك شئون هذا الدين لله ، يراقبها ، ويرضى عن المطيع ويسخط على العاصى ، ولكنّ بالإسلام جانباً كبيراً ينظم علاقة الإنسان بالإنسان ، ويرتب سبل العيش فى مختلف شئون الحياة أو أكثرها ، ويُلزم المؤمنين بأن يتبعوا هذه النظم ، وأن يبطلوا ما يخالفها ، وينزلوا العقوبة بالمخالفين.

ولكن جماعة المسلمين كلها لا يمكن أن تشرف على تنفيذ أحكام الله ، لانشغال كل فرد بعمله ، ولعدم كفاءة البعض ، ثم لأنه ليس من الحكمة ترك مسئوليات جسام شائعة دون أن يحدَّد نفر لرعايتها وتنفيذها ، ثم كان من الطبيعى كذلك أن كل جماعة لابدّ أن يكون لها رائد ، يرشدها ، ويكون مسئولا عن تنفيذ أحكام الله فيها ، ويقول إن تيمية فى ذلك[٣] : يجب أن يُعرَف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيامة للدين إلا بها ، فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع ، لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم . وجاء فى مسند أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لثلاثة يكونون فى فلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم ، فأوجب الرسول تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ثم أن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، ومثل الأمر بالمعروف

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٦ (٢) سورة المائدة الآية ٤٧

(٣) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ص ١٧٢ – ١٧٣ .

والنهى عن المنكر ، سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحدود وغيرها مما لا يتم إلا بالقوة والإمارة ، ولهذا روى أن السلطان ظل الله فى الأرض ، وروى كذلك : ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان .

وعلى هذا فالحكومة فى الإسلام ضرورية للغاية ، وفى مطلع الإسلام كان الرسول – بجانب تبليغ رسالة الله – حاكما يشرف على تنفيذ قوانين الله ، وكان يساعده فى هذا العمل مجموعة من الصحابة والقادة، ومن هؤلاء كانت تتكون الحكومة الإسلامية الأولى ، وبعد وفاة الرسول اختير الخلفاء ومثلوا هم ومعاونوهم الحكومات الإسلامية بعد وفاة الرسول .

ومن الواضح أن القرآن الكريم لم يفصل المشكلات الخاصة بالحكومة الإسلامية ، لأن الحكومة وطرق اختيارها ومسئوليتها وعزلها وغير ذلك من شئونها لما تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، ومن أجل ذلك تكلمت المصادر الإسلامية الأولى عن الحكومة الإسـلامية بالإجمال ، وتركت التفاصيل ليضعها البشر بما يلائم حاجتهم فى حدود الإطار العام الذى رسمه الإسلام ، وقد تكونت لدينا من المصادر الأولى ومما أضافه العلماء والباحثون مادة نستطيع بها أن نعطى صورة واضحة عن النظم الخاصة بالحكومة الإسلامية ، وهو ما سنشرع فيه :

تكوين الحكومة الإسلامية :

نقلنا عن ابن تيمية فيما سبق ضرورة وجود الرياسة ، وقد اقتبس ابن تيمية فى خلال كلامه أحاديث صحيحة تبين ضرورة اختيار الرئيس ، ويجب أن نضيف إلى هذا الاقتباس أن جماعة المسلمين فى اختيارهم للرئيس لا بد أن يمتثلوا تعليمات الإسلام التى تقضى بأن يُختار للرياسة أصلح المسلمين للقيام بهذه المهمة وملء هذا الفراغ الكبير . قال صلى الله عليه وسلم : أيما رجل

استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين . وسئل رسول الله مرة : متى الساعة ؟ فأجاب : إذا أُسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة .

وروى عن الرسول قوله : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا .

وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر .

وقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ، ولا إمارة إلا بطاعة ، فمن سوّده قومه على الفقه كان حياةً له ولهم ، ومن سوده قومه على غير فقه كان هلاكاً له ولهم .

وهكذا نجد صفات الحاكم تتضح من خلال هذه الأحاديث والمأثورات ، فيبدو لنا ضرورة أن تتوافر فيه صفات القوة والعلم والفطنة والعدالة ، بالإضافة إلى صفات جسمانية وعقلية أخرى ذكرها الماوردى[١] كسلامة الحواس وسلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض ، وكالرأى المفضى إلى سياسة الرعية . وبناء على التفكير الإسلامى لا يجوز لمن لم تجتمع فيه صفات الرئيس أن يتقدم لمنصب الرياسة ، كما لا يجوز للمسلمين أن يختاروا غير الصالح ، بل عليهم أن يسندوا الأمر لأهله ، وأن يحسنوا استعمال السلطة التى منحت لهم لاختيار إمام المسلمين .

ومن الواضح أن الإمام المنتخب ليقود جماعة المسلمين ، لا يمثل وحده الحكومة الإسلامية ، ولا يقوى وحده أن ينهض بكافة الأعباء ، ولذلك تُرِك له أن يختار من بين المسلمين من يعاونه فى هذه المهام الجسام ، على أن

(١) الأحكام السلطانية ص ٥

هذا الحق المعطى للإمام مقيد باختيار الصالح ، فقد روى عن الرسول قوله : من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله . وفى رواية من قلد رجلا عملا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين . وعن أبى ذر أنه قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ فضرب الرسول بيده على منكبى ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيها .

ومن هنا يتضح أن التفكير الإسلامى يقضى بأن يختار الشعبُ الرئيسَ الأعلى فقط ، ويُتْرَكَ لهذا الرئيس حق اختيار معاونيه ، فليس للشعب أن يختار معاونى الرئيس ، بل ذلك الحق للرئيس نفسه ليمكن التناسق بين أعضاء الحكومة إذ لو اختار الشعب معاونى الرئيس لكان من الممكن أن يختار الشعب شخصاً لا تتفق ميوله مع الرئيس فلا يتم بينهما التعاون المنشود ، على أن الشعب إن فقد سلطة اختيار معاونى الرئيس ، فإن له حق الاعتراض على من يختارهم الرئيس متى كان للاعتراض أسباب معقولة .

ومن الرئيس وأعوانه تتكون الحكومة الإسلامية ، وهذه الحكومة واجبة الطاعة . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم[1] » ، ولكن وجوب الطاعة محدود بأن تكون الطاعة فى خير وبرّ ، قال صلى الله عليه وسلم : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ولا يهتم الإسلام بالألقاب التى تُمْنَحُ لأعضاء هذه الحكومة ، وقد عُرِفَ فى الإسلام لقبُ الخليفة والإمام والسلطان للرئيس ، وعرف لمعاونيه لقب الوزراء والأمراء ، ولا بأس من استعمال هذه الألقاب أو غيرها مما يمثّل طبيعة العمل الذى يقوم به كل من أعضاء هذه الهيئة ، والمهم فى الإسلام

---

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .

هو اجتماع هذه الشروط وحسن سير العمل ، أما الألقاب فليست مما يحرص عليه التفكير الإسلامى . ولا يعرف التفكير الإسلامى مسألة توارث السلطة ولا حصرها فى جماعة دون جماعة .

عمل الحكومة الإسلامية :

مجمل خصائص الحكومة الإسلامية أنها تعمل لخدمة الشعب الذى اختارها ؛ فالتاريخ يؤكد لنا أن كل من حكموا المسلمين حكماً إسلامياً بدءوا هذا الحكم أغنياء وتركوه فقراء ، وعرفوا قبله راحة البدن والمتع المباحة ، فلما أسند لهم هذا العمل بعدوا عن المتع ولم يعرفوا طعم الراحة ، وحسبك أن تستعرض حياة الرسول وأبى بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لترى صوراً رائعة للحكومات الإسلامية .

فإذا أردنا أن نعطى مزيداً من التفاصيل عن عمل الحكومة الإسلامية ، قلنا إن على الحكومة الإسلامية أن تضمن الأمن فى الداخل ، وأن تعد العدة لحماية الدولة من أى اعتداء خارجى ، وعلى الحكومة الإسلامية أن تتبع نظم الإسلام وأحكامه التى جاء بها فى أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها ، وأن تُلْزِم المسلمين بذلك ، وعليها أن تقترح النظم والقوانين المتمشية مع روح الإسلام للمشكلات التى لم يرد لها ذكر فى مصادر الإسلام الأولى ، وأن يكون هدفها فى الأحكام التوفيق بين النصوص وبين مصالح العباد . والنصوص التالية تبين مسئولية الحكومة الإسـلامية :

قال تعالى : الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور[1] .

---

(١) سورة الحج الآية ٤١

وقال عليه السلام : كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته .

وقال : من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة .

وفى تدبير مشكلات المجتمع الإسلامى ، وفى تقوية الصلة بين الحاكمين والمحكومين نذكر هنا آيتين كريمتين تتم بهما صورة عمل الحكومة فى إطار الشورى الذى نسميه « الديمقراطية » فى الاصطلاح الحديث ، وهاتان الآيتان هما :

– وأمرهم شورى بينهم[١] .

– فبما رحمة من الله لنتَ لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر[٢] .

وهاتان الآيتان تبينان أن اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الأمور إليها وانقطاع رأى الشعب ، بل توضحان أن واجب الحاكم أن يستشير ليس فقط أهل الحل والعقد ، بل أن يستشير جماعات أوسع من المسلمين كلما حزَبَ أمرٌ ، بل أن يستشير المسلمين جميعاً فى مهام الأمور إذا أمكن ذلك ، بطريق الاستفتاء العام ، أو أى طريق آخر ، والآية الأولى تصوغ هذه الفكرة صياغة رائعة ، فهى لاتتجه إلى أسلوب الأمر بالمشاورة ، وإنما توضح أن المشكلات إنما هى مشكلات الأمة ، وأن الأمور أمورها ، فطرح هذه الأمور للأمة للتشاور ، ولرغبة الوصول إلى حل سليم ، أمر عادى ، هو فى الحقيقة وضع للأمور فى نصابها وإعطاء الحق لصاحبه :

أما الآية الثانية فلم تكتف بالأمر بالمشاورة ، وإنما رسمت أخلاق الإسلام وروحه التى يجب أن يتحلى بها الحاكم ، فأوصته بالرحمة ،

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٨

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

ولين الجانب ، والعفو ، والتسامح ، والدعاء للمسلمين بالمغفرة ، وكل هذه المظاهر تمهيد للمشاورة ، وهى تجعل الشعب يحسّ بحرية تامة فيبدى رأيه بصراحة ووضوح فى المشكلات التى يعرضها الحاكم للتشاور .

ممن تستمد الحكومة الإسلامية سلطانها ؟

الحكومة الإسلامية تستمد سلطانها المباشر من الشعب لا من الله ، لأن الشعب هو الذى اختارها ، فتسلمت السلطة بناء على هذا الاختيار ، ولولا اختيار الشعب لها ما نالت هذه السلطة . وفى ذلك يقول الشاعر مخاطبا عمر ابن الخطاب :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليدَ النهى البشرُ

وقد حصل الشعب على هذه السلطة من الله ، فالبشر خلفاء الله فى أرضه . قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم[1] » . وقال : « هو الذى جعلكم خلائف الأرض[2] » ، وبناء على هذه السلطة اختار المسلمون الحكومة أو اختاروا رئيسها واختار هذا الرئيس معاونيه ، وبذلك تعمل الحكومة باسم الشعب وتتحدث باسمه[3] .

عزل الحكومة :

من القواعد المقررة أن من يعطى السلطة يستطيع أن يسحبها ، والشعب كما قلنا — هو صاحب السلطان ، وهو الذى اختار الحكومة ، ومنحها قوة تستطيع بها أن تشرف على أموره ، وأن تتحدث باسمه ، فمن حق هذا الشعب أن يسترد هذه السلطة إذا عجزت الحكومة عن الاستمرار فى القيام بواجبها ، أو إذا أساءت استعمال السلطة المخوّلة لها ، ويقول الشيخ

---

(١) سورة النور الآية ٥٥ (٢) سورة فاطر الآية ٢٩

(٣) اقرأ تفصيلا شاملا عن هذا الموضوع فى كتاب « السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى » للمؤلف .

محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا : إن كتب الكلام مطبقة ومتفقة على أن الخليفة أو الإمام هو وكيل الأمة ، وأنهم هم الذين يولونه تلك السلطة ، وأنهم يملكون خلعه وعزله[1] . وقد وضّح أبو بكر ذلك المعنى فى الخطاب الذى ألقاه عقب توليته الخلافة ، حيث جاء فيه : أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .

فإذا لم تستجب الحكومة لرغبة الشعب فى عزلها ، أو إذا قاومت قرار العزل ، جاز للشعب أن يثور عليها ، وقد روى عن الرسول قوله : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده . ولكن يشترط فى الثورة أن تُؤمَنَ عواقبها ، وألا تنقلب إلى فتنة وإراقة دماء ، فإذا لم تؤمن عواقبها لا يجوز القيام بها عملا بقوله عليه السلام : الإمام الجائر خير من الفتنه ، وكلٌّ لا خير فيه ، وفى بعض الشر خيار . وجاء فى مقالات الإسلاميين للأشعرى أنه لا يجوز الخروج على الإمام الجائر إلا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفى للنهوض وإزالة الجور[2] .

هذا عن عزل الحكومة كلها ، أما عزل عضو من أعضائها فهو أمر هيّنٌ يستطيعه الرئيس إذا لمس من هذا العضو تقصيراً أو رأى فى عزله صلاحا .

الحكومة الإسلامية بين الحكومات المعروفة :

الحكومة الإسلامية نظام خاص بين نظم الحكومات ، له طابعه ، وله مميزاته وخصائصه التى تجعله لا يدخل تحت أىٍّ من النظم الأخرى للحكومات المعروفة فى الوقت الحاضر .

فليست الحكومة الإسلامية دكتاتورية أو فاشية أو شيوعية أو ما يماثلها

---

(١) حقيقة الإسلام وأصول الحكم ص ١٧ .
(٢) مقالات الإسلاميين ج ٢ ص ٤٦٦ .

من النظم الاستبدادية ؛ لأن هذه النظم تتنافى مع الشورى التى هى ركن هام من أركان الحكومة الإسلامية كما سبق القول ، ولأن الشعب لم يولٍّ هذه الحكومات ، ولا يستطيع عزلها ، وإنما فَرَضَتْ هذه الحكومات نفسها بالقوة ، ولا يزيلها من مكانها إلا قوة تدبَّر فى الظلام كتلك التى جاءت بها .

وليست الحكومة الإسلامية حكومة تيوقراطية ، لأن سلطة الحكومة الإسلامية مصدرها الشعب ، ولكن الحكومة التيوقراطية تدعى أن سلطتها من الله ، وليس للحكومة الإسلامية ولا لرئيسها ما للبابا من سلطان روحى يستطيع به أن يشرِّع وأن يغفر السيئات ، فليس الخليفة إلا منفذا لأحكام الدين ، وسلطةُ تفسير الآيات القرآنية والأحاديث متروكة للعلماء[1] ، كما تُرِكَتْ لهم سلطة اقتراح الحلول للمشكلات الجديدة .

ويقول مولانا محمد على فى ذلك[2] : والخليفة شخص مسلم عادى ، وعضو فى جماعة المسلمين ، لا يتمتع بأى امتياز من الناحية الدينية .

ومن أستاذنا الإمام محمد عبده نقتبس بعض العبارات فى هذا الموضوع ، قال رحمه الله :

ليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ، ...... والخليفة عنده المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، .... وهو وسائر طلاب الفهم المسلمين سواء ، يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة فى الحكم ، فالخليفة حاكم مدنى من جميع الوجوه ، ومن هنا لا يجوز لصحيح النظر أن يختلط عنده الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (تيوقراطيك) أى صاحب سلطان إلهى ، فإنه عندهم هو الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله . وله حق الأثرة بالتشريع[3] .

(١) Sir Thomas Arnold : The Caliphate p. 10, 14

(٢) Early Caliphate P. 80

(٣) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة ص ٦٥ — ٦٧ .

وليست الحكومة الإسلامية ديمقراطية على النحو المعروف فى الغرب ، وأول ما نوضحه أن كلمة (ديمقراطية) كلمة خداعة ، تدعيها كل الدول فى عصرنا الحديث ، تدعيها دول الغرب وتدعيها كذلك الدول الشرقية ، وعلى كلٍّ فالديمقراطية فى أحسن نظمها مخالفة للنظم الإسلامية ، صحيح أنها تتفق معها فى بعض الأسس الهامة ، كحق الشعب فى اختيار الحاكم ، وكالمشورة ، وحق الشعب فى عزل الحكومة ، ولكنها تختلف عنها فى أساس مهم يجعل الفرق بينهما واسعا ، وذلك الأساس هو أن الإسلام قدَّم للمسلمين كثيراً من الأحكام التى لا يمكن إهمالها ، والتى هى ليست موضع شورى أو نقاش ، كنظام الميراث ، وكالمحرمات فى الزواج وتعدد الطلقات وغيرها ، كما وضع الإسلام للمسلمين مقاييس الفضائل والرذائل . فى حين أتاحت الديمقراطية لأصحابها أن يضعوا كل الأحكام ، وأن يرسموا لأنفسهم تلك المقاييس .

وعلى هذا فالحكومة الإسلامية طابع فريد ، يجمع من نظم الحكومات الأخرى أحسن ما فيها ، ثم ينفرد بألوان من الفضل هى منحة الله ، ومن هذه وتلك تُحَقِّق النظم السياسية فى الإسلام لأتباعها استقراراً وحياة طيبة حميدة .

لمحة عن النظم الاقتصادية فى الإسلام(*)

الاتجاهات الاقتصادية قبل الإسلام :

لم تعرف الأديان السابقة على الإسلام الاقتصادَ بمفهومه الصحيح ، أى على أنه تنظيم لاحتياجات المجتمع ولطرق الكسب وطرق الإنفاق التى تناسبه ، فالبوذية كرهت الثروة ، وجعلت على الراغب فى دخولها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل كشكوله للسؤال ، وينضم للجماعة ، وقد تسربت هذه الفكرة إلى المسيحية حيث يروى متى ومرقص ولوقا عن عيسى أنه قال لشاب غنى أراد أن يدخل المسيحية : بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعنى ، فلم يقبل الشاب . فقال عيسى : يعسر أن يدخل غنىٌّ ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً إن مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله(1) . ويروى متى أيضاً عن عيسى قوله : لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفْسِد السوس والصدأ ، وحيث ينقُب السارقون ويسرقون(2) .

ولكن أغلب البوذيين والمسيحيين لم يقنعوا بهذا الاتجاه فى هذين الدينين ، فراح أتباعهما يشرّعون التشريعات الدنيوية التى ترضى شغفهم بالمادة ، وهكذا اتجه أتباع المسيحية والبوذية إلى الرهبنة ، أو إلى التشريع الدنيوى الذى اهتم بالمال على أنه كسب شخصى دون أن يبين دوره فى خدمة المجتمع .

أما اليهودية فقد وضعت للمال أساساً عنصرياً خطيراً ، ففرقت بين التعامل

(*) هذا الموضوع مختصر مما كتبه المؤلف عن النظام الاقتصادى فى الإسلام فى كتابه « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » .

(١) أديان الهند الكبرى للمؤلف ص ١٧٢ – ١٧٣ وإنجيل متى ١٩ : ٢١ – ٢٤ وانظر هذا أيضاً فى مرقص الأصحاح العاشر ولوقا الأصحاح الثانى عشر .

(٢) الأصحاح ٦ الفقرة ١٩ .

مع اليهودى وبين التعامل مع غيره ، فأباحت التوراة الربا مع الأممى وحرمته مع اليهودى[١] ، كما أباحت بروتوكولات حكماء صهيون أن يعامل اليهود غير اليهود بالخديعة والنفاق والكذب ، وسرقة الأموال وإتلافها كلما أمكنهم ذلك[٢] .

ويمكن أن نقارن هذا الاتجاه بالاتجاه الإسلامى الرشيد فقد روى أن عمر رأى شيخاً يهودياً يسأل الناس . فسأله عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن ، فأخذه عمر بيده وذهب إلى منزله فأعطاه عطاء سخياً ، ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب[٣] .

تلك لمحة يسيرة نحو سياسة المال كما رأتها الأديان والأفكار التى سبقت الإسلام ، وسنبدأ الآن فى التعريف باتجاهات الإسلام الاقتصادية ، وسنرى منها أن الإسلام نظر إلى المال نظرة اجتماعية لم تنس الفرد ، فهو يعترف بالملكية الفردية ولكن على ألا يكون فيها حرمان المجتمع أو إنزال الجور به ، فلنأخذ الآن فيما اتجهنا إليه :

تقديم عن الاتجاه الاقتصادى فى الإسلام :

كما أن للإسلام نظمه الخاصة فى السياسة ، كذلك له نظمه الخاصة فى الاقتصاد ، تلك النظم التى لا تنضوى تحت أىٍّ من النظم الاقتصادية المعروفة .

وهدف النظم الاقتصادية هو أن تخلق بين المسلمين جواً من الحب والتعاون والإيثار ، ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية ، بحيث لا يوجد

---

(١) اقرأ سفر الخروج الأصحاح الثانى والعشرين الفقرة ٢٥ .

(٢) اقرأ باب « مصادر الفكر اليهودى » بكتاب اليهودية للمؤلف .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ١٥٠ .

جائع يعيش بجوار متخم ، وعارٍ يرى الآخر وهو يرفل فى الحرير والديباج .

ولا يحارب الإسلام الغنى ، ولا يحاول أن ينتقص من ثروة الأغنياء ، ما دام الأغنياء قد حصلوا على المال بطريق مشروع وليس على حساب الآخرين ، ويبيح الإسلام أن يؤخذ عند الضرورة من مال الغنىّ ما يفى بحاجة الفقير أو بحاجة الدولة ، وفى ظل التفكير الإسلامى الاقتصادى طالما اختفى الفقر وتجمعت ثروات طائلة للأغنياء ، حتى كان الغنىُّ يبحث عن من يتسلم منه الزكاة فلا يكاد يجده .

وللإسلام — كما أشرنا من قبل — فى سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالرأسمالية ولا بالشيوعية ولا بالاشتراكية الأوربية ، وهاك ملامح هذه الفلسفة :

١ — مبدأ الملكية الفردية :

يُقِرُّ الإسلام حق الملكية الفردية للمال الذى حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة ، وقد نَسَبَ القرآنُ الأموالَ للناس فى الآية الكريمة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة[1] » وكذلك فى قوله « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار[2] » . ويقرُّ الإسلام كذلك التفاوت فى الغنى بقدر الجهد الذى يبذله كل مسلم ، وبقدر التوفيق الذى يصادفه ، وقد ورد القرآن الكريم مقرراً هذا التفاوت ، قال تعالى « والله فضَّل بعضكم على بعض فى الرزق[3] » وقال « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات[4] » .

وعلى هـــذا فالإسلام يجيز الملكية الفردية ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية ، كما يشمل ملكية المتاجر والمصانع ، ويحرس الإسلام

---

(١) سورة التغابن الآية ١٥
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٤
(٣) سوره النحل الآية ٧١
(٤) سورة الزخرف الآية ٣٢

هذه الملكية وينقلها إلى ورثة المالك عن طريق نظام الميراث فى الإسلام ، ولا يجيز الإسلام للحكومة التدخل فى هذه الملكيات إلا إذا تعارضت مع الصالح العام ، ويكون تدخل الحكومة حينئــذ لا بالإلغاء كما تفعل الشيوعية ، بل بالتوفيق بين حق الملكية الفردية الذى أقرّه الإسلام ، وبين المصلحة العامة التى هى أيضاً أساس من أسس التشريع الإسلامى .

ولا نزاع أن التفاوت فى الثروات طبيعى جداً ، لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من المال وأنفس منه ؛ إنهم متفاوتون فى الصحة ، والقوى العقلية ، والذكاء ، ومتفاوتون فى الجمال ، واللون ، والصوت ، ومتفاوتون فى مقدار توفيقهم فى الزواج ، أو الجوار ، أو الصحبة ، ومتفاوتون فى مدى صلاح الأولاد ونجاحهم ، ولم يقل أحد بوجوب محاربة هذا التفاوت وضرورة أن يصبح الناس سواسية فى صحتهم وعقولهم وأولادهم عدداً ونوعاً وتوفيقاً . . . وغير ذلك . فالنهج الإسلامى فى إباحة التفاوت فى الغنى نهج طبيعى واضح .

٢ — التقريب فى المظهر بين المتفاوتين فى الغنى :

لكلٍّ نصيبُه من الغنى ، ولكن ذا الحظ الأوفر فى المال يجب ألا يتخذ ماله وسيلة للفتنة يُظْهِرُه ويفخر به ، وذا الحظ الأدنى يجب ألا يَظْهَر بمظهر الذّلة فيضع نفسه بذلك بحيث يحسد الغنىَّ أو يكرهه . ومن أجل تحقيق التقريب المنشود ذمّ الإسلام الترف وحث الغنىَّ على عدم التظاهر بما أوتيه من مال ، كما حث الإسلامُ قليل المال على حسن المظهر وبخاصة فى المجتمعات . اقرأ هذه الأحاديث التى توجّهُ الغنىَّ حتى لا يتظاهر بماله فيجعله سبباً للفتنة .

— كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما خطتك اثنتان : سرف ومخيلة .

— لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا من آنية الذهب والفضة .

– تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، أما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التى تستر الناس بالديباج .

واقرأ الآية الكريمة التى تحث على حسن المظهر : « خذوا زينتكم عند كل مسجد[1] » . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : إذا آتاك الله مالا فَلْيُرَ أثرُ نعمته عليك .

٣ – المال مال الله :

يُقِرُّ الإسلام حق الملكية الفردية كما سبق القول ، ولكن المقصود من هذا التعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين ، أو قل : ملكية الظاهر ، أو ملكية الانتفاع ، أما المالك الحقيقى لكل شىء ، فهو الله سبحانه وتعالى . قال تعالى : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن »[2] . وقال : « هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها[3] » ويترتب على هذه الفكرة وهى أن المال مال الله ، نتائج ذات بال ، فلا يجوز للغنىِّ أن يكنز المال ، بل لابد أن يطلقه للتعامل ، لينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، ولا يجوز أن يستعمله فى رشوة ، ولا أن يسرف فى استعماله ، أو يبخل به على المحتاج ؛ ولا يجوز أن يستعمله فى ربا أو احتكار .

٤ – مبدأ حق الفقير فى مال الغنى :

هذا المبدأ من أهم المبادئ فى التشريع الإسلامى ، ويهمنا أن نبرز فيه كلمة « حق » بمدلولها الكامل ، فالذى يستحقه الفقير أو الدولة فى مال الغنى ليس منحة وليس عطاء وليس تفضلا ، ولكنه حق فإذا نكص

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ (٢) سورة هود الآية ٦١
(٣) سورة المائدة الآية ١٢٠

الغنى عن تسليم ذلك الحق ، ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه وإن احتاج الأمر للتدخل المسلح والحرب ، وقد روى عن أبى بكر قوله : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله لحاربتهم عليها .

وكلمة « حق » هذه وردت فى القرآن بهذا النص إبرازاً للمعنى الذى شرحناه .

قال تعالى :

– وآتِ ذا القربى حقهُ والمسكينَ وابن السبيل[1] .

– وآتوا حقهُ يومَ حصاده[2] .

– وفى أموالهم حق معلومٌ للسائل والمحرُوم[3] .

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هى الحق الوحيد الذى يجب فى مال الغنى ، ويهمنا أن نوضح قصور هذا الرأى ، ويهمنا أن تذاع الحقيقة فى هذا الموضوع بين الناس ليعرفوا التشريع الإسلامى على وجهه الأكمل ، فالحقيقة أن فى مال الغنى نوعين من الحقوق هما :

(ا) حق محدد ، ثابت ، دائم ، وهو الزكاة ، فهى مقادير محدّدة ، تجب فى وقت معين ، وتدفع فى جميع الظروف ، وهذا الحق هو الحق الأدنى فى مال الغنى .

(ب) حق غير محدد ، وغير ثابت ، وغير دائم ، وذلك القسم هام جداً فى التفكير الإسلامى ، وهو غير محدد أى يزيد وينقص حسب الحاجة وحسب مقدار الثروة ، وغير ثابت أى ليس له وقت معين بل يطلب عند الحاجة ، وغير دائم أى يدفع عند حاجة الناس أو الدولة ويسقط إذا لم تتكرر هذه الحاجة .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٦ — (٢) سورة الأنعام الآية ١٤١

(٣) سورة الذاريات الآية ١٩ .

وبجانب هذين النوعين الواجبين هناك نوع مندوب وهو نفقة التطوع ، وهو الإعطاء تفضلا مع عدم حاجة المعطَى إليه ، كأن تعطيه مزيداً من الملابس ، أو تحسِّن داره أو مركبه ، أو تزوجه وهو في غير حاجة ماسة إلى زواج ، أو نحو ذلك من غير الضروريات ، وقد عد الله سبحانه هذا المنح قرضاً له وألزم نفسه بسداده . قال تعالى :

– من ذا الذى يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفهُ لهُ أضعافاً كثيرة واللهُ يقبضُ ويبسطُ[١] .

– وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين[٢] .

– إنْ تقرضوا اللهَ قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم[٣] .

وقد اتضح مما سبق أن الإسلام يقرِّر ما يسمَّى الآن الضريبة التصاعدية ، وكذلك ما يسمى العلاوة الاجتماعية ، فكلما زاد الغِنَى زادت النسبة الواجب إخراجها من المال ، وكلما كثرت التبعات زاد ما يلزم أن يُعْطَى للمحتاجين[٤] .

الاقتصاد الإسلامى بين المبادئ الاقتصادية الحديثة

قلنا إن للإسلام فى سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالشيوعية ، ولا بالرأسمالية ، ولا بالاشتراكية الأوربية ، وقد بَيَّنَّا بإيجاز ملامح الفلسفة الإسلامية ، ونريد أن نعرف هنا مكانها بين مختلف الاتجاهات .

الاقتصاد الإسلامى والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الإسلامى عن النظم الشيوعية بعداً واسعاً ، فقد سبق

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥

(٢) سورة سبأ الآية ٣٩ (٣) سورة التغابن الآية ١٧

(٤) انظر تفصيل هذه النقطة فى كتاب «المجتمع الإسلامى» للمؤلف ص ٧٢ – ٧٤

أن قررنا أن الإسلام يقر الملكية الفردية ويقرّ التفاوت فيها ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية وملكية المتاجر والمصانع ، ولا يجيز الإسلام التدخل فى هذه الملكية إلا إذا تعارضت مع الصالح العام كما سبق ، ويحرس الإسلام هذه الملكية وينقلها لورثة المالك ، والإسلام بذلك يعارض الشيوعية التى لا تدع للإنسان إلا « حق الامتلاك الشخصى للدخل الناتج من عمله ومدخراته ، والمنزل الذى يسكنه بأثاثه وأمتعته ، والأدوات المخصصة لاستعماله الشخصى وتوفير الراحة له ، وحق توريث هذه الملكية الشخصية[1] .

ومن الحق أن نوضح أن الشيوعية أدركت بُعدها عن العقل والمنطق السليم فى ظلمها الاقتصادى ، فأدخلَتْ ولا تزال تُدخل بعض الأفكار على أسسها ، تحاول بذلك الجمع بين الماركسية التى هى دين الشيوعيين وبين الحكمة وحاجات المجتمع .

الاقتصاد الإسلامى والرأسمالية :

الفرق بين الاقتصاد فى الإسلام والاقتصاد فى النظم الرأسمالية عظيم للغاية ، فمع أن كلاّ النظامين يبيح الملكية الفردية والتفاوت فيها ، وإرثها ، إلا أن الهوة بعد ذلك تبدو واسعة بين النظامين ، فالملكية فى النظم الرأسمالية مطلقة لا قيود عليها . ولكن الملكية فى النظام الإسلامى مقيدة ، فلا يجوز للمالك فى النظام الإسلامى أن يحتكر ، أو يسرف ، أو يكنز ، إلى غير ذلك مما سبق إيضاحه لأن المالك الحقيقى هو الله ، وقد حدّد للمالك المؤقت وهو الإنسان طرق الاستعمال ، وهذا بخلاف النظام الرأسمالى ، فللمالك فيه أن يحتكر ويكنز ويسرف وغير ذلك مما هو فى الحقيقة طبيعة الرأسمالية .

ومن طبيعة الرأسمالية كذلك اعتبار الإنسان آلة تتحرك لتجنى الخير لأصحاب رءوس الأموال ، فالعامل عند الرأسماليين جهاز يعمل لهم حتى

---

(١) دستور الجمهوريات السوفيتية .

إذا سقط أو مرض طرحوه ، ولم ينل العمال بعض الحقوق من أصحاب رءوس الأموال إلا بعد جهاد طويل وشاق ، ولم تعترف الرأسمالية بهذه الحقوق إلا بعد ضغط شديد .

والرأسمالية عدوة المجتمعات ؛ فهي لا تفكر إلا فى مضاعفة ثروات أصحابها على حساب المجتمع الذى تعدُّه سوقا لها ، تغريه وتخدعه لتتشرب ثرواته ، وتأخذ دخله بطريق أو بآخر .

« وقد أدركت الرأسمالية كراهية الجماهير لها واحتمال ثورتهم فى وجهها ، فأعدَّت العدة للتضييق على الجماهير وكَبْت ثورتهم ؛ وذلك عن طريق اتصالها بسلطان الحكم ، إما بوصول بعض كبار أصحاب رءوس الأموال إلى مناصب الحكم فى الدول الرأسمالية ، وإما بالتأثير فى رجال الحكم بسبب نفوذهم المالى والاقتصادى ، وبذلك خرجت المشاريع الرأسمالية من كونها مشاريع اقتصادية بحتة إلى مشاريع لها أثر واضح قوىٌّ فى الحياة السياسية والدولية ، وبذلك ازدادت سلطة الرأسمالية وأصحاب الأعمال على العمال ، وعلى مختلف الطبقات العاملة ، كما ازداد التنافس والتطاحن بين الدول [1] » .

ومن هنا يتضح أن النظام الرأسمالى لا يعيش إلا فى جو سياسى معين ، أو قُلْ إن هذا النظام يتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وذلك أيضاً عنصر آخر يبعده عن النظام الاقتصادى فى الإسلام .

الاقتصاد الإسلامى والاشتراكية الأوربية :

وتختلف اشتراكية الغرب عن اشتراكية الإسلام ؛ فاشتراكية الغرب تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف ، أما الاشتراكية الإسلامية فتقوم على أساس التعاون والإخاء .

(١) دكتور قهر الدين يونس : الإنسانية ص ٢٤ .

ومن الواضح كذلك أن الاشتراكية الغربية ترمى للقضاء على الثروات الكبيرة ، وتقف موقف العداء من الملكيات العظيمة ، وتحاول أن تفتتها بسبب وبدون سبب ، وليس كذلك الإسلام ، فهو لا يتصدى لحرب مع الملكيات الكبيرة ما دامت هذه الملكيات قد تكوّنت على أساس سليم وما دامت بعد تكوّنها تابعة لروح الإسلام ، عاملة لخير المجتمع وغير ضارة به ، وإنما ينتفع بها فيما ينفع المجتمع الإسلامى ويعود عليه بالخير . ويضع الإسلام وسيلة هامة يصل بها إلى هدفه الرئيسى وهو إزالة الطبقية الثابتة وعدم تكديس الأموال فى أيد قليلة ، وهذه الوسيلة هى نظام الميراث الذى من طبيعته أن يفتت الثروات .

والاشتراكية الغربية تُكْثِر من التأميم ، فتقرب بذلك من الشيوعية التى تعمل على أن تملك الدولة كل شىء ، أما التفكير الإسلامى فإنه يسعى لتوزيع الثروة على الأفراد ، كما يقصد أن تنتقل الثروات بين الناس تبعاً للجهد والتوفيق .

والملكية فى الاشتراكية الغربية ملكية كاملة ، ولكنها فى الإسلام وظيفة اجتماعية ليس غير .

تلك فكرة موجزة عن النظام الاقتصادى فى الإسلام ، ذلك النظام الذى حقق لتابعيه فى الفترات التى اتبع فيها أسمى ألوان النجاح واليمن والبركة .

مجتمع متعاطف

فيما يلى نموذج لحال المجتمع الإسلامى ، وما يجب أن يغمره من حب وتعاطف وتعاون ، وهو نموذج من واقع الحياة ، لا من نسج الخيال ، نموذج للمجتمع الإسلامى فى عهد عمر ، عند ما ألمَّت بالمسلمين نازلة ، وحلت بهم كارثة أو كوارث متعددة .

كيف تصرَّف الراعى ؟ وكيف تصرَّف القادة ؟ وكيف تصرفت الرعية ؟ وكيف كان الإيثارُ ، والتضحية ، والتعاطف ، خُلُقَ هذه الجماعة وهدفها ؟

إننا نقدم بفخر هذا النموذج الرائع ، راجين أن يكون مثلا يحتذى فى عالمنا الإسلامى الحاضر .

حدثت فى عهد عمر حادثة جسيمة ، أو قُلْ أحداث جسام ، تلك هى المجاعة القاسية ، وما جرَّته من أوبئة فتاكة ، وموت ذريع ، وقد استمرت هذه الأحداث عدة شهور ، جاوزت العام ، ولكنها كانت وثيقة الدلالة على تعاطف هذا المجتمع ، الذى تكوَّن منه جسم واحد ، إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

تسعة شهور تبتدئ من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة ، لم يهطل المطر خلالها فى شبه الجزيرة ، ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الأرض فاحترق سطحها ، وما عليه من نبات ، وكثر الرماد الناعم الذى تحمله الرياح ، حتى سُمِّى هذا العام (عام الرَّمادة) .

والجزيرة العربيـــة تعيش على المطر ، إنه يهطل فيشرب الناس ويزرعون ويحصدون ، وينمو العشب فترعى الماشية ، وتربى اللحم والصوف ، وتدرُّ اللبن ؛ فإذا توقف المطر وطال توقفه إلى هذه المدة ،

جفّ الزرع والضرع ، وعمّ الجوعُ والبلاء ، وهلكت الماشية ، أو أصبحت عجفاء هزيلة ، وهذا ما حصل فى هذا العام ، فإن الماء نضب ، فنضب معين الرزق ، وجفت الماشية ، حتى أصبح العربى يذبح منها ، ثم يعافها لقبحها وهزالها .

وقد شملت هذه البلوى الحضر والبادية فى الجزيرة العربية ، وهرع أهل البادية إلى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون إليه أن يدبر أمرهم ، ويلتمسون عند أهل الحضر شيئا مما تعوّدوا أن يختزنوه .

وأحسّ عمرُ بجوع الناس وحرمانهم ، فحلف ألاّ يذوق لحما ولا سمنا ، حتى يحيا الناس . ووضع دستوره العادل : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ؟ » .

قال عياض : رأيت عمر عام الرمادة ، وهو أسود قد تغير لونه من الحرمان ، وأكل الزيت .

وقال يزيد بن أسلم : لو لم يرفع الله المَحْلَ عام الرمادة لظننا عمر يموت همًّا بأمر المسلمين .

وكتب عمر إلى الوُلاة فى الشام وفلسطين والعراق ، يستنجدهم ويطلب منهم العون . وكانت عبارته لهم قصيرة عميقة التأثير « سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكا ومَنْ قِبَلِى ، وتعيش أنت ومَنْ قِبَلَكَ ؟ فياغوثاه ! ياغوثاه ! ياغوثاه ! » . لم يصدر عمر أوامر ، وكل ما فعله هو هذه المقارنة التى تقرِّر ضرورة التعاون فى السرَّاء ، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر ، وليس من الإسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون أويتخمون .

وسارع المسلمون فى كل مكان يلبون دعوة إخوانهم فى الجزيرة العربية ، وانهال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم ، وكان أبوعبيدة بن

الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر ، فقدم من حمص فى أربعة آلاف راحلة محملة طعاما ، وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل وفى السفن ، وبعث معاوية ثلاثة آلاف بعير من الشام ، وبعث سعد بن أبى وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق ، هذا عدا الأكسية الكثيرة التى أرسلها هؤلاء . وكان عمر يرسل مِنْ قِبَلِهِ من يستقبل العير ويميل بها للمحتاجين ، وكان حريصا على أن يسد بها خلة الناس ويزيل عنهم الجوع ، فكان يقول لكل من مندوبيه : أما ما لقيت من الطعام فمِلْ به إلى أهل البادية ، فأما الظروف فاجعلها لحفا يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويخزنون من ودكها ، ولا ترض أن يقولوا : ننتظر بها الحيا ، أما الدقيق فيصنعون ويُحْرِزون حتى يأتى الله بالفرج .

وكان عمر يُعِدُّ الطعام فى بيته ويقدمه للوافدين من البادية وغيرهم ممن ليست لهم بيوت بالمدينة ، وقد بلغ من طعموا على موائده ذات ليلة ، عشرة آلاف شخص ، وأما المرضى والضعفاء ، فكان يرسل لهم طعامهم حيث هم ، بخلاف أُسَرٍ أخرى بالمدينة كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها .

ووضع عمر دستور التعاون الذى لا نعتقد أن المدنيَّة فى أسمى مراحلها تستطيع أن تصل إليه ، قال : لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أُدْخِلَ على أهل كل بيت عدَّتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا ، فعلتُ ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم .

وما إن انتهى هذا القحط ونزل المطر ، حتى روَّعَ المسلمين حادثٌ آخر ، ليس أقل خطرا من الجدب والمجاعة ، ذلك هو الوباء الذى انتشر فى أرض الشام ، وانتقل منها إلى العراق ، وقد حصد هذا الوباء ، عددا كبيرا من المسلمين ، وكان يصيب الرجل فيسقط سريعاً ، وكان أبو عبيدة ابن الجراح على جند الشام فى ذلك الحين حيث انتشر الوباء واستفحل

خطره ، وأبو عبيدة حبيب إلى نفس عمر ، وهو أمين هذه الأمة كما لقبه الرسول ، وكان عمر يفكر فى أن يستخلف أبا عبيدة بعده ، ومن أجل هذا فكّر فى إبعاده عن الشام وما فيه من وباء وموت .

ولكن عمر كان يدرك أن أبا عبيدة يحرص على أن يبقى مع جنده يصيبه ما يصيبهم أو تحميه عين الله ، ولذلك نجد عمر لا يكتب لأبى عبيدة يعلن له ما يُسِرُّهُ بشأنه ، بل يكتب له : « أما بعد ، فإنى قد عرضَتْ لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تُقْبِل إلىّ » .

ولكن أبا عبيدة يدرك ما أراده عمر ، ويعزُّ على أبى عبيدة أن يخلِّىَ جنده فى منطقة الخطر ويفرَّ بنفسه ، فيجيب عمرَ : « إنى قد عرفت حاجتك إلىّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىّ وفيهم أمره وقضاءه ، فحلِّلْنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى » وقرأ عمر الكتاب فبكى ، فسأله من معه : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكأن قد . ومات أبو عبيدة عقب ذلك فى وسط جنده وفى وسط البلاء .

* * *

وبعد ، ذلك هو الإسلام الذى جاء بحق ليكون خاتم الأديان ، وجاء رسوله ليكون خاتم الأنبياء ، وقد حمل الإسلامُ بين دفتيه سعادة الدين والدنيا لمن تبعه وسار فى ضوئه ، كما تسربت منه لغير معتنقيه ألوان من المعارف والثقافات والاتجاهات الخلقية لم تكن البشرية تعرفها من قبل ، وقد استطاع هذا الدين أن يحمى نفسه من الترهات والأباطيل خلال القرون الحالكة التى مرت بالمسلمين ، فلما جاء عهد النور خرج للناس بآلائه وصفائه كإشراقة الصبح وبسمة الأمل ، ولا نزاع أن البشرية لن

تجد إلا فى ظلاله سعادتها واستقرارها ، ولا نزاع أنه سيكون دين المستقبل ، لقد انتشر الإسلام فى طول الأرض وعرضها حتى يوم كان المسلمون مغلوبين على أمرهم ، والآن وقد استعاد المسلمون مكانتهم وتحررت بلادهم وعقولهم ، لابد أن زحف الإسلام سيكون أقوى وانتشاره سيكون أشمل ، « إن الدين عند الله الإسلام »[1] .

(١) سورة آل عمران الآية ١٩

الكفة الراجحة

هذا العنوان استعرناه من باحث فى الأديان ، باحثٍ مرَّ بتجربة مهمة يجدر بنا أن نعرضها وأن نتدارسها ، إنها تجربةُ تَحَوُّلِه إلى دين الإسلام ، وهو يصف هذه التجربة أبلغ وصف وأدقَّه ، وبذلك استحق أن نقتبس منه معالم هذه التجربة . لنعرضها لعل فيها هدى ونوراً لبنى الإنسان ، ذلك الباحث اسمه الآن « محمد فؤاد الهاشمى » مؤلف كتاب « الأديان فى كفة الميزان[1] » ، ووصفُه لتجربة تحوُّله إلى الإسلام يدل على هدوء وعلم وعمق ، وربما رأيتُ الآلاف ممن تحولوا إلى ديننا الحنيف ، أو قرأتُ لبعضهم ، ولكن الوصف الذى دوَّنه الأستاذ الهاشمي تحت عنوان « الكفة الراجحة » يفوق كل وصف ، فيه إحاطة ، واتزان ، وعمق ، وفيه دقة فى تصوير الانفعالات النفسية ، فلنفسح هنا المجال لموجز لهذا المقال :

يولد الإنسان على دين آبائه ، ويشب على مبادئهم ، وربما فاقهم فى التطرف والتمسك بالدين ، فإذا شب عن الطوق ، مرت به من حين إلى حين ساعاتٌ من الصفاء الروحى والحياد العقلى[2] ، فيأخذ فى التأمل فيما يدين به ، ومناقشة ما يتلقى من تعاليم ، وكثيراً ما يُسْلِمه هذا إلى الشكوك

---

(١) ص ١٧٨ — ١٨٢ بتصرف

(٢) هذا إذا كان يميل للفكر والبحث ، أما إذا كان بسيطا أو من العامة ظل على التقليد طول عمره ، وفى ذلك السلامة لأمثاله . (شلبى)

والصراع الفكرى ، لما يظنه متناقضات فى معتَقَده ، وهذا يسلمه مرة أخرى للبحث والتنقيب عن الحقائق[١] .

. . . .

وفى غمرة البحث والتنقيب عن أسرار دينه ، قد تطرأ عليه الرغبة الملحة التى تبلغ به حد التطفل ، فيسترق السمع فى غفلة من دينه الذى ولد وشب عليه ، إلى دعوة تدعو إلى دين آخر ، وقد يسرع فيستبعد هذا الفكر الطارئ ، وقد يرحب به ويتوغل فى بحثه ودرسه ، وهو يميل إلى هذا الاتجاه الأخير إذا كان عقله الفطرى قد بلغ غايته من التحرر ، فلم يعد ينظر إلى الأبوة أو البنوة أو العشيرة أو الأموال ، بل تكون هذه كلها قد اضمحلت قيمتها أمام إلحاح الفطرة التى تدفع الناس دفعا قويا للبحث عن الحقيقة :

وكلما كان الدين الجديد واضحاً لاتعقيد فيه ولا تكلف ، وكلما كان متفقاً مع الفطرة التى فطر الله عليها خلقه ، كلما كان التمسك به أقوى ، دون حاجة إلى دعاة يستعملون أساليب الكياسة والفطنة والمنطق الخلاب ليجذبوا لدعوتهم الناس ، لأن الحقائق ليست بضاعة تتعلق بمطالب الجسد ، إنما هى مطلب الروح والعقل ، والروح والعقل يبغيان الحقائق الواضحة التى لا التواء فيها ولا دوران .

وبعد هذا التقديم الذى أوجزناه يقوم الأستاذ محمد فؤاد الهاشمى بوصف حالته وتطبيق هذه الانفعالات على نفسه فيقول :

وقد صادفتنى هذه الحالات ، ودرت فى فلكها ، واصطليت فى أتون الفكر ردحاً من شبابى ، فقد ولدت على دين من أديان أهل الكتاب ،

---

(١) عند ضعف الشخصية واختفاء مظان البحث ، يستسلم بعض الناس فى هذه المرحلة إلى الشكوك وربما يصلون إلى الإلحاد . (شلبى)

ونشأت أقلد أبوىّ وأترسم خطا أجدادى فى أداء الطقوس والشعائر ، حتى بلغت الرشد ونلت حظاً من العلم ووُجهت إلى تعلم أسرار هذا الدين ، لأكون دعامة من دعائم الدعوة له ، وربما قائداً من قادته .

وقادتنى الدراسة إلى إصاخة السمع إلى عدة نداءات وصلت إلى سمعى نتيجة الثغرات التى أوجدتها الريبة والشك فيما لم يستطع العقل قبوله ، وما لم يطمئن إليه الضمير لحظة الطهر الوجدانى ، فكان لتلك النداءات حظ من الإنصات الذى أعقبه التفكير فى الأديان السابقة على دينى ، فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، إذ وجدت بعد التمحيص أن أغلال دينى أخف وطأة من قيود ما سبقه من أديان نتيجة الطغيان الكهنوتى والكنسى .

وبعد أن أكملت دراستى — دون أن أصيب ما بحثت عنه — تحولت إلى البحث فى الدين الإسلامى ، وفى هذه المرة لم تكن بغيتى الفرار من دينى ، ولكن كان قصدى من البحث فى الإسلام استخراج العيوب ، وتلمس الأخطاء ، والوقوف على المتناقضات التى أوحى إلىّ بها أساتذتى وأهلى ، ولكن لم أكد أطرق الباب وأمسك بأول الخيط حتى دخلت باب المقارنة بين ذلك الدين وما سبقه من أديان ، ولم أخرج من تلك المقارنة إلا وقد استولى علىّ سحر الحقيقة الناصعة ، والمبادئ الوضاءة ، والتعاليم الصريحة ، التى لا اعوجاج فيها ولا التواء ، ولا سلطان لكاهن ولا طغيان لأحبار .

وجدت لكل سؤال جواباً ، ووجدت فصل الخطاب فيما لم يستطعه أى دين سابق ، سواء كان وضعياً ، أو مبدأً من المبادئ الفلسفية ، أو منحدراً من الأديان السماوية ، وقولى منحدراً يرجع إلى أن رجال الدين خرجوا بالأديان السماوية عما جاءت من أجله ، لقد وجدت أن ما زعموه فى الإسلام عيوباً هو فى الحقيقة مزايا ، وما ظنوه متناقضات هى حِكَم فصلت لأولى الألباب ، وأن ما عابوه على الإسلام كان علاجاً للبشرية التى طالما تردّت فى بيداء الظلمات حتى أخرجها الإسلام إلى النور ، فأخذ الإسلام بلبى وقبض

على لبابتى ، ومن واضح أحكامه ونور تعاليمه وصدق رسالته حُملت على الإيمان به والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وانقدت إليه دون إكراه أو ضغط أو إغراء ، ولكنى آمنت به عن تعقل وتفكر ودراسة وتمحيص ومراجعة ، وبها كلها رجحت كفة الإسلام وشالت كفة سواه « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب[1] » « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد »[2] .

---

(١) سورة آل عمران الآية الثامنة .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٤ .

مراجع الكتاب

١ – القرآن الكريم .

٢ – كتب الأحاديث الستة .

٣ – الكتاب المقدس .

٤ – مجموعة من كتب الفقه .

٥ – مجموعة من المجلات العلمية والصحف .

٦ – Encyclopaedia of Religions and Ethics.

٧ – Encyclopaedia of Islam.

٨ – Encyclopaedia Britanica.

٩ – دائرة معارف وجدى .

١٠ – قانون الجمهوريات السوفييتية .

١١ – دكتور إبراهيم بيومى مدكور — تاريخ الفلسفة

١٢ – دكتور أحمد شلبى — التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (من العرب قبل الإسلام حتى العهد الحاضر فى العالم الإسلامى كله – ثمانية أجزاء)

١٣ – » » » — تاريخ التربية الإسلامية

١٤ – » » » — السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى

١٥ – » » » — المجتمع الإسلامى

١٦ – » » » — مقارنة الأديان (اليهودية – المسيحية – أديان الهند الكبرى – ثلاثة أجزاء)

١٧ — المشير أحمد عزت	الدين والعلم
١٨ — الباقلانى	إعجاز القرآن
١٩ — Berry	Religions of the World
٢٠ — البلاذرى	فتوح البلدان
٢١ — Thomas Arnold	Preaching of Islam
٢٢ — Thomas Morga	Books of Governors
٢٣ — ابن تيمية	السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية .
٢٤ — جميل نخله مدور	حضارة الإسلام فى دار السلام
٢٥ — دكتور جورج برست	قاموس الكتاب المقدس
٢٦ — جورجى زيدان	تاريخ التمدن الإسلامى
٢٧ — دكتور حامد الغوابى	الطب الحديث يترسم خطا الإسلام
٢٨ — دكتور حسن إبراهيم ودكتور على إبراهيم	النظم الإسلامية
٢٩ — ابن حزم الأندلسى	المحلى
٣٠ — أبو الحسن الندوى	ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
٣١ — Dinson	Emotions as the Basis of Civilization
٣٢ — دوايت دونلدش	عقيدة الشيعة
٣٣ — سيد قطب	التصوير الفنى فى القرآن
٣٤ — » »	فى ظلال القرآن
٣٥ — Stanley Lane-Poole	Arabs in Spain
٣٦ — الشريف المرتضى	تنزيه الأنبياء .
٣٧ — الشهرستانى	الملل والنحل

٣٨ — الطبرى	تاريخ الأمم و الملوك
٣٩ — الطيب النجار	الموالى فى العصر الأموى
٤٠ — عباس محمود العقاد	الله
٤١ — عباس محمود العقاد	حقائق الإسلام و أباطيل خصومه
٤٢ — » » »	ما يقال عن الإسلام
٤٣ — ابن عبد الحكم	سيرة عمر بن عبد العزيز
٤٤ — عبد الرازق نوفل	القرآن والعلم الحديث
٤٥ — دكتور عبد العزيز إسماعيل	الإسلام والطب الحديث
٤٦ — عفيف طبارة	روح الدين الإسلامى
٤٧ — الغزالى	إحياء علوم الدين
٤٨ — غوستاف لوبون	حضارة الهند
٤٩ — Fage and Roland	A Short History of Africa
٥٠ — المرحوم قاسم أمين	تحرير المرأة
٥١ — » » »	المرأة الجديدة
٥٢ — دكتور قهر الدين يونس	الإنسانية
٥٣ — ابن القيم	زاد المعاد
٥٤ — » »	أعلام الموقعين
٥٥ — Kirk	A Short History of the Middle East
٥٦ — ابن الكلبى	كتاب الأصنام
٥٧ — كمال أحمد عون	المرأة فى الإسلام
٥٨ — الماوردى	الأحكام السلطانية
٥٩ — المبرد	الكامل فى اللغة والأدب

٦٠	الشيخ محمد بخيت	حقيقة الإسلام وأصول الحكم
٦١	دكتور محمد حسين هيكل	حياة محمد
٦٢	محمد شفيق (باشا)	الرق فى الإسلام
٦٣	السيد محمد صادق الصدر	الشيعة
٦٤	محمد صادق الرافعى	إعجاز القرآن
٦٥	الإمام محمد عبده	رسالة التوحيد
٦٦	الإمام محمد عبده	الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية
٦٧	M Olive	تاريخ الصين القديم
٦٨	مولانا محمد على	Early Caliphate
٦٩	» » »	The Religion of Islam
٧٠	الدكتور محمد عبد الله دراز	الدين
٧١	» » » »	النبأ العظيم
٧٢	محمد عبد الغنى حسن	مجازات القرآن
٧٣	الشيخ محمد الغزالى	خلق المسلم
٧٤	محمد فؤاد الهاشمى	الأديان فى كفة الميزان
٧٥	الأستاذ الأكبر محمود شلتوت	الإسلام عقيدة وشريعة
٧٦	» » » »	الفتاوى
٧٧	» » » »	من توجيهات الإسلام
٧٨	» » » »	منهج القرآن فى بناء المجتمع
٧٩	I .A. Hadfield	Psychology and Ethics
٨٠	Harry, W. Hazard	Atlas of Islamic History
٨١	ابن هشام	السيرة

٨٢ —	هوبير ديشان	الديانات فى أفريقيا السوداء (مترجم عن الفرنسية)
٨٣ —	Isle Lictenstadter	Islam and Modern Age
٨٤ —	Khuda Bakhsh	An Introduction of the Islamic civilization.
٨٥ —	F. Hitti	History of the Arabs
٨٦ —	Weith-Knadsen	Feminism
٨٧ —	Wells	A Short History of the World
٨٨ —	William Patoun	Great Religions of the World

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٥

مقارنة الأديان

(٤)

أديان الهند الكبرى

الهندوسية . الجينية . البوذية

مع ملحق عن قضية الألوهية كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة

والحائز لوسام الجمهورية ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

مقارنة الأديان



أديان الهند الكبرى

الهندوسية • الجينية • البوذية

مع ملحق عن «قضية الألوهية»
كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان

للدكتور
أحمد شلبى
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والحائز لوسام الجمهورية، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى

الطبعة الحادية عشرة ٢٠٠٠ مع تعديلات وإضافات قيمة



مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى بالقاهرة



مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى - القاهرة

ت : ٣٩١٠٩٩٤ - ٣٩٥٦٧٧١

فاكس : ٣٩١٠٩٩٤

برقيا : نهضابوك

ص.ب : ٢١٧٢

رقم الايداع ١٧٠٥ لسنة ١٩٨٤

مطبعة الإسراء : ٥٦٢٨٢٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه ومن اتبعه

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الإسلامي

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات لتاريخ العالم الإسلامي كله، من مطلع الإسلام حتى الآن، مع دراسة الجوانب الحضارية التي حققتها الدول الإسلامية عبر التاريخ. (الطبعة الرابعة عشرة).

الجـــزء الأول :	السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين.
الجـزء الثـانى :	الدولة الأموية وإنصاف تاريخها.
الجـزء الثـالث :	الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الأول.
الجـــزء الرابع :	الأندلس الإسلامية، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا – المغرب– الجزائر – تونس – ليبيا من مطلع الإسلام حتى الآن.
الجـزء الخـامس :	تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن – الحروب الصليبية – الامبراطورية العثمانية منذ ظهورها حتى الآن – الأقليات الإسلامية في أوروبا والولايات المتحدة.
الجـزء السـادس :	الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن : موريتانيا – السنغال – جامبيا – غينيا – مالى – النيجر – نيجيريا – تشاد – السودان – الصومال – جيبوتى – جزر القمر – ارتيريا.
الجـزء السـابع :	دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن : المملكة العربية السعودية – اليمن – سلطنة عمان – دولة الإمارات العربية – قطر – البحرين – الكويت – ثم العراق (أحداث العراق والكويت : ١٩٩٠ – ١٩٩١).
الجـزء الثـامن :	الدول الإسلامية غير العربية بآسيا: إيران – أفغانستان – الباكستان – بنجلاديش – ماليزيا – إندونيسيا منذ دخولها الإسلام حتى الآن – الأقليات الإسلامية فى الهند والصين وروسيا والفلبين..
الجـزء التـاسع :	ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم . عصر جمال عبد الناصر: عصر المظالم والهزائم.
الجـزء العـاشر :	ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر أنور السادات.

كتب للمؤلف
ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الإسلام لهداية البشرية فى شئون الفكر، والسياسة، والاقتصاد، والعلاقات الدولية، وفى مجال الحياة الاجتماعية، والتربوية، والتشريعية، والقضائية، والعسكرية، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك ... (الطبعة الثانية عشرة).

الجـــزء الأول : موجز عام للحضارة الإسلامية
المناهج الإسلامية: أصولها الصحيحة - انحرافاتها - وجوب تصحيحها .

الجـزء الثـانى : الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره.

الجـزء الثـالث : السياسة فى الفكر الإسلامى - الشورى والمعارضة فى الإسلام مع بيان الفرق بينهما - مقارنة النظم السياسية الإسلامية بالنظم السياسية المعاصرة.

الجـــزء الرابع : الاقتصاد في الفكر الإسلامى - مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة.

الجـزء الخـامس : التربية والتعليم في الفكر الإسلامي.

الجـزء السـادس : المجتمع الإسلامي: تكوينه وعلاج مشكلاته فى الفكر الإسلامي.

الجـزء السـابع : الحياة الاجتماعية في الفكر الإسلامي: نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء.

الجـزء الثـامن : التشريع والقضاء فى الفكر الإسلامي.

الجـزء التـاسع : العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامي.

الجـزء العـاشـر : رحلة حياة : ترجمة ذاتية تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية.

كتب للمؤلف
ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان تعتمد على أدق المصادر بمختلف اللغات، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق، وتشمل :

الجزء الأول - اليهودية : (الطبعة الثانية عشرة)
- دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن- الصهيونية - أنبياء بني اسرائيل، عقيدة بني اسرائيل، يهوه إله بني إسرائيل، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل، الكهنة والقرابين...
- مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود، بروتوكولات حكماء صهيون.
- اليهود في الظلام : الاغتيال، التجسس، الماسونية، الروتاري، الليونز - شهود يهوه، البابية والبهائية - من صور التشريع في اليهودية.

الجزء الثاني - المسيحية : (الطبعة الثانية عشرة)
- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة.
- بولس واضع المسيحية الحالية، التثليث، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر.
- شعائر المسيحية، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية، المجامع، طبيعة المسيح والآراء فيها، الطوائف المسيحية، الرهبنة والأديرة، خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون، حركة الإصلاح الديني ونتائجها ونقدها.

الجزء الثالث - الإسلام : (الطبعة الثانية عشرة)
- الله في التفكير الإسلامي، النبوة في التفكير الإسلامي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الدين المعاملة، المرأة في الإسلام، الرق وموقف الإسلام منه، السياسة والاقتصاد في الإسلام، آراء المفكرين الغربيين في الإسلام ورسول الإسلام.

الجزء الرابع - أديان الهند الكبرى : (الطبعة الثانية عشرة)
الهندوسية - الجينية - البوذية،
- مقدمة عن : جغرافية الهند، سكان الهند، اللغات في الهند، الأديان في الهند.
- دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها، كيتا.
- أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ، الانطلاق والنرفانا، وحدة الوجود.
- تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها.

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ – كيف تكتب بحثا أو رسالة.
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراة:
(الطبعة الرابعة والعشرون – مع ثلاثة ملاحق مهمة).

٢٦ – الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام، واستمرارها حتى الآن:
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرياً وفكرياً على العالم الإسلامى عبر العصور.

٢٧ – احداث العراق والكويت : ماذا أبرزت من مشكلات، وماالسبيل للتغلب عليها – دراسة تاريخية نفسية محايدة:

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية:

٢٨ – ISLAM : Belief - legislation - Morals

٢٩ – History of Muslim Education

وباللغة الفرنسية :

٣٠ – ISLAM : Croyance - Legislation - Morale

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore):

٣١ – Nearag dan pemerintahan Dalam Islam

٣٢ – Masjarakat Islam

٣٣ – Hukum Islam

٣٤ – Sedjarah dan Kebudajaan Islam I

٣٥ – Sedjarah dan Kebudajaan Islam II

٣٦ – Sedjarah dan Kebudaajaan Islam III

٣٧ – Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٨ – Perbandingan Agama (Msihi)

٣٩ – Perbandingan Agama (Islam)
Perbandigan Agama (Agama 2 yng)

٤٠ – Tebeser di Inia: Hindu-Jaina - Buddha)

٤١ – Sadijarah Pendidikan Islam

٤٢ – Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤٣ – Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤٤ – Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dn Masehi

٤٥ – Perang Salib

٤٦ – Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٧ – Pengajian Al Quraan

٤٨ – Sekjarah Kchakiman Dalam Islam

خامسا : التفسير الميسر للقرآن الكريم

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب وقواعد اللغة العربية والتطبيق عليها.

كتب للمؤلف

سابعا : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل مائة كتاب في الدراسات الإسلامية التى تناسب كل الأعمار كالآتى:

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة ١٦ جزء
المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة ٧ أجزاء
المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية ٥ أجزاء
المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم ٧ أجزاء
المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى إنصاف ٥ أجزاء
المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات ٥ أجزاء
المجموعة السابعة : الإسلام والمرأة ٥ أجزاء
المجموعة الثامنة : شخصيات إسلامية مهمة (هارون الرشيد - المأمون- صلاح الدين الأيوبى) ٧ أجزاء

المجموعة التاسعة : كتب التنوير الحقيقى : ١٥ جزءا

١ - مدن إسلامية مقدسة : مكة المكرمة - المدينة المنورة - القدس الشريف
٢ - الإسلام : عقيدة وشريعة واخلاق
٣ - الرسول في بيته : زوجاته - أولاده - أحفاده - خدمه
٤ - مع أنبياء الله من آدم إلى محمد ٢٥ نبيا (ورد ذكرهم فى القرآن الكريم)
٥ - السيرة النبوية للناشئة
٦ - الإسلام والشباب
٧ - بحوث في الحضارة الإسلامية
٨ - مع القرآن الكريم
٩ - صلاح الدين الأيوبى : شخصيته - عصره - جهوده
١٠ - عواصم الخلافة الإسلامية عبر العصور : المدينة المنورة - الكوفة - دمشق - بغداد - سامراء - القاهرة - القسطنطينية - قرطبة
١١ - شبهات المستشرقين ضد الإسلام : مناقشتها وردها
١٢ - صراع الحضارات فى القرن الحادى والعشرين ودور الحضارة الإسلامية فى هذا الصراع .
١٣ - السخاوى والسيوطى وصراع المنافسة بين الأقران
١٤ - الجبرتى المؤرخ المصرى : والحياة الثقافية بمصر فى عهده.
١٥ - مواقف إنسانية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم (الجزء رقم ١٠٠)

المجموعة العاشرة : كتب متفرقة كثيرة منها :

الميراث فى الشريعة الإسلامية
السلفية
الإسلام فى أوربا
الصحوة الإسلامية
تاريخ الطب فى الإسلام
حركات فارسية ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور:
الزنج - القرامطة - الزنادقة - البابية والبهائية

(اكتملت الأجزاء المائة بعون الله)

محتويات الكتاب



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحـــة

مقدمة الطبعة الأولى

أحس أن من واجبى أن أفتتح هذه المقدمة بشكر الله الذى هدى وأنعم وتفضل، فإن سلسلة مقارنة الأديان التى نخرج اليوم جزأها الرابع قد لاقت من النجاح أضعاف ماكان يؤمل، وقد اشتد عود هذا العلم. وأخذ يلعب دوره فى حياتنا الثقافية، وكان المبشرون بالمسيحية يعرفون أطرافا من هذا العلم ويستغلونها وهم ينشرون المسيحية ويقفون فى وجه الإسلام، ولكننا أخذنا السلاح منهم وبدأنا نصول به ونجول. والذى لاشك فيه أن الذى يتصدى للتعريف بالإسلام والتبشير به يحتاج إلى هذا العلم احتياجا واسعا؛ ويجد فيه خير عون له فى كفاحه وجهاده.

وقد دخل هذا العلم بعض كليات «جامعة الأزهر» وكان من دواعى ابتهاجى أن انتدبت لتدريسه هناك وكان إقبال الطلاب على الانتفاع بهذا العلم عظيما، وهم - عَبْرَ التاريخ - حماة الإسلام وناشروه فى مختلف الأقطار والأصقاع، وقد طربت عندما وجدت بين طلابى بكليات الأزهر شبابا سمر الوجوه جاءوا من بقاع شتى بأفريقية، وآخرين انحدروا من مختلف الأقطار بآسيا. وسيكون لهؤلاء وأولئك فى خدمة الإسلام ونشره جولات حاسمة عندما يعودون لبلادهم، وأرجو أن يكون علم «مقارنة الأديان» خير عون لهم فى هذه المعمعة.

لقد كان المبشرون الغربيون يعرفون من الإسلام نقاطا يوجهونها توجيها خاصا حتى يصوروها نقائص، ويلقون بها فى طريق الإسلام كعقبات تقاوم امتداده، ولم يكن دعاة الإسلام يعرفون عن أديان هؤلاء المبشرين مايلقون به فى وجوههم لصدهم عن الباطل وإعادتهم إلى الرشد، فكانت الغلبة فى حومة الوغى العلمى تتم للمبشرين الغربيين غالبا، وقد حضرت فى أندونيسيا مرة مناظرة أعدَّتْ لتكون من هذا النوع، وفى مطلعها ألقى المبشرون المسيحيون بأسئلتهم فى وجوهنا، وظنوا أنهم ضمنوا لأنفسهم

الفوز . وكانت أسئلتهم تدور حول تعدد الزوجات، والطلاق، والرق، والمرأة فى الإسلام، وديكتاتورية الخلفاء، ونشر الإسلام بالقوة، . . وتصديت للإجابة، ولكنى أعلنت أننى سأجيب عن سؤال ثم ألقى على المبشرين سؤالا عن المسيحية أرجو أن يجيبونى عنه قبل أن أنتقل للإجابة عن السؤال التالى من أسئلتهم، وهكذا، سؤال لهم وسؤال لى، وكانت تلك مفاجأة غير سارة لهم، وقدّمت لهم الأسئلة التالية :

* بولس والمسيحية .
* التثليث فى المسيحية .
* ألوهية عيسى .
* ألوهية الروح القدس .
* الاضطهادات والمسيحية[1] .

وتمَّ لنا الفوز المبين، وشالت كفة المبشرين، وكان علم «مقارنة الأديان» هو الذى قدم لنا السلاح ونحن ندافع ونجيب، كما قدمه لنا ونحن نهاجم ونسأل .

ومن ألوان النجاح الذى صادفته هذه السلسلة أنها ترجمت للغة الانجليزية وللغة الأندونيسية والماليزية، واللغة الأوردية، واللغة الفرنسية .

وهذا الجزء خاص بأديان الهند، والحديث عن أديان الهند حديث ذو شجون، وأرجو أن يجد القارئ فى هذا الجزء لذة عقلية ومتعة نفسية، وهناك نقطة مهمة تربط أديان الهند بالأديان السماوية، فقد كانت أديان الهند معينا تسربت منه ألوان من الأفكار ووجدت طريقها بين معتقدات المسيحيين والمسلمين، فسنرى أن الشعار المسيحى «تثليث فى وحدة ووحدة

---

(١) أقرأ هذه الموضوعات فى كتاب «المسيحية» للمؤلف .

فى تثليث» منحدر من الهندوسية ، وسنرى أن بعض المسلمين قالوا بالتناسخ ، ووحدة الوجود ، ودراسة علم «مقارنة الأديان» ستعيد كل معتقد إلى أصله ، وستُظهِر مقدار التأثر والتأثير بين المعتقدات .

والهند قطر عميق الصلة بالأقطار الإسلامية ويعيش به عشرات الملايين من المسلمين بالإضافة إلى الملايين الذين انسلخوا من الهند مكونين دولة الباكستان وبنجلاديش ، ومن أجل هذا كان يجدر بنا أن نُعنى بدراسة الثقافة الهندية ، لأنها تلاقت مع الثقافة الإسلامية منذ عهد مبكر ، ولكن للأسف لم تكن الثقافة الهندية شائعة بين المسلمين ، ولم تكن الهندوسية أو الجينية أو البوذية معروفة إلا للخاصة من الباحثين ، ولذلك يسعدنى أن أقدم هذا الزاد للقارئ المسلم بوجه خاص ولطبقة المثقفين فى العالم بوجه عام .

يارب حقق بهذا العمل النفع ، واجعله خالصا لوجهك الكريم .

المعادى فى السادس من مايو سنة ١٩٦٤ .

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة الجديدة

يسرني بالغ السرور أن أخرج طبعة جديدة من «أديان الهند الكبرى» ويجيء إخراج هذه الطبعة بعد أن نشط علم مقارنة الأديان واستعاد مكانته في أكثر الكليات، والفضل لله واهب التوفيق، والمعين على النجاح، والشكر للقارئ الكريم على تشجيعه المتواصل وإقباله على هذا الجهد.

ومما يدعو للسرور أن هذه السلسلة قد اكتملت أجزاؤها وترجمت لعدة لغات، وساعد ذلك على أن تؤدي دورها في خدمة الفكر بكثير من الأقطار والأنحاء.

يارب أشكرك شكر من يعرف حقك، ويدرك أن نجاحه كان منك. وكان أثرا لتأييدك العظيم، وفي انحناءة الشاكر الذاكر أطمع في المزيد من توفيقك وعونك. وأطمع أن تكون هذه الطبعة أكثر نفعا وأعمق أثرا.

وأسألك يارب أن تهبنا الرشد، وتهدي البشرية سواء السبيل.

المؤلف

المعادي في الرابع من ديسمبر سنة ١٩٩٨ .

الهند

الهند بلاد الأسرار والأساطير، مجتمع شعوب وطبقات، بل مجتمع مجتمعات، تكثر فيها الأديان، وتتعدد اللغات والألوان، فالحديث عن الهند حديث ذو شجون، تعال بنا نورد تعريفا بالهند قبل أن نصل إلى الحديث عن أديانها الكبرى، ومن الواضح أن حديثنا هنا عن الهند يشمل أيضا مايسمى الآن «الباكستان» و «بنجلاديش».

لمحة عن جغرافية الهند :

تبلغ مساحة الهند ١,٢٢١,٠٧٢ ميلا مربعا، أو مايعادل مساحة دول أوربا مجتمعة باستثناء روسيا، والهند ذات موقع مهم على خريطة العالم، وهى شبه جزيرة تشبه فى منظرها قارة أفريقية بوجه عام، فهى عبارة عن مثلث غير منتظم الأضلاع قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل، وقاعدته جبال الهملايا الشامخة، ورأسه رأس كومارى (Cape Comarin)، والهند بلاد مقفلة كما يسميها الباحثون، فضلعا المثلث فى الشرق والغرب يدور حولهما البحر، أما قاعدة المثلث فى الشمال فتحيط بها سلسلة جبال الهملايا وجبال سليمان ويحتضنها نهران عظيمان أحدهما نهر الأندوس (السند) وينبع من جبال الهملايا ويصب فى خليج العرب، بعد أن يتصل بأنهار البنجاب (الأنهار الخمسة)، والآخر نهر كنكا أو نهر الكنج، وهو ينبع أيضا من جبال الهملايا ويصب فى خليج البنغال بعد أن يتصل بنهر براهما بوترا المقدس[١].

ويشق الهند عند منتصفها تقريبا سلسلةٌ من الجبال والأدغال تبدأ من الغرب، وتسير حتى قرب الساحل الشرقى، وهذه السلسلة تقسم الهند قسمين يختلف أحدهما عن الآخر فى طبيعته وفى سكانه وحضارته.

ومن نهر الأندوس (السند) اشتُق اسم الهند، وظهرت كلمة اند وهند، ومعناهما الأرض التى تقع فيما وراء الأندوس، وسمى سكان هذه البلاد :

(١) Weech and Rylands: Peoples and Religions of India p. 307



أفغانستان
كشمير
السند
لاهور
البنجاب
دلهي
دلهي الجديدة
نهر الكنج
الله آباد
بنارس
كلكتة
كراتشي
جبال ونداغال
بورما
حيدرآباد
خليج البنغال
مدراس
سيلان
كولومبو
المحيط الهندي

الهند

الهنود أو الهندوس[1] .

وعن تسمية الهند يقول غوستاف لوبون[2] : يرى الغربيون أن نهر السند (إندوس) أعار من اسمه اسما للبلاد الحافلة بالأسرار الواقعة فيما وراءه . ولا يُسَلَّم بهذا تمام التسليم ، بل يحتمل اشتقاق اسم الهند من اسم الإله (اندرا) .

ويجاور الهند ممالك بلوخستان وأفغانستان فى الشمال الغربى ، والتركستان فى الشمال ، والصين فى الشمال والشمال الشرقى ، وبورما فى الشمال الشرقى كذلك .

وحضارة الهند قديمة جدا ، وقد أنتجت تربة الهند فلاسفة عظاما قبل أن يولد سقراط ، وانتشرت فى الهند معالم العلم ، ووجدت المبانى الضخمة فى عهد كانت الجزر البريطانية تعيش فى بربرية وفوضى[3] .

والهند بلاد العجائب والمفارقات ، حتى يمكن اعتبارها أقطارا فى قطر ، فلها كل الأجواء بسبب اتساعها وتفاوت ارتفاع بقاعها ، فبينما يكون الحر شديدا للغاية فى سواحل ملبار ، وكور ، ومَنْدَل ، وسهول البنجاب ، ترى ربيعا ساحرا فى قمم بعض الجبال ، وثلوجا تغطى شواهق همالايا . وبينما يغمر الفيضان بعض الأرض نرى مناطق أخرى أعيا أهلها الجفاف وطلبُ السقيا ، وبينما ترى الصحارى الجرداء والأرض القاحلة إذ بك ترى الغابات الكثيفة والمروج الخضراء والمزارع الفينانة[4] .

وعن مفارقات الهند يقول G.H. Rylands[5] : فى الهند الحديثة

---

(١) حقائق عن الهند (من منشرورات قلم الاستعلامات الهندى) .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٢٥ .

(٣) Weech and Rylands: Peoples and Religions of India p. 307.

(٤) انظر حضارة الهند لغوستاف لوبون ص ٢٢ .

(٥) Peoples and Religions of India p. 307

يتقابل وجها لوجه الشرق فى عصور بدائيته، مع الغرب فى عصور حضاراته وتطوره، ومن مظاهر ذلك الطائرات النفاثة التى تشق الجو لتقيم شبكة مواصلات بين مدن الهند بعضها والبعض الآخر، فى حين لاتزال أشهر وسيلة للمواصلات داخل المدن عبارة عن «الركشة» وهى مَرْكَبَ ذو ثلاث عجلات يركبه شخص أو شخصان ويدفعه حطامٌ من بنى آدم.

سكان الهند

الهند مركز من مراكز الحضارة القديمة فى العالم، وهى فى هذا تضارع مصر والصين وآشور وبابل، ولكن حضارة الهند التى سبقت العهد الآرى ظلت غير معروفة حتى أظهرت الاكتشافات الحديثة مدى الرقى الذى عرفته الهند فى الشئون المعمارية والزراعية والاجتماعية قبل الميلاد بحوالى ثلاثة آلاف من الأعوام، أى قبل الغزو الآرى بحوالى ألف وخمسمائة عام.

ولكن التاريخ الواضح للهند ارتبط بالعهد الآرى، وقد قلنا فيما سبق أن بلاد الهند تعتبر مقفلة إذ تحيط بها البحار والجبال، ويصعب اقتحام الهند عن طريق البحر لتعذر الملاحة فى خليج البنغال، ولأن الشاطئ الهندى لبحر العرب عبارة عن جبال عاتية، وعلى هذا لم يكن البحر معبرا للهند وبخاصة فى الأزمنة السالفة قبل الرقى بنظم الملاحة. وكما صعب اقتحام الهند عن طريق البحر صعب أيضا اقتحامها عن طريق جبال همالايا الشامخة بالشمال، إلا أن هناك مَعْبَرين كان كل منها منفذا سلكته أجناس من البشر إلى الهند حيث تكوَّن السكان الذين نريد أن نتكلم عنهم، ويقع أحد هذين المعبرين فى شرقى جبال همالايا عند وادى نهر برهما بوترا، ويسمى الباب الشرقى، ويقع الثانى غربى هذه الجبال ويسمى الباب الغربى، ومن هذين البابين اقْتُحمت الهند عدة مرات بأجناس مختلفة، ولهذا، ولاختلاف أجواء الهند، أصبح سكان الهند - كما يقول غوستاف

لوبون[١] - ذوى أمثلة متباينة، ففيها تجد شعوبا بيضا بياض الأوربيين، كما تجد الزنوج والسود، وبين هؤلاء وأولئك ألوان وألوان.

فمن الباب الشرقى دخلت الشعوب الصفراء (التورانيون) أفواجا منذ آلاف السنين، يضيق الزمن بينها أو يتسع، وقد فرّ من وجهها بعض السكان الأصليين واحتموا بقمم الجبال، أما أغلب السكان الأصليين فقد ارتبطوا بالزاحفين وتمّ فى الجنسين ألوان من العلاقات أنتجت ما أصبح بعد حين يعرف بالسكان الأصليين، وكان هذا المجتمع الجديد يتكون من جماعتين: إحداهما يغلب فيها الدم التورانى، والثانية يغلب فيها الدم الهندى، أما الذين آووا إلى قمم الجبال فقد أُطلق عليهم «زنوج الهند».

ومن الباب الغربى اقتحم الآريون بلاد الهند وبهم ارتبط تاريخ الهند القديم وأصل الآريين (الجنس الأبيض) مشكوك فيه، فيرى بعض الباحثين أنهم نشأوا ببلاد الدانوب بأوربا، ثم هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض، متخذين طريق الشرق حتى بحر مرمرة، ثم عبروا البسفور أو الدردنيل إلى آسيا الصغرى، واستمروا فى سيرهم شرقا متجنبين الحضارات المزدهرة التى كانت قد نشأت فى طريقهم، حتى نزلوا فارس بالقرب من تبريز، ومن هناك انحدروا إلى الهند[٢].

ويرى باحثون آخرون - وهو الأرجح - أن الجنس الآرى آسيوى الأصل، كان يعيش فى وسط آسيا فى بلاد التركستان بالقرب من نهر جيحون، ثم زحفت أفواج ضخمة من هذا الجنس فى أزمنة غير واضحة، واتجهت نحو إيران عبر الهند واتجهت كذلك نحو أوربا[٣].

---

(١) غوستاف لوبون: المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) الهجرات الآرية ص ٤.

(٣) René Sedillot: History of the world p. 32.

وانظر كذلك: G.F. Allen Buddha's Philosophy p. 24 - 25.

ويبدو أن الزحف الآرى إلى الهند قد تمَّ فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقد حارب الآريون الممالك التى أقامها الجنس الأصفر بالهند وانتصروا على الكثير منها، وكوَّنوا لهم بها مناطق نفوذ، ولم يتصل الآريون بسكان الهند بطريق التزواج، بل حافظوا غالبا على سلالتهم البيضاء وساقوا سكان الهند إلى الغابات والجبال، أو أخذوهم أسرى، وسماهم الأدب الآرى المبكر «أمة العبيد» واستنصر الآريون عليهم بالههم اندرا، ومن دعائهم فى ذلك: يا إلهنا اندرا، إننا قد أحاط بنا قبائل داسيو (عبيد) من جميع الجهات، وهم لايقدمون الضحايا، وليسوا بآدميين، ولا يعتقدون فى شىء، يامهلك الأعداء أهلكهم وأهلك نسل داسا (العبد). والسبب فى أن الآريين لم يتم التزاوج بينهم وبين الهنود، هو أن الآريين دخلوا الهند كشعب مهاجر لا كجيش محارب، والفرق كبير بين الحالتين، فالجيش يكون عماده الرجال الذين سرعان مايتصلون بنساء الشعب المغلوب، أما الآريون فقد دخلوا بثرائهم ونسائهم وأطفالهم، فلم يحتاجوا لنساء الهند للتزاوج، وكان عدم الحاجة للنساء من الاستعلاء الذى يصحب النصر من دواعى نشأة الطبقات، كما كان هذا من أسباب كثرة الألوان فى الهند[١].

أما مدى نفوذ الشعوب الصفراء (التورانيين) والبيض (الآريين) على الهند فيوضحه غوستاف لوبون بقوله[٢]: والتورانيون أشد الغزاة تحويلا لعروق الهند من الناحية الجثمانية، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر فى عروق الهند من الناحية المدنية، فمن التورانيين أخذ سكان الهند نسَبَ أجسامهم وتقاطيع وجوههم، وعن الآريين أخذ سكان الهند لغتهم ودِينهم وقوانينهم وسجاياهم وطبائعهم.

ولم يتوار الآريون بالامتزاج فى الهند بسرعة كما توارى العرب فى مصر، لأن عدم التزاوج، ثم نظام الطوائف الحاسم حال دون امتزاجهم فى

---

(١) Weech: The Peoples and religions of India p. 311.

(٢) حضارة الهند ص ١٠٤.

الهند بالتورانيين المقهورين زمنا طويلا، ولكن الامتزاج على كل حال تمَّ بتعاقب القرون[1] ومع الامتزاج فإننا نستطيع أن نرى أن آثار الآريين الجسمانية لاتزال بارزة فى الشمال الغربى حتى العهد الحاضر كما يقول Weech ففى البنجاب نجد السكان أطول قامة، بشرتهم بيضاء أو أميل إلى البياض، ملامحهم أدق، وهم بهذا يخالفون باقى الهنود حيث تنتشر ملامح التورانيين، أو حيث توجد ملامح السكان الأصليين بالجنوب، وتقل ملامح الآريين كلما اتجهنا جنوبا أو شرقا[2] .

وبالتقاء الآريين والطورانيين مع السكان الأصليين بدأت الطبقات فى الهند، وأصبحت ذات أهمية كبرى فى تاريخ هذه البلاد، فمن الآريين كانت طبقة رجال الدين (البراهمة = Brahaman) وطبقة المحاربين (Kastria) ومن التورانيين تكونت طبقة التجار والصناع (Vaisya)، أما الهنود الذين اتصلوا بالطورانيين فلم يدخلوا التقسيم فى أول الأمر، ولكن الحضارة الآرية امتدت إلى بعضهم بمرور الزمن، فأوجد الآريون منهم الطبقة الرابعة وجعلوها طبقة الخدم والعبيد (Sudra) أما الذين لم تمتد لهم الحضارة الآرية من السكان الأصليين لأنهم انعزلوا عن الفاتحين فقد بقوا بعيدين عن التقسيم، وظلوا طريدى المجتمع أو منبوذين (ontcastes) وستتكلم فيما بعد عن هذه الطبقات .

ونعود إلى ذوبان الجنس الآرى الذى اقتبسنا الحديث عنه آنفا من غوستاف لوبون، لنقرر أن هذا الذوبان بدأ عندما اندفع بعض الآريين عن طريق ممر دلهى الذى يفصل بين الصحراء الغربية وبين فروع نهر الكنج، وفى المهجر الجديد تخلى الآريون عن كثير من خصالهم وتقاليدهم وتبنوا كثيرا من أخلاق الهنود. وطرق حياتهم، فتوقفوا عن الذبح وأكل اللحوم

---

(١) حضارة الهند ص ٢٦١ .

(٢) The Peoples and religions of India p. 311.

إلا فيما يتعلق بالقرابين، وفقدت المرأة حياة الحرية والطلاقة التى كانت تحياها فى المجتمع الآرى، وتوارى كثير من الآلهة التى كانت موضع تقديس فى كشمير حيث المهجر الأول للآريين[1] بالهند، واستمر هذا الذوبان ينتشر حتى تم اندماج الآريين فى الهند.

ومن العوامل الواضحة الأثر على سكان الهند جميعا شدة الحرارة. ففيما عدا جبال الهملايا التى تكسوها الثلوج نجد درجة الحرارة بالهند شديدة طول العام تقريبا، ويرى Weech أن شدة الحرارة كان لها أثر فى السكان، فقد تسبب عنها عزوفهم عن العمل، وسرعة التعب إذا عملوا، كما تسبب عنها نقص فى القدرة على الابتكار، وفى الكفاية والنشاط على العموم[2].

أما الناحية الروحية فتمتاز الهند بنصيب كبير فيها، ولكن ليس معنى هذا أن عامة الهنود على شىء من الصفاء الروحى، فإنه ليس فى بلاد العالم كلها بلد تنمو فيه الخرافة وتزدهر، كما تنمو فى الهند، ولكن ذلك لايقلل من نشاط الاتجاه الروحى فى الهند، لأن الظروف الملائمة للخرافة والبدع هى نفسها خير الظروف لصفاء النفس، فالاتجاه الروحى إذا سما أخذ وجهته نحو الفكر والعمق، وإذا كان ضحلا أو مضطربا أخذ طريقه نحو الخرافة[3].

اللغات فى الهند

رأينا فيما سبق اختلاف عناصر السكان واختلاف ألوانهم، ولكن اللغات فى الهند كانت أكثر اختلافا وأكثر عددا، وكانت الحياة القبلية المنتشرة بالهند من أهم أسباب كثرة اللغات، فقد كانت كل قبيلة تكاد تكون

---

(١) Weech: The peoples and Religions of India p. 314

(٢) Ibid p. 309

(٣) يوجى راما شاراكا: فلسفة اليوجا ص ١٩٧ من الترجمة العربية بتصرف.

مستقلة تعزلها الجبال أو الغابات أو الأنهار عن سواها من القبائل، ولها لغة خاصة بها لايعرفها سواها من القبائل أيضا، وعلى هذا بلغت اللغات في الهند نحو ٢٤٠ لغة و٣٠٠ لهجة إذا صح مايقوله غوستاف لوبون(١) بالإضافة إلى الفارسية التى كانت لغة رسمية للقصور والمجتمعات الراقية في الهندوستان، والبهلوية وهى لغة المجوس.

وعلى هذا لم يكن من الممكن التفاهم بين سكان المناطق المختلفة، وهذا مهّد الطريق للغة الإنجليزية لتكون لغةً عامةً بجوار هذه اللغات المحلية.

وهناك لغة أخرى تكونت فى القرن الخامس عشر الميلادى وهى اللغة الهندوستانية، وأصلها آرى، ثم دخلت عليها كلمات كثيرة من اللغات الفارسية والعربية والهندية والتركية وتسمى الآن اللغة الأوردية نسبة إلى (الأوردو) وهو المعسكر إذ كانت لغة معسكرات المغول أولا، وانتشرت هذه اللغة بين المسلمين وغير المسلمين، وشجعها الملوك والسلاطين حتى ضارعت اللغة الإنجليزية فى عمومها وانتشارها، وأصبحت لغة رسمية بجوار الإنجليزية، ولما تمّ تقسيم الهند إلى دولتى الهند والباكستان اعتُبرت هذه اللغة لغة إسلامية فى نظر كثير من الولايات الهندية، فاحتضَنتها الباكستان، وترعرعت هذه اللغة فى الدولة الإسلامية الكبرى، أما فى الهند فقد عانت الأوردية صورا من الاضطهاد فى بعض الولايات، ولكن ولايات أخرى هندية اعترفت بها مثل بومباى وإندرو ومدراس، ومن العجب أن الذين كانوا يهاجمون الأوردية من الهنود كانوا يهاجمونها بها كما قال البانديت نهرو(٢).

أما عن اللغات فى الهند بعد التقسيم فقد اتخذ الدستور الهندى اللغة الهندية لغة رسمية للبلاد، وهى لغة قامت على أنقاض السنسكريتية، ولما

---

(١) حضارة الهند ص ٤٧٧.

(٢) انظر تاريخ الإسلام فى الهند ص ٢٢ - ٢٣.

كانت هذه اللغة غير شائعة فقد رؤى الاستمرار فى استعمال اللغة الإنجليزية كلغة رسمية للبلاد حتى تصل اللغة الهندية إلى الانتشار الكافى، وإلى جانب اللغة الهندية، اعترف الدستور بثلاث عشرة لغة فى مختلف ولايات الهند، وكل منها لغة حية ذات ذخيرة ولها أدب يانع مترعرع(١) .

الأديـــان فى الهنـــد

نقلنا فى «موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية» رأى مجموعة من علماء مقارنة الأديان مؤداه أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية . . كما ذكرنا أن هناك عوامل تقوى هذه الغريزة من أهمها اختلاف قوى الطبيعة، ومواجهة الإنسان لهذه القوى وجها لوجه، وإحساسه بالضعف تجاهها(٢) :

والهند حقل رائع لتطبيق هذه المبادئ، فقد نشطت قوى الطبيعة، وواجهها الإنسان الهندى وجها لوجه، وأحس بالضعف تجاهها، فأصبح «متدينا بطبيعته يشغف بالروحانيات، ويسعى دائبا إلى معرفة الله، ويتخذ الزهد وسيلة ليتخلص من دنيا المادة وينتظم فى دنيا الروح(٣)»، وهيهات أن تجد هندوسيا لايعبد عددا من الآلهة، فالعالم عنده زاخر بها، حتى أنه يصلى للنمر الذى يفترس أنعامه، ولجسر الخط الحديدى الذى يصنعه الأوربى، وللأوربى نفسه عند الاقتضاء(٤) .

---

(١) محيى الدين الألوانى : الأدب الهندى المعاصر ص ٥٩ .
(٢) انظر الجزء الأول ص ١٦٧ - ١٦٨ من الطبعة الحادية عشرة .
(٣) أديان العالم الكبرى ص ٢٤ لخصه عن الإنجليزية حبيب سعيد .
(٤) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣٦٨ .

وقد عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة، كما عرفوا عبادة قوى الطبيعة، وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخَلْق، وكان هذا الإله يسمى عندهم (Linga) وهى من اشتقاق الكلمة الإنجليزية (Link) أى صلة ورابطة، وفى العصور الآرية اندمج هذا الإله مع الإله الذى تكوَّن منه الثالوث الهندى(١) .

وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمى، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى فى بعض الأحياء فيحل فيها - فيحتمل حلوله فى هذا الحيوان أو ذاك، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقا عائدا إلى الحياة(٢) .

وقد كان للبقرة - من بين الحيوانات - قدسية خاصة، ولذلك سنخصها بالذكر فيما يلى، ثم نتكلم بعد الحديث عنها عن آلهة الهنود من الظواهر الطبيعية.

عبادة البقرة :

من بين المعبودات سالفة الذكر حظيت البقرة فى الهند بأسمى مكانة، وهى من المعبودات الهندية التى لم تضعف قداستها مع كرِّ السنين وتوالى القرون، ففى الويدا حديث عن قدسيتها والصلاة لها. ولاتزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهذه القدسية، ففى الأدب المنسوب للمهاتما غاندى تفسير لما حظيت به البقرة قديما وحديثا من نفوذ دينى.

وبين يدىَّ الآن عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة Bhavan's Journal التى تصدر فى بومباى بالهند، وبه عدة مقالات عن عبادة البقرة،

(١) Weech: The Peoples and Religions of India p. 310.

(٢) الأستاذ عباس العقاد : الله ص ٧٧ .

وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات ، وأول مانقتبسه نشيد من «شاما ويدا»[1] نشرته المجلة فى صفحة مستقلة داخل رسم تخطيطى للبقرة[2] . نقل صورته على الصفحة التالية ، والترجمة العربية للنشيد هى :

صلاة إلى البقرة

أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء،
فى كل مظهر تظهرين به، أنثى تدرين اللبن فى الفجر
وعند الغسق، أو عجلا صغيرا، أو ثورا كبيرا،
فلنُعدّ لك مكانا واسعا نظيفا يليق بك، وماء نقيا
تشربينه، لعلك تنعمين بيننا بالسعادة

وهناك أسطورة تُرْوَى كمحادثة تقتبسها المجلة[3] عن Smani Sinanda وهى محادثة جرت بين خنزير وملك ، ونحن ننقلها فيما يلى :

ذهب الخنزير يوما إلى ملك وهو يصلى أمام البقرة ويعلن لها أنها معبوده الأثير عنده .

قال الخنزير للملك : أيها الملك ، متى ستعبدنى؟
فثار الملك ونهر الخنزير قائلا : أخرج وإلا قتلتك .

بكى الخنزير وانتحب ، وقال : نعم ، أنا أعرف أنك تحب فقط لحمى ، فأنا أموت لأقدم لك ماتحب ، ومع هذا فإنك تعبد البقرة ولاتعبدنى .

فأجاب الملك : إنك أحمق أيها الخنزير ، أننى آخذ لحمك بعد موتك أى بعد أن تكون فى حال لاتستطيع أن تمنح ولا أن تمنع ، وسرعان ماينتهى

---

(١) «ساما ويدا» قسم من أقسام «الويدا» كتاب الهندوس المقدس ، وسيأتى الحديث عنه .
(٢) ص ٧ .
(٣) ص ١٣ من المجلة .

BHAVAN'S JOURNAL

PRAYER FOR COW

[illegible] सहस्रसा उदेत विश्वारूपाणि बिभ्रतीरुपोध्नी ॥
उरुः पृथुरयं वो अस्तु लोक इमा आपः सुप्रपाणा इह स्त ॥

O! (holy) cows! May you fare well, assuming all forms, offering milk at dawn and dusk, and united with calves and bullocks. Let this spot be broad and wide enough for you. Let these waters be well drunk. May you be happy here.

Samaveda—[illegible]

لحمك، أما البقرة فإنها تقدم لى طعامى طائعة وهى حية، وكذلك تستمر فى تقديمه من يوم إلى يوم دون نهاية، أنها رمز الإيثار، ولذلك فأنا أعبدها.

أما رأى المهاتما غاندى فى عبادة البقرة فجدير بأن نفسح له مكانا، وأن نحاول أن ننقله كله أو جلّه من هذه المجلة[1] وهو بعنوان «أمى البقرة» وفيما يلى ترجمة أهم ماجاء به:

«أن حماية البقرة التى فرضتها الهندوسية هى هدية الهند إلى العالم، وهى إحساس برباط الأخوة بين الإنسان وبين الحيوان، والفكر الهندى يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهى كذلك فى الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندى، وهى خير حماية للهند..

«عندما أرى بقرة لا أعدُّنى أرى حيوانا، لأنى أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع...

«وأمى البقرة تفضُل أمى الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائما، ولاتتطلب منا شيئا مقابل ذلك سوى الطعام العادى. وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئا ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة، وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهى حية، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.

«أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم، ولكن لأبيِّن السبب الذى دعانى لعبادة البقرة. إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعدُّ نفسى واحدا من هؤلاء الملايين».

---

(١) ص ١١.

الآلهة من الظواهر الطبيعية :

ومن آلهة الآريين التى وردت فى كتبهم المقدسة مجموعة من الظواهر الطبيعية مثل :

واورونا : إله السماء .

إندرا : إله الرعد الذى يسبب الأمطار ، وكانت له الغلبة فيما بعد .

الشمس : وكانت تعبد فى خمسة أشكال ، فتعبد لذاتها باسم (سورية) ، وتعبد كمصدر للانتعاش باسم (ساوترى) . وتعبد لتأثيرها فى نمو الحشائش والنبات باسم (بوشان) وتعبد كبنت السماء باسم (مترا) وأخيرا باسم (وشنو) أى النائب عن الشمس ، ثم استقل وشنو فعُبد لذاته .

أغنى : إله النار .

أوشا : إله الصبح .

رودرا : إله العواطف .

بارجانيا : إله المطر والمياه والأنهار .

وايو ، واتو : إلها الرياح(١) .

ويعلق كتاب Hinduism على كثرة الآلهة بقوله : أن هذه الديانة توزع الآلهة حسب المناطق وحسب الأعمال التى تناط بهذه الآلهة ، فلكل منطقة إله ، ولكل عمل أو ظاهرة إله(٢) .

ويقول مولانا محمد عبد السلام الرامبورى : كانت الأمة الهندية متسامحة فى كل مايعرض عليها من الأفكار والمعتقدات ، تكثر عندها الآراء

---

(١) الآريون فى الهند (ثقافة الهند ، سبتمبر سنة ١٩٥٦ ص ٢٨ - ٢٩) .
(٢) René Sodillot: History of the World p. 62.

والابتكارات، وكان الناس حيارى مشرفين على القبول والمعاضدة . . عقائدهم متضاربة، وأفكارهم متباينة، فَشَتْ فيهم رهبانية، وسرت فيهم باطنية، قامت حلقات الفكر فى كل نواحى القطر يتزعمها العرفاء والعلماء، ونشأت دراسات أخلاقية قصدها العامة والخاصة، قد عمَّت الرياضات الشاقة المتعبة فى سبيل حصول السيطرة على القوى الكونية، وراج التبتل فى الكهوف للمراقبات النفسية، والانقطاع فى الغابات لإتعاب الأبدان لترقى القوى الروحانية[1] .

وعلى هذا اشتهرت الهند بكثرة الأديان والمعتقدات التى تضارع فى كثرتها لغات الهند أو تقرب منها، وكانت الهندوسية أشهر هذه الأديان وأوسعها انتشارا، بل أنها الدين العام الذى حوى غالبية الهنود أو كلهم، وإذا تمردوا عليه أحيانا أو تمرد بعضهم عاد المتمردون بعد وقت قصير أو طويل إلى رحابه، وقد وضح كتاب Hinduism السبب فى ذلك بقوله: أنه لمن الصعب أن يطلق على الهندوسية دينا بالمعنى الشائع، فالهندوسية أشمل وأعمق من الدين، أنها صفة لملامح المجتمع الهندى، بنظامه الطبقى ومكان كل طبقة فيه، إنها الحياة الهندية بأسلوبها الخاص الذى يعتبر فى ذاته شعيرة من الشعائر، أنها خليط يشمل الأمور المقدسة والأمور الدنيوية جميعا، إذ لايوجد فى الفكر الهندى حد فاصل بين الاثنين، إنها الاتجاهات الروحية والخلقية والقانونية. وهى إلى جانب ذلك مبادئ وقيود وعادات توجه الحياة الهندية وتسيطر عليها[2] .

والويدا - كتاب الهندوس المقدس - يشمل مبادئ الفكر الهندى فى أكثر مراحله.

ويمكن أن نقسم تاريخ الفكر الهندى إلى العصور التالية :

---

(١) فلسفة الهند القديمة ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) Hiuduism Ed. by Lewis Renou p. 4.

أولا : العصر الويدى[1] الأول ويشمل ثلاث مراحل فرعية :

(أ) مرحلة انتشار الأفكار البدائية، وعبادة قوى الطبيعة، سواء فى ذلك ماجلبه الآريون، أو ماكان نابعا من البيئة الهندية، ويبدأ ذلك من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفى الويدا معلومات مفيدة عن هذه المرحلة.

(ب) مرحلة تدوين الويدا وتأويلها على أيدى البراهمة، ويُسَمَّى هذا التأويل «البراهمانات» وتبدأ هذه المرحلة من حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، فقد ظهر فى هذا العصر جماعة من أهل العلم والنظر، اهتموا بالشئون الدينية، وفكروا فى عقائدهم، فأدى التفكير بهم أو ببعضهم إلى آراء مغايرة للعقائد الموروثة، تكوّن مذهبا هو البرهمة[1] ويرى René Sédillôt[2] أن البراهمة قاموا بهذا التأويل لمصلحتهم، وليجعلوا امتيازاتهم مقدسة، ثم إنهم لاحظوا أن الاتصال بدأ يتم ويتعمق بين جنسهم وبين السكان الأصليين فأرادوا أن يضعوا نظام الطبقات ليحول بين تمام الامتزاج، وسنزيد ذلك شرحا عند الكلام عن نظام الطبقات، وبهذه المرحلة تبدأ الهندوسية التى لاتزال موجودة.

(جـ) مرحلة تلخيص الويدا فى أسفار مقدسة تسمى الأوبانيشادات وهى مرحلة تبدأ من القرن السادس قبل الميلاد» وتستمر إلى مابعد الميلاد بعدة قرون.

---

(١) كلمة ويدا أو فيدا كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة، ولذلك يطلق على واضعيها كلمة «الريشيون» أو الحكماء أو العارفون.

(٢) الدكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم: تاريخ الفلسفة ص ١٢

See Religions of The World by Berry p. 40

و Hinduism p. 5.

ثانيا : عصر الإلحاد (فى رأى أتباع الويدا) وفيه ظهرت الديانة الجينية والديانة البوذية، وضعفت الديانة الويدية ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد.

ثالثا : العصر الويدى الثانى، وهو عصر عودة النصر للويدا وانتصارها على دينَىْ الإلحاد، ولكن مع التوسع فى شروح الويدات وبيان الخصائص الدينية والاجتماعية التى وردت بها، ومن أهم هذه الشروح قوانين «منو» التى وُضعَتْ حوالى القرن الثالث قبل الميلاد، وبقوانين منو هذه تتضح الهندوَسية وتستقر معالمها، وسنعود لشرائع منو بمزيد من الشرح فيما بعد.

وستشمل دراستنا فى هذا الكتاب المعالم الكبرى للفكر الهندى ممثلة فى الديانات الثلاث : الهندوسية - الجينية - البوذية. مع دراسات عن الكتب المقدسة لدى الهنود.

الهندوسية

مقدمة :

الهندوسية ديانة الجمهرة العظمى فى الهند الآن، قامت على أنقاض الويدية، وتشربت أفكارها، وتسلمت عن طريقها الملامح الهندية القديمة والأساطير الروحانية المختلفة التى نمت فى شبه الجزيرة قبل دخول الآريين. ومن أجل هذا عدها الباحثون امتدادا للويدية وتطورا لها[1] .

وتسمى الهندوسية أو الهندوكية، إذ تمثلت فيها - كما سنرى - تقاليد الهند وعاداتهم وأخلاقهم وصور حياتهم. وأطلق عليها البَرْهميَّة ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما Brahma وهو القوة العظيمة السحرية الكامنة التى تطلب كثيرا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين[2] ، ومن براهما اشتقت الكلمة «البراهمة» لتكون علما على رجال الدين الذين كان يُعْتَقَد أنهم يتصلون فى طبائعهم بالعنصر الإلهى، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة، لاتجوز الذبائح إلا فى حضرتهم وعلى أيديهم[3] .

مؤسس الهندوسية :

من الذى وضع الهندوسية؟ ومن الذى وضع كتابها المقدس الويدا؟

فى الإجابة عن هذين السؤالين نقرر أنه ليس هناك مؤسس للهندوسية يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها، فالهندوسية دين متطور ومجموعة من التقاليد والأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم جيلا بعد جيل بعدما وفدوا على الهند، وتغلبوا على سكانها الأصليين واستأثروا دونهم بتنظيم المجتمع. وقد تولد من استعلاء الآريين الفاتحين على سكان

---

(١) Hindnism p. 6.

(٢) محمد عبد السلام : فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند : مارس ١٩٥٣، ص ١٩).

(٣) حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى، ص ٢٧.

الهند الأصليين، ومن احتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسية التى اعتبرت على مر التاريخ دينا يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه[١] .

ويمكن القول أن أساس الهندوسية هو عقائد الآريين بعد أن تطورت بسبب اختلاط الآريين - وهم فى طريقهم البطئ إلى الهند - بشعوب كثيرة وبخاصة بالإيرانيين، ثم تأثرت هذه العقائد بعد احتلال الآريين للهند بسبب الاتصال بأفكار السكان الأصليين، وبفلسفات وأفكار نشأت فى الهند فى مراحل متباعدة من التاريخ، حتى أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصيلة[٢] .

«والهندوسية أسلوب فى الحياة أكثر مما هى مجموعة من العقائد والمعتقدات، تاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن، وليست لها صيغ محدودة المعالم، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، ومايرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة»[٣] .

وإذا كانت الهندوسية ليس لها مؤسس معين فإن الويدا كذلك، وهى الكتاب المقدس الذى جمع العقائد والعادات والقوانين بين دفتيه ليس له كذلك واضع معين، ويعتقد الهندوس أنه أزلى لا بداية له، ومُلهَم به قديم قدَم الملهم، ويرى الباحثون من الغربيين والمحققون من الهندوس أنه قد نشأ فَى قرونَ عديدة متوالية لاتقل عن عشرين قرنا، بدأت قبل الميلاد بزمن طويل، وقد أنشأته أجيال من الشعراء، والزعماء الدينيين، والحكماء الصوفيين عقبا بعد عقب، وفق تطورات الظروف وتقلبات الشئون[٤]، وينسب Berry[٥] كتابة الويدا إلى الآريين، وسنعطى فيما بعد معلومات كافية عن هذا الكتاب المقدس.

---

(١) Berry: Religions of The World p. 42.
(٢) Hinduism, Ed. by Lewis Renou pp. 2 - 3.
(٣) الهند والغرب ص ١٨ . وانظر تاريخ الإسلام للأستاذ عبد المنعم النمر، ص ١٨ .
(٤) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند: مارس ١٩٥٣، ص٣).
(٥) Religions of The World p. 40

والموضوعات الجديرة بالدراسة حول الهندوسية هى :

١ - الويدا .
٢ - الله فى التفكير الهندوسى .
٣ - نظام الطبقات .
٤ - أهم عقائد الهندوسية : الكارما - تناسخ الأرواح - وحدة الوجود - الانطلاق .
٥ - من صور الأخلاق عند الهندوسيين : مراحل الحياة - التسول - محاربة الملاذ - تعذيب الجسم .
٦ - نماذج من الفقه الهندوسى .
٧ - تعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس (بعد الويدا) .
٨ - لمحة تاريخية عن الديانة الهندوسية .

وسنتكلم عن كل هذه الموضوعات فيما يلى :

١ - الويـــــدا

قلنا فيما سبق أن الويدا - كتاب الهندوس المقدس - لايعرف له واضع معين . . . ولإعطاء صورة أقرب إلى الدقة عن الويدا الذى يُعد بحق دائرة معارف عن الهندوس، نلجأ إلى كاتب هندى قدير هو الأستاذ محمد عبد السلام لنلخص بحثه عن الويدا ضمن أبحاثه القيمة عن «فلسفة الهند القديمة»[١] .

للويدا قيمة تاريخية كبرى، إذ تنعكس فى هذا الأدب الدينى حياة الآريين فى الهند فى عهدهم القديم ومقرهم الجديد، ففيه أخبار حلهم وترحالهم، دينهم وسياستهم، حضارتهم وثقافتهم، معيشتهم

(١) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٣، ص ٢ إلى ٣٣).

ومعاشرتهم، مساكنهم وملابسهم، مطاعمهم ومشاربهم، مهنهم وحرَفهم، وترى فيه مدارج الارتقاء للحياة العقلية من سذاجة البدو إلى شعَور الفلاسفة، فتوجد فيه أدعية ابتدائية تنتهى بالارتياب، وألوهية تترقى إلى وحدة الوجود.

والويدات عبارة عن أربع كتب دينية هى:

١ - الريج ويدا (Rig Veda) وهو أشهر الأربعة وأهمها وأشملها كما سيظهر من مقارنة موضوعاته بموضوعات الويدات الثلاث الأخرى، ويقال أن تأليف الريج ويدا يرجع إلى ٣٠٠٠ ق.م، وتشمل ١٠١٧ أنشودة دينية وُضعَتْ ليتضرع بها أتباعها أمام الآلهة أو يتغنون بها عن الآلهة، وأشهر الآلهة الذين ورد ذكرهم فيها هو الإله اندرا إله الآلهة، ثم يجيء بعده الإله أغنى إله النار وراعى الأسرة، فالإله فارونا، فالإله سوريَهَ (الشمس) وغيرَهم[١].

ولايزال الهنود يتغنون بأناشيد من الريج ويدا، يرتلونها فى صلواتهم صباحا ومساء، ويتيمَّنون بتلاوتها فى حفلات زواجهم كما كانوا يفعلون منذ ثلاثة آلاف عام[٢].

٢ - ياجورويدا (Yajur Veda) وتشمل العبادات النثرية التى يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

٣ - ساما ويدا (Sama Veda) وتشمل الأغانى التى ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

٤ - آثار ويدا (Athar Veda) وتشمل مقالات فى السحر والرُّقَى التوَهُّمات الخرافية مصبوغة بالصبغة الهندية القديمة، فالحياة الهندية

(١) See also Hinduism p. 7.

(٢) Edward Thomas: The History of Buddhist Thought pp. 82. ff.

كما يصورها آثار فيدا مملوءة بالآثام، والكون حافل بالشياطين والأغوال، يخوِّفون الناس، والآلهة كفت أيديها عن الخير، لم تعد تدفع الشر، ويروى آثار فيدا لجوء الناس للخرافات والرُّقَى والسحر ليحموا أنفسهم.

وكل من هذه الويدات الأربعة يشتمل على أربعة أجزاء هي سَمْهتا وبرَهْمَن وأرَنْيك وأبانيشاد، وهى بهذا الترتيب من حيث قدمها التاريخى وستحدث عن كل منها فيما يلى:

١ - سَمْهتا (Samhita) أو مجموعة المنظومات لكثرة المنظوم فيها، ومنظومات الريج ويدا أهمها، وقد تكرر أكثرها فى ساما ويدا، وهذه المنظومات يُتَغَنَّى بها عند تقديم القرابين، ويشمل سمهتا من ياجور ويدا بعض الأدعية التى تقرأ عند تقديم القرابين كذلك، أما منظومات آثار فيدا فأدعية كان يقدمها سكان الهند الأقدمون لآلهتهم قبل زحف الآريين، وإذاً فلها قيمة تاريخية ودينية عظيمة، وتمثل السمهتا مذهب الفطرة فى التفكير الهندوسى.

٢ - البَراهمن (Brahman) أو الهدايات التى يقدمها البراهمة للمقيمين فى بلادهم وبين أهليهم[1]، وتشمل بيان أنواع القرابين وتفاصيلها ومواسمها، وتبيان أن إرضاء البراهمة ضرورى لقبول القرابين، ويمثل البراهمن مرحلة أقرب إلى التحضر فى التفكير الهندوسى[2].

٣ - أرَنْيك (Aranyaka) أو الغابيَّات أو الهدايات والإرشادات التى تقدَّم للشيوخ المعمرين الذين يتركون أهليهم فى الربع الرابع من

(١) سنرى - فيما بعد - فترات الحياة التى ينبغى أن يمضيها الإنسان مع أهله أو فى الغابات.
(٢) Weech and Rylands: The Peoples and Religions of India p. 307.

أعمارهم - كما سيأتي - ليقيموا فى الكهوف والغابات، والأرنيك تهدى أمثال هؤلاء إلى أعمال سهلة يقومون بها بدل القرابين التى أصبحوا يعجزون عن تقديمها.

٤ - أبانيشَادات (Upanishad) وهى الأسرار والمشاهدات النفسية للعرفاء من الصوفية، وتدون هذه إرشادا للرهبان والمتنسكين الذين مالوا إلى باطن الحياة وتركوا ظاهرها، وتمثل الأبانيشادات مذهب الروح الذى هو المرتبة العليا فى سلسلة الارتقاء الدينى.

وتعتبر الأبانيشادات خطوة جريئة فى سبيل الحرية الدينية وتخليص الدين من الرسوم البرهمية، وبها أبعدت الآلهة أو قلَّ الاهتمام بها، وهدأت الأدعية وندرت القرابين، وانحطت المراقبات اللاهوتية، وحلَّ العلم والعرفان محل ذلك، ولولا بقايا من الشعور الدينى لكانت الأبانيشادات فلسفة محضة.

والناظر إلى هذه الأقسام الأربعة يلاحظ أن السمهتا تمثل دين الفطرة أو الفكر البدائى، أما البراهمن فيمثل مذهب القانون ودين الأمة التى تركت البداوة ولم تتعمق بعد فى الحضارة، أما الأرنيك فينقل الفكر من القانون إلى الروح فهم مَعْبَرُ تاريخى، وتجىء بعده الأبانيشادات حيث مذهب الروح الذى هو المرتبة العليا فى سلسلة الارتقاء الدينى، وقد وضعت الأبانيشادات فى المدة من ٨٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م[١].

نماذج من الويدا:

فيما يلى نماذج من الريج ويدا مترجمة عن السنسكريتية:

---

(١) المرجع السابق ص ٦ - ٧ وانظر كذلك:
Religions of The World of Berry p. 40.

أغنية لإندرا إله الآلهة (١)

هـو الأعـلى مـن كـل شـىء وهـو الأسـنى
إلـه الآلهـــة ذو القـــوة العـليــا
الـذى أمــام قــدرته الغــالبــة
ترتعـد الأرض والسـمـاوات العــاليـة
أيهــا النـاس اسـتـمـعـوا لشـعـرى
إنمــا هــو إنــدرا إلــه الــكــون

****

هو الذى قـهـر الشـيـاطين فى الحـسـاب
وأجرى الأقمار السبعة الصافيـة الكبار
واقـتـحـم كـهـوف الكآبة والأكـدار
وأخـرج البـقـرات الجـمـيلة من الأرحـام
وأضـاء النار القـديمة من البـرق فى الغـمـام
ذلـك هـو إنـدرا البـطـل الجـســـور

****

الجـيـش المتـقـدم للهـيـجـاء
ينـاديـه للـنـصـرة يـوم الحـرب
الأعـزاء بصـيـتـه الذائع يهـتـفـون
والأذلاء يذكرون اسمه بشفاههم ويهمسون
وقـائد الجـيش على العـجلة الحـربيـة
يدعـو ويسـتـنصـر إندرا إله الحـرب

****

(١) من ترجمة الأستاذ محمود على خان.

الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله
والجبال المرتعدة تخر له وتسجد لجلاله
هو الذى يرسل صواعق السماء على أعدائه
فلتُهْدَ إليه السكائب المقدسة
فإنه يقبل هذه الخمر ويمنحنا رضاه
ويستمع للشعر وأغانى الولاء

****

له البقرات وأفراس الوغى
له القُرَى والمساكن وعجلات الحرب
هو يرفع الشمس بيده اليمنى
ويفتح الأبواب الحمر من شفق الفجر
فيمزق السحاب الأحمر تمزيقا
ويرسل شآبيب المطر لنصدق به تصديقا

أغنية للشمس

يجىء بالشمس جيادها الحمر، فيصل الفجر العظيم الجميل الذى ينعش الجميع بضيائه، وتأتى الإله على مركبة فخمة وتوقظ الإنسان ليقوم بعمل نافع.

أغنية لأغنى إله النار

حينما أرى هذا الكائن المنير فى قلبى تدوِّى أذناى وتختلج عيناى، وتتيه نفسى فى ارتياب، فماذا أقول وماذا أفكر؟

فيا أغنى مجَّدتك جميع الآلهة واجفة ماتواريت فى الظلام.

وسيأتى مزيد من الاقتباسات من الويدا عند الكلام عن النقاط الأخرى المتصلة بالهندوسية.



٢ - الله فى التفكير الهندوسى

التعدد والوحدانية فى الفكر الهندى :

يوجد فى التفكير الهندوسى فيما يختص بالإله نزعتان مختلفتان تمام الاختلاف ، وهما نزعة الوحدانية ونزعة التعدد وإن كانت نزعة التعدد أقوى وأكثر انتشاراً .

وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغاً كبيرا ، فقد كان عندهم كما سبق القول لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعدونه ، ويستنصرون به فى الشدائد ، كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها ، وكانوا يدعون تلك الآلهة لتبارك لهم فى ذريتهم وأموالهم من المواشى والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم(١) .

ولم يصل الهندوس إلى عبادة هذه الظواهر دفعة واحدة ، وإنما مرُّوا بمراحل انتهت بهم إلى عبادتها . ويصور الأستاذ محمد عبد السلام مراحل هذا الانتقال بقوله : وكانت المظاهر الكونية الجميلة والمناظر العظيمة باعثة لإيقاظ الشعور الدينى فيهم ، فأعجبوا بهذه المظاهر واستمتعوا بها ، وشكروا لها وامتنوا ، وأثنوا عليها ، ثم ظنوا أن لهذه المظاهر أرواحاً ونفوساً كما أن لهم هم أرواحاً ونفوساً ، واعتبروا هذه الأرواح قوى كامنة وراء المظاهر وبيدها أن تمنحهم هذه المظاهر التى أعجبتهم أو تحجبها عنهم ، فتقربوا إليها بالعبادة والقرابين واعتبروها آلهة . ودعوها عند الحاجات(٢) .

وعلى هذا كثرت الآلهة عندهم كثرة زائدة ، ولكنهم فى وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحيانا للتوحيد أو إلى اتجاه قريب منه ، فقد كانوا إذا دعوا إلها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان ، أقبلوا عليه بكل عواطفهم

---

(١) محمود على خان : فى التقديم لأناشيد الريج ويدا ص ٧٧ .
(٢) فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند مارس ١٩٥٣ ص ١٠)

وجلِّ ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والأرباب[1] ، ويصير إلههم هو ذلك الإله لا غير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية ، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الآلهة تعظيما وإجلالا ، لاتحقيقا وإيقانا ، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموه مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة ، فهذا التعبير «رب الأرباب أو إله الآلهة» كان أولاً على العظمة والجلال ، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلا أن فى صف الآلهة رئيسا ومرءوسين وآمراً ومأمورين ، وأن الرئيس والآمر هو وحده رب الأرباب وإله الآلهة ، وهذا وصف ثابت له لاينتقل إلى سواه ، والكائنات كلها تحت يده ، وسائر الآلهة تحت أمره[2] .

التثليث فى الفكر الهندى :

وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود إلى إبراز هذه النتيجة التى تقرب من التوحيد أو تصل إليه ، فقد جمعوا الآلهة فى إله واحد ، وقالوا إنه هو الذى أخرج العالم من ذاته ، وهو الذى يحفظه ، ثم ..لكه ويرده إليه ، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو براهما من حيث هو ..وجد ، وهو فشنو من حيث هو حافظ ، وهو سيفا من حيث هو مهلك[3] .

وهكذا فتح الكهنة الهنود الباب للمسيحيين فيما يسمى : تثليثٌ فى وحدة ووحدةٌ فى تثليث[4] .

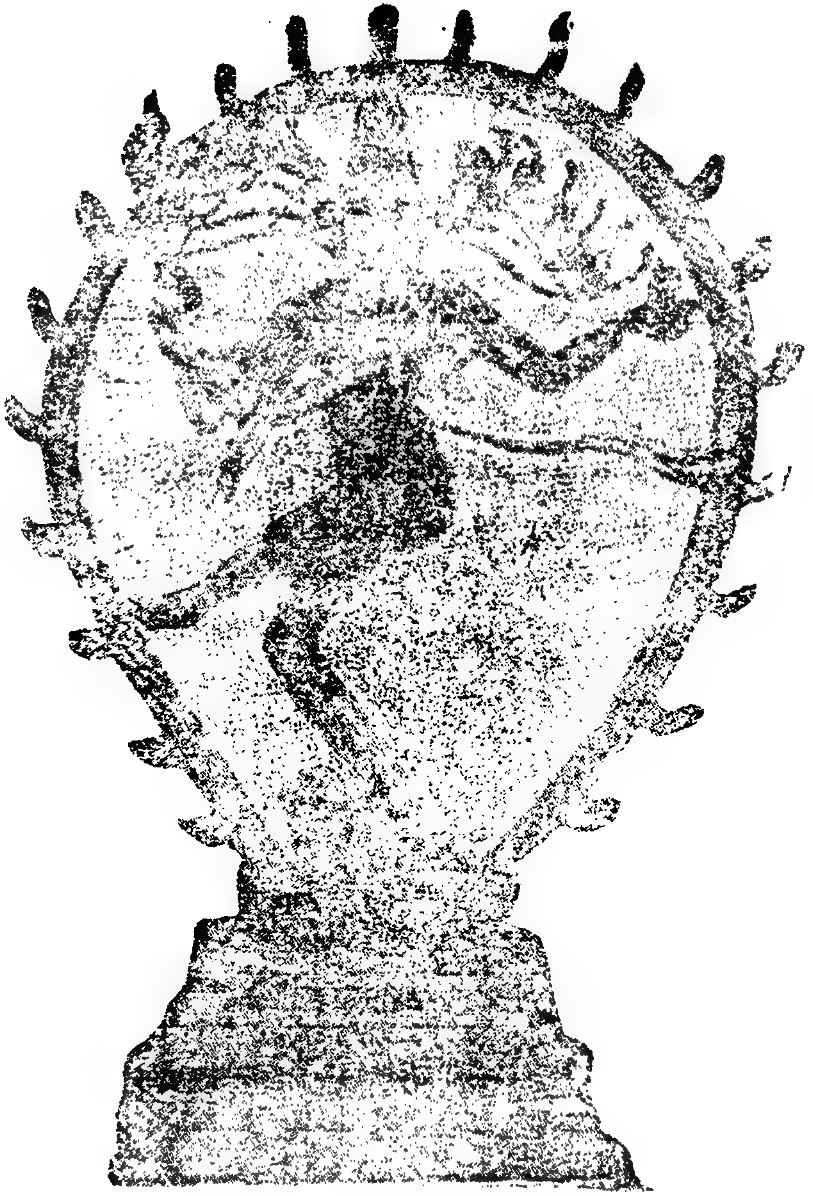
---

(1) Hinduism, Ed. by Lewis Renou p. 6.

(2) محمد عبد السلام : المرجع السابق بتصرف .

(3) دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ، ص١٢ .
Berry: Religions of The World p. 40. See also Hinduism, Ed. by Lewis Renou p. 6.

(4) انظر كتاب «المسيحية» للمؤلف ص ٧٨ ومابعدها .



تمثال الإله « سيفا » رب الدمار

فبرهما اسم الله فى اللغة السنسكريتية، وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاته، لاتدركه الحواس. ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها، لاحدَّ له، وهو الأصل الأزلى المستقل الذى منه يَسْتَمِدُّ العالم وجوده، وجاء فى كتاب (الباجافاتا بورانا) وهو من الكتب الهندَية المقدمة أن كاهناً توجه إلى الآلهة برهما وفشنو وسيفا وسألهم: أيكم الإله بحق؟ فأجابوا جميعا: أعلم أيها الكاهن أنه لايوجد أدنى فارق بيننا نحن الثلاثة، فإن الإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال بأعماله من خَلْق وحفظ وإعدام، ولكنه فى الحقيقة واحد، فمن يعبد أحد الثلاثة فكأنه عبدها جميعا، أو عبد الواحد الأعلى[1].

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الثالوث الجديد ظهر متأخراً نتيجة للتطور الذى سقناه، ومن أجل هذا ليس له ذكر فى الويدا، أما الآلهة الواردة بالويدات فعديدة، ولكنها اجتمعت فى ثلاثة آلهة رئيسية هم: فارونا فى السماء، وإندرا فى الهواء، وأغنى على الأرض[2].

الاحتفال بالمعبودات الهندية:

وقبل أن نطوى صفحة الكلام عن آلهة الهنود يجدر بنا أن نقتبس من كتاب Hinduism وصفه الرائع للاحتفال بالمعبودات الهندية، ومن هذا الكتاب يتضح أن من أهم الشعائر الدينية أن يُعَدَّ التمثال أحسن إعداد. وأن يقام فى المعبد، ويعامله عُبَّاده كأنه حى يسمع ويعى: يدهنونه بالزيوت ويضمخونه بالطيب، ويُحْتَفى بالإله الجديد الذى يدخل المعبد لأول مرة احتفاء واسعاً، يتجه الكل للترحيب به، وحسن استقباله، كأنه ضيف عظيم، يُغْسَل بالعطور، ويكسى بأحسن اللباس، ويزين بالجوهر واللؤلؤ، ويوضع أمامه أحسن طعام وأشهى شراب، ويحاط بالزهر والريحان،

(١) محمد فريد وجدى: دائرة المعارف جـ ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٥ و ١٥٦.

وتطوف به الجماعة منحنية ضارعة، على أنغام الموسيقى، ودخان البخور، وأصوات الغناء.

ويستمر هذا الكتاب ليقرر أن بعض الهنود يرون فى التمثال إلههم، ويراه آخرون رمزاً للإله. ويخضع العابد إلى شعائر دقيقة لتُقبَل توسلاته وعبادته؛ فهو يبدأ بأن ينظف نفسه، ويقلل من الطعام أو يصوم. ويتخذ أمام إلهه جلسة خاصة، ويشير إليه بإصبعه فى خضوع، ويحبس أنفاسه ما أمكن، وهذه الصلاة تتكرر ثلاث مرات فى اليوم ويصحبها قربان من أى نوع، ولا يطول وقتها فى العادة إلا بالنسبة لهؤلاء الذين لهم مطلب يرجون عون الآلهة لتحقيقه.. أو أولئك الذين يميلون للنسك ويريدون مزيدا من التقرب للآلهة، فأمثال هؤلاء يقدمون قرابين أكثر وتطول صلاتهم أمام الآلهة(١).

والاحتفالات أو الصلوات اليومية يمكن أن تجرى فى البيت، إذ لا يكاد يخلو بيت من معبود، أما الاحتفالات العامة فتجرى فى المعبد أو فى الخلاء، ويستغرق بعضها ساعة أو ساعات، ويمتد بعضها إلى عدة أيام، وبعضها يتصل بمواسم زراعية أو فيضان أنهار أو هطول أمطار، وبعضها يتصل بالمعبود نفسه، بما يشبه ما نسميه فى البلاد العربية «المولد» وبعض المعبودات له شهرة واسعة تَجلبُ له الحجاج فى أثناء الاحتفال به من أقاصى شبه الجزيرة، وبعضها يُحتَفَل به احتفالا محلياً أى فى القرية أو فى مجموعة القرى المتجاورة فقط، وهكذا.

وقد ورد الحديث عن برهما وعن خلق الكون فى كتاب «قوانين منو» ومنه ننقل الفقرة التالية التى تشرح هذا الموضوع:

فى المبدأ كان الكون مغموراً فى غيابة الظلام، ولا يمكن إدراكه، وخاليا

---

(١) Hinduism pp. 15 - 16.

من كل وصف مميز، لايستطاع تصوره بالعقل، ولا بالوحى، كأنه فى سبات عميق، وانقضى على هذا أمد طويل، ثم تعلقت إرادة المولى الموجود بذاته التى لاتدركها الأبصار، فجعل هذا العالم مرئيا هو وعناصره الخمسة وأصوله الأخرى، متلألئا بالنور الأقدس، قاشعا الظلام الحالك، فاقتضت حكمة برهما الذى لايدركه إلا العقل أن يُبرز من مادته المخلوقات المختلفة، فأوجد الماء أولا، ووضع فيه جرثومة، فصارت الجرثومة بيضة لامعة لمعان الذهب، وعاشت داخلها الذات الصلبة على صورة برهما وهو جَدّ جميع الكائنات، فبعد أن لبث برهما فى البيضة سنة برهمية وهى تعادل ملايين السنين البشرية قسم المولى بمحض إرادته هذه البيضة قسمين وصنع منهما السماء والأرض والكائنات . . وعين لكل كائن اسمه، وخلق عددا عديدا من الآلهة وخلق طائفة غير مرئية من الجن، وخلق الزمان وأقسامه، والكواكب والأنهار والبحار والجبال . . [1] .

وهناك رواية أخرى عن خلق الكون ترويها الأساطير الهندية، وفحوى هذه الرواية أن الروح الكونى تشكل بالشكل الإنسانى، ثم نظر حوله فلم يجد هناك شيئا غير نفسه، فصرخ بملء فيه «هأنذا» فوجدت من هذه الساعة كلمة «أنا» وشعر هذا الروح الكونى، أو الإنسان الأول بالخوف من وحدته، ولذلك يخاف الإنسان إلى الآن إذا كان وحيدا، ولكنه سأل نفسه : لماذا أخاف مادام ليس هناك أحد غيرى، وإنما يخاف الإنسان من غيره؟ ووجد نفسه لايشعر بالسعادة ولذلك لايشعر الإنسان بالسعادة إذا كان وحيدا، فرغب فى إيجاد قرين له، فقسم نفسه قسمين، قسم بقى على حاله، وتحوّل القسم

---

(١) انظر أيضا دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢، ص ١٥٧ - ١٥٨، وانظر الأساطير الهندية عن الكون وخلقه ص ٣٧ .



الآخر إلى امـرأة فكانت هذه المرأة زوجتـه، ومن تلك السـاعـة تسلسل خَلْقُ الإنسان[1] .

ونختم كلامنا عن الآلهة بإبراز أن هذه هى الآلهة عند طبقات الهندوس الأربعة التى يتكون منها المجتمع الهندوسى، أما المنبوذون فلهم تفكيرهم الدينى الخاص، إذ لم يكونوا محسوبين أعضاء بذلك المجتمع، ولم يكونوا تابعين للمجتمع الهندوسى، ولعل من الأفضل أن نتكلم هنا كلمة موجزة عن عقائدهم ووضعهم السياسى والاجتماعى فى عهد سيطرة الهندوسية .

دين المنبوذين :

المنبوذون - كما سبق القول - سكان الهند الأصليون الذين لايجرى فى عروقهم الدم التورانى أو الدم الآرى، ويسمون «زنوج الهند» وقد حرمهم المجتمع الهندوسى حقوق الإنسان، ونزل بهم إلى مستوى أقل أحيانا من مستوى الحيوان. ولم يسمح لهم بأن يعتنقوا الدين الهندوسى، أو يتخلقوا بآدابه، وتُركوا هكذا فى حياة بدائية مريرة، ومن ثمَّ اتجهوا فى تدينهم إلى الأمور البدائية، فأصبح دينهم أشبه بعبادة الأرواح التى اعتصمت بها الأقوام الفطرية الساذجة، وأعظم الآلهة فى مجتمع المنبوذين ربما كان كومة من الآجُرِّ تمثل أم القرية أو شيطانها الذى يمنح الخصب للعواقر، ويحمى المحصول من الآفات، ويرعى القرية بعنايته ورعايته، وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم، ولكنه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة[2] .

ولايزال المنبوذون يعانون هذا أو أكثره حتى اليوم، فالحرف الحقيرة وقْفٌ أو ضريبة عليهم، ودور العلم لاتفتح لهم إلا قليلا، وقد دفع هذا الوضع برؤسائهم أن يهددوا باعتزال الهندوس والدخول فى مجتمعات

---

(١) الأساطير الهندية عن الكون وخلقه، ص ٣٤.

(٢) حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى، ص ٢٨ - ٣٩.

الأديان الأخرى ، ومن أجل هذا فقط خفَّت حدة المعاملة التى كان يعاملهم بها الهندوس ؛ خوفا من أن ينضموا إلى الأديان الأخرى التى تحارب الهندوسية ، وساعد على ذلك ما أصدرته الحكومة الهندية من قوانين المساواة التى إن لم تحقِّق المساواة الكاملة ، فقد حسَّنت حال هؤلاء المساكين بعض الشىء .

وقد انتهزت فرق التبشير المسيحى هذا الوضع فتوغلت بين جماعات المنبوذين تدعوهم للدخول فى المسيحية ، وللمسلمين - للأسف - جهود محدودة نحو تقديم الإسلام لهؤلاء المنبوذين ، ولاتزال المعركة تدور .

٣ - الطبقات فى الفكر الهندوسى

سبق أن أشرنا إلى نظام الطبقات فى الهند ، وذكرنا أن المجتمع الهندى يتكون من أربع طبقات هى : ١ - البراهمة ٢ - الجند ٣ - التجار والصناع ٤ - الخدم والعبيد ، ولايدخل المنبوذون فى هذا التقسيم ، وقلنا أن هذا التقسيم نشأ عن التقاء الآريين بالتورانيين والسكان الأصليين ، ومعنى هذا أنه نشأ أول مانشأ على أساس الجنس ، ويؤيد Weech هذا الرأى ، فهو يقول : وكان الآريون شعبا يفوق فى نشاطه وحيويته السكان الأصليين ، وكانوا يعتقدون اعتقادا جازما بسُمُوِّ جنسهم على سواهم من الأجناس ، وكلمة «آرى» التى عُرِفوا بها معناها «النبلاء»(١) .

ونحن فى مصدر هذا التقسيم نختلف مع مؤلف «تاريخ الإسلام فى الهند» فهو يرى أن الحياة بالهند «اقتضت أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية ، ويقوم آخرون بالحروب ، وكان من الطبيعى أن توجد جماعة تقوم بالعمل فى الحقول . .»(٢) ونسأل : إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يكن

---

(١) Weech: The Peoples and Religions of India pp. 311 - 312.

(٢) تاريخ الإسلام فى الهند ، ص ٢٧ - ٢٨ .

الآريون أو بعضهم مثلا هم الذين يقومون بالزراعة أو الخدمة، إن المسألة - فيما نرى - ليست مقتضيات الحياة، ولكنها مقتضيات السيادة والقوة التى لاحظها الآريون فى أنفسهم.

ونختلف كذلك مع بروفسور أتريا الأستاذ بجامعة بنارس فى الهند الذى يرى أن الهنود القدماء نظموا حياتهم الاجتماعية على طبقات أسموها شاتر فارنا "Chatur Varna" وهذا التنظيم قائم على أساس اختيار المهن، ولايمت بصلة إلى هذه الطائفية الممقوتة الحاضرة التى ابْتُلِيَتْ بها الهند، لأنها ابتليت بالحكم الأجنبى الذى دام عدة قرون، وأن نظامَ الطبقات ما أريد به قط تمزيق المجتمع بل توحيده على أساس تقسيم العمل.. فمن الناس قسم يولع بالعلم فَيُتْرَكُ له العلم ويكوِّن طبقة البراهمة، والقسم الثانى هواه فى الحكم والسلطان وأعمال الجراءة والحرب ومنهم تتكوَّن الكشتريا، والقسم الثالث أولئك الذين جبلوا على حب المال فليكونوا تجارا وزراعا (ويشيا)، والقسم الرابع الذين خلقوا أغبياء بلداء فلا يصلحون لغير المهن السافلة والقيام بالخدمة وتتكون منهم طبقة الشودرا»[١].

ونسأل بروفسور أتريا: هل لو مال أحد من الشودرا للعلم وعَشقَه كان يباح له أن يصبح برهمياً؟ وألا يوجد فى طبقة الكشتريا خامل أو بليدَ؟ وإذا وُجد بها خامل أو بليد هل يمكن أن ننحدر به إلى طبقة الشودرا؟

الإجابة دائما بالنفى، فالطبقية مصدرها العِرق وسيادة الجنس أكثر من أى شىء آخر.

ويقول Wells[٢] عن هذه الطبقات: كان المجتمع الهندى بعد الغزو الآرى مقسما إلى طبقات لايؤاكل بعضها بعضاً، ولاتتزاوج، ولاتختلط

---

(١) ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية ص ٥٢ - ٥٣.
(٢) A short History of The World pp. 121, 122.

اختلاطا حرا، ثم استمر هذا التقسيم الطبقى أمد التاريخ كله، وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعات الأوربية والمغولية؛ البسيطة السهلة التزاوج، فهو فى الحقيقة مجتمع مجتمعات.

ويشير Weech إلى نقطة مهمة هى أن نظام الطبقات بدأ يظهر عندما بدا اختلاط سَمَحَ بتكوّن مجتمع موحًّد من هذه العناصر المتّباينة، أما قبل هذا الاختلاط فلم تكن هناك ضرورة لتكوين هذا النظام، فنظام الطبقات كان وسيلة للمحافظة على سلامة العرق السامى بعد أن خيف عليه من الاندماج فى الأجناس الأخرى التى بدأ يتصل بها. ويؤكد Berry ذلك إذ يقرر أن نظام الطبقات لم يظهر إلا فى قوانين منو حوالى القرن الثالث قبل الميلاد(١).

ويذكر Weech كذلك أن هذه الطبقات الأربعة ليست فى الحقيقة إلا تبسيطا للحديث عن نظام الطبقات فى الهند، إذ أن الهنود مجتمع تنتشر فيه الطبقات حتى أن عدد طبقاته الآن يبلغ حوالى ثلاثة آلاف طبقة(٢).

ويذكر Berry أن طبقة الكهنة حافظت طويلا على نقائها، أما الطبقات الثلاثة الأخرى قد تفتتت ونشأ عنها طبقات كثيرة(٣).

بقى أن نقول عن المنبوذين أنهم لم يدخلوا التقسيم، ولم يكونوا إحدى طبقات المجتمع الهندوسى، إذ لم يعَدّوا منه، وقد سبقت الإشارة إلى هذا.

على أن الفلسفة الهندية لم تقنع بالجنس والعنصر سبباً لنشأة نظام الطبقات، بل رأت أن تربطه بنص مقدس، فورد فى قوانين «منو» التى اقتبسنا منها بعض فقراتها آنفا سبب هذه الطبقات، يقول «منو» وهو يعدّد

---

(١) Religion of the World p. 40.
(٢) The Peoples and Religions of India p. 31.
(٣) Religions of the World p. 42.

خلق برهما للكائنات: «. . ثم خلق البرهميَّ من فمه، والكاشتريا من ذراعه، والويشا من فخذه، والشودرا من رجله، فكان لكل من هذه الطبقات منزلته على هذا النحو».

وبناء على هذا التفكير الذى يرى أن الطبقات خلقها الله على هذا الوضع يصبح هذا التقسيم أبدياً، فهو من صنع الله ولا طريق لإزالته، وعلى هذا لايرتفع أى شخص من أى قسم إلى قسم أعلى.

وبناء عليه كذلك، وعلى الاعتقاد بأن الابن يأتى على نمط أبيه، لايجوز لرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى من طبقته، لعدم الكفاءة. ولأن أولاده منها سيهبطون إلى مستواه، وهذه خسارة على التكوين الاجتماعى، ولكن يجوز للرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أقل من طبقته على ألا تكون من الطبقة الرابعة (الشودرا) التى ليست إلا للخدمة، ولاتسمو لأن يتزوج منها أحد أفراد الطبقات العليا الثلاثة، وجاء فى قوانين «منو» أن الرجل من الطوائف الثلاثة الشريفة إن غلبه الحب فتزوج بامرأة من غير هذه الطوائف فإنه سوف يرى هلاك أسرته[1].

ويتبع نظام الطبقات كذلك أن تُلاحَظَ أسماء الأطفال من كل طبقة، فيُختار الاسم من الكلمات الدالة على البهجة والسرور إن كان برهمياً، وعلى الحول والقوة إن كان كشتريا؛ وعلى الغنى والثروة إن كان ويشيا، وعلى الذل والمهانة إن كان شودرا[2].

وتلتقى هذه الطبقات الأربعة فى الاعتقاد بالآلهة، وكلها تقدس البقرة. وكلها تخضع للنظام الطبقى، والبراهمة هم ملجأ الجميع فى حالات الميلاد والزواج والوفاة[3].

---

(١) الفقه الهندوسى الأكبر ص ٢٣.

(٢) الفقه الهندوسى الأكبر ونفس الصفحة.

(٣) See Hinduism p. 34 - 35.



وقد تحدثت شرائع «منو» بالتفصيل عن وظائف كل طبقة على النحو الآتى : ولكل طبقة من طبقات المجامع الهندوسى وظائفها وواجباتها فعلى البرهمى أن يشتغل بالتعلم والتعليم، وبإرشاد الناس فى دينهم، فكان هو المعلم والكاهن والقاضى، أما كشتريا فكانت وظيفته أن يتعلم ويقدم القرابين، وينفق فى الصدقات، ويحمل السلاح للدفاع عن وطنه وشعبه، أما ويشيا فعليه أن يزرع ويتجر ويجمع المال وينفق على المعاهد العلمية والدينية، وأما شودرا فعليه أن يخدم الطوائف الثلاثة الشريفة[1] .

ومن شرائع «منو» نورد بعض النصوص التى تقرر اختصاصات كل طبقة :

البراهمـــة:

«يقوم البراهمة بدرس أسفار الويدا، وتعليمها، وتبريك تقديم القرابين التى لاتُقبل من الناس إلا عن طريقهم . ويجب أن يحافظ البرهمى على كنز الشرائع المدنية والدينية .

«وإذا وُلد برهمى وضع في الصف الأول من صفوف الدنيا .

«البرهمى محل لاحترام جميع الآلهة بسبب نسبه وحده، وأحكامه حجة فى العالم . والكتاب المقدس هو الذى يمنحه هذا الامتياز .

«كل مافى العالم ملك البرهمى . وللبرهمى حق فى كل موجود .

«والبرهمى إذا ما افتقر حقٌ له أن يمتلك مال الشودرى الذى هو عبد له من غير أن يجازيه الملك على مافعل . فالعبد ومايملك لسيده .

«ولايدنس البرهمى بذنب ولو قتل العوالم الثلاثة .

«ولاينبغى للملك أن يجبى خراجا من برهمى عالم بالكتاب المقدس

---

(١) الفقه الهندوسى الأكبر .

ولو مات الملك محتاجا. ولايجوز له أن يصبر على جوع برهمى فى ولايته.

«وليتجنب الملك قتل برهمى ولو اقترف جميع الجرائم، وليطرده - إذا رأى - من مملكته، على أن يترك له جميع أمواله وألا يصيبه بأذى.

«وعلى الملك ألا يقطع أمراً مهما كان دون استشارة البراهمة».

الأكشترية:

«إن الذين تغذت عقولهم بكتب ويدا وغيرها هم الذين يصلحون لأن يكونوا قواداً أو ملوكاً أو قضاة أو حكاما للناس.

«يُنصَب الملك فى الأكشترية، وللملك على الأكشترية احترام الجنود لقائدهم.

«ويجب ألا يُستَخَفَّ بالملك ولو كان طفلا، وذلك بأن يقال أنه إنسان، فالألوهية تتجسم فى صورة الملك البشرية.

«ولايجوز للأكشترى أن يشتغل بغير الجندية. والأكشترى يعيش جندياً حتى فى وقت السلم.

«وعلى الأكشترية أن يتجمعوا عند أول نداء وعلى الملك أن يعد لهم عُدَدَ الحرب وأسلحته.

«لاتُبارك موارد الملك ووسائله ولو نال كنوزا واكتسب أملاكاً إلا إذا أصبح صديقا للضعيف».

الويشية:

«يجب على الويشى أن يتزوج امرأة من طائفته، وأن يُعْنَى جاداً بمهنته، ويربى الماشية على الدوام.

«وعلى التجار منهم معرفة قوانين التجارة ونظم الربا.

«وليعلم الويشي جيدا كيف يبذر الحبوب، وليفرق بين الأرض الجيدة والأرض الرديئة، وليطلع على نظام الموازين والمكاييل اطلاعا كافيا».

«وليعرف أجر الخدم ولغات الناس، وماتحفظ به السلع، وكل مايمتُّ إلى البيع والشراء بصلة».

الشودرا :

«يجب على الشودرى أن يمتثل امتثالا مطلقاً أوامر البراهمة، سادة الدار العارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل، فترجى له السعادة بعد موته ببعث أسمى».

«لايجوز للشودرى أن يجمع ثروات زائدة ولو كان على ذلك من القادرين، فالشودرى إذا جمع مالا آذى البراهمة بقحته.

«ويجب نفى ابن الطبقة الدنيا الذى تحدثه نفسه بأن يساوى رجلا من طبقة أعلى من طبقته وأن يوسم تحت الورك.

«وتقطع يده إذا علا من هو أعلى منه بيده أو بعصاه، وتقطع رجله إذا رفسه برجليه».

«وإذا ما دعاه باسمه أو باسم طائفته بدون تقدير أُدْخِل إلى فمه خنجرٌ محمًّى متلوث النصل طوله عشرة قراريط.

«ويأمر الملك بصب زيت حار فى فمه وفى أذنيه إذا بلغ من الوقاحة مايبدى به رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم».

ولايزال النظام الطبقى سائدا فى الهند وقد اتخذ أحيانا أسسا جديدة، فمن ذلك مثلا أتباع مذهب «السك» الذى أنشىء لخلق دين موحَّد من الهندوسية والإسلام، ولم يفلح هؤلاء فيما قصدوا إليه؛ ولكنهم سرعان



ماتخذوا من مذهبهم أساسا لنظام طبقى، فقد عدوا أنفسهم طبقة ورفضوا التزاوج مع سواهم، ووضعوا كذلك نظام القرية الذى لايسمح أحيانا بالزواج بين سكانها وسكان قرية أخرى[١] .

وهناك محاولات تَزَعَّمها الزعيم غاندى للتخفيف من حدة هذه الطبقات أو إزالتها، وكذلك لإنصاف طبقة المنبوذين بوجه خاص، ولكن هذه المحاولات لم يُقَدَّر لها النجاح بعد، وكان الزعيم غاندى ضحية من ضحاياها، وتعتمد هذه المحاولات على اتجاه فلسفى جديد لهذا التقسيم، بأن تذكر بأنه ليس خلقياً ولا طبيعياً، وليس إلا توزيعاً للأعمال حسب طبع كل إنسان وميله واستعداده[٢] كما مرّ.

٤ - أهم عقائد الهندوسية

أهم العقائد فى الديانة الهندوسية أربعة، هى :

١ - الكرما.
٢ - تناسخ الأرواح أو تجوال الروح.
٣ - الانطلاق.
٤ - وحدة الوجود.

وسنشرح فيما يلى رأى الهندوس فى كل من هذه العقائد :

١ - الكارما :

يقول البروفسور أتريا[٣] : أن الشهوة أقوى عامل فى حياتنا، ولكن شهواتنا تؤثر على الآخرين، فنحن فى أعمالنا التى تفرضها الشهوات نحسن إلى الآخرين أو نسىء، فلابد أن ينطبق علينا «قانون الجزاء» المسيطر

(١) See Hinduism p. 34 - 35.
(٢) انظر كتاب كرشنا كيتا (ثقافة الهند يونيو ١٩٥٠ ص ٥٢، يونيو ١٩٥٢، ص ٥٧).
(٣) ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية، ص ٤٢ - ٤٣.

على حياة سائر الأحياء الحرة فى الكون، وقانون الجزاء يسمى فى اللغة السنسكريتية (Karma) وليس لأحد أن يتملص منه، وقد جاء فى كتاب «يوجا واسستها» مايلى: ليس فى الكون مكان - لا الجبال، ولا السموات، ولا البحار، ولا الجنات - يفر إليه المرء من جزاء أعماله، حسنةً كانت أو سيئة[1].

وجميع أعمال البشر الاختيارية التى تؤثر فى الآخرين، خيرا كانت أو شرا، لابد من أن يُجازى عليها بالثواب أو العقاب طبقا لناموس العدل الصارم، فنظام الكون إلهى قائم على العدل المحض، وأن العدل الكونى قَضَى بالجزاء لكل عمل، وأن فى الطبيعة نوعا من النظام لايَتْرُك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء، وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء فى هذه الحياة[2].

ولكن الهندوس لاحظوا من واقع الحياة أن الجزاء قد لايقع، فالظالم قد ينتهى دون أن يُقْتَصّ منه، والمحسن قد ينتهى دون أن يُحْسَن إليه، ولذلك لجأوا إلى القول بتناسخ الأرواح - وسنشرح هذا فيما بعد - ليقع الجزاء فى الحياة القادمة إذا لم يتم فى الحياة الحاضرة.

ويبدو أن بروفسور أتريا لاحظ صعوبة فهم هذا القانون فتدارك هذا قائلا: لا صعوبة علينا معشر الهندوس فى فهم هذا الناموس، ناموس كارما وإن لم يسهل على غيرنا فهمه.

وتحاول فلسفة اليوجا تقريب موضوع الكارما إلى الأذهان فتذكر أن حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعاً لما نقوم به من أعمال، وهذا يشبه مايقال عندما تقع مصيبة على شخص فإننا نقول: «من عمله» إذ الجزاء من جنس

---

(1) Yogs Vasistha III p. 95.
(2) Edward Thomas: The History of Buddhist Thought p. 107.



العمل، ولكنا نعرف هذا فى نفس الحياة فالظالم يُظلَم والمُعين يُعان، ولكن الكارما تجعل جزاء حياة فى حياة أخرى[1]

٢ - تناسخ الأرواح :

يطلق بعض الباحثين على هذه العقيدة تعبيرا اصطلاحيا آخر هو «تجوال الروح» وقد يطلق عليها «التناسخ» فقط، ويطلق عليها كذلك «تكرار المولد»، والتناسخ رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضى فى جسم آخر.

وسبب التناسخ أو تكرار المولد هو (أولا) أن الروح خرجت من الجسم ولاتزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادى لم تتحقق بعد، و(ثانيا) أنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة فى علاقاتها بالآخرين لابد من أدائها. فلا مناص إذاً من أن تستوفى شهواتها فى حيوات أخرى، وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التى قامت بها فى حياتها السابقة[2] .

فالميل يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم الفعل فى هذا الجسد، وإن لم يصلح هذا ففى جسد غيره، فقد خلقت الميول لتُستَوفَى، وإذا لم تستوف لم ينج الإنسان من تكرار المولد، وإذا اكتملت الميول ولم يبق للإنسان شهوة ما، وأزيلت الديون فلم يرتكب الإنسان إثما ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب، نجت روحه وتخلصت من تكرار المولد، وامتزجت بالبرهما، سواء كان الاكتمال فى جسد واحد أو أجساد متعددة[3] .

---

(١) فلسفة الكارما تأليف يوجى راما شاراكا، تعريب عريان يوسف، ص ١٦٧، وراجع هامش المترجم.

(٢) بروفسور اتريا : ثقافة الهند ووجهاتها الروحية ص ٤٢ .

(٣) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند، مارس ١٩٥٣، ص ٣٠).
وانظر كذلك : Berry: Religions of the World p. 41.

فجسد الإنسان المادى هو الذى يولد من جسدى الوالدين، وأما الذى يحركه وينشطه ويسيطر عليه فجسد لطيف يتركب من القوى الأساسية والحواس والقوى الآلية المحركة، والعناصر اللطيفة، والعقل. فإذا حدث مانسميه الموت، مات الجسد المادى وتوقف وبلى، أما الجسد اللطيف فلا يموت بل يخرج ويعمل مدة من الزمن فى آفاق الكون اللطيفة التى تشبه حالة أحلامنا، فيجرب هناك الجنة والنار التى تكلمت عنها الكتب الدينية، ثم يعود - مسوقا بالميول والأعمال الماضية - كرَّةً أخرى إلى هذه الحياة متقمصا جسداً جديداً، وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الروح، وتكون هذه الدورة نتيجة للدورة الماضية، فتوجد الروح فى إنسان أو حيوان أو ثعبان، ويسعد أو يشقى نتيجة لما قدم من عمل فى حياته السابقة[١].

ومن الشروط اللازمة لتجوال الروح، أن الروح، أن الروح فى عالمها الجديد لاتذكر شيئا عن عالمها السابق، فكل دورة منقطعة تماما بالنسبة للروح عن سواها من الدورات[٢].

وهنا نجد الديانة الهندوسية تلتقى مع الأديان السماوية فى جانب، ولكنها سرعان ماتبتعد عنها، فنقطة الالتقاء هى خلود الروح وحسابها على ماقدَّمَتْ، ولكن الأديان السماوية ترى الروح كائنا مستقلا بجسم، فهو يحاسب على ماارتكب مع هذا الجسم، ويتم الحساب بعد أن يعترف الإنسان بأخطائه ويذكَّره بها لسانه الذى نطق، ويده التى امتدت، ورجله التى سارت ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣]، أما فى الهندوسية فهناك انقطاع تام بين الدورتين، ومعنى هذا أن الروح تعاقب على ذنب لاتعرفه ولاتذكره.

---

(١) بروفسور اتربا: المرجع السابق، ص ٤٠.
(٢) ويدانت، ص ٤٣ و Berry: Religions of the World p. 41
(٣) سورة النور، الآية ٢٤.



التفكير الهندوسي - أن شرحنا كيف انبثق الكون عن الله، ثم - شرحنا - عند الكلام عن مبدأ الانطلاق - كيف يمكن أن يعود الإنسان إلى الاتحاد بالله، وفي الويدا مزيد لإيضاح الصلة بين الكون وبرهما مما أدى إلى اعتقادهم بوحدة الوجود، ولنقتبس من فلسفة الهند الخطوات التي قادت إلى هذا التفكير. فقد كان الناس يؤمنون بأن في العالم قوة عظيمة يلزم التقرب لها بالعبادة والقرابين. وكانت هذه القوة تسمى «براهما» وفي مرحلة تالية لم تعد القرابين المادية ضرورية بل حل محلها مراقبات على ظواهر كونية تخيلها الناس ضحايا وذلك كالشمس والنار والهواء، وفي مرحلة ثالثة راقب الإنسان نفسه وتصورها قرباناً يوصل إلى برهما، وفي مرحلة رابعة تجردت المراقبات عن تصور القرابين، بل صار الناس يراقبون أنفسهم على أنهم القوة الكامنة العالمية المؤثرة، ثم وصلوا من التمثل إلى العينية، وأذعنوا أن النفس الشخصية هي عين القوة الحيوية العالمية أو البرهما، فصار المفتكر والموضوع الخارجي شيئا واحدا[١] .

وقد صور أستاذ هندي متخصص هذا الموضوع في مقال طويل نقتبس منه بعض الفقرات :

خُلقت الحياة هذه من الروح (Atma) ، فالإنسان ليس جسمه أو حواسه، لأن هذه ليست إلا مركَّبة، وهي تتغير وتموت وتبلى، بل الإنسان هو الروح وهي سرمدية أزلية أبدية مستمرة غير مخلوقة. وذكرت شروح الويدا أن الإنسان من حيث روحه جاء على فطرة الله (Brahaman)، وكما أن شرارة النار نار فإن الإنسان من نوع الإله، وروحه لايختلف عن الروح الأكبر إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة، وعندما تُجرَّد الروح من الظواهر المادية تبدأ رحلتها للعودة إلى الروح الأكبر، ولذلك يسمى تخلصها من الجسم «طريق العودة» والإله في التفكير الهندي له صفات ثلاث : فهو

---

(١) محمد عبد السلام : فلسفة الهند القديمة، ص ١٩ - ٢٠، ٣٠.

برهما (خالق) ووشنو (حافظ) وسيفا (مهلك)، وهذه الصفات الإلهية الثلاثة كامنة فى الإنسان، فهو يخلق الأفكار والأنظمة والمؤسسات، ويحافظ عليها، ويستطيع تدميرها ليعيد خلقها فى شكل آخر[1].

وفى فلسفة الهند الأخلاقية المسماة «ويدانت» وردت العبارة التالية: هذا الكون كله ليس إلا ظهوراً للوجود الحقيقى الأساسى، وإن الشمس والقمر وجميع جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق، وأن الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الأصيلة، وأن الجبال والبحار والأنهار.. تفجَّرُ من ذلك الروح المحيط الذى يستقر فى سائر الأشياء[2].

وهذا التفكير هو ماقال به سانكرا (Sankara) فى القرن الثامن الميلادى إذ وضح فلسفة الهندوس فى وحدة الوجود وحاول أن يدلل على رفض الازدواج وأن الروح الإنسانية هى جزء من الروح العالية (Brahaman)[3].

وقد تسرب هذا التفكير إلى بعض طوائف المسلمين من الصوفية والشيعة وقد لقى الحلاج حتفه بسبب اعتناقه هذا المذهب ودعوته له، ومما يروى من شعره فى ذلك:

عجبت منك ومنى ... أفنيتنى بك عنى
أدنيتنى منك حتى ... ظننت أنك أنى

ويروى الشهرستانى[4] أن ابن سبأ قال مرة لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه: أنت أنت. يقصد أنت الإله. فنفاه علىّ إلى المدائن. وربما يقال ان

---

(١) محمد على حافظ: الحياة فى رأى الآرين (ثقافة الهند، سبتمبر سنة ١٩٥٠، ص ١٣٣ - ١٣٤).

(٢) ويدانت، ص ٤١ و ٤٣.

(٣) Hinduiem Ed. by Lewis Renou p. 24

(٤) الملل والنحل جـ ١، ص ١٥٥.

عقوبة النفى لم تكن كافية، ولكن يجاب على ذلك أن فسق ابن سبأ لم يكن قد وضح بعد، وأن الجملة التى قالها «أنت أنت» لم تكن ظاهرة الدلالة على المقصود الضال الذى كانت هذه الجملة معبِّرة عنه، ولذلك نجد موقف علىّ قوياً بالغ القوة عندما اتضح ذلك المقصود فيما بعد، فيروى ابن حزم[1] أن قوماً من أصحاب عبد الله ابن سبأ أتوا علياً وقالوا له: أنه هو. فقال لهم: ومن هو؟ فقالوا: أنت الله. فثار علىٌّ وحكم عليهم بالإعدام حرقاً، وأمر بإشعال نار وألقاهم فيها[2].

٥ - من صور الأخلاق عند الهندوسيين

إن أغلى مايطمع فيه البرهمى هو الانطلاق والاندماج فى برهما كما قلنا، ودستور العقل الهندى للوصول إلى هذه الغاية كان دائما الزيادة المفرطة بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس[3]، كما كان بأن يعيش أسير الحرمان، ويحمِّل نفسه ألوان البلاء، وبأن يبدو دائما كثير الهموم والخوف والتشاؤم، وهو لايتمنى الموت، لأن الموت ينقله إلى دورة جديدة من دورات حياته، بل يرجو لنفسه الفناء فى برهما.

ومن أجل ذلك حفلت حياة كثير من الهنود بالبؤس، ومحاربة الملاذ، والسلبية، والتسول، وتعذيب النفس، وقسَّمت الفلسفة الهندية الحياة أربع مراحل، وجعلت لكل مرحلة منهجاً يليق بها، وكل دور مدته خمسة وعشرون عاما باعتبار متوسط العمر مائة عام، فالدور الأول دور التربية الجسدية والعقلية والروحية، والدور الثانى دور الحياة العائلية، فيتزوج المرء فى هذا الدور ويكون له أهل وذرية ويقوم بواجباته الأهلية، وفى الدور

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل، جـ ٤، ص ١٨٦.

(٢) انظر: «التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية» للمؤلف جـ٢، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٣) Nells: A short History of the World p. 123

الثالث يتنحى عن الحياة العائلية هو وزوجته ويشغلان أنفسهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما مطمع شخصى أو نفع عائلى، أما الدور الرابع فيتجرد المرء فيه من كل ماهو دنيوى ويتفرغ للرياضة الروحية[1] .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل نوع من الزهادة، ولكن الزهادة فى المرحلة الأخيرة أقسى وأصعب، وسننقل من شرائع «منو» بعض مافرضه الفقه الهندوسى على الهندوس من الزهادة، وبخاصة فى المرحلة الأخيرة :

- إن الذى تغلّب على نفسه فقد تغلب على حواسه التى تقوده إلى الشر، إن النفس لأمارة بالسوء، والنفس لاتشبع أبدا، بل يزداد جشعها بعد أن تنال مشتهاها .
- أن الذى أوتى كل شىء، والذى تخلّى عن كل ما كان فى يده، فهذا خير من ذاك .
- على طالب العلم أن يتجنب الحلوى واللحوم والروائح الطيبة والنساء، وكذلك يجب عليه ألا يدلك جسده بما له رائحة طيبة، ولايكتحل، ولايلبس حذاء، ولا يتضلّل بالشمسية، وعليه ألا يهتم برزقه بل يحصل رزقه بالتسول .
- وعندما تدخل فى الشيخوخة، عليك بالتخلى عن الحياة الأهلية وبالإقامة فى الغابة، وإذا أقمت فى الغابة فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك شواربك، ولا أن تقلم أظافرك .
- وليكون طعامك مما تنبته الأرض وتثمره الأشجار، ولاتقطف الثمر بنفسك بل كُلْ منه ما سقط من الشجرة بنفسه، وعليك بالصوم، تصوم يوما وتفطر يوما، وإياك واللحم والخمر .

---

(١) بروفسور اتريا : ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية، ص ٥٥ .

- عـود نفـسك على تقلبـات الموسم، فـاجلس تحت الشـمـس المحـرقـة، وعش أيام المطر تحت السماء، وارتد الرداء المبلل فى الشتاء.

- لاتفكر فى الراحـة البـدنيـة، اجـتنب سـائر الملذات، لاتقـتـرب من زوجتك، نم على الأرض، ولا تأنس بالمكان الذى أنت فيه.

- إذا مشيت فامش حـذرا حتى لاتتخطى عظمـاً أو شعـراً وحتى لاتدوس نسمة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبتلع نسمة.

- لاتفرح للذيذ ولاتحزن على الردئ.

ولعل مما يكمل صـورة البـؤس والتـشـاؤم عند الهنود أن نقـتـبس بعض عبارات من كتاب يعد عند الهندوس أعظم كتاب ألف تحت السماء كما قال بذلك سـوامى رام تيـرتهـا Swami Ram Tirtha القـديس الهندوسى المعاصر، وهذا الكتاب هو يوجا واسستها Yoga Wasistha الذى - كأكثر الكتب المقدسـة لدى الهنود - لايعرف مؤلفه ولا زمن تأليفه، يقـول هذا الكتاب[1] :

«السعـادة لاسبيل لها فى هذا العـالم الذى خُلقَتْ كل نفس فيه لتـموت، كل شيء فى هذا العـالم سائر إلى الزوال والفنـاء، مسرات هذه الحياة ليست إلا خدعا وأوهاما، وقد سقطت الأفراح على الأحزان، أجل لم يشترنا أحد كما تشترى العبيد، ولكننا نعمل كأننا عبيد مسخرون.

«الرغبة فينا متقلقـلة دائما كالقرد، والنفس لاتشبع أبدا، ولاتقنع بما فى اليد، ولاتزال وثابة إلى مالا تناله، ومهما أشبعتها ازدادت جوعا وطموحا.

«لاخير فى الجسد، إنه محل للعاهات، ووعـاء لسائر الآلام وهو سائر

---

(١) Yaga Wasistha مكتوب باللغة السنسكريتية وقد ترجمت أجزاء منه إلى اللغة العربية اقتطفنا منها هذه الفقرات، وسنعود فيما بعد إلى هذا الكتاب بدراسة أوسع عند التعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس.

إلى الانحلال، اتصفت الطفولة بالضعف والتوقان والعجز، وعدم القدرة على الكلام، والتجرد من العلم، وياترى ماذا يجود علينا به زمن الشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تخطف أبصارنا ثم لاتلبث أن تختفي، مفسحة الطريق للشيخوخة بآلامها الثلجية القاسية.

«ما الحياة إلا كنور السراج الموضوع فى الخلاء، تلعب به الرياح من كل جهة، وليس بهاءُ الأشياء كلها إلا كومضة برق تنير لحظة ثم تختفى إلى الأبد.

«وما هى قيمة الجسد والأفراح والثروة والجاه والملك إن كان محتما علينا أن نموت عاجلا أو آجلا، وأن الموت سيقضى على كل شىء».

٦- نماذج من الفقه الهندوسي

لإعطاء نماذج من الفقه الهندوسى سنعتمد على مصدر مهم جدا هو كتاب «منو دهرما ساستر» (Manu Dbrama Sastra) وهو كتاب جامع يحتوى على الشرائع التى تتبعها الطوائف الهندوسية، ويقول ناشر الكتاب:

أنه مؤلَّف عتيق. لانعرف مبدأه، ولا مؤلفه، وقد زعم البعض أنه من تأليف أول إنسان على الأرض، أو أول عارف، وضعه بإلهام من الله فى زمان غارق فى القدم، ولكن الأصح أنه وضع فى فترات متتالية بعيد مابينها، فقد ورد ذكره فى المؤلفات التى يرجع عهدها إلى القرن السابع قبل الميلاد مما يدل على أن بعض أجزائه كتب قبلها، وبه ذكر لما وقع فى العصر البوذى، وهو على العموم يحوى الشرائع التى لايحيد عنها الهندوس المتدينون حتى الآن.

وسنقتبس من هذا الكتاب بعض النظم والقوانين الخاصة بالسلطة الحاكمة وبالمرأة، ثم بعض النظم المالية:



الملـك : خلق الله الملك ليصون البلد وليدافع عنه، ولذلك لاتحتقرون ملكاً وإن كان طفلا رضيعاً، لأنه إله فى صورة إنسان فوق الأرض.

وقـد منح الله الملكَ السلطانَ الذى يعـاقِب به المذنبين، فـلا ملك إلا بسلطان، ولا طاعة إلا بسلطان العقاب.

وعلى الملك أن يصطفى لنفسه الوزراء من الأسر الطيبة، ممن اتصفوا بالعلم والشجاعة والنزاهة، وإنما جاز له ذلك لأن الرجل الواحد يصعب عليه القيام بأعباء الملك الثقيلة.

وعلى الملك أن يختار سفراءه من أهل العلم والفراسة الذين تكفيهم الإرشادات للنفوذ إلى الأسرار العميقة.

وليعلم الملك أن البرهمى وإن ساءت سيرته فله أن ينصح الملك إذا شاء.

وعلى الملك الرفق بالطيبين والشدة مع الأشرار، فالملك العادل الذى لايداهن الناس، يحبه الناس.

المـرأة: تعيش المرأة وليس لها خيار، سواء كانت بنتا صغيرة أو شابة أو عجوزاً، البنت فى خيار أبيها، والمتزوجة فى خيار بعلها، والأرملة فى خيار أبنائها، وليس لهـا أن تستقل أبدا، وعلى المرأة أن ترضى بمن ارتضاه لها والدها بعلا، فتخدمه طول حياته ولاتفكر فى رجل آخر بعد وفاته، بل عليها حينئذ أن تهجر ماتشتهيه من الأكل اللذيذ، واللبس الحسن والزينة كلها، وتعيش أرملة إلى آخر عمرها.

وإن وجدت زوجها لايعتنى بها ويحب امرأة غيرها، فلا تحقد عليه، ولاتقصر فى خدمته ونيل مرضاته، فقد نيطت جنة المرأة برضاء بعلها، فلا تفعلن شيئا لايرضاه بعلها.

وليس لوالد البنت أن ينال شيئاً من المال أو المتاع عند تزويجها ، لأن من يفعل ذلك فكأنه باع بنته .

والأسرة التى تحترم المرأة فإن الآلهة تخصها بعطفها ، وأما الأسرة التى تحتقر فيها المرأة ، فإن حسناتها تذهب سدى .

والأوفق أن تشهد النساء للنساء ، والرجال للرجال ، وشهادة النساء وان كنَّ نزيهات لايقام لها كبير وزن . لأن عقولهن لاتوازن فيها .

ليحب الزوج زوجته ، وليعلم أنها تلده فى صورة ابنه فهى خليقة بحب زوجها .

والمرأة سيدة بيتها فعلى الرجل أن يسلمها مقاليد البيت ، وواجباتها أن تلد وأن تربى أولادها وتدبر أمور منزلها .

ولتعلم المرأة أن عظمتها منوطة بعظمة زوجها .
والذى قال لرجل أنى أزوجك بنتى فلا يحل له أن يرجع عن قوله ويخلف وعده ، وإن فعل ذلك يبوء بإثم الذى يقتل ألف نفس بريئة .

وإذا ابتلى أحد بزوجة شريرة ، خداعة ، قاسية القلب ، فله أن يطلقها ويطردها من بيته .

وليعش الزوجان بالحب والوفاء لأنهما لم يقترنا على اسم الله ليفترقا أو يتباغضا .

مسائل اقتصادية : لايجوز أكل الربا الفاحش ، ولصاحب المال أن يأخذ روبية وربع روبية ربا عن مائة روبية فى كل شهر .

وإذا حاول عم صبى صغير أن يستولى على أملاكه ، فيمنعه الملك من ذلك ، ويحوِّل الأملاك إلى إدارته حتى يبلغ الصبى الرشد .

والعقار الذى لايوجد له صاحب يُبقيه الملك فى يده ثلاث سنوات، فإن لم يعرف صاحبه خلال هذه المدة يصبح ملكا للملك بعدها.

وإذا وجدت لُقَطة فى مكان، أمر الملك بحفظها حتى يوجد صاحبها، والذى يسرق مثل هذا المال يُلْقَى أمام فيل ليدوسه نكالا لجنايته.

وكما تمص العلقة الدم قليلا قليلا كذلك يجب على الملك أن يكتفى بالقليل من الضرائب على رعيته، فيأخذ من أرباح الفضة والذهب النصف، ومن الحبوب الثمن أو السدس. ومن ثمار الأشجار السدس وكذلك قصب السكر والعطور والعقاقير. أما الصُّناع والعمال والمنبوذين فيسخرهم الملك يوما واحدا فى كل شهر لأعماله، فهذه هى الضريبة التى عليهم أن يدفعوها.

والولد الأكبر هو الذى يرث والديه، أما اخوته وأخواته فكلهم يعيشون تحت أمره، لأن الأخ الأكبر بمنزلة الأب.

والذى ليس له ابن يجوز أن يقول لزوج بنته أن وُلِدَ له ولد: هو الذى يرثنى ويقوم مقام ابنى.

ولينظم الملك، بواسطة الخبراء، أثمان السلع المتقلبة كل خمسة أيام إلى خمسة عشر.

ولا يملك الولد والزوجة والرقيق شيئاً، وكل مايحرزونه ملك لعائلهم.

ولايجوز للملك أن يفرض ضريبة على الأعمى والأبلة والأكسح وابن السبيل ومن يساعد المتبتلين إلى الكتاب المقدس.

٧ - تعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس

الفكر الهندى يتسلط عليه اتجاه روحانى، ومن هنا كثرت الآلهة لدى الهنود، وبالتالى كثرت الكتب المقدسة حتى جاوزت المئات ووصلت إلى

الألوف، وفى الديانات السماوية يكون مصدر تقديس الكتب أنها كلام الله أوحى به إلى أنبيائه، بالمعنى فقط كالتوراة والإنجيل، أو بالمعنى واللفظ كالقرآن الكريم، أما مصدر تقديس الكتب عند الهندوس فليس لأنها موحىً بها من الله، فهى لم يوح بها، بل لايعرف لأكثرها واضع معين، وإنما اشترك فى تأليفها عدد كبير من الناس على مر القرون، وليس مصدر التقديس إبداعها فى الفكرة أو الأسلوب، فكثيرا ماشملت هذه الكتب أفكارا بدائية وأساليب ركيكة، بل أن مصدر تقديس هذه الكتب هو على العموم الاتجاه الروحانى لدى الفكر الهندى، والموافقة على تأليه أى كائن، أو تقديس أى كتاب دون حاجة إلى إبداء الأسباب.

ومن الناحية العملية كان مصدر هذه الكثرة تفسير كتاب «الويدا» الذى يعتبر أعظم الكتب المقدسة لدى الهندوس، فإن مرور الزمن على هذا الكتاب جعله عسير الفهم غريب اللغة، فألفت كتب كثيرة لشرحه وتفسيره، وعدَّها الهندوس مقدسة، ومرت قرون أخرى فاحتاجت هذه الشروح إلى شروح جديدة وإضافات، فكتبت كتب أخرى، واستساغ العقل الهندوسى أن يجعلها مقدسة أيضاً، وتضخمت «الويدا» فاحتاجت إلى وضع مختصرات قدسها العقل الهندوسى كذلك. هذا بالإضافة إلى كتب وضعت غير متصلة بالويدا بل تصف حدثاً دينياً أو تاريخياً جديداً.

على أن الكتب المقدسة لدى الهنود ليست كلها - بطبيعة الحال - فى مستوى واحد، فمنها كتب قليلة الانتشار، أو لاتحظى بتقديس جميع الهندوس، ومنها كتب أقرب إلى الغموض منها إلى الوضوح، ومن أعظم كتبهم المقدسة على العموم الويدا وقوانين «منو» وقد تحدثنا عنهما واقتبسنا منهما اقتباسات كافية لإظهار أهميتها، وبقى أن نعرِّف بكتب أربعة أخرى تعتبر فى القمة بين كتب الهندوس المقدسة، وهذه الكتب هى :

مها بهارتا - كيتا - يوجا واسستها - رامايانا.

ومن الواجب فى هذا المجال أن أتقدم بصادق الشكر إلى وزارة التربية والتعليم بالهند وإلى رجال السفارة الهندية والمكتب الثقافى الهندى بالقاهرة وإلى كثير من أصدقائى الهنود، فقد أمدونى بأهم الكتب المقدسة، وبمراجع أخرى قيمة، وبأعداد كثيرة من الدوريات وبخاصة «ثقافة الهند» التى تحوى أحدث الأبحاث وأهمها عن الكتب المقدسة وغيرها من الدراسات العميقة حول تراث الهند، وعلى هذه المصادر المتنوعة - بالإضافة إلى بعض المراجع الأوربية - تعتمد دراستنا هنا.

مهابهارتا Mahpharta*

مهابهارتا ملحمة الهند الكبرى، تشبه الإلياذة والأوديسة عند اليونان، وهى من الكتب الهندية القليلة التى يعرف مؤلفها، ان اسمه «وياس» وهو ابن العارف الكبير «برسرا» وقد أملى «وياس» هذا النشيد المقدس على «كنيتى» الذى دوّنه. وقد وقعت هذه الملحمة الكبرى حوالى سنة ٩٥٠ق.م وهى تصف حرباً بين أمراء أسرة ملكية واحدة، ولكن جميع ملوك الهند اشتركوا فيها مع هذا الجانب أو ذاك، بل اتخذ الآلهة دوراً فى المعركة أيضاً كما تروى الأقاصيص ذلك. ومن أعظم المعلمين الذين عنوا بتدريس مهابهارتا «سوت» الذى ألقاها على جماعة من العلماء والنساك المرتاضين؛ وقد افتتحها بقوله: إننى أوفر حظاً وأسعد طالعاً بإبلاغى إليكم رواية مهابهارتا التى وضعها «وياس» ليعلمكم الدين الإنسانى ويرشدكم إلى الحياة وغاياتها، وقد سمعت رواية مهابهارتا بجوهرها، والقصص الاستطرادية المشتملة عليها، ثم بعد ذلك حدث أن قمت برحلة طويلة زرت فيها الأماكن المقدسة، وزرت ساحة القتال التى دارت فيها رحى الملحمة الكبرى التى تتحدث عنها وتصفها هذه الأنشودة الحماسية.

(*) ترجم الأستاذ عبد الحميد النعمانى الكتاب المقدس (مهابهارتا) إلى اللغة العربية.

ويبدأ «سوتا» يروى هذه الملحمة التى يعتبرها الهندوس أنشودة حماسية نادرة لاحتوائها على كثير من الروايات التمثيلية والتعاليم الجليلة، ولأنها - كما يقولون - كالبحر الذى فى قاعه من الدرر البهية والأحجار الكريمة ما لايعد ولايحصى، وهى ينبوع يتفجر، تفيض منه الثقافة وتنهمر منه الأخلاق والآداب.

وعندما نقرأ رواية «سوتا» يشق علينا فهمها ويصعب علينا متابعتها لكثرة الأسماء الصعبة وتشابهها، ولكثرة الاستطرادات والغموض، وسنحاول هنا أن نعطى موجزاً للقصة ثم نتبعه بنماذج منها.

تجرى حوادث هذه الملحمة فى «هستنابور» حيث كان للملك ولدان الكبير منهما يدعى «دهرى تاراشترا» وكان مكفوف البصر، ولذلك آل الملك إلى الصغير المسمى «باندو» ولكن هذا اقترف ذنبا وهو ملك فحُكمَ عليه بالنفى للتكفير عن الذنب إلى مجاهل الصحراء، وإلى هناك انتقل الملك وزوجتاه، وآل الملك إلى أولاد أخيه ويطلق عليهم «كورو».

ومات باندو فى المنفى بعد أن أعقب خمسة أولاد كانوا يُعْرَفون بخمسة باندو، وتربى هؤلاء فى كنف الناسكين بالكهوف والفيافى حتى وصلوا إلى مرحلة عالية فى الدراسة الدينية، وفى إجادة الويدا وغيرها من الثقافات، ولما بلغ أكبرهم سن الرشد عاد بإخوته إلى «هستنابور» وطالب بميراثه فى الملك بعد أن تمت الكفارة، فناصبهم «كورو» العداء وانقلبوا حاسدين لهم، ساعين جهد المستطاع لكل مايضرهم ويؤذيهم.

وبدأت المناوشات تدب بين الفريقين ولكن مساعى الصلح وفَّقت بينهما فاشتركا فى الحكم، ثم هُزم «آل باندو» فى لعبة النرد التى كانت تعد طبق التقاليد السائدة شرفاً وكرامة لكشتريا، فقضى عليهم بالنفى عن مملكتهم إلى غابات الصحارى ثلاثة عشر عاماً، وسافر هؤلاء إلى المنفى، ولما انتهى

الأجل المضروب رجعوا إلى المملكة وطالبوا بحقهم، ولكن «دريودهن» المنتمى إلى «كورو» رفض أن يرد لهم حقوقهم، فاحتكم الطرفان إلى الحراب، وشهدت ساحة القتال حرباً ضروساً بين الفريقين انتهت بهزيمة «دريودهن».

هذا هو جوهر الملحمة الكبرى، وفى طيات القصة تأتى آداب هامة عن لعبة النرد، والوفاء بالعهد، والتكفير عن الخطايا، وتتدخل الآلهة والجن فى الموضوع من حين إلى آخر، كما يظهر مايمكن أن نسميه خرافات وخيالات، ولنختر بعض الأحداث لنقصه فيما يلى كنموذج من هذا الكتاب العظيم:

كانت هناك حرب سجال بين الآلهة وطائفة «أسورا» وعلى رأس كل من الفريقين المتحاربين قيادة حازمة تدبر الحيل وتعمل بيقظة لتكسب النصر، فكان «برهسبتى» الخبير بأسرار الكتب المنزلة ومعارفها قائد الآلهة، وكان «سوكر آجاريا» المحنَّك البصير يقود «أسورا» فى كفاحهم ضد الآلهة، ولكن «سوكر آجاريا» كان يجيد عملية «سن جيونى» التى تعيد الميت حياً، وعلى هذا فطالما رجحت كفة «أسورا» بسبب إعادة الحياة لمن يموت منهم فى الحرب، وكان هذا يرجِّح كفته على الآلهة.

التمس الآلهة من «كاجا» - وكان قد اعتزل الحرب - أن يتصل بسوكر آجاريا ويتقرب إليه ويتعلم منه عملية «سن جيونى» ولو بطريق الخداع، فقبل «كاجا» ويمم وجهه شطر «أسورا» ودخل على سوكر آجاريا وهتف به: قصدت إليك لأتلقى دروس الحكمة والعرفان تحت وصايتك. ولم يردَّه سوكر آجاريا لأن الأستاذ المتضلع لايرد طلب التلميذ النبيل. والتحق كاجا ببيت سوكر آجاريا يتعلم ويخدم.

وكان لسوكر آجاريا بنت جميلة اسمها «ديويانى» كان أبوها يحبها حباً جماً، وكان كاجا يقضى أكثر أوقاته معها يسليها بالغناء والرقص

والقصص، ويقضى لها كل حاجاتها، فتعلقت به «ديويانى» وشغفت بحبه.

وخافت «أسورا» من عاقبة هذه العلاقة بين «كاجا» و «ديويانى» وتخيلت أن «كاجا» سيستطيع تحت ستار طلب العلم والخدمة أن يعرف سر عملية «سن جيونى» ولذلك قررت «أسورا» قتل «كاجا» وانتهزت فرصة خروجه يرعى ماشية أستاذه وهجم عليها أفراد منها وقتلوه ومزقوا جسمه شر ممزق، ولما عادت الماشية بدونه انزعجت «ديويانى» وأسرعت إلى أبيها صارخة باكية وقالت: يا أبت، إن الشمس قد غابت، وعادت الماشية، ولم يأت كاجا، إنى أخاف أن يكون شر نزل به، وأنى لاأستطيع أن أعيش ولا أراه بجانبى. فرقّ قلب الأب لابنته، واصطنع عملية «سن جيونى» وسرعان ماحضر كاجا وقصّ عليهما ماحدث له وهو يرعى الماشية من هجوم أسورا عليه وقتله.. ولكن أسورا دبرت طريقاً جديداً للتخلص من «كاجا» فذهب مرة ليحضر الأزهار الجميلة من الغابة إلى «ديويانى» فانقض عليه بعضهم وقتلوه وحرقوه وألقوا رماده فى اليم، وطال انتظار «ديويانى» له دون جدوى فهرعت لأبيها باكية ناحبة، فأحياه لها مرة ثانية.

ولكن أسورا دبرت أمراً خطيراً فقد أمسكت بكاجا وقتلته وحرقت جثته وأذابت رماده فى كأس خمر، وقدمت الكأس إلى سوكر آجاريا فشربه، وهرعت ديويانى إلى أبيها لثالث مرة عندما طالت غيبة كاجا، وحاول أبوها أن ينصحها بالرضا بالقضاء والقدر، ولكنها بكت بنشيج وحسرة، ولما حاول أبوها أن يحييه هذه المرة اضطرب كاجا فى أحشائه، فقال أبوها، إن عودة كاجا للحياة لاتتم إلا بموتى ليخرج هذا من بين أحشائى. وشمل الحزن ديويانى إذ أدركت أنها لابد أن تفقد حبيبها أو والدها، واضطربت لهذا الأمر الفاجع، ولكن أباها وجد حلا للمشكلة فقد علّم سر «سن جيونى» إلى كاجا وهو فى أحشائه، وقال له الآن تُشَقُّ بطنى لتخرج أنت من

أحشائى وأموت أنا ، ثم تعيد لى الحياة باصطناع «سن جيونى» معى ، وتم ذلك بنجاح ، ولما عاد سوكر آجاريا للحياة انحنى تلميذه أمامه وقال : ان الشيخ الذى يعلم التلميذ الساذج ، يقوم مقام الأب ، فأنت أبى ، وحيث أنى خرجت من داخلك فأنت لى كذلك أم حنون .

ذلك نموذج من الأقاصيص التى اشتركت فيها الآلهة ودونّتها مهابهارتا ، وكما قلنا آنفا أنها تتخللها أحكام وقوانين وآداب ، فشرب الخمر يصبح معصية بعد أن خُدعَ بسببه سوكر آجاريا ، ومن هتاف سوكر آجاريا محذراً من الخمر : لاتقترب الفضيلة شارب الخمر ، ويزدريه الناس احتقاراً . هذا بلاغ .

وقتل برهمى غدراً يعتبر عملا منكراً يتحدث عنه سوكر آجاريا طويلا محذراً أسورا من ارتكابه ، وكان ذلك بمناسبة الاعتداء على كاجا .

كيتـــا Gita

هذا الكتاب جزء من الملحمة الكبرى مهابهارتا التى تحدثنا عنها آنفا ، والتى - كما قلنا - تصف حرباً شعواء بين فريقين من الأمراء ينحدران من أسرة ملكية واحدة ، ويُنسب هذا الكتاب أو أكثره إلى كرشنا أحد أبطال الهندوس المقدسين ، وكان قد اتخذ جانباً فى هذه الملحمة تحت قيادة البطل أرجُنا ومن قراءة كيتا يلاحظ اهتمام هذا الكتاب لا بالجانب القصصى أو الخرافى الذى لاحظناه فى النموذج السابق ، بل بالجانب الفلسفى والاجتماعى ، وكيتا لهذا يعتبر من الروافد التى قدَّمتْ إلى مهابهارتا أروع التعاليم وأرقى الثقافات ، ومنه استُمدَّت تعاليم كثيرة رويناها فى دراستنا السابقة ؛ والكتاب يقدم لنا صورة الهيئة الاجتماعية الهندية فى ذلك العصر ، فنعلم منه ماكان عليه الشعب من المعتقدات الدينية ، والعادات الاجتماعية ، والأفكار الفلسفية ، ووجهة نظره العامة فى الحياة وما بعد الممات . وهو يخبرنا أن الناس ضلوا عن سواء السبيل ووقعوا فريسة للتقاليد

والأوهام، فتركوا لب الدين وتمسكوا بقشوره. كانوا يتشدقون بألفاظ ويدا، ويعملون بظواهرها، فيقيمون الطقوس والعبادات الرسمية، وهم مع اعتقادهم بوحدة الله يعبدون آلهة أخرى، وليس هذا فحسب، بل يعبدون أسلافهم وكذلك يعبدون العفاريت، ويتطيرون ويعتقدون فى الفأل، وبجانب هؤلاء وعلى العكس منهم يوجد إناس ينعون على متبعى الظواهر اتجاههم، ولكن هؤلاء غلوا كذلك فى مذهبهم، فأنكروا العبادات والظواهر على الإطلاق، زاعمين أنها قشور، وكان أكثر هؤلاء وأولئك مقلدين جامدين. ويوجد أناس آخرون يرون فى الرهبانية والتجرد من الدنيا، النجاة، فيهجرون الكسب ويعيشون عالة على الناس.

وكان أرجُنا زعيم أحد الحزبين المتحاربين متأثراً بأحوال بيئته، مؤمناً بمعتقدات عصره، وخاضعاً للأفكار الشائعة، فلما اصطفت الصفوف، ودقت الطبول، وآن أوان القتال، تلجلج فى مباشرته، وجرى بينه وبين «كرشنا» حوار، فوعظه كرشنا، وحثه على القتال. وكتاب كيتا اشتمل على هذا الحوار الذي جرى فى ساحة الحرب.

قال أرجنا لكرشنا، وهو واقف بين الصفين، ينظر إلى الذين جاءوا لمحاربته:

«سيدى! أرى أمامى أقاربى الأعزاء وأصدقائى القدماء، ففيهم الأخ وابن الأخ، والخال وابن الخال، والعم وابن العم، فيهم الأبناء والأحفاد، وفيهم الشيوخ الذين نشأت على تبجيلهم، أراهم أمامى، وقلبى يرتعد، ويدى ترتعش، وأشعر بحلقومى كأنه قد جف، هل يليق بى أن أحارب هؤلاء الأحباء الأعزاء، والأسلاف الأجلاء؟ كلا، لأنى إن حاربتهم، أُحْرَم من راحة البال أبداً، إن حياة الذل والفقر خير من النصر الذى أناله بقتلهم، أجل، لايحل لى قتلهم، وإنهم لو قتلونى فإنى لا أرضى برفع يدى عليهم، لا ريب إنهم ظالمون، ومع ذلك لا يطاوعنى قلبى فى قتالهم. ثم

إنى إن حاربتهم، فنيت أسرتنا العريقة فى المجد بأسرها، وبفنائها تفنى سائر عاداتها وتقاليدها، وإذا ذهبت العادات والتقاليد، فما الذى يمنع البقية الباقية منها، ولاسيما النساء من الضلال والغواية؟ فينتشر الشر وتعم الفتنة فى النساء، وبفساد النساء تختلط الأنساب وتزول فروق المراتب البشرية، إن هذا لشر مستطير، وهو مايتتج من هذه الحرب وسفك الدماء.

فالذين يتحاربون ويسببون هذا الفساد، لابد من أن يجازوا بالجحيم. وليس هؤلاء وحدهم الذين يُصْلَوْن بالنار، بل يدخلها أسلافهم كذلك، لأنهم قد فقدوا أخلافهم الذين عليهم أن يقدموا لأرواح الأسلاف ما يجلب لها الراحة والسعادة وهكذا تفنى الرسوم والعادات، وهكذا يذهب الدين فيصير نسياً منسياً، ونحن مازلنا نسمع أن الذين كانت حالتهم هكذا، يدخلون الجحيم الأبدى، ولذلك فمباشرتنا الحرب، إثم ليس فوقه إثم!».

ويجيب كرشنا قائلا:

«إن خَوَرَك، يا أرجنا! فى هذه الساعة الرهيبة، لعار ليس فوقه عار، وأنت لن تجد بعده راحة البال طول حياتك، وسيكون ذلك سمة سوداء على جبينك لايمحوها الدهر أبداً، أيها البطل الشجاع! ما هذا الجبن الذى لايليق برجل مثلك؟ وطد نفسك على الحرب وسر إلى النصر الذى ينتظرك».

فقال له أرجنا:

«كيف يحل لى أن أحاربهم وأنا أرى فيهم أساتذتى، وأعمامى، وأخوالى الذين يجب علىّ احترامهم؟ أليست حياة التسول خيراً من الملك الذى أناله بقتلهم!».

فيبتسم كرشنا من قول أرجنا، ويقول له:



«تتكلم بكلام العقلاء ثم أراك تهتم بما لايهتم به العقلاء! ألا تعلم أن العاقل فى مثل هذا الموقف لايبالى بالحياة ومصيرها؟ هل تظن أننى أنا، وأنت، وجميع هؤلاء الملوك، وسائر هؤلاء الناس، وجدوا بعد أن لم يكونوا شيئاً؟ هذا ما لا يقوله عاقل، لايمكن وجود شىء من لا شىء، كل من هو موجود الآن وجد من قبل، وسيبقى موجوداً دائماً، وكما ترى الحياة تطرأ عليها الطفولة، والشباب، والشيخوخة، كذلك ينتقل الروح من جسد إلى جسد آخر، وهذا التنقل هو الذى نسميه بالموت، ولذلك فإن العقلاء لايزعجهم الموت.

«يا أرجنا! إن الألم واللذة، مناطهما بالمشاعر التى مآلها إلى الفناء، فلا ينبغى لك أن تقيم لها وزناً، والذى يرتفع فوق الألم واللذة هو الذى ينال السعادة الدائمة والنجاة الأبدية، لايمكن أن ينعدم ماهو موجود ولايمكن وجود شىء من العدم، عليك بهذه المعرفة.

«يا أرجنا! يفنى الجسم ولا فناء للروح، فالروح ليس له بداية ولا نهاية، فعليك يا أشجع الشجعان، أن تُبعد الأفكار الباطلة عن نفسك وأن تتأهب للتقال، لأن واجبك هذه الساعة هوَ القتال!

«عليك أن تعلم أن الروح لايقْتُل ولا يُقْتَل. إنه ليس بأمر حادث، بل قديم، أزلى، أبدى، لايتغير ولايتبدل، ولايموت بموت الجسد، فالذى يرى الروح خالداً يعلم كذلك أنه لايَقْتُل أحداً ولايقتله أحد، وكما يبدِّل الإنسان لباسه، كذلك الروح يغير قشرته، فينتقل من جسد إلى جسد.

«أكرر لك يا أرجنا، أن الروح لايموت ولايزول، إنه خالد، لا النار تحرقه، ولا الماء يغرقه، ولا السلاح يقطعه، هو دائما على حالة واحدة، لايقبل التغير والتبدل، وإن كنت فى ريب مما أقول، وترى الروح كالأجسام، يموت ويولد، فبالحرى ألا تتأخر عن الحرب. لأن الذى ولد

لابد من أن يموت، والذى مات، لابد من أن يولد مرة آخرى، فإن كان هذا مـقـدراً لامناص منه، فلم هذا التـردد منك؟ إن هؤلاء الذين تراهم، لم يكونوا فى الماضى، ولايكونون فى المستقبل. إنهم أبناء الحال لاغير، فلم تبكى لهم وتهتم بهم؟ إن الحياة سر! تحيرت منه الألباب ولكن لا يفـهـمه أحد.

«ثم إن تأخـرك عن الحـرب، يا أرجنا، مناقض لواجـبك كـرجل من كشترى (طبقة المحاربين)، إن القدر قد ساق إليك هذه الحرب التى ليست إلا بابا للجنة، والسعيد من تسنح له فرصة كهذه، وأنت إن ضيعتها، تبوء بإثمك، ويعيرك الناس بالجبن. يظن المحاربون أنك قعدت عن الحرب خوفا وجبنا، فتسقط من الأعين التى مازالت تبجلك. تَفَكَّرْ أى أسى يكون فوق هذا الأسى؟ وهل هناك عار على الرجل أكبر من أن يقال إنه جبان؟ وأنت إن قُتلت، دخلت الجنة، وإن عشت، فزت بملك عظيم. فوطد نفسك على القتال، وباشره غير مبال بالعاقبة»!

ثم قال كرشنا:

«لقد أضلّت كلمات ويدا عقلك، فصرت لاتفهم قيمة الفرض ومايتبعه من الواجبات، والذين يتمسكون بألفاظ ويدا وحدها ويرونها كل شىء، يركـبـون شططاً. إنـهم إنما يجـرون وراء أهوائهم النفـسـية. يمنون أنفـسـهم بالجنة، لأنهم حريصون على لذائذ الحياة، فيقومون بطقوس يرونها تضمن لهم الجنة، ولذلك تبلبلت عقولهم، وتشبعت سبلهم، وضلت أعمالهم، فـهم فى حيـرة وارتبـاك، يجرون وراء شـهـواتهم، ولايسـتـطيعـون حصـر أفكارهم فى نقطة واحدة.

«أمـا أنت، فكن فـوق القـشـور الويدية. لاتقلقك أفكار الراحـة أو التعب، النجاح أو الخيبة، بل كن مطمئناً منشرحاً فى روحك، والعاقل

الذى وصل إلى الحقيقة، ليست الكتب الويدية له إلا كبئر فى مكان ذى أنهار، فعليك أن تقوم بواجبك، لأنه واجب عليك، واجمع عقلك على هذه النقطة وحدها..».

سأل أرجنا: كيف للمرء أن يجمع عقله؟

فأجابه كرشنا قائلا:

«إن الذى تغلّب على أهوائه النفسية، وملك حواسه كلها، فلا يخاف شيئاً ولا يطمع فى شىء ولا يحب أحداً ولا يكره أحداً، لهو الذى نال العقل وجمعه، إن الحواس تتبع ميولها، فعلى المرء أن يجذب إلى قبضته حواسه من مشتهياتها كما تجذب السلحفاة أطرافها إلى بعضها، أجل، إن النفس لطاغية جامحة، إلا أنه يجب السعى لضبطها وتحويلها إلى الله. فالذى لا علاقة له بشىء، ولا يخاف شيئاً، ولا يطمع فى شىء، وحواسه تحت أمره، فهو المطمئن حقاً. وإن كان يقوم بأعمال الحياة الدنيا كغيره من الناس، إما العمل الحقيقى، هو التحرر من سلطة النفس، فمن تحرر منها، فقد فاز بالطمأنينة الحقيقية، واهتدى إلى الله، وفاز بالنجاة».

فقال أرجنا: «إن كانت النجاة لاسبيل إليها إلا بالتغلب على الحواس وقهر النفس، فلماذا نهتم بأمور الناس؟».

فأجابه كرشنا قائلا:

«إن الذى يتجرد من الدنيا بترك واجبه، لايصل إلى الكمال أبداً، والأعمال التى تأسر الإنسان، هى التى يقوم بها لإرضاء نفسه. لا لأجل المصلحة العامة. فعلى المرء أن يجعل سائر أعماله خالية، منزهة من أهواء النفس وما عاشت هذه الدنيا إلا بمثل هذه الأعمال النبيلة النزيهة، والذى يطبخ الطعام ليأكله وحده، لآثم، وإذا أكل فلا يأكل إلا إثمه. والذى لايهتم بمصلحة غيره فهو سارق. والذى يحيا لإرضاء حواسه، فحياته كلها

إثم. ليس لأحد أن يسخر غيره لإشباع ميوله. وإنما الطريق إلى الله أن تكون الأعمال خالصة له ولنفع خلقه.

«اعلم أن أشد أعداء الإنسان، اثنتان: الشهوة والغضب. وهما اللذان يدفعانه إلى الذنوب، وكما يغطى الدخان النار، ويكدر الغبار صفاء المرآة، كذلك الشهوة والغضب يغطيان عقل الإنسان، فعلى الإنسان أن يقتل هذين العدوين.

«لا شىء يطهر الإنسان أكثر من هذا العرفان، والعارف يدرك بالتدريج أن الله معه وفيه، وأكبر مايحتاج إليه الإنسان فى سلوكه إلي الكمال، هو الإيمان وقهر النفس».

وسأل أرجنا مرة أخرى: «ما الأفضل للإنسان: التجرد من الدنيا ومراقبة النفس، أو تطهير النفس مع التعلق بأمور الدنيا؟».

فأجابه كرشنا قائلا:

«إن الذين يفرقون بين الطريقتين، أطفال لايعقلون، أما العالم العاقل، فلا يفرق بينهما، والإنسان يصل إلى الكمال بأى طريق سلكه إن قام بشروطه حق القيام. والذى يرى الطريقين سبيلا إلى المقصود فهو المصيب.

«والناسك الحق هو الذى لايبغض أحداً، ولايشتهى شيئاً، ولايرى غير الله شيئاً، إنه يجرى وراء واجبه دائما، قد طهَّر قلبه وتغلب على حواسه، فنفسه فى قبضة يده، لاتنازعه ولاتحيد به عن الصواب، وهو يرى جميع الأرواح كروحه، ولايفرق بينهما، ولايقصد بعمله إلا وجهه تعالى وحده.

«والذى يقوم بواجبه كما قلت، يبزغ نور العرفان فى داخله كما تبزغ الشمس فى السماء، فيرى ربه بعين قلبه، ويسعد بالنجاة بعد أن تذهب ذنوبه وتحل محلها الحسنات.

«واللذائذ الحسية، عاقبتها الألم والحزن، فلا يجرى العاقل وراءها. والذى ملك حواسه ونفسه فى هذه الحياة، فهو الناسك حقاً، وهو الذى فاز بنعمة راحة البال. إنه يجد الطمأنينة والراحة، والنور فى روحه، ويصل إلى النجاة بفنائه فى الخالق، ولا يسعد بهذا إلا من نسى نفسه، وقهر هواه، ولا يزال فى عمل مستمر لمصلحة الناس عامة.

«وليس الناسك من يتشبث بظواهر النسك وحدها، فلا يمس النار، ويفعل هذا ولا يفعل ذلك كالمتنطعين. إنما النسك كيفية قلبية، لا هيئة خارجية، فالذى لا يبالى بالعواقب فى أداء واجبه، فهو الناسك الصادق، والذى يتخلى عن واجباته فى الدنيا، فهو ليس من النسك فى شىء.

«ليس للإنسان صديق إلا نفسه، وليس له عدو إلا نفسه، ومن تغلب على نفسه فهو صديق نفسه، ومن قهرته نفسه، فهو عدو نفسه، فمن غلب نفسه فأصبح لا يبالى بالحر والبرد، بالراحة والألم، بالسراء والضراء فهو صاحب الروح الأكبر، ومن يرى الصديق، والعدو، والقريب، والبعيد، والسعيد، والشقى، بعين واحدة فهو المهتدى.

«ليست النجاة للذين افتتنوا بالدنيا، ولا للذين هجروا الدنيا فارين من واجباتهم، بل هى للذين يلزمون الطريقة الوسطى، فلا يفرّطون ولا يُفْرطون، فى مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، ومسكنهم، إنهم وسط فى كلَ شىء، فيستريحون كما ينبغى، وينصَبون كما ينبغى.

«والناسك الحق هو الذى يرى وجوده فى وجود الآخرين، ووجردهم فى وجوده، وهو الذى لا يفرق بينه وبينهم، بل يدرك الله فى الجميع ويدرك الجميع فى الله. فمن كان هكذا، فعلاقته بالله وثيقة لا انقطاع لها. فالذى يحمد الله فى خلقه وينسى نفسه، فهو مع الله أينما كان وحيثما كان. ومن يرى سعادة الآخرين وشقاءهم، سعادته وشقاءه فهو حبيب الله حقاً».

وسأل أرجنا «أليس قهر النفس الأمارة، كما تقول، لمن أصعب الأمور؟».

فأجابه كرشنا قائلا:

«أجل، ياعزيزى! إنه لمن أصعب الأمور، لايكون قهر النفس إلا بصدق النية، والتمرين، والرغبة عن لذائذ الدنيا، والذى حرم قوة الإرادة والعزيمة، فلا يتمكن من قهر نفسه، ولاينال النسك. والشرائع الظاهرية والطقوس الرسمية لا تنفعه شيئاً، إن مجرد الرغبة فى هذا السلوك، يغنى المرء عن ويدا وعن شرائع ويدا؛ هذه الرغبة تجعله فوق كل هذا، ومن سعى مع هذه الرغبة سعياً صادقاً، وإن كان قليلا، ينتفع به. وإن اضطرب قلبه ولم ينجح فى النسك كل النجاح، لأن طريق التقدم الروحى ينفتح أمامه، يسلكه إذا وطد عزمه.

«والعارف الذى يعبد الله، يرى الكثرة فى الوحدة والوحدة فى الكثرة وأينما يتجه بوجهه يرى وجه الله، الحى الذى لايموت والرب الذى به يقوم كل شىء».

وهكذا يتضح لنا أن الكتاب المقدس «كيتا» يُعَدُّ من أهم الكتب المقدسة لدى الهندوس، وهو حافل بأدق المعتقدات والأفكار الهندوسية.

يوجاواسستها Yogavasistha

ألقى قديس هندوسى معاصر هو سوامى رام تيرتها Swami Ram Tirtha الذى أشرنا إليه من قبل، محاضرة بأمريكا عن كتاب يوجاواسستها قال فيها: إن أعظم وأنفع كتاب ألف تحت السماء هو بلا ريب كتاب يوجاواسستها الذى يمكن من يقرؤه من أن يعرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه.

ولايُعرَف مؤلف هذا الكتاب كالشأن فى أكثر الكتب الهندية المقدسة، وهو منظوم يحتوى على أربعة وستين ألفاً من الأبيات، مما يرجح أن يكون من عمل مجموعة من الناس لا من نظم شخص واحد: وزمن تأليفه غير معروف أيضاً وإن مال بعضهم إلى أنه ألف فى القرن السادس الميلادى بسبب إشارات وردت فيه تشير إلى أحداث وقعت فى هذا القرن، ولكن الذى نميل إليه أنه ألف فى فترة زمنية طويلة، وأن هذه الإشارات ليست إلا للأجزاء التى ألفت فى القرن السادس، وليست دليلا على تحديد وقت لتأليف الكتاب كله.

وموضوع الكتاب هو الفلسفة واللاهوت، ودراساته عميقة جداً، ويفترض الكتاب تلميذاً اسمه «راما» تنتابه الشكوك والأوهام فيسأل أستاذاً له عما يساوره، ويطلب بياناً لإيضاح ما غمض عليه، ويجيبه أستاذه شارحاً موضحاً، ولنبدأ بنقل هواجس التلميذ وانفعالاته، ثم نورد الردَّ عليها.

قال راما :

«لقد جربنا مراراً وتكراراً أنه لايمكن أن تُنْتَظر سعادة حقيقية دائمة من حياتنا هذه، لقد تيقنا ذلك، ولا نرتاب فيه، ومع هذا يسوقنا الهوى إلى أن نأمل من هذه الحياة كل سعادة.

«إن اكتناز الثروة لا يجعلنا سعداء بل كثيراً ما يجرنا إلى الشقاء وليست الحياة إلا سحابة صيف تمر سريعاً، أو كنور سراج فَقَدَ زيته، ومع هذا فرغبتنا فيها دائمة لا تشبع أبدا، ولا تقنع بما فى اليد، وكلما زادت من شبعها ازداد جوعها وطموحها، وليس فى العالم شر أكبر من الرغبة، إنها تجرُّ حتى أعقل الناس إلى الفتنة.

«لا خير فى الجسد لأنه محل العاهات، ووعاء لسائر الآلام، وهو سائر إلى الانحلال.

اتصفت الطفولة بالضعف والتوقان، والعجز، وعدم القدرة على الكلام والتجرد من العلم، والرغبة فيما لاينال، والتقلب الفكرى، وقلة الحيلة. وياترى ماذا يجود علينا به ذلك الزمن الذى نسميه بالشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تختطف أبصارنا ثم لا تلبس أن تختفى؟ وتجىء بعدها الشيخوخة بآلامها القاسية.

«تتراءى النساء جميلات فاتنات لحين من الزمن فقط، وذلك أيضاً للذين على أبصارهم غشاوة من الجهل، وإلا فالحقيقة التى لا مراء فيها أنه ليس فى أجسادهن شائبة من الجمال، وإنما هو جهلنا الذى يخدعنا فيظهرن لنا كأنهن جميلات.

«فيا ترى ما الفائدة من الحياة التى لا مناص فيها من الشيخوخة والموت؟ لا مفر لإنسان من الشيخوخة، إنها تصرع حتى الأبطال الذين لايعرفون الهزيمة قط فى ساحة الميدان، وتلحق حتى الذين يختفون خوفاً منها فى الكهوف وماقيمة الجسد، والأفراح، والثروة، والجاه، والملك، إن كان محتماً علينا أن نموت عاجلا أو آجلا وأن يقضى الموت على كل شىء؟

«إن جميع الروابط والعلاقات سلاسل من الأسْر والعبودية، والمسرات كلها أمراض فتاكة، كل إنسان تخدعه نفسه ثم تسوقه إلى شراك الأهواء والرغبات، فيبتلى بمصيبة «تكرار الميلاد».

قال راما لأستاذه بعد أن انتابته هذه الأفكار: أخبرنى ياسيدى المرشد عن أحسن طريق للتحرر من آلام الحياة.

وبدأ الأستاذ يجيب فكان مما قال: «إن علة سائر الآلام والمصائب هى (تريسنا Trisna) أى الرغبة فى المآرب الدنيوية، إن هذه الرغبة تلدغ صاحبها كالحية السامة الفتاكة، وتقطع كالسيف البتار، وتنفذ كالرمح الحاد، وتحرق كالنار، وتطحن كالرحى الثقيلة، ونحن نفتتن بالحياة لأننا

نجهل فطرتنا الحقيقة وماهية الدنيا، فإذن الجهل هو علة العلل لسائر الآلام، إن منبع جميع الشرور هي قلة العلم، وأحسن دواء هو الوصول إلى الحكمة، فالحكمة هي الجسر الوحيد الذي يجتاز عليه المرء بسلام بحر هذا العالم، وتُنال الحكمة بالسعي والجهد، لأن العلم لاينزل علينا بنفسه، فالسعي والجدُّ هما الأساس، وليس هناك شيء يسمى الحظ أو القضاء والقدر فنحنَ الذين نخلق حظّنا بمجهودنا، وليس من سبيل لتجنب الشقاء أو التخلص منه إلا بسعينا وجهودنا، فالذين يتكلون على القضاء والقدر ولا يسعون بأنفسهم هم أعداء أنفسهم، وهم الجهلة والكسالى. فالحظ اسم لشيء لا وجود له إلا في أوهام العجزة البله.

«فإذا كان هناك شيء يصح أن يسمى الحظ فذلك الشيء هو أعمالنا الماضية، ومن أجل هذا يجب على كل واحد منا أن يسعى بعزم ثابت ليحقق مايريد».

«وأول ما يُطالب به الطالب الباحث عن الحق أو الراغب في تحرير نفسه من انحلال العبودية يتلخص في كلمات أربع هي : الطمأنينة، والقناعة، وملازمة الحُكماء، والتأمل العميق، ومعنى الطمأنينة أن يصفو قلب المرء من كل كدر، ومعنى القناعة ألا يرغب في شيء ولا يعادي شيئاً، فالحكمة لا تنزل على العقل الذي استعبدته الأهواء والرغبات، ومصاحبة الحكماء تزيل الظلمات عن القلب، والتأمل العميق هو الوسيلة إلى الحق.

«ويعرَف الشخص الذي تجمعت فيه هذه الصفات بأن يصبح في حال لا السرور يَسُرُّه، ولا الألم يحزنه، ولا يتأثر قلبه بالرغبة أو الكره، وأنه على رغم انهماكه الظاهر في الأعمال الدنيوية لايتعلق عقله بشيء من الدنيا، لا يؤذي سلوكه أحداً، ويكون صديقاً للجميع، ترى ظاهره مشغولا ولكن باطنه في الحقيقة مطمئن تمام الاطمئنان، تحرر من جميع قيود الطوائف والمعتقدات والطبقات والتقاليد والعادات والكتب، استراح في «المسرةً



العليا» لايعمل عملا للنفع الذاتى، صدره منشرح والبشاشة لاتفارق وجهه. يعامل سائر الناس بالحسنى، لايشعر باليأس، ولا بالكبر، ولا بالاضطراب الفكرى، ولا بالسرور المفرط، كله عطف وحنان وحب، لايحتقر السرور، ولايجرى للحصول عليه، يشعر بالابتهاج فى جميع أحواله، حتى فى شيخوخته وعجزه وموته، فحياة الشخص المتحرر أنبل حياة، وأشرفها والناس يفرحون برؤيته وسماع صوته[1]».

رامايانا Ramayana

رامايانا كتاب قديم لايعرف مؤلفه ولا تاريخ تأليفه بالضبط، وكل مانعرفه عن تاريخه أنه كله أو بعضه أقدم من مهابهارتا الذى تكلمنا عنه فيما سبق، وعُرف تاريخ رامايانا التقريبى بواسطة إشارات إليه فى مهابهارتا، وإن كان ذلك لايحدد تاريخه بالضبط لأن الكتب المقدسة الهندية أُلِّفت فى فترات طويلة، فلا يدلُّ حدث بها على تاريخ تأليف الكتاب كله.

ورامايانا يُعْنَى بالأفكار السياسية أو الدستورية للحياة الهندية، فهو يتحدث عن تكوين مجالس الشورى، وطرق اختيار الملوك وولاة العهود، ثم عن واجبات الملك، وعن واجبات مجالس الشورى وسلوك أعضائها.. ونقتبس من هذا الكتاب ثلاث خطب تتصل بأحد ملوك الهند المشاهير وهو الملك راما وتحتوى على تقاليد ونظم هندية تتصل بالسياسة.

«أحس دساراتها ملك الهند بوهن فى صحته، فعقد المجلس التشريعى فى عاصمته «أيودها» وألقى بالمجلس الخطاب التالى :

اخترتمونى ملكا عليكم، وقد بذلت كل جهدي فى القيام بواجباتى نحوكم، وهأنذا قد بلغت من الكبر عتياً، ويحتِّم علىَّ واجبى أن أصارحكم

(1) See: Atreya : Yogawasisiha and its Philesophy pp. 96 - 100.

بأن أعباء الملك فوق مقدرتي الآن، وأراني أضعف من أن أتحملها، وهذه الأعباء تحتاج إلى رجل أقوى مني جسداً وعقلا، وإنكم لتعرفون راما ابني، ولاتخفى عليكم مزاياه التي تؤهله ليكون ولي عهدي، وينوب عني في الحكم مادمت حياً، ويخلفني بعدي، ويخدم شعبه كأبيه، هذا رأيي أنا، ولكم الحرية التامة في قبوله أو رده، فإن قبلتموه فذاك ما أريد، وإن رفضتموه واخترتم رجلا غيره فإني أنزل على إرادتكم، وأقبل قراركم بطيب نفس، لأن غايتكم وغايتي واحدة، هي خدمة الشعب وخير البلاد».

وخرج الملك وترك الأعضاء ليتناقشوا، فاتفقت كلمتهم على قبول راما ولياً للعهد ونائباً عن الملك في حياته، على أن يكون ملكا بعد وفاة أبيه إن سار سيرة والده في الحكم.

فلما بُلِّغَ دساراتها ذلك عاد للمجلس ومعه راما وخاطبه أمام قائلا:

«لقد وقع اختيار مجلس الشعب عليك لتكون ولي عهدي ونائبي في الحكم وخلفي في الملك بعد مماتي، وبما أنك أكبر أولادي من زوجتي الأولى التي هي كفء لي في العز والمجد، فأنت أحق أولادي بالشرف الذي رآك المجلس أهلاً له، ومزاياك المعروفة جعلتك خليقاً لتخدم شعبك، فعليك أن تخفض جناحك لرعيتك، وتسهر لراحتها ورفاهيتها، وتعدل في الحكم، وتنصف سائر الناس، وليكن الصغير والكبير سواء عندك في الحكم، ولاتؤثرن نفسك على المصالح العامة، ولاتخلدن للراحة والتمتع بلذائذ الحياة، وليكن همك الوحيد رضا الشعب وهناءه، فالملك يجب أن يكون محبوباً لدى شعبه، محموداً في سيرته وأشقى الناس وأنحسهم الملك الذي تمقته رعيته، لأن من يمقته خلق الله يمقته الله».

وابتدأ راما مسؤلياته بخطاب قال فيه: «لايوجد العدل إلا بالصدق، ويجب أن يكون محضاً صريحاً لاتشوبه شائبة من الكذب والباطل،

وأعضاء هذا المجلس الذين يعرفون الحق ثم يظلون ساكتين هم أكثر الكاذبين شراً، والذين يسكتون عن الحق نظراً لمصالحهم الذاتية أو خوفاً من نقمة الأقوياء هم المجرمون الذين يخلدون فى نار الجحيم».

٨ - لمحة تاريخية عن الديانة الهندوسية

الهندوسية كما سبق القول - مجموعة من العادات والتقاليد والمعتقدات الهندية سواء منها مايرجع إلى السكان الأصليين أو ما جلبه إلى الهند الزاحفون التورانيون أو الفاتحون الآريون، وكانت العقائد الآرية الأولى قد طرأ عليها تغير كثير بسبب اتصال الآريين بالإيرانيين وهم فى طريقهم إلى الهند[١] وقد دُوِّنت هذه المعتقدات وتلك التقاليد فى الويدا فاكتسبت قدسية وجلالا.

والهندوسية دين توحيد من جهة ودين تعدد من جهة أخرى، كما سبق القول، وتظهر فيها أفكار بدائية كعبادة قوى الطبيعة وعبادة الأجداد، وعبادة البقر بشكل خاص.

البرهمية:

وارتقت الهندوسية عندما تجمَّع البراهمة فى القرن الثامن قبل الميلاد، فأعادوا التفكير فى دينهم، ووضعوا مذهب البرهمية وقالوا بعبادة براهما. وكانت الهندوسية تعنى بنظام الطبقات وتقول بتناسخ الأرواح ووحدة الوجود.. ومن أهم ماعنيت به تقديم القرابين على أن يتم ذلك بحضور برهمى وتبريكه. وبدون القرابين تتلاشى أرواح الموتى ويُطفأ مجد الأسرة إلى الأبد، فالقرابين غذاء للأجداد، وكان الإله «أغنى» يحملها إليهم وكان عدم تقديم القرابين إلى الأجداد يعتبر كمن يترك والديه يموتان جوعاً.

---

(١) Hinduism Ed. Lowis Renau p. 2.

ظهور البوذية والجينية :

وضعفت الهندوسية عندما خرج غوتاما بوذا ومهاويرا بمذهبيهما أو بدينيهما، ولكن الهندوسية سرعان مانفضت الغبار وعادت إلى الحياة، وقضت على الانتصار المؤقت الذى تحقق للبوذية والجينية، وسنوضح فيما بعد الظروف التي ساعدت على ذلك، ولكن الهندوسية ظهرت هذه المرة فى ثوب جديد نوعاً، بفضل شرائع «منو» التى نسّقت هذه الديانة وأكسبتها قوة كانت من عوامل انتصارها على البوذية والجينية، وظهرت شرائع «منو» فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد، وقد لانت فيها الآلهة بعد قسوة وعنف، وذلك بتأثير البوذية فى هذا المجال.

ولكن شرائع منو وجهت عنايتها إلى الطقوس وتقديم القرابين أكثر من اهتمامها بالآلهة، ويعتبر هذا تطوراً كبيراً فى الهندوسية التى كانت توجه عناية كبيرة إلى الآلهة، فاتجهت الآن إلى الطقوس والمظاهر، وكان من مظاهر هذا الإهمال أن اعتبر الإله «براهما» ليس مستقلا بل موزعاً فى جميع المخلوقات أطيبها وأخبثها يشاطرها مصايرها وينال نصيباً من آثامها وآلامها وبعثها وتحولها[1] وفى ذلك يقول منو «تستقر الروح العليا فى أرقى المخلوقات وأسفلها».

المسيحية تدخل الهند :

وجاءت المسيحية، وظهر بولس فاقتبس للمسيحية اتجاهات التثليث وصلب المسيح ابن الله تكفيراً عن خطيئة البشر.[2] وانتصر بالقوة والسلطان مذهب، بولس لأسباب شرحناها فى كتابنا عن «المسيحية» واضطر المسيحيون الذين قالوا بالتوحيد وبنبوة عيسى أن يهاجروا من الدولة الرومانية، فاتخذ بعضهم طريقه إلى الهند، ومنهم بعض النسطوريين الذين نشروا دينهم عند قلة من الهنود كانت الأساس الذى بَنَى عليه المبشرون

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣٣٣.

(٢) أقرأ كتاب المسيحية من سلسلة «مقارنة الأديان» للمؤلف، ص ٧٥ - ١١٢.

الغربيون فيما بعد جهودهم لنشر المسيحية بوسائل التبشير الحديثة، ولكن نتائج التبشير المسيحى فى الحالتين كانت ضئيلة جداً على كل حال.

الإسلام فى الهند وتأثيره وتأثره:

وجاء الإسلام، وللعرب صلات وثيقة بالهند بدأت قبل الإسلام بعدة قرون بسبب التجارة[1]، وعن هذا الطريق، وعن طريق هجرة بعض العرب والفرس المسلمين إلى الشمال الغربى للهند، ثم عن طريق الفتوح العربية والأفغانية والتركية والمغولية، ولسهولة الإسلام ويسر تعاليمه، انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً وسريعاً في الهند، فأصبح يعتنقه ما يزيد عن مائة مليون نسمة، وبالإضافة إلى هذا الانتشار وكسب الأتباع أثَّر الإسلام فى الهندوسية، فتكوَّن من اتصال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى بالحضارة الهندوسية والفكر الهندوسى، حضارة جديدة يسميها غوستاف لوبون[2] «الحضارة الهندية الإسلامية».

وكما أثر الإسلام فى الهندوسية، نرى المسلمين الهنود تأثروا بالهندوسية، ويمكن القول إن عامتهم انحرفوا بالإسلام فجعلوه إسلاماً فيه اتجاهات هندوسية، ويُعَدُّ من الانحراف بعض اتجاهات الإسماعيلية وبعض اتجاهات الأحمدية واتجاهات أتباع معين الدين شيستى، وقد نشرت فى كتابى «المجتمع الإسلامى» وثيقة تجعل زيارة ضريح هذا الشيخ تنوب عن الحج إلى بيت الله الحرام، وتقرر أن الطواف حول ماسماه ابن الشيخ «الروضة الشريفة» كالطواف حول الكعبة، وتسمى الباب المؤدى لساحة الضريح: «باب الجنة» وتقرر بصراحة أن «من المأثور أن هؤلاء الذين سيعبرون باب الجنة إلى الروضة ستفتح لهم أبواب الجنة بعد موتهم»[3].

---

(١) اقرأ عن تجارة العرب مع الهند والصين «موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف» جـ١ ص ١٢٨ ومابعدها من الطبعة العاشرة.
(٢) حضارة الهند، ص ٤١٧.
(٣) المجتمع الإسلامى للمؤلف، ص ٣١٩ من الطبعة السادسة.

وذكرت فى هذا الكتاب كذلك معلومات خطيرة عن الأحمدية وقولهم عن خاتم الأنبياء[1] .

أما الإسماعيلية فقد اقتبست كثيراً من اتجاهاتهم وسجلتها فى الجزء الثامن من موسوعة «التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية»[2] .

وليست هذه الانحرافات إلا تأثراً بالهندوسية .

ويعدد غوستاف لوبون بعض ملاحظات له عن تأثر مسلمى الهند بالهندوسية ، فى تدينهم وحياتهم الاجتماعية ، ونقتبس فيما يلى بعض ماقاله :

«ولم يوفّق الإسلام لنشر المساواة بين جميع الناس فى البقاع الهندية التى يهيمن عليها ، مع أن القول بالمساواة كان من أهم الأسباب التى دفعت الناس لاعتناق الإسلام ، وظل المسلمون فى الهند يعرفون نظام الطبقات عمليا إن لم يعرفوه نظريا .

«واقتبس الإسلام فى الهند بعض التقاليد البوذية والبرهمية ، فمن ذلك أن جميع المسلمين يمارسون تقديس الذخائر المماثلة لتلك التى يعبدها البوذيون ، فعند المسلمين شعرات يقدسونها يقال إنها من لحية النبى محمد كما أن البوذيين يحتفظون بشعرات من غوتاما ، وأتباع الديانات الثلاث : الإسلام والبوذية والهندوسية يقدسون مواقع أقدام ينسبونها لبراهما وبوذا ومحمد ﷺ»[3] .

وقد كتبت هذه الكلمات لأول مرة وفى كشمير ثورة عارمة لأن شعرة يقدسها المسلمون لاعتقادهم أنها من شعرات الرسول محمد صلوات الله

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ومابعدها من الطبعة السادسة .

(٢) ص ١٦٧ - ١٧٨ .

(٣) حضارة الهند ، ص ١٢٨ .

وسلامه عليه قد سرقت، وقد أدى اختفاء هذه الشعرة إلى حوادث اضطراب متصلة، وتظاهر المسلمون، وثاروا ثورة عنيفة احتجاجاً على سرقة هذا الأثر المقدس، ويصور البيان الذى أصدرته حكومة كشمير يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٦٣ مدى سخط المسلمين وهياجهم لضياع هذا الأثر العظيم، يقول البيان :

إن المتظاهرين قد زحفوا على محطة إذاعة كشمير وأشعلوا - وهم فى طريقهم إليها - النار فى المبانى الحكومية، ومكاتب شركات التأمين، ومراكز البوليس، ودارين للسينما، وفندق. ولما أسرعت سيارات المطافئ لإطفاء الحرائق هاجمها المتظاهرون وضربوا جنودها وأشعلوا فيها النار أيضاً.

وفى اليوم التالى أضربت جميع المصانع والمتاجر الإسلامية فى سريناجار عاصمة المنطقة الهندية من كشمير، احتجاجاً على سرقة شعرة النبى محمد من مسجد حضرة بال. وقامت مظاهرات ضخمة عقب صلاة الجمعة ظلت تطوف شوارع العاصمة، ثم عقد المتظاهرون اجتماعاً استنكروا فيه سرقة شعرة النبى.

وقامت الحكومة باتخاذ إجراء بوليسى فى كشمير، وطلب المتظاهرون أن تقوم الأمم المتحدة بتعيين لجنة لبحث ما أسموه بأعمال القمع. التى تتخذها الهند ضد الشعب المسلم فى هذه المنطقة من كشمير بعد سرقة شعرة النبى.

ولم تهدأ الأحوال فى كشمير إلا بإعادة هذا الأثر العظيم إلى مكانه، فقد طلع صبح اليوم الرابع من يناير فوُجِدَتْ الشعرة فى نفس صندوقها موضوعاً فى مكانه بمسجد حضرة بال.

وحادثة الشعرة هذه التى أثارت المسلمين لاعتقادهم أن الهندوس سرقوها، تعتبر نموذجاً لحدة الخلاف بين المسلمين والهندوس، ومن أسباب

الخلاف العنيفة كذلك نظرة الهندوس والمسلمين للبقرة، فالهندوس يقدسونها، ولكن المسلمين يذبحونها، ومن أسباب الخلاف كذلك نظرة هؤلاء وأولئك للتماثيل. فمعابد الهندوس مكتظة بالآلهة، ومساجد المسلمين لا تماثيل فيها، وكان من نتائج هذا الخلاف أن تمّ تقسيم الهند سياسياً إلى دولتين على أساس الدين، فأعلنت الباكستان بجزأيها الشرقي والغربي دولة إسلامية[1]، وتعداد سكانها حوالي مائة وخمسين مليون نسمة ٩٠٪ منهم مسلمون، أما باقي شبه الجزيرة فقد احتفظ بالتسمية القديمة «الهند» وبين سكانه ١٠٪ مسلمون، أما الغالبية العظمى بالهند فتتبع الهندوسية، وتعداد الهند حوالي ٧٠٠ مليون نسمة (الآن حوالي ألف مليون).

ويقول غوستاف لوبون[2] إن الجهود التي بذلت لحمل الهندوس على التوحيد عندما دخلوا الإسلام لم تنجح، بل أدَّت إلى إضافة إله جديد إلى الآلهة التي كانوا يعبدونها، وكثير من الهندوس المسلمين يؤلهون محمداً، ثم أخذوا يؤلهون علياً، وأبناء الطبقات الدنيا من مسلمي الهندوس يؤلهون كثيرا من الأولياء. فيخلطونهم بالآلهة البراهمية القديمة.

بقي أن نقرر حقيقة لاتحتاج إلى كبير عناء، هي أن انحراف مسلمي الهند الذي أورده غوستاف لوبون، إنما ينطبق على بعض العامة، أما مثقفو الهند فيتبعون الدين الإسلامي القويم، ومن بين مثقفي المسلمين الهنود برزت صفوة مختارة من الباحثين المسلمين، فإقبال ومولاي محمد على وخود ابخش وسيد أمير على وغيرهم ليسوا إلا نماذج ممتازة في موكب الباحثين والمفكرين المسلمين من الهنود.

---

(١) استقل الجزء الشرقي عن الغربي واتخذ لنفسه اسم بنجلاديش وقد تحدثنا عن حركة الاستقلال وتاريخ الباكستان وبنجلاديش في الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الإسلامي.

(٢) المرجع السابق ص ٦٢٦، وانظر كذلك Hinduism p. 30 - 32.

مذهب السك :

ولنعد الآن إلى تحول آخر فى الهندوسية ، فلقد ثار بعض الزعماء والملوك، على كثرة الأديان، فأرادوا أن يخلقوا ديناً جديداً يكون مزيجاً منها جميعاً أو من أهمها، ويعلق غوستاف لوبون على هذه المحاولة بأنها لم تنجح، وأن كل ما عملته هو أنها أضافت ديناً جديداً لأديان الهند التى ضارعت أوراق الأشجار فى كثرتها[1] ، وأعظم هذه المحاولات هى المحاولة التى قام بها المصلح نَانَك لخلق ديانة واحدة من الإسلام والهندوسية، عرفت بمذهب السك، وقد ولد نانك فى أواخر القرن الخامس عشر، ولما شبَّ دعا لمذهبه الجديد فاتبعه ناس كثيرون، وبعد قرنين على وفاة نانك ظهر المرشد غووند وهو الذى نظم المذهب ونشره ودافع عنه حتى استقر فى الهند كدين جديد يضاف للأديان السابقة دون أن يستطيع أن يجمع بينها.

ويمكن أن يُعَدَّ ضمن هذه المحاولات ما قام به الإمبراطور أكبر (١٥٤٢ - ١٦٠٥) أعظم أباطرة المغول بالهند، فإن هذا الإمبراطور لم يتمسك بالدين الإسلامى، بل أعلن سنة ١٥٨١ ديناً جديداً أسماه «الدين الإلهى» وحث رعاياه على اتباعه، ولكن هذا الدين اختفى بوفاة الإمبراطور.

وانتعشت الهندوسية متغلبة من حيث العدد على كل الأديان التى قامت فى الهند، فالهندوسية ليست دينا فحسب، إنها - كما قلنا من قبل - مجموعة عادات وأفكار، إنها التراث الوجدانى والعقلى والاجتماعى الذى يتوارثه الهنود جيلا عن جيل، على أن انتعاشها فى الزمن الحديث جاء وقد تشربت من البوذية والجينية والإسلام صوراً من أفكارها، وألواناً من معتقداتها وآدابها؛ ويبلغ عدد الهندوس الآن حوالى خمسمائة مليون نسمة[2] .

---

(١) غوستاف : حضارة الهند ، ص ٦٢٧.

(٢) Berry : Religions of the World p. 42

وينبغى ألا نقع فى خطأ وقع فيه بعض الباحثين عن الهندوسية، فقد ظن هؤلاء أن الهندوسية - وهى تقاليد الهنود وفلسفتهم- لم يكن لها تأثير إلا على سكان شبه الجزيرة الهندية، فكما كانت اليهودية دين بنى إسرائيل كانت الهندوسية دين الهنود وفلسفتهم، وهذا صحيح إذا لوحظت الهندوسية نفسها التى يمكن القول أنها لم تخرج من الهند، ولكن الحقيقة أن الهندوسية أثرت بدرجات متفاوتة فى البوذية وفى أفكار بعض المسلمين وفى بعض الأديان والمعتقدات الهندية الأخرى، ومن الهند خرجت هذه الأديان تحمل ملامح من الهندوسية فانتشرت فى الأقطار المجاورة للهند، وبخاصة شرقى آسيا وجنوبيها الشرقى، فالإسلام الذى وفد من الهند إلى بعض مناطق إندونيسيا والفيلبين فيه بعض عناصر من الهندوسية، والبوذية التى هجرت الهند إلى كمبوديا وتايلاند وبورما ونيبال ليست بوذية خالصة ولكن بها عناصر كثيرة من الهندوسية، وفى بالى بإندونيسيا دين مزيج من الهندوسية والبوذية والأفكار البدائية التى سبقت الويدا وعاصرت قرونها الأولى. وكذلك انتقلت عناصر من الهندوسية مع المهاجرين الهنود الذين ينتشرون فى أماكن متعددة من إفريقية وآسيا[١] .

وبمناسبة تأثر الهند بالأفكار الخارجية وتأثيرها فيها، يقرر **Rylands** أن الهند اتصلت بطريق التجارة أو الحروب بالعراق وفارس وقلب آسيا وبورما والصين وسومطرة وجاوة واليونان وروما، ولكن التفاعل الفكرى كان ضئيلا جداً، فقد كان دستور الهند دائما هو إحاطة الفكر الهندى بسور بحيث لايتسرب منه ولا له شىء من الخارج، وفيما عدا البوذية لم تصدر الهند شيئاً من أفكارها وفلسفاتها[٢] .

---

(١) Hinduism Ed. by Lowis Renau p. 2

(٢) The People and Religions in India



الهندوسية فى الميزان

إن دراسة الهندوسية تبرزها معقدة غير معقولة، تهتم بالخرافات، وتهبط فى مستواها متأثرة بالسحر وبالألفاظ الجوفاء، وهذا مأخذ يؤخذ على الهندوسية، ومما يؤخذ على الهندوسية كذلك تأثيرها البالغ فى هبوط المستوى الاقتصادى لمعتنقيها، فبعض طبقاتها لاتعمل لأن العمل لايليق بمكانتها السامية كطبقة البراهمة وطبقة الحكام والجنود، وبعض طبقاتها لاتعمل لأن مهمتها أن تخدم السادة وأن تسهر على رفاهيتهم، ويتبقى للعمل طبقة واحدة يتحتم عليها أن تعمل للطبقات الأربع، على أن نظام الطبقات نفسه يعاب على الهندوسية لتعطيله تكافؤ الفرص وحرمانه كثيراً من الناس من حقوقهم فى السبق والتفوق إن أهّلتهم مواهبهم لذلك.

ويؤخذ على الهندوسية كذلك السلبية العميقة، والتسامح الذى يصل إلى درجة الرضا بالضيم، وربما عُدَّ فضيلة ولكن المبالغة فيه تنقله إلى محيط الرذائل.

ومن العادات المقيتة فى الهندوسية التبكير فى الزواج، فقد كان الأطفال يعقد لهم بالزواج وهم يحبون، وإذا مات الولد - وكثيراً ما كان يموت الصبيان - ترملت زوجته وأمضت حياتها أرملة حزينة عليه، وكثيراً ما كانت الزوجة تلقى بنفسها فى النار لتحرق نفسها بنفس النار التى أشعلت ليحرق بها جثمان زوجها الميت.

وبمناسبة الحديث عن حرق أجسام الموتى الهندوس نقرر أن كثيراً من الناس يرون فى حرق الجثمان مهانة وقسوة، وقد تحدث الناس فى البلاد العربية عن ذلك فى الفترة التى سبقت إخراج الطبعة الأولى من هذا الكتاب بمناسبة حرق جثمان الزعيم الهندى «نهرو» ونذكر هؤلاء بما سبق أن أوردناه من أن الفكر الهندى لايهتم بالجسد حتى فى حال الحياة، أى فى حال حمله للروح التى هى موضع الاهتمام والتقديس، فإهمال الجسد بعد خروج الروح منه أيسر وأسهل.

والهندى يفضل الانفراد والأنانية، والفلسفة فى الهندوسية تدريب روحى، وهى تتطلب من الشخص أن يهذب نفسه وما حوله أكثر من أن تتطلب منه أن يفكر، فالعلاقة بين الفيلسوف وبين العالم ليست إلا علاقة سحر وافتنان.

وليس للفرد أهمية تذكر فى الهندوسية، ويكاد يكون مهملا لأنه ليس إلا عضواً فى جماعة هى بدورها عضو فى جماعة أكبر، وكل العناية تتجه للجماعة لا لأفرادها، ثم إن أهداف الهندوسية الرئيسية هى الحالة العامة (The Situation)وليس للأفراد ولا حتى للجماعات أية قيمة إلا فى ضوء الحفاظ على الحالة العامة.

والهندوسية دين غموض وخفاء، والصدق أهم معالم الهندوسية على اختلاف شُعبها، والزهد والحرمان طريق الهندوسية المفتوح للجميع كوسيلة للنقاء، والهندوسية دين الحكمة، ومن أجل الحكمة فى الهندوسية تأثر الإغريق بها عندما ذهبوا إلى الهند واتصلوا بثقافاتها وتستطيع الحكمة فى الهندوسية أن يمدّ ثقافة العصر الحديث بعناصر نافعة خيِّرة، ويرى بعض الباحثين أن اتصال الهندوسية بالحكمة أكثر من اتصالها بالروح.

وقد مرت على الهندوسية آلاف السنين، ولاتزال محتفظة بتعاليمها، ولم يستطع إصلاح داخلى أن يُغير من جوهرها، ولا سمحت بإصلاح من الخارج ليقتحم عليها رقعتها، فإذا هبت حركة إصلاحية داخلية كالبوذية، أو جاءت من الخارج حركة إصلاحية كالإسلام، كان تأثير الهندوسية فى حركة المقاومة أكثر من تأثرها بها. على أن الهندوسية ستضطر لتنحنى أمام الأفكار التى تقاوم اتجاهاتها الآن، فلم يعد مستقبل أية أمة من الأمم فى يدها وحدها، ولعل نظام الطبقات سيكون أسرع نظم الهندوسية إلى الزوال(١).

---

(١) Hisduism Ed. Lowis Renou pp. 36-38.

الجينية

القرن السادس قبل الميلاد :

يعتبر القرن السادس قبل الميلادى من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة ، ففى كل مكان به كانت عقول الناس تُظهر جرأة جديدة ، وفى كل مكان كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقَاليد الأباطرة والكهان والقرابين ، ويسألون أشد الأسئلة تعمقاً ونفاذاً ، وكأنما الجنس البشرى قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة . ففى هذا القرن ظهر بالهند مهاويرا معلم الجينية ، وظهر غوتاما مؤسس البوذية ، وظهر بالصين كونفوشيوس المربى العظيم ، وفى إيران ظهر زرادشت ، وبين بنى إسرائيل قام أشعيا وغيرُه من المعلمين ، وفى بلاد الإغريق ارتفع صوت فيثاغورس ، وفى مدينة إفيسس تجلى هيراقليتوس يواصل تأملاته وأبحاثه الفكرية فى طبيعة الأشياء ، وهكذا هبّت موجة فكرية تجاوبت أصداؤها فى كل مكان [1] .

النشاط الفكرى بالهند :

ومن بين ألوان النشاط الفكرى التى انبثقت فى القرن السادس (ق . م) كان - كما قلنا - ظهور مهاويراً وبوذا بالهند ، ويلاحظ على أفكار هذين المعلمين ، بل على أفكار جميع المصلحين والفلاسفة الهنود أنها دارت فى الفلك الهندى ولم تتجاوزه ، فالجميع يرون أن الحياة الدنيا تعاسة ، والعيش فيها ويل ، والتغير والزوال أساس الحسرات وأصل الآلام ، والجميع يقولون بتكرار المولد ، وبالزهد وسيلة . . . وإذا شذّ أى مفكر هندى عن هذا الإطار ضاع صوته دون غناء ، ويقول الفيلسوف الهندى عبد السلام الرامبورى عن فرقة الصرواكيين : إنهم شرذمة خالفوا كيان تربتهم فأكلتهم [2] ومن أجل هذا التشابه اختلط أمر الجينية مثلاً على

---

(1) Wells : A Short History of the World p.l 121 .
وثقابة الهند (مارس سنة ١٩٥٠) ص ١٧ .
(2) فلسفة الهند القديمة ص ٦٠ .

غوستاف لوبون فعدّها نوعا من البوذية [1] ، ومن أجل هذا أيضاً لم تستطع البوذية الصمود فى معركتها ضد الهندوسية حول موضوع الطبقات ، وغادرت البوذية وطنها *ثمنا لهذا الخلاف* ، ودخل نظام الطبقات إلى البوذية بشكل عملى وإن أنكرته نظرياً ، أما الجينية فقد اضطرت بعد فشل مقاومتها إلى العودة لقبول نظام الطبقات بشكل ما ، فقررت الاعتراف بالبراهمة ورسمت إجلالهم ، وبذلك استطاعت البقاء فى الهند [2] .

منشأ الجينية والبوذية :

وضع البراهمة نظام الطبقات كما قلنا فى حديثنا عن الهندوسية ، وخص البراهمة أنفسهم بكثير من الامتيازات التى ذكرنا بعضها عند الكلام عن نظام الطبقات [3] ، وفى ظل هذا النظام استبد البراهمة وظهر عسفهم وطغيانهم أحياناً ، وضج الناس من استبداد البراهمة وجورهم وتمنّوا ظهور قائد روحى جديد يخلصهم من ظلم البراهمة وطغيانهم ؛ وكانت طائفة الكشتريا أكثر الطوائف إحساساً بهذا الظلم لشدة ما بين الطائفتين من تنافس كنتيجة لقرب المسافة بينهما . ويمكننا هنا أن نشير إلى أسطورة وردت فى مهابهارتا تدل على مدى ما بين الطائفتين من أضغان ، وتتصل هذه الأسطورة بالأميرة «ديوياني» التى سبق أن تحدثنا عنها عند التعريف الذى أوردناه بمهابهارتا ، وموجز الأسطورة أن «ديوياني» وهى من طبقة البراهمة خرجت فى نزهة فى فصل القيظ ، مع «سرمستها» بنت ملك أسورا ومعهما بعض الأتراب ، ووصلن بحيرة ، فخلعن ملابسهن ونزلن للاستحمام ، فهبت عاصفة حملت ملابسهن وخلطتها بعضها ببعض ، وخرجن من البحيرة ، فأخطأت «سرمستها» بنت الملك ولبست ملابس «ديوياني» البرهمية فقالت لها «ديوياني» : ألا تعلمين أيتها الجاهلية أن كسوة بنت

---

(1) حضارة الهند ص ٦٢٢ .

(2) المرجع السابق ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(3) ص ٥٢ .

الشيخ أكبر من أن ترتديها بنت التلميذ هل أنت بلهاء إلى هذا الحد ؟ فغضبت «سرمستها» وأجابت : أنا بنت ملك يذكره الناس شاكرين أياديه ، وأنت بنت رجل يعيش على الإحسان ، عشيرتى عشيرة البر ، وعشيرتك عشيرة الاستعطاف والتسوّل . . . . وأخرجت كلٌّ منهما ما فى جعبتها من الحقد ، ولم يقنع البراهمة بعد ذلك إلا بعقوبة قاسية تقع على بنت الملك ، واختارت «ديويانى» العقوبة التى تُرضيها ، وهى أن تصبح بنت الملك خادمة لها فى المنزل الذى ستتزوج فيه .

وهكذا كان هناك سخط من كل الطبقات ضد استبداد البراهمة ، وكان الكشتريا أكثر الطوائف سخطاً ، ثم كانوا - لقوتهم - المسئولين عن مقاومة طغيان البراهمة وجبروتهم ؛ وهكذا دبَّ فى نفوس أبناء الكشتريا إحساس بضرورة الثورة ، وقَوِىَ هذا الإحساس على مر الزمن ، حتى جاء القرن السادس فإذا بالإحساس يصبح واقعاً ؟ فهبت ثورتان كبيرتان فى وجه الهندوسية ، يقود مهاويرا إحدى هاتين الثورتين ، ويقود غوتاما ثانيتهما ، فلنبدأ بالحديث عن الأولى .

مهاويرا زعيم الجينية

بيت مهاويرا وولادته ونشأته :

ينحدر مهاويرا من أسرة من طبقة الكاشتريا التى تسيطر على أمور السياسة والحرب ، وكانت أسرته تقيم فى «بيساره» وهى بالقرب من المدينة المسماة الآن «بتنا» بولاية «بيهار» وكان أبوه «سدهارتها» عضواً فى المجلس الذى يحكم المدينة أو قطاع المحاربين فيها ، وتزوج «سدهارتها» من بنت رئيس هذا المجلس واسمها «ترى سالا» وارتقت مكانة «سدهارتها» حتى وصفته بعض الروايات بأنه كان أمير المدينة أو ملكها ، وكان مهاويرا الابن الثانى لوالديه ، ولذلك آلت الإمارة إلى أخيه عقب وفاة الأب .

وكان مولد مهاويرا سنة ٥٩٩ق . م . وفى اليوم الثانى عشر لولادته اجتمع أعضاء الأسرة فى حفل كبير ، ودعيت عمة الطفل لتختار له اسما كالعادة ، غير أن والديه ذكرا أن الأسرة نعمت بالرخاء والخير منذ حملت به أمه ، واقترحا لذلك أن يسمى «وردهاماتا» أى الزيادة ، ولكن أتباعه يدعونه «مهاويرا» مدعين أنه الاسم الذى اختارته له الآلهة ومعناه البطل العظيم ، ويدعى كذلك «جينا» أى القاهر والمتغلب ، وبهذا الوصف سميت الفرقة كلها وسميت به الديانة الجينية لأن مؤسسيها عرفوا بقهر شهواتهم والتغلب على رغباتهم المادية (١) .

ونشأ مهاويرا فى بيته المجيد ، وسط الرخاء وطيب العيش ، وكانت أسرته تستقبل من حين لآخر وفود الرهبان وجماعات النساك حيث يجدون فى دار الأمير إقامة طيبة وحسن ترحيب ، وكان مهاويرا منذ نعومة أظفاره يحب مجالستهم ويستمع إلى حكَمهم وإرشاداتهم ، وتأثر مهاويرا بهم وبفلسفاتهم فعزف عن المتع والملَاذ الدنيوية ، ومال إلى الرهبانية والتبتل والزهد ، ولكن الظروف لم تكن تسمح له بالتعمق فى الرهبنة والخوض فى الزهد نظراً لمكانة أسرته التى كانت ترعى شئون السياسة والنضال ، وتعيش فى الترف والبذخ .

ودفعته حياة أسرته إلى الزواج ، فتزوج بفتاة اسمها «يسودا» وولدت له بنتاً سميت «أبوجا» وظل مهاويرا طيلة حياة والديه يكبت إحساسه وشوقه للرهبنة ويعيش فى الظاهر كما يعيش أبناء طائفته ، وينطوى باطنه على رغبة فى الزهد والصفاء ، فلما توفى والده أتيحت له الفرصة ليعلن ما أخفى ، وكان أخوه الأمير قد تولى الإمارة ، فطلب منه مهاويرا أن يأذن له فى الرهبنة ، ولكن الأمير خشى أن يظن الناس أن تصرُّف مهاويرا كانت نتيجة

---

(١) حامد عبد القادر . بوذا الأكبر ص ٢٦ .
و . Berry : Religions of the World p. 41

لقسوة أخيه عليه أو تقصيره فى مطالبه ، فطلب الأمير من مهاويرا أن يؤجل ذلك عاماً ، فاستجاب له مهاويرا ، وفى الموعد المحدد عُقد اجتماع كبير تحت شجرة أشوكا اشترك فيه أفراد الأسرة وأهالى البلدة ، وأعْلَن مهاويرا فيه رغبته فى التخلى عن الملك والألقاب ومتاع الدنيا ليخلو للزهد والتبتل ، وكان هذا مطلع حياته الروحية الصريحة ، فخلع ملابسه الفاخرة ، ونزع حليه ، وحلق رأسه ، وبدأ حياة جديدة وكانت سنه آنذاك ثلاثين عاماً .

ترهيب مهاويرا ودعوته :

صام مهاويرا يومين ونصف يوم ، ونتف شعر جسمه ، وبدأ يجوب البلاد حافياً ، وفى زى الزهاد والنساك ، ولجأ إلى الزهد والجوع والتقشف ، وغرق فى التفكير ، واهتم بالرياضة الصعبة القاسية والتأملات النفسية العميقة ، وبعد ثلاثة عشر شهراً من ترهبه خلع ملابسه دون حياء ، إذ كان قد قتل فى نفسه عواطف الجوع والإحساس والحياء ، وكان أحياناً يعتكف فى المقابر ، ولكن أكثر وقته كان يمضيه متجولاً فى طول البلاد وعرضها ، وكان يغرق فى المراقبة إلى حد لا يشعر فيه بالحزن أو السرور ، ولا بالألم أو الراحة ، وكان يعيش على الصدقات الطفيفة التى تقدم إليه .

ودرجات العلم عند الجينيين خمسة سنتكلم عنها فيما بعد ، ويرى الجينية أن مهاويرا ولد مزودًا بثلاث منها فلما واصل تأملاته وتقشفه حصل على الدرجة الرابعة ، واستمر مهاويرا يصارع المادة ويزيد فى تبتُّله ، فراح يجوب البلاد دون راحة ، وحرص كل الحرص على ألا يقتل حياً ، وكان يراقب نفسه مراقبة دقيقة فى صمت تام ، وبعد اثنى عشر عاماً أصبح - كما يقول عنه أتباعه - سَيْرُهُ مستقيماً كسَيْر الحياة ، لا يبالى بالعراقيل كالعاصفة ، وكان قلبه نقياً كماء البِرْكَة فى الشتاء ، لا يلوثه شىء كورق اللوتس ، مشاعرُهُ محميَّة كأعضاء السلحفاة ، وحيداً فريداً كقرن الخرتيت ، حراً

كالطير ، جسوراً كالفيل ، قوياً كالثور ، مهيباً كالأسد . ثابتاً كالجبل ، عميقاً كالبحر ، وديعاً كالقمر ، بهياً كالشمس ، طاهراً كالإبريز .

ووصل مهاويرا إلى حالة الذهول وعدم الإحساس بما حوله ، وأفنى كل اتجاه مادى ، فحصل من درجات العلم على الدرجة الخامسة وهى درجة العلم المطلق ، ونَيْل البصيرة أو النجاة ، وبعد سنة أخرى من الصراع والتأملات فاز بدرجة «المرشد» أو Tirthankara . تيرثانكارا ، وبهذا بدأ مهاويرا مرحلة جديدة هى الدعوة لعقيدته ، وقد اتجه أول الأمر إلى أسرته وعشيرته فاستجابوا له ، ثم استجاب له أهل مدينته ، وأخذت دعوته تنتشر بين الملوك والقواد الذين رأوا فى هذه الدعوة ما يعبر عن خواطرهم فى الثورة على البراهمة ، وسار فى دعوته بنجاح حتى بلغ الثانية والسبعين ، فنزل مدينة بنابورى فى ولاية بَتْنا فألقى على الناس خمساً وخمسين خطبة وأجاب عن ستة وثلاثين سؤالاً غير مسئولة ، ولما تمت خطبه حان أجله فقضى نحبه سنة ٥٢٧ق . م فى خلوة وحيداً ، فتحرر من قيود الحياة وتَسَلْسُل الولادة والشيخوخة والموت ، وترك تراثاً ضخماً من الوصايا والحكم والفلسفات جديرة بالتقدير .

جينا الرابع والعشرون :

ويرى الجينيون أن الجينية مذهب قديم جداً ، وأنه قد تمَّ نضجه على يد أربع وعشرين من الجينيين ، وكان جينا الأول اسمه «رسابها» وقد ظهر منذ أمد بعيد ، ولا يحفظ التاريخ عنه شيئاً ، ولا ترتبط به إلا بعض الأساطير ، وتتابعَ الجيناوات الواحد بعد الآخر حتى ظهر الجيناوان الأخيران فى العصور التاريخية ، أما أولهما وهو جينا الثالث والعشرون فاسمه «بارسواناث» وقد ولد فى القرن التاسع قبل الميلاد ومات فى القرن الثامن ، وقد أسس نظاماً رهبانياً شدَّد فيه بضرورة الرياضيات الشاقة المتعبة ، وجعل أتباعه قسمين : خاصة وعامة ، فالخاصة هم الرهبان والمتبتلون الذين

التزموا الرياضة الشاقة والحرمان ، وتركوا الأهل والمسكن ، وأخذا يجوبون الأقطار ويطوفون فى القرى والأمصار ، وهذا القسم هو عمود النظام ، والعامة هم الذين يؤيدون النظام بأموالهم ويمدون الرهبان بحاجاتهم ، مع بعد عن الفواحش وانشغال بالمكاسب من غير عنف ولا إضرار بأحد ، مقتدين بالرهبان ما وسعهم ذلك .

وجاء مهاويرا وهو جينا الرابع والعشرون ، فاعتنق مبادئ «بارسواناث» وزاد عليها من فكره وتجاربه وإلهامه ، وعلا شأنه ، واشتهرت الطريقة باسمه ، وعرف النظام بلقبه ، فلا تعرف الجينية إلا منسوبة إليه[1] .

عقائد الجينية

يقول أحد الفلاسفة الهنود[2] عن الجينية : هى حركة عقلية متحررة من سلطان الويدات ، مطبوعة بطابع الذهن الهندوسى العام ، أسس بنيانها على الخوف من تكرار المولد والهرب من الحياة اتقاء شائماتها ، منشؤها الزهد فى خير الحياة فزعاً من أضرارها ، عمادها الرياضة الشاقة والمراقبات المتعبة ، ومعولها الجمود للملذات والمؤلمات ، وسبيلها التقشف والتشدد فى العيش ، وطريقها الرهبانية ولكن غير رهبانية البرهمية ، وقد داوى الجينيون الميول والعواطف بإفنائها ووصلوا فى ذلك إلى إخماد شعلة الحياة بأيديهم ، وافتقدوا النجاة فى وجود من غير فعلية ، وسرور من غير انبعاث .

ذلك موجز القول فى عقائد الجينية ، وسنعطى فيما يلى من دراسات ، بعض التفاصيل لعقائد الجينية :

---

(١) هذه المعلومات خلاصة دراسات وأبحاث كثيرة نشرها فلاسفة الهند عن الجينية ، اقرأ كذلك.
History of Budd its Thought by Edward Thomas .

(٢) مولانا محمد عبد السلام الراميورى : «الجينية» ضمن مقالاته وأبحاثه القيمة من «فلسفة الهند القديمة» .

الجينية والآلهة :

سبق أن ذكرنا أن الجينية كانت نوعاً من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة ، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة ، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يكونون صلة بين الناس والآلهة ، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ، ومن هنا سمى هذا الدين دين إلحاد ، واتجهت الجينية إلى الاعتقاد بأن كل موجود إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً يتركب من جسم وروح ، وأن كل روح من هذه الأرواح خالدة مستقلة يجرى عليها التناسخ الذى اتفقت فيه الجينية مع الهندوسية (١) .

هذا هو أساس الفكر الجينى تجاه الإله ، غير أن الجينية دين مسالم ، يبالغ كل المبالغة فى البعد عن العنف حتى أنه يكره قتل الهوام والحشرات الصغيرة . وعدم العنف عهد من العهود الأربعة التى وضعها «بارسواناث» وهو جينا الثالث والعشرون ، وبسبب هذه المسألة اعترف الجينيون بآلهة الهندوس فيما عدا الثالوث (برهما ـ وشنو ـ سيفا) ، وكانوا فى بادئ الأمر ـ كما يظهر من كتبهم ـ يعترفون بآلهة الهندوس للهندوس ، ويحترمونها للمجاملة والمسالمة ، ولكنهم عادوا فأجلوها لذاتها ، وإن لم يَصلوا فى إجلالها إلى درجة الهندوس بطبيعة الحال (٢) .

غير أن العقل البشرى يميل إلى الاعتراف بإله ، ويحتاج الإلحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التى يحتاجها إثبات الآلهة ، ومن هنا وُجد فراغ كبير فى الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يُكْمل به صورة الدينَ الذى دعا إليه ، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلَهاً ؛ بل عدوا الجيناوات الأربعة

---

(١) Weech : The Peoples and Religions of India p. 317 .

(٢) انظر : «مهاويرا ، مؤسس الجينية» فى ثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ١٠ .



والعشرين آلهة لهم ، ولعلهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندى الذى يميل فى الأكثر إلى تعدد الآلهة .

والجينية تتفق مع الإسلام فى جزء يسير يتعلق بروح الإنسان ، ذلك هو خلود الروح خلوداً أبدياً ، وخضوعها للثواب أو العقاب لما يرتكبه صاحبها ، وإن اختلف الإسلام مع الجينية فى طريق الثواب والعقاب .

وعدم الاعتراف بالإله استتبع عند الجينيين اتجاهات مهمة سلبية تتعلق بالعقائد ، فهم لا يقولون بالصلاة ، ولا بتقديم القرابين ، ولا يعترفون بالطبقات ، ولا بما تدعيه الطبقة العليا فى النظام الهندوسى وهى طبقة البراهمة من امتيازات ومزايا . ولكنّ خُلُقَ المسالمة الذى دفع الجينيين إلى الاعتراف بآلهة الهندوس كما ذكرنا آنفاً ، دعاهم هنا إلى الاعتراف بالبراهمة ، وأن من الواجب احترامهم المطلق ، وليس معنى هذا وجود طبقة براهمة فى الجينية . بل المقصود احترام براهمة الهندوس كطائفة لها مكانتها فى الدين الهندوسى ، أما الطبقات فى الجينية فلم تتعد ما وضعه «بارسواناث» من تقسيم الجينيين إلى خاصة وهم الرهبان وعامة وهم من يؤيدون النظام من غير الرهبان ، ولم تجعل الجينية للرهبان امتيازات كما فعلت الهندوسية ، بل إن الجينية جعلت الرهبنة مشقة وتضحية وتكليفاً وسنشرح ذلك فيما بعد .

الكارما والتناسخ :

سبق أن شرحنا الكارما والتناسخ عند الهندوس ، وقد قلنا إن أديان الهند تسير غالباً فى فلك الهندوسية ، ومن هنا قالت الجينية بالكارما والتناسخ ، ولكن الجينية لم تعتقد ما اعتقده الهندوس من أن الكارما أمر اعتبارى يحقق قانون الجزاء الذى يحمِّل الإنسان تبعة أعماله ، ويجزيه عليها عن طريق تناسخ الأرواح ، بل قالت الجينية بأن الكارما كائن مادى

يخالط الروح كأنه يمسك بتلابيبها أو يحيط بها كما تحيط الشرنقة بالفراشة ، ولا سبيل لتحرير الروح من ربقة هذا الكائن إلا شدة التقشف والحرمان من الملذات فى كل مرحلة من مراحل الحياة ، فهذه وحدها هى وسيلة تحرير الروح وحياتها حياة أبدية حرة ، وفى ذلك تقول النصوص الجينية المقدسة «كما تتحد الحرارة بالحديد ، وكما يمتزج الماء باللبن ، كذلك يتحد الكارما بالروح ، وبذلك تصير الروح أسيرة فى يد الكارما» (١) .

وللوصول إلى تخليص الروح من الكارما يظل الإنسان يولد ويموت حتى تطهر نفسه وتنتهى رغباته ، وإذ ذاك تقف دائرة عمله ومعها حياته المادية فيبقى روحاً خالداً فى نعيم خالد ، وخلود الروح فى النعيم بعد تخلصها من المادة يسمى عند الجينيين «النجاة» ، وهو ما يعادل الانطلاق فى الهندوسية والنزفانا فى البوذية .

الحسنة والسيئة :

الحسنة عند الجينيين هى فعل الخيرات كإطعام المساكين ومساعدة المحتاجين ، وبخاصة فيما يتصل بالرهبان الجينيين ، وقسم الجينيون الحسنات تسعة أقسام ، وذكروا أن الحسنات تُجزَى باثنين وأربعين طريقاً ، منها ما هو فى حياة الإنسان الحالية كالبركة والغنى والصحة ، ومنها ما هو فى حياة قادمة ، وأما السيئة فهى ارتكاب الأعمال الخبيثة والفواحش ، وقسموها ثمانية عشر نوعاً ، منها الكذب والسرقة والفسق والفجور والخيانة والجشع وما إلى ذلك ، وأشد أنواع الجنايات وأفظعها لدى الجينيين هو الاعتداء على الحياة والعنف والتشدد ، ووضعوا كفارات خاصة لكل نوع من السيئات ، منها الفقر والتناسخ فى أشخاص تعساء أو فى قوالب الحيوانات والجمادات (٢) . وتختلف الحسنات والسيئات باختلاف طبقتى

---

(١) حامد عبد القادر : بوذا الأكبر ص ٢٨ .

(٢) محيى الدين الألوائى : الفلسفة الجينية ص ٢٠ بتصرف .

الجينية اللتين سبق أن تحدثنا عنهما وهما طبقتا الخاصة والعامة ، على ما يشبه فى الفكر الإسلامى الأثر القائل «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فما يجوز للعامة لا يجوز صدوره من الخاصة ، ويُطلب من العامة الخلق الحسن وعمل الحسنات ويكافئون عليها بما يضمن لهم حياة أو حيوات طيبة ، أما «النجاة» فالسبيل إليها شاق عسير ، وهى من خصائص الخاصة ، وستتكلم عنها فيما يلى :

النجاة وسبل الوصول إليها :

النجاة هى غاية الكون ، وهى التطهر من أوساخ العواطف والشهوات الحيوانية ، والتخلص من قيود الحياة ؛ ومن تكرار المولد والموت ، وهى التمسك بالخير ، والتخلى عن ارتكاب الشر ، و «النجاة» طور من الوجود يختلف عن أطوار الحياة الدنيا الفانية . وهى الفوز بالسرور الخالد الذى لا يشوبه ألم ولا حزن ولا هم ، ولا تكون للأرواح الناجية مطامع خاصة ولا أهداف تستميلها ، والشخص الناجى ليس بذى جسم مادى ، وليس بطويل ولا قصير ، ولا لون له ، يحيط بكل شىء ، مطلق من جميع القيود ، يكون دائماً فى سرور وطمأنينة واستقرار ونعيم مقيم ، مكانه فوق الخلاء الكونى ، وليس للنجاة نهاية فهى أبدية سرمدية . ولا تحصل النجاة إلا بعد عبور المرحلة البشرية بما فيها من عوائق ومتاعب . ولا نجاة بالمعنى الحقيقى إلا للبشر كما قال مهاويرا فى وصفه للحياة والنجاة [1] ، ولا توصف النجاة بوصف نعلمه ، ولا بحال نعقله .

والسبيل إلى «النجاة» شاق عسير كما قلنا من قبل ، ولا يطمع فيها إلا الخاصة من الرهبان . وللوصول للنجاة يتحتم على الناسك ألا يوقع أذى بإنسان أو حيوان ، وعليه أن يدرك أن احترام الحياة أقدس ما عنى به مهاويرا

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

وعلى هذا يحرم عليه قتل الحيوان وبالتالى أكل اللحوم ، ولعل لهذا صلة بصوم المسيحيين عما فيه روح ، فأغلب الظن أن صوم المسيحيين على هذا الوجه انحدر لهم من الفكر الجينى ، ويبالغ الرهبان فى الحيطة والحفاظ على ما فيه روح ، فيمسك بعضهم بمكنسة ينظف بها طريقه أو مجلسه خشية أن يطأ حشرة فيها روح فيؤذيها أو يقتلها ، ويضع بعضهم غشاء على وجهه يتنفس خلاله حتى لا يستنشق أى كائن حى وهو يلتقط أنفاسه .

ولابد للنجاة كذلك من قهر جميع المشاعر والعواطف والحاجات ، ومؤدّى هذا ألا يحس الراهب بحب أو كره ، ولا بسرور أو حزن ، ولا بحرٍّ أو برد ، ولا بخوف أو حياء ، ولا بجوع أو عطش ، ولا بخير أو شر . والجينى بذلك يصل إلى حالة من الجمود والخمود والذهول فلا يشعر بما حوله ، ودليل ذلك أن يتعرى فلا يحس بحياء ويُنْتَف شعره فلا يتألم ، لأنه لو أحس بما فى الحياة من خير وشر أو نُظُم متَّفَق عليها ، فمعنى هذا أنه لا يزال متعلقاً بها خاضعاً لمقاييسها ، وهذا يبعده عَن النجاة . ولما كان أبرز ما فى هذا التنظيم هو العرى ، والجوع حتى الموت ، سميت الجينية دين العرى ودين الانتحار .

العـرى والانتحـار فى الجينيـة :

وعلى فكرة العرى يقول أحد علماء الجينية فى محاضرة له عنها [1] : يعيش الرهبان الجينيون عراة ، لأن الجينية تقول : مادام المرء يرى فى العرى ما نراه نحن ، فإنه لا ينال النجاة ، فليس لأحد أن ينال نجاة مادام يتذكر العار ، فعلى المرء أن ينسى ذلك بتاتاً ليتمكن من اجتياز بحر الحياة الزاخر ، فطالما تذكر الإنسان أنهُ يوجد خيرٌ أو شر ، حُسْنٌ أو قبح . فمعناه أنه لا يزال متعلقاً بالدنيا وبما فيها فلا يفوز بـ «موشكا» أى النجاة ويُبَيِّنٌ هذا خيرَ بيان الحكايةُ المعروفة عن طرد آدم وحواء من الجنة ، فقد كانا يعيشان فيها عاريين

---

(١) نقلاً عن ثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ١٣ ، ١٤ .

يطهر كامل ، لا يعرفان همًّا ولا غماً ، خيراً ولا شراً ، حتى أراد عدوهما الشيطان أن يحرمهما مما كان فيه من البهجة والسرور والسعادة ، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر ، فأُخرجا من الجنة ، فالذى حرمهما من الجنة هو علمهما بالخير والشر وبأنهما عاريان [1] ، ويرى الجينيون أن الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم وعلى العكس من ذلك فعدم الشعور بالحياء معناه عدم تصور الإثم وذلك زيادة فى النقاء ، فعلى كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عارياً ، ويتخذ من الهواء والسماء لباساً له .

أما الانتحار فقد كان نتيجة للتخلى عن كل عمل ، وترك كل ما يغذّى الجسم لعدم الإحساس بالجوع ، ولقطع الروابط بالحياة ، وللتدليل على أن الراهب أو الراهبة لم يبق له اهتمام بهذا الجسد الفانى ، فهو يجيعه ، وينتف شعره ، ويعرضه لظواهر الطبيعة القاسية حتى الموت . وقد انتشر الانتحار بالجوع بين رهبان الجينيين قديماً [2] .

ويعتبر الانتحار غاية أو جائزة لا تتاح إلا لخاصة الرهبان الذين اتبعوا النظام الجينى الذى سنشرحه عند الكلام عن فلسفة الجينية ، وإتاحة الفرصة للانتحار معناها قطع الأعمال التى هى مظنة إلحاق الضرر بأى كائن ذى روح ، ولا يكون ذلك إلا بعد قضاء اثنى عشر عاماً أو ثلاثة عشر عاماً داخل الناموس الصارم المرسوم للرهبان الجينيين .

---

(١) هذا هو رأى الجينيين ، ونرى نحن المسلمين أن خروجهما كان لعصيان آدم أمر ربه «وعصى آدم ربه فغوى» .

(٢) هذه المعلومات نظمت على هذا النسق بعد جهد ، وجمعت من المراجع الآتية :

«أ» خطب جينا .

«ب» أعداد كثيرة من «ثقافة الهند» .

«جـ» تاريخ الإسلام فى الهند للأستاذ عبد المنعم النمر .

«د» Weech : The Peoples and Religions of India

«هـ» Berry : Religions of the World فى عدة صفحات .

أليس تناقضاً عجيباً أن يحرص الجينيون بالغ الحرص على الحياة لكل حشرة وكل دابة ، ثم يجعلون انتحار الرهبان جوعاً قربى من القربات؟ مهما قيل من الأسباب فإنى أراه إيذاء للإنسان وقضاء على حياته ، مع أن الجينية لا تلحق الأذى بأحد ولا تقر القضاء على الحياة ، ويظل تساؤلنا هذا قائماً مع تذكرنا أنهم يعملون ذلك رغبة فى الخلود أو النجاة ، أو نتيجة للخمود والجمود .

ولنعد للعامة من الجينيين ، هؤلاء لا يلزمهم أن يقوموا بكل هذه المناسك والسبل ، ولكن عليهم أن يقوموا ببعضها فى حدود طاقتهم ، فعليهم ألا يوقعوا الأذى بإنسان أو حيوان ، وعليهم ألا يقتلوا النفس وألا يأكلوا اللحم وأن يقهروا رغباتهم ، ولكن لا إلى درجة الجمود والخمود والذهول التى يتبعها الرهبان .

فلسفة الجينية من كتبهم المقدسة

المصادر المقدسة لدى الجينيين هى خطب مهاويرا ووصاياه ثم الخطب والوصايا المنسوبة للمريدين والعرفاء والرهبان والنساك الجينيين ، وقد انتقل هذا التراث المقدس من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة ، ثم خيف ضياع هذا التراث أو ضياع بعضه أو اختلاطه بغيره فاتجهت النية إلى جمعه وكتابته، واجتمع لذلك زعماء الجينية فى القرن الرابع قبل الميلاد فى مدينة «باطلى بترا» وتدارسوا هذا الأمر وجمعوا بعض هذا التراث فى عدة أسفار، ولكنهم اختلفوا بعضهم على بعض فى بعض المصادر ، كما لم ينجحوا فى جمع الناس حول ما اتفقوا عليه ، ولذلك تأجلت كتابة القانون الجينى حتى سنة ٥٧م فدونوا آنذاك ما استطاعوا الحصول عليه بعد أن فقد كثير من هذا التراث بوفاة الحفاظ والعارفين ، وفى القرن الخامس الميلادى عقدوا مجلساً آخر بمدينة «ولابهى» حيث تقرر الرأى الأخير حول التراث الجينى المقدس .

أما لغة هذا التراث فكانت اللغة المسماة «أردها مجدى» فلما اتجهت النية إلى حفظه وتدوينه اختيرت اللغة السنسكريتية لهذا الغرض ، وكانت لغة «أردها مجدى» هى لغة هذا التراث قبل الميلاد ، أما الغة السنسكريتية فقد حلّت محلها فى القرون الميلادية الأولى .

وسنختار من هذا التراث المقدس بعض نماذج تشرح لنا أهم اتجاهات الفلسفة الجينية :

اليواقيت الثلاثة :

يقول الجينيون : إن الحياة الدنيا تعاسة مستمرة وشقاء متصل ، نعيمها زائل والعيش فيها باطل ، نطمح فيها إلى الخير فننال شراً ، ونبتغى السعادة فتصيبنا الشقاوة حتى نموت ولم تنته حسراتنا ! ثم نحيا حياة قد كسبتها أيدينا ، خيرها تَهْلُكة فكيف بشَرِّها ، وتدوم عجلة الموت والحياة فيالنا من خاسرين ، ولا دواء إلا بأن نَنزع ، ونزهد فى الحياة وترفها ، ولكن هناك شيئاً يجعلنا نتمسك بالحياة ، ويزيِّن لنا باطلها ، ما هو؟ إنه الغواية (Mittpaiua) التى تخلق العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة ، والجهل المشين ، وهذه تكسو الروح بظلام ، ويتراكم الظلام فتعمى الروح بظلام ، ويتراكم الظلام فتعمى الروح وتسير على غير هدى ، تحب الحياة وشهواتها ، وتسير فى طريق الضلال ، وتظل الروح على هذا الوضع بين الموت والولادة ، حتى ينبثق النور ، إما من أعماق الروح بطريق الصدفة أو الإلهام ، وإما بقيادة العرفاء والمبشرين وهدايتهم ، وليس هذا النور إلا السبيل المثلث أو اليواقيت الثلاثة التى من اتبعها وصل إلى بر السلامة ، وهذه اليواقيت هى :

١ـ الياقوتة الأولى الاعتقاد الصحيح : وهو رأس «النجاة» ويقصدون به الاعتقاد بالقادة الجينيين الأربعة والعشرين ، فإن ذلك هو المنهج المعبَّد والصراط السوى ، ولا يكون الاعتقاد الصحيح إلا إذا تخلصت النفس من

أدران الذنوب اللاصقة بها ، والتى تحول دون وصول الروح إلى هذا الاعتقاد .

٢ـ الياقوتة الثانية العلم الصحيح : ويقصد به معرفة الكون من ناحيته المادية والروحية والتفريق بين هذه وتلك ، وتختلف درجة المعرفة باختلاف قوة البصيرة وصفاء الروح ، ويستطيع الشخص الذى يَفصلُ أثر المادة عن قوته الروحية وإشراقها أن يرى الكون فى صورته الحقيقة ، وتتكشف لديه الحقائق ، وترتفع عنه الحجب الكثيفة فيميز الحق من الباطل والظن من اليقين ، ولا تشتبه عليه الأمور ، ولا يكون العلم الصحيح إلا بعد الاعتقاد الصحيح .

٣ـ الياقوتة الثالثة الخلق الصحيح : ويقصد به التخلص بالأخلاق الجينية من التحلى بالحسنات والتخلى عن السيئات ، وعدم القتل وعدم الكذب وعدم السرقة ، والتمسك بالعفة ، والزهد فى الملكية .

واليواقيت الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض ، وإذا اكتملت فى إنسان فإنه يجد لذة لا تعد لها لذة وسعادة ليس مثلها سعادة .

المبادئ الأساسية لطهارة الروح :

وضع الجينيون سبعة أصول رئيسية لتطهير الروح ، وتعتبر هذه الأصول أمهات المبادئ الجينية . وهى :

١ـ أخذ العهود والمواثيق مع القادة والرهبان بأن يتمسك المريد بالخلق الحميد ويُقْلع عن الخلق السيئ .

٢ـ التقوى ، وهى المحافظة على الورع ، والاحتياط فى الأقوال والأعمال ، وفى جميع الحركات والسكنات ، وتجنب الأذى والضرر لأى كائن حى مهما كان حقيراً .

٣ـ التقليل من الحركات البدنية ، ومن الكلام ، ومن التفكير فى الأمور الدنيوية الجسمانية ، حتى لا تضيع الأوقات والأنفاس الثمينة فى صغار الأمور .

٤ـ التحلى بعشر خصال هى أمهات الفضائل ووسائل الكمال وهى : العفو ، والصدق ، والاستقامة ، والتواضع ، والنظافة ، وضبط النفس ، والتقشف الظاهرى والباطنى ، والزهد ، واعتزال النساء ، والإيثار .

٥ـ التفكير فى الحقائق الأساسية عن الكون وعن النفس ، وبعض أمور الكون وأمور النفس يُتَوصَل لها بالحواس الخمسة المادية ، وبعضها لا يُتَوصَل إليها إلا بمنظار الذهن ومن هنا لزم استعمال الحواس المادية واستعمال الفكر كذلك .

٦ـ السيطرة على متاعب الحياة وهمومها التى تنشأ من الأعراض الجسمانية أو المادية ، كمشاعر الجوع والعطش والبرودة والحرارة ، وسائر أنواع الشهوات المادية ، وعليه أن يضرب حصناً متيناً حوله للتخلص من هذه الأعراض والحواس والتأثر بها .

٧ـ القناعة الكاملة والطمأنينية والخلق الحسن ، والطهارة الظاهرية والباطنية .

وتدَّعى الجينية أن هذه المبادئ تطلق الإنسان من الوثاق الذى يشده بالحياة ، ويسلب عنه الراحة الذهنية والطمأنينة القلبية ، وإذا اتصف أحد بهذه الصفات السبع فإنها تخرجه من الظلمات التى تحيط به بسبب هموم الدنيا ومشاكلها العديدة ، حتى تصير روحه حرة طليقة تنساب فى سماء المعرفة والنور العلوى ، وتحيط بالعلوم الربانية والكشف الباطنى ، فتكون فى سرور دائم ولذة معنوية مطلقة ، وهذه هى الطريقة الجينية للنجاة .

درجات العلم فى الفلسفة الجينية :

تقسِّم الفلسفة الجينية العلم خمسة أقسام حسب مصادره ، وتُكثرُ الفلسفة الجينية من التفريعات لكل قسم ، ولنكتف هنا بإيراد الأقسامَ الخمسة الرئيسية :

١ـ الإدراك بطريق الحواس أو بطريق الذهن ، ويشتمل هذا الإدراك على طريق القياس والاستقراء المبنيين على المشاهدة ، كما يشتمل على الفهم والحفظ والاحساس ، ويستلزم هذا العلمُ حضورَ الأشياء المعلومة للحواس أوّلا حتى يتم إدراكها .

٢ـ العلم عن طريق الوثائق المقدسة ، ويعرف هذا القسم بالعلم غير المباشر لتوسط المستندات والوثائق بين من يَعْلَم وما يُعْلَم ، وتدعى الجينية أن كتبهم المقدسة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة .

٣ـ العلم بالوجدان المحدود ، وهو إدراك ذى الصورة من الأشياء الموجودة بطريق الروح ، فالمدرك هنا موجود يمكن أن يرى ، ولكن لبعده مثلاً لا تراه العين ، وتراه الروح فى هذه المرحلة من مراحل العلم . وللوصول إلى هذه المرحلة لابد من تطهير الروح من الأدران والأوساخ والسمو بها عن الوساوس والأوهام .

٤ـ العلم بالوجدان المحيط ، وهو إدراك بطريق الروح لما ليست له صورة الآن ، فهو إدراك يتخطى مسافات الأزمنة والأمكنة ، يعلم ما فى السماء وما فى الأرض من ظاهر وباطن وما كان فيهما ، وهى مرحلة أعلى طبعاً من سابقتها وتستلزم مزيداً من الطهر والصفاء .

٥ـ العلم بمخبآت الضمائر والتصورات فى السرائر ، فهو علم بما لم يوجد إلا من حيث أنه خاطر فى الذهن ، وهو أرقى درجات العلم ، ولا

يتم إلا للذين هجروا الأهل والوطن وطهروا أنفسهم بالرياضة الشاقة [1] .

لمحــــة تــاريخيـــة

كانت الجينية فرقة واحدة طيلة حياة مهاويرا ، ولم يحدث بها إلا خلافات غير عميقة الجذور سرعان ما كانت تلتئم ، وبعد وفاة مهاويرا حدث انقسام خطير شطر الجينية إلى فرقتين تسمى إحداهما ديجامبرا Digambara أى أصحاب الزى السماوى أى الذين اتخذوا السماء كساء لهم (والمقصود بهم العراة) والثانية تسمى سويتامبرا Svetambara أى أصحاب الزى الأبيض ، وعن هاتين الفرقتين حدثت فرقة أخرى كثيرة غير مهمة ، ويلاحظ أن تعدد الفرق لم يمس الفلسفة الأصيلة للجينية أو العقائد الرئيسية التى سبق أن تحدثنا عنها ، وإنما اتصل بأمور ونقاط غير مهمة ، وتحدَّث عن تفاصيل الأساطير وممارسة التقشف ، ففرقة ديجامبرا ترى أن مهاويرا حملت به أمه «ترى سالا» من بدء الأمر لا أنه استُلَّ جنيناً من رحم ديونندا البرهمية ثم ألقى به فى رحم «ترى سالا» كما تعتقد فرقة سويتامبرا ، وتنفى فرقة ديجامبرا عن مهاويرا ما تراه غير لائق به ، فتقول إنه لم يتزوج قط ، وإنه هجر البيت والدنيا منذ مطلع حياته غير مبال بعواطف والديه ، ويَعتقدون أن العرفاء الكاملين لا يقتاتون بشيء ، ويقولون إن من يملك شيئاً من متع الدنيا ولو كان ثوباً واحداً يستر به عورته لا ينجو ، ويرون أن النساء لاحظ لهن في النجاة ما دمن فى قوالب النساء ، أى إلا إذا دخلت أرواحهن فى قوالب أخرى فى حياة من الحيوات المتكررة ، ويعتقدون أن التراث الدينى المقدس للجينية قد ضاع كله : وأما ما تتلوه فرقة سويتامبرا فموضوع ومختلق .

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من مراجع متعددة بعد جهد واسع فى المقابلة والتنقيح والتنظيم وأهمها دراسات الأستاذ مولانا محمد عبد السلام الرامبورى عن «فلسفة الهند القديمة» والأستاذ محيى الدين الألوائى عن الفلسفة الجينية ودراسات Weech و Ryland عن The Peoples and Religions of India ودراسات Allen عن The Buddh's Philosophy

أما فرقة سويتامبرا ففرقة معتدلة ، ترى أن مهاويرا وإن كان ميالا من وقت أن بدأ شعوره إلى هجر الدنيا وقطع العلائق ، إلا أنه لم يفعل ذلك فى حياة والديه احتراما لإحساسهما ، ويروون عنه قوله فى ذلك : ولا يليق بى وأنا الابن البار أن أنتف شعرى وأقبل على حياة التشقف والحرمان تاركاً البيت والأسرة احتراماً لعواطف والدىَّ ، وهم يبيحون الطعام للعرفاء ، ويرون إمكان النجاة للنساء .

وهناك افتراق حدث للجينيين بسبب مجاعة شديدة نزلت بموطنها الذى كانوا يتجمعون فيه فى بلاد مكدا ، فلجأ عدد كبير منهم إلى الهجرة طلباً للعيش وتخفيفاً للعبء عن سكان المنطقة ، وذهب هؤلاء إلى الجنوب بزعامة بدرا باهوا Bhadra Bahu وأقام الآخرون تحت رقابة استولا بدرا Sthula Badra (١) .

وقد سبق أن ذكرنا أن الجينية فرقتان : خاصة وهم الرهبان المنقطعون للتبتل ، وعامة وهم الذين يؤيدون النظام الجينى ، ويساعدون الرهبان مادياً ، ويباشرون حياة العمل ، مع تخلقهم ما استطاعوا بأخلاق الفكر الجينى ، وقد كان لهؤلاء وأولئك نصيب فى تاريخ الجينية ، ومن أهم ما قالت به الجينية ، مما حبب هذا الدين للحكم والملوك ، أن الجينية مع أنها لا توقع أذى بذى روح توجب أن يطيع الشعب حاكمه ، وتقضى بذبح من يعصى الملك أو يتمرد عليه ، ولعل هذا هو الذى جعل الملوك والرجاوات يقبلون على الجينية يعتنقونها ويؤيدونها سواء فى وادى الأندوس أو فى الدكن (٢) .

---

(١) الرامبورى : فلسفة الهند القديمة ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) Weech : The Peoples and Religions of India p. 317 .

وفى ابتداء العصور الوسطى حصلت للجينية رعاية من كثير من السلاطين ، وأصبح للرهبان الجينيين نفوذ كبير فى بلاط كثير من الملوك والحكام ، لاسيما فى بلاط الملك سدراج والملك كماربلا ، وبعد سقوط امبرطورية ديجانكر بقى فى الجنوب حكام صغار من الجينيين إلى أن ظهرت سلطة الإنجليز ، وفى عهد الحكم الإسلامى نالوا كذلك الاحترام والتقدير ، واستخدمهم الملوك المسلمون فى بلاطهم وفى كثير من الأعمال ، وجاء الامبراطور الشهير أكبر (١٥٥٦ ـ ١٦٠٥م) . الذى أدار ظهره للإسلام واتجه إلى خلق دين جديد مزيج من جميع الأديان ، وبخاصة أديان الهند الأصلية ، فاحتضن الجينية ، وخلع على المعلم الجينى «هيراويجيا» لقب (معلم الدنيا) ومنع ذبح الحيوانات أيام أعياد الجينيين فى المناطق التى يوجد بها أتباعٌ لهذه الطائفة [١] .

والجينيون من طبقة العامة ، أى الطبقة التى تباشر الأعمال وتساعد الرهبان ، يكثر أن يُعْرضوا عن الزراعة خوفاً مما تستلزمه من قتل بعض الديدان وإلحاق الضرر بما فيه روح ، ويتجه هؤلاء غالباً إلى التجارة وإقراض النقود وأعمال البنوك مما يقل فيه الاعتداء على ذوى الأرواح ، وقد ضمنت لهم هذه الأعمال نصيباً كبيراً من الثراء والرقى الاقتصادى ، حتى أصبح معظمهم من أغنى الأغنياء وأنجح الناس فى التجارة والمعاملات المالية ، وقد مكنهم ثراؤهم من أن يعلبوا دوراً هاماً فى خدمة الثقافة الهندية والتراث العلمى والفنى على العموم .

وللجينيين أياد واضحة بصفة خاصة فى خدمة فن المعمار ، فقد برعوا فى النحت وإقامة التماثيل وتشييد العمائر والمعابد براعة فائقة ، وقد نحتوا الكهف العظيم المسمى «هاتى كنبا» فى منطقة أوريسة فى القرن الثانى قبل

---

(١) انظر بحثا عن «الطائفة الجينية» فى «ثقافة الهند» سبتمبر سنة ١٩٥٦ ص ٦٩ ، ٧٠ .

المسيح . والكهوف الجينية كثيرة ومنتشرة فى مختلف أنحاء الهند ، والجينيون مولعون بتعمير المعابد ، والمعبد ضرورى للمجتمع الجينى ، كما أن تعميره فرض دينى لديهم [١] .

وعن معابد الجينيين يقول غوستاف لوبون [٢] : ولا تجد ديانة تعتد بالمعابد اعتداد الجينية ، ولا تجد ديانة شادت من المعابد الكبيرة الفخمة أعظم مما شادته الجينية ، فالحق أن معابد الجينية فى كهجورا وجبل آبو هى عجائب فن البناء فى الهند ، والحق أنه يخيل إلى الناظر فى أروقتها شبه المظلمة ، اهتزاز قوم من الخلائق الغريبة المنقوشة على الحجر يُشعُّون حياة ويكتنفون أحد الجيناوات البادى هادئاً رزيناً متربعاً فى جلوسه علَى العموم ، وهو فى حالة عرض كامل .

ويبلغ تعداد الجينيين الآن حوالى المليون ، وكلهم فى الهند ، فالجينية كالهندوسية لم تخرج من الهند ، ومستواهم الاجتماعى والثقافى راقٍ فى الغالب ، وعنايتهم بالثقافة لا تقل عن عنايتهم بالمال والفنون .

وعلى الصفحات التالية نماذة من رسومٍ وصورٍ للعمائر الجينية والفن الجينى .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠ .
(٢) حضارة الهند ص ٦٢٣ .

البوذيـــة



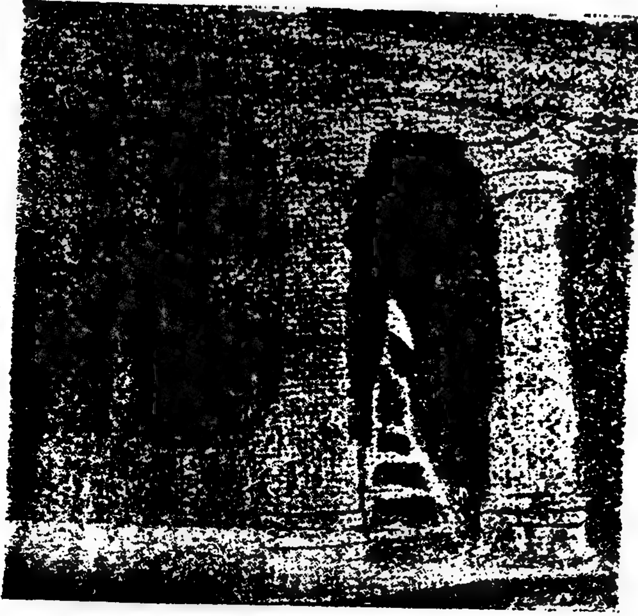
مدخل المعبد الجينى فى كلكتا



سقف من الرخام لمعبد جيني في دلوارا



سقف آخر من الرخام لمعبد جيني



دعائم لمعبد جيني في دلوارا

ذكرنا من قبل أن البوذية كانت أحد الاتجاهات الفكرية التى نبعت فى القرن السادس ، وذكرنا كذلك أنها كالجينية سارت فى إطار الفكر الهندى فى أكثر مبادئها ، وذكرنا أيضاً أنها كالجينية كانت ردَّ فعل لعسف البراهمة واستبدادهم مما أثار عليهم الطبقات الأخرى وبخاصة طَبقة الكشتريا ، حيث الأمراء والمحاربون : وقد انتهينا من الحديث عن الجينية إحدى الحركتين الفكريتين المتعاصرتين ، فلنبدأ الآن فى الحديث عن البوذية .

بيت بوذا وحياته

مولده ونشأته :

فى الناحية الشرقية من الهند ، وبجانب مملكة كوسالا Kausala بين مدينة بنارس وجبال الهملايا ، شمال نهر الكنج المقدس ، حيث تقع الآن آجام كثيفة على حددو نيبال ، كانت تمتد أرض خصبة مخضرة نافعة فارعة الأشجار طيبة الخمائل ، وكانت هذه الأرض موطن قبيلة ساكيا (Sakya) من الطبقة الكشترية ، وكان أمراء القبيلة هم أصحاب السيادة على هذه البقعة ، وسلاطينها المسموعى الكلمة ، النافذى الرأى .

وكانا سدودانا (Suddhodana) أحد نبلاء هذه القبيلة ، يقطن قرية تدعى كبيلاواثور Kapilavathu له فيها ضياع فسيحة ، وزروع نضرة ، وقصور شاهقة ، وجاه عريض ، وكان متزوجاً من نبيلة اسمها مايا Maya يعيش معها فى هذا النعيم المقيم والمجد العظيم .

وفى سنة ٥٦٣ قبل الميلاد [1] أنجب هذان الأبوان طفلاً أطلقا عليه سذهاتا (Siddharta) وماتت أمه فى الأسبوع الأول من ولادته فحضنته خالته مهاياباتى (Mahayapati) ، وشب الطفل فى هذا النعيم العظيم كما يشب

(١) هذا التحديد ذكره Edward Thomas وبناء على عمر بوذا عند وفاته فى سن الثمانين سنة ٤٨٣ق . م وعلى عمليات حسابية أخرى تجعل هذا التحديد أقرب إلى الدقة (انظر : The Life of Bnddha p. 27)

أترابه من أبناء السادة والملوك ، ووجد الدنيا كلها تحت أمره ، والنعيم رهن إرادته ، وتهيأت له مفاتن الحياة ، وانبسط الأمل أمام عينيه ، وتدفقت المسرات تحفُّه من كل جانب ، وبلغ مطلع الشباب وهو يرفل فى هذه النعمة ، كلمتُه مسموعة ، ورأيه مطاع ، وسارع أبوه فزوجه من ابنة أحد الأمراء واسمها ياسودهرا ولم يطل الوقت حتى ولد له ابن سموه راهولا (Rahula) .

كان من الممكن أن يَعْبُرَ سذهاتا الحياة كما عبرها ويعبرها آلاف مثله من الأمراء والملوك وكان من الممكن أن تنسيه مفاتنَ الحياة التى نعَمَ بها تلك الآلامَ التى يعانيها البؤساء والأشقياء ، وكان من الممكن أن يلهَيه شبابهُ عن هرم الشيوخ ، وصحته عن آلام المرضى ، وحياتُه المرحة عن صور الموت والفناء ، كما لها سواه وشُغفَ بالحياة كأن الشباب لا يهرم والصحة لا تنحلّ والحياة لا تزول[1] .

كان من الممكن أن يحصل هذا ولكن سذهاتا لم يستسلم للملاذ والشهوات ، ولم يَفْرُغ لنفسه ويستغرق فى شهواته ، وإنما عاش فرداً فى مجموعة يفكر فيها ويحس بإحساسها ، لا بل الحق أن نقول إن سذهاتا جذبه جانب الشر والألم فى الحياة أكثر مما جذبه جانب النعيم والسرور ، فلم يرضخ للحياة التى رسمت له ، وإنما رسم هو لنفسه حياة من طراز آخر على ما سيأتى تفصيله فيما بعد .

أفكار سذهاتا وفلسفته :

تروى الأقاصيص أن سذهاتا التقى مرة بشيخ عجوز واهن يتوكأ على عصاه ويوشك أن ينكفئ على صدره . وقد احدودب ظهره وتقوس ، وثقل عليه رأسه فلا يطيق حمله ، فاضطرب له سذهاتا وتألم له ، فقال له

(١) G. A. Rylands : The Peoples and Religions of India p. 318 .

رفيقه شانا (Channa) : هكذا نهج الحياة ولا مفرًّ لنا من هذا لامصير، وتروى قصة أخرى أن سذهاتا رأى مريضاً يتلوى من المرض، ويئن من الألم، ويشكو من العناء، وأهلهُ حوله لا يستطيعون إيقاف الألم، بل لا يرون الداء، ولا يحسّون بالعناء، فقال له رفيقه شانا : هكذا نهج الحياة، وتروى قصة ثالثة أن سذهاتا شاهد جثة أمعن فيها البلى، وبعثت منها رائحة مؤذية ونَتْنٌ كريه، فاستغرق فى التفكير، فقال له شانًا : هكذا نهج الحياة.

وفكَّر سذهاتا فى هذا العناء وهذا الشقاء، ما مصدره؟ وكيف يمكن التخلص منه؟ وبخاصة أن كل إنسان لابد أن يعانى المرض يوماً، ولابدَّ أن يعانى سكرات الموت، وكثير من الناس يمتد بهم العمر فيعانون الهرم والشيخوخة.

وأحس والده باتجاهه، فحاول مقاومة هذا الاتجاة، بأن يبعد مناظر الألم عن ابنه، وأن يسبغَ عليه مزيداً من الملذات والمسرات لتجذبه عن التفكير فى الآلام والشجون، ولكن هذه الأحاسيس كانت قد تمكنت من فكر سذهاتا، فلم يكن من السهل أن ينثنى عنها، ثم إن سذهاتا عَمُق فيه هذا الطابع، وكان اتجاهه صدى لأحاسيس نفسية قوية، ولهذا فإن إبعاده عن هذه المناظر لم يأت بأية ثمرة (١).

واستقر رأى سذهاتا على أن يدع صخب الحياة وأن يبدأ حياة الزهد والفكر لعله يصل إلى معرفة سر الكون، وفى إحدى الليالى حيث كان القصر يموج بالبشر والمسرات بسبب ولادة ابنه، قال سذهاتا : وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها، وحزم سذهاتا أمره على أن يفارق هذه الملاذ وأن

---

(١) من رأى Edward Thomas مؤرخ البوذية أن الفترة الأولى من حياة غوتاما غامضة، وأن ما كتب عنها ليس إلا من الأساطير التى حاكتها أقلام تلاميذه ومريديه بعد أن حصل على المعرفة وبدأ دعوته (انظر : The Life of Buddlha ص ٣-٥).

يبدأ تأملاته ، وفى هجعة القصر بعد ما شاهده من مرح وغناء ، ألقى سذهاتا نظرة أخيرة على زوجته وطفله ، وتسلل من القصر ، وامتطى جواده ، وانطلق إلى مرحلة جديدة ، وكانت سنه آنذاك تسعة وعشرين سنة [1] .

سار سذهاتا فى تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضى عشيرته على ضفة نهر ملية ، وهناك ترجل ، وقطع بسيفه ذوائبه المتهدلة ، وأماط عنه كل حلية ، وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله، ثم واصل سيره حتى التقى براهبين من البراهمة ، فبقى معهما وتتلمذ عليهما ، وأراد عن طريقهما أن يصل إلى غايته ، ولكن بعد فترة تأكد له أن ما يعيشان فيه من زهادة وتقشف شىء مقصود لذاته ، كأنه الغاية التى يتطلعان إليها ، وكان سذهاتا يريد الزهادة وسيلة لمعرفة أسرار الكون، ولذلك هجرهما سذهاتا ، وقرر أن يسعى بنفسه لنيل المعرفة وكشف أسرار الكون ، وقد سلك من أجل هذا وسائل متعددة كالتصوف والفلسفة [2] ، ثم انجذب نحو دنيا الرهبنة، فبدأ حياة الترهب، لذلك يحسن بنا فى هذه المرحلة من حياته أن نسميه غوتاما Gautama أى الراهب[3] ، أو غوتاما أسير الفلسفة الهندية .

وقبل أن نسترسل فى هذه المرحلة من حياة سذهاتا يحسن بنا أن نتساءل : لماذا اتجهت فلسفة جوتاما إلى الآلام والأشجان حتى أصبحت الحياة كلها فى نظره جحيماً لا يطاق ، ونسى ما فى الحياة من معروف وخير وتخفيف ضر وتحقيق أمل ؟

---

(١) Edward Thomas : The Lufe of Buddha p. 54 .

(٢) Berry : Religions of the World p. 43 .

(٣) هذا ما نرجحه ، وتذكر بعض المراجع أن «غوتاما» كان اسم أسرته ، ومن الألقاب التى أطلقت عليه أيضاً لقب «مونى» أى المنفرد المنعزل عن الناس فكان يقال عنه «ساكيا مونى» أى المتبتل المنعزل من قبيلة ساكيا .

ثم لماذا اتخذ التقشف والانقطاع والتبتل سبيلاً للوصول إلى كشف الحجاب عنه ؟

كل هذه الأسئلة تدفع الباحث إلى الاعتقاد أن غوتاما كان على الأقل فى هذه الفترة أسير الفلسفة الهندوسية ، قرأها ، وعرف اتجاهاتها وتأثر بميولها إلى العزلة والزهد والانقطاع عن الناس ، بتفكير أو بدون تفكير ، فلما رأى غوتاما منظر المرض والشيخوخة وجثة الميت ضعف دافع المقاومة فى نفسه ، ورجح عنده الميل إلى سلوك نفس الطريق الذى سلكه الهندوس من قبل .

غوتاما فى تقشفه :

لجأ غوتاما إلى العزلة والتقشف ، وخلع ثيابه ، واكتفى برقاع أو أوراق شجر يستر بها عورته ، وألقى بجسمه بين الأشواك والحصا ، وأهمل الطعام والشراب والملاذ ، ويقال إنه كان يتبلغ بمقدار ضئيل جداً من الطعام بلغ أحياناً حبة من الأرز فى اليوم ، واتخذ ذلك طريقاً رجاء أن تُكشفَ له أسرارُ الحياة . ويعرف السبيل للنجاة من عنائها ، وقام بألوان من الرياضات النفسية ، رغبةً فى أن يطهر نفسه حتى تصل إلى سر الكون ، وقد كلفته هذه الأعمال اضمحلالاً فى جسمه وانحلالاً فى قواه ، وزامله فى هذه الفترة القاسية خمسة من النساك ، وكانوا يرونه أكثرهم قسوة على نفسه ، وأصبرهم على الآلام ، ولذلك وضعوه فى موضع الزعامة بينهم ، إذ كانت الزعامة فى ذلك الحين لمن يستطيع أن يكون أشد صرامة وقسوة على جسمه . وأمضى غوتاما سبع سنين فى هذا الصراع العنيف لم يحس فى أثنائها ولا فى نهايتها بأى أثر يسير به إلى غايته ، وأدرك أن ما يفعله ما هو إلا إجهاد لجسمه لا يغنى فتيلاً ، وهنا أقدم غوتاما بشجاعة على ما لم يكن معهوداً فى نسّاك عصره ، هؤلاء النساك الذين يرون محاربة الجسم كأنها غاية وليست وسيلة ، ويستمرون فى هذه الحرب حتى الفناء ، وربما عَدّوا

قديسين بسبب ذلك الموقف ، أما غوتاما فكان كما قلنا قد اتخذ الزهد وسيلة ، ثم رأى أنها وسيلة غير مجدية ، فأعلن تمرده على هذه الطريقة ، وعاد إلى طعامه وشرابه وكسائه ، وقرر أن يتوقف عن قتل شهوات نفسه بالجوع ، وأعلن أن خير ما يوصله إلى غايته عقل يتغذى فى جسم سليم . وقد خيّب فعله هذا أملَ أتباعه فيه ، ففارقوه آسفين على ما آل إليه أمره .

الاشراقة والكشف عن الأسرار:

على أن غوتاما ـ وإن كان قد عدل عن إماتة نفسه وتعذيبها ـ فإنه لم يعدل عن تفكيره ، ومن الواضح أن الإنسان يستطيع فجأة أن يغير أحواله المادية من صوم إلى طعام ، ومن تقشف إلى بذخ ، ولكنه لا يستطيع بسهولة أن يتخلى عن تفكيره وفلسفته ، وبينما كان يمشى وحيداً موحشاً مال إلى شجرة فى غابة أورويلا (Uruyala) ليتفيأ ظلالها ريثما يتناول طعامه ، ولكن المقام طاب له فى ظل هذه الشجرة ، ويقال إنه أحس برغبة فى البقاء تحتها بعض الوقت ، فاستجاب لهذه الرغبة وبقى تحت الشجرة ، وفى هذا المكان حدث ما تمناه غوتاما ويقول غوتاما واصفاً هذه المرحلة :

« سمعت صوتاً من داخلى يقول بكل جلاء وقوة : نعم فى الكون حق ، أيها الناسك ، هنالك حق لا ريب فيه ، جاهد نفسك اليوم حتى تناله » .

« فجلست تحت تلك الشجرة فى تلك الليلة من شهر الأزهار ، وقلت لعقلى وجسدى : اسمعا ، لا تبرحا هذا المكان حتى أجد ذلك الحق ، لينشف الجلد ، ولتتقطع العروق ، ولتنفصل العظام ، وليقف الدم عن الجريان ، لن أقوم من مكانى حتى أعرف الحق الذى أنشده ، فينجينى » .

وتم له فى هذه الجلسة الإشراقة التى كان يترقبها (١) ، ويراها بعض

---

(١) Edward Thomas : The Life of Buddha p. 80 .

الباحثين الغربيين وحياً [1] ، ويصورها بوذا بأنها صوت حَادَثَةُ وسنَروى هذا الحديث عند الكلام عن النرفانا [2] .

وهنا ننقل عبارة مولانا محمد عبد السلام الرامبورى [3] وهى : « وكان مستغرقاً فى تأمله خائضاً فى تفكره إذ أخذته نزعة سماوية ، فغاب عن نفسه وعن كل ما حوله ، وطفق يطرأ عليه حال بعد حال ، ويلحقه طور وراء طور ، ثم عاد شعوره يتجلى رويداً رويداً ، فأشرق الكون لديه وأصبح العقل يتجرد عن شوائب المادية ، فانشرح صدره ، ورأى العالم فى تكوناته وتقلباته ومباديه ومناحيه ، وقد غلب اللاهوت وتنور اللاهوت ، فذاق سروراً ما خطر بباله من قبل ، ووجد قوة ما استشعر بها قط ، فأبصر ينابع الحياة وأحاط بمنابع الآلام واستوعب منابت البؤس ، واكتشف مقاليد السرور ، ورأى سبيلاً يهدى إلى تلاشى الأحزان وزهوق الآلام ، فأدرك متمناه ونال مبتغاه ، وتخلص من تقلبات الحياة ، ونجا من حزازات الآلام ، وتيقظ شعوره ، وتنورت بصيرته واستوى على عرش البوذية وصار بوذا (Buddha) أى العارف المستيقظ ، والعالم المتنور » .

ومن الآن سنطلق على بطل هذه الديانة (بوذا) وهو الاسم أو اللقب الذى حصل عليه عندما انكشف عنه الغطاء ، ويحسن بنا هنا أن ننتقل العبارة التى سجل بها بوذا هذه اللحظة التى يعتبرها هو ويعتبرها أتباعه لحظة إشراق وفوز . يقول بوذا : «لما أدركت هذا تحررت من الهوى ، تحررت من شرور الكون الأرضى ، تحررت من شرور الخطأ ، تحررت من شرور الجهل ، وتيقظ فى المتحرر شعورُ التحرر وشعورُ عدم تكرر المولد ، قد انتهى الصراط المقدس ، قد تمت الفريضة ، فلن أرجع إلى هذه الدنيا رجعة أخرى قد أبصرت هذا » [4] .

---

(١) René Sedillot : The History of the World p. 62 .

(٢) فى هذا الكتاب ص ١٦٢ وما بعدها . (٣) فلسفة الهند القديمة ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٤) محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة .

تُرَى ما هذه الإشراقة التى حصل عليها بوذا؟ وما هذا السر الذى كُشِفَ له ؟ وما هذه الأنوار التى أحاطت بنفسه؟ وما تلك الوسائل التى استطاعَ بها أن يحل مشكلات الحياة؟ ويوقف المرض والشيخوخة والموت ؟!!

على كل حال لنسر الآن شوطاً آخر قبل أن نتحدث عن الإشراقة أو ما يسميه البوذيون «النرفانا» وهى السر أو الحل لكل هذه الآلام .

ونحب هنا أن نوضح بعض الأسماء والمظاهر الجديدة التى حدثت مع حدوث البوذية ، ومن أهمها إطلاق لقب «بوذا» أى العارف المستنير على غوتاما كما ذكرنا آنفاً ، واللفظ فى الأصل وصف ، ولكن غلب إطلاقه على غوتاما ، فأصبح علماً عليه ، وجاز بذلك استعماله من غير «أل» التعريفة ، وبوذا هو الاسم الذى سنستعمله منذ الآن فى الحديث عن سذهاتا الأمير أو غوتاما الراهب :

أما الشجرة التى كان بوذا يجلس تحتها عندما تمَّ له الكشف ، فقد سميت شجرة العلم ، أو الشجرة المقدسة ، وقد احتلت عند البوذيين مكانة سامية ، مثل مكانة الصليب عند المسيحيين ، وإذا كان المسيحيون قد نشروا الصليب فى حياتهم ورسموه على حليهم وأجسامهم ، فإن البوذيين يرون فى الشجرة المقدسة شيئاً يجب أن يسعى له الناس لا أن يسعى هو للناس ، ولهذا زرعوا فى كل قطر شجرة واحدة من نوع الشجرة المقدسة يحج الناس إليها ، فى مناسبات مختلفة ، وفى معبد بروبودور بالقرب من جو كجاكرتا بأندونيسيا توجد الشجرة الوحيدة فى جاوة من هذا النوع ، والبوذيون يسعون إليها للتبرك والزيارة ، وتحميها إدارة المعبد بسور حولها خوف أن يلتقط البوذيون أوراقها أو أغصانها للتبرك ، أو يعبثوا بجذعها فى تقربهم لها واحتكاكهم بها ويعلق Wells على عناية البوذيين بهذه الشجرة بقوله :

« ومن سوء الحظ أن تلاميذ جوتاما عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنايتهم بالحفاظ على أفكاره التى أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسخوها [1].

أما غابة أورويلا فقد فقدت منذ ذلك التاريخ هذا الاسم واتخذت اسماً جديداً يتناسب مع هذا الحدث الجلل الذى حدث بها وهذا الاسم هو بوذاكيا (Buddhagia) .



تمثال بوذا كما يبدو فى اكثر المعابد البوذية

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية : المجلد الثانى ص ٤٧٢ .

الدعـوة للبوذيـة وإعـداد دعاتهـا :

بعـد أن كُشفَ عن بوذا الحجاب وأدرك مُنْيته وقف متردداً بعض الوقت، وسـاءلَ نفسه : أيقنع وحده بهذا النعيم الذى انغمس فيه ، ويستمتع وحده بهذا السر الذى انكشف له؟ أم يبشر به ويذيع أمره بين الناس حتى ينعموا معه بتلك السعادة وذلك السرور؟ وفكر بوذا فى قصور البشر عن إدراك هذه الحقائق السامية ، وخشى أن يكذبه الناس ويرموه بالافتراء أو الجنون ، فأوشك أن يكتفى بهذا السر لنفسه ، غير أن جانب الخير ـ كما يقول ـ غلب عليه ، والميل إلى الإيثار رجح فى نفسه ، ورأى أن عليه أن يدعو الناس ، وليس عليه أن يفكر فى النتيجة ، إنه يريد الخير لهم والهداية ، فإن لم يستجيبوا فقد أدى واجبه وأرضى ضميره [1] . ويَعُدّ البوذيون هذا الاتجاه من بوذا مطلع خير لهم وللبشرية جمعاء ، ثم يصلون ويكبِّرون ويعلنون سرورهم واغتباطهم كلما وصلوا فى قصة بوذا إلى هذه النقطة [2] .

وعندما استقر رأى بوذا على أن ينشر دعوته ترك غابة بوذاكيا إلى مدينة بنارس حيث كان يعيش رفاقه الخمسة الذين زاملوه فى فترة جهاده وتقشفه ، فلما دعاهم لمذهبه لم يبدوا أية مقاومة ، فقد كان ماضيهم معه يدعوهم لقبول دعوته ، ثم خطا بوذا خطوة أخرى فجمع حوله مجموعة من الشبان بلغ تعدادهم مئتين ، وعلمهم مبادئه ولقنهم دعوته ، ووكل إليهم القيام بنشرها ريثما يكمل رحلته ليرى أسرته ، وقد حاولت أسرته أن تكفه عن هذه الدعوة التى تصوروها خيالات تبدَّت إليه ، ولكنه لم يكف ، ولم يغيره بريق المال وضروب الإخاء والسعادة . وعاد إلى أتباعه ، حيث بدأت

---

(١) هذه الانفعالات والتردد سجلتها مراجع البوذية بدقة (انظرها فى The Life of Buddha ص ٨١-٨٣) .

(٢) G. F. Allen : Budda's Philosophy p. 30 - 31 .

مظاهر النجاح تبدو له ، فالتف حوله عدد كبير من الرجال والنساء والشيب والشبان ، وكانوا جميعاً يتخذون من بوذا مثالاً لهم ، وكان هو يحيطهم بعنايته ، ويشملهم جميعاً بحدبه ورعايته .

واشتهرت دعوته بتسميتها «النظام» أو «عجلة الشريعة» وقد ظل بوذا يدفع عجلة الشريعة إلى الأمام أكثر من أربعين عاماً حتى وصلت سنّه الثمانين ، واختار حياة المبشر المتسول مع كل ما تشتمل عليه من صعوبات وحرمان ، وسخرية ومقاومة ، ولم يكن بوذا وحده هو الذى يدعو «للنظام» وإنما اختار - كما سبق القول - نخبة من أتباعه ليقوموا بالدعوة لها فى مختلف النواحى ، وتدلنا المراجع الرئيسية على أن بوذا كان يختبر الذين سيقومون بالدعوة اختباراً دقيقاً قبل أن يرسلهم لهذا الغرض ، ونسوق هنا مثالاً من هذا الاختبار :

كان أحد المريدين واسمه «بورنا» يريد أن يذهب إلى قبيلة «سرونا بارانتا» لدعوتهم ، وكان بوذا يَعْلَم أن هذه القبيلة معروفة بالشراسة والخشونة ، ولا ينجح معها إلا الثابت الضليع ، فأراد أن يعرف مدى استعداد مريده لتحمل ما قد يُلمّ به من عناء ، فقال له : إن رجال هذه القبيلة قساة سريعو الغضب ، فإذاً وجهوا إليك ألفاظاً بذئية خشنة ، ثم غضبوا عليك وسبوك فماذا كنت فاعلاً ؟

فأجاب بورنا أقول : لاشك أن هؤلاء قوم طيبون ، لينو العريكة لأنهم لم يضربونى بأيديهم ، ولم يرجمونى بالحجارة .

- فإن ضربوك بأيديهم ورجموك بالأحجار ، فماذا كنت قائلاً ؟
- أقول : إنهم طيبون لينون إذ لم يضربونى بالعصى ولا بالسيوف .
- فإن ضربوك بالعصى والسيوف ؟
- أقول : إنهم طيبون لينون إذ لم يحرمونى الحياة نهائياً .

- فإن حرموك الحياة ؟
- أقول إنهم طيبون لينون إذ خلَّصوا روحى من سجن هذا الجسد السىء بلا كبير ألم .

فقال له بوذا : أحسنت يا «بورنا» إنك تستطيع بما أوتيته من الصبر والثبات أن تسكن فى بلاد قبيلة سرونا بارانتا ، فاذهب إليهم ، وكما تخلصت فخلِّصهم ، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك ، وكما تعزيت فعزهم ، وكما وصلت إلى مقام النيرفانا الكاملة فأوصلهم إليها مثلك .

فذهب بورنا إليهم وكانت النتيجة أن آمنوا كلهم بالبوذية واتبعوها (١) .

ومثل هذا ما ترويه الأساطير والقصص عن دعوة قطاع الطريق لدخول «النظام» فهؤلاء الذين فروا من الحكومات والسلاطين ولجأوا للغابات قد وصلتهم الدعوة ، وأنذرتهم ، بأنهم إن فروا من جنود الحكومة ، فلن يستطيعوا الفرار من الهرم والموت والذنوب . وطالما استجاب هؤلاء للدعوة ، وسجدوا لها ، واتبعوها ، ليتحرروا من قيد الخوف ، وليعيشوا فى صفاء ، ولم تصل لهم هذه الدعوة إلا بعد إعداد المريدين إعداداً عجيباً جعلهم يسخرون من كل المتاعب ، ويُقْدِمون على نشر الدعوة ببطولة نادرة وشجاعة عديمة المثال (٢) .

وكان بوذا يودع مريديه الذين يتخذون طريقهم إلى الدعاية والإرشاد بقوله : اذهبوا وانشروا «النظام» فى البلاد رحمة بسائر الخلق ، وإيثاراً لمصلحة الكثيرين على راحتكم ، ولا يذهبَن اثنان منكم فى طريق واحد ،

---

(١) فريد وجدى : دائرة المعارف جـ ٢ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
(٢) انظر بحثا عن «كيف كان بوذا يصطاد الرجال ويرشدهم» ثقافة الهند ديسمبر سنة ١٩٦١ ص ٥٦ ، ٥٧ .

بل يسلك كل واحد سبيلاً غير سبيل أخيه ، بشّروا بهذه الدعوة النبيلة فى مبدئها ، النبيلة فى وسطها ، النبيلة فى غايتها .

وبهذا الإصرار من بوذا ومريديه استطاعت الدعوة أن تنجح وتنتشر .

نجـاح بـوذا وانتشـار البوذيـة :

شهد القرن الخامس قبل الميلاد نهاية اثنين من عظماء القادة والمفكرين ، كان بوذا أولهما ، وكان سقراط ثانيهما ، وكل منهما هاجم المعتقدات والطقوس وسخر من الأفكار التى كان الناس يتبعونها فى عهده، ولم يكن بوذا بأقل من سقَراط معارضة وسخرية ، فقد قال بإلغاء الطبقات ، ولم يعترف بالآلهة الويدية ، ولكنا مع هذا نجد أن سقراط يصادف كثيراً من العناء والتعذيب ، بل الحكم بالإعدام وتنفيذ هذا الحكم، ولكن بوذا عاش هادئاً ، ومات هادئاً ، ورأى بنفسه نجاحه وذيوع دعوته ، فما السر فى هذا النجاح الذى صادفه بوذا دون كبير عناء ؟

الإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة سبقت الإشارة إليها عند مطلع الكلام عن البوذية ، وهى أن اضطراب الناس وحيرتهم فى الهند كانا داعيين لقبول أى مذهب يَردُ أو فكرة تخطر بالبال ، ثم إن الغريزة الهندية أكثر احتمالاً للأفكار الدينيَة من الغريزة اليونانية .

على أن نجاح بوذا اشتركت فيه بالإضافة إلى الطبيعة الهندية عوامل أخرى من أهمها قوله بإلغاء الطبقات ، فقد كان ذلك داعياً إلى أن يتبعه كثيرون ممن انحطت طبقاتهم أو ممن كانوا يحسون بثورة ضد هذه الطبقات المتعددة المتفاوتة السيادة فى الهند ، وستحدث فيما بعد عن موقف بوذا من الطبقات ونتائج هذا الموقف .

ثم كان لصفات بوذا الشخصية أثر كبير فيما صادفه من نجاح ، ومن أبرز صفاته عداؤه للتعصب الدينى . واعتبار التعصب أعدى أعداء الدين . وقد

رأى مرة أحد تلاميذه غارقاً فى نقاش حادٍّ مع برهمى كان يرمى بوذا بالإلحاد وقلة الورع ، وكان يطعن نظام التسول الذى أسسه بوذا ، ولما رأى بوذا حماسة تلميذه وحدّته أنكر عليه ذلك وقال : أيها الإخوان ، إن كان هناك من يقدح فى ذاتى أو فى دينى أو فى «النظام» فليس لكم أن تغضبوا أو تحزنوا أو تحقدوا ، لأنكم بهذا تعرضون أنفسكم لخطر الخسارة الروحية أولاً . ثم لا تتمكنون فى ثورة الغضب من تمحيص أقوال القادح ثانياً .

وكما كان عدواً للتعصب الدينى كان عدواً للغضب والطيش ، فلم يعرف عنه أنه سب ، أو سخط ، أو نطق لسانه بكلمة جارحة أو قاسية ، وكان يرى الدنيا جاهلة غافلة ، لا شريرة خبيثة .

كل هذا جمع الأصدقاء حول بوذا ، وسبَّب لدعوته النجاح الذى حظيت به دون كثير من العناء والجهد (١) .

وفــاة بــــوذا :

بلغت عناية الأدب الهندى الحديث ببوذا والبوذية درجة كبيرة ، وبين يدىَّ مقال رائع أشبه بقصيدة رقيقة ، يصور نهاية بوذا ، ومن هذا المقال نقتطف بعض فقرات (٢) .

عاشت ياسودهرا زوجة غوتاما منذ خرج زوجها ، فى كوخ مثل كوخه على مدخل مدينة (راج غاها) ولما احتشدت الجمعية فى ظل التل الصغير هناك قبيل انهيار الأمطار ، وكان السيد يحرك عجلة الإرشاد أمام الجمع ، جلست ياسودهرا وحدها مختفية بين ذلك الحشد العظيم ، تسمع كلام المبارك ، وكان راهولا ابنها الوحيد يكلمها مرة واحدة كل سنة ، أما السيد فكانت لا تراه .

---

(١) Edward Thomas : The Life of Buddha pp. 97 - 99 .

(٢) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) ص ١٢٤ وما بعدها .

وعندما توجه السيد إلى التل ، وليس معه إلا آنندا ابن عمه ومريده الأول ، أسَرَّ إليه السيد قائلاً : يا آنندا ، لقد حانت الساعة التى تجتاز فيها يا سودهرا العين (أى أنها على وشك أن تُنقَل لعالم الروح حيث تصبح غير مرئية بالعين ، وذلك كناية عن الموت) فانتهز آنندا هذه الفرصة وأجاب وهو يرتعد : ألا يرى السيد أن يتكلم معها ؟

فأبدى السيد موافقته دون أن يفوه بكلمة .

وفى الكوخ وجدا عجوزاً شمطاء حليقة الرأس ذابلة ، عيناها كالسراج الذى نضب زيته ، خائرة القوى ، ترتعد ، وهتفت لزوجها قائلة : قد أطاعت الأمة سيدها ، ودخلت النظام منذ أذن لها ، والحمل الثقيل الذى حملتهُ أضعه الآن على الأرض ، إنه لم يبق فى نفسى بذر للحياة .

وسقطت فاقدة الحياة .

قال آنندا : إنها وصفت حملها بأنه ثقيل ، هل كان لها أن تتكلم بمثل هذا إن كانت قد نالت النجاة ؟

وأجابه كانا أحد المريدين : إنها ماتت حيث تولد من جديد .

واستأنف بوذا سيره ومعه تلاميذه ومريدوه ، وظهر التعب والإعياء على السيد ، فخاطب تلاميذه قائلاً :

« كل شيء يؤول إلي الانحلال ، وأنا كذلك أيها التلاميذ قد شخت وأوشك أن أموت ، جدوا لتحرير أرواحكم بكل ما أوتيتم من الحوْل ، وفى خلال الشهور القادمةَ سأموت ، إن أجلى قد حان ، وإن حياتى يجب أن تنتهى ، وآن لروحى أن تُلقىَ حملها ، أيها الرهبان ، عليكم بالتيقظ والتبصر ، لتكن أفكاركم سَليمة ، راقبوا قلوبكم ، وصونوا نفوسكم ، ولا تغفلوا ، لتكن إرادتكم طاهرة قوية ، واجتازوا بحر الحياة غير

آسفين ولا متحسرين[1] » .

وواصل السيد سيره بين القرى والآجام ، وكان آنندا قلقاً ، فقال له السيد : قل ما الذى يختلج فى صدرك؟

فأجاب آنندا بعد تردد : إن السيد يمشى فى بلاد غير عامرة ، ليس بها إلا الأكواخ ، وأرى أنه لا يستحسن أن يموت السيد فى مكان كهذا ، ليكن ذلك فى مدينة عظيمة حيث يراه الكثيرون ويؤمنون ويهتدون . . .

فأجاب السيد : فى مثل هذا المكان يا حبيبى آنندا شعرت بأعمق السكينة فى نفسى ، هذه الشجيرات هى التى تنشرح روحى بجوارها .

ودخل السيد الغابة وتعمق هو ومريدوه حتى وصلوا مكاناً ترتفع أمامه قمم همالايا الشاهقة المكلّلة بالثلج ، واختار السيد مكاناً بين دوحتين باسقتين ، واستلقى على جنبه فى إجهاد ظاهر وتعب واضح ، وأحس آنندا بأن السيد يقرب من النهاية ، فانتحى ناحية وأخذ يبكى ، فطلبه السيد ، فجاءه وجلس بجواره ، وقال له السيد : ألم أقل لك مرة بعد مرة إن الأشياء كلها لا ثبات لها ، ألم أبين لك أن الأشياء التى نهواها لقربها منا هى التى يجب أن نقطع علاقتنا بها ، لأن زوالها أو الحرمان منها يورثنا الألم والحزن .

وبات السيد تلك الليلة كلها يحرك عجلة العرفان أمام تلاميذه راقداً رقدة الأسد تحت الشجرتين ، وقد جاء كثير من الناس وتلقوا العلم عنه .

وعند فلق الصبح قال المبارك : « قد يقول بعض منكم قبل نهاية اليوم ، لقد ذهب السيد عنا ، وليس لنا معلم . كلا ، لا تقولن ذلك ، فإنى أترككم على المنهاج المعبَّد المستقيم المنور . اسمعوا ، معلمكم بعد ذهابى ، هو الشريعة والجمعية » .

---

(١) النص الكامل فى The Life of Buddha by Edward Thomas ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

ثم استوى جالساً يرنو إلى الجبال الشاهقة البيضاء . وقد سمعوه يتنفس الصعداء ، والطمأنينة بادية على وجهه ، وبعد قليل أخذ ينشد «أنشودة البيت المتضعضع» :

« من بيت وراء بيت سَجَنَنى ، ومن رسالة إلى رسالة أرسلنى ، ولادة بعد ولادة ، وأنا أدور فى دائرة متعبة ، باحثاً عن صانع هذه الخيمة . إن البيت قد ارتجفت أركانه . سقفه يرحب بمطر الموت فى داخله ، وجدرانه من الغبار تنتظر النهاية ، كانت الولادة بعد الولادة أليمة . الخجل والعذاب يتبعنى وأنا أتيه فى بيداء لا نهاية لها . . . الآن يقوم السجين متحرراً . . . يا صانع البيت . . . لقد رأتك العين . . . ها . . . . تهدَّم السقف ، وسقطت الجدران ، وانهارت الأركان . يا شاطر ، . . . . طال اختفاؤك . . . ها قد وجدتك ومسكتك مسكاً قوياً لا تنفلت من يدى أبداً . . . حان لى أن أتخلص من العذاب . . . . لقد خمدت هذه النار إلى الأبد! » .

عاد بوذا بعد ذلك إلى رقدته الأسدية متعباً . وقد ثقل تنفسه . ومع ذلك تكلم :

« أيها النساك ، كل شىء زائل ، مارٌ كمر السحاب . تذكروا هذه الحقيقة ، واسعوا لحريتكم بالتواضع والجد ، ناظرين إلى النهاية » .

سكت السيد وأغمض عينيه ودخل فى التفكير العميق! لا يحرك ساكناً ولا يبدو عليه أنه يشعر بما حوله .

« لقد مات السيد! » قال آننداا أخيراً .

زجره بعض الإخوان قائلاً : « كلا! إنه لم يمت بل طرأت عليه حالة التفكر الذى لا يبقى معها حس » .

ولكنهم علموا بعد أن راقبوه مدة أن كل شيء قد انتهى ، فما كان من بعض الإخوان الذين ما زالوا فريسة للأوهام ، أن ألقوا أنفسهم على الأرض، يتمرغون فى الغبار وينتحبون .

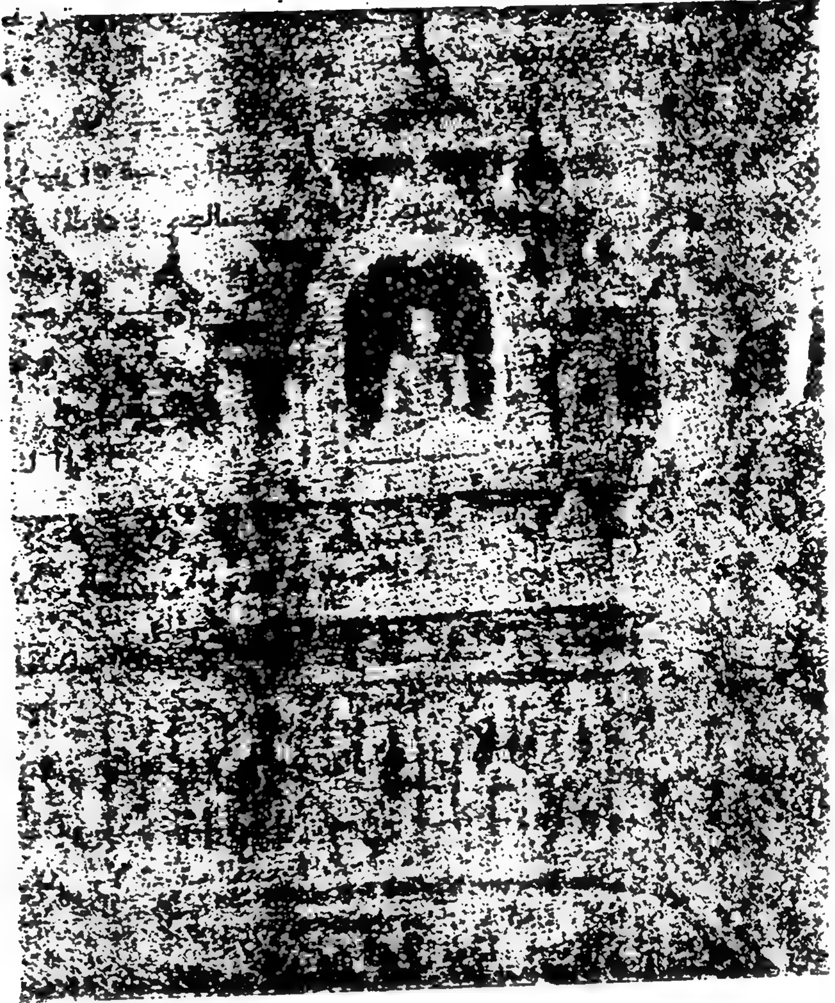
إلا أن آننداو أصحابه الذين تحرروا من الأوهام قالوا لهم :

« كل شيء زائل ، أيها النساك والعقل الذى تحرر من الهوى يعرف ذلك، ويعرف أيضاً أنه كان لزاماً أن يفارقنا المبارك ، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك » .

سمع الرهبان المنتحبون هذا الكلام ، فرجعوا عن سلوكهم المخجل، وأعْلِنَ فى البلاد أن السيد قد مات .

وعلى شاطئ النهر ، وعلى الأرض الرملية الفسيحة أحرقوا الجثة ، وأخذ كل واحد منهم يطوف حولها ثلاث مرات ، جامعاً كفيه إزاء صدره ، ثم يقف عند قدم المبارك وينحنى احتراماً وإجلالاً ، وقد اجتمع أهالى «كوسى نارا» القرويون ، فاحتفلوا بموت السيد كما يُحتَفَل بموت الملوك ، لأنهم تذكروا أنه كان ابن الملك!

ثم جُمِعَ رماد السيد ، وقسموه إلى ثمانية أجزاء ، وأرسلوا كل جزء منها إلى الجهة التى رأوها لائقة به ، فبنيت فوق الرماد بنايات عظيمة فى الجهات الثمانية .



معبد بروبردور بالقرب من جوكجلكرتا بجارة (أندونيسيا)
حيث ترقد حفنة من رماد بوذا

أخـــلاق بـــوذا :

يصور علماء الهند صورة رائعة لبوذا فيقررون أنه كان شديد الضبط ، قوى الروح ، ماضى العزيمة ، واسع الصدر ، عزوفاً عن الشهوة ، بالغ التأثير ، بريئاً من الحقد ، بعيداً عن العدوان ، جامداً لا ينبعث فيه حب ولا كراهية ، ولا تحركه العواطف ولا تهيجه النوازل بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، مؤثراً بالعاطفة والمنطق ، له منزلة كبيرة فى أعين الملوك ، ومجالسه ملتقى العلماء والعظماء .

ومن القصص التى تروى لتدل على تواضعه أن أحد تلاميذه قال له مرة : إننى أيها السيد أومن بكل قلبى أنه لم يوجد قط ، ولا يوجد الآن ، ولن يوجد إلى آخر الدهر مرشد أعظم قدراً وأكثر عقلاً من مرشدنا المبارك .

فأجاب بوذا : هل أنت قد عرفت كل العارفين الذين سبقونى ! وهل عرفت كل العارفين الذين يأتون بعدى ؟

فأجاب التلميذ : لا يا سيدى فلم يتيسر لى ذلك ؟

قال بوذا : هل عرفتنى كل المعرفة ؟ وتوغلت فى نفسى كل التوغل ؟

فقال التلميذ : لا يا سيدى وكيف لى ذلك ؟

فقال بوذا : فَلِمَ إذاً أسرفت فى قولك وجعلتنى خير الناس وأنت لا تعرفنى ولا تعرف النّاس ؟

من أقوال بـــوذا

أوردنا فيما سبق بعض أقوال بوذا فى مناسبات مختلفة ، ونورد فيما يلى مزيداً من أقواله التى تشرح لنا فلسفته واتجاهاته :



(أ) ناموس الطبيعة ودورنا معه :

إن ناموس الطبيعة هو الذى يسير على كل شىء ، وهو يقضى ألا يدوم العذاب والجحيم إلى ما لا نهاية ، كما لا تدوم الجنة ولا النعيم ، ومهما طال عهدهما فإنهما زائلان أخيراً . متى وكيف يتم ذلك؟ هذا يتوقف علينا نحن ، كل محرك سافل يجب أن نقهره ، كل إرادة مهينة نضبطها ، كل ضعف معيب نتغلب عليه ، ولكن ليس معنى هذا أن نغمض عيوننا عما يعانيه البشر من الفقر والشقاء زاعمين أنهم استحقوه بما جنته نفوسهم ، إذ كل من يفكر هكذا ولا يتمسك بالأخوة العامة والمحبة الشاملة مع سائر الخلق ، فلاشك أن ناموس الطبيعة يعاقبه أشد العقاب ، لأنه خارج عليه بعدم بذله الجهد الذى يسبب العفو والمرحمة ، هذا وإن ناموس الطبيعة ليس بخاضع لذات قدسى ، يتصرف فيه كيفما يشاء ، بل ذلك الناموس مستقل بذاته ، نافذ بنفسه ، لا يتأثر بمؤثر بشرى أو إلهى أبداً .

(ب) فى التناسخ :

الإنسان مركب جسدى، يملك قوى يتحرك بها ، وآلات يشعر بها فهو يحس ، ويلمس ، ويبصر ، ويسمع ؛ ويشم ، ويدرك ، وهو بهذه الحواس والمشاعر يتصل بالعالم الخارجى، أما طبعه فيشتمل على النزعات والكفاءات المنتَجَة من الماضى فهى - حسنة كانت أو قبيحة - إرث له من الحياة التى عاشها فى الماضى ، وهى التى تكيف شخصيته التى تبدأ بها حياته جديدة ، وذلك أن الحياة الداخلية للشخص ليست إلا سلسلة من الخيالات والرغبات والعواطف ، فإذا انفصلت الأواصر المادية بالموت تقمصت قوى المادة الأولية جسداً جديداً ، ولا تزال هذه القوى متواصلة إن لم يكن مادياً فنفسياً ، فيسعد الشخص الجديد أو يشقى حسبما تهيأ له من السلوك السابق، والعناصر التى تشكل شخصاً جديداً لا تزال فى تبدل مستمر ، ولكنها لا تتلاشى كلية، حتى تفنى تلك القوة التى تتمسك بها وتدفعها إلى الميلاد الجديد . وليست تلك القوة إلا الرغبة فى الوجود المنفرد .

(جـ) نـار الشهوة وكيـف تطـفأ :

« إن الحياة كلها من الولادة إلى الموت لهيب وحريق ، إنها نار الشهوة ونار البغض والعداء والهوى . ومن هم أولئك الخدم الذين يشعلون هذه النيران؟ العواطف الستة والحواس الستة : إن العين ترى الأشياء الجميلة مزخرفة اللون، والأذن تسمع الأصوات الحلوة، والأنف يشم الروائح الطيبة ، واليد تشعر بنعومة الريش أو الحرير ، والفم أو الحلق يقول إن ثمر المانجو هذا لذيذ حقاً ، والقلب يتأثر بالأشياء المرغوبة ـ هؤلاء هم العبيد الستة الذين يسعون لتنفيذ أوامر سيدهم ، فيجمعون الحطب ، فتزداد النيران اشتعالاً .

« ولكنَّ هناك طريقاً لإخماد هذه النار . اتبعوا الصراط السوى النير . إن هذا الصراط مستقيم لا عوج فيه . أما بابه ، فهو تطهير الذهن ، ونهايته السلام والحنان لكل الخلق من الأحياء . إن الذى يسلك هذا الصراط ، لا يقول : إننى أنا ، وذلك الإنسان غيرى ، ولذلك ففى نفعه خسارتى كلا ! بل هو يقول «يجب علىّ أنا الذى فزت بالبصيرة ، أن أشعر بالحب والحنان لكل الخلق الذين قُيِّدُوا بهذه الأغلال ، أغلال العلة وتعدد الحياة ، ولقد كسرت أنا هذه الأغلال بنفسى بقلع الشهوة من قلبى ، فيجب علىَّ الآن أن أسعى للكل وأجعلهم أحراراً » .

النـــرفـــانـــا

تكلمنا من قبل عن الانطلاق فى الهندوسية وعن النجاة فى الجينية ، أما فى البوذية فنتكلم عن «النرفانا» ، والكارما والتناسخ أساس لأديان الهند كما سبق القول (١) ، والطريق واحد تقريباً فى هذه الأديان للتخلص من

---

(١) عن مزيد من الدراسة حول الكارما والتناسخ انظر : G. F. Allen: Ghe Buddiba's Philosonhy p. 36 - 37

تكرار المولد ، وهذا التخلص هو أسمى ما يتطلع له الهنود ، وذلك الطريق يتمثل بوجه خاص فى قتل الشهوات والرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر ، وإذا استطاع الإنسان أن يجتاز هذا الطريق ، وصل إلى الانطلاق أو النرفانا التى لا تختلف مدلولاتها اختلافاً ذا بال ، فالمدلول فى الجميع هو التخلص من تكرار المولد ، والحصول على اللذة الصادقة والسعادة الدائمة ، ولنعد إلى النرفانا بالشرح والإيضاح .

تحدثنا من قبل عن «الإشراقة والكشف عن الأسرار» (١) وذكرنا أن غوتاما وهو تحت الشجرة المقدسة ، تمت له الإشراقة ، وانجلت له عقدة الكون ، وبوذا نفسه يصف هذه الإشراقة فيقول : كلمنى صوت من داخلى قائلاً : إن الهوى هو أصل الحزن . والنفس هى التى تجلب الشقاء ، وذلك أن المرء يقول دائماً : أنا أنا ، ويقول أيضاً : زوجتى وأولادى ، فهم أيضاً نوع من أنا ، أما من سواهم فليسوا أنا (٢) ، فيهوى ما يرى فيه شهوة نفسه ، وإذا خاب ، شَقِىَ ، وبهذه الفكرة يذهب الناس فى الدنيا كالحريق العظيم المدمر ، فيؤذُونَ وَيَقْتُلون ، ويكونون لعنة على الخلق .

قال بوذا للصوت : إن قبلت قولك فهل أنال الحرية ؟
فأجاب الصوت : نعم نعم ، أنه يجلب لك الحرية أيها الناسك (٣) .

فهل هذه هى النرفانا؟ هل هى القضاء على الأنانية ؟ والتحرر من الهوى وسلطان النفس ؟

نعم ، هذا هو اتجاه بعض الباحثين ، وعبارتهم فى ذلك هى : إن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس ، وإن الإنسان يستطيع أن

(١) ص ١٤٦ .
(٢) Allen : The Budda's dPhilosophy p. 42 .
(٣) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) ص ١٣٣ .

يكون سيد رغباته لا عبداً لها ، وإن في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين [1] .

واتخذ تلاميذ بوذا هذا الاتجاه أحياناً نظرية لهم توصل للنجاة أو النرفانا ، وتقي من تكرار المولد ، وقد حدث أن سأله تلاميذه مرة عن مريد له مات حديثاً : هل نجا من تكرار المولد ؟ فأجاب بالإيجاب ، ولكن أحد البراهمة سمع ذلك فاعترض على هذا الغموض ، فعاد بوذا يعلم تلاميذه ألا يعنوا بالنظريات والعقائد ، وألا يتكلموا عما بعد الموت ، وأن يوجهوا عنايتهم للعمل ، وكلماته في ذلك هي : أيها التلاميذ ، لا تسألوا أسئلة كهذه ، فإنها عارية من كل نفع ، ولا يقدر أحد على جوابها ، هل تكلم يوماً الذي مات؟ إن السؤال عن الغيب وتجدد الحياة لا يجدي نفعاً . ولكنه يعذب العقل وينهك القوى ، عليكم بالسبيل النير الشريف . فإنه يوصلكم إلى السلام في هذه الحياة . واتركوا ما بعد هذه الحياة إلى اليد التي تولته من أول الكون [2] .

وعلى هذا عادت النرفانا إلى الغموض ، ويزيد هذا الغموضُ عند قراءة ما نسب إلى بوذا عنها وهو قوله لمريديه : أيها المريدون ، هي طور لا أرض فيه ولا ماء ، لا نور فيه ولا هواء . لا فيه مكان غير متناه ، ولا عقل غير متناه ، ليس فيه خلاء مطلق ، ولا ارتفاع الإدراك واللا إدّراك معا ، ليس هو هَذا العالم ، وذاك العالم ، لا فيه شمس ولا قمر ، أيها المريدون ، هي طور لا أقول عنه بإتيان ولا بذهاب ولا بوقوف ، لا يموت ولا يولد ، هي من غير أساس ؛ من غير مرور ، من غير انقطاع ، ذلك نهاية الحزن [3] .

---

(١) حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى (مخلص عن الإنجليزية) ص ٥ .
(٢) ثقافة الهند : (مارس سنة ١٩٥٠) ص ١٢٩ .
(٣) نقلاً عن محمد عبد السلام الرامبوري : فلسفة الهند القيمة ص ١٣٤ .

ويقول العلامة رادها كرشنن إن بوذا رفض أن يشرح النرفانا ، وعلى هذا لا يجدى نفعاً أن نحاول فهمها ، بل ربما كانت اللغات البشرية لا تستطيع شرح النرفانا(١) .

ولكن لا تزال لدينا معلومات تقودنا إلى أسلم طريق لإيضاح النرفانا ، ويبدو مما لدينا من مراجع أن النرفانا مرت بمراحل تاريخية ، فقد كان مفهومها عند بوذا أول الأمر أنها الاندماج فى الله والفناء فيه ، ولكن أفكار بوذا تغيرت بالنسبة للتفكير فى الله ، فقد تخلى عن القول بأن هناك إلهاً ، بل أنكر وجود الإله كما سيأتى ، وبناء على هذا الإنكار لم تعد النرفانا الاندماج فى الله ، بل اتخذت لها معنى جديداً أو قل أحد معنيين متلاحقين هما :

١ـ وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحانى بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته المادية ، أو بعبارة أخرى فناء الأغراض الشخصية الباطلة التى تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة مروعة ، ويصبح المقياس هو : كل من شاء منا أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها .

٢ـ إنقاذ الإنسان نفسَهُ من ربقة الكارما ، ومن تكرار المولد ، بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر .

وبناء على المعنى الأول يصل الإنسان إلى النرفانا وهو حىٌّ . وبناء على المعنى الثانى ترتبط النرفانا بالموتِ وبالتخلص من هذه الحياة على ألا يعود لها(٢) .

---

(١) بحث بثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥٢) ص ١٨ .
(٢) مراجع كثيرة أسهمت فى إيضاح هذا المعنى منها :
«أ» بوذا الأكبر للأستاذ حامد عبد القادر ص ٨٠ ، ٨١ .
«ب» . Kaunitz : A Popular History of Philosophy p. 40 and 41
«جـ» . Edward Thomas : The Life of Buddha pp. 150 - 190
«د» Edward Thomas : The History of Buddhist Thought pp. 119 - 121
«هـ» . H. G. Wells : The outline of History p. 474

فلسفة البوذية

يعتقد بوذا ـ ككل المذاهب الهندية ـ فى مبدأ التناسخ ، وأهم ما تعمل له البوذية هو ـ كما سبق ـ التخلص من تكرار المولد والوصول إلى النرفانا ، والخطاب الأول الذى ألقاه بوذا على رفاقه فى بنارس عقب أن تلقى الإشراقة يحوى أهم عناصر الفلسفة البوذية ، ونحن ننقل نصه فيما يلى من «لَليتاوشْتار» كتاب البوذيين المقدس :

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن الألم : المولد ألم ، الهرم ألم ، المرض ألم ، الموت ألم ، الاجتماع بغير المألوف ألم ، الافتراق عن المألوف ألم ، عدم ظفر الرجل بما يهوى ألم .

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن مصدر الألم ، الظمأ ، والشهوة ، والهوى ، والرغبة فى التلذذ ، وفى التكوُّن ، فى القوة ، ذلك الهوى ، وتلك الشهوة تجر من مولد إلى مولد، ومن ألم إلى ألم . ويسوق بوذا سلسلة قضايا تؤدى إلى هذه الحقيقة وهى أن الهوى أصل الألم ، فهو يقول : إذا وُجدت الشهوة والهوى وُجد التحديد والتخصيص ، وإذا وجد التحديد والتخصيص وجد الجهل ، وإذا وجد الجهل وجد الخطأ ، وإذا وُجد الخطأ وجد الحزن ، فالحزن نتيجة للهوى والشهوات (١) .

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن إعدام الألم : إعدام الشهوة والهوى والظمأ والرغبة إعداماً باتاً .

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن سبيل إعدام الألم : سلوك الطريق المثمن (ذى الثمانى شعب) : الاعتقاد الصحيح ، العزم الصحيح ، القول الصحيح ، العمل الصحيح ، العيش الصحيح ، الجهد الصحيح ، الفكر الصحيح ، التأمل الصحيح (٢) .

---

(١) Berry L Religions of the world p. 44 .

(٢) G. F. Allen : Buddha's Philosophy p. 38 .

ونستطيع من هذا الخطاب الذى يعد فاتحة تبشير بوذا أن نستخلص ما يسميه البوذيون : الحقائق الأربعة [1] وهى :

الحقيقة الأولى : الألم موجود فالولادة والمرض والموت ومتاعب الحياة من فراق أحبه أو لقاء أعداء كلها تأتى بالألم .

الحقيقة الثانية : لهذا الألم سبب : وعلة الألم هى الشهوات والرغبات لأنها التى تنمى فينا الرغبة فى اللذة والتملك والشوق إلى عالم مستقبل [2] .

الحقيقة الثالثة : هذا السبب قابل للزوال . ويبطل الحزن متى بطلت الشهوة وانتفى الظمأ إلى الأشياء .

الحقيقة الرابعة : الوسيلة لزواله موجودة : ولإبطال الألم طريق واحد هو اتباع الشعب الثمانى التى سبق ذكرها ، والتى يصوغها بعض الكتاب فى عبارة أخرى .

الآراء السليمة - الشعور الصائب - القول الحق - السلوك الحسن - الحياة الفضلى - السعى المشكور - الذكرى الصالحة - التأمل الصحيح [3] .

---

(١) Buddhism Ed. Richard Card p. 94 .

(٢) يقتبس Wells شرحا لهذه الحقيقة من دراسة ما أسماه «إنجيل بوذا» فيقول إن الآلام ترجع إلى الذاتية الجشعة المتلهفة ، وإلى العذاب الناشئ عن الشهوة النهمة ، وإلى أن يستطيع المرء أن يكبح كل ما فى نفسه من نوازع الاشتهاء والتلهف الشخصى تظل حياته عناء واضطراباً ، ويصبح ختامه أسى وعذاباً ، وهناك ثلاثة أشكال أساسية يتخذها التلهف على الحياة وهى كلها شر : أولها الرغبة فى اشباع الحواس وهى الرغبة الشهوانية ، وثانيها الرغبة فى الخلود الشخصى ، وثالثها الرغبة فى النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا ، ولابد من التغلب عليها كلها ، أعنى أن الرجل يجب أن يكف عن أن يعيش من أجل نفسه ، فإذا كف عن ذلك تيسر له الصفاء والسكينة فمحو كلمة «أنا» من أفكار الشخص الخاصة يدفع المرء إلى الحكمة والعليا والسعادة الخالدة وصفاء الروح والسكينة وهو ما يعرف عند بوذا بالنرفانا (انظر : معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثانى ص ٤٧٤) .

(٣) G. F. Allen : Budha's Philosophy p. 36 .

وهناك قيود عشرة تحول دون بلوغ الإنسانية درجة النجاة والسلام ، وتلك القيود هى :

١ـ الوهم الخادع فى وجود النفس .

٢ـ الشك فى بوذا وتعاليمه .

٣ـ الاعتقاد فى تأثير الطقوس والتقاليد الدينية .

٤ـ الشهـــــوة .

٥ـ الكــــراهيــــة .

٦ـ الغـــــــرور .

٧ـ الرغبة فى البقاء المادى .

٨ـ الكبـــريـــاء .

٩ـ الاعتداد بالبر الذاتى .

١٠ـ الجهـــــل .

ومن الممكن تحطيم هذه القيود لمن يؤمن الحقائق الأربعة ويعمل فى ضوء هديها . وتتحطم هذه القيود شيئاً فشيئاً على درجات أربع :

١ـ فمجرد الإيمان بالحقائق الأربعة يحطم القيود الثلاثة الأولى ، لأن الإيمان بها هو اتباع لأفكار بوذا ، وذلك يستلزم عدم الشك فيه وعدم الاعتقاد فى الطقوس والتقاليد الدينية (الهندوكية وغيرها) واتباع بوذا فى فكرته عن التناسخ ، وأن الإنسان حلقة فى سلسلة متتابعة وليس له وجود مستقل .

٢ـ وعندما يؤمن الإنسان بالحقيقة الثانية وهى أن علة الألم هى الرغبات والشهوات تخف حدة الشهوة والكراهية والغرور فى نفسه .

٣ـ فإذا اتبع الحقيقة الثالثة وتأكد أنه لابد للقضاء على الألم من القضاء على الشهوة تحطمت قيود الشهوة والكراهية والغرور تحطيماً نهائياً .

٤ـ فإذا اتبع الحقيقة الرابعة واتبع الشعب الثمانى وتخلّق بها تهدمت باقى القيود العشرة ، وبذلك يصل الإنسان إلى الهدف السامى الذى يطلبه وهو النرفانا أو النجاة .

وهكذا ترى البوذية أن الكون أزلى مستمر ليس له مبدأ ولا نهاية ، وترى أن المولد الفردى ، هو منشأ الآلام التى تملأ حياة الفرد ، وليس هذا المولد إلا نتيجة للشهوات والرغبات والعواطف والميول الفردية المتقدمة لفرد قد سبق هذا الفرد ، فتجددت حياة هذه النفس لتلاقى جزاء ما خضعت للشهوات والرغائب من قبل ، ثم تكون للنفس فى دورها الجديد شهوات أخرى ورغائب ، فتتجدد مرة أخرى لنفس السبب ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، فالشهوات والعواطف هى سبب هذا التسلسل الذى سيمتد إلى مال لا نهاية ، ولا تنتهى السلسلة المشئومة حتى تعم بذورها من الشهوات والرغبات والعواطف والميول ، فيتجدد الميلادُ فالهرمُ والموتُ وسائرُ أوجاع الحياة وحسراتها .

وما بُعثَتْ البوذاوات فى الكون إلا لإعدام بذور الآلام والحسرات ، قال بوذا : « لولا ثلاثة فى الدنيا لما ظهر فى الكون الكاملُ المقدسُ الأعلى بوذا ولا الشريعة ، ولا أشرق فى الكون التعليم الذى يعرضه الكامل ، وما هذا التالوث إلا المولد والهرم والموت ، وما تبشير بوذا إلا الدعوة إلى النجاة من الآلام والحسرات باجتثاث شأفتها وقلع أصولها » .

وأهم شيء فى التعليم البوذى هو الحقائق الأربع التى سبق ذكرها ، فمن آمن بها واتبعها كُتبت له النجاة والسعادة ومن لم يعلمها ولم يؤمن بها

ظل فى شقائه وآلامه يموت ويحيا ثم يهرم ويهلك فيولد من جديد ، ولا تنقطع هذه السلسلة حتى يعرف هذه الحقائق ويتبعها .

وقد كُشفَت الأسرار لبوذا فعرف هذه الحقائق وآمن بها واتبعها ولذلك يقول : « لقَد أحرزت علم الحقائق الأربع المقدسة ، وأحرزت فهمها بالجلاء تام فصرت على يقين بأنى قد ظفرت بالبوذية الكبرى ، وقد عرفت أنه قد ضمنت لى النجاة بروحى ، ومولدى هذا آخر مولد ، وليس لى بعد هذا من مولد مستأنف » .

وإتماماً للفلسفة البوذية نذكر الوصايا العشر التى تنسب إلى بوذا ، وهى :

١- يجب ألا تقضى على حياة .

٢- يجب ألا تأخذ ما يُعطى إليك .

٣- يجب ألا تقول ما هو غير صحيح .

٤- يجب ألا تستعمل شراباً مسكراً .

٥- يجب ألا تباشر علاقة جنسية محرمة .

٦- يجب ألا تأكل فى الليل طعاماً نضج فى غير أوانه .

٧- يجب ألا تكلل رأسك بالزهر وألا تستعمل العطور .

٨- يجب ألا تفتنى المقاعد والمساند الفخمة .

٩- يجب ألا تحضر حفلة رقص أو غناء .

١٠- يجب ألا تقتنى ذهباً أو فضة (١) .

---

(١) Berry : Religions of the world p. 46 .

يقول العلامة رادها كرشنن الذى كان نائب رئيس الجمهورية الهندية [1] سنة ١٩٥٢ : إن بوذا لا يقرر العقائد ولا يؤسس مذاهب فلسفية ولا يزعم أنه جاء إلى الأرض بحكمة خصوصية ملكها من الأزل ، بل يعلم بكل جلاء أنه كسب هذه الحكمة بجهود جبارة فيما سبق له من الحياة على الأرض دهورا وأحقابا بتعدد المواليد ، وهو يرشد أتباعه إلى نظام يضمن الرقى الأخلاقى ، ولا يدعوهم إلى دين كسائر الأديان ، إنه يُرى أتباعه سبيلاً ولا يقرر عقيدة ، لأنه يرى أن قبول عقيدة يصد عن البَحث وراء الحق ، فكثيراً ما ترفض الحقائق لأنها تخالف عقيدة تمسك بها الذين جاءت لهم هذه الحقائق .

فبوذا يؤسس دعوته على حصوله على المعرفة أو بعبارة أخرى على تجربته الروحية التى لا يمكن بيانها بالألفاظ ، فدعوته حكاية عن تجربته وعن الطريق المؤدى إليها ، وهو يقول إن الحق لا يُعرف بالنظريات ، بل بالسير فى طريقه .

وعلى هذا لم يعن بوذا بالحديث عن الإله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً ، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو عن القضايا الدقيقة فى الكون ، إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على الإله ، ويرى أن الإنسان صانع مصيره . ومن كلماته فى ذلك : كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها ، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفا ، ولا تعتصموا بملاذ خارجي، ولا تَختَموا بغير أنفسكم [2] .

وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا فى هذه الأبحاث ، ويوبخهم على سؤالهم عن قضايا دقيقة مجردة ، ويأمرهم بالخوض فى أعمالهم

(١) ثقافة الهند : (ديسمبر سنة ١٩٥٢) ص ٢ وما بعدها .
(٢) هداة الإنسانية فى الشرق ص ٦٣ .

ودواعيها وميولهم وعواطفهم وعواملها ، وقد سأله أحد مريديه مرة : هل الذات موجودة؟ فسكت ، فسأله : هل الذات ليست موجودة؟ فظل ساكتا. فسأله : هل هذا الكون دائم أم غير دائم؟ . . . وأخيراً قال بوذا لهذا المريد : هل قلت لك جئنى أعلمك عن الذات وعن الكون ؟ لا ، لم أقل هذا ، أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس ، بل فكروا هكذا : هذا الألم ، هذا مصدر الألم ، هذا إعدام الألم ، هذا سبيل إعدام الألم .

ولكن بوذا اتجه أحياناً إلى جانب الإنكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الإثبات ، فقد وقف فى إحدى خطبه يسخر ممن يقولون بوجود الإله ، وكان مما قاله فى ذلك : إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله ، وهم لم يروه وجهاً لوجه ، كالعاشق الذى يذوب كمداً وهو لا يعرف من هى حبيبته ، أو كالذى يبنى السلم وهو لا يدرى أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهرا فينادى الشاطئ الآخر ليقدم له [1] ، وسنعود لهذا التفكير بالنقد فيما بعد :

ومن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحياناً اتجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الإلحاد .

والإيمان بإله ، اتجاه نفسى قوى لا يقل عن قوة الغرائز فى البشر ، وإهمال هذا الاتجاه يُحْدث ارتباكاً واضطراباً ، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون فى الإله ، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه . ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خالياً ، فقد لعبت بهم الأهواء ؛ فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس إنساناً محضاً ، بل إن روح الله قد حلّت به. وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التى يعتنقها بعض المسيحيين فى السيد المسيح ، فيقولون إن شخصيته ثنائية : لاهوتية وناسوتية ، وإن الشخصية

---

(١) العلامة رادها كرشنن فى بحثه السابق ص ٦ .

اللاهوتية حلت بالناسوت . وتسربت هذه العقيدة أيضاً إلى «مدعى التشيع» فقالوا بها فيما يتعلق بعلى بن أبى طالب ، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتى هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور [1].

امتزاج البوذية بالهندوكية :

بقى موضوع خطير يتصل بالإله عند بوذا ، فاتجاهات البوذية الخلقية واللاعقائدية سببت سرعة انتشار البوذية فى الهند لسهولة هذه الاتجاهات ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس ، وعلى هذا كان كثير من الهنود يتبعون البوذية فى أخلاقها ويظلون مع ذلك على ولائهم لآلهة الهندوس ، ومن هنا بدأت البوذية تختلط فى مظاهرها بالهندوسية ، وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالإله يعترفون بالآلهة الهندوكية ويتقربون إليها ، لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة لها ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، ومن هنا أخذت البوذية تتلاشى من الهند شيئاً فشيئاً . ويندمج أتباعها فى تقاليد الهندوسية وطقوسها وآلهتها ، ووضع البوذيون - الذين قالوا بأن بوذا كائن إلهى - تمثال بوذا بين آلهة الهندوس ، ولم يعارض الهندوس لأن العقل الهندى - كما قلنا من قبل - لا يضيره أن يُضَم إله جديد إلى ما يعترف به من آلهة ، وبمرور الزمن ذاب تمثال بوذا بين الآلهة الكثيرة وذاب أتباع البوذية بين الهندوس ، فلم يعد للبوذية شأن فى شبه القارة الهندية [2] ، وبجوار تمثال بوذا انتعش آلهة آخرون فى البلدان الأخرى التى

---

(١) عن هذا الموضوع انظر :
«أ» حامد عبد القادر : بوذا الأكبر ص ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٣٠ .
«ب» دكتور أحمد شلبى : المسيحية ص ١١٥ - ١١٧ .
«جـ» دكتور أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جـ٢ ص ١٢٨ وما بعدها من الطبعة العاشرة .
«د» . Rylands : The Peoples and Religions of India pp. 318 - 319
(٢) عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٥ - ٥٥ بتصرف .

دخلتها البوذية ، فظهر فى اليابان تمثال الإله شنتو Shinto وفى الصين ظهر تماثل الإله تاوْسِيم Taosim[1] .

البوذية وفلسفة اليوجا :

وذوبان بوذا فى آلهة الهندوس ليس إلا عَوْداً إلى تفكير الجنانا يوجا الذى يرى فى كل الديانات وفى كل الفسفات حقًا ، ولكن هذا الحق ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل ، فهذا المذهب لا يعترض على دين أو فلسفة ، ويرى أن أى دين أو فلسفة ليس هو كل شىء وليس هو كل الحق ، ومعتنق هذا التفكير لا ينتمى إلى دين أو مذهب لأنه يرى أتباع كل الديانات المختلفة إخوةً له مهما اختلفوا ، فجنانا يوجا مذهب يتسع لمعتقدات الجميع ، ويأبى أن يتقيد بقيود أى منها[2] .

اليوجا خدعة ضد الدين والوطن :

ويجب أن نقرر بشدة أن إثارة هذا المذهب والدعاية له ترمى إلى محاربة الإسلام بطريق غير مباشر ، وقد رأيت هذه المحاولات فى عدة بلاد ، فالإسلام هو القوة التى قهرت المبشرين المسيحيين والبوذيين ، فإذا صرفوا الناس عنه بطريق أو بآخر ولو باسم جنانا يوجا التى تتسع لكل المعتقدات ولا تتقيد بقيود أى منها ، فإن هذا كسب لهم عظيم ، وبعد أن يُصْرَف المسلم عن الإسلام بهذه الحيلة البارعة يمكن نقله إلى التشكيك ، فجذبه إلى دائرة أخرى ، فليحذر المسلم اليوجا ومداخلها ودعاتها .

وقد نشرت جريدة الأخبار الصادرة فى ١٦/ ٧/ ٧٥ خبراً عن إنشاء مكتب بالقاهرة باسم تدريبات اليوجا ، وكان المكتب من خلف هذه التدريبات يباشر نشاطاً دينياً لتميع الأديان وللانتقاص من القيم الروحية

(١) Berry : Riligions of the world p. 47 .
(٢) فلسفة اليوجا تأليف يوجى راما شاراكا ص ١٩٨ من الترجمة العربية .

التى تتضمنها ، كما ثبت أنه يموَّل من جهات صهيونية ، ولهذا أصدرت وزارة الداخلية قراراً بإغلاق هذا المكتب وترحيل الأجانب الذين يعملون فيه .

تعاليم البوذية

١- هل البوذية دين أو فلسفة؟ :

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة ، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا ، ومتصرِّفة فى أقدارنا ، وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كشفت لنا ، فإن بوذا بمقتضى هذا لم يكن صاحب دين ، فقد رأيناه لا يتكلم عن الله بل ربما سخر ممن تكلموا عنه ، غير أن أتباع بوذا بعده رفعوه إلى درجة الآلهة ، وقبلوا كلماته على أنها حقائق لا يتطرق إليها شك ، وهم بهذا يرفعون فلسفة بوذا إلى مستوى الدين ، ويرون أنه لم يتكلم عن الله لأنه هو الله . فالبوذية بناء على رأى بوذا فلسفة ، ولكنها فى رأى البوذيين دين .

ونحن نتفق مع بوذا ، ونرى أنه لم يكن نبياً ، ولا صاحب دين ، ولم يتلق وحياً ، وإنما هو باحث فيلسوف مفكر عاش على الأرض . وفكر فيما حوله من الأحياء ، ورأى ما ينزل بهم من متاعب ، وانتفع فى تفكيره بما سبقه من فلسفات وأفكار ، واهتدى إلى نتائج بعضُها من أقوال من سبقوه (١) ، ويقول مولانا أبو المكارم آزاد الذى كان وزيراً للمعارف بالهند ما يلى عن ذلك الموضوع (٢) :

« يبدو لى أن وضع بوذا فى صفوف الفلاسفة أسهل من وضعه فى صف الأنبياء ، وذلك لأنه لم يتعرض فى مباحثه لوجود الله ، بل حاول حل

---

(١) Edward Thomas : The Life of Buddha pp. 192 - 193 .
(٢) التاريخ الجديد العام للفلسفة (ثقافة الهند يونيو سنة ١٩٥١) ص ٥٢ .

مسألة الحياة ، وانتهى منها دون التحرش بالله وبوجوده ، إنه قد قطع كل علاقة له مع الحياة الدينية فى الهند التى كانت تدين بآلهة وإلهات لا تعد ولا تحصى ، إنه بدأ بحثه وفرغ منه دون أن يلجأ إلى الاعتقاد بالله ، وإن الأساسى الذى بنى عليه بحثه ، أساس فلسفى ، فقال إن هدف الجهد الإنسانى يجب أن يكون الوصول إلى حل مسألة الحياة ، وذلك من المستطاع دون الاستعانة بوجود فوقَ العقل ، أجل ، أسرعَ أتباعه بعد وفاته إلى تحويل تعاليمه إلى مذهب دِّينى . ولما وجدوا أنه ترك المكان الذى يحتله الله فى الأديان فازغاً ، عمدوا إلى بوذا نفسه ، فحملوه ووضعوه فوق عرش الإله الفارغ ، إلا أن بوذا ليس بمسئول عما فعله أتباعه » .

وبعض المفكرين الغربيين يرون البوذية ديناً ، لأنها ترسم الطريق للتخلص من الذنوب ، ولأن فيها جانباً روحياً ، ولأن معتنقيها كانوا يمتازون بحماسة قوية لا تتوافر إلا مع الأديان [1] .

٢. لا عقائد بل عمل :

هذا الموضوع يرتبط بالموضوع السابق ، فإذا كنا آنفاً قلنا إن بوذا ليس نبياً ولكنهُ فيلسوف ، فإننا هنا ننقل عن العلامة الهندى رادها كرشنن [2] أن بوذا لم يكن نبياً لأنه لم يقرر عقائد ، ولم يكن كذلك فيلسوفاً لأنه لم يؤسس مذاهب فلسفية ، وإنما أسس دعوته بناء على تجربته الروحية التى لا يمكن بيانها بالألفاظ ، فدعوته حكاية عن هذه التجربة ، وعن الطريق المؤدى إليها ، وبوذا يقول إن الحق لا يُعرف بالنظريات ، بل يُعرف بالسير المتواصل فى طريقه . و فى ذلك يقول أيضاً : إن عملى ملكى ، وعملى ميراثى ، وعملى هو الرحم الذى يحملنى ، وعملى هو الجنس الذى أنتمى إليه ، وعملى هو الملجأ الذى ألتجئ به .

---

(١) Berry : Religions of the World p. 43 .

(٢) كان نائباً لرئيس جمهورية الهند سنة ١٩٥٢ .

فأساس النظام الذى وضعه بوذا العمل لا العقيدة ، فقد كان يحاول خلق عادة لا إقرار عقيدة ، وعلى هذا ليس فى تعاليمه إلا القليل الذى يصح أن يوصف بالعقيدة ، كما أنه لم يأمر بعبادات ولا رياضيات تقشفية ، وكل إلحاحه كان على التدريب الأخلاقى (١) .

٢- أخلاق الجماعة البوذية :

سبق عند الكلام عن الجينية أن ذكرنا أن للجينية فرقتان : خاصة وهم الرهبان المنقطعون للتبتل ، وعامة وهم أتباع الجينية من غير الرهبان ، أما فى البوذية فلم تكن هناك طائفة خاصة من القسس والرهبان ، وكان أتباع بوذا جماعة واحدة يتعاون أفرادها على الوعظ والإرشاد ، ويلتزمون حياةً شعارها ضبط النفس من الشهوات ، وليست هناك شعائر يتبعها من يريد الالتحاق بالبوذية ، وعلى الراغب فى الالتحاق بها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل مخلاته للسؤال وينضم إلى الجماعة ويتخلق بأخلاقهم ، ولعل من الممكن أن نقول إن فكرة التخلص من الأموال لدخول البوذية قد تسربت إلى المسيحية ، حيث يروى متى ومرقص ولوقا عن عيسى أنه قال لشاب غنى أراد أن يدخل المسيحية : بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعنى ، فلم يقبل الشاب ، فقال عيسى : يعسر أن يدخل غنى ملكوت الله (٢) .

وليس ضبط النفس وقهر الشهوات بدرجة واحدة بين أتباع بوذا ، بل كانوا يتفاوتون فى ذلك تبعاً لمقدرتهم الخاصة .

والاحترام للحياة ، إنسانيةً كانت أو حيوانية ، من أهم الأخلاق البوذية ، فليس لبوذى أن يقتل حيواناً فى لهو كالصيد أو فى جد كذبحه للأكل ، بل عليه أن يرفق بالحيوان ويعده أخاه فى الخَلْق ، ولا يراه خَلْقاً

---

(١) أبحاث لمجموعة من المفكرين الهنود عن غوتاما بوذا نشرت فى عدة أعداد من «ثقافة الهند» .
(٢) متى : الأصحاح الثامن عشر ومرقص الأصحاح العاشر ، لوقا الأصحاح الثامن عشر .

أدنى منه ، فالهدوء الروحى والحب لكل نسمة هو ما أرشد له بوذا .

والمحبة الشاملة أهم وأفضل من الأعمال الحسنة لدى الجماعة البوذية ، وقد قال بوذا فى ذلك : الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التى تحرر القلب من شوائب الشر ، لأن مثل هذه المحبة يتضمن سائر الحسنات إن المحبة تشرق نوراً وبهاءً ، ترون الأم تحيط بوليدها حتى فى الأخطار التى تهدد حياتها ، كذلك يجب على كل إنسان أن يغرس فى نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق [1] .

٤ـ فلسفة الثروة عند بوذا :

تكلمنا آنفاً عن رأى بوذا فيما يتعلق بالمال والعقار ، وذكرنا أنه حث من يريد دخول «النظام» أن يتنازل عن أمواله وعقاره ثم يحمل مخلاته ويلتحق بالجماعة ، وذلك هو رأى بوذا تجاه الثروة ، ولكنه أورد مزيداً من الشرح الذى يُظهر أن هذا الاتجاه هو الغالب لأن الثروة فى أكثر الأحيان تستعبد صاحبها ، وتجذب نفسه وتصير هدفاً لذاتها ، أما إذا لم تشغف النفس بالثروة ، ولم يكن الإنسان عبداً لها ، ولم تكن هدفاً لذاتها وإنما تُجْمَع لتنفق فى الوجوه الصحيحة ، فإن الثروة حينذاك لا تصير نقمة ولا شراً ، بل تصبح نعمة وبركة للإنسان . ومثلها الحياة والسلطان .

ومما يتصل بالثروة رأيه فى العمل والبطالة ، فقد كان واضحاً من سياسة « الكشكول» والسؤال أن بوذا يتجه للبطالة ، ولذلك سأله أحد الجينيين مرة : هل أنت تدعو إلى ترك الأعمال وهجر الأشغال ؟ فأجابه : إنى أدعو إلى ترك كل عمل قبيح يجر إلى الشرور ، ولكنى بجنب هذا أدعو إلى القيام بكل ما هو حسن للجسد واللسان والفكر ، وكذلك أدعو إلى الإقبال على كل عمل يؤدى إلى الخير والسعادة . ولكن سلوك بوذا على كل حال كان يناقض حب العمل .

---

(١) من بحث للعلامة رادها كرشنن سالف الذكر .

٥ - إلغاء الطبقات :

تحدثنا من قبل عن نظام الطبقات فى الهندوسية ، ولعل من أهم المبادئ التى نادى بها بوذا هى إلغاء هذا النظام ، ومن أقواله فى ذلك : اعلموا أنه كما تفقد الأنهار الكبيرة أسماءها عندما تصب فى البحر ، كذلك تبطل الطبقات الأربع عندما يدخل الشخص فى النظام ويقبل الشريعة ، إن ما يدعو إليه بوذا هو الرهبنة ، وفى الرهبنة يتساوى سائر البشر .

ولكن يؤخذ على هذا الاتجاه أنه جعل إلغاء نظام الطبقات متوقفاً على دخول البوذية . فلم يدع للمساواة فى حد ذاتها ، أما الإسلام فهتف بالمساواة مبدأ عاماً بين البشر ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، فالآية تنادى الناس ولا تنادى «المؤمنين» فقط ، وهى تتكلم عن مبدأ الخلق وأن الناس ينحدرون من أب واحد وأم واحدة فلا معنى للتفاوت والطبقية .

وقد سبق أن قلنا إن البوذية - لأنها لم تتكلم عن الله - سرعان ما انمحت وذابت فى الهندوسية بالهند ، وبالتالى سرعان ما ضاعت المساواة إذ ربطها بوذا بدخول البوذية .

٦ - المرأة والبوذية :

يقول العلامة رادها كرشنن النائب السابق لرئيس الجمهورية الهندية فى بحثه سالف الذكر : إن المرأة الهندية فى عصر بوذا لم تكن منعزلة ، ولكننا مع ذلك نجد بوذا يتردد كثيراً فى قبولها لتكون من أتباعه ، وقد سأله مرة أحد خاصته وهو ابن عمه آنندا :

- كيف نعامل النساء أيها السيد ؟
- فأجاب : لا تنظر إليهن .

ـ ولكن إذا اضطررنا للنظر إليهن ؟
ـ لا تخاطبهن .
ـ ولكن إذا خاطبننا ؟
ـ إذاً كن على حذر تام منهن .

وكان آنندا من أنصار المرأة ، وكان ابن عم بوذا وصفيَّه ، فما زال يلح على بوذا حتى قبل ضم النساء إلى جماعته وأتباعه ، على أنه على الرغم من ذلك كان يرى فى هذا خطراً على المجتمع البوذى ، وقد قال لآنندا مرة : لو لم نضم المرأة لدام النظام الخالص طويلاً ، أما الآن بعد دخول المرأة بيننا فلا أراه يدوم طويلاً .

وقد أثر عن بوذا قوله : «للنظام بعد موتى أن يغير من سننه ما يراه مضراً لمقاصده وحياته» ويرى العلامة رادها كرشنن أن بوذا عنى بهذه الجملة لأتباعه طرد النساء إذا رأوا منهن خطراً على الدعوة .

لمحة تاريخية

الكلام عن تاريخ البوذية يشمل اتجاهين ، أحدهما دراسة البوذية من ناحية تطورها الفكرى والفلسفى ، والثانى دراسة البوذية من ناحية انتشارها ، وما صادفته من انكماش وانبساط وعوامل ذلك ، وفيما يلى حديثنا عن كل من هذين الاتجاهين :

(أ) تطور البوذية الفكرى والفلسفى :

صورنا فيما سبق البوذية فى حياة مؤسسها ، فشهدناها نظاماً أخلاقياً ، واتجاهاً تربوياً ، ولكنها أخذت تتطور من قرن إلى قرن ، فدخلتها مسائل عن الإلهيات والكون كان بوذا قد نهى عنها وحذَّر منها مريديه ، ولكنهم بعده بحثوا فيها وأدرجوها فى التعليم نفسه ، فأصبحت البوذية مذهباً فكرياً

ومباحث عقلية ، وبعدت البوذية الجديدة بذلك عن البوذية القديمة ، لقد كانت البوذية القديمة تزكية وتربية فأصبحت البوذية الحديثة فكراً وفلسفة .

وقد قسمها العلماء حسب الطابع العام ، إلى البوذية القديمة والبوذية الجديدة . فالبوذية القديمة صبْغَتُها أخلاقية ، وميزتها سذاجة المنطق وإثارة العاطفة ، وطابعها الحض عَلى الخضوع لقوانين النظام ، والاهتمام بهدى شارعها ، وكأنها هى التى دعا إليها بوذا نفسه واتبعها مريدوه وأتباعه الملازمون له . أما البوذية الجديدة فهى عبارة عن تعاليم بوذا مختلطة بآراء دقيقة فى الكون ، وأفكار مجردة عن الحياة والنجاة ، مؤسسة على نظريات فلسفية ، وقياسات عقلية ، قد سمحت بها قرائح المتأخرين من الشراح والزعماء ، والغالب عليها صبغة الفلسفة [1] .

وقد ارتبط التغير الفلسفى البوذى بانتشار البوذية ودخولها أقطاراً كثيرة ، فإن أتباعها هنا وهناك أكثروا فيها القياس والتأويل حسب عقولهم وثقافاتهم حتى بعدت عن أصلها الساذج البسيط ، وسنسوق فيما يلى اتجاه الفرق الفلسفية الجديدة ، ويلاحظ أن أكثرها اتخذ الاعتراف بالإله أساساً لفلسفته :

- فرقة تقول بوحدانية الله ، وأنه أوجد أولاً عدداً محدوداً من الأرواح ، ثم ترك الإنشاء والتعمير مكتفياً بما وضعه فى العالم من قوانين وقُوَى كالبذور تسير سيرها الطبيعى بلا نهاية ، وهذه الأرواح هى التى تخلص الخير والشر .

- وفرقة ترى أنه أودع هذه الأرواح التى أرسلها للعالم قوى تستطيع منها أن تعرف الخير من الشر ، ومن أجل ذلك لا يرسل الله رسلاً اكتفاء بذلك .

---

(١) محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند ديسمبر سنة ١٩٥٣) ص ٩٥ .

ـ وفرقة ترى أن الله يُفْرِغ الكمالات الإنسانية فى كل زمن على إنسان يتجرد لعبادته ، ويبتعد عن إرضاء الشهوات الحيوانية ، وهذا الإنسان المختار يحل محل الإله فى إظهار الرضا عن بعض الناس أو الغضب عليهم ، تبعاً لما يأتونه من الأعمال ، ويعرفه الناس ويلتفون حوله .

ـ وتبالغ فرقة أخرى فى تصوير المعنى السابق فتقول إن الله يحل فى أية صورة يختارها من صور أفراد الإنسان حلول تطهير وتكميل لا حلول استقرار (كاللاما فى بلاد التبت) .

ـ وتتكلم كل الفرق عن التناسخ وارتباطه بالكارما ، ولكن بعض الفرق ترى تناسخ النوع الإنسانى مقصوراً عليه ، وتناسخ الحيوان مقصوراً عليه ، فلا تنتقل روح من إنسان إلى حيوان ولا العكس ، وتزيد فرقة أخرى فى تضييق دائرة التناسخ ، فترى أن روح العالم تنتقل إلى صانع وهكذا (١) .

(ب) انتشار البوذية :

انتشرت البوذية فى عهد بوذا انتشاراً واسعاً بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا ، أما طبقة الملوك والجنود فقد دخلت البوذية تخلصاً من سلطان البراهمة الذين أثاروا ـ كما سبق القول ـ سخط جميع الطبقات الأخرى باستبدادهم وتعسفهم وأما الطبقات الدنيا فقد دفعت بنفسها إلى البوذية لتتخلص مما عانته فى رحاب الهندوسية من اضطهاد واحتقار .

ولكن البوذية بدأت تنكمش بعد بوذا ، وقد سبق أن ذكرنا أن من أهم أسباب انكماشها أنها لم تعن بالكلام عن الإله ، وبعبارة أخرى تركت فراغاً كبيراً فى نفوس أتباعها ، وبمرور الزمن ملأ أتباعُها هذا الفراغ بآلهة الهندوس أو بعبادة بوذا نفسه واتخاذه إلها ، ويتصل بهذا أيضاً أن بوذا لم

---

(١) هذه الدراسة موجزة عن : محمد فاضل : الحراب فى صدر البهاء والباب ص ١٠٣ .

يبن معابد ، ولم يأمر أتباعه بممارسة أى لون من ألوان العبادة ، وبسبب هذا لجأ أتباع بوذا إلى معابد الهندوس فوضعوا فيها تمثال بوذا ، وأصبح كل ما زاد هو إله جديد أضيف إلى آلهة الهندوس المتعددة ، والعقل الهندى يرحب بمزيد من الآلهة . وهكذا أخذت البوذية تتلاشى فى الهندوسية ، وأخذت الهندوسية تمتصها أو تمتص أتباعها يوماً بعد يوم .

وكان من أسباب ضعف البوذية فى الهند بالإضافة إلى ما سبق ، أن البوذية اهتمت بإصلاح الباطن ، أي إصلاح الأخلاق ، فحاربت الشهوة والغرور والكبرياء ، وألزمت بالشُعَب الثمانى من رأى سليم وشعور صائب وسلوك حسن . . . ولكن الهندوسية قنعت بأشياء ظاهرية كالغسل فى الأنهار المقدسة والأخذ بالطقوس والقرابين . . ومعالجة الظاهر أيسر وأسهل من معالج الأمور الباطنية ولهذا تخلى البوذيون يوماً بعد يوم عن صراعهم مع نفوسهم ، واكتفوا بقربان يقدمونه أو مظهر يظهرون به كما ترى الهندوسية ، ومما ساعد على ذلك تأصُّل نظام الطبقات الذى رفضته البوذية ، واحتواء الهندوسية على تقاليد القوم وعاداتهم مما جرهم إليها يوما بعد يوم (١) .

هذا ما آلت له حال البوذية فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، ففى داخل الهند ، كانت البوذية تضعف وتنكمش ، ولم تكن البوذية قد عرفت بعد طريقها إلى خارج الهند ، وجاء الملك العظيم آسوكا والبوذية على وشك أن تنهار ، فأعتنقها وبعث فيها الحياة مرة أخرى ، ودفع بها إلى الخارج ، والمؤرخون يعدونه للبوذية شبيهاً بالقديس بولس أو قسطنطين الأكبر بالنسبة للمسيحية . تعال بنا نقص طرفاً من حديث هذا الملك العظيم .

(١) Rylands : The Peoples and Religions Religions of India p. 199 .

آسوكا وانتشار البوذية :

كان الإسكندر المقدونى قد استولى على السند فى زحفه نحو الشرق ، ولكنه لم يتقدم نحو نهر الكنج ، ولم يسيطر على باقى الهند لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا معه فى ذلك العالم المجهول ، وألف المقدونيون مملكة صغيرة فى هذا الركن من الهند ، وفى سنة ٣٢١ق . م تمكن الأمير شاندرا جوبتا Chandragupta الذى ينحدر من الأسرة المورية أن يجمع حوله قبائل عديدة بمنطقة التلال ، وأن يستولى على المملكة الإغريقية بالبنجاب ، ويزيل عن الهند آثار الحكم الإغريقى ، وجاء ابنه بعده فبسط رقعة مملكته ، فلما جاء حفيده آسوكا وجد نفسه حاكماً على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس ، وسار آسوكا (٢٦٤ ـ ٢٣٧ ق . م) فى مطلع حياته سيرة أبيه وجدِّه فى محاولة التوسع عن طريق الحرب .

وبينما كان آسوكا فى قمة انتصاراته الحربية ، أحس باشمئزاز من هول الحروب وقسوتها ، فتخلى عن الحرب ، وكره النصر عن طريقها ، وزهدت نفسه فيها تماماً ، وتبنى مذهب البوذية ، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين فى ميادين الدين ، وتروى الأساطير أن هذا التحول كان بسبب ما ناله من حيرة ، وبسبب تأنيب ضميره لقتله إخوته وعددهم تسعة وعشرون ، أو حرقه زوجاته وجواريه وكنَّ خمسمائة(١) .

ودام حكم آسوكا ثمانية وعشرين عاماً تعتبر أزهى فترة فى تاريخ البشرية المضطرب ، فقد قام فى الهند بحركة عظيمة للخير والثراء ، حفر الآبار ، وزرع الأشجار ، وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تربى فيها الأعشاب الطبية ، واهتم بأهالى الهند الأصليين ، واتخذ العدة لتعليم النساء ، وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ،

---

(١) René Sedillot : The History of the World p. 62 .

واتجه آسوكا إلى خارج الهند فأرسل البعوث الدينية إلى كشمير وسيلان والإمبراطورية اليونانية وجبال هيمالايا وفارس والإسكندرية (١) .

وهكذا انتقلت البوذية من مذهب ضمن المذاهب الدينية الهندية إلى دين عالمي ، وسرعان ما لبى أهل سيلان دعوة آسوكا فاعتنقوا الدين الجديد ، ولعل مما سبب ذلك ما كان بين حاكمها وبين آسوكا ، من روابط الصداقة . ويروى أن أهل الجزيرة أرسلوا بعثة إلى الهند لتعلم البوذية ، وأن آسوكا أرسل مع إحدى بعثاته إلى سيلان فسيلة لشجرة المعرفة التى نال بوذا تحت ظلالها المعرفة والبصيرة ، وغرست هذه الفسيلة فى سَيلان ، وبمرور الزمن أصبحت دوحة عظيمة ، ولا تزال باقية إلى الآن وهى أقدم شجرة على الأرض .

وأقام آسوكا المسلات فى عدة أمكنة حيث دوَّن عليها تعاليم البوذية وأنذر من يميلون للعصيان ، ووعد البررة بالهبات والخيرات .

وتنازل آسوكا عن ممتلكاته ولم يستبق إلا ثمانية أشياء ضئيلة هى أردية ثلاثة صفراء ، ونطاق يشدها به ، وإبرة لترقيع الأردية ، ومجموعة خيوط للترقيع وموسى لحلق شعره وغربال لتصفية الماء قبل شربه حتى لا يبلع نفساً .

وندب آسوكا رجالاً يتجولون فى البلاد ، يرغِّبون الناس فى النسك والورع ، ويعلمونهم مكارم الأخلاق ، وحثهم أن يكونوا قدوة للناس ، ليسهل على الناس الاقتداء بهم ، فيجاروهم فى سيرتهم الرشيدة ، وصبرهم على الشدائد ، وعهد إليهم كذلك النظر فى الأعمال الخيرية وإدارة شئونها ليزيد نفعها وخوَّلهم بعض السلطة فكان لهم إطلاق سراح المسجونين إذا اقتنعوا ببراءتهم ، وكانوا يراقبون الناس ليتحققوا

(١) Wells : A Short History of the World pp. 126 - 127 .

أنهم يلتزمون سبل السلام ويحترمون القانون ويراعون حق الفقراء والأكابر [١] .

ومات آسوكا وقد انتشرت البوذية فى الهند وفى البلاد المجاورة لها ، ولكن البوذية فى الهند عادت بعد قليل تصارع الهندوسية كما فعلت من قبل ، ولم تستطع البوذية أن تثبت فى هذا الصراع ، فالهندوسية كانت أثبت وأكثر صلة باتجاهات السكان وميولهم ، فاضمحلت البوذية أمامها ، وأخذت تنحدر حتى انحسرت عن الهند تقريباً . أما فى البلاد المجاورة فإن البوذية سارت بنجاح وانسابت فى اتجاهات متعددة فى شرقى آسيا حتى أصبح أتباعها حوالى خمسمائة مليون نسمة ينتشرون فى بورما وتايلاند والصين واليابان وأندونيسيا ونيبال والتبت وسيلان .

والبوذية القديمة أى العميقة الصلة ببوذية بوذا ، والتى يتجلى فيها الطابع الأخلاقى والتربوى ، تسمى المذهب الجنوبى ، وهى تنتشر فى بورما وتايلاند وسيلان وكتبها المقدسة مكتوبة باللغة البالية وهى لغة هندية قديمة . أما البوذية الجديدة فهى التى اختلطت بالآراء والنظريات الفلسفية وتسمى المذهب الشمالى ، وتنتشر فى الصين واليابان والتبت ونيبال وإندونيسيا ، وكتبها المقدسة مكتوبة باللغة السنسكريتية ، وأتباعها أكثر من أتباع المذهب الجنوبى .

والبوذية فى الصين بوجه خاص لها طابع يجعلها بعيدة عن البوذية الحقيقية ، فقد صبغها الصينيون بثقافتهم وحياتهم فجعلوا آلهتها ثلاثة وثلاثين على نحو ما كانوا يعملون قبل البوذية ، وأقاموا لها المعابد الجذابة ، التى تزينها الفنون الجميلة ، ومما سبب إقبال الصينيين على البوذية أنها دخلت بلادهم بعد أن أصبح بوذا إلهاً ، وأصبح تمثاله وثناً يُعبد ، وتقدم له

---

(١) محمد عامر الأنصارى : آسوكا الامبراطور الهندى العظيم ص ٨٢ ، ٨٣ .

القرابين ، وتقام له الصلوات ، وقد كان لهم مع آلهتهم الأولى مظاهر للتقديس ليست بعيدة عن هذه المظاهر ، ومما سبب إقبالهم على البوذية كذلك أنها دين إنقاذ وطهر ، يمنح بالنرفانا اللذة والسعادة فى الحياة وبعد الموت ، ويحث على الرحمة ، ويغرى بالخير ، ويقضى على الشهوات الظالمة ، ويبعد عن الشرور (١) .

مراحل انتشار البوذية :

ولنسر خطوة خطوة مع التاريخ نسجل انتشار البوذية الذى سبق أن أشرنا إليه معتمدين على مرجع هام خاص لهذه الدراسة (٢) .

إن التاريخ الإجمالى للبوذية يقرر أن هذه الديانة واصلت سيرها طوال خمسة وعشرين قرناً ، وفى خلال هذه الفترة الطويلة تطورت البوذية سواء من ناحية العقيدة ، أو التطبيق ، أو الأدب ، أو المؤسسات المرتبطة بها كالمعابد والمعاهد ، وقد اقتحمت البوذية حوالى ثلاثين قطراً فى آسيا ، وكان تأثيرها عظيماً فى آداب هذه الأقطار وفى اتجاهاتهم الدينية ، ومنذ القرن التاسع عشر اتصل الفكر البوذى ببعض دول أوربا فأصبح للفكر البوذى أثره فى الفلسفة الغربية والأدب الأوربى والموسيقى وغيرها من الفنون الثقافية .

ذلك مجمل القول نحو تمدد البوذية وانتشارها ، ولكن إعطاء تفاصيل عن هذا الانتشار يكاد يكون أمراً متعذراً لقلة المادة الدقيقة عنه ، ومن الممكن على كل حال لو قسمنا عمر البوذية إلى خمس مراحل ، كل مرحلة خمسة قرون أن نعطى أبرز التطورات عن البوذية فى كل من هذه المراحل .

شهدت الفترة الأولى (من مطلع البوذية حتى القرن الأول الميلادى) تحولاً كبيراً فى العقيدة البوذية فيما يتصل ببوذا ، فقد كان فى أول هذه الفترة

---

(١) Berry : Relihious of the World pp. 47 - 48 .

(٢) Buddhism, Ed. Richard Card pp. 2 - 15 .

يعد معلماً ورجلاً عظيماً ورائداً عالمياً ، ثم أصبح بمرور السنين رجلاً مقدساً فمعبوداً فإلهاً ، ولم يكن ذلك التطور الواسع باتفاق الجميع ، ولذلك عقدت عدة مؤتمرات للتوفيق . ولكنها لم تستطع أن تقنع الجماهير بترك مكان الإله شاغراً كما أراده بوذا أن يكون ، فظل الخلاف قائماً .

وفى خلال هذه الفترة ظهر الإمبراطور آسوكا الذى دفع البوذية إلى خارج حدود الهند كما سبق القول ، وبدأت البوذية تبنى المعابد وتضع فيها الآلهة ، كما بدأت تقيم الجمعيات التى ترعى الحياة الاجتماعية وتشرف على شئون الدين وبخاصة فى الهند وسيلان .

وفى الفترة الثانية أى من القرن الأول حتى القرن الخامس الميلادى أخذت البوذية تنتشر تجاه الشرق إلى البنغال ، وتجاه الجنوب الشرقى إلى كمبوديا وفيتنام ، وتجاه الشمال الغربى إلى كشمير ، وفى القرن الثالث اتخذت طريقها تجاه الشرق إلى الصين وأواسط آسيا ، وكان دخولها إلى الصين بطريق البحر أيضاً ، ومن الصين اتجهت إلى الشمال الشرقى فدخلت كوريا ، وكان لنشاط الصينيين الذين زاروا الهند وسيلان وجاوه بين سنة ٣٩٩ وسنة ٤١٤م أثر كبير فى نشر البوذية فى هذه البقاع ، وكانت البوذية فى هذه البقاع تتعاون تعاوناً كاملاً مع النظام الملكى الذى كان مسيطراً خلال هذه القرون على هذه الأقطار ، وبواسطة هذا الارتباط بين الدين والسياسة انتشرت البوذية وكثر تابعوها وشهدت هذه المدة تقدماً واضحاً فى الثقافة البوذية التى أخذت تقيم المعاهد وتنشر تراثها على أتباعها .

وفى المدة التالية أى من القرن السادس إلى العاشر الميلادى استمرت البوذية فى التقدم والانتشار ، وبخاصة من كوريا والصين إلى اليابان ، ومن الهند إلى نيبال ، ثم إلى التبت ، وزادت مواكب الحجاج فى هذه الفترة ، وكثر نشاطهم وتنقلهم إلى البلاد التى دخلتها البوذية ، ويلاحظ فى هذه الفترة أن الارتباط بين القصور الملكية الحاكمة وبين البوذية لم يكن دائماً

وطيداً وكان انتشار البوذية أو تقلصها يتوقف على قوة الارتباط وضعفه ، وتعد هذه الفترة من أزهى فترات البوذية من الناحية الثقافية . فقد اتضح تأثير البوذية على الآداب والفنون فى جميع البلدان التى دخلتها .

وفى المدة التالية أى من القرن الحادى عشر إلى الخامس عشر ضعفت البوذية واختفى كثير من آثارها وذلك لعودة النشاط الهندوسى فى الهند ولظهور الإسلام فى الهند وفى سواها من الأقطار التى كانت تتربع فيها البوذية ، ولكن البوذية اتجهت بنشاطها فى هذه الفترة - فارّة من الإسلام - تجاه لاوس ومنغوليا وسيام وبورما وكان النشاط الثقافى البوذى عظيم الأثر خلال هذه الفترة فى بورما وكمبوديا وسيلان واليابان .

أما الفترة الأخيرة أى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين فتعتبر فترة دقيقة فى تاريخ البوذية ، إذ وقفت البوذية وجهاً لوجه أمام تحدى الفكر الغربى الذى حمله الاستعمار إلى تلك البقاع ، فقد أدخل الاستعمار الغربى إلى هذه البلاد اتجاهاته الفكرية وإصلاحاته التربوية وفلسفاته فى مختلف الشؤون ، ولم تجد البوذية بدا من أن تتعاون طوائفها المختلفة لتقف فى وجه هذا الزحف الفكرى ، وهكذا التقت الفرق البوذية أو قربت بعضها من بعض لتَقْوَى على النضال فى معركتها مع المسيحية الغربية والفلسفات الأوربية وقد تبنت البوذية كثيراً من الاتجاهات الغربية ، كما تشربت المسيحية بعض الأفكار البوذية ، وتبودلت المطبوعات بين المشرفين على هاتين الفلسفتين ، وتطور التعليم فى المعابد فاقترب من كليات الغرب وجامعاته ، وتم تعاون فى الخدمات الاجتماعية بين البوذيين والغربيين .

وفى نهاية هذه الفترة اصطدمت البوذية بالشيوعية ، وأصبح الحكم فى كثير من الأقطار التى تنتشر بها البوذية فى أيدى حكومات شيوعية ، ولم يتضح بعد مصير البوذية فى ظل الظروف الجديدة .

الجيل الجديد بين البوذية والفراغ والمسيحية

كنت على وشك أن أرفع القلم عندما وصلت إلى هذا الحد من الحديث عن انتشار البوذية ، ولكنى تذكرت أحداثاً عشتها سنة ١٩٦٠ بتايلاند أحد مراكز البوذية بالشرق الأقصى . وهذه الأحداث تقرر بما لا يدع مجالاً للشك أن الجيل الجديد فى أكثر البلاد التى تدين بالبوذية غير قانع بها ، وأن طبقة المثقفين على وجه الخصوص تنظر إلى طقوس البوذية بشىء من السخرية . ويراها أكثرهم تاريخاً يصعب أن يعيش فى الحاضر وأن يجارى مقتضيات الحياة الحديثة ، وقد نتج عن ذلك الشعور فراغٌ فى نفوس المثقفين فى هذه البلاد ، وتحاول المسيحية جاهدة أن تملأ هذا الفراغ ، وأن تجذب لها هؤلاء المترددين ، وفى سبيل ذلك تتبنى المسيحية بعض طقوس البوذية واحتفالاتها حتى تَقْرُب من هؤلاء الشبان وحتى لا تبدو لهم شديدة البعد عما ألفوه ، وما شاهدوا عليه أهليهم وذويهم . ومما يساعد المسيحية فى نضالها هذا ما تغدقه دول الغرب على مراكز التبشير بالمسيحية من مال ومعدات ونفوذ .

ويقف الإسلام - للأسف - من هذا التحول موقفاً ضعيفاً . فليست هناك جهود على الإطلاق تبذل للتعريف بالإسلام ومحاولة نشره ، وأكثر المسلمين فى تلك البقاع ثقافتهم ضحلة ، ومواردهم ضئيلة ، وإمكانياتهم محدودة ، ولذلك لا يدخلون هذه المعمعة ويوشكون أن يقفوا منها موقفاً سلبياً ، وسأورد فيما يلى فقرات من تقرير رسمى كتبته آنذاك . وصفت به ما شاهدت بعينى ، ولعلى بذلك أثير الهمم لتدارك الأمر .

فى طريقى من أندونيسيا حيث كنت مديراً للمركز الثقافى العربى وأستاذاً بالجامعة تخلّفت بضعة أيام فى تايلاند ، وكنت أنزل فى أحد الفنادق الكبرى فى بانكوك ، ووزعت علينا إدارة الفندق كتاباً عن أهم معالم المدينة وأمكنتها الأثرية ؛ وأخذت أطالع الكتاب فوجدت بضع

صفحات خصصت للمعالم الدينية ، وأهمها معابد البوذية ثم مجموعة من الكنائس المسيحية ، وأخيراً مسجد واحد ، وجاء يوم الجمعة وأنا فى بانكوك فقررت أن أصلى الجمعة فى هذا المسجد رجاء أن أتعرف على أحوال المسلمين ، وذهبت إلى المسجد فوجدت المصلين قليلين ، وكان دخولى ملفتاً لأنظار البعض ، فقد أدركوا أنى غريب ، واتجه واحد منهم نحوى فألقيت عليه السلام ، فأدرك أننى مسلم جئت للصلاة فرحب بى ، وحاولت أن أكلمه بما أعرف من لغات ولكن الرجل أدرك أننى أعرف العربية فذهب وعاد ومعه رجل يعرف اللغة العربية إلى حد ما ، يحسن فهمها ولكن تعبيره بها ضعيف ، وتحدثنا بواسطة هذا الرجل .

سألنى من أنا ومن أين أتيت ، فأخبرته ، فوجدته يعرف اسمى ويستمع كثيراً لإذاعاتنا العربية من إندونيسيا . ورحب بى وطلب منى أن ألقى خطبة الجمعة ، وهو شىء لم أكن ألفْتُه من قبل ، ولكنى أعرفه على كل حال واستجبت لرغبته ، وتأخر وقتَ الصلاة قليلاً ليعلنوا أننى سأكون الخطيب ، ولإعداد مكبر للصوت مزدوج الالتقاط أتحدث أنا فى أحد فرعيه ويتحدث المترجم فى الثانى .

والتفَّ الناس حولى بعد الصلاة وتكلمنا طويلاً وزرت بيوت بعضهم وفرحوا بى فرحاً بالغاً وقالوا لى : ابق معنا هنا ننشر بك الإسلام ونهدى الحائرين ، وأجبتهم بأنى لا أضع الخطط وإنما أسير على خطة توضع لى ولا سبيل إلى تغييرها ، وكل ما أملكه هو أن أرفع أصواتكم لمن يضع الخطط بالقاهرة [1] .

وأعادونى إلى الفندق فى موكب حافل فى منتصف الثالثة ، ثم همس شاب فى أذنى بإنجليزية ركيكة : هل تحب أن ترى أعياد البوذية هذا المساء؟

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى كتاب «رحلة حياة» للمؤلف .

قلت : نعم ، وسألته ما أعياد البوذية التي يقصدها؟ فقال لي : إن أعياد البوذية تكاد تكون متصلة ، ولكن أهمها هو ما يجري في هذا الموسم ، أي موسم الفراغ ، فراغ الزراع من العمل لأن الوقت وقت جفاف ، وقد زرع الناس أرضهم في موسم الأمطار والعمل الآن بالمزارع قليل وموسم فراغ عند الطلاب فقد بدأت إجازة الصيف ، وفي هذا الموسم يدخل كثير من الناس أديار البوذية ومعابدها لقضاء ثلاثة شهور ، وهي عبادة لابد أن تحصل مرة على الأقل في العمر .

وفي الساعة الرابعة انطلقنا لنشهد هذه الأعياد ، وكل مجموعة من القرى تشترك في موكب منها ، وكنت أرى الموسيقى تدق في جميع الأرجاء والأغاني تنبعث من مكبرات الصوت في عدة نواح ، ورأيت موكباً بهيجاً يمشي في طريق عام فاندمجت فيه ، كان الناس به يحملون مظلات كبيرة ملونة مزركشة أشبه في حجمها بمظلات الشاطئ ، وكانت الموسيقى تصحب الركب ، وعلى دقات الموسيقى كان يشترك عدد كبير من الرجال والنساء في رقصات دينية منتظمة ، وبينما يسير الموكب في الطريق العام يخرج له من هذه الناحية ومن تلك جماعات أخرى بمظلاتها وموسيقاها وراقصيها فتنضم لهذا الموكب العام وتسير معه ، وكانت لحظات الالتقاء بين الموكب العام والمواكب الفرعية بديعة للغاية ، فالموسيقى تقرب دقاتها حتى تتلاقى ، ووفود الراقصين والراقصات من الجانبين يداعب بعضهم بعضاً في نشوة ظاهرة .

وسرت مع الركب حتى غايته بعد أن كبر جداً من كثرة ما تلقَّى من الجماعات المنضمة إليه من كل جانب ، وهناك في النهاية كانت وفود أخرى محتشدة وموسيقى تملأ الأصقاع ، وراقصون وراقصات يستقبلون الموكب الحافل ، ثم هدأت الموسيقى وهدأ الرقص قليلاً ، وتقدم مجموعة من الرجال لا يلبسون إلا ما يستر العورة فجلسوا على صف من الكراسي ،

وتقدم مجموعة من الحلاقين اجتمعوا لهذه الغاية وفى أيديهم أمواس حادة فحلقوا شعور هؤلاء الجالسين وكانت النساء تعاون الحلاقين بصب الماء ودلك الشعر بالصابون ، وبعد أن تمت الحلاقة دُهنَت رءوسهم بشىء أصفر ثم صُبَّ عليهم ماء للاستحمام ، وبعذ لك دخلوا حجرات خرجوا منها بعد فترة وهم يرتدون لباس المعبد ، وهو عبارة عن قماش أصفر فاقع اللون يلتفون به ، وبعد أن ينال الناس شيئاً من الطعام والشراب يستأنف الموكب سيره ليقدم هؤلاء إلى الأديار البوذية والمعابد .

تلك صورة سريعة لهذه الاحتفالات السنوية ، وقد حاولت أن أعيش فى أعماق هذا الموضوع لا فى ظاهره ، وساعدنى على ذلك الطلاب والطالبات الذين التفوا حولى وحاولوا أن يتحدثوا إلى بما يعرفون من لغة إنجليزية هزيلة وأشهد أنهم كانوا كراماً جداً معى ، واشترك الجميع فى تكريمى ، وقدموا لى ألواناً من المشروبات أخذت منها ما استطعت شربه ، ودارت محادثات طويلة بينى وبين الفتيان والفتيات حولى ، فقد كان واضحاً أن الذين يشتركون بنشاط فى الموسيقى والرقص هم من الشويخ أو من قليلى الثقافة ، وأن الذين يتقدمون لحلق رءوسهم كانوا من هذا النوع أيضاً ، وأما ذوو الثقافة فكانوا مثلى مشاهدين لا غير ، قلت لطالب : لماذا لا تتقدم لتحلق رأسك وتدخل الدير؟ وضج الجميع بالضحك ، وقلت لطالبة : لماذا لا ترقصين مع الراقصات؟ فضحك الجميع وأخذت زميلاتها يدفعنها إلى الرقص فى أشبه بالسخرية من الرقص والراقصات ومن الحلاقة والحالقين . وسألت طالبة أخرى : لماذا لا تدخلين المعبد؟ قالت : إن النساء لا يدخلن ، قلت لها : هل الدين للرجال والنساء أو للرجال فقط؟ ولم أتلق إجابة رشيدة ، ولكنى أدركت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجيل الجديد فى تلك البقاعِ غير قانع بالبوذية ، وأنه فى حيرة من أمره ، وأنه إن لم يعلن ثورته فهو يسرها ، وربما تجذبه الموسيقى والاحتفالات شأن كل الشبان فى العالم ، ولكنَ معالم الدين لا تجذبه وطقوسه لا ترضيه .

هل سيظل الجيل الجديد فى شكه وتردده؟ وإلى أى اتجاه سيتجه؟

لقد رأيت أن المسيحية الأوربية قد درست هذا الوضع ، ورأيتها تضع الشّباك لتصطاد هؤلاء ولتجذبهم إلى حوزتها ، بل رأيتها مسيحية يمكن أن نسميها المسيحية البوذية ، تتبنى بعض طقوس البوذية حتى لا يحس الناس بالفارق الكبير بين الدين الذى ألفوه وبين الدين المسيحى الذى يُدْعَون إليه ، ويجـذبهم ويفـتح لهم أبوابه ، رأيت الدعـاة يملأون كل مكان ، ورأيت الكنائس تنتشر ، ورأيت المستشفيات والمدارس المسيحية تجذب الناس ، ورأيت ملايين النسخ من الإنجيل باللغات المحلية توزع مجاناً بنشاط كبير ، ورأيت الصحف والمجلات والنشرات المسيحية معروضة هنا وهناك فى وضع جذاب وقد كتب فوقها «خذ نسخة مجاناً» ، وعلى العموم رأيت زحف المسيحية على هذه البقاع لتأخذ مكان البوذية ، يالله! لقد هالنى ذلك ، ولم يكن الوقت يتسع لى لأكافح لخدمة الإسلام ولم أكن مستعداً لهذه الجولة الطويلة ، وأقسم لقد انفرطت من عينى الدموع ، وأحسست أن عبئاً كبيراً يوضع على عاتقى ولم أجد وسيلة للتخلص منه إلا بكتابة هذه السطور لألقى العبء على من يستطيع حمله وتدبير أمره .

وليس هذا الوضع خاصاً بتلايلاند ، وإنما هو وضع شامل لدول شرقى آسيا ، إنك تراه فى أندونيسيا وبورما والملايا وسنغافورة والفيلبين مع اختلاف قليل أو كثير ، نجد قلوباً فارغة لم تستطع البوذية أن تحتفظ بها ولا استطاعت اللادينية أن تقنعها ، وهنا يسهل تقديم ديننا الحنيف ، ومن الواضح نتيجة لذلك أن نقرر أن جُلَّ رسالة الأزهر ، وجل رسالة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وشطراً كبيراً من رسالة وزارة التعليم العالى ووزارة التربية يجب أن يتجه إلى هناك إلى تلك البقاع حيث مئات الملايين الذين يقفون على مفترق الطرق ، فإذا جذبتهم المسيحية كل ذلك هزيمة لنا وأى هزيمة .

وهنا أسرع فأقرر أن هذه المشكلة ليست دينية فحسب ، إنها مشكلة سياسية ، فانحياز هذه البلاد إلى المسيحية الأوربية معناه فوز سياسى تسعى له أمريكا وأوربا جاهدتين ، فالمشاهد أن الإسلام ليس ديناً فقط ، وإنما هو عون سياسى واقتصادى لنا فى تلك البقاع ، لقد اعترفت أكثر دول العالم بإسرائيل وبقيت الدول الإسلامية باسم الإسلام تناضل الدولة الأثيمة وتزعزع أركانها ، ثم إن إسرائيل تسهم بنصيب كبير فى إبعاد الإسلام عن تلك البقاع ، فإبعاد الإسلام معناه دخول نفوذ إسرائيل وقوة الإسلام معناه هزيمة إسرائيل .

وهذا يسلمنا إلى حقيقة هامة هى حسن اختيار المبعوثين الذين يقومون بتأدية هذه الرسالة ، فيلزم أن نتذكر أننا نقدم الإسلام لغير المسلمين أى أن مبعوثينا لن يذهبوا ليعلموا الفقه والتفسير وأصول الفقه ، وإنما سيذهبون للتبشير بالإسلام ، وسيقفون وجها لوجه أمام أساتذة من الرهبان المتخصصين فى دراسة اللاهوت والذين لهم اطلاع واسع على جميع الأديان ومعرفة كبيرة بالدين الإسلامى ، ولن يقف هؤلاء صامتين أمام دعوة الإسلام ودعاة الإسلام وإنما سيبذلون كل الجهد للتغلب على الدعاة المسلمين ، فيجب أن يكون دعاتنا على معرفة واسعة بالفكر الإسلامى وبالديانة المسيحية كما علمها عيسى عليه السلام ، وكما تعلمها الكنائس الآن بعد أن أحدث بها بولس انقلاباً عظيماً فى معتقداتها وشعائرها . هذا بالإضافة إلى إجادة لغة أجنبية على الأقل لتكون وسيلة تقديم الدعوة للناس .

الكتب المقدسة لدى البوذية

يجدر بنا عند الكلام عن الكتب البوذية المقدسة أن نقرر أن البوذيين لا يدّعون أنها منزلة وإنما ينسبونها إلى بوذا ، وهى عندهم بمثابة كتب الحديث عند المسلمين ، وقد حفظ أتباع بوذا عنه أحاديثه وخطبه وأمثاله . ولكن بعد



وفاة بوذا ظهر الخلاف بين أتباعه كما ظهر الاختلاق لبعض الأحاديث ونسبتها للرسول ﷺ ، فعقد أتباعه مجلساً كبيراً فى «راجاجرها» سنة ٤٨٣ق . م ليزيلوا أسباب الخلاف وليقربوا أو يوحدوا الأتباع عن طريق تحديد ما قاله بوذا وأتباعه ، ولما احتشد القوم سألوا «كاسى أبا» Kasyapa أعلم مريدى بوذا أن يقرأ عليهم آراء المبارك عما وراء الطبيعة فقرأها عليهم فتلقوها ورووها عنه ، وسألوا «أوبالى» Upali وكان من أسَنّ المريدين الأحياء أن يتلو عليهم شريعة «النظام» فقرأها عليهم فتلقوها عنه ، ثم سألوا «آنندا» Ananda أحب المريدين عند بوذا أن يلقى عليهم ما سمعه من بوذا من حكايات وأمثال ومواعظ ففعل وتلقوها ورووها عنه [1] .

وظلت هذه الروايات محفوظة فى الصدور يتلقاها جيل عن جيل حتى عهد الملك آسوكا (٢٤٢ق . م) . وفى ذلك الحين كان قد ظهر فيها شىء من التحريف والاختلاق فى الرواية ، فخاف الزعماء والشيوخ على ضياع هذا التراث فاجتمعوا واستقر رأيهم على كتابة هذه المجموعات الثلاثة فكتبوها ، ويظهر أنهم وضعوا كل مجموعة فى سلة خاصة ليعلقوها بعيدة عن الضرر ومبالغةً فى تقديسها ولذلك سميت هذه المجموعات بالسلال الثلاث أو البيتكات (Pitakas) ، وتحوى السلة الأولى العقائد ولذلك سميت سلة العقائد أو (Abhi Dhamma Pitakas) . وتحوى السلة الثانية الشريعة ، ولذلك سميت سلة الشريعة أو (Vinaya Pitakas) . وتحوى السلة الثالثة الحكايات ولذلك سميت سلة الحكايات (Sutta Pitakas) . وهذه السلال الثلاث يقال لها القانون البالى . وهى تشمل البوذية القديمة بدون تحريف أو بتحريف قليل ، وهى لهذا أهم الكتب المقدسة البوذية [2] . وسميت هذه

---

(١) On the Buddhist Councils the reader is advised of see Buddha's Philosophy by G. F. Allen p. 28 .

(٢) Berry : Religions of the World p. 45 - 46 .

الروايات بالقانون البالى نسبة إلى اللغة البالية (Pali) التى دونت بهـا هذه الروايات .

دراسات مقارنة بين أديان الهند

قلنا فيما سبق إن أديان الهند تسير فى فلك واحد ، وإن الهندوسية هى الدين الأم ، وتتشعب منها الأديان الأخرى ، ثم تعود إليها غالباً فى صورة أو أخرى ، وهكذا تلتقى أديان الهند فى الاعتقاد بالكارما وإن اختلفت هذه الأديان فى تفسيرها ، وتلتقى تبعاً لذلك فى القول بالتناسخ ، وفى محاولة التخلص من تكرار المولد بقتل الرغبات والحرمان .

وأديان الهند تتجه للتشاؤم ،وتسعى كلها إلى الانطلاق أو النجاة أو النرفانا وليست مدلولات هذه بعيدة الاختلاف .

ويصف Wells [1] الارتباط بين أفكار بوذا وبين سواها من الأفكار الهندية بقوله : إن جوتاما لم يكن له أى علم ولا بصيرة بالتاريخ ، ولم يكن لديه شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة الكثيرة الجوانب فى انطلاقها فى أرجاء الزمان والفضاء ، كان ذهنه محصوراً فى دائرة فكرات عصره وقومه، وقد جمدت عقولهم حول فكرات التكرار الدائم المتواصل .

وأبرز ألوان الخلاف بين أديان الهند يتضح فى مسألة الطبقات ، فقد قررتها الهندوسية ووضعت حدوداً حاسمة تفصل كلا منها عن الأخرى ، ولم تقل بها الجينية ولا البوذية ، ولكن أياً منهما لم تستطع أن تتخلص من النظام الطبقى فى الحياة العملية .

ومن أوجه الخلاف كذلك مسألة الألوهية ، ففى الهندوسية مجموعة كبيرة من الآلهة ، وأنكرت الجينية الإله ، ورفضت البوذية الحديث عنه ،

---

(1). The Outline of History p. 492

ولكن هذه الهوة لم يطل عمرها ، فسرعان ما ألّه الجينيون مهاويرا والبوذيون بوذا ، واختلطت التماثيل والآلهة ، إذ وجد الجينيون أن التدليل على عدم الإله أصعب من التدليل على وجوده . ومما يتصل بالإله ما تقوله الجينية من عدم الاعتراف بوحدة الوجود ، ومن أنها ترى أن كل روح وحدة مستقلة خالدة ، وليس مصيرها أن تندمج فى روح عام ، بل ستبقى مستقلة خالدة ، وهى بذلك تخالف الهندوسية .

ولا تعترف البوذية بسلطان الكهنة ، ولا بقانون الويدا ، وتختلف البوذية عن الجينية فى أن الأولى تسى لإنقاذ المجموع ، والثانية لإنقاذ الفرد [١] .

ومن الواضح أن أديان الهند ـ فيما يتعلق بالإله وعلاقته بالكون والإنسان ـ تختلف عن الأديان السماوية ، فهذه ترى أن الكون والبشر وكل شئ مخلوق لله ، وهناك حد فاصل بين الخالق والمخلوق ، فليس الإنسان جزءاً من الله وليس الكون جزءاً من الله ، وهناك حد فاصل كذلك بين الإنسان والإنسان .

أديان الهند فى الميزان

أسطورة الكارما :

الكارما أو قانون الجزاء وما يترتب عليه من تناسخ للأرواح أو تكرار للمولد ، أهم المبادئ التى تعد محوراً للفكر الهندى ، ولا يكاد العقل يقبل مثل هذه الأسطورة ، وقد سبق أن أوردنا تردد بوذا فى الخوض فيها ، وقوله فى ذلك : هل تكلم ميت قط ؟

والعقل يقر أنه لابد من جزاء لما يرتكبه الإنسان من أخطاء ، ولكن الإسلام اتخذ طريقاً رائعاً حيال هذا الموضوع ، فجعل الجزاء يتم أحياناً فى

(١) Berry : Religions of the World p. 43 .

الدنيا وأحياناً فى الآخرة . وكان القرآن الكريم مرشداً للمسلمين إلى هذا الفكر قال تعالى :

- ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ .

- ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ .

- ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ .

- ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

ولكن الفكر الهندى اتجه اتجاهاً خاصاً لا يمكن التدليل عليه ولا فهمه ، وبخاصة بعد أن اضطر الفكر الهندى إلى تقرير أن الروح فى الحياة الجديدة مقطوعة تماماً عنها فى حيواتها السابقة فلا تعرف عنها شيئاً ، ومعنى هذا أن الروح تنعم أو تشقى دون أن تعرف أسباب النعيم أو الشقاء .

خرافة القول بالتناسخ :

ومما يؤخذ على الكهانة - سواء فى ذلك كهانة الوثنيين أو أهل الكتاب الذين سارت بهم تقاليد الجمود إلى حالة كحالة الوثنية ، فى تعليم الصور والتماثيل ، والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العباد - أنها تجعل المتدين قطعة من المعبد ، لا تتم على انفرادها ، ولا تتم لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه [1] ، والتناسخ يخلق وضعاً أعمق من ذلك فى عدم الاعتراف باستقلال الشخصية ما دام الإنسان حلقة من سلسلة مر بحلقاتها الكائن الحى .

ونرى أن التناسخ يعارض بوضوح نظام الطبقات الدقيق الذى تقول به الهندوسية ، فنظام الطبقات يحافظ على العرق والدم ، والتناسخ ينقل

---

(١) الأستاذ العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٠ .

الروح من طبقة إلى طبقة ، بل من إنسان إلى حيوان أحياناً . ولذلك اضطر بعضهم إلى القول بأن التناسخ يتم فى حدود الصفة التى عليها الإنسان ، فأرواح البراهمة تنقل إلى البراهمة وأرواح العبيد تنقل إلى عبيد وهكذا، ولكن ذلك يُفْقد التناسخ قيمته ، فالمقصود من التناسخ هو تحقيق الجزاء نظير خير أو شر ارتكبته الروح فى الحياة السابقة ولا يتم ذلك ما دام العبد سيبقى عبداً والسيد سيبقى سيداً .

والتناسخ يعارض كل الدراسات العلمية وعلم الأجناس حيث تُقرِّر أن الولد بعض أبويه واستمرار لهما ، إنه يماثلهما جسماً ويماثلهما روحاً ومواهب ، فهو يرث عن ذويه لون الجسم والعيون والشعر ، ويرث القامة والصحة والمرض . ويرث المواهب والأخلاق غالباً . ولذلك فالتناسخ شذوذ عن الفكر العلمى والطبيعى .

وإذا كان التناسخ للجزاء فماذا يقول الفكر الهندى عن الطفل الذى يموت عقب الولادة ؟ إن الروح به لم تستمتع ولم تعاقب . فليست ولادته إذاً وبعث روح شخص آخر به إلا عبثاً .

والتناسخ لا يفسر لنا الزيادة المطردة فى التعداد ، والهبوط الواسع أحياناً فى أثناء الحروب ، من أين تجيء الأرواح الجديدة ؟ وإلى أين تذهب أرواح القتلى فى الحروب حيث يكون المواليد أقل من الموتى .

والقول بالتناسخ تفكيك للأسرة وتصوير لها على أنها أشتات من الناس لا روابط بينها ، فكل فرد من أفرادها منحدر من فرد لا نعرفه ، وعلى ما فى هذا من الارتباك الاجتماعى ، فهو أيضاً يخالف الملاحظ غالباً من تقارب حظوظ أفراد الأسرة الواحدة مما يدل على صلاتها الأسرية لا على أنها أشتات كما يرى مبدأ التناسخ .

اضطراب الفكر الهندى فيما يتعلق بالإله :

وفيما يتعلق بالإله نجد الفكر الهندى يتراوح بين التعدد وبين الإنكار أو الإهمال . والعجيب أن موقف الجينيين والبوذيين من الاعتراف بالإله كان رد فعل لسوء تصرف طبقة من البراهمة واستبدادهم فخاف الجينيون والبوذيون أن تتكون عندهم طبقة لاهوتية كالبراهمة إن قالوا بالإله ، فأنكروه أو أهملوا الكلام عنه لهذا الغرض . وذلك موقف لا يُرْتضى . وقد ترتب على إنكارهم للإله أو إهمالهم الكلام عنه - كما سبق القول . أن ألّه الجينيون مهاويرا وألّه البوذيون بوذا . وامتلأت معابدهم بالآلهة .

وانحدر الفكر الهندى إلى عبادة الأوثان [1] ويعتبر علماء الأديان أن الوثنية نتيجة حتمية لإنكار الإله ، فكل دين يتبنى على إنكار الإله ينتهى بالفشل ، وسبب ذلك أن الناس مفطورون على الإيمان بالآلهة ، وهم دائماً يفكرون فيمن خلق السموات والأرض ومن يحيى ويميت ، فإذا خلت عقيدة من الإله بادر أتباعها فابتكروا الإله على النحو الذى يتفق مع ثقافتهم ومستواهم العقلى والعلمى .

انكــار العبــادات :

واستتبع إنكار الإله إنكار العبادات . فإذا لم يكن هناك إله ، فلمن تكون العبادة والتضرع والدعاء [2]؟ ولكن الدعاء شئ من طبيعة الإنسان أيضاً . ولذلك نجد أتباع بوذا يقترحون ألواناً من الصلوات والأدعية حتى أولئك الذين لا يقولون بألوهية بوذا . وقد رأيت منها مظهرين فى الشرق الأقصى أحدهما أن ينقشوا بعض ألفاظ لاهوتية على عجلات يديرها الهواء

---

(١) للتدليل على وجود الله ووحدانيته وصفاته يراجع كتاب الإسلام (الجزء الثالث من مقارنة الأديان) للمؤلف ص ٥٨ـ٩٨ .

(٢) . Berry : Religions of World p. 43

أو الماء ، وتدور العجلات وكلما ارتفعت الكلمات إلى أعلى ردد القوم هذه الكلمات فى تضرع وخشية . والمظهر الثانى ينتشر فى عيدهم المسمى «ويشُك Waigok» وهو يقام فى ليلة البدر التى تجىء فى شهر مايو من كل عام . ويحتفل به البوذيون بإندونيسيا فى المعبد البوذى الشهير «بروبودور» بالقرب من جوكجاكارتا . والبوذيون فى هذا العيد يحملون عيداناً من خشب رفيع يُشعلُ الكهنة أطرافها بالنار ، ويحركها البوذيون مقابل وجوههم وهم يتمتَمون بالأدعية والصلوات .

مفاسد البوذية فى رأى Wells :

وفى الحديث عن نقد البوذية نستعير من Wells عنواناً وضعه فى هذا المجال وهو «مفاسد البوذية» ومما قاله تحت هذا العنوان ما يلى [(١)] :

. . . وفيما عدا إصرار جوتاما على تحرِّى «الآراء الصائبة» وهو المبدأ الذى كان من السهل إغفاله ، لم يكن هناك أى تحريم فعال لممارسة الخرافات ، وإنهاض الأرواح ورفعها ، والتعازيم والسجود والعبادات الإضافية (النوافل) ومن ثمَّ سرت فى العقيدة منذ مراحلها الأولى إضافات وزيادات اطردت وتواصلت على مر الزمان ، فإن العقائد الجديدة التقطت معظم الأمراض المعيبة بالديانات الفاسدة التى حاولت أن تحل محلها ، فأخذت عنها الأصنام والمعابد والمذابح والمباخر .

أسطورة النرفانا والنجاة :

واستمراراً لنقد البوذية نقرر أو نكرر ما سبق أن أوردناه أن بوذا لم يوضح النرفانا ، وأن ما ذكره عنها يحيط به الغموض ، ثم إنه يقرر أن قليلين جداً هم الذين يبلغون النرفانا ، ومعنى هذا أن أغلبية البشر سيظلون فى ظلام وتخبط وحرمان .

---

(١) The Outline of History p. 475 .

الفكر الهندى والتشاؤم :

والبوذية - ككل المذاهب الهندية - ترى الحياة ظلاماً ، ونظرتُها حافلة بالتشاؤم واليأس ، فالعلم عندها كله سوء ، والرغبات شريرة ، ولا مكان للرغبات والأمانى الصالحة ، ومما ورد عن بوذا فى ذلك قوله : الكون بأجمعه ملتهب ، الكون بأجمعه محفوف بالدخان ، الكون بأجمعه تحيط به النار ، الكون بأجمعه مرتعد .

تردد البوذية فى قبول المرأة :

ويؤخذ على بوذا رفضه قبول النساء فى دينه ، ثم قبولهن بتردد وخوف ، وإشارته إلى خطرهن على النظام ، وإمكان إخراجهن منه ، وذلك كما ترى تفريق قاس بين الرجل والمرأة ، وحيلولة بين المرأة وهى الأم والزوجة والأخت والبنت وبين النور إن كانت البوذية نوراً .

موافقة الأب ضرورة لقبول الأبناء :

وكان بوذا يقبل من يريد أن يدخل «النظام» ولو بدون رأى أبويه ، ولكن والد بوذا تضرع له بأنَّ أخذ الابن من أبيه عمل يُعَدُّ غاية فى القسوة ، ورجاه ألا يقبل الأبناء إلا إذا أذن لهم آباؤهم ، وقد استجاب بوذا لرغبة أبيه وقرر ضرورة الحصول على إذن الآباء لمن أراد دخول «النظام» من الأبناء ، وأعتقد أن الفكر السليم لا يقبل هذا ، ويلزم أن تكون أبواب الأديان مفتوحة لمن يريد أن يدخلها .

الإستجداء والمهانة :

وهناك النظم العجيبة التى فرضها بوذا على من يريد أن يدخل «النظام» وهذه النظم هى أن يفرض عليه التبتل ويحظر عليه أخذ الفضة والذهب ، وعليه ألا يأكل فى اليوم إلا وجبة واحدة فى الضحى ، ويحمل فى

يده طبق الإحسان أو «الكشكول» ينتقل به من بيت إلى آخر ليجمع قوت يومه ، وتروى الروايات أن بوذا عندما قدم لزيارة والده اتخذت المدينة أهبتها لاستقباله والتفّتْ حوله الجماهير ، وتزين القصر ، ولكن بوذا في وسط هذه المظاهر يرفع كشكوله ليجمع الصدقات ، وقد اغتاظ أبوه عندما عرف هذا ، وأرسل له يؤنبه ويذكره أنه من طبقة الكشتريا المالكة التي تكسب الثروات بالسيف والتي تمنح ولا تستجدى ، وقد أرسل بوذا لوالده من يقول له : أجل إنك من طبقة الكشتريا النبيلة ، ولكنى من طبقة أخرى ، أعرق فى المجد من سائر الطبقات ، إن ألوفاً مؤلفة من البوذيين يعيشون بالتسول وكذلك أفعل أنا .

وكذلك كانت زوجته بعد أن دخلت فى «النظام» تحمل الكشكول وتدور به لتجمع طعامها من الصدقات . وهل يمكن أن يعيش عالم على الاستجداء والصدقات ؟ وهل من الطبيعى أن نمتهن النفس هكذا ونعرضها لطلب الصدقة دون حاجة ؟ وقد عانى بوذا نفسه من ذلك شر عناء ، فطالما أهانه الناس ، وردُّوه دون عطاء . وقد دعت فكرة الاستجداء هذه بعض المفكرين إلى الاعتقاد بأن ما تعانيه البلدان التى سادها الفكر البوذى من كسل أو قلة سعى فى ميدان الحياة ، ومن ميل إلى القناعة والمسالمة ، ليس إلا نتيجة هذه العقيدة .

وأخيراً لقد امتهنت أديان الهند الجسم ، بل عذبته وحرمته الطعام والشراب والملاذ المباحة غالباً ، وعرضته الجينية للعرى وعوامل الجو القاسية ، وفكرت فيه أديان الهند على أنه جثة عفنة سريعة العطب والفناء ، وكان من الممكن أن تعتبره الهيكل الذى تعيش به الروح المقدسة .

موقفهم من الألوهية :

والباحثون الغربيون [1] يمتدحون فى البوذية أنها حررت الإنسان من الكهنوت والعقائد ووكلتهم إلى ضمائرهم ، فأطلقتهم من عقال التقاليد وشجعتهم على أن يقودوا أنفسهم دون اعتماد على قوى أخرى أو انقياد لما فوق الطبيعة . وإننا لنتساءل إلى أى مدى استطاع البوذيون أن يقودوا أنفسهم وأن يستغنوا عن الرائد والمعبود ، لقد نقلوا بوذا من معلم إلى رائد ثم إلى إله .

ويوضح Wells الفرق الكبير بين ما كانت عليه البوذية أو بين الفكرة التى دعا لها جوتاما وبين ما آلت إليه البوذية بقوله [2] .

هل بوذية اليوم هى بوذية جوتاما؟

والتبت اليوم قطر بوذى ، مع ذلك فلو أن جوتاما بعث من قبره حياً وذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثاً عن تعاليمه ما وجدها ، وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر ، وهو الملك الرب متوّجاً وممثلاً فى شخص الدالاى لاما (Dalai Lama) الذى هو البوذا الحى ، وسيجد فى لهاسا (Lhasa) معبداً فخماً غاصاً بالكهنة والرهبان واللامات ، وهو (أى جوتاما) الذى لم تكن مبانيه إلا الخصائص ، والذى لم يكن له أى كهنة ، وإنه ليشْهد فوق هيكل مرتفع صنماً ذهبياً ضخماً يحمل اسم (جوتاما بوذا) وإنه ليسمع صلوات تُرتَّل أمام ذلك الرب ، وتلعب الأجراس والبخور دورها فى هذه المراسم المدهشة .

---

(١) انظر : . Rerry : Religions of the World p. 43

(٢) . The Outline of History p. 292 - 493

التعصب الآرى :

ويدرك العلامة الأستاذ العقاد تحمس الباحثين الغربيين للبوذية فيذكر علته ويفنده بقوله [1] :

وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية ، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية ، على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين ، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء ، وزعموا أنها «جرأة العقل الكبرى» فى مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المقتحمة التى لم يذهب وراءها ذو عقيدة فى مطاوح التأمل والإقدام . لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف ، فما هى إلا جرأة حسية فى أقسى ما تطوّحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذية كلها إلا تململا من وطأة الحس والجسد ، وما سعادتها القصوى إلا ضيقاً بالحس وهرباً منه إلى الفناء أو اللاوعى على أحسن تقدير .

فالبوذية فتح فى ميدان التصوف أو ميدان «الوجدانيات» والفضائل الخلقية ، ولكنها ليست بالفتح الجرئ فى معراج الوصول إلى الكمال ، كمال الإله .

ويصور الأستاذ العقاد العلاقة بين البرهمية والبوذية أجمل تصوير فى قوله :

فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية فى كل عقيدة من عقائد الأصول ، وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان ، فأخرجتها من حجابها المكنون ، فى المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين [2] .

---

(١) الله ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) الله ص ٨٠ .

أما مكان البوذية فى العقائد فيصوره هذا الباحث بقوله :

ولا تعتبر البوذية إضافة فى صميم العقائد الدينية ، بل إضافة فى آداب السلوك وفلسفة الحياة ، وإضافة فى عرض الآراء على يد غير المستأثرين بها قديماً من سدنة الهيكل والمحراب (١) .

وقبل أن ندع البوذية يجدر بنا أن تثبت ميزة كبيرة تنسب لها ، تلك هى التسامح ، فقد كانت البوذية تصل فى التسامح إلى حد كبير ، وكان بوذا يحذر أتباعه من التعصب المذهبى ، ويقرر لهم أن التعصب يُعْمى عن الحق ، وقد أرسل له مهاويرا مرة مريداً من مريديه ليناظره فى موضوع الكارما إذ كان لمهاويرا رأى فى الكارما يخالف رأى بوذا ، وجرت المناظرة فاقتنع مريد مهاويرا برأى بوذا ، وطلب أن ينضم إليه ، ولكن بوذا نصحه بأن يتريث ويفكر فى الأمر ، وعاد المريد يذكر أنه فكر وأنه عزم رأيه فى رغبته فى اتباع بوذا، ولكن بوذا طلب إليه أن يعود للتفكير والتدبر ، وفى المرة الثالثة نصح بوذا المريد أن يستمر على تبعيته لأستاذه القديم ، وصور له كم سيكون صعباً عليه أن يَعْلم بهذا التحول وبخاصة فى هذه المناسبة (٢) ، ويربط البوذية بين تسامح الملك آسوكا وبين دخوله البوذية ، ويرون أن الانقلاب فى حياته من حب للقهر إلى ميل للسلام كان من نتائج دخوله البوذية (٣) .

البوذية مصدر مهم من مصادر المسيحية

ذكرنا فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة عن المسيحية الحالية أنها اقتبست كثيراً من عناصرها المهمة من مصادر بوذية ، وقد كتب Thomas Edward كتاباً عن هذا الموضوع (٤) أورد فيه المؤلف مقارنة دقيقة تبين تأثير البوذية فى

---

(١) المرجع السابق .

(٢) Buddhism Ed. Richard Card pp. 6 - 7 .

(٣) المرجع السابق .

(٤) The Life of Buddha as Legend and History .

المسيحية ، وأورد للتدليل على ذلك نصوصاً من الكتب البوذية المقدسة ونصوصاً أخرى من الأناجيل ، وبيَّن كيف انتقلت الأفكار من البوذية إلى المسيحية ؛ بل أوضح المؤلف أن طريقة الصياغة أيضاً تكان تكون واحدة وهذا يجعل دراسة البوذية مهمة فى تاريخ مقارنة الأديان .

وقد اقتبسنا من هذا الكتاب كثيراً من الأفكار التى نقلت من البوذية للمسيحية ، ويمكن للقارئ أن يجدها فى كتابنا «المسيحية» وهو الجزء الثانى من سلسلة «مقارنة الأديان» .

قضيــة الألوهيــة

«نموذج للمقارنة بين قضايا الأديان»

مقدمة :

طرق البحث فى مقارنة الأديان

دراسة مقارنة الأديان لها طريقان :

١ ـ الطريق الأول أن تكون المباحث الكبرى بالأديان هى عناوين الدراسات ؛ كأن نكتب كتاباً عن «الله» ، وندرس به مختلف الاتجاهات عن الإله ، ونكتب كتاباً آخر عن «النبوة» وثالثاً عن «الكتب المقدسة» . . . وهكذا . . . وقد سار على هذا المنوال بعض الباحثين مثل Max Mueller فى كتابه Essy on Comparative Mythology ومثل الأستاذ العقاد فى كتابه «الله» .

ولكن يؤخذ على هذه الطريقة بعض مآخذ أهمها :

أولاً : أن مباحث الأديان ليست متشابهة ، فمثلاً :

ـ تاريخ اليهودية له أثر كبير فى عقيدتهم ، ومن ثمَّ وجب أن يكون مبحثاً مهماً عند دراسة «اليهودية» ولكن التاريخ الإسلامى ليس ذا أثر فى العقيدة الإسلامية ، ومن ثمَّ فليس ضرورياً أن يكون ضمن مباحث كتاب عن «الإسلام» .

ـ لم يتكلم بوذا على الإله ، ولكن محمداً تكلم عنه وأفاض .

ـ فى البوذية موضوع النرفانا ، وفى الجينية موضوع النجاة ، وليس فى الأديان السماوية ما يماثل هذه المباحث .

ـ فى أديان الهند موضوع التناسخ ، وليست كذلك الأديان السماوية .

ـ يهتم الإسلام بالتشريع ، ولا تهتم المسيحية به .

وإذا لم تتشابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة ، وكانت المباحث التى

توجد فى دين واحد من الأديان قلقة الموضوع فى هذه الدراسة ، إذ لا توجد مقارنة بين الأديان عنها .

ثانياً : دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو لا تعطى فكرة متكاملة عن كل دين ، إذ سترِدُ مباحث كل دين متناثرة هنا وهناك .

على أن دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو ينبغى أن تجئ بعد دراسة الأديان نفسها ، فإن طبيعة المقارنة يجب أن تجئ بعد استيعاب الأصل ؛ ففى الأدب المقارن يلزم أن ندرس الآداب المختلفة ثم نقارن بينها ، وفى الفقه المقارن يلزم أن ندرس التشريعات المختلفة ثم نقارن بينها ، وفى مقارنة الأديان يلزم أن ندرس الأديان ثم نعقد المقارنة بين مباحثها .

ويمكن القول إنه ـ بسبب هذه المآخذ ـ لم يسر أحد إلى آخر الشوط فى دراسة مقارنة الأديان متبعاً هذا الطريق .

٢ـ الطريق الثانى : هو أن يُخَصَّص كتاب لكل دين ، تُدْرس فيه مباحثه العقائدية والتشريعية المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال ، وهذا الطريق هو الذى يسير عليه أغلب الكتَّاب ، وهو ما اتبعتُه فى «سلسلة مقارنة الأديان» وبه نتحاشى المآخذ التى سبق أن أوردناها على الطريق الأول .

ونحن بعد أن استكملنا دراستنا طبقاً للطريق الثانى نجدنا فى وَضْع يجعل من اليسير علينا أن نقتبس بعض ما كتبناه عن مبحث من أهم مباحث الأديان وهو «قضية الألوهية» ونضع ما اقتبسناه بعضه بجانب بعض حتى تتكوَّن لنا صورة واضحة للاتجاهات حول هذه القضية التى هى أساس الأديان ، وبهذا نكون قد عرضنا الطريقين معاً فى هذه القضية كنموذج لدراسة القضايا الدينية الأخرى دراسة مقارنة ، وقد خصصنا «قضية الألوهية» بهذه الدراسة لأنها قمة المشكلات الدينية ، وعلى هَدْى دراستنا

فيها يمكن للقارئ أن يكوّن فكرة عن المقارنة بين كثير من قضايا الأديان التى احتوتها هذه السلسلة .

ونقطة أخرى يتحتم عرضها فى هذه المقدمة ، هى أننا فى دراستنا لمقارنة الأديان اهتممنا بالأديان السماوية لأن صراعاً عنيفاً يدور بينها ، وكان من الطبيعى أن يكون بينها وئام ، فأردنا أن نتعرف على ألوان الانحرافات التى وَضَعتْ الشقاق مكان الوفاق ، والكراهية مكان الحب ، أما اهتمامنا بأديان الهند فيرجع لسببين :

أولهما : أن أديان الهند كانت معيناً تسربت منه ألوان من الأفكار فوجدت طريقها بين معتقدات المسحيين والمسلمين ، فالشعار المسيحى «تثليث فى وحدة ووحدة فى تثليث» منحدر من الهندوسية ، وكانت البوذية أهم مصدر اقتبست منه المسيحية كثيراً من مبادئها كما ذكرنا آنفاً ، وقال بعض المسلمين بالتناسخ ووحدة الوجود تأثراً بثقافة الهند .

والسبب الثانى : أن البوذية تعتبر من أديان الدعوة ، أى من الأديان التى لها دعاة ينشرونها ويحاولون جذب الأتباع لها ، ومن هنا تدخل البوذية فى صراع مع الإسلام فى منطقة الشرق الأقصى ، ولابدّ من التعرف على عناصر هذا الصراع ليمكن تقدير نتائجه .

وفى ترتيب الأديان التى درسناها فى هذه السلسلة ابتدأنا بالأديان السماوية بترتيبها التاريخى ، لأنها الأصل فى هذه الدراسة ، ثم درسنا أديان الهند فى الجزء الرابع ، ولكنا فى عرضنا لقضية الألوهية سنبدأ بأديان الهند ، لأن منها تسربت بعض الأفكار - كما قلنا - لمعتقدات المسيحيين وقلة من المسلمين .

وفى ضوء هذا التقديم نبدأ عرض قضية الألوهية :



الله فى الفكر الهندوسى :

يتجه الفكر الهندوسى فيما يختص بالإله إلى نزعة التعدد غالباً ، وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغاً كبيراً ، فقد كان عندهم لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعبدونه ويستنصرون به فى الشدائد كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها ، وكانوا يدْعون تلك الآلهة لتبارك لهم فى ذريتهم وأموالهم من المواشى والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم .

ويقول غوستاف لوبون : وهيهات أن تجد هندوسياً لا يعبد عدداً من الآلهة ، فالعالم عنده زاخر بها حتى أنه يصلى للنمر الذى يفترس أنعامه ، وللجسر الخط الحديدى الذى يصنعه الأوربى ، وللأوربى نفسه عند الاقتضاء [1] .

ولكن بعض الهنود فى وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحياناً للتوحيد أو اتجاه قريب منه ، فقد كانوا إذا دَعَوْا إلهاً من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان ، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجلِّ ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والأرباب [2] ، ويصير إلههم هو ذلك الإله لا غير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية ، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الآلهة ، تعظيماً وإجلالاً لا تحقيقاً وإيقاناً ، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموا مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة ، فهذا التعبير «رب الأرباب أو إله الآلهة» كان أولاً يدل على العظمة والجلال ، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلاً أن فى صف الآلهة رئيساً ومرءوسين وآمراً ومأمورين ، وأن الرئيس والآمر هو

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣٦٨ .

(٢) Hinduism, Ed. by Lowis Renou p. 6 .

وحده رب الأرباب وإله الآلهة ، وهذا وصف ثابت له لا ينتقل إلى سواه والكائنات كلها تحت يده وسائر الآلهة تحت أمره [1] .

التثليث فى الفكر الهندى :

وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود إلى رأى تشبهه عقيدة التثليث الحالية عند المسيحين ، فقد جمعوا الآلهة فى إله واحد، وقالوا : إنه هو الذى أخرج العالم من ذاته ، وهو الذى يحفظه إلى أن يهلكه ويرده إليه ، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو براهما من حيث هو مُوجد ، وهو فشنو من حيث هو حافظ ، وهو سيفا من حيث هو مهلك [2] وفتحَ الكهنة الهنودُ البابَ للمسيحيين فيما يسمى : تثليث فى وحدة وَوحدة فى تثليث .

عبادة البقر :

ومن بين المعبودات المتعددة عند الهنود حظيت البقرة بأسمى مكانة ، وهى من المعبودات الهندية التى لم تضعف قداستها مع كر السنين وتوالى القرون ، ففى الويدا حديث عن قداستها والصلاة لها ، ولا تزال البقرة حتى الآن تستمتع بهذه القدسية ، ففى الأدب المنسوب للمهاتما غاندى تفسير لما حظيت به البقرة قديماً وحديثاً من نفوذ دينى ، وفى عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة Bhavan's Journal التى تصدر فى بومباى بالهند عدة مقالات عن عبادة البقرة ، وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات وأول ما نقتبسه نشيد من «ساما ويدا» [3] نشرته المجلة فى صفحة مستقلة ، داخل رسم تخطيطى للبقرة [4] والترجمة العربية للنشيد هى :

---

(١) محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة .

(٢) دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ص ١٢ .

(٣) قسم من أقسام الويدا وهو كتاب الهندوس المقدس .

(٤) انظره بهذا الكتاب ص٣٠ .

صلاة إلى البقرة :

أيتها البقرة المقدسة ، لك التمجيد والدعاء ، فى كل مظهر تظهرين به ؛ أنثى تدرِّين اللبن فى الفجر وعند الغسق ، أو عجلاً صغيراً ، أو ثوراً كبيراً ، فلنُعِدَّ لك مكاناً واسعاً نظيفاً يليق بك ، وماء نقياً تشربينه ، لعلك تنعمين هنا بالسعادة .

أما رأى مهاتما غاندى فى عبادة البقرة فقد أثبَته مفصلاً فى المجلة السابقة واقتبسناه فى كتابنا هذا عن «أديان الهند الكبرى» (1) . وفيما يلى لمحات منه :

عندما أرى بقرة لا أعدنى أرى حيواناً ، لأنى أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع . . . وإن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال ، وأنا أعُدُّ نفسى واحداً من هؤلاء الملايين .

الله فى الفكر الجينى :

كانت الجينية نوعاً من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة ، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة ، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يعدون أنفسهم صلة بين الناس والآلهة ، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ، ومن هنا سمى هذا الدين دين إلحاد .

غير أن العقل البشرى يميل إلى الاعتراف بإله ، ويحتاج الإلحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التى يحتاجها إثبات الآلهة ، ومن هنا وُجد فراغ كبير فى الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يُكْمل به صورة الدين الذى دعا إليه ، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلهاً ، بل عدوا الجيناوات الأربعة

---

(1) ص ٣٦ .

والعشرين آلهة ولعلهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندى الذى يميل فى الأكثر إلى تعدد الآلهة .

الله فى الفكر البوذى :

لم يُعْنَ بوذا بالحديث عن الإله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً ، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية ، وما وراء الطبيعة ، وما يتحدث عن القضايا الدقيقة فى الكون ، وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا فى هذه الأبحاث ويوبخهم على سؤالهم عن مثل هذه القضايا .

ولكن بوذا اتجه أحياناً إلى جانب الإنكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الإثبات فقد وقف فى إحدى خطبه يسخر ممن يقولون بوجود الإله ، وكان مما قاله فى ذلك : إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله ، ولم يروه وجهاً لوجه، كالعاشق الذى يذوب كمداً وهو لا يعرف من هى حبيبته ، أو كالذى يبنى السلم وهو لا يدرى أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهراً فينادى الشاطئ الآخر ليقدم له [1] .

وَمن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحياناً اتجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الإلحاد .

والإيمان بإله ، اتجاه نفسى قوى لا يقل عن قوة الغرائز فى البشر ، وإهمال هذا الاتجاه يحدث ارتباكاً واضطراباً ، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون فى الإله ، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه ، ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خالياً ؛ فقد لعبت بهم الأهواء فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس إنساناً محضاً ، بل إن روح الله حلت به ، وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التى يعتنقها بعض المسيحيين فى السيد المسيح ،

---

(١) العلامة رادها كرشنن (انظر أديان الهند ص ١٧٢) .

فيقولون إن شخصيته ثنائية : لاهوتية وناسوتية ، وإن الشخصية اللاهوتية حلت بالناسوت ، وتسربت هذه العقيدة أيضاً إلى «مدعى التشيع» فقالوا بها فيما يتعلق بعلى بن أبى طالب ، وعاقبهم رضى الله عنه بما يستحقون ، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتى هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور (١) . وقد تسربت هذه العقيدة كذلك لبعض الطوائف المسيحية .

الله عند اليهود :

لم يستطع بنو إسرائيل فى أية فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذى دعا له الأنبياء ، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحاً فى جميع مراحل تاريخهم ، وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم ، وتعد كثرة أنبيائهم دليلاً على تجدد الشرك فيهم ، وبالتالى تجدد الحاجة إلى أنبياء يجددون الدعوة إلى التوحيد ، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أى حال فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح ، والأحجار ، وأحياناً مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التى كانت لها حضارة وفكر قلدهما اليهود . ويقول J. Shotwell : إن اليهود كانوا فى مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحَّلا تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين ، والاعتقاد فى الأرواح ، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار ، ويقول Reinach إن اليهود اتخذوا فى بيوتهم أصناماً صغيرة كانوا يعبدونها ويتنقلون بها من مكان إلى مكان (٢) ، وقد ظل بنو إسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى وخرج بهم من مصر .

---

(١) حامد عبد القادر : بوذا الأكبر ص ٦٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ .
(٢) History of Religions p. 178 .

ولكن بنى إسرائيل كما يقول ول ديورانت [1] لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا فى مصر ، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوى آكل العشب رمزاً لإلههم ، وتقرر التوراة قصة العجل الذى عمله لهم هارون فعبدوه بعد أن تأخر موسى فى العودة إليهم ، وكيف خلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب ، وقد أعدم موسى ثلاث آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن [2] ، وقد بقيت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى إسرائيل من حين إلى حين ، فقد عمل يربعام بن سليمان عجلى ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل [3] ، وقد عَبَد أهاب ملك بنى إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد [4] .

وهكذا كان اتجاه اليهود مادياً فى الغالب ولم تجدْ الاتجاهات الروحية عندهم أرضاً خصبة فى أكثر الأوقات ، وقد عبّرتَ يائيل ديان ابنة القائد العسكرى موشى ديان عن ذلك بقولها على لسان أحد أبطال روايتها «طوبى للخائفين» ما يلى :

أيام زمان حين كنا يهودا فى روسيا وَغيرها كان من الضرورى بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات ، ونحافظ على ديننا ، فقد كان الدين اليهودى لنا وسيلتنا لنتعاون ونتعاطف وَنزود عنا الردى ، أما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم ، هو الأرض ، أنت الآن إسرائيلى ، ولست مجرد يهودى . إنى قد تركت فى روسيا كل شيء ملابسى وَمتاعى وآقاربى وَإلهى ، وَعثرت هنا على رب جديد . هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وَزهر البرتقال [5] .

---

(١) قصة الحضارة جـ٢ ص ٣٣٨ .

(٢) خروج ٣٢ : ١٨ ـ ٢٨ والقرآن الكريم يقرر أن السامرى هو الذى صنع العجل .

(٣) الملوك الأول ١٢ : ٢٦ ـ ٢٨ .

(٤) وول ديوارنت جـ ٢ ص ٣٣ .

(٥) يائيل ديان : طوبى للخائفين «انظر القصة كاملة بكتاب اليهودية ص ١٧٦ ، ١٧٧» .

الله فى التفكير المسيحى :

عندما نصل إلى الحديث عن الله فى التفكير المسيحى نحتاج إلى مزيد من الصبر لنرى التحول الخطير الذى أصاب الفكر المسيحى فى هذه القضية الهامة :

تقرر الأناجيل المسيحية وأعمال الرسل ثلاثة قضايا مهمة :

أولاها : أن الله واحد لا شريك له .

والثانية : أن عيسى رسول الله وليس أكثر من رسول .

والثالثة : أن عيسى رسول لبنى إسرائيل فقط .

وعن القضية الأولى نورد النصوص التالية من هذه الأناجيل :

- يروى متى عن عيسى قوله : « إن أباكم واحد الذى فى السموات » [إصحاح ٢٣ الفقرة ٨] .

- ويروى مرقص قول عيسى : « الرب إلهنا إله واحد وليس آخر سواه » [١٢ : ٣٠ ، ٣١] .

- ويروى يوحنا عن عيسى قوله : « إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» [٣٠ : ١٨] .

وعن القضية الثانية نورد من الأناجيل النصوص التالية :

- جاء فى إنجيل متى قوله : « هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل» [٢١ : ١١]

- وجاء فى لوقا : « قد خرج فينا نبى عظيم » [٧ : ١٩]

- ويروى يوحنا : « إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم » [٦ : ١٤ و ٧: ٤٠]



ـ ويروى يوحنا كذلك عن عيسى قوله : «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله » [٨ : ٤٠] .

ـ ويروى لوقا عن عيسى قوله عندما أحَسَّ بقرب نهايته بسبب مؤامرات اليهود عليه .

وينبغى أن أسير اليوم وغداً وما يليه ، لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارج أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين .

وعن القضية الثالثة نورد النصوص التالية :

ـ جاء فى متَّى ما نصه : ثم خرج يسوع من هنالك ، وانصرف إلى نواحى صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود ابنتى مجنونة جداً ، فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة [متى ١٥ : ٢١ـ٢٤]

ـ وفى متى كذلك أن عيسى عندما حدَّد الحواريين الاثنى عشر أوصاهم قائلاً : إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة [متى ١٠ : ٥ ، ٦]

وقد خاصم اليهود بطرس لأنه دخل على غير اليهود وتكلم معهم [أعمال الرسل ١١ الفقرة الأولى] .

وورد فى عبارات بطرس قوله لغير اليهود : أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى أو يأتى إليه

[أعمال الرسل ١٠ : ٢٨]

والقرآن الكريم يقرر هذه الاتجاهات الثلاثة فى المسيحية ، قال تعالى :

- ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾

[سورة المائدة الآية ٧٢]

- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

[سورة المائدة الآية ٧٣]

- ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

[سورة المائدة آية ٧٥]

- ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة المائدة آية ١١٧]

- ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

[سورة آل عمران الآيتان ٤٨ ، ٤٩]

ومن أجل هذا كان نقل المسيحية من الوحدانية إلى التثليث ، ونقل عيسى من رسول إلى إله ، والقول بأن المسيحية رسالة عامة ، والقول بأن عيسى هو ابن الله نزل ليضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر ، وأنه عاد مرة أخرى إلى السماء ليجلس على يمين أبيه ، كان هذا كله عملاً جديداً على المسيحية التى جاء بها عيسى . كيف انتقلت المسيحية من حال إلى حال؟ ومن الذى قام بذلك؟ ومتى؟

هذا ما سنحاول إبرازه فيما يلى :

ترتبط هذه الأمور بشخصية مهمة فى المسيحية ، هى شخصية شاءول (بولس) ، ولذلك يرى الباحثون الغربيون أن المسيحية الحالية بهذه العناصر الجديدة هى من صنع هذا الرجل ، ويقول Berry (١) : إن بولس هو فى

(١) انظر : رأى Rerry فى كتاب «المسيحية» ص ٦٩ وما بعدها وبخاصة ص ٧٣ .

الحقيقة مؤسس المسيحية ، ويقول Wells [1] إن كثيراً من الثقات العصريين يعدونه المؤسس الحقيقى للمسيحية .

وبولس هو كما يقول عن نفسه «يهودى فريسى ابن فريسى على رجاء قيامة الأموات» [أعمال الرسل ٢٣ : ٦] وكان عدواً للمسيحيين ، وفى ذلك يقول : « سمعتم بسيرتى قبلا فى الديانة اليهودية ، إنى كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها ، وكنت أتقدم فى الديانة اليهودية على كثيرين من أترابى فى جنسى ، إذ كنت أوْفَرَ غَيْرَةً فى تقليدات آبائى» [غلاطية ١ : ٢٣-١٤] .

ويبدو أنه كان من وسائل بولس لتدمير المسيحية أن يحطم معتقداتها واتجاهاتها المقدسة ، ووضع لذلك طريقة تكفل له الوقوف فى وجه معارضيه عندما يظهر بأفكاره الجديدة ، فادعى شاءول أن السيد المسيح - بعد نهايته على الأرض - ظهر له وصاح فيه وهو فى طريقه إلى دمشق قائلاً : لماذا تضطهدنى؟ فخاف شاءول وصرخ : من أنت يا سيد؟ قال : أنا يسوع الذى تضطهده . قال شاءول : ماذا تريد أن أفعل ؟ قال يسوع : قم وكرز بالمسيحية .

ويقول لوقا فى ختام هذه القصة جملةً ذات بال غيرت وجه التاريخ هى : «وللوقت جعل يكرِّز فى المجامع بالمسيح أنه ابن الله» [أعمال ٩ : ٣-٢٠] . ومن الملاحظ أن جملة «أنه ابن الله» هى من صنع بولس ، ولم ترد على لسان المسيح فى اللقاء المزعوم .

وهكذا وضع بولس لنفسه سياجاً يحتمى به لأنه كان يدرك أن معارضة قوية ستهب فى وجهه وتنكر هذه المعتقدات الجديدة التى جاء بها ، وهى القول بتعدد الآلهة وأن عيسى ابن الله نزل ليضحى بنفسه للتفكير عن خطيئة

(١) Outline of History vol. 3 p. 695 .

البشر ، وأنه عاد مرة أخرى إلى السماء ليجلس على يمين أبيه ، فأعلن أنه تلقى المعتقدات الجديدة من عيسى مباشرة ، وأنه الوحيد الذى أؤتمن عليها وفى ذلك يقول : وأعرفكم أيها الإخوة ، الإنجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته ، بل بإعلان يسوع المسيح [غلاطية ١ : ١١-١٢] ويقول كذلك عن نفسه إنه الوحيد الذى أؤتمن على المسيحية الصحيحة [تيطس ١ : ٣] وعلى إنجيل مجد الله المبارك [تيموثاوس الأولى ١ : ١١] .

وقد عارضه الحواريون معارضة شديدة ، وهبوا فى وجهه يصارعونه فى عناد طويل مرير ، وحققوا عليه كل نصر ، فانفض الناس من حوله تماماً، ولم يبق معه إلا قلة قليلة جداً ، وهو يقرر ذلك بقوله :

- أنت تعلم أن جميع الذين فى آسيا ارتدوا عنى [تيموثاوس الثانية ١ : ١٥] .

- بادر أن تجئ إلى سريعاً لأن ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تسالونيكى ، وكريستكيس إلى غلاطية وتيطس إلى دلماطية ، لوقا وحده معى ، إسكندر النحاس أظهر لى شروراً كثيرة ليجازه الرب حسب أعماله ، فاحتفظ منه أنت أيضاً ، لأنه قاوم أقوالنا جداً ، فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى ، بل الجميع تركونى

[تيموثاوس الثانية ٤ : ٩-١٦]

وراح بولس يهاجم معارضيه مهاجمة قاسية ، ويصفهم بأنهم انحرفوا إلى كلام باطل ، وأنهم يميلون للحقد وللحسد ، ويتجهون للباطل والرياء والعلم الكاذب والمباحثات الغبية السخيفة . .

[تيموثاوس الأولى الإصحاح الأول والسادس]

ولم تَجدْ أفكار بولس أرضا خصبة فى آسيا ، كما اقتبسنا من كلامه آنفاً ، فلماَ عبرت هذه الأفكار إلى مصر وإلى أوربا وجدت هناك أرضاً خصبة ، فالتثليث ونزول الإله من السماء تضحية بنفسه وتكفيراً عن خطيئة البشر ، وصعوده إلى السماء مرة أخرى ، كل هذا له جذور قديمة فى العقائد المصرية القديمة وفى الخرافات الأوربية ، ولم يكن التوحيد عميق الجذور بأوربا [1] ويقول الدكتور سامى جبرة [2] إن عقيدة الثالوث ترجع إلى أكثر من خمسة عشر قرناً قبل مولد المسيح .

ومر الزمن جيلاً بعد جيل والمذهبان يعيشان ، فى آسيا تعيش المسيحية التى جاء بها عيسى ويعتنقها علماء المسيحية ، وكثيرون سواهم ، وفى أوربا تعيش آراء بولس ، حتى جاء القرن الرابع الميلادى وجاء عهد قسطنطين الذى تسامح مع المسيحية من جانب ، وأراد من جانب آخر أن يضع حداً لهذه الخلافات ، وأن يتعرف على الحقيقة ، فدعا لمؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ وحضره جلة العلماء المسيحيين من كل البقاع ومعهم الأسانيد التى يستندون عليها فى معتقداتهم ، وكان عدد الحاضرين ٢٠٤٨ ، وقد اتضح من أول لحظة أن الجمهرة العظمى من الحاضرين تدين بالمسيحية الحقيقة ، وكان معهم من الأناجيل ما يعضد آراءهم ، ولكن حاشية الامبراطور وهى أوربية لم تكن تعرف عن المسيحية إلا تلك المعلومات السائدة فى أوربا والتى كانت من تراث بولس ، ولذلك رأت هذه الحاشية أن اتجاه الجماهير من حاضرى المؤتمر يتعارض مع الاتجاه الرسمى ، ومع معلوماتهم عن المسيحية ، وعدوا ذلك انحرافاً ، وأثاروا الامبراطور الذى تبنى رأى صديقه الممثل الدينى للغرب ، وَهو كاهن روما ، فأصدر الامبراطور أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحِّدين ، ونفى الكثيرين وقتل العالم المصرى أريوس الذى

---

(١) رءوف حبيب : كنائس القاهرة القبطية ص ١ .
(٢) فى رحاب المعبود قوت ص ٢٤ .

كان يتخذ التوحيد عقيدة له ، ثم أمر بعقد المؤتمر من الأعضاء الذين يتخذون مذهب بولس أو من الخائفين ، والمترددين ، وكان عددهم ٣١٨ واتخذ هؤلاء قراراً بألوهية المسيح ، وكان هذا أساساً للمعتقدات الأخرى التى قال بها بولس ، واتخذ المؤتمر كذلك قراراً بتدمير كل الوثائق التى تخالف هذا الرأى ، وإنزال العقوبات الشديدة بمن يخفى تلك الوثائق ، وتبعا لذلك اختفت المسيحية الحقيقية رويداً رويداً واختفت الأناجيل الصحيحة ، وحلت المسيحية البولسية محل مسيحية عيسى .

وهكذا صنع هؤلاء الإله ، وأخفوا إنجيل عيسى ، والأناجيل الحقيقة التى أخذت عنه ، ولم يبقوا من المصادر المسيحية إلا ما يؤيد اتجاههم أو ما يقف موقفاً سلبياً ، ولعل ذلك يوضح قصة التفكير المسيحى فى قضية الألوهية .

الله فى الفكر الإسلامى :

إن حديثنا عن «الله فى الفكر المسيحى» تلخيص لدراسات واسعة ، ولكننا لا نحتاج عندما نتحدث عن «الله فى الفكر الإسلامى» إلى أى تلخيص لأن الموضوع واضح تمام الوضوح ولذلك فنحن نحيل القارئ إلى كتاب «الإسلام» من هذه السلسلة ليرى دراسة واضحة حول وجود الله ووحدانيته وصفاته ، وليتأكد أن محاولات الانحراف فى الإسلام باءت بالفشل .

نتيجة المقارنة :

إن المقارنة السابقة توضح حقيقتين مهمتين :

الحقيقة الأولى : أن جهود الانحراف اتجهت بكل قواها وشرورها إلى الله سبحانه وتعالى ، وحققت ـ للأسف ـ فى هذا المجال ما أرادته من نجاح ،

والقارئ يرى اتجاه التعدد فى الهندوسية وتأليه البقرة ، ويرى كذلك تأليه جينا وتأليه بوذا وتأليه العجل وتأليه السيد المسيح ، وقد اتجهت المحاولة كذلك للإسلام فقال قوم من مدعى التشيع بتأليه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وحاربها على نفسه [1] ، وحاربها بعده كل المسلمين ، فنجا الإسلام وحده من محاولات التحريف فى عقيدة الألوهية .

الحقيقة الثانية : أن الانحراف بالأديان هو الذى سبب الصراع بين معتنقيها ، ولو سارت الأديان سيرها الطبيعى كرسالات من عند الله دون تحريف لالتقت جميعاً فى أهدافها وفى كثير من وسائلها .

إن الدعوة التى ننادى بها هى أن نعود للحق ، وأن نخلّص معتقدات البشرية مما تسرب لها من أخطاء وما قادها للانحراف ، ليحل الوفاق محل الخلاف ، والوئام محل الصراع ، ونحن نعتقد أن العقيدة الصحيحة معروفة لكثيرين من قادة الأديان ، ولكن الاحتراف وحُبَّ الدنيا وزينتها يُزيّنان الباطل ويدفعان لتأييد الانحراف .

فاللهم اهدنا سواء السبيل

---

(١) انظر هذه المسألة فى «أديان الهند» ص ٩٨ ، ٩٩ .

ثبت المراجع

ملحوظتان :

١ـ المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته ، أما المصادر الأخرى التى أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة .

٢ـ الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه القائمة بنيت على الترتيب الأبجدى لاسم المؤلف الذى اشتهر به ، مع عدم اعتبار الملحقات (ابن ـ الـ) .

١ـ القرآن الكريم

من الكتب المقدسة لدى الهنود :

٢ـ الويـدا .

٣ـ مهابهاترا .

٤ـ كيتـا .

٥ـ يوجاواسستها .

٦ـ رامايـانـا .

٧ـ منودهر ماسسترا .

٨ـ لليـتاوشـنار .

٩ـ ويـدانـت .

١٠ـ الأساطير الهندية

١١ـ حقائق عن الهند

١٢ـ الهجرات الآرية

١٣ـ الهنـد والغرب .

١٤ـ هداة الإنسانية فى الشرق (دراسة لمجموعة من الباحثين) .

١٥ـ ثقافة الهند (أعداد كثيرة من هذه المجلة الحافلة بالأبحاث القيمة) .

١٦ـ دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم (تاريخ الفلسفة) .

١٧ـ بروفسور أتريا : ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية .

١٨ـ Yogawasistha and its Philosophy : Atreya

١٩ـ دكتور أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى (عشرة مجلدات) .

٢٠ـ دكتور أحمد شلبى : سلسلة مقارنة الأديان (الأجزاء الأخرى) .

٢١ـ دكتور أحمد شلبى : المجتمع ا لإسلامى .
٢٢ـ The History of Buddhist Thought : Edward Thomas
٢٣ـ The Life of Buddha as Legend : Edward Thomas and History
٢٤ـ Religions of the World : Berry
٢٥ـ Buddhism in China : Cbao pu Chu
٢٦ـ The Buddh's Philosophy : G. F. Allen
٢٧ـ حامد عبد القادر : بوذا الأكبر
٢٨ـ ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل
٢٩ـ حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى (ملخص عن الإنجليزية) .
٣٠ـ رءوف حبيب : كنائس القاهرة القبطية
٣١ـ Buddhism : (Ed.) Richard Card
٣٢ـ History of the Worle : Rene Sedillot
٣٣ـ سامى جبرة : فى رحاب المعبود (توت)
٣٤ـ عباس العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
٣٥ـ عباس العقاد : الله
٣٦ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد
٣٧ـ عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند
٣٨ـ غوستاف لوبون : حضارة الهند
٣٩ـ A. Popular History of Philosophy : Kaunitz
٤٠ـ Hinduism : (Ed.) Leuis Renou
٤١ـ محمد عامر الأنصارى : آسوكا الامبراطور الهندى العظيم
٤٢ـ محمد فاضل : الحراب فى صدر البهاء والباب .
٤٣ـ مولانا محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة .
٤٤ـ محمد على حافظ : الحياة فى رأى الأريين
٤٥ـ محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين
٤٦ـ محيى الدين الألوائى : الأدب الهندى المعاصر
٤٧ـ A. Short History of the World : H. G. Wells
٤٨ـ The Outline of History : H. G. Wells
٤٩ـ The Peoples and Religions of India : Weech and Rylands
٥٠ـ يوجى راما شاركا : فلسفة اليوجا

COMPARATIVE RELIGIONS

4

Creat Religions of India
Hionduism - Gainism - Buddhism

BY
AHMED SHALABY
B.A.(Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by:
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street,Cairo.



الدكتور أحمد شلبي

قى دراساتة فى الازهر و فى كليـة دار العلوم
معة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج.
الولايات المتحدة الامريكية كما زار اكثر دول اوروبا
سيا و افريقيا ، ومثل مصر فى عدة مؤتمرات دوليـة.
س مجموعة من اللغات الاجنبية ويجيد الانجليزية
لاندونيسية.
شتغل بالتدريس بجامعة القـاهرة حتى وصـل الى
رجـة استـاذ ورئيس قـسم التـاريخ الاسـلامى
الحضارة الاسلاميـة ، وقدحاضر۔ منتدبا وزائرا
ارا۔ فى جامعة الازهر، وعين شمس ، واندونيسيا ،
لسـودان ، ومـاليـزيا، والمملكة العربيـة السعـودية ،
يبا وفى معهد الدراسات الاسلامية، ومعـهد البحوث
الدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية .
زلفاتة تزيد عن خمسين كتابا واهم هذه المؤلفات ،
-موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة مجـلدات.
-موسوعة الحضارة الاسلاميـة فى عشـرة اجزاء.
-مقارنـة الاديـان فـى اربعـة اجـزاء.
-كيف تكتب بحثـا او رسـالة.
- المكتبـة الاسلاميـة لكل الاعمـار (١٠٠ جـزء من
السير والتاريخ وقصص القرآن للاولاد والشبـان
و السيدات و الرجال.)
ISLAM:BELIEF , LEGISLATION,MORA
HISTORY OF MUSLIM EDUCATIO
كتب بعض كتبـة بالانجليـزية و الانـدونيسيـة ،
و ترجمت اكثر مؤلفاتة الى الاوردية ، والتركيـة ،
والاندونيسية و الماليزية، و الفرنسية، و الفارسيـة.